المنظمة العربية  للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة
أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

حرف الباء

3

بابّاه - بكير

دار الجيل



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

حرف الباء / المجلد الثالث

دار الجيل

بترخيص من

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

الطبعة الأولى

1425هـ - 2005م



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تونس: القباضية الأصلية - ص.ب.: 1120

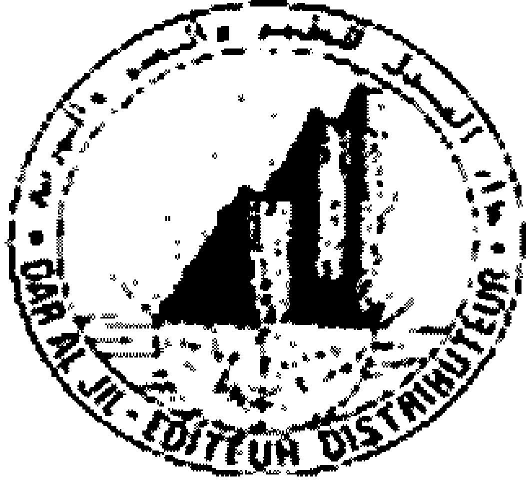
هاتف: 784466 - 0021671

فاكس: 782091 - 0021671

784965 - 0021671

E.mail: Alesco@Email.ati.tn

Website: www.alesco.net



دار الجيل

بيروت: البوشرية - شارع الفردوس - ص.ب.:

8737 (11) - برقياً دار جيلاب

هاتف: 52/ 51/ 689950 فاكس: 689953 (009611)

E.mail: daraljil@inco.com.lb.

Website: www.daraljil.com

القاهرة: هاتف: 5865659 فاكس: 5870852 (00202)

تونس: هاتف: 71922644 فاكس: 71923634 (00216)

هيئـــة التحـــريـــر

تُنجز هذه الموسوعة بالتشاور والتعاون
مع 70 جامعة علمية، عربية وإسلامية وعالمية، وبمشاركة
أكثر من 2000 عالم جامعي وخبير في مجالات تخصص الموسوعة،
يساهمون في التحرير والمراجعة وتقديم المشورة.



المجلد الثالث

بابّاه - بكير

بابّاه، محمد عالي بن فَتّى

(1316هـ/1896م - 1394هـ/1974م)

محمد عالي بن محمدُ بن فَتّى الغَلويّ الملقب «باباه»، فقيه بارع ولغوي ضليع وشاعر مكثر، مارس التدريس والإفتاء، ثم تولّى القضاء مَنصَبا من السلطات الرسمية خبيرا بفنّه، وكان معروفا بالتواضع الجمّ والبعد عن الحَيف والمحاباة.

ولد عام 1316هـ/ 1896م في نواحي قرية «اركيز» في منطقة القبلة بالجنوب الغربي الموريتانيّ، وتوفّي سنة 1394هـ/ 1974م غير بعيد من مسقط رأسه.

نشأ في بيت علم؛ فوالده محمدُ بن فتى عالمٌ متفنّن وشيخ محضرة وقاض معروف، وجدّه فَتى بن سيدينا من مشاهير العلماء والفقهاء. وفي هذا البيت تَربّى وتلقّى العلم عن والده وخاصة اللغة والنحو.

ثم تلقى العلم عن مشايخ آخرين، فأخذ الفقه عن محمذ فال بن أحمدُ فال التندغيّ (ت 1345هـ/ 1926م)، والأصول عن محمد فال (اباه) بن بابه (ت 1349هـ/ 1930م)، ومحمد الأمين بن بدّي (ت 1382هـ/ 1962م)، وأخذ النحو عن أحمد محمود بن أمين المباركيّ (ت 1347هـ/ 1928م)؛ كما تتلمذ لحامد بن مَحنْض بابه الدّيمانيّ (ت1363هـ/ 1943م)، والشيخ أحمدُ بن أحمذَيه الحَسنيّ.

تصدّر باباه للتدريس مبكرا ومارسه بموريتانيا والسينيغال، ولكن إقامته في السنغال كانت أكثر. واشتهر بالأدب شهرته بالفقه والقضاء؛ فقد كان أديبا قوي الشاعرية لا يفوته تخليد المناسبات الوطنية بدءا بالاستقلال ومرورا بما تلاه من كبريات الأحداث ببلاده، بل ربّما حمل همّ الوطن الأوسع وناصر قوميّته العربية ومدح زعيمها يومئذ جمال عبد الناصر، كما عكس شعره اتساع علاقاته بمعاصريه أدباء وعلماء، فاستحوذت الإخوانيات على شطر كبير منه.

كما اهتمّ بأحوال المجتمع فشارك في بعض الهيآت الرسمية الاستشارية التي كانت تتولّى النظر في مواءمة التشريعات الجنائية والمعاملات الاقتصادية مع مقتضيات الشريعة الإسلامية، ودَعا إلى الشورى وتماسُك المجتمع، ووجّه الشباب إلى نبْذ التيارات الوافدة الهدامة والتمسّك بدينه الإسلامي الحنيف..

رحل إلى دول عديدة في غرب إفريقيا مثل التوغو وغانا وداهومي، وأقام فترة طويلة من حياته بالسنغال حيث درّس وربط أوثق الصلات بآل نياصّ وآل أحمدُ بَنْبَه أبرز بيوتات المشيخة والعلم بهذا البلد الإفريقي المسلم. كما زار السعودية للحج، وأقام

بالمغرب سنتين صحب أثناءها أحمد سكيرج وأمضى معظم الوقت في مكتبته الغنية مطالعا، واتّصل كذلك بالشيخ المحدّث عبد الحي الكتاني الذي أجاز صاحبّنا بأسانيده في الحديث كما حاور العلماء ورجال الفكر وقارع الشعراء منافحا عن طريقته التجانية.

وقد كانت علاقاته وثيقة بعدد كبيرمن أعيان معاصريه، ومن أبرز هؤلاء الأديب المؤرّخ المختار بن حامد، ومحمد عبد الرحمن بن السالك، فقد تبادل الثلاثة أشعار الثناء والمداعبات الأدبية.

آثاره

لم يترك محمد عالي مصنفات كثيرة، ربما بسبب كثرة أسفاره وانشغاله بمهام التدريس والقضاء، ومع ذلك سجّل له مترجموه العناوين التالية:

1 ـ ما أساره التراخي من تراجم آبائي وأشياخي، وموضوعه يقرأ من عنوانه؛

2 ـ شرح على نظم مصطلح الحديث لمحمذن ابن محمذٍ فالّ التندغي الملقّب القاضي؛

3 ـ نظم في النوازل الفقهية؛ 4 ـ فتاوى فقهية وأنظام كثيرة في مواضيع شتّى؛

5 ـ ديوان شعر ضخم يقدر بنحو 4500 بيت، معظمه في الرثاء، يليه المديح ـ بما فيه المدح للأفراد والجماعات ـ ثم الإخوانيات، فالشعر الإصلاحي السياسيّ، والغزل والتهاني والفخر.

د. محمد محمود بن صذفه
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

البابرتي أكمل الدّين، محمد بن محمد

(710هـ/1310م ـ 786هـ/1384م)

أكمل الدين شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الرومي البابرتي الحنفي، ولد بعد عام 710هـ/ 1310م ببابرت قرب أرضروم الواقعة في شمال شرق تركيا في الوقت الحاضر على البحر الأسود، عرف ببراعته في الأصول والفقه والحديث واللغة والصرف، طلب العلم مبكرًا في بلاده ثم رحل جنوبًا إلى حلب الشهباء حيث أنزله القاضي ناصر الدين بن العديم في المدرسة الساذجية، فأقام بها مدة، ثم شدّ الرحال إلى القاهرة عاصمة العلم والعلماء في عهد سلاطين المماليك، الذين أكثروا من إنشاء المدارس ودور الحديث والقرآن الوقفية ورعوْا العلم والعلماء. وكان دخوله القاهرة بعد سنة 740هـ/ 1339م. أي أنه كان في الثلاثين من العمر تقريبًا، حيث تتلمذ على الشيخ شمس الدين الأصبهاني، والشيخ أبي حيان الأندلسي، وسمع الحديث من ابن عبد

الهادي والدلاصي [ابن حجر، أنباء الغمر، 1/ 298]، وأخذ الفقه الحنفي على الشيخ قوام الدين محمد بن محمد الكاكي عن حسام الدين حسين السغناقي النسفي عن أبيه عن أبي اليسر البزدوي، وينتهي سنده بأبي يوسف عن أبي حنيفة النعمان رحمه الله [اللكنوي، الفوائد البهية، ص195]، ويشير ابن حجر إلى أنه كان يتمتع بمنزلة كبيرة لدى السلطان الظاهر برقوق سلطان مصر والشام والحجاز واليمن المملوكي، ولدى الأمير شيخون الرجل القوي في دولته والذي عينه شيخًا على الخانقاء التي تحمل اسمه في القاهرة، فزاد في إيراد أوقافها وفي رواتب منتسبيها ؛ ومن المعروف عن الخانقاه أنها جمعت بين كونها مركزًا للعبادة ومدرسة لتعليم العلوم الشرعية إضافة إلى قيامها بخدمات السكن والأكل والشرب لمنتسبيها. وقد بلغ من حب الظاهر برقوق للبابرتي أنه كان ينتظره على باب الخانقاه إلى أن يخرج فيركب ويتحدث معه في الطريق، وهذا ما جعل أصحاب المناصب والحاجات على بابه. وقد رفض تولّي القضاء مرارًا تورّعًا.

وعندما شاعت أخبار نبوغه ورسوخه في العلم تقاطر عليه الطلبة، وأخذوا عنه، وكان من أبرزهم كما يشير اللكنوي، السيد الشريف أبو الحسن الجرجاني، وشمس الدين محمد بن حمزة الفناري، وبدر الدين محمود بن إسرائيل، وغيرهم.

توفي البابرتي في القاهرة سنة 786هـ/ 1384م عن ستة وسبعين عامًا، وقد حضر السلطان الظاهر برقوق فمن دونه جنازته ودفن في خانقاه شيخون.

آثاره

للبابرتي آثار كثيرة منها:

أ ـ المطبوعة:

1 ـ العناية في شرح الهداية في الفروع لشيخ الإسلام برهان الدين المرغيناني الحنفي (ت 593هـ/ 1196م)، وهو أحد أكبر كتب الفقه الحنفي، في مجلدين ويحتوي الشرح على ثلاثة آلاف مسألة سوى التصرفات المتعلّقة برفع الإبهام ودفع الأوهام [كشف الظنون، 1/ 155، 443، 852، 1681، 2/ 2015، 2033، 2035].

ب ـ المخطوطة:

2 ـ شرح تلخيص الجامع الكبير للخلايطي، في مكتبة الزيتونة بتونس، 144، رقم 2117؛ 3 ـ تحفة الأبرار في شرح مشارق الأنوار، في مجلد واحد، الخزانة التيمورية، رقم 804، ص 22؛ 4 ـ التقرير على شرح أصول البزدوي؛ 5 ـ مختصر ابن الحاجب؛ 6 ـ شرح المنار؛ 7 ـ شرح ألفية ابن معطي المسماة الدرة الألفية أو الصدفة الملية بالدرة الألفية؛ 8 ـ شرح وصية الإمام أبي حنيفة؛ 9 ـ المعتقد في علم الكلام؛ 10 ـ الحكم النبوية في المكتبة السليمانية في إستنبول 769؛ 11 ـ تجريد نصير الدين الطوسي في علم الكلام؛ 12 ـ تفسير للقرآن الكريم؛ 13 ـ النكت الظريفة، وهي رسالة في ترجيح مذهب أبي حنيفة على غيره؛ 14 ـ شرح منشأة النظر في علم الخلاف للإمام برهان الدين النَّسفي (684هـ/ 1285م)؛ 15 ـ حاشية على الكشاف للزمخشري؛ 16 ـ شرح الفرائض السراجية؛ 17 ـ وصية أبي حنيفة، في مانشستر

7788، الخزانة التيمورية 786 [270 مجاميع (9)]؛ 18 ـ النقود والردود في شرح منتهى السول والأمل لابن الحاجب، في مكتبة أوقاف بغداد رقم 4974 [الزركلي، الأعلام، 7/ 42]؛ 19 ـ الإرشاد في شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة؛ 20 ـ شرح تلخيص المفتاح في المعاني والبيان؛ . . . الخ

المصادر والمراجع

● ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر، تح. حسن حبش، القاهرة، 1389هـ/ 1969م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث العربي؛ ● م.ن، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد الدكن، 1350هـ، دائرة المعارف العثمانية، 4/ 250 ـ 251؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1384 هـ/ 1964 م، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1/ 239 ـ 240؛ ● السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1387هـ/ 1967م، دار إحياء الكتب العربية، 1/ 471؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت، دار إحياء التراث العربي 6/ 293؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طهران 1367هـ/ 1947 م، المكتبة الإسلامية، 1/ 155، 443، 852، 1861، 2015، 2033، 2035؛ ● طاش كبري زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تح. كامل بكري، عبد الوهاب أبو النور، القاهرة، د.ت، دار الكتب الحديثة، 2/ 269 ـ 270؛ ● الخوانساري، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تح. أسد الله إسماعيليان، بيروت، د.ت، دار الكتاب العربي، 8/ 99 ـ 100؛ ● البغدادي، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إستنبول 1951م، عن طبعة طهران 1387هـ/ 1947م، 1/ 171، 2/ 523؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، عن طبعة إستنبول، 1945 م، مكتبة المثنى، 1/ 353؛ ● اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، القاهرة 1324هـ، مطبعة السعادة، ص195 ـ 197؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، القاهرة 1346هـ/ 1928م، مطبعة سركيس، 1/ 504؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1376هـ/ 1957م، مطبعة الترقي، 11/ 299؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت 1969، دار العلم للملايين، 7/ 42؛ ● فهرس الخزانة التيمورية، القاهرة 1947، مطبعة دار الكتب المصرية، 2/ 152، 153، 4/ 78، 131، 188؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، عبد الحليم النجار، القاهرة 1977، دار المعارف، 3/ 238، 243، 253؛ ● فهرس مخطوطات جامعة أم القرى، إشراف ناصر عبد الله البركاتي، إعداد محمد بن عثمان

اللكنوي، هاشم عبد الواحد، مكة المكرمة، 1407هـ/ 1978، جامعة أم القرى، 2/ 131، 132؛ ● عطية الله، القاموس الإسلامي، القاهرة، 1383هـ/ 1973م، مكتبة النهضة المصرية، 1/ 240.

د. رعد محمد البرهاوي
دار المعلمات ـ الموصل ـ العراق

ابن بابشاذ، أبو الحسن طاهر بن أحمد

(ت 454هـ/ 1063م)

هو طاهر بن أحمد بن بابشاذ أبو الحسن الجوهري النحويّ، وبابشاذ كلمة أعجميّة تتضمّن الفرح والسّرور حسب بعض المصادر، ويقال إنّ أصله من الديلم.

وقال القفطي: إنّ أصله من العراق، وكان جدّه أو أبوه قدم مصر تاجرا.

وجاء في أخباره أنّه كان تاجرا في الجواهر، كما تولّى تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء في الدولة القصريّة بالديار المصريّة إلى الأطراف، ليصلح ما لعلّه يجد بها من لحن خفيّ، وكان له على ذلك رزق سنيّ، مع رزقه على التصدّر للإقراء في جامع عمرو ابن العاص بالقاهرة.

قال القفطي عنه: «جمع في حالة انقطاعه تعليقة كبيرة في النحو قيل: لو بُيِّضت قاربت خمسة عشر مجلّدا، وسمّاها النحاة بعده الذين وصلت إليهم «تعليقة الغرفة»، وانتقلت هذه التعليقة إلى تلميذه أبي عبد الله محمد بن بركات السعيديّ النحويّ المتصدّر بموضعه، والمتولّي للتحرير، ثم انتقلت بعد هذا إلى أبي محمد عبد الله بن برّيّ النحوي المتصدّر في موضعه أيضا» [إنباه الرواة]. وقد اشتهرت هذه التعليقة بين النحاة في القرنين الخامس والسادس الهجريّين، وكان على مذهب البصريّين على حدّ عبارة الأنباري في «نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء».

وتذكر المصادر أنّه تزهّد في آخر أيّامه، وانقطع إلى العبادة والتصنيف، وحدث أن سقط من سطح جامع عمرو بن العاص فمات لحينه سنة 454هـ / 1063م. لكن الزركلي أورد في الأعلام أنه توفي سنة 469هـ / 1077 م، وكان آخر ما صنّف «تعليقة الغرفة».

آثاره

1 ـ المحتسب، ذكره السيوطي في بغية الوعاة، وأكّد حاجي خليفة في كشف الظنون أنّه بناه على بيان عشرة أشياء: الاسم والفعل والحرف، والرفع والنّصب والجرّ والجزم، والعامل والتابع والخط؛ وله عليه شروح، واختصره ابن عصفور علي بن مؤمن النحويّ

(ت 669 هـ)؛ 2 ـ شرح أصول ابن السّراج، ذكره ابن العماد في شذرات الذهب؛ 3 ـ المقدّمة في النحو؛ 4 ـ شرح الجمل للزجاجي.

المصادر والمراجع

- ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 2/ 515 ـ 517؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، 2/ 17؛
- القفطي، إنباه الرواة، 2/ 95 ـ 97؛
- ياقوت، معجم الأدباء، 12/ 17 ـ 119؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 3/ 333؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، 111، 423، 603، 1612، 1804؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 3/ 220.

د. إبراهيم السامرائي

جامعة بغداد

بابور، محمد ظاهر الدين عمر الشيخ ميرزا

(888هـ/1483م - 937هـ/1530م)

ولد في فرغانة الواقعة في تركستان بتاريخ 6 محرم 888هـ/ الموافق لـ 14 فبراير 1483م، واسمه الأصلي محمد ظاهر الدين. وهو الحفيد الخامس لتيمورلنك. ووالده عمر الشيخ ميرزا الذي كان سلطانا على فرغانة الواقعة شمال جبال الهندوكوش. أما والدته فهي قوتلو نيكار ابنة يونس خان المنحدرة من سلالة جنكيزخان. وعاصر في طفولته تفكك الدولة التيمورية وما شهدته من قلاقل واضطرابات. وجلس على العرش في أندجان وهو لايزال في الثانية عشرة من عمره خلفا لوالده الذي قضي نحبه نتيجة أحد الحوادث. واضطر إلى الدخول في كفاح لتوطيد حكمه في فرغانة التي كان يطمح في الجلوس على عرشها كل من عمّه أحمد ميرزا، أمير سمرقند، وخاله محمود أمير طشقند. واستطاع فيما بعد أن يحكم سيطرته ولو لفترة وجيزة على سمرقند عاصمة دولة تيمورلنك القديمة (1497). وترك أندجان ليحكمها أخوه، وخاض معركة خاسرة ضد الشيخ الشيباني الأوزبكي الذي غدا في تلك الأثناء أقوى حاكم في آسيا الوسطى مستفيدا من النزاعات الناشبة بين الأمراء التيموريين.

وبعد أن خسر بابور تلك المعركة المسماة بـ «معركة صاري بول» اضطر بابور إلى الرحيل عن سمرقند وذلك في مايو 1501م، إلآ أنه لم يعد إلى أندجان، بل مكث متجولا مع رجاله بين جبال بامير. وقرر بعد فترة أن يرحل إلى منطقة بعيدة عن نفوذ الشيباني. وبذلك قام مع عشرين ألف من رجاله الذين استطاع جمعهم تحت رايته عبور جبال

الهندوكوش متوجها إلى أفغانستان. واستطاع أن يسيطر على كابل الواقعة حينذاك تحت حكم الدولة الأرغونية دون أن يريق الدماء وذلك عام 1504م. ولم يكن وحده الذي قرر الاستقرار في كابل، بل توجه إليها الأهالي من سمرقند وفرغانه هربا من الأوزبكيين. وزحف من هناك حتى حدود السند عام 1505م. ولكنه اضطر إلى العودة إلى كابل بعد أن وردت إليه الأنباء بحدوث اضطرابات فيها. وسيطر على قندهار عام 1507م ولكنه واجه خطورة محاصرة الشيباني فاضطر إلى الرجوع إلى الهند، وبعد فترة استغل النزاع الذي نشب بين الشيبانيين والصفويين، فقد استطاع السيطرة مرة أخرى على سمرقند بمساعدة الصفويين أنفسهم. وبعدها سيطر على بخارى أيضا في أكتوبر عام 1511م. ولكن تبنيه للآراء الشيعية ولو سياسيا فضلا عن إصداره الأمر بإلقاء الخطب في المساجد باسم الشاه إسماعيل الصفوي بهدف كسب الدعم الصفوي أدّيا إلى حدوث استياء ضده في هذه المنطقة ذات الغالبية السنية. واغتنم الأوزبك هذه الفرصة واستطاعوا تحقيق انتصاراتهم عليه، وبالتالي لم يستطع السيطرة على قواته فترك سمرقند في مايو أو نوفمبر 1512م.

قضى بابور في منطقة قوندوز سنتين حاول فيهما تجميع صفوف قواته، ولكنه فَقَدَ الدعم الصفوي بسبب انشغال الصفويين بصراع مرير ضد الدولة العثمانية. ونتيجة لذلك اضطر إلى الرحيل عن سمرقند متوجها إلى أفغانستان كي يؤسس فيها دولة عاصمتها كابل. وحقق انتصاره بعدها على الأرغونيين مسترجعا قندهار منهم بتاريخ مايو 1522م. ومن ثم وضع لنفسه هدفا جديدا وهو التوجه إلى الأراضي الهندية التي كانت تحكم حينذاك من قبل سلطنة دلهي. وخاض معارك عديدة في منطقة البنجاب خلال توجهه إلى تحقيق هدفه الجديد. وبعدها توجه بجيش قوامه مائة ألف جندي صوب دلهي وذلك بدعوة من دولت خان، والي لاهور وعالم خان، ضد إبراهيم لودي ابن أخي عالم خان الذي كان يجلس على عرش سلطنة دلهي. واستطاع تحقيق انتصاره على سلطان دلهي في مايو 1526م بعد خوضه لمعركة «بانيبات» ضد إبراهيم لودي. ثم سيطر على مدينتي دلهي وآغرا. وبذلك انقرضت سلطنة دلهي في الهند لتحل محلها الدولة البابورية التركية الهندية.

استطاع بابور في مارس عام 1527م أن يحقق انتصاره على چيتور وبالتالي أصبحت راجستان كلها خاضعة له. ووجه جهده بعد ذلك نحو إزالة آخر جيوب المقاومة اللودية-الأفغانية في شرقي الهند. ونجح في مسعاه ذلك محققا السيطرة على مدينة لكنوي. وعندما توفي بتاريخ 26 ديسمبر 1530م كان قد خلف وراءه سلطنة قوية تمتد من قندهار حتى البنغال وتضم معظم الأراضي الهندية. وعندما داهمه المرض قبيل وفاته جمع قواده وأعلمهم أنه اختار نجله همايون خليفة له على السلطنة وأمرهم بالسمع والطاعة من بعده. وبعد وفاته دُفن أول الأمر في بستان يدعى نور آفشان يقع على ضفاف جدول يسمى «الجمنة»، وحمل جثمانه بعد ذلك إلى كابل نزولا عند وصيته ليدفن في حديقة سميت باسمه. وعند وفاته كان له أربعة أبناء هم:

همايون، وكامران، وعسكري، وهندال إلى جانب ثلاث بنات وهُن: كول رنك، وكول چهرة، وكول بَدَنْ. أما ضريحه الفخم في كابل فشيد من قبل حفيده الشاه جيهان وذلك عام 1646م.

توفي بابور في سنّ مبكرة نسبيا أي في السابعة والأربعين من عمره، ولكن حياته كانت حافلة بالنشاط والأحداث. ويعتبر من أهم شخصيات الدولة البابورية ذات الصبغة التركية-الهندية. ومثلما انصبّ جهده على خوض المعارك، فقد كان مهتما بالعلم والعلماء. وكان يشعر بسعادة بالغة عندما يحضر مجالس العلم ومجالس أصحاب الفنون والحرف. وقد استطاع خلال فترة حكمه القصيرة في الهند أن يحقق وفرة في الإنتاج الزراعي ورفاها للناس من خلال إنجازه لإصلاحات عديدة. أما على الصعيد الشخصي فكان يتميز بالكياسة واللباقة، إلى جانب كونه مقاتلا شرسا وقائدا كفؤا ورجل دولة محنكا، فضلا عن كونه شاعرا وكاتبا متميزا، وموسيقيا هاويا له ألحان جذابة بالرغم من قلة عددها، وكان خطاطا ماهرا ابتكر أسلوبا خاصا باسمه. أما براعته العسكرية فكانت ترجع إلى عاملين رئيسيين، أولهما ثقافته وخبرته في هذا المجال، وثانيهما استفادته من التكتيكات العسكرية التي كان يطبقها العثمانيون في المعارك والتي كانت بدورها من أرقى التكتيكات في تلك الفترة. وهذان العاملان جعلاه يؤسس دولة قوية في الهند خلال فترة قصيرة. وبالرغم من ذلك فلا يروي التاريخ لنا أية معلومة عن أية علاقة بين بابور وبين العثمانيين الذين كانوا في ذلك الوقت أصحاب أقوى دولة في العالم.

كان بابور مشهورا بشعره وأدبه إلى جانب قدرته العسكرية والإدارية الفذة. وقد بدأ ينظم أولى قصائده في سن السادسة عشرة. وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره أصدر أول ديوانه، وبذلك انضم إلى قائمة الحكام الشعراء. وتميز بحسه الأدبي الرفيع، واطلاعه الواسع على فنون الأدبين الفارسي والتركي. وابتكر أبجدية جديدة للكتابة أسهل من الحروف العربية وذلك عام 1504م. ودعيت هذه الأبجدية بالخط البابوري. وكان هذا الخط يعتمد على حروف خالية من النقط ولكن لم يستمر العمل بهذا الخط طويلا وسرعان ما تُرك العمل به. وهناك بعض النماذج لهذه الأبجدية احتفظ بها التاريخ إلى حد اليوم. ويروي بابور في مذكراته أنه شيّد العديد من الأبنية خلال فترة حكمه، إلا أن هذه الأبنية التي ذكرها لم يبق منها أي شاهد في وقتنا الحاضر عدا القليل جدا. ونذكر من ذلك مسجد بابري (بابوري) الذي شيّده عام 1528م في مدينة آيودبا هادا، ولكن هذا المسجد تعرّض لحريق من قبل متطرفي الهندوس عام 1992م بحجة أنه بني على مكان شهد ولادة أحد آلهة الهندوس.

■ آثاره

١ ـ الديوان : بصفة عامة كتب الشاعر في مواضيع الشعر التركي المعروفة مثل الحبّ والخمرة، وإلى جانب ذلك كتب أيضا شعرا يدور حول حياته وما عاشه فيها من أحداث، وأكثر ما كتب الشاعر في الغزل والرباعيات. ومن حين لآخر كان يكتب في موضوع حبّ الوطن والوفاء له، والبطولة.

ويعتبر بابور أبرز شاعر في الأدب التركي

الشرقي بعد علي شير نوائي. ويذكر بابور أنه لم يرتب قصائد ديوانه ترتيبا ألفبائيا بل رتبها وفق التسلسل الزمني. وتوجد نسخ كثيرة مخطوطة من ديوان الشاعر في مكتبات كثيرة في العالم. ومن أهم هذه النسخ نذكر النسخة الموجودة في طهران [مكتبة السلطانية، رقم 671] وهي مؤرخة بعام (1525)، وتحتوي على ترجمة إلى اللغة الفارسية. ونذكر أيضا نسخة باريس في المكتبة الوطنية [Bibliothèque Nationale, Suppléments Turcs] ونسخة رمبو في الهند، ونسخة حيدر آباد في متحف سالار جانغ، والنسخة الموجودة في مكتبة طوب قابي سراي في استانبول [قصر روان، رقم 741]. ونسخة مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات التركية، رقم 3743].

تم نشر نسخ مختلفة من «الديوان» باللغة التركية واللغة الإنجليزية واللغة الروسية، كما نشرت منه بعض المختارات، ولكن إلى حد الآن لم تجر حوله أية دراسة نقدية مقارنة؛ 2 ـ رسالة العروض : هي عبارة عن رسالة كتبها بابور تتعلق بنظرية العروض وقواعده. وقد بيّن فيها أن ما كتب من قبل في هذا الموضوع وبالتحديد كتاب «ميزان الأوزان» لعلي شير نوائي لم يكن كافيا. وهو عمل مهم جدا ويمثل مصدرا لا غنىً عنه فيما يتعلق بالعروض التركي، وهو يحتوي خمسة آلاف وزن. وأول من عثر على هذا الأثر هو كوبريلي في باريس عام (1923) بالمكتبة الوطنية، وبذلك أخرجه إلى النور. وفي فترة لاحقة تم العثور كذلك على نسخة أخرى في طهران ونسخة في مادراس. وتم نشر نسخة باريس طبقا للأصل في طشقند (1971) وفي موسكو(1972)؛ 3 ـ مبين : عبارة عن مثنوية من ألفي بيت كتبها لابنه كامران ميرزا، وتحتوي على مجموعة من النصائح الدينية والمسائل الفقهية. ومن جانب آخر فهي تعكس ما يتمتع به بابور من زاد في المجال الديني. وتوجد منه نسخ في مكتبات طهران، وروسيا، وأوزبكستان. وأول طبعة حجرية لهذا الأثر كانت في طشقند في عام (1905)، وتحمل عنوان «مبين الإسلام» ؛ 4 ـ ترجمة رسالة الوالدية (رسالة والديه ترجمه سي): عبارة عن ترجمة منظومة لرسالة حاجه عبيد الله أهران النقشبندي التي تدور حول التصوف وهي مكتوبة باللغة الفارسية. ويذكر بابور أنه يشعر باحترام خاص تجاه حاجه عبيد الله، وأنه يراه من حين لآخر في منامه ويأخذ عنه بعض الإشارات. وقد شرع في ترجمة الكتاب حتى يتلقى المدد الروحي من حاجه عبيد الله في حالات المرض. وتوجد منه نسخ في جامعة استانبول ومكتبة رامبور. كما أنه مضمن داخل بعض الدواوين الأخرى ؛ 5 ـ بابور نامه : يعتبر هذا المؤلف من أجمل النماذج عن «المذكرات» في الأدب العالمي، وهو مكتوب باللغة التركية الجاغاطائية. وهو مؤلف مهم جدا ليس في مجال الأدب فقط بل في مجال التاريخ أيضا. ولم يجعل له عنوان واضحا ولذلك فقد عرف أحيانا باسم «الواقع» وأحيانا بـ «وقائع نامه» وأحيانا أخرى بـ «واقعات بابور» أو «وقائع نامه بادشاهي». أما ترجماته الفارسية فهي مشهورة بـ «توزوكي بابوري».

ويبدأ الكتاب في الحديث عن الوقائع المتعلقة به ومذكراته من اعتلائه لعرش «فرغانه» وحتى

الفترة التي تسبق وفاته بعام واحد. غير أن النسخة المتوفرة لدينا اليوم منقوصة. وقد تمكن ابن أخيه ميرزا محمد دوغلات من إتمام هذا النقص جزئيا بعد اطلاعه على النسخة الأصلية. وإلى جانب اكتسائه لصبغة المذكرات، وتميّزه بذوق أدبي عال فقد أورد فيه صاحبه الأحداث يوما بيوم، وتحدث فيه عن الناس والطبيعة ومشاهداته الجغرافية، ومن هذه الناحية فهو يعتبر وثيقة تاريخية لا مثيل لها وموسوعة حقيقية. وقد تميز الأثر كذلك بحديثه الصادق وتصويره الواضح لبعض الأحداث السياسية. وإلى جانب جميع هذه الخصائص فقد كانت لغته الأدبية راقية، وهو عبارة عن معجم للهجة التركية الجاغاطائية، فبساطة عباراته تمكن من فهمه بسهولة، وهذا ما ساهم في انتشاره على مستوى واسع. وقد قام بابور بإملاء بعض أبواب الكتاب، وهو دليل على مدى سلاسة تعبيره وحضور بداهته.

بدأ كتاب «بابور نامه» يسترعي اهتمام المستشرقين الغربيين منذ القرن السابع عشر وترجمت أولى أجزائه إلى اللغة الهولندية [ن.ج.ويتسون، امستردام 1692 وأمستردام 1785]. ترجم المؤلف في زمن بابور إلى اللغة الفارسية، غير أن هذه الترجمة كتبت بين أسطر اللغة الأصلية. وأما الترجمات الأخرى التي تمت في عام (1586 و1590) فهي الأكثر انتشارا، وبالنسبة إلى الترجمات التي تمت للكتاب في الغرب فقد تم فيها اعتماد الترجمة الفارسية لعام (1590). أما الترجمة الإنجليزية التي جرت للكتاب من اللغة الأصلية والأكثر جدارة بالثقة فهي تلك التي أنجزها أ.س. بفاريدجه والتي استغرقت منه أعواما طويلة، ونجح في الأخير في إخراجها بعنوان "The Baburname in English" لندن 1912-1921، 1922، أما نشر الكتاب باللغة التركية فقد قام به رشيد رحمتي آرات في عام (1943-1946). وتمت ترجمته إلى اللغة الروسية في عام 1980 وإلى اللغة الفرنسية في عام 1985. وترجم مرتين إلى اللغة الأوردية في عامي 1924و 1969.

وتذكر المصادر أنه كتب مؤلفات أخرى في الموسيقى والمجال العسكري، غير أن شيئا من هذا لم يتم التأكد منه إلى حدّ اليوم.

المصادر والمراجع

- Babür, Gazi Zahirüddin Muhammed Babür, Vekayi: Babur'un Hatirati (ter.ve nsr. Resit Rahmeti Arat), I-II, Ankara 1943-46; • Gülbeden Begüm, Hümayunname (ter. A. Yelgar-E.Manyas), Ankara 1944; • Haidar Mirza Duglat, A History of the Moghuls of Central Asia (ter. E.D.Ross), London 1895, 216-261; • W. Erskine, History of India under the Two First Sovereigns of the House of Taimur-Baber and Humayun, London 1854; • S. M. Edwardes, Babur, Diarist and Despot, London 1926; • B. Gascoigne, The Great Mughals, New York 1971; • J.F Grenard, Baber, Paris 1930; • Abdülmunim en-Nemr, Tarihü'l-Islam fi'l-Hind, Beyrut 1981; • S. Lane-Poole, The Coins of the Moghul Emperors of Hindistan in the

British Museum, London 1892; • L. F. Rushbrook Williams, The Empire Builder of the Sixteenth Century, London 1918; • R. Burn, Cambridge History of India, Cambridge 1937, IV, The Mughal Period; • Zeyn Han, Tabakat-i Baburi, Delhi 1982; • A. Marie Schimmel, "Babur Padishah, The Poet With an Account of the Poetical Talent in His Family", Islamic Culture, 34/2, (1960), p. 125-138; • M. Eva Subtelny, "Babur's Rival Relations: A Study of Kinship and Conflict in 15th-16th Century Central Asia, der Islam, 66/1, 1989, p. 102-118; • Ali Fuat Bilkan, "Divan ve Baburname Isiğinda Babür'ün Hindistan Hayati", Bilig, 21/Bahar 2000, Ankara 2000, p. 97-116; • M. Fuad Köprülü, "Babur", İA, II, p. 180-187, • J.B Harrison-P.hardy, "Babur", Encyclopaedia of Islam (new edition), I, 847-848; • Ömer Faruk Akün, "Babur, Sanatkar ve Fikir adami Yönü", Türkiye Diyanet Vakfi İslam Ansitklopedisi, IV, 396-400; • Azmi Özcan "Hindistan Tarih", Türkiye Diyanet Vakfi İslam Ansitklopedisi, XVIII, 77.

د. عزمي أوزجان
استانبول ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي ـ السودان

ابن بابويه، أبو جعفر محمد بن علي

(305هـ/918م ـ 381هـ/991م)

هو أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين القمي الشيعي المعروف بابن بابويه، والملقب بالصدوق. وجه الطائفة الجعفرية وإمامهم وحافظ مذهبهم، وصاحب التصانيف السائرة بين الشيعة، يضرب بحفظه المثل، ويقال إن له ثلاثمائة مصنّف. وكان أبوه أيضا على درجة عالية من العلم والفضل، فهو شيخ القمّيين في عصره ومتقدمهم وفقيههم، والملقب عند الإمامية أيضا بالصدوق، فإذا قيل الصّدوقان، انصرف القصد إلى علي بن الحسين القمي وابنه محمد [حسين الأعلمي، مقدمة كتاب من لا يحضره الفقيه، ج 3، ص 7].

ولد أبو جعفر "بقم" في حدود سنة 306 هـ، ونشأ بها تحت رعاية أبيه ومشيخته، فقد أدرك من أيامه أكثر من عشرين سنة كانت مهمة في حياته العلمية اقتبس خلالها من أخلاقه وآدابه ومعارفه وعلومه ما سما به على أقرانه حتى روى عنه جميع مصنفاته، وهي مائتا كتاب

فيما يذكره ابن النديم [الفهرست، ص 277]. وما يسترعي الانتباه كثرة مرويات الابن عن طريق أبيه إلى أيمة أهل البيت بما يفوق مروياته عن شيوخه الآخرين، إضافة إلى شدة تعلقه بمنهجه الفقهي في الاعتماد على الحديث، فقد انبثق ـ منذ العصور الأولى ـ في الوسط الفكري الإمامي اتجاهان، مثّل أحدهما الصدوقان (علي بن الحسين وابنه محمد) والثاني، الحسن بن علي العماني المعروف بالحذاء (معاصر ابن بابويه الأب)، ومحمد بن أحمد الإسكافي البغدادي (معاصر ابن بابويه الابن). وكان اتجاه الصدوقين ينحو منحى مدرسة أهل الحديث عند أهل السنة، أما الاتجاه الآخر فينحو منحى مدرسة أهل الرأي عند أهل السنة. وقد عُرف عن الصدوقين التزامهما بلفظ الحديث وصيغته، فألف لتحقيق هذا المنحى الشيخ علي بن بابويه رسالته إلى ابنه محمد الصدوق في الفتوى والمعروفة بـ «الرسالة» ملتزما فيها متن الحديث بلفظه، مع إسقاطه للسند. وعلى هذا المنوال ألف محمد الصدوق كتابيه «المقنع» و«الهداية» حتى ذكر أن الأقدمين من فقهاء الشيعة إذا أعوزتهم النصوص الشرعية رجعوا إلى هذه الكتب [عبد الهادي الفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي، ص 238]. وكان الصدوق ـ إضافة إلى ما يتلقاه عن أبيه من العلم ـ يختلف إلى مجلس محمود بن الحسن بن الوليد، أبرز شيوخه في صباه، ثم ابتداء من سنة 339هـ بدأت رحلته العجيبة في طلب العلم وسماع الحديث، وتبليغه. وتتابعت أسفاره فطاف فيها كثيرا من البلدان يُبادل العلماء السماع والأخذ في أمهات الحواضر العلمية. وكانت «الري» أولى البلاد التي رحل إليها وذلك بالتماس من أهلها وبحرص من أميرها ركن الدين البويهي الذي كان مُكرِمًا للعلماء وراعيًا للعلم حيث سمع بها من الشريف أبي يعلى العلوي، وأبي الحسن الأسدي المعروف بابن جرادة البردعي وغيرها، ولم تنقطع صلته بوطنه الأول «قم». ثم خرج إلى خراسان قاصدا زيارة مشهد الإمام الرضا في طوس سنة 352 هـ، وتعتبر هذه الزيارة للمشهد الرضوي الأولى من زياراتٍ ثلاث أدّاها تبركا بذلك المكان. وكانت الثانية سنة 367 هـ. ثم زار المشهد للمرة الثالثة في سنة 368هـ عندما كان في طريقه إلى بلاد ما وراء النهر. وفي هذه المشاهد عرض الصدوق مجالسه المعروفة «بالأمالي» وهي سبعة وتسعون مجلسا، وهي مطبوعة. ولما كان في طريقه لزيارة المشهد لأول مرة قد دخل نيسابور وسمع من علمائها وشيوخها، ثم حين عودته من خراسان في سنته تلك (أي 352 هـ) توجه إلى بغداد، فسمع من علمائها، كما سمع شيوخَ الطائفة الإمامية منه ثم عاد إلى «الريّ». وفي سنة (354 هـ) توجه إلى الحج فدخل الكوفة وسمع أبا القاسم الحسن السكوني، ومحمد بن علي الكوفي، وعلي بن الحسين الهمداني. ثم دخل «مكة» والمدينة آخر سنة أربع وخمسين، ثم قفل راجعا بعد أداء مناسك الحج فلقي بفيد ـ وهو مكان بين مكة والكوفة في نصف الطريق ـ أبا علي أحمد البيهقي، وكان ابن بابويه في أغلب مؤلفاته يؤرخ سماعه مع ذكر المكان مما يزيد في قيمة السند والرواية. ثم دخل بغداد مرة ثانية منصرفه من الحج سنة خمس وخمسين، فسمع من أبي الحسن الدواليبي، وأبي العلوي،

ومحمد بن عمر الحافظ وغيرهم. ثم قفل راجعا إلى الريّ فمرّ في طريقه بهمدان وسمع بها من الفضل الكندي وأجازه، ومن القاسم بن محمد السراج الهمداني. ثم ابتداء من سنة ثمان وستين وثلاثمائة للهجرة، وبعد زيارة المشهد الرضوي، بدأ رحلة طويلة أخرى إلى الممالك الشرقية القاصية من العالم الإسلامي فأدته إلى بلاد ما وراء النهر (أي نهر جيحون) المعروف اليوم بأموداريا ودخل سرخس أوّلاً وسمع بها من محمد بن أحمد الفقيه، ثم ورد بلخ وسمع من علمائها؛ ثم دخل سمرقند (من بلاد أوزبكستان اليوم) حتى وصل إلى إيلاق وهي كورة تتاخم كور الشاش وهما من أعمال سمرقند. وفي مدة إقامته بها اجتمع بالشريف أبي عبد الله العلوي المعروف بنعمة الله وسمع كل منهما من الآخر. ووقف الشريف المذكور على أكثر مصنفات الصدوق التي كانت معه فنسخها كما سمع منه أكثرها، ثم دخل فرغانة وتمثل أقصى المناطق الإسلامية المتاخمة لحدود الصين الشمالية الغربية، وتمتد إلى بلاد قيرغيزستان وكازاخستان اليوم، فسمع بها محمد بن جعفر البندار الشافعي، وإسماعيل بن منصور القصار وغيرهما. وهكذا نرى الصدوق وهو في سن الشيخوخة ـ إذ قد تجاوز الستين ـ لا يزال يطوي المسافات الشاسعة في طلب الحديث وسماعه وإسماعه، ومعه مصنفاته. ثم بعد ذلك قفل إلى الريّ واستقر بها إلى أن توفي سنة 381 هـ. ودفن بالقرب من قبر السيد عبد العظيم الحسني وقبره يزوره الناس ويتبركون به، وهكذا قضى نحوا من سبعة عقود ونصف وهي أعوام حياته التي عاشها في مكابدة العلم والسعي لتحصيله ونفع الناس من دون أن ينعم بظلال الحياة الوارفة المتيسرة له. وأنتج آثارا علمية كثيرة في مختلف علوم الشريعة: في التفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ والرجال، وكذلك في الأخلاق والآداب الشرعية، إضافة إلى ما كتبه في أجوبة المسائل الواردة إليه من سائر البلاد الإسلامية كبغداد، والكوفة، والبصرة، وواسط، والمدائن ونيسابور. وقد شهد له أصحاب الفهارس والطبقات بكثرة التصانيف وجودتها [الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 16، ص 303؛ الزركلي، الأعلام، ج 6، ص 274].

وممن عدّد هذه التصانيف من أصحاب المعاجم، النجاشي في «كتاب الرجال»، والشيخ الطوسي في «الفهرست»، والعلامة الحلّي في «خلاصة الأقوال»، وابن شهر آشوب في «معالم العلماء» والمحدث النّوري في «مستدرك الوسائل»، والإمام الطهراني في «الذريعة»، ولكن القليل منها مطبوع؛ ولا تزال هيئات علمية كثيرة في النجف وطهران وقم وغيرها تقوم بتحقيق باقي المصنّفات وتصحيحها.

آثاره

1 ـ من لا يحضره الفقيه، وهو أحد الكتب الأربعة الأصول وأحد المجاميع الحديثية التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند الفقهاء الاثني عشرية منذ عصر المؤلف حتى اليوم، صنفه باقتراح الشريف محمد بن الحسين العلوي الذي لقيه بمدينة إيلاق، وسمّاه بهذا الاسم مجاراة لكتاب أبي بكر الرازي الطبيب (كتاب مَنْ لاَ يَحْضُرُهُ الطبيبُ)

وضمنه من مروياته في الحديث «ما يفتي به ويحكم بصحته ويعتقد أنه حجة بينه وبين ربه مع حذف الأسانيد لئلا تكثر طرقه وإن كثرت فوائده، وجميع ما فيه مستخرج من كتب مشهورة عليها المعوّل وإليها المرجع وجعل طرقه إلى هذه الأصول معروفة ومثبتة في فهرس الكتب التي رواها عن شيوخه وأسلافه» [ابن بابويه، كتاب من لا يحضره الفقيه، المقدمة، ج 1، ص 12]، ولا يزال المشتغلون بالعلوم الشرعية من فقهاء ومحدثين وغيرهم يعتنون بهذا الكتاب شرحا وتحقيقا ويتلقونه بالقبول وهذا برهان كبير على أهميته. وقد انفرد ابن بابويه في هذا الكتاب بآراء وفتاوى لم يسبقه في بعضها أحد كما لم يتابعه في جلها أحد من فقهاء الإمامية، ويرجع ذلك إلى اعتماده على طائفة من الأخبار لم يعتمدها غيره فأفتى بمضمونها معتقدا صحتها والعمل عليها، فخالف بذلك إجماع الطائفة، وقد أفرد هذه الفتاوى الشيخ مفلح بن الحسن الصيمري (ت 933 هـ) بتأليف سماه «التنبيه على غرائب من لا يحضره الفقيه» ورغم ذلك فإن قيمة هذا التصنيف مما لا يماري فيه. طبع عدة طبعات، 2 ـ علل الشرائع والأحكام والأسباب، مطبوع في مجلد، ويبحث في عدد من الأبواب الصغيرة التي بلغت 385 بابا أسباب صفات المخلوقات وأسرار تسميتها وأسباب حدوثها، ويتناول في هذا الصدد جوانب مختلفة من الحياة والطبيعة والتاريخ والعلم [فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ج 3، ص 305]؛ 3 ـ عيون أخبار الرضا، مطبوع في أجزاء، قدم له السيد محمد مهدي الخرسان، ويتضمن الكتاب طائفة من أخبار إمام من أيمة المسلمين وخلفاء الله في العالمين الإمام علي بن موسى الرضا. ولما كانت أخباره كثيرة فقد اختار منها المؤلف غررا منها سماها بالعيون، على أن للمؤلف أربعة كتب أخرى تتعلق بالإمام الرضا، وهي: 4 ـ زهد الرضا عليه السلام؛ 5 ـ جامع زيارة الرضا عليه السلام؛ 6 ـ مسائل الرضا عليه السلام؛ 7 ـ المصباح الحادي عشر في ذكر من روى عن الإمام الرضا. وهو من كتب المصابيح المرتبة على ذكر طبقات الرواة عن أيمة آل البيت سوى ما ضمنه سائر تآليفه من أخبار الإمام كالذي ورد في كتابه «إكمال الدين»، وقد أحال إليه في كتابه هذا في أكثر من موضع، ووجه تسمية كتابه بالعيون لأنه مختار ومقتبس من هذه الكتب الأربعة؛ 8 ـ وأما الكتب التي تعرف بالمصابيح وهي خمسة عشر مصباحا جعل الأول منها في ذكر من روى عن النبي ﷺ من الرجال، والثاني في ذكر من روى عن النبي ﷺ من النساء، والثالث في ذكر من روى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهكذا في سائر أبناء علي كرم الله وجهه وحَفَدَتِه من فاطمة رضي الله عنها من الأيمة المعروفين؛ وله كتب عديدة على شاكلة المصابيح في زهد الأيمة الاثني عشر، وفي دلائل إمامتهم وفضلهم ومعجزاتهم على ما هو مقرر في تعاليم الشيعة، كما له في أغلب مسائل الفقه من العبادات والمعاملات والحدود والديات كتب مشهورة، وله كتاب في تفسير القرآن، وآخر في غريب الحديث وله كتاب في ذكر من لقيه من أصحاب الحديث من علماء الشيعة، وعن كل واحد منهم حديث [عبد الهادي الفضلي، تاريخ التشريع الإسلامي، ص 246 ـ 250].

المصادر والمراجع

● ابن بابويه القمي، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح الشيخ حسين الأعلمي ـ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 1، 1406هـ/ 1986م؛ ● م.ن، علل الشرائع، تقديم السيد محمد صادق بحر العلوم ـ دار البلاغة؛ ● م.ن، عيون أخبار الرضا، تقديم محمد مهدي الخرسان، المطبعة الحيدرية، النجف 1390هـ/ 1970م؛ ● ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت؛ ● القمي، عباس، الكنى والألقاب، 3 مج، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، ط 2 ـ 1403هـ/ 1983م؛ ● سركيس، يوسف، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، مطبعة سركيس ـ مصر، 1346هـ/ 1928م؛ ● الفضلي عبد الهادي، تاريخ التشريع الإسلامي، دار النصر ـ بيروت، ط 1 ـ 1413 هـ/ 1992م؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 6/ 274.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن بابويه القمّي، منتجب الدين أبو الحسن

(504هـ/1110م ـ 585هـ/1189م)

الشيخ منتجب الدين أبو الحسن علي ابن عبيد اللّه بن الحسن بن الحسين بن بابويه القمي، من أسرة علمية، لقب جده «الحسين» بالصَّدوق، ووالده هو أبو القاسم موفق الدين عبيد اللّه من تلاميذ الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت. 460 هـ)، لذا نشأ في أحضان أسرة علمية، وأصبح عالمًا فاضلاً، ثقة، محدثًا، حافظًا، راوية، وكان كثير الرواية، واسع الطرق عن آبائه وأقاربه وأسلافه؛ وعرف بحسن الضبط، وكثرة الرواية عن مشايخه، وأشار مترجموه بأنّه «من مشاهير الثقات وفحول المحدثين»، وقد أشار في كتابه «الفهرست» إلى شيوخه وقد زاد عددهم عن مائة شيخ، وأحيانا يكتفي بالقول: «أخبرنا جماعة من الثقات» ومن أبرز هؤلاء الشيوخ: والده موفق الدين أبو القاسم عبيد اللّه بن الحسن؛ الشيخ سديد الدين محمود بن علي الحمصي؛ أبو سعيد رشيد الدين عبد الجليل بن أبي الفتح مسعود الرازي؛ السيد كمال الدين المرتضى بن المنتهى المرعشي؛ الشيخ أفضل الدين الحسن بن علي الماه آبادي؛ الشيخ أبو علي الحسن بن علي بن أبي طالب العرزادي؛ أبو الفضل محمد بن علي بن محمد بن المطهر؛ جمال الدين أبو الفتوح الحسين بن علي الخزاعي؛ أبو العلاء

الحسن بن أحمد بن الحسن العطار؛ الشيخ بدر بن سيف بن بدر العربي.

وكان بعض شيوخ منتجب الدين بن بابويه القمي من أهل السنة، وقد عاصر الشيخ ابن شهر آشوب، والشيخ أبا الفتوح الرازي وروى عنه جماعة من الأعلام، أمثال الشيخ أبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي الشافعي (ت 673هـ) الذي يذكر: «ولئن أطلت عن ذكره بهذه الإطالة فقد كثر انتفاعي بمكتوباته وتعاليقه، فقبضت بعض حقه بإشاعة ذكره وأحواله»، وقال: «كان في علم الحديث سماعًا وضبطًا وحفظًا وجمعًا، يكتب ما يجد ويسمع ممن يجد، ويقل من يدانيه في هذه الأعصار في كثرة الجمع والسماع»، هذا وقد روى كتابه «الفهرست» بعض تلاميذه كالشيخ محمد بن محمد بن علي الحمداني، والسيد أبي الفضائل الرضي بن الداعي بن أحمد الحسيني، والخواجة الشيخ نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي وغيرهم.

آثاره

ألف الشيخ منتجب الدين القمي مؤلفات في الحديث والتاريخ والرجال والفقه، وهي:
1 ـ أربعون حديثًا عن أربعين شيخًا عن أربعين صحابيًا عن أربعين كتابًا؛ 2 ـ تاريخ علماء الشيعة؛ 3 ـ رسالة في الصلاة الحاضرة لمن عليه الفائتة؛ 4 ـ العصرة في المواسعة في قضاء الصلوات؛ 5 ـ الفهرست.

المصادر والمراجع

● منتجب الدين، علي بن عبيد الله بن الحسن، الفهرست، طبع حجر، عام 1315هـ، مع كتاب بحار الأنوار، المجلّد 25؛ ● الأفندي، عيسى، رياض العلماء، مخ. في مكتبة الإمام الحكيم العامّة/ النجف الأشرف؛ ● الأمين، محسن العاملي، أعيان الشيعة، مطبعة الانصاف، بيروت؛ والاتقان، دمشق؛ ● البحراني، يوسف بن أحمد (ت 1186هـ)، لؤلؤة البحرين في الإجازات وتراجم رجال الحديث، مطبعة النعمان، النجف الأشرف؛ ● بحر العلوم، محمد مهدي الطباطبائي (ت 1212هـ)، الرجال او الفوائد الرجالية، النجف الأشرف، الطبعة الأولى 1385هـ/ 1965م، مطبعة الآداب؛ ● الحر العاملي، محمد بن الحسن (ت 1104هـ)، أمل الآمل، النجف الأشرف، الطبعة الأولى المحققة، 1385هـ، مطبعة الآداب؛ ● الخوانساري، محمد باقر الموسوي (ت 1313هـ)، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، بيروت 1974م دار المعرفة؛ ● الخوئي، أبو القاسم الموسوي، معجم رجال الحديث، النجف الأشرف، الطبعة الأولى 1390هـ/ 1970م، مطبعة الآداب؛ ● الصدر حسن هادي الكاظمي (ت 1354هـ)، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، 1370هـ/ 1951م، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة؛ ● الطهراني، محمد محسن، اغا بزرك (ت 1389هـ)، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، النجف الأشرف، ومجلس الشورى ودولتي، طهران، مطابع الغري والآداب؛ ● الطبراني، طبقات أعلام الشيعة، القرن الخامس، دار الكتاب العربي، 1971م، والقرن السادس/ دار الكتاب العربي/

1973م، والقرن السابع، دار الكتاب العربي، بيروت 1972م؛ ● القمي، عباس محمد رضا (ت 1359هـ)، سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، النجف الأشرف1352هـ، المطبعة العلمية؛ ● م.ن، الكنى والألقاب، النجف الأشرف، 1376هـ/ 1956م، المطبعة الحيدرية؛ ● المامقاني، عبد الله بن محمد حسن (ت 1351هـ)، تنقيح المقال في أحوال الرجال، المطبعة المرتضوية/ النجف الأشرف 1350هـ.

د. حسن عيسى الحكيم
جامعة الكوفة ـ العراق

ابن باجة، أبو بكر محمد بن يحيى

(463هـ/ 1070م أو 473 هـ/ 1080م ـ 533هـ/ 1139م)

أبو بكر محمد بن يحيى بن باجّة التجيبي، المعروف أيضا بابن الصائغ. فيلسوف، طبيب، فلكي، رياضي، عالم بالموسيقى. ولد بسرقسطة، لكن المصادر لم تحدّد تاريخ ولادته ولم تقدم معلومات مفصّلة عن حياته. تلقّى تكوينه الأوّل في سرقسطة التي كانت مملكة قويّة سياسيًا، مزدهرة اقتصاديًا وثقافيًا، وكان يحكمها أمراء بني هود، لكن لا نجد ذكرا لمن أخذ عنهم من الأساتذة. وكلّ ما نعرفه أنّه عاش بين مدن سرقسطة، ومرسية، وبلنسيّة، وإشبيليّة، وشاطبة وفاس ووهران وأنّه تقلّد مناصب سياسيّة.

بدأت حياته السياسيّة رسميّا مع دولة المرابطين، بيد أنّ علاقته بالسياسة كانت تتراوح بين المدّ والجزر، فأحيانا تقلّده مناصب رفيعة، وأحيانا يودع السجن بتهمة الانحراف والزندقة. فبعد دخول المرابطين سرقسطة، سنة 504هـ/ 1110م عيّنه أميرها المرابطي أبو بكر بن إبراهيم الصحراوي المعروف بابن تيفيلُويت وزيرا له. لكنّه فشل في أوّل مهمّة كبيرة كلّفه بها الأمير، حينما أرسله في سفارة لدى عماد الدّولة ابن هود حاكم سرقسطة السابق، فقد أودعه هذا الأخير السجن الذي كاد يودي بحياته. وعندما أحكم ألفونسو الأوّل الخناق على سرقسطة هاجر إلى بلنسيّة للإقامة بها. وبعد وفاة أمير سرقسطة سنة 511هـ/ 1117م، واستيلاء ألفنسو عليها سنة 512هـ/ 1118م، قصد غرب الأندلس طلبا للعزلة، غير أنّ الأمير المرابطي أبا إسحق إبراهيم يوسف بن تاشفين اعتقله في مدينة شاطبة بتهمة الزندقة. بيد أنّه بمجرّد ما أفرج عنه، ربّما بتدخّل من ابن رشد الجدّ، نجده يتقلّد منصب الوزارة ثانية لدى الأمير المرابطي يحيى بن تاشفين، حيث ظلّ يزاوله في فاس لمدّة 20 سنة إلى أن توفّي بها. وتنقل لنا المصادر أنّه مات مغتالا على يد أحد أعوان

أبي العلاء بن زهر الطبيب المشهور، غير أنّ هذه الرواية قد تكون مختلقة، علما بأنّ المنافسة بين الرجلين كانت شديدة بسبب المشاركة في مهنة الطبّ التي ملأت عليه حياته بخيرها وشرّها، فأدخلته السجن مرّتين وقلّدته منصب الوزارة مرّتين. وهذا التنوّع في مواهبه وانشغالاته أهّله لأن يشتهر بالفيلسوف والوزير والملحّن والشاعر.

ولئن كنّا لا نعرف شيئا عن شيوخه المباشرين. فإنّه يمكن أن نقول إنّ مصادر فكره كانت متعدّدة: فمن أفلاطون والإسكندر الأفروديسي، وبطليموس، وأبوقراط، وجالينوس، إلى الغزالي؛ لكن الفارابي وأرسطو هما أهمّ من طبع فكره. وتكشف لنا رسالة له بعثها إلى جعفر بن حسداي جوانب من تحصيله وتطوّره الفكري. حيث يخبرنا عن شيخ محتمل له في الهندسة والحساب، لينتقل منهما إلى الفلك، ثمّ إلى منطق الفارابي، ليحطّ أخيرا في رحاب العلوم الطّبيعيّة. موازاة لذلك تذكر المصادر أنّه كان شاعرا وعالما بالأدب والنحو. لقد التقت في فكره الموسوعي ستّ منظومات علميّة: المنظومة الرياضيّة لإقليدس وشراحه، والمنظومة الطّبيعيّة الأرسطيّة، والمنظومة الطبيّة لأبوقراط وجالينوس، والمنظومة الفلكيّة لبطليموس، والمنظومة المنطقيّة والمدنيّة للفارابي. هذا بالإضافة إلى منظومة العلوم العربيّة الإسلاميّة. ولعلّ تقاطع هذه التيّارات العلميّة والفلسفيّة والأدبيّة المتنافرة في فكره هو ما يفسّر جانبا من الغموض الذي طبع معظم أعماله. وقد يكون لثقافته الشعريّة والموسيقيّة دور في إقدامه على الاستقلال عن السابقين عليه.

عُدّ أبو بكر بن الصائغ "بشير عصره" في العلم والفلسفة والشعر والموسيقى. وقد كان أوّل من أبدى شجاعة نادرة في الجهر بممارسته للصنائع النظريّة، متحدّيا بذلك المناخ المعادي لها والمضطهد لأصحابها. ولم يقف عند حدّ استيعاب تاريخ الفلسفة والعلم كما وصلا إلى الأندلس في زمانه، بل عمل على نقده وتطويره وصياغة فلسفة جديدة وعلم جديد. ذلك أنّ بعض ما يميّز شروحه ورسائله، سواء تلك التي لا جدال في نسبتها إليه، أو التي قد يحوم حولها بعض الشكّ، هو أنّها تتردّد بين الانتماء صراحة إلى فلسفة مشائية قويّة، والميل نحو آفاق ميتافيزيقيّة مشوبة بالإشارات الصوفيّة والأفلاطونيّة المحدثة. وبهذا النحو يمكن اعتباره أبا للتيّارين المشائي الخالص الذي مثله ابن رشد، والأفلاطوني المحدث الذي نطق باسمه ابن طفيل.

يحدد مفهومان كبيران معالم الإشكاليّة الفلسفيّة لابن باجة هما: التدبير والاتصال. وقد استعملهما للتعبير عن العلاقة بين الإنسان والعقل، وبين الذات والغير.

نظريّا، كان ابن باجة يعرّف الإنسان بالعقل، لكنّه كان يعرّفه بالقوّة الفكرية تارة، والقوّة الناطقة تارة أخرى، ممّا يدلّ على أنّه كان يعني بالعقل "العقل الفعال"، وأنّه كان يضعه أفقا أعلى للإنسان، لا يصل إليه إلاّ ذوو الفطرة الفائقة. لذلك يبقى العلم النظري الذي هو خروج القوّة الناطقة من القوّة إلى الفعل، هو الذي يحدّد ذات الإنسان.

والإشكاليّة التي تسري في أعماله، ككتاب "تدبير المتوحّد"، و"رسالة الوداع"، و"رسالة الاتصال"، واحدة ولو بصور مختلفة، هي كيف يمكن للمتوحّد داخل مدينة ناقصة أن

يحقّق لذاته كمالها الأقصى دون أن يكون عليه خدمة الغير والجماعة؟ نعم، لقد اعترف ابن باجة بأهمّية الدولة في تحقيق الكمال الأخلاقي للفرد، إلا أنّه لم يجعل كمالها شرطا ضروريّا لكمال الفيلسوف. ولهذا كان اهتمامه بالاجتماع المدني فقط باعتباره مجالا يحقق فيه المتوحّد سعادته الخاصّة. ولذلك لم ينصح المتوحّد لا بالهجرة من المدينة الفاسدة، ولا بالاهتمام بإصلاحها؛ وإنّما نصحه بالعزلة، أو بصحبة نظرائه من أهل العلم والمعرفة. وهي هجرة روحيّة إلى وطن العلماء ولو في داخل المدينة الناقصة. ومع ذلك فإنّنا نجد ابن باجة يلمّح إلى إمكانية تحوّل المدينة الناقصة إلى مدينة كاملة إذا ما وجد فيها جمع من «النوابت»، وهم أفراد لهم آراء صادقة وأفعال فاضلة.

ويمكن تحقيق الغاية القصوى للمتوحّد بطريقين: الطريق الشرعي - الصوفي، الذي لا يكون بإرادة واختيار، وإنّما بموهبة إلهيّة يهبها الله لمن يشاء، كما لا تحصل السعادة فيه بالعقل والعلم وإنّما بالحواس والخيال والذكر. أمّا الطريق الطبيعي، فيكون بالعلم والإرادة والاختيار. وقد أنشأ لهذا الطريق تدبيرا جديدًا سمّاه بـ«تدبير المتوحّد»، من أجل تنظيم الحياة العلميّة والفلسفيّة للفرد. وجعله في مرتبة بين العلم الطبيعي والعلم المدني، موظفا فيه نظريات طبيعيّة وسيكولوجيّة ومعرفيّة وميتافيزيقيّة متعدّدة، كنظريّة الحركة والمحرّك، ونظريّة الفعل، ونظريّة الكمال والغاية، ونظريّة الصور الروحانيّة، ونظريّة العقل، ونظريّة البرهان، ونظريّة الاتصال، ونظريّة أنواع المدن والسير... إلخ.

والغاية من «تدبير المتوحّد» تحقيق كمالين: الكمال الأخلاقي الذي يمكّن الإنسان من التحرّر النسبي من النفس البهيميّة وإخضاعها للنفس الناطقة، ثمّ الكمال العقلي الذي يتخلّص فيه نهائيّا من تأثير النفس البهيميّة.

ويمرّ الكمال العقلي بثلاثة أطوار: طور «المعرفة العلميّة»، وموضوعها الموجودات الطّبيعيّة؛ وطور «الوعي»، وموضوعه الذات العاقلة؛ وطور «الاتّصال»، وموضوعه العقل. وفي هذا الطور يصبح العقل صورة الإنسان، أي يصير الإنسان عقلا، وهو الكمال الأقصى للإنسان الذي يقرّبه من الله، لأنّ العقل والعلم أقرب الموجودات إليه. وبهذا النحو يكون ابن باجة قد حقّق الاتصال بالانفصال عن الشرط المدني وربما حتى عن الشرط المعرفي.

وإذا كان التحرّر من الأفعال البهيميّة الجسمانيّة هو من أجل تحصيل الأفعال الإنسانية الروحانيّة، وتحصيل هذه الأفعال من أجل الأفعال العقلية، فإنّ هذه الأخيرة تنفرد بكونها تُقصد لذاتها لا لغيرها. وقد أوحت له هذه التبعية بتصنيف الناس حسب مبدأ خدمة الغير إلى ثلاث مراتب:

1) **المرتبة الجسمانية الخالصة**: ويكون فيها الإنسان خادما لغيره عبدا له، لأن أفعاله غير إنسانية تصدر عن غير رويّة واختيار.

2) **المرتبة الجسمانيّة الروحانيّة**: وهي فئة من الناس استطاعت إخضاع النفس البهيمية للنفس العاقلة دون أن تقطع معها، فيكسب أصحابها الفضائل الأخلاقيّة، ولكنّهم بأفعالهم ما زالوا يخدمون غيرهم. ويدخل ابن باجة ضمن هذه الفئة العلماء والمتصوّفة.

3) أما **المرتبة العقلية** من الناس فإن صاحبها يتمكن، بالإضافة إلى السعادة الأخلاقية، من

نيل السعادة القصوى. ومن ثم يكون وجوده لذاته لا لغيره. ويختصّ الفلاسفة بالانتماء إلى هذه الفئة.

ويصف ابن باجة تدبيره بأنه تدبير صادق، في مقابل التدابير الكاذبة التي تُستعمل لتدبير شؤون المدن الناقصة. وبسبب كثرة آراء أهلها تكثر المدن الناقصة، فتختلف أفعالها ويحدث فيها الصراع، مما يؤدّي إلى التغيّر والانقراض.

وقد استنبطت الصنائع، وخاصة صناعتي الطّب والقضاء في المدن الناقصة، لمعالجة نزاعاتها ومداواة أمراضها. في حين تتميّز الدولة الكاملة بالوحدة، لأن آراء أهلها كلّها صادقة، وأفعالها فاضلة لا تدعو إلى المشاكسة والصراع، ولذلك لا تكون بحاجة إلى صناعتي الطبّ والقضاء، بل وحتى إلى صناعة «تدبير المتوحّد». ولم يثر ابن باجة مسألة المدينة الكاملة إلا لضرورة منهجية، وهي توضيح الآثار السلبية التي تنتج عن كثرة الآراء واختلافها، وإلا فإنه لم يكن يؤمن بإمكان حصولها. لقد فصل ابن باجة الفلسفة عن السياسة، وحرّر الفيلسوف من هموم الصنائع العلميّة والغايات المدنيّة كي يتفرّغ لذاته.

ولقد عُرف عن ابن باجة إرادته في تأسيس «ديناميكا جديدة»، بفضل تعديله للمفاهيم الأرسطيّة، وابتكاره لمفاهيم جديدة. وقد انطلق من القيام بتعديل جذري لمفهوم «القوّة» الأرسطي، فأصبحت تدلّ على القدرة على الفعل، لا على العطالة عنه. ثمّ عمّم هذا المعنى الجديد للقوّة على المحرّك والمتحرّك معا، لا على المحرك فقط، كما كان عليه الحال عند أرسطو. لكن المحرّك ظلّ أقدر على التحريك من المتحرّك؛ ولهذا سمّي بالغالب، والمتحرّك بالمغلوب؛ وسمّي تبادل التأثير بينهما بـ«التغالب». و«مقاومة» المتحرّك هي شكل تحريكه للمحرّك. وأدّت فكرة «التغالب» إلى فكرة أخرى أصيلة هي فكرة «الكلال». ذلك أنّ تحريك المحرّك وتحرّكه عنه بفعل المقاومة يؤدّي إلى استهلاك قوّته وكلاله.

ومن أجل استكمال نظريّته كان عليه أن يعيد النظر في أربعة مفاهيم أساسيّة في الديناميكا الأرسطيّة هي: «الثقل، والوسط، والخلاء، واللاّمتناهي بالفعل». فقد كانت النسبة بين ثقل الجسم المتحرّك وثقل الوسط هي التي تحدّد عند أرسطو سرعة الحركة الطبيعيّة وزمانها، فتكون سرعة الجسم متناسبة عكسيًا مع مقاومة ثقل أو كثافة الوسط الذي يتحرّك فيه. وهذا معناه أنّ للوسط دورًا حاسمًا في سرعة الحركة وزمانها. لقد لاحظ ابن باجة أنّ هذه النظريّة تؤدّي إلى مأزق، ذلك أنّه لو وُجد جسم يتحرّك في خلاء لا مقاومة فيه لكانت حركته لانهائيّة.

وقد اضطرّ هذا المأزق ابن باجة أن يعيد النظر في دور «الوسط»، فلم يعد سببا في الحركة ولا في زمانها، بل صار عائقا ومقاومًا لها. معنى هذا أنّ ابن باجة فصل زمن الحركة عن الوسط الذي تجري فيه، ممّا جعله يبتكر مفهوما جديدا هو مفهوم «الزمن الأصلي». فالزمن يمكن أن يوجد للحركة حتى في غياب الوسط، أي في الخلاء. ويعني استقلال الزمن الأصلي عن الوسط أنّه يتميّز بالوحدة والثبات، فلا يتغيّر بتغيّر كثافة الوسط أو قوّة الجسم المحرّك. أمّا الزيادة على الزمن الأصلي فتختلف بحسب درجة

مقاومة الوسط، فعوّض علاقة النسبة بعلاقة الفرق، أي بطرح قوّة الوسط من قوّة المحرّك. وبهذا النحو يكون قد تلافى المأزق الأرسطي الذي أشرنا إليه، فلو افترضنا جسماً يتحرّك في فراغ، أي في وسطٍ كثافتُهُ صفر، لبقيت سرعته هي نفسها واحدة وثابتة يحددها ثقل المحرّك فقط. لقد كاد يدافع عن وجود الفراغ، ولكنّه لم يفعل ذلك صراحة.

وقد مكّنته نظريّته المبتكرة هذه من الإقدام على مغامرة جديدة تمثّلت في محاولة الخروج عن فلك بطليموس، فألغى فلك التدوير في مقابل القول بأفلاك خارجة عن المراكز.

عارض ابن باجة «الغزالي» الذي قال في كتابه «المنقذ» «بالخلوة ينكشف للإنسان العلم العقلي، ويرى الأمور الإلهيّة فيلتذ لَذّة كبيرة»، وقال إنّه خدع نفسه وخدع الناس.

كما نقد «ابن سينا» فيما ذهب إليه من أن انكشاف الأمور الإلهية والاتّصال بالملأ الأعلى يحدث التذاذًا عظيمًا، وأنّ هذا الالتذاذ هو للقوّة الخياليّة لا غير.

تأثّر ابن رشد بهذه الآراء، كذلك كان لها أثر كبير عند الفرق المسيحيّة وفلاسفة الكنيسة ممّا جعل القدّيس توماس، وألبرت الأكبر، يؤلّفان رسائل خاصّة لإبطالها.

وكان أن حمل عليه بعض معاصريه فقالوا إنّه: «قذى في عين الدّين وعذاب لأهل الهدى». جاء في كتاب «قلائد العقيان» للفتح بن خاقان: «وقد اشتهر ابن باجة بين أهل عصره بهوسه وجحوده واشتغاله بسفاسف الأمور. ولم يشتغل بغير الرياضيّات وعلم النجوم، واحتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه. وكان يقول بأنّ الدهر في تغيّر مستمرّ، وأنّ لا شيء يدوم على حال، وأنّ الإنسان كبعض النبات والحيوان، وأنّ الموت نهاية كلّ شيء...» [طوقان، العلوم عند العرب، ص 181]؛ ويرى «مونك»: «أنّ نظريّة ابن رشد في العقل والخلود التي أثار بها ابن رشد أوروبا النصرانيّة، إنّما هي نظريّة ابن باجة..». ويقول «رينان»: «ولا ريب أنّ ابن باجة من أعاظم الذين عملوا على ازدهار عصرهم ومن الذين حرصوا أن تبلغ الفلسفة العقليّة فيه المستوى الذي بلغته...».

■ آثاره

ترك لنا أبو بكر تراثا متنوّعا يجمع بين العلم والفلسفة والشعر، وإن كانت كتبه وجيزة ورسائله مختصرة، لا تتعدّى الصفحة الواحدة أحيانا. وتنقسم أعماله إلى شروح وأعمال أصيلة. تناولت شروحه أعمال أرسطو الطبيعيّة والنفسيّة، وتناولت أعمال الفارابي المنطقيّة، وأعمال أبوقراط وجالينوس الطبّيّة. أمّا رسائله وأقواله الأصيلة فتؤسس لفلسفته وتفكيره العلمي الخاص. هذا وتحفظ لنا كتب الرجال والطبقات ديوانا شعريّا غنيّا ومتنوّعا.

وتذكر لنا المصادر القديمة والتراجم الحديثة أنّ ابن باجة ترك ما يقرب من 71 من الكتب والرسائل والأقوال، تغطّي مجالات الموسيقى، والرياضيّات، والفلك، والمنطق، والطبيعيّات، والطب، والنفس، والعقل، والعلم المدني. وقد عرف جلّ الكتابات الباجيّة طريقها إلى النشر في أكثر من تحقيق واحد. وهناك ما هو محقّق ولم يعرف طريقه إلى النشر بعد، كتعاليقه وشروحه الطبيّة،

وشرحه لكتاب «الحيوان». ومن تصانيفه: 1 ـ رسالة في النبات، تح. أسين بلاسيوس، مجلّة الأندلس، مج. 5/ 1940؛ 2 ـ كتاب النفس، تح. محمد معصوم، دمشق 1960؛ وأعاد تحقيقه كمال راشق، فاس 1999؛ 3 ـ كتاب الكون والفساد، تح. محمد معصومي، مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق، 1967؛ وأعاد تحقيقه جوزيب بويج مونتادا Josef Puig Montada، مدريد 1995؛ 4 ـ شرح السماع الطبيعي، (ويضمّ 3 أقوال) تح. ماجد فخري، بيروت 1968؛ أعاد تحقيقه معن زيادة، بيروت 1978؛ 5 ـ رسائل ابن باجة الإلهيّة، (وتضمّ 6 رسائل)، تح. ماجد فخري، بيروت 1968؛ 6 ـ رسائل فلسفيّة لأبي بكر بن باجة، تح. جمال الدين العلوي، بيروت الدار البيضاء 1983، (سبق لمحمد معصومي أن نشر رسالتين منها)؛ 7 ـ تعاليق ابن باجة على البرهان، ضمن «المنطق عند الفارابي: كتاب البرهان وكتاب شرائط اليقين»، تح. ماجد فخري، بيروت 1987؛ 8 ـ تعاليق ابن باجة على منطق الفارابي، (يضمّ 7 تعاليق) تح. وتقديم ماجد فخري، بيروت 1994؛ وأعاد نشر البعض من هذه الرسائل محمد إبراهيم ألوزاد، بعنوان «التعاليق المنطقيّة»، تونس 1997، الدار العربية للكتاب؛ 9 ـ شرح الآثار العلويّة، تح. محمد مساعد، فاس 1999.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، بيروت، د.ت.، منشورات دار مكتبة الحياة، ص515 ـ 517؛ ● العلوي، جمال الدين، مؤلّفات ابن باجة، الدار البيضاء 1983؛ ● زيادة، معن، الحركة من الطبيعة إلى ما بعد الطبيعة، دراسة في فلسفة ابن باجة الأندلسي. بيروت 1995؛ ● المصباحي، محمد، أبو بكر بن باجة، من الكائن إلى الوجود: إشكليّة الإتّصال، من المعرفة إلى العقل، بيروت 1990؛ ● الوزاد، محمد، القول الإنسي لابن باجة، الدار البيضاء 1994؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط.ج. مجلّد 3، فصل ابن باجة؛ ● دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، طهران 1416/ 1995، 2/ 436؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 7/ 137؛

● Moody, E. "Galileo and Avempace: Dynamics of Learning Tower Experiment", Journal of the history of Ideas , XII (1951.179-206,375-422); ● Munk,S., Mélange de philosophie juive et arabe, 2è éd.,Paris, 1955; ● Pinès,S., La dynamique d' Ibn Bajja, in l'Aventure de la science, Mélanges alexer Koyrhé, Paris, 1964; ● I.J. Rosenthal, The place of Politics in the philosophy of Ibn Bajja, Islamic Culture, 25, 1951, 187-211; ● Juaquin Lomba Fuentes, Avempace o la pasion por el espiritu, Madrid, 1999; ● Zinati, G.,La morale d'Avempace, Paris, 1979.

د. محمد المصباحي
جامعة محمد الخامس ـ المغرب
د. زياد حسين دغيش المصري
جامعة الملك سعود ـ السعودية

الباجوري، إبراهيم بن محمد

(1198هـ/1784م - 1277هـ/1860م)

إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري أو البيجوري، متكلّم وفقيه شافعي. ولد سنة 1198هـ/ 1784م ببلدة الباجور بمديرية المنوفية بمصر. وبها حفظ القرآن. ثم انتقل إلى الأزهر سنة 1212هـ. خرج إلى الجيزة عندما دخل الفرنسيون مصر سنة 1213هـ. ثم عاد بعد خروجهم للاشتغال بالعلم.

أدرك الشيخ محمد الأمير الكبير، والشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ داود القلعاوي. وكان أكثر تحصيله على شيخه محمد الفضالي، والشيخ حسن القويسني. ثم درّس بالأزهر وذاع صيته بين المشايخ إلى أن أصبح شيخ الأزهر سنة 1363هـ. وكان عبّاس باشا يحضر دروسه بالأزهر. وقرأ الشيخ الباجوري آنذاك تفسير فخر الدين الرازي وشرحه، لكنه لم يكمله. وجدّت بالأزهر حوادث وكان الشيخ آنذاك طاعن السنّ، فعيّن على المشيخة أربعة وكلاء، إلى أن آلت إلى الشيخ مصطفى العروسي. وتوفي الباجوري سنة 1277هـ/ 1860م.

ينتمي الباجوري في مذهبه إلى الكلام الأشعري المتأخر. نذكر أنّ ابن خلدون في المقدّمة [ص 834 وما يليها] ميّز في تاريخ علم الكلام بين **طريقتين**: طريقة المتقدمين التي وضعها الباقلاني، وطريقة المتأخرين التي بدأت مع الغزالي. وتقوم **الطريقة الأولى** على مقدّمات عقلية تتوقّف عليها الأدلّة، ومنها إثبات الجوهر الفرد والخلاء؛ وأن العرض لا يقوم بالعرض، وأنّه لا يبقى زمانين. وألحقت هذه الأدلّة بالعقائد من حيث وجوب الإيمان بها، نظرا إلى توقّف الأدلّة عليها. واعتمدت في ذلك قاعدة تعاكس الدليل والمدلول، أي أنّ بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول. وكانت هذه الطريقة تنبذ صناعة المنطق لملابستها للعلوم الفلسفية. ثمّ انتشر المنطق بعد الجويني لأنّه فُصل عن العلوم الفلسفية واعتبر قانونا ومعيارا للأدلّة فقط. وتخلّى المتكلّمون عن تلك المقدّمات العقلية التي كان عليها اعتماد المتقدّمين في استدلالاتهم، واستبدلوها ببراهين استوحوا جلّها من الطبيعيات والإلهيّات الفلسفية. وتخلّوا عن قاعدة تعاكس الدليل والمدلول. وبدأت **طريقة المتأخرين** هذه مع الغزالي وتبعه فيها فخر الدين الرازي. ثمّ إنّ المتأخرين من بعدهم واصلوا معاشرة كتب الفلسفة والتبس عليهم شأن الموضوع فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل فيهما. . . ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين، والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميّز أحد الفنّين عن الآخر، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوالع ومن

جاء بعده من علماء العجم [المقدمة، ص836 ـ 837].

لقد كان انتماء الباجوري إلى المذهب الأشعري المتأخر بعد أن دخل فترة المحافظة والجمود الطويلة. وقد كثرت تآليفه واشتهرت واعتمدت في التدريس. وجلّها من نوع الشروح على كتب شهيرة، أو الحواشي على هذه الشروح. وتآليفه إن كانت تيسّر الشروح والمتون فإن نصيبها من الإبداع والطرافة والتجديد قليل، وهذه كانت السمة الغالبة على تآليف العصر.

آثاره

1 ـ تحفة البشر على مولد ابن حجر، وهو حاشية على مولد الإمام ابن حجر الهيثمي، ألّفها الباجوري سنة 1225هـ؛ 2 ـ التحفة الخيرية على الفوائد الشنشوْرية، في الفرائض والميراث، ألّفه سنة 1236هـ (تعليق على شرح الشنشوري لأرجوزة الرّحبي)؛ 3 ـ تحفة المريد، وهو حاشية على جوهرة التوحيد القصيدة الشهيرة لإبراهيم برهان الدين اللقّاني في علم الكلام. ألّف البيجوري هذه الحاشية سنة 1234هـ، طبعت طبعات عديدة بالقاهرة، منها بالمطبعة العلمية سنة 1315هـ، وأخرى بالمطبعة الأزهرية سنة 1345هـ/ 1926م، وطبعة سنة 1352هـ/ 1934م، وطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاته سنة 1376هـ/ 1956م، ومنها نشرة بدار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ/ 1983م؛ 4 ـ تحقيق المقام على كفاية العوام فيما يجب عليهم من علم الكلام، لشيخه محمد الفضالي، ألّفها سنة 1223هـ، ط. بمطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده بمصر سنة 1341هـ؛ 5 ـ حاشية الإسعاد على بانت سعاد، في مديح الرسول، ألّفها سنة 1234هـ، ط. بمطبعة الميمنية بالقاهرة سنة 1321هـ؛ 6 ـ حاشية على أمّ البراهين والعقائد، او العقيدة الصغرى للسنوسي، ألّفها سنة 1227هـ، ط. بالمطبعة البهية بالقاهرة سنة 1305هـ، بالقاهرة كذلك سنة 1352هـ؛ 7 ـ حاشية على رسالة «لا إله إلاّ اللّه»، للشيخ محمد الفضالي، ألّفها سنة 1222هـ، ط. بالمطبعة الميمنية بالقاهرة سنة 1320هـ/ 1902م؛ 8 ـ حاشية على شرح السنوسي، في علم المنطق، ألّفها سنة 1225هـ؛ 9 ـ حاشية على «الفتح القريب»، وهو شرح ابن قاسم الغزّي على متن الشيخ أبي شجاع التقريب أو المختصر (في الفقه الشافعي) ألّفها سنة 1258هـ؛ 10 ـ حاشية على متن البردة للبوصيري، ألّفها سنة 1229هـ، طبعت بالقاهرة 1318هـ؛ 11 ـ حاشية على متن السلّم المرونق، في المنطق للأخضري، ألّفها سنة 1226هـ، ط. القاهرة سنة 1947م؛ 12 ـ حاشية على متن السمرقندية لليث السمرقندي في الاستعارات، في البلاغة، ألّفها سنة 1226هـ (شرح كتاب الفرائد والفوائد في الاستعارة لليث السمرقندي)، طبعت بالقاهرة سنة 1291هـ؛ 13 ـ حاشية على مولد الشيخ أحمد الدردير، ألّفها سنة 1227هـ؛ 14 ـ الدرر الحسان على فتح الرحمن فيما يحصل به الإسلام والإيمان للزبيدي، ألّفه سنة 1238هـ؛ 15 ـ رسالة صغيرة في علم التوحيد، ألّفها سنة 1238هـ؛ 16 ـ فتح الخبير اللطيف، شرح نظم الترصيف في علم التصريف للشيخ عبد الرحمن بن عيسى المرشدي، ألّفه سنة

1227هـ؛ 17 ـ فتح رب البرية على الدرّة البهيّة في شرح نظم الأجرومية للشيخ شرف الدين يحيى العمريطي، ألّفها سنة 1229هـ؛ 18 ـ فتح القريب المجيب بشرح بداية المريد للشيخ السباعي، ألّفها سنة 1224هـ؛ 19 ـ المواهب اللدنّية على الشمائل المحمّدية للحافظ محمد بن عيسى الترمذي، ألّفها سنة 1251هـ، وطبعت بالمطبعة الخيرية بالقاهرة سنة 1318هـ؛ 20 ـ منح الفتاح على ضوء المصباح، في أحكام النكاح، ألّفه سنة 1234هـ.

المصادر والمراجع

• ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط3، 1967؛ • اسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، إستنبول، سنة 1951، ج. 1، ص41؛ • سركيس، معجم المطبوعات العربية، القاهرة، 1928، ص 507؛ • الزركلي، الأعلام، ط. 14، سنة 1999، ج1/ 71؛

• كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1376هـ/ 1957م، ج1/ 84؛ • لويس غرديه وج.قنواتي، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، نقله إلى العربية الشيخ الدكتور صبحي الصالح والأب الدكتور فريد جبر، دار العلم للملايين بيروت 1967 ـ 1969.

• Brockelmann (carl), Geschichte der arabischen litteratur, Leiden, Brill, II, 1944, P639, suppl II. Brill, 1938. P. 741; • Th. W. Johnboll, art. Bâdjûrî, in Encyclopédie de l'Islam, Ed. 2, Leiden / Paris, 1975, T.I. p. 891-892; • Gilbert Delanoué, Moralistes et politiques Musulmans dans l'Egypte du 19è siècle, Université de Lille, 1980, p. 120-127.

د. مقداد عرفة
جامعة تونس

الباجي، أبو سعيد، خلف بن يحيى

(551هـ/ 1156م ـ 628هـ/ 1231م)

ولد أبو سعيد خلف بن يحيى التّميمي الباجي ببلدة باجة القديمة من ضواحي مدينة تونس الغربيّة، وبها تلقى تعلمه الأوّل. ظهر عليه، منذ حداثة سنّه، ميله إلى إيثار الحياة الرّوحيّة والتّعمّق في التصوّف والسّير في طريقه، قبل أن يلتقي بثلاثة من أكابر أقطاب التّصوّف في تلك الفترة، ويكون لهم تأثير بارز في حياته وهم أبو مروان البوني (ت 621 هـ/ 1224م) وأبو مدين شعيب (ت 594 هـ/ 1197 م) وعبد العزيز المهدوي (ت 621 هـ/ 1224م) الذي تتلمذ بدوره إلى أبي مدين شعيب، إضافة إلى

التقائه بأبي علي النّفطي وأبي يوسف يعقوب الدّهماني والطّاهر المزوغي. وكلّ هؤلاء كانوا من حَمَلَة العلم ومن أقطاب التّصوّف في تلك الفترة، كما ترجّح بعض المصادر التقاء أبي سعيد الباجي بمحيي الدّين بن عربي (ت 638 هـ/ 1240م) وذلك أثناء نزوله عند عبد العزيز المهدوي بالمرسي.

كان أبو سعيد الباجي علامة بارزة في الحياة الصوفيّة بإفريقيّة زمن الدولة الحفصيّة. إليه آل مجلس المهدوي للصوفيّة وصار شيخًا له، كما تتلمذ له أبو الحسن الشاذلي وبرعاية منه اكتمل عرفانه الصوفي، لاسيما أنّه عرف حاله مذ رآه، كما تكلّم بذلك أبو الحسن الشاذلي نفسه.

كان أبو سعيد الباجي ميّالا إلى فعل الخير وإغاثة النّاس والاجتهاد في قضاء حوائجهم مع حبّ العلم والانقطاع إلى الزّهد والمجاهدة وإيثار التأمّل والاعتكاف في الخلوات والمرابطة في المغارات. وقد هام بالمحبّة الإلهيّة كما جاء في مناقبه التي كتبها أبو الحسن علي بن القاسم الهوّاري (ت 666 هـ/ 1270م) ضمن مجموع يضمّ ترجمة لعدد من أولياء الحاضرة.

خرج أبو سعيد الباجي من باجة القديمة إلى الحجّ سنة 603 هـ/ 1206م ومنها انتقل إلى الشّام. ثمّ رجع إلى تونس سنة (606 هـ/ 1210م)، فازداد عدد أتباعه وذاع صيته بعدما اعتاد الإعراض عن النّاس والاشتغال بخصيصة نفسه، فاتّخذ من مغارة المعشوق بجبل التّوبة، ميعادا لحلقة ذكره، فسن بذلك منهجا ومقصدا متفردا في الحياة الرّوحيّة.

وبقي ما يزيد على العشرين سنة ينشر مبادئ التّصوّف بين سكّان الحاضرة وأحوازها رافضا كلّ العروض والهدايا والمناصب التي قدّمها إليه السّيد أبو العلا الموحّدي، المناصر للصّوفيّة، الذي تولّى أمر إفريقيّة ما بين (619 هـ/ 1221م - 623 هـ/ 1223م)، واشتهر أبو سعيد الباجي بتدريس أسرار التصوف ومبادئه بمجلسه بربوة المنار حيث كان له كلام كثير في التّوحيد والمعاملات ومراتب المكاشفة وحقائق المواهب. كما تبرز مناقبه سعة علمه ومدى اطّلاعه على فقه الشّرع وقدرته على الافتاء في أداء الفرائض والواجبات من جهة الوقت والمكان. ولم يكن علمه ينفصل عن حياته الرّوحيّة وتأمّله ومجاهداته، سيما وأنّه كان دائم الإقامة بربوة جبل المنار التي اختارها مكانا للزّهد والعبادة.

لقد وصف أبو القاسم الهوّاري لنا حالة التّواضع والتّقشّف القصوى التي غلبت على شيخه منذ بدء أمره وسلوكه طريق التّصوّف.

ويكشف نصّ مناقبه، في سياق آخر، عن ذيوع صيته مشرقا ومغربا والاعتداد بعلمه. من ذلك أنّ أحد العلماء من أهل قرطبة شغل خطّة القضاء بتونس، كان حريصا على أن يرسل بكتبه إلى مجلس الشّيخ أبي سعيد. وفي تعليله لذلك قال: «إنّي أريد أن أرسل إليه جميع كتبي لتكون عنده فتقرأ عليه في مجلسه بعد موتي...».

ولم يكن أبو سعيد يهتمّ كثيرا بمعرفة النّاس ومخالطتهم أو مجادلتهم في آرائهم رغم اهتمامه بالعلماء واطلاعه على مختلف المذاهب وأسرار العلوم، إذ «كان في أوّل

ابتداء مقامه ملازما لمسجد برباط البحر (باب البحر بمدينة تونس حاليّا) لا يعرفه إذ ذاك إلاّ نفر قليل من النّاس مثل الحاج أبي العبّاس السّاحلي، والحاج أبي الحجاج يوسف الصيّاد المعروف بابن الشمّاع، وكان هذا الشّيخ من خاصّته عاش بعده مدّة من الزّمان ونقل عنه كثيرا... ومنهم الشّيخ الصّالح المبارك المغربي أبو الفرج إبراهيم».

وقد دخل الشّيخ على إثر عودته من الحجّ في غيبة هي بمثابة الخلوة حيث عاش بمعزل عن النّاس مستغرقا في تأمّلاته، ومكرّسا كل وقته للذّكر والتّهجد، كما كان حريصا على عدم تشويش طريقه بخواطر الحياة الدّنيا وملابساتها، خاصّة أنّ الدّخول في الغيبة وإطالة المكوث فيها تعدّ علامة صدق في الطّريق، بل إنّ البعض اعتبر ذلك من شروط الطّريق الصّوفي، وهو ما أكّد عليه القشيري في «الرّسالة».

وقد تحدّث أبو سعيد الباجي عن تلك الفترة قائلا: «أقمت بتونس بعد رجوعي من الحجّ مدّة من السّنين لا يعرفني أحد، وكنت أخرج في الأعياد إلى المصلّى وأرجع إلى منزلي ولم يسلّم عليّ أحد غير هؤلاء الذين ذكرت».

وكان لمثل هذه الفضائل مجتمعة الأثر الكبير في تبوّؤ الشّيخ أبي سعيد الباجي مكانة اجتماعيّة وعلميّة ودينيّة هامّة جعلته مقصد الزّائرين إلى تونس من أهل العلم والصّلاح... وفي هذا يقول مؤلف مناقبه: «حدّثني الشّيخ الفقيه المغربي أبو علي عمر النّصري قال: لمّا وردنا أنا وأخي ودخلنا مدينة تونس سألنا عمّن فيها من المشائخ فدلّونا على الشّيخ أبي سعيد رحمه الله».

لقد كان لمنهج أبي سعيد الباجي في الحياة الرّوحيّة أثر بيّن في السّائرين في الطّريق الصوفي حيث تخرّج من حلقته عدد من أبرز أقطاب التّصوّف، لعلّ أبا الحسن الشّاذلي أبرزهم، فقد قال: «لمّا دخلت تونس قصدت من فيها فما عرفني بما أنا كنت في حيرة منه إلاّ الشّيخ الصّالح أبو سعيد الباجي فإنّه أخبرني بحالي قبل أن أبديه وتكلّم على سرّي فعلمت أنه وليّ الله، فلازمته وانتفعت به كثيرا». كما حملت بعض أرجاء الحاضرة وضواحيها اسمه مثل جبل المنار الذي اتّخذه الشّيخ مقاما له وفضاء للذّكر والتّعبّد والتّأمّل، وذلك لما فيه من خصائص طبيعيّة تجعل المتعبّد في نشوة روحيّة متواصلة، وقد أصبح يعرف بعد وفاته بجبل أبي سعيد وهو مقصد العديد من المرابطين التقاة.

المصادر والمراجع

● مناقب أبي سعيد الباجي، دار الكتب الوطنيّة، رصيد حسن حسني عبد الوهاب، رقم 17945؛ ● ابن الصّباغ، محمّد بن أبي القاسم الحميدي، درّة الأسرار وتحفة الأبرار في مناقب أبي الحسن الشّاذلي وتلميذه أبي العبّاس المرسي، ط تونس 1304هـ/ 1886م؛ ● الوزير السّراج، الحلل السّندسيّة، ج 3، تح. محمّد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي 1986؛ ● ابن الطّواح، عبد الواحد، سبك المقال لفكّ العقال، تح. ودراسة مجمع مسعود جبران، دار الغرب الإسلامي، 1995؛ ● النّيال، البهلي، الحقيقة التّاريخيّة للتّصوّف الإسلامي، مكتبة النّجاح، تونس 1965؛ ● روبار

برنشفيك، تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي، نقله إلى العربيّة حمّادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986؛

- Zbis, "Sidi Bousaid", Slimane Mustapha, Société Tunisienne de Diffusion, Tunis 1971.

محمّد الكحلاوي

باحث في التراث الصوفي ـ تونس

الباجي، محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف

(1109هـ/1698م ـ 1185هـ/1772م)

أخطأ كثيرون في إيراد الاسم الصحيح لهذا المؤرخ التونسي، إذ كثيرا ما ألصقت به كنية الصغيّر الباجي حتّى أنه لا يعرف عند بعضهم إلاّ بها. والحال أنّ اسمه الحقيقي الكامل كما ورد بخطّ يده هو محمد بن محمد الملقّب بالصغيّر (أبوه) بن يوسف (جدّه)، الباجي مولدًا ومسكنا، الحنفي مذهبًا. وربّما أضاف المترجم صفة الحاج إلى اسم أبيه أحيانا في تآليفه. وربّما، تسرب الخلط نتيجة ما كتب بالاتحاف من جهة، ونتيجة ما ورد بالنسخة المترجمة من كتاب المشرع الملكي، من جهة ثانية. فالصغير هو ما لقّب به الأب ممّا قد يشعر «بالذم» باعتبار معناه الأصليّ. وقد أفاد بعض الباحثين بسنة ولادة المترجم له بصورة تقريبية. فقد افترض أحمد عبد السلام أنّ ولادته كانت سنة 1105هـ / 93 ـ 1694 م على حين افترض الباحثان محمد عجينة وتوفيق الزيراوي أنّ ولادته كانت سنة 1112هـ / 1700م. ونعتقد من ناحيتنا أن عديد المؤشرات قد تمكّننا من مزيد التدقيق، إذ نعلم أنّ الوباء الذي حدث في عهد إبراهيم الشريف كان قد داهمه «وهو صغير لا يعي شيئا». فإذا علمنا أنّ الوباء المذكور كان قد حدث سنة 1703م وأنّ تاريخ ولادة المترجم له كان قبل حدوث الوباء بخمس سنوات على الأقل من هذا التاريخ من جهة، وإذا علمنا أنّ آخر راتب كان قد تحصّل عليه باعتباره كورغليّا تمّ في ديسمبر 1741م وأنّه كان آنذاك «في آخر الكهولة» عند قطع هذا الراتب، فيكون عمره على الأقل 45 سنة. تبعا لكلّ ما تقدم نرجح أن تكون ولادته فيما بين سنوات 1696 أو 1698م خلافا للتاريخين الآخرين المفترضين كذلك.

ولعل عدم انتساب هذا المؤرخ إلى الخطط النبيلة، لا سيّما الخطط العلمية قد عسّر أمر التعرف على تاريخ ولادته، وكذا على مجمل حياته إذ لم تخصّه كتب التراجم والسير بتعريف، وربّما أسعفتنا بعض المعطيات المتناثرة ضمن متن تآليفه بالتعرّف على بعض المحطات الكبرى من حياته: فأصل هذا

المؤرّخ كورغلي (أمّ محلّية وأب من أصل تركي) استقرّت عائلته بباجة حيث ولد، وقد أصيبت العائلة بمحنة أولى في عهد محمد باي بن مراد نفي على إثرها الكورغلية من هذه المدينة، وإذ كان محمد الصغيّر الأب لوّاجا (من شرطة الأسواق) بافريقية وعارفا بالتالي بمداخل هذه المنطقة وخباياها فقد كان يقيم عند أحبابه نهارا ويعود زوجته ليلا متخفّيا حتى انجلاء المحنة، بما مكّنه من ردّ أملاكه بالشراء مثلما فعل غيره من الكراغلة إثر بيعها بأبخس الأثمان تنكيلا بهم.

ويفيدنا محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف الباجي بأنه كان في وضع اجتماعي ميسور في أوّل حياته، إذ كان مالكا لعقارات فلاحية ويشغّل بضيعته عديد المزارعين (خمّاسة) فضلا عن اهتمامه بتربية المواشي وامتلاكه عددا لا يستهان به من حيوانات الحرث والجرّ. غير أنّ هذه الثروة بدأت في التناقص فالإتلاف بفعل اندلاع تغيّر الظرفية المحلّيّة والدوليّة منذ 1727 ـ 1728م. وممّا ضاعف الرزيّة أنّ عليّ باشا قد أمر بقطع رواتب الكورغليّة منذ وصوله السلطة (1740 م) بدعوى تعاطفهم مع حسين بن عليّ، كما أجبرهم على استيطان مدينة تونس قسرا سنة 1746م خوفا من دعمهم لأبناء حسين بن عليّ عند محاولتهم الأولى استرجاع السلطة بدعم من الجزائريين، إذ خرج المترجم له من قرية باجة غنيّا فرجع إليها بعد عام فقيرًا.

ولم تكن حياة المترجم له سوى مرآة مصغّرة لواقع البلاد التي عرفت خلال الربع الأوّل من القرن الثامن عشر شكلا من أشكال الرخاء النسبي، على حين شهدت تراجعًا تدريجيّا إثر ذلك بفعل تتالي الصراعات السياسية بين أجنحة السلطة ونهب قوة العمل من قِبل مراكز القوى وممثليهم من عسكر ومخازنيّة، وهو ما عبّرت عنه جلّ تآليف محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف ذاته من خلال إيراده معلومات طريفة حول تطوّر الأسعار وكمّيات الإنتاج وقيمة العملة، وتطوّر المعاملات التجارية بالداخل والخارج والتحوّلات الخاصّة بمسالك التوزيع... إلخ.

كما أنّ تشيّع المترجم له إلى الشقّ الحسيني ومحاربته عرضا في صفوفه (معركة سمنجة)، أورث بعض الوهن عند أنصار الشقّ المقابل، ومثل ذلك خلّف الافتقار التدريجيّ فضلا عن الانهيار الاجتماعي، سيّما أنّ البايات الحسينيين العائدين إلى السلطة كانوا غير قادرين على إعادة الاعتبار بسرعة إلى الشرائح الداعمة لهم بفعل التزاماتهم المالية وغيرها لحكّام الجزائر.

ولم ينتسب محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف إلى دار علم أو إلى نخبة علمية حتى نجد ارتياده مسلك التأليف والكتابة أمرا طبيعيّا، بل يبدو أنّ تتالي خيبات الرجل السياسيّة وتناقص موارده المالية والاقتصادية فضلا عن تردّده على العاصمة قسرًا أو عن طواعية قد أحوجه إلى ارتياد هذا الميدان. غير أنّ انطلاقه سنة 1177هـ / 63 ـ 1764م في تأليف «المشرع الملكي»، قد يكون ارتبط بحدثين هامّين حصلا سنة 1176هـ / 62 ـ 1763م. ويتمثّل الحدث الأوّل في تجدّد خروج بعض المناطق الداخلية هذه السنة على السلطة المركزيّة ومعاودة جبل عمدون بالذات الانتفاضة، مما ألجأ السلطة إلى استعمال المحلّة لقمع الخارجين وتغريمهم. أمّا الحدث الثاني فيتمثّل في تغافل السلطة

المركزية ذاتها عن اتخاذ التدابير للتقرب من سكّان الدواخل، فقد انتقد المترجم له مثلا بشدة مسير عليّ باي بمحلة الشتاء إلى القيروان خلال هذه السنة بالذات و«عدم مسيره في محلّة الصيف إلى باجة» بما يفيد تبرّمه وقلقه وعدم اتّعاظ أولي الأمر من أحداث الماضي القريب منها والبعيد.

والأكيد أنّ اهتمام محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف الباجي بالكتابة، والكتابة التاريخية تحديدا، يندرج ضمن هذا السياق فالتأليف كان أوّلا وأساسا مدخلا لإبلاغ موعظة وتقديم درس وإيصال رسالة قبل أن يكون الإعلام بأخبار أو سرد أحداث. كما يبدو أنّ اتّساع شبكة علاقاته وصداقاته، والتصاقه اليومي بالأحداث وتحوّلاتها، زيادة على شغفه بتسقّط الأخبار... قد ولّدت فيه أيضا هذه الرغبة في الإفادة بما تيسّر لديه من معلومات تاريخيّة، بيد أننا نجانب الصواب إن لم نبيّن أيضا استفادة محمد بن محمد بن يوسف الباجي من مجمل مطالعاته الخاصة بما يشي بانكبابه على أمّهات التآليف المختصّة لدراستها والغوص في مادّتها والانتفاع بثراء محتوياتها، وبما يعني توفّر مكتبة معتبرة لديه بإشارته مرّات إلى ذلك، وبدليل حصوله على أحدث ما استقدمه عليّ باشا من تآليف وبالخصوص كتاب «العبر» لابن خلدون واعتماده إيّاه بإطناب في بعض تآليفه.

وإزاء هذا التحصيل المعرفي، نقف حائرين وسط حكمين متناقضين بشأن المترجم له: فعلى حين قلّل البعض من مكانة محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف الباجي متهما إيّاه بجهله حتّى اللغة الفصيحة بل هو «لم يتعلّمها» إطلاقا، وذهب آخرون إلى اعتباره «عالما تحريرًا، موقّرا عند الأمراء والعامّة» والأكيد أنّ الحقيقة تكمن بعيدا عن الطرفين: ذلك أنّ المترجم له قد انتفع لا محالة بقدر من العلم والتحصيل دون أن يؤهّله ذلك إلى الارتقاء إلى مرتبة العلماء، كما أنّ استعماله اللهجة المحلّية «العامّية» في تآليفه لا ينقص في شيء من قيمة تحصيله، سيّما إن كان استعمال ذلك يتنزّل بغاية تقريب الفهم وإبلاغ الخبر بيسر بعيدًا عن التحذلق في تخيّر اللفظ وتنميقه سيّما أنّ الباجي كان قد صدّر كتابه «المشرع الملكي» بالتنكيت على أولئك المعسّرين في أمر الكتابة المتكلفين في انتقاء ألفاظها حدّ الإغراب. وعلى أيّ حال فإنّ ما توفّر بتآليف أبي عبد الله محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف الباجي من حكم تراثيّة ومأثورات أخلاقية وأبيات شعريّة وآيات قرآنية مضمّنة أو مقتبسة، فضلا عمّا توفّر بها من معلومات تاريخية ومعطيات جغرافية ودقّة ملاحظات واستنتاجات... جميع ذلك يؤكّد أنّ المترجم له كان أقرب إلى الانسان المثقّف الذي حنّكته المحن والأيّام منه إلى الإنسان العالم.

آثاره

1 ـ المشرع الملكي في سلطنة أولاد عليّ التركي. يعتبر هذا الكتاب أهمّ تآليفه، وهو سفر مازال مخطوطا في أغلبه في المكتبة الوطنية، تونس 1989؛ رغم قيام بعض الباحثين بتحقيقه جزئيّا، وقد بدأ صاحبه في تأليفه سنة 1177هـ / 63 ـ 1764م، وهو محاولة في رصد أهمّ محطّات تاريخ تونس منذ وصول حسين بن عليّ إلى السلطة حتّى فترة عليّ باي. وقد قسّمه إلى أربعة أبواب، أجمل في الباب الأوّل مآثر أوّل البايات أخذا

عن كتاب ذيل بشائر أهل الايمان لحسين خوجة (21 ورقة) لكي يفرد أكثر من نصف الكتاب فيما بعد ـ وهو الباب الثاني ـ إلى أخبار عليّ باشا منذ خروجه على عمّه وفراره إلى جبل وسلات، فالحديث عن دولته (200 ورقة). أمّا الباب الثالث (7 ورقات) والرابع (17 ورقة) فقد خصّصهما المؤلف للحديث تباعًا عن دولتي محمد باي وعليّ باي إثر عودتهما من الجزائر وأخذهما السلطة.

والصبغة الإخباريّة هي الصبغة الغالبة في هذا التأليف، شأنه شأن تآليفه الأخرى: إذ يتسقّط المؤلف المعلومة ويوردها كلّها مضيفًا أحيانًا روايات أخرى سمعها أو علمها بشأن الخبر ذاته ليوردها في شكل ملاحم بطولية وقصص شعبيّة يمكن أن تستقيم بذاتها. وإذ لم يلتصق الباجي بالبلاط فإنّ أغلب معلوماته لم يكتسبها من وثائق رسميّة بل هي معطيات توفّرت على هامش التاريخ الرسمي، ولذلك يعدّ المشرع عملا مهمّا من هذه الزاوية لتوفّره على معلومات بخصوص الحياة اليوميّة والعلاقات الاجتماعية وبعض المعطيات الاقتصادية فضلا عن الصراعات القائمة بين أجنحة السلطة وأخبار المعارك العسكرية... إلخ، بل ربّما مكّنه ابتعاده عن البلاط وتاريخه الرسمي من أخذ فسحة عن الحكّام أنفسهم فنقد حسين باي لتردّده في اتّخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب مؤاخذا علي باشا على عديد المظالم التي ارتكبها في حقّ الكراغلة وعلى أخذه طبرقة وتامكرت من أيدي الفرنسيين، كما قرّع عليّ باي حاكم وقته في مواطن عدّة...

ولم يعتمد محمد بن محمد الصغيّر بن يوسف الباجي من المؤلفات المكتوبة غير كتاب حسين خوجة ذيل بشائر أهل الايمان إذ انتقى منه بعض المعلومات حول «فضائل» حسين بن عليّ من 1705 حتّى 1726م. ثمّ اهتمّ بالفترة التي تليها إذ كان حينئذ شاهد عيان على الاحداث. وإلى جانب اعتماده على بعض «الجذاذات» التي لا نعلم مصدرها، فقد كان يستمدّ معلوماته من معايناته، ومشاركته في صنع الحدث (معركة سمنجة مثلا) وممّا تناقلته الألسن وممّا سمعه، فيبيّن آنذاك من نقل عنهم مثل الصبايحيّة والمماليك أو الكتبة، وربّما ذكر لنا مرّات أسماء مصادره الشفوية (جاب الله بوفردة مثلا) ملحّا على مدى ثقته بالراوي وبالرواية... وربما أقرّ صراحة ضمن منهجه هذا ببطلان الخبر الذي تمّ إيراده جملة وتفصيلا، مبرّرا عجزه عن الإتيان بالخبر اليقين بأنّه «عن محطّ الدولة (تونس العاصمة) بعيد الدار في تحقيق الأخبار».

ولئن توقّفت أخبار المشرع مبدئيًا في متن التأليف عند أواخر ذي الحجّة 1177هـ / أواخر جوان 1764م إلاّ أنّ المؤلّف أردف ملحقًا بثلاث ورقات حوصل بها ما وقع من أحداث فيما بين التاريخ المذكور وذي القعدة الحرام 1184هـ / فيفري 1771م وهو ما يؤكّد أنّ الباجي قد دعا إلى تأليفه ليُتمّ ما كان قد بدأ فيه وربّما ليعدّله أيضًا.

2 ـ التكميل المشفي للغليل (مخطوط، مكتبة وطنية تونس، و. 244) انتهى منه في حجّة الحرام 1181هـ / أفريل 1768م. وقد ذهبنا أيضًا إلى أنّ المترجم له، وقد استهوته الكتابة التاريخيّة قد رغب في أن يضع تأليفا جامعا لتاريخ البلاد أشمل وأوسع إثر استصغاره

المشرع. فجاء هذا التأليف في قسمه الأوّل (134 ورقة) عبارة عن نقل لما ورد بكتاب العبر لابن خلدون، الجزء السادس، حول العرب وأقسامهم ودولهم وبعض أخبارهم وحتّى دخولهم بلاد المغرب، ثمّ بحث في أخبار البربر ومواطنهم بإفريقية والمغرب وصولا إلى دولة الموحّدين والحفصيين. ويكمّل التكميل، مثلما أراده مؤلفه، ما توقّف عنده ابن خلدون. إذ يهتمّ في قسمه الثاني (110 ورقة) بتاريخ البلاد من سنة 796 هـ/ 1394م إلى 1181 هـ/ 7 ـ 1768م ويبدو هذا القسم أكثر ثراء لأنه متعدّد المصادر وفيه يُجمل المؤرّخ ما وجده ببعض المصادر المعروفة كالزركشي وابن الشماع والرصّاع وابن أبي دينار والترجمان وحسين خوجة والسرّاج، كما اعتمد ذات المصادر الشفويّة للنظر في تاريخ فترة البايات الأربعة الأوائل حتّى جاءت هذه الفقرة حوصلة لما جاء في المشرع عدا بعض الزيادات التي أثرى بها النصّ الأصلي. ولعلّ أهمّ الزيادات تلك الطرات التي كتبت بخطّ المؤلف ذاته والتي تدعم ما وجد بالمتن أو تعدّله، وأثرى تلك الطرّات ما كتب سنة 1185هـ/ 1 ـ 1772م بما يفيد استتباب الأمن نهائيًا للحسينيين واستئصال شوكة كلّ أنواع المعارضة سواء القبليّة منها أو في صلب الأسرة الحاكمة من جهة، وبما يفيد أيضا في أمر حياة المترجم له من جهة ثانية، ذلك أنه جاء بهامش المتن طرّة أعلمت بوفاة ولد ليونس ودفنه في تربة البايات في أوائل ذي القعدة 1185هـ/ فيفري 1772 م، وهو ما يؤكّد لدينا أنّ محمد بن محمد بن يوسف الباجي قد بقي حيًا إلى حدّ ذلك التاريخ على الأقلّ.

3 ـ ذيل لرسالتين نسخهما بخط يده في أواسط ربيع الثاني 1181هـ/ أواسط سبتمبر 1767 م، والرسالتان من تأليف الشيخ محمد بن عبد الله بن ظفر تحمل الأولى عنوان «أبناء نُجباء الأبناء»، (51 ورقة)، والثانية «سلوان المطاع في عدوان» الأتباع (49 ورقة). أما تذييل المترجم له فيحمل عنوان «أعز ما يطلب وأغنى ما يكسب» انصبّ فيه اهتمام المؤلف على تقصّي المادّة التاريخيّة الخاصّة بدول المشرق سيّما منها دولتي الروم والفرس وصراعهما حول بلاد اليمن وتدخل جيوش الحبشة في الأمر. كما اهتمّ الذيل ببدء عمليّات الفتح بالمشرق العربي. ويعدّ هذا التذييل استنساخا حرفيًا لما ورد بمؤلفات ابن الوردي وأبي الفداء وابن الجوزي وابن ظفر والمسعودي وابن خلكان وابن خلدون. كما اعتمد بقدر كبير على «سمط الآل في معرفة الرجال» للشيخ محمد بن قويسم التونسي. غير أنّ الجامع يبرُزُ أحيانا، بتعليقاته الخفيفة بين الفقرة والأخرى، بخصوص ضرورة الاعتبار من دروس التاريخ.

على أنّ ما تطفح به كتابات محمد بن محمد الملقّب بالصغير بن يوسف الباجي التاريخية وتخصيصا كتابه الذي عرف به أكثر وهو «المشرع الملكي» هو صدقه وعدم تكلّفه سيّما إذا قُورن المجلّد المذكور بتأليف تاريخيّ معاصر له وهو كتاب حمّودة بن عبد العزيز المعروف باسم «الكتاب الباشي» والذي اعتُبرَ أشبه بالمديح كما يقول أحد المؤرخين المحدثين؛ ففضلاً عن غزارة مادّة «المشرع الملكي» وطرافتها وفرادتها، فإن ما يحسب لهذا التأليف محاولته أن يكون أقرب

للموضوعيّة، وتمّ له ذلك ليس فقط لابتعاده عن النشرات الرسميّة، وانّما أيضًا لأن صاحبه كان يسعى إلى الخبر ويتسقّطه. وربّما لهذا السبب اعتمد التآليف عديدُ المؤرخين والباحثين الذين جاؤوا بعده على علمهم بنقائصه اللغويّة وعدم وجاهة صاحبه. فقد اعتمده أحمد بن أبي الضياف في إتحافه، ومحمد السنوسي في مسامراته، ومحمد بن الخوجة في معالم توحيده. بل كان من المؤلفات المخطوطة القليلة الذي حَظِيَ بالترجمة إلى اللغة الفرنسية من قبل محمد الأصرم Victor Serres. فقد ظهرت هذه الترجمة بالمجلّة التونسيّة في شكل مقالات مستقلّة في البداية منذ 1896 لكي يصدر في طبعة أولى مستقلّة سنة 1900 تحت عنوان Chroniques Tunisiennes. ولئن عرّفت هذه الترجمة الوحيدة بالكاتب والكتاب لدى جمهور عريض من القرّاء، غير أنّها، بفعل ما تضمّنته من نقائص وأخطاء كثيرة، فضلا عن تعمّد المترجمين حذف بعض أقسام الكتاب وإعادة توزيع بعض فقراته الأخرى، قد تكون أساءت إليه أكثر ممّا خدمته. ونأمل أن يتصدّر جمع من البحّاثة في القريب لتحقيق ما يجب تحقيقه من تآليف المترجم له وإعادة ترجمة «المشرع الملكي» بما يفي بالحاجة.

■ المصادر والمراجع

- ابن يوسف، محمد الصغيّر، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تقديم وتح. أحمد الطويلي، المطبعة العصريّة، تونس 1998، المجلد الأوّل؛
- البشروش، محمد، الكتب، المباحث، عدد 4 جويلية 1944، ص6؛ ● زبيس، مصطفى، تطريز الديباجة بعلماء باجة: محمد الصغيّر بن يوسف الباجي، المباحث، عدد ٨٨، ماي 1947، ص ٨، رقم 32؛ ● الزيراوي، توفيق، المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، تح. قسم علي باشا، القسم الثاني، شهادة كفاءة في البحث، كلية الآداب تونس 76 ـ 1977م؛ ● عجينة، محمّد، المشرع الملكي في سلطنة أولاد عليّ تركي، تح. قسم عليّ باشا، القسم الأول، شهادة الكفاءة في البحث، كلية الآداب، تونس 71 ـ 1972م؛ ● محفوظ، محمّد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982؛
- Abdesselem Ahmed, les Historiens Tunisiens de XVII, XVIII, et XIX, Tunis 1973, p 241-259.
- Ben Youssef Mohamed seghir, Chronique Tunisienne, traduit par Victor Serres et Mohamed Lasram, Tunis 1900 (1ère éd.) 1978 (2ème éd).
- Chater khelifa, En marge d'une lecture du chroniqueur Seghir ben youssef: La situation économique et sociale de la régence de Tunis au XVIII siècle in Revue d'histoire Maghrebine, Nº 39-40, 1985, p161-176.

د. الكراي القسنطيني
جامعة تونس

الباجي، أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد

(403هـ/1012م - 474هـ/1081م)

أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث المالكي الأندلسي التجيبي الباجي؛ محدث، فقيه، أديب، شاعر، متكلّم، وأصولي.

ينتمي الباجي إلى عائلة علم ولكنّها فقيرة، أصلها من بطليموس Badajoz هاجرت إلى باجة (جنوب البرتغال) قرب إشبيلية ثمّ استقرّت نهائيا بقرطبة.

أخذ الباجي بالأندلس عن كبار علمائها في عصره بقرطبة خاصّة، وكذلك بطرطوشة وسرقسطة وطليطلة. ومن شيوخه مكي بن أبي طالب (ت 437هـ / 1045م)، والقاضي يونس بن مغيث (ت 429هـ / 1037م)، وأبو سعيد خلف بن الجعفري (ت 425هـ / 1033م)، وخلف بن أحمد الرّوحوي الطليطلي (ت 453هـ / 1061م)، وعبد الواحدي بن موهوب؛ وقد نبغ في الأدب قبل رحلته إلى المشرق، فقد ذكر ابن بسام أن شهرته في النظم والنثر سبقته إلى مصر والقيروان، فما حل بلدا إلا وجده «ملآن بذكره، نشوان من فهوني نظمه ونثره».

وقد ارتوى من علوم اللغة العربية، والأدب وفنونه، ثم مال إلى علوم القرآن والتفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والكلام. ثمّ ارتحل إلى المشرق سنة (426هـ / 439 هـ) وهو ابن الثالثة والعشرين من عمره، فحفزته الرغبة الملحة لمشافهة الشيوخ والأخذ عنهم، ولأداء فريضة الحجّ. وفي طريقه إلى الحجّ مرّ بمصر، فلقي بها عبد الله بن الوليد بن سعيد الأنصاري الأندلسي، وروى عنه «العالم والمتعلم فيما في القرآن» و «إعراب القرآن».

ثمّ رحل إلى مكّة وأقام بها ثلاث سنوات مرافقا شيخه أبا ذرّ بن أحمد الهروي (ت 434هـ / 1043 م)، وقد أخذ عنه الفقه المالكي والحديث وصحبه إلى منطقة «سروات» الجبليّة الممتدّة بين تهامة ونجد واليمن. وأتيحت له الفرصة وهو بالمشرق ليقوم بفريضة الحجّ أربع مرّات.

كما سافر إلى بغداد وأقام بها من سنة 429هـ/ 1037م إلى سنة 432هـ / 1040م. واضطرّ للعمل حارسا بالّليل في بعض دروب المدينة ليكسب قوته ويواصل طلبه العلم. وببغداد التقى الباجي بآخر ممثّلي المذهب المالكي في الشرق من الطبقة التاسعة. كما اتّصل بكبار علماء المذاهب الأخرى، فأخذ الفقه على المذهب الحنفي عن أبي عبد الله محمّد الدّامغي، وأبي عبد الله الحسن بن علي الصّميري (ت 436هـ/ 1044م)، وأخذ الفقه على المذهب الشافعي عن الإمام أبي إسحاق الشيرازي (القرن 4 هـ)، وأبي الطيّب طاهر بن عبد الله الطبري (ت 450 هـ)، والحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي (ت 463هـ / 1071م). ورغم أنّ

الباجي والبغدادي روى كلّ واحد منهما عن الآخر، فإنّ تعاطف الباجي مع المذهب الشّافعي ثمّ مع الأشعريّة إنّما يرجع بالدّرجة الأولى إلى ما سمعه من دروس البغدادي.

وأخذ الباجي ببغداد عن كلّ من المحدّث أبي عبد اللّه الصّوري (ت 444هـ / 1052م)، وأبي إسحاق إبراهيم بن عمر البرمكي (ت 445هـ / 1053 هـ)، والأصولي أبي الفضل بن عمروس المالكي (ت 452هـ / 1060م).

ولمّا رجع الباجي إلى الأندلس سنة 439هـ / 1047 م، عمل في ضرب ورق الذّهب وعقد الوثائق حتّى أنّه كان يخرج للإقراء وفي يده أثر المطرقة. فلمّا فشا علمه تهيّأت له الدنيا وعظم جاهه، وترسّل للملوك فأجزلت له الصّلات، ومات عن مال وفير.

كثرت القالة فيه لمداخلته الرّؤساء ولقبوله قضاء عدّة أماكن تصغر عن قدره. فكان يبعث إلى تلك النواحي من يخلفه فيها. وربّما أتاها المرّة ونحوها.

اتّهمه الفقيه أبو بكر الصائغ بالكفر لأخذه بظاهر لفظ حديث الكتابة يوم الحديبيّة، وإجازته الكتب على الرّسول الأمّي ﷺ، وتألّب عليه الفقهاء، وشنّعوا به لدى العامّة.

ولمّا عظم عبث الإسبان بالثغور الأندلسيّة انتدبه المتوكّل بن الأفطس صاحب بطليموس رسولا له إلى ملوك الطوائف في محاولة منه لرأب الصدع بينهم وتوحيد الصفّ لمواجهة الخطر الإسباني المحدق بالأندلس. وكان ملوك الطّوائف يصغون إلى وعظه إجلالا لعلمه في الظّاهر، وكانوا يستثقلونه ويستبردون نزعته في الباطن. ولم يجد الباجي من تجاوب في دعوته تلك إلاّ في بلاط سرقسطة المعرّض أكثر من غيره للأطماع الإسبانية. فلمّا استدعاه صاحبه المقتدر بن هود لبّى النداء، وبقي بجواره مدّة تمكّن خلالها من وضع أهمّ مؤلّفاته وأشهرها.

ولمّا استدعى حاكم جزيرة ميورقة ابن حزم الظاهري المذهب سنة 430هـ / 1038م لمواجهة بعض علماء المذهب المالكي دعي الباجي بعد عجزهم عن مناقشة ابن حزم على صعيد مبادىء الشريعة الإسلاميّة إلى مناظرته وأفضت المناظرة إلى تفوّق الباجي الذي كان قد تمرّس بالجدل في بغداد على أعلامه.

والمشكلة الرئيسة في الجدل الذي دار بين عالمي الأندلس من خلال كتبهما التي تردّد صدى المناظرات فيها، تمثّلت في هذا السؤال: هل يجوز أن نقرّر مع الظاهريّة أن النصّين القرآني والنبوي فيهما كلّ الحلول لجميع الحالات التي واجهتنا وتواجهنا في حياتنا ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وعندئذ يكون من الواجب أن نتمسّك حرفيّا بالنصّين، أم أنّ علينا أن نقول مع أتباع المذاهب الأخرى والمذهب المالكي في مقدّمتها إنّ القرآن والحديث نصّان محدودان تحديدا زمنيّا، ولا يمكن أن نجد فيهما كلّ الحلول لجميع الحالات اليوميّة دون تحديد زمني، ولذا يجب في الحالات التي لا يمكن أن نتعلّق فيها بحرفيّة النصّين أن نستنجد بروحيهما أي بالتأويل أو بعبارة أخرى بمقصديهما.

كان للباجي تأثير كبير في جيله والجيل الذي جاء بعده بما كان يلقيه من دروس إثر رجوعه

من المشرق وذيوع صيته في كامل أصقاع بلاد الأندلس، فأقبلوا من كلّ جهاتها شرقا وغربا للاستفادة من عمله. فدرس عليه بسرقسطة، وبلنسيّة، ومرسية، ودانية من سيكونون من كبار علماء النصف الأوّل من القرن 6هـ / 12م. ولشهرة دروسه وتفوّقه على ابن حزم لقّب في المشرق بشيخ الأندلس بدون منازع.

وممن روى عنه القاضي محمّد بن سليمان الأنصاري المالقي (ت 500هـ / 1106 م)، وأبو بكر (أبو محمّد) عبد الله بن طلحة اليابري (ت بعد 516 هـ/ 1122 م)، والقاضي أبو محمّد عبد اللّه بن الوحيدي (ت 542هـ / 1147)، ولازمه ودرس عليه كلّ من ابنه أبي القاسم أحمد بن الباجي، وأبي محمّد بن أحمد الهواري من أهل جزيرة شقر.

وصحب الباجي بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجازه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد الطرطوشي صاحب «سراج الملوك» (ت 520 هـ/ 1126م أو 525هـ / 1130 م، بالإسكندريّة. كما سمع منه أبو علي الصّدفي في نفس المدينة (استشهد في موقعة كتندة سنة 514هـ / 1120 م).

ولئن كان الباجي شاعرا مجيدا، فإنّ شهرته بعد وفاته قامت على اعتبار تخصّصه في الفقه بأصوله وفروعه، وفي علم الكلام بغوامضه وخفاياه، وفي الجدل بمنطقه وبراهينه، وفي الحديث بعلله ورجاله، حتّى أنّ أكثر نسخ البخاري بالمغرب هي إمّا من رواية الباجي عن أبي ذرّ الهروي، وإمّا برواية أبي علي الصّدفي بسنده.

ولكلّ هذه الخصال قال فيه ابن حزم مجادله: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد القاضي عبد الوهاب إلاّ مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم». وقال فيه أبو علي الصّدفي، ويعتبر من تلامذته: «ما رأيت أحدا على هيئته وسمته وتوقير مجلسه، هو أحد أئمّة المسلمين لا يسأل عن مثله». وقال فيه أبو بكر بن العربي (ت 543هـ/ 1148): «كلّ من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلاّ الباجي».

آثاره

ترك الباجي حوالي ثلاثين مصنّفا منها خاصة:

1 ـ إحكام الفصول في أحكام الأصول، تح عبد المجيد التركي، بيروت ط 1، 1987 وط. 2، 1996، دار الغرب الإسلامي؛ وهو في أصول الفقه لخصه في كتابه المنهاج ثمّ أعاده باختصار في الإشارة (أو الإشارات) وكذلك في رسالة الحدود؛ 2 ـ الإشارات إلى معرفة الأصول، ط. 1، تونس 1344هـ / 1925م؛ ط. 2، تونس 1370هـ/ 1950م، مطبعة المنار؛ 3 ـ تبيين المناهج في ترتيب الحجاج، تح. عبد المجيد التركي، ط. 2، 1987، دار الغرب الإسلامي، وهو في أدب البحث والمناظرة والجدل؛ 4 ـ الحدود في الأصول، مجلّة المعهد المصري للدراسات الإسلاميّة عدد1؛ تح. نزيه حماد، لبنان 1392هـ/ 1973م؛ 5 ـ المنتقى، القاهرة 1332هـ/ 1913م، مطبعة السعادة، سبعة أجزاء؛ مصنف انتقاه من كتابه الاستيفاء لطوله وكثرة مسائله وهو أفضل كتاب ألّف في مذهب مالك بشهادة علماء من مختلف العصور؛ 6 ـ فصول الأحكام وبيان ما مضى به العمل عند الفقهاء والحكام، تح. محمد أبو الأجفان، تونس 1985، له عليه شرح ذكر الزركلي أنّه مخطوط؛ 7 ـ رسالة في الحدود، تح. هلال جودة عبد الرحمان،

مجلة المعهد المصري بمدريد مج 11، عدد 1 ـ 2 ـ 1954، وهي خاصة بالفقه والحديث؛ 8 ـ رسالة في الردّ على جواب الرّاهب من فرنسا الذي أرسل إلى المقتدر بن هود صاحب سرقسطة، نشر الرد والجواب، عبد المجيد التركي، مجلّة الأندلس. عدد 31، 1966؛ 9 ـ شرح حديث «البيّنة على المدّعي واليمين على المدّعى عليه»، تح. أبو عبد الرحمان بن عقيل الظاهري، مجلّة عالم الكتب، مجلّد 11، عدد 1، 1401هـ/1981م؛ 10 ـ وصيّة لولديه، تح. هلال جودة عبد الرحمان، مجلّة المعهد المصري بمدريد عدد 1953، وقد أوصى ولديه فيها بمحبّة النّاس وعدم اعتقاد معاداة أحد؛ 11 ـ تحقيق المذهب من أنّ النّبي ﷺ كتب، تح. أحمد لبزار في نطاق رسالة دكتوراه دولة بدار الحديث الحسينيّة بالرباط؛ 12 ـ التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الجامع الصحيح، وموضوعه تراجم رجال سند الإمام البخاري، منه نسخة بخزانة نور عثمانية بتركيا؛ 13 ـ التسديد إلى معرفة طرق التوحيد، ذكره ابن خيّر في فهرسته وموضوعه علم الكلام؛ 14 ـ رفع الالتباس في صحّة التعبّد، ذكره ابن خيّر؛ 15 ـ سنن الصالحين وسنن العابدين، ذكره ابن خيّر؛ 16 ـ فرق الفقهاء؛ 17 ـ مختصر المختصر في مسائل المدونة؛ 18 ـ الاستيفاء، شرح فيه الموطأ ولم يكمله؛ 19 ـ اختلاف الموطآت؛ 20 ـ التبيين عن سبل المهتدين؛ 21 ـ السراج في عمل الحجاج؛ 22 ـ الانتصار لأعراض الأئمّة الأخيار؛ 23 ـ تفسير القرآن (لم يتمه)؛ 24 ـ تهذيب الزاهر لابن الأنباري؛ 25 ـ فهرسة شيوخه؛ 26 ـ مسألة الجنائز؛ 27 ـ المقتبس في علم مالك بن أنس؛ 28 ـ الناسخ والمنسوخ (لم يتمه)؛ 29 ـ ديوان شعري...

المصادر والمراجع

● ابن الأبّار، الحلّة السيراء، تح. حسين مؤنس، ط1، القاهرة 1963، ج2/ 98، 128؛ ● إبراهيم، عبد الصّمد، القاضي أبو الوليد الباجي، مجلّة القضاء والتشريع عدد 9 نوفمبر 1980، ص 69 ـ 92؛ ● أبو الأجفان، محمد، مقدّمة تحقيق كتاب «فصول الأحكام»؛ ● ابن بشكوال، الصّلة، ط مصر، 1966، ج 1/ 200، الترجمة رقم 454؛ ● التركي، عبد المجيد، مناظرات في أصول الشّريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ومراجعة محمد عبد الحليم محمود، ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986م؛ ● ابن خاقان، القلائد، تح. محمّد الطّاهر بن عاشور. ط تونس 1990، ص 459 ـ 461، الترجمة رقم 35؛ ● ابن بسام، الذخيرة، دار الثقافة، بيروت، 2/ 43، ص 119 ـ 206؛ ● المقري، نفح الطيب، تح. إحسان عبّاس، ط. بيروت 1968، ج2، ص29، 67 ـ 69، 71 ـ 77، 84 ـ 85، 88، 90، 91، 375، 515، 606، 64، 3/ 180، 387؛ ● م.ن، نفح الطيب، دار صادر، بيروت 1988، 2/ 273 ـ 281؛ ● ابن دحية، المطرب، تح. إبراهيم الأبياري، ط بيروت 1955، ص 4، 212؛ ● ابن سعيد، المغرب، تح. شوقي ضيف،

مصر، 1953، ص 404 ـ 405؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 3 ـ 125؛ ● ابن عقيل، أبو الفداء، الجدل على طريقة الفقهاء، نشره جورج المقدسي في مجلّة المعهد الفرنسي بدمشق فصل XX 1967؛ ● النّباهي المالقي، تاريخ قضاة الأندلس، تح. لجنة إحياء التراث العربي، ط. بيروت 1983، ص100، 105، 202؛ ● يفوت سالم، مدخل لقراءة كتاب الحدود في الأصول للباجي، مجلّة كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرباط، عدد 8/ 1982، ص 81 ـ 94.

● Alves Adelberto : Un humanista arabe do sèculo XI, ed. Da Camara, Municipal de Beja, Beja 1991, p.63; ● Brockelman : Geschichte der Arabischen Literatur I / p.419, SI / p. 743-744; ● Burunschvig Robert : Polémiques médiévales autour du rite de Malik, dans Al Andalus, Vol. XV, fasc 2, p. 378-413, Madrid 1950; ● Dunlop. D.M Al-Baji, Encyclopédie de L'Islam, éd. II, TI/p. 889; ● Turki Abdelmajid: La lettre du "Moine de France" Al Muqtadir Billah Roi de Saragosse et la réponse d'Al Baji, Faqih andalus, dans Al Andalus, fax XXXI/ 1-2, p. 73-153, Madrid 1966; ● Turki Abdelmajid: Polémique entre Ibn Hazm et Baji sur les principes de la loi musulmane, essai sur le littéralisme zahirite et la finalité malikite, Alger 1976.

د.جمعة شيخة
جامعة تونس
د. أحمد متفكر
جامعة القاضي عياض ـ مراكش ـ المغرب

■ باحثة البادية، مَلَك بنت محمد الحفني ناصف

(1304هـ/1886م ـ 1337هـ/1918م) ■ ■ ■

ملك بنت محمد الحفني ابن الشيخ محمد بن إسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف المصري الأصل. كاتبة اجتماعية وناقدة وخطيبة وشاعرة ورائدة من روّاد النهضة النسائية الحديثة بمصر في الرّبع الأول من القرن العشرين، لُقّبت بـ«باحثة البادية» لأنها كانت تُوقّع مقالاتها بهذا الاسم المستعار.

وُلدت مَلَك بالقاهرة في 25/ 12/ 1886م وبها نشأت في بيت عزّ وجاه، فقد كان أبوها شاعرا وقاضيا من تلاميذ جمال الدين الأفغاني ومن أصدقاء محمّد عبده، انتسبت

إلى مدارس أوّليّة في سنّ مبكّرة وعن ذلك تقول:

«جرّبت ضرر إرسال الأولاد إلى المدرسة صغارا في نفسي وفي إخوتي وفي من شاهدته من التلميذات، فإني ظللتُ حَوالى الثّلاث سنين لا أفقه معنى المدرسة ولا أكاد أفهم الغرض من إرسالي إليها» [كحّالة، أعلام النساء في عالمَيْ العرب والإسلام، ج 5، ص 83].

ثمّ التحقت بالمدرسة السّنيّة في خريف 1893 وكانت أوّل فتاة تنال الشّهادة الابتدائية منها في سنة 1900. فانتقلت الى «القسم العالي» من المدرسة ذاتها إلى أن تحصلت على الشهادة العالية، وكانت بذلك أولى النّاجحات في أوّل امتحان عقد لتخريج المعلّمات في سنة 1903، واشتغلت بعد تخرّجها بالتعليم في مدارس البنات الأميرية إلى تاريخ زواجها.

ولئن كنّا لا نكاد نعلم شيئا عن نظام التعليم في تلك المدارس ولا عن المواد التي كانت تُدرّس فيها فإن الزركلي ذكر بأنّ ملك كانت تُجيد ـ فضلاً عن العربية ـ اللغتين الفرنسية والإنقليزية [الزركلي، الأعلام، 8/ 217]، وأضاف عمر رضا كحالة و«كانت تعرف شيئا من اللغات الأخرى» [كحّالة، معجم المؤلفين 13/ 5]، لكنه لم يصرّح بتلك اللّغات.

وكذلك فإننا لا نكاد نعرف تقريبًا شيئا يُذكر عن معلّمي مَلَك وأساتذتها، ولكن يبدو أنّه كان لأبيها حَفْني ناصف فضل كبير عليها، فقد واكب نشأتها وأولاها اهتماما مخصوصا وشجّعها على طلب العلم والمعرفة. كما كان لمكتبته النفيسة دور لا يُنكر في دعم ثقافتها وتعميقها [الصدّة، ملك حفني ناصف، 109].

وفي 28/ 03/ 1907 تزوّجت من عبد السّتّار الباسل ـ وجيه قبيلة الرماح بالفيّوم ـ فانقطعت عن التدريس لتتفرغ لتسيير شؤون بيتها، لكنها لم تنقطع عن قراءة الكتب المفيدة والتعرّف على أحوال النساء وكتابة المقالات وإلقاء الخطب والمحاضرات.

وتُصاب مَلَك بالحمى الإسبانيولية ـ وهي في ريعان الشباب، وتتوفى في القاهرة ليلة الخميس 17/ 10/ 1918 وهي في سنّ الثانية والثلاثين، وتُدفن في مدفن أسرتها بالإمام الشافعي، فرثتها الصّحف والمجلاّت يومئذ، وأُقيمت لها حفلات تأبين عدّة.

لئن كان نشاط مَلَك الثقافي والاجتماعي محدودا نسبيّا ـ نظرا إلى قصر حياتها ـ وإلى ظهورها في مجتمع «محافظ، متزمّت» فقد بدأت أنظار القرّاء والمهتمّين بالثقافة والاجتماع تتّجه نحوها وتتحمّس لأفكارها منذ صدور مقالاتها المتتالية في دار صحيفة «الجريدة» ممّا أسهم في التعريف بها وتأصيل خطاها في دنيا الثقافة والفكر.

ولعلّ إلقاء مَلَك لبعض الخطب والمحاضرات سواء في دار الجريدة أو في حرم الجامعة المصريّة أو في عدد من الجمعيّات النسائية ساهم في توسيع دائرة تأثيرها في الحياة العامّة ممّا جعل التقرير الذي ضمّنته خلاصة آرائها في إصلاح شؤون المرأة وقدّمته إلى المؤتمر المصري المنعقد في أواخر أفريل وبداية ماي من سنة 1911 يحظى بالقبول والاستحسان.

ولم تكتف ملك بذلك بل كثيرا ما كانت تعزّز تلك المقالات والخطب التوعويّة بزيارة

مدارس مختلفة للاطلاع على ظروف التلميذات وإرشادهنّ.

كما كان لملك مشاركة متميّزة في الأعمال الخيريّة المتنوّعة؛ من ذلك: مساهمتها في تأسيس «اتّحاد النساء التهذيبي»، وتقديم إعانات للفقيرات والمحتاجات من بنات مصر، وجمع التبرّعات لفائدة منكوبي طرابلس الغرب، وإنشاء «مدرسة» في بيتها على غرار الصّليب الأحمر لتعليم التمريض عند اندلاع الحرب الكونيّة الأولى.

وفضلاً عن ذلك، كان لملك في بيتها شبه نادٍ كانت تلتقي فيه ببنات جنسها من المصريّات لتبادل الآراء حول أحوال المرأة المصريّة وسبل ترقيتها ومشاركتها في الحياة العمليّة، إلاّ أنّ شبكة علاقاتها امتدّت فشملت نخبة من النساء الشرقيات والغربيات مثل ميّ زيادة التي تعتبر باحثة البادية «عنوان النهضة النسائية الجديدة»، وشارلوت كمرون (Charlotte Cameroun) التي أطنبت في مدح فضل باحثة البادية على المرأة المصريّة، والأمريكية اليزابيت كوبر (Elisabeth Cooper) التي أهدتها كتابها الموسوم بـ«المرأة المصرية» معترفة بفضلها عليها. وهكذا غدت ملك «حاملة لواء النّهضة النسائية في مصر» في الربع الأوّل من القرن العشرين.

جرّبت ملك قلمها منذ حداثتها في نظم الشعر إمّا تمرينًا و«هزلاً» على حدّ قول عمر رضا كحّالة الذي يعتبر شعرها «في الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر»، وإما «معارضة» لأبرز القصائد المشهورة بتشجيع من والدها. وقد أعربت عن وَلَعها الشديد بالشعر عموما وبشعر المتنبّي على وجه الخصوص، فقالت: «أوّل ما حفظتُ في الشعر المراثي، وأولها رثاء الأندلس.. وكنت في حداثتي أقرأ ديوان المتنبّي وأُعجَبُ بروحه العالية وبنفسه الكبيرة» [زيادة، باحثة البادية، ص 164].

إلاّ أن معظم كتاباتها كانت من قبيل المقالات الاجتماعية سواء كانت فصولا تنشر أو خطبا ومحاضرات تُلقى، ولقد جعلت البيئة موضوع اهتماماتها، وخصّت المرأة بالنّصيب الأوفر من أبحاثها.

لقد انصبّ اهتمام ملك على تتبّع أطوار حياة المرأة باعتبارها فتاة وزوجة فأمّا صالحة، فركّزت في الطّور الأوّل على ضرورة تعليم المرأة لأنّ التعليم - بالنسبة إليها - هو السبيل الوحيدة لانتشال المرأة ممّا تردت فيه من ضعة وهوان حتّى يتمّ لها إصلاح حال الرجل والمجتمع بكلّيه، بل طالبت بأن يكون التعليم الابتدائي إجباريًا والتعليم العالي مُباحا لكلّ من آنَسَت في نفسها توقا إلى مزيد من نور العلم والعرفان، كما ثارت على الذين اتّهموا المرأة بالنقص والقصور ودافعت عنها قائلة: «لو أنصفوا.. لما عيّرونا بأننا قليلات النّبوغ.. فنحن نعترف لرجال الاختراع والاكتشاف بعظيم أعمالهم، ولكني لو كُنتُ ركبتُ المركب مع كريستوف كولمبس لما تعذّر عليّ أنا أيضًا أن أكتشف أمريكا..» [زيادة، الباحثة، ص 72].

أمّا بالنسبة إلى قضيّة السّفور والحجاب فقد كانت باحثة البادية من أنصار السّفور مبدئيّا لكنّها لم تُبحه - حسب تعبيرها - إلاّ «للراقية» من النساء خشية أن يؤول إلى ما لا يُحمد عُقباه؛ وممّا تذكره في هذا الصدد: «رأيي أن الوقت لم يأت لرفع الحجاب. فعلّموا المرأة

تعليمًا حقًا وربّوها تربية صحيحة.. وأصلحوا أخلاقكم.. ثمّ اتركوا لها شأنها تختار ما يُوافق مصلحتها ومصلحة الأمّة» [زيادة، الباحثة، ص 100].

ولئن ألحّت مَلَك في **الطور الأوّل** من أطوار حياة المرأة على وجوب البدء بتعليم المرأة وتثقيفها فقد حظي **الطور الثاني** ـ طور المرأة الزوجة ـ بالقسط الأوفر من شواغلها، فركّزت في مقام أوّل على العلاقة بين الزوجين مبرزة مساوىء كلّ منهما، فنعت على الزوجة الكسل والتواكل والرضى بالدون وعدم الثقة بالزوج وإهمال الأبناء، ونعت على الزوج الأنانيّة والنفاق والتزوّج على المرأة واحتقارها وخنق حرّيتها، ونادت بضرورة قيام الزواج على التفاهم المعنوي والاحترام المتبادل. وهذا عين ما خلُصت إليه ميّ عند قراءتها «للنسائيات» حين قالت: «وقارىء «النسائيات» يقف على خطّتها الإصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائرا مستبدًا ولا المرأة ساخطة متمردة بل يتصافى الاثنان فتصير له أخلص الأصدقاء وأوفى المساعدين ويصبح لها أخلص الأصدقاء وألين المرشدين فيسيران في سبيل الحياة، وقد جعلهما التفاهم متغلّبين على المصاعب متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة؛ وذلك أقصى ما ترمي إليه العائلة الاجتماعية في كلّ زمان ومكان» [زيادة، الباحثة، ص 175].

وتوسّعت مَلَك في بسط قضيّة الضرّ والطلاق مفضّلة الطّلاق على الضرّ معتبرة أنّ الرجل هو المسؤول الأساسي عن تعاسة المرأة وشقائها لأنه مالك زمام أمرها، وفي هذا تقول: «الطلاق شقاء وحريّة، والضُرُّ شقاء وتقييد؛ ألا إن حزينا حرّا خير من حزين أسير.. في الضرّ نرى جميع أنواع المتاعب للرجل، وأكبر أسباب الغمّ والتعاسة للمرأة..» [زيادة، الباحثة، ص 101].

أمّا بخصوص **الطور الثالث** المتعلّق بالمرأة الأمّ فقد نقدت ملك ضروب التربية المتفشية في عصرها (القسوة أو التدليل)، ونصّت على ضرورة الاعتناء بالأبناء وتهذيبهم وإذكاء حبّ الوطن في نفوسهم حتّى يشبّوا على حبّه والغيرة على مصالحه والعمل من أجل ترقيته.

إلاّ أنّ ملك لم تركّز كثيرًا على عمل المرأة ونشاطها خارج البيت شأنها في ذلك شأن المصلح قاسم أمين، وإن نفت كونها قد تأثرت به؛ بينما تذهب ميّ زيادة إلى أن تأثيره فيها كان بالغا فتقول:

«وأنا أعتقد على رغم منّي بأنّ تأثيره فيها كان عظيما.. فهي ابنته بالفكر والجرأة، وتلميذته في المناداة بإصلاح شؤون النساء ولا ينفي ذلك ما بينهما من اختلاف زهيد» [زيادة، الباحثة، ص 120].

إنّ مقصد باحثة البادية إصلاحيٌّ أساسا، منسكب بصورة أو بأخرى في إطار ما يُسمّى بجَدَليّة الشرق والغرب وهي في هذا لا تشذّ عن رأي معظم معاصريها الذين يقولون بضرورة الاقتباس من الغرب، غير أنّ موقفها من الغرب لا يخلو من تحفّظ شديد (لتديّنها) حتّى أنها لم تُبحه إلاّ في ما لا بدّ منه ممّا جعل آراءها تتميّز بضرب من الإغراق في الحكمة والاعتدال. إلى هذا ذهب أغلب من بحثوا في «نسائياتها» مثل لطفي السيّد وميّ زيادة وشارلز أدامز الذي يذكر: «أنها في

دعوتها الى الإصلاح اتّبعت سبيلا معتدلا في حدود الشرع» [أدامز شارلز، الإسلام والتجديد في مصر، ص 216].

ونظرا إلى ما تناولته من مضامين اجتماعية وعلى رأسها قضية المرأة، يمكن اعتبارها من روّاد الإصلاح الاجتماعي في عصرها دون أن تكون صاحبة مدرسة أو أتباع. ولذا فقد كان أثرها كبيرا في عصرها دون أن يتواصل في الأجيال اللاحقة ممّا حدا بهدى الصدّة إلى أن تعتبر أنّ المؤرخين ورجال الفكر قد غمطوها حقّها عندما «أسقطوا اسمها سهوا (أو عمدا) من قائمة روّاد هذا العصر. . » [الصدّة هدى، كتاب هاجر، المرأة2، ص 110].

آثارها

1 ـ النسائيات، مجموعة من المقالات، في جزأين: القاهرة، منشورات دار الجريدة، د.ت؛ 2 ـ حقوق النساء، مخطوط غير تام حال موت ملك دون إنهائه؛ 3 ـ آثار باحثة البادية، جمع وتبويب مجد الدين حفني ناصف، تقديم د. سهير القلماوي، القاهرة، المؤسسة المصريّة العامّة 1962 .

المصادر والمراجع

● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت، منشورات جمعية أهل القلم في لبنان، 1955، ج 2/ 739 ـ 741؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط14، بيروت 1966،دار العلم للملايين، ج 8/ 287 ـ 288؛ ● الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعالية، ط 26، بيروت، دار الثقافة، د.ت، ص 458 ـ 460؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط 2، دمشق، مطبعة الترقي، 1961، 13/ 5 ـ 6؛ ● كحّالة، عمر رضا، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، ط2، دمشق، المطبعة الهاشمية 1959، 5/ 74 ـ 101؛ ● الفاخوري، حنّا، الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب الحديث)، ط 1، بيروت، دار الجيل. 1986، 244 ـ 249؛ ● بنمسعود، رشيدة، المرأة والكتابة، سؤال الخصوصية، بلاغة الاختلاف، ط 1، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق. 1994، 31 ـ 32؛ ● شارلز، أدامز (Charles Adams)، الإسلام والتجديد في مصر، قدّم له مصطفى عبد الرازق ونقله عبّاس محمود، القاهرة، مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر، 1935، 216، 227 ـ 231؛ ● الصدة، هدى، ملك حفني ناصف، حلقة مفقودة من تاريخ النهضة، هاجر، كتاب المرأة 2، القاهرة 1994، دار سينا للنشر، 109 ـ 119؛ ● فهمي منصور، محاضرات عن ميّ زيادة مع رائدات النهضة النسائية الحديثة، القاهرة 1955، معهد الدراسات العربيّة العالية، 53 ـ 97.

● Brockelmann. C., Geshichte der Arabischen Litteratur, Zweiter supplement Band II, Leiden, E.T. Brill 1938 (Malak, Hafni bek Nasif) p. 728.

د. سعاد إدريس نبيّغ
المعهد العالي للعلوم الإنسانية ـ تونس

الباخرزي، أبو القاسم علي بن الحسن

(ت 467هـ/1075م)

علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي، أبو القاسم (أو أبو الحسن). وباخرزي نسبة إلى باخرز في خراسان بين هرات ونيسابور وهي الآن في أفغانستان.

ولد الباخرزي بباخرز في بداية القرن الخامس للهجرة، وبها تلقى العلم، فأخذ عن أبيه الذي كان من أدباء نيسابور وشعرائها وله صلة وثيقة بعلماء عصره. تعهّده أبوه بالرعاية إلى أن شبّ فاشتغل بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، ولزم حلقة الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني والد إمام الحرمين. ثم ترك ذلك وانصرف إلى الكتابة والشعر، وقد درس على عدد من العلماء وسمع بعضهم ولقي بعضهم كذلك، فمنهم شيخه عبد الله بن يوسف الجويني أبو محمد (ت 438 هـ)، وسمع من شيخ الإسلام إسماعيل الصابوني (ت449 هـ)، ومن عبيد الله الميكالي (ت436 هـ)، والثعالبي أبي منصور (ت 429 هـ)، وإمام الحرمين عبد الملك الجويني (ت 478 هـ)، والوزير ابن حسول (ت 450 هـ)، وابن برهان عبد الواحد بن علي (ت456هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ)، والقصباني (ت 444 هـ)؛ كما أخذ الأدب والشعر عن محمد بن تمام الذي ورد بعض من منظومه في "دمية القصر"، وعن أبي الفرج حمد بن محمد، وأبي عامر الجرجاني؛ وأخذ الفلسفة وعلوم الأوائل عن أبي بكر القهستاني.

رحل الباخرزي كثيرا، وقد بدأ رحلاته سنة 434هـ / 1042م وهو في سن الشباب اليافع. وأفضى به سفر إلى سفر نحوا من ثلاثين عاما، ولم يتوقف عن السفر إلا في السنوات الأخيرة من حياته. وقد ذكر في الدمية البلاد التي زارها وقابل فيها أديبا أو راوية أو راجع فيها مكتبة، فبلغت تسعة عشر بلدا ما بين بلدة وعاصمة؛ وقد يستقر سنة فأكثر في إحداها، من ذلك أنه بقي في (الري) سنتين (433هـ/ 1051م - 444هـ/ 1052م). والبلاد التي ذكر أنه زارها هي باستثناء باخرز: نيسابور، وزوزون، وبوشنج، وطوس، ودهستان، وجرجان، وجوذقان، وطبستان، وسداسير، والبصرة، وبغداد، وسرخس، ومرو، والري، وخراسان، وإستراباذ، وهراة، وإشكيذبان، فرحلاته إنما كانت في بلدان الخلافة الشرقية.

كان الباخرزي يعمل في أثناء تنقلاته في دواوين الرسائل، فقد عمل لدى الوزير السلجوقي الصاحب أبي عبد الله الحسين بن علي بن ميكائيل وزير طغرل بك في العراق وأذربيجان. ثم انتقل إلى خدمة الصدر الأجل محمد بن الحسن. . . فلما تسلم الكندري منصب الوزارة لطغرل بك اتصل به الباخرزي، وكانا صديقين طلبا العلم في حلقة

الجويني، فأكرمه. ولما توفي طغرل بك (455هـ / 1063 م) اعتزل الباخرزي العمل وتفرغ لتصنيف كتابه «الدمية» ولمجالس أنسه التي قتل في إحداها، وذهب دمه هدرا في بلدته باخرز، وذلك في ذي القعدة 467هـ / 1075م.

والباخرزي أديب مؤلف وشاعر. وأشهر كتبه «دمية القصر وعصرة أهل العصر» وضعه ليؤرخ به لشعراء القرن الخامس الهجري مع مختارات من شعرهم وإكمالا ومتابعة لما بدأه أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ) في «يتيمة الدهر». وكانت معظم مصادره شفهية، ولم يعد إلى المصادر المكتوبة إلا نادرا، وقد قسم كتابه إلى سبعة أقسام:

1 ـ القسم الأول في محاسن شعراء البدو والحجاز (ترجم لتسعة وعشرين شاعرا).

2 ـ القسم الثاني في طبقات شعراء الشام وديار بكر، وأذربيجان، والجزيرة، وسائر بلاد المغرب (ترجم فيه لتسعة وستين شاعرا).

3 ـ القسم الثالث في فضلاء العراق (ترجم فيه لأربعة وستين شاعرا).

4 ـ القسم الرابع في شعراء الري، والجبال، وأصفهان، وكرمان، وفارس (ترجم فيه لأربعة وسبعين شاعرا).

5 ـ القسم الخامس في فضلاء جرجان وإستراباذ، ودهستان، وقومس، وخوارزم، وما وراء النهر (ترجم فيه لخمسة وخمسين شاعرا).

6 ـ القسم السادس في شعراء خراسان وقهستان، وبست، وسجستان، وغزنة وما يضاف إليها (ترجم فيه لخمسة عشر ومئتي شاعر).

7 ـ القسم السابع في طبقة من أئمة الأدب لم يجر لهم في الشعر رسم (ترجم فيه لعشرين عالما).

وانتشرت بين الأقسام السبعة فصول قصيرة هي:

ـ فصل تمهيدي سماه «تاج الكتاب» أثنى فيه على الخليفة العباسي القائم بأمر الله.

ـ فصل ثان أقحمه وسط القسم السادس تحدث فيه عن شعراء باخرز وفاء لهم وعناية بهم.

ـ فصل ثالث سماه «خلخال الكتاب» عرض فيه ما كابده في تأليف هذا الكتاب، وقدم كتابه إلى الوزير السلجوقي نظام الملك.

ـ الفصل الرابع أورد فيه تقاريظ شعراء من عصره لكتابه دمية القصر.

ويعد كتاب «الدمية» من أهمّ المصادر الأدبية لعصره وذلك لاتساعه لذكر شعراء العالم الإسلامي آنذاك، وقد زاد مجموع المذكورين في الدمية على الخمسمائة شاعر، وقد قدم مختارات من أشعارهم إضافة إلى ملاحظاته النقدية على الرغم من طغيان أسلوب المدح والتبجيل المبالغ فيه، وقد بث في كتابه معلومات متنوعة عن البيئات والبلدان الإسلامية ومن فيها من رجال حكم وعلماء وساسة، إضافة إلى ذكره لخزائن الكتب وما فيها من نفائس.

وقد عدت «الدمية» مصدرا للمؤرخين والأدباء الذين أتوا بعد الباخرزي، وأفاد منه الكثيرون ونقلوا عنه. منهم على سبيل المثال السمعاني

في «الأنساب»، وياقوت في «معجم الأدباء» و«إرشاد الأريب»، و «معجم البلدان»، والقفطي في «إنباه الرواة»، والذهبي في «تاريخ الإسلام»، والصفدي في «الوافي بالوفيات»، والسبكي في «طبقات الشافعية الكبرى».

أما شعره فقد ذكرت المصادر، كما ذكر الباخرزي نفسه، أنه في ديوان كبير. وقد قالوا: إن الغالب عليه الجودة، وإن أكثره في مدح الوزير السلجوقي نظام الملك وبعض الأدباء. هذا الديوان الموصوف بأنه كبير مفقود حتى الآن، غير أن ما نشر باسم شعر الباخرزي إنما يضم طائفة مختارة من شعره أو ملتقطة من ديوانه وأضيف إليها ما وجده المحققون في ثنايا الكتب منسوبا إليه. وموضوعات شعره في الفخر والمديح، والخمرة ومجالس الأنس، والمرأة والغلمان، والهجاء والفحش، والوصف والتصوير، والرثاء، والشكوى والتشاؤم، والحكمة والشيب، والحنين إلى الوطن. وفي المنشور بعض القصائد بالفارسية.

آثاره

1 ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر، طبع في حلب سنة 1349هـ/ 1930م، تح. محمد راغب الطباخ. وهذه الطبعة تعادل نصف الكتاب الأصلي؛ وفي القاهرة في مجلدين، تح. عبد الفتاح الحلو، سنة 1388هـ / 1968 م؛ وفي بغداد في مجلدين، تح. سامي مكي العاني، سنة 1970 م، ومنه طبعة ثانية في الكويت سنة 1985 م؛ وفي دمشق، تح. محمد التونجي صدرت عن دار الفكر؛ 2 ـ الديوان، نشر مختارات منه محمد راغب الطباخ في آخر كتاب «دمية القصر»، طبعة حلب 1930م، تح. محمد التونجي في كتابه «علي بن الحسن الباخرزي: حياته وشعره وديوانه» صدر عن منشورات الجامعة الليبية ـ كلية الآداب 1973م، ومنه طبعة أخرى عن دار صادر، بيروت 1992م؛ 3 ـ كتاب في شعراء باخرز؛ 4 ـ غالية السكارى؛ 5 ـ الأربعون في الحديث، انفرد بذكره صاحب معجم المؤلفين، ولعله وهم منه.

المصادر والمراجع

● ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 112؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 378 ـ 389؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، 18/ 363 برقم 174؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 3/ 327؛ ● الأسنوي، طبقات الشافعية، 1/ 234؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، 3/ 95؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 99؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 5/ 26؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، 5/ 5885؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14؛ بيروت 1999، 4/ 272 ـ 273؛ ● فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، بيروت 1972، دار العلم للملايين، 3/ 170 ـ 174.

هذا بالإضافة إلى ما كتبه سامي مكي العاني في مقدمته لدمية القصر، وما كتبه محمد التونجي في مقدمته لكتاب «علي بن الحسن الباخرزي، حياته وشعره وديوانه».

د. عبد الإله نبهان
جامعة اليرموك ـ الأردن

البادسي، عبد الحق بن اسماعيل

(ت 722هـ/1322م)

عبد الحق بن اسماعيل بن أحمد بن محمد بن الخضر البادسي الغرناطي محدث، مؤرّخ، ونسابة. ينتهي نسبه إلى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي. وقد استوطن أحد أجداده مدينة غرناطة Granada بالأندلس، لكن جدّه الأعلى انتقل إلى بادس، القريبة من مدينة فاس. وقد ولد فيها عبد الحق في حدود منتصف المائة السابعة للهجرة (650هـ/ 1252م).

أخذ الحديث عن والده إسماعيل، وجماعة من شيوخ بلده، وتردّد على فاس، وسمع من شيوخها. وممّن أخذ عنهم فيها إسحاق بن مطهّر الورياغلي المعروف بأبي إبراهيم الأعرج. وقد تتلمذ على كثير من الشيوخ، ونقل عنهم الروايات والأخبار التي ضمنها في كتابه «المقصد الشريف»، لا سيما خاله الحاج يحيى بن حسون، وعمّته زينب بنت أحمد، والقاضي علي بن يحيى الجزائري، وأبي عقيل عبد الرزاق بن عبد الواحد بن الحاج ابراهيم، وأبي زكرياء بن مخلوف اليفراسني اليعقوبي، والشيخ أحمد بن سومان، وغيرهم. وقد ورد على مدينة فاس سنة 722هـ/ 1322م، فسمع منه بعض شيوخها كتابه «المقصد الشريف»، لا سيما عبد المهيمن الحضرمي (الصغير)، وأبو عمر، ويحيى بن أبي طالب اللخمي العزفي، وآخرون.

لم نعثر على ترجمة مفصّلة للبادسي في كتب التراجم المغربية، إلاّ محقّق كتابه «المقصد الشريف»، سعيد أحمد أعراب، يشير إلى اقتباسين، ينسب أحدهما إلى كتاب «بيوتات فاس»، والآخر إلى مخطوط الخزانة العامّة بالرباط رقم 100/ 2، دون ذكر تفاصيل أخرى. وعند الرجوع إلى كتاب «بيوتات فاس الكبرى» المطبوع في دار المنصور للطباعة بالرباط سنة 1972م، لا نجد للبادسي أي ذكر. وعلى أي حال، فإنّ هذا المؤلّف قد اشتهر بكتابه «المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف»، الذي بقي في مخطوطات متعدّدة بالخزانة العامّة بالرباط، وتمّ تحقيقه ونشره. كذلك عُرف المؤلّف بتأليفه لكتاب أحد مشايخ المغرب المدعو علي بن محمد المراكشي، الموسوم «مناقب الأولياء وصفة سلوك الأصفياء» [المقصد الشريف، ص 73].

ويتألّف كتاب «المقصد الشريف» من مقدّمة وثلاثة أقسام. وقد أشار البادسي في المقدّمة إلى الأسباب التي دعته إلى تأليف هذا الكتاب، وهي محاولة جعله صلةً لكتاب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات الموسوم «التشوّف إلى رجال التصوّف»، الذي يقف عند وفاته في سنة 517هـ/ 1123م. فأرّخ فيه لرجالات شمال المغرب من حدود منتصف القرن السادس إلى أوائل القرن الثامن للهجرة/ الثاني عشر إلى الرابع

عشر الميلادي. فهو يقول في مقدّمته إنّ يوسف بن الزيات «أتى بكتابه بآيات... وغفل فيما آثره من الحسن والإحسان عن الريف الكائن ما بين مدينتي سبتة وتلمسان.. فرأيت تميم صلته...» [المقصد الشريف، ص14 - 15].

وتحدّث في القسم الأوّل عن المقامات والكرامات، وضمّنه أربعة فصول، كما خصّص القسم الثاني للحديث عن حياة الخضر عليه السلام. وقد أورد في القسم الثالث تراجم لستّةٍ وأربعين شيخًا. وفرغ من تأليف هذا الكتاب الذي استغرق منه عامًا واحدًا، سنة 711هـ/ 1311م. وقد قام المستشرق الفرنسي جورج كولان، بترجمة هذا القسم إلى اللغة الفرنسية، ونشره في باريس سنة 1926م.

ويميل المؤلّف في أسلوبه إلى السجع، ويتكلّف الشعر. لكن قيمة كتابه، كما يرى محقّقه، تكمن في أنّه حلقة مفقودة في تاريخ التصوّف بالمغرب. والكتاب إلى جانب ذلك، وثيقة تاريخية لها أهمّيتها، فقد عرض لأحداث بني وطّاس، والعرب المتغلّبين على بلاد الريف، أواخر العصر الموحّدي، والحملات الصليبية في البحر المتوسّط، وقرصنتها فيه، ممّا لا نجده في كتاب آخر. كذلك يُستفاد من الكتاب في أنّه معجم جغرافي حدّد قبائل الريف بأسمائها، ومواطنها تحديدًا دقيقًا.

المصادر والمراجع

● ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1977م، 1/ 317؛ ● البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تح. سعيد أحمد أعراب، الرباط، المطبعة الملكية 1982م. صفحات متعدّدة من الكتاب مع مقدّمة المحقّق؛ ● جورج كولان، مجموعة الوثائق المغربية Archives Marocaines، المجلّد 26، باريس، 1926م؛ ● أحمد توفيق، في مقدمته لكتاب التشوّف إلى رجال التصوّف، الرباط، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، 1984، ص7 .

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل - العراق

ابن باديس، عبد الحميد بن محمّد المصطفى

(1307هـ/ 1889م - 1359هـ/ 1940م)

عبد الحميد بن باديس بن محمّد المصطفى بن المكّي، قائد الحركة الإصلاحيّة ومؤسّسها بالجزائر. ولد في 4 ديسمبر عام 1889م بقسنطينة في عائلة عريقة اشتهرت بالعلم والثّراء والجاه. ولقد نبغ منها شخصيّات تاريخيّة لامعة، منها المعز بن

باديس الصنهاجي، وجدّه مكّي بن باديس الذي كان قاضيا وعضوا في المجلس العام في اللّجنة البلديّة لقسنطينة. أمّا أبوه فكان عضوا في المجلس الجزائري الأعلى والمجلس العام، وكان من ذوي الفضل ومن حفظة القرآن الكريم. وأمّه زهيرة بنت علي بن جلّول من أسرة مشهورة بالعلم والثراء في قسنطينة [عمّار الطّالبي، ج 1، ص 72 ـ 74].

تلقّى ابن باديس العلم على الطّريقة التقليديّة، فأدخله والده عام 1894م أحد الكتاتيب القرآنيّة بإحدى زوايا القادريّة بقسنطينة حيث حفظ القرآن على الشّيخ محمّد المداسي، وأتمّ حفظه في السّنة الثّالثة عشرة من عمره [مفدي زكريّا، الذّكرى العشرون لوفاة الشّيخ ابن باديس، ص 77].

وفي عام 1903م اختار له والده الشّيخ حمدان لونيسي أحد علماء مدينة قسنطينة المشهور بالعلم والتّقوى، ليعلّمه بجامع سيّدي محمّد النجّار مبادىء العربيّة والمعارف الإسلاميّة، ويوجّهه وجهة علميّة أخلاقيّة. وهذا الشيخ هو أيضا أستاذ الشّيخين العقبي والإبراهيمي.

وفي عام 1908م سافر ابن باديس إلى تونس ليكمل تعلمه، فالتحق، بعد أن أهّلته الدروس التي تلقّاها عن أستاذه حمدان لونيسي بقسنطينة بالسّنة الخامسة من التعليم الزّيتوني [محمّد الصالح الجابري، النّشاط العلمي للطّلبة الجزائريين، بتونس، ص 62].

وفي جامع الزّيتونة تتلمذ على أعلام عرفوا بسعيهم إلى تعصير التعليم الزيتوني، وخاصّة الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور، والشيخ محمّد النخلي، والشّيخ الخضر حسين، كما تتلمذ في الخلدونيّة على الأستاذ البشير صفر. وقد نوّه بما زرعته دروس التاريخ لهذا الأستاذ من روح وطنيّة [عمّار الطالبي، ج 4، ص 327].

وفي رحاب جامع الزّيتونة تفتّح عقله وذهنه على آفاق واسعة من الثّقافة الإسلاميّة والأدبيّة، وأقبل على العلم بشغف كبير، وعلى مطالعة الكتب خارج أوقات الدراسة حتى حصل خلال سنوات قلائل على زاد من الثقافة الإسلامية في شتى فروعها، والأدب العربي بمختلف فنونه. ولما نال شهادة التطويع عام 1911 م، انتصب بجامع الزيتونة مدرّسا لمدّة سنة، وهي سنة يقوم بها كلّ من تخرّج بشهادة التّطويع [تركي رابح، الشّيخ عبد الحميد بن باديس...، ص 163].

ويعدّ ابن باديس من أوائل المهاجرين إلى تونس طلبا للعلم، فيكون بذلك قد فتح بابا جديدا للأجيال، فتوالت من بعده البعثات وأصبحت بفضله تونس قبلة لطلاّب العلم بعد ذلك. وكان هذا من أكبر عوامل تطوير حركة العلم في الجزائر عندما بدأ هؤلاء يرجعون وقد تزوّدوا بسلاح العلم في شتّى المجالات، فشاركوا في تربية الأجيال بأسلوب عصري متنوّر يختلف عن المناهج المتّبعة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وكان عبد الحميد بن باديس في طليعة هؤلاء؛ وعاد سنة 1912 إلى قسنطينة، فشرع في إلقاء الدّروس من كتاب الشّفاء للقاضي عياض في الجامع الكبير؛ ولكن السلطات الاستعمارية بادرت فمنعته، مما جعله يغادر الجزائر متوجّها إلى البقاع المقدّسة سنة 1913م لأداء فريضة الحج وزيارة بعض العلماء هناك؛ وبعد موسم الحج توجّه إلى المدينة المنورة وحيث بقي بها

ثلاثة أشهر، قدّم خلالها عدّة دروس في المسجد النبوي أعلن فيها فكرته الإصلاحيّة، والتقى خلالها شيخه حمدان لونيسي والشيخ أحمد الهندي وكان عالما حكيما يدرّس في المسجد النّبوي، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطّيّب العقبي.

ويعود ابن باديس إلى الجزائر عملا بنصيحة الشيخ أحمد الهندي الذّي أشار عليه بالعودة إلى الوطن وخدمة الإسلام والعربية بقدر الجهد. وزار في طريق العودة سوريا ولبنان وفلسطين ومصر واجتمع برجال العلم والفكر في هذه الأقطار.

وصل ابن باديس قسنطينة سنة 1913م وبدأ يلقي في الجامع الأخضر، الذي أصبح مركزا ثقافيًا للإصلاح الإسلامي، دروسا في تفسير القرآن، وشرح الحديث والفقه والتاريخ والعلوم العربية. وامتدّ نشاطه العلمي حوالى ثلاثين سنة انصرف فيها إلى التربية والدعوة والصحافة والنشاط الجمعيّاتي.

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس يهدف إلى إصلاح المجتمع ومحاربة الجهل وما نتج عنه من انتشار البدع والخرافات، فاختار المسجد مكانا ينطلق منه صوته وينشر أفكاره، واشتهر الجامع الأخضر بدروس الشيخ حتى ارتبط اسمه بهذا المسجد الذي شهد مجالس التفسير بأسلوب جديد لم يألفه مجتمع قسنطينة، ولذلك أقبل الناس على دروسه التي كانت تتلاءم مع منطق العصر، وتوظّف المعارف الجديدة لفهم القرآن الكريم فهمًا آخر لم يكن مألوفا في الجزائر من قبل. وقد ربط الجانب الروحي بالجوانب الاجتماعيّة في حياة الناس اليوميّة فاكتشف الناس في القرآن ما ينير طريقهم ويدخل الطمأنينة في نفوسهم بفضل ما أوتي الشيخ من قوّة في الإقناع بلغت به درجة الاجتهاد، فاستطاع بفضلها إقامة الحجّة على الناس باستعمال العقل عند تعامله مع النصوص التي تدعو إلى التدبّر والتفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة التي استقرّت في قلوب الناس طوعا.

إن الذي يمعن النظر في مواقف عبد الحميد ابن باديس بين الحربين العالميتين يجدها متعدّدة ومتباينة وثريّة. على أن الشيخ اشتهر في مسيرته الإصلاحيّة بمواقف تشهد بعظمة الرجل وقوّته، وصلابة إيمانه بعدالة قضيّته، ولم تنل من عزيمته شراسة المحتلّ الذّي كان وراء المكائد التي تحاك ضدّه بليل. من تلك المواقف البارزة نذكر ما يلي:

أ ـ القضيّة الأولى: **العقيدة**: عمل المحتل على طمس الحضارة الإسلاميّة بعزل الجزائر عن غيرها من البلدان الإسلاميّة. ونتيجة لهذه العزلة انتشرت البدع، وعمّ الجهل الذي ساعد المستعمر على إحكام السيطرة على البلاد حين تدخّل في حياة الناس اليوميّة، وأفسد عليهم عقيدتهم التي كانت سبب قوّتهم في الماضي. وكان على الشيخ عبد الحميد بن باديس إرجاع المياه إلى مجاريها، فانصبّ اهتمامه طول حياته على إرجاع العقيدة إلى سابق عهدها في قلوب الناس ولم يكن ذلك ميسورا. فقد عانى الأمرّين، ولكنه استعان بمجموعة من أصحابه الذين آمنوا برسالته فتسلّحوا بسلاح العلم ونشروه من جديد عبر المساجد والمدارس والنوادي والجرائد، ونجد في حياة الشيخ كلّها دلائل قويّة على ثباته وجهاده بالكلمة. ورغم أنّ المعركة بينه وبين المحتلّ لم تكن متكافئة إلاّ أنّ قوّة

الإيمان بالقضيّة مكّنته من بلوغ ما أراد، وقد شهدت السنوات الأخيرة من حياته معارك ضارية استمرّت من بعده بزعامة تلاميذه فحقّقوا كثيرا من برامجه.

ب ـ القضيّة الثانية: **اللغة العربية**: ربط ابن باديس الدفاع عن اللغة العربية والعمل على استرجاع مكانتها بدفاعه عن الإسلام والمقوّمات الوطنيّة، فلا يمكن الارتقاء بالدعوى الإسلاميّة في غياب اللغة العربية. وقد تفطّن إلى نوايا المحتلّ الذي كان يضايق اللغة العربية . وهو يرمي من وراء ذلك إلى القضاء على الإسلام وطمس الهويّة الوطنيّة، لذلك كان مستميتا في الدفاع عن العربيّة، مطلقا صيحته المشهورة: يا للّه، والإسلام والعربيّة في الجزائر، أكلّ من يعلّم (أي اللغة العربية) بلا رخصة يغرم، ثمّ يغرم ويسجن؟ [الميلي. ابن باديس وعروبة الجزائر، 150]. وهذا تطبيقا لقانون 8 أفريل 1938 الذي يفرض على المعلّمين طلب رخصة التعليم. وبعد شهر من صدور القانون وفي 8 أفريل 1938 نشرت البصائر من قسنطينة بيانا عنوانه: «الدفاع عن الإسلام والقرآن ولغتهما»، جاء في مستهلّه:
ندعو كلّ مدرسة طلبت الرخصة من الإدارة ولم تجب، وكلّ معلّم مكتب قرآني أو مدرسة منع من التعليم، وكلّ معلّم نزعت منه رخصته، أن يكاتبنا بما وقع له من ذلك، ويعرفنا بتفصيله حسب العنوان التالي: نهج الأربعين شريفا عدد 17 قسنطينة.

ج ـ القضيّة الثالثة: **التجنيس**: أحدثت فتوى ابن باديس ضدّ التجنيس ضجّة كبيرة في الأوساط الفرنسيّة الرسميّة والإعلاميّة بشهادته، يقول تحت عنوان «حول كلمتنا الصريحة»: لقد أحدثت الكلمة الصريحة التي نشرناها بالعدد الأسبق من الشهاب أثرها المطلوب، وكان لها الدويّ العظيم الذي كنّا نتوقّعه. فتلك كانت أوّل مرّة، فيما نعلم، جوبهت فيها الحكومة ورجال السياسة بحقيقة ناصعة. هي عين الحقيقة التي تفتقدها الأمّة، فيها بيان لعواطف وإحساس وشعور الأغلبيّة المطلقة... حمدوا لنا هذا الموقف الذي وقفناه ضدّ محاولات التجنيس الخائبة، ومحاولات هدم القومية واللغة والدين [م.س، 193]. وتعد هذه من أقوى المجابهات التي وقعت لابن باديس مع الفرنسيين قبل وفاته بقليل، وقد أقلقهم موقفه هذا، وهم يعرفون حقّ المعرفة قيمة الرجل ومدى التأثير الذي تتركه الفتوى في صفوف الشعب بمختلف شرائحه. وقد كان فرحات عبّاس من دعاة الاندماج وقد عاتبه الشيخ عبد الحميد بن باديس على مقالته «فرنسا هي أنا».

د ـ القضيّة الرابعة: **وحدة الشعب الجزائري**: تصدى الشيخ عبد الحميد بن باديس بقوّة الحجّة إلى محاولات التفرقة بين العرب والأمازيغ، من ذلك أنّه كتب مقالا عنوانه «ما جمعته يد اللّه لا تفرقه يد الشيطان»، ووقعه على غير عادته باسم «عبد الحميد الصنهاجي»، وهي إشارة ذكيّة من الشيخ إلى نسبه الأمازيغي الذي لا يتعارض مع اعتزازه بعروبته استنادا إلى حديث شريف «وليست العربيّة بأحدكم من أب ولا أم، إنّما هي اللسان فمن تكلّم بالعربيّة فهو عربي»، جاء هذا في الوقت الذي اشتدّت فيه محاولات الاحتلال التفريق بين الجزائريين. وعندما

شعر ابن باديس بخطورة ذلك حين بدأت أصوات تدعو إلى التفريق، وهذا بالطبع ما كانت تريده فرنسا، ضاعف من حملته في خطبه وفي كتاباته، من ذلك ما ذكره في مقال آخر عنوانه: «كيف أصبحت الجزائر عربيّة؟»، وهي دعوة صريحة إلى الوحدة العربية للشعب الجزائري التي تكوّنت عبر العصور، ولا يستطيع الاحتلال الفرنسي النيل منها، وأضحت الجزائر موحّدة جمعتها العقيدة بصرف النظر عن المفهوم الضيّق للأنساب [محمّد الميلي، م.س، 50 ـ 51].

هـ ـ القضيّة الخامسة: **موقفه من الطرقيّة**: وكانت مواجهة الطّرقيّة عند ابن باديس أمرا لا يمكن تجنّبه عندما تصدّى للإصلاح ومحاربة البدع، يقول: «حاربنا الطرقيّة لما عرفنا فيها ـ علم الله ـ من بلاء على الأمّة من الداخل ومن الخارج. فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحمّلنا في ذلك من صعاب» [مقدّمة الشهاب، مج. 16، ص 78]. وقد اعتمد الشيخ ابن باديس في موقفه من الطرقيّة على مساندتها للاحتلال الفرنسي حين سمحت لنفسها أن تكون أداة طيعة تساعد المحتلّ على تنفيذ خططه في محاربة المساجد والتعليم العربي، ومضايقة الصحافة العربيّة في الجزائر. وكان على الشيخ عبد الحميد بن باديس أن ينكر عليهم ذلك ويقاومهم بشدّة؛ ودخل معهم في معارك طويلة انتصر عليهم بعد جهد، لأنّها اكتسبت قوتها من مساندة الاحتلال الفرنسي لها، ويذكرنا موقف ابن باديس بموقف شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون الحفيد في القرن الحادي عشر الهجري الذي حارب بدوره الطرق الصوفيّة المتطرّفة في عهده في قسنطينة مع أنّه كان صوفيّا.

آثاره

لم يكن ابن باديس متفرّغا لتأليف الكتب، ولو فعل ذلك لما استطاع أن يحقّق مشاريعه التي أخذت منه كلّ وقته. من ذلك تأسيس المدارس عبر الوطن والانشغال بالصحافة والتفرّغ بالتدريس والتوجيه، والوعظ والتفسير. ومع ذلك فقد ترك آثارا اشتغل طلاّبه بدراستها من بعده، ومايزال تراثه في حاجة إلى تكفّل ورعاية ودراسة وبحث وتنقيب.

1 ـ ولقد اهتمّ عمّار الطّالبي بجمع آثار الشيخ ابن باديس ووزّعها على مجلّدين في أربعة أجزاء، صدرت الطبعة الأولى سنة 1968، والثانية في بيروت سنة 1983. عرض في المجلّد الأوّل بجزئيه تفسير الشيخ وشرح الحديث؛ وخصّص الجزء الأوّل من المجلّد الثاني لمجموعة من المقالات الاجتماعية والتربوية والأخلاقيّة والدينية والسياسيّة، وفي الجزء الثاني مجموعة أخرى من المقالات في موضوعات كثيرة هي: التاريخ، العرب في القرآن، التراجم، القصص الديني والتاريخ، الرحلات، تطوّر الشباب، الصلاة على النبيّ، الفقه والفتاوي. ويضمّ هذا الجزء الفهارس العامة وكشافات الأجزاء الأربعة من الصفحة 425 إلى 620.

وقد حظي تفسيره باهتمام كبير، من ذلك الحفل الذي أقيم بمناسبة الانتهاء من تفسيره والاحتفال بختمه بعد خمسة وعشرين سنة متتالية، في الثالث عشر من ربيع الثاني عام

1357 هـ، وقد قال الشيخ البشير الابراهيمي في مقدّمة «تفسير ابن باديس» متحدثا عن الشيخ: «لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها، فضاع على الأمّة كنز علم لا يقوّم بمال ولا يعوّض بحال، ومات فمات علم التفسير وماتت طريقة ابن باديس في التفسير».. [تفسير ابن باديس: 34]؛

2 ـ أصدر الشيخ عبد الحميد ابن باديس جريدة «المنتقد» الأسبوعيّة في قسنطينة يوم 2 جويلية 1925. وصدر العدد الأخير وهو الثامن عشر في 29 أكتوبر 1925 بعد تعطيلها من طرف الحكومة الفرنسية. إنّ جريدة المنتقد «تختلف عن الصحف التي سبقتها سلاسة أسلوب، ومتانة لغة، وعمق أفكار، إذ استطاع ابن باديس أن يضمّ إليه خيرة الأقلام العربيّة، مثل مبارك الميلي والطيّب العقبي والفرقد وأبي اليقظان» [محمد ناصر، الصحف العربيّة في الجزائر، 54]؛

3 ـ وفي 12 نوفمبر 1925 صدر العدد الأوّل من جريدة «الشهاب» وبعد أربع سنوات أصبحت مجلّة شهريّة توزّعت مادّتها على عدّة أبواب منها: «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وحديث البشير النذير»، «في المجتمع الجزائري». «رسائل ومقالات»، «نظرة في السياسة العالميّة».. إلخ.
وكانت الشهاب منبرا لرجال الإصلاح في الجزائر تتناول الجوانب الاجتماعيّة والدينيّة للمجتمع الجزائري بهدف إصلاحه والرقيّ به وتكوين أجيال متفتّحة على العصر متمسّكة بأصالتها. إنّ العمل الإعلامي لابن باديس يوازي عمله في حقل التربية، فهما وجهان لعملة واحدة تهدف إلى بعث روح الوطنيّة واسترجاع هويّتها. وقد هيّأ لتحقيق مشروعه الإعلامي كل الوسائل من ذلك تأسيسه المطبعة الإسلامية الجزائرية.
وقد صدرت مجموعة الشهاب كاملة عن دار الغرب الإسلامي في بيروت في 15 مجلدا مع مجلّد إضافي هو السادس عشر خصّصه الناشر لمقدّمة رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ عبد الرحمن شيبان من الصفحة 5 إلى الصفحة 138 مع تصدير في ثماني صفحات للدكتور أبي القاسم سعد الله وخمسة كشافات هي: أ ـ فهرس الموضوعات لكلّ مجلّد، ب ـ فهرس الأبواب، ج ـ فهرس المقالات، د ـ فهرس المؤلّفين، هـ ـ فهرس الشعر؛

4 ـ الخطب: على الرغم من شهرة عبد الحميد بن باديس بخطبه في المناسبات المتكررة كلّ عام كالندوات والمؤتمرات والحفلات المختلفة فإنّ خطبه لم تحظ بالرعاية والجمع كما كان الأمر بالنسبة إلى مقالاته. «لقد اشتهر ابن باديس بخطبه النافذة والمؤثرة، وكان مخلصا في كلامه، صادقا في تعابيره، حاضر البديهة، كثير الاستشهاد بالشواهد. ومع ذلك كان محافظا على توازن القول فلا يميل إلى الهجوم ولا يغالي في التقريع، فكان اعتداله من خصائص شخصيّته، ومن أسرار نجاحه وتأثيره» [سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 8/ 108 ـ 109]؛

5 ـ مراسلات: لابن باديس مراسلات كثيرة مع شخصيّات وطنيّة ودوليّة وعلى الرغم من أهمّية الرسائل في تاريخ الشيخ فإنّها لم تجمع؛

6 ـ شعر: صنف الدكتور أبو القاسم سعد الله

شعره في خانة الشعر السياسي، وكذلك أناشيده الوطنيّة التي كان الأطفال يرددونها في المدارس. من ذلك نشيد «اشهدي يا سماء» و«شعب الجزائر».

المصادر والمراجع

● الشيخ عبد الحميد بن باديس: فلسفته جهوده في التربية والتعليم، طبعة أولى سنة 1969 وطبعة ثالثة سنة 1981 بعنوان جديد: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر. ويعد الكتاب موسوعة في تناول الجانب التربوي للشيخ عبد الحميد بن باديس وبالأخص في الفصول: الخامس أهداف التربية عند ابن باديس، والسادس التربية الأخلاقيّة عند ابن باديس، والسابع آراء ابن باديس في المناهج وطرق التدريس، والثامن المؤسسات التربويّة والتعليميّة التي أسهم فيها ابن باديس بجهوده؛ ● عبد الحميد ابن باديس، مجالس التذكير، قسنطينة، 1948 ص 96؛ ● م.ن، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، الجزائر 1983؛ ● م.ن، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، الجزائر 1982؛ ● م.ن، تفسير ابن باديس، الجزائر 1991، 528 ص؛ ● رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس: رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ط. 4 الجزائر 1984، 379 ص؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت 1993، ج. 2، ص 66؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، ج 3، ص 289؛ ● سلوادي حسن عبد الرحمن، عبد الحميد مفسرا، الجزائر 1988، ص 301؛ ● طالبي، عمار، ابن باديس حياته وآثاره، ط 2، بيروت 1983، 4 مج؛ ● الميلي، محمد، ابن باديس وعروبة الجزائر، بيروت 1979؛ ● الجابري، محمد الصالح، النشاط العلمي للمهاجرين الجزائريين بتونس، الجزائر، تونس، 1983.

د. محمد عيسى موسى
مجمع اللغة العربية ـ الجزائر
د. عبد الحفيظ عصام
جامعة قسنطينة ـ الجزائر

ابن الباذش، أبو جعفر أحمد بن علي

(491هـ/1098م ـ 540 أو 542هـ/1145 أو 1147م)

أبو جعفر أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الانصاري الغرناطي المعروف بابن الباذش او البيذش. أصله من مدينة جيان (Jaen)، ارتحل جده أحمد بن خلف الانصاري الى مدينة غرناطة (Granada) التي ولد فيها علي بن أحمد خلف الأنصاري سنة (444 هـ/ 1052م).

وكان أبو جعفر أحمد الأنصاري المولود سنة 491 هـ إمامًا جليلا متفننًا في الآداب

والإعراب والأسانيد عالمًا بالقراءات؛ فهو نحوي وابن نحوي، خطيب غرناطة وشيخها، ومقرؤها في عصره، فضلاً عن كونه عالمًا بالحديث، ثقة.

وقد عاصرت أسرة ابن الباذش الحكم المرابطي في الأندلس، وكانت العلوم الدينية ولا سيما علوم القرآن (التفسير، القراءات) قد حظيت بازدهار كبير منذ عصر الطوائف (422 ـ 484هـ / 1030 ـ 1091)؛ ثم العصر المرابطي (484 ـ 541هـ / 1030 ـ 1146م) تمثل بظهور أعلام موسوعيين كانت لهم شهرة ليس في عصرهم فحسب وإنما في الوقت الحاضر أيضا. ومن يقرأ كتب فهارس العلماء او كتب الطبقات والأدب والتاريخ يجد الكثير منها، ومن الأعلام البارزين أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت 430هـ / 1038م)، والمقرىء أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت 444هـ / 1052 م)، والمقرىء محمد بن شريح الرعيني الاشبيلي (ت 476هـ / 1083م) وابنه شريح (ت 537 أو 539هـ / 1142 أو 1144م).

وقد نالت سمعة القراء مكانة كبيرة، حظيت بألقاب مرموقة. فهذا والد صاحب الترجمة أبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري (ت 528هـ / 1133م) شيخ غرناطة ومقرؤها وأحد رواتها في علم القرآن والحديث والآداب والأصول والضبط للحديث والقراءات واللغات في غاية الإتقان [فهرست ابن عطية ص 76 ـ 80] سمي بالأستاذ الشيخ الصالح على حد رواية القاضي عياض (ت 544هـ / 1149م)، [الغنية، ص 174].

وكان الفقيه أبو جعفر أحمد قد تفقه بأبيه، وكان راوية مكثرًا عنه، ومشاركا له في كثير من شيوخه. ومن هؤلاء الذين أخذ عنهم الفقيه أبو علي الحسين بن محمد الغساني (ت 498هـ / 1104م) الذي انتهت إليه رئاسة الحديث وإتقانه مع علم النحو والآداب والشعر، والفقيه الشهيد أبو علي الحسين بن محمد بن فيرة الصدفي السرقسطي (ت 514هـ / 1120م) وكان محدثًا مؤلفًا في الفقه المالكي وروى عنه مؤلفات من كتب الصحاح للإمام البخاري والترمذي. وقد أجازه هذان الفقيهان [شجرة النور الزكية، ص 132].

وأخذ القراءات عن الفقيه أبي القاسم خلف بن إبراهيم بن الحصار المعروف بابن النحاس (ت 511هـ / 1117 م)، وكان عالمًا بالقراءات السبع من قرطبة، كذلك روى عن الفقيه المالكي أبي بكر محمد عبد الله بن العربي الإشبيلي (ت 543هـ / 1148 م) كما ورد عند النباهي في كتاب [قضاة الاندلس، ص 107].

لم تعرف له رحلة خارج الأندلس، وربما لاكتفائه بأهل عصره من أفذاذ العلماء الكبار ابتداء من والده وانتهاء بمن لقيه وعاصره من رجال الأندلس. وقد أخذ عنه جملة من العلماء أبرزهم أبو علي القليعي، وأبو الحسن المقرىء، وأبو العباس أحمد الصقر وغيرهم.

وكانت وفاة أبي جعفر أحمد بن علي بن الباذش سنة 540هـ / 1145 م، وقيل سنة 542هـ / 1147م.

■ آثاره

1 ـ الإقناع في القراءات، وقال عنه ابن فرحون (ت 799هـ / 1396 م)؛ لم يؤلف

في بابه مثله [الديباج، ص 142. كما قال ذلك الإمام السيوطي (ت 911هـ / 1505 م) [البغية، 1/ 338]؛ 2 ـ الطرق المتداولة في القراءات، وكان قد أتقنه غاية الإتقان [شجرة النور، ص 132]، ولكن الجزري يقول بأنه لم يكمله بسبب وفاته المفاجئة، [غاية النهاية، ص1/ 83] وقد جمع أبو جعفر أحمد الانصاري فهرسة شيوخ أبيه التي رواها الشيخ ابن خير الإشبيلي (ت 575هـ/ 1179م) في كتاب فهرسة ما رواه عن شيوخه، ص437.

المصادر والمراجع

● الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، 1967، ص 200؛ ● ابن خير الإشبيلي، فهرست ما رواه عن شيوخه، ط 2، تح. فرانسيسكو كوديرا وخليان ريبيرا بيروت دار الآفاق، 1979، ص 437؛ ● عياض، الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض، تح. ماهر جرار، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982، ص 174 ـ 175؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، نشر عباس بن شقرون مصر 1932، ص 42؛ ● الجزري، غاية النهاية في طبقات اللغويين والنحاة، تح. أبي الفضل إبراهيم 1965، 1/ 338؛ ● مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتاب العربي، 1931، ص 132؛ ● البغدادي، هدية العارفين، بغداد، مكتبة المثنى، 1/ 84؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، بغداد، مكتبة المثنى، 1/ 140؛ ● عنان، عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1964، ص 461؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 1/ 173.

د. حازم غانم حسين
جامعة الموصل

ابن الباذش، أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف

(444هـ/1053م ـ 528هـ/1133م)

هو علي بن أحمد بن خلف بن محمد الأنصاري المعروف بـ «ابن الباذش»، وكنيته أبو الحسن. نحوي، لغوي، أديب، عاش قرابة أربع وثمانين سنة، إذ ولد بغرناطة في شوال سنة 444هـ / 1053م، وتوفي بها على وجه التدقيق ليلة الاثنين ثالث عشر المحرّم سنة 528هـ / 1133م.

يلفّ سيرة ابن الباذش شيء من الغموض. فلا نجد غير أخبار قليلة عنه أثبتها ابن

بشكوال [الصلة ج. 2/ 404 ـ 405]، وكان قريب العهد بابن الباذش، إذ توفي بعده بنصف قرن أي سنة 578 هـ. وقد استقى هذه الأخبار من أبي عبد الله النميري صهر ابن الباذش، ولا تقدم هذه الأخبار معلومات عن نشأة ابن الباذش ومنزلة أسرته وصلاته بشخصيات عصره وما إلى ذلك من التفاصيل التي تعين على رسم شخصيّة الرجل، ولكنها تذكر بالتدقيق أسماء شيوخه وتؤكّد ما يتحلّى به من صفات علميّة ومناقب أخلاقيّة.

درس ابن الباذش علم القراءات والأدب والنحو في قرطبة على عدد من الشيوخ هم: أبو بكر بن محمد المصحفي، وأبو جعفر بن رزق، وأبو علي الغسّاني وقد أكثر عنه، وأبو داود، والقاضي أبو الأصبغ بن سهل، ومحمد بن سابق الصقلّي، وأبو بكر المرادي، والقاضي عياض، وغيرهم كثير ممّن ذكرهم ابن الجزري في طبقات القرّاء [ج 1/ 518 ـ 519]، وابن فرحون في الديباج المذهب [ج 2/ 107 ـ 108] وقد وضع برنامجا عدّد فيه أسماء أساتذته.

كان لابن الباذش دراية بالحديث ومعرفة جيّدة بأسماء رجاله ونقلته وإتقان روايته. وكان متبحّرا في النحو ويعتبره الضبّي من أفضل حفّاظ كتاب سيبويه. وكان حسب ما جاء في كتب التّراجم عالما، متديّنا، فاضلا، زاهدا، ورعا. وقد تصدّر للإقراء وتدريس النّحو بغرناطة، وحفلت دروسه بالطلبة وآلت إليه لسنوات طويلة إمامة جامع غرناطة.

وقد تتلمذ عليه عدد من أعلام علوم متنوّعة. منهم أبو القاسم بن بشكوال، والقاضي عياض، والحسن بن هاني اللخمي، وابن الاشتركوني، وأبو الوليد الدباغ، وابنه أبو جعفر وتشير إليه بعض المصادر بابن الباذش الثاني للتمييز بينه وبين أبيه.

آثاره

لئن اعترف لابن الباذش بتمكّنه من القراءات والحديث، فإنّ المصادر لم تذكر له إلاّ تصانيف في النحو. وهي، خاصة، من الشروح؛ ولا نكاد نعرف شيئا عنها سوى ما نقله من آرائه النحاة المتأخرون. فقد ذكره مثلا ابن حيّان عديد المرّات في كتابه «ارتشاف الضرب من لسان العرب»، ويسميه أحيانا الأستاذ أبا الحسن بن الباذش [ق/ 536 ـ 733، 808، ق ق/ 1428، 1485]. ومن هذه المؤلّفات:

1 ـ شرح الجمل للزجاجي، منه نسخة في مكتبة طلعت؛ 2 ـ شرح كتاب سيبويه؛ 3 ـ شرح أصول ابن السرّاج؛ 4 ـ شرح إيضاح أبي علي الفارسي؛ 5 ـ شرح الكافي للنحاس؛ 6 ـ شرح المقتضب من كلام العرب، لابن جنّي.

المصادر والمراجع

• السلفي، أخبار وتراجم أندلسيّة مستخرجة من معجم السفر، ج. 1/ 2، 3، تح. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1963؛ • ابن بشكوال، كتاب الصلة، ج. 2/ 404 ـ 405، ترجمة رقم 915، نشر عزت العطار الحسيني، القاهرة 1374هـ/ 1955 م؛ • الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ص 419، ترجمة رقم 1206، دار الكتاب العربي؛ • القفطي، إنباه الرواة، ج 2/ 227 ـ 229، ترجمة

رقم 413، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. 1، القاهرة، 1406 هـ / 1986م؛ ● أبو عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، ترجمة رقم 329، تح. إحسان عبّاس، بيروت ص 166؛ ● ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرف أعيان المذهب، ج 2/ 107 ـ 108، ترجمة رقم 17، تح. محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث للطبع والنشر؛ ● ابن الجزري، شمس الدين، غاية النهاية في طبقات القرّاء، ترجمة رقم 2145، تح، ج. برجستراسر، ط. 3، 1402 هـ / 1982م؛ ج. 1/ 518 ـ 519؛ ● السيوطي، همع الهوامع، تح. عبد السلام محمد هارون وعبد العال سالم مكرّم، الكويت 1975 ـ 1977 ج. 1/ 158، 205، 224، ج. 2/ 171؛ ● خليفة، حاجي، كشف الظنون، إستنبول 1941؛ ج. 1/ 111، 212، 604، ج. 2/ 1379، 1428، 1793؛ ● كحّالة، عمر، معجم المؤلفين، دمشق 1961، ج. 7/ 15؛ ● دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، طهران، 1416/ 1995، 2/ 452؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، ط. 1، بيروت 1982، 5/ 170 ـ 172.

د. الشاذلي الهيشري
جامعة منوبة ـ تونس

البارقي الأصغر

(ت 78هـ/697م)

سراقة بن مِرْداس بن أسماء الأزدي البارقي الأصغر.

وبارق بطنٌ من الأزد، وهو في الأصل ماءٌ أو جبلٌ بالسَّراة نزل به سعدُ بن عَدي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، وابنا أخيه مالكٌ وشبيبٌ ابنا عمرو بن عدي فسموا بارقًا، ولا يزال المكان يعرف بهذا الاسم إلى الآن، وهو وادٍ يطلق عليه وادي بارق، تقع على ضفافه عدة قرى، وسكانها يحملون اسم بارق حتى الوقت الحاضر.

ولقب بالبارقي الأصغر، تمييزًا له عن البارقي الأكبر سُرَاقة بن مرداس، وهو شاعر جاهلي، لا يعرف من أخباره وشعره سوى القليل.

والبارقي شاعر أموي من شعراء الكوفة، لم تشر المصادر إلى عام ولادته، غير أنّ ابن عساكر ذكر في تاريخ دمشق أنه أدرك عصر النبي ﷺ وشهد معركة اليرموك عام 15هـ/ 636م. وقال: إنه سمع أبا هريرة يقول يومئذ: تزينوا للحور العين، وجوار ربكم في جنات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطن من

المواطن بأحبَّ إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإنَّ للصابرين فضلهم. ويرى الدكتور عمر فرّوخ بناءً على ذلك أنّ ولادته قُبيل الهجرة بسنواتٍ قليلة، ويكون بهذا الاستنباط قد طوى من السنوات أكثر من ثمانين سنة. وتسكت عنه المصادرُ بضعةَ عقودٍ من الزمن؛ فلا تذكر من أمره ولا خبره شيئًا حتى عام 66 هـ/ 686 م، حيث تشير إليه ضمن الذين ثاروا من أشرافِ الكوفة في وجه المختار الثقفي حينما استولى عليها، وتمكن من إخماد ثورتهم، وأسَرَ سراقة، ولكنه استطاع أن يخلّص نفسه من الأسر بحيلة وافقتْ هوىً في نفس المختار، ومدحه بقصيدته النونية، ومطلعها:

ألا أبلــغْ أبا إسحــاقَ أنّا
نـزَوْنـا نـزْوةً كانتْ علَيْنا

وأبو إسحاق كنية المختار الثقفي.

وتذكر بعضُ المصادر أن المختارَ أسره ثلاث مرات، نجا منها بذلاقة لسانه وحسن خطابه واعتذاره.

من ذلك ما روي في جملة من المصادر أن المختار حين أسره قال له: ما أسرتموني، وإنما أسرني قوم على دوابٍ بُلْق، وأقسم له أنه رأى الملائكة تقاتل على خيول بُلْق بين السماءِ والأرض، فقال له المختار: فاصعد المنبر، وأخبر المسلمين، ففعل سراقة، فلما نزل خلا به المختار، فقال: قد علمتُ أنك لم تر الملائكة، وإنما أردتَ ألا أقتلك، فاذهب عني حيث شئت، ولا تفسد عليَّ أصحابي.

وفي رواية قال له المختار: إني قاتلك، فقال سراقة: والله يا أمين آل محمدٍ، إنك تعلم أن هذا ليس باليوم الذي تقتلني فيه! قال: ففي أي يوم أقتلك؟ قال: يوم تضعُ كرسيَّك على باب مدينة دمشق، فتدعو بي يومئذٍ فتضربُ عنقي؛ فقال المختار لأصحابه: يا شرطةَ الله! من يرَفعُ حديثي؟ ثم فكه من الأسر.

وبعد أن تخلّص من أسره ذهب إلى مصعب بن الزبير في البصرة مع أشراف الكوفة، وهجا المختار بقصيدة تائية مثبتة في ديوانه. فلما بلغ المختارَ ذهابُه إلى البصرة، وهجاؤه إياه هدم داره في الكوفة، فبناها له مصعب بعد أن قتل المختار عام 67هـ/ 687م. ثم اتصل ببشر بن مروان بن الحكم، وصحبه معه إلى الكوفة لما تولاها عام 71هـ/ 690م من قبل أخيه عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي (65 ـ 86هـ/ 685 ـ 705م)، بعد مقتل مصعب بن الزبير. وكان بشر كريمًا جوادًا ذا نجدة، مُمَدَّحًا، يقرِّب إليه الشعراء، ويجيزهم، ويُغْري بينهم؛ ليهجوَ بعضُهم بعضًا، أغرى بين جرير والأخطل؛ حتى استطار بينهما الهجاء الذي تحول إلى مناقضات، وحمل سراقة على هجاء جرير كما يقول ابن سلام في طبقات فحول الشعراء.

ثم تغفل المصادر ذكره، فلا نقع له على خبر حتى عام 75هـ/ 695م، فنراه يرثي عبدالرحمن بن مخنف الأزدي حينما قتله قطري بن الفجاءة، وكان والي البصرة بشر بن مروان قد بعثه عام 74هـ/ 694م مع المهلب بن أبي صفرة لقتال الخوارج.

ويذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنه هجا الحجاج بن يوسف الثقفي، فنفاه إلى الشام حيث توفي عام 78هـ/ 697م.

ويذكر الصفدي في «الوافي بالوفيات» والسيوطي في «شرح شواهد المغني» أنه توفي في حدود الثمانين. وقيل: إنه رجع إلى وطنه فمات فيه.

ومن صفات سراقة أنه كان جميل الطلعة، ظريفًا، حلو الحديث، حسن الإنشاد، محبوبًا من الأمراء والولاة. ذكر أن جريرًا مَرّ بسراقة بمنى، وهو يُنْشِدُ، والناس مجتمعون حوله، فأعجبه جمالُهُ، واستحسنَ نشيدَهُ. فقال جرير: من أنت؟ قال: بعضُ من أخزاهُ اللّه على يديك! قال جرير: أما واللّهِ لو عرفْتُكَ لوهبتُك لظَرْفِك!.

ويلحظ مما تقدم أن سراقة كانت له علاقة مع كبار عصره من البيت الزبيري والأموي، وبعض القادة، يضاف إلى ذلك علاقته مع زملائه في المهنة كالفرزدق، وجرير، وكثير عَزَّة، وحمزة بن بيض الحنفي، وتنوعت هذه العلاقة بين الصداقة المحضة كعلاقته بحمزة بن بيض، وعلاقة المنافسة والهجاء والمناقضة كعلاقته بجرير والفرزدق وكثيّر عزة.

ديوانه:

لسراقةَ ديوان شعر صغير مجموع، صنعه محمد بن حبيب البغدادي (ت245هـ / 859م)، ورواه عنه السكري (ت275هـ / 888م)، وملحق بالديوان صنعة محمد بن حبيب ثلاث قصائد طوال برواية ابن الأعرابي (ت231هـ/ 845م).

وديوانه الذي وصل إلينا لا يمثل جميعَ الشعر الذي قاله سراقة؛ لأنّ في حياته أحداثًا وأشخاصًا، لا نجد لها ظِلاً في ديوانه. ذكرت بعض المصادر أنه هجا الحجاج بن يوسف الثقفي، ولا نجد في شعره الذي بين يدينا شيئًا من ذلك. ويغلب على الظن أنه مدح عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي حينما قدم إلى الشام، واستوطنها، غير أن ديوانه يخلو من أي مدح له. وعلى الرغم من هجائه جريرًا ومناقضاته معه، فلا يتضمن شعره سوى مقطوعتين في هجائه، وثلاثة أبيات في هجاء الفرزدق حين فسد ما بينهما، وتحولت الصداقة إلى عداوة وهجاء. وممّا يستغرب أن ديوانه لا يضم سوى ثلاثة أبيات في مدح بشر بن مروان الأمير الأموي مع أن بشرًا تلقى سراقة، وصَحِبَه معه إلى الكوفة، وأحسن إليه. وفي يقيننا أن شعر سراقة سقط منه الكثير من أيدي الرواة. واعتمد محقق الديوان في نشره على مخطوطتين في دار الكتب المصرية، أولاهما مسجلة تحت رقم 614 أدب، وقد نقلت عن مكتبة عاشر أفندي في الآستانة، وكتبت عام 1279هـ.

والأخرى نسخة مسجلة تحت رقم 6 ش أدب، كتبها محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي عام 1293هـ. وذكر فؤاد سزكين مخطوطة للديوان في برلين مسجلة تحت رقم 902 ولم يطلع عليها المحقق، غير أنه ذكر أنها منقولة عن مخطوطتي دار الكتب المصرية.

والموضوعات التي وظف فيها سراقة شعره لا تعدو الموضوعات الشعرية التقليدية التي تداولها الشعراء في العصر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي. ومن أبرز الموضوعات التي نظم فيها الرثاء، ومن أهم ما نطلع عليه في ديوانه رثاؤه لعبد الرحمن بن مخنف الأزدي، ولمن قضى من قومه الأزد

في الفتن والحروب التي ألمتْ بالعراق. وكان في رثائه مخلصًا صادقًا بعيدًا عن المداجاة؛ لأنه يعبر فيه عن عاطفةٍ محبة وإعجاب. ويتحول رثاؤه لأشراف قومه إلى فخر؛ ليصبح غرضًا شعريًا بارزًا يشيد فيه بنفسه وشعره، وبمآثر قومه، وتَعْداد مناقبهم ومكارمهم، ونجد هذا الفخر مبثوثًا في سائر الأغراض الشعرية التي حواها ديوانه. ولا نبرئ سراقة من الاعتزاز بنفسه وشعره، والعصبية لقومه، ولكننا نلتمس له العذر، فطبيعة العصر الذي عاش فيه تفرض عليه هذا الاعتزاز وهذه العصبية.

وقال شعرًا في الوصف، ولا سيما في وصف الخيل، وفي ديوانه المنشور قصيدة بائية تتكون من اثنين وعشرين بيتًا في وصف الخيل مطلعها:

زعمتْ ربيعةُ وهي غيرُ مَلُومَةٍ
أنّي كبُرتُ وأنَّ رأسيَ أشْيَبُ

قال الحجاج عنها: من أراد أن يبصرَ بالخيل فليرو قصيدةَ بارق.

وهو قَمِينٌ بأن يُضَمَّ إلى وُصَافِ الخيل المجيدين في الشعر العربي.

والهجاء موضوعٌ رئيس في شعره، هجا المختار الثقفي وكثيِّر عزة وجريرًا والفرزدق وغيرهم، وهجا بعض القبائل انتصارًا لقبيلته وتعصبًا لها. وتحول في بعض هجائه لجرير والفرزدق إلى مناقضات.

أما المدح فقليل في ديوانه، ويلحظ أن فخره القبلي امتزج بالمدح والثناء وفي شعره حكم كقوله:

مجالسةُ السفيهِ سَفَاهُ رأيٍ
ومن حِلْمٍ مُجَالسةُ الحليمِ

فإنَّكَ والقرينَ معًا سواء
كما قُدَّ الأديمُ على الأديمِ

وقوله:

لا تَطْلُبَنَّ فتَاةً من وَسَامَتِهَا
ما لم يوافِقْكَ منها الدينُ والخُلُقْ

والرِّفقُ يجمعُ أهلَ البيتِ ما اجتمعوا
وقد يَشُقُّ على أصحابِهِ الخُرُقْ

ونجد الحكمة مبثوثةً في سائر شعره في جميع الأغراض.

ويمتاز شعره بالعذوبة والرقة والوضوح والبعد عن الفحش في الهجاء، وأثر العامل الديني والخلقي بارز فيه. ويمكن أن يوصف بأنه من شعراء الحكمة إلى جانب نعته بأنه من وصاف الخيل ومن الشعراء القبليين.

آثاره

- ديوان سراقة البارقي، حققه وشرحه د. حسين نصار، ونشره في القاهرة عام 1947م، وقدم له د. مصطفى السقا، واعتمد في تحقيقه على مخطوطتي دار الكتب المصرية، وصدرت له طبعة حديثة عام 1421هـ/2001م، نشرتها مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

المصادر والمراجع

● طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، حققه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ص: 439 - 444؛ ● عيون الأخبار، عبد الله بن

مسلم بن قتيبة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ج1، ص203؛ ● الأخبار الطوال، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، حققه عبد المنعم عامر، دار المسيرة، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة مكتبة المثنى ببغداد، ص: 303؛ ● تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، 1964م، دار المعارف بمصر، ج6 ص 51، 54، 55، 92، 122، 214، حوادث الأعوام 66هـ و67هـ و68هـ و75هـ؛ ● الفتوح، أحمد بن أعثم الكوفي، دار الندوة الجديدة، بيروت، نسخة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ج 6 ص152 ـ 155؛ ● الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، حققه وشرحه عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي بمصر، مطبعة السنة المحمدية، 1378هـ/ 1958م، ص 480؛ ● العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، حققه أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، الطبعة الثالثة، 1384هـ / 1965م، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ج2، ص170 ـ 171؛ ● الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، الطبعة الثالثة، 1381هـ/ 1962م، دار الثقافة، بيروت. ج8 ص18، ج9 ص11 ـ 13؛ ● المؤتلف والمختلف، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، حققه عبد الستار أحمد فراج، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص197 ـ 198؛ ● التذكرة الحمدونية، ابن حمدون محمد ابن الحسن بن محمد، حققه إحسان عباس، وبكر عباس، الطبعة الأولى، 1996م، دار صادر، بيروت، ج 8 ص248؛ ● المُنْتَظَم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، حققه محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، 1412هـ/ 1992م، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6 ص 57، حوادث 66هـ؛ ● الكامل في التاريخ، ابن الأثير عز الدين علي بن محمد، دار صادر، 1402هـ/ 1982م، بيروت، ج4 ص237 ـ 239، 266، 390، حوادث الأعوام 66هـ و67هـ و75هـ؛ ● الوافي بالوفيات، خليل بن أيبك الصفدي، الجزء 15، حققه بيرند راتكه، الطبعة الأولى 1399هـ/ 1979م، فرانز شتاينر فيسبادن، ألمانيا، ص132 ـ 133؛ ● البداية والنهاية في التاريخ، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، حققه محمد عبدالعزيز النجار، مكتبة الأصمعي للنشر والتوزيع، الرياض، ج 9 ص30 حوادث عام 78هـ؛ ● شرح شواهد المغني، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، علق عليه أحمد ظافر كوجان مع تصحيحات وتعليقات محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي، لجنة التراث العربي، بيروت، ص 677 ـ 678؛ ● تهذيب تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر أبي القاسم علي بن

الحسن بن هبة الله الشافعي؛ هذبه ورتبه عبد القادر بدران، الطبعة الثانية، 1399هـ/ 1979 م، دار المسيرة، بيروت، ج 6، ص 71 ـ 73؛ • تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار، الطبعة الثانية، 1968م، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ج 1 ص 248؛ • الأعلام، خير الدين الزركلي، الطبعة السابعة، 1986م، دار العلم للملايين، بيروت، ج 3 ص 80 ـ 81؛ • معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ج 4 ص207؛ • تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، الطبعة الثانية، 1388هـ/ 1969م، دار العلم للملايين، بيروت، ج1 ص 469 ـ 473؛ • تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، مج 2 ج 3، ترجمة د. محمود فهمي حجازي، راجع الترجمة د. عرفة مصطفى؛ د. سعيد عبد الرحيم، الطبعة الأولى، 1403هـ/ 1983م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص 22 ـ 23.

ونشر سيد محمد حسين دراسةً عن شعر سراقة في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بلندن في عددي يوليو وأكتوبر سنة 1936م، ص 475 ـ 490، 605 ـ 628، واعتمد في دراسته على مخطوطة المكتبة الأهلية في فينا المنقولة عن النسخة الألمانية، وهذه نقلت عن مخطوطتي دار الكتب المصرية.

وأعدّ هان الألماني عنه وعن شعره بحثًا قدمه لنيل درجة الدكتوراه إلى جامعة إرلانجن، وطبع في جامعة جوتنجن عام 1938م.

أ. د. حمد بن ناصر الدُّخيّل
الرياض ـ السعودية

البارقي الأكبر، سراقة بن مرداس

(2 هـ/ 623 م)

سراقة بن مِرْدَاس البارقي الأكبر. وبارق بطنٌ من الأزد، وسبق ذكر ذلك في مدخل البارقي الأصغر.

لقب بالأكبر؛ لأنه متقدمٌ زمنًا وسنًا على البارقي الأصغر.

ولد في أرض بارق، وعاش في العصر الجاهلي، وأدرك الإسلام، له ثمانية أبيات يفخر فيها بقبيلته الأزد، ويشيد بانتصارها على قريش، حتى جنحوا للسلم، وأقروا بأن تفرض عليهم الأزد إتاوةً في قصة طويلة أوردها ابن هشام في «السيرة النبوية»، والبلاذري في «أنساب الأشراف»، ومحمد بن

حبيب البغدادي في «أخبار قريش»، ملخصها أن أبا أزيهر الأزدي المعروف بالدوسي نسبةً إلى أخواله - وهو من أشراف قومه وساداتهم - كان حليفًا لأبي سفيان بن حرب، صديقًا له، وزوّجه ابنته عاتكة، وزوّج ابنته الأخرى الوليد بن المغيرة المخزومي، وبعد أن تسلم أبو أزيهر صداق ابنته من الوليد تبيَّن له أنه يسيء عشرة النساء، يعتدي عليهن بالضرب، فمنع ابنته من الذهاب إلى بيت الوليد، ولم يُعِدِ المهر. وقيل: بل انتقلت إلى بيت الوليد، وأنه سألها مرة عن أيهما أشرف هو أو والدها، ففضَّلت والدها، ووصفته بأنه سيد قومه، فلطمها على وجهها، فذهبت مغضبة إلى أبيها، فأقسم أبوها ألا يراها الوليد، ولم يُعِدِ المهر إليه. فلما اجتمع الناس في سوق ذي المجاز على عادتهم السنوية - وكان أبو أزيهر يقيم فيه مع حليفه أبي سفيان - هجم أولاد الوليد بن المغيرة على أبي أزيهر وقتله هشام بن الوليد، وتطور الأمر، فأوقعت الأزد بقريش مقتلة عظيمة، وتعرضت لعيرها وفرضت عليها إتاوة، وكادت أن تقع بين القرشيين حرب بسبب ذلك، حدث ذلك بعد معركة بدر بمدة، فقال البارقي الأكبر الأبياتَ الآتية:

لقد علمتْ بنو أَسَدٍ بأنَّا
تَقَحَّمْنَا المشاعِرَ مُعْلِمِينَا

تركْنَا بَعْكَكًا وابني هشامٍ
وحَرْبًا والمُسَيَّبَ إذْ لقينا

وعوفًا بعدهُ العوامُ رَهْنًا
ولم نَكُ من قريشٍ أَوْ جَرِينَا

تركنا تسعةً للطيرِ منهم
بمكةَ والسباعِ مُطَرَّجِينَا

فلما أنْ قَضَيْنا الدَّيْنَ قالوا:
نريدَ السَّلْمَ، قلنا: قد رضينا

وَضَعْنَا الخَرْجَ مَوْظوفًا عليهم
يؤدونَ الإتاوةَ آخَرِينَا

لنا في العِيرِ دينارٌ مُسَمَّى
به خَرْزُ الحلاقِمِ يَتَّقُونا

ولولا ذاك ما جَالتْ قريشٌ
شِمالاً في البلادِ ولا يمينا

وتنسب هذه الأبيات أيضًا إلى مُعَقِّر بن حمارٍ البارقي.

المصادر والمراجع

- محمد بن حبيب البغدادي، المنمق في أخبار قريش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فارق، الطبعة الأولى، 1405 هـ/ 1985 م، دار الكتب، بيروت، ص 206 - 207، ينظر ما قبلها وما بعدها؛
- الآمدي، المؤتلف والمختلف، حققه عبد الستار أحمد فراج، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص 196.197؛
- عزيزة فوّال بابتي، معجم الشعراء الجاهليين، الطبعة الأولى، 1998 م، دار صادر، بيروت، ص 163.

د. حمد بن ناصر الدُّخَيِّل

جامعة الامام محمد بن سعود - الرياض - السعودية

البارودي، اسكندر بن نقولا بن سمعان

(1273هـ / 1856م - 1340هـ / 1921 م)

طبيب وأديب وصحافي منشئ ومربّ، عمل في التربية والتعليم، وفقيه عمل في سلك القضاء. والده نقولا بن سمعان البارودي من بمكّين قرب بلدة سوق الغرب في قضاء عاليه، لبنان، كاتب حاسب تولّى إدارة معملي حرير سكوت في شملان (عاليه) والخوري في الباشورة (بيروت)، وله مجموعة خطيّة منثورة منظومة سمّاها «الجنك».

ولد اسكندر البارودي في صيدا العام 1856م/ 1273 هـ، وتعلّم في مدرسة دير الشير في بمكّين، وفي المدرسة الانكليزيّة في سوق الغرب على عهد مؤسّسها إلياس الصليبي، وفي الجامعة الأمريكيّة في بيروت، فنال شهادة البكالوريا العام 1875 م، ودرس على نفسه الشريعة والقانون. والشهادة الطبّيّة العام 1882م. ثمّ توجّه إلى الأستانة وأدّى امتحانا قانونيا في المكتب الطّبي الشاهانيّ على عهد ماكو باشا وفاز بالاجازة الرسميّة مع لقب بك. وبعد عودته عيّنه حمدي باشا والي الشام طبيبا لبلدية حمص، فخدمها ثلاثة أعوام وارتقى منها إلى طبابة بلديّة حماه حيث استمرّ سنتين ثمّ تعيّن طبيب بلديّة سوق الغرب فمستشفى بعقلين.

قدم إلى بيروت العام 1893م وطبّب فيها سائر حياته، وعالج الفقراء في بيته مجّانا، وأنشأ مع ذلك مستوصفين مجّانيين في برج البراجنة والغبيري عالج فيهما عدّة سنوات.

وبدت عليه سمات الذكاء في مقتبل العمر، فنال جائزة السؤالات البهيّة في النشرة الأسبوعيّة لإجادته الجواب عنها وعددها أربعون، وأرسلته الجامعة الأميركيّة مع بعثة أميركيّة علمية لدرس وجمع نبات شرقيّ الأردن قبل بلوغه العشرين من عمره. كما درس آثار الأستانة وعاديّات سوريا وبعض متاحف أوروبّا.

بدأ الكتابة أوّلاً في مجلّة «المقتطف» وله فيها أيضا مناظرات وخطب منها: السحر غشّ، الحسّ في المادّة، الحياة والجاذبيّة، كشف الأستار عن الأسرار، فضل المكرسكوب، العين ووقايتها، منافع الجراثيم المكروسكوبيّة، سورية وعوامل نموّها. ثمّ كتب في مجلّة «الطبيب» على عهد محرّرها الدكتور جورج بوست، وهي المجلّة التي أخذ بإنشائها وتحريرها بدءًا من ربيع العام 1895م. وحملت شعار «مجلّة طبّيّة علميّة صناعيّة». ويقول عن سبب إنشائها: «هذا ولـمّا كانت لغتنا العربيّة خالية الآن من المجلاّت الطبّيّة، مع كونها بجميع شتات العلوم والمعارف غنيّة، كان الشروع بنظم جواهر الطبابة في جريدة عربيّة لازما، ونشر شتات مسائله ونكاته فرضا محتّما، فأوّل ما كُلّفت به تلقّيته بالقبول وسعيت في تحصيل بعض المأمول، فأدخلت نفسي في وعوره

واندفعت إلى ما بين أوراقه وسطوره». وقد فتح في المجلّة بابا لكلّ من الفروع الطبّيّة للنظري والعلمي منها وللمباحث والعمليّات الجراحيّة وللصيدلة والصحّة والطبابة الأهليّة وطبّ الخيل والحيوان والمسائل العموميّة. واستمر في تحرير المجلّة إلى خريف العام 1914 م، أي مدّة عشرين عامًا متتالية، أصدر منها تسعة عشر مجلّدا بنحو سبعة آلاف وخمسمائة صفحة. وكانت قبلها صحفا سياسية منها «لسان الحال» و«لبنان» وسواهما.

عمل في حقل التربية والتعليم بضع سنوات، فدرّس في مدرسة صيدا الأميركيّة للبنات مدّة ثلاثة أعوام، وفي الجامعة الأميركيّة سنة واحدة، وفي معهد زهرة الإحسان للروم الأرثوذكس في بيروت حيث علّم حفظ الصحّة والتمريض. كما درّس علم الحقوق وأجيز به.

ألقى عددًا من المحاضرات في محافل مدينة بيروت وغيرها من دمشق إلى حمص إلى طرابلس فصيدا وعكّا، هذا عدا عن متصرّفية جبل لبنان. ومن محاضراته المشهورة: فينيقيا وسوريا، وتاريخ تعليم المرأة والمسكر. وله كتابات شتّى في تاريخ البلاد وآثارها.

تولّى القضاء في محكمة استئناف جبل لبنان اثنين وعشرين عامًا، وخدم الجمعيّات على اختلافها خمسين عامًا، فترأس جمعيّة شمس البرّ عشر سنوات، ومحفل السلام الماسونيّ أربعة عشر عامًا، وناب عن رئاسة جمعيّة متخرّجي الجامعة الأميركيّة عدّة أعوام. وهو من مؤسّسي جمعيّة الأطبّاء والصيادلة والمجمعين العلمي الشرقيّ والعلميّ السوريّ وجملة محافل. كان عضوا في الجمعيّات العلميّة والكيماويّة والصحّة العموميّة وتهذيب الشبيبة والملجأ الصحّي والمؤتمر الطبّي. كما كان عضوا خصوصيا في مجلسي إدارة جبل لبنان يمثّل الطائفة الإنجيلية ويدافع عن حقوقها. وأما اللجان المؤقّتة للأعمال العموميّة فقلّما تألّفت لجنة على عهده وخلت منه ولا سيما ما كان منها أدبيا. وكان محبّا لعمل الخير منشّطا لأرباب المواهب، يبذل أوقاته مجانا في سبيل ترقيتهم.

قاوم الاستبداد، ورفع لواء الحرية والمساواة والإخاء.

امتازت حياته بما بذل من مجهود علميّ رمى من ورائه إلى إغناء الثقافة العربية العلمية. عني بنفائس المخطوطات العربيّة فجمع مكتبة حافلة ونقّح على الكتب العربيّة تقييدات كثيرة، منها في خزانتي تاريخ ابن خلّكان. وكان مجتهدا نشيطا مجاهدا، ما كلّ ولا ملّ، حتى انحرفت صحّته. لفظ أنفاسه الأخيرة في الخامس والعشرين من تشرين الثاني العام 1921 م/ 1340هـ في سوق الغرب. ودفن في بمكّين. وأقام له أصدقاؤه حفلة تذكارية في الجامعة الأميركيّة.

آثاره

مع إنشائه مجلّة «الطبيب» علميًّا وصحيًّا وزراعيًّا وصناعيًّا، ألّف عدّة كتب في الطبّ والصحّة كان فيها من الرواد، بالإضافة إلى موضوعات أخرى، وأهمّ مؤلفاته:

1 ـ أضرار المسكرات، بيروت، لام. لا ت؛ 2 ـ حياة كرنيليوس فنديك، المطبعة العثمانية، بعبدا (لبنان)، 1900؛ 3 ـ خير الأغراض في تدبير الأمراض، بيروت، 1897، مختصر السوار المحلّى ومضاف إليه

علاوة في تدبير علل النساء والولادة؛ 4 ـ السوار المحلّى في تدبير الأعلاء، المطبعة الأدبيّة، بيروت، 1897. وقد وضعه لتعليم أصول التمريض وملاحظة المصابين بالعلل المختلفة. وهو جزيل الفائدة للآباء والأمّهات والمعلّمين والمعلّمات وللواتي يرغبن في تعلّم قواعد التمريض التي تحتاج إليها المستشفيات والعائلات؛ 5 ـ النصائح الموافقة في سنّ المراهقة، بيروت، لام. لا ت؛ 6 ـ المبادئ الصحيّة للأحداث، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1900.

وله تاريخ الحثّيين، وديوان شعر وهما مخطوطان، ومجموعة خطب، وتفسير شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا. وصنّف وعرّب كثيرًا من قوانين الجمعيّات، ونشر فصوص الحكم للرازي ودعوة الأطبّاء لابن بطلان. وكان معاونًا للأستاذ بورتر في تاريخه القديم، وللأستاذ لويس في كيميائه الحديثة، ولشقيقته هيلانة في حقائقها الجسميّة. ووصف رحلته العام 1910م إلى أوروبا.

يغلب على أسلوبه طابع السجع الذي كان لا يزال شائع الاستعمال في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وقد ضمّن بعض مقالاته وخطبه ومحاضراته أبياتًا شعرية.

■ المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● الأسود، ابراهيم، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، مج 2، مطبعة القدّيس جاورجيوس، بيروت، 1927، ص 615 ـ 616؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه، الراحلون (1800 ـ 1955)، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأدبية 7، بيروت، 1983، ص 159 ـ 160؛ ● دي طرازي، الفيكونت فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، ج 2، مطابع دار صادر، بيروت، 1967، ص 57 ـ 58؛ ● رستم، أسد، لبنان في عهد المتصرفيّة، طبعة ثانية منقّحة، منشورات المكتبة البولسيّة، بيروت، 1987، ص 345؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربيّة مع ذكر أسماء مؤلّفيها ولمعة من ترجمتهم وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجريّة 1339 الموافقة لسنة 1919 ميلاديّة، مطبعة سركيس بمصر، 1346 هـ/ 1928م، ص 512 ـ 513؛ ● شيخو، الأب لويس، تاريخ فنّ الطباعة في المشرق، ط 2، منشورات دار المشرق، بيروت، 1995، ص 124.

2 ـ المجلاّت:

● الخدر، 3، ص 303؛ ● الطبيب، السنة 7، الجزء 1 (1 حزيران 1895)، ص 1 ـ 3، والجزء 8 (1 كانون الثاني 1895)، ص 225 ـ 226، السنة 10، الجزء 9 (1 شباط 1899)، ص 271، السنة 11، الجزء 12 (1 أيّار 1900)، ص 336، السنة 12، الجزء 3 (1 آب 1900)، ص 83 ـ 87، والجزء 4 (1 أيلول 1900)، ص 119 ـ 124، والجزء 5 (1 تشرين الأول 1900)، ص 153 ـ 156؛ ● الكلية مجلّد 8، العدد 3،

(كانون الثاني 1922)، ص 138 ـ 141؛ ● المشرق، 25 (1927)، ص 66؛ ● المقتطف، المجلّد 3 (1878)، ص 273، المجلّد 6 (1881)، ص 105، 236، 361 ـ 362، 496، 548، 686، المجلّد 7 (1882)، ص 83، 207، 273، المجلّد 14 (1890)، ص 607 ـ 615، المجلّد 19 (1895)، ص 538، المجلّد 62 (1922)، ص 97؛ ● المورد الصافي، الجزء الثاني من المجلّد السابع، (كانون الثاني 1922)، ص 167 ـ 169.

د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البارودي، أبو عبد الله حسين بن إبراهيم

(1112هـ/1701م ـ 1186هـ/1773م)

هو حسين بن إبراهيم البارودي، أبو عبد الله. فقيه حنفي متمكّن من فقه مذهبه مشارك في فنون من الثقافة الإسلامية. أصله من إقليم المورة من بلاد اليونان. قدم أبوه إلى تونس في فيلق الجند التركي واستقر بها، وتزايد له مترجمنا سنة 1112هـ (1701 م).

واتجه البارودي غير وجهة أبيه فأقبل على العلم برغبة زائدة، وأخذ عن علماء عصره الحنفية، وقرأ نصيبا من النحو والعقائد. ثم انخرط في سلك مدرسي جامع الزيتونة إلّا أن الفتنة التي اندلعت بين علي باشا وعمّه حسين بن علي حالت دون استفادة طلبة العلم من معارفه، وذلك بسبب ميله لحسين بن علي وأولاده فأوذي بالإبعاد إلى زغوان أكثر من مرة.

ولما استقرّت حالة البلاد واستتبّ الأمن بعودة أبناء حسين بن علي إلى ملك أبيهم راعوا للمترجم مواقفه في مساندتهم، وأوكلوا إليه أهم الوظائف الشرعية كمشيخة الإسلام والتدريس والخطابة في أكثر من مسجد من مساجد الحنفية بتونس؛ «فساعده الإقبال ببلوغ الآمال» حسب عبارة السنوسي. وكانت وفاته بتونس سنة 1186هـ (1773م).

آثاره

ألّف الشيخ مجموعة كبيرة من الرسائل الفقهية في المذهب الحنفي، أهمها:

1 ـ القسطاس السوي في الصاع النبوي؛ 2 ـ الغيث المدرار في رهن المصوغ على تقدير الهلاك والانكسار؛ 3 ـ تقويم الشجر المغروس في الأرض المغصوبة؛ 4 ـ نقل الأم الحاضنة محضونها؛ 5 ـ ثبوت أبوة زوج المرضعة.

ومن هذه الرسائل نسخ متعددة ضمن مجاميع محفوظة في دار الكتب الوطنية بتونس.

■ المصادر والمراجع

• بيرم الثاني، محمد، شرح بيرم الثاني على نظمه في المفاتي الحنفية، ص 25؛ • ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان، 7/ 30 ـ 31؛ • عبد الوهاب، ح.ج. والمطوي محمد العروسي والبكوش، البشير، كتاب العمر، 1/ 924 ـ 927؛ • محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، 1/ 95.

بشير البكوش

مجلس النواب ـ تونس

الباروديّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم

(ت 1304هـ/1887م)

أبو عبد الله محمد بن أحمد الباروديّ الحنفي التونسي، أصله من إقليم «مروة» بلاد اليونان، ومنها قدم جدّ أبيه إبراهيم إلى تونس مع الأجناد المرتزقة. ولد بتونس، وفي رعاية أبويه نشأ نشأة صالحة.

كان أبوه أبو العبّاس أحمد بن الشيخ المفتي بالجامع اليوسفي محمد بن الشيخ حسين الباروديّ (ت 27 فيفري 1856م بتونس) والمدفون بمقبرة «الزلاج»، من مشاهير العلماء التونسيين، حيث كان إماما بمسجد بيت الباشا، وخطيبا بالجامع الحسيني المعروف بالجامع الجديد، وكان حسن الصوت بتلاوة القرآن الكريم، ولخطبه تأثير في القلوب والآذان، فتربّى ابنه صاحب الترجمة في حِجْره وعنه قرأ مبادىء العلوم الشرعية واللغوية فتفقّه في مذهبه الحنفي وحصّل ملكة علميّة فيه. ثمّ أخذ من أشهر مشائخ عصره، التفسير والقراءات السبع والفرائض، واشتهر بالدراية الواسعة في سائر العلوم الدينية مع التضلّع التام في العربيّة وخصوصا الأدب وفنونه، فولّي الخطط العلميّة وتصدّر للشهادة، وكانت له معرفة تامة بفنّي الفرائض والتوثيق، وبرواية الحديث مع مشاركة في غيرها. وما إن تخطّى مرحلة الشباب حتّى كان المترجم له فقيها من الفقهاء المشهورين، وعالما من العلماء المعروفين [محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 1، ص 96].

ثمّ تصدّر للتدريس فنال حظوة كبيرة، وتولّى الخطابة في جامع باردو (حيث يوجد قصر البايات بضواحي تونس وهو مقرّ مجلس نواب الأمّة الآن)؛ كما تولّى التدريس والخطابة والإمامة في مدارس تونس وجوامعها.

عرّفه معاصره الشيخ محمد السنوسي بقوله: «عالم، درّاكة، عارف بمقتضيات الأحوال، فصيح اللسان والقلم، لطيف المحاضرة،

مستحضر الأجوبة، محرّر لدروسه، خبير بدقائق المذهب الحنفي، متودّد إلى الناس، جميل السمت، نظيف الثياب، حسن الهيئة، أديب شاعر ناثر، يرصّع قصائده المدحيّة بمحاسن الغزل، من علماء القراءات، فقيه، توفي في 27 شعبان 1304هـ/ 22 ماي 1887م» [الخطيب البغدادي، هدية العارفين، ج 1، ص 385].

آثاره

1 ـ تعليم القارىء، في قواعد التجويد، فرغ منه يوم السبت على الساعة الحادية عشرة في 25 جمادى الأولى 1293هـ / 19 جوان 1876 م، ثم طبعه بالمطبعة التونسية الرسمية في آخر رجب من سنة 1294هـ/ أوت 1878م في 48 صفحة من القطع الصغير، قال في أوّله: «وقد وجدت أحكام التجويد متفرّقة في كتب عديدة فأردت جمع ما تفرّق منها في كتاب رتبته على مقدمة وخمسة عشر بابا وخاتمة، فالمقدّمة فيها ما يجب على القارىء أن يعلمه، والخاتمة في تحسين الصوت بالقرآن»، وهو كتاب مفيد للمبتدئين، وعلى ظهر نسخة منه تقريظ لكبير أهل الشورى المالكية الشيخ محمد الشاذلي بن صالح (ت 1308هـ / 1890 م) بدأه بقوله من الطويل:

لقد جمَعَتْ وصف الحروف وبيّنتْ
مخارجها كلَّ البيان ووضّحتْ

وزانت على هذا من العلم جملة
لمن يقرأ القرآن حقا تعيّنتْ

[سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، 1/ 513].

والكتاب مطبوع منذ سنة 1294هـ، ومن أوّل الكتب المطبوعة بالأحرف العربيّة بالمطابع الرسميّة التونسيّة حسب ما ذكره محمد بن الخوجة بالمجلّة الزيتونية، مج 4، فيفري 41، رقم 49. وقد ذكره له كلّ من رضا كحالة في «معجم المؤلفين»، والبغدادي في «هدية العارفين»، وسركيس في «معجم المطبوعات العربية»؛ 2 ـ تاريخ العائلة الخديوية، ذكره له كلّ من رضا كحالة في «معجم المؤلفين»، ج 9، ص 85، وقال: محمد البارودي، الخطيب التونسي مؤرخ، قارىء مجوّد، وكذلك بروكلمان وصاحب الفهرست التيموريّة؛ 3 ـ تفاصيل الثورة العرابيّة، مطبوع وجاء ذِكره له في معجم كحّالة وفهرس تيمور وبروكلمان أيضًا. ولئن لم يؤرخ أصحاب التراجم لولادة مترجمنا بالتاريخ الهجري ولا بالتقويم الشمسي، فقد اتفقوا على أنّ وفاته كانت في السابع والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وثلاثمائة بعد الألف للهجرة، الموافق للثاني والعشرين من شهر ماي من سنة 1887م، وعلى أنّه دفين مقبرة الزلاج.

المصادر والمراجع

● كحالة، محمد رضا، معجم المؤلفين، ج 8/ 243، مكتبة المثنّى، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت؛ ● سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، ج 1/ 513، مطبعة سركيس، مصر 1347هـ / 1938 م؛ ● البغدادي،

الخطيب، هدية العارفين، ج 2/ 385، دار الفكر، بيروت 1402هـ / 1982م؛ ● ابن الخوجة، محمد، المجلّة الزيتونية، م4، فيفري 1941، عدد 49؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 1/ 96، عدد الترجمة 25، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1404هـ / 1984م.

د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

البارودي، محمود سامي

(1255هـ / 1839م ـ 1322 هـ/ 1904 م)

شاعر فارس، ينحدر من أصل جركسي. ولد بمصر ونشأ بها، وتيتم صغيرا وهو في سن السابعة بعد موت أبيه، فتولاّه بعض أهله وتلقى دروسه في البيت حتّى سنّ الثانية عشرة. التحق بالمدرسة الحربية، وتخرّج فيها عام 1854م، وهو في السادسة عشرة من عمره في عهد عباس الأوّل، الذي كان قد سرح معظم الجيش، وأعاق نهضة البلاد، فاتجه البارودي إلى قراءة الشعر العربي، واختزن في ذاكرته جميل القول وطيّب التعبير. ثمّ تاقت نفسه إلى نظم الشعر مقلدا فحول الشعراء القدامى.

أما لقبه البارودي فنسبة إلى بلدة إيتاي البارود بمحافظة البحيرة، ذلك أنّ أحد أجداده، وهو مراد بن يوسف بن شاويش، كان ملتزما لها، وكان كل ملتزم في ذلك الوقت ينسب إلى التزامه.

ضاق صدر البارودي بالأوضاع السائدة فسافر إلى الآستانة، والتحق بوزارة الخارجية، وتعلّم التركية والفارسية وقال شعرا بهما.

وفي سنة 1863م سافر إسماعيل إلى الآستانة لرفع آيات الشكر على تنصيبه واليا على مصر، فألحق البارودي بحاشيته هناك ثمّ عاد به إلى مصر، وكان قد بلغ أربعة وعشرين عاما.

ترقّى في مناصب الجيش وفي فرسان الحرس الخاص حتّى وصل إلى رتبة قائمقام (عقيد)، واشترك في معارك جزيرة (كريت) التي ثارت على دولة الخلافة. اتّخذه إسماعيل كاتم سرّه، وظلّ معه اثني عشر عاما، وسافر في رحلتين سياسيتين إلى الآستانة في مهمّة خاصّة.

وفي سنة 1878م أعلنت روسيا الحرب على تركيا، وأرسل إسماعيل جيشا لمعاونة الخليفة في الحرب، وكان البارودي مع هذا الجيش، وكوفيء بالإنعام عليه برتبة (لواء)، وبنيشان الشرف وبالوسام المجيدي من الدرجة الثالثة.

عاد البارودي من حرب البلقان، وقد أدرك الأربعين من عمره، فعيّن مديرا للشرقية، فمحافظا للقاهرة، وفي هذه الأثناء ترك

إسماعيل الحكم، وتولّى بعده ابنه توفيق الذي قرّب البارودي إليه وولاّه وزارة الأوقاف.

عُيّن البارودي ناظرا (وزيرا) للحربية مع الأوقاف بعد استقالة عثمان رفقي، إلاّ أنّ رياض باشا رئيس الوزراء دسّ له عند توفيق فعزله، فأدّى هذا إلى اعتزاله السياسة.

عُزل رياض باشا، وتولّى الوزارة شريف باشا، وألحّ (توفيق) على البارودي أن يقبل الاشتراك في الوزارة فقبل ثمّ استقالت وزارة شريف، فتولّى رئاسة الوزارة وحاول التوفيق بين الجيش والخديوي، وسعى إلى إصلاح الأمور باللين والحكمة، إلاّ أنّ الجيش طالب بعزل الخديوي، فخاض البارودي الثورة مع الثائرين.

نُفي بعد فشل الثورة مع زملائه إلى جزيرة سرنديب عام 1882م وظلّ بها سبعة عشر عاما وبعض العام، وكان يبثّ من منفاه شكواه، ويحن إلى الوطن، ويتذكّر أيام صباه، إلا أنّ المرض كا قد نال منه، فكف بصره وضعف جسده، وصار فريسة للمرض، ورأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى أوطانهم، فعاد البارودي إلى مصر في سبتمبر عام 1899م، بعد أن كتب في منفاه أروع شعره وأعذبه، وهو ما يسمّى (سرنديبيات البارودي).

ويعد البارودي أوّل الشعراء المطبوعين في العصر الحديث، كما قال عنه العقاد. كان الشعر يعاني من الركاكة والضعف والانحطاط، وجاء البارودي فأعاد للشعر مجده وقوّته وأعاد للشعراء منزلتهم السامية وسيرتهم الأولى.

وعلى الرغم من أنّ البارودي كان إمام المجدّدين في العصر الحديث، وباعث النهضة الشعرية بعد ركود ووهن فإنّه كان شاعرا مقلّدا، حاكي القدماء في شعرهم وأساليبهم، فوقف على الأطلال، وتغزّل واستخدم في تشبيه المرأة التشبيهات القديمة، ووصفها بالأوصاف التقليدية التي وردت على ألسنة الشعراء القدامى، وكان التقليد عنده يتّصل بالشكل والمضمون، والأغراض والأساليب. وهذا التأثّر بالقديم لم يمنعه من أن تظهر في شعره شخصيته المتميّزة، وأن يعبّر فيه عن عصره وزمنه، وأن يجدّد في المعاني والموضوعات.

توفّي يوم الاثنين السادس من شوال سنة 1322هـ، الموافق للثاني عشر من ديسمبر سنة 1904م، عن نحو خمس وستين سنة.

آثاره

1 ـ ديوان البارودي، أربعة أجزاء، دار المعارف، حقق الجزأين الأول والثاني: علي الجارم، ومحمد شفيق معروف، 1391 هـ/ 1971 م، وحقق محمد شفيق معروف الجزأين: الثالث 1392 هـ/ 1972 م، والرابع 1394 هـ/ 1974م، ويبلغ عدد أبيات الديوان نحو ستة آلاف بيت؛ 2 ـ كشف الغمّة في مدح سيد الأمّة، تقديم د. سعد ظلام، مراجعة محمد صادق، دار الشعب بالقاهرة، ط 1، 1978 م، وهي قصيدة طويلة تجيء في أربعمائة وسبعة وأربعين بيتا 447، على نهج البردة، وقد نظمها البارودي في منفاه وضمّنها سيرة النبي ﷺ من مولده إلى وفاته؛ 3 ـ مختارات البارودي، أربعة أجزاء، نشر ياقوت المرسي، مطبعة الجريدة بمصر، 1327هـ ـ 1329هـ، وهي مجموعة مختارة من

أشعار ثلاثين شاعرا من العصر العباسي، وقد رتّبها على سبعة أبواب، هي: الأدب، والمديح، والرثاء، والصفات، والنسيب، والهجاء، والزهد، واتّبع في ترتيب المختارات داخل هذه الأبواب الترتيب الألفبائي؛ 4 ـ قيد الأوابد، وهو كتاب نثري سجل فيه الشاعر خواطره ورؤيته لكثير من الوقائع التي عايشها. وما يزال هذا الكتاب مخطوطا.

المصادر والمراجع

● الدسوقي، عمر، محمود سامي البارودي، دار المعارف، ط4، 1981م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط12، 1997م؛ ● ضيف، شوقي، البارودي، رائد الشعر الحديث، دار المعارف، ط4، 1981م؛ ● العقاد، عباس محمود، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، 1981م؛ ● الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.

د. فتح اللـه أحمد سليمان

جامعة القاهرة ـ مصر

ابن بارون، أبو ابراهيم إسحاق بن يوسف

(ق 6 هـ/12م)

أحد نحاة اللغة العبرية الكبار، ومن أفضل من اشتغل بالمعاجم الذين احتضنتهم الحضارة الإسلامية في الأندلس، عاش في سرقسطة ومالقة وكان على صلة بموسى بن عزرا، وأبي الحسن اللاوي صاحب الخزري وإليه أهدى الكثير من أشعاره وكان ابن عزرا يسميه بالأمير أو «الناسي» وقد نظم شعره باللغتين العربية والعبرية وضاع أكثره، كما كان تلميذا للاوي بن التبان السرقسطي صاحب كتاب «المفاتيح» كما كتب في المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية في أثره الموسوم بـ «كتاب الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية» الذي لم تبق منه إلا نتف قليلة مواصلا بذلك مجهودات من سبقوه في في مجال «اللغات المقارنة» من أمثال يهودا بن قريش، ودوناش بن تميم، ومروان بن جناح. والكتاب ينقسم الي كتابين يهتم أحدهما باللغة والثاني وهو الأهم بمسالة «الجذور» وهو أشبه بالعمل المعجمي سماه «كتاب الجذور»، وكان على صلة وثيقة مناقشة واستيعابا بآراء من سبقوه أمثال سعديا غاؤون، وحاي غاؤون، ودوناش بن تميم، وحيوج، وابن جناح، وشموئيل هاناغيد، وشلومو بن غابيرول، وابن بلعام، وموشيه جيقلتيلا وغيرهم.

وكان ابن بارون من أوائل النحاة اليهود الذين أدركوا قوة الصلات بين العربية والعبرية في النحو والمعجم وكان على معرفة جيدة بالأدب العربي وكثيرًا ما كان يستشهد بالقرآن الكريم وبكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي وبعض المعلقات من الشعر الجاهلي، ونصوص أخرى. ويذهب موسى بن عزرا في كتابه «شيرات يسرائيل» أو «أشعار بني إسرائيل» إلى أن ابن عزرا قبل بوجود الدخيل من غير اللغات السامية في اللغة العبرية مثله في ذلك مثل ابن قريش وهو ما لم يكن ليرضي ابن عزرا.

ورغم أهمية آثار ابن بارون اللغوية إلا أن القدامي من لغويي اليهود الاندلسيين لم يحفلوا كثيرا باستنتاجاته وظل قليل الأثر في أعمالهم اللغوية ولم يهتم به قليلا إلا يوسف قمحي، ولم تول أعماله الاهتمام اللازم إلا في القرن التاسع عشر عندما بدا اللغويون المهتمون باللغات السامية يقدرون ملاحظاته حق قدرها وأهميتها في تطور اللغة العبرية. فنشر كوكوزوف Kokowzoff أجزاء من كتاب الموازنة مع مقدمة باللغة الروسية وكان قد عثر عليها في مكتبة سان بطرسبرغ ثم قام ب فيختر P. Wechter بنشر الترجمة الانجليزية الكاملة لهذا الكتاب مع مقدمة وافية اعتمادا على طبعة كوكوزوف السابقة.

■ المصادر والمراجع

- Bacher, in: ZAW, 14 (1894), 223 - 49; • Eppenstein, in: REJ, 41 (1900), 233 - 49; 42 (1901), 76 - 102; • Encyclopaedia Judaica, Jerusalem, Keter Press, 1971; • P. Kokowzo, K istorii srednevekovoy yevreyskoy filologii i yevreysko-arabskoy literaturi, 1 (1893), 2 (1916), 155 - 172; • Steinschneider Moritz, Arabische litteratur der Juden, Hildesheim GeorgOlms Verlagbuchandlung; • Wechter, Ibn Barun's Arabic Works on Hebrew Grammar and Lexicography, Center for Judaic Studies-University of Pennsylvania, (1964).

د. فوزي البدوي

جامعة منوبة - تونس

■ الباروني، سليمان باشا

(1290هـ / 1873م - 1359 هـ/ 1940 م) ■ ■ ■

هو سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني باشا. مؤرخ، أديب، ومجاهد بالسيف والقلم.

من مواليد مدينة (جادو) من جبل نفوسة سنة 1290م / 1873م على الأرجح. يعود أصله إلى القبيلة البارونية ذات الأصل العماني

[أبو اليقظان، الباروني، ج 1، ص 9].
وقد نشأ الباروني في عائلة عرف تاريخها منذ القرن الرابع الهجري في مدينة طرابلس بمسيرتها الجهادية والعلمية.
في ظل والده عبد الله العالم الأزهري (ت 1332هـ / 1914 م) نشأ وتعلم. وفي سنة 1305هـ / 1887م سافر إلى جامع الزيتونة بتونس حيث تتلمذ على شيوخ أجلاء، من أبرزهم عثمان المكي، ومحمد النخلي. وفي سنة 1310هـ / 1892م سافر إلى القاهرة، حيث درس بالجامع الأزهر مدة ثلاث سنوات.

وفي سنة 1313هـ / 1895م شد الرحال إلى بني يزقن من وادي ميزاب جنوب الجزائر، حيث جلس إلى قطب الأئمة الشيخ أطفيش الذي وجد عنده الرعاية والعناية، وكان الشيخ أطفيش مرجع الإباضية في العلم الشرعي واللغوي، وقد توطدت علاقته برجال العلم، وأعيان الفضل بميزاب. وأقام هناك حتى سنة 1316هـ / 1897م.

ويبدو أن الباروني كان متأثرا بشيخه أطفيش، محبا له، عاملا بتوجيهاته العلمية والسياسية، وقد قال يوم بلغه خبر وفاته سنة 1332هـ / 1914م أنه لم يهتز للمحن التي مر بها قط، ولم تدمع عيناه إلا لوفاة شيخه، ووالده.

واجهته المحن الشديدة بالامتحانات العسيرة منذ مطلع شبابه، فغادر طرابلس سنة 1902م إلى يفرن مركز الجبل الغربي، وبها أسس مدرسة سنة 1904م سماها المدرسة البارونية، وتولى الإشراف عليها والده الشيخ عبد الله الباروني. وكانت مدرسة نظامية تدرس العلوم الشرعية واللغوية، وأنشأ إلى جوارها المكتبة البارونية التي ضمت نفائس الكتب والمخطوطات، وتابع في هذه الفترة تأليف كتاب الأزهار الرياضية. ولعل الباروني ضاق ذرعا لمضايقات السلطات الحاكمة التي ما فتئت تلاحقه فقرّ عزمه على السفر خارج البلاد متجها إلى مصر؛ وبالقاهرة وجد المجال فسيحا للتأليف والطبع والنشر، والالتقاء بالعلماء، فأسس بها سنة 1906م مطبعة سماها: مطبعة الأزهار البارونية أخذ يطبع فيها ما يراه صالحا من كتب الحديث والتاريخ والأدب. ولعل أهم إنجاز في هذه المرحلة هو إنشاؤه جريدة الأسد الإسلامي التي أرادها صوتا مدويا للمسلمين تُعرِّف بمواقعهم، وتدعو إلى وحدتهم (صدر منها ثلاثة أعداد فقط، ثم توقفت لأسباب سياسية ومادية. صدر العدد الأول منها في أبريل سنة 1908 م).

ونحن نستطيع أن نجمل مراحل جهاد الباروني ضد الإيطاليين في ثلاثة أطوار:

الطور الأول: يبتدئ من يوم إعلان إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية في طرابلس الغرب يوم 26 سبتمبر، وينتهي عند آخر معركة له يوم 12 مارس 1913م.

الطور الثاني: يبتدئ من أواسط 1914م وينتهي في أوائل 1916م.

الطور الثالث: يبتدئ من حوالي أكتوبر 1916م، وينتهي إلى يوم اعتراف إيطاليا بحكومة طرابلس الجمهورية الوطنية، وإمضاء قانونها الأساسي في 21 أبريل 1919م.

وفي كل هذه الاطوار كان لسليمان الباروني مواقف ومعارك، وبذل وفداء.

لقد بذل الطليان جهدا ومالا وأرواحا في سعيهم لاحتلال إقليمي طرابلس وبرقة، فما نالوا بعد حرب سبع سنين، تعاقب فيها الكر والفر، سوى بضع مدن على الساحل، لم تستطع أن تمنحهم الأمن والطمأنينة، ولا الانتصار الساحق الذي ظنوه أول الأمر.

ولكي تكتمل المؤامرة فصولا، سعى الإيطاليون إلى تقسيم آراء المجاهدين عن طريق المفاوضات والحرب في آن واحد، فاتفق العرب والطليان على قاعدة للصلح هي منح الشعب الطرابلسي دستورا يخوله مباشرة حقوقه المدنية والسياسية، ويعطيه الحق في القيام بواجباته الكبرى مثل الشعوب المتمدنة، وتم في الأول من مايو 1919م وضع القانون الأساسي، وعين بموجبه أعضاء حكومة القطر الطرابلسي، وهم ثمانية. لكن المجاهد سليمان الباروني الذي آمن بالاستقلال أو الانضواء تحت دولة إسلامية، اعتذر عن الدخول في هذه اللعبة رغم الإلحاح عليه، وحجته في ذلك أنه عثماني، ويريد الاحتفاظ بعثمانيته، وبوظيفته في مجلس الشيوخ العثماني.

وما لبث أن غادر الباروني طرابلس إلى الآستانة في نوفمبر 1919 م، ولكن صادف قدومه إليها انقلاب الكماليين بقيادة مصطفى كمال أتاتورك عدو الخلافة الإسلامية، فخابت آماله، وعاد أدراجه إلى طرابلس مع مطلع العام الثاني بعد أن لبث بها ثلاثة أشهر.

عاش سليمان الباروني بعد عودته إلى طرابلس بعيدا عن السياسة وأضوائها، وهو متيقن في أعماق نفسه أن هذا الأمن تحت الحكم الإيطالي لن يستمر، لأن إيطاليا تتطلع إلى جعل طرابلس وبرقة مستعمرتين تابعتين لها. وهنا توالت الدسائس مرة أخرى ضد الباروني الذي اتهم بإحداث الفتنة في صفوف المواطنين. فلم تلبث السلطات الإيطالية أن طلبت منه مغادرة البلاد سنة 1922 م، وتحت المؤامرة والتهديد غادر وطنه دون أن يودع أهله وأولاده.

حملته ريح الاغتراب مرة أخرى إلى الآستانة، ثم إلى أنقرة، ولم يستقر به المقام هناك بسبب تغيُّر الحكام، فحاول السفر إلى الشام أو مصر أو تونس أو الجزائر، لكن الاستعمار الإنجليزي والإيطالي والفرنسي أجمع على محاصرة سليمان الباروني، فلم يجد حيلة سوى التنكر تحت جواز سفر مغاير لاسمه، فانتقل إلى باريس، ولكن ما إن تفطنت الحكومة الفرنسية إليه حتى فرضت عليه المراقبة الشديدة، ومنعته من مغادرة فرنسا.

وبعد سنتين قضاهما في فرنسا مراقبا، أتيح له السفر لأداء فريضة الحج.

وبطلب من الباروني لزيارة إخوانه العمانيين، توسطت له الحكومة العربية لدى السلطات الإنجليزية لتسمح له بزيارة مسقط وعمان. وقد رحب بهذه البادرة كل من السلطان تيمور، والإمام الخليلي. ووصل عمان أوائل سنة 1926 م، واستقبل استقبالا رسميا حافلا. فكانت هذه اللفتة جديرة بأن تنسيه متاعب الاغتراب، وآلام النفي، ومشاق السفر.

وكانت سنتان ظل فيهما الباروني محل رعاية وإجلال حيثما حل من أرض عمان، وقد خلد أدباؤها وشعراؤها هذه المناسبات بقصائدهم. ولم يغفل الباروني أن يسجل خواطره تجاه

هذا التحول العظيم في حياته سلبا وإيجابا في رسائله التي كان يراسل بها إخوانه بالجزائر.
وكان هم الباروني الدعوة إلى جمع الكلمة والاتحاد، وإصلاح الصدع الذي كان يطفو على السطح في العلاقات بين السلطان والإمام من حين إلى آخر، حيث كان موضع الثقة والاستشارة من الطرفين.
كانت إرادة الباروني شيئا وإرادة الله شيئا آخر، فما لبث الباروني بعد نزوله عمان أن أصيب بحمى الملاريا التي أثرت في جسمه تأثيرا عظيما، جعلته يشفى حينا ليمرض أحيانا أخرى، وهكذا بين الإبلال والمرض كان يقوم بأعماله في صبر وتحمل شديدين.
وفي سنة 1348هـ أنشأ بدعم من الإمام الخليلي مدرسة نظامية «في سمائل» كان يهدف أن تكون على غرار المدارس الإصلاحية التي عرفها في المغرب العربي، حتى تكون نقلة للتعليم من طرازه التقليدي إلى الطراز الحديث.
كما استقدم أول طبيب عربي وهو صديقه بشير فوزي الجمال الذي كان يداوي جيشه أثناء الحرب الطرابلسية، ولكنه توفي متأثرا بحمى الملاريا.
وقام الباروني وهو بعمان بأعمال جليلة في المجال الدبلوماسي أيضا، من ذلك تكليف السلطان له بحمل رسالة وساطة لإصلاح ما كان بين ملك نجد عبد العزيز آل سعود، وملك الحجاز حسين بن علي من مناوشات وحروب، وهذه المكانة تدل على ما يتمتع به هذا المجاهد من تضحية في سبيل الأمة الإسلامية.
من أهم العوامل التي لم تساعد الباروني على تنفيذ مخططاته السياسية والتعليمية والمالية في تنظيم الدولة هو أنه كان ـ على حد تعبير أبي اليقظان ـ إما على الفراش يعاني المرض، أو على الحصان يعاني العناد ومشقات السفر.
وكانت حمى الملاريا التي أصابته في السنوات الأولى من نزوله أرض عمان، السبب الأكبر في اعتلال صحته، وظل يقاوم المرض حتى غادر عمان إلى بغداد للمعالجة [رسالة بعث بها إلى الشيخ أبي اليقظان، 26 محرم 1348 هـ].
ظل سليمان الباروني يصارع مرض ضغط الدم وحمى الملاريا دون استسلام، مزاولا أعماله بجد ودأب. وعندما اشتدت عليه وطأة المرض سافر على نفقة السلطان سعيد إلى بومباي بالهند للمعالجة صبيحة المولد النبوي الشريف من سنة 1359 هـ؛ ولم يعش ببومباي إلا ساعات قليلة، سقط بعدها مغشيا عليه، فحمل إلى المستشفى، وكان قد فَقَدَ قوة النطق والحركة، وفارقت روحه الطاهرة جسده إلى بارئها بعد جهاد طويل، ومعاناة قاسية، عرف أثناءها الغربة والتطواف، وشظف العيش. وتقول ابنته زعيمة بأنه مات بمرض ضغط الدم، في أول ماي سنة 1940م.

آثاره

1 ـ ديوان الباروني، وهو ديوان شعر طبع بمطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة، سنة 1326هـ/ 1908م، يحتوي على قصائد في أغراض مختلفة منها المدح، والفخر، والوصف، والرثاء، والتهاني. والجدير بالذكر أن هذا الديوان أعادت طبعه ابنة الشاعر زعيمة الباروني مع إضافة خمس وعشرين قصيدة جديدة، وقد طبع بدار لبنان للطباعة والنشر سنة 1329هـ/ 1972م؛

2 ـ كتاب «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية»، يقع في جزأين، احترق الجزء الأول منه. وهو كتاب أرخ فيه مؤلفه للدولة الرستمية من جميع جوانبها ومجالاتها. طبع بمطبعة الأزهار البارونية بالقاهرة سنة 1324هـ/ 1906م، وأعيد طبعه عدة مرات في كل من الجزائر، وعمان؛ 3 ـ كتاب «تعليقات على سلم العامة والمبتدئين» وهو من تأليف والده عبد الله الباروني (ت 1914)، ويقع الأصل في ست وخمسين صفحة تناول فيها مؤلفه حقائق تتعلق بالمذهب الإباضي وطائفة من أعلامه. وقد رأى مترجمنا في جهد والده الوجيز مواطن تحتاج إلى إضاءات، وتغييرات. طبع بمطبعة النجاح في القاهرة سنة 1324هـ / 1906 م، وأعيد طبعه مرات في كل من الجزائر وعمان؛ 4 ـ مؤلف في تاريخ أسرة الباروني عنوانه (مختصر تاريخ العائلة البارونية) ألفه سنة 1331هـ / 1912م، وهو في الأصل رسالة بعثها الباروني إلى الوالي الإيطالي في طرابلس الغرب، أخبره فيها بعلمه بمن سعوا إليه ـ يقصد خصومه السياسيين ـ للاستنقاص من قيمة آبائه وأجداده. والمؤلف ما يزال مخطوطا [جبران، الباروني، ص، 363]؛ 5 ـ مجموعة مقالات صحفية، نشرها في الصحافة العربية مشرقا ومغربا (لم تجمع) في العشرينات والثلاثينات في الإصلاح، والسياسة، والاجتماع، والجهاد، الوطني؛ منها حوارات ساخنة مع بعض أعلام الوطن العربي مثل شكيب أرسلان، وهي تعدّ وثائق تاريخية مهمة في موضوعها.

المصادر والمراجع

● الباروني، سليمان، ديوان الباروني، مطبعة الأزهار البارونية، مصر، 1908م؛ ● أبو اليقظان إبراهيم، سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، جزءان، المطبعة العربية، الجزائر، 1379هـ / 1959 م؛ ● الباروني، أبو القاسم، سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيين، ط 2، 1948، (مجهول مكان الطبع)؛ ● مسعود جبران، محمد، سليمان الباروني، آثاره، ليبيا، 1991 م، الدار العربية للكتاب؛ ● جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، بيروت، 2000 م، ج 2، ص 206 ـ 208، دار الغرب الإسلامي؛ ● ناصر محمد، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ش و ن ت، ط 2، الجزائر 1984 م، (ينظر في الفهارس مقالات الباروني في صحافة أبي اليقظان، 1938 ـ 1926)؛ ● أمانة الإعلام والثقافة، دليل المؤلفين العرب الليبيين، دار الكتب، طرابلس 1977 م؛ ● الباروني زعيمة، سليمان الباروني (تعريف موجز) بيروت، دار لبنان؛ ● م.ن، صفحات خالدة من تاريخ الجهاد الليبي، جمع ونشر زعيمة الباروني، د.ت، جزءان؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 3/ 129 ـ 130 (وفيه أنه وُلد سنة 1287هـ / 1870 م).

د. محمد صالح ناصر
جامعة الجزائر

باز، جُرجي نقولا

(1299هـ/1882م - 1379هـ/1959م)

جرجي نقولا باز، كاتب، باحث، صحافيّ. وُلِدَ في منطقة «الأشْرَفِيَّة»، القريبة من بيروت، أواخر العام 1881م، في عائلة كريمة معروفة في الأوساط البيروتية.

والده جرجي بن نقولا، من حَفَدَة باز، ابن سعد اليازجيّ.

درس في مدرسة الثلاثة أقمار الأرثوذكسيّة، وهي من كبريات المدارس المعروفة في بيروت. ثمّ علّم في المدرسة نفسها مدّة، الأمر الذي أفسح له في مجال التعرّف إلى رجال الفكر والأدب، ورجال المال والأعمال. فترجم لكثيرين منهم، في ما بعد.
تزوّج الدكتورة أنس بركات (ت 1965م).
أصدر مجلّة «الحسناء»، شهرية، ثلاث سنوات متتالية (1909 - 1912م) وكان رئيس تحريرها. وقد أقصر حقولها وأبوابها على قضايا المرأة، والعمل على تأمين أسباب تحريرها. فكانت «الحسناء» صوت النهضة النسويّة ومسرحها الشهريّ.
وانطلاقا من مجلّته «الحسناء»، ناصر أديبنا المرأة العربيّة، ودعا إلى تحريرها من قيود الجهل الاجتماعيّ والتخلّف العقليّ.
كان من كبار المناضلين في سبيل تعليم المرأة، وتطويرها، وتوجيهها الوجهة العقليّة الصحيحة، وتثقيفها بالتعليم والتربية، وصقل نفسها بمكارم الأخلاق.

وقد ناضل في سبيل حقوق النساء، في المجتمع العربيّ، فكتب الخطب، ودبّج المقالات، وفتح أبواب مجلّته للأقلام المدافعة عن حقوق النساء.

وكان أن تحوّلت أبواب مجلّته الأدبيّة إلى حقول خصّصها أصحابها لتحرير المرأة، ورفع الظلم عنها، وإطلاقها في مجتمعها الإنساني، كشريكة فاعلة انطلاقًا من كونها: الزوجة، والأم، والناخبة الأولى.

وقد أرّخ، على صفحات «الحسناء»، للرائدات في الحركة النسائيّة، والسابقات إلى الكتابة الصحافيّة منهنّ. فلقّب، لهذه الأمور، بـ«نصير المرأة».

ومن الجدير بالذكر، هنا، أنّ صوت «نصير المرأة»، كان أوّل صوت عربيّ من لبنان، بعد المعلّم بطرس البستاني، نادى بتحرير المرأة العربية، إبّان الحكم الحميديّ، في الأمبراطورية العثمانية التي كانت أطول الامبرطوريات عمرًا.

من هن، نستطيع التنويه بجرأة جرجي باز، وبمواقفه الثورية، في زمن الاضطهاد والاستبداد والظلم.

وعليه، فإنّ جرجي باز اللبنانيّ، قام بما قام به كلّ من: قاسم أمين، في مصر، والزهاوي، في العراق؛ وعبد القادر المغربيّ، في سوريا، بالنسبة إلى القضايا

النسائيّة، وتحرير المرأة من القيود التي أخرتها عن السير في ركاب الرجل، وجعلت منها الشريك الأضعف في المجتمع الراسف بالأغلال.

وقد استجابت لدعوى التحرير رائدات كثيرات، في لبنان، ومصر، وسوريا.

وهكذا، قضى جرجي باز القسم الأكبر من حياته عاملاً في سبيل تطوّر المجتمع الإنسانيّ، في لبنان والعالم العربيّ، إلى جانب عمله في ميدان الصحافة: مؤرّخا لأعلامها، مخلصًا لها، جاهدًا في سبيلها.

ولأنه كان صاحب مجلّة، أتت مقالاته في باب المناسبات الأفراح والأتراح، الانقلابات والتغييرات..

وقد قصر صفحات مجلّته على تسجيل الأحداث البارزة التي رصدها، أو عايشها، أو وقعت لأصدقائه، من رجال الصحافة، والأدب، والعلم، والفكر، في المجتمع البيروتيّ.

وأرّخ بدقّة بالغة لكثير من الصحف والمجلاّت التي أصدرها صحافيون لبنانيّون، وفي خارج لبنان.

وكذلك أرّخ لرجال دين ودنيا، ولسيّدات المجتمع النسائيّ، في بيروت؛ ولكثير من وجوه طائفته الأرثوذكسية.. ممّا جعل نتاجه، في باب التراجم والسِيَر، يبلغ المئات.

وقد كان بعيدًا عن الهوى، صادق النقل، دقيق التاريخ، قصير العبارة، لايحبّ زخارف الكلام...

وكان جريئًا، ومحايدًا، وعلى علم ودراية وإحاطة بموضوعه إحاطة كاملة.

عاش نحوًا من ثمانين سنة، فتوفّي في العام 1959م، في مدينة بيروت.

آثاره

1 ـ خطب تُليت في جمعيّة شمس البرّ، بيروت، 1901م؛ 2 ـ آفات المدنيّة الحاضرة، المطبعة اللبنانية، بعبدا، 1920م؛ 3 ـ إكليل غار لرأس المرأة، مطبعة القدّيس جوارجيوس، بيروت، 1923م؛ 4 ـ إلياس جرجي طراد، آله، سيرته، مآثره، مطبعة جدعون، بيروت، 1914م؛ 5 ـ الإنسان ابن التربية، بيروت، 1907م؛ 6 ـ تقدّم اليابان، مطبعة القدّيس جوارجيوس، بيروت، 1902م. وهو خطاب قديم في جغرافية اليابان وتاريخها وديانتها وترقيها في سلّم الحضارة، نشر في جريدتي: المحبّة، والرائد؛ 7 ـ جان وماري، المطبعة الأمريكية، بيروت، مترجمة؛ 8 ـ ذكرى كليفلاند دودج، بيروت، 1926م، مجموعة مقالات رثائيّة؛ 9 ـ جبر ضومط، دراسة في أدبه، بيروت، 1928م؛ 10 ـ الحسناء، مجلّة نسائيّة، أدبيّة أخلاقية، اجتماعية..، حزيران 1909م، وتمّوز 1912م؛ 11 ـ حُسْن التذكار، مطبعة القدّيس جوارجيوس، بيروت، 1926م؛ 12 ـ الروضة البديعة في تاريخ الطبيعة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ت؛ 13 ـ سليم سركيس، المطبعة الأدبيّة، بيروت، 1926م؛ 14 ـ سليمان البستاني، حياته، مطبعة صادر، بيروت، 1925م؛ 15 ـ شبّان العصر والصحّة، المطبعة العثمانية، بعبدا، 1904م؛ 16 ـ الشيخ

إبراهيم منذر، مطبعة السلام، بيروت، 1927م؛ 17 ـ ألفرد سرسق، بيروت، د.ت؛ 18 ـ فرح أنطون، 1923م؛ 19 ـ ماري عجمي، بيروت، 1926م؛ 20 ـ ماري ينّي، بيروت، 1926 م؛ 21 ـ مريم جهشان، 1923م؛ 22 ـ نازك العابد، بيروت، 1927م؛ 23 ـ النسائيّات، المطبعة العبّاسيّة، بيروت، 1919م، مقالات تتعلّق بالنهضة النسائيّة الشرقية، نشرت في جريدة الحقيقة البيروتيّة، لكاتبات عربيّات؛ 24 ـ نور وإغاثة، بيروت، 1926م؛ 25 ـ يعقوب صرّوف، بيروت، 1927م؛ 26 ـ يوبيل الأميرة أسمى أبي اللمع، بيروت، 1927م؛ 27 ـ يوبيل الأب لويس معلوف الصحافي الفضّي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1932م.

المصادر والمراجع

● أسعد، داغر يوسف، فجيعة الفكر في لبنان، جرجي نقولا باز، وكرم ملحم كرم، مجلة الأديب، عدد نوفمبر 1959م؛ ● يحيى، فؤاد، باز والمرأة، مجلّة مينرفا، 2/ 89؛ ● ينّي، ماري، جورج باز، مجلّة الخدر، 4/ 221؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، الفكر العربي الحديث في سِيَر أعلامه، الجزء الثالث، القسم الأوّل، المكتبة الشرقية، بيروت، 1972، ص160؛ ● الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، المجلّد الثاني، ص118؛ ● في مجلة المقتطف، الفهرست، ج1، ص300؛ ● الخازن، وليم، الشعر والوطنيّة في لبنان والبلاد العربية، دار المشرق، بيروت.

د. ميخائيل مسعود

الجامعة الأميركية ـ طرابلس ـ لبنان

ابن باز، الشيخ عبد العزيز بن عبد الله

(1330هـ/1912م - 1420هـ/1999م)

ولد عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله آل باز، بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة 1330هـ وكان بصيراً في أول الدراسة، ثم أصابه المرض في عينيه عام 1346هـ، فضعف بصره بسبب ذلك... ثم ذهب بالكلية في مستهل محرم من عام 1350هـ وكان يقول: «وأسأل الله على أن يعوّضني عنه بالبصيرة في الدنيا، والجزاء الحسن في الآخرة، كما وعد بذلك سبحانه على لسان نبيّه محمد ﷺ، كما أسأله سبحانه أن يجعل العاقبة حميدة في الدنيا والآخرة» [من إملاء الشيخ ابن باز].

وقد بدأ الدراسة منذ الصغر، وحفظ القرآن الكريم قبل البلوغ ثم بدأ في تلقي العلوم الشرعية والعربية، على أيدي كثير من علماء الرياض، من أعلامهم:
الشيخ محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمان ابن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ والشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمان ابن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قاضي الرياض؛ والشيخ سعد بن حمد بن عتيق قاضي الرياض؛ والشيخ حمد بن فارس وكيل بيت المال بالرياض؛ والشيخ سعد وقاص البخاري، من علماء مكة المكرّمة، أخذ عنه علم التجويد في عام 1355هـ؛ وسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ -مفتي الديار السعودية-، لازم حلقاته نحوًا من عشر سنوات، وتلقى عنه جميع العلوم الشرعية، ابتداء من عام 1347هـ، إلى عام 1357هـ، حيث رشح من قبل سماحته للقضاء [مجموع فتاوى ومقالات، ج1/ 9-10].
وأسرة الشيخ عبد العزيز بن باز موزّعة بين الرياض، وحوطة بني تميم، ولها مكانتها وقد برز فيها عدد من العلماء، منهم من تولّى القضاء.
وقد ذكر الشيخ عبد العزيز، مهامه التي تولاها عندما أملى سيرة حياته بإيجاز فقال: «وقد توليت عدة أعمال هي:
1 ـ القضاء في منطقة الخرج ـ مقره في مدينة الدلم ـ، مدة طويلة، استمرت أربعة عشر عاما، وأشهراً، وامتدت بين سنتي 1357هـ إلى عام 1371هـ وقد كان التعيين في جمادى الآخرة من عام 1375هـ وبقيت إلى نهاية عام 1371هـ.
2 ـ التدريس في المعهد العلمي بالرياض سنة 1372هـ، وكلية الشريعة بها بعد إنشائها سنة 1373هـ، في علوم الفقه والتوحيد والحديث، واستمر عملي على ذلك تسع سنوات، انتهت في عام 1380هـ.
3 ـ عيّنت في عام 1382هـ نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، وبقيت في هذا المنصب إلى عام 1390هـ.
4 ـ توليت رئاسة الجامعة الإسلامية، في عام 1390هـ، بعد وفاة رئيسها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ في رمضان عام 1389هـ وبقيت في هذا المنصب إلى سنة 1395هـ.
5 ـ وفي 14/ 10/ 1395هـ، صدر الأمر الملكي بتعييني في منصب الرئيس العام، لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، برتبة وزير ولا أزال في هذا المنصب» [م.س، ص10].
إلا أنه في عام 1414هـ، وبعد أن طبعت مجموع فتاوى ومقالات سماحته عدة أجزاء، صدر أمر ملكي بتعيين سماحته مفتيًا عامًا للمملكة ليصبح بذلك ثاني من تسند إليه هذه المهمة، بعد شيخه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ أول من تسمى بهذا الاسم: مفتي الديار السعودية.
ومع الإفتاء أيضًا أسند إلى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز مسمى: رئيس هيئة كبار العلماء، وإدارات البحوث العلمية والإفتاء.. وكانت رئاسة هيئة كبار العلماء منذ أنشئت بالتداول بين كبار العلماء.
كما أنه كان يتولى رئاسة اللجنة الدائمة للإفتاء، ورئاسة المجلس الاستشاري بالرئاسة. وولي إلى جانب هذا العمل العضوية

في كثير من المجالس العلمية والإسلامية، ومن ذلك:

عضوية هيئة كبار العلماء بالمملكة.. فأصبح من عام 1414هـ رئيسًا لها كما مرّ.

- رئاسة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في الهيئة المذكورة.

- عضوية ورئاسة المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي - ومقرها مكة المكرّمة.

- رئاسة المجلس الأعلى العالمي للمساجد - التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

- رئاسة المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة، التابع لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.

- عضوية المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة.

- عضوية الهيئة العليا للدعوة الإسلامية في المملكة العربية السعودية.

- الإشراف العام على مجلة البحوث الإسلامية التي تصدر عن هيئة كبار العلماء بالمملكة [م.س، 1/ 11-12].

- هذا إلى جانب رئاسة عضوية جمعيات خيرية، وتحفيظ القرآن الكريم، وإعانات الشباب على الزواج.

آثاره

1 - الفوائد الجلية في المباحث الفرضية (في المواريث)؛ 2 - التحقيق والإيضاح لكثير من المسائل في الحج والعمرة والزيارة (توضيح المناسك)؛ 3 - التحذير من البدع؛ 4 - رسالتان موجزتان في الزكاة والصيام؛ 5 - العقيدة الصحيحة وما يضادها؛ 6 - وجوب العمل بسنة رسول الله ﷺ وكفر من أنكرها؛ 7 - الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة؛ 8 - وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ما خالفه؛ 9 - حكم السفور والحجاب، ونكاح الشغار؛ 10 - نقد القومية العربية؛ 11 - الجواب المفيد في حكم التصوير؛ 12 - الشيخ محمد بن عبد الوهاب: دعوته وسيرته؛ 13 - ثلاث رسائل في الصلاة؛ 14 - حكم الإسلام فيمن طعن في القرآن أو في رسول الله ﷺ؛ 15 - حاشية مفيدة على فتح الباري وصل فيها إلى كتاب الحج؛ 16 - رسالة الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب؛ 17 - إقامة البراهين على حكم من استغاث بغير الله أو صدّق الكهنة والعرافين؛ 18 - الجهاد في سبيل الله؛ 19 - الدروس المهمة لعامة الأمة؛ 20 - فتاوى تتعلّق بأحكام الحج والعمرة والزيارة؛ 21 - وجوب لزوم السنة والحذر من البدعة [م.س، 1/ 11-12]؛ 22 - مجموع الفتاوي، صدر من هذا المجموع حتى الآن ستة وعشرون مجلدًا، 1987 بإشراف وترتيب محمد بن سعد الشويعر، وسوف تنتهي بنهاية عام 1424هـ، حيث ستكون مع الفهارس في حدود ثلاثين مجلدًا، زاخرة بالعلم النافع والمنهج الذي يتميّز به سماحته في تبسيط الأمور والتيسير على الأمة.

إن المتابع والقارئ لمجموع فتاوى ومقالات الشيخ بن باز سوف يرى فيها اجتهادات كثيرة، وحالات لأمور جدّت في حياة المسلمين في العصر الحاضر فهو لا يتقيّد بالمذهب الحنبلي، الذي يعتمد في البلاد ولا تقليد غيره وإنّما يستند على الدليل، متى صح عنده ذلك؛ لأنه من رجال الحديث القلائل

في هذا الزمان، وله إدراك جيّد برجال الحديث: جرحا وتعديلاً، فيعرفهم كما يعرف أقرب الناس إليه، ويعرف ما قاله العلماء عن كل فرد منهم ويتابع ما يقال عنهم يعينه في ذلك ما وهبه الله من حافظة قوية، وفراسة لا تخطئ وذاكرة لا نظير لها.

ولذا كان له استقلالية في مجال الفتوى: فيخالف شيوخه وخاصة الشيخ محمد بن إبراهيم مع تأدبه معه، إلا أنه يفتي بقوة الدليل وترجيح الأدلة، ويخالف ما يفتي به علماء الحنابلة، أحيانا بحجّة قوية يراها، ويحرص على التيسير انطلاقا من هذه الآية الكريمة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. لرفع الحرج والمشقة على الناس وانتهاج طريقة رسول الله ﷺ: الذي ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

جبل الشيخ عبد العزيز بن باز، على صفات حميدة وطبائع فريدة، منذ حداثة سنه فكانت خلقًا فيه غير متكافلة، وسجيّة من سجاياه المتمكّنة من نفسه، وهي صفات كثيرة نجتزئ منها:

1 - حرصه على ترسّم خطى رسول الله ﷺ، فقد كان في جميع أموره: الدينية والدنيوية يهتم بأفعال وخصال رسول الله ﷺ، ليطبقها في نفسه عملاً، وعبادة وذكرًا وحثا على ذلك.

2 - الكرم، فهو كريم بماله وكريم بطعامه، وكريم بجاهه، وكريم بعلمه.

3 - التواضع والحلم، فهو في تواضعه ليّن الجانب، يألفه الصغير والكبير، النساء والرجال متأسيًا برسول الله في ذلك، يحرص في تواضعه بأن يتلطف إلى السائلين والسائلات، ويرق لهم في الإجابة، ويتبسط في عرض الجواب بحسب مقدرة وفهم السائل ومستواه، لا يتشدد ولا يعنف. يقف للطفل الصغير إذا كان له حاجة.

4 - حبه للعلم والعلماء، واهتمامه ببذل العلم: فقد جلس لطلاب العلم منذ تعيّن قاضيا في الخرج عام 1357هـ، فوفدوا عليه من داخل المملكة ومن خارجها وتزايد عددهم. فكان يجلس لهم في أوقات متعدّدة بعد فراغه من أعمال القضاء اليومية، ثم بعدما انتقل للرياض مدرّسًا في المعهد العلمي وكلية الشريعة، كان يخصّص أوقاتًا للدارسين عنده، وزاد اهتمامه بالتعليم عندما تعيّن في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، فكان مع تدريسه في الجامعة والأعباء الإدارية، كانت له دروس في مسجد رسول الله ﷺ، وكان يرعى الطلاب ويوجّههم ويساعدهم بعد التخرّج، ويحنو عليهم وقد نفع الله بالمتخرّجين منها في بلادهم، تعليمًا وتعلّمًا ودعوة إلى دين الله الحق لأنهم استرشدوا بتوجيهاته، كما كان يتابعهم ويمحضهم بنصحه وتوجيهه.

لقد أحدثت وفاته أصداء كثيرة، في جميع وسائل الإعلام، المرئي والمسموع والمقروء، ولم تخل وسيلة إعلام في العالم الإسلامي، إلا وأبّنته وكُتبَ عنه فيها، ومن رجالات الدولة وأرباب القلم التي تصدر فيها، لمعرفتهم بالشيخ عبد العزيز بن باز ومكانته من قلوب المسلمين في كل مكان.

وقد أحصيت في صحف المملكة أكثر من خمسمائة مقال وقصيدة في رثائه، وما ذلك إلا لمكانته الكبيرة في عيون الآخرين، وقد أجمعت القلوب على محبّته، وهم شهداء الله في أرضه وقد بان صدى ذلك بعدما توفّي وإن

استقصاء ما قيل عنه ممّا يقع في عدة كتب لكثرته.

فقد أثنى عليه علماء وحكام وأبناء عصره وزمانه نشير إلى نماذج من ذلك:

ـ قال فيه الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد، إمام وخطيب المسجد الحرام، ورئيس مجلس الشورى: الشيخ عبد العزيز بن باز له تكوينه السوي، وفقهه الواثق، وروحه المتوثبة في قيم خلقية صافية، ترفعت عن الشهوات نفسه وتحلّتْ بالإثار خليقته، يصرفه عقل دراك، وقلب يقظ، يجمع بين الهمة العالمة والخشوع والخضوع، سر الحجاب أنه متواضع في بساطة، مع كمّ من القيم والمثل، في فهم دقيق للآية والحديث، والسند والرواية والفقه والدراية. فهو صاحب حجة، وقائم بدليل ومستمسك بالوحيين [يبكيك محراب يئن ومنبر، ص 5].

ـ ويقول أحمد القطان الداعية والخطيب الكويتي: قمت بزيارته في حياته عدة مرات فرأيت من أمره عجبًا، إنه يذكرني بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين، رأيته يعمل ثماني عشرة ساعة في اليوم في سبيل الله، دون كلل ولا ملل، وأخبرت أنه لم يتغدّ مع أهله منذ خمسين عامًا، فقد آثر أن يعيش مسكينًا مع المساكين، قريبا من شكواهم متجشّما لحاجاتهم، شافعًا في قضاياهم.

زرته وهو مريض في رحلة، والطبيب واقف على رأسه ساعة يستأذنه كل حين في علاجه، لكن حاجات الناس وأسئلتهم جعلت الطبيب ينتظر طويلاً، إلى أن ودّعناه، والطبيب لم يعالجه ثم لما صار قاضيًا، كان من قضاة الجنة بشهادة من احتكوا به واحتكموا إليه [م.س، ص 26].

ـ وممّا قاله الشيخ يوسف القرضاوي رئيس جمعية السنة بقطر، وعضو مجمع الفقه الإسلامي بجدة، وعضو المجلس الأعلى العالمي للمساجد، والداعية والكاتب القدير في قناة الجزيرة بقطر، وتناقلته الصحف عنه وذلك بعد وفاة الشيخ: «أبى الشيخ ابن باز على نفسه ألا يغادر المملكة، وكم دعي من أقطار وجهات شتى، ولكنه اعتذر، وعندما أقيم المؤتمر العالمي للسنة والسيرة النبوية في قطر، في افتتاح القرن الخامس عشر الهجري، وجّهنا إليه الدعوة، وألححنا عليه، ولكنه قال: إنه كان يود الاستجابة للدعوة، ولكن هذا يفتح عليه بابًا لا يستطيع سده وأصر على موقفه ونهجه في الاعتذار.

لم أر مثل الشيخ ابن باز في ودّه وحفاوته بإخوانه من أهل العلم، ولا في برّه وإكرامه لأبنائه من طلبة العلم، ولا في لطفه ورقّته بطالبي الحاجات من أبناء وطنه، أو أبناء المسلمين عمومًا فقد كان من أحسن الناس أخلاقًا الذين يألفون ويؤلفون.

ولقد رأيته في المجمع الفقهي يستمع وينصت إلى الآراء كلها: ما يوافقه منها وما يخالفه ويتلقّاها جميعًا باهتمام، ويعلق عليها بأدب، ويعارض ما يعارض منها، برفق وسماحة، دون استعلاء ولا تطاول على أحد، متأدبا بأدب النبوّة، متخلقا بأخلاق القرآن.

ولا أعرف أحدًا يكره ابن باز، من أبناء الإسلام إلا أن يكون مطعونًا في عقيدته، أو ملبوسًا عليه فقد كان الرجل من الصادقين، الذين يعملون بعدما يعلمون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيصدقون.

ليس معنى ذلك أن الشيخ كان معصومًا من الخطأ، فما ادعى ذلك لنفسه وما ادّعاه له

أحد من محبيه، ولكن خطأه مغمور في جنب صوابه، وهو مأجور على خطئه هذا أجرًا واحدًا إن شاء الله.

ولقد اختلفت مع الشيخ العلامة في بعض المسائل نتيجة لاختلاف الزوايا، التي ينظر منها كل منا ومدى تأثر كل منا بزمانه ومكانه، إيجابًا أو سلبًا ولم أر هذا الاختلاف غيّر نظرتي إليه، أو نظرته إليّ، وظللت والله أكِنُّ له المحبّة والتقدير، وأدعو له بطول العمر، في خدمة العلم والإسلام، وظل كذلك يعاملني بودّ وحب كلّما التقينا، وكلّما لقيه أحد من أبناء قطر حمله السلام إليّ، رحمه الله، وأكرم مثواه.

الحديث عن العلامة ابن باز ذو شجون، ومجال القول ذو سعة ولا نستطيع أن نوفي الشيخ ما يستحقه في هذه العجالة، إنّما هي كلمات سريعة، كتبتها على عجل، أودع بها الشيخ الجليل وفاء لبعض حقه، ومعرفة بقدره، وتقديرًا لمكانته وفضله [مجلة البحوث الإسلامية، 1420، 188- 200]

توفي فجر يوم الخميس 27 محرم 1420هـ. وقد تجاوز التاسعة والثمانين من عمره وأخذ من التسعين عامًا شهرًا وعدة أيام (89 عامًا وشهرًا و 14 يومًا).

المصادر والمراجع

● ابن باز، يبكيك محراب يئن ومنبر، كتيب ملحق بالمجلة العربية بالرياض، عدد ربيع الأول عام 1420هـ؛ ● الحنبلي، ابن النجار، معونة أولى النهى في شرح المنتهى، ط. أولى تح. د.عبد الملك بن دهيش؛ ● الروض المربع شرح وتعليق الشيخ عبد الله أبا بطين، الطبعة الأولى عام 1408هـ، مطابع الفرزدق بالرياض؛ ● شريط رقم 146، وشريط رقم 180 من فتاوى نور على الدرب، إذاعة القرآن الكريم والبرنامج العام بالرياض؛ ● صحيفة لقاء الشعوب (المغربية)، العدد 3، السنة الثالثة، ربيع الأول لعام 1420هـ؛ ● فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، الطبعة الأولى عام 1399هـ، مكة المكرّمة، جمع وترتيب محمد القاسم؛ ● مجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن هيئة كبار العلماء بالمملكة، العدد 57، الربيعان والجماديان عام 1420هـ؛ ● مجموع فتاوى مقالات الشيخ ابن باز، جمع وترتيب وتصحيح د. محمد بن سعد الشويعر، نشر الرئاسة العامة عام 1408هـ؛ ● مجلة المجتمع (الكويتية)، العدد 1351هـ، 10-16 صفر 1420هـ.

د. محمد بن سعد الشويعر
مستشار سماحة مفتي عام المملكة
ورئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية
الصادرة عن هيئة كبار العلماء
بالمملكة العربية السعودية

البازلي، أبو عبد الله محمد بن داود

(845هـ / 1441م ـ 925 هـ/ 1519 م)

محمد بن داود بن محمد البازلي، شمس الدين، أبو عبد الله، الكردي، ثم الحموي، من العمادية، ولد في ضحوة يوم الجمعة سنة 845هـ بجزيرة ابن عمرو، ونشأ بها.

انتقل إلى أذربيجان فحفظ بها كثيرا من الكتب، منها الحاوي الصغير، وعقائد النسفي، وعروض الأندلسي والشمسية في المنطق، وكافية ابن الحاجب في النحو، وتصريف العزّي.

قدم الشام سنة تسعين وثمانمائة، ثم دخل مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة خمس وتسعين وثمانمائة، وعاد بعد فراغه من الحج إلى حماة ببلاد الشام فسكنها وأقام بها إلى أن توفي بها [كحالة، معجم المؤلفين، ج 5، ص 297؛ الزركلي، الأعلام، ج 6، ص 120؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 7، ص 138].

كان فقيها، أصوليا، مؤرخا، مهتمّا بالمعقولات والمنطق، منشغلا بالنحو والعروض، له عناية بأسماء الرجال. وصفه ابن العماد الحنبلي بشيخ الإسلام مفتي المسلمين العلامة. كان زاهدا متقشفا كثير العبادة يصوم الدهر ويلازم التدريس [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص 138].

أخذ المعقولات عن الملاّ ظهير، والملاّ محمد القنجفاني، ومولانا عثمان الباوي، وأخذ المنقولات عن والده، وعن غيره من العلماء [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص 138].

آثاره

1 ـ حاشية على شرح المَحَلّي لجمع الجوامع في أصول الفقه لابن السبكي [حاجي خليفة، كشف الظنون، ج 1، 595]؛ 2 ـ تقدمة العاجل لذخيرة الآجل؛ 3 ـ غاية المرام في رجال البخاري إلى سيد الأنام، وهو مطبوع؛ 4 ـ مناقب أبي الحسن الأشعري؛ 5 ـ التحفة المرضية في المسائل الشامية؛ 6 ـ أجوبة شافية عن إشكالات كانت ترد عليه وأسئلة ترفع إليه [كحالة، معجم المؤلفين، ج5، ص 297 ـ 298؛ الزركلي، الأعلام، ج 6، ص 120؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص 138؛ الغزّي، نجم الدين، الكواكب السائرة بأعلام المائة العاشرة، ج 1، ص 47]؛ 7 ـ بديع البديع في مدح الشفيع عارض بها بديعية الحلي [البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، ج2، ص 228].

المصادر والمراجع

• البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين،

دار الفكر، 1402هـ/ 1982؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، لبنان؛ ● الغزّي، نجم الدين، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تح. جبرائيل سليمان جبّور، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بغداد، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن البازيار، محمد بن عبد الله

(ت في حدود 245هـ/859م)

محمد بن عبد الله بن عمر بن البازيار البغدادي. فلكي برع في صناعة النجوم وعمل الأزياج وعلم القرانات وأحكامه. عاصر الفلكي أحمد بن عبد الله بن حبش المروزي، وتتلمذ عليه وتلقى علم الهيئة في مجلس علمه الذي عاش في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي.

آثاره

صنف ابن البازيار عدة مولفات في علم الفلك والأزياج والقرانات أهمّها:

1 ـ كتاب أحكام القرانات، تحدث فيه عن اجتماع كوكبين أو أكثر من الكواكب السبعة السيارة في درجة واحدة وبرج واحد وأثر ذلك الاجتماع في ما يجري في الكون من حدوث كوارث أو غيرها. نسخته الخطية في مكتبة مجلس شواري بطهران برقم (398م). وهذه النسخة مصورة في معهد التراث العلمي العربي بحلب برقم (707)؛ 2 ـ كتاب في جمل دلالات الأشخاص العالية على الأحداث والكائنة في علم الكون والفساد من جهات كلها عند الطوالع والبوادي وغيرها، نسخته في مكتبة وهبي باستنبول ضمن محموع برقم 898 /أ من الورقة (أب ـ 98أ)؛ 3 ـ كتاب الأهوية، مرتب من تسع عشرة مقالة؛ 4 ـ كتاب الزيج؛ 5 ـ كتاب تحويل سني العالم؛ 6 ـ كتاب تحويل سني المواليد؛ 7 ـ كتاب المواليد.

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست ص 334، تح. رضا تجدد علي بن المازنداري 1391هـ/ 1971م؛ ● البغدادي إسماعيل

باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج2/ 14 - إستنبول 1951 - 1955؛ ● عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، مطبعة الترقي، ج10/ 228؛ ● فهرس المخطوطات المصورة بمعهد التراث العلمي العربي، بحلب.

أ. زهير حميدان

الموسوعة العربية - دمشق - سوريا

باسلامة، حسين بن عبد الله

(1299هـ / 1881م - 1364 هـ/ 1944 م)

ولد حسين بن عبد الله بن محمد بن سلام باسلامة في غرة صفر سنة 1299هـ / 23 ديسمبر 1881م بمكة المكرمة حيث نشأ وحفظ القرآن الكريم في أحد كتاتيبها على يدي فقيه سوداني اسمه الشيخ فرج بن عبد الله، وقرأ التجويد على الشيخ عني المنصوري، وتعلم الكتابة والإملاء والحساب على يدي كل من الشيخ سليمان بن محمد الغزاوي والشيخ محمد الفارسي.

ثم درس لمدة سنتين في المكتب الرشدي بالطائف لكنه لم يتم دراسته به. ثم عاد ليتابع دراسته، فدرس الفقه ومبادئ التفسير على يدي الشيخ يوسف اليماني إمام مسجد الهادي بالطائف.

وبعد وفاة والده سنة 1315هـ / 1897م اشتغل بالتجارة لتأمين حياته واستمر على ذلك إلى سنة 1344هـ / 1925م.

وواصل دراسته على أيدي العديد من الشيوخ في عصره، ومنهم محمد عبيد الله أفندي الذي درس عليه الجغرافيا والتاريخ والعلوم العصرية من سياسة واجتماع، وظل ملازما له ما بين سنتي 1320 هـ/ 1902م - 1323 هـ/ 1905 م؛ وفي ما بين سنوات 1322هـ/ 1904م - 1327هـ / 1909م درس علم مصطلح الحديث والتفسير على الشيخ محمد شعيب المغربي، والحديث والتراجم على الشيخ محمد ألفا هاشم التكروني بين سنة 1322هـ / 1904م وسنة 1326هـ/ 1908م، والأدب على الشيخ عبد الجليل برادة المدني فيما بين سنتي 1323هـ/ 1905م - 1326هـ/ 1908م، والحديث والفقه والتفسير واللغة العربية على الشيخ حسين بن محمد الحبشي مفتي الشافعية بمكة المكرمة.

ولم يكتف حسين باسلامة بتلقي علومه على أيدي الشيوخ المقيمين بمكة المكرمة ومدن الحجاز، فسافر عدة مرات إلى مصر وسوريا حيث اجتمع بالعديد من العلماء وتلقى العلم منهم.

وكان يتعرف أثناء أسفاره إلى مصر وسوريا

على ناشري الصحف والمجلات العربية ليكتب وينشر فيها العديد من المقالات والبحوث، كما كان وكيلا للعديد منها في الحجاز منذ عهد العثمانيين.

ومن أولى الوظائف التي باشرها في حياته تدريس الجغرافيا والتاريخ في المدرسة الخيرية بمكة المكرمة منذ سنة 1328هـ/ 1909م.

ثم تولى كتابة مجلس الشيوخ في عهد حكومة الملك الشريف الحسين بن علي سنة 1315هـ/ 1917م.

وبعد دخول الملك عبد العزيز آل سعود مكة المكرمة سنة 1344هـ / 1925م انتخب عضواً في المجلس التأسيسي الذي أنيطت به مهمة وضع النظام الأساسي للحكم.

وفي سنة 1326هـ / 1908م انتخب عضوا في مجلس الشورى، وأعيد انتخابه في سنة 1350هـ/ 1931م؛ كما انتخب عضوا في هيئة المطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين.

وفي سنة 1364هـ/ 1944م توفي حسين باسلامة، وفي كتاب الأعلام للزركلي أنّه توفي سنة 1356هـ/ 1937م [الأعلام، 2/ 242].

آثاره

ترك باسلامة العديد من المؤلفات منها:

1 ـ الجوهر اللماع، ط. للمرة الأولى بمصر سنة 1326هـ / 1908 م، وجمع فيه الحِكَم المنثورة والمنظومة للإمام محمد بن إدريس الشافعي؛ 2 ـ الناسخ والمنسوخ من القرآن؛ 3 ـ وجوب الصلاة على النبي (في التشهد الأخير)؛ 4 ـ تحريم المتعة والرد على من أباحها؛ 5 ـ معنى كرامة الأولياء؛ 6 ـ شرح مسند الإمام الشافعي؛ وقبل أن يفرغ من الجزء الأول منه نشبت الحرب العالمية الأولى سنة 1332هـ/ 1914م فتوقف عن إكماله، ولم يعد إلى التأليف إلا سنة 1349هـ/ 1930م حيث بدأ في إعداد الكتاب؛ 7 ـ حياة سيد العرب وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية؛ ط. دار مصر للطباعة، القاهرة 1349هـ / 1930م. وهو يشتمل على عدة أجزاء، خصص الجزء الأول لحياة الرسول (منذ ولادته إلى وفاته، وأوضح فيه كل ما جاء به من الهدى ودين الحق والتشريعات الدينية والاجتماعية والسياسية)؛ والثاني لتاريخ الخلفاء الراشدين؛ والثالث للخلافة الأموية؛ والرابع للخلافة العباسية... إلخ؛ 8 ـ تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها؛ ط1، سنة 1354هـ / 1935 م، وط2، تهامة ـ جدة ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي سنة 1402هـ / 1982م. ويشتمل هذا الكتاب على تاريخ الكعبة منذ خلق الله السماوات والأرض حتى العصر الحديث حيث جمع المؤلف مادته من كتب التفسير والحديث والفقه والمناسك والتاريخ والتراجم واللغة. وقسم المؤلف الكتاب إلى عدة أجزاء هي: أول بيت وضع للناس، أسماء مكة المكرمة، بناء الملائكة للكعبة، بناء آدم، بناء شيث، بناء إبراهيم، بناء العمالقة وجرهم وقصي وعبد المطلب وقريش، بناء عبد الله بن الزبير، بناء

الحجاج بن يوسف الثقفي، بناء السلطان مراد، كسوة الكعبة، سدانة الكعبة، غسيل الكعبة؛ 9 ـ تاريخ عمارة المسجد الحرام؛ ط1، عن المطبعة الشرقية بجدة سنة 1354هـ / 1935 م؛ وط2، عن دار مصر للطباعة سنة 1384هـ / 1964 م، تح. عمر عبد الجبار ومراجعة محمد عبد المنعم خفاجي. وقد أعاد المحقق ترتيب الكتاب في طبعته الثانية وقسمه إلى ستة أبواب هي:

ـ الباب الأول: المسجد الحرام والزيادات التي زيدت عليه منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى الخليفة العباسي المعتمد على الله.

ـ الباب الثاني: عمارة المسجد الحرام في عصري المماليك والعثمانيين.

ـ الباب الثالث: عمارة المسجد الحرام في العهد السعودي.

ـ الباب الرابع: الحديث عن أساطين المسجد الحرام وشرفاته وعقوده وأبوابه .

ـ الباب الخامس: الحديث عن مقام إبراهيم وبئر زمزم والسقاية والمنبر والمقامات الأربعة والمآذن.

ـ الباب السادس: اشتمل على موضوعات متفرقة مثل: المطاف وأول من أحدث المصابيح بالمسجد الحرام وحدود الحرم ... إلخ؛ 10 ـ الإسلام في نظر أعلام الغرب؛ ط2، دار تهامة بجدة ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي سنة 1403هـ / 1983م. وأعد المؤلف هذا الكتاب للرد على افتراءات بعض مفكري الغرب على الإسلام، ويبين ذلك بقوله: «... قد رأيت سيل الإلحاد والتشكيك يتسرب إلى بعض الناشئة الإسلامية، وتيار الحيرة والغباوة بدأ يخترق عقول البسطاء وقصار المدارك من الناس، وصار من قلد الملاحدة والمشككين تقليداً أعمى يتشدق ببعض الكلمات التي تلقاها ... وحيث إن هؤلاء ومن على شاكلتهم في نظر كل بصير أحقر من أن يُتصدى للرد عليهم أو يُلتفت إلى ترّهاتهم... فإن ما دعاني إلى تحرير هذه الوريقات هو الحرص على بعض الناشئة الإسلامية التي قد رمتهم الأقدار في المدارس والأندية والمجتمعات التي يتولى التدريس والمحاضرة فيها أمثال هؤلاء ومن على شاكلتهم»؛ 11 ـ خلافة أبي بكر الصديق، كان حسين باسلامة قد كتب أربعة كتب عن سير الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، لكنها ظلت مخطوطة ولم تطبع أثناء حياته، ويذكر ابنه عبد الله باسلامة في مقدمة هذا الكتاب أن هذه المخطوطات قد أودعت لدى شخص ريثما يتم طباعتها لكنها فقدت؛ وبعد جهد جهيد تمكن من الحصول على مخطوطة كتاب «خلافة أبي بكر الصديق» فأشرف على طباعتها وإصدارها عن تهامة ضمن سلسلة الكتاب العربي السعودي سنة 1403هـ/ 1983م.

المصادر والمراجع

● باسلامة، حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام؛ تح. عمر عبد الجبار، ط2، دار مصر للطباعة، القاهرة 1384هـ / 1964 م؛ ● م.ن، الإسلام

في نظر الغرب، ط2، تهامة ـ جدة 1403هـ / 1983 م؛ ● م.ن. خلافة أبي بكر الصديق، ط1، تهامة ـ جدة 1403هـ/ 1983م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط14، دار العلم للملايين، بيروت 1999، 2/ 242 ـ 243.

د.عبد الرحمان الأنصاري

جامعة الملك سعود ـ الرياض

باسودان، عبد الله بن أحمد

(1178هـ / 1764م ـ 1266هـ / 1850 م)

عبد الله بن أحمد بن عبد الله باسودان، فقيه متصوّف، له معرفة بالأدب والشعر، وهو من أهل حضرموت، ولد في دوْعَنْ بحضرموت، (دوعن يطلق على واديين بأعلى حضرموت يقال لأحدهما الأيمن، ويقال للآخر وادي حموضة في شرقيه، ووادٍ آخر يُقال له مَنُوه)، ونشأ وتعلّم صاحب الترجمة في الخُرَيْبَة وهي من كبريات بلاد دوعن [ابن عبد الله السقاف، معجم البلدان، حضرموت، ص148؛ الزركلي، الأعلام، مجلد 4/ 70].

وقد تفقه الشيخ عبد الله باسودان على يد علماء كِبارحتّى أصبح علمًا بارزًا في عصره، بل يُعد الشيخ عبد الله من علماء الخريبة خاصّة، وحضرموت عامّة. ومن الجدير بالذكر أن بيتهم بيت علم وشرف ونذكر منهم الشيخ أبا بكر عبد الله باسودان وأخواه سالم بن عبد الله، ومن المشايخ من آل باسودان أيضا: الفاضل الشيخ عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد ابن العلامة الجليل عبد الله بن أحمد باسودان ويسكن الآن ـ يقصد سنة 1366هـ ـ بمدينة الحُدَيْدَه باليمن وهو من أعيانها ومن المعتبرين فيها. ومنهم الشيخ محمد بن سالم بن بوبكر بن عبد الله باسودان خطيب جامع الخريبة وغيرهم.[السقاف، المصدر السابق، ص148 ـ 150].

توفّي صاحب الترجمة في مدينة الخريبة سنة 1266هـ/ 1850م [السقاف، مصدر سابق، ص 148؛ الزركلي، الأعلام مجلّد 4، ص 70].

آثاره

1 ـ تحصيل المقصود، مخطوط رقم 563؛ 2 ـ منظومة ضوء المصباح، مخطوط رقم 3032؛ 3 ـ منح المفتاح، مخطوط رقم 1911؛ 4 ـ لمحة اللحاظ، مخطوط رقم 2832، ونمحة الإيقاظ، تصوّف، مؤرّخ سنة 1247؛ 5 ـ كشف القناع، مخطوط رقم 1007؛ 6 ـ جالية الأكدار، مخطوط

رقم 2832؛ 7 ـ حضرة باسودان، مخطوط رقم 1601؛ 8 ـ تعريف التيقظ والانتباه، مخطوط رقم 3046، بما يقع في مسائل الكفاه؛ 9 ـ زيتونة الألقاح، مخطوط رقم 3056؛ 10 ـ أسئلة وأجوبتها، مخطوط رقم 3072؛ 11 ـ شرح الورد اللطيف، مخطوط رقم 3039؛ 12 ـ الافصاح في أحكام النكاح، مخطوط رقم 3109؛ 13 ـ سمط العقيان، مخطوط رقم 2799؛ 14 ـ ذخيرة المعاد، مخطوط رقم 3041؛ 15 ـ الدرّة الوقادة بشرح الإفادة، مخطوط رقم 2715؛ 16 ـ عدة المسافر، مخطوط رقم 841؛ 17 ـ الأنوار اللآمعة والتتمات الواسعة، فقه، رقم 1532؛ 18 ـ شرح الخطبة، مخطوط رقم 2558، هذه المخطوطات موجودة بمكتبة الاحقاف في تريم بحضرموت [المركز اليمني للابحاث الثقافية، فهرست الكتب المخطوطة بتريم، ص 52 ـ 53]؛ 19 ـ الذخائر الفاخرة والجواهر النضرة في مصالح الدنيا والاخرة، مخطوط بـ180 ورقة، مؤرّخ بسنة 1258هـ؛ 20 ـ مطالع الانوار، 210 ورقة، سنة 1263هـ؛ 21 ـ تنفيس الخواطر بشرح خطبة الحبيب الطاهر، في التصوّف، سنة 1261هـ [عبد الله محمد الحبشي، فهرست المخطوطات اليمنية في حضرموت، ص 31، 43، 111]؛ 22 ـ فيض الاسرار، شرح منظومة في تراجم الاولياء من حضرموت، 235 ورقة، سنة 1263هـ؛ 23 ـ حدائق الارواح في بيان طرق الهدى والصلاح، 435 ورقة [عبد الحبشي، المرجع السابق، ص78، 107؛ الزركلي، الاعلام، مجلد 4، ص 70]؛ 24 ـ ديوان من نظمه المعرب والملحون، الزجل، مخطوط، 75 ورقة؛ 25 ـ جواهر الانفاس، 220 ورقة [المركز اليمني للابحاث، فهرست الكتب المخطوطة، ص52، 53؛ الزركلي، الاعلام، المجلّد4، ص30؛ عبد الله الحبشي، فهرست المخطوطات اليمنية، ص17، 108؛ كتابه معراج تاريخ اليمن، ص 119].

يبدو أنّ معظم كتب عبد الله باسودان مازالت مخطوطة، ونأمل أن تنال اهتمام الجهات المختصّة في اليمن في تحقيقها ودراستها وطباعتها، ويبدو أنّ جامعة الاحقاف بحضرموت بدأت تأخذ ذلك بعين الاعتبار.

المصادر والمراجع

● السقاف، عبد الرحمن بن عبيد اللاه، معجم بلدان حضرموت المسمّى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تح. ابراهيم المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، الطبعة الأولى، مكتبة الارشاد، صنعاء، 1423هـ/ 2002م؛ ● المركز اليمني للابحاث الثقافية والآثار والمتاحف، فهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الاحقاف بتريم للمؤلفين اليمنيين، محافظة حضرموت، تريم، 1408هـ/ 1988م؛ ● الحبشي، عبد الله محمد، فهرست المخطوطات اليمنية في حضرموت، مؤسّسة 14 أكتوبر للطباعة والنشر، عدن 1974م؛ ● الحبشي، عبدالله محمد، مراجع تاريخ اليمن، منشورات دار الثقافة، دمشق 1972م؛ ● الزركلي، الاعلام، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

محمد عبد الله بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

ابن باسيل، إصطفن

(ق 3 هـ / ق 9 م)

إصطفن بن باسيل مترجم وطبيب عاش في زمن الخليفة المتوكل (ت 247هـ / 861 م) ولا يعرف شيء عن تاريخ مولده ووفاته، وقد ذكره ابن أبي أصيبعة في جملة الأطباء والنقلة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» وقال عنه: «كان يقارب حنين بن إسحاق (ت 260هـ / 874 م) في النقل إلا أن عبارة حنين أفصح وأحلى».

ويقول القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» إن باسيل والد إصطفن قد صاحب الخليفة الرشيد (ت 193هـ / 808 م) عند حصاره لأنقرة، كما قرأ له بعض النقوش اليونانية المدونة على بعض الأحجار الكريمة. ويقول المستشرق الفرنسي لوكليرك في كتابه «تاريخ الطب العربي» إن إصطفن هو دون شك ابن باسيل الترجمان الذي نقل بعض كتب أرسطو في الطبيعة التي كان قد قام بشرحها فرفوريوس.

ويقول المستشرق ألدو ميلي في كتابه «العلم عند العرب» عن إصطفن: «وهو يترجم من مدرسة حنين بن إسحاق.. ولم يقتصر إصطفن على ترجمة تسعة كتب لجالينوس إلى اللغة العربية بل كان أول من ترجم إلى العربية كتب ديوسقوريدس، وينسب إليه أيضاً أول ترجمة لكتب أوريبازيوس».

يعد إصطفن بن باسيل أول من ترجم كتاب الحشائش لديوسقوريدس «العين زربي» الذي عاش في الدور الأول أو الثاني من التاريخ المسيحي، من اليونانية إلى اللغة العربية. وقد تصفح ذلك حنين بن إسحاق، فصحح الترجمة وأجازها.

ويقول إصطفن عند ترجمته لكتاب ديوسقوريدس بأنه كان إذا وجد اسماً في اللسان العربي يقابل اسماً في اليونانية فسّره بالعربية، وما لم يعلم له في اللسان العربي اسماً تركه في الكتاب على اسمه اليوناني، اتكالاً منه على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي. تُوجد نسخة من كتاب الحشائش لديوسقوريدس في دار الكتب المصرية برقم 1029 طب منقولة بالتصوير عن مخطوطة بآيا صوفيا بالآستانة ومكتوب عليها في الصفحة الأولى: «كتاب ديوسقوريدس العين زربي في هيولى علاج الطب نقل إصطفن بن باسيل وإصلاح حنين بن إسحاق» وهي خمس مقالات مصورة برسوم النبات وتقع في 372 لوحة.

ويورد أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل في مطلع كتابه «تفسير أسماء الأدوية المفردة» من كتاب ديوسقوريدس: «إن كتاب ديوسقوريدس ترجم في مدينة السلام (بغداد) في الدولة العباسية أيام الخليفة المتوكل (ت 247هـ/

861م) وكان مترجمه إصطفن بن باسيل من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي». ويتابع ابن جلجل قصة ترجمة الكتاب المذكور فيقول: «وقد ورد هذا الكتاب إلى الأندلس وهو على ترجمة إصطفن، منه ما عرف له اسم بالعربية ومنه ما لم يعرف له اسم فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق وبالأندلس إلى أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد (ت 350هـ/ 961م) وهو يومئذ صاحب الأندلس، فكاتبه أرمانيوس ملك القسطنطينية، أحسب في سنة (337هـ/ 977م) وهاداه بهدايا لها قدر عظيم، فكان في جملة هديته كتاب ديوسقوريدس، مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقي الذي هو اليوناني القديم، وبما أنه لم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الإغريقي، لذلك بقي كتاب ديوسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر، فلما جاوب الناصر أرمانيوس الملك سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالإغريقي واللاطيني، ليُعلّم له عبيداً يكونون مترجمين. فبعث أرمانيوس إلى الناصر براهب كان يسمى نقولا، فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلاثمائة، وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديوسقوريدس بالعربية.. فصحّ، ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير ديوسقوريدس، تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة بناحية الأندلس، وهذا ما أزال الشك فيها عن القلوب، وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف، إلا القليل منها الذي لا بال له ولا خطر».

وهذا يدل على أن كتاب ديوسقوريدس بقي على ترجمة إصطفن بن باسيل، ولم يترجم ترجمة جديدة في بلاد الأندلس، وأن أطباء الأندلس استعانوا بالراهب نقولا على فهم معاني ألفاظ العقاقير ومعرفة أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها اليونانية وبخاصة الألفاظ التي تركها إصطفن في ترجمته.

آثاره

قام المستشرق الفرنسي لوكليرك بإحصاء مؤلفات جالينوس الطبية التي ترجمها إصطفن بن باسيل من اليونانية إلى العربية، وأصلح معظمها حنين بن إسحاق وهي:

1 ـ كتاب علل النفس (مقالتان)، ترجمة إصطفن وإصلاح حنين بن إسحاق؛ 2 ـ كتاب حركة العضل (مقالتان)، ترجمة إصطفن وإصلاح حنين بن إسحاق؛ 3 ـ كتاب وظيفة النفس (مقالة واحدة)، ترجمة إصطفن وقد ترجم حنين بن إسحاق نصفه؛ 4 ـ كتاب الامتلاء الدموي (مقالة واحدة)، ترجمة إصطفن وإصلاح حنين بن إسحاق؛ 5 ـ كتاب المرّة السوداء (مقالة واحدة)، ترجمة إصطفن وإصلاح حنين بن إسحاق؛ 6 ـ كتاب الفصد، قام بالترجمة إصطفن بالتعاون مع عيسى بن يحيى؛ 7 ـ كتاب عدد المقاييس، قام بالترجمة إصطفن بالتعاون مع إسحاق بن حنين؛ 8 ـ كتاب الأدوية المستعملة لأوريبازيوس، وقد تمت الترجمة من قبل إصطفن بإشراف حنين بن إسحاق، وقد طبع الكتاب بعد أن حققه المستشرقان الإسبانيان قيصر دوبلر والياس ترث.

وورد في كتاب الفهرست للنديم بأن

إصطفن بن باسيل نقل الكثير من كتب الصنعة لخالد بن يزيد بن معاوية (ت 85هـ/ 704م)، ويعد ذلك أول نقل في الإسلام من لغة أجنبية إلى اللغة العربية.

المصادر والمراجع

● الرفاعي أنور، تاريخ العلوم في الإسلام، دمشق 1973م؛ ● لوكليرك، تاريخ الطب العربي، باريس 1879م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت 1989م؛ ● الدفاع، علي عبد الله، أعلام العرب والمسلمين في الطب، بيروت 1983م؛ ● القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت 1960م.

د. زهير الكتبي

دمشق ـ سوريا

باش حانبة، علي بن مصطفى

(1293هـ / 1876م ـ 1337هـ / 1918 م)

هو عليّ بن مصطفى بن علي الشريف باش حانبة المحامي والصحفي والسياسيّ.

اختلف بشأن تاريخ ولادته بتونس العاصمة إذ أبان البعض أنّه ولد سنة 1875، وزعم آخرون أنّ ولادته كانت سنة 1879 على حين ذهب أغلب المترجمين له إلى أنّ ولادته كانت سنة 1876 وهو الأرجح. وينحدر علي باش حانبة من أسرة جاءت إلى تونس من الأناضول ضمن مجموعة الأتراك الذين صاروا يلعبون دورا هامّا صلب عسكر البلاد ومخزنها. إذ كان جدّه رئيس فرقة جند الترك وأبوه أحد أعوان الوزير مصطفى بن إسماعيل. وقد أزيحت هذه النخب المملوكية تدريجيا من مواقعها العسكرية والإدارية إثر دخول الاستعمار الفرنسي.

زاول عليّ باش حانبة دراسته في المعهد الصادقي بتفوّق، كما باشر الدروس في الزيتونة بصفة حرّة، واشتغل في البداية مترجما بإدارة الأملاك العقّارية سنة 1897، لكي يصبح إثر تخرّجه من الصادقيّة بشهادة ختم الدروس ناظرا على أوقاف هذه المدرسة منذ غرّة فيفري 1898. وفي الأثناء واصل دراسة الحقوق في جامعة أيكس (Aix)، وإثر حصوله على الإجازة انخرط في سلك المحاماة بداية من غرة 1 فيفري 1907.

وقد عُرف علي باش حانبة منذ مطلع القرن بانخراطه ضمن النخبة السياسيّة التي كانت تدافع عن ضرورة الإصلاح عبر الطرق الحداثية، وربما أخذ عليه تشيّعه إلى الغرب أكثر من اللزوم وانتصاره إلى الحضارة الغربية في مواجهة التيّار الإصلاحي التقليدي ودعوته

إلى التعليم العصري. ولهذا الغرض كان من أشدّ المتحمّسين إلى بعث جمعية قدماء الصادقية (23 ـ 12 ـ 1905) مبيّنا في تقريره إلى المؤتمر التأسيسي الفوائد المادية والأدبيّة الجمّة المنجرّة عن المشروع باعتباره وكيل أوقاف المدرسة. وقد رغب في أن تكون الجمعيّة حلقة وصل بين أعضاء النخبة المتخرّجة من هذه المدرسة من جهة (قرابة 600 نفر) وفيما بينهم وبين بقيّة النخب الأخرى من جهة ثانية بغاية التلاقح ومزيد فتح الآفاق الفكريّة والاجتماعيّة عبر إلقاء المحاضرات في شتّى الميادين مع ما يستتبع ذلك من مناقشات وإفادة. ويبدو أن تطوّر الأحداث بالبلاد قد حوّل هذه الجمعيّة من محطّة ثقافيّة حواريّة إلى منبر سياسي يجد فيه الشباب التونسي وحركته مجالا آخر للتعريف بأطروحاته السياسية ومواقفه الوطنيّة. ويبدو أنّ تخلّي المترجم له عن الوظيفة وارتياده مهنة المحاماة قد حرّره أيضا من عديد الضوابط التي كانت من قبل تحول دونه ودون بروزه.

وطغت تدريجيا مواقفه السياسيّة على صفته كنائب رئيس للمنتدى التونسي وعضو بالخلدونيّة وعضو بلجنة إصلاح التعليم الصادقي وأمين مال الجمعيّة العلويّة، وقد تمّ له ذلك خاصّة إثر صدور جريدة «التونسي» Le Tunisien (في 1500 نسخة تقريبا) في 7 فيفري 1907، وهي أوّل جريدة تونسيّة أسبوعية تصدر باللغة الفرنسية تدافع عن مصالح التونسيين. وقد أجمع مؤسّسوها وممولوها على تعيين المترجم له مديرها السياسي من تاريخ بعثها حتى تعطيلها في 7 مارس 1912 (211 عددا). وقد جاءت افتتاحية العدد الأول التي وضعها علي باش حانبة ذاته، بمثابة البرنامج السياسي لهذا اللفيف من المثقفين الذين تجمّعوا في البداية بغاية الدعوة إلى «سياسة المشاركة» والنهوض بالوطن وعباده عبر المطالبة بتعميم التعليم، وبتطوير الأوضاع الاقتصادية، وبحقّ التونسيين في ارتياد الوظيفة العمومية. . الخ.

وبقدر ما كانت كتابات المترجم له وبعض صحبه في هذه الأسبوعية متعقّلة ومتّزنة إلى حدّ التواطؤ في البداية؛ جاءت كتاباته إثر ذلك، سيّما منذ مطلع 1910، أكثر جرأة وتجذّرا قاطعة مع المرحليّة التي تبنّوها سابقا. وقد ربط البعض ذلك بإحساس علي باش حانبة بأنّه صار الزعيم السياسي الفعلي لمجموعة الشباب التونسي منذ انتقال البشير صفر إلى سوسة عاملا على هذه الجهة (1908)، فاتّخذ بذلك التلميذ موقع الأستاذ. وأرجع آخرون أمر هذا التجذّر إلى تعاظم عدد الشبيبة المثقفة المنخرطة ضمن مسار الشباب التونسي لا سيّما إثر انخراط الزيتونيين بالحركة وصدور النسخة العربيّة من صحيفة «التونسي» منذ 8 نوفمبر 1909 أيضا (1000 نسخة). وغير خفيّ أن في عنوان الدوريتين باللغتين الفرنسية والعربيّة أكثر من مغزى، وأكثر من برنامج. وقد تمكّنتا من الردّ على مخاتلات السّلطة الاستعماريّة والردّ على افتراءات غلاة الاستعماريين، وسهّلتا عمليّة التواصل فيما بين المثقّفين التونسيين بداية، فضلا عن حصولهما على عطف بعض القوى اليساريّة الفرنسية. إضافة إلى ذلك فإنّ علي باش حانبة كان في كتاباته ساعيا إلى الدفاع عن الذاتيّة والخصوصيّة المحليّة

ضمن إطار التحديث. فكان من أشدّ المدافعين عن ضرورة إصدار دستور للبلاد والفصل بين السلطة واحترام حرية الصحافة، وضرورة تمثيل التونسيين جميعهم في مجالس منتخبة وتشريك التونسيين في إدارة البلاد والحصول على الوظائف والإبقاء على جنسيّة اليهود التونسيّة. وطالب في كتاباته بتطوير أوضاع تونس الاقتصادية وإبقاء الأراضي لمالكيها وتنمية القطاعات الاقتصادية وتنشيطها. ونبّه ضمن الجانب الاجتماعي من مخاطر تفقير الأهالي، والعمل على تحسين أوضاع الشرائح الشعبيّة بالتخفيض من المجبى وتعديل الضرائب بما يتلاءم وضعف حال أغلب السكّان وتطوير العدليّة بما يوفي بحقوق المتساكنين. أمّا في المستوى التعليمي والثقافي فقد كانت كتاباته تنادي بالحرص على فتح المدارس العصريّة وتطوير التعليم التقليدي الزيتوني، إذ كان من أشدّ المعادين للكتاتيب القرآنية مع حرصه على التمسّك بتعلّم اللغة العربيّة باعتبارها عربون الذاتيّة ورمزها. فكانت بذلك مبادئ علي باش حانبة مزجًا بين المؤثّرات الشرقيّة رديفة الحركة الإصلاحيّة والمؤثّرات الأوروبية الليبرالية وليدة فلسفة الأنوار. كما أنّ باش حانبة لا يركن إلى الارتباط بقاعدة إيديولوجية جاهزة بقدر ارتباطه بمبادئ المدافعة عن حقوق المواطن وكلّ ما يمسّ هويته. ونتيجة ذلك كانت أطروحاته ومواقفه تتجذّر بفعل مواجهاته مع السلطة الاستعمارية وبالقياس إلى معاينات الواقع اليومي وتداعياته، فكانت حججه وبراهينه وليدة رصيد البلاد التاريخي ومبادئ الثورة الفرنسية وتاريخ فرنسا ذاتها.

وقد اكتسب علي باش حانبة ضمن نضاله صفة الرجل الميداني أيضا إلى جانب صفة السياسي المفكّر لا سيما منذ 1910.

فقد تمّت معاينته مرّات ملتحقا بنضالات الطلبة الزيتونيين خطيبا فيهم في أفريل 1910، حاثًا إيّاهم على التمسّك بمطالبهم الخاصّة بتعصير التعليم الزيتوني وضبط جداول أوقات التدريس والحدّ من غيابات المدرّسين، مفيدًا إيّاهم بأنّ «الحرية لا توهب وإنّما تفتكّ».

كما تعاظم نشاطه أكثر منذ اندلاع الحرب الإيطالية الطرابلسية إذ انبرى يسند الطرابلسيين والعثمانيين في صراعهم ضد المحتلّ الإيطالي منذ سبتمبر 1911، والحال أنّه لم يُعرف عن عليّ باش حانبة في السابق أيّة ميولات عقائديّة إسلاميّة مخصوصة، إذ كان يُدرج المسألة الإسلاميّة ضمن الدفاع عن هويّة المجموعات وخصوصيّاتها الذاتيّة. فجمّع للطرابلسيين في هذا الإطار الأموال والأغذية والأدوية والدواب، كما جنّد لهم المتطوّعين من قدماء المحاربين وغيرهم، وأغاث المصابين مترئسًا في الغرض لجنة سريّة توزّع أعوانها بعديد جهات البلاد. وكان بصفته تلك ينسّق تجميع هذا الدعم وتوزيعه وإيصاله مع الدوائر العثمانيّة بكلّ من إستنبول ومرسيليا وباريس. كما بادر أيضا، وهو الصحفيّ المتميّز، بإصدار دوريّة تدعم المقاومة الطرابلسيّة حملت اسم «الاتحاد الإسلامي» أقدمت السلطة على إيقاف صدورها بعد 6 أعداد لا غير بدعوى

«التحريض على التّباغض بين الأجناس».

وفي أحداث الزلاّج حمّل المترجم له السلطات الاستعمارية وأعوانها المسؤوليّة في تعفّن الأوضاع. غير أنّه كان أكثر التصاقا بالأحداث عند مقاطعة التونسيين ركوب الترامواي إثر دهس إحدى عرباته طفلا تونسيّا في 3 فيفري 1912. ففي هذه المواجهة الجديدة بين التونسيين من جهة والسلطة والشركة الاستعماريتين من جهة ثانية، اعتُبر عليّ باش حانبة الرأس المدبّر وعدّ زعيم «لجنة المقاطعة». ورفض التونسيون العودة إلى ركوب الترامواي مجدّدا رغم الضغوط والوعيد، ممّا أدّى بالسلطات إلى اتّخاذ قرار 13 مارس 1912 يقضي بنفيه مع 6 أنفار آخرين إلى الخارج. وقد تمّ ترحيل المترجم له صحبة عبد العزيز الثّعالبي ومحمّد نعمان إلى مرسيليا فباريس لكي ينتقلوا إلى إستنبول في صائفة 1912.

قد يكون علي باش حانبة فكّر في البقاء بباريس والاعتراض على الحكم بالنفي الذي صدر ضدّه سيّما أنه قد وجد بها أصدقاء له يدعمون أفكاره، ويتبنّون أطروحاته خاصة تلك المتعلقة بضرورة إعطاء الأهالي حقوقهم الدنيا المشروعة، من أمثال البرلماني روزي (Albin Rozet) والصحفي بول بروزون (Paul Brozon) الذي أصدر معه سويّة آنذاك نشريّة La France Islamique. كما لم يثنه وجوده بباريس عن مواصلة نضاله ضد الاندماج الاستعماري. من ذلك تحريضه نفرا من جماعة الشباب الجزائري الذين التقاهم هناك على التمسّك بهويتهم الجزائرية وجنسيّتهم ملقيا فيهم خطبة عارضهم خلالها في مطالبتهم المواطنة الفرنسيّة بصورة جماعيّة.

ويبدو أنّ علي باش حانبة قد عدل عن البقاء بباريس لاعتبار وحيد وهو أنّه بقدر شغفه بالعودة إلى بلاده، لا سيّما إثر إلغاء أمر الابعاد بعد 6 أشهر، كان لا يرغب في الرّجوع إليها وهي تحت الاحتلال مصدعًا برأيه إلى أحد أصدقائه بأنه لن يلين ولن ينحني. فقد أقرّ باش حانبة العزم على مواصلة النضال ضدّ الاستعمار بالخارج. فلئن عيّن بعديد الخطط بإستنبول منذ سبتمبر 1913 (مستشار في العدلية، ثم عضو بمجلس الدولة، فرئيس هيئة التشكيلات، ثم مستشار وزارة الخارجيّة بداية من 1916، فمستشار الصدارة العظمى..) إلاّ أنّه كان يعتبر مقرّه الجديد ليس إلاّ مركزا للتحضير لمقاومة الاستعمار الفرنسي سيّما إثر تعرّفه بإستنبول بعديد القيادات العربيّة (أرسلان، الباروني...) والتونسيّة (صالح الشريف، إسماعيل الصفايحي...) الذين سبقوه في الاستقرار بالمهجر وجعلوا من وظائفهم الإدارية والدينيّة مجرّد غطاء لنشاطهم السياسيّ والعسكريّ خصوصا بعد بداية اندحار العثمانيين عن الجبهة الشرقيّة الآسيوية إثر أحداث 1916.

إنّ اهتمام علي باش حانبة بالأثريّات بإستنبول وإقباله على الاعتناء بأمور المتاحف والزخرفيات وإشرافه على عديد مشاريع البرّ والإحسان، لم يثنه عن متابعة شواغل بلاده السياسيّة ببعثه «لجنة تحرير المغرب العربي» صحبة نفر من المغاربة. إذ فكر بالبدء في تعبئة الجنود الأسرى من البلدان الثلاثة

وتدريبهم وتزويدهم بالسلاح وإنزالهم بالسواحل الطرابلسية استعدادًا لمقاومة الاحتلال الفرنسي بهذه البلدان. ويبدو أنّ السلطة الاستعمارية كانت عالمة بكلّ هذه المبادرات فاتّخذت إجراء عقلة أملاك المترجم له في 5 جويلية 1917. وقد تكون بعض الأشواط قد قطعت تحت إشراف عليّ باش حانبة في هذا المشروع، غير أنّ هزائم العثمانيين المتتالية، وانهيار الدول الوسطى الأوروبية قد عطّل عمليّة الإنجاز. كما أنّ المرض العضال الذي ألمّ به قد أقبر المشروع نهائيّا. فمات علي باش حانبة يوم 23 محرم 1337هـ/ 29 أكتوبر 1918م قبل يوم واحد من توقيع اتفاقية مودروس إثر دخول جيوش دول الوفاق إلى إستنبول.

ويحتلّ علي باش حانبة واقعيًا موقعا متميّزا ضمن نخبة البلاد الإصلاحيّة سواء بصفته عضوا بعديد الجمعيّات والتنظيمات التي أطّرت النخبة الفكريّة والسياسيّة مع مطلع القرن العشرين، أو بفعل الدفع الذي قدّمه للمنهاج السياسي الذي قطع مع سياسة المشاركة إذ لعب دورًا مهمًّا بالمهجر ساهم في شحذ الهمم وتجذير الطرح لنخبة ما بعد الحرب. ولمجمل هذه الاعتبارات أعتبرت القيادات السياسيّة اللبرالية المترجم له رائدًا سياسيّا فذّا ضمن مسار الحركة الوطنيّة خلال النصف الأوّل من القرن العشرين. وقد حرصت القيادة السياسيّة المنبثقة بعد الاستقلال السياسي للبلاد على إعادة رفات المترجم له إلى بلاده ودفنه بها في أفريل 1968 بعد أن كان دفن أوّل مرّة بشكتاش إحدى ضواحي استنبول.

آثاره

1 ـ جريدة التونسي (Le Tunisien)، ناطقة بالفرنسية، 211 عددا من 07 فيفري 1907 إلى 07 مارس 1912؛ 2 ـ مقالات صحفية؛ 3 ـ محاضرات.

المصادر والمراجع

● حمدان، محمد، أعلام الإعلام في تونس، 1860 ـ 1956، تونس 1991، مركز التوثيق القومي، ص79 ـ 83؛ ● الدقي، نور الدين، حركة الشباب التونسي، تونس 1999، المطبعة الرسميّة، ص 233 ـ 235؛ ● الزمرلي، الصادق، أعلام تونسيون: التابعون، ترجمة حمّادي الساحلي، بيروت 1986، دار الغرب الإسلامي، ص 141 ـ 158؛ ● الساحلي، حمادي، نشاط الوطنيين التونسيين في المهجر أثناء الحرب العالمية الأولى، المجلّة التاريخية المغربية عدد 33 ـ 34، جوان 1984 ص 182 ـ 192؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، مج. 5، ص 22 ـ 23.

- LAMBERT, Paul, Choses et Gens de Tunisie, Saliba, Tunis, 1912 p. 45.
- MAHJOUBI, Ali, Les origines du Mouvement National en Tunisie (1904-1934) P.U. T, 1982, p. 125.

د. الكراي القسنطيني
جامعة تونس

باشا، أحمد مختار

(...هـ / ...م - ...هـ / ... م)

ولد في إستنبول لعائلة تنتمي إلى العسكرية. واختار مسلك والده الكول أغا حسن أغا ودخل أولا الإعدادية العسكرية ثم درس بعد ذلك في مهندس خانه بر همايون. وتخرّج من هناك برتبة ملازم، وبعد عام درس في الأركان الحربية، وفي عام 1881 أصبح يوزباشي. وفي الفترة من عام 1885 إلى عام 1894 أعطى دروسا تتعلق بالمدفعية في مدرسة الفنون الحربية ومهندس خانه بر همايون ومدرسة ملكية شاهانه. وفي عام 1895 رُفع إلى رتبة الميرالاي. وبالإضافة إلى الدروس التي كان يعطيها في المدارس المذكورة عين عضوا في لجنة الاستحكامات والمدفعية العامة.

في عام 1900 ترك أحمد مختار باشا هذه الدروس باستثناء الدروس التي كان يعطيها في مدرسة الفنون الحربية. وفي عام 1902 أصبح ميرلواء، وفي عام 1906 ترقى إلى رتبة فريق، وأرسل إلى ألمانيا والنمسا وفرنسا من أجل تحديث الجيش العثماني وتطويره. وأثناء هذه الرحلة قام بجمع معلومات وأفكار تتعلق بالمتاحف في أوروبا. وقام بتقديم هذه المعلومات إلى زكي باشا مشير الطوب خانه العامرة في تلك الفترة في شكل تقرير. واقترح إنشاء متاحف مشابهة لها في الدولة العثمانية. وتم تقديم هذا الاقتراح إلى السلطان عبد الحميد الثاني والذي قام بدوره بتكليف كل من الألماني الفريق مدفعجي جرامكوف باشا والمهندس الألماني جاسموند، أحد أساتذة الهندسة الملكية بالإضافة إلى أحمد مختار باشا من أجل إنشاء متحف عسكري. وفي النهاية تم تأسيس متحف في قصر يلدز باسم سلاح خانه، غير أنه أغلق فيما بعد.

قام علي رضا باشا مشير الطوب خانه بعد إعلان المشروطية الثانية بإحياء المشروع الذي يتعلق بالمتحف مرة أخرى. وبعد أن أخذ موافقة السلطان بدأ في أعماله. وفي هذه الأثناء تم تشكيل لجنة برئاسة أحمد مختار باشا، ناظر مهندس خانه بر همايون في هذه الفترة. وقررت اللجنة أنه وإلى أن يتم الفراغ من بناء المتحف، يتم استخدام كنيسة أيا إريني التي كانت تستخدم منذ القديم مخزنا للسلاح ثم أصبحت لفترة من الزمن متحفا للمؤلفات القديمة. وتم الشروع في عملية جمع الأسلحة القديمة من مختلف أنحاء البلاد من أجل عرضها في المتحف. غير أن اللجنة توقفت عن عملها لفترة قصيرة بسبب الاضطرابات التي كانت تعيشها هذه الفترة. ثم تبنى محمود شوكت باشا المشروع وتمت مواصلة العمل فيه مرة أخرى. وفي عام 1908 عين أحمد مختار باشا أول مدير لمتحف الأسلحة العسكرية.

واصل أحمد مختار باشا عمله مديرا للمتحف حتى عام 1923. وقد قام بإضافات مهمة

للغاية في تطوير متحف الأسلحة العسكرية في هذه الفترة. ثم تغير اسم المتحف بعد ذلك ليصبح المتحف العسكري العثماني. وتم نقل دار أزياء الإنكشارية القديمة إلى المتحف. كما ألحقت به المكتبة وميدان الرمي والسينما. وفي عام 1914 أنشئت وحدة لـ «مهتر خانه خاقاني» في المتحف بتشجيع ومساعدة من أنور باشا ناظر الحربية. وعند إكتمال المهتر في الأماكن المذكورة أصبح واحدا من أهم المراكز الثقافية في تلك الفترة بفضل ما يقدمه من حفلات موسيقية وعرض للأدوات العسكرية.

عرف أحمد مختار باشا بالإضافة إلى النجاحات التي حققها وهو مدير للمتحف من خلال وظيفته أستاذا في المدارس العسكرية، وكذلك من خلال ما نشره من مؤلفات تتعلق بالمواضيع العسكرية. وفي عام 1914 تم إنشاء فريق كامل للمهتر. وبجانب الإضافات المهمة في تطوير موسيقى المهتر، قام كذلك بإعداد ألحان لموسيقى المهتر وكتابة كلمات الأغاني. وتم تلحين إحدى كلمات هذه الأغاني من قبل معلم إسماعيل حقي بك.

آثاره

لم يتخصص أحمد مختار باشا في المواضيع العسكرية فقط، بل كان في الوقت نفسه واقفا على ثقافته المحلية، كما نجح كذلك في الاستفادة من ثقافة الغرب ومواريثه في تطوير ثقافة أبناء بلاده. ويعتبر أحمد مختار باشا رجلا عسكريا وكذلك رجلا مثقفا. وكان يعرف اللغات العربية والفارسية، والفرنسية، والرومية واللاتينية، والألمانية. وكان يقوم بجانب تأليف الكتب والترجمة بنشر المقالات في مختلف صحف ومجلات تلك الفترة.

1 ـ الانضباط العسكري: يعتبر واحدا من أهم كتب الباشا ويتكون من مجلدين، وقد كتب بخط المؤلف في عام 1905، وقد قام بتقديمه إلى السلطان عبد الحميد الثاني. يبيّن المجلد الأول والذي هو بعنوان «الخلافة المعظمة الإسلامية» عمق معرفة الباشا بالمواضيع الدينية والتاريخية، كما يكشف عن مدى ثراء لغته. وفي هذه الفترة التي تعاظمت فيها المعارضة للسلطان اعتبر هذا الكتاب سندا قويا إذ يعتبر أن سلطة الخليفة ذات أسس دينية، وهو بالتالي دعوة إلى ضرورة طاعته. وتوجد النسخة المخطوطة منه في المتحف العسكري، وقد تم إعداد هذا القسم من الكتاب ونشره من قبل إسماعيل قره ضمن كتابه «رسائل الخلافة II (ص 281 ـ 349)»؛ 2 ـ أحوال نامه مؤلفات عسكرية عثمانية: القسم الأول: أحوال نامه مؤلفات طوب جيان [إستنبول 1898]. يتناول فيه الفترة التي أعقبت النظام الجديد. واحتوى على تاريخ المدفعية وأنواع الأسلحة وحساب القذائف في الأسلحة النارية وتعليمات المدفعجي وتعليمات الرمي والهدف (التنشين). وتضمّن كذلك الجداول المتعلقة بهذه الأمور وتعليمات نامه المدفعجي والنظام نامه والقانون نامه وما شابه ذلك من المنشورات الرسمية. كما ضمن قائمة كاملة تشمل المؤلفات المطبوعة في موضوع المدفعية؛ 3 ـ أعياد مفاخر مليّة عثمانية دن عثمانلي ليغن أوروبا ده طرزي تأسس أو فتح جليل قسطنطينية [مكتبة جامعة استانبول، المخطوطات التركية، 5009، 859 V].

يعتبر واحدًا من أضخم المؤلفات التي كتبت باللغة العثمانية حتى ذلك الوقت في موضوع فتح استانبول. وطبع المجلد الأول من المؤلف في عام 1898؛ 4 ـ أم الفساد سم العباد، بر مشروب ممنوع خمر: عبارة عن مؤلف يتكون من المقالات التي نشرها في الجريدة الصوفية بعنوان «عُلويَات إسلام» والتي تتعلق بالخمر؛ 5 ـ فن صهر المدافع عند العثمانيين القدامى [إستنبول، بدون تاريخ]: هو عبارة عن رسالة منشورة قام بجمعها من مختلف أعداد مجلة المعلومات. كما أعطى حيزا فيها للصفحات من 362 إلى 374 من مؤلفه «المدفعية العثمانية»؛ 6 ـ المدفعيون العثمانيون (إستنبول 1893): تناول فيه التطورات التي حدثت عقب النظام الجديد في مجالات إنتاج المدافع عند العثمانيين والطوب خانه العامرة وعمل مصاهر المدافع الأخرى وأنواع المدافع وصنع الوحدات المدفعية، وكذلك المدفعية العثمانية القديمة ونظام نامه المدفعية، بالإضافة إلى التعليمات نامه والقوانين نامه التي تتعلق بها. وقام أحمد مختار باشا بجانب ما كتبه من مؤلفات، بإعطاء قائمة للكتب المطبوعة التي تتعلق بالمدفعية بعد التنظيمات؛ 7 ـ تاريخ الأسلحة ومدفعية مختلف الدول في الزمن الحاضر (إستنبول 1884): مؤلف يتناول فيه تاريخ الأسلحة النارية في أوروبا بصورة عامة وتاريخ المدفعية على وجه الخصوص. وتناول الدول الأوروبية كل واحدة على حدة، وأعطى معلومات تتعلق بالموضوع.

كتب أحمد مختار باشا مؤلفات كثيرة في مختلف المواضيع. ومؤلفاته الأخرى هي على النحو التالي:

8 ـ فن الجغرافيا «الجغرافيا الجديدة» (استانبول 1286هـ)؛ 9 ـ أطلس خاص لتدريس مدفعية الدول الأجنبية (1301هـ)؛ 10 ـ كليات فن الأسلحة [الترجمة التي قام بها مع شوقي باشا من فون دير نايمان، I، 1306هـ، II، 1314هـ]، وسع مجلده الأول وطبعه طبعة ثانية في عام 1314هـ؛ 11 ـ فن إندحت، فن الأسلحة الثقيلة، فن الرمي أو القذائف (I ـ II، 1307هـ)؛ 12 ـ القذافية الداخلية (استانبول، بدون تاريخ)؛ 13 ـ القذافية النظرية (استانبول، بدون تاريخ)؛ 14 ـ معلومات أساسية تدور حول فن الرمي من المدفعية أو ملخص القذافية [ترجمة من فلبرون، 1308هـ]؛ 15 ـ المدفعية النارية؛ 16 ـ البارود بدون دخان (أعده مع حسن تحسين، 1310هـ)؛ 17 ـ فن الرسم الرياضي (1310هـ)؛ 18 ـ معلومات مجملة تدور حول الطرق من تطبيقات فن الرسم الرياضي (1311هـ)؛ 19 ـ القواعد الأساسية والوسائط في معارك البحر والساحل أو مرشد الإنتصارات البحرية (1316هـ)؛ 20 ـ مرشد عمران (1316هـ)؛ 21 ـ ذيل مرشد عمران 1317هـ (I)؛ 22 ـ حل مسألة عسكرية مهمة في زماننا أو مدافع الصحراء النارية (1317هـ)؛ 23 ـ الأركان الحربية في أوروبا (1319هـ)؛ 24 ـ ألبوم المعارك العثمانية المشهورة (1323هـ)؛ 25 ـ الجيش العثماني في سين غوتار (1326هـ)؛ 26 ـ ألبوم المدافع الجبلية والصحراوية في العام الهجري 1315هـ

للجيوش الأوروبية (إستنبول 1895م)؛ 27 ـ خواص الأسلحة (استانبول، بدون تاريخ)؛ 28 ـ مختارات المختار أو مرشد خدمات المدفعجي (إستانبول 1894م)؛ 29 ـ تربية المدفعجي ومهمة الخدمات والوظائف في الحملة ومدفع هزر (استانبول، بدون تاريخ)؛ 30 ـ المتحف العسكري العثماني، نشر باللغة الفرنسية Musée Militaire Ottoman ,Guide؛ 31 ـ الحملة التركية ـ الروسية ومعاهدة أدرنة أو دروس للانتباه والعبرة في الحملات المفاجئة (أنقرة 1928م).

وبالإضافة إلى ذلك فهناك قسم من مؤلفه "فتح جليل قسطنطينية" جاهز للطباعة، وبقية الأقسام على وشك الانتهاء. ونجد من بين مؤلفات أحمد مختار باشا كذلك:

ـ العثمانيون أمام فيينا.

ـ التاريخ العسكري للدولة العثمانية.

ـ جولة في آسيا العثمانية.

ـ فن صناعة الخراطيش.

ـ أنوار الهداية أو العالم الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

المصادر والمراجع

● محمد أسعد، مرآة مهندس خانه بر همايون، إستنبول 1312، ص 230 ـ 231؛ ● إبراهيم علاء الدين قوصا، مشاهير الأتراك، إستنبول، بدون تاريخ، 257 ـ 258؛ ● عصمت برماكسيز أوغلي، مختار باشا، أحمد؛

- Turk Aksiklopedisi, XXIV, p. 398;
- Tulin Coruhlu, «Ahmed Muhtar Paia», (Ferik), Turkiye Diyanet Vakvi Islam Ansiklopedisi, II, p. 106-108; • Salim Ayduz, «Ahmed Muhtar Paia», (Ferik), Yaiamlari ve Yapitlauyla Osmanlilar Ansiklopedisi, I, Istanbul 1999, p. 138-139; • Ismail Kara, (Prep), Halifet Resaleleri II, Istanbul 2002, p. 26-31; 281-349;
- Al-Oraibi, Ali, Rationalism in the School of Bahrain: a Historical Perspective. in Shi'ite Heritage;
- Ed. L. Clarke. N. Y: Global Publications, 2001, 331-335;
- Al-Oraibi, Ali. Shi'i Renaissance: a Case Study of the Theosophical School of Bahrain in the 7th/13th Century, (Ph.D. Dissertation, McGill University, 1992), p. 39 - 45.

د. طوفان بوزبنار
جامعة الفاتح ـ إستنبول ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

الباشا، عبد الرحمان

(1342هـ/1923م - 1421هـ/1998م)

عرف عبد الرحمن الباشا روائياً تعليمياً من خلال كتابته للرواية التاريخية فقد أبدع في هذا المجال روايتين هما: «أرض البطولات» (1961)، و«الراية الثالثة» (1962)، ومما يجدر ذكره انتشار هاتين الروايتين والتقدير الكبير الذي لاقاه مؤلفهما بالنظر إلى موضوعهما الوطني وتعبيرهما عن منظومة قيمية قومية وإنسانية في صوغ روائي راقٍ وفوزهما بمسابقتي وزارة التربية والتعليم، فقد أقرت الروايتان ضمن المنهاج المدرسي لمادة اللغة العربية في الشهادتين الإعدادية والثانوية في الجمهورية العربية المتحدة إبان زمن الوحدة وفي الجمهورية العربية السورية حتى عام 1974.

ولد عبد الرحمن الباشا في أريحا (إدلب) عام 1923، ونال الدكتوراه في الأدب من جامعة القاهرة، وعمل مدرساً في سورية والسعودية. وعاد في العقدين الأخيرين من حياته إلى السعودية، وتوفي بها عام 1988.

من بين أعماله: «الراية الثالثة» رواية تاريخية، وتقرر تدريسها في الصف الثاني الثانوي منذ عام 1962، ومهد لها مؤلفها «بين يدي القصة» التي تناولت معركة ميسلون وملاحم النضال الوطني ضد الاستعمار الفرنسي؛ على أن معركة ميسلون ليست أول المعارك التي خاضها الشعب العربي السوري ضد الغزاة الفرنسيين، وليس الشهداء الذين سقطوا على ثراها المشبوب بأول الشهداء.

وما إن استبان للعرب نكول الحلفاء عن عهودهم التي بذلوها لهم في ساعات المحنة، وحسر الفرنسيون عن نياتهم التي بيّتوها لفصل الساحل السوري عن أمه دمشق حتى وقف الشيخ صالح العلي في ذرا جبال اللاذقية الشم، وهتف بالناس هتاف الحرية والمجد، فجاز صوتُه المزمنُ الحواجزَ، واخترق نداؤه العميق الحدود، ونفر إليه الكماة الأباة من أبناء الساحل والداخل، يعاهدونه على الجهاد، ويواثقونه الاستشهاد حتى يجلو آخر جندي عن سواحل الوطن، وتضم أشتاته إلى أشتاته، ودامت تلك الثورة ثلاث سنوات وبعض السنة، كانت تنتان منها تقريباً قبل ميسلون، وتتناول الرواية هذه الثورة وقائدها العظيم هو بطلها. وقد أخذ الباشا بالأمانة التاريخية، والتزم برعاية الفن القصصي، وحافظ على الواجب القومي لإشاعة قيم الكفاح الوطني ضد الاستعمار الأجنبي، واستند في كتابتها إلى المرجعية التاريخية مما كتبه العرب عنها، وما دونّه الفرنسيون من وثائق ومصادر، وأقام على أرض هذه الثورة فترة استعاد فيها ذكرى الوقائع وعلامات الأحداث وتفاصيل الفعل الثوري لهؤلاء الثوار، ووقف على جغرافيتها للإحاطة بفضاء الرواية الزمكاني. وعني بالإضافة إلى ذلك

كله باللغة، لأن الرواية بخاصة والأدب بعامة رسالة لغوية - برأيه - إلى جانب الرسالة الفكرية.

وأراد الباشا من كتابة هذه الرواية أن يعزز الطابع التعليمي والتربوي لدى الناشئة بأن يملأ عليهم حياتهم بقصص البطولات. وتلا تمهيده التعريف بالشيخ صالح العلي (1883 - 1950)، وأورد إلى جانب صورته الشخصية بيتاً من قصيدة الأخطل الصغير عنه:

شـرفـاً أعـز، ولا مـقـامـاً أكـبـر

تـعـب الـجـهـاد مـن الطـواف فـلـم يـجـد

ووضع خريطة أو مصوراً جغرافياً لميادين ثورة الشيخ صالح العلي، وتألفت الرواية من ثمانية وعشرين فصلاً التي تشرح وقائع الثورة وتطوراتها إرساء للقيم القومية والوطنية، وخصص الفصل الثامن والعشرين للقاء بين الشيخ العلي والجنرال الفرنسي الحاكم في اللاذقية الذي واجه فيه عدوان فرنسا بقوله:

«فقال الشيخ:

- نحن لم ندمر بيوتاً ولم نسفك دماء، وإنما أنتم الذين فعلتم ذلك كله، أنتم الذين حملتمونا على تضميد طعنات عدوانكم بضماد الثورة، وأنتم الذين دفعتمونا إلى معالجة جرحكم الكبير باستحداث جروح كثيرة، وستظل هذه الجراح تدمى حتى يجلو آخر جـنـدي مـن جـنـودكـم عـن أرض الـوطـن» (ص267 - 268).

وعالج عبد الرحمن الباشا في روايته «أرض البطولات» كفاح الشعب العربي السوري ضد الاحتلال الفرنسي منذ مواجهة الغزو في ميسلون عام 1920 حتى الاستقلال عام 1946. وتناولت مسيرة الكفاح من خلال أسرة مناضلة فقيرة مؤلفة من أبي عبادة وأم عبادة وطفلهما الذي رضع المقاومة باكراً عبادة.

وقد استشهد الآب في معركة، واستمرت أم عبادة في نضالها، والفتى عبادة يمضي في طريق المقاومة، إلى أن نجا من مجزرة «مجلس النواب»، وقد ربّته والدته، وتعلم حب الوطن مع نمو وعيه، ونال الشهادة الابتدائية، وانخرط في صفوف الثوار، وكانت الدروس الأولى هي مقاومة فرنسا بقوة السلاح حتى تخرج من البلاد، وحاز عبادة على الشهادة الثانوية، والتحق بصفوف المتطوعين المقاتلين عن الوطن. وكلف عبادة مع حشد من المقاومين بحماية مجلس النواب، وجُرح، وما إن شفي من جراحه حتى استمر في المقاومة التي توّجت بالجلاء عام 1946.

حملت الرواية طابعاً تربوياً لتعليم الناشئة حب الوطن والدفاع عنه، وعنيت بتنمية وعي الطفل المقاوم، وحفلت الرواية بالنصوص السياسية نحو إشاعة قيم الكفاح. ويلاحظ المتتبع لبناء الرواية ميلها إلى التسجيلية والوثائقية، فثمة معلومات تاريخية كثيرة تقرّبها من مفهوم الرواية التاريخية باعتماد الأحداث وبعض الشخصيات الوطنية غير أن جهد الروائي ظاهر في تخييله بناء على هذه الأحداث والأسماء. وصارت بعض الشخصيات إلى لبوس للمعاني الوطنية والقومية دون العناية بتاريخها الشخصي وتحليلها النفسي ومعتقداتها الخاصة، وغدت الأم فدائية مقاتلة تسعف المناضلين في أحايين كثيرة على خلاصهم من المحنة أو الضيق أو الحصار أو الأذى.

تألفت «أرض البطولات» من ثلاثين فصلاً، ووصف في الفصل الثلاثين ذيول ليلة العدوان على المجلس النيابي و«يقظة سورية تأهباً للقاء العدو، وقد كان موعده الصبح، وما كادت تبزغ الشمس حتى سرى في البلاد من أقصاها إلى أقصاها نبأ فتية المجلس فهبّ كل مواطن في كل بقعة من أرض الوطن، وفي عينه دمعة تترقرق، وفي قلبه لوعة تتلظى، وفي فؤاده حقد يتنزى، وبين جنبيه نار تحرق الأخضر واليابس. كان كل مواطن يعتقد أن عليه وحده أن يثأر للفتية الخمسة والثمانين كلهم، وأن عليه أن يثأر لهم بقسوة وعنف وضراوة، فهم قد قتلوا بقسوة وعنف وضراوة» [ص246 - 247].

وختم الرواية بيوم الجلاء وقول رتيبة عنه:

«ليت أبا عبادة كان حياً ليعلم أن الرصاصة الأولى التي أطلقت في ميسلون لم تذهب سدى. وأن الصخرة التي تفتت اليوم تشكو ضربة المعول الأول» [ص255].

لقد حرص الباشا على تحويل روايته إلى درس في الوطنية يعلّم الأجيال المتعاقبة معنى حرية الوطن واستقلاله سبيلاً لحرية المواطن وكرامته، فقد تفرد السرد الروائي عند الباشا بلغته الفصيحة وتألقها النثر المجازي والدلالي المشبع بالتناص مع الموروثات الأدبية والتاريخية والشعبية، ولا يخفى مدى التزامه العميق بتقاليد السرد الحكائي أيضاً، إذ بنى روايته ضمن مألوف الاعتبارات الفنية الخاصة بتنظيم المتن الحكائي من حيث الوصف ولوازم الفضاء الروائي زمانياً ومكانياً.

■ آثاره

1 ـ شعر الطرد، دراسة 1974؛ 2 ـ شعر الرجز العربي، دراسة 1978؛ 3 ـ الصيد عند العرب، دراسة 1974؛ 4 ـ صور من حياة التابعين، دراسة، جزآن 1984؛ 5 ـ القواعد لصفوف المرحلة الإعدادية، دمشق، وزارة التربية، 1963 ـ 1965؛ 6 ـ أرض البطولات، القاهرة، دار المعارف، 1961؛ 7 ـ الراية الثالثة، دمشق، وزارة التربية، 1964؛ 8 ـ صور من حياة الصحابة، عشر أجزاء، بيروت، دار النفائس، مؤسسة الرسالة، 1975؛ 9 ـ علي بن الجهم، حياته وشعره، القاهرة، دار المعارف، 1967؛ 10 ـ القراءة والنصوص الأدبية (بالاشتراك مع محمد خير أبو حرب)، دمشق، وزارة التربية، 1964؛ 11 ـ القراءة والنصوص الأدبية، (بالاشتراك محمد خير أبو حرب ونهاد عطار)، دمشق، وزارة التربية، 1959؛ 12 ـ قواعد اللغة العربية والإملاء (بالاشتراك مع جودة الركابي ونعيم الحمصي) دمشق، وزارة التربية، 1960؛ 13 ـ القراءة والنصوص الأدبية (بالاشتراك مع جودة الركابي ونعيم الحمصي). دمشق، وزارة التربية، 1958؛ 14 ـ صور من حياة الصحابة القراءة الإضافية، الرياض، وزارة المعارف، 1996؛ 15 ـ صور من حياة الصحابة، طبعة جديدة، ليماسول، القاهرة، دار الأدب الإسلامي، 1997؛ 16 ـ صور من حياة التابعين: 37 صورة، مزيدة ومنقحة، القاهرة، دار الذأدب الإسلامي، 1997؛ 17 ـ صور من حياة الصحابيات، بيروت،

دار الأدب الإسلامي، 1999؛ 18 ـ الطريق إلى الأندلس: لمحات وقطوف، دار الأدب الإسلامي، القاهرة 2000؛ 19 ـ نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1985؛ 20 ـ حدث في رمضان، دار الأدب الإسلامي، القاهرة 1999؛ 21 ـ الدين القيم، دار الأدب الإسلامي، القاهرة 1996؛ 22 ـ فن الدراسة، دار الأدب الإسلامي، القاهرة 1998؛ 23 ـ فن الامتحانات بين الطالب والمعلم، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، 1996.

المصادر والمراجع

● الباشا عبد الرحمن، الراية الثالثة، رواية تاريخية، مديرية الكتب المدرسية، وزارة التربية والتعليم، المطبعة التعاونية بدمشق، 1963؛ ● الباشا عبد الرحمن، أرض البطولات، دار المعارف، القاهرة 1961؛ ● أبو موسى أحمد، الطفل في النثر الفني السوري، دمشق 1987.

د. عبد الله أبو هيف
جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سورية

ابن باصة، أبو علي الحسين بن أبي جعفر

(ت 716هـ/1316م)

أبو علي الحسين بن أبي جعفر أحمد بن يوسف بن باصة (أو بن باصو) المتوفى بغرناطة عام 716هـ / 1316 م، كان ابن الخطيب قد قدم في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» شخصين يحملان اسم ابن باصة، فقال: «حسن بن محمد بن باصة، يكنّى أبا علي، ويعرف بالصعلعل، رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة، أصله من شرق الأندلس... كان فقيها إماما في علم الحساب والهيئة أخذ عنه الجلّة والنبهاء، قائما على الأطلال والرخائم والآلات الشعاعية، ماهرًا في التعديل مع التزام السنة والوقوف عندما حد العلماء في ذلك، مداوم النظر، ذا مستنبطات ومستدركات وتواليف، نسيج وحده، ووحيد وقته... توفي بغرناطة عام 716 هـ».

كما نجد أيضًا النص التالي في كتاب «الإحاطة» بخصوص الشخص الثاني الملقب بابن باصة، وكأن ابن باصة السابق الذكر هو والده: «أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة، أصله من شرق الأندلس وانتقل إليها والده، يكنى أبا جعفر... كان نسيج وحده وقريع دهره معرفة بالهيئة وإحكاما للآلة الفلكية، ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر والخبر، جمال خط،

واستواء صنعة، وصحة وضع. بلغ في ذلك درجة عالية ونال غاية بعيدة. . . وتغالي الناس في أثمانها، أخذ ذلك عن والده الشيخ المتفنن شيخ الجماعة في هذا الفن. . . وفاته في عام 709 هـ».

أما المؤرخان الإسبانيان خوان فيرني Vernet وخوليو سامسو Samso [تطورات العلم العربي في الأندلس ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج 1، ص 400] فيقولان: «كتب المدعو حسين بن أحمد بن باص (أو ماص) الإسلامي، عام 1274م رسالة طويلة حول اللوحة الشاملة، أي تلك التي تصلح لجميع خطوط العرض (الجميع العارض) والتي يمكن تصنيفها ضمن نمط صحيفة الزرقالي. . ويحتمل أن يكون هذا الفلكي هو نفسه حسن بن محمد بن باصو المتوفى عام 1316م الذي أصبح رئيس المؤقتين في جامع غرناطة الكبير. وكان ابنه حسن أيضًا مؤقتا في الجامع نفسه. ويمدح ابن الخطيب الأب والابن مشيدا بمهارتهما في صناعة الأدوات الفلكية وخاصة المزاول (الساعات الشمسية)». ويضيف المؤرخان: «إن هذه المعطيات هامة لسببين: السبب الأول هو كونها تشكل الشهادة الأولى على وجود المؤقتين في الجوامع الأندلسية. والسبب الثاني هو الإعجاب الذي يبديه ابن الخطيب بخصوص المزاول التي صنعها ابن باصو».

ويعبّر فيرني وسامسو عن دهشتهما من هذا الإعجاب نظرا لضعف صناعة هذا النوع من الأجهزة، حسب المعلومات المتوفرة لدى المؤرخين. لكنه من الجائز أن يكون القرنان 13 و 14 قد شهدا في غرناطة تجددا مُهمًا في دراسة علم المزاول وتطبيقاته في صناعة الساعات الشمسية. ذلك ما تشير إليه الدراسات التي أنجزت حديثا حول رسالة محمد بن إبراهيم بن الرقام الأوسي المرسي (ت 1315 م) في علم الظلال التي تبرز كفاءة الرياضيين والفلكيين العالية في دراسة الساعات الشمسية باستخدام طرق «تسطيح الكرة التي لم تكن معروفة من قبل في الأندلس».

وتشير المؤرخة الإسبانية إميليا كالفو Calvo التي نشرت سلسلة من الدراسات حول أعمال ابن باصة وترجمت وحققت بعضها، سيما رسالة الصفيحة الجامعة لكل العروض ورسالة الصفيحة المجيّبة ذات الأوتار، إنه لا شك أن صاحب هذه الأعمال هو أحد الشخصين اللذين أشار إليهما ابن الخطيب. لكن الباحثة كالفو لم ترجّح أحدهما عن الاخر.

[Calvo E. : Ibn Basso (Ibn Basuh), In Enciclopaedia de al-andalus, Diccionnario de autores y obras andalusies, Granada 2002, pp 599-601] ، بل إن المؤرخين لم يتفقوا بشأن التمييز بينهما، فهناك من يعتبرهما شخصين مختلفين مثل ما يعتقد سارتون [Sarton G: Introduction to the History of science, 3 vols, 5 Tomes. Baltimor, 1927 - 48]. بينما يؤكد آخرون مثل رينو [Renaud, Notes critiques d'histoire des sciences chez les musulmans, Les Ibn Baso, Hespéris, vol. 24, lère - 2ème trimestre 1937. pp 1-12] أن الأمر يتعلّق بنفس الشخص وأنّ الاختلاف الطفيف في التسمية حالة عادية في التاريخ العربي.

والواقع أن ابن باصة جاء بعد أحمد بن عبد الله حبش الحاسب المروزي البغدادي (الذي كان حيا عام 254هـ / 859 م)، وهو صاحب الصفيحة الأفاقية التي تعتبر بمثابة أسطرلاب لا يحتاج إلى تبديل صفائحه عند كل خط عرض، وهذا خلافا لما يحدث في استخدام الأسطرلابات الأخرى. ويرى المؤرخون أن صنع هذه الصفيحة يمثل بداية ظهور نوع جديد من الاسطرلابات الشاملة. كما أن العالم الأندلسي الطليطلي علي بن خلف الشكاز (ق 5هـ / 11م) سبق ابن باصة فوضع صفيحة، سماها الصفيحة الشكازية. وتتلخص فكرة هذه الصفيحة في كون الاسطرلابات العادية ترسم صفيحتها بتصور ضوء ينبعث من القطب الجنوبي ويسقط على خط الاستواء، بينما تتخيل في الصفيحة الشكازية أن ذلك الضوء ينطلق من نقطة الاعتدال الربيعي، مع العلم أن عملية الإسقاط لا تتم هنا بالطريقة السابقة.

ثمّ طوّر فلكي أندلسي آخر معاصر للشكاز، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش الأندلسي المعروف بابن الزرقالة (وعرفت لدى الأوروبين كذلك بنفس الاسم Saphea Azachelis. وتتميز هذه الصفيحة بكونها تؤدي معظم أعمال الرصد والقياس. وقد ألّف ابن الزرقالة أيضًا رسالة الزرقالة التي تحتوي على معلومات هامّة في صناعة واستخدام الصفيحة الزرقالة.

وبعد هؤلاء الفلكيين جاء ابن باصة فوضع صفيحته التي جمعت مميزات الصفائح التي سبقتها (الآفاقية والشكازية والزرقالية) وألّف رسالة الصفيحة الجامعة التي تعتبر بمثابة اسطرلاب صالح لجميع العروض. ويتّضح من هذا التأليف أن صاحبه كان ملما بأعمال سابقيه من الفلكيين العرب والمسلمين. وقد ضمّن ابن باصة رسالته انتقادات للصفيحة الزرقالية وعمل على تلافي عيوبها واجتهد في جعل صفيحته جامعة وشاملة. ومن المعلوم أن علماء كثيرين جاؤوا بعد ابن باصة وواصلوا تطوير هذه الآلة مثل الفلكي الحموي ابن السرّاج (ت حوالي 726هـ/ 1326م) الذي صنع أسطرلابًا متطوّرًا اعتمد فيه كثيرا على الصفيحة الشكازية.

وقد انتشرت الصفيحة الجامعة لابن باصة في أماكن كثيرة ورجع إليها صانعو الاسطرلابات في الشرق الإسلامي وغربه، ولا سيما في الأندلس وشمال إفريقيا، وامتدّ ذلك إلى باقي أوروبا بين القرنين 14 و 17م. وتتألف هذه الرسالة من 160 بابًا، ولها العديد من الملخصات [دار الكتب المصرية (مخطوط رقم 159)؛ المكتبة الوطنية بتونس (رقم 7810)؛ المكتبة البريطانية (رقم add 9600]. ولعل أهمّها مختصر نبذة لامعة فيما يتعلّق بالصفيحة الجامعة [مخطوط يحمل رقم 1009 في الخزانة بالرباط] الذي وضعه أبو الربيع سليمان بن أحمد الفشتالي، الفقيه المغربي (ت 1208هـ / 1794 م).

والملاحظ أن رسالة ابن باصة تصف الخطوط المنقوشة على الصفيحة الجامعة، كما تشرح كيفية استخدامها (كيفية تحديد زاوية السمت للشمس والنجوم وطريقة حساب دائرة خط الزوال الزاوي للشمس والنجوم وارتفاع الشمس في أوقات الصلاة وبداية الفجر وكيفية تحديد الجهات الأربع الرئيسية وزاوية

سمت القبلة). لكنه لم يوضح بنية الصفيحة ذاتها. وقد نسب الفشتالي هذه الصفيحة إلى أن ابن باصة الذي يقول عنه إنه كان أستاذا للزبير (قد يكون الاسم الكامل لهذا التلميذ هو الزبير بن جعفر بن الزبير صاحب كتاب تذكرة ذوي الألباب في استيفاء العمل بالإسطرلاب). ويبدو ابن باصة في رسالة الصفيحة الجامعة غير مكترث بدقة الأرقام وكأن مبتغاه الأول كان تعليميا فابتعد عن بعض التعقيدات الحسابية. أما رسالة الصفيحة المجيّبة ذات الأوتار فمهّد لها ابن باصة بمقدمة أشارت إلى العديد من المؤلفات السابقة، وضمّنها 59 بابًا تصف بوجه خاص الصفيحة المجّيبة التي تسهل الكثير من الحسابات المتعلقة بما يسمى بالفلك الكروي.

آثاره

1 ـ رسالة الصفيحة الجامعة لكل العروض (توجد مخطوطات منها في الأسكوريال رقم 961، منسوخة عام 863هـ / 1459 م، وفي الخزانة الملكية بالرباط، رقم 4288، منسوخة عام 1137هـ / 1725 م، والمكتبة الوطنية بتونس رقم 9215)؛ 2 ـ رسالة الصفيحة المجيّبة ذات الأوتار (مخطوطة منها في المكتبة الوطنية بتونس، رقم 5550، قدم في الصفحة 81 منها اسم الناسخ، وهو أبو الصغير بن الحي بن عبد الله محمد بن الحي بن الفضل قاسم، ودوّن أيضًا تاريخ النسخ، وهو 1305هـ / 1887م. كما كتب على صفحتها الأولى اسم المؤلف، وهو أبو علي حسين بن أبي جعفر بن يوسف بن باصو الأسلمي).

المصادر والمراجع

• ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 1، القاهرة، 1973؛ • فيرني خوان وسامسو خوليو، تطورات العلم العربي في الأندلس ضمن موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج 1، تحت إشراف رشدي راشد، مركز دراسات الوحدة العربية ومؤسسة عبد الحميد شومان، 1997؛ • قاري لطف الله، الفلك العربي بعد القرن 6هـ/ 12م، الملتقى المغاربي السادس حول تاريخ الرياضيات العربية، المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر، 20 ـ 22 نوفمبر 2000؛

- Calvo, E.: Les échos de l'œuvre d'Ibn Baso en Afrique du nord, Actes du 7ème Colloque universitaire tuniso-espagnol sur le patrimoine andalous dans la culture arabe et espagnole, Tunis, 1991, pp.65-79 .
- Calvo, E.: Ibn Baso's universal plate and its influence in European astronomy, Scientiarum Historia, 10, 1992, pp. 61-79.
- Calvo, E.: Risalat al-Safifa al yamía li-yami'al-urud (Tratado sobre la lmina gral. para todas las latitudes), Abu Ali Al-Husayn Ibn Baso, Edicion critica, traduccion y estudio, Fuentes Arbico-Hispanas, 1993.
- Calvo, E.: On the construction of

- Renaud, H.P.J.: "Notes critiques d'Histoire des sciences chez les musulmans, Les Ibn Baso" Hespéris, 24, 1937, PP. 1-12.
- Renaud, H.P.J.: Quelques constructeurs d'Astrolabes en Occident musulman, Isis, 34, 1942, pp. 20-23.
- Samso, J.: Nota acerca de cinco manuscritos sobre astrolabio, Al-Andalus, 31, 1966, pp. 385-392.
- Samso, J.: A propos de quelques manuscrits astronomiques des bibliothèques de Tunis, Contribution une étude de l'astrolabe dans l'Espagne musulmane, Actas del II Coloquio Hispano-Tunecino, Madrid, 1973, pp.171-190.
- Sarton, G.: Introduction to the History of Science, Baltimore, 1927-1948.
- Suter, H.: Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke, Abhandlungen zur Geschichte der Mathematischen Wissenschaften, 10, Leipzig, 1900.
- Vernet, J.: Lo que Europa debe al Islam de España, Barcelona, 1999.

أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة - الجزائر

Ibn Baso's universal astrolabe (14th C.) according to a moroccan astronomer of the 18th Century, Journal for the History of Arabic Science, 10, 1994, pp. 53-67.
- Calvo, E.:Ibn Baso's astrolabe in the Maghrib and the East, From Baghdad to Barcelona, Studies in the islamic exact sciences in honour of prof. Juan Vernet, Barcelona, 1996, pp. 755-767.
- Calvo, E.: A study of the use of Ibn Baso's universal astrolabe plate, Archives Internationales d'Histoire des sciences, Instituto della enciclopedia italiana, 50, 145, 2000, pp.264-295.
- Calvo, E.:Transformation of coordinates in Ibn Baso's "al-Risala fi al-safiha al-mujayyaba dhat al-awtar, Journal for the History of Arabic Science, 12, 1 & 2, 2001, pp.3-21.
- Calvo, E.: Ibn Basso's (Ibn Basuh), In Enciclopaedia de al- Andalus, Diccionnario de autores y obra andalusies, Granada, 2002, pp. 599-601.
- Dodds, G.D.: Ahmad ibn Baso, Macmillan Encyclopaedia of architects, New york, 1982.
- Renaud, H.P.J.: Additions et corrections Suter, Isis, 18, 1932, pp. 166-183.

بافضل، أبو العباس سالم فضل

(ت 581 هـ/ 1185م)

العلامة الإمام سالم فضل بافضل، ينتهي نسبه إلى سعد العشيرة بن مذبح، ولد في تريم بحضرموت [الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص 193].

وأما تاريخ ميلاده فلم نجده محددًا في شيء من التواريخ، ولكن يقال إنه آخر عصر الإمام الغزالي صاحب الأحياء، وكانت وفاة الإمام الغزالي سنة 505هـ/ 1111م [محمد بن عوض بافضل، صلة الأهل في مناقب آل أبي فضل، ص 42؛ صالح بن علي بافضل، من كتاب المنظومة اللؤلؤية، ص 9].

يُعدّ من العلماء البارزين والفقهاء المشهورين في حضرموت عامة وتريم خاصة، تلقى العلم عن كثير من علماء عصره منهم والده الشيخ فضل، والعلاّمة الإمام محمد بن علوي باعلوي وغيرهم في حضرموت، وعندما ارتحل إلى الحرمين الشريفين أخذ عن العديد من علمائها، وكذا قيل أخذ عن الشيخ عبد القادر الجيلاني لأن الشيخ سالم بافضل دخل العراق في عصر الجيلاني ووقت ظهوره [صلة الأهل، ص 41؛ باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص 118؛ علوي بن محمد بلفقيه، في أعقاب البُضعة المحمدية الطاهرة، ص 99].

هاجر الشيخ سالم بافضل إلى عدة أقطار خارج حضرموت منها أرض الحرمين الشريفين والعراق لطلب العلم والتوسع في العلوم الشرعية والعقلية والعربية، ومن أجل ذلك غاب عن وطنه حضرموت مدة طويلة قدّرت بأربعين عامًا، حتى ظنّ أهله أنه قد مات. ولكنه عاد إلى وطنه حضرموت (تريم) وكرّس جميع جهوده للتدريس ونشر العلم فانتفع به خلق كثير حتّى أنه اجتمع في عصره بتريم نحو ثلاثمائة مُفت بينهم جماعة كبيرة تشتغل بالتأليف كالإمام علي بن أحمد بامروان، والإمام عبد الله بن أبي عبيد زكريا، والقاضي أحمد باعيسى، والإمام محمد بن أحمد بن أبي الحب وأضرابهم [صلة الأهل، ص 42؛ الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص 118؛ في أعقاب البضعة المحمدية الطاهرة، ص 99؛ السقاف، معجم بلدان حضرموت، ص 492].

أسس الشيخ سالم زاوية لطلاب العلم - بمثابة معهد ديني - لا زالت معمورة إلى الآن تعقد فيها الدروس العلمية الفقهية، ومعظم علماء تريم وحضرموت تلقّوا العلم فيها، وتخرّج على يديه علماء ومصنفون كثيرون، وقيل تخرّج بالشيخ سالم حوالي ألف طالب علم [أدوار التاريخ الحضرمي، ص 194؛ في أعقاب البُضعة المحمديّة الطاهرة، ص 99].

ووصفه الكثير من الأئمة بحضرموت، ومنهم الإمام الشيخ علي بن أبي بكر باعلوي والإمام الشيخ عبد الرحمن بن علي باعلوي، والشيخ

عبد الرحمن الخطيب بقولهم: إن الإمام سالم بافضل إمام الأئمة، وأنه من كبار الأئمة المعتمدين والعلماء المدققين والنظّار الأصليين والمحدثين البارعين [صلة الأهل، ص 44، 45؛ المنظومة اللؤلؤية، ص 10، 11؛ في أعقاب البُضعة المحمّدية الطاهرة، ص 99].

والشيخ سالم إلى جانب ما تقدّم نجده أديبًا فيلسوفًا في شعره ونثره الذي يشهد له بغزارة علمه وسعة اطلاعه، كما يدلّ ذلك على مقدرته الأدبية وتمكّنه من اللّغة، بل تضمن ذلك وصايا وحكمًا نافعة، وتحدّث كذلك فيها عن الفلك، ووصف فيها عناصر الطبيعة من جماد وماء ونار ومعدن ونبات وحيوان وأثمار وبحار وغيرها، وكذا ذكر الإنسان ومزاجه وخلقه وغرائبه ووظائف أعضائه [صلة الأهل، 49 ـ 58؛ الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص 119؛ أدوار التاريخ الحضرمي، ص194 ـ 197].

نسب إلى هذا الإمام بناء مسجدين في تريم ولا تزال معمورة بالصلاة والذكر، وكذلك زاوية معمورة بالتدريس فيها إلى يومنا هذا [معجم بلدان حضرموت، ص 501؛ المنظومة اللؤلؤية، ص 12].

وكانت وفاته في سنة 581هـ ودفن في مقبرة الفريط بمدينة تريم [صلة الأهل، ص 45؛ معجم بلدان حضرموت، ص 492، 493؛ في أعقاب البُضعة المحمدية الطاهرة، ص 99؛ أدوار التاريخ الحضرمي، ص 199].

آثاره

له مصنفات كثيرة في التفسير (مخطوطة)، وقد ضاع بعضها: 1 ـ أقواله التوضيحية والممجّدة لمناسك الحج، فقه؛ 2 ـ مقتطفات من كلامه ووصاياه في مواضيع فقهية ودينية في كتاب صله الأهل بتدوين مناقب آل أبي فضل (مخطوط)؛ 3 ـ له رسائل ووصايا نافعة في السلوك والتصوف والعبادة (مخطوط)؛ 4 ـ المنظومة اللؤلؤية، وهي التي تشهد بغزارة علمه، وتدلّ على مقدرته الأدبية وتمكّنه من اللغة (مطبوع).

المصادر والمراجع

● بافضل، الشيخ محمد بن عوض، صلة الأهل في تدوين مناقب آل أبي فضل، مخطوط تمّ طبعه على شكل كتاب، لا دار نشر، د.ت؛ ● السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تح. إبراهيم المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، مكتبة الإرشاد، صنعاء 2002م؛ ● الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، الطبعة الثانية، عالم المعرفة للنشر، جدة 1983م؛ ● باوزير، سعيد عوض، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، دار الطباعة الحديثة، مصر 1961م؛ ● بلفقيه، علوي بن محمد، في أعقاب البُضعة المحمّدية الطاهرة، ج 1، ط 1، دار المهاجر، المدينة المنورة 1994؛ ● مقدمة صالح بن علي بافضل، من كتاب المنظومة اللؤلؤية، لسالم بن فضل بافضل، ط 1، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان 1966م.

محمد بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

ابن باق، علي بن علي

(ق7هـ/13م)

هو علي بن محمد بن عالي بن باق، لم نقع له على ترجمة فيما بين أيدينا من معاجم الرجال الأندلسية. وما نسوقه هنا من معلومات عن شخصيته استخلصناه من أثره الوحيد الذي عرفناه له، وهو كتابه "زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض". ففيما يتعلق بما كان تلقى عن شيوخه من معارف وعلوم يمكن القول بأن الغالب عليه منها كان المعرفة الفقهية. وقد كان حصَّل حظا منها . إن لم يكن استوفى متونها ونصوصها المالكية . على يد شيوخ العلم المنتصبين لتدريس مدوناته وأصوله والمعنيين بالفرائض منهم خاصة، ثم أتيح له أن يرحل إلى المشرق - على ما يستفاد من إشارة، خاطفة في كتابه - وهناك جعل يختلف، شأن بلدييه من المشتغلين بالطلب والتحصيل على حلق العلماء ومجالس الفقهاء يسمع منهم ويقيد.

وقد تمثلت ثقافة ابن باق الفقهية التي أخذها عن شيوخه الأندلسيين والمشرقيين في معرفته بالأمهات والأصول الفقهية التي كان يفيد منها في تأليف كتابه "زهرة الروض" مثل "المدونة"، و"الإشراف" لابن المنذر، و"المقنع" لابن جماعة، و"الأحكام" لابن أبي زمنين، و"الجواهر الثمينة" لابن شاش، وكتب القاضي عياض، وابن رشد، وابن القطان وغيرهم.

كما تمثلت ثقافة ابن باق الفقهية فيما أبداه في كتابه من مقدرة على الترجيح بين أقوال الفقهاء أو النص على مخالفتها لنصوص أهل العلم؛ بل إن هذه الثقافة الفقهية التي كان ابن باق يتوفر عليها انعكست عنده في إجراءات تطبيقية دعته إليها طبيعة عمله كفارض، ومثال ذلك صنعه المد الشرعي.

ولا شك أن تقدم ابن باق في مجال الفقه، واشتهاره بالبراعة في الفرائض خاصة هو ما رشحه لأن يحتل مكانته بين فقهاء مدينة المرية المرموقين وفرضيبها الذين يتولون الخطط الشرعية من قضاء، وعقد شروط وإفتاء، وحسبة، ونظر في الفرض. وقد شغل ابن باق هذه الخطة الأخيرة بتكليف من ولي الأمر في المرية. ولا شك أن اختياره اشتغال هذا المنصب الشرعي يدل على ممارسته الأحكام ومحانكته الشهادة والتوثيق. كما يدل توليه الخطة المذكورة على معرفته بالحساب وهو ما كان يشترط فيمن ينتصب للنظر في الفرض من العدول.

وقد أدرك الذين عاصروا ابن باق أو قرأوا كتابه "زهرة الروض" في حياته أو بعد موته سعة معرفته بأقضية الفقه ومسائله ومقدرته على إعمال النظر والاستنباط والاختيار فحلوا اسمه بـ "الشيخ، الفقيه، العالم، المجتهد".

وتجدر الإشارة، بعد هذا، إلى أن ابن باق المترجم له عند ابن الخطيب في الإحاطة، واسمه محمد بن إبراهيم بن علي بن باق

الأموي، ليس هو مؤلف «زهرة الروض» كما قد يتوهم. ويترجح ذلك عندنا لما يلي:
أولا: اختلاف الاسمين والكنيتين، فمؤلف «زهرة الروض» اسمه علي، وكنيته أبو الحسن كما في النسخ التي وقعت لنا من كتابه. أما المترجم به عند ابن الخطيب فاسمه محمد وكنيته أبو عبدالله.
ثانيا: تباين الاهتمامات العلمية عند الرجلين، فمؤلف «زهرة الروض» كان الغالب عليه الاشتغال بالفقه ومعالجة أقضيته نظرًا وتطبيقًا. أما المترجم به عند ابن الخطيب فهو أديب شاعر.
ثالثا: يضاف إلى ذلك كون مؤلفنا مري الاستيطان، في حين أن المترجم عند ابن الخطيب مالقي الإسكان على أنه من غير المستبعد، بالنظر إلى التشابه في سلسلة النسب بين الرجلين، والتطابق في النسبة الأموية والانتساب إلى الجد الأعلى المسمى بـ «ابن باق»، أن يكون المترجم به عند ابن الخطيب والد مؤلف «زهرة الروض».
وإذا صح هذا الافتراض فإنه سيسعفنا، من جهة، في تحديد الفترة التي عاش فيها مؤلفنا على وجه التقريب، ومن جهة ثانية، على ربط ما ورد في الكتاب من إشارات اجتماعية واقتصادية بإطارها الزمني. فإذا عرفنا أن وفاة أبي عبدالله بن باق كانت عام 652 للهجرة فقد يكون لنا أن نقدر أن مؤلفنا عاش في النصف الأول من القرن السابع وعقود من القرن الثامن، يعضد هذا التقدير أن نقوله معزوة إلى فقهاء عاشوا قبل هذه الفترة، ربما يكون من أقربهم زمانًا إلى عصره الذي قدرنا، الفقيه المالقي المعروف أبو محمد عبد الواحد بن سداد الباهلي المتوفى عام 715 للهجرة.

آثاره

لابن باق - كما أشرنا في البداية - أثر وحيد هو «زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض». موضوع هذا الكتاب وجوه من النفقات اصطلح على تسميتها بـ «الفرض» ويراد به ما يحدد من أنواع النفقة لبعض أفراد المجتمع مثل الزوجات والأولاد الذين اقتضت ظروفهم ذلك. ومعنى هذا أن موضوع الكتاب موضوع فقهي، واجتماعيا بأن شأنه شأن الموضوعات التي تدور عليها كتب الشروط والمسائل والأحكام، فهذه جميعها تمس من خلال الموضوع الفقهي حياة الناس في مختلف شؤونها ومظاهرها خاصة وعامة. وفي كتاب «زهرة الروض» تطالعنا إشارات تضمنتها فصول الكتاب هي على قلتها ذات فائدة محققة في التعرف على عادات اجتماعية ومظاهر اقتصادية كانت تعرفها حياة الناس في مدينة المرية على عصر المؤلف.
أما الباعث لابن باق على تأليف كتابه المذكور فقد كان إسناد مهمة النظر إلى صاحبه في تقدير الفرض بالمرية. وقد ضمن ابن باق مقدمة كتابه الإشارة إلى ذلك وإلى انتفاعه في تأليف بما كتبه الفقهاء من قبله في الموضوع إذ قال: «وبعد فإنه لما أسند إلي النظر في تقدير الفرض بمدينة المرية - حرسها الله تعالى - استقصيت البحث والنظر مما ذكره أئمة العلم في ذلك، وقيدته هنا على جهة التذكرة، مستعينا بالله ومعتمدا عليه». ثم أردف بالإشارة إلى بنية الكتاب وتسميته، فقال: رتبته على عشرة فصول ومقدمة في النمد الذي ذكر أئمة العلم وتوزيع الفرض به وسميته «زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض».

وفي مقدمة الكتاب أدار ابن باق الكلام حول المد وصفته وما يتركب منه وما يتعلق به. وعالج في الفصول العشرة التي تألف منه كتابه الجوانب المختلفة لموضوع النفقة مستوعبًا القول في موجبات النفقة ومقاديرها وأزمانها ومراتب الفروض وتقديرها في الطعام والإدام والكسوة والسكنى والإخدام. وهذه عناوين فصول الكتاب:

1 ـ الفصل الأول في هدية العروض وما يتعلق بالنفقات على اختلافها؛ 2 ـ الفصل الثاني في الموازاة؛ 3 ـ الفصل الثالث في زمان النفقة؛ 4 ـ الفصل الرابع في تقدير النفقة؛ 5 ـ الفصل الخامس في الطعام وتقديره؛ 6 ـ الفصل السادس في تبيين مراتب الفروض وتقديرها على حسب أعوام المولودين بالتدرج إلى عشرة أعوام وهي أقصاها؛ 7 ـ الفصل السابع في فرض الإدام؛ 8 ـ الفصل الثامن في فرض الكسوة؛ 9 ـ الفصل التاسع في فرض السكنى؛ 10 ـ الفصل العاشر في فرض الإخدام.

وقد أفاد ابن باق في تحرير فصول كتابه من مصدرين اثنين: أولهما نظري: وتمثل في المادة الفقهية المتعلقة بموضوع الكتاب والتي استقاها مما كتبه مشاهير الفقهاء أمثال ابن عبد البر، ابن أبي زمنين، وابن عطية من الأندلسيين، والقاضي عياض، وأبي الحسن المهدوي، وابن القطان من المغاربة، وابن شاش، وابن المنذر النيسابوري، ويحيى بن النعمان الغفاري من المشارقة؛ وثانيهما ميداني وتمثل في حالات وقائع محددة في مجتمع المرية عايشها وخبر ظروفها وملابساتها من موقع مسؤوليته على شؤون الفرض في المدين.

المصادر والمراجع

- كتاب «زهرة الروض في تلخيص تقدير الفرض» لأبي الحسن علي بن باق؛
- إشارات اجتماعية واقتصادية حول مدينة المرية من خلال مصدر فقهي ضمن كتابنا، أبحاث أندلسية ص 41 ـ 60.

د. حسن الوراكلي
جامعة الإمام محمد ـ مكة المكرمة

باقر آغاه، ابن المرتضى المدراسي

(1120هـ / 1745م ـ 1181 هـ/ 1805 م)

العلامة باقر بن المرتضى المدراسي المعروف في حلقة مريديه ومحبيه بـ«باقر آغاه»، أي باقر العالم. انحدرت سلالته من طبقة كانت مهنتها صيد الأسماك والملاحة ومن ثمة كان الناس يطلقون عليها كلمة «النوائب» أو النوائط أي الملاحون [رضوان علي الندوي، اللغة العربية في شبه القارة الهندية، ص 322]. وبالرغم من انتمائه إلى هذه الطبقة الكادحة كان باقر منذ طفولته المبكرة ميالا إلى دراسة

العلوم والفنون والآداب. وقد بلغ شأوها في حين لم يناهز عمره عشرين سنة.

ولد باقر في عام 1120هـ / 1745م بقرية إيلور الكائنة في أقصى جنوب الهند [جميل جالبي، تاريخ أدب أوردو، ج 2، ص 1010]، ونشأ وترعرع في نفس القرية وتتلمذ أولا على عمّه وتلقى منه الدروس الابتدائية للعلوم الإسلامية واللغة العربية؛ ثمّ استفاد بعديد من الأدباء والعلماء المتواجدين في قريته، أو في المناطق التي تجاورها. ومن بينهم أبو الحسن قربى بيجابوري الويلوري، والشيخ ولي الله الذي كان يدرس الطلاب في مدينة «ترجنابلي» فكان العلامة باقر يحضر دروسه ومجالسه لإرواء عطشه العلمي وسرعان ما أصبح متمكنا من الخوض في مفاهيم الكتب الأساسية والدواوين لفحول الشعراء العرب، وبعد ذلك عكف على مطالعة الكتب مباشرة دون التقيد بالكتب المقررة للمناهج التعليمية.

وفي هذه المرحلة من حياته اختار للمطالعة كتبا تنطوي على مباحث الحديث، والفقه، والتفسير، وعلم الكلام، والمنطق، والأدب. وبما أنه كان قوي الذاكرة سريع الحفظ ووقاد القريحة فكل ما كان يقرؤه من المواد العلمية والأدبية كان يستخدمها في تأليف الكتب وإجراء المناظرة والمناقشة مع أصحاب الفئات الدينية المختلفة، وفي أكثر الأحيان كان يتغلّب على معارضيه بأدلّته الدامغة وبراهينه القاطعة. ولإفحام خصومه نقل عديدا من الكتب العربية إلى اللغات المحلية [عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر، ج 7، ص 105]، وبالأخص الأردية لأنها كانت تحظى برعاية الحكومة في تلك الفترة من الزمن. وكانت مدينة مدراس والمناطق المجاورة تحت سيادة الأمير الكبير نواب محمد علي الكوباموي الذي كان يقدر ويستحسن جهود العلماء والأدباء فكان يهيّىء لهم جميع التسهيلات والحوافز اعترافا بخدماتهم في سبيل الإسلام واللغة العربية، ومن هذا المنطلق أغدق على العلامة باقر نعمًا وافرة وعيّنه رئيسا لديوان الإنشاء الأميري فانتهز العلامة هذه الفرصة وأنفق أموالاً طائلة على تحصيل الكتب وجمع المخطوطات وعلى طباعة مؤلفاته ورسائله التي زادته منزلة عند الأمير الذي بدأ يتشاور معه في أكثر القضايا الدينية والاجتماعية والسياسية، ووضع نجله تحت رعايته وتربيته، وفوق كل ذلك أعطاه إقطاعية بمنطقة «التور» التي كان إيرادها أربعة آلاف ومائتي روبية في السنة [المرجع السابق، ج 7، ص 105]. فبفضل هذه العطايا والنعم عاش العلامة باقر في بحبوحة من الترف والرخاء، ولكن لا يعني ذلك أنه بذّر ثرواته في طلب المعاصي والملذات، بل أنفقها على شراء أو طباعة الكتب، وإن لم يكن الأمر كذلك لما أمكنه له أن يؤلف أكثر من ثلاثمائة كتاب في العربية والفارسية والأردية [arabic, Arwi and Persian in Saradip and Tamil Nadu by Shuabs Alam p.533]، ويتعلّم ويجيد أكثر من ست لغات ومنها التاملية، والتلغوية، والسنسكريتية، ما عدا اللغات الثلاث المذكورة سالفا. ولم يدرس ويتقن العلامة هذه اللغات الا لخدمة الدين الحنيف ولإبلاغ رسالة ربه إلى سكان هذه البقعة من الأرض، فكلما وجد خلافا للشريعة الإسلامية رد عليه

بشدة وفنّده بآرائه المدعمة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

وكان العلامة في الحقيقة غيور الطبع وذا حساسية مفرطة فلم يكن يتردد مطلقا في استخدام لسانه وقلمه للذود عن حياض الدين الإسلامي، ولم تكن معاركه العلمية والدينية ضد الكفار والمشركين فحسب بل ضد الفرق المختلفة للمسلمين أيضا، كان يجادل أحيانا ويناظر أعداء الإسلام والمسلمين بطلاقة لسانه، وكان يقضي ساعاته في تأليف الكتب والأبحاث دفاعا عن الأمة الإسلامية وقضاياها الدينية والاعتقادية وغير ذلك.

وعلى أية حال فإن مجهوداته هذه تبرهن على نبوغه وتفوقه في أكثر ميادين العلم والمعرفة والأدب وكل من يلقي نظرة عابرة على إنتاجاته العلمية والأدبية يتعجب كيف أصبح ممكنا لفرد واحد أن يأتي بمثل هذه الآثار الجليلة الضخمة، ولو قمنا بإعداد فهارس لكتاباته الموجودة في اللغات المختلفة فسيكون من الصعب حصرها واستيعابها اذ إنه خلف لنا أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة في العربية، والفارسية، والأردية، والتاملية. وفيما يتعلّق بمؤلفاته العربية فقد ترك كتبا يَرْبُو عددها على خمسة وعشرين متنوّعة الموضوعات من الأدب إلى الشعر والدين، والثقافة، والمنطق، والفلسفة، والتصوف، وما إلى ذلك.

آثاره

1 - الدر النفيس في شرح قول محمد بن إدريس؛ 2 - القول المبين في ذراري المشركين؛ 3 - تنوير البصر والبصير في الصلاة على النبي؛ 4 - نفائس المعجزات في إرساله عليه السلام الى جميع الكائنات؛ 5 - النفحة العنبرية في مدح خير البشرية؛ 6 - ديوان شعر في مدح النبي؛ 7 - العشرة الكاملة وهي مجموعة عشر قصائد على غرار المعلقات السبع؛ 8 - ديوان يشتمل على قصائد الغزل والنسيب؛ 9 - شمائم الشمائل في نظام الرسائل؛ 10 - مجموعة المقامات على طراز مقامات الحريري، والهمداني، ومن هذه المقامات أخص بالذكر المقامة الحيدرآبادية، والمقامة الويلورية، والمقامة الترشنافلية، والمقامة الآركاتية، والخطفة العقابية للفأرة المسكينة، والشمامة الكافورية في وصف المعاهد الويلورية.

ونستشف من عناوين آثار العلامة باقر أنه كان أديبا بارعا وشاعرًا فذًّا له دواوين في الشعر العربي الى جانب المقامات والمؤلفات النثرية الأخرى.

وفيما يتعلّق بقصائده فهي تنم على أن صاحبها متعمق في تراث الشعر العربي، وبوجه أخص الشعر الجاهلي، وذلك لأن العلامة باقر كان غربل مصادر الأدب الجاهلي بحذافيره لكي يفهم ويستوعب معاني الآيات القرآنية في سياقها اللغوي والأدبي، ولا مراء أن جهوده في هذا المضمار أتت أكلها وهيّأت لقريحته المرهفة مواد جاهزة للإنتاج الشعري، ونلاحظ هذه الحقيقة في أكثر قصائده التي تزخر بالكلمات والتراكيب وأسماء الأماكن الواردة في الشعر الجاهلي.

د. محمد أسلم إصلاحي
جامعة جواهر لال نهرو
دلهي الجديدة ـ الهند

الباقر، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين

(56هـ/676م ـ 114هـ/732م)

محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو جعفر الملقّب بالباقر، الهاشمي المدني.

كان عالما ثقة وسيّدا كبيرا [ابن خلكان، وفيات، 4/ 174] له مشاركة قويّة في الحديث والفقه والتفسير والوعظ. وهو خامس الأئمّة الاثني عشر الذين تبجّلهم الشيعة الإمامية وتعتقد في عصمتهم [رجال النجاشي، طبعة الهند، 1317، ص 277] وفي معرفتهم بجميع الدين [الذهبي، السير، 5/ 342].

وُلد بالمدينة في تاريخ تختلف المصادر كثيرا في تقديره، فابن خلكان يذكر أنه ولد يوم الثلاثاء ثالث صفر سنة 57هـ [الوفيات، 4/ 174] ولكنه لم يفصح عن مصدره في ذلك. وأورد ابن حجر عدّة تواريخ احتمالية لمولده استنتاجا من بعض الأخبار الخاصّة بوالده زين العابدين، منها أنه ازداد سنة 45هـ، ولكنه ضعّف هذه الرواية لتفرّد الواقدي بالخبر الذي اقتضاها. وذكر أيضًا أنه ولد سنة 60هـ، ولكنّه رجّح أنّ التاريخ الأوفق لذلك هو سنة 56هـ، اعتمادا على رواية ابن عيينة. وتتضمّن أن جعفر بن محمد حدّث أنّ والده مات سنة 114 هـ، عن ثمان وخمسين سنة [تهذيب التهذيب، 9/ 351]. ولم يجزم أحد من أصحاب كتب الرجال بهذا التاريخ قبل ابن حجر.

هو سليل بيت النبوّة، تربّى في وسط علمي وديني متميّز، فوالده علي كان يلقب بزين العابدين لفرط عبادته واشتهاره بالورع، امتدح تلميذه الزهري علمه بأنّه ما رأى أحدا أفقه منه [الذهبي، التذكرة، 1/ 76]. وابنا خالة أبيه: القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق الذي تزوّج الباقر ابنته أمّ فروة [ابن سعد، طبقات، 5/ 320]، وسالم بن عبد الله بن عمر كانا من فقهاء المدينة وأئمّتها وقتئذ [ابن العماد، الشذرات، 1/ 105] ووالدته: أم عبد الله كريمة الحسن السبط معدن الفضل والصلاح.

نشأ بالمدينة دار السنّة ومثابة الصحابة ومستراد العلماء، وعاش القسم الأخير من حياته بقرية الحميمة بالشراة بناحية البلقاء من أرض الشام. ضمّت مشيخة أعلاما ثقاة كان لهم دورهم البارز في التاريخ الثقافي للإسلام وفيهم العديد من الصحابة كجابر بن عبد الله الأنصاري (ت بعد 70هـ) أحد المكثرين من الرواية إلى الرسول، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ت 80هـ)، وعبد الله بن عباس حبر الأمّة وترجمان القرآن (ت 68هـ)، وممّن ذكروا في قائمة شيوخه أيضًا: أنس بن مالك، وعبد الله بن عمر، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وسمرة بن جندب، وعائشة، وأم سلمة. والأظهر أنّ روايته عن جميع من سمّي هنا من الصحابة ما عدا الثلاثة الأوّل مرسلة [ابن حجر، التهذيب، 9/ 351].

ومن أعيان من تلقّى عنهم من التابعين: والده علي بن الحسين (ت 93هـ) وكان ثقة مأمونا وكان كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا [ابن سعد، 5/ 222]؛ وسعيد بن المسيّب بن حزن المخزومي رأس فقهاء المدينة وأوسع التابعين علما (ت بعد 90هـ)؛ وعبيد الله بن أبي رافع المدني كاتب علي بن أبي طالب؛ وعطاء بن يسار الهلالي صاحب المواعظ (ت 94هـ)؛ ويزيد بن هرمز المدني مولى بني ليث (ت 100هـ).

وعامّة من أخذ عنهم وتأثّر بهم هم من رجال مدرسة المدينة ممّن برعوا في الرواية والفقه والتفسير. وبلغت درجته في العلم أن لقب بالباقر من قولهم: بقر العلم يعني شقّه فعلم أصله وخفيّه وتوسّع فيه [الذهبي، التذكرة، 1/ 125]، وفيه قيل:

يا باقر العلم لأهل التقى
وخير من لبّى على الأجبل

[ابن خلكان، الوفيات، 4/ 174]. وصفه الذهبي بالإمام الثبت أحد الأعلام [التذكرة، 1/ 124]. وقال عنه عبد الله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم علما عنده [ابن العماد، الشذرات، 1/ 149].

اشتهر كأبيه بالنسك والعبادة والصلاح، حتّى قيل إنه كان يصلّي كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة [سير الأعلام، 5/ 343] وصوّر محمد بن المنكدر خلقه وورعه فقال: ما رأيت أحدا يفضل على عليّ بن الحسين حتّى رأيت ابنه محمدا أردت أن أعظه فوعظني [ابن حجر، التهذيب، 9/ 353]. وامتدحه الذهبي بأنّه أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدد والشرف والثقة والرزانة وكان أهلا لتولي الخلافة [سير الأعلام، 5342] وأنه سيّد بني هاشم في زمانه [تذكرة الحفاظ، 1/ 124].

وعدّه أبو نعيم في الحلية [3/ 180 ـ 192] وابن الجوزي في صفة الصفوة [2/ 108 ـ 112] في العبّاد والزهّاد وأوردا له طائفة كبيرة من حكمه ومواعظه، ولم تخُل ترجمة له من التنويه بتنسّكه وعبادته، وقد عمل بواقع حياته وبما أثر عنه من كلام نافع في الحكم والمواعظ [ابن العماد، 1/ 149] على توضيح معالم الحياة السويّة القائمة على العلم والربانية وإيجابيّة الحضور الاجتماعي للإنسان.

له جهد ملحوظ في إثراء الدراسات الاسلامية يظهر في ثلاثة فنون أساسية أسهم فيها بدرجات متفاوتة وهي:

1 ـ الرواية: عرف في عصره بأنه من الرواة المكثرين الذين اتّفق الحفاظ على الاحتجاج بهم [الذهبي، السير، 5/ 343] مع أنّه لا يبلغ في حفظه ومعرفته بالسنن درجة قتادة والزهري [سير الأعلام، 5/ 343]، وبالنظر إلى واقع رواياته في كتب أهل السنة فليس هو بالمكثر، بل هو في الرواية كأبيه زين العابدين وابنه جعفر ثلاثتهم لا يبلغ حديث كل واحد منهم جزءا ضخما [سير الأعلام، 5/ 342]. وتعلّل قلة ما نقل عنه في كتب أهل السنة ـ شأنه في ذلك شأن عامّة رجال أهل البيت ـ بعدم صحّة أكثر طرق الرواية عنه، قال عنه ابن سعد: كان ثقة كثير العلم والحديث وليس يروي عنه من يحتجّ به [الطبقات، 5/ 324].

وتعدّ رواية ابنه جعفر عنه عن علي زين

العابدين عن الحسين السبط عن الإمام علي كرّم الله وجهه من أصحّ أسانيد الرواية الحديثيّة عن عليّ عند أهل السنة [أحمد شاكر، الباعث الحديث، ص 19]، وحديثه في الكتب التسعة من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري في أبواب الفقه المختلفة، كما نقلوا شيئًا من آرائه الفقهية وبعض الآثار التي يرويها عن غير واحد من الصحابة والتابعين.

وأتمّ سياق لحديث حجّ الرسول الذي رواه جابر بن عبد الله ورد في كتب أهل السنة من رواية أبي جعفر الباقر حيث نقله مسلم بكامله في صحيحه [شرح النووي، 8/ 170 ـ 196]، ومن أسانيده في صحيح البخاري: محمد بن بشار بندار عن غندر عن شعبة عن مخول بن أرشد عن أبي جعفر محمد بن علي عن جابر بن عبد الله [فتح الباري، 1/ 367]؛ وأبو نعيم عن معمر بن يحيى بن بسّام عن أبي جعفر عن جابر [فتح الباري، 1/ 368].

ومن طرقه في صحيح مسلم: عمر بن حفص بن غياث عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن جابر، وإسحاق بن إبراهيم عن يحيى بن آدم عن سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر [شرح النووي، 8/ 194، 195، 196].

وللشيعة الإمامية نقول كثيرة جدًا عنه وينسبون إليه كتبا عديدة في الرواية ضمنوها أصولهم الحديثية وتروى بأسانيدهم الخاصّة بهم، ذكر الحسن الصدر طائفة منها في كتابه: تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام [283، 285 ـ 291، طبعة دار الرائد العربي].

2 ـ الفقه: تصنّف مصادر أهل السنة الباقر في عداد الفقهاء، وتروي له في الصحيحين وغيرهما بعض اختياراته ومروياته عن الصحابة والتابعين في هذا الشأن، وصفه ابن سعد بالفقيه [طبقات، 5/ 211] وعدّه النسائي وغيره في فقهاء التابعين بالمدينة [تذكرة الحفاظ، 1/ 125] وقال عنه ابن البرقي: كان فقيها فاضلا [ابن حجر، التهذيب، 9/ 350]، وذكر الذهبي أنّ له مسائل وفتاوى، وقال إنه لا يبلغ في الفقه درجة أبي الزناد، فلا نحابيه ولا نحيف عليه، ونحبّه لما تجمّع فيه من صفات الكمال [سير الأعلام، 5/ 348].

وترى الإمامية أنه أوّل من أسمى علم أصول الفقه ثم من بعده ابنه الصادق، وأنّهما قد أمليا على أصحابهما قواعده، وفي هذا الإطار نسبوا إليه عدّة كتب جمع مسائلها ورتّبها المتأخرون منهم [حسن الصدر، تأسيس الشيعة، 310].

3 ـ التفسير: وصفه الذهبي بأنّه كان إماما مجتهدا، تاليا لكتاب الله كبير القدر، ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه [سير الأعلام، 5/ 342]، وذكر الزركلي في الأعلام أنه له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال. ونوّه مالك بن أعين الجهني بمعرفته بالقرآن فأنشد:

إن طلب الناس علم القرآ
ن كانت قريش عليه عيالا

[سير الأعلام، 5/ 344].

وترجم له الداوودي في طبقات المفسّرين [2/ 201]، وذكر له ابن النديم تفسيرا يرويه عنه زياد بن المنذر [الفهرست، 52].

وتروي له كتب التفسير بالمأثور بعض ما ينقل عنه في هذا الأمر، وهو من مظان الطبري، وابن كثير، والسيوطي في تفاسيرهم.

أخذ عنه كثير من أعلام الرواة الذين دار الإسناد على معظمهم في زمنهم، وروايتهم مشهورة في الكتب الستة والموطأ ومسند أحمد وغيرها، من كبارهم: محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت 124هـ)؛ وربيعة الرأي ربيعة بن أبي عبد الرحمن المدني أبو عثمان (ت 136هـ)؛ وجعفر الصادق بن محمد الباقر (ت 148هـ)؛ وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (ت 135هـ). وهؤلاء من شيوخ مالك بن أنس، وعبد الرحمن بن عمرو أبو عمرو الأوزاعي فقيه الشام (ت 157هـ)؛ وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الراوية الفقيه (ت 150هـ أو بعدها)؛ وسليمان بن مهران الأعمش وكان حافظا وعارفا بالقراءات (ت 147هـ) وكذلك عطاء بن أبي رباح (ت 114هـ) وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت 117هـ) على تقدمهما، وعمرو بن دينار الجمحي مفتي أهل مكّة وأحد أركان الرواية في عصره (ت 126هـ). وفي ترجمته في تهذيب التهذيب وسير أعلام النبلاء ذكر لأهمّ شيوخه وتلاميذه من الدرجة الأولى.

وفي مصادر الإمامية جماعة من تلاميذه يعدّون من وجوه رواة أحاديث أهل البيت وهم ممّن يعرفون بأصحاب الاجماع، لإجماع الإمامية على تصحيح ما صحّ عنهم [الغريفي، قواعد الحديث، دار الأضواء، ص 37] وأصحاب أبي جعفر الباقر وابنه الصادق من هؤلاء ستة عدّوا هم أفقه من روى عنهما العلم وهم: زرارة بن أعين بن سنن الشيباني مولاهم أبو الحسن (ت 150هـ)؛ ومعرف بن خربوذ القرشي؛ وبريد بن معاوية العجلي أبو القاسم؛ وأبو بصير يحيى بن القاسم الأسدي؛ والفضيل بن يسار النهدي؛ ومحمد بن مسلم بن رباح الطايفي، وأفقههم زرارة [الغريفي، ص 38].

تختلف المصادر كثيرا في تحديد سنة وفاته وتقدير عمره، فابن سعد ينقل عن شيخه الواقدي أنه مات سنة 117هـ وهو ابن 73 سنة ولا يجزم بذلك فينقل رواية من قال إنه مات سنة 118هـ، وقال قال أبو نعيم الفضل بن دكين أنه توفي سنة 114هـ [الطبقات، 5/ 324].

وأورد ابن الجوزي رواية ابن سعد وأضاف إليها أنّ عمر الباقر حين وفاته كان 58 سنة [صفة الصفوة، 2/ 112]. وحدّد ابن خلكان وفاته بشهر ربيع الأوّل سنة 113هـ وأردفها برواية من قال أنّها كانت في الثالث والعشرين من صفر سنة 114هـ. وقيل سنة 117هـ وقيل سنة 118هـ [الوفيات، 4/ 174].

ولم يضبط الذهبي سنة محدّدة لوفاته لا في التذكرة [1/ 125] ولا في سير الأعلام [5/ 347] واكتفى بنقل بعض ما قاله سابقوه. ونقل ابن حجر الأقوال التي أرّخت وفاته بسنوات 114 أو 115 أو 116 أو 117هـ، ولكنّه قطع في الأمر بقوله والأصح أنه مات سنة 114هـ، واعتمد في ما جزم به على رواية البخاري بإسناده المتصل إلى جعفر بن محمد من أنه قال: مات أبي سنة أربع عشرة ومائة [التهذيب، 9/ 351]. وممّن أرّخ وفاته بهذه السنة: أبو بكر بن أبي

شيبة في تاريخه، ومصعب الزبيري، ويعقوب بن سفيان، وعبد الله بن عروة عن شيوخه [تهذيب التهذيب، 9/ 352].

مات عن ثمان وخمسين سنة كما جاء في رواية ابن عيينة من أنّ جعفر بن محمد حدثه أنه سمع أباه الباقر يقول لعمّته فاطمة بنت الحسين: في هذا توفّي لي ثمان وخمسون سنة فمات فيها [الذهبي، السير، 5/ 346] وعلق ابن حجر على هذه الرواية بأنّها في غاية الصحّة وقال فيكون مولده على هذا سنة 58هـ [التهذيب، 9/ 351].

توفّي بالحميمة [ابن خلكان، 4/ 174] قرية بالشراة، صقع بالشام في طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك، وهو من إقليم البلقاء وفي بعض نواحيه القرية المذكورة التي كانت لعلي بن عبد الله بن عباس وأولاده في أيام بني أمية [ابن خلكان، 3/ 278].

وأوصى أنّ يكفّن في قميصه الذي كان يصلّي فيه [ابن الجوزي، صفوة، 2/ 112]. ونقل إلى المدينة ودفن بالبقيع في القبر الذي فيه أبوه زين العابدين وعمّ أبيه الحسن بن الإمام علي في القبّة التي فيها قبر العباس [ابن خلكان، 4/ 174] وأدخل عليه في قبره ولده جعفر فيما بعد [ابن خلكان، 1/ 327] ومرقده اليوم في صدر مقبرة البقيع قبالة بابها الرئيسي على يمين الداخل إليها من جهة المسجد النبوي.

آثاره

تنقل عنه كتب السنة جملة وافرة من مروياته وآرائه وأقواله في الحديث والتفسير والفقه والوعظ، وتخرّج عليه طائفة من كبار الأئمة وأوعية العلم في وقتهم، وتذكر له فهارس تصانيف الإمامية خاصّة عدّة كتب منها:

1 ـ كتاب التفسير، رواه عنه زياد بن المنذر أبو الجارود الكوفي رئيس الجارودية الزيديّة (ت 150هـ)، ورواه عن زياد أبو بصير يحيى بن القاسم الأسدي، وأخرجه علي بن إبراهيم بن هاشم القمّي في تفسيره من طريق أبي بصير [حسن الصدر، تأسيس الشيعة، 285، 327]، وابن النديم [الفهرست، 52]، الداوودي [طبقات، 2/ 201]؛ 2 ـ كتاب في الحديث والآثار، يرويه عنه عبد المؤمن بن القاسم بن قيس الأنصاري أبو عبد الله الكوفي (ت147هـ) [حسن الصدر، تأسيس ص 285]؛ 3 ـ كتاب روايات زرارة بن أعين عن الباقر [حسن الصدر، تأسيس، ص 286]؛ 4 ـ كتاب رواية أبي عبيدة الحذاء زياد بن عيسى أبو رجاء الكوفي عن الباقر، وهو من أصحابه [حسن الصدر، 286]؛ 5 ـ كتاب أصول آل الرسول، وهو في أصول الفقه جمع الشريف الموسوي هاشم بن زين العابدين الخوانساري رواية عن الباقر وابنه الصادق [حسن الصدر، 310].

وذكر آية الله حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام أربعة عشر كتابا رويت عن الباقر أو عنه وعن ابنه جعفر جمعها أصحابهما والمتأخرون عنهم [ص 285 ـ 286، 310].

المصادر والمراجع

● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. العمروي، دار الفكر، بيروت، 1417هـ/ 1997م، 5/ 342 ـ 347؛ ● تذكرة

الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1/ 124 ـ 125؛ ● ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1403هـ/ 1983م، 2/ 108 ـ 112؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، 4/ 174؛ ● ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 5/ 320 ـ 324؛ ● ابن حجر، تهذيب التهذيب، دار الكتاب الاسلامي، بيروت، 9/ 350 ـ 353؛ ● آية الله السيد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام، دار الرائد العربي، بيروت، 1401هـ/ 1981م، ص284 ـ 327، 310، 291.

د. محمد الناصر الزعايري
جامعة الزيتونة ـ تونس

■ باقر، طه ناصر

(1331هـ/1912م ـ 1403هـ/1984م) ■ ■ ■

هو طه باقر ناصر ولد بمدينة الحلة، جنوبي غربي بغداد، في سنة 1331هـ/ 1912م. والحلة هي مدينة أسسها صدقة بن مزيد من قبيلة بني أسد في سنة 495هـ/ 1101م.

وأسرته معروفة بسعة العلم ومساهماتها الأدبية واللغوية. وكان لهذه القدرات العائلية أثر كبير في بناء شخصيته، إذ أقدمت على تعليم طه تعليما خاصا مضافا إلى ما كان يدرسه في المدارس الرسمية، فتتلمذ على والده باقر وعمه في العلوم اللغوية على وفق الأساليب التعليمية القديمة، وقرأ عليهما شروحات النحو وفصولا في علم الصرف والبيان والمعاني. كما أنه تتلمذ في هذا المجال على بعض مشايخ الحلة، فأنهى دراسة ما كان يسمى بالآجرومية وقطر الندى لابن هشام، وألفية ابن مالك.

وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية والمتوسطة في الحلة انتقل إلى بغداد، فأكمل فيها الدراسة الثانوية (1931م ـ 1933 م) بتقدير عال، فكان أحد الأربعة الأوائل على جميع ثانويات العراق.

ولذلك فقد اختير من قبل مديرية البعثات أحد طلاب البعثة لدراسة علم الآثار على نفقة وزارة المعارف العراقية في المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو بالولايات الأمريكية المتحدة.

وقبيل سفره رشح لبعثة للحصول على شهادة «متريكيوليشن» Matriculation أي امتحان القبول في الجامعات الإنجليزية في مدينة صفد في فلسطين. ثم نقل إلى الجامعة الأمريكية في بيروت لاجتياز السنة التحضيرية التي تسمى ـ Sophomore ـ أي طالب في السنة الثانية في الكلية. بعدها توجه إلى شيكاغو لدراسة الآثار القديمة، واللغات القديمة.

ودامت دراسته أربع سنوات حصل فيها على شهادة البكالوريوس والماجستير في الآثار والتنقيب والخط المسماري وعلم الانثروبولوجي، ودرس في المعهد ذاته اللغة العبرية؛ كما تعلم الفرنسية والألمانية إلى جانب اللغة الإنجليزية.

عاد طه باقر من الولايات المتحدة في سنة 1938 فعين آنذاك خبيرًا فنيًا في مديرية الآثار القديمة العامة وظل فيها حتى عام 1941، عدا أنه دعي إلى الخدمة العسكرية فعين ضابطا وأسهم في حركة مايس 1941.

وبعد تسريحه من الخدمة العسكرية عاد إلى وظيفته فعين أمين المتحف العراقي، فكان أول أمين درس الآثار واللغات القديمة، وصار التخصص في اللغات القديمة أو في الآثار القديمة شرطا لانتخاب أمين المتحف العراقي. وفي سنة 1951 تسنم منصب معاون مدير الآثار العام وبقي فيه حتى سنة 1958 عندما تحول إلى وظيفة مفتش الآثار العام، وبعد شهور معدودة عين مديرًا عامًا للآثار وبقي يشغله إلى سنة 1963. والجدير ذكره أنه كان آنذاك عضوًا في هيئة تحرير مجلة سومر منذ عام 1945 واستمر إلى سنة 1963.

إن علاقة المرحوم طه باقر بالتعليم والتدريس قديمة ترجع إلى فترة صباه منذ أن جلس لتدريس أوليات اللغة والمعاني على يدي السيد مسلم الحلي. وبعد عودته من أمريكا، وعلى وجه التحديد عام 1941، مارس التدريس الجامعي فدرس مادة التاريخ القديم والحضارة في كلية دار المعلمين العالية سابقًا (تحول اسمها إلى كلية التربية)، وظل يدرس طلبة الصفوف الأولى والثانية في الكلية، وكذلك مارس التدريس في كلية الآداب إذ أعطى دروسًا في اللغات القديمة على طلبة قسم الآثار حتى عام 1960، وإليه الفضل في وضع حجر الأساس لقسم الآثار في كلية الآداب عام 1951، وبقي يدرس فيه حتى عام 1963.

ويبدي المرحوم طه باقر رأيه في مناهج تدريس التاريخ القديم خلال هذه الحقبة فيقول: «فالمعروف لدى الملمّين بموضوع الحضارات القديمة أنه لا يوجد حتى في اللغات الأجنبية بَلْه اللغة العربية مرجع تتوافر فيه أن يكون كتابًا مدرسيًا محتويًا على أحدث ما استجدّ من البحوث في حضارات الشرق القديم. على أننا لا ننكر وجود بعض الكتب المدرسية من هذا الصنف مثل كتاب بريستد في تاريخ العصور القديمة» [مقدمة الطبعة الأولى لكتاب مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ق 1 / تاريخ العراق القديم بغداد 1375هـ / 1955 م، ص: أ].

لقد أثبت خلال عمله الجامعي بأنه ذو كفاءة علمية عالية وضليع في اختصاصه كاللغة السومرية والتاريخ القديم والحضارات القديمة العراقية والمصرية واليونانية والرومانية والفارسية.

وتخرج في مدرسته عشرات الطلبة الذين أكملوا دراساتهم العليا وهم الآن أساتذة في جامعات العراق والوطن العربي. وإضافة إلى التدريس الجامعي أسهم في الهيئات التنقيبية والأثرية منذ كان يدرس في شيكاغو، إذ مارس البحث عن الآثار في الحفر والتنقيب في إحدى المستوطنات القديمة مع طلبة قسم الأنثروبولوجي في الجامعة.

وفي عام 1941 أنجز عملاً فنيا رائعًا بإعادة عرض آثار المتحف العراقي مستخدما منهج التسلسل التاريخي في عرضها. وترأس هيئات تنقيبية عديدة نقبت في مدينة واسط الإسلامية التي بناها الحجاج بن يوسف الثقفي، وفي موقع تل الدير بالقرب من اليوسفية عام 1941، وفي موقع عقرقوف (واسمها في التاريخ القديم دور كوري كالزو نين) سنة 1941 ـ 1947، وفي تل حرمل (الواقع في منطقة بغداد الجديدة) بين سنة 1945 ـ 1961، وفي موقع الضباعي القريب من تل حرمل عام 1960. وكان مشرفًا على التحريات الأثرية في منطقة دوكان ومنطقة شهرزور (شمال العراق) طيلة المدة بين 1956 ـ 1959، وذلك بهدف إنقاذ ما بهما من آثار نتيجة لأعمال البناء في مشروعي سد دوكان وسد دربنديخان.

وأسهم في مصلحة الآثار في ليبيا بوظيفة خبير فني عام 1965، ثم تسلّم منصب مستشار هذه المصلحة الأثرية الليبية حتى سنة 1970.

نال طه باقر تكريم قيادة الدولة في العراق عام 1979 خلال انعقاد الندوة العلمية الثانية عن بابل وآشور وحمرين، وهي ندوة حضرها علماء الآثار والدراسات المسمارية من مختلف الأقطار العربية والأجنبية.

توفي طه باقر ببغداد سنة 1403هـ / 1984م.

آثاره

1 ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، صدر عام 1951 في جزأين، الأول تناول تاريخ العراق القديم وحضارته منذ أقدم العصور الحجرية حتى نهاية الدولة الكلدية عام 539 ق.م، أما الجزء الثاني فتناول تاريخ حضارة بلاد وادي النيل وبلاد الشام وجزيرة العرب وبعض البلدان المجاورة، وأعيد طبع الكتاب عام 1955. وفي عام 1970 أعاد كتابة هذا الكتاب فجعل الجزء الأول عن العراق بجزأين ظهر الجزء الأول منه الخاص بالتاريخ السياسي للعراق القديم سنة 1973، ولم تظهر طبعة الجزء الثاني الخاص بالتاريخ الحضاري للعراق القديم لتدهور صحته؛ 2 ـ ملحمة كلكامش، استعان فيه بمعرفته باللغة الأكدية لترجمة الملحمة من هذه اللغة، وطبعت ثلاث مرات أولها سنة 1962 وآخرها سنة 1975؛ 3 ـ المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة، بالاشتراك مع الأثري المعروف فؤاد سفر، من ستة أجزاء، تناولا في كل جزء منه رحلة بين بغداد وإحدى مدن العراق الأثرية والحضارية، فالأولى التي بدأت عام 1962 كانت إلى عانه والقائم ونشرت في تلك السنة، والثانية من بغداد إلى سامراء والحضر وطبعت في عام 1962، والثالثة إلى الموصل طبعت عام 1966، والرابعة إلى كركوك والسليمانية ونشرت عام 1965، والخامسة إلى أربيل ونشرت عام 1966، والسادسة إلى حلبجة ونشرت عام 1966؛ 4 ـ مقدمة في أدب العراق القديم، ويحتوي على ترجمات لبعض الملاحم والأساطير في بلاد وادي الرافدين. طبع عام 1976؛ 5 ـ موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، صدر عام 1980، تضمن علوم الرياضيات والطب، والفلك، ويتألف من جزأين: الأول عن حضارة بلاد وادي

الرافدين ووادي النيل ومصر والهند والصين واليونان. والثاني عن الحضارة العربية الإسلامية؛ 6 ـ من تراثنا اللغوي القديم ما يسمى في العربية بالدخيل، صدر عام 1980؛ 7 ـ بحث في التاريخ، ترجمة لكتاب: History of Study للأستاذ أرنولد توينبي. وهو اختصار للمجلدات الستة من دراسة التاريخ؛ 8 ـ ألواح من سومر، للأثري صيموئيل كريمر، ترجمة؛ 9 ـ الرافدان لمؤلفه سيتون لويد، ترجمة؛ 10 ـ تاريخ العلم، لجورج سارتون، ترجمة، اشترك فيه مع عدد من الأساتذة لترجمة الفصل الثالث من الجزء الأول ونشر عام 1957؛ 11 ـ الإنسان في فجر حياته، تأليف دورثي ديفدز، وقد أنجز ترجمته بالاشتراك مع الأستاذ فؤاد سفر؛ 12 ـ طرق البحث العلمي في التاريخ والآثار، ألفه بالاشتراك مع د. عبد العزيز حميد، طبع عام 1980، وكان مخصصًا لطلبة المرحلة الثانية في أقسام التاريخ والآثار؛ 13 ـ تاريخ إيران، ألفه بالاشتراك مع فوزي رشيد ورضا جواد الهاشمي؛ 14 ـ بحوث ومقالات كثيرة نشرت في مجلة سومر بدءًا من المجلد الأول الذي صدر عام 1945 وتواصلت بدونه عام 1946 و1947 و1948، 1952، 1954؛ مع بحوث أخرى في مجلة المجمع العلمي العراقي.

المصادر والمراجع

● مؤلفات طه باقر المختلفة وبحوثه المنشورة في مجلة سومر عام 1959، 1960، 1961، 1963؛ ● فوزي، رشيد، طه باقر حياته وآثاره، بغداد 1987؛ ● المطيعي حميد، من هو طه باقر، جريدة الزوراء 1998؛ ● حميد المطبعي، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج. 1؛ ● موسوعة أعلام العرب، بيت الحكمة، بغداد، 2000.

د. بهجت كامل عبد اللطيف
جامعة بغداد ـ العراق

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيّب

(ت 403هـ/1013م)

هو أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد المعروف بابن الباقلاني أو الباقلاني، ويرجع نسبه إلى أنّ أباه أو جدّه كان يشتغل بتجارة البقول، متكلم بلاغي. لم تذكر المصادر تاريخ ميلاده، ولعله كان سنة 338هـ/ 950م [الزركلي، الأعلام، 6/ 176]، خلال الربع الثاني من القرن الرابع للهجرة بالبصرة.

وفي هذه المدينة نشأ وتلقى ثقافته الأولى، ثم رحل إلى بغداد وسكن فيها، وسمع الحديث من أبي بكر القطيعي (ت 368هـ/ 978م)،

وأبي محمد بن ماسي (ت 369هـ/ 979م)، والحسين بن علي النيسابوري (ت 375هـ/ 985م)، كما تتلمذ على عدد آخر من أعلام عصره، منهم أبو بكر الأبهري (ت 375هـ/ 985م)، ومحمد بن خفيف الشيرازي (ت 371هـ/ 981م)، وابن بهتة محمد بن عمر البزاز (ت 374هـ/ 984م)، والحسين بن عبد الله العسكري (ت 382هـ/ 992م)، وعبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ/ 996م)، وأخذ عن علمين من أصحاب الأشعري هما: محمد بن أحمد بن مجاهد أبو عبد الله الطائي، وأبو الحسن الباهلي...، وبعد إتمام تعلّمه عاد إلى البصرة حيث بدأ التدريس في جامعها.

وطار صيته حتّى وصل إلى أعلام المعتزلة بشيراز، فاستدعاه عضد الدولة فذهب إليها ممثلا لمذهب أهل السنّة صحبة ثلّة من علماء المذاهب المختلفة للمشاركة في مجالس المناظرات العلميّة، وقد خاض الباقلاني مناظرات في علم الكلام والفقه مع أبي الحسن الأحدب، وأبي إسحاق النصيبي من علماء المعتزلة، وابن المعلّم من الشيعة، وأبي الفجر بن طرّار، ورؤية الله من الشافعيّة. وقد شملت هذه المناظرات مواضيع شتّى مثل أعمال العباد، ومنزلة المرأة في الدين الإسلامي، وأثبت تفوّقه في كلّ مرة، وكان ذلك بحضور عضد الدولة الذي عهد إليه بتربية ابنه سمنان رغم كونه شيعيًا. وكان من إعجاب عضد الدولة به أن أرسله بسفارة إلى ملك الروم بإستنبول على رأس هيئة لإجراء مفاوضات متعلّقة بتبادل الأسرى مع البيزنطيين ومواضيع أخرى، وفي قصر بيزنطة ناظر بنجاح مجموعة من القسيسين من بينهم «بسيليوس الثاني» في مسائل متعلّقة بعقيدة التثليث ووضعيّة عيسى عليه السلام، وانشقاق القمر، ومسائل متعلّقة بشخصيّة السيّدة مريم عليها السلام، والسيّدة عائشة البشرية والدينية. وبعد عودته إلى بلاده تولى القضاء لفترة من الزمن، وتولّى منصب قاضي القضاة في كلّ من بغداد وأقبرى وثغر، ومن هنا اشتهر بلقب القاضي. وبوفاة عضد الدولة سنة 372هـ/ 982م استقرّ الباقلاّني في بغداد وعكف على التدريس في جامع المنصور حتى وفاته. وقد حضر دروسه الكثير من التلاميذ الذين جاؤوا من كافة أنحاء العالم الإسلامي، من الأندلس إلى خراسان. ونجد من بين مئات العلماء الذين تتلمذوا على يديه: القاضي عبد الوهاب، وأبي الحسن السكري، وأبي الطاهر بن الأنباري، وأبي علي بن شاذان، وأبي جعفر السمناني، وأبي عبد الله الأزدي، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي القاسم الصيرفي، وأبي ذر الهروي.

وأثناء إقامته في بغداد ناقش أبا الحسن التميمي رئيس الحنابلة، وهو ما قاد إلى تلطيف الموقف المعارض الذي اتخذه علماء هذا المذهب من علم الكلام والمتكلّمين. وفي هذه الأثناء أيضا ألّف كتابه المسمّى «كشف الأسرار وهتك الأستار، في الرّد على الباطنيّة» وذلك بغية قطع الطريق على الباطنيين الذين بلغت دعوتهم بغداد. وتوفّي الباقلاّني في بغداد في 23 ذي القعدة 403هـ - 5 حزيران / يونيو 1013م، ودفن ببيته قبل أن ينقل إلى مقبرة «باب حرب» ليدفن بجانب الإمام أحمد بن حنبل.

نشأ الباقلاّني في محيط ثقافي ثري في القرن الرابع الهجري وهو العصر الذي اكتملت فيه العلوم الإسلامية، وتجذّرت فيه المذاهب، وتطوّرت فيه الفلسفة الإسلاميّة والتصوّف. وكان يتميّز بذكائه الحادّ وقوّة ذاكرته وعلمه العميق وتفوّقه في المناظرات ورقيّ خطابته، فقد عرف بشخصية علمية متعدّدة الوجوه، ولذلك لُقّب بألقاب عديدة من قبيل «مجدد القرن الرابع الهجري»؛ و«سيف أهل السنة القاطع» و«قائد العقيدة السنّية».

كما يروى عنه أيضًا أنّه كان زاهدًا وتقيًا. وكان يعيش حياة هي أبعد ما يكون عن الرياء والتظاهر. والطابع الغالب على شخصيته العلمية هو علم الكلام، ومع ذلك فإنه يعتبر مرجعا في أغلب المجالات مثل الحديث، والفقه، وأصول الفقه، والتفسير، والبلاغة، وتاريخ الأديان، والمذاهب. ورغم مكانته الهامة في مجالات الفقه وأصوله، إلاّ أن الآراء اختلفت حول مذهبه الفقهي. فبينما يرى الغالبيّة وعلى رأسهم القاضي عياض أنّه مالكي فإن البعض يرى أنّه شافعي، في حين ينسبه البعض الآخر إلى المذهب الحنبلي، ونرجّح صحّة الرأي الأول لأن أكثر المصادر التي تحدثت عنه تنسبه إلى المذهب المالكي كما ينسبه إليه تلاميذه.

لعب الباقلاّني دورا هامّا في جعل الأشعريّة مذهبا منتظمًا، كما ساهم في انتشاره إذ أكمل علم الكلام الأشعري من حيث مشكلة المعرفة ومسألة فلسفة الطبيعة، فوقف عند تعريف المعرفة ومصادرها وأنواعها، وعارض المنطق والفلاسفة الأرسطيين في مجال فلسفة الطبيعة، ونظم مفاهيم الجوهر والعرض وجوهر الفرد والخلاء وغيرها، وجعلها دليلا لإثبات وجود اللّه وحدوث الكون وأساسا لمفهوم الألوهيّة. وقد ردّ فكرة العلاقة الحتمية بين السبب والنتيجة (الحتمية) لإبطال الفكر الطبيعي، وجعل المعجزة تستند إلى أساس علمي. وإلى جانب ذلك وضع قواعد الاستدلال ووضع لنفسه طرقًا مثل قاعدة السبر والتقسيم وهي الفصل بين الموضوع وبدائله وتفضيل الثابت منها، وقاعدة قياس الغائب على الشاهد، وقاعدة «إنقاص الأدلّة» وهي الحكم بخطإ الفكرة المثبّتة بدليل خاطىء، وبالتالي جعل من الكلام الأشعري مذهبا قائما بذاته؛ كما أنّ الباقلاّني مزج الأفكار الاعتقادية لأهل الحديث والطريقة التي استعملها أبو الحسن الأشعري في علم الكلام، فلعب بذلك دورا هامّا في تطوير مدرسة أهل السنة الكلامية.

إلى جانب الأشعري تأثر الباقلاّني بأحمد بن حنبل، واتبع السلفيين في مسألة أخبار الصفات، وبذلك يكون قد سار نحو جهم بن صفوان في تعريفه لمفهوم الإيمان ووازى معاصره ابن فورك في فكره حول خلق أفعال العباد، في حين خالف الغالبية في تفكيره حول لانهائية الأعراض، واتفق بذلك مع أبي علي الجبّاني.

كان الباقلاّني يقول باستقلالية صفة البقاء، كما يرى أن العبد قوّة مؤثرة في حدوث الفعل، ولذا يعتبره صاحب إرادة نسبية حرة تجعله مسؤولا عن أفعاله. وبهذا يكون قد خرج في هذا الصدد عن فكر الأشعري. إلى جانب ذلك ربط ربطا وثيقا بين علم الكلام عند أهل السنة بخصوص مفهومهم للألوهية،

وبين فلسفة الطبيعة؛ وجعل ما أخذه عن المعتزلة من مفهوم للكون أساسا للألوهية، كما أكسب مفهوم المعجزة معنى جديدا عند أهل السنة، وذلك بجعلها إثباتا للنبوّة التي أسندها بالتالي إلى أساس فلسفي. وكان الباقلاّني يقول بمحدودية الحواسّ وطوّر بعض مناهج الاستدلال في معارضته لمنطق أرسطو وفلسفته، ونقل بتجرّد وموضوعية آراء المذاهب التي انتقدها.

وقع الكتاب السابقون والمعاصرون الذين تحدّثوا عن الباقلاّني سواء الذين ثبتوا أفكاره أو الذين انتقدوها في بعض الأخطاء، حيث إنّ عبد القاهر البغدادي وعضد الدين الإيجي يريان أنّ الباقلاّني لم يقل باستقلالية صفة البقاء. [البغدادي ص 90؛ الإيجي ص 208]؛ وحسب ابن حمزة فقد تبنّى الباقلاّني نظرية الصرف، واعتبر أنّ الصفات موجودات قديمة منفصلة عن الذات الإلهية، وآمن أنّ الروح تندثر تماما بحلول الموت؛ كما دافع عن فكرة أنّ من لا يتوب من جميع ذنوبه لا تقبل توبته [الفصل، ب، 76، 85، 88، 93].

أما محمد زاهد الكوثري، وأبو رضا، ومحمد الخضيري، ومحمد رمضان عبد الله، فقد رأوا أنّ ابن تيمية، وابن القيّم الجوزيّة حاولا إظهار الباقلاّني كسلفيّ في موضوع الصفات الخبرية، وحكموا ببطلان ادعاءاتهما باعتبارها لا تتوافق مع توجه الباقلاّني الكلامي إذ إنه على العكس من ذلك قد أوّل الصفات الخبريّة، ولكنّنا نجد أن كلّ هذه الآراء تخالف تماما المعلومات الواردة في آثار الباقلاّني التي وصلتنا إلى حدّ الآن. فهؤلاء إما يعالجون أفكار الباقلاّني بشكل خاطىء، أو أنهم قد استندوا في أبحاثهم إلى مصادر من درجة ثانية وليس إلى آثار الباقلاّني، ويأتي على رأس الذين انتقدوا الباقلاّني من معاصريه أبو حيّان التوحيدي وأبو حميد الإسفرايني، وأبو علي الأهوازي، وابن بطّة. وفي زماننا هذا انتقده نسبيًّا عبد الرحمن بدوي، وعبد الرؤوف مخلوف، وما وجّهه كلّ هؤلاء من انتقادات ترجع إلى كونهم سلفيّي العقيدة، وآراؤهم هذه تنضوي تحت لواء الانتقادات الموجّهة إلى علم الكلام عموما.

إنّ مسألة أدلّة حدوث فعل الإنسان يراها عبد الرحمن بدوي غير كافية، وهي من المسائل التي لم يقع التوصل فيها إلى أيّ نتائج نهائية عبر تاريخ الفكر. أمّا ما وجهه عبد الرؤوف مخلوف من انتقادات إلى الباقلاّني فهي نابعة أساسا [انظر شرف الدين كولجوك، IV، 533 - 534] من ضعف فهمه للموضوع الذي عالجه [عبد الرؤوف مخلوف، ص 108 - 109] أو خلطه بين من يظنّهم انتقدوا الباقلاّني [ص 88 - 90].

وتوجد أبحاث أخرى عديدة حول علم الكلام عند الباقلاّني، منها: محمد رمضان عبد الله، الباقلاّني وآراؤه الكلامية بغداد 1986؛ يوسف إيبيش، المذهب السياسي عند الباقلاّني [The political doctrine of Bakillani] بيروت 1966؛ ج. بومان المعركة حول القرآن وحلّ الباقلاّني [Le conflit autour du coran et la solution d'Al-Bakillani]، امستردام 1959؛ محمد بن عبد الرزاق حمزة، الإمام الباقلاّني وكتابه التمهيد، القاهرة 1958؛ عبد الرؤوف

مخلوف الباقلاّني وكتابه إعجاز القرآن، بيروت 1978؛ شرف الدين كولجوك، الإنسان وأفعاله في علم الكلام، مفهوم الباقلاّني للفعل الإنساني، إستنبول 1979؛ سميرة عاقل فرحات، معجم الباقلاّني في كتبه الثلاثة: التمهيد، الإنصاف، البيان، بيروت 13 ـ 1411هـ/ 1991م؛ محمد حسين أبو سادة، المنهج النقدي عند الباقلاّني، القاهرة 1991.

■ آثاره

تبلغ آثاره التي كتبها والتي ذكرتها المراجع والمتعلقة بعلم الكلام، وتاريخ الأديان، والتفسير، والفقه وأصوله، خمسة وخمسين مؤلفًا. أما ما بلغنا منها والمتمحور أغلبها حول علم الكلام وقسم منها حول علوم القرآن فهي التالية:

1 ـ التمهيد في الرد على الملحدة المعطّلة والرافضة والخوارج والمعتزلة أو تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل. ويعدّ هذا الكتاب أهمّ أثر له في علم الكلام. قد حققه محمد عبد الهادي أبو رضا و محمد محمود الخضيري، القاهرة 1366هـ/ 1947م، وأيضًا ر.ج. ماك كارتي، بيروت 1376هـ/ 1957م، كما حقّقه ونشره أيضًا عماد الدين أحمد حيدر، بيروت 1407هـ/ 1987م.

وكتب عبد المجيد أبو بكر الربيعي في شرح التمهيد كتابا سماه «التسديد في شرح التمهيد» [مكتبة السليمانية، تورخان والدة سلطان، عدد 20]؛ 2 ـ الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، وهو مختصر في علم الكلام حققه محمد زاهد الكوثري ونشره مستندا إلى نسخة وحيدة، القاهرة 1382هـ/ 1986م، ثمّ نشره مرة أخرى عماد الدين أحمد حيدر مضيفًا إليه تخريج الأحاديث، بيروت 1986؛ 3 ـ الانتصار لصحّة نقل القرآن والرد على من نحا له الفساد بالزيادة والنقصان، وموضوع هذا الكتاب هو بيان كيف أن القرآن نقل عبر الأجيال كما جاء من اللّه تعالى دون تحريف بزيادة أو نقصان. حققه محمد زغلول سلام وطبع بالاسكندرية سنة 1971، كما قام فؤاد سزكين بطبع النسخة المخطوطة للمجلّد الأوّل الموجودة بمكتبة «قره مصطفى باشا» بإستنبول، فرانكفورت 1407هـ/ 1986م. وقام أيضا باختصار كتاب أبي عبد اللّه الصيرفي «نكت الانتصار» الذي رتبه من جديد أبو بكر الصابوني [سزكين، 1، 609]؛ 4 ـ إعجاز القرآن، طبع هذا الكتاب مرات عديدة في القاهرة وهو يعالج موضوع الإعجاز القرآني ص 1315، 1318، 1325، 1370. ثـمّ نشر بعد ذلك بتحقيق منقوص لمحب الدين الخطيب (القاهرة 1349هـ). ثم نشر بعد ذلك من قبل محمد عبد المنعم الخفاجي، القاهرة 1370هـ/ 1951م، وأحمد صقر، القاهرة 1954، 1963، محمد ورضوان الداية ومحمد فائز الداية، دلائل الإعجاز في القرآن، دمشق 1983. ثمّ ترجمه إ. كروناوم إلى اللغة الانجليزية وحلّله، شيكاغو 1950؛ 5 ـ البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات؛ نشره ر.ج. ماك كارتي مستندا إلى النسخة الوحيدة الموجودة في مكتبة جامعة توبنغن، بيروت 1958، وترجمه إلى اللغة التركية عادل بابك، إستنبول 1938؛

6 ـ هداية المسترشدين والمقنع في أصول الدين، يتكوّن هذا المؤلّف أصلاً من سبعة عشر جزءا (مجلّدا) بقي منها اثنا عشر جزءا فقط موجودة في نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر (رقم 342). اختصره محمد بن أبي الخطاب الإشبيلي في كتابه المسمّى «تلخيص الكفاية من كتاب الهداية»؛ 7 ـ سؤالات أهل الرأي عن الكلام في القرآن، وهي رسالة تجيب عن الأسئلة المتعلّقة بتأويل القرآن وتفسيره، وتوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة السليمانية [لاله لي رقم 7/ 3861]؛ 8 ـ مناقب الأئمة ونقض المتائن عن سلف الأمة، وهو كتاب في الرد على الانتقادات الموجهة إلى الخلفاء الراشدين، وتوجد منه مخطوطة منقوصة: ، دمشق، دار الكتب الظاهرية (رقم 66)؛ 9 ـ الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين؛ 10 ـ مناقب الأئمة ونقض المطاعن على سلف الأئمة؛ 11 ـ إكفار المتأولين؛ 12 ـ الإمامة الكبيرة؛ 13 ـ الأصول الكبير في الفقه؛ 14 ـ كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الجحد والعناد؛ 15 ـ نقض النقض؛ 16 ـ كشف الأسرار وهتك الأستار، في الرد على الباطنية؛ 17 ـ كتاب الإعجاز؛ 18 ـ الإبانة عن إبطال مذهب الكفر والضلالة؛ 19 ـ دقائق الكلام والرد على من خالف الحق من الأوائل ومنتحلي الإسلام؛ 20 ـ رسالة الحرة؛ 21 ـ التقريب والإرشاد؛ 22 ـ كتاب التبصرة...

المصادر والمراجع

● الباقلاّني، التمهيد، نشر ر.ج. ماك كارثي، بيروت 1957، مدخل الناشرين ص 11 ـ 32؛ ● البغدادي، عبد القاهر، أصول الدين، 45، 67، 90، 109؛ ● الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، V، 379 ـ 380؛ ● ابن حزم، الفصل، نشر محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، جدة 1402/ 1982، II، 303؛ III، 286؛IV، 5؛ V، 5، 6، 76، 80 ـ 99، 109، 142، 185، 202؛ ● القاضي عياض، ترتيب المدارك، القاهرة 1947، ص243، 247، 249، 256؛ ● أحمد بن يوسف الفهري اللابليّ، فهرست اللابلّي، بيروت 1988، ص 52 ـ 65؛ ● ابن الأثير، الكامل، IX، 11 ـ 12؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، XVII، 190 ـ 193؛ ● الإيجي عضد الدين، جواهر الكلام، نشر أبي العلاء العفيفي، مجلّة كلّية الآداب، القاهرة 1934، II ص 133، 156، 170، 181، 208، 210؛ ● السبكي، طبقات الشافعية، القاهرة 1383 ـ 1396، III 352؛ ● ابن فرحون، الديباج المذهب، القاهرة 1329 ـ 1330، II 228 ـ 229؛ ● الطالبي عمار، مذاهب الإسلاميين، بيروت 1971، I، 569 ـ 591، 595 ـ 627؛ ● سزكين فؤاد، «تاريخ الآداب العربيّة» (باللغة الألمانيّة) [Geschichte Des Arabischen Schrifttums, I, 608-609] ● مخلوف عبد الرؤوف، الباقلاّني وكتابه إعجاز القرآن، بيروت 1978، ص77 ـ 78، 88 ـ 90، 108 ـ 109، 534؛ ● العميري أحمد جمال، مفهوم الإعجاز القرآني، القاهرة 1984، ص 88 ـ 144؛

● سلطان منير، مناهج في تحليل نظم القرآن، الإسكندرية 1990، ص 47 ـ 88؛ ● عبد الله محمد رمضان، الباقلاّني وآراؤه الكلاميّة، بغداد 1986، ص 132 وغيرها، 179 ـ 215، 224 وغيرها، 593 ـ 607؛ ● إبيش يوسف «حياة الباقلاّني وأعماله» (باللغة الانجليزية) [Life and Works of Al Baqillani] ● «دراسات إسلاميّة» [Islamic Studies] IV 1965]، ص225 ـ 236؛ ● عبد الحميد بسام، محاولة ببليوغرافية في عصر أبي بكر الباقلاني، المشرق، LXVIII / 1، بيروت 1994، ص 153 ـ 174؛ ● ر.ج. ماك كارتي، (Al-Bakillani)، الباقلاّني، موسوعة الإسلام (باللغة الانجليزية) [Encyclopaedia Of Islam]، 1، 958؛ ● كولجوك شرف الدين، «الباقلاّني» [Al-Bakillani]، موسوعة الإسلام ـ وقف تركيا للشؤون الدينيّة» (باللغة التركيّة)، إستنبول 1991، IV، 531 ـ 535؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 6/ 176.

د. أحمد أوزال
هيئة الموسوعة الاسلامية ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكبّاشي
د. أحمد مطلوب
رئيس المجمع العلمي العراقي ـ بغداد

باكثير، علي بن أحمد

(1328هـ/1910م ـ 1389هـ/1969م)

كاتب قصصي ومسرحي وشاعر، وأحد روّاد الأدب في القرن العشرين، ينتسب إلى حضرموت من بلاد اليمن، ولكن فكره وإبداعه الذي تنوّع ليشمل الرواية، والشعر، والمسرحيّة، انطلق من عقل تمثل الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ماضياً، ونبّه إلى أزماتها حاضراً، واستشرف آفاقها ومستقبلها.

ولد في مدينة سورابايا بأندونيسيا (تحتضن أكبر جالية حضرمية «يمنيّة» في العالم) لأبوين حضرميين ينتسبان إلى قبيلة كِنْدَة العريقة. في سن مبكّرة (1920م) أرسله والده إلى مدينة سيئون بحضرموت لينشأ نشأة عربيّة وهي عادة للحضارمة المهاجرين (في شرق آسيا وشرق أفريقيا). إذ كانت الأسر الحضرميّة تحرص على تربية أبنائها في جو عربي إسلامي، وهناك تلقى تعليمه الأولي في الكتّاب (في سيئون)، حيث تعلّم المعارف اللغويّة والدينيّة الأساسيّة. وفي سنة 1931م تزوّج وفجع بوفاة زوجته الشابة وقبلها فجع بابنته الصغيرة.

هاجر من حضرموت وطاف بأطراف اليمن، والحبشة، والصومال، وأقام فترة وجيزة في الحجاز، وأخيرًا انتقل إلى مصر (1933م)

حيث أصبحت مقر إقامته الدائم. تحصّل على الجنسيّة المصريّة في 1953م [الموسوعة العربيّة العالميّة، مجلّد 16، ص 548؛ عبد الرحمن السقاف، معجم بلدان حضرموت، ص 366؛ الزركلي، الأعلام، مجلّد 4، ص 262؛ وعبد العزيز المقالح، الموسوعة اليمنيّة، مج 1، ص 451 - 452].

التحق في مصر بجامعة القاهرة في عام 1934م ودرس الأدب الإنجليزي في كليّة الآداب، ومنها تخرّج عام 1939م، ثمّ التحق بمعهد المعلّمين بالقاهرة في عام 1940م، ومن ثمّ عمل في تدريس اللغة الإنجليزيّة لمدّة سبع سنوات بمدينة المنصورة، وسبع سنوات أخرى في مدينة القاهرة، كتب في هذه المرحلة (المنصورة) روايته الأولى سلامة القس، وأوبيريت «قصر الهودج»، وأوبريت «شادية الإسلام/الشيماء»، وفي 1944م كتب مسرحيّة «شايلوك الجديد»، قبل وقوع نكبة 1948م في فلسطين.

وخلال 1945 - 1948م كتب حوالي خمسين مسرحيّة سياسيّة قصيرة تحمل طابع الكوميديا، ونشرها في الصحافة، وفي أعوام 1950 - 1951م نشر عدداً من التمثيليات القصيرة في مجلّة الهلال، أخرج بعضاً منها في الإذاعة المصريّة. ثمّ عيّن في قسم الرقابة على المصنفات الفنيّة بوزارة الثقافة بمصر، وعمل في المجلس الأعلى للآداب والفنون بعد أن ذاع صيته وأصبح كاتبًا مشهورًا.

وبعد وساطة من صديقه الأستاذ عباس العقاد، قام بعديد من الرحلات مع بعض البعثات إلى الخارج ممثلاً لمصر في عدد من المؤتمرات الأدبيّة في العالم. وفي السنوات اللاحقة من حياته أنجز العديد من أعماله الإبداعيّة، بل في هذه المرحلة من حياته بدأت شخصيّته المحافظة في الانطلاق والبحث عن الجديد في الفنون والفكر ناشرًا أعماله في كبريات المجلات الأدبيّة مثل «أبولو»، و«الرسالة» وغيرهما، ونال استقبالاً حسناً لدى القراء والنقّاد، وتُعدّ القاهرة المحطّة المهمّة في حياة باكثير رغم أنّه بدأ أولى محاولاته خاصة الشعريّة في موطنه حضرموت، وفي المجاز بالذات إلّا أنّ القاهرة كان لها فضل كبير في حياته الإبداعيّة. فهي التي صقلت مواهبه وطوّرت أدواته، وعمّقت تجربته. وكان اتصاله بالآداب الغربيّة الحديثة قد اتخذ شكلاً أكاديميًا منظمًا وأصبح له حضوره المتميّز في الوسط الثقافي [الموسوعة العربيّة العالمية، مج 16، ص 548؛ مجلّة الكويت؛ باكثير مبدع عربي، ص 57؛ الزركلي؛ المرجع المذكور، مج 4، ص 262؛ وعبد العزيز المقالح: باكثير رائد التحديث في القصيدة الجديدة، ص 58 - 59].

ولعلّ من الضروري أن نشير إلى بعض مما كُتِبَ وقيل عن الأديب الحضرمي المصري ولنبدأ بما قاله الدكتور المقالح: «ربما كان باكثير هو الوحيد المعترف له إجماعاً بريادة التجديد الشعري، من روّاد التجديد أنفسهم، وفي طليعتهم بدر شاكر السياب، ونازك الملائكة. وإن كان هذا الاعتراف قد ظلّ منسياً وبعيداً عن متناول قراء الشعر العربي الحديث. ويقول السياب في حديث نشرته مجلّة الآداب بعد إشارته إلى الاختلاف الذي

كان دائرًا حول أولية المتقدّم في كتابة قصيدة التفعيلية: إذاً تحرّينا الواقع وجدنا أنّ الأستاذ علي أحمد باكثير هو أوّل من كتب على طريقة الشعر الحر في ترجمته لرواية شكسبير «روميو وجولييت». ومثل ذلك نجده عند أحمد فرج، أحد عشّاق إبداعات باكثير بقوله: إنّ الباكثير أوّل من كتب الشعر الحر وذلك بالتقاطه مسرحيّة روميو وجولييت وترجمتها شعراً على طريقة الشعر الإنجليزي بعيداً عن التقليد والمحاكاة بعد أن عرف أن لغتنا العربيّة لديها إمكانات لم تستغل استغلالاً كاملاً، وبذلك لم تَعُد البحور الخمسة عشر التي اكتشفها الخليل بن أحمد مطمئنة، فقد استخدم في ترجمته لتلك المسرحيّة بحوراً متّحدة التفاعيل كالكامل، والمتدارك، والمتقارب، والرمل، حيث فرض السيطرة على تلك البحور أثناء ترجمته للمسرحيّة، كما أنّه ظل يتعامل مع البحر السادس عشر الذي لم يكتشفه الخليل بن أحمد واكتشفه الأخفش أحد تلاميذ سيبويه والذي تدارك اكتشافه وأطلق عليه بالمتدارك تعاملاً رسميًا في تأليفه لمسرحيّة «إخناتون ونفرتيتي» التي قدمها له الأديب الشاعر إبراهيم عبد القادر المازني (1937م) ورحّب بهذه التجربة.

وقد استمرّ الباكثير يكتب «الشعر المرسل (الحر الحديث) منذ عام 1936 ـ 1941م، وبعد عشر سنوات من بداية باكثير لكتابة هذا النوع من الشعر كتب كل من السياب ونازك الملائكة ذاك النوع من الشعر. ومما يؤسف له حقًا أنّ هذا الشاعر الرائد قد فارق الحياة بعد أن أصدر عشرات المسرحيات والروايات، لكنّه لم يصدر ديوانًا شعريًا واحدًا كما لم يكن مهتماً بجمع شعره باستثناء تلك العناية التي لقيتها بداياته التي جمعها تحت عنوان «أزهار الربى وشعر الصبا». وقد ظلت مخطوطة منسية في مكتبته إلى أن عثر عليها قبل أعوام الدكتور محمد أبو بكر حميد الذي أشرف على نشر هذا الديوان الوحيد.

ولمزيد من التفصيل على هذا الجانب من حياة المبدع باكثير يُنظر كتاب الدكتور عبد العزيز المقالح: «علي أحمد باكثير رائد التحديث في الشعر العربي المعاصر، دار الكلمة، صنعاء» [المقالح، باكثير رائد التحديث، ص 58 ـ 60؛ السيّاب، مجلّة الآداب، عدد يونيو ـ جوان، 1954م، بيروت، ص 96؛ وأحمد فرج خنيش، باكثير أوّل من كتب الشعر الحر، مجلّة الأمل، ص 112].

أمّا الدكتور فايز الداية فقد تحدّث عن الكوميديا في مسرع باكثير بقوله: «إنّ المسرح العربي المعاصر وجمهوره بحاجة إلى إعادة اكتشافه للأعمال الكوميدية التي قدّمها باكثير من خلال حرفية ناضجة خبرت الدراما في وجوهها، فأمسكت بالمفارقة والمواقف الكاشفة للضعف البشري، وانطلقت الضحكة والسخرية اللاذعة في حوار طيّع ينبض بالحياة. ونرى في مسرحيات باكثير الكوميدية حقولاً للنقد الاجتماعي، وأدوات في صراع الشعوب ضد مستعمريها والطامعين في خيراتها، ثم تشع نماذج إنسانيّة تلمس بشغف القلب في ابتسامات تحيط بها وأسى يكتنف جوانحها وحقائق تلتمع من بين مواجهاتها الطريفة».

لقد تمرّس باكثير بالتأليف المسرحي ما يزيد

على عشر سنوات قبل أن يكتب أعماله الكوميدية، وقد تفجّرت في أعماقه الإبداعيّة هذه القدرة على الإضحاك والسخرية عندما غلا الغضب والحنق على أولئك المستعمرين الذين كبّلوا الأرض العربيّة بأغلال بدأت تتكسر، وتآمروا مع الصهيونيّة على تدمير الحق العربي في فلسطين.

كتب باكثير خمسين مسرحيّة قصيرة نشرها في الصحف، ثم جمع عددًا منها في كتاب تحت عنوان «مسرح السياسة»، هكذا أصبحت مسرحيات باكثير تشكل سلاحًا قويًا لمقارعة الاستعمار والطامعين، ولعلّ رواياته أيضًا خاصة التاريخيّة لعبت مثل تلك الأدوار التي لعبتها مسرحياته... [فايز الداية، الكوميديا في مسرح باكثير، ص 62 ـ 65؛ ونذير جعفر، الرواية عند باكثير، ص 74 ـ 76].

وأخيرًا نكون أمام سؤال البداهة. هل نال باكثير حقه كأديب ومبدع عربي؟

تحصّل على عديد من الجوائز والأوسمة ومنها: حصوله على وسام العلوم والفنون (1961م)، وعلى جائزة الدولة التقديريّة للآداب والفنون (1962م)، وعلى وسام عيد العلم (1963م)، وعلى وسام الشعر في مهرجان خاص أقيم بالجيزة تكريمًا للشاعر الملحمي الكبير أحمد محرّم [الموسوعة العربيّة العالميّة، مج 16، ص 548].

ورغم ذلك يرى بعض الأدباء والنقاد من أجيال مختلفة، منهم من عاصره وبدأ معه رحلة الإبداع، ومنهم من تتلمذ عليه، ومنهم القائم على دراسته أو المحافظ على تراثه، يرى هؤلاء أنّ باكثير بالرغم من الشهرة الواسعة التي نالها في رحلته الأدبيّة (1910 ـ 1969م) لم ينل بعد حقه بالشكل اللائق مقارنة بغيره من الأدباء المصريين. وبهذا الصدد أجرى الأستاذ عبد الناصر عيسوي بعض اللقاءات ومنها لقاؤه بالأديب الكبير نجيب محفوظ وصاحب الترجمة من جيله، فقال: أنا وباكثير ظهرنا معًا، كما أنّنا حصلنا معًا على جائزة السيدة قوت القلوب الدمرداشية في عام واحد. هو عن روايته «سلامة» وأنا عن روايتي «رادوبيس»، وقرأت كثيرًا من أعمال باكثير، ولا شكّ أنّه أديب عظيم، ولكن إذا أردنا الدقّة فهو كاتب مسرحي أكثر منه روائيًا.

ولأن نجيب محفوظ لا يعترف بحكاية ظلم بعض الأدباء ما داموا قد وجدوا منبرًا لنشر أعمالهم، فقد رد بقوله: كيف ظُلم؟ إنّه كروائي نشرت أعماله، وما يُصلح منها للسينما تم تقديمه، وهو كمسرحي تم تمثيل الكثير من أعماله المسرحيّة في حياته وبعد مماته، أمّا إذا كان قد مات وفي ذهنه شيء لم يتم في حياته فهذا ليس ظلماً، ولكنها إرادة الله.

أمّا الأديب فاروق خورشيد فيوضح موقف باكثير الذي أودى به إلى طريق الآلام قائلاً: كان باكثير صاحب موقف في الحياة وفي الفكر، ومن هنا بدأت متاعبه، وابتدأ طريق آلامه الذي لم ينته بعد انتهائه هو، وقد ظُلم باكثير حيًا، فقد تناساه النقاد أو تعمّدوا نسيانه، رغم كتبه الكثيرة العدد، ورغم محاولاته في دنيا المسرح ودنيا الرواية، ودنيا الدراسات، وعالم الشعر الرحب، كما أسرع النقّاد والدارسون بعد وفاته إلى إغلاق صفحة الحديث عنه، وهذا الموقف الظالم من واحد مثل باكثير إنّما يمثل تمثيلاً صحيحًا مرض العصر في دنيا نقدنا الأدبي...

ومثل ذلك يؤكده الشاعر الدكتور عبده بدوي الذي صاحب باكثير فترة طويلة من حياته، بل يرد فصولاً من معاناة باكثير. ويجيب الأديب والناقد الدكتور محمد حسن عبد الله، أستاذ النقد الأدبي بجامعة القاهرة عن السؤال المطروح حول ظُلم باكثير، فيقول: نعم لم يأخذ حقّه العلمي من العناية بإنتاجه، وإنّ باكثير أديب يجمع بين السيطرة على أدواته، ووضوح مشروعه الفكري الحضاري، فهو قاص متميّز، وشاعر أصيل، وكاتب مسرحي من الطراز الأول، في تكامل نادر بين فنون الإبداع، وبالإضافة إلى هذا فإنّ أيديولوجيته الإسلاميّة جعلت هذا الإنتاج ـ على تنوّعه ـ يلتقي في إطار مجدّد هو رؤيته العربيّة الإسلاميّة.

تلك كانت بعض من المواقف الصريحة والجريئة عن الأديب باكثير، تضاف إلى ذلك أيضًا تلك الخطوة الجادّة التي قام بها جماعة من المبدعين والنقّاد وهي تأسيس جمعيّة أصدقاء علي أحمد باكثير، ومنهم الأستاذ إبراهيم الأزهري، ود. يسري العزب، وفؤاد حجّاج، ود. محمد أبو بكر حميد الباحث الذي وقف حياته على جمع تراث باكثير وغيرهم [عبد الناصر عيسوي، باكثير... المفترى عليه، ص 72 ـ 73؛ ونذير جعفر، الرواية عند باكثير، ص 74 ـ 75].

كذلك أعتقد أنّ باكثير ظُلم أيضًا ولم يأخذ حقّه بالشكل المطلوب في بلاده اليمن، بل في مسقط رأسه حضرموت، أي تناساه أهل موطنه، وقد تمّ تدارك الأمر مؤخراً إذا أولت الجمهوريّة اليمنيّة اهتمامها بهذا الأديب المبدع من خلال عقد الندوات لإحياء ذكراه في اليمن وخاصة في مدينته سيئون بمحافظة حضرموت، وكذا ترميم منزله بسيئون وتحويله إلى متحف ثقافي.

عاد باكثير إلى وطنه سيئون بحضرموت في أبريل 1968 بعد غياب 36 عامًا، وغادرها في مايو من نفس العام.

توفي باكثير بالقاهرة في 10 نوفمبر 1969.

آثاره

أ ـ الشعر:

1 ـ أزهار الربى في شعر الصبا (ديوان).

ب ـ القصة والرواية:

2 ـ سلامة القس، (حولت فيلمًا سينمائيًا)؛ 3 ـ وإسلاماه (حولت فيلمًا سينمائيًا)؛ 4 ـ الثائر الأحمر؛ 5 ـ سيرة شجاع 6 ـ ليلة النهر.

ج ـ المسرحيّة:

7 ـ همام أو في بلاد الأحقاف؛ 8 ـ أخناتون ونفرتيتي؛ 9 ـ الفرعون الموعود؛ 10 ـ روميو وجولييت (مترجمة عن الإنجليزيّة بالشعر المرسل في عام 1936)؛ 11 ـ عودة الفردوس؛ 12 ـ سر الحاكم بأمر الله؛ 13 ـ الدكتور حازم؛ 14 ـ أبو دلامة؛ 15 ـ مسمار جحا؛ 16 ـ السلسلة والغفران؛ 17 ـ مأساة أوديب؛ 18 ـ سرّ شهرزاد؛ 19 ـ شعب الله المختار؛ 20 ـ إمبراطوريّة في المزاد؛ 21 ـ أوزوريس؛ 22 ـ الفلاح الفصيح؛ 23 ـ دار ابن لقمان؛ 24 ـ هاروت وماروت؛ 25 ـ هكذا لقي الله عمر؛ 26 ـ الدودة والثعبان؛ 27 ـ إبراهيم باشا؛ 28 ـ قطط وفيران؛ 29 ـ الدنيا فوضى؛

30 ـ شايلوك الجديد؛ 31 ـ حبل الغسيل؛ 32 ـ حمدان قرمط (أحد مؤسسي الحركة القرمطيّة في العراق والجزيرة العربيّة)؛ 33 ـ جلفدان هانم؛ 34 ـ قصر الهودج؛ 35 ـ الشيماء ـ شادية الإسلام (حولت إلى فيلم سينمائي)؛ 36 ـ التوراة الضائعة، آخر مسرحيّة له كتبها في 1969م.

د ـ الملاحم الإسلاميّة الكبرى:

37 ـ على أسوار دمشق؛ 38 ـ معركة الجسر؛ 39 ـ كسرى وقيصر؛ 40 ـ أبطال اليرموك؛ 41 ـ تراب من أرض فارس؛ 42 ـ رستم؛ 43 ـ أبطال القادسيّة؛ 44 ـ مقاليد بيت المقدس؛ 45 ـ صلاة في الإيوان؛ 46 ـ مكيدة من هرقل؛ 47 ـ عمر وخالد؛ 48 ـ سر المقوقس؛ 49 ـ عام الرمادة؛ 50 ـ حديث الهرمزان؛ 51 ـ شطا وأرمانوسة؛ 52 ـ الولاة والرعية؛ 53 ـ فتح الفتوح؛ 54 ـ القوي الأمين؛ 55 ـ غروب الشمس.

المصادر والمراجع

● الموسوعة العربيّة العالميّة، لمجموعة مؤلفين، ط 2، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، 1999م؛ ● مجلّة الكويت: ملف خاص «باكثير... مبدع عربي... وحد الأمّة» العدد 215، 1 سبتمبر 2001م (ص 57 ـ 76) (ملف خاص لباكثير يتوافق ضمن التبادل الثقافي: الأسبوع الثقافي بين الكويت واليمن، وضمن الاحتفال بالكويت عاصمة للثقافة العربية 2001م)؛ ● المقالح، عبد العزيز، الموسوعة اليمنيّة، ط 2، مؤسسة العفيف، صنعاء، 2003م؛ ● المقالح، عبد العزيز، باكثير رائد التحديث في القصيدة الجديدة، مجلّة الكويت، ملف خاص... 2001، (ص 58 ـ 61)؛ ● الداية، فايز، الكوميديا في مسرح باكثير، مجلّة الكويت، ملف خاص... (ص 62 ـ 65)؛ ● عيسوي، عبد الناصر باكثير... المفترى عليه، مجلّة الكويت، (ص 72 ـ 73)؛ ● جعفر، نذير، الرواية عند باكثير بين المرجعيّة التاريخيّة والتخييل، مجلّة الكويت، ملف خاص... (ص 74 ـ 76)؛ ● بوذينة، محمد، مشاهير القرن العشرين، الطبعة الأولى، تونس، 1994م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م؛ ● السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تح. إبراهيم المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، الطبعة الأولى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 2002م؛ ● السياب، بدر شاكر، مجلّة الآداب، عدد يونيو ـ جوان 1954م، بيروت (ص 96)؛ ● خنبش، أحمد فرج، باكثير أوّل من كتب الشعر الحر، مجلّة شعاع، العدد 17، حضرموت، أغسطس، 2002.

د. محمد عبد الله باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

باكثير، محمد بن محمد بن أحمد

(1283هـ/1867م - 1355هـ/1936م)

آل باكثير أكثر أعقابهم بمدينة تريس في حضرموت، ومنهم جماعة بمكّة المكرّمة، ولا يزال بعضهم بمدينة سيئون بحضرموت ولهم بها مآثر ومساجد، ومنهم جماعة علماء وفضلاء، ومنهم صاحب الترجمة الشيخ محمد بن محمد باكثير، وكذا منهم وحامل لواء شعرهم الأديب علي أحمد باكثير نزيل مصر، الشاعر والكاتب الحضرمي الذي بدأ حياته الشعريّة والأدبيّة في حضرموت، ثمّ هاجر إلى مصر واستقرّ بها مواصلاً نشاطه الأدبي فيها حتّى توفاه الله في القاهرة في العاشر من شهر نوفمبر 1969 [عبد الرحمن السقاف، معجم بلدان حضرموت، ص 365؛ ومحمد بوذينة، مشاهير القرن العشرين، ص 111 - 112].

كان صاحب الترجمة قاضياً، بل يُعدّ من شيوخ العلم والأدب في حضرموت، ولد في حضرموت بمدينة سيئون وأخذ العلم عن جماعة من علماء وشيوخ عصره، ومن ثمّ استفاد منه الكثير من طلاّب العلم ومنهم العلامة المؤرّخ عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف (ت 1375هـ/ 1956م) أخذ عنه في علم النحو والصرف، بل كان يحضر دروس ابن عبيد الله السقاف في التفسير، والفقه، والحديث. بقي مستقرًّا في بلدته سيئون معتكفًا بأحد مساجدها إلى أن توفي في أوائل سنة 1355هـ/ 1936م [عبد الرحمن السقاف، معجم بلدان حضرموت، ص 365؛ الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص 395؛ عبد الله السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميّين، ج 5، ص 104؛ والزركلي، الأعلام، ج 7، ص 81].

آثاره

له مصنّفات كثيرة تقدر بحوالي 22 مصنّفاً في التاريخ والنحو، والصرف، والتجويد، والعروض، والفقه، والفرائض، ومنها:

1 - كتاب البنان المشير إلى علماء وفضلاء آل باكثير (مطبوع)؛ 2 - حب الغمام في تراجم أشياخي الكرام؛ 3 - مبتدأ العربيّة في شرح الآجروميّة؛ 4 - عين الهدى حاشية على قطر الندى؛ 5 - كفاية الواعي شرح منظومة السجاعي «في الاستعارات»؛ 6 - الفوائد الحضرميّة شرح البهجة المرضيّة على ألفية ابن مالك؛ 7 - حاشية على تسهيل ابن مالك، وقد شرحها عبد الله بن محمد بن حامد بن عمر السقاف سماه «التكميل لخاتمة التسهيل» (مطبوع)؛ 8 - حاشية على شرح المتممة للفاكهي؛ 9 - كتاب في النحو على حروف الهجاء؛ 10 - له نظم كثير في «ديوان»؛ 11 - جمع الترجيح والتوجيه لمسائل التنبيه؛ 12 - شرح تحفة الأطفال في التجويد؛ 13 - منظومة في آيات الإضافة على قراءة نافع؛ 14 - الأحراز بشرح مختصر الألغاز

(خ) بمنزل صاحب الترجمة في سيئون؛ وله رسالة في الجبر والمقابلة.
يبدو أنّ أغلب هذه الآثار مخطوطة لأنّنا لم نجد أي إشارة في مصادر صاحب الترجمة هل هي مخطوطة أو مطبوعة [الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص 33، 254، 361، 395؛ السقاف، معجم بلدان حضرموت، ص 349؛ الزركلي، الأعلام، ج 7، ص 81، وفهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الأحقاف، ص 113].

المصادر والمراجع

● السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت المسمّى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تح. إبراهيم أحمد المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، الطبعة الأولى، مكتبة الإرشاد، صنعاء 2002م؛ ● الحبشي، عبد الله محمد، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنيّة، صنعاء، بدون تاريخ؛ ● االسقاف، عبد الله محمد، تاريخ الشعراء الحضرميّين، مكتبة الحارثي، الطائف، 1990م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 4، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م؛ ● فهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الأحقاف بتريم لمؤلّفين اليمنيّين، المركز اليمني للأبحاث الثقافيّة والآثار والمتاحف، سيئون، 1988م.

د. محمد عبد الله بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن.

الباكوي، عبد الرشيد بن صالح نـوري

(ت 816هـ/1413م)

المعلومات

المعلومات عنه شحيحة، بل معدومة، وهو نفسه لا يذكر شيئاً عن حاله، سوى ما ذكره مرة واحدة من أن والده صالح بن نوري توفي 806هـ/1404م ، وكان له من العمر سبع وسبعين سنة [الباكوي، تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، ورقة 55 بº].

آثاره

صنف الباكوي كتابين :

1 ـ كتاب في الأدوية المفردة ، منه نسخة في خزانة حاجي بشير أغا ، المكتبة السليمانية، استانبول رقم 515، فيها صور حيوانات ونباتات؛ 2 ـ كتاب تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، منه نسخ في :

ـ المكتبة الأهلية بباريس، رقم 2246 ..nr

ـ مكتبة ميونخ رقم 889، نقلت من نسخة بخط المؤلف تاريخها سنة 816هـ/ 1413م.

وقد اعتنى بهذه النسخة ودراستها العلاّمة

أغناطيوس كراتشكوفسكي في المؤلفات المختارة، موسكو، 1957، المجلد الرابع، ص364، 512، 513، ودرسها أيضاً، س.ب، آشوريكلي، تحت عنوان، «عبد الرشيد الباكوي، العالم الجغرافي في القرن الخامس عشر الميلادي»، مجلة أخبار أكاديمية العلوم الأذربيجانية السوفياتية، سلسلة العلوم الاجتماعية سنة 1958 ، العدد 5، ص33-40 ، وأعاد ترجمتها إلى الروسية وصنع فهارسها، ضياء الدين بن موسى بونياتوف، موسكو، دار النشر العام، إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، 1971م.

وكتاب الباكوي ما هو إلا اختصار لجغرافية زكريا القزويني المسمى بـ «آثار البلاد وأخبار العباد»، المؤلف سنة 674هـ/ 1276م.

والاختصار لم يكن دقيقاً، به نقص وتحريف، وخطأ في المعلومات، وهذا ينم عن ضعف ثقافة الباكوي، فهو أحياناً يخلط ما بين الأقاليم ويحذف من الأسماء وخاصة البلدان والأنهار والجبال وغيرها ويضيف إقليمًا إلى آخر، ولكنه يفوق القزويني في وصفه لمدينة باكو إذ يضيف معلومات من مصادره الخاصة ، وكذا عند حديثه عن أذربيجان والطرق والمسالك الواقعة قرب بحر الخزر، ويورد معلومات ذات قيمة عن :

تبريز، ومارند ، وشبران، ونخجوان وغيرها، كما أنه يعطي الكثير من المعلومات عن مصنوعات البلاد والبضائع التجارية في مناطق التركستان وبلاد آسيا الوسطى مما لا يوجد في غيره من الكتب، ومن هنا تأتي أهمية كتابه الجغرافية، فهو يخالف القزويني في خطوط الطول والعرض، مع أنه يبتدئ حسابه من جزر الكناري [كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، 517].

■ المصادر والمراجع

● آشور بكلي، س.ب، عبد الرشيد الباكوي، العالم الجغرافي في القرن الخامس عشر، مجلة أخبار أكاديمية العلوم الأذربيجانية السوفياتية، سلسلة العلوم الاجتماعية، 1958، العدد 5، ص33-40 ؛ ● الباكوي، عبد الرشيد بن صالح بن نوري، كتاب تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار، موسكو، دار النشر العام، إدارة التحرير الرئيسية للآداب الشرقية، 1971 ؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بغداد ، مكتبة المثنى (بالأوفست . د.ت) الجزء الأول، 568 ؛ ● ششن ، رمضان، فهرس مخطوطات الطب الإسلامي، استانبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، 1404هـ/ 1984م ؛ ● كراتشكوفسكي، أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، جزآن. ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1/ 481، 2/ 231، الذيل، 1/ 883.

د. محمد عيسى صالحية
جامعة اليرموك ـ أربد ـ الأردن

باكير، إبراهيم اللّيبي

(1273هـ / 1856م ـ 1362 هـ/ 1943 م)

إبراهيم باكير. فقيه على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، وقاض من القضاة البارزين، له إفتاءات واجتهادات حنفية، مدونة، واهتمام كبير بالأدب والشعر واللغة، ويشتغل بمباحث المنطق والحكمة.

ولد بطرابلس الغرب عاصمة الدولة الليبية سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف هجرية. وتوفي بها سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف هجرية [كحالة، معجم المؤلفين، ج 1، ص 15]، كان ينعت بشيخ مشايخ القطر الليبي، أقام في دمشق (عاصمة دولة سوريا) نحو ثماني سنوات، ولما عاد إلى طرابلس عُيِّن فيها حاكما بالمحكمة العليا واستمر فيها خمسة عشر عاما إلى حين وفاته [الزركلي، الأعلام، 1/ 33].

آثاره

له تآليف فقهية وأدبية وشعرية ومنطقية، منها:

1 ـ فتاوى على المذهب الحنفي؛ 2 ـ منظومة في الحكمة والأدب؛ 3 ـ رسالة في علم البيان؛ 4 ـ رسالة في المنطق؛ 5 ـ منظومة في المقولات؛ 6 ـ شرح منظومة المقولات؛ 7 ـ ديوان شعر [كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 15؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 33].

المصادر والمراجع

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة 14، 1999؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

البالكي، محمد بن آدم بن عبد الله

(560هـ / 1164م ـ 643هـ / 1245 م)

هو محمد بن آدم بن عبد الله البالكي، من أهم وأكبر علماء بالك. كانت له شهرة لا توصف لثقافته الموسوعية. ولد بقرية روست الواقعة في شمال منطقة كلالة بالعراق سنة 1164 هـ، وبالك قبيلة كبيرة جاء اسمها نسبة إلى منطقة بالك الممتدة من راوندوز إلى

رايات ذكرها ابن فضل الله العمري (ت 749 هـ) في مسالك الأبصار، وينتسب إلى بالك كثير من العلماء والمشاهير وهم أكراد مسلمون شوافع.

درس البالكي علوم اللغة والقرآن وما يتعلّق بهما من علوم في قريته روست التي نشأ فيها. ولما بلغ الثلاثين من عمره أتم علوم الجادة، ثم انصرف إلى دراسة العلوم، وكان محبًا للسفر، كثير الترحال من أجل طلب العلم والمعرفة. ومن جملة أسفاره ما كان منها إلى مهاباد في إيران سنة 1192هـ لتعلم اللغة الفارسية، ثم رجع إلى رواندوز في شمال العراق، واشتغل بالتدريس والتأليف، وكانت له صلات علمية عميقة مع كثير من علماء عصره، منهم: الشيخ عبد الله الخرباني (ت 1254 هـ)، والشيخ معروف النودهي (ت 1254 هـ) مؤلف منظومة النودهي المعروفة بـ «كفاية الطالب لنظم كافية ابن الحاجب»، وهي منظومة نظم بها كافية ابن الحاجب في النحو في 1683 بيتا، وقد شرح البالكي هذه المنظومة سنة 1232هـ وسمى شرحه لها «مصباح الخافية في شرح نظم الكافية»، ويقع الشرح في 423 صفحة.

كان البالكي عالما متبحرا في أكثر من علم وفن، وقد نال تبجيل علماء عصره في براعته بالعلوم العقلية والنقلية، وصفه أحد المؤرخين بقوله: «كان أحد علامة الدنيا صاحب التآليف العديدة... وهو الآية الكبرى في عصره ولو عدمت كتب العلوم لاستطاع أن يؤلف مثلها من حفظه». نظر إلى الإنسان وإلى الكون من خلال نافذة الدين، ولكن بنظر جاد وجريء.

تخرّج على يديه الكثير من العلماء، وأسس له مدرسة ومكتبة كان يرتادها طلاب العلم كثيرا ومازالت مكتبته في منطقة روست في شمال العراق بعهدة أحد أحفاده وهو: الشيخ ويسي بن الملا عبد اللّه، وقد ألف ونظَم العديد من القصائد الشعرية باللغة العربية واللغة الكردية، وله رسائل عدة باللغة الفارسية. يذكر أن الرجل عمّر طويلا، ولم أقف على سنة وفاته تحديدا، ولكنه في إحدى رسائله يذكر أنه قام بإحدى شروحاته في أواسط عمره سنة 1205هـ أي كان عمره بحدود 41 سنة، ولذلك يمكن اعتبار سنة وفاته بحدود سنة 1245 هـ.

آثاره

أ. في علم الكلام والمنطق:

1 - شرح إثبات الواجب؛ 2 - مرآة المأمول (كتاب. منطقي)؛ 3 - ميقات المعقول في شرح مرآة المأمول؛ 4 - حاشية على حاشية عبد الحكيم الهندي على شرح الشمسية.

ب - في علم الفلك:

5 - شرح خلاصة الحساب؛ 6 - مفتاح المغيب في العمل بالربع المجيب؛ 7 - تذكرة الأحباب في العمل بالأسطرلاب؛ 8 - مفتاح التنجيم في شرح التقويم؛ 9 - مرآة المعقول؛

ج - في علم النحو:

10 - مصباح الخافية في شرح نظم الكافية؛ 11 - تعليقات على شرح السيوطي على ألفية ابن مالك؛ 12 - تعليقات على حواشي الضيائية لعصام الدين الأسفراييني؛

د ـ في علم البلاغة:

13 ـ تحرير البلاغة؛ 14 ـ تعليقات على الفن الثاني من شرح التلخيص؛

هـ ـ في علم الحساب:

15 ـ شرح رسالة الحساب للبهاء العاملي؛
16 ـ شرح أشكال التأسيس والهندسة لشمس الدين السمرقندي؛

و ـ وله أيضا مؤلفات أخرى منها:

17 ـ الوضع والبيان؛ 18 ـ مشكاة المنقول؛
19 ـ مجالس النواميس في المواعظ؛
20 ـ سلسلة الذهب...

■ المصادر والمراجع

● العزاوي، عباس، تاريخ علم الفلك؛ ● إسماعيل، زبير بلال، علماء ومدارس في أربيل؛ ● فصيح، إبراهيم، عنوان المجد؛ ● محمد، مسعود، حاجي قادري كويي (2/ 128).

د. دريد عبد القادر نوري
جامعة الموصل ـ العراق

■ بامبا، أحمد بن محمّد امباكي

(1270هـ / 1853م ـ 1347 هـ/ 1927 م) ■ ■ ■

الفقيه المتصوّف الأديب أحمد بامبا محمّد بن محمّد بن حبيب اللّه امباكي. ولد في امباكي باول (Mbacké-Baol)، وهي مدينة تقع شرق دكار، عاصمة السّنغال، على بعد 180 كم. وفي مدينة جولف (Djolof). شرع أحمد بامبا في حفظ القرآن الكريم على يد خال أمّه، المفسّر امباكي اندومبي (Mbacké Ndoumbé). لكن هذا الشيخ توفّي قبل أن يكمل حفظ الكتاب العزيز. فلحق بوالده، محمّد بن حبيب اللّه المشهور بمُمر أنتا سلي (Momar Anta Saly)، الذي كان يقيم يومئذ (حوالي 1865) عند مابه (Maba) في مدينة سالم (Saloum). فواصل حفظ القرآن على يده حتّى أتمّه. وشرع في تلقّي مبادئ العلوم الإسلاميّة على يد خاله محمّد بوسو (Bousso). ثمّ واصل دراسته عند ابن خالة والده، الشيخ صمبا تكلور كاه (Samba Toucouleur Ka). ولمّا اتّخذ الملك لاتجور (Lat-Dior) والده مستشارًا دينيًا لحق به في قرية بتار (Patar) من إقليم كجور (Kadior). وظلّ يتعلّم على يده ويتردّد على القاضي موسى جاختي (Diakhaté)، المشهور بماجاخاتي كالا (Madiahaté Kala). وكان هذا العلم من شعراء السّنغال البارزين في القرن الماضي. وعليه قرأ أحمد بامبا علوم اللّغة العربيّة وعلم العروض. وكان يختلف أيضا إلى محمّد بن محمد الكريم الديماني ليدرس عنه علم البيان والمنطق.

لمّا أكمل تعليمه العالي على يد والده بدأ يعضده في التعليم قبل أن يخلفه فيه بعد وفاته

عام 1299هـ / 1881م. وظلّ يمارس هذا النّشاط مدّة سنة ونيف. ثمّ انصرف اهتمامه إلى التّربية الصّوفيّة. وعاد إلى مسقط رأسه، امباكي باول، ليتفرّغ لهذه التجربة، لكنّه لم يستطع أن يقيم بها طويلا. وذلك لتردّد النّاس عليه وعدم اطمئنان أهله إلى الحركة الجديدة التي جاء بها. وعلى هذا اضطرّ أحمد إلى التّرحال عبر مختلف مناطق السّنغال وموريتانيا. وقد أتاح له هذا التنقّل فرصة الاتصال بكثير من الشيوخ المشهورين والاستفادة منهم علميًا وروحيًا.

كما تمكّن خلاله من اقتناء عدد من الكتب المنتشرة في المنطقة في ذلك الوقت. ويبدو أنّ همّه الأوّل كان جمع الكتب الصّوفيّة. وممّا اقتنى منها كتاب «إحياء علوم الدّين» للإمام أبي حامد الغزالي، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكّي، و«الرّسالة القشيريّة». وكان لهذه الكتب تأثير بالغ في فكره.

ولعلّ أحمد كان يرجو أن تنقطع الحركة التي أزعجت أهله في امباكي بابتعاده عن تلك المدينة فترة من الزّمان. لكن الأمور لم تجر على ما كان يشتهيه. لذلك قرّر تأسيس قرية منعزلة في أدغال الشمال الشّرقي لمدينة امباكي سمّاها دار السّلام. وكان يخلو فيها لتطبيق حصيلة قراءاته الصّوفيّة. لكن توافد عليه الناس مرّة أخرى فاضطرّ مجدّدا إلى البحث عن معزل أصعب مسلكا. وهو المقرّ الذي وجده عام 1887م بشمال دار السّلام وأطلق عليه اسم «طوبي».

بداية من هذا التّاريخ بدأت السلطات الاستعماريّة تراقبه. لذلك حاول أن يطمئنها على سلامة نواياه. فأكّد لها أنّه لا يريد إلاّ مكانا هادئا يستطيع فيه ممارسة رسالته في التّربية والتّعليم. لكنّ خصومه الكثر كانوا يجتهدون في تكدير علاقته بقوّات الاحتلال الفرنسي.

مهما يكن من أمر فقد اضطرّ أحمد بامبا إلى مغادرة «طوبي» بعد أن اختلّ النّظام الذي وضعه لتربية أتباعه بسبب كثرة الوافدين عليه. واتّجه إلى جولوف Djolof لمواصلة عمله. لكن كثرت ضدّه وشايات الأعداء وشكاوى الخصوم. فلم يكد يستقرّ في امباكي جولوف عام 1895م حتّى اعتقلته السّلطات الاستعماريّة في 13/ 08/ 1895م ونفته إلى الغابون حيث بقي تسع سنوات. بعد ذلك أعيد إلى السّنغال في 21/ 09/ 1902م.

كانت الإدارة الاستعماريّة ومن حالفها من المسلمين يتوقّعون أن يتفرّق أتباع الشيخ بنفيه. فلم تزده هذه المحنة إلاّ عظمة في نظر أتباعه. فازداد بذلك حبّهم له وتعلّقهم به وتفانيهم في خدمته. هذا ما قوّى حركته الدينيّة وجعلها أخطر ممّا كانت عليه، الأمر الذي أدّى إلى اعتقاله مجدّدا في 13 يونيو عام 1903م وإرساله إلى موريتانيا لدى آل الشيخ سيدي المختار الكنتي بسهوة الماء (لآل هذا الشيخ علاقات عريقة ودائمة بأسرة الشيخ محمّد بامبا. على أساسها نشط بين الأسرتين تبادل ثقافي لعلّ أجمل آثاره تلك القصائد الرائعة وأخذ آل بامبا الورد القادري من الكنتيّين). هناك وضع أحمد بامبا تحت الإقامة الجبريّة لمدّة أربع سنين. ثمّ أعيد إلى السنغال عام 1907م ليظلّ في الإقامة الجبريّة. وكان ذلك في مرحلة أولى بقرية تشيين (Thiene) في منطقة جولوف. وهي

مرحلة امتدّت إلى عام 1912م. وكانت المرحلة الثانية في جوربل (Diourbel). ودامت من سنة 1912م حتّى وفاته في 20 يوليو 1927م.

■ آثاره

أسّس أحمد بامبا عام 1904 طريقة صوفيّة تسمّى «المريديّة». وهي من أكثر الطّرق الصوفيّة شعبيّة في السّنغال. إذ يعتنقها أكثر من ثلث سكّان البلاد. ولها عاصمة روحيّة تسمّى «طوبي» يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة. وبها جامع أقيم بين سنة 1931 و1963م حول ضريح الشيخ. ويعتبر من أكبر الجوامع في غرب إفريقيا. وينظّم في مدينة طوبي في 18 صفر من كلّ عام موسم ديني ثقافي تجاري يواكبه أكثر من مليون نسمة من أتباع الطريقة وغيرهم.

ولقد بدأ الشيخ ممارسة التأليف في وقت مبكّر. فنظّم كتاب السنوسي في التوحيد «أم البراهين» وسمّى منظومته «مواهب القدوس». وهي قصيدة تتكوّن من 633 بيتا. ولا يزيد الناظم على آراء السنوسي إلاّ بعض التعليقات التفسيريّة الموجزة. إذ إنّ غرضه من النظم لم يكن إلاّ تسهيل حفظ العقيدة للنّاشئين.

كما نظم أحمد بامبا في حياة والده كتاب الغزالي في التصوّف «بداية الهداية» وسمّى قصيدته «ملين الصّدور». ولمّا ضاع أصل هذه القصيدة أعاد نظم الكتاب في منظومة سمّاها «منوّر الصّدور». أمّا «مواهب القدوس» و«مليّن الصّدور»، فقد أطلع عليهما والده، بل كان يدرس أوّلهما لأولاده الصّغار تعبيرا عن تقديره لجهود ولده العلميّة.

على العموم. يمكن أن يقال بأنّ آثار أحمد بامبا تتناول مباحث في التّوحيد والفقه والتصوّف والأخلاق والأدب الدّيني (المدائح). ومعظمها نصوص بنيت على نصوص أخرى. لكن ضمّنها الشيخ كثيرا من آرائه قصد إثرائها وتوضيح اختياره في المسائل المطروحة.

ما عدا المدائح والابتهالات التي يعود نظمه لجلّها إلى فترة نفيه في الغابون (1895 ـ 1902م) يمكن أن نقدّر كتابة أعمال الشيخ في الفترة الممتدّة بين سنة 1870 وسنة 1895م. ونذكر من أشهرها:

1 ـ مواهب القدوس؛ 2 ـ تزوّد الشبّان؛ 3 ـ تزوّد الصّغار؛ 4 ـ الجوهر النفيس؛ 5 ـ مسالك الجنان؛ 6 ـ مغالق النّيران؛ 7 ـ نهج قضاء الحاج؛ 8 ـ جالية البرور...؛ 9 ـ البنونيّة الرّائعة؛ 10 ـ مواهب النّافع؛ 11 ـ جذب القلوب؛ 12 ـ مقدّمات الأمداح؛ 13 ـ جالبة المراغب.

■ المصادر والمراجع

- O'Brien (D.B. Cruise), The Mourides of Senegal, The political and Economic Organisation, an Islamic Brotherhood, Clarendon Press, Oxford, 1971; • Sy (Cheikh Tidjane), La Confrérie sénégalaise des Mourides, un essai sur l'Islam au Sénégal, Présence Africaine, Paris 1969; • Thiam (Médoune), Cheikh Ahmadou Bamba Fondateur du Mouridisme (1850-1927), Imprimerie National Patrice Lu-

mumba, Konakry, 1962.

- Mbacké, Serigne Bachir, Les Bienfaits de l'Eternel, traduit en Francais par Khadim Mbackè, IFAN, Dakar 1995.

Articles

- Mbacké, Mame Bara "Ahmadou Bamba", L'Afrique Musulmane, First year (November 1965). 5.
- Monteil, Vincent, "Une confrérie musulmane : les mourides du Sénégal", Archives de sociologie des religions XV (1963), 77-104.

Documents Inédits

- Nekkach, Lucien, "Le Mouridisme" (ANS 2G 56).
- Sy, Cheikh Tidiane, "Traditionnalisme Mouride et Modernisation Rurale au Sénégal: Unpuplished Doctoral Dissertation, sixth Section of Economic and Social Sciences, the Sorbone University of Paris, 1965.
- Behman, Lucy, C., Muslim Brotherhoods and Politic in Senegal, Cambridge : Harvard University Press, 1970.
- Dumond, Fernand, La pensée religieuse d'Ahmed Bamaba, première édition, NEA Dakar-Abidjan, 1975.

أ. خديم امباكي
دكّار ـ جمهورية السنغال

بامخرمة السيباني، عبد الله بن عمر

(907هـ / 1501م ـ 972هـ / 1564 م)

هو الشيخ عبد الله بن عمر بن عبد الله، كنيته أبو مخرمة وأحيانا يضاف له السيباني، نسبة إلى قبيلة سيبان الحضرمية، وهي بطن كبير من حمير، هاجر بعضهم الى مصر ومنازلهم بالفسطاط [عن مجلة شبكة حضرموت العربية في الأنترنت؛ وبامطرف، كتاب الجامع، ص 206].

ولد الشيخ بمدينة الشحر بحضرموت عام 907هـ، ونشأ في بيئة علم، وبين أفراد أسرة مثقفة متعلّمة صالحة متصوفة، فجدّه وأبوه وغيرهما من أفراد الأسرة كانوا علماء كبارًا، وصلحاء أخيارا، والبيت المخرمي (آل بامخرمة) بيت علم وفقه وقضاء، وقد تسلسل فيه القضاء إلى اليوم. وهذه التنشئة في هذا البيت فيها عون كبير له على تلقي المعلومات بسهولة ويسر. وقد أصبح البيت الذي نشأ فيه مدرسة داخلية فيها تعليم وتهذيب كأمثالها من بيوتات العلم والفضل، وقد قرأ القرآن وحفظه

في سنّ مبكرة [الشاطري، ص 311 ـ 312].

درس الشيخ عبد الله بحضرموت، وأول من أخذ عنهم العلم والمعرفة والده عمر، وعمّه الطيّب بامخرمة القاضي العدني والمؤرخ الكبير صاحب «قلادة النحر في التاريخ»، وغيرهما. ثمّ رحل الى الخارج ودرس على الأئمة البارزين للاستزادة من العلم والثقافة. وكانت حصيلته وفيرة جدًا سواء في الكم أو في الكيف، فقد توسع في أكثر من عشرين علمًا من العلوم الشرعية والعقلية والعربية. منها الأصول والحديث، والفقه، والتفسير وآلاتها وأقسامها، ومنها الجبر والمقابلة والهندسة، والفلك، والتواريخ والأنساب، وشارك في الطب والسياسة. وهكذا استمرّ في رحلاته لكسب المزيد من العلم، بل أصبح عالمًا يستفاد منه في الكثير من الأقطار التي زارها [الشاطري، ص 312].

والشيخ عبد الله من أعيان العلماء وكبار المدرسين وكبار الأئمة حيثما حل، ومن أهمّ أعماله الدروس للطلبة في حضرموت وفي عدن؛ وقد تولّى التدريس في مدارسها الشهيرة المنصورية، والطاهرية، والفرحانية، إلى مهمة الوعظ والإرشاد في جامعها، وتولّى أيضًا نظارة المدرستين السابقتين. درّس وعلّم أيضًا في زبيد وتعز، وفي الحرمين الشريفين؛ كما كان يقوم بمهمّة الافتاء حيث حل وحيث رحل [شبكة حضرموت العربية في الأنترنت؛ الشاطري، ص 316 ـ 317].

هكذا تبدو ظاهرة النبوغ والتفوّق العلمي في الشيخ بامخرمة، وقد شهد له العلماء بالتفوّق، ولمّا حجّ سنة 949هـ التقى في مكة بالعلامة الشيخ ابن حجر الهيثمي المكي، وحصلت بينهما بحوث فقهية بحضور علماء آخرين اعترف له فيها ابن حجر بسرعة الفهم وسعة العلم، وكان الشيخ بامَرُوني الشحري أستاذ بامخرمة يقول عنه إنه استفاد من تلميذه أكثر مما استفاد منه التلميذ، وكان عمه وشيخه الطيب بامخرمة القاضي العدني والمؤرخ صاحب كتاب «قلادة النحر» أحد مراجع التاريخ، قد وصفه بالنبوغ والتفوّق [الشاطري، ص 317 ـ 318].

وفي المجال السياسي كان الشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة مستشارا شرعيا وسياسيا للسلطان الكثيري بدر أبو طويرق، وكاتبا وأمين سر له، وكان يقدم له النصح، ولا يخرج به عن دائرة الشريعة الإسلامية، ولأبي طويرق ثقة كبيرة فيه، وقلّ أن ينقض السلطان لبامخرمة حكمًا. ومع هذا لم يستطع الشيخ عبد الله التوفيق بين أبيه العلامة الصوفي الشيخ عمر (ولد في 884هـ / 1479 م) وبين السلطان بدر أبو طويرق لأن الخلاف سياسي ومستعصى بين الاثنين بخصوص بلد الهجرين في وادي حضرموت مدينة الشيخ عمر والتي يجب أن تكون مستقلة عن أي سلطة غير سلطة أهلها في نظره. فما كان من أبو طويرق في النهاية إلّا الاستمرار في وضعها تحت حكمه ومراقبة الشيخ عمر وفرض الإقامة الجبرية عليه بمدينة سيئون التي توفي بها [سارجنت، حول مصادر التاريخ الحضرمي، ص 65 ـ 66؛ الشاطري، ص 318 ـ 319].

توفي الشيخ عبد الله سنة 972هـ بمدينة عدن وهو في أبرز مناصبها العلمية، وعمره خمسة

وستون عامًا؛ ودفن في الموضع الذي دفن فيه جده عبد الله بن أحمد بامخرمة قرب مشهد الشيخ جوهر [الشاطري، ص 319].

آثاره

1 ـ الفتاوى الكبرى المشهورة، رتبها ابنه علي زين العابدين في مجلدين بعد وفاته وهي من أبدع ما حرره الفقهاء من إفتاءات؛ 2 ـ الفتاوى الصغرى، المسماة الفتاوى الهجرانية نسبة الى المتقدم بأسئلتها الشيخ محمد بن علي العفيف الهجريني نسبة الى بلد الهجرين؛ 3 ـ المصباح أو مشكاة المصباح شرح العدة والسلاح في أحكام النكاح؛ 4 ـ مصنف فيه شرح على المنظومة الرحبية، في الفرائض؛ 5 ـ مجلد يسمّى النكت وفيه ملاحظات على تحفة ابن حجر؛ 6 ـ حواش على روض شيخ الاسلام زكريا، في مجلد؛ 7 ـ عدد من الرسائل الفقهية يزاول في كل منها بحثا وتحقيقًا في موضوع منفرد [شبكة حضرموت العربية في الانترنت؛ الشاطري، ص 313 ـ 314]؛ 8 ـ في الرياضيات له ما يقرب من عشر رسائل منها ما هو مزدوج بين الفقه والفلك والهندسة كرسائله في أوقات الصلاة، وفي سمت القبلة، وفي اختلاف المطالع وفي المناسك وفي ظل الاستواء وفي قسمة التركة؛ 9 ـ رسائل في الأوقات والساعات؛ 10 ـ مصنف في الفلك (نبذة في علم الفلك)، توجد نسخه في مكتبة آل الكاف في مدينة سيئون بحضرموت [الشاطري، ص313 ـ 314؛ سارجنت، ص 64].

المصادر والمراجع

● الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، الطبعة الثانية، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة 1403هـ / 1983م؛ ● المستشرق آر بي سارجنت R. B. Serjent، حول مصادر التاريخ الحضرمي، ترجمة سعيد عبد الخير النوبان، إصدار جامعة عدن، طبع جامعة الكويت، د.ت؛ ● بامطرف، محمد عبد القادر، الجامع، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء 1998م؛ ● شبكة حضرموت العربية في الأنترنت، 2003 م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 110.

أ. علي حسن معيلي
جامعة حضرموت ـ اليمن

بــــامخرمــــة، أبــو محمــد عبــد اللّه الطيب بن عبد اللّه بن أحمد

(870هـ/1465م - 947هـ/1540م)

أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة، مؤرّخ فقيه باحث. من أهل عدن ولد فيها وأصله من حضرموت، ويبدو أنّ أصله من الهجرين بحضرموت، وهو أحد أبرز أعلام اليمن، وخاصة عدن فهو فقيهها ومؤرّخها وقاضيها. [البغدادي، المصدر السابق، مج1، ص433؛ الزركلي، الأعلام، مج4، ص94؛ السقاف، معجم بلدان حضرموت، ص 206].

آثاره

له مصنّفات عديدة منها المخطوط ومنها المطبوع تناولها واستفاد منها الكثير وهي:

1 ـ أسماء رجال صحيح مسلم؛ 2 ـ شرح التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي؛ 3 ـ شرح صحيح مسلم، استمدّ بعض منه من شرح الإمام النووي [البغدادي، المصدر السابق، مج1، ص433؛ الزركلي، الأعلام، مج4، ص 94]. وله مصنّفات مشهورة استفاد منها المؤرّخون والباحثون، بل تُعد من المصادر الأساسية لتاريخ اليمن وهي: 4 ـ تاريخ ثغر عدن، وهو قسمان: الأوّل في ذكر شيء ممّا جاء من الآيات والأحاديث والأشعار، وغير ذلك من ذكرها، والثاني في ذكر من نشأ بها أو وردها من العلماء والصلحاء والملوك والأمراء والوزراء والتجّار، على ترتيب حروف المعجم، وبلغت تراجمهم 216 ترجمة، والكتاب مهم جدّا في معرفة أحوال عدن الاجتماعية والاقتصادية وصفة البيع والشراء، والعشور وتحصيلها. وفي معرفة بعض أحوال اليمن في القرنين الثامن والتاسع للهجرة. وقد حقّق هذا المخطوط ونشره المستشرق السويدي أوسكار لوفجرين O. Lfgren فزمشس، في ابسالا سنة 1936م مع نخب من تواريخ أخرى، أي أصبح بعنوان: تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، مطبوع [ايمن فؤاد سيّد، المرجع السابق، ص206؛ الزركلي، الأعلام، مج4، ص94؛ كحالة، معجم المؤلّفين، ج5، ص65؛ عبد الله الحبشي، فهرست المخطوطات اليمنية في حضرموت، ص 90]؛ 5 ـ المختار من تاريخ ثغر عدن، مخطوط [أيمن فؤاد سيّد، المرجع السابق، ص 206]؛ 6 ـ قلادة النحر في وفيّات أعيان الدهر، في التراجم والتاريخ، هو تاريخ كبير في ثلاثة أجزاء وقيل جزأين، مخطوط بدار الكتب رقم 167، وجاء فيه وصف مدينة عدن وتاريخها وتراجم علمائها، ألّفه بعد سنة 897هـ ووصل فيه سنة 927هـ، وورد في كتاب هدية العارفين أنّه وصل فيه إلى سنة 947هـ، وقد رتّبه على السنين كترتيب تاريخ الذهبي ابتداؤه من أوّل سنة من الهجرة

النبويّة، الجزء الأوّل من أوّل الهجرة إلى سنة 520، يأتي في 16 ورقة، موجود في مكتبة التاجر اليمني الحسيني في تريم، والجزء الآخر عبارة عن تاريخ مفصّل بالنسبة لليمن وعدن وبالنسبة لاكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح وتحوّل قوّة التجارة. وذكر أيمن فؤاد سيّد أنّ الموجود من هذا الجزء نقّحه وهذّبه عمر بن إبراهيم بن رضوان الحيّاني من مسودّة المؤلّف، ونجد الجزء الأوّل من هذا المخطوط موجودًا في مكتبة الأحقاف في تريم بحضرموت برقم 2156، وجزءًا آخر نُقلت نسخته من خط بعض أهل زبيد، وهذه النسخة موجودة في مكتبة ابن سهل بتريم [البغدادي، المصدر السابق، مج1، ص433؛ ايمن فؤاد سيّد، المرجع السابق، ص206 ـ 207؛ عبد الله الحبشي، فهرست المخطوطات اليمنية بحضرموت، ص41، 45، 58؛ المركز اليمني للابحاث الثقافية، فهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الاحقاف بتريم، ص38؛ مجلّة معهد المخطوطات العربية، المجلد العاشر، الجزء الأوّل، ص162؛ الزركلي، الأعلام، مج4، ص 94] وتسعى الان جامعة الأحقاف بحضرموت بتحقيق ودراسة ونشر ذلك العمل الضخم والمهم «قلادة النحر» بواسطة بعض طلاّب الدراسات العليا في الجامعة؛

7 ـ النسبة إلى المواضيع والبلدان، المعروف بـ«مشتبه النسبة»، وهو فيمن نسب إلى بلد، بضبط العبارة، وترجمته مع وصف لهذا البلد مخطوط في المكتبة المصادرة بمدينة تعز، في 129 ورقة، وتصويره في دار الكتب برقم 2254، ميكروفيلم [الأكوع، المدارس الاسلامية، ص539؛ أيمن فؤاد سيّد، المرجع السابق، ص208؛ الزركلي، الأعلام، مج4، ص 94] ومنتخب من كتاب النسبة إلى المواضع والبلدان لبامخرمة، بخط قديم، 18 ورقة موجود بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، 61 مجاميع وميكروفيلم بدار الكتب، ص227 [دار الكتب والوثائق القومية، قائمة بالمخطوطات العربية، ص 49]، ويُعدّ هذا الكتاب من بين المصادر الهامّة التي يعتمد عليها كثير من المؤرّخين والباحثين، وعلى سبيل المثال اعتماد المؤرّخ القاضي محمد بن أحمد الحجري اليماني في معجمه المسمّى «مجموع بلدان اليمن وقبائلها» على هذا الكتاب في تعريف كثير من المواضع، وانتخب مؤلّف مجهول أشياء من هذا الكتاب وسمّاها «المنتخب من كتاب النسبة إلى المواضع والبلدان» موجود بالجامع الكبير، 61 مجاميع في 18 ورقة، مصوّرة في دار الكتب رقم 227، ميكروفيلم [أيمن سيّد، المرجع السابق، ص 208].

■ المصادر والمراجع

● البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، المجلّد الأوّل، استانبول، سنة 1951، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت؛ ● الحجري، محمد بن أحمد، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تح. وتصحيح ومراجعة اسماعيل بن علي الأكوع، الطبعة الثانية، دار الحكمة، صنعاء، 1416هـ/ 1996م؛ ● الأكوع، اسماعيل بن علي، المدارس الاسلامية في اليمن، الطبعة الثانية، مؤسّسة الرسالة، بيروت، مكتبة الجيل الجديد،

صنعاء، 1406هـ/ 1986م؛ • سيد، أيمن فؤاد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الاسلامي، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، 1974م؛ • الحبشي، عبد الله محمد، فهرست المخطوطات اليمنيّة بحضرموت، مؤسّسة اكتوبر للطباعة والنشر، عدن، 1974م؛ • المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، فهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الأحقاف بتريم للمؤلّفين اليمنيين، تريم، حضرموت، 1408هـ/ 1988م؛ • الزركلي، الأعلام، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م؛ • كحّالة، رضا، معجم المؤلّفين تراجم مصنّفي الكتب العربية، مطبعة الترقي بدمشق، 1377هـ/ 1958م؛ • مجلّة معهد المخطوطات العربية، المجلّد العاشر، الجزء الأوّل، محرم 1384هـ/ مايو 1964م، مصر؛ • دار الكتب والوثائق القومية، قائمة بالمخطوطات العربية المصوّرة بالميكروفيلم من اليمن، القاهرة، مطبعة دار الكتب 1967م؛ • السقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت، تح. إبراهيم المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، الطبعة الأولى، مكتبة الارشاد، صنعاء، 2002م.

محمد عبد اللـه بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

بامطرف، محمد عبد القادر

(1334هـ / 1915م ـ 1391 هـ/ 1988 م)

كان مولد محمد عبد القادر بامطرف في الشحر في 25 يونيو سنة 1915م، وتلقى دراسته الثانوية بعدن، ثمّ تواصلت مرحلة الطلب بأوروبا، فحصل على شهادة الدراسة التجارية بغرفة التجارة بلندن عام 1935م. ثم تلقى دورة في الاختزال والطباعة السريعة والترجمة في جامعة كامبردج بانقلترا.

من أبرز أعماله قيامه بفهرست المكتبة الشعبية عند تأسيسها في المكلا، غير أنّه منذ عام 1963م تفرّغ للتأليف والنشر إلى زمن وفاته يوم 1/ 7/ 1988م.

■ آثاره

له مؤلفات عديدة مطبوعة ومخطوطة في التاريخ والدراسات الأدبية والنقدية كما كتب عددا من القصص والمسرحيات، ومن أبرز مؤلفاته: 1 ـ تاريخ جزيرة سقطر؛ 2 ـ ملاحظات على الهمداني؛ 3 ـ الهجرة اليمنية؛ 4 ـ شخصيات لا تنسى؛ 5 ـ تأريخ التاريخ؛ 6 ـ الميزان؛ 7 ـ الأمثال الشعبيّة؛

8 ـ الشهداء السبعة؛ 9 ـ تاريخ الشعر الشعبي؛ 10 ـ الإقطاعيون كانوا هنا؛ 11 ـ الجامع، وهو يشمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائلهم، ويقع في أربعة أجزاء، نشرته الهيئة العامة للكتاب بصنعاء. قدمه الناشر بقوله: هذا كتاب جامع حقًا، ليس لأنه جمع أكبر عدد من الأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن وقبائله فحسب، بل لأنّه جمع التاريخ بالأدب، والترجمة بالوقائع، وجغرافية الدول والمدن بجغرافية الأعلام والقبائل، والشعر بالحكايات. كلّ ذلك في لغة رصينة دقيقة، لكنها سلسة عذبة، وفق منهج الكتابة بعيدًا عن الإطناب، والعاطفة والحماس (...) سيل يتدفّق بالرجال والنساء، كلّ ذلك عبر فترة زمنية تمتدّ من عصور ما قبل الإسلام إلى العصر الحديث، وعلى مساحة جغرافية تمتدّ وسط آسيا وجنوبها حيث الهجرات اليمنيّة القديمة والوسيطة والحديثة عابرة الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه.. والجامع كتاب ضخم وفريد ومفيد، ضخم لأنه جمع أكبر عدد أتيح لباحث عن الأعلام المنتسبين إلى اليمن في الوطن العربي والعالم الإسلامي، ولأنه شمل أكبر مساحة جغرافية وصل إليها وعاش بها اليمانيون عبر آلاف السنين، وفريد لأنه لم يسبق إليه قديما وحديثًا.

المصادر والمراجع

- بامطرف، محمد عبد القادر، الجامع، (وردت ترجمة حياة المترجم له في هذا المصدر).

د. صلاح علي بن مدشل
جامعة حضرموت ـ اليمن

البانـي، حسن بن موسى الكردي

(ت 1148هـ/1736م)

هو حسن بن موسى بن عبد الله الزرديني الباني مولدا، الكردي أصلا، الدمشقي مسكنا ووفاة. فاضل من كبار رجال التصوف وعلامة من أهل الطريق. عرف بحبه لله تعالى ورسوله الأمين منذ شبابه. كان كثير الترحال سعيا وراء لقاء العارفين بالله تعالى وكانت مدينة دمشق آخر محطات ترحاله حيث استقر بها. وكانت مدينة دمشق غنية بعلمائها وشيوخها من الصوفية آنذاك.

وصفه صاحب كتاب سلك الدرر بأنه «علامة مدقق إمام أهل الحقيقة وفرد الوقت ووحيده.. كان قطبا خاشعا مربيا زاهدا ورعا جامعا بين الظاهر والباطن». وكان تقيا له كرامات خارقة لا تأخذه في الله لومة لائم، وللناس به اعتقاد وافر. وكان علمه عن الحقيقة ظاهر يعرفه الخاص والعام.

ويبدو أنه كان معروفا لدى الدمشقيين قبل

وصوله إلى مدينتهم. وقد نزل في المدرسة السليمانية، ثمّ تحول إلى جامع العداس بمحلة القنوات؛ ثم اختار له محبّوه دارا جيدة في محلة القميرية؛ الا أن نقيب الأشراف السيد حسن بن حمزة في مدينة دمشق أسكنه عنده لما وجد فيه من صدق وإخلاص. وقد بقي عنده حتّى وفاته سنة ثمان وأربعين ومائة وألف من الهجرة/ 1736م ولم أقف على سنة ولادته. وهو غير العلامة حسن الكردي النورديني المتوفى عام 1078هـ/ 1668م.

■ آثاره

من مآثره العلمية تخريجه لعشرات من الطلاب الذين درسوا عليه وأخذوا منه العلوم الشرعية والتفسير حيث كانت له تفاسير جيدة للعديد من سور القرآن الكريم، كما كانت له شروحات مطولة على كتب العقائد والتصوف.

ومن طلابه المعروفين ولده عبد الرحمن بن حسن الذي له ترجمة واضحة في كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر.

ومن شروحاته الجيدة المعروفة التي طبع بعضها مستقلّا: 1 ـ الحاشية على العقائد للقيرواني؛ 2 ـ شرح كتاب مواقع النجوم؛ 3 ـ كتاب الحكم للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي؛ 4 ـ شرح العوامل للجرجاني؛ 5 ـ شرح رسالة الشيخ أرسلان.

■ المصادر والمراجع

● البغدادي، هدية العارفين؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، سنة 1999، 2/ 224؛ ● المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر.

د.عبد القادر نوري
جامعة الموصل ـ العراق

■ الباهلي، أبو أمامة صُديّ بن عجلان

(21هـ/ 641م ـ 86هـ/ 705م)

هو صُديّ بن عجلان بن وهب الباهلي، أبو أمامة، من قيس غيلان. جعله بعضهم سهم بن عمرو وخالفه غيرهم، ولم يختلفوا في أنه من باهلة، وذُكر في اسم والده غير ذلك، لكن الراجح ما أثبت، اشتهر بكُنيته، وكان من أشراف قومه.

ولادته سنة 21هـ على الصحيح، فقد تحدث لجماعة عن «حجة الوداع»، فسئل عن عمره يوم ذاك، فذكر أنه كان ابن ثلاثين سنة. وقد رواه البخاري في «التاريخ الكبير» وسنده حسن أو صحيح.

صحبَ النبيّ وسمع منه وروى عنه، وحدّث عن عمر، وعثمان، وعلي، وأبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وغيرهم، رضي الله عنهم.

وروى عنه خالد بن معدان، وسالم بن أبي

الجعد، ورجاء بن حَيوة، وشهر بن حوشب، ومحمد بن زياد الألهاني، وآخرون.

روى له الجماعة، وله في الصحيحين 250 حديثًا، وأحاديث وأخبار وأقوال في مصادر أخرى عديدة، فكان من المكثرين من الرواية، وأكثر حديثه عن الشاميين.

عاش عصر النبوّة، وعصر الخلافة الراشدة، وجزءًا كبيرًا من عصر بني أميّة، حتّى خامس خلفائهم. وروي أنّه كان ممن بايع النبي تحت الشجرة، وهي المسمّاة ببيعة الرضوان، وكانوا 1400 صحابي. شارك في غزوات عديدة، ويأتي ما يفيد أنّه كان محاربًا محتكا، وقد أورد أبو نعيم في «الحلية» ما يستنتج منه أنّه حضر بدرًا. وأخرج الطَبراني ما يدلّ على أنّه شهد أُحُدًا، لكن بسند ضعيف، وله مع رسول اللّه أخبار طيّبة، وكان موضع ثقته عليه الصلاة والسلام، فهو أحد رجالات الدعوة المتمكّنين في صدر الإسلام. وقد ورد بإسناد حسن رواه الطبراني أن الرسول ﷺ أرسله إلى قومه لدعوتهم إلى الإسلام، ونهيهم عن أكل الميْتة وما إليها؛ فذهب إليهم ودعاهم إلى ذلك، فكذّبوه وردّوه. وكان جائعا ظمآن، فما أطعموه ولا سقوه، فنام ورأى أنه أُتي بشربة لبن فشرب وشبع. ثم قالوا: أتاكم رجل من أشرافكم وسراتكم فرددتموه، اذهبوا إليه وأطعموه. فذكر لهم أنّه أطعم وسُقِيَ في المنام فهو شبعان ريّان، ولم يَطْعَمْ لهم شيئًا ولم يشربْ، ورأوا من حاله ما يصدّق ذلك، فأسلموا عن آخرهم!.

ومن أخباره مع الرسول ﷺ ما رواه أحمد بإسناد صحيح وآخرون أنه أراد غزوة فقال: يا رسول اللّه، ادعُ لي بالشهادة. فقال: «اللّهم سلّمهم وغنّمهم». قال: فغزونا، فسَلِمْنا، وغنِمْنا. وقلت: يا رسول اللّه مُرْني بعمل. قال: «عليك بالصوم فإنه لا مِثْلَ له». فكان أبو أمامة وامرأته وخادمه لا يُلْفَوْنَ إلّا صيامًا!.

ثم إنه طلب من رسول اللّه ﷺ أن يأمره بأمر آخر عسى اللّه أن ينفعه به، فقال له: «اعلم أنّك لا تسجد للّه سجدةً إلّا رفع اللّه لك بها درجة وحطّ عنك بها خطيئة» [صحيح الجامع الصغير، رقم 1069].

ومن خلال صحبته لرسول اللّه ﷺ عدّد من صفاته جانبًا جميلاً، فذكر أنّه «كان من أضحكِ الناس سنّا وأطيبه نفسًا» [رواه ابن أبي الدنيا في «مداراة الناس» رقم 153، والطبراني في المعجم الكبير رقم 7838، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف، ولعله يتقوى بطريق أخرى للحدث ورد في المصدر الأول منه].

وله أخبار أخرى يفهم منها أنه كان مطّلعا على أحوال النبيّ ﷺ خبيرًا بالمجتمع المدني، فهو يسأل ويروي ويشارك في مناحي الحياة المختلفة.

شهد فتح مصر وسكنها، ثمّ انتقل إلى الشام ونزل حمص. وروى علمًا كثيرًا، غزا وتعبّد ودعا بعزيمة وإيمان وصبر، وكان يحثّ على وحدة الصفّ ويحذّر من الفرقة، ويقول عن الأزارقة: «إنهم شرُّ قتلى». وقد ذُكر أنّه كان مع عليّ في «صفّين». وأورد محمد بن سعد قوله: «شهدت صفين فكانوا لا يجهزون على جريح ولا يطلبون مولّيًا ولا يَسْلبون قتيلاً». ولا يعني هذا بالضرورة أنه شارك في الحرب، ولعل كونه مع علي في صفين في

أول الأمر قبل بدء الحرب، فقد نقل ابن كثير في «البداية والنهاية» أن أبا الدرداء وأبا أمامة لم يشهدا قتالاً، بل لزما بيوتهما. وذلك بعد أن سمعا مقالتي معاوية وعلي بنفسيهما، في محاورة جرت بينهم. بل ذكر من قبل أنه كان من المحرّضين على المطالبة بدم عثمان.

وكان فارسًا شجاعًا عارفًا بالخطط الحربية مع مكر ودهاء، حائزًا على ثقة مسؤوليه، يُستعمل في المواقف الصعبة. فكان طليعة الجيش الذي فتح دمشق، وقد اختاره أبو عبيدة بن الجراح ويبعثه بين يديه. وحكى كيف أنه عندما فُتح باب المدينة فجرًا قتل البواب وعاد، في خدعة لطيفة وتوزيع أدوار مع صاحبَين له !.

وفي السنة الثالثة عشرة أمّر أبو بكر يزيد بن أبي سفيان على جيش عظيم ووجّهه إلى الشام من ضمن من وجّههم إلى هناك، وعندما اجتمع للروم جمعٌ بـ «العربة» من أرض فلسطين وجه إليهم يزيد أبا أمامة فهزمهم وغنم منهم وقتل منهم بطْريقًا عظيمًا. فكان ذلك أول قتال بالشام بعد سرية أسامة بن زيد، ثم أتوا المدائن (قرب غزّة) فهزمهم أيضًا، ثمّ «مرج الصفر» التي استُشهد فيها جماعة من المسلمين وتمكّن هو من الانسحاب.

وكان يتردّد على الخلفاء والولاة، ويشارك في الحياة السياسية ناصحًا وموجّهًا، وفي الحياة العلمية والاجتماعية كذلك. وقد مرّ أنه حاور عليًا ومعاوية في أمرهما. وأخرج البخاري في تاريخه الكبير قول حُميد بن ربيعة إنه رأى أبا أُمامة خارجًا من عند الوليد بن عبد الملك في ولايته سنة ستّ وثمانين، كما أنه عاد خالد بن يزيد بن معاوية وهو أمير حمص فألقى إليه متكأ من حرير فتنحّى عنه ونصحه. وفي آخر حياته مرض واستأذن الوالي أن يخرج من مدينة حمص إلى قرية منها...

وكان عالماً مصلحًا، يحدّث، ويعلّم، ويبلّغ ما شاء ويقول: «أمرنا رسول الله ﷺ بتعليم القرآن وحثّنا عليه». وصار له تلامذةٌ يقصدونه من الآفاق. قال سُلَيم بن عامر: «كنا نجلسُ إلى أبي أمامة فيحدثنا حديثًا كثيرًا عن رسول الله ﷺ ثم يقول: اعقلوا وبلّغوا عنّا ما تسمعون». وذكر سليمان بن حبيب أنه قال لهم: إنّ هذه المجالس من بلاغ الله إياكم، وإن رسول الله ﷺ قد بلّغ ما أرسل به إلينا، فبلّغوا عنّا أحسن ما تسمعون». وكان حريصًا على الدعوة والتبليغ، يحدّث كالرجل الذي عليه أن يؤدّيَ ما سمع. دخل جماعة عليه في مسجد حمص فقال لهم: «إن دخولكم عليّ رحمةٌ لكم وحجّة عليكم، ولَمْ أرَ رسول الله ﷺ من شيء أشدّ خوفًا على هذه الأمّة من الكذب والعصبيّة، ألا وإنه أمرنا أن نبلّغكم ذلك عنه، ألا وقد فعلنا فأبلغوا عنّا ما بلّغناكم».

وكان حكيما، مجتمعَ العقل؛ رأى في سيوف بعض المجاهدين حُليًا فقال: «أما والله لقد فُتحت الفتوح بسيوف ما حلْيتها الذهب والفضة، ولكن حليتها العلابيّ والآنُك والحديد»، (أي العصب والرصاص).

وله وعظ وتذكير في المناسبات، كما روى خطبةً له الحاكم في [المستدرك، 2/ 400] وصححه.

وذكرت مولاةٌ له أنه كان رجلاً يحب الصدقة

ويجمع ما بين الدينار والدرهم والفلوس. . . ولا يقف به سائل إلاّ أعطاه ما تهيّأ له. وكان لا يمرُّ بأحد إلاّ سلّم عليه، صغيرًا أو كبيرًا، ويقول: «أمرنا نبيّنا أن نفشيَ السلام».

ومن أقواله رضي اللّه عنه: «حببوا اللّه إلى الناس يحببكم اللّه»؛ «المؤمن في الدنيا بين أربعة: بين مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان قد يُوُكّلُ به»؛ «كان الناسُ كشجرة ذاتِ جَنى، ويوشك أن يعودوا كشجرة ذاتِ أشواك».

وقد مات بقرية «دَنْوة» القريبة من حمص، وكان قد أصابه سلس في البول، فاستأذن الوالي ليكون هناك. وفي سنة وفاته اختلاف، أكثرها قيلاً هي 81 و86 هـ. ولعلّ الأكثر على الأخير، حتّى قال ابن البرقي إنه بغير خلاف! وقد روى البخاري في تاريخه ـ كما مرّ ـ أنّه رُئي خارجًا من عند الوليد بن عبد الملك في ولايته سنة 86 هـ. ورواة سَنَده معدّلون جميعًا. وقد مات والده الخليفة عبد الملك بن مراون في منتصف شوال، فتسلّم هو الخلافة من بعده في الـسنة نفسها، وتكون وفاةُ أبي أمامة في أواخر السنة المذكورة. ويكون قد عُمِّر 106 سنوات. وذُكر أنّه آخر من مات بالشام من الصحابة، لكن الصحيح أنّ «عبد اللّه بن بُسر» مات بعده، في السنة نفسها أو بعدها.

المصادر والمراجع

● القرطبي، يوسف بن عبد اللّه بن عبد البَر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح. محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، 1412 هـ، 4/ 1602؛ ● ابن الأثير الجزري، عز الدين علي بن محمد، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح. خليل مأمون شيحا، بيروت 1418 هـ، دار المعرفة، 2/ 446، 4/ 375؛ ● ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تح. علي محمد البجاوي، بيروت 1412هـ، دار الجيل، 3/ 420؛ ● ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، تح. عبد اللّه بن عبد المحسن التركي، القاهرة 1417 ـ 1420هـ، هجر للطباعة والنشر، 9/ 544، 570، 10/ 425، 508، 12/ 376، 410، 20/ 86؛ ● البخاري، محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، بيروت د.ت، دار الكتب العلمية، 2/ 2/ 326 رقم (3001)؛ ● المزي، أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، بيروت 1413 هـ، مؤسسة الرسالة، 13/ 158؛ ● الأصبهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء، بيروت د.ت، دار الكتب العلمية، 5/ 107، 174، 9/ 37؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت 1401 ـ 1409 هـ، 3/ 359؛ ● ابن الجوزي، عبد الرحمن، صفة الصفوة، حققه وعلق عليه محمود فاخوري، خرج أحاديثه محمد رواس قلعجي، ط3، مصححة ومنقحة ومزيدة، حلب 1405 هـ، دار الوعي، 1/ 733؛ ● ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، بيروت د.ت، دار صادر، دار الفكر، 1/ 411؛ ● ابن الأثير الجزري،

عز الدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء، ط 4، تميزت بفهارس شاملة، بيروت 1403هـ، دار الكتاب العربي، 2/ 277؛ ● نور الدين الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بتحرير العراقي وابن حجر، بيروت 1387هـ، دار الكتاب العربي، 9/ 386؛ ● ابن منظور، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تح. عدة باحثين، دمشق 1404 ـ 1408 هـ، دار الفكر، 11/ 76؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 3/ 203.

د. محمد خير رمضان يوسف
مكتبة الملك فهد ـ الرياض ـ السعودية

الباهلي، الحسين بن الضحاك

(162هـ/773م ـ 251هـ/864م)

الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي وكان مولى لباهلة وهو فارسي الأصل ويلقب بالخليع الأشقر وأصله من خراسان. وهو بصري المولد والمنشأ، ولد بالبصرة ونشأ بها ثم تركها إلى بغداد في عصر الخليفة الأمين، وعاش دهرا طويلا وكان من شعراء الدولة العباسية وأحد ندماء الخلفاء من بني هاشم وعمر عمرا طويلا قارب المائة سنة.

وكان يعرف باسم الخليع، لكثرة مجونه وعكوفه على الخمر حتى أصبح اسمه مقرونا باسم أبي نواس أكبر ماجن في العصر العباسي الأوّل. وكان هو وأبو نواس تربين نشآ في مكان واحد وتعلّما في البصرة وحضرا مجالس الأدباء متصاحبين، وتعلّما اللغة والأدب والمعارف والعلوم العربية وغيرها، وكانا متلازمين في ذلك لا يفترقان حتى خرج أبو نوّاس قبله إلى بغداد وما وجده فيها من متع ونعيم واستقبال حسن وإقامة جيّدة ومنادمة ممتعة وإيثار السلطان وخاصته له، فخرج من البصرة إلى بغداد ولقي الناس فيها وتعرّف بهم ومدحهم وأعطوه جوائزهم وعدّ من الشعراء المرموقين منذ أيام الرشيد.

وكان يعرف بالظريف في بلده، كما أشار إليه الخليفة المأمون في معرض حديثه عنه بقوله: «كيف خلفت ظريف مصركم» ولهذا اتّخذه الخليفة الأمين نديما له، ومن بعده نادم المعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر. وهو شاعر أديب ظريف مطبوع حسن التصرّف في الشعر حلو المذهب، ولشعره قبول ورونق صاف. ولشهرته في مجال شعر الخمر كان أبو نواس يأخذ معانيه في الخمر فيغيّر عليها ولشهرة أبي نواس في شعر الخمر أكثر منه، كان إذا شاع شعر نادر في هذا المعنى نسبه

الناس إلى أبي نواس وله معان في صفات الخمر أبدع فيها وسبق إليها فاستعارها أبو نواس ونسبها إلى نفسه وهاجى مسلم بن الوليد، فانتصف منه.

وله غزل جيّد كثير وهو من المطبوعين الذين تخلو أشعارهم ومذاهبهم من التكلّف. وكان يعنى عناية شديدة بلغته وألفاظه، وأسلوبه رصين جذل وعذب ناعم يلائم الأذواق الرفيعة في المجتمع، مستفيدا في ذلك من حياته في قصور الخلفاء والوزراء وأبنائهم ولذلك شاع في أشعاره النقاء والصفاء بالرغم من مجونه.

وهو أحد المتفننين في الشعر جيّد المدح جيد الغزل جيد اللهو كثير المجون صاحب جد وهزل. وكان من أشعر المحدّثين وكان من أرق الناس طبعا وأكثرهم ملحا وأكملهم ظرفا، وكان ينطق عن حسن طوية، ويمدح بخلوص نيه وكان طيب القلب.

ولظرفه وطيبة عشرته اتّخذه الخليفة الأمين نديما له ثمّ من بعده المعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر، وكان محبوبا لديهم لا يملّون منادمته وصحبته، ولذلك اتّخذه الواثق نديما له وملازما لمجالسه ومدحه بمدائح كثيرة، وكذلك من جاء بعده من الخلفاء.

وشاع عنه المجون ووصف الخمر ومجالسها من ذلك قوله وهو ما يستحسن من شعره:

وشاطريّ اللسان مختلف التكريـ
ـه شاب المجون بالنسك

بات «بغمي» يرتاد صالية النا
ر ويكني عن أبيت الملك

بست صفراء كالشعاع له
من كف علج يدين بالافك

يحلف في طنجها بملّته
ودين موسى ومنشىء الفلك

حتّى إذا رنّحته سورتها
وابدلته السكون بالحركي

كشفت عن عجنة مزعفرة
في لين صينية من الفنك

فكان ما كان لا أبوح به
في الناس من هاتك ومتهتك

وهو شاعر مطبوع حسن التفنن في ضروب الشعر وأنواعه، وهو من الطبقة الأولى من الشعراء المجيدين وبينه وبين أبي نواس نوادر لطيفة ووقائع حلوة ومن محاسن شعره قوله:

لا وحبيك لا أصا
فح بالدمع مدمعا

من بكى شجوه استرا
ح وان كان موجعا

كبدي في هواك أسـ
ـقم من ان تقطعا

لم تدع صورة الضنى
فيَّ للسقم موضعا

[وفيات الأعيان، ج5، ص 30]

وقال أبو العباس ثعلب النحوي معلّقا عليها: «ما بقي من يحسن أن يقول مثل هذا». وكانت بينه وبين أبي نواس مداعبات كثيرة ومشاجرات، وروى له صاحب كتاب الأغاني أنّه قال: أنشدت أبا نواس لما حججت

قصيدتي التي قلتها في الخمر وهي:

بدلت من نفحات الورد بالاء
ومن صبوحك در الإبل والشاء

فلما انتهيت منها إلى قولي:

حتّى إذا أسندت في البيت واحتضرت
عند الصبوح ببسامين أكفّاء

فضت خواتمها في نعت واصفها
عن مثل رقراقة في جفن مرهاء

قال: فصعق صعقة أفزعتني، وقال: أحسنت والله يا أشقر، وقلت: ويلك يا حسن إنّك أفزعتني والله، فقال: بلى والله أفزعتني ورعتني هذا معنى من المعاني التي كان فكري لا بد أن ينتهي إليها أو أقوص عليها وأقولها فسبقتني إليه واختلسته منّي وستعلم لمن يروى إلي آم لك فكان والله كما قال سمعت من لا يعلم برويها له. [الأغاني، ج7، ص 147]، ومن مدائحه في أمير المؤمنين المأمون قوله:

حمدنا الله شكرا اذ حبانا
بنصرك يا امير المؤمنينا

فأنت خليفة الرحمن حقا
جمعت سماحة وجمعت دينا

وكان نديما ملازما للخليفة الأمين وقتا طويلا حتّى أدركته الوفاة فحزن عليه حزنا شديدا ورثاه بأبيات حزينة باكية منها قوله:

أطل حزنا وابك الإمام محمدا
بحزن وإن خفت الحسام المهندا

فلا تمت الأشياء بعد محمد
ولا زال شمل الملك منها مبددا

ولا فرح المأمون بالملك بعده
ولا زال في الدنيا طريدا مشردا

وكانت له فيه مراثٍ كثيرة جياد، وكان كثير التعلّق به لكثرة أفضاله عليه وميله وتقديمه إياه، وبلغ من جزعه عليه أن أنكر موته وقتله وكان يدفعه بقوله بأنّه مستتر وسيعود، ومن ذلك قوله:

نحن قوم أصابنا حدث الدهـ
ـر فظلْنا لريبه نستكين

نتمنّى من الأمين إيابا
لهف نفسي وأين مني الأمين

ومدح الخليفة المعتصم بقصائد كثيرة تفنّن في قولها وفي صياغتها حتّى تؤدّي المقصد الذي قصده من إنشائها. ومن ما قدمه أهل العلم على سائر ما قالته الشعراء قوله في المعتصم يمدحه قوله:

قل للألى صرفوا الوجوه عن الهدى
متعسّفين تعسّف المراق

إنّي أحذّركم بوادر ضيغم
درب يحطّم موائل الأعناق

متأقب لا يستفزّ جنانه
زجل الرعود ولامع الأبراق

لم يبق من متعرّمين توثّبوا
بالشام غير جماجم أفلاق

من بين مجندل تمج عروقه
علق الأخادع أو أسير وثاق

وكان أرق الناس طبعا وأكثرهم ملحا وأكملهم ظرفا، وما استحسنوا له واستظرفوه قوله:

إذا ما السماء أمكنني
وصفوا سلافة العنب
صببت الفضّة البيضاء
فوق قراضة الذهب

ومن اعتذارياته قوله يعتذر للأمير صالح بن الرشيد:

يا ابن الإمام تركتني هملا
أبكي الحياة واندب الأملا
لو كان لي ذنب لبحت به
كي لا يقال هجرتني مللا

ومن اعتذارياته للخليفة المعتصم قوله:

غضب الإمام أشدّ من أدبه
وقد استجرت وعذت من غضبه
أصبحت معتصما بمعتصم
أثنى الإله عليه في كتبه

وله شعر في الغزل ووصف الروض والجواري والغلمان والمدح والتهنئة بالانتصار في الحرب على الأعداء. وله أشعار في بعض الأمور الاجتماعية مثل هجائه لجار له طبيب. وله قصيدة في رثاء ابن له مات وكانت له أرزاق وقطعت وتشفع للخليفة المتوكّل بها، فأعاد أرزاقه إلى أولاده. وله قصائد اعتذارية كثيرة بما كان يقع منه من خروج على المألوف في منادمة الخلفاء والأمراء والقواد. وكان في أواخر أيامه يحسّ بدنو أجله وضعف قوته ومروءته وقد صور ذلك في أبيات له قال فيها:

أصبحت من أسراء الله محتبسا
في الأرض نحو قضاء الله والقدر
إن الثمانين إذ وفيت عدّتها
لم تبق باقية منّي ولم تذر

المصادر والمراجع

● أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، ج7؛ ● ابن المعتز، طبقات الشعراء، ط2؛ ● البغدادي، تاريخ بغداد، ج8؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، ج3؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5؛ ● شذرات الذهب، ج2؛ ● اشعار الخليع الحسين بن الضحاك، جمع وتحقيق عبد الستار فرج؛ ● شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني.

د. الأمين بابكر الدرديري
جامعة الجزيرة ـ السودان

الباهلي، عمرو بن أحمر

(ت نحو 65هـ/685م)

هو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. غزا في مغازي الروم، فأُصيب بإحدى عينيه هناك، ونزل الشام حيث تُوُفي في عهد عُثمان بعد أن بَلغ سِنًّا عالية، وقيل إنه أدرك عهد معاوية بن أبي سفيان.

قال أبو الفرج: كان من شعراء الجاهليّة المعدودين ثمّ أسْلَمَ، وقال في الإسْلام شعرًا كثيرًا. مَدَحَ خالدَ بنَ الوليد، إذ كان في جيشه بالشّام؛ كما مدح عمر فمن دونه إلى عبد الملك بن مروان؛ وهو مخالف لقول المرزباني بأنّه مات في عهد عثمان.

وقال أبو عمرو بن العلاء: كان ابن أحمر في أفصح بقعةٍ من الأرض أهلاً، يَذْبُلُ والقعاقع، يعني مولده قبل أن ينزل الجزيرة ونواحيها [الشعر والشعراء]

وهو: عمرُو بن أحْمَرَ بن فرّاض بن مَعْنِ بن أعْصر الباهلي.

قال ابن قُتَيبة إنّه عمّر تسعين سنة، وسقى بطنه فمات، وفي ذلك يقول:

إليكَ إلهَ الحقّ أرفعُ رَغْبَتي
عياذًا وخَوْفًا أنْ تُطيلَ ضَمانيا

فإن كانَ بُرءًا فاجعَلِ البُرْءَ نِعْمَةً،
وإنْ كانَ فَيْضًا فاقْضِ ما أنْتَ قاضيا

لِقاؤكَ خَيْرٌ من ضَمانٍ وفِتْنَةٍ
وقد عِشْتُ أيامًا وعِشْتُ لَياليا

أُرَجّي شَبابًا مُطْرهمًّا وصِحَّةً
وكَيْفَ رَجاءُ المرءِ ما لَيْسَ لاقِيا

وكَيْفَ وقد جربت تسْعينَ حِجَّةً
وضَمَّ فُؤادي نَوْطَةٌ هَيَ ما هيا

وفي كُلِّ عامٍ يَدْعُوانِ أطبَّةً
إليَّ، وما يُجْدُون إلا الْهَواهِيا.

(الضمان: العمر الطويل؛ مطرهما: معتدلا؛ الهواهيا: الأباطيل).

وأثر الإسلام ظاهر من الأبيات، فالشاعر يتوجه إلى الله ألا يطيل مرضه، وهو يسلم أمره لله في الحياة والموت، ويرى أن لقاء الله خير من المرض والفتنة.

ويكشف الاستفهام عن تسليم مطلق لأمر الله، وإقرار بحتميّة الموت.

وقد جَعَلهُ ابن سلام الجمحي في الطبقة الثالثة من فحول شعراء الإسلام، ويرى أنّ ابن أحمر صحيح الكلام، كثير الغريب [الطبقات، 2/ 580].

وهو صادق فيما ذهب إليه.

وقد ذكر ابن قتيبة أن ابن أحمر قد أتى في شعْره بأربعة ألفاظ لا تُعْرفُ في كلام العرب: سمى النارَ مَاموسة، ولا يعرف ذلك، قال:

تَطايَحَ الطلُّ عَلى أعْطافِها صُعُدًا
كَما تَطايَحَ عن مَامُوسة الشَّرَرُ

وسمّى خُوار الناقة: بَابُوسًا، ولا يعرف ذلك، فقال:

حَنَّتْ قَلُوصي إلى بَابُوسِها جَزَعًا
فَمَا حَنِينُكَ أم مَا أنْتَ والذِّكَرُ

وفي بيت آخر يذكر فيه البقرة:

مَارِيَّةٌ لُؤْلُؤان اللَّوْنِ أوْدَهَا
طَلٌّ وبَنَّسَ عَنْها فَرْقَدٌ خَصِرُ

بنّس: تأخر؛ ولا يعرف التبنيس.

وقال:

وتَقَنَّعَ الحِرْباءُ أُرْنَتَهُ
مُتَشَاوِسًا لِوَرِيدِهِ نَقِرُ

الأُرنةُ: ما لُفّ على الرأس، ولا يعرف ذلك في غَيْر شعره.

وقالوا: هو أكثر بيتٍ آفاتٍ، قال:

تمشي بأكنافِ البَلِيخِ نِساؤنا
أرَامِلَ يَسْتَطْعِمْنَ بالكَفِّ والفَمِ

نقائذ برسَام، وحُمَّى، وحَصْبَةٍ
وجوعٍ، وطاعونٍ، ونقْرٍ، ومَغْرَمِ

وتنتظم موضوعات شعْره المدح والوصف، والهجاء وتقترن رؤيته الشعرية بالحكمة.

ويُضَمِّنُ قِصَصًا من قصص السابقين مُنْطَلَقًا لتأملاته وآرائه. ومن ذلك رائيتُه التي يقول فيها [د 62 ـ 65]:

إنّ امرىءِ القيسِ على عهدِه
في إرْثِ ما كانَ بَنَاهُ حُجُرْ

بَنَتْ عليه المُلْكَ أطنابها
كأسٌ رَنَوْنَاةٌ وطِرْنٌ طِمِرّ

يلهو بهِنْدٍ فوق أنْماطها
وَفَرْتَنى تغدو إليه وَهِرّ

حتّى أتتْهُ فيْلَقٌ طافِحٌ
لا تتّقي الزَّجْرَ ولا تَنْزَجِرْ

لمّا رأى يوْمًا لهُ هَبْوَةً
مُرًّا عَبُوسًا شَرُّهُ مُقْمَطِرّ

أدّى إلى هِنْدٍ تَحِيّاتها
وقال هذا من وداعي تُبُرْ

إنّ الفتى يُقْتِرُ بعد الغنى
ويَغْتَني مِنْ بعْدِ ما يفْتَقِرْ

والحيُّ كالمَيْتِ ويبقى التُّقَى
والعَيْشُ فنّانِ: فَحُلْوٌ ومُرّ

إمّا على نفْسي وإمّا لها
فَعَايِشِ النَّفْسَ وَفِيها وَتَرْ

هلْ يُهْلِكَنّي بَسْطُ مَا في يدي
أوْ يُخْلِدَنّي مَنْعُ ما أدّخِرْ

أوْ ينْسَأن يومي إلى غَيْرِهِ
أنّي حَوَالِيٌّ، وأنّي حَذِرْ

ولَنْ ترى مِثْلِيَ ذا شَيْبَةٍ
أعْلَمُ ما يَنْفَعُ ممّا يَضُرّ

وتكشف الأبيات عن أصالة ابن أحمر الشعرية من ناحية، وعن درايته بعالم الشعر العربي من ناحية أخرى، وقد وظّف القصّة الشعرية توظيفًا بارعًا حيث أدْخَلَها في نسيج تشكيله الشعري لتمثّل بانية من بانيات رؤيته الشعرية شكلاً وموضوعًا.

والاستفهام عنده استفهام تأمُّلي ذو طابع فلسفي يختمه بتقرير أنه لا يوجد مثله من ذوي

الشيب أعْلم بما ينفع ويضر، ويمثّل علمه بما ينفع ويضر ما يشبه الإجازة للشعراء بأن يقدموا حكمتهم عن الحياة والنفس والوجود.

ومما قاله في التشوّق إلى أهْلِه الذين رَحَلُوا - قوله في لاميته [الديوان، 128 - 132]:

أَبَتْ عَيْنَاكَ إلاَّ أنْ تَلُجَّا
وتَحْتَالاَ بِمَائِهِمَا احْتِيَالاَ

على حَيَّيْنِ في عَامَيْنِ شَتَّا
فَقَلَّ غِنَاؤنَا بِهِمَا وَطَالاَ

وأيَّامَ المَدِينَةِ ودَّعُونَا
فَلَمْ يَدَعُوا لِقَائِلَةٍ مَقَالاَ

فَأيَّةُ لَيْلَةٍ تَأْتِيكَ سَهْوًا
فَتُصْبِحَ لا تَرَى مِنْهم خَيَالاَ

أبو حَنَشٍ يُؤرِّقُنَا وطَلْقٌ
وَعَمَّارٌ وآونَةٌ أُثَالاَ

أراهم رُفْقَتي حتى إذا ما
تَجَافَى الليلُ وانْخَزَلَ انخزالاَ

إذا أنا كالذي أجرى لورد
إلى آلٍ فَلَمْ يُدْرِكْ بِلاَلاَ

أرى ذا شَيْبَةٍ حَمَّالَ ثِقْلٍ
وأبْيَضَ مِثْلِ صَدْرِ السَّيْفِ نَالاَ

غَطارِفَ لا يَصُدُّ الضيفَ عنهم
إذا ما طَلَّقَ البَرَمُ العِيَالا

بهم فخْرُ المفاخرِ يومَ حفْلٍ
إذا ما عَدَّ بأْسًا أو فَعَالاَ

وبيضٍ لَمْ يُخَالِطْهُنَّ فُحْشٌ
نَسَيْنَ وِصَالَنَا إلاَّ سؤالاَ

وجُرْدٍ لم يُغَلِّهُ الدَّاعي إليها
متى رَكِبَ الفوارِسَ أوْ مَتَى لاَ

فَوَارِسُهُنَّ لا كُشُفٌ خِفَافٌ
ولا مِيلٌ إذا الغُرْضِيُّ مَالا

وقد وفر الشاعر لتشكيله الشعري عناصره الموضوعية بصورة تصل إلى حد الاستقصاء، فبدأ بتصوير حالة الحزن التي ألَمَّتْ به، وكيف أن عينيه لا تتوقفان عن البكاء لفراق حيَّيْنِ من قومه. وهو يصور وداعهم وما ألَمَّ بهم من الحزن الذي لم يترك لهم فرصة للكلام. ويتحدّث عما يصيبه في ليله حين يذكرهم فيصير كالذي يبحث عن الماء في السراب، وهي صور نمطية وظفها توظيفا جيّدا في شعْرِه.

ويفخر بقومه فخْرًا يستمدّ أصوله من معجم الشعر الجاهلي، فهم غطارف كرماء لا يشحون بما لهم في وقت الشدّة.

ويذكر النساء الحرائر اللائي لم يخالطهن فحش، ولم يعد يذكرنه، والخيول التي تذهل قلب راكبها عنه، والفرسان الأشداء المتمرسين بالفروسية.

وتكشف الأبيات عن تمكُّن ابن أحمر من الإبداع الشعري، كما تميّز بمعجم تتخلله بعض الألفاظ الغريبة التي لم نسمعها إلا نادرًا عند معاصريه وسابقيه من الشعراء.

ومن جيّد شعره لاميته التي مدح فيها الصحابي الشاعر النعمان بن بشير الأنصاري والتي يقول فيها [الديوان، 133]:

شطَّ المزارُ بجَدْوَى وانتهى الأمَلُ
فلا خَيالٌ ولا عهْدٌ ولا طَلَلُ

إلا رجاءٌ فما ندري أنُدرِكُهُ
أمْ يستمِرُّ فيأتي دونه الأجَلُ

شَيْخٌ شآمٌ وأقْنونٌ يمانيةٌ
مِنْ دونِها الهَوْلُ والمَوْمَاةُ والعِلَلُ

مَا أُمُّ غُفْرٍ على دعْجَاء ذي عَلَقٍ
يَنْفِي القَراميدَ عنها الأعْصَمُ الوَقِلُ

في رأسِ خلْقاءَ من عنْقاءَ مُشْرِفةٍ
لا يَنْبَغِي دُونها سَهْلٌ ولا جبَلُ

إلاّ كَمِثْلِكَ فينا غيرَ أنَّ لنا
شَوْقًا، وذلك ما كلّفتهُ جَلَلُ

الخزْرجِيُّ الهِجَانُ الفَرْعِ لا ترِعٌ
ضَيْقُ المِجَمِّ ولا جافٍ ولا تَفِلُ

الزاجِرُ العيسَ في الإمْليسِ أعْيُنُها
مِثْلُ الوقائِعِ في أنْصافِها السَّمَلُ

يهدي الجُيوشَ ويَهدي الله شيمتَهُ
في طِرْمِسِ البِيدِ سَامِي الطَّرَف مُعْتدِلُ

كالكَوْكبِ الأزهَرِ انشقّت دُجُنَّتُهُ
في الناسِ لا رَهَقٌ فيهِ ولا بَخَلُ

هادٍ ضياءٌ منيرٌ فاصلٌ فَلَجٌ
قَضاؤهُ سُنَّةٌ وقوْلُه مَثَلُ

هذا الثناءُ وأجدرْ أنْ أُصاحِبَهُ
وقدْ يُدَوِّمُ رِيقَ الطّامِعِ الأمَلُ

ومطلع القصيدة على اختصاره ـ مفعم بمشاعر وأحاسيس يذكرنا بمطالع المتنبي التي منها قوله [الديوان، 4/ 233]:

بِمَ التعلّل؟ لا أهْلٌ ولاَ وَطَنُ
ولاَ نَديمٌ وَلاَ كَأْسٌ وَلاَ سَكَنُ

وقد احتذى الشاعر في الأبيات الرابع والخامس والسادس نمطًا شعريًا هو المماثلة التفضيلية التي تبدأ بمبتدأ منفي بما، ويأتي الخبر مجرورًا بالباء الزائدة، كما في قول بشر بن أبي خازم [الديوان، 264]:

وما مغزلٌ أدماء أصبح خَشفُها
بأسفل وادٍ سيله متصوّبُ

بأحسن منها إذ تراءت وذو الهوى
حزين ولكن الخليط تجنبوا.

وقد تصرّف ابن أحمر في النمط فجعل الخبر: إلّا كمثلك، ويسمي البلاغيون ذلك التشبيه المعكوس، كما أنه استخدم الصورة التمثيلية في المدح مخالفًا سابقيه الذين استخدموها في الغزل. وقد جمع الشاعر لممدوحه بين الصفات الموروثة للرجل الكامل عند الشعراء الجاهليين ـ وما استجد من صفات وأفعال بعد ظهور الإسلام، وخاصة للقادة وعُمّال الخليفة على المدن والأمصار؛ فالنعمان بن بشير يَهْدي الجيوش ويَهْدي الله شيمته، وهو هادٍ، مثير، فاصلٍ فصال، قضاؤهُ من السُّنَّة، ورأيه مَثَلٌ يردده الناس لما يتّسم به من حكمة وسدادٍ.

■ آثاره

قام حسين عطوان بجمع شعر عمرو بن أحمر الباهلي وحققه وأصدره مجمع اللغة العربية بدمشق في ديوان مستقل عدد صفحاته 271 صفحة، ويشمل الديوان ستا وخمسين ما بين قصيدة، ومقطوعة صغيرة، وبيت واحد.

وتبلغ عدد الأبيات المفردة خمسة وعشرين بيتا، وعدد المقطوعات الأقل من العشرة

أبيات ـ ست عشرة قطعة، وقصيدة من تسعة عشر بيتًا، وواحدة من عشرين بيتًا وأخرى من خمسة وعشرين بيتًا، وستّ قصائد من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين بيتًا، وقصيدة من ثلاثة وخمسين بيتًا.

وقد نظم ابن الأحمر شعره في الطويل، والبسيط، والكامل، والوافر، والسريع، والمنسرح، والخفيف، والمتقارب، والرجز.

هذا عدا ما نسب إليه وإلى غيره من شعر ويبلغ ستّة وعشرين بيتًا.

وقد تضمّنت قصائده الفخر، والمدح، والهجاء، والعتاب، والحكمة، وبكاء الأطلال، وذكر المشيب والغزل، والشكوى من جباية الصدقات.

المصادر والمراجع

● عطوان، حسين، شعر عمرو بن أحمد الباهلي، منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق، مطبعة دار الحياة؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر 1966م؛ ● أبو تمام، الحماسة، تح. د. عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1401 هـ/ 1981 م؛ ● الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر؛ ● القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح. علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر 1981م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 5/ 72 ـ 73.

د. حسني عبد الجليل يوسف
جامعة حلوان ـ مصر

الباهلي، أبو نصر أحمد بن حاتم

(نحو 160هـ/776م ـ 231هـ/845م)

هو أحمد بن حاتم الباهلي، أبو نصر، المعروف بـ«صاحب الأصمعي» و«غلام الأصمعي» [طبقات الزبيدي].

ولد أبو نصر بالبصرة، ولم يذكر أحد تاريخ مولده، لكنّ الخطيب البغدادي (ت463هـ) أفاد أنّه توفي وله نيف وسبعون عاما، وتابعه على ذلك القفطي (646 هـ)، وتبعا لتاريخ وفاته المتّفق عليه وهو سنة 231هـ / 845م، يكون مولده نحو عام 160هـ أو قبلها بقليل [تاريخ بغداد، 4/ 114؛ إنباه الرواة، 1/ 71].

نشأ أبو نصر في البصرة، وكانت رواية اللّغة،

وجمع الأشعار، وصناعة الدواوين تشهد أوج ازدهارها يومذاك، إضافة إلى النشاط الدائب في حركة الإقراء، ورواية الحديث، واشتداد الجدل بين المتكلّمين وأصحاب الفرق وأهل العقائد والأهواء.

لازم أبو نصر شيخه أبا سعيد الأصمعي (ت 213هـ أو 217 هـ)، وحسب بعضهم أنه ابن أخته، وأنكر ذلك جعفر بن محمد بن باسويه، وضعّفه أيضا أبو الطيب اللّغوي (ت351هـ) [مراتب النحويّين، 82].

أخذ أبو نصر كلّ ما وسعه أخذه عن الأصمعي، ولزمه حتّى وفاته، وروى عنه كتبه، وكان يحملها معه في أسفاره بعد وفاة شيخه؛ وكان الأصمعي يوثّقه ويطمئنّ إليه بعد طول الصحبة والملازمة، ويشهد لذلك بقوله: «ليس يُصدَّق علي إلاّ أبو نصر»، [تاريخ بغداد، 4/ 114؛ معجم الأدباء، 1/ 227].

لم يقتصر أبو نصر على الأخذ عن الأصمعي، بل حرص على الاستفادة والتلقّي عن مشايخ عصره الآخرين. فأخذ عن أبي عبيدة، معمر بن المثنى (ت 208 هـ)، وأبي زيد الأنصاري (ت 214 هـ)، وأبي عمرو الشيباني (ت 205 هـ) [مراتب النحويين، 83، 91؛ الفهرست، 79؛ طبقات الزبيدي، 116]. وقد عدّ مع علي بن المبارك اللحياني (ت بعد 189 هـ) وابن السكيت (ت 244 هـ)، من أجلّ من روى عن الشيباني [مراتب النحويين، ص 91].

كان الباهلي مهتمّا باللّغة ورواية الشعر وغريب اللفظ، فقد شهد ابن جنّي بانفراده في نقل الغريب من الكلمات التي لم يأت بها غيره [المزهر، 1/ 118]، وهو يعتبر من فصحاء العرب [سزكين، 8/ج 1/ 573، ج 1/ 573].

بعد وفاة الأصمعي شرع أبو نصر يزاول الإقراء ورواية الأشعار والدواوين وشرحها. ثم غادر البصرة إلى بغداد، وسرّ من رأى، وإلى أصبهان. ونقرأ في كتب الأخبار أنّ أبا العبّاس ثعلبا (ت 291 هـ) إمام الكوفيّين في اللّغة والنحو كان يحضر مجالس أبي نصر وهو يملي شعر الشماخ، ومعه ابن السكّيت، [طبقات الزبيدي، 197].

وكانت له في بغداد مجالس أملى فيها على طلبة العلم ممّا كان يرويه عن شيوخه، وقد تعصّب الباهلي لأستاذه الأصمعي، الذي يعتبره أوثق الناس باللّغة ورواية الشعر؛ فورث عنه عداوته لابن الأعرابي، وكان يضيّق عليه [معجم الأدباء، 1 / 383]، ويكذّبه، ويدّعي عليه التزيّد ويزيّفه [دائرة المعارف، 1/ 342]، فكانا يتطارحان الشعر، [إنباه الرواة، 1/ 23؛ نزهة الألبّاء، 152؛ معجم الأدباء، 17/ 193]. فابن الأعرابي أكثر منه حفظا للشعر والنوادر، وأكثر تمكّنا من اللّغة، وأبو نصر أشدّ تثبّتا وأمانة وأوثق [المزهر، 2/ 411؛ مراتب النحويّين، 147].

وأبو نصر كان يخطّىء كثيرا من العلماء مثل محمد بن زياد الأعرابي ويعقوب، في مسائل لغويّة متنوّعة، ويشدّد عليهم التهجّم [مجالس العلماء، 46/ 286]. فقد كان يقول للأعرابي مشكّكا في علمه: «ويحك أما تستحي من هذا التفسير» [مجالس العلماء، 46/ 286 - 287]. ولكنّه خطّىء أيضا من قبل تلميذه يعقوب بن السّكيت، صاحب كتاب «إصلاح

المنطق» في شعر الشماخ، حضر الواقعة أحمد بن يحيى ثعلب، وعنه نقل الخبر أبو عمرو بن سعيد القطربلّي [طبقات النحويّين، 280؛ الوافي بالوفيات 6/ 296؛ معجم الأدباء، 1/ 284].

ويبدو أنّ حياة أبي نصر لم تكن على درجة من اليسر تسمح له بالاستقرار في البصرة، أو في بغداد، أو في سرّ من رأى. فقد رووا أنّه توجّه إلى أصبهان بعد سنة 220هـ، حين استدعاه الخصيب بن أسلم، صاحب الخراج فيها، ومعه كتب الأصمعي ومروياته، وهي بضاعته التي كان يرتزق من إقرائها، ويحرص على المحافظة عليها. فأقام هناك أشهرا وتأهّب للحج، فأودعها عند محمّد بن العبّاس، مؤدّب أولاد عبد الله بن الحسن، لكنّ محمّدا أنسخها للناس. وحين عاد الباهلي وعلم بذلك قامت قيامته، وشكا أمره إلى عبد الله بن الحسن، وذكر له ما كان يأمل في دفاتره من التكسّب بها، فجمع له عبد الله من أهل البلد عشرة آلاف درهم، ووصله الخصيب بعشرين ألفا، فتناولها وكرّ راجعا إلى البصرة [معجم الأدباء، 1/ 228؛ الوافي، 9/ 296].

وفي بغداد وسرّ من رأى كان طلبة بغداد يتحلقون حول أبي نصر يأخذون عنه ويسمعون مروياته عن شيوخه، لا سيّما كتب الأصمعي، ومجموعاته من أشعار العرب ودواوين الشعراء، ومصنّفاته اللّغويّة؛ ونجد في حلقته في بغداد وسرّ من رأى أناسا سيكون لهم شأن فيما بعد منهم: إبراهيم الحربي (ت 285 هـ) صاحب كتاب «غريب الحديث» [تاريخ بغداد، 6/ 27]، وأحمد بن يحيى، ثعلب (ت 291 هـ). وقد روى عن أبي نصر كتب الأصمعي، وشعر الشماخ، وشرح ديوان ذي الرّمة [مراتب النحويين، 96؛ مجالس العلماء، 46؛ طبقات الزبيدي، 197]. وأبو البشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي (ت 284هـ) صاحب كتاب «التقفية في اللّغة» [معجم الأدباء، 6/ 2844]، ويعقوب بن إسحاق السكّيت (ت 244 هـ) صاحب «إصلاح المنطق»، وأبو علي الحسن بن عبد الله الأصفهاني، المعروف بـ «لغدة» (ت310هـ)، وأبو عمرو شمر بن حمدويه الهروي (ت 255 هـ) [طبقات الزبيدي، 197؛ بغية الوعاة، 2/ 5].

■ آثاره

ينسب المؤرّخون وأصحاب الطبقات لأبي نصر جملة من المصنّفات في موضوعات لغويّة، وهي في جملتها موضوعات لرسائل لغويّة، وصلت إلينا عن اللّغويين السابقين عليه واللاّحقين له، وعنوانات أبي نصر تشترك مع عنوانات شيخه الأصمعي، فلعلّها رواية لكتب الشيخ، ونسبت لأبي نصر، كما يقع كثيرا عند القدماء.... والظاهر أنّ أبا نصر كان يضيف كثيرا إلى ما يرويه عن شيخه وبقيّة الشيوخ ما رواه هو عن الأعراب الذين لقيهم في البوادي أو الحواضر. وهذه مصنفاته:

1 ـ كتاب الإبل [مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 36، عدد3، ص 398]؛ 2 ـ أبيات المعاني [دائرة المعارف، الأعلام 1]؛ 3 ـ كتاب الجراد [هديّة العارفين، 5/ 47؛ الفهرست، 89] 4 ـ كتاب الخيل [تاريخ بغداد، 1/ 114]؛ 5 ـ كتاب الزرع والنبات [تاريخ التراث العربي، 1/ 150]؛

6 ـ كتاب الشجر والنبات [معجم المؤلّفين، 1/ 116؛ تاريخ بغداد، 4/ 114؛ النجوم الزاهرة، 2/ 259]؛ 7 ـ كتاب اللّبإ واللبن [الفهرست؛ هديّة العارفين]؛ 8 ـ كتاب ما يلحن فيه العامّة [دائرة المعارف؛ تاريخ بغداد، 1/ 114]؛ 9 ـ كتاب الطير [دائرة المعارف؛ هديّة العارفين، 5/ 47]؛ 10 ـ اشتقاق الأسماء [هديّة العارفين، 5/ 47]؛ 11 ـ شرح ديوان ذي الرمّة 12 ـ كتاب الألفاظ [تاريخ التراث العربي]؛ 13 ـ كتاب الأجناس [تاريخ التراث العربي]؛ 14 ـ كتاب السلاح، ربّما هو للأصمعي برواية الباهلي أو بتنقيحه [تاريخ التراث العربي]؛ 15 ـ الزرع والنخل [الأعلام، 1/ 109؛ تاريخ بغداد 1 / 114].

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، بعناية الشيخ إبراهيم رمضان، ط 2، بيروت، دار الفتوى؛ ● الزجاجي، أبو القاسم، مجالس العلماء، تح. عبد السلام هارون، ط 2، القاهرة 1403هـ/ 1983م، مكتبة الخانجي؛ ● أبو الطيّب اللّغوي، مراتب النحويّين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، (د. ت.)، مكتبة نهضة مصر؛ ● الإشبيلي،أبو بكر الزبيدي، طبقات النحويّين واللّغويّين، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة الخانجي؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت) (مصورة بالأوفست)؛ ● القفطي، إنباه الرواة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة مؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت 1406هـ / 1982 م؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار صادر، بيروت، د. ت؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيّات باعتناء ديدرنغ، فيسبادن ط 2، 1402هـ / 1982 م، دار النشر فرانزشتايرو؛ ● العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبد اللّه، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، تح. عبد العزيز أحمد، القاهرة ط. 1383هـ/ 1963م، مكتبة مصطفى البابي الحلبي؛ ● السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللّغة، تح. محمد أحمد جاد المولى وآخرين، القاهرة، مكتبة عيسى الحلبي؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ج 2، ط. بيروت 1970، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات؛ ● البغدادي إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، ط 1، إستنبول، 1936 م؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج 2، تر. عبد الحليم النجّار؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة، ط ج، مج. 1؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، مج. 8/ج1، طبع إدارة الثقافة والنشر؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 1/ 109.

د. صاحب جعفر أبو جناح
جامعة صنعاء ـ اليمن
د. زكيّة السائح دحماني
جامعة منوبة ـ تونس

باوزير، سعيد عوض

(1333هـ/1915م - 1398هـ/1978م)

ولد المؤرخ سعيد بن عوض باوزير بمدينة غيل باوزير بحضرموت، وهي من المدن الشهيرة بالعلم والعلماء. التحق بالمعهد الديني بمدينة الغيل، ودرس على كبار الأساتذة علوم الشريعة واللغة العربية، وبعد تخرجه من المعهد عيّن كاتبا للمجلس العالي للقضاء الشرعي بمدينة المكلا بحضرموت سنة 1355هـ / 1936 م، ثمّ تقلّد وظيفة القضاء الشرعي لمدينة غيل باوزير في سنة 1356هـ / 1937م [الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح، ص 194؛ نفحات وعبير من تاريخ غيل باوزير، ص 113؛ خالد باكرمان: رجال خلّدهم التاريخ، ص 3].

وبعد فترة ترك القضاء واتجه إلى النشاط التربوي و التعليمي، فاشتغل بالتدريس بغيل باوزير، وأنشأ «المجمع الأدبي» في عام 1937 م، وكان عبارة عن تجمّع يضمّ الأساتذة وغيرهم من المثقفين والمتنوّرين، ويقوم بأنشطة ثقافية وتربوية مختلفة؛ وأسهم في افتتاح أول مدرستين حكوميّتين في غيل باوزير وفي منطقة أخرى بجوار الغيل (القارة) [الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح، ص 14؛ نفحات من تاريخ غيل باوزير، ص 113].

وفي عام 1939م تولّى إدارة مدرسة الفلاح بمدينة عدن بصفة مؤقتة، وفي نفس العام أسندت إليه إدارة مدرسة الهدى بالقطن في حضرموت، وبعد ذلك بفترة وجيزة أنشأ غرفة الثقافة وأصدر مجلة «لسان الريف» [الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح، ص 194].

وفي عام 1947م طُلب للتدريس في مدرسة الجالية العربية في أسمرة بأريتريا؛ وهناك اشترك في وضع لائحة المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي، وأسهم في تأسيس النادي الثقافي العربي هناك [الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح، ص 194؛ رجال خلّدهم التاريخ، ص 3].

بعد عودته من أسمرة اشتغل بالتدريس في حضرموت، ثمّ عمل في جهاز التفتيش التابع لإدارة معارف الدولة القعيطية، وقام بوضع مناهج في الدين واللغة العربية والتاريخ للمدارس الحضرمية آنذاك، وسعى بمدينة غيل باوزير إلى تأسيس مكتبة المعارف التي قامت بدور كبير في توفير الكتب والصحف والمجلات للطلبة والمدرسين للقراءة والاستفادة وتوسيع مداركهم، وعمل أمينا لهذه المكتبة منذ إنشائها في عام 1952م [الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح، ص 194، 195].

تدرس بعض مؤلفاته آنذاك في المدارس الحضرمية، وما يعرف سابقا بمدارس اتحاد الجنوب العربي كمادة تاريخية مهمّة.

وفي تاريخ 8 جمادى الآخرة 1409هـ / 15 يناير 1989 م، أي بعد وفاته، منحه اتحاد المؤرّخين العرب وساما وشهادة المؤرخ

العربي تقديرا لإسهاماته المتميّزة في خدمة التاريخ العربي [الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح، ص 195].

آثاره

1 ـ معالم تاريخ الجزيرة العربية، 1954، تناول فيه تاريخ الجزيرة العربية من الفترة السابقة للإسلام حتّى الخمسينات من القرن العشرين؛ 2 ـ صفحات من التاريخ الحضرمي، 1959م؛ 3 ـ الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، 1961 م، تناول فيه لونا جديدا من التدوين التاريخي وهو تدوين التاريخ الثقافي والاجتماعي للشعوب والأمم؛ 4 ـ الثقافة وسيلتنا للكفاح، وقد احتوى هذا الكتاب على عدد من المقالات التي نشرها الأستاذ المؤرخ سعيد عوض باوزير في الصحف وخاصة صحيفة الطليعة، خلال الفترة من 4 يونيو 1959م وحتّى 22 أبريل 1965م، هي مقالات اجتماعية تربوية وأدبية، أعدّهما للنشر وعلّق عليها نجل المؤرخ نجيب سعيد باوزير.

المصادر والمراجع

● باوزير، نجيب سعيد، الثقافة وسيلتنا الى الكفاح، الطبعة الأولى، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، الجمهورية اليمنية، عدن، 1998م؛ ● ابن شيخان، سامي محمد، نفحات وعبير من تاريخ غيل باوزير، دار التيسير، صنعاء، 1999م؛ ● باكرمان، خالد، رجالٌ خلّدهم التاريخ، من مجلّة شعاع الأمل، العدد 17، شعبان 1423هـ ـ اكتوبر 2002م؛ ● مقابلة شخصية بالمهندس سعيد باوزير نجل المؤرخ.

محمد بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

البَبْغاء، أبو الفرج عبد الواحد نصر

(ت 398هـ/1008م)



هو الشاعر الكاتب: أبو الفرج عبد الواحد نصر بن محمد الحنطبي المخزومي النصيبي، ولقب بالحنطبيّ نسبة إلى جده «حَنطب» وهو من مخزوم (ذكر ذلك ابن الأثير في «اللباب») وليس في العرب «حنطب» غيره.

ولكنه اشتهر بلقب «الببغاء»، للثغة كانت تزين لسانه، وقيل لحسن فصاحته، وقد أشار إلى ذلك أبو إسحاق الصابي فيما دار بينه وبين أبي الفرج من مكاتبات، قال:

أبا الفرج استحققتَ نعتًا لأجله
تسمّيتَ من بين الخلائق ببغا

بيانا منيرا كاللُّجين مضمّنا
نُضارا من المعنى أُنيب وأفرغا

فلو لامرئ القيس انتدبت مجاريا
كباء أو لقسٍّ في فصاحته صفا

ولد في نصيبين، في سنة يصعب تحديدها، ولكن بعض المصادر تروي عن الببغاء نفسه أنه كان في العشرين من عمره في أيام سيف الدولة الحمداني (ملك ثلاثا وعشرين سنة، ابتداء من سنة 333هـ إلى وفاته 356هـ) ولعل ذلك ما جعل فؤاد سزكين يذكر أنه ولد في سنة 313هـ / 925م.

أما عن حياته، فليس في المصادر التي ترجمت له ما يحدد مراحلها بدقة، ولكن من الثابت أنه اتصل وهو في ريعان شبابه بسيف الدولة، وأقام في جملته، وكان سيف الدولة شاعرا، محبا لجيد الشعر، اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ما لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك ـ بعد الخلفاء ـ ومن هؤلاء الشعراء: المتنبي، وكشاجم، والخليع الشامي، والوأواء الدمشقي، والسَّري الرفاء، والأخوان الخالديان، وابن نباتة السعدي، وأبو الحسن السلامي، وأبو العباس النامي، وكانت حلب في أيامه من المراكز العلمية الكبيرة، غصت بالأدباء والمتفلسفة واللغويين والفلكيين والأطباء والعلماء في كل فن، وعاش فيها أعلام لا يحصيهم عدّ مثل: الفارابي، وأبي علي الفارسي، وابن جني.

ويبدو أنه ـ بعد وفاة سيف الدولة ـ تنقل في البلاد واتصل بعدد من الأمراء والرؤساء، فعاش مدة قصيرة في الموصل بعد سنة 356هـ / 967 م، ثم في بغداد إلى حين وفاته سنة 398هـ.

ومن أهم الأخبار التي رواها الثعالبي في «يتيمة الدهر» أن الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي، التقى في سنة 390هـ بالببغاء، وكان في ذلك الوقت شيخًا كبير السن، نظيف الملبس، مليح اللثغة، «قد أخذت الأيام من جسمه، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه»، وروي أيضا أنه عرض على القاضي أبي بشر الفضل ابن محمد بجرجان سنة 391 هـ، كتاب أبي الفرج الببغاء الوارد عليه من بغداد، مشتملا من النظم والنثر على ما أثّرت فيه حال من بلغ ساحل الحياة، ووقف إلى ثنيّة الوداع، ويعقّب الثعالبي على هذا الخبر بقوله: «ولست أدري ما فعل الدهر به، وأغلب ظني أنه إلى الآن قد لحق باللطيف الخبير».

وقد تأثر بأبي الطيب المتنبّي الشاعر المشهور (ت 354هـ) وتعصّب له، ودافع عنه وعن شعره، وعن ذلك يقول: «كانت الحال بيني وبينه عامرة، دون باقي الشعراء».

واشتهر بمودته لأبي إسحاق الصابي (ت 384هـ) وكان كل منهما يتمنى لقاء صاحبه ويراسله، وفي «اليتيمة» مجموعة من الرسائل الشعرية والنثرية المتبادلة بينهما، تحت عنوان: «ذكر ما دار بينه وبين أبي إسحاق الصابي».

ومن الأعيان الذين مدحهم أو عمل في دواوينهم: سعد الدولة بن سيف الدولة (ت 381هـ) وعُدّة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة (ت 369هـ) وأبو محمد المهلبي (ت 352هـ) وزير معز الدولة، وسابور بن أردشير (ت 416هـ) وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة.

■ آثاره

كان الببغاء شاعرا كاتبا، أما شعره، فقد ذكر ابن النديم أن مجموعه ثلاثمائة ورقة، وقال

الخطيب البغدادي: «وروى لنا جماعة عنه شيئا كثيرا من شعره»، ثم ذكر الخطيب اثنين من هؤلاء الرواة رويا أشعارا سمعاها من الببغاء نفسه، هما: القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، وأبو نصر أحمد بن عبد الله الثابتي. وقالت بعض المصادر من مثل الكامل لابن الأثير، إن ديوانه مشهور.

ومن المرجح أن هذا الديوان قد ضاع، على أن بعض المصادر احتفظت بقدر من شعره وأهمها «يتيمة الدهر»، ففيها مجموعة من الأشعار تحت عنوان: «هذا ما أخرج من شعره الذي يتغنى به» ومجموعها أربع عشرة مقطوعة، احتوت على سبعة وثلاثين بيتا، ثم أورد مجموعة أخرى تحت عنوان: «هذه غرر من شعره في الغزل والخمر» وفيها اثنتا عشرة قصيدة احتوت على ثلاثة ومائة بيت، وختمت هذه المختارات بمجموعة ثالثة عنوانها «غرر شعره في سائر الفنون» معظمها مقطوعات قصيرة في الوصف والشكر والمدح. اشتملت على تسع عشرة مقطوعة وقصيدة ضمّت ثمانية وثمانين بيتا.

أما رسائله فقد أشار إليها ابن النديم في «الفهرست» في أكثر من موضع، ومن المرجح أنها قد ضاعت أيضا مع ما ضاع من تراثه، ولكن لاشك في أنها كانت معروفة موجودة حتى عصر القلقشندي (ت821هـ) على أقل تقدير، وقد بقيت منها نماذج متنوعة في المصادر المختلفة فأثبت الثعالبي طائفة تحت عنوان: «في بيان غرر من رسائله الموصولة بمحاسن شعره»، من أهم ما حوته: عدة رسائل إلى سيف الدولة ورسالة إلى أبي محمد المهلبي، وأخرى إلى عدة الدولة أبي تغلب، وأخرى إلى أبي محمد جعفر بن محمد بن ورقاء، وفصول قصيرة متنوعة من رسائل شكر.

واحتفظ القلقشندي في «صبح الأعشى» بقدر كثير متنوع من فصوله، وهي فصول قصيرة ـ يبدو أنها منتزعة من رسائله الطويلة ـ وقد أكثر من الاستشهاد بها في الجزء التاسع عند الحديث عن الكتابات الإخوانية، فأورد له نماذج في التهنئة بولاية الأعمال، وبالعودة من الحج، وبالقدوم من السفر، وبشهر رمضان، وبعيد الفطر، وبما يصلح تهنئة لكل عيد، وبالمهرجان، وبالزواج، وبالإبلال من المرض، وبالعافية من السقم، وبنزول المنازل المستجدّة، كما أورد له نماذج من التهاني الغريبة الطريفة كالتهنئة بالمرض وبالصرف عن الولاية، وتهنئة من تزوجت أمه بزواجها، وقد أثبت القلقشندي بضعة فصول له في التعازي وبضعة أخرى في استهداء الدواة، أو المداد، أو المشروب، كما أثبت نماذج أيضا في أبواب الشفاعات والعنايات والتشوق والاسترضاء والاستعطاف والاعتذار والشكر.

أما رسائله الديوانية فلم يرو منها إلا واحدة طويلة في الجزء السادس من «صبح الأعشى» كتبها عن أبي تغلب بن ناصر الدولة الحمداني، جوابا للكتاب الوارد عليه من الخليفة العباسي، وذلك في مجال الحديث عن افتتاح المكاتبات وأن بعضها قد يفتح بلفظ: «كتابي للخليفة والحال كذا وكذا، ويدعو للخليفة بطول البقاء في أثناء ذلك، ويعبر الملك المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الإفراد مع التصدير بالعبودية، ويخاطب الخليفة بأمير المؤمنين، ويختم بالدعاء ونحوه».

وبصفة عامة يمكن القول إنه لم يكن له من

نتاج سوى أشعاره ورسائله، وثمة مصادر أخرى - غير ما سبق ذكره منها - روت أشعاره أو كتاباته النثرية أو أخباره، وهي مصادر بعضها تاريخي، وبعضها أدبي، وبعضها كتب تراجم أو كتب تهتم برواية نماذج بعينها من الآثار الأدبية، من هذه المصادر: نشوار المحاضرة للتنوخي - الفرج بعد الشدة للتنوخي - حماسة الظرفاء للعبد لكاني الزوزني - تاريخ بغداد للخطيب - محاضرات الأدباء للراغب - تاريخ دمشق لابن عساكر - المنتظم لابن الجوزي - مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي - وفيات الأعيان لابن خلكان - الدر الفريد - يدمر المحيوي - سير أعلام النبلاء للذهبي - البداية والنهاية لابن كثير - النجوم الزاهرة لابن تغري بردي - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي. إلخ.

وممّا وصل إلينا من أخباره قصة بدأ بها الثعالبي ترجمته له، وذكر أنها «من عبارته وحكايته»، حكى فيها الببغاء ما جرى له في دير مران وهو دير كبير قريب من دمشق، وقد أثنى الثعالبي على هذه الحكاية، فقال: «لم أسمع أظرف منها في فنها ولا ألطف ولا أعذب ولا أخف وإن كان فيها بعض الطول».

ولأجل هذه الحكاية - أو القصة - رأى زكي مبارك أنه واحد من كتاب الأقاصيص في القرن الرابع الهجري، كما رأى أنها تمثل الحرية التي كان رجال الأدب يمرحون في ظلالها في ذلك الحين، وقال متابعا الثعالبي في إعجابه: «ونحن نشهد بأننا لم نقرأ في الأدب العربي أظرف من هذه الحكاية».

ولاشك في أنّ هذه القصة تمثل - من بعض الوجوه - لونا من ألوان الاعترافات أو الترجمة الذاتية، كما تمثل قدرة على التصوير والبناء، ويزيدها أهمية أن عباراتها مرسلة لا أثر للصنعة أو الجمل المسجوعة فيها، ولغتها سهلة مقبولة تختلف عن لغة بعض الكتابات المتكلفة.

وتجمع الآراء على أنه كان أديبا فاضلا، وكاتبا مترسلا، وشاعرا مجيدا لطيفا مطبوعا، مليح الألفاظ جيد المعاني، حسن القول في المدائح والغزل والتشبيه.

وهو من أصحاب الأشعار السائرة والأقوال الحكمية الذائعة، منها هذه الأبيات التي تدور في كتب الأدب:

أكُلّ وميض بارقةٍ كذوبُ
أما في الدهر شيءٌ لا يريبُ
تشابهتِ الطباع فلا دنيءٌ
يحنّ إلى الثناء ولا حسيب
وشاع البخل في الأشياء حتى
يكاد يشح بالريح الهبوب
فكيف أخصّ باسم العيب شيئا
وأكثر ما نشاهده معيب

وطريقته في رسائله هي طريقة طبقته ممن استخدموا السجع والتزموه، يدل على ذلك ما تبقى من كتاباته الديوانية والإخوانية، وما أشار إليه ابن سنان في كتابه «سر الفصاحة»، قال: «ومن الكتاب المحدثين من كان يستعمل السجع كثيرا، ولا يكاد يخلّ به، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي، وأبو الفرج المعروف بالببغاء».

وقد حظي بعناية بعض المستشرقين، فنشر فولف بعض أشعاره وترجمها إلى اللاتينية، كما تحدث عنه شولتس، وقدم عنه دراسة شملت حياته وأدبه.

وربما كانت دراسة زكي مبارك عنه، أقدم ما كتب حديثا عن هذا الشاعر الكاتب وقد سلكه مرة مع كتّاب الأخبار والأقاصيص، وسلكه مرة أخرى مع كتّاب الرسائل والعهود في القرن الرابع الهجرى، ويرى زكي مبارك أنّه لم يكن يطمع في الاتصال بالخلفاء أو الرؤساء، كما يرى أنّه لم يكن طامحا طموح أبي الفضل بن العميد أو الصاحب بن عباد أو غيرهما من كتّاب الدواوين الذين وزروا للأمراء البويهيين، وقد دارت كتاباته حول شهواته وأغراضه النفسية، ولذلك صفا شعره الوجداني، وكان بعضه مما يغنى به.

ومن الواضح أن زكي مبارك متأثر في آرائه هذه، بما قرأه من المختارات التي أوردها الثعالبي والقلقشندي، ولو أتيح لآثار أبي الفرج الببغاء أن تصل إلينا كاملة لأمكن التعرف على اتجاهات شعره ونثره بصورة أدق.

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، ط الرحمانية، القاهرة، 1348 هـ؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ط السعادة، القاهرة، 1349 هـ/ 1931م؛ ● الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط الصاوي، القاهرة، 1352هـ/ 1934م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، ط1، السعادة، القاهرة، 1948م؛ ● القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط دار الكتب، القاهرة، 1913 ـ 1917م؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثاني، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1977م؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة: د. حجازي، د. أبو الفضل، ط جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1403 هـ/ 1983م؛ ● مبارك زكي، النثر الفني في القرن الرابع الهجري، ط دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت.

د. محمد يونس عبد العال

جامعة عين شمس القاهرة ـ مصر

البتّاني، أبو عبد الله محمد بن جابر

(244هـ/858م ـ 317هـ/929م)

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرّاني، الرقي، الصابئ، البتّاني، رياضي وفلكي. اشتهر بين القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ولد بقرية بتّان من نواحي حران على نهر البلخ، أحد روافد نهر الفرات. وقد اختلف المؤرخون في تاريخ مولده، من ذلك أن نللينو رأى [دائرة المعارف الإسلامية، ط.

جديدة]. وكذلك سارطون [مدخل لتاريخ العلوم عند العرب] أنه ولد قبل عام 244 هـ/ 858 م، ورأى بروكلمان أنه ولد سنة 244 هـ/ 858م [تاريخ الأدب، 4/ 213]، أما أسماء زكي المحاسني فرأت أنه ولد حوالى عام 245هـ / 859 ـ 860م [الوسائل التوضيحية في المخطوطات العلمية العربية، 106].

لا تذكر التراجم كثيرًا عن حياته. وممن ذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» حيث قال إنه «كان أوحد عصره في فنه، وأعماله تدلّ على غزارة فضله وسعة علمه. وتوفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة، عند رجوعه إلى بغداد، بموضع يقال له قصر الحضر، ولم أعلم أنّه أسلم، لكنّ اسمه يدلّ على إسلامه».

سخّر عمله لمعرفة الله تبارك وتعالى. فتنقّل بين الرقّة على نهر الفرات وأنطاكية من بلاد الشام، وأنشأ مرصدا عرف باسمه. وكان يلقّب بـ «الرَّقّي»، نسبة إلى الرقة التي أقام فيها وعمل عدّة أرصاد هناك. وقد استخدم آلات كبيرة جدا لم يسبق استخدامها من قبل، وذلك لتقليل الخطأ المحتمل.

وقد عكف البتّاني على دراسة كتاب المجسطي لبطليموس وحقّقه ودقّق ما جاء فيه من معلومات فلكيّة، وصحّح الكثير ممّا ورد فيه حتّى عرف بلقب «بطليموس العرب». وقد أشار البتّاني معلّقا على هذا الكتاب كما أورد في كتابه «الزيج الصابىء»: «لمّا أطلتُ النظر في هذا العلم (علم الهيئة) وأدمنتُ الفكر فيه، ووقفت على اختلاف الكتب الموضوعة لحركات النجوم، وما تهيّأ على بعض واضعيها من الخلل في ما أصّلوه فيها من الأعمال وما ابتنوها عليه، وما اجتمع أيضا في حركات النجوم على طول الزمان ـ لمّا قيست أرصادها إلى الأرصاد القديمة ـ وما وجد في ميل فلك البروج عن فلك معدّل النهار من التقارب، وما تغيّر بتغيّره من أصناف الحساب وأقدار أزمان السنين وأوقات الفصول واتصالات النيّرين التي يستدلّ عليها بأزمان الكسوفات وأوقاتها، أجريتُ في تصحيح ذلك كله وإحكامه على مذهب بطليموس في الكتاب المعروف بالمجسطي بعد إنعام النظر وطول الفكر والرؤية مقتفيا أثره، متّبعا ما رسمه؛ إذ كان قد تقصّى ذلك من وجوهه، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعددي، الذي لا تُدفع صحّته. ولا يشكّ في حقيقته، فأمر بالمحنة والاعتبار بعده، وذكر أنّه قد يجوز أن يُستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على إبرخس وغيره من نظرائه لجلالة الصناعة ولأنّها سماوية جسيمة لا تدرك إلاّ بالتقريب. ووضعتُ في ذلك كتابا أوضحت فيه ما استعجم، وفتحت ما استغلق، وبيّنت ما أشكل من أصول هذا العلم وشذّ من فروعه، وسهّلت به سبيل الهداية لمن يتأثر به ويعمل عليه في صناعة النجوم، وصحّحت فيه حركات الكواكب ومواضعها من منطقة فلك البروج على نحو ما وجدتها بالرصد وحساب الكسوفيين وسائر ما يحتاج إليه من الأعمال، وأضفت إلى غيره ممّا يحتاج إليه، وجعلت استخراج حركات الكواكب فيه من الجداول لوقت انتصاف النهار من اليوم الذي يحسب فيه بمدينة الرقة، وبها كان الرصد والامتحان على تحذيق (تنقيح) ذلك كلّه إن شاء الله تعالى وبه التوفيق».

وقد قام البتّاني بتصحيح كتاب الزيج الممتحن الذي وضعه علماء الفلك في زمن المأمون العباسي. والكتاب عبارة عن عمليّات حسابيّة وقوانين عدديّة، وجداول فلكيّة، بها ما يخصّ كلّ كوكب وطريق حركته تعرف منها مواضع الكواكب في أفلاكها، ويمكن استعمالها لمعرفة الشهور والأيّام والتواريخ الماضية. وبها أصول مقرّرة لمعرفة «الأوج» وهو أبعد نقطة للكواكب عن الأرض والحضيض وهو أقربها من الأرض. وكذلك معرفة الميول والحركات واستخراجها.

وتبرز أهمّية إنجازاته في تحديده بدقّة متناهية نقطة الأوج الطولي الشمسي بأنّها أبعد نقطة لمحيط الشمس من أبعد نقطة عن الأرض. ووجد أنّ المسافة قد تغيّرت عمّا كانت عليه إبّان عصر بطليموس. فقاس بدقّة فائقة ميل فلك البروج. وكان أوّل من توصّل إلى تصحيح طول السّنة الشمسية، وقدرها بـ 365 يوما و5 ساعات و46 دقيقة و32 ثانية، بينما القيمة الحقيقية التي توصل إليها العلم الحديث هي 365 يوما و5 ساعات و48 دقيقة و46 ثانية، أي بفارق دقيقتين و14 ثانية. كما أثبت البتّاني مواعيد كسوف الشمس وخسوف القمر بقدر كبير من الدقّة. وتبنّى قيمة ثابتة لمبادرة الاعتدالين مساوية لدرجة واحد كلّ 66 سنة، ممّا سمح له بإعادة حساب أرقام جدول الكواكب الثابتة الواردة لدى بطليموس، فخفّض عددها إلى أقلّ من النصف 489 بدلا من 1022 .

وحقّق البتّاني مواقع كثير من النجوم، وصحّح بعض حركات القمر والكواكب السيّارة ـ كما قام بتعيين ميل البروج عن فلك معدّل النهار، أي ميل محور الأرض في دورانها حول نفسها بالنسبة إلى دورانها حول الشمس والذي يسمّى حاليا بـ «الانحراف»، والتي نسبت فيما بعد إلى كوبرنيكس الذي أعاد اكتشافها. كما صحّح عمل بطليموس في تقدير الاعتدالين الصيفي والشتائي. واستطاع رصد زاوية حول الشمس. كما بحث البتّاني منازل القمر وحركات الكواكب السيارة، واستنبط نظرية جديدة كشف فيها الأحوال التي يرى بها القمر عند ولادته، واخترع طريقة لرصد الهلال عند مولده وظهوره، فرصد تغيّر زاوية الرؤية لكلّ من الشمس والقمر، واستنتج لأوّل مرّة في تاريخ علم الفلك أنّ كسوفات الشمس الحلقية ممكنة، لأنّ زاوية القمر في حدّها الأدنى يمكن أن تكون أصغر بقليل من زاوية الشمس. والتي تمكّن دنثورن بالاعتماد على أرصاد البتّاني من تحديد تسارع القمر في حركته حول الأرض. كما أثبت البتّاني على أنّ زاوية القمر تتغيّر عند قرانه مع الشمس، كما تتغيّر زاوية رؤية الشمس، وذلك بخلاف ما أثبته بطليموس الذي اعتبر أنّ زاوية الشمس ثابتة دون أن يأخذ بالاعتبار تغيّر مسافة الشمس إلى الأرض في حركتها على الفلك الخارج المركز، وأنّ هذه القيمة هي أيضًا الحدّ الأدنى لزاوية رؤية القمر، ممّا إمكانيّة الخسوف الحلقي. وقد توصّل البتّاني إلى أنّ معادلة الزّمن تتغيّر تغيّرا بطيئا على مرّ الأجيال. وذكر كارل نلينو في مقدّمته: «إنّ البتّاني هدم نظرية بطليموس حول ثبات الأوج الشمسي عندما أثبت تبعيّته لحركة المبادرة الاعتدالية، مستنتجا أنّ معادلة الزمن تتغيّر ببطء مع مضيّ الوقت».

ومن مباحثه في معرفة عروض البلدان، وارتفاع الشمس في وقت منتصف النهار، وما يمضي من النهار بقياس الشمس، ومعرفة الطالع والارتفاع من قبل الساعات قوله في زيجه الممتحن: «إذا أردت أن تعرف الارتفاع من قبل ما يمضي من ساعات النهار فخذ الساعات من طلوع الشمس إلى الساعة المفروضة، فإن كانت من ساعات الاعتدال فاضربها في خمس عشر، وإن كانت زمانية ففي أزمان ساعات ذلك اليوم. فما اجتمع من إحدى الجهتين نظرت، فإن كان ذلك أقلّ من نصف قوس النهار نقّصته من نصف قوس النهار، وإن كان أكثر منه ألقيت منه نصف قوس النهار، فما حصل بعد ذلك فهو بعد الشمس عن وسط السماء، فاعرض وتره راجعا وأنقصه من وتر نصف قوس النهار الراجع. فما بقي فاضربه في وتر ارتفاع الشمس في نصف نهار ذلك اليوم، فما بلغ فاقسمه على وتر نصف قوس النهار الراجع، فما حصل فقوسه على ما رسمت لك في تقويس الأوتار، فما بلغت القوس فهو مقدار الارتفاع على الأفق في تلك الساعة المفروضة قبل نصف النهار فالارتفاع من ناحية المشرق، وإن كان بعده فهو من ناحية المغرب».

وممّا ساعد البتّاني على ذلك كلّه هو استخدامه حساب المثلّثات في قياس الميول الفلكيّة، فهو يعدّ أوّل من سخّر علم المثلثات لخدمة الفلك، وركّز البتّاني في عمله على المثلّث الكروي وخواصّه. واستخدم جيب الزاوية الذي استنتجه من فكرة الأوتار التي كانت مستعملة عند اليونانيين، كما ابتكر مفاهيم جيب التمّام، والظلّ، وظلّ التمّام، وألّف جداول دقيقة لظلّ التمّام للزوايا من الصّفر إلى 90 درجة بمنتهى الدقّة. فاستخرج ظلّ التمّام في جداوله الخاصّة بالمثلّثات الكروية من المعادل: ظتا أ = جتا أ. واستخدم لأوّل مرّة الحلول الجبريّة الرياضيّة في حلّ المسائل الهندسية، وذلك بتطبيق القوانين والعمليات الجبرية على المعادلات المثلّثيّة. وفي زيج البتّاني جدول ذو منزلتين بالظلال الخاصة بشاخص مزولة طوله 12 إصبعا يخصّ دالة جيب التمّام تبعا لمقادير الارتفاع بالدرجات. والجدول طبق فقط على مقادير الظلّ الموافقة لمقادير الارتفاع. وأما طول الشاخص فهو اختياري كطول شعاع الكرة، وله وحدات خاصّة به.

وقد ترك البتّاني عددا من المؤلفات الهامّة معظمها في علم الفلك أثبت بعضا منها ابن النديم في «الفهرست»، لم يبق منها سوى كتابه الزيج الصابىء الذي يعتبر في الفلك أصحّ الأزياج والجداول الفلكيّة المعروفة، لأنّه صحّح فيه حسب استنتاجه وتجاربه العمليّة في مرصدي الرقّة وإنطاكيّة الكثير من الأخطاء الفلكيّة. ويذكر البتّاني في مقدّمة عن علم الفلك: «إنه من أشرف العلوم منزلة، وأسناها مرتبة، وأحسنها حلية، وأعلقها بالقلوب، وألمعها بالنفوس وأشدّها تحديدًا للفكر والنظر تذكية للفهم ورياضة للعقل بعد العلم، بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسنّته، علم صناعة النجوم. لما في ذلك من جسيم الحظّ عظيم الانتفاع بمعرفة مدّة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان وزيادة النهار والليل ونقصانهما،

ومواضيع النيرين (الشمس والقمر) وكسوفهما، ومسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتبدّل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسبتها، إلى ما يدرك بذلك مَنْ أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته، وجليل قدرته، ولطيف صنعته».

آثاره

1 - الزيج الصابيء، ترجمة بلاتو تيفوك، نورنبرج، عام 1537 م، ترجم أيضًا إلى اللغة القشتالية (الأسبانيّة القديمة)، مع شروحه وتعليقاته العلميّة والعمليّة بتوصية من ألفنسو العاشر ملك قشتالة، ترجمه عام 1646 م، نشره عن الأصل العربي كارلو نلينو بروما عام 1899 - 1917م مصحوبا بترجمة لاتينية وتعليق على بعض النصوص؛ 2 - رسالة في عمليّات التنجيم الدقيقة؛ 3 - كتاب عن دائرة البروج والقبّة الشمسية؛ 4 - مختصر لكتب بطليموس الفلكيّة؛ 5 - شرح المقالات الأربع لبطليموس؛ 6 - رسالة في مقدار الاتصالات الفلكيّة؛ 7 - رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات؛ 8 - كتاب في معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك؛ 9 - كتاب تعديل الكواكب؛ 10 - كتاب في علم الفلك؛ 11 - مخطوطة في علم الزودياك.

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، اعتنى به إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت 1994م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، 6 أجزاء، عناية محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة 1948م؛ ● فيرنيه، جوان، الرياضيّات والفلك والبصريات، تراث الإسلام، ج2، تصنيف جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، ومراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، العدد 234، 1998م؛ ● علم المثلّثات من الهندسة إلى علم المثلّثات، موسوعة تاريخ العلوم العربيّة، إشراف رشدي راشد، ج 2، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت 1997م؛ ● نلينو، كارل، علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما 1911م؛ ● صالحية، محمد عيسى، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، معهد المخطوطات العربيّة، المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج 5، (م - ي)، القاهرة 1995م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 6/ 68؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، القاهرة 1975، دار المعرفة بمصر، 4/ 213 - 214؛ ● المحاسني، أسماء زكي، الوسائل التوضيحية في المخطوطات العلمية العربية، الرياض 1422هـ / 2001 م، 106.

د. أحمد فؤاد علي
جامعة القاهرة - مصر

البَتْزوني، أبو اليُمن محمد بن عبد الرحمن

(966هـ/1558م - 1046هـ/1636م)

هو أبو اليُمْن، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد السلام البترَوني، الحلبيّ. أصله من البترون، بلدة على ساحل البحر جنوبي طرابلس الشام، كان أبوه «عبد الرحمن» غادرها وسكن حلب سنة 964 هـ/ 1007م. فنشأ هو فيها مع أخيه «أبي الجود». وكان خيراً من أخيه في الفضيلة العلمية، فاضلاً، فقيهاً، متواضعاً، حَسَن الخُلُق، جواداً، ممدّحاً، نشأ في الجدّ والاجتهاد، وأخذ عن علماء عصره، ودرّس بالمدرسة العادلية، وبالمدرسة الجاولية بحلب في سنة 1016 هـ. وكان يتقاضى بدل تدريسه خمسين عثمانياً في اليوم، إضافةً إلى عشرين عثمانياً يومياً من مملحة الجُبول، شرقيّ حلب (على مسافة 45 كيلومتراً منها)، ثم تولّى إفتاء حلب، على المذهب الحنفيّ، وظلّ يُفتي مدّة طويلة، وكان له شأن رفيع، ولأهل حلب عليه إقبال زائد لسلامة طبعه، وتودّده، وكرم أخلاقه.

وقد وُصف بأنه «بحر علم، وطود حلم، وواحد الآفاق، في مكارم الأخلاق».

جمع لنفسه مكتبة كبيرة، وكان يدوّن ويؤرّخ وقت شرائه وتملّكه لكلّ كتاب، ومن ذلك تملُّكه لنسخة من كتاب «أنفع الوسائل في تحرير المسائل» مؤرّخ في سنة 1511 هـ. من تأليف «إبراهيم بن علي بن أحمد الطرسوسيّ» (توفي 758 هـ)، ونسخة من كتاب «الإعلام بما وقع في مشتبه الذهبيّ من الأوهام» وتوجد نسخته في مدرسة الأحمدية بحلب، في 66 ورقة. وفي مكتبته كتاب «شرح المواقف» في علم الكلام، وكان يُقرئ فيه تلامذته.

حجّ في عام 1004 هـ. ودخل دمشق أثناء سفره، فأكرم نُزُله القاضي محبّ الدين، جدّ الأمين «المحبّي» صاحب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» لسابق مودةٍ بينه وبين أخيه أبي الجود. ولقد رآه «البوريني» (توفي 1043 هـ) صاحب «تراجم الأعيان من أبناء الزمان» أثناء مروره بدمشق، ولكنه لم يجتمع به.

له شعر في المديح والغَزَل، أورد بعضه كلٌّ من «البوريني» و«المحبّي» وهو جمع كتاب «الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب» الذي ألّفه «ابن الشِّحْنة» (توفي 890 هـ/ 1485 م) وجاء في مقدّمته أنه نقل نبذةً من كتاب «نزهة النواظر في روض المناظر» لابن الشحنة. والصواب أنّ اسم الكتاب هو «روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر»، وهو تاريخ عامّ لا علاقة له بتاريخ حلب، طُبع مرّتين حتى الآن. وبعد أن جمع «البتروني» كتاب «الدرّ المنتخب» زاد فيه عدّة حوادث جرت بعد وفاة مؤلّفه «ابن الشحنة»، ووضع فيه حواشي متفرّقة، منها حاشية عن زيارته لمشهد إبراهيم الخليل عليه السلام بإحدى

قرى حلب في أواخر سنة 1036 هـ. وحاشية عن الجُرن الذي كان للنصارى في المدرسة الحلاوية الحنفية بحلب، وفي هذه الحاشية يفيدنا «أبو اليُمن» أنه كان مدرّساً بمدرسة خُسْرو باشا بحلب أيضاً. كما زاد حاشية على المدرسة البلدقية، بها، والمدرسة الأتابكية، والمَطْهَرة التي بسوق السلاح غربيّ جامع حلب، وفي إحدى الحواشي ينقل نصّاً من حوادث سنة 350هـ عن «تاريخ الأنطاكي» لـ «يحيى بن سعيد الأنطاكيّ» المتوفى سنة 458 هـ.

توفيّ «أبو اليُمن البتروني» في سنة 1046 هـ/ 1636م. وقد بلغ من العمر 80 سنة، ودُفن بالصالحية.

آثاره

1 ـ الفجر الساطع في ذكر السيف القاطع؛

2 ـ السرّ المصون والدرّ المكنون؛

3 ـ حواشٍ على: الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب لابن الشِحنة.

المصادر والمراجع

● معجم المطبوعات العربية، لسركيس 526؛ ● معجم المؤلّفين 9/ 97 و 15/ 136؛ ● الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب، لابن الشحنة، دار الكتاب العربي، دمشق 1404 هـ/ 1984م. (المقدّمة)؛ ● موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، عمر عبد السلام تدمري، القسم الثالث، جزء 5/ 254 ـ 256 رقم 1590.

د. عمر عبد السلام تدمري

الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

ابن بُجير، أبو حفص عمر بن محمد

(223هـ/ 838م ـ 311هـ/ 923م)

هو أبو حفص عمر بن محمد بن بُجَيْر بن حازم الهمذاني السمرقندي الخشوفغني (من قرى الصغد، والصغد: ناحية بين بخارى وسمرقند نسب إليها من أهل العلم كثيرون) [معجم البلدان، 3/ 222]. ويقال لها «رأس القنطرة».

وبُجير بضم الباء وفتح الجيم وسكون الياء، بالتصغير، وهي النسبة إلى الجد بجير [ابن الأثير، اللباب، 1/ 122]. وكان ابن بجير فاضلا خيرا ثبتا صدوقا حافظا ويعد من أوعية العلم، وعرف بمحدّث ما وراء النهر (ما وراء نهر جيحون، ومدنها كثيرة منها الشاش، والصغد، وفرغانة، وبخارى، وسمرقند) [معجم البلدان، 5/ 45]. وكان والده (ت 268هـ/ 881 م) محدثا مشهورا ورحالة، روى الحديث عن شيوخه أمثال مسدد بن

سرهد، والقعنبي، وجماعة سواهما؛ فحرص على ولده أبي حفص، وأخذه في رحلاته إلى الأقاليم التي سافر إليها لطلب العلم مرات عدة. لذلك أخذ عن والده الاهتمام بالرحلة وعرف بذي الرحلة الواسعة، ومنها رحلته إلى مصر التي دخلها ليأخذ من شيوخها، ولا يخفى أنه استفاد من رحلاته تلك حتى أصبحت له معرفة علمية وعلاقات كثيرة، لذلك فإنه التقى بعدد من الشيوخ وروى عنهم. فقد روى عن أبيه، وعن عيسى بن حماد زُغْبة وبشر بن معاذ العقدي وطبقتهما، وعن عمرو بن علي الغلاس وأحمد بن عبدة الضبي، ومحمد بن معاوية خال الدارمي، وعن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، ومحمد بن بشار ومحمد بن مثنى البصريين، وأبي الأشعث أحمد بن المقدام، وغيرهم كثير.

وقد وثقه علماء الجرح والتعديل، قال أبو سعد الإدريسي: «كان فاضلاً خيرا ثبتا في الحديث، له العناية التامة في طلب الآثار والرحلة»؛ وقال الذهبي عنه بأنه: صدوق، وذكر له حديث حسن تفرّد به، وهو حديث مرفوع يصل إلى رسول الله ﷺ قال: إن الله زادكم صلاة إلى صلاتكم هي خير من حمر النعم، ألا وهي الركعتان قبل صلاة الفجر.

كذلك نقل عنه حديثا بسلسلة إسناد طويلة ومرفوعًا إلى الرسول محمد ﷺ وهو: قال رسول الله: «كل أمتي تدخل الجنة إلا من أبى. قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى».

وقد تتلمذ على يديه عدد من العلماء ورووا عنه الاحاديث؛ منهم: محمد بن محمد بن صابر، ومحمد بن بكر الدهقان، ومحمد بن أحمد بن عمران الشاشي، ومحمد بن علي المؤدب، ومعمر بن جبريل الكرميني، وأعين بن جعفر السمرقندي، وعيسى بن موسى الكسائي، ومحمد بن أحمد بن علي بن حيويه، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي.

توفي أبو حفص بن بجير سنة (311هـ) بعد أن عاش ثماني وثمانين سنة، وقد خلف له أحفادا منهم ابنه أبو الحسن محمد بن عمر البجيري، وكان كأبيه وجده محدثا ثقة روى عن أبيه وعن إسحق بن إبراهيم الدبري وعلي بن عبد العزيز البغوي وبشر بن موسى الأسدي ويعقوب بن يوسف القاضي وعمر بن حفص السدوسي، وتوفي سنة «345هـ / 956 م»؛ وكذلك حفيده أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر البجيري الذي روى عن جده أبي حفص «الجامع الصحيح»، كما روى عن الحسن بن صاحب الشاشي، وأحمد بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، وغيرهم؛ وتوفي سنة 372هـ/ 982م.

آثاره

صنف ابن بُجير كتبا في الحديث النبوي الشريف، وفي التفسير، منها:

1 ـ كتاب تفسير القرآن؛ 2 ـ أجزاء في الحديث، والجزء عند المحدثين هو تأليف الأحاديث المروية عن رجل واحد من الصحابة أو من بعدهم؛ 3 ـ الجامع الصحيح، في الحديث. وتوجد نسخة مخطوطة منه باسم «الجامع المسند» في المكتبة الظاهرية (حديث 276 قسم 30) [سزكين، تاريخ التراث العربي،م 1، ج 1/ 339].

■ المصادر والمراجع

● البغدادي، هدية العارفين، بغداد، د.ت، مكتبة المثنى، 5/ 780 ـ 781؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مصر، د.ت، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 3/ 209؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، 2/ 719؛ ● م.ن، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط وأكرم البوشي، ط 4، بيروت 1986، مؤسسة الرسالة، 14/ 402؛ ● م.ن، العبر، تح. محمد السعيد بن بسيوني، بيروت 1985، دار الكتب العلمية، 1/ 462؛ ● السمعاني، الأنساب، ط2، بيروت 1980، 2/ 89؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ط 2، بيروت 1979، دار المسيرة، 2/ 262؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 5/ 60 . . .

د. عبد الجبار حامد أحمد
جامعة الموصل ـ العراق

■ بحر العلوم، محمد صالح

(1326هـ/ 1908م ـ 1413هـ/ 1992م)

ولد محمد صالح بحر العلوم في مدينة النجف في العراق عام 1908م، وقد أشار كركيس عواد في معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين أنّ ولادته كانت عام 1909 وليس عام 1908.

وهو شاعر عراقي معروف بأسلوبه البسيط والمباشر في الشعر وبالتزامه الشديد بالعمود الشعري والقافية.

كتبت عن شعره دراسات وبحوث عديدة وترجمت بعض قصائده إلى الأنجليزيّة، والروسيّة، والفرنسيّة، والصينيّة.

نشأ محمد صالح بحر العلوم في بيت عريق في العلم والأدب والفقه بالنجف الأشرف، وقد كان في أسرته الكثير من المشاهير والأدباء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أمثال: جده الأكبر السيد مهدي بحر العلوم، وحسين بحر العلوم، وعمّ أبيه الشاعر السيد إبراهيم بحر العلوم الذي كان أستاذ الشاعر الكبير عبد المحسن الكاظمي.

لقد عرف آل بحر العلوم بعدائهم الشديد للاستبداد التركي والاستعمار البريطاني للعراق.

بدأ ينظم الشعر وهو في الثانية عشرة من عمره، ومن بين أساتذته المعروفين الذين درس عليهم اللغة العربيّة وآدابها وعلم المنطق والبلاغة الشيخ محمد رضا المظفر. واكب

الحركة الوطنيّة في العراق، وكرّس شعره لخدمة قضايا الجماهير ومقارعة الاستعمار في العراق فكانت قصائده موضوعات لمشاكل سياسيّة واجتماعيّة ممّا يعانيه أبناء العراق في ظلّ القهر والاستعمار وغياب الحق والعدل، وجراء مواقفه هذه اعتقل لأوّل مرّة عام 1924 بتهمة قيامه بأنشطة سياسيّة معادية.

وفضلا عن مواقفه الوطنيّة في العراق فقد عرف كذلك بمعاداته للأفكار النازية والفاشية التي كانت تمهد آنذاك لاندلاع الحرب العالميّة الثانية، وهاجم العدوان الإيطالي على الحبشة عام 1936.

تولّى عام 1934 رئاسة تحرير مجلّة «المصباح» في النجف. وفي العام 1937 أصدر ديوانه «العواطف» وأهداه إلى الفلاح انسجاما مع مبادئه والتزامه لقضايا الفقراء والمقهورين، حيث كان الفلاحون في العراق آنذاك من أكثر طبقات المجتمع تأثرا بالإقطاع والاستغلال والعبوديّة. ولكي يضمن لقمة العيش وقوت عياله انتقل إلى بغداد عام 1937 واشتغل في أحد معامل السجائر الوطنيّة.

ولما كان يجيد اللغة الفارسيّة فقد ترجم في الثلاثينات من القرن العشرين نماذج من شعر الخيام وسعدي وحافظ.

كان مساهما نشطا في حركة مايس 1941 في العراق، واعتقل لسنتين بعد فشل الحركة، وكان من نشطاء حركة السلم ومن أوائل العاملين فيها وأصدر لهذا الغرض عدّة كراسات بعنوان «في سبيل سلم دائم» نشر في بغداد عام 1950.

لم يتوقف نشاط محمد صالح بحر العلوم السياسي والوطني طوال عقود الثلاثينات والأربعينات والخمسينات من القرن العشرين، فاشترك في انتفاضات العراق في الأعوام 1948، 1952، 1954، 1956 ممّا عرّضه للسجن والاعتقال والإقامة الجبريّة والمراقبة حتّى قيام ثورة 14 تموز 1958 في العراق وإنهاء الحكم الملكي فيه.

لقد بلغ مجموع الأحكام الصادرة على بحر العلوم إبّان الحكم الملكي في العراق أكثر من ثلاثين سنة قضاها في زنزانات السجون والمنافي، وقد قال يصف نفسه:

صوّرتُ نفسي بنفسي وهي عالقةٌ
بالخير والخيرُ يجريها بأنفاسي
فما اهتديتُ لشيء أستعين به
على الطغاة سوى الإيمان بالناس

ساهم بعد ثورة 14 تموز 1958 بتأسيس اتحاد الأدباء العراقيين، ومثّل العراق في أكثر من مؤتمر ثقافي. أصدر في تموز 1959 ديوان «أقباس الثورة»، ونتيجة لمسيرته الوطنيّة وجهوده في خدمة قضايا شعبه والإنسانيّة فقد حاز لقب «شاعر الشعب».

آثاره

1 ـ العفة، رواية في جزئين، صدرت سنة 1932؛ 2 ـ العواطف، ديوان شعري، النجف الأشرف 1937؛ 3 ـ في سبيل سلم دائم، تحريم السلاح الذري، كراسات، بغداد 1950؛ 4 ـ في سبيل ميثاق للسلام، بغداد 1951؛ 5 ـ أقباس الثورة، من أعماق شعب 14 تموز، ديوان شعري، بغداد 1959؛ 6 ـ نماذج من شعر محمد صالح

بحر العلوم، نشرها علي الخاقاني في شعراء الغري 9، النجف 1956؛ 7 ـ ديوان بحر العلوم (1 ـ 2) بغداد 1968 ـ 1969.

المصادر والمراجع

● عواد، كركيس، معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين 1800 ـ 1969، مجلد 3، مطبعة الإرشاد، بغداد 1969، إصدار المجمع العلمي العراقي؛ ● المطبعي، حميد، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج1، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1995؛ ● الخاقاني، علي، شعراء الغري 9، النجف 1956؛ ● الجبوري، منذر، شعراء من العراق، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1989.

د. جاسم محمد حسن
جامعة الموصل ـ العراق

بحر العلوم، محمد مهدي الطباطبائي

(1155هـ/1742م ـ 1212هـ/1797م)

ولد السيد محمد مهدي الطباطبائي المعروف ببحر العلوم بمدينة كربلاء، ونشأ بها، وتتلمذ على أعلام عصره في مسقط رأسه. وكان من أبرز شيوخه في الفقه والأصول والده السيد مرتضى الطباطبائي، والشيخ محمد مهدي الفتوني العاملي، والشيخ محمد الدورقي، والشيخ محمد باقر الهزار جريبي، والسيد حسين الحسيني وقد أجازه، والسيد حسين بن أبي القاسم الخوانساري وقد أجازه، والسيد محمد حسين بن المير عبد الباقي الخاتون آبادي، والشيخ محمد بن الحاج محمد زمان القاساني، والشيخ محمد باقر الوحيد البهبهاني.

وفي عام 1169هـ / 1752 م، هاجر إلى مدينة النجف الأشرف، لتلقي العلوم الإسلامية في مدرسة النجف وجامعتها الكبرى، وبعد وفاة أستاذه الشيخ الوحيد البهبهاني عام 1206هـ / 1792م تقلد المرجعيّة الدينية والزعامة الاجتماعية، وأصبح علامة دهره، ووحيد عصره، وقد جمع العلوم العقلية والنقلية، وجمع في شخصيته علوم التفسير والحديث والفقه والأصول والكلام والرجال والأدب والشعر والتاريخ، ويمكننا القول إنّه كان جامعًا للعلوم والفنون والآداب؛ وقد اعترف له علماء عصره، ومن تأخر عنه بعلو المقام والرئاسة في العلوم. فأشار إليه تلميذه الشيخ جعفر الجناحي النجفي (ت 1228هـ / 1813 م) بأنه «كان في عصره مسلّم الكلّ لا يختلف فيه أحد من أهل العقد والحلّ»، وعند زيارته مرقد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

لمدينة طوس بإقليم خراسان عام 1186هـ/ 1772م، أعجب به العلامة الشيخ مهدي الخراساني، ولقبه بلقب بحر العلوم». وقد لحقت به بعد ذلك ألقاب أطلقها الفقهاء عليه منها «سيد العلماء والفقهاء» و«إمام المفسرين والمحدثين» و«إمام أئمة العراق»؛ وقد اتفق علماء الإمامية على فقاهته، وقد حضر مجلس بحثه في مدينة النجف الأشرف الكثير من الفقهاء والأدباء، لأنه كان أديبًا شاعرًا إضافة إلى علومه الأخرى؛ وقد كان أحد أقطاب «معركة الخميس» الأدبية في مدينة النجف التي شارك فيها جمع من الأدباء والشعراء، كما كان حكمًا في المساجلة الأدبية والشعرية؛ وكتب منظومة فقهية سماها «الدرة النجفية»؛ وكان في كثير من الأحيان يمنح الشعراء جوائز جليلة بعد مطارحتهم الشعر، أو مناظرتهم في الأدب. وتضاف إلى علمية العلامة «بحر العلوم» اهتماماته في التاريخ والمواقع الجغرافية في مدينتي النجف والكوفة؛ وكان قد بلغ في علم الكلام والفلسفة مبلغًا كبيرًا، فقد ناظر جماعة من اليهود في العراق عام 1211هـ/ 1797م، وكتب مناظراته محمد كاظم بن محمد شفيع وسماها «الجدلية». وإلى العلامة بحر العلوم يعود تنظيم الحركة العلمية والدراسية في مدرسة النجف في أواخر القرن 12هـ/ 18م، فقد تولى العلامة بحر العلوم البحث والتدريس، وتولى الشيخ جعفر الجناحي النجفي الفتيا والتقليد، وتقلّد الشيخ حسين نجف إمامة الصلاة، وتولى السيد جواد العاملي مهمة الكتابة والتأليف، وقد التف حول بحر العلوم عدد كبير من الفقهاء والمحدثين والأدباء، حيث أصبح لهم مقام رفيع وبارز في مدرسة النجف، منهم: الشيخ جعفر الجناحي النجفي، والسيد محمد جواد العاملي، والسيد عبد الله شبر الحسيني، والشيخ محمد علي الأعسم، والسيد أحمد العطار الحسني، والشيخ محمد علي البلاغي، والسيد صادق الفحام الأعرجي، والشيخ حسين نجف، والشيخ تقي الملا كتاب، والشيخ محمد المظفر.

وتزيد قائمة تلاميذ العلامة بحر العلوم على مائة من أعلام الفقه والأصول والحديث والكلام والأدب.

■ آثاره

صنف العلامة بحر العلوم كتبا في العلوم والفنون والآداب، وأصدر رسائل في مواضيع علمية متفرقة؛ ويمكننا تصنيف مؤلفاته إلى العلوم الآتية:

أ ـ الفقه والأصول:

1 ـ الدرة النجفية؛ 2 ـ أرجوزة في شرح الدرة المنظومة؛ 3 ـ أرجوزة في الجمل والعقود، وتسمى «الجملية»؛ 4 ـ أصالة البراءة؛ 5 ـ اجتماع الأمر والنهي والقول بامتناعه؛ 6 ـ الانفصالية؛ 7 ـ أجوبة عن مسائل الحج؛ 8 ـ تكملة التبصرة في الفقه؛ 9 ـ تنبيه العصاة من ترك الصلاة؛ 10 ـ حاشية الوفية؛ 11 ـ حاشية على كتاب «شرائع الإسلام»؛ 12 ـ حاشية على كتاب الذخيرة؛ 13 ـ الدرة البهية في نظم رؤوس المسائل الأصولية؛ 14 ـ رسالة في العصير العنبي وحرمته؛ 15 ـ رسالة في أدلة الفقه؛ 16 ـ رسالة في انفصال الماء القليل؛ 17 ـ الرسالة الرضاعية؛

18 ـ الرسالة الطاعونيّة؛ 19 ـ رسالة في قصد أربعة فراسخ وتحقيق أنه سفر أم لا؛ 20 ـ شرح كتاب الطهارة من كتاب «القواعد»؛ 21 ـ العجالة الموجزة في فروض الناسك؛ 22 ـ قواعد الشكوك؛ 23 ـ كتاب الوافي؛ 24 ـ المصابيح في الفقه؛ 25 ـ مناسك الحج؛ 26 ـ مشكاة الهداية؛ 27 ـ مبلغ النظر في حكم قاصد الأربعة في السفر؛ 28 ـ المصابيح في الطهارة؛ 29 ـ المشكاة المقتبس من أنوار الأئمة؛

ب ـ الحديث والرجال:

1 ـ الفوائد الرجالية؛ 2 ـ شرح جملة من الأحاديث؛ 3 ـ كتاب الإجازات، وهو مجموعة من الإجازات العلمية التي منحها العلامة بحر العلوم لعدد من تلاميذه؛

ج ـ الفلسفة وعلم الكلام:

1 ـ تعريب السير والسلوك؛ 2 ـ مناظرة اليهود في مدينة الكفل؛ 3 ـ شرح باب الحقيقة والمجاز؛ 4 ـ قصيدة في المناقب والمثالب؛

د ـ الشعر والأدب:

1 ـ الاثنا عشرية، قصائد في المراثي؛ 2 ـ أرجوزة في فضائل الرمان، أو القصيدة الرمانية؛ 3 ـ تخميس الاثنا عشريات في المراثي؛ 4 ـ ديوان شعر يربو على خمسمائة بيت؛ 5 ـ العقود الاثنا عشر في مراثي سادات البشر؛

هـ ـ التاريخ والبلدان:

1 ـ تحفة الكرام في تاريخ مكة والمسجد الحرام؛ 2 ـ أعمال السيد بحر العلوم في مسجد الكوفة.

المصادر والمراجع

● الأمين، محسن الحسيني العاملي (ت 1371 هـ)، أعيان الشيعة، مطابع الإتقان والإنصاف، بيروت؛ ● بحر العلوم، محمد مهدي الطباطبائي (ت1212 هـ)، رجال السيد بحر العلوم او الفوائد الرجالية، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الأولى (1385هـ / 1965 م)؛ ● التميمي، محمد علي جعفر، مشهد الإمام أو مدينة النجف، مطبعة دار النشر والتأليف، النجف الأشرف (1372هـ / 1953 م)؛ ● الخاقاني، علي، شعراء الغري أو النجفيات، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، 1373هـ / 1954م؛ ● الخياباني، محمد علي التبريزي المدرس، ريحانة الأدب في تراجم المعروفين بالكنية واللقب، مطبعة شركة سامي (1368 ـ 1373هـ)؛ ● الخوانساري، محمد باقر الموسوي (ت 1313 هـ)، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، دار المعرفة، بيروت 1974م؛ ● دونلدسن، دوايت م. عقيدة الشيعة، مطبعة السعادة، مصر (1365هـ / 1946 م)؛ ● السماوي، محمد بن الشيخ طاهر النجفي، الطليعة من شعراء الشيعة، مخطوط في مكتبة الإمام أمير المؤمنين في مدينة النجف الأشرف؛ ● شمس الدين، محمد رضا، حديث الجامعة النجفية تاريخ وتحليل، المطبعة العلمية، النجف الأشرف 1373هـ؛ ● الطبسي، محمد رضا

النجفي، ذرائع البيان في عوارض اللسان، مطبعة النعمان، النجف الأشرف 1377م؛ ● الطهراني، آغا بزرك، محمد محسن (ت 1989 م)، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، مطابع الغري والآداب النجف، ومجلس الشورى ودولتي، طهران؛ ● م.ن، طبقات أعلام الشيعة، الكرام البررة؛ ● م.ن، المشيخة أو الاسناد، مطبعة الغري النجف الأشرف 1356 هـ؛ ● م.ن، مصفى المقال في مصنفي علم الرجال؛ ● رؤوف عماد عبد السلام، التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني، الدار العربية، بغداد، الطبعة الاولى 1983م؛ ● الفضلي، عبد الهادي، دليل النجف الأشرف، مطبعة الآداب، النجف الأشرف؛ ● القمي، عباس محمد رضا، الكنى والألقاب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف (1376هـ / 1956 م)؛ ● هدية الأحباب في ذكر المعروفين بالكنى والألقاب والأنساب، المطبعة المرتضوية، النجف 1349م؛ ● كمال الدين، هادي أحمد، فقهاء الفيحاء وتطوّر الحركة الفكرية في الحلة، مطبعة المعارف، بغداد 1962م؛ ● المولوي، محمد علي الكشميري اللكهنوي، نجوم السماء في تراجم العلماء، مطبعة جعفري، لكهنو 1303هـ؛ ● محبوبة، جعفر الشيخ باقر النجفي (ت 1377 هـ)، ماضي النجف وحاضرها، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الثانية (1378هـ / 1958 م)؛ ● محيي الدين، عبد الرزاق، الحالي والعاطل أو تتمة ملحق أمل الآمل، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، الطبعة الأولى (1391هـ / 1971 م)؛ ● النوري، محمد حسين الطبري (ت 1320 هـ)، مستدرك الوسائل، مطبعة دار الخلافة، طهران (1318 ـ 1321هـ).

د. حسين عيسى علي الحكيم
جامعة الكوفة ـ العراق

البحراني، أبو الحسن جمال الدين علي بن سليمان

(ت 672هـ/1273م)

جمال الدين علي بن سليمان بن يحيى بن محمد بن قائد بن صبّاح الستراوي البحراني، فيلسوف عارف متكلم فقيه إمامي، يلقب بـ«جمال الدين» ويكنى بأبي الحسن. والستراوي نسبة غير قياسية إلى جزيرة «سترة» في البحرين.

لا تشير المصادر التي بين أيدينا إلى تاريخ ولادته أو وفاته، ولكنه من معاصري وأصدقاء الفيلسوف نصير الدين الطوسي (ت 672هـ/ 1273م)، توفي في البحرين ودفن إلى جوار أستاذه الإمام ابن سعادة البحراني في جزيرة سترة.

تلقى تعليمه على وجه الحصر في البحرين على يدي الإمام ابن سعادة، وعنه يحمل إجازة في رواية الحديث، ولا نعرف له أستاذاً غيره. وبذلك يعد أول عالم مرموق يتخرج عن مدرسة البحرين، حيث إن من سبقه من العلماء كانوا ينتمون إلى مدرسة الحلة بالعراق.

تشير مؤلفاته إلى تضلعه في الفلسفة والكلام والعرفان، ولم نجد له، رغم فقاهته، أثراً في العلوم النقلية من فقه أو حديث. وصفه معاصره العلامة الحلي بأنه «كان عالماً بالعلوم العقلية والنقلية، عارفاً بقواعد الحكماء، وله مصنفات حسنة». وأثنى عليه الفيلسوف الطوسي، وكان يستشيره في بعض المسائل الفلسفية، كما ورد في بعض المراسلات بينهما. وصفه المستشرق W. Mdelung بأنه «عالم وفيلسوف إمامي يميل إلى التصوف».

له شعر قليل جيد. قال في صدر كتاب أرسله للفيلسوف الطوسي:

أتاني كتاب لو يمر نسيمه
بقبر لأحيى نشره ساكن القبر

فجدد لي عهداً وما كنت ناسياً
ولكنه تجديد ذكر على ذكر

وفي ختام هذا الكتاب أنشأ قصيدة يمتدح فيها الطوسي ويتشوق إلى رؤيته ومن معه من العلماء، منها:

عليك مني ما حدا سائق
أو غرد القمري الصفا سلام

ومن حوى المجلس من فاضل
وبدر تمّ ما أجنّ الظلام

فإن شوقي أبداً دائم
لهم وفي قلبي لهيب الغرام

حبست عن جنسي فيا ليتني
أراهمُ قبل حلول الحمام

فإن عيشي بينهم ناضر
وإن شربي من رحيق المدام

حضّار قلبي لم يزالوا به
قطان أوطان بتلك الخيام

أحبة القلب ارحموا عاشقاً
قد ذاب وجداً في هواكم وهام

وواصلوا حبلي ولا تقطعوا
فإن في الوصل تمام المرام

وتكمن أهمية الفيلسوف البحراني على مستوى تاريخ الفكر الإمامي في أنه من أوائل المشتغلين بالفلسفة بين فقهاء الشيعة، ومن أقطاب مدرسة فقهية نأت بجانبها عن الفقه لصالح الاتجاهات العقلية. وترتكز فلسفته بشكل رئيس على فلسفة ابن سينا، كما يتضح ذلك من خلال مؤلفاته، مستثمراً منها آفاقها العرفانية.

وأهم من ذلك كله، فإنه - إذا ما استثنينا أستاذه ابن سعادة الذي لا نعرف الكثير عن نشاطه الفكري - أول فقيه نشط على مستوى البحث العرفاني عند الشيعة متأثراً بأفكار معاصره محيي الدين بن العربي، وثمة علاقة فكرية تربطه بمعاصره صدر الدين القونوي، بيد أننا لم نستطع بعد معرفة من منهما قد تأثر بالآخر.

إن هذه الريادة التاريخية التي سجلها الفيلسوف البحراني على مستوى البحث العرفاني هي التي دفعت عارفاً كبيراً كالسيد حيدر آملي (ت بعد 787هـ/ 1385م) إلى أن يحتج به وبتلميذه كمال الدين ميثم البحراني على أحقية وحجية هذه الطريقة العرفانية.

في كتابه «الإشارات» تبنى الفيلسوف البحراني في أبحاثه الأنطولوجية المفهوم الصوفي السيِّىء الصيت عند الفقهاء ألا وهو «وحدة الوجود» مستدلاً عليه بأسلوب مشائي بعيداً عن الإيحاءات الرمزية والحالات الذوقية التي طالما لجأ إليها أكثر المتصوفة، ولكنه في ذات الوقت قد وظّف لهذا الغرض لغة فلسفية تمتاز بالدقة والعمق المتناهي ربما فرضتها طبيعة الموضوع نفسه.

وفي نفس الكتاب تناول المؤلف موضوع الولاية وما يتعلق بها من ختم الولاية العامة وختم الولاية الخاصة في الإطار الذي طرحه ابن العربي، لكنه استطاع أن يكيّف الموضوع لصالح الأطروحة الشيعية في الإمامة. فبينما ادّعى ابن العربي لنفسه، وأقره على ذلك تلامذته، ختم الولاية الخاصة، أسبغها الفيلسوف البحراني على الإمام المهدي المنتظر الذي هو «حسنة من حسنات محمد». أما ختم الولاية العامة فهي للإمام علي بن أبي طالب الذي قال فيه الرسول ﷺ: «يا علي كنت معي جهراً ومع الأنبياء سراً». ويتفق البحراني مع ابن العربي في تحديد درجة الولاية من مرتبة النبوة.

إن هذا التأسيس العرفاني لمفهوم ختم الولاية العامة والخاصة لقي رواجاً في الأوساط الشيعية ذات الاهتمام المشترك وأصبح علامة مائزة بين عرفاء الشيعة والسنة.

وإذا ما استثنينا مبحث الولاية هذا، صعب على الباحث أن يتعرف على هوية المؤلف المذهبية في كتاباته الأخرى. وهذه صفة نبيلة نجلّها في هذا الفيلسوف حيث استطاع أن يخرج نفسه من قمقم الخلافات المذهبية لينطلق مع انذياح الأفق الأرحب للإسلام. وكان لاتجاهاته الفلسفية والعرفانية ولا بد أثر في منهجيته المتمردة على الأطر المذهبية الضيقة.

يبدو أن أبا الحسن كان زعيم مدرسة فيها عدد كبير من الطلبة التمسوا من الفيلسوف الطوسي مدّ يد العون لهم باعتباره وزيراً للأوقاف في دولة المغول، كما يتضح ذلك في بعض مراسلاته. إلا أن أبرز أولئك الطلبة اثنان ولده حسين الذي يروي عنه العلامة الحلي، والآخر هو فيلسوف البحرين الأشهر وعلاّمتها الأكبر كمال الدين ميثم البحراني.

آثاره

1 - الإشارات، ويسمى أيضاً إشارات الواصلين: وهو كتاب في الفلسفة العرفانية يقارب إشارات ابن سينا في الأسلوب والمصطلح لكن مضمونه لا يبارح «فصوص» ابن العربي و «مشكاة» الغزالي. أهم المواضيع التي طرحها هي الوجود، النبوة، والولاية، مركّزاً في كل ذلك على المعالجات العرفانية لهذه المواضيع. ولخطورة هذا الطرح - ولا سيما في الأوساط الفقهية الشيعية آنذاك - فقد كتبه للخاصة محذراً من مغبة تداوله بين من لا يستوعبه من العامة. وهو تحذير يذكرنا بالتحذير الذي ختم به ابن سينا إشاراته، ولعله كان السبب في عدم انتشار الكتاب على نطاق واسع.

لا زال الكتاب مخطوطاً، توجد منه نسختان في إيران إحداهما في جامعة طهران برقم 10/ 5398 والأخرى في جامعة مشهد برقم 937.

وقد أشار آغا بزرك الطهراني إلى نسخة من الكتاب وجدها في العراق، مدعياً أن اسم الكتاب هو «إشارات الواصلين إلى علوم العميان وتنبيهات أهل العيان»، وأنه خاتمة لكتاب المؤلف «كشف الأسرار الإيمانية وهتك أسرار الخطابية». تاريخ كتابة هذه النسخة سنة 685هـ/ 1286م، وتوجد هذه النسخة الآن في طهران في مكتبة مجلس شورى؛ إلا أن نسبتها للبحراني ليست صحيحة على الإطلاق. فهذا الكتاب للإمام ضياء الدين أبي الحسن مسعود بن محمود شيرازي (ت 655هـ/ 1257م)، وهو من تلامذة فخر الدين الرازي؛ 2 ـ المنهج (أو النهج) المستقيم على طريقة الحكيم: لا زال مخطوطاً وتوجد منه نسخ كثيرة في إيران، والعراق، وتركيا، ومصر، ولبنان. وهو شرح على القصيدة العينية لابن سينا في النفس البشرية. والتي مطلعها:

ورقـــاء ذات تـعـــزز وتـــمـــنـــع
هـبـطـت إلـيـك مـن الـمـحـل الارفـع

أدّعى المؤلف أن شرحه موافق لفلسفة ابن سينا، لكنه جاء مغرقاً في العرفانية على مستوى الفكرة والأسلوب وكأن الشارح هو ابن العربي؛ ولهذا السبب فإن النسخة الموجودة بدار الكتب بالقاهرة رقم 341 والتي لا يوجد فيها اسم المؤلف قد نسبت خطأً لابن العربي.

ولشرح البحراني هذا مختصرٌ أعده أحمد النهاوندي سنة 1280هـ/ 1864م. كما أن لسليمان الماحوزي البحراني (ت 1121هـ / 1709م) شرحاً على القصيدة العينية يوجد في المتحف البريطاني برقم 13/ 886، لا يعدو ـ بعد تفحصه ـ كونه اختصاراً هو الآخر لشرح علي بن سليمان؛ 3 ـ معراج السلامة ومنهاج الكرامة: لا زال مخطوطاً، ويتناول بالبحث الوجود الإلهي. وهو في الحقيقة نقد لأحد العلماء المعاصرين له الذي يتفق معه في أن وجود الله ليس زائداً على ذاته لكنهما يختلفان في أدلتهما المنطقية على إثبات المطلوب.

توجد من هذا الكتاب مخطوطة في جامعة طهران برقم 4/ 1022، وهي بخط العارف الكبير حيدر آملي؛ 4 ـ مفتاح الخير في شرح ديباجة رسالة الطير: وهو شرح عرفاني لمقدمة رسالة الطير لابن سينا. لا زال الكتاب مخطوطاً وتوجد منه عدة نسخ في العراق وإيران؛ 5 ـ قصة سلامان وأبسال: أشار إلى هذه القصة دون ذكرها ابن سينا في «الإشارات والتنبيهات»، فحررها البحراني اعتماداً على رواية وترجمة حنين بن اسحاق من كتاب بخط أبي الحسين اللوكري وأرسلها للطوسي ـ كما يبدو في بعض المراسلات بينهما ـ كي يضمها شرحه للإشارات، إلا أن الطوسي لم يرتضها طاعناً في صحة الرواية ومرجحاً عليها أخرى؛ 6 ـ المراسلات: جرت عدة مراسلات بين البحراني والطوسي وصلتنا مجموعة منها تعبر عن الأحاسيس الودية التي يكنها كل منهما للآخر بالإضافة إلى تبادل بعض وجهات النظر العلمية. فهناك

رسالة بعثها البحراني للطوسي يلتمس منه فيها شرح «رسالة العلم» لاستاذه ابن سعادة فرد عليه الطوسي رسالة أبدى فيها استعداده للاضطلاع بهذا الأمر. وأشهر منها رسالة طويلة بعثها للطوسي وقد أشار إليها المؤرخ ابن الفوطي وربما نسبت خطأ لكمال الدين ميثم البحراني.

وهذا النمط من المراسلات دأب عليه الطوسي وشجعه بين النابهين من علماء عصره فكأنه قد أسس منتدى علمياً يضم النخبة من العلماء عبر المراسلة لتبادل وجهات النظر العلمية.

■ المصادر والمراجع

● يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، ص253 - 254، 256 - 265؛ ● البحراني، علي البلادي، أنوار البدرين، ص61 - 62؛ ● الطهراني، آغا بزرك، الأنوار الساطعة، 105 - 106؛ ● العاملي، محمد، أمل الآمل، ج2، ص189؛ ● البحراني، سليمان الماخوري، فهرست آل بابويه وعلماء البحرين، ص68 - 69؛ ● حائري، عبد الحسين، فهرست كتاب شوراي إسلامي، ج22، ص205 - 208؛ ● الأمين، محسن، أعيان الشيعة، ج8، ص247 - 248؛

- Al-Oraibi, Ali, "Rationalism in the School of Bahrain: a Historical Prespective" . in Shi'ite Heritage. Ed. L. Clarke. N. Y: Global Publications, 2001, 331 - 335.
- Al-Oraibi, Ali, "Shi'i Renaissance: a Case Study of the Theosophical School of Bahrain in the 7th/13th Century". (Ph. D. Dissertation, McGill University, 1992), 39 - 45.

د. علي أحمد العريبي
مملكة البحرين

■ البحراني، السيد هاشم بن سليمان بن إسماعيل الكتكاني التوبلي

■ ■ ■

(ت 1107هـ/1655م)

السيد هاشم بن سليمان بن إسماعيل بن عبد الجواد بن علي بن سليمان بن السيد ناصر الحسيني البحراني التوبلي الكتكاني. ينتهي نسبه إلى الشريف المرتضى ويتسلسل إلى الإمام الكاظم من أهل البيت.

والتوبلي نسبة إلى قرية توبلي بالبحرين التي نشأ ودفن فيها. والكتكاني نسبة إلى منطقة من تلك القرية يطلق عليها قديماً اسم كتكان أو تكتكان. ويلقب بـ«علامة البحرين» ويكنى بـ«أبي المكارم» وُصف بقوة الذاكرة ولا سيما

في حفظ الحديث، كما وصف بأنه نابغة الرواية. فقيه، إمامي، ومفسر، ومحدث، ورجالي.

ولد المترجم في قرية توبلي وتوفي سنة 1107هـ/ 1695م في قرية النعيم، ونقل جثمانه إلى قرية توبلي ودفن في مقبرة مسجد ماتنا وهو المسجد الذي كان يدرس فيه، وقبره اليوم مزار معروف.

نشأ في البحرين وتتلمذ بها، وأقام برهة من الزمن في النجف الأشرف روى خلالها عن الشيخ فخر الدين الطريحي (ت 1085هـ/ 1674م)، كما سافر إلى إيران وزار المشهد الرضوي حيث روى عن السيد عبد العظيم بن السيد عباس الاسترابادي.

ومن أبرز تلامذته والراوين عنه:

شمس الدين سليمان الماحوزي البحراني، المعروف بالمحقق البحراني ت 1121هـ/ 1709م. الشيخ علي بن عبد الله بن راشد المقابي البحراني. الشيخ محمد بن الحسن، المعروف بالحر العاملي صاحب «تفصيل وسائل الشيعة» و«أمل الآمل» (ت 1104هـ/ 1692م). السيد محمد العطار بن السيد علي البغدادي، أديب شاعر (ت 1171هـ/ 1757م). الشيخ محمود بن عبد السلام المعني البحراني. الشيخ هيكل الجزائري بن عبد علي الأسدي.

ركّز نشاطه العلمي على الحديث الذي أصبح خرّيته ومن ألمع أعلامه عند الشيعة الإمامية فكان كما قال فيه الشيخ يوسف البحراني: «محدثاً فاضلاً جامعاً متتبعاً للأخبار بما لم يسبق إليه سوى شيخنا المجلسي». ولشدة ولعه وتتبعه للحديث، لم تكن تصانيفه الكثيرة في التفسير والعقيدة والفضائل سوى جمع لما وقع عليه من أحاديث لم يبذل أي جهد في تنقيتها وتحقيقها، ولهذا نجد مجموعة لا يستهان بها من الأحاديث السقيمة في طيات كتبه. ويرجح أنه لم يقصد من التأليف سوى جمع كل الأحاديث المتعلقة بموضوع معين وترك محاكمتها لغيره من العلماء، ويدل على ذلك أنه يذكر الأحاديث المتناقضة في الموضوع الواحد كتفسير الآية الواحدة مثلاً في تفسيره البرهان دونما ترجيح أو توجيه.

إن انصراف المترجم عن التحقيق، وتكريس جهده لجمع الحديث أغرى بعض الباحثين بالتساؤل عن السبب فيما إذا كان المترجم قاصراً عن رتبة البحث والتحقيق أم أن ورعه الذي وصفه بعض العلماء بأنه يقرب من العصمة يمنعه من اقتحام هذا الميدان حذراً من زلات الفكر. طرح الشيخ يوسف البحراني هذا التساؤل حينما لم يعثر له على كتاب فتاوى في الأحكام الشرعية القائمة على النظر والاستدلال، ويرجح بعض من كتب عنه أنه فعل ذلك تورعاً وحيطة في الدين لشدة ورعه وتقواه.

يتضح أن الإشكال بني أساساً على كونه لم يطرق باب الاستدلال الفقهي، وينتقض هذا الإشكال إذا علمنا أنه قد طرق هذا الباب كما أشار إلى ذلك معاصره الرجالي عبدالله أفندي في رياض العلماء إذ نقل أن له كتاب «التنبيهات في الفقه»، وهو كتاب كبير جيد مشتمل على الاستدلالات في المسائل إلى آخر أبواب الفقه، وتوجد نسخة من هذا الكتاب عند ورثة العلامة المجلسي صاحب «بحار الأنوار».

ومع علمنا بوجود هذا الكتاب إلا أن مسلك المترجم يخلو من التحقيق في باقي كتبه مقتصراً على الجمع. ولعله تبنّى هذا المنهج كما قلنا لأنه يهدف، كما فعل بعض العلماء إلى حفظ هذه الثروة الحديثية كما وردت. وهذه هي الخطوة الأولى اللازمة لما يليها من غربلة لتلكم الثروة لمعرفة سقيمها من صحيحها وغثها من سمينها.

ويرجح أن المترجم قد بلغ مرتبة قصوى من النظر والاستدلال حتى انتهت إليه الرئاسة العلمية والزمنية في البحرين يوم كانت تعج بفطاحل العلماء فتقلد القضاء وتولى الأمور الحسبية وقمع أيدي الظلمة والحكام وقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ورعاً، شديداً على الملوك والسلاطين، ومرجعاً للشيعة في التقليد والمسائل الدينية.

أطراه جميع من ترجم له مركزين على رفعة صفاته النفسية في الزهد والورع والصلاح والعبادة، وعلى قدراته البحثية في تتبع الأخبار من مصادرها المختلفة عند الشيعة والسنة.

آثاره

تنيف مؤلفاته على السبعين، ذكر معاصره عبد الله أفندي صاحب «رياض العلماء» أنه رأى أكثرها في أصفهان عند ولده السيد محسن.

ومما تعرفنا عليه منها:

1 ـ إثبات الوصية. ولعله المذكور بعنوان البهجة المرضية في إثبات الخلافة والوصية؛ 2 ـ اجتماع المخالفين على إمامة أمير المؤمنين. فرغ منه سنة 1105هـ/ 1693م؛ 3 ـ الإنصاف في النص على الأئمة الأشراف من آل عبد مناف. ويعرف بـ «النصوص»، فرغ منه سنة 1097هـ/ 1685م. ويشتمل على ثلاثمائة وثمانية أحاديث، ترجمه إلى الفارسية ونشره رسولي محلاتي؛ 4 ـ إيضاح المسترشدين في بيان تراجم الراجعين إلى ولاية أمير المؤمنين. ويعبر عنه أيضاً بـ «هداية المستبصرين»، فرغ منه سنة 1105هـ/ 1693م. أورد فيه تراجم مائتين وثلاثة وخمسين من أهل السنة الذين اعتنقوا مذهب التشيع؛ 5 ـ البرهان في تفسير القرآن. يأتي في طليعة التفاسير الشيعية وهو من أشهر مؤلفاته وبه عرف في الأوساط العلمية فقيل «صاحب البرهان». فرغ منه سنة 1095هـ/ 1683م، طبع لأول مرة على الحجر في طهران سنة 1375هـ/ 1955م في مجلدين، وطبع ثانية في سنة 1302هـ/ 1884م. وطبع في سنة 1375هـ في أربعة مجلدات وألحقت به مقدمة كتاب «مرآة الأنوار» لأبي الحسن العاملي الأصفهاني. وطبع في سنة 1394هـ. وأخيراً طبع محققاً سنة 1415هـ/ 1994م، بعناية مؤسسة البعثة في قم. ألف المترجم هذا الكتاب هدية للسلطان الشاه سليمان الصفوي، معتمداً فيه على مجموعة من المصادر ومنها ما لم تثبت وثاقته أو نسبته المزعومة إلى مؤلفه؛ 6 ـ بهجة النظر في إثبات الوصاية والإمامة للأئمة الاثني عشر. فرغ منه سنة 1099هـ/ 1687م. وهو ملخص «حلية الأبرار» للمؤلف؛ 7 ـ تبصرة الولي فيمن رأى المهدي في زمان أبيه أو في غيبته الصغرى أو الكبرى. فرغ منه سنة 1099هـ/ 1687م. طبع قسم منه في ذيل كتابه «غاية المرام» سنة 1272هـ/ 1855م. وطبع في قم سنة 1411هـ/ 1990م، بتحقيق

مؤسسة المعارف الإسلامية؛ 8 ـ التحفة البهية في إثبات الوصية. فرغ منه سنة 1093هـ/ 1682م، ولعله متحد مع "إثبات الوصية" أيضاً؛ 9 ـ ترتيب التهذيب. فرغ منه سنة 1079هـ/ 1668م وصححه سنة 1102هـ/ 1690م. طبع في طهران في ثلاثة مجلدات. أورد في هذا الكتاب كل حديث في الباب المناسب له، ونبه على بعض الأغلاط التي وقعت في أسانيده؛ 10 ـ تعريف رجال "من لا يحضره الفقيه"؛ 11 ـ تفضيل الأئمة على الأنبياء سوى خاتم النبيين ﷺ؛ 12 ـ تفضيل علي على أولي العزم من الرسل. ألّفه إملاءً وهو على فراش الموت، وتوفي بعد إكماله بيوم واحد سنة 1107هـ/ 1695م؛ 13 ـ تنبيه الأريب وتذكرة اللبيب في إيضاح رجال التهذيب. قام بتهذيبه الفقيه الأديب الشيخ حسن الدمستاني البحراني (ت 1181هـ/ 1767م) بكتاب اسماه "انتخاب الجيد من تنبيهات السيد"؛ 14 ـ التنبيهات في تمام الفقه من الطهارة إلى الديات. وهو موسوعة في الفقه الاستدلالي؛ 15 ـ التيمية في بيان نسب التيمي؛ 16 ـ حقيقة الإيمان المبثوث على الجوارح. فرغ منه سنة 1090هـ/ 1679م؛ 17 ـ حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار. فرغ منه سنة 1099هـ/ 1687م. طبع في قم سنة 1397هـ/ 1976م. وطبع في قم أيضاً بتحقيق غلام رضا البروجردي سنة 1411هـ/ 1990م؛ 18 ـ حلية النظر في فضل الأئمة الاثني عشر. فرغ منه سنة 1099هـ/ 1687م؛ 19 ـ الدر النضيد في خصائص الحسين الشهيد. ولعله متحد مع "مقتل الحسين"؛ 20 ـ الدرة اليتيمة؛ 21 ـ روضة العارفين ونزهة الراغبين في ترجمة جملة من المشايخ العاملين من شيعة أمير المؤمنين من القدماء والرواة المتأخرين؛ 22 ـ روضة الواعظين في أحاديث الأئمة الطاهرين؛ 23 ـ سلاسل الحديد وتقييد أهل التقليد بما انتخب من شرح النهج لابن أبي الحديد، واسماه أيضاً "شفاء الغليل من تعليل العليل"، فرغ منه سنة 1100هـ/ 1688م؛ 24 ـ سير الصحابة. فرغ منه سنة 1070هـ؛ 25 ـ شرح تهذيب التهذيب؛ 26 ـ عمدة النظر في بيان عصمة الأئمة الاثني عشر ببراهين العقل والكتاب والأثر؛ 27 ـ غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام. ألّفه بين 1100 ـ 1103هـ/ 1691 ـ 1688م. طبع في إيران سنة 1272هـ/ 1855م، وترجمه إلى الفارسية الشيخ محمد تقي الدزفولي (ت 1295هـ/ 1878م) بعنوان "كفاية الخصام"، وطبعه سنة 1277هـ/ 1860م. ولخصه الأصفهاني (ت1331هـ/ 1912م) بعنوان "ملخص المرام في تلخيص غاية المرام"؛ 28 ـ فضل الشيعة. يشتمل على 118 حديثاً؛ 29 ـ كشف المهم في طريق غدير خم. كتبه سنة 1101هـ/ 1689م، وصححه سنة 1102هـ، نشرته مؤخراً مؤسسة إحياء تراث السيد هاشم البحراني؛ 30 ـ اللباب المستخرج من كتاب "الشهاب"، أي كتاب "شهاب الأخبار" للقاضي القضاعي سلامة بن جعفر (ت 454هـ)؛ 31 ـ اللوامع النورانية في أسماء علي وأهل بيته القرآنية. فرغ منه سنة 1096هـ/ 1684م، طبع في قم سنة 1394هـ/ 1974م، وطبع في أصفهان سنة 1404هـ/ 1983؛ 32 ـ المحجة فيما نزل في

القائم الحجة، فرغ منه سنة 1097هـ/ 1685م، طبع مع «غاية المرام» سنة 1272هـ/ 55؛ 33 ـ مدينة المعجزات في النص على الأئمة الهداة. ويسمى أيضاً «مدينة معاجز الأئمة الاثني عشر ودلائل الحجج على البشر»، فرغ منه سنة 1090هـ/ 1679م، وطبع سنة 1271هـ، وسنة 1291هـ، وسنة 1300هـ. ونشرته مؤخراً مؤسسة المعارف الإسلامية؛ 34 ـ مصابيح الأنوار وأنوار الأبصار في معاجز النبي المختار؛ 35 ـ المطاعن البكرية والمثالب العمرية من طريق العثمانية، فرغ منه سنة 1101هـ/ 1689م؛ 36 ـ معالم الزلفى في معارف النشأة الأولى والأخرى. طبع سنة 1271هـ، وسنة 1288هـ، ومنضماً إلى «نزهة الأبرار» سنة 1289هـ؛ 37 ـ مناقب أمير المؤمنين؛ 38 ـ مولد القائم؛ 39 ـ الميثمية، ولعله «اليتيمة» المتقدم ذكره؛ 40 ـ نزهة الأبرار ومنار الأفكار في خلق الجنة والنار، وصفه معاصره أفندي بأنه كتاب لطيف أورد فيه مائتين وواحد وخمسين حديثاً في أن الجنة والنار الآن مخلوقتان، طبع سنة 1288هـ؛ 41 ـ نسب عمر بن الخطاب؛ 42 ـ نهاية الآمال فيما يتم به تقبل الأعمال. فرغ منه سنة 1102هـ؛ 43 ـ نور الأنوار في تفسير القرآن، اقتصر فيه على روايات أهل البيت؛ 44 ـ الهادي ومصباح النادي، ويسمى «ضياء النادي»، وهو أيضاً تفسير للقرآن، فرغ منه سنة 1077هـ؛ 45 ـ الهداية القرآنية إلى الولاية الأمامية، فرغ منه سنة 1096هـ؛ 46 ـ وفاة الزهراء؛ 47 ـ وفاة النبي؛ 48 ـ اليتيمة والدرة الثمينة. وهو مختلف عن كتابه «الدرة اليتيمة»؛ 49 ـ ينابيع المعاجز وأصول الدلائل، مختصر لكتابه «مدينة المعاجز»، فرغ منه سنة 1099هـ. نشرته مؤخراً مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ببيروت بتحقيق فارس حسون كريم؛ 50 ـ شرح فصوص الحكم لابن عربي. توجد نسخة من هذا الشرح في تركيا وكتب عليها اسم المؤلف «مولانا سيد هاشم»، فرأى الأستاذ عثمان يحيى أن المراد به السيد هاشم البحراني. وتبقى هذه النسبة موضع شك حيث إن أحداً ممن ترجم للبحراني لم ينسب له مثل هذا الكتاب.

أُلفت ثلاثة كتب بالفارسية في حياة السيد هاشم:

1 ـ سيد مصطفى علامة مهري، علامة بحراني آينه أبرار، قم: مركز انتشارات دفتر تبليغات حوزة علمية قم؛ 2 ـ سيد محمد برهاني، زندكينامه علامة بحريني، تهراني: مكتبة النجاح؛ 3 ـ فارس تبريزيان، العلامة سيد هاشم بحراني، انتشارات علمية إسلامية.

المصادر والمراجع

● عبد الله أفندي، رياض العلماء، تح. السيد أحمد الحسيني، ج5، ص298 ـ 304؛ ● السيد هاشم البحراني، البرهان في تفسير القرآن، قم: مؤسسة البعثة. 18، ص45 ـ 56؛ ● الزركلي خير الدين، الأعلام، 1957، ج9، ص48؛ ● ميرزا محمد مدرس، ريحانة الأدب، كتابفروشي خيام، ج1، ص233؛ ● كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج13، ص123؛ ● البحراني علي البلادي، أنوار البدرين، ص136 ـ 140؛ ● آغا بزرك

الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، تح. علي منزوي، طهران، دانشكاه طهران، ج6، ص809 ـ 811؛ ● حيدر آملي، نص النصوص، تح. هنري كوربن وعثمان يحيى، طهران، 1988، ص 45؛ ● يوسف البحراني، لؤلؤة البحرين، تح. بحر العلوم، النجف الأشرف، ص 63 ـ 66.

د. علي أحمد العريبي
مملكة البحرين

البحراني، عبد الغني بن أحمد

(حياً في 1174هـ/1760م)

عبد الغني بن أحمد بن محمد بن علي الشافعي البحراني، عالم محدّث حافظ، يروي عن والده وله إجازة منه برواية الصحيحين البخاري ومسلم، وأخذ عنه الحديث والفقه والأصول. والأب بدوره يروي عن أستاذه الأزهري نور الدين بن علي المرحومي المصري وعن غيره من علماء الأزهر [التاجر محمد علي، منتظم الدرين ترجمة 465].

آثاره

ـ رسالة «قرة العين في ضبط أسماء رجال الصحيحين»، واشتملت الرسالة على مقدمة في ذكر الإسناد وما يحتوي عليه من الأنواع والأبحاث، كما ذكر طرفاً من كيفية التحمل، والدراية، وآداب الراوي، وأحكام الرواية. واختتمها بذكر سند روايته. وفرغ منها في شهر شوال 1174هـ/ 1760م. والرسالة مطبوعة في «حيدر أباد» بالهند، في دائرة المعارف النظامية في 1323هـ/ 1905م، في تسع وخمسين صفحة [سركيس، معجم المطبوعات، 1/ 531؛ كحالة، معجم المؤلفين 5/ 270].

المصادر والمراجع

● التاجر محمد علي، منتظم الدرين في تراجم أعيان القطيف والأحساء والبحرين، نسخة مخطوطة بخط المؤلف، ترجمة 465 ؛ ● سركيس يوسف، معجم المطبوعات العربية والمعربة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ج1/ 531 ؛ ● كحالة عمر، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، 5/ 270.

د. أنيسة أحمد خليل المنصور
جامعة البحرين ـ مملكة البحرين

بَحْرق، محمد بن عمر

■ ■ ■

(869هـ/1465م ـ 930هـ/1524م)

هو محمد بن عمر (وفي إيضاح المكنون للبغدادي، محمد بن محمد بن عمر)، بن عبد الله الحميري الشافعي الشهير بـ«بَحْرق».

ولد ليلة النّصف من شعبان بحضرموت، وبها نشأ فحفظ القرآن، ومعظم «الحاوي»، و«منظومة البرماوي» في الأصول، و«ألفية» النّحو. وأخذ عن جماعة من علماء حضرموت، منهم الفقيه الصّالح «محمد بن أحمد باجرفيل»، ثمّ ارتحل إلى عدن، ولازم الإمام «عبد الله بن أحمد مخرم»، واشتغل عليه في الفقه وأصوله، والعربيّة حتّى كان جلّ انتفاعه به، وقرأ عليه جميع ألفيّة ابن مالك في النّحو، وجميع سيرة ابن هشام، وجملة صغيرة من «الحاوي الصّغير» في الفقه، وسمع عليه جملة من علوم شتّى، وكذلك أخذ عن الفقيه الصّالح «محمد بن أحمد بافضل»، ثمّ ارتحل إلى زبيد وأخذ عن علمائها، فأخذ علم الحديث عن «زين الدين محمد بن عبد اللّطيف الشرجي»، وعلم الأصول عن الفقيه «جمال الدين محمد بن أبي بكر الصّائغ»، وكذلك أخذ عنه التّفسير والحديث والنّحو، وقرأ عليه شرح البهجة الورديّة لـ«أبي زرعة»، وأخذ أيضًا عن السيّد الشّريف «الحسين بن عبد الرحمن الأهدل»، وألبسه خرقة التّصوّف، وصحب الشّيخ «أبا بكر العيدروس»، وأخذ عنه وانتفع به فعادت عليه بركته، وحجّ في سنة 894 هـ، وسمع من الحافظ «شمس الدين السخاوي»، وسلك السّلوك في التّصوّف، ولزم الاجتهاد والجدّ في العلم والعمل، وأقبل على نفع النّاس إقراء وإفتاء وتصنيفًا. وكانت له يد طولى في النّظم والنّثر والخطب، وكان غاية في الكرم، محسنًا إلى الطّلبة وغيرهم، كثير الإيثار، ومحبًا لأهل الخير، متّصفًا بالإنصاف، رجاعًا إلى الحقّ مفضالاً جوادًا سيدًا قويّ النّفس. تولّى القضاء بالشحر فصدع بالحقّ وحمدت أحكامه، ثمّ عزل نفسه عن القضاء، ثمّ ذهب إلى عدن وحصل له بها قبول أميرها «مرجان» الّذي أكرمه، وبعد موت مرجان سافر إلى الهند، ووفد على السّلطان «مظفّر» فقرّبه السّلطان وعظّمه وبعد أن خبر علمه وفضله زاد في إكرامه وتعظيمه، وأنزله المنزلة اللاّئقة به وصاهر حمزة الناشري.

مدح عامر بن عبد الوهاب حين شرع في بناء مدارس زبيد والنّظر فيها، وممّا قاله فيه:

أيدت دينك يا ربَّ العلا أبدا
بناصر لملوك الأرض قد نَهدا

أعني به عامرًا شمسَ الملوك فكنْ
نصيرَه أبدا في كلّ ما قصدا

وناصرًا ومعينًا فهو شمس ضحى
أخفى نجوم ملوك الأرض حين بدا

سميته عامرًا لما أردت به
صلاحَ دينك، إرغامًا لمن جحدا

ولا تذكر المصادر سبب لقبه «بحرق» وقد مدح بذلك بقول الشاعر:

لأيّ المعاني زيدت القافُ في اسمكم
وما غيّرتْ شيئًا إذا هي تذكر

لأنك بحرُ العلم والبحر شأنه
إذا زيدَ فيه الشيءُ لا يتغيّر

وتوفّي في العشرين من شعبان في أحمد أباد، وقيل إنّه مات بالسمّ، إذ إنّ حظوته لدى السّلطان أثارت غيرة الوزراء فحسدوه فدسّوا له من سمّه، وله ما ينوف على 25 تصنيفًا قليل منها المطبوع.

آثاره

أ ـ المطبوعة

1 ـ تعليق بحرق على لاميّة الأفعال، طبع مصر، دون تاريخ؛ 2 ـ تحفة الأحباب وطرق الأصحاب، شرح على ملحة الأعراب وسنحة الآداب، للإمام جمال الدين الحريري (نحو)، بهامشه تقائيد وفوائد من شرح المصنّف والفاكهي واليمني وغيرهم، المطبعة الذّهبيّة، 1296هـ / 1300 هـ. ومطبعة عثمان عبد الرزاق، 1308 هـ. والمطبعة اليمنية، 1308 هـ. والمطبعة الخيريّة، 1319هـ؛ 3 ـ نشر العلم في لاميّة العجم، ذكر في أوّله أنّه جرّد أكثر من شعر العلاّمة صلاح الدين الصفدي، اختار من جملة من أشعاره، اقتصر منها على ما يتعلّق بشرح القصيدة، وحلّ غريب لغاتها، ومشكل إعرابها، وتوضيح معانيها، مطبعة كاستيلي، 1283هـ / 1866 م؛ المطبعة الخيريّة، 1306هـ / 1891 م؛ 1320 هـ؛ 4 ـ الحديقة الأنيقة في شرح العروة الوثيقة، نشر حسين محمد مخلوف، القاهرة، 1960م؛ 5 ـ فتح الأقفال وحلّ الإشكال شرح لاميّة الأفعال، طبع القاهرة، مصطفى البابي الحلبي، 1373هـ / 1954م.

ب ـ المخطوطة

6 ـ شرح الكافيّة في الطبّ، منظومة، توجد في أياصوفيا، 2/ 8928/ 61؛ 7 ـ تفسير آية الكرسي، يوجد في لندبرج بريل، 2/ 568؛ 8 ـ العروة الوثيقة، 1 / 374 / 845، وعليه شرح بعنوان «الحديثة الأنيقة»، منظومة توجد في بريل أوّل 517، ثان 969، أياصوفيا، 2/ 1590/ 29 ـ 30؛ 9 ـ ترجمة المستفيد في التّجويد، يوجد في بنكيبور 18/ 1306، جاتريت، 2070/ 2؛ 10 ـ فتح الأقفال وضرب الأمثال بشرح لاميّة الأفعال، مخطوطتان في المكتبة الظّاهريّة بدمشق الأولى، النّاسخ إبراهيم بن محمد بن ميرزا العبدي، انتهى من نسخه آخر ربيع الثّاني، 1229 هـ؛ والثّانية ناسخها هو محمد بكر الشّرقاوي الهريبض، فرغ من نسخه يوم الجمعة أوّل شعبان سنة 1377هـ؛ 11 ـ الأسرار النّبويّة في مختصر الأذكار النّوويّة؛ 12 ـ تبصرة الحضرة الشاهية الأحمديّة بسيرة الحضرة النّبويّة؛ 13 ـ تجريد المقاصد عن الأسانيد والشّواهد؛ 14 ـ ترتيب السّلوك إلى ملك الملوك؛ 15 ـ الحسام المسلول على منقص أصحاب الرّسول؛ 16 ـ حلية البنات والبنين فيما يحتاج إليه من أمر الدّين؛ 17 ـ الحواشي المفيدة على أبيات اليافعي القصيدة (ذكر اليافعي ثلاثة شروح للمؤلّف هي البسيط، والوسيط، والوجيز)؛

18 ـ ذخيرة الأخوان من كتاب الاستغناء بالقرآن؛ 19 ـ العروة الوثيقة في الجمع بين الشريعة والحقيقة، قصيدة؛ 20 ـ العقد الثمين في إبطال القول بالقبح والتحسين؛ 21 ـ مختصر الترغيب والترهيب للمنذري؛ 22 ـ النبذة المختصرة من كتاب الأوائل للعسكري؛ 23 ـ شرح لاميّة ابن مالك في التصريف؛ 24 ـ رسالة في الحساب؛ 25 ـ رسالة في الفلك؛ 26 ـ عقد الدّرر في الإيمان بالقضاء والقدر؛ 27 ـ العقيدة الشافعيّة في شرح القصيدة اليافعيّة؛ 28 ـ متعة الأسماع بأحكام السّماع؛ 29 ـ مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس؛ 30 ـ النّبذة المختصرة في معرفة الخصال المكفّرة للذّنوب المقدّمة والمؤخّرة.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● ابن العماد، شهاب الدين بن أبي الفلاح، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، تح. عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1410هـ / 1989 م، مج. 8، ص 8/ 176 ـ 177؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ثم9، 13 ب ـ 14 العصر العثماني، 129، نشر المنظّمة العربيّة للتربية والثّقافة والعلوم والهيئة المصريّة العامّة للكتاب؛ ● الحمصي، أسماء، فهرس المؤلّفين بالمكتبة الظّاهريّة، اللّغة العربيّة، دمشق، 1393هـ / 1973 م، ص 524 ـ 525؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظّنون، مكتبة المثنّى، بغداد، مج. 11، ص 76، 221؛ مج. 12، 146، 397، 426، 552؛ ● هديّة العارفين بأسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، وكالة المعارف الجليلة، استنبول، 1951م، مج. 6، ص 230؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد اللّه القسطنطيني، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، 1402هـ / 1982م؛ 2/ 1536، 1538، 1843؛ ● المنجد، صلاح الدين، معجم المخطوطات العربيّة، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1398هـ / 1978 م، ج 1، ص 48؛ ● عبد الجبار، عبد الرحمن، ذخائر التّراث العربي الإسلامي، النّاشر المؤلّف، 1401هـ / 1981 م، ج1، ص369؛ ● العيدروس، عبد القادر بن شيخ، تاريخ النّور السّافر عن أخبار القرن العاشر، صحّحه وضبطه محمد رشيد أفندي الصفار، المكتبة العربيّة، بغداد 1934 م، 143 ـ 152؛ ● كحالة، عمر، معجم المؤلّفين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، 1414هـ / 1993 م، مج. 3، 15039؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 6/ 315 ـ 316، 1978م.

2 ـ الدوريات:

● الزهراء، مج. 4، ص 96، القاهرة؛ ● المنجد، مجلّة معهد المخطوطات العربيّة، مج. 5، ص 279، القاهرة؛ ● المورد، مج. 3، عدد 1، ص 238؛ عدد 4، ص 375.

د. عبد المجيد نصير
جامعة العلوم والتكنولوجيا ـ الأردن

البخاري، افتخار الدين طاهر بن أحمد

(ت 582هـ / 1186 م)

ولد بمدينة بُخارَى التي ينسب إليها، وأحسب أنه ولد بقرية مَايْمَرْغ القريبة من بُخارَى - وإن كانت نسبته البُخاريُّ أشهر وأوسع - بدليل تفقُّهه على عَمِّه الفقيه فخر الدين محمد بن محمد بن إلْياس المَايْمَرْغِيّ.

لم تسعفنا مصادر ترجمته بشيء ذي بال عن مولده ونشأته وسيرته وأسرته - إنّما اكتفت بالإشارة إلى تفقّهه على عَمِّه المذكور دون والده، ولعل هذا يعني أنّ والدَه تُوفِّي، وهو ما يزال صغيرًا، فاعتنى به عمُّه وتكفَّل برعايته، وصرف هِمَّته إلى تأديبه وتعليمه، ومن ثَمَّ تفقّهه عليه، فقد كان عمُّه شيخًا فقيهًا، عارفًا، ذا حُرمة وافرة، أخذ الفقه عن الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الستار الكَرْدَرِيّ (ت 642هـ/ 1244م)، أستاذ الأئمّة على الإطلاق. وعن الشيخ زين الدين أحمد بن عمر بن محمد العَتَّابِيّ البُخارِيّ، العلامة الزاهد وصاحب الكتاب المشهور «الزيادات».

ثم واصل علاء الدين دراسته الفقهية على شيخ العصر الإمام حافظ الدين الكبير أبي الفضل محمد بن محمد بن نصر البُخارِيّ (ت 693هـ/ 1294م)، الإمام الفقيه المحدِّث المُفَسِّر، الجامع لأنواع العلوم، سمع علماء عصره، وتفقّه على أشهر فقهاء الحنفية في زمانه.

وعن هذين الإمامين الفقيهين (أعني عمَّه فخر الدين المَايْمَرْغِيّ، وحافظ الدين البُخارِيّ) اتَّصلت دراسته الفقهية لفقه إمام المذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكُوفيّ، عن طريق شيخهما شمس الدين محمد بن عبد الستار الكَرْدَرِيّ، عن الإمام علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المَرْغِينَانيّ (ت 593هـ/ 1197م)، صاحب كتاب «الهداية»، عن الشيخ الفقيه نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النَّسَفِيّ (ت 537هـ/ 1142م)، عن شيخه الإمام الكبير أبي اليُسْر محمد بن محمد بن الكريم البَزْدَوِيّ (ت 493هـ/ 1100م) عن إسماعيل بن عبد الصادق بن عبد الله الخطيب، عن عبد الكريم بن موسى بن عيسى البَزْدَوِيّ (ت 390هـ/ 1000م)، عن الإمام أبي منصور محمد بن محمود المَاتُرِيْدِيّ (ت 333هـ/ 945م)، عن الفقيه أبي بكر أحمد بن إسحاق الجُوزجانيّ، عن أبي سُلَيْمان الجُوزَجانيّ، عن الإمام الكبير الفقيه محمد بن الحسن بن فَرْقَد الشَّيبانيّ (ت 189هـ/ 805م)، عن شيخه إمام المذهب أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكُوفيّ (ت150هـ/ 767م).

كان بارعًا، فاق أقرانه، وأرْبَى على معاصريه، حتى أصبح من الفقهاء المشهورين، والعلماء المعروفين، وقد ذاعت شهرته في الآفاق، فصار واحدًا من أفراد الدهر في الفروع والأصول، وحاز قصبات

السّبق في العلوم، وتصدَّر للتدريس، فاجتمع عليه الطلبة يأخذون عنه، ويتفقّهون بعلمه، ويقرأون عليه مصنّفاته ومصنّفات غيره من أمّهات الكتب الفقهية، كان منهم:

الإمام الفقيه محمد بن محمد بن أحمد السُّنجاريّ، قوام الدّين الكاكِيُّ (ت 749هـ/ 1348م) الذي لازمه مدّة طويلة، وتخرّجَ به في الفقه الحنفيّ، وكان فقيهًا عالمًا، وإمامًا بارعًا، تصدَّر للتدريس والإفتاء بالقاهرة، وصنّف شرحًا للهداية سمّاه «معراج الدراية إلى شرح الهداية» وصنّف أيضًا «عنوان المذهب» جمع فيه أقوال الأئمة الأربعة.

والشيخ الفقيه جلال الدين عمر بن محمد بن عمر الخَبّازِيُّ (ت 761هـ/ 1360م) كان من العلماء العابدين، والزّهّاد المتمسّكين، جامعًا للفروع والأصول، أخذ عن الإمام علاء الدين عبد العزيز البُخارِيّ، وتفقّه عليه، وتخرّج به، ثمّ قَدِم دمشق ودَرّس وأفتى، ووضع شرحًا على «الهداية» وهو في غاية الجودة.

■ آثاره

لقد كان الفقيه علاء الدين البُخاريُّ وافر المحفوظ، عالمًا طويل الباع، واسع الإطّلاع، جامعًا لأشتات الفوائد، مصنّفًا سديد التّرتيب والمنهج، انتشرت مؤلّفاته في حياته، وراجت بين تلاميذه وأقرانه، فكانت مقبولة، معتمدة لدى الفقهاء، أثنى عليه كل من اطّلع عليها وانتفع بها، ووُصِفت بالجودة والضّبْط والإتقان. وهي:

1 ـ كشف الأسرار، وهو شرح أصول فخر الإسلام لعلي بن محمد البَزْدَوِيّ.

ذكره طاش كبري زادة وقال فيه: «وعلى أصول فخر الإسلام شروح كثيرة، أحسنها وأشهرها شرح عبد العزيز البُخارِيّ، المسمّى بالكشف»، وقال فيه حاجي خليفة: «وشرح الإمام علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البُخاريّ الحنفي المتوفّى سنة ثلاثين وسبعمائة أعظمَ الشروح وأكثرها إفادة وبيانًا سَمّاه «كشف الأسرار» أوّله: الحمد لله مُصَوِّر النَّسم في شبكات الأرحام..».

وأثنى على جودته وإتقانه الشيخ محمد عبد الحي اللّكنوِيُّ قائلاً: «مشتمل على فوائد خلت منها الرموز المتداولة، ويتضمّن تحقيقات وتفريعات لا توجد في الشروح المتطاولة».

وقد طبع الكتاب باستانبول سنة 1307 ـ 1308هـ/ 1889 ـ 1890م، وأعيد طبعه ثانية ببيروت، دار الكتاب العربي 1974م، طبعة مصوّرة بالأوفسيت.

2 ـ التحقيق، وهو شرح المنتخب في أصول المذهب للشيخ حسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأَخْسِيكَثِيّ الحنفيّ، وقد وصف حاجي خليفة كتاب «التحقيق» قائلاً: «شرحه عبد العزيز أحمد البُخاريُّ، وسَمّاه «التحقيق» وتوفّي سنة ثلاثين وسبعمائة، أوّله: الحمد لله الذي مهّد مباني الإسلام... ذكر أنّ المختصر المذكور فاق سائر التصانيف بحسن التهذيب ومتانة الترتيب، بيد أنّه اقتصر فيه على الأصول كلَّ الاقتصار، فشرحه بعد فَراغه من إملاء «كشف الأسرار» ـ وهو شرح أصول البَزْدَوِيّ ـ وروى هذا المتن عن عمّه فخر الدين محمد بن محمد بن إلياس المَايْمَرْغِيّ، وهو عن المصنِّف».

وأشاد بالكتاب وأثنى عليه محمد عبد الحي اللّكنَوِيُّ قائلاً: «صنّفه بعد الفراغ من الكشف «كشف الأسرار» وهما كتابان معتبران عند

الأصوليين وعليهما اعتماد أكثر المتأخرين». وقد طبع الكتاب في لكناؤ 1293هـ/ 1876م؛ 3 ـ شرح على «الهداية»، للشيخ برهان الدين علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المَرْغِينَانِيّ، شرَحَ الشيخ علاء الدين البُخاريّ كتاب «الهداية» ووصل فيه إلى باب النّكاح، واخترمته المَنِيَّة. كان تلميذه الشيخ محمد بن محمد قوام الدين الكاكيُّ، قد سأله أن يضع شرحًا على الهداية فاستجاب له، وبدأ بتصنيف هذا الشرح.

المصادر والمراجع

• الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم، بيروت، ط4، دار العلم للملايين، 1979م؛ • ابن قطلوبغا، تاج التراجم في طبقات الحنفية، بغداد، مطبعة العاني، 1932م؛ • القرشي المصري، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، الهند، حيدر آباد الدكن، دائرة المعرف العثمانية، 1332هـ؛ • الهروي القاري، طبقات الحنفية، نسخة خطّية محفوظة في مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد تحت رقم 1/ 929 ـ 930؛ • طاش كبري زادة، طبقات الفقهاء، للشيخ أحمد بن مصطفى والصحيح أنه لابن كمال باشا، الموصل، مطبعة الزهراء، 1961م؛ • اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ • حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طهران، المطبعة الاسلامية، 1387هـ/ 1967م؛ • الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، المرقاة الوفيّة في طبقات الحنفية، نسخة خطّية في دار الكتب المصرية تحت رقم 4647 تاريخ؛ • كحالة، معجم المؤلّفين، تراجم الكتب العربية، دمشق، 1376هـ/ 1957م؛ • طاش كبري زادة، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، تح. كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، القاهرة، مطبعة الاستقلال الكبرى 1968م.

د. صالح مهدي عباس
جامعة الموصل ـ العراق

البخاري، جنيد بن محمد بن أحمد

(1325هـ/1906م ـ 1417هـ/1997م)

جنيد بن محمد بن أحمد بن غداد بن ليم البخاري، ولد في حيّ (غداداوا) بمدينة سكتو (Sokoto)، شمال نيجيريا، وذلك في عام (1325هـ/ 1906م)، وتوفّي يوم 9/ 1/ 1997م، أوّل رمضان 1417هـ [حوليات الجامعة الإسلاميّة، النيجر، ع 4، سنة 1997، ص 277].

بدأ الشيخ جنيد دراسته بقراءة القرآن الكريم

في مسجد أمير المؤمنين محمد بلو، عند الشيخ عبد القادر بن أبي بكر، ولما ختم القرآن الكريم، واصل دراسته في العلوم الدينيّة واللّغويّة، ومن الكتب التي ابتدأ بها تعلمه الديني كتاب أصول الدين للشيخ عثمان بن فودي، ثمّ الأخضري، ثم كتاب العشماري، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني. وقد درس هذه الكتب وغيرها عند الشيخ عبد القادر أبي بكر شيخه الأوّل، ثمّ عند الشيخ يحيى بن خليل، والشيخ يحيى النووي، والشيخ ألفانوح، والشيخ بوبي أبي بكر عبد القادر. ولم تقتصر دراسته على اللّغة العربيّة والشرعيّة فحسب بل شملت دراسته لغة فلفلدي لغة أجداده التي درست في عصره، وقد درسها عند الشيخ إبراهيم بن عبد الله والشيخ مغاجي شوني وغيرهما من المتبحرين في هذه اللّغة.

بدأ الشيخ جنيد حياته العمليّة في عام 1939م حيث عين مدرّسا في مدرسة سكتو المتوسّطة للغة العربيّة والدراسات الإسلاميّة. وفي عام 1942م نقل إلى مدرسة العلوم الشرعيّة ـ مدرسة القضاة في سكتو، وبقي فيها أربع سنوات. هذا، إضافة إلى تعمير الحلقة العلميّة التي ورثها من آبائه وأجداده.

وفي عام 1946م عين مستشارا شرعيا في مجلس أمير المؤمنين أبي بكر بن عثمان. وفي عام 1948م عين وزيرا لأمير المؤمنين أبي بكر الثالث بعد وفاة أخيه عباس وهو المنصب الذي ظلّ فيه إلى وفاته. وفي ديسمبر عام 1951م انتخب عضوا في الجمعيّة التأسيسيّة لشمال نيجيريا، واستقال منها في يوم 16/ 2/ 1957م. وفي مارس 1957م عين عضوا خاصا في مجلس الأعيان ومستشارا للمجلس في الشؤون الإسلاميّة، وكان عضوا في مجلس القضاء الأعلى لشمال نيجيريا [محمد كاني، حوليات الجامعة الإسلاميّة، ع4، ص 81]. وفي عام 1961م عيّن عضوا في اللجنة التعليميّة التي كونتها حكومة شمال نيجيريا، ومديرا لدار الوثائق سكتو عام 1976م.

قام الشيخ جنيد بعدّة رحلات شملت دولا عدّة منها: السودان، والسعوديّة، وليبيا، والعراق، ومصر، والنيجر، والسنغال، وغينيا. وقد وصف بعض هذه الرحلات في مؤلفاته.

وتقديرا لمجهوداته العلميّة والعمليّة، منحته جامعة أحمد بلو في زاريا دكتوراه فخريّة في الأداب عام 1971م ومنح جائزة الدولة التقديريّة في عام 1981م. وقد تخرّج على يديه عدّة طلاب تولى بعضهم رئاسة الدولة، ومن أشهرهم رئيس نيجيريا الأسبق شيخو شاغارى، والشيخ أبو بكر محمد غمبى، قاضي قضاة شمال نيجيريا الأسبق المتوفى سنة 1992م، والقاضي خضربنجي، قاضي قضاة ولاية سكتو سابقا، وغيرهم.

آثاره

للشيخ جنيد مؤلفات كثيرة في العلوم الدينيّة والتاريخ وغيرهما من العلوم، منها:

1 ـ ضبط الملتقطات من الأخبار المتفرقة في المؤلفات، وهو كتاب في تاريخ دولة الشيخ عثمان بن فودي من تأسيسها إلى سقوطها على يد الإنجليز عام 1903م. وقد طبع طباعة محليّة، ثم صور على الأوفست، وحققه الأستاذ بشير عثمان، وطبعه على الآلة الكاتبة

ولم ينشر؛ 2 ـ إدراك الأمل في التنويه بقرية طفل: وهو في تاريخ قرية (طفل) التي نشأ فيها الشيخ عثمان بن فودي، وما زال الكتاب مخطوطا؛ 3 ـ التحفة السنيّة في تعريف سكتو البهية، وهو في تاريخ سكتو، مخطوط أيضا؛ 4 ـ نيل المرام بذكر ترجمة أمير المؤمنين محمد بلو الهمام وهو في تاريخ أمير محمد بلو وحياته، لم يطبع؛ 5 ـ عرف الريحان في التبرّك بذكر الشيخ عثمان وذكر من اشتهر من أولاده، لم يطبع؛ 6 ـ تأنيس الأحباء بذكر أمراء غوند مأوى الأصفياء. يؤرخ لأمير غوند إلى زمن أميرها هارون الرشيد، لم يطبع؛ 7 ـ تعليم الإخوان بذكر من تعلمت منهم لغة الفلان. وقد أرّخ فيه وترجم لعدد من شيوخه الذين أخذ عنهم اللّغة الفلانية، لم يطبع؛ 8 ـ إتحاف الحاضرين بمرائي المسافر (مقالة منشورة)؛ 9 ـ تفريج النفس بذكر زيارة العراق والقدس (مقالة)؛ 10 ـ رحلة أعاديس، مدينة في النيجر؛ 11 ـ ديوان شعر تضمن حوالى 39 قصيدة، تبلغ أبياتها حوالي 687 بيتا، تطرق فيها إلى أغلب أغراض الشعر، وقد نشر بعضه في كتاب «الثقافة العربيّة في نيجيريا»، لعلي أبي بكر وكذلك في رسالة «الأبعاد الفنيّة في أشعار الوزير العربيّة لمحمد المبارك التكينة».

وللشيخ كتب ورسائل أخرى كثيرة، أغلبها مخطوطة في مكتبته الخاصة في مدينة سكتو.

المصادر والمراجع

● حياة وأعمال الوزير جنيد للأستاذ حامد الكالي، وهو باللغة الإنجليزيّة؛ ● الأبعاد الفنيّة في أشعار الوزير جنيد العربيّة، رسالة ماجستير، لمحمد المبارك التكنية في جامعة أحمد بلو عام 1980 / 1981م؛ ● مساهمة الوزير جنيد في مجال التعليم العربي بمدارس اللغة العربيّة الحديثة بولاية سكتو، رسالة مقدّمة إلى معهد التربية بجامعة أحمد بلو لنيل الدبلوم العالي في التربية للأستاذ خالد محمد عبد الله المنصور، عام 1985م؛ ● الوزير جنيد كناثر، بحث مقدّم لنيل الليسانس في جامعة سكتو، قسم اللّغة العربيّة، لحاج أبو بكر عام 1981م؛ ● دراسات عن المجاز العقلي في ديوان القصائد للوزير جنيد محمد البخاري، بحث التخرج من جامعة سكتو، قسم اللّغة العربيّة، للباحث محمد المختار عام 1985.

● ومن الندوات، الندوة التي أقامتها الجامعة الإسلاميّة بالنيجر يومي 9 و10/ 5/ 1998م بعنوان «الوزير جنيد حياته وجهاده العلمي».

● البدري، أحمد، أوراق من سكتو، جامعة قاريونس، ط1، 1991م؛ ● أبو بكر، علي، الثقافة العربيّة في نيجريا، د.ت. ومكان الطباعة؛ ● لانتش، شيخو أحمد، حركة اللّغة العربيّة وآدابها في نيجيريا، ط2، دار المعارف، عام 1982م، القاهرة، مصر؛ ● موسى، سليمان، الحضارة الإسلاميّة في نيجيريا، ط 1، 2000 م، دار الفكر، دمشق، سوريا؛ ● حوليات الجامعة الإسلاميّة بالنيجر، العدد الرابع، 1998م.

أ. علي يعقوب
نيامي ـ النيجر

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

(194هـ/810م - 256هـ/870م)

محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن ردزيه البخاري الجعفي، الإمام الحافظ أبو عبد الله.

ولد ببخارى من سلالة فارسية سنة 194هـ / 256م، ونشأ بها يتيما، فحفظ القرآن الكريم وألمّ بالعربية وهو صبيّ، وحبّب إليه سماع الحديث، فكان أول سماعه من علماء بخارى وهو لم يناهز البلوغ. وخرج مع أمه وأخيه إلى مكة، فحجوا وتخلف هو لطلب الحديث. ثم زار خراسان، والعراق، والشام، ومصر حيث سمع الحديث من محدِّثي هذه الأمصار، منهم أحمد بن حنبل، وتفقه على المذهب الشافعي ثم صار له مذهب خاص. ولما نضج علمه واجتمع له يقينه بعد حفظه لآلاف الأحاديث، شرع في تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها بعد أن عرف عللها ووجوهها معرفة لم تتم لأحد قبله.

قال رحمه الله تعالى: «خرّجت كتابي الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث، وما وضعت حديثا إلا صليت ركعتين». وكان البخاري قليل الأكل، كثير الإحسان إلى الطلبة، شديد الورع، يكثر من قراءة القرآن ليله ونهاره. وقد أجمعت الأئمة على توثيقه وأمانته وتبحّره وسعة روايته، وعلى أن كتابه «الجامع الصحيح» هو أجلّ كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله العزيز، وأنه أوثق الكتب الستة المعوّل عليها في الحديث. وكان الإمام البخاري مقيما في بخارى، فتعصّب عليه جماعة ورموه بالتهم، فأخرج إلى «خرنتك» من قرى سمرقند حيث توفي ودفن بها في شهر شوال من سنة 256هـ / 870م. وقد اندثر قبره وبني مكانه قبر آخر، وهو في قرية تعرف حاليا باسم «خواجة صاحب» على بعد 30 كيلومترا من سمرقند، على طريق بخارى.

آثاره

1 - الجامع الصحيح أو صحيح البخاري، وهو أهم مؤلفاته. وفاق صحيح البخاري كل المصنفات التي كتبت في الحديث من قبله، كمصنف الوداعي (184هـ)، وابن أبي شيبة (235هـ). وهو يضم في ثناياه فصولا من أصول الدين الأغنى لمن أراد الاختصاص في علوم الشريعة ومعرفتها، وهي ما فيها من الاعتبار بأخبار البدء والخلق، والأنبياء، وما كان في بني اسرائيل من الأنبياء، وأيام الجاهلية، ومبدإ النبوة، وما تلاها من السير والمعجزات، وجمل الاعتقادات ولوازم الطاعات، والنهي عن المنكرات، وذكر الغزوات، ونوازل الآيات وثوابها، وأبواب الفقه والتفسير والتعبير وبيانها، وفضائل الصحابة، ورغائب الزهد في الدنيا والعمل

للأخرى ومراتبها، وما في ملكوت السماوات والأرض من قدرة الله تعالى وشواهدها، وما يكون من الفتن والأشراط إلى يوم القيامة وأنواعها، ثم ما يكون من البعث والنشور، وبعد الحساب من الثواب والعقاب والاستقرار في الجنة أو النار وصفاتهما.

ولذلك وضعه المسلمون بعد كتاب الله العظيم القرآن الكريم، فهو المصدر الثاني للتشريع. وصحيح البخاري يضم من الأحاديث المسندة سبعة آلاف ومائتان وخمسة وسبعون (7275) حديثا. بما في ذلك الأحاديث المكررة.

وقد نشر صحيح البخاري في البلاد الإسلامية عدة مرات. واعتمدت طبعاته على النص المتداول للغربري المتوفى سنة 320هـ، وهو أحد الرواة المجازين لرواية الجامع الصحيح، وهو النص الذي قام علي بن محمد بن عبد الله اليونيني المتوفى سنة 701هـ بإعداده. وكان هذا النص محفوظا في إحدى مكتبات إستنبول بتركيا، فأمر السلطان عبد الحميد بإرساله إلى مصر لينشر فيها، فصدرت طبعته الأولى عن هذه النسخة اليونينية في مطبعة بولاق سنة 1313هـ بإشراف مجموعة من كبار العلماء. وصدرت طبعة أخرى له هي طبعة «ذهني» في إستنبول سنة 1315هـ.

وقد هدانا البحث إلى نسخة مخطوطة من صحيح البخاري، ظهرت بعد الدراسة المتعمقة والمتأنية لها، أنها النسخة الكاملة من صحيح البخاري التي حررت سنة 1033هـ، نقلا عن النسخة الأصلية للإمام الحسن الصغني (أو الصاغاني) المتوفى سنة 650 هـ. وهذه المخطوطة موجودة ضمن مجموعة المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة جون ريلاندز بمدينة مانشستر (انكلترا)، وهي تحمل رقم 125، وبها 469 ورقة (أي 938 صفحة)، ومسطرتها 29 سطرا، ومقاسها 26,2 × 20,5 سم؛ 2 ـ التواريخ الثلاثة، الأصغر والأوسط والكبير؛ 3 ـ الأدب المفرد، في الحديث؛ 4 ـ خلق أفعال العباد؛ 5 ـ خير الكلام في القراءة خلف الإمام؛ 6 ـ كتاب الكنى؛ 7 ـ كتاب الضعفاء الصغير؛ 8 ـ قرة العين برفع اليدين في الصلاة.

المصادر والمراجع

● الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/ 122؛ ● ابن حجر، تهذيب التهذيب، 9/ 47 ـ 55؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 576 ـ 577؛ ● ابن النديم، الفهرست، 2/ 230؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 2/ 4 ـ 34؛ ● النووي، تهذيب الأسماء واللغات 1/ 67 ـ 76؛ ● ابن الأثير، اللباب، 1/ 231؛ ● الكامل في التاريخ، 7 ـ 79؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، 11/ 24 ـ 28؛ ● الفراء، طبقات الحنابلة، 201/ 203؛ ● السبكي، طبقات الشافعية، 2/ 19؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب 2/ 134؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، 2/ 167 ـ 169؛ ● الصفدي، الوافي، 2/ 206 ـ 209؛ ● طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، 2/ 4 ـ 8؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، 48 وما بعدها؛ ● الخوانساري، روضات الجنات، 159

ـ 161؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، 534؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 6/ 34؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 9/ 52؛ ● بروكلمان، الجزء الأول، 157؛ ● التكملة له رقم، 1/ 260؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية، ليدن، مج. 1/ 1296، مادة AL Bukhari، بقلم J. Robson.

عبد الحميد صالح حمدان

خبير دولي ـ جنيف

البخاري، علاء الدين الحنفي

(ت 730هـ / 1331 م)

علاء الدين عبد العزيز بن أحمد بن محمد البخاري المعروف بصاحب «الكشف»، فقيه حنفي من علماء الأصول، من أهل بخارى.

تفقّه على عمّه محمد المَايَمَرْغي تلميذ شمس الأيمّة الكردري (ت 642 هـ)، وأخذ أيضًا عن حافظ الدين الكبير محمد البخاري (ت 668 هـ) عن الكردري وتفقّه عليه قوام الدين محمد الكاكي (ت 749 هـ)، وجلال الدين عمر بن محمد الخبازي (ت 691 هـ).

وكانت وفاته سنة ثلاثين وسبعمائة للهجرة.

آثاره

1 ـ كشف الأسرار عن أصول البزدوي، ط. في مجلّدين كبيرين، بيّن في مقدمة الكتاب أن علوم الدين أحق المفاخر بالتوقير والتبجيل ولا سيّما علم أصول الفقه هو أصعبها مدارك وأدقها مسالك وأتمّها فوائد، وقد كان أهل العلم والفضل في بلده قد سألوه أن يضع على كتاب «أصول الفقه» لفخر الإسلام البزدوي شرحًا يكشف ما غمض من معانيه، ويوضح ما أبهم من رموزه وإشاراته، ويبيّن ما أجمل من ألفاظه وعباراته وسبب سؤالهم للبخاري أن يتولّى القيام بهذا الشرح لما علموه من كثرة ملازمته لعمّه وشيخه محمد بن محمد المايمرغي الذي كان مختصًا من بين العلماء بتحقيق دقائق مصنّفات البزدوي وسمّاه «كشف الأسرار»، قال اللّكنوي: وهو أعظم الشروح لاشتماله على فوائد خلت عنها الزّبر المتداولة ومتضمن لتحقيقات وتفريعات لا توجد في الشروح المتطاولة [الفوائد البهيّة، ص 94]، وكان عبد العزيز البخاري قد تلقّى كتاب البزدوي في الأصول بالسند الموثّق عن الإمام المايمرغي قراءة عليه «بسرخس» في المدرسة الملكية العباسية عن محمد بن عبد الستار الكردري من أول الكتاب إلى باب «أسباب الشرائع» ومنه إلى آخر الكتاب عن محمد بن محمود الكردري المعروف بخواهر

زاده (ت 651 هـ) عن برهان الدين الرشداني عن الإمام محمد بن أحمد النسفي عن البزدروي؛ 2 ـ غاية التحقيق في شرح المنتخب الحسامي، والمنتخب في أصول المذهب لحسام الدين محمد بن محمد الأخسيكثي (ت 664 هـ) وصفه حاجي خليفة بأنه محذوف الفضول مبيّن الفصول متداخل النقوض والنظائر منسرد اللآلىء والجواهر، وقد فاق هذا المختصر سائر التصانيف المختصرة بحسن التهذيب ومتانة التركيب، بيد أنه اقتصر فيه على الأصول كل الاقتصار. وكان البخاري قد شرحه بعد فراغه من إملاء «كشف الأسرار»، وقد روى متنه أيضًا عن عمّه فخر الدين المايمرغي وهو على المصنّف، وكان السيد السمرقندي قد كتب اعتراضات على كتاب «التحقيق» أجاب عنها بعض العلماء في مجلّد [كشف الظنون، ج 2، ص 1848]. ويعتبر «الكشف و«التحقيق» كتابين مهمّين عند الأصوليين وعليهما اعتماد أكثر المتأخرين؛ 3 ـ شرح الهداية، للمرغيناني في فروع الفقه الحنفي ألّفه بسؤال تلميذه قوام الدين الكاكي حين اجتمع به في «ترمذ»، وصل فيه إلى كتاب النكاح واخترمته المنيّة [القرشي، الجواهر المضيّة، ج 2، ص 428]؛ 4 ـ كتاب الأفنية، ذكر فيه فناء المسجد وفناء الدار وفناء المصر؛ 5 ـ الأربعون في الحديث [البغدادي، هدية العارفين، ج 1، ص 581].

المصادر والمراجع

● البخاري، علاء الدين (ت 730 هـ)، كشف الأسرار عن أصول البزدوي في مجلّدين (4 أجزاء) دار الكتاب العربي، بيروت، 1394هـ / 1974 م؛ ● ابن أبي الوفاء القرشي، عبد القادر (ت 775 م) الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، ت. عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1398هـ / 1978 م؛ ● ابن قطلوبغا، قاسم (ت 879 هـ)، تاج التراجم في طبقات الحنفية، مطبعة العاني، بغداد، 1962م؛ ● طاش كبري زاده، (ت 968 هـ)، طبقات الفقهاء، مطبعة نينوي، الموصل، ط 1، 1954م؛ ● اللكنوي الهندي، محمد عبد الحيّ (ت 1304 هـ)، الفوائد البهيّة في تراجم الحنفية، وبهامشه كتاب «التعليقات السنيّة»، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان؛ ● الزركلي، خير الدين (ت 1976م)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 8/ 1989م.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

البخاري، محمد البخاري بن عثمان

(1200هـ/1785م ـ 1255هـ/1839م)

الشاعر محمد البخاري، وقد اقترن اسم شهرته المركب بعنوان ديوانه الشعري الذي جمعه الوزير «جنيد» والمعنون بـ «إتحاف القاري ببعض قصائد محمد البخاري» وهو محمد البخاري بن عثمان بن محمد فودي ولد عام 1200 من الهجرة النبويّة، ومات عن خمس وخمسين سنة في عام 1255هـ.

ومحمد البخاري من الرعيل الأوّل للدولة الفوديّة الإسلاميّة التي أسّسها والده الشيخ عثمان بن فودي، وتبرز مكانة هذا الشاعر من مصدرين أحدهما شجاعته ومشاركته في الفتوحات الفوديّة في شمال نيجيريا وجنوب النيجر، وقد سجل في أشعاره أسماء بعض المواقع الحربيّة التي شارك فيها وأشهرها موقعة «كداي» في بلاد الهوسا، وكثنه وياوري، وكنكرو «مكان بولاية صكتو حاليًا».

وكان محمد البخاري هو المرشح لقيادة الدولة الفوديّة بعد أخيه محمد بللو إلّا أنّ الأسرة فضّلت عليه «العتيق»، لكنّ شجاعة محمد البخاري وفصاحته لم تقنعه بتولي أخيه بدلاً منه وسجل ذلك في أشعاره ولا سيما عندما كتب إلى أخيه السلطان العتيق لائماً وناصحاً في قصيدة طويلة مطلعها:

الا ابْلِغ عتيقًا من أخيه ... ومحضُ النصْح ينفعُ من يعيه

اتقصد بالفجور آخًا كريمًا ... يضاعف من حماك وتزدريه

وتقرن كلّ ذي سفه عليه ... معاذ الله من سفهٍ وتيه

فإن تطمع بذلك نيلَ ملك ... يطيبُ به المعاش وترتضيه

فإنّ الملكَ بالاسياف لا بالد ... دفوف وشقشقةِ السَّفيه

وكان محمد البخاري قد نشأ نشأة إسلاميّة خالصة وتعلم كمعاصريه على شيوخه تعليمًا دينيًا تقليديًا يعتمد على المشافهة ويبدأ بحفظ القرآن الكريم والمعلّقات الشعريّة ثمّ حفظ قصائد مدح الرسول من القدماء، وهو أمر قد انعكس على معجمه الشعري وأسلوبه الفنّي، فجاءت قصائده صورة مباشرة للشعر التقليدي والذي غالبًا ما يبدأ بالوقوف على الأطلال ثمّ يتناول غرضًا شعريًا تقليديًا كسائر معاصريه وأقرانه آنذاك.

إلّا أنّ أشعار محمد البخاري قد امتازت عن معاصريه ولاحقيه بالجرأة على تسجيل أشعاره الغزليّة، وهو أمر مستكره عند علماء وشعراء الدولة الفوديّة إلّا أنّ محمد البخاري وصف فيها مشاعره تجاه المرأة، ومن أشعاره

نكتشف أنّ الذوق الجاهلي واللفظ الجاهلي قد امتدّ إلى أشعاره الغزليّة، ومما قاله في امرأة أعجبته:

وبيضاء عجزاء ممكورة
مبتلة كمهاة الرمال
سبتني بأسود مغدودق
وجف أثيث سحاح حُسفال

والأغراض الشعريّة التي كتب فيها أشعاره كانت محدودة ولم تزد عن الأغراض التقليديّة: الغزل، الرثاء، المدح، الجهاد. أمّا شعره الجهادي فلم يتميّز فيه عن أقرانه من شعراء الدولة الفوديّة لأنّه اعتمد على الوصف التسجيلي للغزوات والمعارك الحربيّة مع تسجيل شجاعته وشجاعة المسلمين وانتصارهم، ومن ثمّ قل الخيال بشكل لافت للنظر.

أمّا قصيدة المدح الأساسيّة فكانت من نصيب عمّه، عبد الله بن فودي، ويبدو أنّه كان معجبًا به لأنّه مثله كان مقاتلاً شجاعا وشاعرًا متميّزًا، وقد بدأ الشاعر قصيدته المادحة بالوقوف على الأطلال وتخلّص منها بسرعة ليصل إلى ممدوحه:

فرغُ الديار وذكرُ إخوان الهوى
وخرائد في مشيها تتمايل
واسلك طريقَ أولي الهداية واغتنم
فرصًا تمر وانت عنها غافل

وإذا ما وصل إلى ممدوحه كان له صفات الإمام المسلم العالم العادل:

ولقد حبّاك الدهرُ شيخًا ما له
في العلم في تيك الاراضي ماثل
أعني إمامَ العصر عبد اللّه من
ساد شيوخَ النُبل مزهو شائل

وتستشف من مدحه لعمه صفات النموذج الأعلى لرجل الدين والدولة وتمكّنه من العلوم والفنون العربيّة والإسلاميّة في غرب أفريقيا - آنذاك -.

ولا نقع على جديد في رثائه التقليدي لزوجته ولابن خالته أبي بكر حيث يعبر عن حزنه للفقد ورضائه لقضاء الله ثمّ يذكر بعض صفات الفقيد.

ويعدّ ديوان الشاعر أهمّ ما وصلنا من مؤلّفاته التي لم تجمع بعد، وورد ذكر مقتضب عن مؤلّفاته الأخرى فيما سبق وكتب عن محمد البخاري وهم:

أ - الوزير جنيد الذي قام بتجميع أشعاره وعنونها بـ «اتحاف القاري ببعض قصائد محمد البخاري».

ب - ورد ذكر عنه في كتاب «الأنيس المفيد»، لعبد القادر بن غطاطو بن ليم.

ج - حقق ديوانه الشعري في رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة المنيا بجمهوريّة مصر العربيّة، د. محمد نجيب التلاوي.

المصادر والمراجع

● اتحاف القارئ ببعض قصائد محمد البخاري، تجميع الوزير جنيد، تح. محمد نجيب التلاوي، مخطوط بمكتبة الوزير بصكتو، نيجيريا، مخطوط بمكتبة كليّة الآداب بجامعة المنيا، جمهوريّة مصر العربيّة؛ ● التلاوي، محمد نجيب، الأدب العربي النيجيري، مخطوط بمكتبة

كليّة الآداب، جامعة المنيا، جمهوريّة مصر العربيّة؛ ● ابن غداد بن ليم، عبد القادر، الأنيس المفيد، مخطوط بمكتبة كليّة الآداب، جامعة المنيا، جمهوريّة مصر العربيّة؛ ● البخاري، عمر بن محمد، تنبيه الإخوان في أرض السودان، مخطوط بدار الوثائق، صكتو بنيجيريا، 1/ 3/ 215 ـ 2/ 56/ 858 مخ ع؛ ● أبو بكر علي، الثقافة العربيّة في نيجيريا، ط 1، 1972، القاهرة؛ ● عرف الريحان في ذكر المشهورين والمشهورات من أولاد الشيخ عثمان، الوزير جنيد، مكتبته الخاصّة، صكتو.

أ. د. محمد نجيب التلاوي

أستاذ الأدب العربي

وعميد كلية الآداب بالمنيا ـ

جمهورية مصر العربيّة

البخاري، أبو نصر سهل بن عبد الله

(كان حيا سنة 341هـ / 952 م)

هو سهل بن عبد الله بن داود بن سليمان بن أبان بن عبد الله المهري البخاري المعروف بأبي نصر، ولعل نسبه المهري يعني أنه من بني مهرة بن حيدان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة، يقول ابن دريد في الاشتقاق إن مهرة انقطعوا بالشحر بين عدن وعمان فبقيت لغتهم الأولى الحميرية يتكلمون بها إلى زمن دريد (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي). وأبو نصر هو محدث وأحد مشاهير علماء الانساب.

ليس هنالك معلومات عن خلفيته وثقافته، وفيما هل كان من بخارى، ثم نزح إلى العراق، أم أنه كان من اليمن ثم نزح إلى بغداد فقطنها؟. وإن رواية الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد مدينة السلام» التي اعتمدها على أحد القضاة من مدينة واسط هو أبو العلاء محمد بن علي بن يعقوب هي الرواية الوحيدة.التي توفر معلومة عن اسمه، وأن هذا القاضي قد حدثه أبو نصر سهل بن عبد الله البخاري قائلاً إنه ـ أي البخاري ـ «قدم علينا ببغداد» وحدّث بحديث عن رسوله الله ﷺ بسند أبي أمامة [تاريخ بغداد، ج. 9 ص 122]. ولعل رواية الخطيب البغدادي قد تساعد في تقريب المدة التي قدم فيها أبو نصر سهل البخاري إلى بغداد. وذلك أن ناسخ كتاب البخاري «سر السلسلة العلوية»، ذكر أن أبا نصر كان حيّا سنة (341هـ/ 952م)، لكن تفكيك رواية الخطيب البغدادي تقدم معلومة توضيحية أخرى؛ فالخطيب البغدادي كما هو واضح قد توفي سنة (463هـ/ 1070م) وأنه

أخذ الرواية عن أبي العلاء محمد بن علي، فمن هو أبو العلاء؟ فاعتمادا على المؤرخ البغدادي ابن الجوزي المتوفى سنة (597هـ / 1200م) الذي نقل عنه عدة روايات عبر سلسلة سند تتضمن في الغالب ثلاثة رجال هم: عبد الرحمن بن محمد، وأحمد بن علي بن ثابت، ثم القاضي أبو العلاء محمد بن علي الواسطي؛ بمعنى أنه ربما يفصله عن حقبة ابن الجوزي مائة سنة تقريباً. ويؤكد هذا التقدير رواية ذكرها ابن الجوزي سلسلة سندها كالآتي: أخبرنا القزاز أخبرنا الخطيب قال حدثني القاضي أبو العلاء الواسطي [ابن الجوزي، المنتظم، ج. 8 ص 26] أي أنه قد يكون معاصراً لزمن الخطيب البغدادي استناداً إلى تعبير «حدثني». والواقع أن العلامة ابن الجوزي يترجم حياة أبي العلاء فيضعه ممن توفاهم الأجل في سنة (431هـ / 1039م) وأنه محمد بن علي بن أحمد بن يعقوب أبو العلاء الواسطي أصله من بلدة فم الصلح ونشأ بواسط وحفظ القرآن الكريم وقرأ على شيوخ واسط ثم قدم بغداد ثم رحل إلى الكوفة والدينور ثم عاد إلى بغداد فاستوطنها، وعين قاضيا في محلة حريم دار الخلافة في بغداد الشرقية، صار بعدها قاضيا في مدينة الكوفة وغيرها من مدن الفرات الأوسط.

عندئذ، واعتماداً على السرد التاريخي السابق، بالإمكان القول إن أبا نصر البخاري كان حيا أيضا في حوالي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر للميلاد. وفي كلتا الحالتين سواء كان حيا في سنة 341هـ أو ظل كذلك سنة 431هـ فإنه كان يقطن بغداد أيام السيطرة البويهية التي امتدت حتى سنة 447هـ / 1055م. إن هذا التحديد الزماني لعالمنا ربما يقودنا إلى أمر آخر هو أنه ربما قصد بالوزير الذي أهدى إليه كتابه «سر السلسلة العلوية» - كما أشار في مقدمته أنه أهداه إلى الوزير الرفيع [سر السلسلة، 1] - أبي غالب وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة المعروف بفخر الملك، وهو من أهالي واسط وتسنّم منصب الوزارة وصار نائبا لبهاء الدولة في حكم بغداد.

ووصف فخر الملك بأنه كان كثير الصلاة والصلات وأجرى على الفقهاء ما بين بغداد وشيراز الإعانات والمشاهرات. كما أنه كان ميالا إلى الأنساب ومعرفة الأنساب العلوية. فوصفه الأستاذ كبير Kabir بأنه كان وزيراً ناجحاً، يميل إلى الشيعة في بغداد، دؤوباً على زيارة مقابر قريش (الكاظمين) في بغداد وأضرحة الأئمة في الكوفة وكربلاء، وكان كريما مع المؤذنين والخطباء. وقد قتله سلطان الدولة بن بهاء الدولة سنة 407هـ / 1016م، أي أن أبا نصر البخاري قد أهدى كتابه إلى الوزير في المدة بين سنة 401هـ / 1009م سنة تولية فخر الملك الوزارة وسنة 407هـ سنة مقتله [ابن الجوزي، المنتظم، ج. 7/ 286].

والكتاب الذي ألفه أبو نصر البخاري، وهو «سر السلسة العلوية»، قد ورد برواية عالم لا نعرف عنه سوى اسمه الأول عبد الرحمن، ويحتمل أن يكون هو نفسه عبد الرحمن بن محمد الذي أخذ ابن الجوزي عنه مروياته عن القاضي أبي العلاء الواسطي.

ومنهج البخاري في كتابة «الأنساب» كما يتضح في كتابه يختلف بوضوح عن منهج بحث العلامة النسابة جمال الدين بن عنبة الحسني المتوفى سنة 828هـ / 1424م مؤلف كتاب

«عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب».
فقد دأب أبو نصر البخاري على استخدام تعبيرين في كتابه «سر السلسة العلوية» أولهما «قال» وهو تعبير يهدف منه إعطاء معلومة تاريخية مهمة عن النسب الذي يتحدث عنه، فمثلا عند حديثه عن أولاد أبي طالب يقول «قال» فكل عقيلي في الدنيا ليس من ولد محمد بن عقيل بن أبي طالب فهو مدّع إذ لم يبق لعقيل نسل إلا من ولده محمد بن عقيل.
أما التعبير الثاني فهو «سر» ويذكر فيه معلومات نسبية خاصة كأن يقول: ـ أعقب الحسن بن علي رضي الله عنه ثلاثة عشر ذكرا وست بنات والعقب منهم لاثنين لا غير [سر السلسلة العلوية، ص 4]. ويؤدي تعبير «سر» أحيانا دورا في عرض مادة تاريخية كأن يقول «سر» بأن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان مع عمه الحسين في كربلاء سنة إحدى وستين، وحمل من المعركة جريحاً [سر السلسة، ص 5]. والواضح أن أبا نصر البخاري في اتباع هذه المنهجية يقدم أدلة وآراء قاطعة تدل دلالة أكيدة على مقدرته وتمكنه في علم الأنساب، فمثلا يقول [ص 50] «قال» ومن يطعن في الأرقط ـ وهو المعروف بالباهر ـ فلا يطعن من حيث النسب والعقب، وإنما يطعن لشيء جرى بينه وبين الصادق.
اعتمد أبو نصر البخاري على مصادر أصيلة في الأنساب والطبقات، وقد ذكرهم على صفحة 89 من كتابه وهم: ـ النسابة البصري أبو اليقظان سحيم بن حفص، وعلي بن مجاهد الكابلي، ومحمد بن عمر الواقدي، والمدائني، وهشام بن محمد الكلبي، والشرقي بن القطامي، والهيثم بن عدي، ومحمد بن حبيب، والزبير بن بكار، وعبد الله بن سليم، والطبري، وحمزة الأصفهاني وأحمد بن يحيى ثعلب، والشريف يحيى بن الحسن الاصغر، وعيسى بن عبد الله بن عمر العلوي، والناصر الحسن بن علي، وأبو القاسم بن خرداذبه. وهؤلاء يمثلون علماء الأنساب والتاريخ في القرنين الثالث وبداية القرنين الرابع للهجرة. والغريب أن أبا نصر لم يذكر في قائمته كتاب البلاذري أنساب الأشراف، أو طبقات محمد بن سعد البصري تلميذ الواقدي. كذلك لم يذكر كتب أنساب القرنين الرابع والخامس الهجريين ما خلا كتاب النسابة العمري علي بن محمد بن علي عالم الأنساب العلوية الذي كان موجوداً في بغداد عام 425هـ / 1033م، وقد اجتمع بالشريفين المرتضى والرضي. إذ اعتمد أبو نصر البخاري على العمري في مناسبات كثيرة، الأمر الذي يوحي بأنه كان معاصراً له، فالعمري كان حياً سنة 443هـ/ 1051م وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه.
وأهمية كتاب سر السلسة العلوية تكمن في أنه أضحى مصدراً مهما لمؤلفات الأنساب العلوية التي جاءت بعد حقبة أبي نصر، ومن بين أهم هذه الكتب كتاب «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب» لابن عنبه الذي رجع كثيراً إلى كتاب أبي نصر البخاري، وبنى على معلوماته التي تمتّ إلى منتصف القرن الخامس الهجري أساسا ليستمر بمواصلتها حتى القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر للميلاد. كما اعتمد على كتاب «سر السلسة العلوية» النسابة الحسيني علي بن الحسن بن شدقم المتوفى سنة 1033هـ / 1621م مؤلف كتاب «زهرة المقول في نسب ثاني فرعي

الرسول» المطبوع في النجف الأشرف/ المطبعة الحيدرية سنة 1961.

آثاره

- سر السلسلة العلوية، كتاب صغير لا يتجاوز المطبوع من طبعة النجف 1963 سوى مائة صفحة، حققه العلامة محمد صادق بحر العلوم.

المصادر والمراجع

● ابن دريد، الاشتقاق، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بمصر، 552؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد مدينة السلام، بيروت، دار الكتاب العربي، 9/ 122؛ ● ابن الجوزي، عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة أولى، حيدر آباد ـ الهند 1358هـ، ص 7، 58، 102، 107، 108، 127، 131، 139، 207، 280؛ 8/ 107 [ترجمة حياة أبي العلاء محمد بن علي]؛ ● ابن عنبه، جمال الدين أحمد بن علي، عمدة الطالب في أنساب آل ابي طالب، مطبعة الحيدرية، النجف 1381هـ/ 1961، ص 71، 96، 103، 104، 106، 233، 261، 313، 339، 353، 354، 356، 359، 363؛ ● ابن شدقم، علي بن الحسن، زهرة القول في نسب ثاني فرعي الرسول، طبعة أولى، النجف الأشرف 1961، 75؛ ● كمونه، عبد الرزاق، منية الراغبين في طبقات النسابين، مطبعة النعمان، النجف الأشرف 1382/ 1972، 205 ـ 206.

● Kabir, M., The Buwayhid Dynasty of Baghadad (Calcutta 1964) pp. 87-88.

د. عبد الجبار ناجي
بيت الحكمة ـ بغداد

ابن بختيشوع، بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع



(ت 265هـ/ 869م)

هو ابن جبرائيل بن بختيشوع وحفيد بختيشوع بن جرجيس، خلافا لما ذكره كمال السامرائي في كتابه [مختصر تاريخ الطب 1/ 343]. لم تزودنا المصادر بتاريخ ميلاده. خدم عدة خلفاء عباسيين هم المأمون، والمتوكل، والمستعين، والمعتز، والمهتدي.

وصل إلى سدة الخليفة المأمون في عام 213 هـ / 828م عندما أرسله أبوه جبرائيل لمرافقة المأمون في رحلته إلى بلاد الروم، وبعد وفاة جبرائيل صار بختيشوع طبيب المأمون الخاص وظلّ ملازما له حتى وفاته.

وعند وصول المعتصم إلى الخلافة (حكم بين

218هـ / 833م ـ 227هـ / 841م)، اختار سلمويه بن بنان طبيبا له [طبقات الأطبّاء، 234]، لذلك لم تصلنا أخبار بختيشوع في تلك الفترة. وعندما جاء الواثق (حكم بين 227هـ / 841م ـ 232هـ / 846 م). وقد كان شغوفا بمجالسة العلماء والأطبّاء فقرّب بختيشوع إليه.

امتاز بختيشوع بثرائه وبرّه وإحسانه إضافة إلى قربه من الخليفة، فحسده على ذلك كل من الوزير محمد بن عبد الملك الزيات، وابن أبي داود، وأوغرا صدر الواثق عليه، فقبض على أمواله وصادر أملاكه ونفاه إلى جنديسابور في عام 230هـ / 844م. وبعد عامين مرض الواثق فأرسل من يحضر له بختيشوع لكنّه مات قبل وصوله.

ولما تولّى المتوكّل الحكم بين 233/ 847م ـ 247هـ / 861 م، وصل بختيشوع إلى مرتبة عالية من المروءة والثراء ومباراة الخليفة في اللباس والبذخ ما جعل المتوكّل يستعظم ذلك، ويقبض على أملاك بختيشوع، ويرسله إلى بغداد. ولمّا اعتل أعاد بختيشوع لمعالجته. وبعد مدّة نكب المتوكّل بختيشوع مرّة أخرى ونفاه إلى البصرة [طبقات الأطبّاء، 202]، بسبب حيلة من المنتصر، ابن المتوكّل رغم أنّ بختيشوع تمتّع بمكانة عالية لدى المتوكّل لما تميّز به من ظرف ودماثة وذكاء مهني، إلاّ أنّ ذلك لم يحمه من نزوات المتوكّل ومزاجه المتقلّب.

ولما استخلف المستعين بالله الذي حكم بين 248هـ / 862م ـ 251 هـ 865 م، استدعى بختيشوع من البصرة إلى سامراء ليكون طبيبه وأحسن إليه كثيرا. ثمّ خدم بختيشوع من بعده الخليفتين المعتزّ بالله، والمهتدي بالله (ت265هـ/ 869م).

وكان مقرّبا جدّا إلى المهتدي وامتاز بحبّه وإخلاصه له. خلّف بختيشوع عبيد الله ولده وثلاث بنات. وتوفّي عام 265 هـ / 869م.

يعتبر بختيشوع من أصحاب فرقة القياس في الطبّ. ففي مجال حفظ الصحة والطب الوقائي اعتمد على مبدإ الاعتدال والتوازن بين طبائع الأغذية والأشربة التي يتم تناولها وصولا إلى تحقيق حالة مثلى للبدن متأتّية من تناسب الأخلاط الأربعة.

وفي مجال الطبّ العلاجي اعتمد على ممارسة الطرق التقليديّة من تعبير طبيعة الغذاء واستعمال المقيئات، والمسهّلات والمدرّات، وإجراء الفصد والحجامة. ويمكن القول إنّ اتجاهه الطبي كان «جالينوسيا» وازن فيه بين الطب النظري والطبي العملي، وكانت مراجعه الأساسيّة هي مؤلفات جالينوس التي ترجم له حنين بن إسحق (ت 264هـ/ 877م) عددا كبيرا منها إلى اللغتين السريانيّة والعربيّة.

مما ترجمه حنين إلى السريانية نذكر: كتابا في العلل والأعراض، وكتابا في الامتلاء (مقالة واحدة في كثرة الأخلاط)، ومقالة في تدبير الأمراض الحادة على رأي أبقراط، وكتاب التجربة الطبية، وكتابا في محنة أفضل الأطباء. كما ترجم إسحق بن حنين (ت 298هـ / 911م) كتبا أخرى لجالينوس إلى السريانية نذكر منها كتابا في مراتب قراءة كتب جالينوس، وكتاب أفكار اراستراتوس في مداواة الأمراض. وترجم له أيوب الرهاوي إلى السريانية كتابا في المرة السوداء لجالينوس.

ولأنّ أصحاب فرقة القياس في الطب

يعتمدون النظر في أحكام النجوم، فقد كان بختيشوع يؤمن بارتباط العلاج الطبي ببعض المبادئ التنجيمية، ويحتمل أن كانت له معرفة في رصد النجوم والكواكب. كما كان يعتمد على المنجمين اعتمادا «خاصا» في حياته في مجال التنبؤ.

آثاره

1 ـ رسالته التي عملها للمأمون في تدبير البدن جوابا عن كتابه يسأله عن ذلك، مخطوط في مكتبة حالت افندي، استنبول برقم 401/ 2، (من الصفحة 90أ ـ 91أ)، نسخ في القرن 14هـ؛ 2 ـ نصائح الرهبان في الأدوية المركبة، مخطوط في مكتبة تيمور ـ القاهرة، ضمن مجموع طب رقم 72، الصفحة 6 ب حتّى 182 ب، نسخ في القرن 11 هـ؛ 3 ـ مختصر بحسب الامكان في علم الأزمان والأبدان، مخطوط في مكتبة امبروزيانا ـ ميلانو، رقم 36 ش، الصفحة 305 ـ 306؛ 4 ـ رسالة فيها نكت «من مخفيّات الرموز في الطب»، مخطوط في مكتبة سناء ـ طهران، برقم 60/ 3190؛ 5 ـ نبذة في الطب، في امبروزيانا ـ ميلانو 36 (من الصفحة 301 ـ 304 ب)؛ 6 ـ وذكر له ابن أبي أصيبعة كتابا «وحيدا» هو «الحجامة على طريقة المسألة والجواب»، يعتبر من المفقودات.

المصادر والمراجع

1 ـ المصادر المطبوعة:

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1965؛ ● ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد سيد، مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقيّة. القاهرة 1326هـ/ 1955م؛ ● ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس الملطي، مختصر تاريخ الدول، تح. الأب أنطون صالحاني، المطبعة الكاثوليكية، ط2، بيروت 1956؛ ● ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت 1967؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى، بغداد، طبعة استنبول 1955؛ ● جالينوس، فرق الطب للمتعلمين، نقل أبي زيد حنين بن اسحق العبادي، تح. محمد سليم سالم، منتخبات الاسكندرانيين 1، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، القاهرة 1977؛ ● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي بيروت 1399هـ/ 1979 م؛ ● الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، الحاوي في الطب، جمعية دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الركن، الهند 1955؛ ● السيوطي، الإمام جلال الدين، تاريخ الخلفاء، تح. إبراهيم صالح، دار صادر بيروت 1417هـ/ 1997م؛ ● صاعد الأندلسي، أبو القاسم، طبقات الأمم، تح. حياة بوعلوان، دار الطليعة، ط1، بيروت 1985؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، باعتناء جاكلين سوبله وعلي عمارة، دار صادر، ط2، بيروت 1411هـ/ 1990 م؛ ● القفطي، جمال الدين أبو الحسن

علي بن القاضي الأشرف يوسف، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبي، القاهرة 1326هـ / 1908م؛ ● النديم، محمد بن إسحق أبو الفرج، الفهرست، دار المعرفة، بيروت 1398هـ / 1978م.

2 ـ المراجع والمجلات العربيّة:

● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة يعقوب بكر، رمضان عبد التواب، دار المعارف، مصر 1975؛ ● البستاني، بطرس، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، الجزء الخامس 1882؛ ● حبي، يوسف، مقال بعنوان: الفلسفة السريانية، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، مج. 8 عام 1984؛ ● حبي، يوسف، مقال بعنوان: تراث السريانية العلمي، مجلة المجمع العلمي العراق، بغداد، مج. 10 عام 1986؛ ● السامرائي، كمال، مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال، ط1، بيروت. 1409هـ/ 1989م؛ ● السامرائي، كمال، مقال بعنوان: آل بختيشوع، مجلة المجمع العلمي العراقي بغداد، مج. 7 عام 1983؛ ● سباط، بولس، الفهرس، القاهرة 1938 ـ 1940؛ ● شيخو، لويس، علماء النصرانية في الإسلام، سلسلة التراث العربي المسيحي 5، تح. الأب كميل حشيمة اليسوعي، المكتبة البولسية، جونيه، لبنان 1983؛ ● شيخو، لويس، المخطوطات العربية لكتبة النصرانية، دار المشرق، ط2، بيروت 2000؛ ● عواد، ميخائيل، مقال بعنوان: حنين بن إسحق، مجلة بين النهرين، بغداد، السنة الأولى 1974، العدد 4؛ ● غنيمة، يوسف، مقال بعنوان: بختيشوع الطبيب النسطوري وأسرته، مجلة المشرق، بيروت، السنة الثامنة، عام 1905، ص1097 ـ 1105؛ ● مايرهوف، ماكس، بحث بعنوان: من الإسكندرية إلى بغداد، في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين ألّف بينها وترجمها عبد الرحمن بدوي، ط4، دار القلم، بيروت 1980؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة، كتاب الشعب، النسخة العربيّة، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشناوي، عبد الحميد يونس، مج. 6 عام 1969؛ ● قاموس سرياني عربي، Louis Cosatz s.j.، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت 1986.

ج ـ المراجع الأجنبيّة:

● Asse mani, bibliotheca orientalis, 4 Vol., Roma, 1719 - 1728; ● Graf, G., Geschichte der christlichen. Arabischen Literatur, 5bd, Citta Del Vaticano 1944 - 1953; ● Leclerc, L., Histoire de la médecine Arabe, 2 vol., Paris. 1976; ● Sezgin, F., Geschichte des Arabischen SchriFttums, Leiden, BD III, 1967 - 1970; ●The Encyclopaedia Of Islam, Vol I. Leiden E. J. Brill, London Luzac e co 1960.

د. ريتا خباز
طبيبة ـ حلب ـ سوريا

ابن بختيشوع، بختيشوع بن جرجيس بن جبريل

(ت 185هـ/ 801م)

هو بختيشوع بن جرجيس بن جبرائيل بن بختيشوع، لم تخبرنا المصادر عن تاريخ ميلاده؛ خدم الخليفتين المهدي والرشيد. عاش في جنديسابور، ودرس الطب على أبيه، واستخلف مكانه في رئاسة بيمارستان جنديسابور حين غادر جرجيس إلى بغداد تلبية لأمر المنصور.

يتقن السريانيّة، والفارسيّة، والعربيّة، وربّما اليونانيّة. استدعاه الخليفة المهدي (حكم بين 158 ـ 169هـ / 774 ـ 785 م) لمعالجة ابنه موسى الهادي غير أنّ الخيزران (أمّ الهادي) عزّ عليها أنّه استدعى بختيشوع ولم يستطب أبا قريش عيسى الذي كان طبيبا أثيرا لديها، فأخذا معا في إظهار الضغينة والحسد لبختيشوع ممّا اضطر المهدي لإعادته مكرما إلى جنديسابور [القفطي، أخبار، 71].

ولمّا تولّى الخلافة موسى الهادي (بين 169 ـ 170هـ / 785 ـ 786 م) أصابه مرضه الأخير وعجز أطباؤه عن شفائه، فغضب عليهم الهادي، وكان قد أرسل إلى جنديسابور من يحضر له بختيشوع، فاقترح له الربيع طبيبا آخر وصف أنّه ماهر هو عبد يشوع بن نصر من نهر صرصر فأمر بإحضاره وبقتل جميع أطبّائه.

اكتفى الربيع بإحضار عبد يشوع له، وتوفّي الهادي بعد وصول عبد يشوع بتسع ساعات، وقبل قدوم بختيشوع [ابن أبي أصيبعة، عيون، 186].

وبعد عام واحد (171 هـ/ 787م) جاء بختيشوع إلى بغداد بطلب من الخليفة هارون الرشيد (حكم بين 170 ـ 193هـ / 786 ـ 809 م)، وعندما لاقاه تمثّل طريقة أبيه ـ جرجيس ـ في التحيّة وحسن المنطق والحديث. ويبدو أنّه كان معروفا بدراسته الفلسفة، رغم الإشارات التاريخيّة القليلة لذلك، نذكر منها: أنّ الرّشيد طلب من مستشاره يحيى بن خالد البرمكي، باعتبار أنّ الأخير عارف بالمنطق، أن يحاور بختيشوع؛ فدعا يحيى الأطبّاء أيضا، وقال أبو قريش عيسى: «ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا، لأنه كوّن الكلام هو وأبوه وجنسه فلاسفة؛ ثم امتحنه الرشيد في مجال فحص البول ليطمئن إلى علمه بالطب، فازداد إعجابا به، ونصّبه رئيسا للأطبّاء، وأوصاهم بطاعته، ووهبه مالا وافرا.

ومن المرجّح أنّ بختيشوع كان قد أحضر معه ابنه جبرائيل عند قدومه الأخير إلى بغداد، فأصبح من بعده طبيبا للرّشيد. لم تحدّد كتب التراجم تاريخ وفاة بختيشوع ممّا جعله مثار اختلاف، فقد ذكر إسماعيل باشا البغدادي أنّه توفّي في حدود 175هـ / 791م [هديّة العارفين، 1/ 230]. وهو في رأينا تاريخ مبكّر لوفاته، ذلك أنّه كان طبيبا للرشيد في

هذه السنة؛ وقدّم فيها ابنه جبرائيل كي يكون طبيبا لجعفر بن يحيى بن خالد بن برمك [ابن أبي أصيبعة، عيون، 188]، بينما ذكر الصفدي أنّ وفاة بختيشوع كانت عام 190 هـ/ 805م، وينقل عن غيره أنّ بختيشوع مات بعد الرشيد، وفي رأيه أنّ هذا صحيح [الصفدي، الوافي بالوفيّات، 10/ 809]. ووجدنا أنّ ذلك مستبعد لأنّ جبرائيل ابنه قد كان خدم الرشيد ثلاثا وعشرين سنة حسب رواية ابن أبي أصيبعة دون أن تتضمّن روايته أيّة إشارة إلى وجود بختيشوع، ونميل إلى أنّه توفّي حوالي 185هـ / 801م [حسب ما أثبته سزكين، 3/ 210]

ولقد أثارت ترجمة حياة بختيشوع بن جرجيس بعض اللغط والالتباس في المراجع، ومضمون ذلك ما نسبه البعض خطأ إلى بختيشوع من أنّ دواءه تسبّب في قتل الخليفة الهادي، ومنهم من غالوا في تحليلاتهم فاتّهموا بختيشوع بقتل الهادي بالسمّ [بطرس البستاني، دائرة المعارف، 5/ 234]. ويبدو أنّ التّشابه في المعنى بين اسم بختيشوع بن جرجيس واسم الطبيب الذي أحضره الربيع وهو يشوع بن نصر جعل الأمر يختلط لدى بعض الباحثين، فاعتقدوا أنّ موت الهادي حدث بعد قدوم بختيشوع إليه، إلاّ أنّ القراءة المتأنّية لترجمة ابن أبي أصيبعة التي نقلها عن فثيون الترجمان تنفي بوضوح هذا الاتّهام يقول فيها:

«لما مرض موسى الهادي أرسل إلى جنديسابور من يحضر له بختيشوع فمات قبل قدوم بختيشوع» . ولقد أخطأت كذلك بعض المصادر في ترجماتها لبختيشوع، ونعني بها كتب كلّ من النديم، وابن جلجل، وصاعد الأندلسي. فقد أخطأ النديم في [الفهرست، 412] عندما خلط بين شخصيتين هما: بختيشوع بن جرجيس وحفيده بختيشوع بن جبرائيل، واحتوت ترجمة ابن جلجل [طبقات الأطباء والحكماء، / 63] أخطاء تاريخيّة. منها أنّ بختيشوع عاش في أيّام العبّاس، ونقل صاعد الأندلسي [طبقات الأمم، 101] عن ابن جلجل أخطاءه. بينما نقل القفطي عن كلّ من ابن جلجل والنديم مصححا أخطاءهما، ولذلك فالترجمة الصحيحة لبختيشوع بن جرجيس يمكن استخلاصها من روايتي القفطي وابن أبي أصيبعة معا.

سار بختيشوع على خطى أبيه، ودرس الطبّ عليه في بيمارستان جنديسابور، ثمّ تولّى إدارته.

وجدير بالذكر أنّ مدرسة جنديسابور الطبيّة ازدهرت ازدهارا ملفتا بين القرنين الخامس والثامن الميلاديّين بفضل العلماء النساطرة، وكان الطبّ يدرّس فيها نظريا اعتمادا على ترجمات علماء مدرسة الإسكندريّة لمؤلّفات جالينوس، وعمليا من خلال ممارسته في البيمارستان [مايرهوف، من الإسكندريّة إلى بغداد، 56].

هذا المستوى النوعي في الدراسة يؤهّلنا للحكم لمكانة بختيشوع العلميّة بالتقدّم والتميّز، وإن كان هذا الحكم من باب المصادرة فعذرنا في ذلك أنّ السيرة المقتضبة لترجمة بختيشوع في كتب المصادر بالإضافة إلى فقدان مؤلّفاته، أدّيا إلى صعوبة تقييم فلسفته الطبيّة وآرائه العلميّة.

والإشارة الوحيدة التي نجدها هي قراءته للتفسرة أي معرفته بأنّ قارورة البول التي امتحنه بها الرشيد هي بول دابّة. ومعلوم أنّ

فحص البول كان من الوسائل التشخيصيّة الهامّة في مجال الطبّ العملي، ومقياس أساسي لمهارة الطبيب. ومن خلال دراسة المقاطع الواردة في كتاب «الحاوي» نقلا عن بختيشوع تبين لنا أنّ الرازي استفاد منه في مجال الطبّ العمليّ، وفي المعالجات والوصفات الدوائيّة تحديدا. كما يضاف إلى مكانة بختيشوع في الطبّ أخلاقه المسلكيّة العالية، فقد نقل ابن أبي أصيبعة عن فثيون الترجمان قوله: «إنّ جنس جورجس وولده كانوا أجمل أهل زمانهم بما خصّهم الله من شرف النفوس، ونبل الهمم، ومن البرّ والمعروف، والأفضال والصدقات، وتفقّد المرضى من الفقراء والمساكين، والأخذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على ما يتجاوز الحد في الصفة والشرح» [ابن أبي أصيبعة، عيون، 198].

آثاره

ذكر له ابن أبي أصيبعة كتابين:

1 ـ كنّاش مختصر، نقل عنه الرازي في كتابه «الحاوي»، وسبق نقولاته باسم بختيشوع؛

2 ـ كتاب التذكرة. ألّفه لابنه جبرائيل.

3 ـ وذكر له ابن جلجل كتابا في الزينة [طبقات، 64]. وتعتبر كتبه من المفقودات.

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، 413؛ ● ابن جلجل، طبقات الأطبّاء والحكماء، 63؛ ● القفطي، أخبار العلماء، 93؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون، بيروت (د.ت)، منشورات دار مكتبة الحياة، 186 ـ 188؛ ● لوكلير (L. Leclerc)، تاريخ الطب العربي 1/ 98؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، مج 3، 210 ـ 211؛ ● لويس شيخو، علماء النصرانية في الإسلام، 119؛ ● كمال السامرّائي، آل بختيشوع، 1/ 337.

د. ريتا خبّاز

طبيبة ـ حلب ـ سوريا

ابن بختيشوع، جبرائيل بن بختيشوع بن جرجيس

(ت 215هـ/830م)

هو حفيد جرجيس من ابنه بختيشوع، ولد وعاش في جنديسابور، ودرس الطبّ في بيمارستانها، لم تخبرنا المصادر عن تاريخ ميلاده. خدم الخلفاء الرشيد، والأمين، والمأمون.

وأوّل ما عُرف طبيبا في عام 175هـ / 791م، عندما طلب الرشيد من طبيبه بختيشوع بن جرجيس أن يعالج مرض جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، فمن آداب الطبيب في تلك الفترة أنّه إذا كان خاصّا بالخليفة وجب ألاّ

يخدم أحدا من حاشيته إلاّ بأمره [القفطي، أخبار، 93 ـ 94]. وبعد أن شفي جعفر، قدّم له بختيشوع ابنه جبرائيل ليكون طبيبا له، واصفا إيّاه بأنّه أمهر منه. أحبّه جعفر حبّا شديدا، ثم قدّمه للرّشيد كي يعالج جارية له كانت قد شلّت ذراعها. فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفة لا تخلو من البراعة الطبّية، وذلك بعد أن أخفق جميع الأطبّاء في معالجتها. فأعجب به الرشيد، وأكرمه بالمال، وجعله رئيسا على جميع الأطبّاء. وكانت حظوة جبرائيل ومكانته لدى الرشيد تزداد علوّا حتّى أنّه دعا له عندما كان حاجّا بمكة دعاء كثيرا واعتبر أنّ صلاح المسلمين بصلاحه، وقد أنشأ جبرائيل بيمارستانا في بغداد ـ بأمر من الرشيد ـ كان فيه مقلّدا لبيمارستان جنديسابور [القفطي، أخبار، 250].

خدم جبرائيل الرشيد ثلاثا وعشرين سنة، كان خلالها يعتني بأكله وشرابه وصحّته ومزاجه، وخدم البرامكة ثلاث عشرة سنة إلاّ أنّه آخر أيّام الرشيد عندما اشتدّ عليه المرض وكان في «طوس» بفارس لم يستطع جبرائيل أن يبرّئه فأمر بحبسه، ثم بقتله، لكنّ الفضل بن الربيع كان يحبّ جبرائيل فامتنع عن تنفيذ الأمر، ومات الرشيد بعد أيام قليلة، وتولّى الخلافة ابنه الأمين (حكم بين 193هـ/ 198م ـ 809هـ ـ 813 م) فقرّب جبرائيل إليه، وأكرمه، وعمل بنصائحه الطبّية.

ولمّا تولّى الخلافة المأمون (حكم بين 198هـ ـ 813م/ 218هـ ـ 833م) سجن جبرائيل لقربه من أخيه الأمين، وفي عام 202هـ / 817م مرض الوالي الحسن بن سهل فأخرج جبرائيل من السجن لمعالجته، ثم أخبر المأمون خبر علّته وبرئه على يد جبرائيل فصفح عنه المأمون. ولكن يبدو أنّه لم يكن صفحا كاملا. ففي عام 205هـ/ 820م عيّن ميخائيل ـ صهر جبرائيل ـ طبيبا له.

وعندما مرض المأمون عام 210هـ / 825 م، وفشل أطبّاؤه في معالجته، ذكّروه بجبرائيل الذي قام بتغيير تدبير العلاج، فشفي المأمون، وسرّ بطبيبه، وأكرمه زيادة على ما كان الرشيد يكرمه. ويبدو أنّ نقمة المأمون على جبرائيل كان مردّها إلى أسباب سياسيّة تتعلّق بالعداء المستحكم بين الأمين والمأمون الذي انعكس على جبرائيل بالسوء، لأنّه كان قد قدّم الولاء للأمين، بالإضافة إلى ما امتاز به جبرائيل من وفرة في المال والجاه والحظوة وما يستتبع ذلك من نفوذ في البلاط العبّاسي؛ إلاّ أنّ علمه بالطبّ، ومهارته في العلاج، وأخلاقه المهنيّة رفعت من مكانته وجعلت المأمون يغيّر منحى علاقته به، ويوجّهها لخدمة العلم. وجدير بالذكر أنّ ثروة جبرائيل الطائلة التي نالها جرّاء خدمته للخلفاء تعتبر حالا فريدة ربما لا نجد ما يماثلها حتى بين أطبّاء البلاط.

وتوفّي جبرائيل بعد عام 215هـ / 830م وقيل سنة 213هـ [الأعلام للزركلي، 2/ 111]، مخلّفا ابنه بختيشوع ليكون طبيبا للمأمون من بعده، وكانت جنازته مشهورة [القفطي، أخبار، 99]، بحسب استحقاقه بأفعاله الحسنة وخيره [ابن أبي أصيبعة، عيون، 198]. ودفن في دير مار سرجس بالمدائن، جنوبي بغداد.

عمل جبرائيل على دفع عمليّة ترجمة المؤلّفات اليونانيّة في الطبّ والفلسفة، فكان يكلّف المترجمين بترجمة كتب معيّنة. ويعتبر أوّل من

اكتشف براعة حنين بن اسحق (294هـ - 809م / 364هـ - 877 م) في الترجمة، إذ ترجم له حنين بعض مؤلّفات جالينوس، إلى السريانيّة وهو في حوالي السابعة عشرة من عمره، وكان جبرائيل يخاطبه بتبجيل واحترام، ويصفه بالمعلّم، وترجم له أيوب الرّهاوي أيضا بعض مؤلّفات جالينوس إلى السريانيّة.

اهتم بدراسة الفلسفة إلى جانب الطبّ، ووضع كتابا فيها هو «المدخل إلى صناعة المنطق»، وبحث عن كتاب البرهان لجالينوس، فتقاسم ترجمته له كلّ من أيوب الرهاوي وحنين بن إسحق، ويبدو إجلاله واحترامه لأستاذه جالينوس كملمح من ملامح نبل شخصيته.

كما يبدو أنّ جبرائيل كان من أصحاب فرقة القياس في الطب، يتجلّى ذلك في قوله عندما سئل عن سبب علّة جارية الرشيد التي شفاها وهذا من الحيلة في البرء، ولهذا قيل في كتاب امتحان الطبيب إنّه يجب أن يكون الطبيب متيقّظا ذكيّا، له قدرة على استعمال القياس، يستخرج الوجوه للعلاج من تلقاء نفسه [القفطي، أخبار / 94]. وهذا الاتّجاه الطبّي يستدعي الاهتمام بالظروف الخاصّة بكلّ مريض، أو كما هو سائد في التعليم الطبّي من أنّ الطبيب يتعامل مع مريض وليس مع مرض.

ونجد في سياق ترجمة القفطي لجبرائيل بن بختيشوع أنّه يصل في مدح أهل جنديسابور من الأطبّاء النساطرة إلى حدّ أنّهم استطاعوا هضم طبّ اليونان والهنود، وتكوين مدرسة طبّية خاصة بهم انتخبت الأفضل من كلّ فرقة، وأضافوا لها خبرتهم وملاحظاتهم، وصنّفوا دساتيرهم في العلاج في كتبهم. وارتكز الطبّ النظري لدى جبرائيل على المبدإ الأساس في الطبّ اليوناني، وهو أنّ التوازن بين العناصر الأربعة المكوّنة للبدن هو أساس صحّته، وارتكز الطبّ العمليّ على العمل بالمبدإ القائل إنّ الطبّ حفظ صحّة وبرء مرض؛ فكان الطب الوقائي عبارة عن مجموع نصائح، وقواعد صحيّة متعلّقة بالغذاء، والشراب، والنوم، والجماع، والاستفراغ...

بينما تضمّن الطبّ العلاجي إجراء عمليّات الفصد والحجامة، وإعطاء المسهلات، والمدرّات، والمقيئات، والوصفات الدوائيّة، مع الأخذ بعين الاعتبار مزاج المريض وعمره والبلد التي يقطنها من السنة ومواقع النجوم من الأبراج...

■ آثاره

1 - صفات نافعة كتبها للمأمون، مخ. في مكتبة كتّاني، الرباط برقم 190/ 2 الصفحتين 197 أ - 197 ب منسوخة في القرن 12 هـ؛ 2 - رسالة للمأمون في المطعم والمشرب، مخ. في مكتبة حكيم بحلب، سباط، الفهرس 1/ 8 رقم 10؛ 3 - كتاب في الباه، مخ. في مكتبة حكيم بحلب، سباط، الفهرس 1/ 8 رقم 11؛ 4 - مقالة في العين، مخ. في مكتبة الجرّاح بحلب، سباط، الفهرس 1/ 8 رقم 12؛ 5 - كتاب الورم في الخصى، ورد ذكره في الحاوي، 26؛ 6 - كنّاش في الطبّ، ورد ذكره في الحاوي، 27.

ويعتبر الكتابان الأخيران من المفقودات.

وذكر ابن أبي أصيبعة مؤلّفات أخرى له مفقودة أيضا، وهي:

1 - كتاب المدخل إلى صناعة المنطق؛

2 ـ رسالة مختصرة في الطبّ؛ 3 ـ كتاب في صنعة البخور ألّفه للمأمون.

وقد نسب إليه السمعاني خطأ معجما سريانيا ظنّه أنّه من وضع جبرائيل، وسبب هذا الخطأ هو ما ورد في فهرست عبد يشوع، ومفاده أنّ ابن البهلول كان قد استخرج مصطلحات طبّيّة من مؤلّفات جبرائيل، وصنّفها في هذا المعجم فظنّه السمعاني أنّه لجبرائيل [يوسف غنيمة، المشرق 8/ 1905، ص 1102].

المصادر والمراجع

● ابن جلجل، طبقات الحكماء والأطبّاء، 64؛ ● القفطي، أخبار العلماء، 93 ـ 94؛ ● ابن العبري، مختصر، 131 ـ 132، 144؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، 187 ـ 201؛ ● لوكلير (L. Leclerc)، تاريخ الطب العربي، 1/ 93؛ ● سزكين تاريخ التراث العربي، 3/ 226 ـ 227؛ ● السامرّائي كمال، آل بختيشوع، 1/ 338؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 2/ 111.

د. ريتا خبّاز
طبيبة ـ حلب ـ سوريا

ابن بختيشوع، جرجيس بن جبرائيل

(ت بعد عام 158هـ / 774 م)

هو طبيب ومترجم، عاش في مدينة جنديسابور، وتولّى رئاسة بيمارستانها وممارسة الطب والتدريس فيه. كان يحيط به عدد من التلاميذ مثل ابنه بختيشوع، وعيسى بن شهلاثا، وإبراهيم، وسرجسي، وعيسى بن صهار بخت. كان يتقن اللّغات اليونانيّة، والسريانيّة، والفارسيّة، والعربيّة. ويعتبر جرجيس أوّل طبيب عرف واشتهر من عائلة بختيشوع عندما قام أطباء الخليفة المنصور (حكم بين 135هـ ـ 752م / 159هـ ـ 775م) باختيار جرجيس من أجل معالجة الخليفة من داء أدركه في معدته، عجز أطباؤه عن شفائه؛ فكان أن أرسل المنصور من يحضر إليه جرجيس من جنديسابور في عام 148هـ / 765م. تمنّع جرجيس في البداية، ثم أذعن للأمر مكرها. وأخذ معه تلميذيه إبراهيم وعيسى بن شهلاثا، وترك أمر إدارة البيمارستان إلى ابنه بختيشوع.

ولما صار في حضرة الخليفة دعا إليه باللّغتين الفارسيّة والعربيّة، ودار بينهما حوار أعجب خلاله الخليفة المنصور بجرجيس، وبحسن حديثه ومنطقة؛ وعمل جرجيس على تدبير المنصور بالعلاج حتى شفي، فأكرمه المنصور، وأجزل في عطائه، وجعله طبيبه الخاص، وقد ازدادت مكانة جرجيس سموّا

لدى الخليفة لما وجده فيه من حكمة وأخلاق عالية جعلت المنصور يجيز لطبيبه معالجة حظاياه وحرمه. وبعد سنتين طلب المنصور من جرجيس أن يحضر ابنه بختيشوع إلى بغداد، فاعتذر جرجيس بسبب حاجة بيمارستان جنديسابور إلى ابنه، وقدّم تلميذه عيسى بن شهلاثا مادحا إيّاه؛ فاستحسنه الخليفة؛ إلاّ أنّ عيسى هذا لم يحفظ أخلاق أستاذه، فكان تلميذا سيئا.

وفي عام 152هـ / 769م ألمّ المرض الشديد بجرجيس، فطلب من المنصور أن يأذن له بالعودة إلى جنديسابور كي يدفن مع آبائه، فأذن له، ووصل بلده حيّا وتعافى؛ وبذلك يكون جرجيس قد مكث أربع سنوات في بغداد عمل خلالها على تدبير صحة المنصور ومعالجته، وترجمة بعض الكتب له من اليونانيّة إلى العربيّة.

ثم أعاد المنصور طلبه لجرجيس إثر حاجته لطبيب خاص بعد نفيه لعيسى بن شهلاثا، فاعتذر جرجيس عن العودة إلى بغداد لضعف بدنه، وأرسل إبراهيم تلميذه عوضا عنه؛ ورغم أن المصادر وكتب التراجم لم تنبئنا عن تاريخ ميلاد جرجيس ووفاته لكنّ الواضح أنّه توفّي في عمر الشيخوخة، يدعم ذلك أنّ زوجته كانت كبيرة السنّ عندما قدم بغداد فلم تستطع مرافقته. وقد حدّدت غالبيّة المراجع أنّ وفاته كانت في جنديسابور بعد عام 152هـ / 769م إلاّ أنّنا وجدنا في ترجمة عيسى أبي قريش في كتاب عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة أنّ جرجيس كان طبيبا للخليفة المهدي (حكم بين 158هـ - 774م / 169هـ - 785 م)، وبذلك نرجّح أن وفاته كانت بعد عام 158هـ / 774م.

كان جرجيس طبيبا «ماهرا» في زمنه، امتاز بخبرته في صناعة الطب ومعرفته بالمداواة وطرق العلاج، أضف إلى ذلك درايته النظريّة بطبّ اليونان. كان أستاذا في بيمارستان جنديسابور ورئيسا لأطبّائه؛ ومن الواضح أنّه كان طبيبا ذائع الصيت تجاوزت شهرته حدود منطقته حتى شهد له أطبّاء بغداد بمهارته وتميّزه، وبأنّه الأفضل بين أطبّاء عصره، ورشّحوه لمعالجة الخليفة المنصور. ويعتبر جرجيس أوّل من ابتدأ بنقل الكتب الطبيّة اليونانيّة إلى اللّغة العربيّة، فكان عصره بداية وصول الطبّ اليوناني إلى العرب مع بداية حركة الترجمة والنقل. ونظرا إلى علاقته الوطيدة بالخليفة، ومحبّة المنصور له وإعجابه به، فقد يكون جرجيس هو باعث اهتمام المنصور بالعلوم والطبّ بشكل خاص، وبالترجمة من اليونانيّة الى العربيّة، ويعلّق لوكلير - المستشرق الفرنسي - في كتابه «تاريخ الطب العربي» على مجيء جرجيس إلى بغداد بأنّه كان حدثا «هاما» أولى فيه إلى آل بختيشوع العناية بصحة الخلفاء العبّاسيين على مدى أربعة قرون. «ولم تقف شهرة جرجيس على مهارته في الطبّ فقط وارتباطه بالمستشفى وما عنده من التلاميذ، بل باعتباره باعث الحركة العلميّة في الشرق». وضع جرجيس ثلاثة مؤلّفات ضمّنها خلاصة علمه، اعتمد في القسم النظري منها على ما استقاه من دراسته للمصادر الطبيّة اليونانيّة وجوامع الإسكندرانيين لمؤلّفات جالينوس (ت 201م) التي كانت تعتبر الأساس النظري لمدرسة الطبّ في جنديسابور، بالإضافة إلى ملاحظاته الخاصة حول العلم بأسباب الأمراض وعلاماتها.

بينما احتوى القسم العملي من مؤلّفات جرجيس على مجرّباته في العلاج وأنواع الأدوية والوصفات الخاصة بكل مرض.

وصارت مؤلّفاته مرجعا «معتمدا» لكتب الطب العربيّة اللاحقة، ويضاف إلى كلّ ذلك أنّه نبغ في مرحلة تأسيسيّة من مراحل نضج الطبّ العربي، وهي بداية مرحلة الترجمة والنقل، فكان جرجيس من روّادها الأوائل.

آثاره

1 ـ الكنّاش، هو الكتاب الوحيد لجرجيس الذي ذكرته المصادر وكان شهيرا به. وضعه باللّغة السريانيّة، وشرحه تلميذه عيسى بن صهار بخت، وترجمه حنين بن إسحق (ت 264هـ / 877 م) إلى العربيّة [ابن النديم، الفهرست، 412]، وهو أوّل الكتب الطبيّة التي ترجمت في بغداد إلى العربيّة، توجد منه نسختان: الأولى في مكتبة الجرّاح بحلب (سباط، الفهرس 1/ 44 برقم 335)، والثانية في إيران ـ مشهد، برقم 16/ 26، 79.

ويعتبر الكنّاش من مصادر الرازي (ت 313هـ / 925 م) الرئيسيّة في موسوعته «الحاوي»، وكان يشير إلى المقاطع التي اقتبسها منه بأن يسبقها بكلمة «جورجس»؛ 2 ـ كتاب الأخلاط، ذكره الرازي في كتابه «الحاوي»؛ 3 ـ كتاب الديابيطا، ورد ذكره في «الحاوي» أيضا وفيه يوصي المصابين بهذا المرض بتناول الأطعمة المرطبة والمبردة، ودخول الحمام وتمريخ الجسم بالسمن، واستعمال الحقن المبردة.

وكانت هذه التوصيات محور ما كتبه كبار الأطبّاء كابن سينا وابن هبل البغدادي وغيرهما في علاج هذا المرض.

ولم يرد ذكر كتابي «الأخلاط» و«الديابيطا» في المصادر التي ترجمت لجرجيس وإنّما جاء ذكرهما في الحاوي فقط. ويعتبران من المفقودات. وربما يكون جرجيس قد وضعهما بالسريانيّة أيضا ثم ترجما من بعده.

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، 412؛ ● القفطي، أخبار العلماء، 164؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، بيروت، دار مكتبة الحياة، 183 ـ 186، 279؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 4/ 261؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، 3/ 209؛ ● كمال السامرّائي، مختصر تاريخ الطب العربي، 1/ 336.

د. ريتا خناز
طبيبة ـ حلب ـ سوريا

ابن بختيشوع، أبو سعيد عبيد الله بن جبرئيل

(ت 451 هـ/ 1059م)

أبو سعيد عبيد الله بن جبرئيل بن عبيد الله بن بختيشوع، طبيب، باحث، مؤرخ طبي، جيد المعرفة بعلم النصارى ومذاهبهم.

ينحدر من عائلة سريانية مشهورة، احترفت الطب كابرا عن كابر، فجده الأعلى جرجيس بن جبرائيل كان طبيب الخليفة أبي جعفر المنصور (ت 158هـ / 775 م)، ومعنى بختيشوع بالسريانية عبد المسيح، وقد توارثت عائلة بختيشوع الطب وانحدرت من مدينة جنديسابور.

ولد عبيد الله بن جبرائيل ونشأ في بغداد، في الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري، وكانت بغداد في ذلك العصر تشتهر بوجود العديد من كبار الأطباء والفلاسفة مثل أبي الفرج عبد الله بن الطيب (ت 435هـ / 1043 م) ونذكر البيمارستان (العضدي) الذي افتتح في صفر سنة 372هـ من قبل عضد الدولة المتوفى في نفس العام، واجتمع فيه أربعة وعشرون طبيبا [عيسى، 189]، يؤدون خدماتهم الطبية لعامة الشعب كما هو معروف، بالإضافة إلى دوره التعليمي الطبي.

درس عبيد الله بن جبرئيل الطب والفلسفة، حتى أصبح طبيبا مشهورا، وعاش أبوه الطبيب المشهور جبرئيل بن عبيد الله، متنقلا ما بين مدن العراق وإيران، لخدمة الأمراء والوجهاء، حتى استقر أخيرا في مدينة ميافارقين بطلب من أميرها ممهد الدولة وتوفي فيها عام 396هـ / 1006م [عيون، 214] وبقي ولده عبيد الله مقيما في مدينة ميافارقين ولم يغادرها أبدا، حتى وفاته، وفي تحديد عام وفاته بعض الاختلاف واللبس ما بين عام 450هـ [إيضاح المكنون، 4/ 81؛ حاجي خليفة، 2/ 1836] وعام 453هـ [الأعلام، 4/ 192] وعام 458هـ حسب بول سباط، وذلك لأن ابن أبي أصيبعة لم يذكر عام الوفاة بدقة فقال: «وتوفي عبيد الله بن جبرئيل في شهور سنة نيف وخمسين وأربعمائة» [عيون، 214]، وكذلك [بروكلمان، 5/ 239] لم يحسم الخلاف أيضًا، فقال: «وتوفي في سن الخمسين في القرن الخامس». إلاّ أنّ الرأي الشائع، أن وفاته عام 451هـ / 1059 م. [هدية العارفين، 5/ 648؛ كحالة، 6/ 238].

اشتهر عبيد الله بن جبرئيل بممارسة الطب، و«كان فاضلا في صناعة الطب، مشهورا بجودة الأعمال فيها، متقنا لأصولها وفروعها، من جملة المتميزين من أهلها والعريقين من أربابها» [عيون، 214].

كما عرف عنه ولعه بالبحث الجاد والاطلاع، فأصبح عالما متمرسا في مختلف فروع المعرفة ومن بينها التاريخ، فقد كانت النظرة السائدة حسب المستشرق روزنثال Rozenthal

تعتبر «أن معرفة الكتب التاريخية تجلب معها الحكمة السياسية والمهارة في الجدل مما يضمن النجاح في الدنيا، وتجلب أيضًا التواضع و التقوى اللذين يضمنان الفلاح في الآخرة». والبحث التاريخي يتطلّب بطبيعة الحال معرفة عدة لغات، فقد ذكر روزنثال بأن عبيد الله بن جبرئيل اقتبس من نصوص سريانية ويونانية. ومن الطبيعي أن يجيد اللغة السريانية - وهي على أي حال لغة عائلته الأصيلة - واللغة اليونانية، مما مكنه من قراءة النصوص التاريخية السريانية والإغريقية. وقد حدث خلط عند روزنثال، بينه وبين والده جبرئيل بن عبيد الله، إذ يذكر في كتابه الهام «علم التأريخ عند المسلمين» أن «المؤرخ اندرونيكوس وهو من رجال القرن السادس، وقد نقل من تاريخه جبريل بن بختيشوع (396هـ / 1006 م) الذي كان بدوره مصدرا لابن أبي أصيبعة ومن المعروف أنّ ابن أبي أصيبعة اعتمد على كتاب التاريخ «مناقب الأطباء» وهو للابن عبيد الله بن جبرئيل لا لوالده جبرئيل بن عبيد الله بن بختيشوع المتوفى سنة 1006 م، ونقل منه حرفيا أكثر من 15 مرة، كما أن والده جبرئيل بن عبيد الله لم يكتب في التاريخ ولم يترك أي كتاب تاريخي بعكس ابنه، ولعل مردّ هذا الخلط لدى روزنثال أنه نقل من (جراف G.Graf) في كتابه تاريخ الأدب العربي المسيحي - ج 2 - ص 111.

تمتع عبيد الله بن جبرئيل بعقل نقدي متفتح، مما جعله يتصدى لمسألة تاريخية صرفة اختلف فيها المؤرخون القدامى وهي «زمان جالينوس، وهل كان معاصرا للمسيح أو كان قبله أو بعده» [عيون، 111]؛ وقد أدلى بدلوه بهذا الخلاف فقال: «إن أصحاب التواريخ اختلفوا اختلافا بينا فيما وصفوه، وكل منهم أثبت جملا إذا فصلت خرج منها زيادات ونقصان» [عيون، 111].

اشتهرت مدينة ميافارقين بوجود البيمارستان الفارقي، الذي بناه وأنفق عليه أموالا طائلة الأمير نصير الدولة أحمد بن مروان صاحب ديار بكر والمتوفى سنة 453هـ / 1061م [أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص 189، 199] الذي مدحه الطبيب ابن بطلان (ت 455هـ / 1063 م) بأسلوبه الساحر، فيقول: «فمنذ ملك ابن مروان هذه الديار، كسدت الصناعة وبارت البضاعة، وصحت الأجساد وانكشف الوباء عن هذه البلاد، وانقطعت علة الخوانيق» وفي موضع آخر: «كان إقبال الأمير قد عصم الأبدان من السقام، وحصن الأعضاء من الآلام، أو كأنه من بين آل مروان قد أخذ للخلق من الدهر الأمان».

وقد وجد عبيد الله بن جبرئيل في مدينة ميافارقين الرعاية الكاملة والجو العلمي المناسب، برعاية أميرها نصير الدولة المحب للعلم والعلماء، فأهداه أحد مؤلفاته «طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها»، وتفرّغ للبحث والتأليف وطاب له المقام فيها، وعرف عنه صداقته للطبيب ابن بطلان الذي أقام فترة في ميارفارقين، وكتب فيها كتابه الشهير «دعوة الأطباء»، وأهداه للأمير نصير الدولة. ويمكن القول بأن عبيد الله بن جبرئيل لم يكن طبيبا ناجحا فحسب، بل كان باحثا جادًا في علوم شتّى؛ فقد كان جيّد

المعرفة بعلم النصارى ومذاهبهم [عيون، 214]، واهتم بتاريخ الأطباء؛ كما غلبت عليه النزعة الفلسفية، وكان بحق موسوعة معارف، فقد تناول علم الحيوان وعني بالمصطلحات الطبية والطب النفسي والمعالجات النفسانية، بأسلوب واضح، تغلب عليه البساطة والإيجاز.

إن أبا سعيد عبيد الله بن جبرئيل بن عبيد الله بن بختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع بن جورجيوس بن جبرئيل، هو الجيل السابع والطبيب الأخير المعروف لدينا من سلالة البخاشعة: آل بختيشوع، إذا اعتبرنا البداية من جورجيوس بن جبرئيل المتوفى بعد 158هـ / 774 م، وهو رأس هذا البيت وكان رئيس الأطباء في بيمارستان جنديسابور وطبيب الخليفة أبي جعفر المنصور، وقد حدث خلط عند بعض المستشرقين بين صاحب الترجمة عبيد الله بن جبرائيل وجدّه عبيد الله بن بختيشوع فنسب المستشرق المعروف فرديناند ويستنفيلد Ferdinand Wustenfeld كتاب «الروضة الطبّيّة» إلى عبيد الله بن بختيشوع وأكد على موقفه، بحسب المستشرق لوسيان لوكليرك.

آثاره

ترك عبيد الله بن بختيشوع آثارا متنوعة وقيّمة:

1 ـ مقالة في الاختلاف بين الألبان، ألفها لبعض أصدقائه سنة 447هـ [عيون، 214]، ذكر فيها الألبان وأنواعها وفوائدها؛
2 ـ كتاب مناقب الأطباء، ذكر فيه أحوال الأطباء ومآثرهم، وقد ألفه سنة 423 هـ، ودرس فيه حسب ابن أبي أصيبعة علم التواريخ وتسلسلها، وناقش تاريخ ميلاد جالينوس بواسطة التقويم الميلادي، ودحض الآراء السائدة في ذلك الوقت بأن جالينوس قد عاش في عهد السيد المسيح، كما مزج تاريخ أسرته آل بختيشوع بالتاريخ المحلي، وأمدنا بأخبار وحوادث هامّة تتعلّق بالطب والأطباء وأوجد بتقدير روزنثال «نوعا من الكتابة التاريخية الفردية تختلف في بعض النواحي اختلافا كبيرا عن كتب التاريخ الشائعة والجيدة، لدرجة أن المرء يأسف لقلة بقاء أمثال هذا النوع». وقد أفاد ابن أبي أصيبعة من هذا الكتاب لدرجة أنه نقل منه في مواضع كثيرة واعتمد عليه في سرد كثير من الحوادث المهمّة في تراجم بعض الأطباء أمثال: قسطا بن لوقا، حنين بن إسحق، أحمد بن أبي الأشعث، الرازي وكتابه الحاوي في الطب، أبو سهل المسيحي، وأخبار البيمارستان العضدي، كما روى كثيرا من أخبار والده جبرئيل بن عبيد الله؛
3 ـ كتاب الروضة الطبيّة، كتبه إلى الأستاذ أبي الحسن محمد بن علي، واعتنى بولس سباط بتصحيحه والتعليق عليه ونشره في القاهرة سنة 1927 المطبعة الرحمانية، كما أعاد نشره فؤاد سزكين ضمن سلسلة نصوص ودراسات في الطب الإسلامي برقم 90، التي يصدرها معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت (ألمانيا)، والكتاب يحتوي على خمسين تحديدا لمصطلحات فلسفية وطبيّة مثل: الجنس، النوع، الفصل، الخاصة، الجوهر، الاسطقس، المزاج، الخلط، العضو، القوة، الفعل، الروح، العقل، الحس... الخ. وهو

مختصر لكتابه «تذكرة الحاضر وزاد المسافر» كما يؤكد بولس سباط في مقدمة الكتاب وليس العكس، كما ذكر [بروكلمان، 5/ 239] وتابعه بعض الباحثين على هذا الخطأ حيث يقول المؤلف عبيد الله بن جبرئيل في الافتتاحية، ونتبيّن منها منهجه العلمي وأسلوبه ونقرأ فيها «. . . وسألني أدام الله تأييده، أن اختصر له من الكتاب المعنون بـ «تذكرة الحاضر وزاد المسافر» كلاما يتعلق بتبيين معاني أشياء سألني عنها هي أكثر أصول هذه الصناعة الطبية، أعني الجزء العلمي منها، وأن يكون كلاما مختصرا يسهل حفظه وفهمه، . . . وعملت كتابا صغير المنظر كبير المخبر مشتملا على أشياء جليلة من علم الأصول نافعة في علم مبادىء الصناعة الطبية والعلوم العقلية يسهل حفظ معانيها. . ولقبته بـ «الروضة الطبية»؛ 4 ـ كتاب التواصل إلى حفظ التناسل، ألفه سنة 441هـ. ويقول بوجوب ازدياد وتكاثر الجنس البشري ليملأ الأرض؛ 5 ـ رسالة في الطهارة ووجوبها، وهي رسالة إلى الأستاذ أبي طاهر بن عبد الباقي المعروف بـ«ابن قطرمين»، جوابا عن مسألته في الطهارة ووجوبها؛ 6 ـ رسالة في بيان وجوب حركة النفس؛ 7 ـ كتاب نوادر المسائل مقتضبة من علم الأوائل في الطب، جمع فيه النوادر من كتب الأقدمين في الأمور الصحيّة؛ 8 ـ كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر، ويحتوي على وصفات طبية منزلية، لاستعمالها في السفر والحج وعندما لا يتوفّر الطبيب، وتتضمّن المعالجات الطبية والأدوية المجربة المأمونة؛ 9 ـ كتاب الخاص في علم الخواص، وقد ورد بعنوان آخر هو «الخواص مجرب المنافع»؛ 10 ـ كتاب منافع الحيوان، وقد ورد بعناوين متعددة منها، «خواص الحيوان» [بروكلمان، 5/ 239]، أو «عقد الجمان في طبائع الإنسان والحيوان» [الأعلام، 4/ 192]، وذكره ابن أبي أصيبعة بعنوان «كتاب طبائع الحيوان وخواصها ومنافع أعضائها» [عيون، 214]، وهو جزء من كتاب «الخواص مجرب المنافع» الخاص بمنافع الحيوان، أو اختصار له كتبه نقلا عن أرسطو، وحسب [دوسلان Deslane، 501] توجد منه نسخة خطية في المكتبة الوطنية (باريس)، ويتميّز بتصاوير متعددة، سيئة التشكيل والتلوين، ولكنها تمثل أنواع الحيوانات المذكورة في المخطوط، فبعد الكلام عن الإنسان، يتكلم الكاتب عن الحيوانات المستأنسة، والمتوحّشة، والعصافير، وبعض أنواع الأسماك والحشرات، وقد ذكر المقدمة الدميري (1341هـ ـ 1405 م) في كتابه الحيوان وهي: «افتتح ابن بختيشوع ومعناه عبد المسيح كتابه في الحيوان بالإنسان، وقال إنه أعدل الحيوان مزاجا، وأكمله أفعالا، وألطفه حسا، وأنفذه رأيا، فهو كالملك المسلط القاهر لسائر الخليقة والآمر لها، وذلك بما وهب الله تعالى له من العقل الذي به يتميّز على كل الحيوان البهيمي. فهو بالحقيقة ملك العالم، ولذلك سماه قوم من الأقدمين العالم الأصغر؛ كما أشار إلى هذه النسخة أيضا [لوسيان لوكليرك، تاريخ الطب العربي، 1/ 372]؛ 11 ـ تفسير كتاب جالينوس في تحريم دفن الأحياء، وتختص بذكر الأدوية المخدرة والسموم، وتوجد منه نسخة خطية في معهد التراث العلمي العربي بحلب (برقم 183 أنطاكي)، نقرأ في المقدمة (قال

«جالينوس: إني ذاكر في هذه المقالة الرابعة ما يعرض من قبل الأدوية المخدرة القاتلة ومن لسع العقارب والحيات وغير ذلك...»؛ 12 ـ رسالة في الطب والأحداث النفسانية، حققها وقدم لها ونشرها فيلكس كلاين فرانكة وصدرت عن دار المشرق، بيروت ـ 1977، ولم يذكره ابن أبي أصيبعة ضمن مؤلفاته، ولكنه من أهمّ كتب عبيد الله بن جبرئيل وأخطرها ويعتبر هذا الكتاب بصورة عامة، برنامج حجج الأطباء ضدّ الفلاسفة. وتجلت فيه ثقافته العلمية الرفيعة وعقله النقدي المتفتح، حيث طالب، ولأول مرة في تاريخ الطب العربي، صراحة بفصل الطب عن الفلسفة؛ وكان هدفه تدريس الطب بصورة فعالة في البيمارستان (المستشفى) وليس في مدرسة الفلسفة. وأعلن صراحة بوجوب تحرير الطب من قيود الفلسفة، والكتاب يحتوي فصولا عناوينها على التوالي: الفصل الأول: في صدر الرسالة؛ الفصل الثاني: في العالم الذي يجب مصاحبته ومقارنته؛ الفصل الثالث: في أن المتشاغل بالعلوم المنطقية لا يمكنه تدريس العلوم الطبية، إلا بعد مخالطة الأطباء وتدرّبه بتجارب تطبيقية؛ الفصل الرابع: في مناقضة من زعم أنه لا يجب على الطبيب النظر في الأحداث النفسانية وبيان وجوب ذلك؛ الفصل الخامس: في الردّ على من أنكر كون العشق مرضا والبيان عن ماهيته ووجوب إثباته في جملة أمراض الأبدان وتخصص مداواته.

ومن خلال الكتاب نحصل على معلومات قيّمة حول خطوات دراسة الطب، والكتب الدراسية القديمة والمعاصرة لطلاب الطب في القرن الحادي عشر في بغداد، وكذلك على تفصيل الأمراض ووسائل العلاج المستعملة في البيمارستان العضدي فببغداد، كما يعكس هذا الكتاب المستوى العام للنهضة الفكرية في الدولة العباسية.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، بيروت، 1965، منشورات مكتبة الحياة، ص 214؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، بيروت 1413هـ / 1992 م، دار الكتب العلمية، 3/ 273، 283، 4/ 291، 311، 681؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، بيروت، 1413هـ / 1992 م، دار الكتب العلمية، 5/ 648؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية)، القاهرة، 1995، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، 5/ 239؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت 1413هـ / 1992 م، دار الكتب العلمية، 1/ 929، 2/ 1091، 1836؛ ● حمارنة، سامي خلف، تاريخ العلوم الطبية عند العرب والمسلمين، عمان 1406هـ / 1986 م، منشورات جامعة اليرموك، المطبعة الوطنية، عمان، 1/ 134، 135؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، 1996، منشورات وزارة الثقافة، 2/ 36؛ ● دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية)، القاهرة،

كتاب الشعب، 6/ 384؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة 14، دار العلم للملايين، 1999، 4/ 192؛ ● ابن بختيشوع، عبيد الله، رسالة في الطب والأحداث النفسانية، حققها وقدم لها فيلكس كلاين فرانكة، بيروت، 1977، دار المشرق، ص 6 ـ 14؛ ● عيسى، أحمد، معجم المؤلفين، دار المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، 6/ 238؛ ● كحالة، عمر رضا، العلوم العلمية في العصور الإسلامية، دمشق 1392هـ / 1972 م، المطبعة التعاونية، ص 48؛ ● الموسوعة العربية، هيئة الموسوعة العربية، الطبعة الأولى، دمشق، 2001، 4/ 755؛ ● لوكليرك، لوسيان، تاريخ الطب العربي (بالفرنسية)، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت ـ ألمانيا، 1/ 372.

د. محمد فؤاد الذاكري
باحث في التراث العلمي
حلب ـ سوريا

ابن بدر، أبو عبد الله محمد بن عمر

(القرن 7هـ / 13 م)

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ابن بدر ظهر في أواخر القرن 7هـ / 13م. ولا يعرف عنه المؤرخون سوى أنه ألف كتابا سماه كتاب «اختصار الجبر والمقابلة» قبل سنة 1343م. قال سوتر إن هذا الرياضي أندلسي وأصله من إشبيلية. والواقع أن المؤرخين غير واثقين من أصل ابن بدر ولا من الفترة التي عاش خلالها. وقد أشار سوتر إلى وجود شرح لكتاب ابن بدر في الجبر، غير أن أحمد جبار ينفي ذلك [كراس حلقة ابن الهيثم، عدد 4/ 1994، 19]. أما أحمد سليم سعيدان فيذكر في تحقيقه لهذا الكتاب أن محمد بن القاسم الغرناطي وضع قصيدة يشرح فيها كتاب ابن بدر كتبت سنة 711هـ / 1311م [تاريخ علم الجبر في العالم العربي، 429]. في حين يتحفظ المؤرخ قدري حافظ طوقان بخصوص هذه القضية مكتفيا بالقول: «يقال إن محمد بن القاسم الغرناطي في القرن الرابع عشر للميلاد شرح كتاب ابن بدر شعرا، ولعله محفوظ في إحدى المكتبات بالمغرب» [طوقان، تراث العرب العلمي، 423]. وقد حقق الإسباني سانشيز بيريز الكتاب عام 1916، وترجمه إلى الإسبانية ونشره باللغتين العربية والإسبانية، ولكن الطبعة العربية غريبة الأشكال تصعب أحيانا قراءتها.

ومن جهة أخرى يذكر طوقان أن المستشرق التشيكي نيكل Nicel زار مدريد عام 1933، فعثر هناك على نسخة من «كتاب فيه اختصار

الجبر والمقابلة» من تأليف ابن بدر فأرسله المستشرق إلى طوقان. ويعترف هذا الأخير أنه فوجئ باسم المؤلف ابن بدر الذي لم يسبق أن صادفه على الرغم من انشغاله بتاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين. ويضيف طوقان: «ولدى البحث الدقيق وجدت أن ابن بدر كغيره من علماء العرب، أصاب الإهمال تراثه، وأحاط الغموض حياته. تجد شيئا يذكر عن مآثره في كتب تاريخ العلوم الرياضية، وهو الذي برع فيها، ووقف جهوده عليها، وأخرج فيها مؤلفا من أنفس المؤلفات، كله مادة، وكله فائدة، وكله متاع» [طوقان،م. س، 418].

وقد قام أحمد سليم سعيدان بتحقيق نسخة فريدة من كتاب ابن بدر في مكتبة الأسكوريال برقم 936 تقع في 47 ورقة تضم كل منها 18 سطرا. نسخت سنة 744هـ / 1344 م، وكتبت بخط مغربي «تصعب قراءته للوهلة الأولى، فإذا ألفه القارئ لقيه أسهل من الخطوط المشرقية» [سعيدان، تاريخ علم الجبر في العالم العربي، 429]. ومما جاء في خاتمة المخطوطة التي اعتمدها سعيدان: «تم كتاب الجبر والمقابلة بحمد الله وحسن عونه، وذلك في حادي عشر شوال من عام أربعة وأربعين وسبعمئة» [م. س، 488]. في حين يذكر طوقان بخصوص مخطوطة الكتاب التي وصلته أن ناسخها هو عبد الصمد بن سعد بن عبد الصمد من فاس. ويقول هذا الناسخ في آخر المخطوطة: «أتممت قراءة هذا الكتاب بعد أن كنت فهمته من غير هذه النسخة، وأصلحت ما ظهر لي فيها من الفساد بسبب فساد النسخة المنقول منها هذه، وذلك في الرابع من شوال عام أربع وستين وسبعمائة هجرية» [طوقان، تراث العرب العلمي، ص 419]. ومن ثم يمكن التخمين بأن الناسخ عبد الصمد قد اعتمد النسخة التي حققها سعيدان إذا ما قارنا تاريخ نسخ كل منهما وراعينا ما ذكره عبد الصمد.

وعلى كل حال فإنّ أحمد جبار [م. س، ص 21]، ومحمد المنوني (1333هـ / 1915م - 1420هـ / 1999 م) [نشاط الدراسات الرياضية، ص 101 - 102] يؤكدان بأن نسخاً من كتاب ابن بدر كانت متداولة في فاس خلال القرن الرابع عشر. وكان مضمونه يدرّس بسبتة على يد أستاذ يدعى الإدريسي (ت 1407 م) وبتونس على يد أستاذ يدعى الرصاع، يرجّح أن ذلك حدث خلال القرن الخامس عشر. كما نجد بعض الآثار لكتاب ابن بدر في كتاب حطّ النقاب على وجوه أعمال الحساب لابن قنفذ القسنطيني (ت 810هـ / 1407 م)، وفي كتاب الشرح الكبير لابن زكرياء الغرناطي (ت 806هـ / 1406 م). وهذا على الرغم من أن ابن البناء المراكشي (654هـ / 1256م - 721هـ / 1321 م) وشراح أعماله لم يشيروا إلى كتاب ابن بدر.

وكتاب «اختصار الجبر والمقابلة» لابن بدر يندرج في سياق ما كتبه الخوارزمي (توفي بعد عام 232 هـ)، وأبو كامل (القرن 3 هـ). لكنه لا يخلو من الإضافات والتوسعات الطفيفة. فقد تطرّق ابن بدر إلى المواضيع التي تناولها أبو كامل لكنه أدخل تعديلات على ترتيبها وصياغتها. ويرى بعض المؤرخين أن الذي اطلّع على عمل أبي كامل والكرجي (953م - 1029م تقريبا) والسموأل (1130م - 570هـ / 1175 م) في جبر الخوارزمي واستوعب

طرقهم وتفنّنهم في التوسعات التي قاموا بها يدرك أن كتاب ابن بدر سماه صاحبه اختصار الجبر والمقابلة، لأنه يختصر ما أنجزه هؤلاء، ليقدم كتابا مبسّطا يستفيد منه المتعلم، لا بحثا عميقا يزيد الجبر عمقا وسعة.

يبدأ الكتاب بما يدور عليه الجبر: من أعداد وجذور (أي المجهول س) وأموال (أي مربع الجذر س 2). ويوضح كل رمز من هذه الرموز، ثم يذكر المسائل الست المذكورة بكتاب محمد بن موسى الخوارزمي (ت بعد عام 232هـ / 846 م)، أي «كتاب الجبر والمقابلة»، وكتب غيره من علماء المسلمين العرب.

ويشتمل الكتاب على أبواب تبحث في الجذور (أي الأعداد التي تحت علامة الجذر التربيعي من التي لها جذر، والتي ليس لها جذر أي الجذور الصماء)، وأضعافها، وتجزئتها، وضربها، وقسمتها، وجمعها، وطرحها.

ثم ينتقل المؤلف إلى ضرب المجاهيل بعضها في بعض، وإلى العلامتين: الزائد والناقص، وما يحكمها من قوانين حين الضرب وحين القسمة. وكذلك إلى: جمع الأشياء والأموال والكعوب بعضها إلى بعض، وطرحها بعضها من بعض، وقسمتها بعضها على بعض.

وينتقل إلى باب «في معرفة الجبر والمقابلة»، ويعرّف الجبر بأنه الزيادة في كل ناقص حتى لا ينقص، والمقابلة بأنها طرح كل نوع من نظيره، حتى لا يكون في الجهتين نوعان متجانسان.

ثمّ ينتقل إلى تطبيق في المسائل الست التي يدور عليها جميع الجبر، ويخلص إلى مسائل وضعها في أبواب متنوعة، وضعها في باب مسألة العشرات، وباب في مسائل الأموال وباب في الصدقات، وباب في القمح والشعير وفي التجارة، وباب في البريد.

وقد أنهى الكتاب بباب الالتقاء.

وفي كل هذه الأبواب مسائل وحلول لها. وهي مسائل عملية تتناول ما كان يقتضيه عصره من معاملات في التجارة، وفي الصدقات، وإجراء الغنائم، والمرتبات على الجيوش، وإلى طرق البيع والشراء.

وقد حلّ بعض أوضاع المعادلات ذات الدرجة الرابعة بطرق معادلات الدرجة الثانية.

آثاره

- كتاب اختصار الجبر والمقابلة، مخ. رقم 936، مكتبة الأسكوريال، نسخ عام 744هـ / 1344 م، حققه سعيدان وأحمد سليم في الجزء الثاني من كتاب تاريخ علم الجبر في العالم العربي، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986، 427 ـ 497.

المصادر والمراجع

● جبار، أحمد، بعض مظاهر الجبر في التقليد الرياضي العربي للغرب الإسلامي، كراس حلقة ابن الهيثم، المدرسة العليا للأساتذة القبة، الجزائر، العدد 4، 1994، ص 1 ـ 34؛ ● سعيدان، أحمد سليم، تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج 2، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1986؛ ● طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ودار الشروق، بيروت، (بدون تاريخ، صدرت الطبعة الأولى عام

1941)؛ • المنوني، محمد، نشاط الدراسات الرياضية في مغرب العصر الوسيط الرابع، المناهل، 33ن 1985، ص 101 ـ 102؛

- Suter, H., Die Mathematiker und Astronomen der Araber und ihre Werke, Leipzig, Teubner, 1900. p. 197;
- Sanchez-Peres J.A., Compendio de Algebra de Abenbder, Madrid, 1916; • Lamrabet, D., Introduction à l'histoire des mathématiques maghrébines, Imp. Al-Maarif Al-Jadida, Rabat, 1994.

د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة ـ الجزائر
د. محمد عوني عبد الرؤوف
جامعة عين شمس ـ القاهرة

ابن بدران، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى

(1280هـ / 1863م ـ 1346هـ / 1927 م)

عبد القادر بن أحمد بن مصطفى الشهير كأسلافه بابن بدران السعدي الدمشقي (حسب ترجماته لنفسه) الدومي، نسبة لموطن أسرته ومكان ولادته في بلده دوما القريبة من دمشق.

محدث، وأصولي، ومفسر، ولغوي، وصحفي، وأديب، وداعية للإصلاح، وأحد المُنورين الإسلاميين.

تعلم في دوما في كُتّاب الشيخ عرابي، وبزّ أقرانه، وعمل كارهاً بالفلاحة. استهوته كتب جده لأمه الشيخ الفقيه أحمد بن مصطفى بن حسن رمضان المعروف بابن النعساني (ت 1281 هـ) فأكب على المطالعة وأخذ عن الشيخ محمد بن عثمان المعروف بخطيب دوما (ت 1308هـ). رحل إلى دمشق لطلب العلم في جامعها الكبير، ولازم حلقات شيوخها، فتلقاه عن علماء أجلاء؛ منهم المشايخ: سليم العطار، فخرالمفسرين وعمدة المحدثين سيدي وأستاذي [ديوانه تسلية الكئيب عن ذكرى حبيب، ص 4]، وعمر العطار سيدي وأستاذي علامة المعقول وأستاذ الصوفية [الديوان، ص 10]، وحسن الشطي، المحقق الكامل شيخ مشايخنا [الديوان، ص 7]، وبدر الدين بن يوسف المغربي البيباني، أستاذنا الولي الصالح [الديوان، ص 9]، ومحمد الطنطاوي عالم الفلك والميقات والهندسة (ت1888م)، وعلاء الدين عابدين، وغيرهم.
عمل لكسب معيشته مصححاً في مطبعة ولاية سورية وجريدتها، ومحرراً فيها كما كتب في الجرائد الدمشقية والبيروتية، كالشام، والمشكاة، والكائنات، والرأي العام، والمقتبس، وثمرات الفنون، والإقبال، والمجاهد، وغيرها.

وإلى هذه الفترة وما بعدها يعود نشاطه مع أعضاء الجمعية الخيرية التي تأسست في دمشق عام 1878، وعملت على افتتاح المدارس وإنقاذ أبنية المدارس القديمة وجمع المخطوطات المتوزعة في مساجد دمشق ومدارسها وإنشاء المكتبة الظاهرية أول مكتبة عامة حكومية في سورية، بموافقة والي سورية المصلح مدحت باشا عام 879 ام.

بدأ حياته بداية علمانية عقلية، ونشأ شكاكاً ثائراً على التخلف والجهل والظلم وداعية إلى الإصلاح ونشر التعليم، شارك في إنشاء حلقة أدبية ثقافية فريدة في تاريخ دوما ضمت الشعراء: صالح طه، ومحمود خيتي، وخالد زريق، وغيرهم، فجعلت من دُوما محجاً لعلماء دمشق ومثقفيها وزوارها كالشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وخليل الخالدي المقدسي، والشاعر الهلالي الحموي، والشيخ عبد الرحمن القصار وغيرهم.

اختير عضواً في مجلس معارف قضاء دوما (1897 ـ 1895 م) [سالنامه ولاية سورية، أي كتاب إحصائها السنوي للأعوام 1315 ـ 1312 هـ] حيث ساهم في افتتاح المدارس وتأليف الأناشيد لتلامذتها.

ندد في كتاباته بالظلم الاجتماعي ووقف في وجه الأسر الإقطاعية المتنفذة وحاول إصلاح نظام توزيع مياه نهر تورا بشكل عادل الأمر الذي مس مصالح خصومه فاستعْدوا عليه السلطات وخذله أهل بلده حتى أهله، فهرب إلى دمشق واضعاً نفسه تحت حماية وجوهها مادحاً ولاتها وكبار رجالاتها [انظر ديوانه]، واتصل بأولاد الأمير عبد القادر الجزائري نزيل دمشق وعلم أولادهم ورافق أحدهم (علي باشا؟) في زيارته لأوروبا حيث زار إيطاليا وفرنسا التي أعجب بتقدمها الحضاري والتقني ثم رافقه إلى الجزائر.

عاد بعدها إلى مصر ومكث مدة بالأزهر الشريف حيث تلقى العلم عن شيوخه، منهم «أستاذنا العلامة الشيخ محمد الأنبابي المصري شيخ الأزهر» [الديوان، ص 54]، ورشح لتولي رئاسة رواق الشوام (أي طلبة العلم الوافدين من بلاد الشام).

وبعد عودته إلى دمشق حدث انقلاب في حياته الفكرية فانصرف إلى علوم الدين على مذهب ابن حنبل بعد أن كان شافعياً، وقد شرح قصة هذا التحول في مقدمة كتابه «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل».

وسكن في مدرسة عبد الله باشا معقل الإسلاميين المصلحين المعارضين للجمود والحشوية، فشارك في حلقتهم «جمعية النهضة العربية» التي أسسها في عام 1906 مجموعة من رجال الدين المستنيرين كالمشايخ جمال الدين القاسمي، وعبد الرزاق البيطار، وطاهر الجزائري؛ والتف حولهم مجموعة من الشباب المتأثرين بالثقافة الأوربية كعبد الرحمن الشهبندر، وصلاح الدين القاسمي، ومحمد كرد علي، ومحب الدين الخطيب، وعبد الرحمن اليوسف، وغيرهم الذين دعوا إلى الإصلاح وتخليص الإسلام من البدع، فاتهموا بالوهابية.

وأنشأ في عام 1909 جريدة سماها موارد الحكمة لم يكتب لها النجاح. انصرف بعدها إلى التأليف والتدريس في مدرسته وتحت قبة النسر في الجامع الأموي وفي ريف دمشق.

وكانت حلقته تضم نخبة مستنيرة من دارسي العلوم العقلية والأدبية أصبح بعضهم فيما بعد من أعلام الثقافة كالشاعر محمد البزم، واللغوي سليم الجندي، والمؤرخ محمد أحمد دهمان، وعالم الرياضيات جودت الهاشمي الجزائري، وسعيد البحرة، وغيرهم. . .

شارك بعد إنشاء الدولة العربية في سورية (1918 ـ 1920) في حركة تعريب المصطلحات وفي محاولة إنشاء جامعة عصرية [محمد بهجت البيطار: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال المقدمة ص لا، م] وقف موقفاً سلبياً من سلطات الانتداب الفرنسي، ورفض أن يجامل المتعاونين معها فمنع من التدريس تحت قبة النسر وقطع راتبه عنه، وعرف السلفيون في مملكة آل سعود فضله فطبعوا كتبه واختير مفتياً لرعايا مملكة نجد والحجاز المقيمين في سورية. أصيب في عام 1923، بالفالج وعولج في المشفى العام وفيه كتب مذكراته [خلاصة معلوماتي] ودوّن ما تذكره مما قاله شعراً في ديوانه، وعاد إلى مدرسته، وتوفي فيها عام 1927، وأخفى الطاعمون نبأ موته حتى عن أهله ولم يخرج خلف جنازته سوى بعض الأتقياء حسبوه فقيراً منقطعاً، ودفن في مقبرة باب الصغير، وسرقت مكتبته الضخمة ومخطوطات تآليفه.

آثاره

ترك ابن بدران عدداً كبيراً من المؤلفات، في الحديث، والتفسير، والفقه وأصول الدين، والطبقات، والتاريخ، والآثار، وفي فنون الأدب المختلفة: من نحو، وَصَرْفٍ، وبيان، وبديع، وعروض، وفتاوى، وخطب منبرية، وهندسة وشعر . . . تأليفاً وتلخيصاً وتهذيباً وشرحاً، طبع بعضها ولم يكتمل بعضها الآخر وبقي مخطوطاً وفقد أثره، وقد أشار مترجموه إلى كثير منها وذكر هو نفسه بعضها.

ويقدر عدد مؤلفاته بنحو ستين كتاباً وبحثاً ورسالة منها:

1 ـ جواهر الأفكار ومعادن الأسرار في التفسير (خ)؛ 2 ـ المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ط)؛ 3 ـ طبقات الحنابلة (لم يكمل)؛ 4 ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، وهو القسم الثقافي من ذيله على تاريخ دمشق (ط)؛ 5 ـ ذيل على تاريخ دمشق، القسم السياسي (مفقود)؛ 6 ـ شرح العمدة سماه مورد الإفهام من سلسبيل عمدة الأحكام، جزءان (ط)؛ 7 ـ شرح أخصر المختصرات في الفقه (ط)؛ 8 ـ كتاب البدرانية، شرح المنظومة الفارضية (ط)؛ 9 ـ العقود الدرية في الفتاوى الكويتية (ط)؛ 10 ـ رسالتان في الهندسة في أعمال الربعين المجيب والمقنطر (خ)؛ 11 ـ إيضاح المعالم في شرح أُلْفِيَّة ابن الناظم (جزءان)؛ 12 ـ شرح الكافي في العروض والقوافي؛ 13 ـ شرح روضة الأصول، طبع تحت اسم روضة الناظر وجنة المناظر؛ 14 ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر في 13 مجلدا، طبع منها سبعة مجلدات فقط؛ 15 ـ خلاصة معلوماتي، وهي مذكراته كتبها في أواخر أيامه (مفقودة).

المصادر والمراجع

● ابن بدران، مقدمات تاريخ تهذيب تاريخ دمشق؛ ● الحصني، أديب تقي

الدين، منتخبات التواريخ؛ ● المعلوف، عيسى إسكندر، مجلة الآثار ج 10، 1227؛ ● الخطيب، محيي الدين، مجلة الفتح عدد 67، 1348؛ ● مجاهد، الأعلام الشرقية، ج 2، ط 1950؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، ج 4؛ ● كحالة، الأعلام ج 4؛ ● زكريا، محمد وصفي، ريف دمشق، ج 5 ص 252؛ ● الجندي، أدهم، أعلام الفن والأدب، ص 18 حرف (العين)؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، دار العلم للملايين، 4/ 37 ـ 38.

زهير محمد ناجي
جامعة دمشق ـ سوريا

ابن بدران، أبو المكارم مسلم بن قريش

(453هـ/ 1061م ـ 578هـ/ 1182م)

شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش ابن بدران، شاعر وأمير، تولى إمارة بني عقيل في الموصل في الفترة 453 ـ 478هـ، وامتد حكمه الذي بلغ نيفًا وعشرين سنة إلى حلب والجزيرة.

وكان شجاعًا جوادًا ذا همة وعزم، وساس بأحسن السير وأعدلهما، وساد الأمن والرُّخص في عصره، وكانت وفاته بداية النهاية للإمارة.

يقول في بداية إحدى قصائده:

سلام على أهل الكِساء هُداتِي
وَمَنْ طاب مَحْياي بهم ومَمَاتي

وقال في قصيدة أخرى:

أُشْهِدُ اللهَ بصِدقِ
ويقينٍ وثباتِ

أنّ قتلي في هوى الغُرْ
رِ الميامين حَيَاتي

وكانت بينه وبين بهاء الدولة منصور بن دبيس المزيدي (ت 479هـ) صاحب الحلّة، مكاتبات ومخاطبات ومجاوبات، فمنها ما روى العماد الأصبهاني لمسلم الذي استنجد ببهاء الدولة منصور:

أَمُدَّرِعَ الدُّجى خَبَبًا ووَخْدًا
ومُزْجي العيس إرقالاً وشدًا

إذا عاينتَ من أُسْد حِلالاً
بها النَّعماء للورّاد تُسْدَى

فبلِّغْ ما علمت من اشتياقي
بهاءَ الدولة الملكَ المفدّى

وقل يا ابن الذين سموا وشادوا
مناقبَ زيَّنتْ مُضَرًا وأدا

أأنسيت الوفاء، وكنت قِدمًا
عَقَدْتَ على الوفاء بهنّ عَقْدا؟

قريشيٌّ الفخار، مُسَيبيٌّ
من السّحبُ العذاب نداه أندى

إذا عُدَّ الملوك يكون منهم
أجلَّ جلالةً وأعزَّ مجدًا

والأبيات السبعة عشر قصيدة لها مكانتها في الشعر، لأنها رسالة شعرية فيها فخر بالشجاعة والاستعداد لملاقاة الأعداء، وطلب النجدة في المأزق والحرج.

وروى العماد الأصبهاني له:

إذا قرعتْ رحلي الركابُ تزعزعَتْ
خراسانُ، واهتزَّ الصعيد إلى مصر

مرة أخرى يستطيع الشاعر أن يعبر عن حالة من حالاته، لما يمتلك من قدرة على صياغة الشعر ولغة عالية، لا يختلف في ما يقدم عن أي شاعر مجيد في القرن الخامس، فهو يفخر بنفسه، ويوحي بأشياء عديدة ممّا عُرف به من بأس وإقدام وسطوة واسعة، وعدّ العماد شعره هذا مما يقطرُ منه ماء المُلك وتفوح منه رائحة المجد.

وروى الصفدي له:

سقى دارهم أيامَ نحنُ جميعُ
مُلِثٌّ كدمعي للفراق هَموعُ

وما كنتُ مجزاعَ الفؤاد، وإنّما
فؤادي على بيْن الحبيب جزوع

فالشاعر يحب ويبكي من أحبه وفارقه، وبقيت ذكراه التي يحفظها، ولا يستطيع أن ينساها، وهذا غزل تقليدي في - سليمي - الرمز لكل امرأة من عرائس الشعر القديم، وفيه تصوير للمفارق الذي لا يصبر على البين، ولذلك دعا للديار أن يسقيها لما فيه من ذكرى - سليمي - ووصلها.

وروى الصفدي له:

غناءٌ ينفِّر عني الحزنْ
وشُربيَ ما بين كوب ودَنّْ

وإني لأحقِرُ هذا الزمان
ولا سيما أهل هذا الزّمن

يريدون نيلَ العُلا بالمنى
ونيلُ العُلا برغيبِ الثّمن

هموم الشاعر الأمير كثيرة، يخفف من عبئها الغناء والطرب، وثمّ حوار غير منظور بعد البيت الثاني، يجيب عنه في تاليه. والشاعر يختلف عن الآخرين الذين يطلبون العلا بالتمني، أما هو فيطلبه بالغالي والنفيس. وانفعال الشاعر واقعي يستمده من تجربته الخاصة بمنأى عن الخيال والإطلاق.

المصادر والمراجع

● مردم خليل، الشعراء الشاميون، دار صادر، بيروت؛ ● المعاضيدي خاشع، دولة بني عقيل في الموصل، مط شفيق، بغداد، 1968؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط صادر، بيروت 1966؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1973؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، 1935؛ ● العماد الأصبهاني، خريدة القصر (قسم الشام) تح. د. شكري فيصل، المجمع العلمي

العربي بدمشق، خريدة القصر، القسم العراقي، تح. محمد بهجت، المجمع العلمي العراقي؛ ● وهبة مجدي، وزميله، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت 1984؛ ● مطلوب أحمد، معجم النقد العربي القديم، دار الشؤون الثقافية، بغداد 1989؛ ● مصطفى، محمد قاسم، الحياة الأدبية في الموصل في القرن الخامس الهجري، موسوعة الموصل الحضارية، ج 3 الموصل 1992.

أ. جنان هاشم عبد العزيز

الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

■ البدري، أبو البقاء تقي الدين عبد الله

(847هـ / 1443م ـ 894هـ / 1488 م) ■ ■ ■

هو أبو البقاء تقي الدين عبد الله بن محمد بن أحمد البدري الدمشقي، المصري، الرفاعي، الوفائي، الشافعي، شاعر، وجغرافي، ومؤرّخ.

ولد أبو البقاء تقي الدين البدري في دمشق ربيع الأول سنة 847 هـ، ونشأ وتعلّم فيها، وقرأ على علمائها وشيوخها. وعمل في التجارة، سافر إلى الديار المصريّة وقطن القاهرة، ثمّ غادرها قاصدا مكّة المكرّمة فمكث فيها، ثمّ سافر إلى المدينة المنوّرة. وعاد إلى دمشق واستقرّ فيها، ثم قصد القدس ودخل غزة لكن وافته المنية فيها سنة 894هـ.

قال عنه الحصني في كتابه «منتخبات التواريخ»: «كان علامة زمانه، ونابغة أوانه، له اليد الطولى في الشعر والتاريخ، وهو صاحب الديوان المشهور راحة الأرواح».

■ آثاره

1 ـ ديوان راحة الأرواح في الحشيش والراح؛ 2 ـ مجموع شعر ونوادر؛ 3 ـ غرر الصباح في وصف الوجوه الصباح: شعر جله على سبعة عشر بابا يوجد في المتحف البريطاني؛ 4 ـ تبصرة أولي الأبصار في انقراض القمر بين الليل والنهار؛ 5 ـ نزهة الأدباء وسلوة الغرباء؛ 6 ـ سكر مصر في ذوق أهل العصر؛ 7 ـ نزهة الخاطر وقرة الناظر؛ 8 ـ شروط الوفاء في أنباء الخلفاء؛ 9 ـ روضة الجليس ونزهة الأنيس؛ 10 ـ تباشير الشراب؛ 11 ـ المطالع البدريّة في المنازل القمريّة. يوجد في مكتبة اكسفورد بخط المؤلّف؛ 12 ـ نزهة الأنام في محاسن الشام. يوضح أبو البقاء البدري المنهج الذي اتبعه في كتابه من خلال مقدّمته، قال: «العلمي أنّ محاسن دمشق كثيرة لا تستقصى، وأوصاف صفاتها تتضاعف أعدادها ولا

تحصى. قصرت عن استيفائها أرباب التواريخ المطولة الحسنة، وحفيت سوابق فحول أقلامهم في ميادين الطروس أن يدركوا حصر بعضها في مصنفاتهم المدونة. لكن بحمد الله جاءت هذه النبذة حديقة يترنم بها الخاطر، ويتنزه فيها الناظر، ولهذا سميتها نزهة الأنام في محاسن الشام».

وفي خاتمة الكتاب قال: «وأما فضائل الشام فكثيرة ومحاسنها جنة غزيرة، وبركاتها مشهورة وأخبار خيراتها مأثورة... وقد ختمنا كتابنا بذكر الأنبياء والصحابة والأولياء والمشايخ والصالحين والعلماء العاملين وذكر المقابر».

يتألّف كتاب «نزهة الأنام» من عدد كبير من الفصول. ويصف أبو البقاء البدري في هذا الكتاب في تبويب عادي متكلف، معالم الشام وأبنيتها وعماراتها ومعاهدها، ومساجدها، وحماماتها، ومنتزهاتها، وبساتينها، ونباتاتها، وأشجارها، وأزهارها، وأثمارها، وأصناف الفاكهة فيها، وأنهارها، وقنواتها، وصناعاتها.

المصادر والمراجع

● أبو البقاء، عبد اللّه البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، ط 1، دار الرائد، بيروت، ص 225 ـ 228؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج2، 132؛ ● حاج خليفة، كشف الظنون، ج 2، 1941؛ ● الحصني، محمد أديب، منتخبات التواريخ لدمشق، دمشق، ج 2، 560؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، ج2، 54؛ ● قدامة، أحمد، معالم وأعلام، ص 113؛ ● كحّالة، عمر رضا، المستدرك على معجم المؤلّفين، ص 428؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، ج 6، 112؛ ● المنجد، صلاح الدين، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج 27، 2250.

د. محمد هشام النعسان

معهد التراث العلمي العربي

حلب ـ سوريا

بدوي الجبل، محمد سليمان الأحمد

(1321هـ / 1903م ـ 1400هـ / 1981 م)

محمد سليمان الأحمد الملقب ببدوي الجبل، وينتهي نسبه إلى الأمير الغسّاني والشاعر المتصوف حسن بن المكزون السنجاري أحد رجال القرن السابع الهجري. ويثبت نسبه هذا في ختام قصيدة مدح بها أستاذه مصطفى الغلاييني، إذ يقول: [د. 425]

وغسّان العلّى قومي ولكنْ ... إلى آدابك الغر انتسابي

وأوّل من أطلق عليه لقب «بدوي الجبل» الأستاذ يوسف العيسى صاحب جريدة «ألف باء» الدمشقية، إذ وفد عليه سنة 1921م وهو يلبس عباءة عربية، ويعتمر العقال المقصب، وقدم له قصيدة حيّا بها روح المناضل الإيرلندي ماك سويني لأنه احتج على وجود الإنكليز في بلاده، ومطلعها: [د. 449]

أحقاً ما روت عنك الرُّواةُ
ترى أم في حديثهم هَنَاتُ

ونشرها له مذيلاً إياها بعبارة «بدوي الجبل»، مما جعل الشاعر يظن أن في الأمر لبساً فراجعه فيه، فأكد العيسى أنه يعنيه بها. وغلب اللقب على الاسم، ثم قدّمه العيسى إلى نخبة من الأدباء وأعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق في حفل بهي قائلاً: «هو ذا بدوي الجبل محمد سليمان الأحمد».

وذهب الأستاذ محمد الخطيب في كتابه «بدوي الجبل ـ حياته وشعره» إلى أن العيسى لقبه بذلك إثر قصيدة أخرى نشرها له في العام نفسه، أنشدها حين جزأ الفرنسيون سورية إلى دويلات، ومطلعها: [د. 443].

أتغنّي، وما أجْدى الحسام ولا أغْنى
قواف من الأشعار تبقى ولا تفنى

ولما التصق ذاك اللقب بالشاعر كان صديقه الأثير إلى نفسه الأستاذ أكرم زعيتر يلقبه «شاعر العربية»، ويوافقه عليه العالم الأديب إسعاف النشاشيبي.

ولد بدوي الجبل في قرية (ديفة) بمنطقة الحفة من محافظة اللاذقية في سنة 1321هـ/1903م على الأرجح وإن قيل: ولد سنة 1904 ـ و1905م وغير هذا.

والده الشيخ الجليل والفقيه الديني سليمان الأحمد، وأمه راجية بنت صقر إبراهيم، من القرية نفسها، ماتت وهو في الثانية من عمره، فعوضته زوجة أبيه حنان الأمومة ودفء العاطفة وحسن التربية، وأخوته الثمانية منها: خمسة ذكور وثلاث إناث، كان منهم أحمد وفاطمة شاعران.

تزوج الشاعر من امرأة اسمها حسيبة، ورزق أولاداً، منهم منير وأحمد وعدنان وجهينة. وقد ذكر أكثرهم في شعره ونثره، كما أنشد قصيدة لحفيده محمد بن منير.

فالشاعر نشأ في بيت والده سليمان الأحمد، الشاعر واللغوي والفقيه المتصوف الزاهد والعالم بالدين وعضو مراسل للمجمع العلمي العربي بدمشق منذ 1922م الذي جعل بيته مدرسة لطلبة العلم وعشاق الأدب والعربية. فكان يرتل القرآن ويفسر آياته، ويثير كثيراً من قضايا الفقه واللغة، في الوقت الذي يتلو الشعر العربي ويشرحه لهم، ويطلب إليهم حفظه وحفظ القرآن . . .

ولما كان لذلك عظيم الأثر في شاعرنا فإن دراسته للمرحلة الابتدائية وانتقاله إلى قرية عين التينة ليقرأ على أحد علمائها من المشايخ ثم إلى معهد إعدادي في اللاذقية، قد قوى في نفسه الميل إلى حب المطالعة وقراءة الشعر القديم وهو القائل: «نشأت في بيت علم وفقه وتأثرت أول ما تأثرت بالقرآن الكريم الذي لا يمكن أن تشرق ديباجة الأديب إلا بالإدمان على تلاوته، ثم تأثرت بالحديث الشريف، وبخطب الخلفاء الراشدين، ولا سيما خطب علي بن أبي طالب».

وإذا كانت سنه لا تزيد على عشر سنوات فإن أسرته شجعته على الانتقال إلى مدرسة «عنبر» بدمشق لاتمام دراسته وعمره أربعة عشر

ربيعًا . . . وفي هذه السن بدأت ملامح النجابة عليه وأخذ ينظم بواكير شعره . . . في الوقت الذي أخذ يتجه فيه إلى العمل السياسي ولا سيما أنه أعجب بالثورة العربية التي تزعمها الشريف حسين بن علي . . . وقد سرى حب دمشق في عروقه بمثل ما تفتحت عينه على آلام وطنه وجراحاته. فتغنى بمفاخرها طول حياته، وهو القائل حين صرع الملك غازي: «إن الشام التي تنوء بألف جرح وجرح من الحراب، فلا تئن ولا تشكو، بل تزداد عنفاً وكبرياء، هذه المدينة الأبية على الخطوب، المتنمرة لعوادي الزمن . . .» وقد أنشد فيها القصائد المفعمة بالوطنية، منها قصيدته إثر رجوعه من غربته القسرية ومطلعها: [د. 170].

حلفتُ بالشام هذا القلب ما همدا
عندي بقايا من الجمْر الذي اتّقدا

وفيها بكى ابنه عدنان الذي فقده سنة 1968م فقال:

جلاني الظلم أشلاء ممزقة
واحتزَّ أكرمهن: القَلب والولدا
تصغي النُّجُوم إلى نوحي فيسكرها
يبكي الهزارُ ويبقى مسكراً غردا

وتغنى فيها بعروبته قائلاً:

عُروبتي فَوق فرق الشمس ساخرة
من لؤم ما زوّر الواشي وما سردا

ويختمها بثلاثة أبيات أولها:

ضمّتْني الشامُ بعد النأي حانيةً
كالأم تُحضن بعد الفُرقة الولدا

فالشاعر الذي هاله نبأ احتلال الفرنسيين لمدينة اللاذقية في 11/ 10/ 1918م جعله ينخرط في حركة النضال الوطني، وصار ينشد الشعر الوطني الذي يؤجج روح الكفاح والمقاومة تحت راية العهد الفيصلي، فلاحقته سلطة الاحتلال الفرنسي، فاحتمى بالبطريرك غريغوريوس حداد ثم اختبأ في بيت صديق له، لينسل متخفياً هارباً على الأقدام إلى مدينة حماة . . . وقد استتر في أحد خاناتها، لكن أمره سرعان ما انكشف فاعتقل وأوسعه الفرنسيون ضرباً، وصفدوه بالقيد ورحل إلى حمص فبيروت التي مكث في سجنها نحو عام كامل اقتيد بعده إلى سجن في قلعة جزيرة أرواد على الساحل السوري سنة 1920م بعد أن حكم عليه بالسجن ثلاثين سنة، وعمره لا يتجاوز 16 ربيعاً . . . لكن آمر السجن أفرج عنه لصغر سنه، بعد ما لقيه فيه من تعذيب.

وعمقت هذه الرحلة القاسية حسه الوطني والقومي فازداد اندماجه في حركة النضال، وكأنه غدا سياسياً متمرداً ثائراً بنفسه وبشعره. فقد تأججت شاعريته التي رعاها صديق والده رشيد طنيع متصرف اللاذقية، وهو الذي اصطحبه مرتين، مرة إلى لقاء الملك فيصل، ومرة أخرى إلى لقاء المناضل الثائر صالح العلي الذي مكث لديه حقبة من الزمن . . .

وكان الشهيد المناضل يوسف العظمة من قبل قد صحبه إلى لقاء المجاهد صالح العلي قبل سجن الشاعر، كما سنثبته في الحديث عن نثره. ولعل رثاء الشاعر للبطل الشهيد يوسف العظمة في 25/ 7/ 1920م يؤكد عمق الصلة بينهما، بمثل ما يثبت وطنيته التي تفتحت مبكراً على نضال المحتل الفرنسي.

ثم عاد إلى دمشق بعد رحلته تلك، واستسلم لقدره إذ دخلتها القوات الفرنسية بقيادة

الجنرال غورو... لا يملك إلا نظم الشعر الوطني...

أما فرنسا فقد فصلت الشمال السوري سنة 1922م عن وطنه الأم وأخذت تستميل الشاعر، ولم يكن له بد من المهادنة فكوفئ على هذا بتعيينه نائباً في مجلس تمثيلي لدولة العلويين المنفصلة في الشمال.

ولكن الشاعر استيقظ على الحقيقة المرة التي عاشها فانتمى إلى الكتلة الوطنية وصار من أشد الدعاة لوحدة سورية، فانتخب عضوا في البرلمان سنة 1937م نيابة عن محافظته... وتكرر ذلك لمرات عدة... وقد حضر مؤتمراً برلمانياً لنصرة فلسطين سنة 1938م. ثم أسقطت فرنسا الحصانة عن النواب من الكتلة الوطنية سنة 1939م فخشي الشاعر أن يزج في السجن، فيمم وجهه شطر العراق، ونجح في قطع البيد إليها، ومن ثم عمل موجهاً قومياً في وزارة المعارف لديها... وكان ينظم الشعر دموعاً وألماً، ثم شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941م... وما أراد القدر له أن يطمئن هناك فقد عاد إلى دمشق بعد إخفاق تلك الثورة... ولما تناهى إليه مرض والده أسرع إلى اللاذقية لكن السلطات الفرنسية تمكنت من اعتقاله وزجت به سجيناً في قلعة «كسب». وفي معتقله الذي أمضى فيه ثمانية أشهر تلقى نبأ وفاة أبيه، فتأججت شاعريته بما داهمه من أحزان ومعاناة وآلام فأنشد العديد من القصائد الوطنية والوجدانية.

ولم يلبث أن عاود نشاطه السياسي حين تمكن الحكم الوطني من مزاولة السياسة، ثم اندلعت ثورة هنانو فالتهبت طاقاته الشعرية بالعديد من القصائد التي تمجد الثوار والوطن، ولا سيما إبراهيم هنانو.

وفي هذه الحقبة عاد إلى دمشق وانتخب نائباً في البرلمان، ثم اختير عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي سنة 1945م... ومن بعد في سنة 1954م تسلم وزارة الصحة والإسعاف في حكومة صبري العسلي، ثم تولى بعدها وزارة الدعاية والإعلام حتى سنة 1956م، إذ فارق الوطن وشرد في بقاع الدنيا، فاستقر في بيروت حتى سنة 1961م واتجه بعدها إلى استانبول وروما وفيينا وتونس، ومن ثم استقر في جنيف حتى سنة 1963م، وهي السنة التي رجع فيها إلى دمشق...

وكان شعره في هذه الفترة حنيناً جارفاً إلى الوطن وبياناً لسبب اغترابه القسري كما تبينه قصيدته المعروفة «اللهب القدسي» وهي قصيدة بديعة غنى المغنون بأبيات منها، كقوله: [د. 391].

إن نحمل الحزن لا شكوى ولا ملل
غدرُ الأحبة حزن ما احتملناه
وما رعانا على عصف الخطوب بنا
هوى حبيب رعيناه ونرعاه
ليت الذين وهبناهم سرائرنا
في زحمة الخطب أغلوا ما وهبناه

وقد سجل رحلة التشرد هذه مع أشياء أخرى، كخلافه مع كوكب الشرق أم كلثوم، ورسائل الأديبة مي زيادة إليه ورده عليها في سيرته الذاتية بعنوان: «يحدثونك عن أنفسهم»، [بدوي الجبل، الأعمال النثرية 90].

وانغمس بدوي الجبل في أحداث وطنه وأمته

وعبَّر شعره عن قضايا المقهورين لتحريرهم من الظلم والجهل والتخلف . . . لكن نكبة حزيران 1967م هدت كيانه وزلزلت الأرض تحت أقدامه، فانبرى يتحدث عنها في قصيدته «من وحي الهزيمة» التي بلغت مئة وثلاثة وستين بيتاً تعرض فيها للزعامات العربية والقيادات العسكرية، وفي مطلعها يقول: [د. 192]

رملُ سيناء قبرنا المحفورْ
وعلى القبْر مُنْكر ونكير

كبرياءُ الصَّحْراء مرَّغها الذل
فغاب الضحى وغارَ الزئير

ومنها:

جُبن القادة الكبار وفرّوا
وبكَى للفرار جيشٌ جَسور

تركوه فوضى إلى الدور فيحاء
لقد ضمت النساء الخدور!!

هُزم الحاكمون لم يحزن الشعب
عليهم، ولا انتخى الجمهور

ويبدو أن الأقدار قد ألقت بثقلها على كاهله، فلم يكفه فقد ابنه عدنان في سنة 1968م بل كانت تلك القصيدة ـ على الأرجح ـ وراء الاعتداء عليه. فقد قيل: إن سيارة عابرة صدمته في شارع المالكي بدمشق وهو يمارس رياضة المشي المفضلة لديه، وقيل: «إن الصدم كان متعمداً، فضلاً عن تركه مغشياً عليه، ثم خطفه. لم ينقذه من أيدي الخاطفين إلا إنذار شديد اللهجة من الرئيس المرحوم حافظ الأسد ـ وكان آنذاك وزيراً للدفاع ـ فأعيد إلى المشفى، خفية، فلقي العناية المطلوبة، إذ اجتمع عليه أطباء من سورية ولبنان حتى استطاعوا إيقاظه من غيبوبته بعد أربعين يوماً . . .»

ثم أخذ يتماثل للشفاء، وأنى للكبير الدنف والعليل النفس الشفاء مما هو فيه . . .؟ ليس له إلا الشعر يفرج فيه عما يعاني منه، علماً أنه اعتزل الناس في بيته إلى أن وافته المنية في دمشق صباح 18/ 8/ 1981م، الموافق 1400هـ.

وإذا كان بدوي الجبل قد نشر شعره في مجلة «ألف باء» وله من العمر أربعة عشر ربيعاً فإنه يعني أنه قد ولد شاعراً فحلاً، تجاوز العرف المألوف. ولاشيء أدل على هذا من اعتراف النقاد والأدباء والشعراء له بالنبوغ والشاعرية الفذة. فشهد له الشاعر بشارة الخوري بقوله: «إن شعر البدوي أرجح من عمره» وكتب الشيخ العلامة عبد القادر المغربي منوهاً به: «إنه الشاعر الذي تمرد على ناموس التدرج» . . . وشهد له شاعر العراق جميل صدقي الزهاوي، وشاعر الشام جميل مردم بك، وشاعر المهجر جورج صيدح وغيرهم بالشاعرية التي تسجد لها قوافي الشعر . . .

فلا غرو بعد هذا أن نجد مقدمات شتى رصعت ديوانه الأول «البواكير» الذي نشرته مطبعة العرفان بصيدا ـ لبنان 1925م وضم قصائده المنشورة في جريدة «ألف باء»، ومنها مقدمة لرئيس المجمع العلمي العربي بدمشق محمد كرد علي، ومقدمة لعضو المجمع الأديب محمد سليم الجندي . . وقد أهداه إلى روح الشهيد المناضل يوسف العظمة.

وهذا كله يعني أن شعر البدوي منذ بداياته جمع عناصر فنية وفكرية حازت رضى الشيوخ

والحكماء حتى غدا شاعرهم، في الوقت الذي جسد فيه روح الشباب بفيض حماستهم ومشاعرهم فصار معبراً عن آمالهم وآلامهم، . . . وبذلك كله استحق الاحترام والتقدير من الجميع . . . ومن ثم عد أحد أعلام الشعر العربي المعاصر كله، إن لم يكن من أبرزهم وأطولهم باعاً لا يماثله إلا البارودي وأحمد شوقي وعمر أبو ريشة ورشيد سليم الخوري، وخليل مطران، وأبو القاسم الشابي . . .

وليس هناك أدنى ريب في أن شعر البدوي يدور على مناسبات شتى اجتماعية ووطنية وذاتية، بيد أنه يؤكد تمسكه بالبناء العمودي الرصين، ونفسه القوي والطويل الذي جعله يغلب المطولات على المقطعات، حتى ندرت هذه . . . وكلها طرقت موضوعها طرقاً مباشراً بعد أن رصعها بماء الذهب، وزينها بالمعاني التي تلألأت كالمرجان واللؤلؤ، فدلت على نشوة الشعر العربي، وأصالته. . . مما أبعده عن الفوضى والعبثية التي يتصف بها كثير من الشعر المعاصر والحديث . . .

ومن يتأمل شعره ويصيخ السمع إليه يسمع فيه صوت الخالدين من الشعراء أمثال زهير بن أبي سلمى وأبي تمام والمتنبي والبحتري وأبي فراس الحمداني والمعري. . . دون أن يتخلى لحظة واحدة عن اتصافه بالفيض الصوفي للمشاعر وتجليات الروح وعبق الأفكار المعبرة عن كل ما يجري من أحداث زمانه، ودون أن ننسى تأثره بشعراء عصره ولا سيما أحمد شوقي الذي رثاه بقصيدة له [د. 272].

ولما كان البدوي يطوف في فضاءات روح التصوف والوجدان برومانسية رائعة ومؤثرة كان يستلهم أساليب شعراء العربية في العديد من موضوعات شعره، كما في قصيدته التي أشار فيها إلى آلام المقهورين، ومنها: [د. 342].

يعبد الله ففي محرابه
كعبة زهراءُ من نور وقدس
رضي الصوف فما يعرفه
ناعم الخز ولا غالي الدمقس

وختمها بقوله:

مزق الحقُّ حجاباً للدجى
وانجلتْ نفسي في النور لنفسي

إن شعر البدوي بما دار عليه من موضوعات يظل محكوماً غالباً بالنزعة الوطنية والصورة الشعرية المثيرة السابحة في عالم الخيال بما فيها صوره الرثائية التي ابتعدت عن أشكال البكاء والعويل، ولو كان في ذويه كرثاء أخيه كامل [د. 297] أو ابن عمه علي محمد كامل، أو ابنه عدنان . . . فرثاؤه يضج بالأفكار الموحية والصور الخلابة كقصيدته في رثاء الأديب الشاعر شبلي الملاط، ومنها: [د. 286]

لا الحقد خمرةُ أحزاني ولا الحسد
من جوهر الله صيغَ الشاعر الغرد
سَقيت أحْزان قلْبي من عَقيدته
فأسْكَر الحُزن ما أغلي وأعتقد
والهَم يَعْرف كيف اختاره كَبدي
وكيف تَكرم جمر اللَوْعَة الكَبد
يَا مَنْ ألحّ عَلى قَلبي يَقطعه
ألح منه عَليك الخَمْر والشهد

ثم قال:

يا شاعراً زحم الدنيا بمنكبه
كالسيل يهدأ حيناً ثم يطرد

تراقصت في لهيب من قريحته
ثلوج لبنان والأمواج والزَّبد

وإذا كان شعر الرثاء والمدح والفخر قد سخر لمناسبات شتى، ولاسيما الوطنية فإن حكمته الرائعة تذكرنا بحكم المتنبي ولا سيما حين تدخل في الحديث عن قضايا المجتمع والمنافحة عن الوطن والأمة، كما نراه في قصيدته الرائعة التي أنشدها في نادي المثنى ببغداد سنة 1940م في ذكرى الثورة العربية الكبرى ومطلعها: [د. 80]

يَا سَامر الحَي هل تَعْنيك شَكْوانَا
رَقَّ الحَديد ومَا رَقُّوا لبَلْوَانَا

خل العتَاب دُمُوعاً لا غناء بها
وعَاتب القوم أشْلاء ونيرانا

فقد طارت هذه القصيدة في سماء الأرض العربية ترددها الحناجر للتخلص من القهر والعبودية.. وفيها يشمت بالفرنسيين حين احتل الألمان باريس فيقول:

قل للألى استعبدوا الدنيا لسيفهم
من قسم الناس أحراراً وعبدانا

إني لأشمت بالجبار يصرعه
طاغ ويرهقه ظلماً وطغيانا

سمعت باريس تشكو زهو فاتحها
هلا تذكرت يا باريس شكوانا

وكذلك كان له غزل رقيق شفيف يؤكد حسه العاطفي الفياض وهو الذي أحب زوجته حباً صوفياً.. ومن غزله قوله في إحدى قصائده: [د. 378]

يَا من يلح هَواي في اسْتعطافها
وتلح في ظلمي وفي إعناتي

أنكَرتني بعد الشَبَاب وما خبت
نار على شَفتيك من قُبلاتي

أيام أرشف من لماك سلافتي
وأعلُّ من آهاتك العطرات

فالبدوي في شعره الموضوعي والذاتي كان يصدر عن طبع انفعالي يؤكد سمو وجدانه، ورقة مشاعره، وصفاء ديباجته، ودقة عبارته ووضوحها، ورصانة أسلوبه وابتعاد تراكيبه عن الغموض والتعقيد، وجمال صوره المشرقة الأخاذة، ولا سيما حين ينساب في فضاءاته الصوفية التي تأصلت في شعره.

إن شعره يتسم من دون ريب ـ بالجدة مع القوة، وصدق العاطفة وإثارة الوجدان والعقل معاً... وإن كان يدور في أغلبه على مناسبات شتى، ويقع أكثره في الرثاء والمطولات.

لهذا كله عني الشيوخ بشعره منذ يفاعة سنه، فنشر ديوانه الأول «البواكير» في سنة 1925م كما ذكرنا، ثم ألحق هذا الديوان بديوان بدوي الجبل الذي قدم له الأستاذ أكرم زعيتر وجمعه وأخرجه عن دار العودة ببيروت سنة 1978م.

أما نثره فقد صدر عن طبع طيع موات يتدفق على لسانه رقراقاً عذباً دون تكلف أو تعقيد... فدل هو الآخر على أصالة رفيعة للبدوي تؤكد مهارته اللغوية وعمق ثقافته

وتنوعها، وتثبت مدى قدرته على التصوير البديع الموحي . . . وعلى امتلاكه لأساليب القدماء والمحدثين. وهو يجمع إلى جانب اللفظ المتحدر بالإيقاع موسيقى التراكيب المتوهجة والمثيرة ولا سيما حين يجمع بين النثر والشعر في العديد من الموضوعات سواء أكان ذلك في خطبه أم رسائله . . فضلاً عن الحوارات الكثيرة التي جرت معه من قبل الشداة ومحبي أدبه، وأوصلت كثيراً من الآراء في مفهوم الشعر قديمه وحديثه، وفي غير ما موضوع سئل عنه . . .

إن نثره يفيض بالمشاعر الصادقة فيتألق بحرارة العاطفة وهو يعالج كثيراً من الأحداث، أو حين يعرض لرثاء إحدى الشخصيات أو لقائه معها، كما نجده في حفل تكريم المجاهد الثائر صالح العلي، وفيه يقول: «شرفني الله وأنا على مقاعد الدرس بأن أرافق بطل ميسلون الشهيد إلى مقر الزعيم الثائر فأكحل عيني لأول مرة بدخان الحديد والنار، وأرى بأم عيني لأول مرة كيف يثور الإيمان على الطغيان، وكيف ترتجل عبقرية المجد رجالها وتصنع من النار والحديد أبطالها . . .» [بدوي الجبل، الأعمال النثرية 80].

وكشف بدوي الجبل في سيرته «يحدثونك عن أنفسهم» عن عدة رسائل تبادلها مع الأديبة مي زيادة، يمثل ما كشفت حواراته عن قدم التصوف لديه، باعتباره نشأ «في حضن أب مؤمن متصوف عالم» ثم قال: التصوف عندي إيمان بالله وفناء فيه وحنان على كل محروم، ولعلي أعبر هن هذه الحالة بقولي في قصيدة لي:

أعطي بذلة محروم فوا لهفي
لسائل يغدق النعماء منهور

وله أدعية طريفة في ذكرى مولد النبي الكريم، وفي جلاء المستعمر الفرنسي عن سورية، ومنه: «اللهم لقد أكرمنا الحرية وديعتك عندنا، فأكرم شهداءنا وديعتنا عندك . . .» [بدوي الجبل ـ الأعمال النثرية 77].

ذلك هو بدوي الجبل الذي استحق أن يكون علماً فرداً من أعلام الأدب العربي المعاصر ولا سيما الشعر، وحاز مكانة عالية في النفوس والأذهان حين ارتبط بالنضال الوطني فكان قوي الإرادة لم تلن له قناة.

المصادر والمراجع

● بدوي الجبل، الأعمال النثرية، الخير هاني، مكتبة الشرق الجديد، دمشق 2001م؛ ● بدوي الجبل حياته العاصفة وحبه الذي لا يفنى، الخطيب عدنان، مجمع اللغة العربية؛ ● بدوي الجبل حياته وشعره، الخطيب محمد، ط. ابن زيدون، دمشق 1962م؛ ● بدوي الجبل وإخاء أربعين سنة، زعيتر أكرم، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1987م؛ ● ديوان بدوي الجبل، زعيتر أكرم، دار العودة، بيروت، 1978م؛ ● الشعراء الأعلام في سورية، الدهان سامي، دار الأنوار، بيروت، ط2، 1968م؛ ● معرفة الله والمكزون السنجاري، علي اسعد، دار الرائد العربي، بيروت، ط2، 1974م.

د. حسين جمعة
الاتحاد العام للأدباء
والكتاب العرب ـ سوريا

بدوي، عبد الرحمن

(1336هـ/1917م ـ 1423هـ/2002م)

أستاذ فلسفة مصري رائد، من كبار أساتذة الفلسفة وأهمّ مؤرّخيها العرب، والذين عملوا على إرساء دعائم الفلسفة والدرس الفلسفي في المكتبة العربية. وهو الأغزر إنتاجًا، حتّى جاوز رصيده مائة وعشرين كتابًا، بين تأليف، وترجمة، وتصنيف، وتحقيق لمخطوطات تراثية و«موسوعة المستشرقين 1984» و«موسوعة الفلسفة، جزءان 1984» إلى جانب مئات المقالات والأبحاث التي ألقاها في مؤتمرات علمية دولية. وفضلا عن هذا إسهامه في مجال الأدب، إبداعا ودراسة، وترجمة لروائع من الأدب العالمي.

غطّى إنتاجه مجالات وفروع الفلسفة، وعبر سائر عصورها، باستثناء الفكر الشرقي القديم والفلسفة الأمريكية التي لاقت منه نفورًا واستخفافا. فقد هدف إلى أن يقدم للقارىء العربي خلاصة الفكر الأوروبي من ناحية، وأن يسهم من الناحية الأخرى في دراسة التراث الإسلامي الفلسفي من شتّى جوانبه وآليات انتقال التراث اليوناني إليه. وبلغت عنايته بالفكر الإسلامي ذروة في كتابين أصدرهما بالفرنسية ثم ترجما إلى العربية وهما «دفاع عن القرآن ضدّ منتقديه 1989» و«دفاع عن حياة محمد ضدّ المنتقصين لقدره 1990» حيث يرد دعاوى المهاجمين والمستشرقين الذين يراهم حاقدين على الإسلام وحضارته.

وقد حرص قبلاً على طرح مذهب فلسفي خاص به، هو انطولوجيا وجودية مواصلة أساسا لفلسفة هيدجر، وتستفيد من برجسون وشوبنهاور وآخرين. وعليه يؤكّد بدوي أنه فيلسوف. والواقع أنه هو الذي طرح السؤال الوجودي في الثقافة العربية، كما عمل على تلمّس أصوله في تراثنا خصوصا مع الصوفية. ومع عمق ثقافة بدوي وسعة إلمامه بالمذاهب الفلسفية، كان التأثير الأكبر على فكره من الفلسفة الألمانية وعلى وجه الخصوص من هيدجر، ونيتشه.

ويظلّ إسهام بدوي الأعظم هو إثراء بلا نظير للمكتبة العربية. لقد تواتر إنتاجه بنظامية فريدة وبلا انقطاع لما يربو على ستّين عامًا. وساعد على هذا، أوّلا: شخصيّة انعزالية متوحّدة مكرّسة تماما للفلسفة والبحث والكتابة، فلم يتّخذ زوجة ولا ولدًا ولا حتّى صديقًا أو رفيقًا. وثانيا: إجادته للغات الألمانية والفرنسية، والإنجليزية، والأسبانية، والإيطالية، والإغريقية، واللاتينية. وثالثا: سياحات واسعة.

ولد عبد الرحمن بدوي لأسرة موسرة تمتلك أراضي زراعية شاسعة في قرية شرباص بفارسكور شمال الريف المصري، حيث حصل على الشهادة الابتدائية العام 1929م. ثمّ انتقل إلى القاهرة ليحصل على الباكالوريا (شهادة إتمام الدراسة الثانوية) من المدرسة

السعيدية العام 1932م وكان ترتيبه الثاني على القطر. لقد أبدى منذ نعومة أظفاره تفوّقا ونبوغا عقليّا وعشقا للعرفان وموهبة في تعلّم اللغات. التحق بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة الآن) ليدرس الفلسفة بكلّية الآداب على يد أساتذة عظام تركوا بصماتهم عليه خصوصا الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو أحد القلائل الذين يحمل لهم بدوي ـ بشخصيته المتعالية المتعجرفة ـ كل احترام وتقدير حتّى يراه المثل الأعلى، وأيضا أندريه لالاند A. Lalande وألكسندر كواريه A. Koyre اللذين أشرفا على رسالته للماجستير، وباول كراوس الذي خصّ بدوي برعاية شخصية حتّى أوفده وهو طالب في بعثة إلى إيطاليا، وألمانيا، حيث قضى أربعة أشهر إبّان عطلة صيف 1937م تركت تأثيرا حاسما على شخصيّته. وشارك العميد في مناقشة رسالته للدكتوراه، حيث أعلن أنّ بدوي أوّل فيلسوف مصري.

حصل على ليسانس الفلسفة الممتازة عام 1938م، وكان الأوّل لا على قسم الفلسفة فحسب بل على الكلّية بأسرها. عيّن معيدا بها، وحصل منها على الماجستير والدكتوراه فأصبح مدرسا ثمّ أستاذا مساعدا عام 1949م. أعير من 1947 إلى 1949 أستاذا للفلسفة الإسلامية في كلّية الآداب العليا بالجامعة الفرنسية ببيروت. وفي عام 1950م انتقل إلى جامعة إبراهيم باشا (جامعة عين شمس الآن) التي أنشئت حديثًا ليؤسّس قسم الفلسفة في كلّية الآداب بها وظلّ رئيسه حتّى غادر وطنه مصر العام 1967م.

بدأ اهتمام بدوي بالسياسة والهم الوطني مبكّرا ومتوهّجا، وقد اتّخذ موقفا سياسيا ينطلق من اتّجاه قومي حادّ، كما يكشف عن ذلك انضمامه لمظاهرات وحركة الطلاّب القوميين في الجامعة، وتعاطفه منذ 1934م مع حزب مصر الفتاة الذي يجمع بين الوطنية المتطرّفة والنزعة الدينية المتأصّلة، وازداد بدوي حماسا بزيارته لإيطاليا وألمانيا وجمعه مادة علمية غزيرة عن أصول الفكر القومي المتطرّف.

انضمّ بدوي إلى حزب مصر الفتاة (1938 ـ 1942م) وكتب عشرات المقالات في جريدته. ثمّ أصبح عضوًا في اللجنة العليا بالحزب الوطني الجديد (1944 ـ 1952م). وقامت ثورة يوليو المجيدة عام 1952م، وقد أضيرت أسرته من قوانين الإصلاح الزراعي وتحديد الملكيات التي اتّخذتها الثورة. وعلى الرغم من أنّه اختير في يناير 1953م عضوا في لجنة وضع الدستور، كما عيّن من 1956 إلى 1958م مستشارا ثقافيا في سويسرا، وكان أحد إخوته ـ الأحد عشر بخلاف عشر أخوات ـ عضوا في تنظيم الضباط الأحرار الذين أقاموا الثورة، فإنه اتّخذ موقفا مناهضا للثورة، وهاجم بضراوة غياب الديمقراطية وضمانات الحرية. حتّى كان انتدابه في فبراير 1967م أستاذا زائرا في السوربون، فكان فاتحة غيبته الكبرى، إذ انتقل ليعمل في الجامعة الليبية ببني غازي (1967 هـ/ 1973م)، ثم كلّية الإلهيات والعلوم الإسلاميّة بجامعة طهران (1973 ـ 1974م)، ثمّ جامعة الكويت (1974 ـ 1985م). انتقل بعد هذا إلى باريس ليقيم في فندق لوتسيا سنوات طويلة. هكذا غادر مصر أكثر من ثلاثين

عاما، وإن ظلّ حاضرا بكتاباته المتدفّقة ومكانته في نفوس الدارسين والمثقّفين، حتّى حصل العام 1998م على أعلى جائزة تمنحها الدولة المصرية. ثمّ عاد أخيرا ليقضي نحبه فيها.

وكانت فلسفة بدوي الوجودية هي الأقلّ كمّا من خطوط إنتاجه، وأيضًا الأسبق. مهّد لها برسالته للماجستير «مشكلة الموت في الفلسفة الوجودية، 1941م (بالفرنسية)» ـ التي اعتمد عليها في كتابه «الموت والعبقرية» ـ وعرضها في رسالته للدكتوراه «الزمان الوجودي، 1943م» ـ التي نشر ملخّصها بعنوان «خلاصة مذهبنا الوجودي» ـ ثمّ بحثه «هل يمكن قيام أخلاق وجوديّة؟». وبعد ذلك تأتي أبحاثه المدرسية في الفلسفة الوجودية، وقراءته الوجودية للتصوّف الإسلامي لا سيّما أنّ كليهما ينطلق من التجربة الحيّة المعاشة، من الذاتية والوجود الذاتي بوصفه الوجود الحقيقي.

في بحث مشكلة الموت عمل على تحديد عناصر هذه المشكلة ومداها، لينتهي إلى أنّها بحث في الوجود. الموت يقتضي الشعور بالذاتية والفردية والشخصيّة التي تقتضي بدورها الحرية. ومن الناحية الموضوعية نجد الوجود يقتضي بطبيعته التناهي، ممّا يجعل الموت عنصرا مكوّنا للوجود. ينتقل بدوي من هذا الوجود العام إلى الآنية Dasein أي الوجود الفعلي للذات المتحقّق بين أشياء في العالم كما طرحها هيدجر. الهمّ هو طابعها، فهي مهمومة دائمًا بإمكانياتها الذاتيّة التي لم تتحقّق بعد في إشارة إلى المستقبل، وهي واقع حاضر من إمكانيات تحقّقت في الماضي، هكذا تجمع الآنية آنات الزمان الثلاثة، ممّا يعني أن جوهر الوجود هو الزمانية، أي أنّ الوجود والزمان شيء واحد. وكما أسلفنا حيث يكون وجود يكون بالضرورة موت. وتلك هي المشكلة الحقيقيّة للموت إنّها مشكلة تناهي الوجود جوهريًا.

ومن هنا توغّل بدوي إلى صلب مذهبه الوجودي في رسالته للدكتوراه «الزمان الوجودي»، مواصلا لمسار هيدجر وكتابه «الوجود والزمان 1927م»، ومنطلقا من أنّ الوجود الحقيقي هو وجود الفردية الذاتية التي تقتضي الحرية، والحرية معناها وجود الإمكانية، ليغدو المشروع الوجودي للذات هو العمل على تحقيق الممكنات.

الوجودية مذهب لا يرد الذات إلى الموضوع كما فعلت المادية، ولا يرد الموضوع إلى الذات كما فعلت المثالية. الذات والموضوع كلاهما حقيقي وأصيل. والذات لا توجد بغير عالم الموضوعات الذي تحقّق فيه ممكناتها. ولا يجد الإنسان ذاته في عالم الموضوعات والممكنات إلاّ حين ينشدها في فعل الإرادة التي تقتضي الحرية. والحرية تتضمّن الاختيار وكل اختيار هو اختيار بين ممكنات. وحين يتمّ الاختيار تنتقل الذات من حالة الحرية إلى حالة الضرورة. الضرورة هنا هي تحقّق الإمكانية في صورة وجود في العالم. هكذا تختار بواسطة الحرية بعضا من أوجه الممكن وتحقّقه عن طريق الإرادة، وهذا التحقّق العيني يتمّ في العالم ويسمّى حينئذ بالآنية Dasein. إن الزمان هو الشرط الأساسي للآنية وحالتها الجوهرية. فيقول بدوي: «الوضع الصحيح عندنا أن نفهم الوجود على

أنه زماني في جوهره وبطبيعته، وتبعا لهذا فإنّ كل ما يتّصف بصفة الوجود يتّصف بصفة الزمانية». الزمان ليس إطارا يجول فيه الوجود، بل هو المقوّم الجوهري لماهية الوجود.

نلاحظ ممّا سبق أساسًا من أسس الفلسفة الوجودية بعامة وهو أنّ العقل المنطقي ليس الملكة الوحيدة التي ندرك بها حقيقة الوجود، بل إنّ الفكر المجرّد انتزاع للنفس من تيار الوجود الحي. السبيل الحقيقي إلى إدراك كنه الوجود هو التجربة الحيّة التي تكون على اتّصال مباشر في توتره، والتوتر مرتكز أساسي عند بدوي. ورأى أنّ خير لفظ يعبر عن هذا السبيل للإدراك هو «الوجدان» باعتباره ملكة نعاني بها الوجود بما هو عليه، نعانيه وليس نعاينه أو نراه. الوجدان يكوّن عالمًا للإدراك يختلف تمامًا عن عالم الإدراك الذي يكوّنه العقل. وليس يحقر بدوي من شأن العقل البتة، فقط يفرق بينه وبين الوجدان.

وتمثّلت إضافة بدوي للفلسفة الوجوديّة في وضع لوحة مقولات نفهم وفقًا لها أحوال الوجود، تشبه لوحة المقولات التي وضعها كنت هفخل كي نفسر الأحكام العقلية وفقا لها. تقوم مقولات بدوي على التوتر في أحوال الوجود، ممّا يمنحه تفسيرًا ديناميكيًا قائما على ديالكتيك عاطفي وإرادي، هكذا تميّزت فلسفة الوجود مع بدوي عن رائده هيدجر بالتوتّر والديناميكيّة. وأخيرا يفسّر بدوي العدم بأنّه الهوات القائمة بين الذرات، لأنّ الوجود منفصل وليس متّصلا.

يعترف بدوي في سيرته الذاتية بأنه كان عليه أن يتناول الميتافيزيقا والمنطق والقيم وفقا للمبادىء التي طرحها في «الزمان الوجودي»، لكنّه لم يفعل لانشغاله بالخطّين الآخرين من خطوط إنتاجه الفكري، وهما الدراسات الإسلامية، وخلاصة الفكر الأوروبي.

لقد عمل بدوي على نشر التراث اليوناني الفلسفي في ترجماته القديمة إلى العربية. فحقق كل ما ترجم إلى العربيّة من نصوص أفلاطون، وأرسطو، وأفلوطين، والأسكندر والأفروديسي، وبرقلس، الصحيحة والمنحولة. وبهذا حفظ نصوصا فلسفية ضاع أصلها اليوناني، وأفاد من الترجمات العربية الدقيقة في فهم الفلسفة اليونانية، بل وتقويم بعض النصوص اليونانية المتأخرة. كما حقّق عددًا كبيرًا من كتب الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن باجة، وابن رشد، وغيرهم، معظمها كانت بتحقيق بدوي ذي المقدمات الضافية تنشر لأوّل مرّة.

وأخيرا نجد إنتاجه في ميدان الأدب، إبداعا وترجمة ودراسات، إنتاجا ذا اعتبار إذ تسلّح بقدراته اللغوية الفائقة. إبداعا وضع بدوي ديواني شعر: «نشيد الغريب» و«مرآة نفسي»، وقصتي «التسلسل الرهيب» و«لن أختار» ومسرحية «جابر بن حيان». ويوميات تتميّز بمسحة أدبية عذبة في «الحور والنور» و«هموم الشباب». وكان آخر ما كتبه بدوي في حياته المديدة سيرة ذاتية «قصة حياتي، في جزءين، بيروت، 2000» لكنّها تميّزت بالجفاف وعلى الرغم من أنّها توقّفت عند العام 1974م ولم تكتمل، فقد أثارت جدلاً لحدّة هجومها على أطراف عديدة.

من الناحية الأخرى عمل بدوي طويلا على إصدار ترجمات لروائع الأدب العالمي فيما

أسماه «الروائع المائة» أصدر منها عشرين كتابًا، تضمّنت ترجمات عن الألمانية «من حياة حائر بائر» لأيشندروف، وأعمال جوته «الديوان الشرقي - الأنساب المختارة - جتس فون برلشنجن - فاوست 3 أجزاء» ولأعمال برشت «دائرة الطباشير القوقازية - الأم شجاعة وأولادها - الإنسان الطيب في ستسوان»، و«هيبريون» لهيلدرلين، و«صحائف مالتي برجه» لرلكه. وعن الاسبانية «دون كيخوته» لثربانتس في جزءين ومسرحيات لوركا «إيرما - عرس الدم - الإسكافية العجيبة - حياة لثريودي نورمس». ومسرحية دورنمات «علماء الطبيعة» وأيضًا «أندين» لفوكيه، وليونسكو «الدرس - فتاة للزواج»... الخ.

آثاره

أ - مجال الإسلاميات والتراث الإغريقي:

1 - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، القاهرة 1940م؛ 2 - من تاريخ الإلحاد في الإسلام، القاهرة 1945م؛ 3 - المثل العقلية الأفلاطونية، تحقيق ودراسة، القاهرة 1947م؛ 4 - أرسطو عند العرب، دراسات ونصوص غيرمنشورة، القاهرة 1947؛ 5 - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي، القاهرة 1947م؛ 6 - شخصيات قلقة في الاسلام، ترجمة ودراسة، القاهرة 1947 م؛ 7 - منطق أرسطو، القاهرة، ثلاثة أجزاء، 1948 - 1949 - 1952؛ 8 - شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية، القاهرة 1948م؛ 9 - شطحات الصوفية، أبو يزيد البسطامي، القاهرة 1949؛ 10 - روح الحضارة العربية، ترجمة ودراسة، بيروت 1949 م؛ 11 - الإشارات الإلهية للتوحيدي، تحقيق ودراسة، القاهرة 1950؛ 12 - الإنسان الكامل في الإسلام، ترجمة وتحقيق نصوص، القاهرة 1950؛ 13 - الحكمة الخالدة لمسكويه، دراسة وتحقيق، القاهرة 1952 م؛ 14 - فن الشعر لأرسطو وشروحه العربية، ترجمة ودراسة وتحقيق، القاهرة 1953؛ 15 - «البرهان» من «الشفاء» لابن سينا، دراسة وتحقيق، القاهرة 1954 م؛ 16 - عيون الحكمة لابن سينا، دراسة وتحقيق، القاهرة 1954م؛ 17 - في النفس، لأرسطو، مع «الآراء الطبيعية» لفلوطرخس وكتاب «النبات» ثمّ «الحس والمحسوس» لابن رشد، دراسة وتحقيق، القاهرة 1954م؛ 18 - الأصول اليونانية للنظريات السياسيّة في الإسلام، دراسة وتحقيق، القاهرة 1955م؛ 19 - الأفلاطونية المحدثة عند العرب، دراسة وتحقيق، القاهرة 1957م؛ 20 - أفلوطين عند العرب، دراسة وتحقيق، القاهرة 1957؛ 21 - مختار الحكم ومحاسن الكلم للمبشر بن فاتك، دراسة وتحقيق، مدريد 1958 م؛ 22 - الخوارج والشيعة، أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام لفلهوزن، ترجمة ودارسة، 1959 م؛ 23 - الخطابة لأرسطوطاليس، القاهرة 1959؛ 24 - تلخيص الخطابة لابن رشد، تح. ودراسة، القاهرة 1959 م؛ 25 - مخطوطات أرسطو في العربية، القاهرة 1960 م؛ 26 - مؤلّفات الغزالي، القاهرة 1961؛ 27 - مؤلّفات ابن خلدون، القاهرة 1962 م؛ 28 - فضائح الباطنية للغزالي، القاهرة 1964 م؛ 29 - الطبيعة لأرسطو، جزءان، القاهرة 1965 - 1966 م؛ 30 - دور

العرب في تكوين الفكر الأوروبي، بيروت 1965م؛ 31 ـ رسائل ابن سبعين، القاهرة 1965م؛ 32 ـ فن الشعر لابن سينا، دراسة وتحقيق، القاهرة 1965م؛ 33 ـ ابن عربي، حياته ومذهبه لأسين بلاثيوس، ترجمة ودراسة، القاهرة 1967 م؛ 34 ـ الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقي، بنغازي 1969 م؛ 35 ـ مذاهب الإسلاميين، جزءان، بيروت، ج 1، المعتزلة والأشاعرة، 1971، ج 2، الإسماعيلية والقرامطة والدروز، 1973؛ 36 ـ شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية، بيروت، 1971 م؛ 37 ـ التعليقات لابن سينا، دراسة وتحقيق، القاهرة 1972؛ 38 ـ رسائل للكندي والفارابي وابن باجة وابن عدي، بنغازي 1973 م؛ 39 ـ أفلاطون في الإسلام، تحقيق، طهران 1974 م؛ 40 ـ صوان الحكمة وثلاث رسائل لأبي سليمان المنطقي السجستاني، دراسة وتحقيق، طهران 1974؛ 41 ـ تاريخ التصوّف الإسلامي من البداية حتّى القرن الثاني، الكويت 1975؛ 42 ـ طباع الحيوان لأرسطو، الكويت 1977؛ 43 ـ أجزاء الحيوان لأرسطو، دراسة وتحقيق، الكويت 1977م؛ 44 ـ الأخلاق إلى نيقوماخوس، الكويت 1977م؛ 45 ـ الخطابة لأرسطو، ترجمة مع دراسة وشرح، بغداد 1980 م؛ 46 ـ دراسات ونصوص محقّقة في تاريخ الفلسفة والعلوم عند العرب، بيروت 1981م؛ 47 - La Transmission de la philosophie grecque au monde arabe, Vrin, Paris, 1968; 48- Philosophie et théologie de l'Islam à l'époque classique, in Philosophie, Hachette, 1972; 49- Histoire de la Philosophie en Islam, 2 vols, Vrin, Paris, 1972; 50- Quelques Figures et Thèmes de la philosophie islamique, Maisonneuve, la rose, 1979; 51- Défence du Coran coatredes critiques, L'unicife Paris, 1989; 52- Défence de la vie du Prophète Muhammed contre ses détracteurs, Paris, 1990.

ب ـ في الفكر الأوروبي وفروع الفلسفة المختلفة:

53 ـ نيتشة، القاهرة 1939؛ 54 ـ اشبنجلر، القاهرة 1941؛ 55 ـ شوبنهور، القاهرة، 1942؛ 56 ـ أفلاطون، القاهرة 1943؛ 57 ـ أرسطو، القاهرة 1943؛ 58 ـ ربيع الفكر اليوناني، القاهرة 1943؛ 59 ـ خريف الفكر اليوناني، القاهرة 1945؛ 60 ـ الزمان الوجودي، القاهرة 1945؛ 61 ـ دراسات في الفلسفة الوجودية، القاهرة 1961؛ 62 ـ المنطق الصوري والرياضي، القاهرة 1962؛ 63 ـ فلسفة العصور الوسطى، القاهرة 1962؛ 64 ـ النقد التاريخي لأنجلو اديسونوبوس، ترجمة، القاهرة 1963 م؛ 65 ـ مناهج البحث العلمي، القاهرة 1963م؛ 66 ـ المثالية الألمانية، شلنج، القاهرة 1965؛ 67 ـ مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة في فرنسا، تأليف ج. بينروبي، جزءان، ترجمة، القاهرة 1964 ـ 1967؛ 68 ـ الوجود والعدم، دراسة في الأنطولوجيا الظاهراتية، تأليف جان بول سارتر، ترجمة، بيروت 1965؛ 69 ـ المدرسة القورينائية، بنغازي 1969؛ 70 ـ كرنيادس القورينائي، بنغازي 1972؛

71 ـ سوتسيوس القوريناني، بنغازي 1972؛ 72 ـ مدخل جديد إلى الفلسفة، الكويت 1975؛ 73 ـ الأخلاق النظرية، الكويت 1975؛ 74 ـ امانويل كنت، الكويت 1976؛ 75 ـ فلسفة القانون والسياسة عند كانت، الكويت 1979؛ 76 ـ فلسفة الدين والتربية عند كانت، الكويت 1980؛ 77 ـ حياة هيجل، بيروت 1980؛ 78 ـ تاريخ العالم لأورسيوس، دراسة وتحقيق، عن اللاتينية، 1981م؛ 79 ـ فلسفة الحضارة لاشفيتزر، ترجمة وتقديم، بيروت 1980؛ 80 ـ فلسفة السياسة عند هيجل، بيروت 1986؛ 81 ـ فلسفة الجمال والفن عند هيجل، بيروت 1986.

المصادر والمراجع

● بدوي، د. عبد الرحمن، مادة «بدوي»، موسوعة الفلسفة، ج1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1984، ص294 ـ 318؛

● الكتاب التذكاري، عبد الرحمن بدوي في عيد ميلاده الثمانين، الهيئة العامّة لقصور الثقافة، القاهرة 1997، ص 511 ـ 516، من هذا الكتاب ثبت بأهمّ الكتابات المصرية والعربية عن بدوي من 1939 إلى 1997؛

● Rosenthal, Prolegomena to an abortive edition, in: Orientalia, 1965; ● L.Gardet, Hommes de l'Islam, 1975.

د. يمنى طريف الخولي
جامعة القاهرة ـ مصر

البدويّ الملثّم، يعقوب العودات

(1327هـ/1909م ـ 1391هـ/1971م)

ولد في مدينة الكَرَك الأردنية، على بعد 148 كلم من القدس، وكانت ولادته في شهر تشرين الأوّل، من العام 1909م.

أنهى علومه الابتدائية في الكرك، ثمّ انتقل إلى المدرسة الثانويّة في مدينة إِرْبِد، الواقعة على الحدود الأردنية ـ السورية، والشهيرة بجودة مُناخها وخصوبة سهولها.

عمل معلّما للعربيّة، في مرحلتها الابتدائية، لمدّة خمس سنوات. ثمّ توظّف في ديوان رئاسة الوزارة، وفي المجلس التشريعيّ.

وفي مطلع العام 1941م، استقال من الوظيفة وانتقل إلى القدس، حيث عمل في قسم الترجمة التابع لحكومة الانتداب، واستمرّ في عمله هذا حتّى العام 1948م. وفي العام 1951م، استقال مجدّدًا من الوظيفة، وقام برحلة طويلة إلى المهاجر الأمريكيّة، زار خلالها العديد من جمهوريّات أميركا الوسطى

والجنوبيّة، متّصلاً برجال المال والأعمال والأدب والصحافة..

عاد إلى الأردن ليتوظّف، من جديد، في وزارة اللاجئين، ثمّ في وزارة المال؛ وبعدها في ديوان المحاسبة الذي استمرّ فيه إلى أن أحيل على التقاعد، في نهاية العام 1969م. وبعد إحالته على المعاش، سافر إلى الكويت ليعمل فيها، لكنّه أصيب بمرض مفاجىء، فقفل راجعًا إلى الأردن.

بعد عودته من سفره بقليل، وضع كتابه الضخم: الناطقون بالضاد في أميركا الجنوبيّة، وأصدره في جزأين.

يُعدُّ البدويّ المُلثَّم من أدباء الأردن المتميّزين، ومن الأوائل في الرعيل الأدبيّ الأوّل في العالم العربيّ.

فهو باحث من الدرجة الأولى، وبخاصّة في تراجم معاصريه وتاريخهم.

أرّخ للأدب العربيّ، في أمريكا الشماليّة والجنوبيّة، وترجم لرجال الأدب، في فلسطين، ترجمات اتّسمت بالصدق والدقّة والواقعيّة.

دقيق في بحثه، محلّل في كتاباته، كثيرًا ما يتجاوز القشور إلى اللباب، فينفذ إلى إنسانيّة من يُترجم له، ويُحيط بنتاجه إحاطة شاملة، تُغني القارىء عن بحوث أخرى.

وقد أنصف في وصفه جميل بركات، حين قال: «كان البدويّ جوهرة: خُلُق رضيّ، وأدب جمّ، وسعة أفق»..

وكان البدويّ المُلثّم صديق الأدباء، في البلاد العربيّة والأجنبيّة، وقد حافظ على صداقاته، وغذّاها بمراسلات متلاحقة. وهو، كما عُرِفَ عنه، من خيرة الأصدقاء الأوفياء، لم يضنّ بجهد، ولم يتأخر عن بذل، في سبيل الوفاء لتلك الصداقات المميّزة.

انقطع، في أواخر أيّامه، إلى أعماله الأدبيّة، وبدأ يعدّ أبحاثه وتراجمه الميسّرة في أدباء فلسطين ومفكّريها.. وينشرها في مجلّة «الأديب» التي كان نصيرًا لها، ومن أبرز كتّابها. وكان ينشر تراجمه تحت عنوان: «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين».

وهذه التراجم، تؤلّف موسوعة في بضعة مجلّدات، تحتاج إلى جمع، وضبط، ونشر لائق.. لتكون مصدرًا مهمّا في تأريخ الحركة الفكرية في فلسطين.

بدا البدويّ في صحّة جيّدة، في أواخر أيّامه، لكنّ الموت فاجأه، فأرداه، وهو في قمّة عطائه.

كان يوقّع نتاجه بأسماء مستعارة، أبرزها: «البدوي المُلثَّم»، ومنها: «أبو نظّارات»، و«نوّاف البدويّ»، و«فتى مؤاب»، و«غريب عن أورشليم».. لكنّ لقب البدويّ المُلثَّم غلب عليها جميعًا، وقد وقّع به مؤلفاته العشرين، ومقالاته المنشورة في الصحف والمجلّات العربيّة.

آثاره

1 ـ إسلام نابوليون، المطبعة التجاريّة، القدس، 1937، تقديم للمطران بولس سلمان، رئيس أساقفة عمّان للروم الكاثوليك، نقده في مجلّة الضاد، حلب، م7، ص265 ـ 269، ونقده في مجلّة الحديث، حلب، م12، ص263؛ 2 ـ القافلة المنسية، المطبعة التجارية، القدس، 1941، قدّم له رنيف خوري، درس فيه بعض الأعلام الأردنيين،

من الذين أسهموا في الشعر، والعلوم، والفتوحات العربية، نقده في مجلّة الحديث، حلب، 12/ 263، ونقده في مجلّة المقتطف، 1942، مج 100، ص305؛ 3 ـ الناطقون بالضاد في أميركا الشمالية، جزآن، مطابع الريحاني، بيروت، 1956، قدّم له فارس دبغي؛ 4 ـ شاعر الطيّارة: فوزي المعلوف، دار المعارف، القاهرة، 1948م؛ 5 ـ الغواني، في شعر إبراهيم طوقان، عمّان، 1957م، قدّم له شكري شعشاعة؛ 6 ـ الوطن في شعر إبراهيم طوقان؛ 7 ـ إبراهيم طوقان في وطنيّاته ووجدانه؛ 8 ـ ديك الجنّ الحمصيّ، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1948؛ 9 ـ عرار، شاعر الأردن أو مصطفى وهبي التلّ، 1958، قدّم له محمد صبحي أبو غنيمة؛ 10 ـ رسائل إلى ولدي خالد، جزء أول؛ 11 ـ عبد العزيز الرشيد، رائد الإصلاح وشيخ مؤرّخي الكويت، 1970، قدّم له شكري شعشاعة؛ 12 ـ البستاني وإلياذة هوميروس، دار المعارف، القاهرة، 1963؛ 13 ـ عيسى اسكندر المعلوف، أو جهاد خمسين عامًا في خدمة الأدب والتاريخ، دار المعارف، القاهرة، 1969، قدّم له عجاج نويهض؛ 14 ـ ميخائيل الصقّال، حلب؛ 15 ـ من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، موسوعة في تاريخ الحركة الفكريّة والأدب، ترجم فيها لأعلام الفكر والأدب بفلسطين، ترجمة سلسلة، نشرت في مجلّة الأديب، ابتداء من العام 1964م.

المصادر والمراجع

● الناعوري، عيسى، ومحمّد أديب العامري، في مجلّة الأديب، عدد أكتوبر، 1971، وعدد نوفمبر، 1971؛ ● بهاء الدين، وحيد الدين، البدويّ المُلثَّم، حياته، وأدبه، ورسائله، مجلّة الأديب، عدد ديسمبر، 1971؛ ● حسن، محمد عبد الغني، البدويّ المُلثَّم، مجلّة الأديب، عدد نوفمبر، 1971؛ ● العناني، محمد، الفقيد البدويّ المُلثَّم، مجلّة الأديب، عدد نوفمبر، 1971؛ ● العودات، ريما، إلى أبي البدويّ المُلثَّم، مجلّة الأديب، عدد نوفمبر، 1971؛ ● بركات، جميل، يعقوب العودات في ذمّة الله، مجلّة الأديب، عدد نوفمبر، 1971؛ ● جبّور، د. فؤاد حدّاد، الفقيد البدويّ المُلثَّم، مجلّة الأديب، عدد ديسمبر، 1971؛ ● خلايلي، خليل، البدويّ المُلثَّم، مجلّة الأديب، عدد ديسمبر، 1971؛ ● عطوي، فوزي، البدويّ المُلثَّم، مجلّة الأديب، عدد يناير، 1972؛ ● ملحس، ثريا، أمّا الكلمة فباقية، مجلّة الأديب، عدد يناير، 1972، من حفلة تكريميّة أقيمت له في عمّان؛ ● فلسطين، وديع، يعقوب العودات، أديب المبادىء، مجلّة الأديب، عدد يناير، 1972؛ ● حلاّق، عبد الله، إلى أخي يعقوب العودات، مجلّة الأديب، عدد يناير، 1972؛ ● الخشن، مصطفى، يعقوب العودات وصبحي أبو غنيمة، مجلّة الأديب، عدد يناير، 1972؛ ● نويهض، عجاج، في جريدة الحياة، بيروت، 12 شعبان، 1391هـ.

د. ميخائيل مسعود
الجامعة الأمريكية
طرابلس ـ لبنان

ابن بدّي، محمد الأمين بن أحمد محمدي

(1292هـ / 1875م - 1383 هـ/ 1963 م)

هو محمد الأمين بن أحمد بن محمدي (بدّي) حمّيّين بن سيدي عبد الله (سيدينا) العلوي الشنقيطي. تميز محمد الأمين بن بدّي في علم القرآن والفقه واللغة وفنون الشعر. وقد اشتهر بسرعة البديهة والحفظ، إذ كان يحفظ النصوص الكثيرة في فترة وجيزة. فأصبح مرجعا في هذه العلوم. وتقول مصادر موثقة عن العالم الكبير محمد فال (أباه) بن عبد الله «لا يزال يدرس بمحظرته في التُّباغيّة، حوالي 30 كلم جنوبي غرب بوتيلميت». إن محمدًا الأمين بن بدّي قرأ النّحو كله في ستة أشهر، وممّا لا شك فيه أنه برع في هذا الفنّ، يقول محمد الأمين بن بدّي في كتابه «إفادة الغُيّب والنجلاس في مناقب شيخنا ووالدنا أبي العباس» (انظر قائمة المصادر) إنه وقعت له مع والده أحمد بن بدّي قضية دلته على فطنة والده وسرعة بديهته في النحو. وهذه القضية هي «أني سألته، وأنا أحسبني منتهيا في النحو، عن إعراب قوله تعالى ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ [المجادلة: 2]. فأجابني على البديهة: (هن) اسم (ما) و (أمهاتهم) خبرها. فتعجبت من ذلك. ومحل العجب عندي انتباهه لعمل (ما) لأنها لا يُعملها إلا الحجازيون. ولا يعلم أنها تعمل إلا من مارس المُطوّلات».

وتدلّ هذه الحادثة على ضلوع الرجلين في النحو وسرعة بديهتيهما فيه. على أنهما كانا متواضعين ولا يتباهيان بعلمهما.

يقول الدنبجة بن معاوية التندغي الشنقيطي (ت 1418هـ/ 1997م) في كتابه «واضح البرهان في ترجمة أشياخي في القرآن» إنه ودّ عام 1374هـ/ 1954م أن يجيزه محمد الأمين بن بدي في القراءة إعلاء للسند. فقال له محمد الأمين تأدبا وتواضعا: «كفاك ما أخذت من محمد بن الرباني (ت 1367هـ/ 1948م)». وكان الدنبجة قد أخذ الإجازة في القرآن من عدة روايات وإسنادات تحدث عنها في كتابه. وتعلقه بأخذ الإجازة من محمد الأمين بن بدّي يدل على رسوخ هذا الأخير في علم القراءة، إلى جانب العلوم الأخرى السابق ذكرها.

ولد محمد الأمين بن بدّي (حمّيّين) 1292هـ/ 1875م في منطقة الترارزة (بالجنوب الغربي لموريتانيا). ونشأ في بيئة علمية وثقافية متميزة. فهو ينتمي إلى قبيلة العلويين التي يرتفع نسبها إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهي قبيلة عرفت بكثرة علمائها ومكتباتها.

أما أسرة محمد الأمين بن بدّي فقد عرفت بشكل خاص بالعلم والجاه والنفوذ الديني والعلمي في المنطقة.

فأبوه أحمد بن بدّي (ت 1322هـ/ 1904م) كان حجة في علوم القرآن واللغة والمنطق.

وجده محمدي (بدّي) (ت 1264هـ/ 1848م) ابن سيدي عبد الله يقول عنه أحمد بن الأمين الشنقيطي (ت 1331هـ/ 1913م)، صاحب كتاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، إنه «له اليد الطولى في العربية والفقه والبلاغة». وجده الثالث سيدي عبد الله (سيدينا) (ت 1242هـ/ 1826م) تميز بالفقه والقضاء، فكان كبار العلماء في عصره يرجعون إليه إذا استعصت عليهم مشكلات فقهية. وهكذا حتى يصل الأمر إلى جده السادس، سيدي عبد الله، قاضي شنقيط في عصره.

نشأ محمد الأمين بن بدّي ـ كما رأينا ـ في بيت عريق في العلم والثقافة. فبدأ يتلقى العلم منذ نعومة أظفاره على يد والده، أحمد بن بدي. ثم على يد أبّدّ بن محمود العلوي الشنقيطي (ت 1329هـ/ 1911م).

وقد كان والده يتبنى أسلوبا متميزا في تدريس النحو. وهو أسلوب يعتمد على التطبيق أكثر من التنظير. ويتخذ من العامية وبُناها النحوية مجالا لتدريس تلامذته. يقول محمد الأمين بن بدّي في كتابه: «إفادة الغيب والجلاس في مناقب شيخنا ووالدنا أبي العباس» إن والده كان يدربه في الإعراب باللهجة الحسانية. ويقول إن «ذلك كأن أنفع من كتاب سيبويه فما بعده من كتب النحو».

ولعل هذا الأسلوب التطبيقي الذي استخدمه أستاذه ووالده أحمد بن بدي في تدريس علوم النحو هو ما جعل محمد الأمين بن بدي يستوعب كثيرا من النحو في ستة أشهر، كما ذكرت المصادر. فاللهجة الحسانية (المستعملة في شنقيط) هي فرع من اللغة العربية الفصحى، ولكنها أبسط بنية وتركيبا ومعجما. ولذلك يسهل التعامل معها، كمختبر لتدريب الطلاب على الإعراب، لأنهم سيكونون أقدر فهما على تركيب وألفاظ اللغة الدارجة منهم على تركيب وبنيات اللغة الفصحى. فمن المعروف أن «الإعراب مندرج تحت المعنى».

ولذلك ربما كان هذا المنهج أنفع للطلاب من دراسة النظريات والقواعد النحوية المجردة. فهو على أي حال أسلوب مبتكر.

بيد أن والده لم يقتصر على تدريس النحو، ولكنه كان يدرس مختلف العلوم السائدة في عصره. وهذا ما ذكره محمد الأمين بن بدّي في كتابه السابق الذكر الذي ترجم فيه لوالده وأشياخه ومن أخذوا عنه. وعدّ منهم رجالا ثقاتا. فقد كان يدرس علوم الفقه واللغة والقرآن. وقد أخذ عنه محمد الأمين بن بدّي الإجازة في القرآن. وبرع هذا الأخير في علومه وإتقانه.

وبعد وفاة والده ذهب محمد الأمين بن بدّي إلى مكة المكرمة لأداء الحج 1324هـ/ 1906م. وفي عودته، مرّ بالمغرب حيث اتصل بعلماء في فاس والرباط وأخذ عنهم وأخذوا عنه فوائد علمية كثيرة. وعاد كذلك بكتب. فالكتب كانت هي أهم ما يأتي به المسافر، خاصة العلماء من أمثال محمد الأمين بن بدّي.

خلف محمد الأمين بن بدّي والده في الطريقة الصوفية وفي تدريس العلم لمن يفدُ إلى محظرتهم من طلاب. ويبدو أن محمدًا الأمين بن بدّي ابتكر أسلوبا جديدا لتنظيم المحظرة. فقد كان يخصص كبار تلامذته

لتدريس الطلاب الوافدين من خارج القرية. فقد اختار محمّد بن أنحوي (ت1389هـ/ 1969م) الزينبي - وهو من كبار تلامذته - لتدريس الطلبة الأجانب. وهي مهمة كان محمد الأمين بن بدّي يحرص على إسنادها لمن هو كفء لها، ليس في الجانب العلمي فقط، ولكن في الجانب الدبلوماسي والسلوكي أيضا.

وهذا التنظيم والتقسيم لأدوار المحظرة لا يمكن أن يفهم على أنه صارم أو جامد، على هذا النحو. ذلك أن شيخ المحظرة الأول، محمد الأمين بن بدي، كان يفتح أبوابه لتدريس تلامذته، سواء كانوا أجانب أو محليين.

ولكن ربما كان الهدف من هذا التنظيم هو تخصيص أحد كبار التلاميذ من العلماء للعناية بشؤون الطلبة الوافدين، وتذليل الصعاب أمامهم لكي ينسجموا مع بيئة المحظرة، بالإضافة إلى دوره في تدريسهم مختلف المتون المقررة، على أن يظل شيخ المحظرة هو السلطة المرجعية إذا استعصت مشكلة علمية أو نشأ خلاف، وغير ذلك من الأمور التي قد تستدعي تدخل الشيخ.

ومن أهم تلامذته محمّد بن محمّذن بن أنحوي الزّينبي (ت 1388هـ/ 1968م) الذي كان يتولى تدريس الأجانب في محظرته - كما سبقت الإشارة إليه - ومحمد عالي (ت 1394/ 1974) ابن محمّذُو بن فتى.

عاش محمد الأمين بن بدّي في عصر الاستعمار الفرنسي والسيطرة الأجنبية على البلاد. وهي فترة عصيبة من تاريخ موريتانيا. ذلك أن الاستعمار لم يكتف باستنزاف الموارد الاقتصادية للبلاد، ولكنه استهدف - وربما بدرجة أكبر - المقوم الحضاري والثقافي أيضا. وكانت قبائل الزوايا المعتنية بالعلم والثقافة التي ينتمي إليها محمد الأمين بن بدي تعيش في صراع ثقافي مع المستعمر، إلى جانب الصراع المسلّح الذي شاركت فيه كثير من القبائل الموريتانيا من زوايا وحسان؛ وإن بأساليب مختلفة.

أما القبيلة التي ينتمي إليها محمد الأمين بن بدّي - قبيلة العلويين - فهي التي احتضنت الطريقة التجانية وعملت على نشرها في موريتانيا وغرب إفريقيا. فكان الشيخ محمد الحافظ (ت 1247هـ/ 1832م) بن المختار بن الحبيب العلوي الشنقيطي هو أول من أدخل الطريقة التجانية إلى شنقيط في القرن 13هـ/ 19م. وقد أخذها مباشرة عن الشيخ أحمد التجاني (ت 1230هـ/ 1814م) الذي لقيه في فاس بعد عودته من الحج سنة 1218هـ/ 1803م. ومكث معه ثلاث سنوات يتربى على يده حتى أجازه. ثم عاد إلى شنقيط فأقبلت عليه قبيلته وأخذت عنه الطريقة التجانية، فانتشرت في بلاد شنقيط وفي غرب إفريقيا.

وكان محمد الأمين بن بدّي خليفة في عصره للشيخ محمد الحافظ. وكذلك كان أبوه أحمد بن بدّي وجده محمدى (بدّي) بن سيدي عبد الله الذي كان يُدعى «حسّان الطريقة التجانية»، لأنه تصدى للدفاع عنها بالشعر ضد خصومها. ولذلك سمي بحسان الطريقة التجانية مقارنة له بدور حسان بن ثابت في الدفاع عن الإسلام بشعره.

وقد دافع محمد الأمين بن بدّي نفسه عن هذه الطريقة ضد منتقديها في مناظرة كبيرة وقعت

في بُوتلميت 1349هـ/ 1930م، بعد مناظرة مماثلة وقعت قبلها لم يحضرها محمد الأمين بن بدي.

لقد عاش محمد الأمين بن بدّي إذًا في ظل هذه الأوضاع السياسية والفكرية والاجتماعية العصيبة. ولكنه بعقله الراجح وحنكته السياسية ومعرفته العلمية استطاع أن يبني علاقات وُدّ وطيدة مع معظم القبائل الموجودة في المنطقة. وقد تتلمذ عليه كثير من أعيانها في العلم والتصوف. ولذلك كان له تأثير كبير في المنطقة، لما يتمتع به من نفوذ علمي وصوفي.

توفي محمد الأمين بن بدّي 1383هـ/ 1963م ودفن بالنُباغية، وهي قرية تقع بين مقاطعتي بُوتلميت والركيز بالترارزة.

آثاره

1 ـ إفادة الغيب والجلاس في مناقب شيخنا ووالدنا أبي العباس. مخ. توجد منه نسخة في قسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بانواكشوط، تحت رقم 2326؛ 2 ـ شرح لمنظومة الحاج محمد بن الحاج عبد الله الكولخي المسماة «المرهفات القطع»؛ 3 ـ أجوبة حول فقه الطريقة التجانية يجيب فيها محمد بن محمد العيدي الأبيرى على أسئلة وجهها إليه في هذا الموضوع، مخ.؛ 4 ـ أنظام في الفقه مخ.

المصادر والمراجع

● ولد محم، مُحمّدُو، سيدي عبد الله بن ألفغ سيد أحمد (سيدينا)/ حياته ـ أسرته ـ فتاويه بحث لنيل الإجازة في العلوم الشرعية واللغوية، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية بانواكشوط، 1997؛ ● ابن بدي، محمد الأمين، إفادة الغُيّب والجلاس في مناقب شيخنا ووالدنا أبي العباس. مخ.، يوجد بقسم المخطوطات بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي بانواكشوط، تحت رقم 2326؛ ● الدنبجة بن معاوية، واضح البرهان في ترجمة أشياخي في القرآن، مخطوط بحوزتنا، وهناك نسخ منه في مكتبة آل الدنبجة بعلب آدرس، شمالي شرقي بوتلميت؛ ● الشنقيطي، أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1409هـ/ 1989م؛ ● أنحوي، الخليل، بلاد شنقيط/ المنارة والرباط. المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، تونس 1987؛ ● ابن أحمد، محمدي، ديوان العلامة محمد بن أنحوي/ جمع وتحقيق، بحث لنيل الإجازة في العلوم الشرعية واللغوية، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، انواكشوط، 1989؛ ● ابن خيري، محمدي، باب بن أحمد بيب ـ حياته وديوانه ـ مذكرة نهاية الدراسة، المدرسة العليا للأساتذة والمفتشين، أنواكشوط 1985.

د. محمد بن محمد عالي
جامعة انواكشوط ـ موريتانيا

البُديري، الحاج أحمد الحلاّق

(ت بعد 1175هـ/1762م)

الحاج أحمد بن بدير شهاب الدين البديري الحلاّق الدمشقيّ، لا يُعرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته، وكل الذي نعرفه أنّه أرّخ من سنة 1154هـ / 1741م إلى سنة 1175هـ / 1762 م، أي أنه من أهل القرن 12هـ / 18م. عمل حلاّقا، ولعلّه اكتسب هذه الحرفة عن أبيه. وُلد ونشأ بمحلّة القُبيبات من ضواحي دمشق، من أسرة متواضعة، متديّنة، وانتمى إلى إحدى الطرق الصوفية، المعروفة بالطريقة السعدية؛ وتردّد على مشايخ عصره، وأخذ عنهم التصوّف، وأصبح له أوراد وأدعية وتسابيح، وآمن بالكرامات، وإلى جانب التصوّف مالَ إلى الأدب، فتعرّف على شاعر الشام وأديبها الكبير «عبد الرحمان البهلول» (ت 1163هـ / 1749 م)، فنقل من شعره في كتابه، ونظم هو الشعر الشعبي بطريقة المواليا، وأثبت ذلك في كتابه الذي تناول حوادث دمشق اليومية لمدة واحد وعشرين عامًا.

لم يتنطّح البديري لتدوين تاريخ عام، أو تاريخ بلاد الشام بكاملها، فهو قد عرف قدره فوقف عنده، واكتفى بتسجيل يوميّات ما يحدث بوطنه دمشق بطريقة لا تصنّع فيها، فلم يرصد أخبار عِلْية القوم من وُلاة وأعيان وعلماء فحسب، بل تتبّع أخبار العوام من أبناء الطبقة الكادحة والمكدّين، وسفْلة القوم، وكلّ ما يحرّك الحياة في المجتمع الدمشقي، مع تتبّع الظواهر الكونية، والمناخ، والأوضاع المعيشيّة من غلاء وقحط وأمراض، وأعمال شغب وفِتَن وحروب، وعلاقات اجتماعية، وأوضاع سياسية كما يراها الفرد الدمشقي بعين مجرّدة ليس فيها هوى وجنوح لسياسة بعينها سوى ما يحقّق المصلحة العامّة.

كما أرّخ لأحداث جرت في مناطق أخرى من بلاد الشام، ولكنّها ذات مجرى لا بدّ أن يتّصل بدمشق، سيّما أنّها عاصمة بلاد الشام، والمحور الأساس للحركة السياسية، واعتبار المناطق الشامية وحدة سياسية وإدارية واقتصادية في العهد العثماني، وتفاعل الأحداث وتأثيرها في مجري الحياة بدمشق ونواحيها.

ولقد أخرجت دمشق مؤرّخا قبل البديري الحلاّق في عصر المماليك، وبقي إلى قُبيل دخول دمشق بحوزة الأتراك العثمانيين بسنوات معدودة، هو ابن طوق (ت 915هـ / 1509 م) دوّن مثله يوميّات لفترة تاريخيّة مُقاربة، هي 23 عامًا، وكان من أسرة متواضعة أيضًا، ولكن من الصعب القول بأنّ البديري اطّلع على مدوّنات ابن طوق، وإنْ كان الأسلوب والمنهج في الكتابة واحدًا، والفكرة لدى الاثنين واحدة، إلاّ أنّ ابن طوق كتب في عصر المماليك، بينما كتب البديري في العصر العثماني، وشابَ كتابته شيء من الأغلاط اللغويّة والنحويّة، واستخدم في

إنشائه الكلمات العاميّة، والكثير من الألفاظ والمصطلحات التركية الشائعة.

ويظهر، فيما دوّنه البديري من يوميّات، حرصُه واهتمامه برصْد قوافل الحجّاج من كلّ عام، ذهابًا وإيابًا، وخروج الجرْدة، وموافقات بدايات الشهور الهجرية بالميلادية، والظواهر الكونيّة، من حركة الكواكب، والزلازل، والصقيع، والجليد، والريح، والمطر، ويسجّل أوقات الغلاء، والأسعار، وأخبار الجراد، والحروب، والفِتَن، ويوميات الولاة، وأخبار القبائل والعشائر.

وهو يسوق التراجم والوفيات ضمن الحوادث حسب التساوق التاريخي، ويترجم للرفيع والوضيع، ويُثْبت مشاهداته الشخصيّة، وأحيانًا يستقي معلومات من مصادر شفهيّة يثق بها: «أخبرني بعض من أثق به»، وأحيانا يركن إلى ما يقوله الناس: «فسألت الناس عن الخبر»، ويأتي بالخبر بكامل تفاصيله، لدرجة أنه يذكر نص الحوار الذي كان يدور بإظهار أسفه وتألّمه ممّا آلت إليه حال الناس؛ ويسترسل في الوعظ، فهو يودّ أن يكون ناصحا مرشدًا، وواعظًا، وليس مجرّد مؤرّخ أصمّ، بل هو، أيضا، يستهلّ أخبار كل سنة بالدعاء أن تكون سنة خير وبركة على أهل الشام، وعلى الناس أجمعين، ويُعتبر كتاب البديري وثيقة تاريخيّة، ومصدرًا هامًا لا يُسْتغنى عنه في كتابة الحقبة التاريخية التي تناولها.

آثاره

ـ حوادث دمشق اليومية، علّق عليها ونشرها عزت عبد الكريم.

المصادر والمراجع

• مقدّمة كتابه حوادث دمشق اليوميّة؛ • المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، 1/ 160؛ • معجم المؤلفين، 1/ 173؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 1/ 103.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

البديع الأسطرلابي، أبو القاسم هبة الله بن الحسين

(ت 534هـ/1139م)

هو أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف البغدادي المعروف بالبديع الأسطرلابي. من أهل بغداد، ومن كبار علماء الفلك والفلسفة غلبت عليه الحكمة وعلم النجوم والرصد وعلم الكلام. كان أديبا وشاعرا يميل إلى المجون والفكاهة في شعره. وكان وحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية، لا سيما الأسطرلاب، لذلك لقب

بالأسطرلابي. توفي ببغداد بالفالج سنة 534هـ / 1139 م، ودفن بالمقبرة الوردية بالجانب الشرقي من بغداد. ولما مات لم يخلفه في شغله مثله. لا توجد معلومات بشأن حياته وتعلمه.

والمعروف أنه كان في أصفهان في عام 510هـ / 1116م حيث كانت له علاقات صداقة مع الطبيب المسيحي أمين الدولة بن التلميذ، ثم ذهب إلى بغداد بأمر من الخليفة المسترشد بالله (512 ـ 529هـ / 1118 ـ 1135م) وواصل فيها بحوثه العلمية وحصل على ثروة كبيرة. وقد أهل نفسه في هذه المراكز العلمية والثقافية بعد أن قضى فيها فترة طويلة. وتذكر المصادر القديمة أنه بجانب علم الفلك كان على دراية بعلوم الرياضيات، والطب، والشعر، والأدب، والكلام، والفلسفة. وبعد أبي الفداء أوكلت إليه إدارة المراصد الفلكية التي أسست في قصر السلطان السلجوقي في بغداد عام 524هـ/ 1130م. ويعتقد أنه ألف كتابه المتعلق بالجداول الفلكية والذي أهداه إلى السلطان مغيث الدين محمود بن محمد طبار (مدة حكمه 1118 ـ 1130م) بعد إنشائه لهذه المراصد. وقد قام حامد بن خضر الهجندي (ت 390هـ/ 1000م) باختراع آلة فلكية تقيس عرضا واحدا، ثم جاء البديع الأسطرلابي وطوّرها وجمع فيها الآلات الفلكية الكروية والساعات وآلة الأسطرلاب وآلات تعيين القبلة وغيرها، حتى تقوم هذه الآلة الشاملة بعمل جميع أعمال هذه الآلات. وقد اختبر عملها بالقواعد الهندسية فصحّ اختبارها، وأحكمها بعد ذلك، وأسند صناعتها بالبراهين القطعية. ثم دوّن اختراعه في كتاب ألفه وسماه: كتاب الآلة الشاملة جعله في ثلاثين مقالة. كل مقالة في وصل وعمل كل جزء من أجزاء هذه الآلة، وضمنها بعض التخطيطات التوضيحية لصناعتها وعملها. ولم يوجد لهذا الكتاب ذكر في المصادر سوى ما أورده ابن القفطي في كتابه «أخبار العلماء بأخبار الحكماء». وتوجد نسخة خطية فريدة (حسب المعلومات) من هذا الكتاب في إحدى خزائن المخطوطات في بغداد ترقى إلى بداية القرن الثامن للهجرة / القرن الرابع عشر للميلاد.

لقد حملت هذه الآلة الفلكية إلى الخلفاء والأمراء وجرّبوها فصحّت تجربتها، وحصل له بما كان من صناعتها وصناعة الأسطرلاب الأموال الكثيرة، وقد قرّبه الخليفة المسترشد بالله العباسي (512هـ / 1092م ـ 529هـ / 1135 م)، وأغدق عليه المال وأصبح من خاصته.

وكان الأسطرلابي بجانب اهتمامه بعلم الفلك مهتما أيضا بعلم الميكانيكا، ومن المهتمين أيضا بهذا العلم بديع الزمان أبو العز إسماعيل بن رزاز الجزري (عاش بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر) الذي ألف رسالة في الميكانيكا. وفي معرض تعريفه بإحدى الآلات المتعلقة بالميكانيكا يذكر أنه اطلع على مقال في هذا المجال عندما كان في بغداد في عام 517هـ/ 1123م ألفه الأسطرلابي في شكل الآلة وطبيعتها وفيها أظهر نجاحا باهرا [الجامع بين العلم، ص. 423].

■ آثاره

1 ـ كتاب العمل بالكرة، يوجد هذا المؤلف

في مكتبة فرانس روزنتال، بودلين، [د. مارش، رقم 663، ورق 163 ـ 189]؛ وقد نشر قسم كبير من مؤلف بهذا العنوان منسوب إلى شخص مجهول، ويستنتج من خصائصه أنه لا يكون لغير البديع الأسطرلابي؛ 2 ـ درة التاج من شعر ابن الحجاج، ويقع شعر ابن الحجاج في عشرة مجلدات [وفيات الأعيان، 2/ 168]، وكان الأسطرلابي قد جمع شعره واختصره وسماه «درة التاج من شعر ابن الحجاج». وقد رتب هذا المختصر المختار على 141 بابا. وجعل كل باب في فن من فنون الشعر، وفي دار العراق للمخطوطات نسخة خطية قديمة تبدأ بالباب الأربعين «اليأس بعد الطمع»، وتنتهي بآخر الكتاب [فهرس مخطوطات الأدب في المتحف العراقي لأسامة النقشبندي وظمياء محمد عباس، 163]؛ 3 ـ المعرب المحمول، وهو كتاب متعلق بالجداول الفلكية، أهداه إلى السلطان مغيث الدين محمود بن محمد طبار [ابن أبي أصيبعة، ص 380]؛ 4 ـ شرح رسالة في الآلة الشاملة، وهو شرح للرسالة المتعلقة بآلة الرصد ذات الوظائف الكثيرة التي صنعها حامد بن خضر الهجندي؛ 5 ـ ديوان الأسطرلابي، وهو ديوان أشعار بديع؛ 6 ـ رسالة في الكرة ذات الكرسي.

المصادر والمراجع

● عماد الدين الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر، نشر محمد بهجت الأثري، بغداد 1398/ 1978، III/II ص138 ـ 145؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، القاهرة 1355 ـ 1357، XIX، 273 ـ 275؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، نشر نزار رضا، بيروت 196، ص 376 ـ 380؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، نشر إحسان عباس، بيروت 1968 ـ 1972، VI، 50 ـ 53؛ ● أبو الفداء، التاريخ، استنبول 1286، III، 16؛ ● إسماعيل بن رزّاز الجزري، الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، نشر أحمد يوسف الحسن، حلب 1979، ص. 423؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت 1405هـ/ 1985م، XX، 52 ـ 53؛ ● ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، فرانكفورت 1408/ 1988، IX، 96 ـ 97؛ ● قدري حافظ طوقان، التراث العربي العلمي في الرياضيات والفلك، بيروت 1963، ص 380 ـ 382؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 8/ 73 ـ 74.

● Heinrich Suter, Die Mathematiker und Astronomen der Araber und Ihre Werke, Leipzig 1900, p. 117; ● Heinrich Suter, "al- Badi al-Usturlabi", Encyclopaedia of Islam, Leiden 1954, I, 858; ● Franz Rosenthal, "al-Asturlabi and as-Samawal on Scientific Progress", Osiris, IX, Bruges 1950, p. 555-564; ● Aydm Sayili, The Observatory in Islam, Ankara 1960, p. 175-177; ● Sarton, Introduction to the History of Science, London 1962, II/I, p. 204; ● Sezgin, Geschichte der Arabischen Schrifttums, Leiden 1967-1984, II, 594, V, 299, VI,

221; • David A. King, "New Light on the Zij al - Safaih of Eb Jafar al - Khazin", Islamic Astronomical Instruments, London 1987, XI. Makale, p. 105-117; • Hasan Fakih Abdullahi, "Bedi Asturlabi", Danisnamei Cihani Islam, Tahran 1375, II, 549-552; • Ferruh Mftoglu, "Bedi el-Usturlabi", Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1992, V, 322.

د. أحمد أوزال
الموسوعة الإسلامية ـ استنبول
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي
د. أسامة ناصر النقشبندي
دار التراث ـ بغداد ـ العراق

ابن البذوخ، أبو جعفر عمر بن علي

(ت 576هـ/1180م)

هو أبو جعفر عمر بن علي بن البذوخ القلعي المغربي، أبو جعفر، طبيب، صيدلي، خبير بالأدوية المفردة والمركبة وتحضيرها، شاعر، له دراية بعلم الحديث.

شهدت بلاد الشام ازدهارا ملحوظا في العلوم الطبية ومباحثها، وقد تجلى ذلك بكثرة الأطباء الممارسين، والتنظيم الجيد والاهتمام بإنشاء المؤسسات الصحية الاستشفائية والتعليمية، وتخصيص الأوقاف الواسعة للإنفاق عليها وتحسينها وإحكام الإشراف عليها وتسييرها؛ فأصبح الأطباء يلاقون الحظوة والتشجيع في بلاد الشام خاصة منها مدينة دمشق. وهكذا بالإضافة إلى رخاء العيش فيها، مما جعلها مقصد هجرة الأطباء من أنحاء العالم الاسلامي، خاصة من بلاد المغرب والاندلس والعراق، وذلك على الرغم من الظروف السياسية الصعبة (الحروب الصليبية) التي كانت البلاد تمر بها في ذلك العصر، ومن أشهر الأطباء المغاربة الوافدين، والذين كان لهم إسهام واضح في تطوّر العلوم الطبية وتقدمها، وتقديم الخدمات الطبية لعامة الناس: عمر بن علي بن البذوخ، الذي نزل دمشق وأقام فيها حتّى وفاته.

كان بعض الأطباء في القرنين السادس والسابع الهجريين، ضمن المدن الكبرى في بلاد الشام يمارسون مهنتهم في «دكاكين خاصة» حسب تعبير ابن أبي أصيبعة [عيون، 615، 628، 630]. وهي أشبه بالعيادات الطبية الخاصة في وقتنا الحاضر، ومنهم ابن البذوخ الذي افتتح دكانا في قلب مدينة دمشق، وذلك بالقرب من «باب اللبادين» وهو ما يعرف حاليا بباب النوفرة، أو الباب الشرقي للجامع الأموي، وكان يعالج فيها من يقصده أو يستوصف منه، وعلى الرغم من أن

الطب والصيدلة صناعتان مختلفتان، الا أنّهما متكاملتان، وقد غلب لدى ابن البذوخ مثل غيره من أطباء الشام في تلك الفترة، المزج بين صناعتي الطب والصيدلة، فكان يهيىء عنده أدوية كثيرة مركبة يصنعها من سائر المعاجين والأقراص والسفوفات وغير ذلك، ويبيع منها وينتفع الناس بها [عيون، 628]، وهذا ما دعا ابن أبي أصيبعة الى تسميتها «دكان عطر» [عيون، 628]، أي أنها كانت تحتوي على أدوية مفردة متنوعة (نباتية، حيوانية، معدنية)، يقوم ابن البذوخ بتحضيرها وتركيبها بأشكال صيدلية مختلفة (معاجين، أقراص، سفوفات. . . الخ) لتصبح أدوية مركبة تمهيدا لوصفها للمرضى بحسب خطة العلاج. ودكان العطر بالمفهوم الحالي هي لبيع أنواع العطور وما يتعلق بها، كانت توازي صيدلية آنذاك يديرها ابن البذوخ الذي كان فاضلا خبيرا بمعرفة الأدوية المفردة والمركبة [عيون، 628]، كما كان ابن البذوخ طبيبا عمليا «له حسن نظر في الاطلاع على الأمراض ومداواتها» [عيون، 628] بفضل اطلاعه المستمر الواسع على المصادر الطبية، ودراستها وتمحيصها، وتحقيق ما ذكر فيها من أمراض ومعالجات، أي أنه كان يعتمد على نفسه في الدراسة والتحصيل (التعليم الطبي الذاتي). وقد حقق شهرة واسعة في مدينة دمشق في مهنته كطبيب وصيدلاني، مما جعل عيادته أو دكانه مقصد الجميع، وهو ما دعاه إلى الالتزام بالعمل فيها وعدم الانقطاع عنها، حتّى بعد أن جاوز الثمانين من عمره، «وضعف عن الحركة، حتّى أنّه كان لم يأت إلى دكانه إلاّ محمولا على محفة» [عيون، 629] مما يدل على رواج أدويته وصواب علاجاته. ومن المؤكد أنه بعد بلوغه هذا العمر، قد توقّف عن العمل في تركيب الأدوية وغيرها، وكان يعتمد على مساعدين له، ولكن خبرته الطبية الواسعة وذكاءه الحاد لم يفارقاه، وبقي طبيبا عالما ثقة، خبيرا بالأدوية حتّى آخر أيام عمره، كما يقول من البسيط [عيون، 629]:

إن الشيوخَ كأشجار غدتْ حطبا
فليس يُرجى لها توريق أغصان

لم يبق في الشيخ نفعٌ غير تجربة
وحسنِ رأي صفا من طول أزمان

كما اشتهر بنزعته الدينية الواضحة، التي دفعته إلى الاعتناء بعلم الحديث وشروحات القرآن الكريم كما يذكر في قصيدته حول الموت والمعاد ويصف حاله بعد أن جاوز الثمانين من عمره [عيون، 629]:

وما بقي في لذيذ يُستلذّ به
لي لذةٌ غير تنصيت لقرآن

أو شرحه أو شروحات الحديث وما
يختصّ بالطبّ أو تفكيه أقران

إلى أن يقول [عيون، 629]:

يا خالقَ الخلْق يا من لا شريكَ له
قد جئتُ ضيفا لتقريني بغفران

مولاي ما لي سوَى التوحيدِ من عمل
فاختمْ به منعماً يا خير منّان

وأولع ابن البذوخ بنظم الشعر والرجز، وقد ذكر له ابن أبي أصيبعة بعضا من قصائده ويصفه بأنه «يشعر وله رجز كثير إلا أن أكثر شعره ضعيف منحل» [عيون، 628]، ويغلب

على شعره نزعة التدين العميق، ويعتمد المصادر اليونانية الطبية القديمة (أبقراط، ديسقوريدس، جالينوس)، ويعتبرها من المصادر الأساسية الطبية، التي لا يستغني عنها الطبيب، كما يعتبر كتب جالينوس قد حوت علوم الطب الأصلية وأركانه، ولا يحتاج أحد بعدها لمستزيد، كما يقول من البسيط في قصيدته [عيون، 629]:

أكرم بكتْب لجالينُوس قد جمعت
ما قال بقراط والماضون في القِدم
كديسقوريدس علم الدواء له
مسلَّم عند أهلِ الطبِّ في الأمُم
فالطب عن نيْن مع بقراط منتشر
من بعدهم كانتشار النورِ في الظلم

إلى أن يقول:

بطبهم تقتدي الأفكارُ مشرقة
ترى ضياء الشفا في ظلمة السقمِ
لا تبتغي في شفاء الداءِ غيرهم
فإن وجُدانه في الطبّ كالعدم
لأنهم كمَّلوا ما أصَّلوه فما
يحتاج فيهم إلى إتمام غيرهم

ويبقى علم الأدوية ومقاديرها وتحضيرها وتركيبها، أي في النواحي الطبية التطبيقية، فيعترف ابن البذوخ بأن جميع الأمم من عرب وعجم لهم مشاركات ومساهمات مفيدة، ويبقى الطب حسب رأيه في إطاره النظري وقواعده الأساسية وقواعد العلاج يونانيا خالصا، أما التطبيق العلمي الدوائي، فقد شارك الجميع بتطويره والمساهمة فيه، حيث يقول [عيون الأنباء، 629]:

إلا الدواءُ فما تُحصى منافعُهُ
وعدّه كثرة في العُرب والعجم
عدّ النجوم نبات الأرض أجمعها
من ذا يعد جميع الرمْل والاكم

وهذا ما دفعه إلى الاعتناء بشرح «كتاب القانون» لابن سينا، ووضع حواش عليه، لزيادة الشرح والإيضاح ولبيان وجهة نظره في الأدوية والمعالجات.

ولاحقت الأمراض ابن البذوخ وتكاثرت عليه العلل، ففقد بصرَه وسمعَه وأسنانه، وأصبح شيخا فانيا لا يقوى على الحركة الا بمساعدة الآخرين، وعبر عن ذلك شعرا بنبرة حزن وأسى مدركا أن أجله قد حان قائلا من البسيط [عيون، 629]:

عشرُ الثمانين يا مولاي قد سلبت
أنوار عيني وسمْعي ثمّ أسناني
لا أستطيع القيامَ غير معتمِد
ما بين اثنتين، شكوائي لرحماني
فالشيخ تعميرُه يفضي إلى هرم
يُذِله أو عمًى أو داءِ إزمان
فموته ستْره إذ لا محيصَ له
عَن المَمَات فكَمْ يبقى لنقصان

لذلك يطلب الرحمة والاستغفار من رب العزة والجلالة قائلا [عيون، 629]:

يا ذا الجلالة والإكرام يا أملي
اختم بخير وتوحيد وإيمان
يا خالق الخلق يا من لا شريك له
قد جئتُ ضيفا لتقريني بغفران

مولاي ما لي سوى التوحيد من عمل
فاختم به منعمًا يا خير منان

آثاره

إن النزعة الشعرية الغالبة على ابن البذوخ، جعلته يشرح: 1 ـ كتاب الفصول لأبقراط [عيون، 630؛ هدية العارفين 5/ 784؛ الصفدي، نكت الهميان، 220]، على شكل أرجوزة شعرية؛ 2 ـ كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط [المراجع السابقة] على شكل أرجوزة شعرية، ولأن الأراجيز الشعرية الطبية كانت سائدة في زمنه، ومطلوبة من الأطباء كأسلوب تعليمي ليسهل حفظها ومراجعتها؛ 3 ـ ذخيرة الألباء المفرد في التأليف عن الاشباه، وهو كتاب عن الباه [المراجع السابقة]؛ 4 ـ لطائف الأنوار في الطب [حاجي خليفة، 2/ 1552؛ إيضاح المكنون 4/ 403]؛ 5 ـ حواش على كتاب القانون لابن سينا [عيون، 630؛ الصفدي، نكت الهميان، 220؛ هدية العارفين، 5/ 784]؛ بالإضافة إلى قصائد شعرية متفرقة من نظمه، ولكنها لم تجمع في ديوان مستقل.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، منشورات مكتبة الحياة، بيروت 1955، ص 628 ـ 630؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/ 1992م، 3/ 541، 4/ 403؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/ 1992، 5/ 784؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/ 1992، 2/ 1552؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996، 2/ 165؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة 14، دار العلم للملايين، 1999، 5/ 55؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، نكت الهميان في نكت العميان، طبعة أحمد زكي، القاهرة 1911، عني بنشره لاحقا أسعد طرابزون الحسيني، 1984، ص 220؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، 7/ 298؛ ● م.ن، العلوم العلمية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق 1392هـ/ 1972م، ص 57، 148.

د. محمد فؤاد الذاكري
باحث في التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

ابن البرّاج، أبو القاسم عبد العزيز بن نحرير

(ت 481 هـ/ 1088 م)

هو أبو القاسم، عبد العزيز بن نحرير بن عبد العزيز بن البرّاج، الملقّب «عزّ المؤمنين»، قاضي طرابلس الشام في عهد أمرائها من بني عمّار الذين استقلّوا بحكم المدينة عن الدولة الفاطميّة. كان من كبار علماء الشيعة وفقيههم.

وُلد في مصر في سنةٍ غير معروفة، وبها نشأ، ثم رحل إلى العراق ولازم الشيخ المرتضى، الشريف علي بن الحسين الموسويّ اعتباراً من سنة 429 هـ. حتى وفاته سنة 436 هـ. وكان الشريف المرتضى يؤدّي إليه ثمانية دنانير شهرياً أثناء قراءته عليه. وانتقل بعد وفاته فدرس على الطوسيّ، أبي جعفر محمد بن الحسن (توفي 460 هـ) ومحمد بن عثمان الكراجُكيّ (توفي 449 هـ) وغيرهما، وعاد إلى طرابلس الشام في سنة 438 هـ. فأقام بها إلى أن ولاّه جلال المُلْك بن عمّار أمير طرابلس قضاءها، فبقي عشرين عاماً، وقيل: ثلاثين عاماً.

تخرّج عليه الكثير من الشيوخ، ومنهم قاضي طرابلس من بعده أسعد بن أبي روح الطرابُلسيّ (توفي 520 هـ)، وكان يعقد المناظرات في مجلس أمير طرابلس، ومنها مناظرةٌ مع إمام المعتزلة عبد السلام بن محمد القزويني (توفي 488 هـ).

برع في حلّ المسائل الفقهيّة، ومارس تطبيقها عمليّاً بحكم وظيفته، واجتهد في عرضها ضمن مؤلّفاته التي وضعها بالعربية والفارسيّة، وكتب في الأصول والفروع، وعلم الكلام. وعندما ألّف كتابه «الجواهر» في الفقه، رتّبه على الأبواب، بدءاً بباب مسائل الطهارة، وباب مسائل الصلاة، وهكذا إلى الباب الأخير وهو باب مسائل المُعَمَّيات الفقهيّة والألغازها، وعناوينها: مطالب كل باب، فيورد المسألة أوّلاً، ثم يأتي بالجواب بعدها، وهكذا. وقد نسخ هذا الكتاب «القُطْب الراونديّ» (توفي 573 هـ) وكتبه بخطّه وأجازه لولده نصير الدين حسين الشهيد قبل سنة 575 هـ، وطُبع ضمن مجموعة «جوامع الفقه» في سنة 1276 هـ.

توفيّ القاضي ابن البرّاج بطرابلس في سنة 481 هـ/ 1088م. ودُفن في حُجرة القاضي.

آثاره

1 ـ المهذّب (فرغ من تأليفه سنة 467 هـ)؛ 2 ـ المُعتَمَد؛ 3 ـ الروضة؛ 4 ـ المقرّب؛ 5 ـ عماد المحتاج في مناسك الحاج؛ 6 ـ الكامل في الفقه؛ 7 ـ الموجز في الفقه؛ 8 ـ كتاب في الكلام؛ 9 ـ الجواهر (وسمّاه مؤلّفه: جواهر الفقه) مطبوع؛ 10 ـ المعالم، في الأصول والفروع؛ 11 ـ المنهاج، في الأصول والفروع؛ 12 ـ روضة النفس في أحكام العبادات؛ 13 ـ حُسن التعريف؛

14 ـ شرح جُمل العلم والعمل، لشيخه «الطوسي».

المصادر والمراجع

● إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون 1/ 597؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربية، ص 45؛ ● آغا بُزُرك الطِهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، 5/ 256 ـ 257؛ ● عمر عبد السلام تدمري، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت 1404 هـ/ 1984م ـ القسم الأول، جزء 3/ 147 ـ 152 رقم 824.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

البَرَاذِعِي، أبو سعيد القيرواني

(ت 430 هـ/1039م)

أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي القيرواني المغربي المعروف بالبراذعي، من كبار حفاظ المذهب المالكي، المؤلفين فيه. ولد بالقيروان، وبها نشأ وتعلّم، ولا يعرف على وجه التحديد تاريخ مولده ووفاته، وقد أغفلت كتب الطبقات والتراجم تحديد ذلك، قال عياض: «ولم يبلغني وقت وفاته» [القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج7، ص 257]. والراجح من مختلف الروايات التي تحدثت عن شيوخه وأصحابه وبداية تآليفه في الفقه أنه ولد في منتصف القرن الرابع الهجري، والقيروان وقتئذ تزخر بالعلماء والفقهاء. وقد عرف البراذعي بأنه من كبار أصحاب ابن أبي زيد القيرواني (ت 386 هـ)، وأبي الحسن القابسي (ت 403 هـ)، وبهما تفقه؛ كما روى عن أبي بكر هبة الله بن أبي عقبة التميمي (ت 369 هـ) وعنه صحح المدونة، ورغم نبوغه وذكائه المتميز لم تحصل له رئاسة بالقيروان، وكان مبغضا عند أصحابه، إذ كان في بداية أمره يتسبب في الاعتراض على شيخه ابن أبي زيد والتنبيه على أوهامه والازدراء ببعض كلامه لأنه يرى نفسه ندا له، وكان يتصدّى لتقليد ابن أبي زيد في تأليفه؛ فما صنف ابن أبي زيد كتابا، إلا اقتفى أثره ووضع ما يشاكله؛ ولم يحمد الناس صنيع البراذعي ولم يقبلوه لما كان يتمتع به ابن أبي زيد من مكانة مرموقة عند أهل القيروان، إضافة إلى ذلك أنه كان يميل إلى الولاة الفاطميين ويُواليهم ويقبل هداياهم حتّى قيل إنه ألف لهم كتابا في إثبات نسبهم إلى فاطمة الزهراء، وقيل أيضًا وجد بخطه في بعض أمراء الشيعة تعريض بالبيت المشهور:

أولـئـك قـومٌ إن بـنـوا أحـسـنـوا الـبِـنَـا
وإنْ وعَـدُوا أوْفُـوا وإنْ عَـقَـدُوا شـدُّوا

ولا يخفى ما كان للإفريقيين عموما والقيروانيين خصوصا وقتئذ من البغض المكين والكراهية الشديدة للعبيديين (الفاطميين) بسبب مساعيهم من حين استيلائهم على البلاد في إظهار مذهبهم الشيعي وقتلهم العلماء ومحاولتهم إجبار الناس على القول بآرائهم الباطنية، لذلك كله كان أهل القيروان يتهمون البراذعي بالشذوذ عن عصبتهم والمروق منها، وأدى ذلك بهم إلى أن هجروه ورفضوا أقواله وحرضوا طلبة العلم على ترك قراءة مؤلفاته - ما عدا كتابه التهذيب لمَا قرّب وسهّل - ولم يمنعهم هذا من اعتراف جميعهم بسعة درايته وقوة عارضته في العلوم الفقهية [حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، 2 / 650 - 651]. وإزاء هذه المضايقة والمقاومة من فقهاء القيروان، وسقوط منزلته، اضطر البراذعي إلى الهجرة إلى صقلية، فنزل عاصمتها مدينة «بالارمو» وحصلت له حظوة عند أميرها أبي الفتوح يوسف الكلبي. وهناك ألف أكثر، وانكب الناس في صقلية على دراسة مؤلفاته. قال ابن فرحون: «وكان ممن له دنيا، وطارت هذه الكتب بصقلية وقد ذكر أن المناظرة في جميع حِلَقِ بلدانها إنما كانت بكتابه «تهذيب المدونة» [الديباج، 182].

ويظهر أن نزوحه إلى صقلية كان في حوالي سنة 375هـ بدليل كونه ألف كتابه التهذيب عام 372هـ في القيروان، وبالرغم من انتقاله لم تمّح الحزازة التي كانت بينه وبين ابن أبي زيد، فقد قيل إنه لما بلغه خبر وفاة ابن أبي زيد، قال له بعض أصحابه: مات لك ابن أبي زيد - يشير إلى استراحته منه فقال: هيهات، وإن مات لي ابن أبي زيد، فلم يُمِتْ كتابي كتابَه. قال المؤرخ أبو الحسن بن سعيد العنسي: «فضرب الدهر بضرباته إلى أن هجر الناس مختصر ابن أبي زيد، وأقبلوا على مختصر البراذعي». والمرجح أنه لم يستقر في صقلية حتّى الوفاة، فقد ذكر الدباغ عن شيخه أبي الفضل أنه كان إذا زار جبانة الشيخ أبي الحسن القابسي، يقف عند قبرين، عند رأس كل واحد منهما لوح، ويذكر أن قبرا منهما هو قبر أبي سعيد البراذعي، ويقول: «ما زلت أسمع أن قبره أحدهما» [معالم الإيمان، 3، 150]. ومما يؤكد رجوعه إلى القيروان ووفاته بها أن جميع كتبه التي ألفها بصقلية توجد منها قطع وأجزاء صالحة بالمكتبة العتيقة بجامع القيروان، مما يوحي بأنه حمل معه مؤلفاته حين عودته إليها.

آثاره

للبراذعي آثار علمية نافعة، لم يصل منها كاملا سوى كتابه «التهذيب» والبقية منها قطع صالحة بالقيروان [حسن حسني عبد الوهاب، العمر، 2 / 652 - 653].

1 - التهذيب في اختصار المدونة، وهو الكتاب الذي اشتهر به البراذعي ويعرف أيضًا «بتهذيب المدونة»، قصد فيه صاحبه إلى تهذيب مسائل المدونة والمختلطة ليكون ذلك أدعى إلى نشاط الدارس، وأسرع إلى فهمه، وعدّة لتذكرته. وجعل مسائلها على الولاء ما هي في الأمهات، إلا شيئا يسيرا ربما قدمه أو أخره، واستقصى مسائل كل كتاب فيه خلا ما تكرر من مسائله أو ذكر منها في غيره، فقد تركه مع الرسوم وكثير من الآثار كراهية

التطويل، كما اعتنى بتصحيحها وروايتها بسند متصل إلى سحنون، يقول في مقدمة كتابه: «وصححت ذلك على روايتي عن أبي بكر بن أبي عقبة عن جبلة بن حمود عن سحنون، وكان الفراغ من تأليفه سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة» [التهذيب، المقدمة، 168]. وقد عد هذا الكتاب أهم مؤلف يؤلف في القرن الرابع في فقه مالك ويكتسب أهميته من أمرين: أولهما كونه اختصارا للمدونة، وقيمة المدونة في الفقه المالكي لا تخفى على أحد؛ وثانيهما حسن صنيع البراذعي في تأليفه، يقول دباغ: «ومن ينظر مدونة سحنون الذي هو اختصارها يعلم فضيلة البراذعي في اختصاره» [معالم الإيمان، 3 / 147]، لذلك استأثر كتاب التهذيب بمكانة المدونة، واشتهر بين الناس وأصبح العمدة المعول عليه في التدريس والفتيا والمناظرة.

يقول عياض: «وقد ظهرت بركة هذا الكتاب على طلبة الفقه وتيمنوا بدرسه وحفظه وعليه معول أكثرهم بالمغرب والأندلس» [ترتيب المدارك، ج7، ص 257]. ويعقب ابن ناجي على كلام عياض قائلا: «يعني في زمانه، أما في زماننا فما المعول إلا عليه شرقا وغربا» [معالم الإيمان، 3 / 147].

اشتمل كتاب التهذيب على مقدمة وخمسة وثمانين كتابا: أولها كتاب «الطهارة»، وآخرها كتاب «الديات». وقد تولت دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي نشر الجزء الأول من هذا الكتاب بتحقيق الباحث محمد الأمين ولد محمد السالم بن الشيخ إلى حد كتاب الحج الثالث وذلك سنة 1999م؛ 2 ـ تمهيد مسائل المدونة على صفة اختصار أبي محمد بن أبي زيد وزياداته وقد ذكر ابن فرحون أن البراذعي لما تمم كتاب التمهيد جاء بعض الطلبة ليسمعه عليه، فلما تم الصدر بالقراءة أغلق كتابه، فقال له البراذعي: اقرأ، فقال: قد سمعته على أبي محمد وهل زدت في المختصر أكثر من الصدر [الديباج، 182]. وهذا الكتاب منه قطعة بمكتبة جامع القيروان؛ 3 ـ الشرح والتمامات لمسائل المدونة، جلب فيه من كلام المتأخرين من شيوخ المالكية على مسائل المدونة، منه أجزاء في مكتبة جامع القيروان؛ 4 ـ اختصار الواضحة، لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (ت 238 هـ) وفي «المعيار» للونشريسي عدة نقول عن اختصار الواضحة، ج 2، ص 173، 176، 206، ج6، ص 448، 556، ج9، ص 614، ج10، ص64، 153، 309 وكلها لم تنسب الكتاب للبراذعي إلا في موضع واحد، ج 6، ص 448، وتحتفظ المكتبة العتيقة بالقيروان بقطعة منه حسب ما هو مثبت في سجلها القديم، ص22؛ 5 ـ الوعظ، ويوجد منه جانب مكتوب على الرق في مكتبة جامع القيروان [حسن حسني عبد الوهاب، العمر، 2 / 653] ولا شك أن للبراذعي غير ما ذكر مما لم يبلغنا تعيينه كالكتاب الذي ألفه في نسب الفاطميين.

المصادر والمراجع

- البراذعي، أبو سعيد، التهذيب في اختصار المدونة، تح. محمد الأمين ولد محمد سالم بن الشيخ، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث بدبي، الإمارات العربية، ط1، 1420هـ/

1999م؛ • القاضي عياض (ت 544هـ)، ترتيب المدارك، تح. سعيد أحمد أعراب، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف، 1402هـ 1982م؛ • الدباغ، عبد الرحمان الأنصاري (ت 696 هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تح. محمد ماضور، نشر المكتبة العتيقة بتونس، مكتبة الخانجي بمصر، فيفري 1978؛ • ابن فرحون المالكي (ت 799هـ)، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح. مأمون الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت 1417 هـ/ 1996م، ط1؛ • مخلوف، محمد (ت1941م)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، طبعة بالأوفسيت عن الطبعة الأولى 1349هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها؛ • عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، بيت الحكمة، قرطاج 1410هـ/ 1990م؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 2/ 311.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

البراق بن روحان بن أسد

(ت نحو 150 ق.هـ/467م)

البراق شاعر جاهلي قديم، يُعدّ من أسياد الجاهليين وشجعانهم، وهو من أقارب كليب والمهلهل، أصله من اليمن وشهرته وإقامته في البحرين، أحبّ ابنة عمّه ليلى بن لكيز الملقّبة بالعفيفة، وأخيراً تزوّجها.

ذكرت معظم المصادر والمراجع المتوفّرة على أنه: البرّاق بن روحان بن أسد بن بكر من بني ربيعة، أمّا لويس شيخو فقد أضاف «بن مرة» في سياق النسب حيث قال: ... بن بكر بن مرّة من بني ربيعة، وقد آثر جرجي زيدان الاختصار فقال: البرّاق بن روحان التميمي. وجميعهم اتفقوا على أنّه يكنّى: أبا نصر [شعراء النصرانية، لويس شيخو 1/ 141؛ تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان 1/ 75؛ شعراء العصر الجاهلي، عبد عون الروضان ص 16].

لم نعرف شيئاً عن تاريخ ولادة البرّاق، أمّا وفاته فقد اختلف الباحثون حول زمانها، منهم من قال: كانت وفاته نحو سنة 470م أمثال شيخو والروضان الذي أضاف: نحو 150ق.هـ. وذكرت عزيزة فوّال أن وفاته كانت نحو 150ق.هـ أي نحو 467م. وهذا ما ذكره الزركلي أيضاً. أمّا جرجي زيدان فقد اشتط

وذكر أن وفاة البرّاق كانت سنة 525م. [الأعلام، للزركلي 2/ 47؛ وشعراء النصرانية، شيخو 1/ 141؛ وشعراء العصر الجاهلي، الروضان ص 16؛ ومعجم الشعراء الجاهليين، عزيزة فوّال بابتي ص 52؛ وتاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان 1/ 75].

كان البرّاق من الشعراء المشهورين في العصر الجاهلي، وقد ذكره زيدان في عداد شعراء الطبقة الثانية معتمداً على كتاب طبقات الشعراء لإسكندر أبكاريوس المطبوع في بيروت. ويقال إنّه كان في صغره يتبع رعاة الإبل ويحلب اللبن ويأتي بشيء منه إلى راهب يسكن بجوار المراعي ويتعلّم منه تلاوة الإنجيل.

وكان لعمّه لكيز ابنة اسمها ليلى، وكانت من أجمل نساء زمانها، بالإضافة إلى أنها كانت كثيرة الأدب، وافرة العقل حتى شاع ذكرها بين العرب، فخطبها البرّاق إلى أبيها فوعده بها، ثم خطبها أحد أبناء ملك اليمن، وأجزل العطاء والهدايا إلى والدها الذي أخذ بميل إليه متناسياً وعده لابن أخيه.

فغضب البرّاق وطلب من والده وإخوته النزوح عن تلك الديار وارتحلوا إلى البحرين فنزلوا عند قومهم من بني حنيفة. وأثناءها ثارت حرب ضروس بين قومه بني ربيعة، وقبائل قضاعة وطيّىء، وقتل كثيرون من الفريقين، وتأجّل زواج ليلى من ابن ملك اليمن. ولما اشتدّ الأمر، وعمّ الخطب على بني ربيعة، أسرعوا إلى البرّاق يستنجدونه وأنشده رئيسهم كليب:

إليكَ أتينا مُسْتَجيرينَ للنّصْرِ
فَشَمِّرْ وبادِرْ للقتالِ أبا نَصْرِ

وما الناسُ إلاّ تابعونَ لواحدٍ
إذا كانَ فيه آلةُ المجدِ والفَخْرِ

فنادِ تُجِبكَ الصيدُ منْ آلِ وائلٍ
وليس لكم يا آلَ وائلٍ من عُذْرِ

فأجابه البرّاق متهكماً:

وَهَلْ أنا إلاّ واحدٌ مِنْ ربيعةٍ
أعِزُّ إذا عَزُّوا وَفَخْرُهمُ فَخْري

ثم ردّهم خائبين، وبلغ ذلك بني طيّىء، فأرسلوا إليه يعدونه بما شاء إن آزرهم على قتال قومه، مما أثار في نفسه الغيرة والحميّة وأجاب طيّئاً:

لَعَمْري لستُ أتركُ آلَ قومي
وأرحَلُ عن فِنائي أو أسيرُ

ألَمْ تَسْمَعْ أسِنَّتَهُمْ لَهَا في
تَراقيكُم وأضْلُعِكُمْ صَريرُ

فكُفَّ الكفَّ عن قَوْمي وذَرْهم
فسوفَ يَرَى فِعَالَهُمُ الضَّريرُ

ثم ركب وقومه واستنفزوا قبائل ربيعة الذين أقبلوا من كل فجّ وعقدوا له الرئاسة وأغاروا على ديار قضاعة وطيّىء، وأخذ البرّاق يقول:

أقولُ لِنَفْسي مرّةً بعدَ مَرّةٍ
وسُمْرُ القَنا في الحَيّ لا شكَّ تلْمَعُ

إذا لم أطأ طيّاً وأحْلافَها
قُضاعَةَ بالأمْرِ الذي يَتوقّعُ

فَسِيرُوا إلى طيِّ لِتُخْلِي دِيَارَهُمْ
فَتُصْبِحَ مِنْ سُكَّانِها وَهْيَ بَلْقَعُ

واستعرت نار القتال، وتجرّد نصير الطائي وكان من أشدّ الناس بأساً لمبارزة البرّاق، فلم ينل منه وانهزم من أمامه، فقال البرّاق في ذلك قصيدة منها:

دَعَانِي سَيِّدُ الحَيَّيْنِ مِنَّا
بَنِي أَسَدٍ السَّمَيْذَعُ لِلْمُغَارِ

فَقُلْ لابْنِ الذُّعَيْرِ النَّذْلِ هَلاَّ
تَصَبَّرَ في الوَغَى مثلَ اصْطِبارِي

[شعراء النصرانية، لويس شيخو 1/ 141 (بتصرف)].

ثم عاد الفريقان إلى القتال، وكان ظليل بن روحان أخو البرّاق في عداد القتلى، فرثاه في أبيات فيها تهديد ووعيد إلى بني قضاعة منها:

فَإِنْ تَسِيروا إِلَيْنَا تَرْفِدُوا عَجَلاً
ضَرْبًا يَظَلُّ على هَامَاتِكُمْ يَقِدُ

وإِنْ وَقَفْتُمْ فإنّا سائِرُونَ لَكُمْ
يا آلَ خَالِي بِجُرْدِ الخَيْلِ تَنْجَرِدُ

[شعراء النصرانية، لويس شيخو 1/ 145].

ثم التقوا ثانية وطالت الحرب بينهما إلى أن انتصر البرّاق على أعدائه واستولى على كثير من الغنائم وانقادت إليه قبائل العرب. وفكّ أسرى قومه وكان من جملتهم ابنة عمه ليلى، فأرسل ابن ملك اليمن يطلبها من جديد، إلاّ أن ملك فارس حال دون مراده فطلب ليلى من ابن الملك وأرسل فرساناً سبوها وحملوها إلى فارس مرغمة، هذه رواية الأب شيخو؛ وفي روايات أخرى، أن أباها نزل مع قومه في ناحية قريبة من بلاد فارس، فرآها رجل من حاشية كسرى، فتعجّب من حسنها وجمالها ونقل الخبر إلى سيده، فقال له الملك: ما عسى نبلغ منها والبدويّة تفضل الموت على أن يغشاها أعجمي. فقال: نرغبها بالمال ومحاسن المطاعم والمشارب والملابس. فأرسل الملك قوّة من جنده واغتصبها من أبيها، ثم عرض عليها جميع المشهيات والمرغّبات، وخوّفها بجميع العقوبات، ليرى وجهها فأبت، وخيّرته بين أن يقتلها أو يعيدها لأبيها، ولكنّه رفض عرضها وأمر أن تسجن في أحد القصور القديمة. ونما خبرها إلى البرّاق فحشد الفرسان وسار إلى فارس، وسعى حيناً بالقتال وأخرى بالحيل والكيد، حتى خلّصها من مغتصبيها بعد أن قضوا أشهراً يتعسسون حتى عرفوا مكان حبسها، وأعادها إلى ديار ربيعة وتزوجها، ومن نظم ليلى في أثناء ما حصل لها، قولها:

لَيْتَ لِلْبَرَّاقِ عَيْنًا فَتَرَى
مَا أُلاَقِي مِنْ بَلاءٍ وَعَنَا

يَا كُلَيْبًا وَعُقَيْلاً إِخْوَتي
يا جُنَيْدًا اسْعِدُونِي بِالْبُكا

غَلِّلُونِي، قَيَّدُونِي ضَرَبُوا
مَسَّ العِفَّةِ مِنِّي بِالعَصَا

يَكْذِبُ الأَعْجَمُ مَا يَقْرَبُنِي
ومعي بعضُ حشاشات الحَيَا

[شاعرات العرب، إبراهيم ونوس ص 83؛ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت ص 32؛ وقارن مع شعراء النصرانية، شيخو 1/ 149 حيث ذكر في البيت الثاني:

ساعدوني بدلاً من أسعدوني: وجاء في البيت الثالث كما يلي:

قيدوني، غالوني وافعلوا
كل ما شئتم جميعا من بلا]

ونظراً لما لاقته من عذاب، وامتناعها عن كسرى ملك الفرس وإصرارها على التمسك بعفّتها لقبت بالعفيفة، وأصبح اسمها المتعارف عليه في كتب الأدب: ليلى العفيفة. وشهرتها بذلك أكثر من شهرتها بليلى بنت لكيز.

وتذكر الروايات أنّ جماعة من قبيلة إياد ساعدوا الفرس على خطف ليلى، لذلك نجد البرّاق يحرّض بني وائل على حرب الفرس، ويتوعد إياد في قصيدة منها:

أَبْلِغْ بَنِي الفُرْس عَنّا حينَ تَبْلُغُهم
وَحَيَّ كهلانَ أنَّ الجُنْدَ عَافيها

لا بُدَّ قَوْمِي انْ تَرْقَى وقَدْ جَهَدَتْ
صَعْبَ المُرَاقِي بما تَأْبَى مَرَاقِيها

أمّا إيادٌ فقدْ جاءتْ بها بِدَعًا
في ما جَنَى البعضُ إذْ مَا البعضُ رَاضِيها

هذا وكان بنو طيّء وقضاعة قد أغاروا على قومه وسلبوا ونهبوا وكانت ليلى من جملة السبي، فأغار عليهم البرّاق وهو يقول:

لأُفَرِجَنَّ اليومَ كلَّ الغُمَمِ
من سَبْيِهِمْ في الليل بِيضَ الحُرَمِ

صَبْرًا إلى ما يَنْظُرونَ مُقْدَمِي
إنّي لُكَيْزُ الوائِلِيّ الأرْقَمِ

[شعراء النصرانية، لويس شيخو 1/ 145؛ موسوعة شعراء العصر الجاهلي، الروضان ص 16].

وكان الفرس قد قتلوا أخاه غرسان أو غرثان [شعراء النصرانية، لويس شيخو 1/ 146؛ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت ص 33]. في بعض الوقعات فرحل عنه القوم، وبقي البرّاق وحده، فحمل جسد أخيه إلى نهر وغسله من الدم والتراب وفرش له فراشاً من ديباج كان معه ثم انعطف عليه وقبّله وأنشأ يقول:

تَوَلَّتْ رِجَالِي بالغَنَائِمِ والغِنَى
مُزَجِّينَ لِلأَجْمَالِ مِنْ رَمَلانِ

أَأَتْرُكُ مَن لا يتركُ الدّهرَ طاعتي
مُلَبٍّ لما أدعو بكلِّ لِسانِ

أخي ومُعِينِي في الخطوبِ وصَاحِبِي
بكلِّ إغَارَاتِي بحَدِّ سِنَانِ

[شعراء النصرانية - شيخو 1/ 146].

وقد شاركت ليلى العفيفة زوجها البرّاق في أحزانه فقالت ترثي غرثان في قصيدة منها:

لما ذكرتُ غُرَيثاً زادَ بي كَمَدِي
حتى هممتُ من البلْوَى بإعلانِ

فلو تراني والاشجانُ تُقْلِقُنِي
عَجِبتَ برّاقُ من صبري وكتماني

يا عينُ فابكي وجودي بالدُّموعِ ولا
تَملُّ يا قلبُ أن تَبْكي بأشجانِ

[أعلام النساء، كحالة 4/ 337؛ شاعرات العرب، يموت ص 33].

يبدو أنّ مقتل غرثان أثراً كثيراً في نفس

البرّاق، لذلك نرى أنه رثاه في عدّة قصائد، تكاد تكون متساوية مع نصف أشعاره التي وصلتنا.

البرّاق شاعر جاهلي قديم، يبدو أنّه لم يلق الاهتمام الكافي من أصحاب التراجم والأخباريين وجماعة أهل الأدب، وربّما كان سبب إهمال هذا الشاعر لقلّة المادة المطلوبة فيما وصلهم من شعره.

ونحن الآن أمام واقع هو، أنّ اسم البرّاق ورد، دون التركيز عليه، أثناء الحديث عن ليلى العفيفة، على أنّه زوجها أنقذها من السّبي أكثر من مرّة، وذلك في كتاب «أعلام النساء» وكتابي «شاعرات العرب» وهي كتب وأشرت إليها في الحواشي.

[أعلام النساء، كحالة 4/ 336؛ شاعرات العرب، إبراهيم ونوس ص 82؛ شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، بشير يموت ص 132].

ويبدو أنّ أصحاب المعاجم الحديثة للشعراء قد أخذوا معظم مادتهم عن كتاب «الأعلام» لصاحبه خير الدين الزركلي، من هؤلاء أمثال: الجبوري وفوّال بابتي... والزركلي يقول: إنّ ما ذكره عن البرّاق مأخوذ عن كتاب شعراء النصرانية، لشيخو، ويقول شيخو: استندنا في تلخيص هذه الترجمة إلى كتاب «أنساب العرب» للكلبي و«تاريخ العرب» لإسكندر أبيكاريوس، وكتاب «طبقات الشعراء» ومجموع خطّ من الشعر القديم. وكتاب «أنساب العرب» للكلبي أضحى نادر الوجود، وتاريخ العرب وطبقات الشعراء المشار إليها لمؤلف واحد وذكر ذلك جرجي زيدان، ولم أجدها في المكتبات.

[معجم الشعراء، الجبوري 1/ 345؛ معجم الشعراء الجاهليين، فوّال بابتي ص 52؛ الأعلام، الزركلي 2/ 47؛ وتاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان 1/ 75].

ثم إنّ شيخو لم يذكر شيئاً عن مكان وجود ذلك المجموع الخطّي من الشعر القديم. لذلك انحسرت معلوماتنا عن البرّاق بكتاب «شعراء النصرانية» كمصدر أساسي حيث ذكر له عدّة قصائد ومقطعات شعريّة أكثرها في وصف حروبه وحروب قومه وانتصارهم على الأعداء، والباقي في رثاء أخيه غرسان.

[شعراء النصرانية، شيخو 1/ 141 وما بعدها والحاشية ص 147].

من أهم الفنون الشعريّة التي جاءت في القصائد والمقطّعات المنسوبة إلى البرّاق هي:

الفخر والحماسة، الوصف، الغزل، الهجاء، الرثاء.

قال البرّاق في إحدى معاركه مع قضاعة وطيّىء:

أقولُ لِنَفْسي مرّةً بعدَ مرّةٍ
وسُمْرُ القَنَا في الحيّ لا شكَّ تَلْمَعُ
أيا نفسُ رِفْقًا في الوَغى وَمَسَرَّةً
فما كَأْسُها إلاّ مِنَ السُّمّ يُنقَعُ
إذا لم أقُدْ خيلاً إلى كلّ ضَيغَمٍ
فآكلُ من لَحْمِ العُداةِ وأشْبعُ

ونراه يفخر بنفسه وبقومه فيقول:

أنا ابنُ الشُّمّ من سَلَفي نِزَارٍ
كريمِ العِرضِ معروفِ النِّجارِ

وحَــوْلــي كُــلُّ أَرْوَعَ وَائِـــلــيّ
سَــدِيــدِ الــرَّأْيِ مَــشْــدُودِ الإزارِ

[شعراء النصرانية، شيخو 1/ 142، 144].

قال البرّاق يصف إحدى المعارك التي خاضها وكيف فاجأ الأعداء صباحاً:

صَـبَـحْـنـاهُـمْ عـلـى جُـرْدٍ عِـتـاقٍ
بـأسْـيـافٍ مـهـنّـدة قَـواري

ولـولا صَـائِـحَـاتٌ أسْـعَـفَـتْـهُـمْ
جِـهَـارًا بـالـصُّـراخِ المُـسْـتَـجارِ

فـيـا لَـكَ مـن صُـراخٍ وافْـتِـضَـاحٍ
ونَـقْـعٍ ثـائـرٍ وسْـطَ الـدِّيـارِ

[شعراء النصرانية، شيخو 1/ 143].

وقال لما أغار على طيِّيء وقضاعة وأنقذ السبي ومنها ليلى:

لأُرجِـعَـنَّ الـيـومَ ذاتَ الـمَـبْـسِـمِ
بِـنْـتَ لُـكَـيْـزَ الـوائِـلـيّ الأرْقَـمِ

ولما صمّم على إنقاذ ليلى من العجم قال:

أَمِـنْ دونِ لـيـلـى عَـوَّقَـتْـنـا الـعَـوَائِـقُ
جـنـودٌ وقَـفـرٌ تَـرْتَـعِـيـهِ الـنَّـقـانِـقُ

وعُـجْـمٌ وأعْـرَابٌ وأرضٌ سَـحِـيـقَـةٌ
وحِـصْـنٌ ودُورٌ دُونَـهـا ومَـغَـالِـقُ

[المصدر السابق، 1/ 145].

في إحدى المعارك مع طيِّيء طلب فارسها نصير الطائي مبارزة البراق فانهزم نصير وقال البراق:

فَـقُـلْ لابـنِ الـذُّعَـيْـرِ الـنَّـذْلِ هَـلاَّ
تَـصَـبَّـرَ فـي الـوَغَـى مـثـلَ اصْـطِـبَـاري

[المصدر السابق، 1/ 143].

إن شعر الرثاء كثير عند البرّاق فقد قتل له أخ يدعى ظليل في حروبهم مع طيِّيء، فقال البرّاق:

عَـيْـنٌ تَـجُـودُ وقـلـبٌ وَالِـهٌ كَـمِـدُ
لما ثَوَى في الثَّرَى الضرغامةُ الأسدُ

ورثاؤه لأخيه غرسان وفير جدًا من ذلك قوله:

كَمْ بَاكياتٍ تُرَى يَرْثِينَ في أَسَدٍ
ونَـائِـبَـاتٍ بِـحَـسْـرَاتٍ لِـغَـرْسَـانِ

وقال أيضاً:

بُكاءُ قتيلِ الفُرْسِ إذْ كان نَائِيَا
بَـكَـيْـتُ لِـغـرسـانٍ وحَـقَّ لِـنـاظِـري

[المصدر السابق، 1/ 144، 147].

المصادر والمراجع

● ونوس، إبراهيم، شاعرات العرب، منشورات ميريم، الطبعة الأولى، 1992م، 82؛ ● يموت، بشير، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى 1934م، 32؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الثانية 1978م، 1/ 75؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة 1980م، 2/ 47؛ ● الروضان، عبد عون، شعراء العصر الجاهلي، دار أسامة، الأردن، عمان، الطبعة الأولى 2001م، 16؛ ● بابتي، عزيزة فوّال، معجم الشعراء الجاهليين، جرّوس برس، الطبعة الأولى، 1998م،

52؛ • كحالة، عمر رضا، أعلام النساء، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1984م، 4/ 336؛ • شيخو، لويس، شعراء النصرانية قبل الإسلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة 1/ 141.

د. واضح الصمد
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البربهاري، أبو محمد الحسن بن علي

(233هـ / 847م ـ 329 هـ/ 941 م)

أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الحنبلي؛ نسبة إلى بربهار، وهي الأدوية التي تجلب من الهند يقال لها البربهار، ومن يجلبها يقال له البربهاري [اللباب، 1/ 133]؛ وهو شيخ الحنابلة في وقته ومتقدّمها في الإنكار على البدع والمباينة لهم باليد واللسان؛ ومحدّث وفقيه على المذهب الحنبلي. أصله من بغداد عاش فيها، ولا تشير مصادر ترجمته إلى تفصيلات عن حياته سوى أنّه كان ذا صيت عند السلطان، ومقدّما عند الأصحاب، عفيفا نزيها. ويذكر عنه أنه ترفّع عن ميراث أبيه وكان 70 ألف درهم أو 90 ألف درهم على اختلاف الروايات.

يقول الفرّاء: «وكان أحد الأئمة العارفين والحفّاظ للأصول المتقنين والثقات المؤمنين» [طبقات الحنابلة، 2/ 518].

وأوسع ترجمة للبربهاري هي ترجمة أبو يعلى الفراء في طبقاته، فقد ذكر أنّه صحب جماعة من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، منهم المروزي وهو أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد (ت 292 هـ/ 904 م) [تذكرة الحفاظ، 2/ 663]، وسهل بن عبد الله التستري (ت 283 هـ/ 896 م) أحد أئمة الصوفية [طبقات الصوفية، 206].

وذكر مجموعة كثيرة من أحاديثه وكلّها تحثّ على ترك البدع.

ونظرا إلى محاربته للبدع وأهلها تذكر مصادرنا التاريخية أن هؤلاء ظلّوا يوغرون قلب السلطان عليه. عاصر البربهاري الخليفة، أبا منصور محمد القاهر بالله (320 هـ/ 932م ـ 322 هـ/ 934 م). وكانت علاقته سيّئة به وبوزيره محمد بن علي بن مقلة (ت 328هـ/ 939م)، وقد أصدر ابن مقلة أمرا بالقبض على البربهاري سنة 321هـ/ 933م، فخاف واستتر، وقبض على جماعة من أصحابه، وحملوا إلى البصرة.

ويذكر ابن الجوزي في سنة 321هـ/ 933م أنّ الذي أصدر أمرا بالقبض على البربهاري رئيس الحنابلة علي بن يلق حاجب القاهر، فهرب واستتر [المنتظم، 6/ 249].

ويعلّق الفرّاء على ذلك فيقول: «وعاقب الله

ابن مقلة على فعله حيث سخط عليه الخليفة القاهر بالله، فهرب ابن مقلة، وعزله القاهر عن وزارته".

كما أنّ الخليفة القاهر بالله عاقبه الله أيضًا، فقد قبض عليه الغلمان الأتراك سنة 322هـ، وحبس وسملت عيناه، وكان أوّل من سمل من الخلفاء [العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج4، ق 2/ 25].

وما إن تولّى الحكم الخليفة، أبو العباس محمد بن جعفر الراضي بالله (322هـ/ 933م - 329هـ/ 940م) حتّى عادت مكانة البربهاري وزادت حشمته وظهر أصحابه وانتشروا في الإنكار على المبتدعة. ولكن لقوة أعداء البربهاري، نقم عليه الخليفة الراضي بالله، فاستتر إلى أن مات سنة 329 هـ/ 941م.

ويذكر صاحب العيون والحدائق في أخبار الحقائق هذه الحادثة سنة 327 هـ/ 938 م: خرج جماعة لزيارة قبر الحسين رضي الله عنه فخرج الحنابلة عليهم فنالوا منهم كل منال ووقعت فتنة وظفر جماعة من الحنابلة، وضربوا بالسياط، وكبست دار البربهاري، وقتل الدلاء صاحب البربهاري، وصلب على الجسر [العيون والحدائق، ج 4، ق 2/ 80].

وتذكر مصادر ترجمته أخبارا كثيرة عنه تدل على مكانته واجتماع الناس عليه، وهي أخبار كثيرة منها بعض المبالغات ومنها ما ذكره الفرّاء فقال: «إن البربهاري اجتاز بالجانب الغربي فعطس فشمته أصحابه فارتفعت ضجتهم حتّى سمعها الخليفة».

هذه وغيرها من الأمور جعلت أعداءه يوغرون قلب الراضي على البربهاري حتّى نودي في سنة 323هـ أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان، فاستتر البربهاري خوفا منهم، وظلّ مستترا حتّى مات.

وذكر أنه حين استتر أيام الراضي خوفا، استتر عند القائد التركي توزون بالجانب الشرقي في درب الحمام في شارع درب السلسلة، فبقي نحوا من شهر، فأصابه مرض مات منه، فقالت أخت توزون لخادمها لما مات البربهاري عندها مستترا: انظر من يغسله؛ فجاء بالغاسل فغسله وغلق الأبواب حتّى لا يعلم أحد، ووقف يصلّي عليه وحده، فاطّلعت صاحبة المنزل، فرأت الدار ملأى رجالا بثياب بيض وخضر، فلما سلّم لم تر أحدا، فاستدعت الخادم وقالت: أهلكتني مع أخي، فقال: يا ستّي رأيت ما رأيت، فقالت: نعم، فقال: هذه مفاتيح الباب وهو مغلق. فقالت: ادفنوه في بيتي، وإذا متّ فادفنوني عنده في بيت القبّة، فدفنوه في دارها، وماتت بعده بزمان، فدفنت في ذلك المكان، ومضى الزمان عليه وصار تربة.

وهكذا كان البربهاري كبير القدر تعظّمه الخاصة والعامة حتّى مات سنة 329هـ/ 940م في الاستتار خوفا من السلطة.

آثاره

أشارت مصادر ترجمته إلى أنّه صنّف كتبا منها شرح كتاب السنة ذكر فيه: "احذر صغار المحدثات من الأمور فإن صغار البدع تعود حتّى تصير كبارًا" [شذرات الذهب، 1/ 319].

ولم تشر المصادر إلى كتب أخرى له إلّا أن مصادر ترجمته أشارت إلى علوّ مكانته، وذكرت أمورا تخص زهده واعتقاد الناس فيه

ورواية أقوال له وأمور حدثت له من قبيل المبالغات. يقول الذهبي عنه: «الفقيه، القدوة شيخ الحنابلة بالعراق قالاً وحالاً وحلالاً» [العبر، 2/ 33].

ومن أقواله: «مثل أصحاب البدع مثل العقار يدفنون رؤوسهم وأبدانهم في التراب، ويخرجون أذنابهم فإذا تمكنوا لدغوا، وكذلك أهل البدع هم مختفون بين الناس، فإذا تمكّنوا بلغوا ما يريدون» [طبقات الحنابلة، 12/ 19].

المصادر والمراجع

● مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، طبعة امدروز، 1/ 260 ـ 161؛ ● ابن أبي يعلى الحسين محمد، الفراء، طبقات الحنابلة، مصر، مطبعة السنة المحمدية، 1952، 2/ 18 ـ 45؛ ● السلمي، أبو عبد الرحمان، طبقات الصوفية، تح. نور الدين شريبة، مصر 1969، مكتبة الخانجي، 206؛ ● ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، المنتظم في أخبار الملوك والامم، طبعة حيدر آباد الدكن، 6/ 323؛ ● السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور، الأنساب، بيروت، دار الجنان 1968، 1/ 307؛ ● ابن الأثير، علي بن محمد عز الدين الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت 1988، دار الحياة، 1/ 133؛ ● مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تح. نبيلة عبد المنعم داود، بغداد، مطبعة الارشاد، 1973، ج4، ق 2/ 12، 80؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، العبر في خبر من غبر، تح. أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، 2/ 33؛ ● ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل، البداية والنهاية، بيروت 1977، مكتبة المعارف، 11/ 201؛ ● ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، 1/ 319 ـ 223؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 3/ 253؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 2/ 201.

د. نبيلة عبد المنعم داود
جامعة بغداد ـ العراق

برتقيز، أبو المحاسن يوسف بن محمد

(1092هـ / 1681م - 1148 هـ/ 1735 م)

يوسف بن محمد بن سليمان بن عبد الله برتقيز، أبو المحاسن، ويعرف بالإمام الزغواني، وجدّه الأعلى عبد الله هو الداخل في الإسلام. فقيه حنفي عالم بالأصول وله عناية بالتقييد، وله نظم.

مولده بزغوان سنة 1092هـ / 1681 م، حفظ القرآن وجوّده برواية نافع بالزاوية العزوزية بزغوان، حيث قرأ نصيبا من النحو والعقائد، ثم ارتحل إلى مصر وقرأ على مشائخها نصيبا من الفقه الحنفي والأصول والعقائد. ثم انتقل إلى الحجاز وجاور بالحرم الشريف ولقي المحدّث الشهير عبد الله بن سالم البصري، وقرأ مجموعة من كتب الفقه الحنفي المشهورة.

ولما رجع إلى تونس اتخذه حسين بن علي باي معلّما لأولاده. ثم زاد في تقريبه بأن جعله إمامه ومستشاره وأسكنه معه في قصر باردو، وذلك سنة 1139هـ؛ وخرج إلى الحج نيابة عن حسين بن علي باي فاحتفى بتوديعه واستقباله؛ وقدّمه سنة 1143هـ مفتيا ثانيا ومدرّسا وإماما بجامع محمد باي .

ولما خرج علي باشا على عمّه حسين بن علي باي، وخرج هذا الأخير من الحاضرة وتبعه أعوانه وأنصاره عجز الشيخ برتقيز عن الخروج فقبض عليه علي باشا وأودعه السجن ثم قتله، وذلك أواسط صفر سنة 1148هـ / 1735م.

آثاره

ترك المترجم عدّة مؤلفات لم يبلغنا منها إلاّ كتاباه: 1 - المنن في شرح متن القدوري في الفقه الحنفي، منه نسخة في دار الكتب الوطنية؛ 2 - نظم متن هداية الصبيان، في العبادات على مذهب أبي حنيفة، أورده السنوسي في مسامرات الظريف.

المصادر والمراجع

● ذيل بشائر أهل الإيمان، ص 257 - 259؛ ● الحلل السندسية، 1/ 502 - 503 ● شرح بيرم الثاني على نظمه في المفاتي الحنفية، ص 19 - 21؛ ● مسامرات الظريف 2/ 19، 21؛ ● إتحاف أهل الزمان 2/ 105؛ ● كتاب العمر 1/ 921 - 923؛ ● تراجم المؤلفين 1/ 110 - 112.

بشير البكوش
مجلس النواب - تونس

البرتلي، أشفع الخطاط بن محمد بن عمر

(ت 1196هـ / 1781 م)

أشفع الخطاط بن محمد بن عمر بن أوبك البرتلي. أحد الفقهاء الكبار. ومن النحاة المتضلّعين في علم النحو، كان يجلس للتدريس. وقد اعتمد على رسالة ابن أبي زيد ومختصر الشيخ خليل، باعتبارهما أهمّ المصادر في علم الفقه، ومن أمهات كتب الفقه المالكي على الخصوص.

وكان تركيزه على تدريس مختصر الشيخ خليل، حتّى كثر طلابه فيه، وبلغوا المئة أو قاربوها. ومن أبرزهم: القاضي محمد، جدّ قبيلة أهل الحاج المشهورة.

أمّا شيوخه فقد أخذ عن رجال منهم:

شيخ الشيوخ الحسني بواسطة. وأخذ الطريقة الصوفية عن سيد أحمد الحبيب، قطب سجلماسة؛ وكان قد رحل إليه قاصدا، فوجده قد مرض واعتزل الناس، إلا أنه لما علم بقدومه، خرج إليه، وطلب منه أن يعود إلى أهله، فقد قضيت حاجته.

استمرّ المدّ العلمي لأشفع الخطاط مدّة طويلة. وقد تجسّد ذلك من خلال دور ابنيه محمدو، وأحمد محمود. كان محمدو عالما جليلا صالحا، عظيم الجاه كثير الحاشية، يلقب بأسد الساحل. خلف أباه على الرياسة الدينية والدنيوية. توفّي عن ثلاثين سنة، ولمّا حضرته الوفاة قال له أخوه أحمد محمود إنك تركت علي عبئا ثقيلا. أما أحمد محمود فقد اضطلع بنشر العلم وتدريس الطلاب. فأخذ عنه علماء كبار، نذكر منهم: حامد بن أعمر البرتلي، وأبوه ابن الأمين اليعقوبي.

اتّصف أشفع الخطّاط بصفات العلماء والصلحاء، والمتأدّبين ذوي الهمّة العالية. فكان شديد الرفق بالتلاميذ، رحيما، حاملا كَلّهم.

وبلغ درجة من السخاء والكرم والبذل للمحتاجين والمساواة لهم، حتّى أنه كان يأخذ ضعافهم والمقعدين منهم فيحملهم يوم الرّحيل على دوابه. وكان منيع الحمى، مهابا، يخافه الظلمة والمتجبّرون، وذلك لفرط صلاحه. وما تجاسر أحد على حماه إلاّ أصابه الله بما يكره.

كان أشفع الخطاط عالما، ديّنا، مواظبا على العبادة، مداوما على الطهارة وإسباغ الوضوء حتّى عرف عنه أنه كانت ذراعاه تتشقّق وتتفصّد دمًا من كثرة الوضوء، وخاصة في فصل الشتاء المعروف بشدّة البرد.

توفي في شعبان عام ستّة وتسعين ومئة وألف (1196 هـ).

آثاره

- أبرز آثاره العلميّة، طرّته التي وضعها على مختصر الشيخ خليل. وقد تداولها الطلبة وانتفعوا بها.

المصادر والمراجع

● الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، أبو عبد الله، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت 1881؛ ● ابن حامد، المختار، حياة موريتانيا، الدار العربيّة للكتاب، تونس 1990م.

أ. أسلمو ولد السبتي

جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

البرتلي، الطّالب أحمد بن أبي بكر

(1145هـ/1732م ـ 1208هـ/1793م)

هو الطالب أحمد بن أبي بكر بن الحاج عبد الرحمن: البرتلي.

كان عالما، أديبا، طبيبا. أخذ العلم عن عدّة شيوخ معروفين، منهم الطالب الأمين بن الحبيب الحرشي، وقد درس عليه رسالة ابن أبي زيد القيرواني. والسيد الحسن بن الطالب أحمد البرتلي، وهو شيخه في دراسة مختصر خليل وتحفة ابن عاصم في الفقه. والطالب البشير بن الحاج الهادي الإديلبي، وهو من أشياخه في دراسة نظم القواعد وجمع الجوامع ولامية الزقاق.

كان حسن الخَلْق والخُلُق، شديد التواضع، سريع الاستجابة لمن ناداه واستغاث به. أحب الناس فأحبوه وقدّروه، فسخرهم الله له. وكان عارفا بالله، تقيًا، عابدا. ظهرت له كرامات منها أنه كان طبيب زمانه، يخبر المريض بسبب مرضه، فإذا به يطابق ما قاله. والغالب أنهّ لا يعالج المريض الذي لا يبرأ، إلاّ أنّه لا يتأنف عن مريض يعالجه ولو كان في أقبح ما يكون. اتّفق الناس في زمانه على بركة ظاهرة في طبه.

يطبق الطالب أحمد المنهج الدراسي الذي أخذه عن شيوخه السابقين، فكان يدرس المتون المشهورة، مثل رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر الشيخ خليل، وتحفة الحكام لابن عاصم، ونظم القواعد وجمع الجوامع لابن السبكي، ولامية الزقاق. وكلّها مصادر للفقه وأصوله، درست في المحاضر الموريتانيّة.

كما درس عدة متون في علم المنطق، كعقيدة السنوسي، أم البراهين، بالإضافة إلى إضاءة الجنة في عقائد أهل السنة، للمقري. والجزائريّة ودليل القائد، والمرشد المعين على الضروري من علوم الدين لابن عاشر، وتفسير القرطبي.

توفي في خمسة وعشرين، من شهر جمادى

الآخرة عام 1208 هـ. وقد بلغ عمره ثلاثًا وستين سنة.

آثاره

ترك الطالب أحمد مؤلّفات، جاءت مفسّرة وشارحة لتلك المتون التي درسها على شيوخه، ودرسها هو لتلامذته. فقد شرح رسالة ابن أبي زيد بشرح واف، سماه: مفيد الطالبين. كما شرح لامية الزقاق.

المصادر والمراجع

● البرتلي الولاتي، أبو عبد الله، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة 1981؛ ● المحجوبي الولاتي، الطالب بكر بن أحمد المصطفى، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، تح. محمد الأمين بن حمادي، جامعة انواكشوط، السنة الجامعيّة، 1992 ـ 1993؛ ● ابن حامد، المختار، حياة موريتانيا، الدار العربيّة للكتاب، تونس سنة 1990.

أ. أسلمو ولد السبتي
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

البرتلي، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق

(1140هـ/1729م ـ 1219هـ/1804 ـ 1805م)

هو الطالب محمد بن أبي بكر الصّدّيق بن عبد الله بن محمد بن الطالب علي بنّان البرتلي الولاتي [البرتلي، فتح الشكور، 17 ـ 18، 25]، مؤرّخ فقيه. وعلى ما يظهر في نسبه، يكون من مواليد مدينة ولاتة (Ooulata) الواقعة اليوم بالجنوب الشّرقيّ من جمهوريّة موريتانيا. وتعود ولادته إلى عام 1140هـ [م.س، 22].

ولا نجد في التّرجمة التي وضعها أحد طلاّب البرتلي (الشّيخ ابن الطالب الصّغير) لحياته معلومات عن طفولته ولا عن البيئة العائليّة التي تربّى فيها، فقد اكتفى هذا الطالب بذكر أهمّ الشّيوخ الذين تتلمذ عليهم البرتلي في مرحلة تالية من تعلّمه وتحصيله. وإذا أمكن أن نردّ كونه سنيًا مالكيًا إلى تأثير أسرته [م.س، ص 25]، فلعلّ مردّ أشعريّته [م.س] إلى الرّوافد الثّقافيّة التي اجتمعت له في تكوينه العلميّ.

لقد ذكر ابن الطالب الصّغير أنّ الشيوخ الذين أسهموا في تكوين البرتلي كثيرون، وكذلك الكتب التي قرأها عليهم، وخصّ منهم بالذكر أربعة أعلام [م.س، ص 18]: الشيخ أحمد بن عمر بن الوافي المحضري، درس عليه علم التّوحيد، والأمين بن الطالب

الحبيب الحرشي وعليه قرأ الرّسالة، والفقيه السيّد الحسن بن الطّالب أحمد بن عليّ دكّان البرتلي، وعليه تتلمذ في قراءة مختصر خليل. وفي لقب هذا الشّيخ ما يدلّ على وجود قرابة مّا بينه وبين أبي عبد الله البرتلي، والإمام عمر المحجوبيّ، وهو الذي أخذ عنه ألفيّة ابن مالك في النحو العربيّ. وقرأ عليه الأجروميّة ثلاث مرّات، ولامية التصريف لابن مالك، وفيه يقول: «وبالجملة فهو شيخي الذي فتح الله العربية لي على يديه».

هكذا أتمّ البرتلي تكوينه على أيدي مشاهير العلماء في زمانه، فكان له التبحّر في كثير من العلوم التي كانت زاخرة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة ومنتشرة في السّودان الغربي. وعلى حدّ عبارة طالبه صار البرتلي علاّمة فقيهًا له دراية واسعة بأصول الفقه وفروعه، كما كان مفسّرًا محدّثًا، لغويًا نحويًا متخصّصا في علم البيان والعروض؛ فكان الآخذ من كلّ فنّ بأوفر نصيب، الرّاتع من كلّ علم مرعى خصيبًا، الآخذ من المنقول والمعقول [م.س، 17 ـ 18]. ولئن لم يخل هذا الوصف من نبرة المبالغة، ففيه ما يدلّ على أنّ البرتلي صار ذا ثقافة واسعة، فقد كان على غرار الطّلاب والعلماء السّودان في عصر مملكة سونغاي ولوعًا بجمع الكتب وقراءتها [م.س، 19].

وقد اشتغل البرتلي بعد تحصيله بوظيفة التدريس والإفتاء، فكان على حدّ عبارة طالبه الأستاذ المقرئ والمفتي الشّهير حامل لواء السنّة ومدحض البدعة [م.س، 17 ـ 18]. فلا شكّ أنه ساهم ضمن نشاط التدريس في تكوين عدد من الطلاّب والعلماء، ومنهم هذا الطّالب، وأنّه كان إلى جانب ذلك رجل إصلاح ديني. فكان يقاوم البدع وغيرها من مظاهر الانحطاط التي تسرّبت إلى الحياة الدينيّة بهذا الجزء من العالم الإسلامي.

وإلى جانب هذا تميّز بمنحى صوفي إذ إنّ الأخبار التي نقلت عنه تتحدّث عن مناقبه بوصفه أحد أولياء الله الصالحين، مقدّما في السرّ والعلانية، يعطي ورد الشيخ مولاي عبد المالك بن مولاي عبد الله الركّاني.

وقد وضع البرتلي عددا من المصنّفات جلّها من الشروح، وأبرز كتبه هو بلا شك «فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور». وهو من حيث المضمون، كتاب من كتب التّراجم يشتمل على نحو 215 ترجمة لعلماء من السّودان الغربي عاشوا في الفترة الممتدّة بين سنوات 1056هـ/ 1646م و1215هـ/ 1800م.

والذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب هو حسب ما جاء في مقدّمته ما رآه لدى واضعي تآليف التعريف بالعلماء من عدم ذكرهم لعلماء تكرور «لبعد المسافة بينهم وبين علمائنا» على حدّ تعبيره؛ وقد اقتصر في تصنيفه على المشاهير من الرجال.

وبيّن البرتلي أنّ منهجه الأساسي هو ترتيب أسماء الأعلام وفق الحروف الهجائيّة دون اعتبار ألقابهم، ثمّ الاعتماد على تاريخ الوفاة بدرجة ثانية. كما بيّن أنّ الأعلام الذين تناولهم هم المنتسبون إلى التكرور سواء أكانوا من مواليده أم من الوافدين إليه. والتكرور عنده «إقليم واسع ممتدّ شرقا إلى أغاغ ومغربًا إلى بحر بني زناقية، وجنوبا إلى بيط، وشمالاً إلى آدرار» [م.س، 26].

وقد صنّف الكتّاني المعلومات الواردة في تراجم البرتلي فقال: «تتضمّن كثير من هذه

التراجم تاريخ مولد المترجم، وأحيانا بتعيين اليوم والساعة، ومكان ولادته وتاريخ وفاته وتسمية أشياخه وما درسه عليهم من كتب وعلوم، وأحيانا أسانيده عنهم إلى مؤلّفي هذه الكتب وما درّسه هو لطلبته، وتسمية بعض من أخذوا عنه، ورحلته، إن كانت له رحلة وأسماء مؤلّفاته إن كان مؤلّفا، والوظائف التي تولاّها من إمامة وقضاء وإفتاء، وصفاته الفاضلة من زهد وتقوى وصلاح واعتناء بالعلم وحرص على التعليم واهتمام بجمع الكتب إن كان له اعتناء بذلك وما أشبهه» [م.س، 5].

لا شك أن اعتماد المؤلّف على الأسماء (مع تاريخ الوفاة) دون الألقاب في التبويب مأخذ من المآخذ المنهجيّة الممكنة على كتابه، إذ يفضي بالضرورة إلى كثير من الصعوبات في استعمال الكتاب. ذلك أنّه من العادة أن يكون الاشتراك في الأسماء أكثر منه في الألقاب، وأنّ منها أيضا أن يكون تاريخ الوفاة من المعلومات الجزئيّة الموالية لمعرفة اسم العلم ولقبه. وإذن فعدم اعتبار اللّقب مع مراعاة تاريخ الوفاة خروج عن مقتضيات العادة الجارية في التعرّف إلى علم من الأعلام أو فرد من أفراد المجتمع. لا سيّما أنّ المؤلّف نفسه يصرّح أحيانا بجهله لتاريخ وفاة العلّم [م.س، 113 ـ 114].

إنّ كتاب «فتح الشكور» حسب رأي هنويك عبارة عن ذيل عن كلّ من «نيل الابتهاج» لأحمد بابا التّمبوكتي و«تاريخ السودان» لعبد الرحمن السّعدي [م.س، ص 7]. ففيه ترجمة لكثير من الأقبتيّين وأعلام من أسرة بغيوغو وعبد الرحمن السعدي وغيرهم. فله إذن «أهمّية بالغة في تاريخ الثقافة العربية في مكان وزمان معيّنين لا يكاد المختصّون يعرفون عنهما إلاّ قليلاً. وبذلك يسدّ فراغا كبيرًا في المكتبة العربيّة» [م.س، ص 5]. ويرى الكتّاني أنّه على الرّغم من هذه الأهمّية، لم يستفد من «فتح الشكور» لا كارل بروكلمان في «تاريخ الأدب العربي» وذيله، ولا البغدادي في «هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين» ولا في «إيضاح المكنون في الذّيل على كشف الظنون»، ولا القاضي عبّاس بن إبراهيم المرّاكشي في «الإعلام بمن حلّ مرّاكش وأغمات من الأعلام»، ولا خير الدّين الزركلي في «الأعلام» [م.س، 6].

وما من شكّ في أنّ في أهمّية «فتح الشكور» العلميّة تعكس المنزلة العلميّة التي كانت لمؤلفه في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة على العموم، وفي تاريخ السّودان الغربي على وجه الخصوص. وفي هذا ما يدعو إلى مزيد العناية بالبحث عن مصير سائر المؤلّفات التي وضعها علامات على التفاعل الإيجابي بين الحضارتين العربيّة الإسلاميّة والإفريقيّة السودانيّة. وذلك بغضّ النظر عن السّمات العامّة التي يؤاخذ بها هو وغيره من علماء السودان، فهم وإن «كانوا مردّدين لما قاله من جاء من قبلهم، حيث انحصرت معلوماتهم في المتون والشروح والحواشي والتعاليق، وكذلك كان إنتاجهم، فإنّ الذنب في ذلك كان ذنب العصر الذي اتّسمت الثقافة العربيّة فيه، في المشرق والمغرب على السّواء، بالجمود والرّكود والتقليد وتكرار ما قيل من قبل. على أنّه يجب ألا ننسى فضل هؤلاء المتقلّدين المردّدين لما قيل من قبل في مساهمتهم في مناطق نائية ومنعزلة عن مراكز

الثقافة العربيّة الكبرى بفاس وتونس والقاهرة» [م.س.، 6].

آثاره

1 - فتح الشكور في معرفة أعيان علماء تكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981؛ وقد وضع أحد أعلام المنطقة الطالب ببكر بن أحمد المصطفى المحجوبي الولاتي (ت 1335 / 1916) كتابا سماه «منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور» واعتبره كالتذييل لكتاب البرتلي؛ 2 - شرح على أسماء الله الحسنى؛ 3 - شرح على السلم ونسب الشرفاء ذرية مولاي الشريف؛ 4 - مؤلّف في علم السير؛ 5 - شرح على رسالة ابن أبي زيد؛ 6 - ثلاثة شروح على الآجروميّة في علم النحو؛ 7 - شرح على معاني الحروف؛ 8 - مؤلّف في التاريخ، لكن الرّاجح أنّه كتاب فتح الشكور.

المصادر والمراجع

● البرتلي الولاتي، أبو عبد الله، الطالب محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، بيروت 1981، دار الغرب الإسلامي؛ ● المحجوبي الولاتي، الطالب ببكر من أحمد المصطفى، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، تح. محمد الأمين بن حمادي، جامعة انواكشوط، السنة الجامعيّة 1992 - 1993؛ ● ابن حامد، المختار، حياة موريتانيا، طبعة، الدار العربيّة للكتاب، تونس، سنة 1990؛ ● ابن السبتي، إسلم، دعوة إلى إعادة تحقيق فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، مقال نشر في الملحق الثقافي لجريدة (الشعب) الموريتانية، 22 ابريل 1989.

أ. أسلمو ولد السبتي
جامعة نواكشوط - موريتانيا
وليلاي كندو
جمهورية بوركينا فاسو - إفريقيا

البرتلي، الطالب محمد بن الطالب عمر

(1091هـ / 1680م - 1165 هـ/ 1751 م)

الطالب محمد بن الطالب عمر الخطاط الأنصاري، الملقب برتلي. ولد سنة 1091هـ بقرية ولاته الواقعة بشمالي جمهورية مالي من جهة الحدود المالية الموريتانيا. وكانت أسرته مثقفة ثقافة عربية إسلامية، إذ كان أبوه عالما بأصول الدّين [ن. البرتلي، أبو عبد الله، فتح الشكور، 127]، ولعله ورث عن والده هذا

الشّغف بالمعرفة إلى حدّ تكريس حياته لتحصيلها وإنتاجها.

كانت منطقة ولاته متميّزة بإقبال النّاس فيها على تعلّم اللّغة العربية والثقافة الإسلامية إقبالا شديدا، فكان ذلك حافزا آخر للسعي في تعلّم هذه اللّغة وتمثّل ثقافتها.

هكذا ترعرع الطالب محمد على حبّ المعرفة والعلم، وكان أبوه أوّل من لقّنه مبادىء اللّغة العربيّة وعلوم القرآن الكريم وعلم أصول الدين، وتتلمذ بعد ذلك على عدد من العلماء البارزين في المنطقة منهم الحاج أحمد بن أند عبد الله الولاتي، الذي علّمه الفقه وعلم الفرائض. ويبدو أن الطالب كان إلى علم الفقه أميل، إذ ما إن فارق شيخه الحاج محمد حتى اتّصل بمجلس العالم الفقيه، الحاج أبي بكر بن الحاج عيسى الغلاوي قصد التعمّق في فهم المسائل الفقهية. بعد ذلك توجّه نحو الشعر والعلوم التجريدية، فتلقّى في مجلس الشيخ سيدي محمد بن موسى بن إيجل الزّيدي دروسًا في علم المنطق والعروض، ثم تعلّم علم الحساب في مجلس العالم التقريسي، هذه العلوم، مجتمعة جعلت شخصيته ذات ثقافة موسوعية تؤهله لمرحلة الإنتاج الفكري.

لما توفي الطالب سنة 1165هـ قال فيه أحد العلماء: «كان رحمه الله تعالى أستاذا فاضلا جليلا، عالما فقيها متفننا، ماهرا في علم أصول الدّين والمنطق والعروض والقوافي، وله اليد الطّولى في العربية والحساب وعلم السّر» [ن.م، 129]، ويضيف القائل أنه «كان مفتيا مدرّسا وأخذ من كلّ فنّ بأوفر نصيب، وسهمه في العلوم سهم مسدّد مصيب، أفنى عمره في تعليم العلم وتعلّمه ومطالعته الكتب والتفسير والحديث» [ن.م]. على الرغم مما يبدو في هذا القول من مبالغة مرتبطة بمقام الرّثاء، فإنه يختصر لنا المنزلة الفكرية والأدبية التي كانت للطّالب محمد بين معاصريه، كما يحدّد لنا أن الرّجل قد اشتغل في حياته العملية بمهمّة التّدريس والإفتاء الذي يعتبر من أعلى المناصب الفقهيّة.

على هذا لا نخطىء إن ذهبنا إلى كون صاحبنا، بفضل مؤلفاته المتعدّدة وممارسته للتدريس وتصدّيه للاجتهاد الفقهي، قد أفاد الثقافة العربية الإسلامية نشرا وإثراء. إلا أنّ كلّ ما خلّده من النّصوص لم يجد بعد من العناية ما يحقّقه لنقد النّقّاد واستفادة جمهور أوسع من القرّاء.

آثاره

إن ما عثرنا عليه في «فتح الشكور» من أسماء مؤلفات الطّالب محمد يوحي بأن هذا العالم لم يترك فنا إلاّ نال منه نصيبا. من ذلك علم الفقه، والنحو، والحساب فضلاً عن الأدب، والشعر منه على وجه خاصّ. فمن تلك المؤلفات:

1 ـ جوهر الإرشاد (مقدمة في علم التوحيد)؛ 2 ـ الحيض (منظومة مشروحة)؛ 3 ـ أجوبة في الفقه؛ 4 ـ نقل الهمز ووصله (منظومة)؛ 5 ـ اختصار خواصّ الحيوان (تلخيص لكتاب الحيوان للدميري)؛ إلى جانب هذه المؤلفات المتنوعة، ذكر صاحب فتح الشكور أنّ للطالب تأليفا في علم الحساب، وأنه نظم قصائد كثيرة وقطعا من الحكم والأشعار وشرح قصيدة لأحد أعلام الصوفية. وفي هذا ما يدل على أنه كان صوفيّ العقيدة. لا سيّما

أنّ صاحب فتح الشكور قد صرّح بأنه «كان مواظبا على المورد الصوفي، أخذه عن شيوخ كثيرين راسخين في الصّوفية حسب الطريقة الشاذلية».

المصادر والمراجع

- البرتلي، أبو عبد الله، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تح. محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجّي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981م.

موديبو دايون
جمهورية مالي

ابن بَرّجان، أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمان

(ت 536هـ / 1141 م)

عبد السلام بن عبد الرحمان بن أبي الرجال محمد بن عبد الرحمان اللخمي الإفريقي المعروف بابن برًجان، متكلّم وصوفي زاهد، وفقيه ومحدّث وقارئ ومفسّر، عاش بإشبيليّة وإليها نُسب، واشتهر بلقب «غزالي المغرب». حدد ابن خلكان كيفية النطق بالكلمة فقال: «برّجان بفتح الباء الموحدة، وتشديد الراء، وبعدها جيم، وبعد الألف نون»، وذكرت مصادر أخرى شكلا مختلفا للاسم، وتفسيرا مختلفا لمدلوله، والراجح بعد استعراض كل الآراء - وكما يرى محمد بنشريفة - أنها اختصار لكلمة أبي الرجال فيكون النطق بها بباء موحدة مفتوحة وراء مشددة مكسورة، وجيم مفتوحة.

تكاد تكون دراسة ابن برجان كلها بإشبيلية، وكانت حاضرة الأندلس في عصره، ازدهرت فيها الثقافة والفكر وخاصة في زمن المعتمد بن عباد الشاعر الأمير المشهور، وهي التي أنجبت العديد من العلماء والأدباء كابن باجّة، وابن زهر، وابن سيد البطليوسي، وغيرهم.

وقد أجمعت المصادر على أن أبا عبد الله أحمد بن محمد بن منظور القيسي الإشبيلي هو أهم شيوخ ابن برجان، (أخذ عنه صحيح البخاري وحدث به) حسب ما جاء في [التكملة 2/ 645]، ورددت مصادر أخرى هذه المقولة لابن الأبار وزادت عليها «وسمع من غيره»، ولكن دون ذكر الأسماء.

أما شيخه ابن منظور فعالم إشبيلية وقاضيها، روى عن أبيه، وعن ابن عم أبيه، واستقضى ببلده مدة، ثم صرف عن القضاء. لقيه ابن بشكوال بإشبيلية وأخذ عنه وجالسه. وقد جرت مناظرة بين ابن منظور والفقيه أبي الفتح سعدون بن مسعود المرادي حول زكاة التين.

كان ابن برجان إماما في علم الكلام، ولغات العرب، مشاركا في الهندسة والحساب، قد

أخذ من كل علم بأوفر حظ، مؤثرا طريقة التصوف وعلم الباطن، متصرفا في ذلك، عارفا بمذاهب الناس [صلة الصلة، 4/ 32 ـ 34].

ومع علوّ مكانته وغزارة علمه لم يكن يقبل على التدريس، وإنما يميل أكثر إلى «الاجتهاد في العبادة» [التكملة، 2/ 645]. ويفضل الابتعاد عن الخلق، قال ابن الزبير: «وكان يؤثر اعتزال الناس والبعد عنهم ويختار الخمول ويعمر أوقاته بما يرجو فيه التخلص والقبول» [صلة الصلة، 4/ 34].
لذا كان عدد تلامذته قليلا، منهم:

ـ عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الملك بن الحسين الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخراط، كان من حفاظ الحديث ومن الفقهاء العارفين بالعلوم الإسلامية والعربية.

أخذ عن ابن برجان شرح أسماء الله الحسنى، وتفسير القرآن الكريم وصحيح مسلم. ولد بإشبيلية سنة 510هـ / 1116 م، وتوفي سنة 582هـ / 1283م.

وله مؤلفات في الحديث والفقه وديوان شعر: [عنوان الدراية، 34؛ والتكملة، 3/ 121].

ـ أبو الحسن علي بن غالب الأنصاري، ولد بشلب سنة 484هـ / 1091م وبها درس، كما درس بقرطبة. وأخذ التصوف عن ابن برّجان وذكر ابن عبد الملك عددا آخر من الشيوخ [الذيل والتكملة، 5/ 208]؛ وله مؤلفات في التصوف، توفي سنة 568هـ / 1172م.

ـ أبو محمد عبد الغفور بن إسماعيل بن خلف السكوني، وهو من أسرة علم ودين ونباهة وصلاح بمدينة لبلة [التكملة، 9/ 252؛ وصلة الصلة 4/ 66]. أخذ عنه التصوف، وكان من أهل الكرامات، مجاب الدعاء، ينفق أمواله على الفقراء والمساكين [صلة الصلة، 4/ 38]. توفي سنة 540هـ / 1145م.

ـ أبو القاسم محمد بن عبد الله بن أحمد القنطري. كان من أهل المعرفة الكاملة بصناعة الحديث، بعيد الصيت في الحفظ والإتقان والضبط، جمّاعة للدواوين والكتب، من بيت فقه وحديث، وكانت له مشاركة في فنون العلم [التكملة، 2/ 29]. وكانت له رحلات علمية كثيرة أخذ فيها عن حوالي 41 شيخا على رأسهم ابن برجان الذي أخذ عنه علوم الدين [الذيل والتكملة، 6/ 241] وقد أورد ابن الآبار أسماء هؤلاء الشيوخ والمدن التي أخذ عنهم بها في كتابه [التكملة، 2/ 29]. له فهرسة وكتاب في عقود الصداقات. وتوفي سنة 561هـ / 1165م.

ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل القيسي الإشبيلي، من أهل لبلة؛ سكن مدينة فاس، ثم مراكش، وأورد له ابن عبد الملك 34 شيخا منهم ابن برجان [الذيل والتكملة، 6/ 306] تصدّر للتدريس بمراكش إلى آخر عمره، وكتب لبعض أمراء بني تاشفين ولم تذكر له المصادر مؤلفات، توفي سنة 570هـ / 1174م [التكملة، 3/ 247].

ـ أبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري المعروف بابن المالقي، حظي بتقدير الموحدين ونال ثقتهم حتى كان يدقق مع الأطباء على أبي يعقوب في مرضه. وله أمداح في مناسبات واحتفالات عديدة [المنّ بالإمامة، 324].

وكان لابن برجان حفيد اشتهر بدوره بالتدريس والتأليف هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن برجان المتوفى يوم 9 جمادى الأولى 627هـ / 1229م. تخصص في علوم اللغة وألف كتبا منها: رد وتبيين لأغلاط ابن سيدة في «المحكم»، وتعليقات على كثير من أهل اللغة [التكملة، 2/ 646].

تزعم ابن برّجان وابن العريف، وابن قسي، وأبو بكر الميورقي الفقيه الظّاهري والمحدّث والصّوفي الزّاهد ثورة ضدّ المرابطين. وينتمي أربعتهم إلى مدرسة ابن مسرّة الصّوفيّة، بعد أن بدأ تأثير الغزالي يقوى. وقد جمعهم مذهب الغزالي والانتصار له بصفة خاصّة، وناهضوا بذلك حملة فقهاء المرابطين على تعاليم الغزالي ونبذ مذهبه وإحراق كتبه. تذكر كتب التّراجم أنّ شيخه هو ابن العريف الصّنهاجي، صاحب كتاب «محاسن المجالس». وخالف بولس نويا هذا القول السّائد، فاستنتج من التّراسل بين الاثنين أنّ ابن برّجان هو الشّيخ وابن العريف هو التّلميذ (Paul Nwyia Note... P 217). ويقول الشّعراني إنّ مائة وثلاثين قرية بايعت ابن برّجان إماما [الطّبقات الكبرى، 1/ 17]. فخاف السّلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين من ثورة المريدين وأن تفلت مقاليد الحكم من يديه. ويبدو أنّ ابن برّجان كان أنشط من أصحابه في الثّورة. فعزم السّلطان على عقابه، وكذلك كان الشّأن بالنسبة إلى ابن العريف بالمريّة، وأبي بكر محمد بن الحسين الميورقي، الذي كان يعيش بغرناطة. فطلب الإتيان بهم إلى مراكش، وأمر بقتل ابن برّجان، وأطلق سراح ابن العريف، وفرّ الميورقي إلى بجاية، وقتل ابن برّجان بمرّاكش سنة 536 هـ، ولعلّه مات في السّجن كما يقول النبهاني [جامع كرامات الأولياء، 2/ 69]، وطرح بمزبلة بالمدينة، ولم يتجرّأ أحد على دفنه، إلى أن أمر بدفنه الحسن علي بن حرزهم من صوفيّة فاس ذوي النّزعة الغزالية. ونسب إلى ابن برّجان استعمال الحساب للتنبّؤ بالأحداث المقبلة، وخاصّة منها الفتوح والانتصارات، حتّى قيل إنّه تنبّأ في تفسيره القرآن بتاريخ استعادة صلاح الدين لبيت المقدس من الصليبيّين سنة 583هـ / 1187م.

أصبح من الممكن الآن دراسة جوانب من تصوّف ابن برّجان، إذ إنّه إضافة إلى ما أورده لسان الدين بن الخطيب في «روضة التّعريف بالحبّ الشّريف» عن التّصوّف الفلسفي الأندلسي، ونقله عنه صديقه ابن خلدون في «شفاء السّائل لتهذيب المسائل»، قد نشر أخيرا كتاب ابن برّجان «شرح أسماء الله الحسنى».

يذكر لسان الدين بن الخطيب [روضة التّعريف، 583] ابن برّجان مع ابن الفارض، وسعد الدين الفرغاني، وابن عربي، وابن سودكين، وابن العريف، وابن قسي، والبوني على أنّهم يزعمون «أنّهم متمّمون مكمّلون»، هذا بعد أن ذكر فلاسفة الإسلام. ويقيم مذهبهم على الحديث المشهور: «كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني» [انظر مادّة ابن قسي]. ويوافقه ابن خلدون في ذكر هؤلاء الشّيوخ ومعهم ابن

برّجان باعتبارهم أصحاب القول بالتّجلّي والمظاهر والأسماء والحضرات [شفاء السّائل، ص 58؛ وانظر تلخيصا لهذا المذهب في روضة التعريف، 583 ـ 603؛ وشفاء السائل، 58 ـ 61]. ويصف ابن الخطيب كلاًّ من ابن قسيّ وابن برّجان من ضعفاء المتأخرين [روضة التّعريف، 637]، ويقول ابن خلدون عن ترتيبهم للوجود إنّه قريب من ترتيب الفلاسفة من غير برهان يشهد له ولا دليل يقوم عليه [شفاء السّائل، 61]. وهو يكفّرهم ويبدّعهم ويوجب إحراق كتبهم.

وفي مقابل هذا المذهب يذكر لسان الدين بن الخطيب [روضة التّعريف، 604 ـ 620]: «رأي أهل الوحدة المطلقة من المتوغّلين»، والمشتهرون منهم الشوذي الحلوي، وابن دهاق، وابن سبعين، والششتري، وابن مطرّف الأعمى، وابن أحلى، والحاج المغربي. «وحاصله بعد الخوض في الذّات وما صدر عن الواحد فيما خاض فيه غيرهم أنّ الباري ـ جلّ وعلا ـ هو مجموع ما ظهر وما بطن، وأنّه لا شيء خلاف ذلك، وأنّ تعدّد هذه الحقيقة المطلقة والأنيّة الجامعة التي هي عين كلّ أنيّة، والهويّة التي هي عين كلّ هويّة إنّما وقع بالأوهام من المكان والزّمان، والخلاف والغيبة والظّهور والألم واللذة، والوجود والعدم» [روضة التّعريف، 605؛ ابن خلدون، شفاء السّائل، 61 ـ 70].

يعتبر ابن برّجان ممّن ساهم في إعطاء التّصوّف الأندلسي طابعه الفلسفي الخاصّ به وتوجيهه نحو القول بوحدة الوجود، ويظهر ذلك من خلال «تفسير القرآن»، و«شرح أسماء اللّه الحسنى». وهو بتأليفه هذا الكتاب، يبحث في مسألة خطيرة في الفكر الكلامي والصّوفي تتعلّق بأسماء اللّه الحسنى والعلاقة فيها بين اللّه وبين الإنسان، وتثير مسائل فلسفيّة هامّة منها العلاقة بين الاسم والمسمّى، وهل الاسم هو المسمّى أم غيره [شرح، ص 9 ـ 10]. وهو بذلك يتوسّط بين شخصيّتين كبيرتين من بين الّذين عالجوا هذا الموضوع، وهما حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت. 505هـ ـ 1111 م)، والشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (ت. 638هـ ـ 1249م). ويعتبر هذا الأخير ممّن استوحوا كثيرا من مذهب ابن برّجان، خاصّة فيما يهمّ ميتافيزيقا التّجلّي، والقول بدائريّة الوجود [شرح، 33]، والقول بالأعيان الثّابتة قبل إيجاد اللّه إيّاها [شرح، 43]، ونظريّة الأسماء الحسنى ودورها الوجودي والمعرفي والرّوحاني، وطبيعة العلاقة بين العبد وبين الربّ، وشرح أسرار الحروف.

وكثيرا ما يذكر ابن عربي أقوال ابن برّجان في كتابه «الفتوحات المكيّة» وفي غيره، ويشرحها وفق مذهبه، ومنها مفهومه للعدل، ويرى أنّه مرادف لما يسمّيه سهل التستري «الحقّ المخلوق به»، مع أنّ ابن برّجان كثيرا ما يستعمل عبارة «الحقّ المخلوق به» [شرح، ص 17، 34 ـ 35]، وهو أوّل الفيوضات الإلهيّة [Massignon, La passion de Hallaj, I, 112].

آثاره

من أهمّها:

1 ـ شرح «معاني» أسماء اللّه الحسنى، اتّبع فيه طريقة الكشف عن أسرار الأعداد

والحروف من نصّ القرآن. وقد نشرته مع دراسة وتقديم بوريفيكاثيون دي لا توري، الوكالة الإسبانيّة للتّعاون الدّولي، مدريد، 2000 (وهي نشرة كثيرة الأخطاء، تحتاج إلى تصحيح). ويذكر بروكلمان ملخّصا لهذا الكتاب وهو لعبد القاهر بن إبراهيم بن محمد بن بدر المقدسي. ومنهج ابن برجان في الكتاب يتلخص في تناول كل اسم في ثلاثة مباحث: الأول: استخراجه بالاستقراء والاعتبار من لغات العرب. الثاني: التعرف إلى مسالكه في العالم، واستقراء مسالكه في الخليقة. الثالث: الإرشاد إلى التعبد بمعاني الأسماء، وأعمال النفوس بمقتضاها ابتغاء مرضاة اللّه؛ 2 ـ تنبيه الأفهام إلى تدبير الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم، فسر فيه القرآن الكريم. توجد نسخة منه بمكتبة ميونيخ بألمانيا رقم 83 في جزء يبتدئ من سورة الإسراء وينتهي في تفسير سورة الناس. ونسخة منه بمكتبة فيض اللّه باستنبول رقم 524 ـ 180/ 1088 تبتدئ بسورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس ولكن اسمها هو «الإرشاد في تفسير القرآن» وبالخزانة العامة بالرباط قطعة منه تحت رقم 242 ك تبتدئ بسورة الأعراف وتنتهي بآخر سورة النور. وقد مزج في هذا التفسير بين منهج الظاهر المتعارف عليه بين المفسرين القاضي بإبراز المعاني الظاهرة للآيات القرآنية، وتناول كل الموضوعات التي تناولها هذا التفسير، وبين التفسير الصوفي الإشاري الذي حاول فيه استلهام معان جديدة، مستوحاة من روح النصوص القرآنية وما تتضمنه من إشارات وإيحاءات خفية. ولعل هذا ما جعل ابن الزبير يقول عنه بأنه جرى فيه على طريقة لم يسبق إليها... إلا أنه أغمض في التعبير عن ذلك، فلا يصل إلى مقصوده إلا من فهم كلامه، وألف إشاراته وإلهامه [صلة الصلة، 4/ 32 ـ 33]؛ 3 ـ الإرشاد إلى سبيل الرشاد. اعتقد بعض الدارسين أنه تفسيره الكبير للقرآن الكريم وهذا الخطأ، لأن هذا التفسير عنوانه تنبيه الأفهام كما بينا سابقا. وقد قصد به استخراج أحاديث صحيح مسلم من كتاب اللّه تعالى [صلة الصلة، 4/ 33]. وحاول فيه إثبات معاضدة السنة للكتاب بعدما نبه أنهما متعاضدان على استيفاء الحق [البرهان، 2/ 129]. وقد ورد ذكر كتاب الإرشاد عند ابن برجان في كتابه «تنبيه الأفهام» مما يدل على أنهما مختلفان. ونقل منه الزركشي في كتابه «البرهان»، والسيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن»، والقرطبي في «التذكرة».

المصادر والمراجع

● الخياطي، محمادي، ابن برجان والتفسير الصوفي، أطروحة مقدمة لدار الحديث الحسنية بالرباط مرقونة سنة 2001؛ ● الغرناطي، أبو حيان، البحر المحيط، ط. صدقي محمد جميل، بيروت 1992؛ ● ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، تح. أحمد التوفيق، ط. الدار البيضاء 1984؛ ● ابن الأبار، أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه، التكملة لكتاب الصلة، ط. مجريط 1887؛ ● المراكشي، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر 1 و 8 تح. محمد بنشريفة، ط. بيروت (د.ت)، وط. الرباط 1984، والأسفار 4 ـ 5 ـ 6

تح. إحسان عباس، ط. بيروت 1965 ـ 1973؛ ● المراكشي، محمد بن محمد الموقت، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، ط. حجرية 1335؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط، ط. بيروت 1986؛ ● ابن بشكوال، أبو القاسم خلف، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم، تح. إبراهيم الأبياري، ط. بيروت 1989؛ ● ابن الزبير، أبو جعفر أحمد، صلة الصلة، تح. عبد السلام الهراس، وسعيد أعراب مطبعة فضالة 1993 وط. بروفنصال 1937؛ ● الداودي، شمس الدين محمد بن علي، طبقات المفسرين، تح. علي محمد عمر، ط. القاهرة 1972؛ ● المقبلي، صالح مهدي، العلم الشامخ في إيثار الحق على المشايخ، ط. القاهرة 1328؛ ● الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح. عادل نويهض، ط. بيروت 1969؛ ● العسقلاني، ابن حجر، لسان الميزان، ط. 2، بيروت 1971؛ ● طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ط. بيروت 1985؛

ينظر كذلك تقديم بوريفيكاثيون دي لا تورّا باللغة الإسبانية في نشرة كتاب ابن برّجان، «شرح أسماء الله الحسنى»، وفيها دراسة عن أسماء الله الحسنى في الفكر الإسلامي وترجمة وجيزة لابن برّجان، ودراسة للكتاب، وقائمة في المصادر والمراجع.

- I. Goldziher, «Ibn Barragân», in ZDMG, LXVIII, 1914, p. 544.
- Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, I, Leiden, Brill, (1943), p. 559, S.I. (1937), p. 775.
- Miguel Asin Palacios, The mystical philosophy of Ibn Masarra and his followers, Trans. By Elmer H. Douglas and Howard W. Yoder, Leiden, E. J. Brill, 1978, p.120-123.
- Louis Massignon, La passion de... Hallâj, Paris, Gallimard, 1975.
- Paul Nwyia, Note sur quelques fragments inédits de la correspondance d'Ibn Al-i'Arif avec Ibn Barragân, Hespéris, Vol. n° 43, 1er - 2ème Trimestre, 1956, p. 217 - 221.
- A. Faure, «Ibn Barradjân», in Encyclopédie de l'Islam 2, Leyde, E. J. Brill - Paris, G. - P. Maisonneuve & Larose S. A., 1975, T. III, p. 754 - 755.
- Denis Grill, La «Lecture supérieure» du Coran selon Ibn Barrajân, in Arabica, Vol. 47, nº 3 - 4, Juillet - Octobre 2000, p. 510 - 522.

د. مقداد عرفة
جامعة تونس
د. حسن جلاب
كلية اللغة العربية ـ مراكش

البرجندي، نظام الدين عبد العالي بن محمد

(ت 935هـ/1528م)

ولد البرجندي في أواسط القرن التاسع الهجري الموافق لأواسط القرن الخامس عشر الميلادي في برجند التابعة لولاية كوخستان في إيران. ولا توجد معلومات تفصيلية فيما يتعلق بحياته. ويفهم أنه بعد أن أكمل تعليمه الأول في مسقط رأسه، انتقل للدراسة في هرات التي تعتبر المركز العلمي في تلك الفترة. ويذكر المؤرخ خاند مير في كتابه «حبيب السير» أن البرجندي تلقى علوم الحديث على يد غياث الدين الكاشاني، كما تلقى العلوم النقلية والعقلية من منصور بن معين الدين الكاشاني، وكمال الدين حسين القنوي، وسيف الدين أحمد بن يحيى التفتازاني حفيد سعد الدين التفتازاني، وكمال الدين مسعود الشرواني وغيرهم من علماء تلك الفترة.

ذكر خاندمير أن البرجندي وأساتذته كانوا من أصحاب العلم والفضيلة، ووفقا لذلك فإن البرجندي بالإضافة إلى كونه كان من كبار العلماء في مجالي الرياضيات وعلم الفلك، كان من النماذج القليلة التي تميزت بالفضيلة والتقوى والوقوف على العلوم الأخرى في ذلك العصر، وادعى الباحثون الإيرانيون في الفترة الأخيرة أن البرجندي ليس حنفي المذهب بل هو شيعي، غير أن إصرار البرجندي على استعمال نسبة «الحنفي» بعد اسمه مباشرة وبصورة مستمرة يفنّد هذا الادعاء.

ويبدو أنه ولهذا السبب - وحتى لا تكون عاقبته مثل عاقبة أستاذه سيف الدين التفتازاني، مفتي هرات، والذي قتل بأمر من الشاه إسماعيل - لجأ في سنواته الأخيرة إلى الدولة العثمانية، وأكمل في الفترة القصيرة التي قضاها في استانبول «شرح النُّقاية» الذي لم يكمله [قاسم قطلوبغا]. ويفهم من مقدمة مؤلفه «التحفة السليمية» الذي قدمه إلى السلطان ياووز سليم عندما كان شهزاده أمير، أنه ذهب إلى طرابزون والتقى الشهزاده.

توجد روايات كثيرة جدا تتعلق بتاريخ وفاته، غير أنه يمكن القول إنه حتى عام 935 هـ/ 1528م كان على قيد الحياة. ويعتبر واحدا من أهم ممثلي العلوم الإسلامية بعد ألوغ بك وعلي الكوشجي. وترك مؤلفات مهمة في الرياضيات، وعلم الفلك، والتقويم، والرصد وآلات الرصد، والجغرافيا، والفقه والأصول. ومثلت دراساته ومعظمها شروح وحواشٍ وتعليقات إضافات مهمة للكتب التي ألفها. ومن المعلوم أنه يوجد عدد كبير من النسخ المخطوطة للكتب التي قام بتأليفها في عدد كبير من مكتبات العالم. وحسب ما يلاحظ فإن جميع مؤلفاته لاقت قبولا منقطع النظير في العالم الإسلامي في الفترة التي عاش فيها والفترات اللاحقة.

آثاره

1 ـ حاشية على شرح الملخص، هو عبارة عن حاشية للشرح الذي قام به قاضي زاده الرومي لمؤلف «الملخص في الهيئة» للجغميني. وهو أشهر مؤلفات الكاتب المعروفة. وتوجد منه قرابة 30 نسخة في مكتبات تركيا ومن بينها مكتبة السليمانية، كما توجد منه أكثر من 100 نسخة في مختلف مكتبات العالم. وتم نشر هذا الكتاب الذي ألف باللغة العربية في عامي 1286 و1290هـ في استانبول؛ 2 ـ رسالة دير معرفة تقويم، مؤلف تمت كتابته في عام 883هـ/ 1478م، وهو رسالة باللغة الفارسية تعرف أيضا باسم «بيست باب دير تقويم»، وهي عبارة عن مقالة تتألف من 20 بابًا تدور حول مقارنة بين التقاويم. وتوجد منها نسخة في مكتبة الدولة بايزيد [ولي الدين أفندي، رقم 2283/ 2]، كما توجد نسخ أخرى في بقية المكتبات. وقام الملاّ مظفر بن محمد قاسم الجونابادي بشرحها وتقديمها إلى الشاه عباس الأول (1587 هـ/ 1629 م).

طبع هذا الشرح طبعات كثيرة في طهران، كان أولها في عام 1271هـ/ 1854 ـ 1855م؛ 3 ـ التحفة السليمية، يعرف هذا المؤلف كذلك بعنوان «تعيين سمت قبلة طرابزون». وهو مؤلف كتب في عام 911 هـ/ 1505م باللغة الفارسية من أجل تعيين القبلة في طرابزون. وقام البرجندي بتقديمه إلى الشهزاده سليم (السلطان ياوز سليم). ومما يلفت الانتباه في هذا الكتاب هو إطلاق نسبة «الروشني» على البرجندي. وتوجد نسخته الوحيدة المعروفة في مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات الفارسية، رقم 71]؛ 4 ـ شرح الرسالة الشمسية في الحساب، هو عبارة عن شرح لمؤلف نظام الدين النيسابوري المعروف كذلك بالأعرج، وتوجد منه نسخة في مكتبة السليمانية [حميدية، رقم 879]؛ 5 ـ شرح بيست باب دير الأسطرلاب، مؤلف باللغة الفارسية تمت كتابته في عام 899 هـ/ 1494م. وهو شرح لكتاب «بيست باب في معرفة الأسطرلاب» لناصر الدين الطوسي. وتوجد منه قرابة 30 نسخة في مختلف مكتبات العالم وفي مكتبات تركيا وعلى رأسها مكتبة السليمانية [وهبي البغدادي، رقم 992؛ آياصوفيا، رقم 2648؛ الهدايا المخطوطة، رقم 1352؛ الشهيد علي باشا، رقم 1820/ 2؛ سرز، رقم 3828/ 2]؛ 6 ـ شرح الزيج الجديد السلطاني [حل الزيج الجديد السلطاني، شرح زيج ألوغ بك]، مؤلف باللغة الفارسية كتبه البرجندي في عام 929 هـ/ 1523م. وهو أهم شرح من الشروح الكثيرة التي كتبت للمؤلف الضخم «زيج ألوغ بك». ويحتوي على معلومات واسعة لا توجد في بقية المصادر تدور حول التقويم الصيني ـ التركي.

توجد منه نسخ في مكتبات تركيا مثل مكتبة متحف سراي طوب قابي [الخزينة، رقم 1714؛ أحمد الثالث، رقم 3489]، ومكتبة السليمانية [حميدية، رقم 84]، ومكتبة نور عثمانية رقم 2939، وقانديلي رصد خانه سي [رقم 235]، كما توجد نسخ أخرى في بقية مكتبات العالم؛ 7 ـ شرح تذكرة الناصرية، عبارة عن شرح مستفيض لكتاب ناصر الدين الطوسي الذي يدور حول علم الفلك. وفي

عام 1729م تمت ترجمته إلى اللغة السانسكرتية من قبل نايانا سوك هو باده يايا. وبالإضافة إلى ذلك طبع في الهند (لكنو 1885م)؛ 8 - شرح المنار، هو شرح لمؤلف أبي البركات النسوي «منار الأنوار» الذي يدور حول أصول الفقه. وتوجد منه نسخة بعنوان «زبدة الأصول» في مكتبة السليمانية [يوسف أغا، رقم 186]. ويبدأ الكتاب بدعاء إلى الغازي عبيد الله خان، ونجد في بدايته عبارة عمل خوارزم. وحسب بعض المصادر فإن البرجندي أكمل هذا المؤلف في استانبول؛ 9 - حاشية على الرسالة العضدية، هي دراسة قام بها البرجندي لرسالة عضد الدين الإيجي التي تتألف من عشرة أسطر وتدور حول آداب الحديث والمناظرة [مكتبة السليمانية، الشهيد علي باشا، رقم 2314/ 4؛ خربوت، رقم 215/ 2؛ أسعد أفندي، رقم 3038/ 3؛ يوسف أغا، رقم 372/ 5]؛ 10 - شرح النُّقاية مختصر الوقاية، عبارة عن شرح لمؤلف صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود الذي يدور حول الفقه الحنفي. وقد طبع في أربعة مجلدات (لكنو 1884)؛ 11 - شرح تحرير المجسطي، وهو مؤلف باللغة العربية اكتمل في عام 921هـ/ 1515م.

ويعد أفضل شرح لكتاب «تحرير المجسطي» الذي كتبه ناصر الدين الطوسي على مؤلف «المجسطي» لبطليموس. ويوجد في مكتبات تركيا [في مكتبة الحاج سليم أغا، رقم 735]، كما توجد منه نسخ في مكتبات العالم؛ 12 - رسالة في آلة الرصد، وهي مؤلف باللغة العربية يتعلق بآلات الرصد. ولقي قبولا كبيرا في مجال تاريخ العلوم؛ 13 - مختصر في بيان الرصد، توجد نسخته الوحيدة المعروفة في مكتبة آسافيا حيدر أباد الهند؛ 14 - مشارق الأضواء في معرفة كمية ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس، مؤلف باللغة العربية يتناول المسافة التي تقع بين وقت الفجر وطلوع الشمس؛ 15 - رسالة دير أبعاد الأجرام وعجائب البلاد، هو مؤلف باللغة الفارسية. ويعتقد أنه تم الفراغ من تأليفه في عام 930 هـ/ 1524م في هرات.

تناول في مقدمته المفاهيم الأساسية للهندسة، وتطرق في مقالتيه مساحة العالم والمناخات السبعة وبعد الأجسام السماوية وتثبيت أحجامها وقواعد حساب أوقات الصلاة وتعيين القبلة وغير ذلك من المواضيع التي قام ببحثها في الكتاب.

ويعرف هذا المؤلف بأسماء مثل «كتاب الممالك والمسالك» و«بدائع آثار هفت إقليم». وبالرغم من أن نسخته التي توجد في [بودلين، رقم 404] تحمل عنوان «عجائب البلدان» وبالرغم من أن بدايتها مختلفة، إلا أننا نجد الترتيب نفسه؛ 16 - رسالة دير هيئة، هي رسالة تتكون من مقدمة مقتضبة وأربع مقالات قصيرة. وتدور حول علم الفلك والجغرافيا. ويجب التأكد مما إذا كانت هذه الرسالة تعود إلى البرجندي أم لا؛ 17 - شرح الرسالة الحنفية؛ 18 - تذكرة الأحباب دير بيان الحساب وتفاصيل الأعداد المتحابة والمتباغضة، [للاطلاع على النسخ الأخرى لآخر ثمانية كتب أنظر: C. Brockelmann, GAL Suppl., II, 591 Storey, II, 81-82; 19 - شرح الدر الناظم في خواص القرآن العظيم: هو شرح باللغة العربية لمؤلف عبد

الله بن أسعد اليافي الذي يدور حول خواص القرآن الكريم [للاطلاع على نسخته أنظر: شهيدي صالحي، IV، 529]؛ 20 - شرح الفوائد البهية، مؤلف باللغة العربية تمت كتابته في عام 924هـ/ 1518م. وهو شرح لكتاب ابن الخوام الذي يدور حول الرياضيات.

المصادر والمراجع

● خاندمير، حبيب السير في أخبار أفراد البشر، طهران 1324 هجري - شمسي، II، 117، III، 15، 158، 349؛ ● اللكنوي، محمد عبد الحي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، نشر م. بدر الدين أبو فراس، القاهرة 1324، ص 15؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، نشر معلم رفعت الكليسي - ابن الأمين، محمود كمال، طهران 1387هـ/ 1967م، I، 586؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة 1928 - 1930، I، 547؛ ● الزركلي، الأعلام، نشر زهير فتح الله، بيروت 1984، المجلد الرابع، 30؛

● H. Suter, Die Mathematiker und Astronomen der Araber und Ihre Werke, Leipzig 1900, I, 187-188; ● Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur Supplementband, Leiden 1937, I, 865, 930-931; Leiden 1938, II, 273, 591; ● C. A. Storey, Persian Literature, London 1972, II, 54, 70-71, 80-82; ● Osman Turan, Oniki Hayvanli Türk Takvimi, Istanbul 1941; ● Aydin Sayili, The Observatory in Islam, Ankara 1960, s. 26; ● Zebîhullah Safâ, Târîh-i Edebiyyât der Irân, Tahran 1332-1364 hicrî semsî, V, 344-347; ● Ebül-Kasim Kurbânî, Zindegînâme-i Riyâzîdânân-i Devre-i Islâmî, Tahran 1986, s. 173-175; ● Ahmed Ahmed Bîrcendî, «Molla Abdül'alî Bîrcend», Miskât, sayi 6 (Meshed 1363/1984), s. 185-201; ● D. Pingree, «'Abd-al-'Al Bîrjandî», Encyclopaedia Iranica, London 1985, I, 96; ● Cengiz Aydin-Gülseren Aydin, «Bircendî», Türkiye Diyanet Vakfi Islâm Ansiklopedisi, Istanbul 1992, VI, 186-187; ● Sehîdî Sâlihî, «Tefsîr ve Tefâsîr Sîa», Dâiretü'l-Ma'ârif-i Teseyyu, Tahran 1373/1994, IV, 529; ● Ferîd Kâsimlü, «Bîrcendî, Abdül'alî», Dânisnâme-i Cihân-i Islâm, Tahran 1379, V, 150-153; ● Bihnâz Hâsimîpür, «Bîst Bâb der Ma'rifet-i Takvîm, ayni eser, V, 193-195; ● Ekmeleddin Ihsanoglu - Ramazan Sesen-Cevat Izgi - Cemil Akpinar - Ihsan Fazlioglu, Osmanli Astronomi Literatürü Tarihi (editör: E. Ihsanoglu), Istanbul 1997, I, 101-111.

د. قاسم كربييك
جامعة اسطنبول - تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي، السودان

البرجيني، أبو محمد عبد السلام بن عيسى

(ت 630هـ/1233هـ)

أبو محمد عبد السلام بن عيسى القرشي البُرجيني التونسي، من مشاهير فقهاء المالكية في عصره، ينسب إلى قرية البُرْجين من عمل «المنستير» بالساحل التونسي.

أقام مدة بالمهدية في صحبة أبي يحيى زكرياء بن الحداد المهداوي، تلميذ المازري، وروى عنه ما يحمل من علوم الشريعة وانتفع به كثيرا؛ ثم تحوّل إلى سكنى مدينة تونس بعد استيلاء الأمراء الموحّدين عليها، واتصل بأعيان الدولة ولا سيما الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ممهد المملكة الحفصية، وتولى القضاء والإفتاء في مدة ولايته، وتصدّى مع ذلك لنشر التعاليم الشرعية بين طلبة جامع الزيتونة، ولم يكن في عصره مَنْ هو قائم بها مثله، إذ كانت مدينة تونس قد غاض منها مَعين المعرفة، وقلّ فيها العلماء لتوالي النكبات والفتن بعد زحفة الأعراب على القيروان واستيلاء النرمان على سواحل البلاد. وكان الذين هم في طبقة البُرجيني من الندرة بمكان، فظهر البرجيني كالعلم المفرد في الاستمساك بالرواية الفقهية والسند العلمي المأثور، من لدن الفتح في طبقة بعد طبقة [محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 1/ 113]، وقد وهم المؤرخون وأصحاب الطبقات الذين تحدّثوا عن ذلك العصر، إذ جعلوا البرجيني من تلاميذ المازري، وأنه روى عنه أصالة على حين أن المازري مات سنة 537 هـ، والبرجيني ولد بعد ذلك وعمّر حتّى مات سنة 630 هـ، وقيل توفي سنة اثنتين وستّين وستمائة [ابن القنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، 126].

قال حسن حسني عبد الوهاب: «فلا يصحّ في العقل أن يكون قد أخذ عنه، والذي تحقّق لنا بعد المراجعة والتمحيص، أن البرجيني قرأ على الشيخ أبي يحيى بن الحداد المهدوي، فبذلك تصحّ الرواية ويتّسق التاريخ» [ورقات، 3/ 63].

وممن أخذ عنه ابن بَزيزة التونسي (ت 663 هـ). وكان البرجيني على جانب عظيم من الذكاء والنكتة البارعة، حصلت جفوة بينه وبين الأمير الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي، دخل عليه يوما، فقال له الأمير، كيف حالك يا فقيه؟ فقال البرجيني، في عبادة، فقال: تُعَوِّضُها ـ إن شاء الله ـ بالشكر؛ قال ابن النخبل ـ راوي الحادثة ـ وكنت حاضرا، فلم نفهم ما أراد فسألت المولى أبا محمد عن مقصده، فقال: أراد بذلك قول رسول الله ﷺ: «انتظار الفرج بالصبر عبادة» قال: «فعجبنا من فطنة الأمير واستحضار الفقيه البرجيني» [السّراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، 2/ 141].

ذكر الهواري في كتابه «مناقب أبي عمران الغماري» أن أبا محمد البرجيني تولى الإمامة

والخطابة بجامع الزيتونة، كما تولى قضاء تونس في ولاية أبي العلاء إدريس بن عبد المؤمن على إفريقية والتي امتدّت بين سنتي 618 و620 هـ، وابتداء من عصر البرجيني، بدأت مدينة تونس تحتلّ مركز الريادة في المعرفة بإفريقية، بعد أن انتقلت دراسة العلوم الشرعية من القيروان إلى المهدية ومنها إلى تونس، وخاصة بعد مجيء الحفصيين إلى الحكم واتخاذهم حاضرة تونس عاصمة لهم، وكانت كتب الدراسة للعقائد وللفقه المالكي إنّما هي أمّهات من المؤلفات وضعها علماء القيروان مثل الرسالة لابن أبي زيد ـ وهي للمبتدئين ـ وتهذيب المدوّنة للبراذعي القيرواني، والتعليقة وهي شرح المدوّنة لأبي إسحاق إبراهيم التونسي القيرواني، والتبصرة لأبي الحسن اللخمي، إلى كثير من المؤلفات المقرر تدريسها في جامع الزيتونة.

آثاره

ـ فتاوى، مجموعة مشهورة باسمه تعرف بفتاوى البرجيني، أورد منها الونشريسي في «المعيار» في مختلف أبواب الفقه [المعيار، 2/ 270، 273، 357، 421، 3/ 287، 288، 6/ 97، 7/ 231، 8/ 414، 448، 470، 9/ 83، 317، 355، 359، 444، 514، 515، 539، 556، 603، 10/ 187، 328].

وغالب هذه المسائل لها صلة بالقضاء والحسبة كمسائل النفقات، والدماء، والجنايات، والأحباس، وأحداث السواقي في طرق المسلمين، مستشهدا في إجاباته بالسنن والآثار وأقوال المتقدّمين من أصحاب مالك ومن بعدهم من المصريين والقيروانيين، تنم على إحاطة ودراية بمشهور المذهب، كما وردت نبذة صالحة من فتاويه في كتاب: مجموعة فتاوى لجماعة من فقهاء افريقية، جمعها أبو الطاهر بن محمد العربي ورتبها على أبواب الفقه، ورمز لكل صاحب فتوى بحرف من حروف الهجاء، وكان رمز البرجيني "ج" والمجموعة مخطوطة في المكتبة العاشورية تحت رقم ف، أ: 4/ 249.

المصادر والمراجع

● ابن القنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية، تقديم وتح. النيفر والتركي، الدار التونسية للنشر 1968؛ ● الونشريسي، أحمد، المعيار، تح. محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1401 هـ/ 1981م؛ ● ابن الشماع، الأدلّة البيّنة النورانية، تح. عثمان الكعاك، مطبعة العرب، تونس 1355هـ/ 1936م؛ ● مخلوف، محمد (ت 1941م)، شجرة النور الزكية، دار الكتاب العربي، بيروت عن المطبعة السلفية، 1349 هـ؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، 3 مج، جمع وإشراف محمد العروسي المطوي، الناشر مكتبة المنار، تونس 1973؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، 2 مج، مراجعة المطوي والبكوش، بيت الحكمة، قرطاج، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990م.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن برد، أبو معاذ بشار

(95هـ / 714م ـ 167هـ / 784 م)

أبو معاذ المرعث العقيلي، كان أبوه من الأسرى الذين أسرهم المهلّب بن أبي صفرة عندما ولي خراسان سنة 79هـ / 697م ـ 82هـ / 702م. ولد بشار بالبصرة سنة 96هـ تقريبا ونشأ فيها. وسكن حرّان فترة من الزمن. تنقّل في البلاد مدّة ورجع إلى البصرة ثمّ سكن بغداد وتوفّي فيها سنة 167هـ وقيل سنة 168هـ/ 785م [مقدمة ديوان بشار بن برد، 16؛ وفيات الأعيان، ص 1/ 271؛ طبقات الشعراء، 7].

وفي حين يذكر الأصبهاني وبروكلمان أن بشار بن برد كان عبدا أعتقته مولاته وهي من بني عقيل [الأغاني، ص 3/ 21؛ تاريخ الأدب العربي، ص 2/ 13] يفنّد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في مقدمة تحقيقه للديوان هذا الرأي ويذهب إلى أنّ الشاعر كان ينزل في بني سدوس وليس مولى لهم. ويستدلّ على ذلك بشعر بشار نفسه وبما جاء في أمالي الشريف المرتضى [مقدمة الديوان، ص 11] وكانت أمه رومية، وهو كثيرا ما كان يفتخر بانتمائه إلى الفرس قائلا من مجزوء الرجز [الديوان، 1/ 389 ـ 391]:

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ
عَنِّي جَمِيعَ العَرَبِ

مَنْ كانَ حَيًّا مِنْهُمُ
وَمَنْ ثَوى في التُّرُبِ

جَدِّي الذي أَسْمُو بِهِ
كِسْرَى، وَسَاسانُ أَبِي

وقَيْصَرٌ خالِي إذا
عَدَدْتُ يَوْمًا نَسَبِي

ولد بشار بن برد أعمى. ولكن ذلك لم يقعده بل شحذ همّته حتى أنّه صار يفتخر بذلك مجاهرا بأن ذهاب حاسّة البصر يورث الإنسان ذكاء لا يقدر عليه المبصرون. يقول من الطويل [الديوان، ص 4/ 158]:

إذا وُلِدَ المولود أعمى وجَدتّه
وجَدِّكَ أهْدَى من بَصِيرٍ وأجْوَلا

عَمِيتُ جَنِينًا، والذكاء من العَمَى،
فجِئْتُ عجيبَ الظنّ للعِلْمِ مَعْقلا

وغاضَ ضياءُ العيْنِ للقلبِ فاغتَذى
بِقَلْبٍ إذا ما ضَيَّعَ الناسُ حصَّلا

وشِعْرٍ كَنَوْرِ الرَّوْضِ لاءَمْتُ بيْنَهُ
بِقَوْلٍ إذا ما أحْزَنَ الشِّعْرُ أسْهَلا

قال بشّار الشعر وهو صغير قبل أن يبلغ العاشرة [الأغاني، ص 3/ 23]؛ وكان هجّاء منذ حداثة سنّه. ذكر الخطيب في تاريخ بغداد أن الناس الذين أقذعهم بشعره كانوا "يشكونه إلى أبيه فيضربه، حتّى رقّ عليه من كثرة ما يضربه" [مقدمة الديوان، 20]، ويذكر صاحب الأغاني أنه صحب واصل بن عطاء

رأس المعتزلة. وكان بشار عارفا بعلم الكلام متقنا له [الأغاني، 3/ 24].

والراجح أن بشارا كان رقيق الدين، لذلك توسّعت الكتب التي تناولت شعره وسيرته في الإخبار عن معتقده. فذهب بروكلمان إلى أنه كان يفضل على الإسلام مذهب المجوس الذي دان به أسلافه [تاريخ الأدب العربي، 2/ 13]. وقد قيل إنه كان رافضيا يدين بالرجعة؛ وقيل أيضًا إنه كان كامليا، ونسب إلى الشعوبية، ونسب إلى التشيّع؛ كما نسب إلى الإلحاد والتعطيل، فعدّ من الدهرية [مقدمة الديوان، 1/ 35 ـ 37؛ حديث الأربعاء، 512 ـ 513]. ويذكر صاحب الأغاني [3/ 24] أن بشار بن برد كان يدين بالرجعة، ويكفّر جميع الأمّة، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، ويستدلّ على ذلك بقول بشار من البسيط [الديوان، 93]:

الأرْضُ مُظْلِمَةٌ والنارُ مُشْرِقَةٌ
والنارُ مَعْبُودَةٌ مُذْ كانَتِ النارُ

وقد ذهب المعرّي في رسالة الغفران [ص 139] إلى الرأي نفسه واستدلّ على رقّة دين بشار وخبث معتقده بهذين البيتين من الكامل [الديوان، 4/ 92].

إبْليسُ خَيْرٌ مِنْ أبيكُمْ آدَمُ
فتَنبَّهُوا يا مَعْشَرَ الفُجّارِ
إبْليسُ من نارٍ وآدمُ طينَةٌ
والأرْضُ لا تَسْمُو سُمُوَّ النارِ

تذكر كتب تاريخ الأدب أن بشارا كان معجبا بشعره واثقا من أنّه طوّر القصيدة العربية. وهو يجاهر بذلك في ديوانه قائلا من المنسرح [الديوان، 4/ 231 ـ 232]:

قد عشت بين الريحان والراح
والمزهر في ظلّ مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين يعبو
ر إلى القيروان فاليمن
شعرًا تُصلّي له العواتق
والثَّيب صلاة الغُواةِ للْوَثَن

قتل بشار جلدًا بالسياط بتهمة الزندقة بعد أن أغرى به يعقوبُ بن داود الخليفة المهدي. وقيل أيضًا إنه لما قتل ألقيت جثّته بالبطيحة في موضع يعرف بالخرارة فحمله الماء فأخرجه إلى دجلة البصرة فانتشله الناس وأتوا به أهله فدفنوه [الأغاني، 3/ 69].

[ديوان بشار بن برد، شبكة الأنترنت، الموسوعة الشعريّة].

كان بشار أوّل من ولّد اللغة الشعرية المحدثة وتخلّص من الغريب والحوشي. فلشعره ميزاته الخاصّة التي تجعل منه لحظة تحوّل مهمّة في مسار تحوّلات الشعر العربي. وهو شعر مديني حضري يستلهم واقعه ولحظته التاريخيّة ويصوّر اللهو والترف، سواء في خمرياته أو في غزلياته معتمدا التأنّق اللفظي وتحلية الكلام بالمحسّنات اللفظية. وتجمع كتب الأدب على أنه شاعر مجيد مفلق [طبقات الشعراء، ص 7؛ حديث الأربعاء، ص 517 ـ 525]. وقد قيل عنه إنه «أستاذ المحدثين من بحره اغترفوا، وأثره اقتفوا» [الموشّح، 390]. وقد سئل الأصمعي عنه فقال: لقد «سلك طريقا لم يسلكه أحد فانفرد به وأحسن فيه» [الموشّح، 392]. وقال عنه الجاحظ: «كان بشارا شاعرا خطيبا صاحب منثور

ومزدوج وسجع ورسائل؛ وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفنّنين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه» [الأغاني، 3/ 24].

والناظر في كتب النقد والبلاغة وتاريخ الأدب يلاحظ، في يسر، أن الإجماع حول شاعرية بشار ومقدرته الفائقة على التصرّف في الكلام نظما ونثرا ثابت تاريخيا. ويبدو أن الشاعر قد شغل الناس في عصره وفتنهم بشعره حتّى قال أيمّة الأدب: «إنه لم يكن في زمن بشار بالبصرة غَزِلٌ ولا مغنية ولا نائحة إلاّ يروي من شعر بشار فيما هو بصدده» [مقدمة الديوان، 1/ 52].

كان بشار أعمى، لذلك عوّل في شعره وتشبيهاته على حاسّتي الشمّ والسمع. فكثر الحديث في أشعاره وتشبيهاته عن الطيب سواء كان القول في الغزل أو في غيره. يقول مثلا مادحا الخليفة المهدي بالله، من المنسرح [الديوان، 1/ 343]:

تُشَمُّ نَعْلاهُ في النَّدِيِّ كما
شَمَّ النَّدامَى الرَّيْحانَ مُغْتَقِبَا

ورغم آفة العَمَى أذهل بشار معاصريه وقرّاءه بدقّة الوصف ورصد التفاصيل الطفيفة التي قد لا ينتبه إليها المبصرون؛ من ذلك مثلا قوله من الطويل [الديوان، 1/ 334 - 336]:

غَدَوْنَا لهُ والشمسُ، في خِدْرِ أمِّها،
تُطالِعُنا، والطلُّ لم يجرِ ذائِبُهْ

بَضَرْبٍ يذُوقُ الموتَ من ذاق طعمَهُ
وتُدْرِكُ مَنْ نَجَّى الفرارُ مَثالِبُهْ

كَأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ، فوْق رؤوسِنا
وأسْيافَنا، ليْلٌ تَهاوَى كَواكبُهْ

بَعثْنا لهُمْ موْتَ الفُجاءةِ، إنّنا
بنُو المُلْكِ خَفّاقٌ علينا سبائبُهْ

وقد اعتبر الجرجاني ما ورد في البيت الثالث من أدقّ التشبيهات وأبلغها في الشعر العربي. فقد فاق بشار في ذلك فحولا من أمثال امرىء القيس والمتنبي [أسرار البلاغة، 59 - 160].

لم يقطع شعر بشار صلته بالقديم العربي بل استلهمه ونهل من منجزه الفنّي. وهو يجسّد لحظة مفصلية في تاريخ الشعر العربي. ذلك أنه يجري على نهج القدامى ويفتتح آفاقا جديدة لم يسبق إليها. يتجلّى اقتداؤه بالقدامى في العديد من قصائده التي تتبع بنية القصيدة العربية القديمة فتبدأ بالوقوف على الأطلال لتتخلّص إلى الغرض الذي فيه القول. وقد ذكر صاحب الأغاني أن الرواة قد أجمعوا على أنّ أحسن الناس ابتداء في الجاهلية امرؤ القيس في معلّقته وأحسنهم ابتداء في المحدثين بشار [الأغاني، 3/ 25]، واستدلّ على ذلك بقوله من المتقارب [الديوان، 4/ 184]:

أبَى طَلَلٌ بالجِزْعِ أنْ يَتَكَلَّمَا
وماذا عَلَيْهِ لو أجاب مُتَيَّمَا

وبالفَرْعِ آثارٌ بَقِينَ وباللِّوَى
مَلاَعِبُ لا يُعْرَفْنَ إلاَّ تَوَهُّمَا

طرق بشار بن برد غرض الفخر في ديوانه فتعدّدت القصائد التي قالها في هذا الغرض، وتنوّعت من جهة محتواها وعلى مستوى

طرائق تفنّنه في صياغتها. من ذلك مثلا أنه كثيرا ما كان يفخر بانتسابه إلى الفرس حينا، وحينا آخر يفتخر بانتسابه إلى بني عامر [الديوان، 1/ 389 - 391، 4/ 178 - 183]، وكثيرا ما يمزج بين الفخر والهجاء فيفتتح القصيدة بذكر أمجاده من الطويل [الديوان، 3/ 101 - 105]:

أنا ابن مُلوك الأعجمين تقطّعتْ
عليّ ولي في العامرينَ عمادُ
خَطَبْتُ وما أهْدى لي اللُّؤْمُ بنتَهُ
وشِبْتُ وما يَحْمي حماي تِجادُ
وحسبُكَ أنّي منذُ ستّينَ حجّةً
اكيدُ عفاريتَ العدى وأُكادُ

ثم يشرع في تعداد مخازي الباهلي الذي نذر القصيدة لهجائه والتعريض به. فيعمد إلى مقابلة القيم الممدوحة التي يسندها إلى نفسه بضدّها من القيم المذمومة التي يسندها إلى المهجوّ:

وانت ابن لقّاط النّوى قد عرفْتهُ
وجدُّك زنْجيٌّ أبوه رمادُ
لقد كان عبدا للقشيْريِّ حقبةً
وبئس الفتى عولى اليَدَيْنِ رقادُ

برع بشار في غرض المدح أيضًا وله مدائح مشهورة في محمد بن العباس، والوليد بن العباس وسليمان بن هاشم بن عبد الملك. وله مدائح كثيرة في الخليفة المهدي بالله. غير أنه كان مبرّزا في الهجاء. ومهجياته كثيرا ما تجمع إلى السخرية الإقذاع والفحش. فلم يكن الشاعر يهاب أحدا، بل كان يجرؤ على الناس كلّهم سواء كانوا من العامة أو من الخاصة. وروي أنه «لم يبق أحد من أشراف البصرة إلا مُنِي بشيء من هجاء بشار أو اتّقى هجاءه» [مقدمة الديوان، 40]. ولم تسلم السلطة السياسية ورموزها أيضًا من لسان الشاعر. فلقد هجا يعقوب بن داود وزير المهدي، ثم هجا الخليفة المهدي نفسه، فقال فيه من السريع [الديوان، 229]:

خليفة يَزْني بعمّاته
يلعب بالدبُّوق والصولجانْ
ابْدَلَنا اللهُ به غيرَهُ
ودسَّ موسى في حِرِ الخيزُرَانْ

أما في غرض الغزل فقد تمكّن بشار من توسيع دائرة هذا الغرض ليشمل مواضيع جديدة، ويكرّس قيمًا مغايرة لتلك التي عرفتها العرب. وله حكايات مع عبدة تناقلها الرواة، وقد نظم فيها قصائد غزلية كثيرة. والناظر في ديوان الشعر العربي قبل بشار يلاحظ، في يسر، أن الغزل إنما يعني إعلاء قيم المجموعة مجسّدة في المحبوب. ومدار الغزل ومحصّل أمره مدح الخصال التي مجّدتها الجماعة مثل الجمال والعفّة وعراقة النسب والحسب. وسيعمد بشار إلى قلب هذه التصورات جميعها ويفتح غرض الغزل على أبعاد أخرى. ففي حين درج الشعراء العرب على التغزّل بالمرأة الحرّة الشريفة المترفة التي تنتمي إلى سادة القوم وتنام الضّحى، سيتغزّل بالمغنيات والقيان ويصل إلى حدّ التغزّل بالجواري السّود. يكتب مثلا من السريع [الديوان، 221]:

وغادةٍ سوْداءَ برّاقةٍ
كالماء في طيبٍ وفي لينِ

كأنّها صِيغَتْ لِمَنْ نالَهَا
مِن عَنْبَرٍ بالمِسْكِ معْجُونِ

وقد عمد الشاعر في العديد من قصائده إلى فتح غرض الغزل على العبث والمجون. فبدّل من صورة المحبوب حتى أن المرأة المتغزّل بها في شعره لم تعد امرأة ناضجة بل بنيّة لم تكتمل أنوثتها بعد. وهو يصوّر عبثه بالصغريات من البنات في نبرة تجمع إلى التشفي وكسر الأعراف والتقاليد والتعدّي على الممنوعات والمحرّمات. نقرأ مثلا من الرمل [الديوان، 4/ 83 ـ 84]:

بِنْتُ عشْرٍ وثلاث قُسِمَتْ
بين غُصْنٍ وكثيب وقَمَرْ
دُرّةٌ بحْريّةٌ مَكْنونَةٌ
مازَها التاجِرُ من بيْنِ الدُّرَرْ
أذْرَتِ الدّمْعَ وقالتْ: ويْلَتي
مِنْ ولُوع الكفّ، ركّابِ الخَطَرْ
أمُّتا بدّد هذا لُعَبي
ووِشاحي حلّهُ حتى انتَثَرْ
فدَعِيني معهُ يا أمّتا
علّنا في خلْوةٍ نقضي الوطَرْ
أقْبَلَتْ مُغْضَبَةً تضْرِبُها
واعْتَراها كجُنُون مستَعِرْ
بأبي، واللهِ، ما أحْسَنَهُ
دمْعُ عَيْنٍ يَغْسِلُ الكُحْلَ قَطَرْ

يتحوّل غرض الغزل في شعر بشار، نتيجة مايداخله من ميل إلى العبث والمجون، إلى تحدّ واع للأعراف. فيرسم الشاعر لنفسه صورة شخص يتعمّد هَدْمَ قِيَمِ الجماعة، ويتشفّى منهم عن طريق الإمعان في ما ينهونه عنه. لذلك تنفتح القصائد على بعد سجالي واضح وتتعدّد فيها الأصوات والمشاهد. يحدّث الشاعر مثلا عن حالة الغضب التي أثارها سلوكه بين ناس مجتمعه مصوّرا استهناره بآرائهم ونصحهم. نقرأ مثلا من المنسرح [الديوان، 3/ 153 ـ 155]:

قدْ لامَني في خليلَتي عُمَرُ
واللّوْمُ في غيرِ كُنْهِهِ قَدَرُ
قال: افِقْ، قُلْتُ: لا، فقالَ: بلَى،
قدْ شاعَ في الناسِ عَنْكُما الخَبَرُ
فَقُلْتُ: إنْ شاعَ ما اعتِذاري
ممّا ليس لي فيه عِنْدَهُمْ عُذُرُ
لا أكْتُمُ الناس حبَّ قاتلَتي
لا، لا، ولا أكْرهُ الذي ذَكَرُوا...

ثم يأتي المشهد الموالي ليجسّد حال الإمعان في الغيّ والمجون، إذ يرسم الشاعر كيفيّة إيقاعه بالبنت التي غاب عنها أهلها وحاضنتها. ويصوّر عبثه بها وتشفّيه منها حال قضائه وطره، فلا يهدّيء من روعها وقد فزعت وهالها ما فعله بها. ويعمد الشاعر إلى تصوير هذه الحادثة بتفاصيلها على لسان البنت، فيجعلها تلهج بصفاته المحبّبة إلى نفسه ومنها الفسق والغلظة والفحولة الكاسرة:

واسْتَرْخَتِ الكفُّ للغزالِ (م)
وقالتْ الهُ عني والدّمعُ مُنْحَدِرُ
اذْهَبْ فما أنْتَ كالذي ذَكَرُوا
أنْتَ ورَبّي مُعارِكٌ أشِرُ
قد غابَتِ اليَوْمَ عنْكَ حاضِنَتي
فاللهُ لي اليومَ مِنْكَ مُنْتَصِرُ

يـا ربّ خُـذْ لـي فـقـدْ تـرى ضَـعْـفـي
مِـنْ فـاسِـق الـكَـفّ مـا لـه شُـكُـرُ

أقْـوى إلـى مِـعْـضَـدي فَـرَضَّـضَـهُ
ذو قُـوَّة مـا يُـطَـاقُ مُـقْـتَـدِرُ

يُـلْـصِـقُ بـي لـحْـيَـةً لَـهُ خَـشُـنَـتْ
ذات سَـوادٍ كـأنّـهـا الإبَـرُ

حـتّـى اقْـتَـهَـرَنـي وإخْـوَتـي غَـيَـبٌ
وَيْـلـي عَـلَـيْـهِـمْ لـوْ أنّـهـمْ حـضَـرُوا

أُقْـسِـمُ بـالـلـهِ مـا نَـجَـوْتُ بـهـا
اذْهَـبْ فـأنـتَ الـمُـسَـوَّرُ الـظَّـفِـرُ

وإمعانًا منه في التشفّي والتعدّي على الأعراف، يرسم بشار البنت وهي تبحث لها عن مخرج من ورطتها، ثم يقدّم لها نصيحة تكشف استخفافه بها وبذويها وناسها:

كـيْـفَ بِـأُمّـي إذا رأتْ شَـفَـتـي
وكـيـف إن شـاعَ مـنـك ذا الـخَـبَـرُ

أمْ كـيـف لاَ كـيـف لـي بِـحَـاضِـنَـتـي
يـا حَـبُّ لـو كـان يَـنْـفَـع الـحَـذَرْ

قـلـتُ لـهـا عـنْـدَ ذاكَ: يـا سَـكَـنـي
لا بـأسَ، إنّـي مـجـرّب حَـذِرُ

قُـولـي لَـهُـمْ بَـقّـةٌ لـهـا ظُـفُـرٌ
إنْ كـانَ فـي الـبـقّ مـا لَـهُ ظُـفُـرُ

افتتح بشار آفاقًا لا عهد للشعر العربي بمثلها من جهة المواضيع والأسلوب. فلقد جعل الشعر يجاري لغة التخاطب حتّى أنه ابتدع ما يمكن أن ننعته بالترسّل بالشعر. يكتب مثلا مخاطبا محبوبته عبدة من الهزج [الديوان، 1/ 233]:

مِـنَ الـمَـشْـهـورِ بـالـحُـبّ
إلـى قـاسـيـة الـقـلْـبِ

سـلامُ الـلـه ذي الـعـرشِ
عـلـى وجْـهِـكِ يـا حُـبّـي

فـأمّـا بـعـدُ يـا قُـرّ
ة عَـيْـنـي ومُـنـى قَـلْـبـي

ويـا نـفْـسـي الـتـي تـسـكُـن
بـيـن الـجَـنـبِ والـجَـنْـبِ

لـقـدْ أنْـكَـرْتُ يـا «عَـبْـدَ»
جَـفـاءً مِـنْـكِ فـي الـكُـتْـبِ

أنزل بشار بن برد الشعر من عليائه إلى الحياة اليومية. ولم يتعفّف من طرق موضوعات لم يكن الشعراء ليولوها أي عناية. فكتب عن امرأة أهدته عطرا [الديوان، 3/ 215]، وكتب عن جاريته ربابة من الهزج [الديوان، ص 4/ 35]:

ربـابـةُ ربّـةُ الـبـيـت
تَـصـبُّ الـخـلَّ فـي الـزيـتِ

لـهـا عـشْـرُ دجـاجـات
وديـكٌ حـسَـنُ الـصـوتِ

قد توهم قصائده في هذا الباب أنها مجرّد سخرية وتفكّه، لكنّها تبيّن أن بشار بن برد قد حوّل مفهوم الشعر ووظيفته. لقد أخرج الشعر من دائرة بلاطات ذوي الجاه والسلطان وتخطّى الغرضية التي انبنى عليها الشعر العربي، ودحض التصوّر الذي يحصر الشعر في مواضيع محدّدة إن هو تعدّاها بطُل أن يكون شعرًا. جاء في [الأغاني، 3/ 62] أنه عندما مات له حمار ورآه في النوم قال له:

لماذا متَّ ألم أكن أحسن إليك؟ فقال الحمار من مجزوء الرمل [الديوان، ص 4/ 235 ـ 236]:

سَيِّدي خُذْ بي أتانا
عِنْدَ بابِ الأصبهاني
تَيَّمَتْني بِبَنَانٍ
وبدلٍّ قد شجاني
تَيَّمَتْني يومَ رُحْنا
بِثَناياها الحِسانِ
وبِغُنْجٍ ودلالٍ
سلَّ جِسْمي وبَرَاني
ولها خدٌّ أسيلٌ
مِثْلَ خدِّ الشَّيْفَراني
فَلِذا مِتُّ، ولَوْ عِشْتُ
إذًا طالَ هَواني

آثاره

الديوان:

* ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، (4 أجزاء)، نشر الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، جانفي 1976. وقد اعتمد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على نسخة مخطوطة في مكتبته أشار إليها بروكلمان في معرض حديثه عن ديوان بشار، [تاريخ الأدب العربي، ص 2/ 16]. وهي أهمّ طبعة من طبعات ديوان بشار إذ عمد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، فضلا عن تحقيق الديوان، إلى تقصّي أخبار بشار في كتب الأنساب والأدب والبلاغة وتاريخ الأدب وما تناقله الرواة. وجمع زهاء ألف بيت أخرى أوردها في الجزء الرابع الذي وسمه بـ «ملحقات ديوان بشار بن برد».

* ديوان بشار بن برد، شبكة الانترنت، الموسوعة الشعرية، ضمن موقع المجمّع الثقافي (أبوظبي)، على شبكة الإنترنت:

http://www.cultural.org.ae

* ديوان بشار بن برد، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي. الإصدار الأول، سنة 1998؛ الإصدار الثاني، سنة 2001، الإصدار الثالث، سنة 2003.

المصادر والمراجع

● ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، 4 أجزاء، نشر مشترك، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، جانفي 1976؛ ● الأصفهاني، أبو الفرج، (ت 356هـ / 897 م)، الأغاني، نسخة مصورة عن طبعة بولاق الأصلية، بيروت، نشر صلاح يوسف الخليل ودار الفكر للجميع، 1390هـ / 1970، الجزء الثالث؛ ● ابن المعتز (ت 396هـ / 909 م)، طبقات الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فراج، ط3، القاهرة، دار المعارف د.ت؛ ● ابن خلكان (ت 681هـ / 1282 م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء أهل الزمان. قرص مرن؛ ● الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛

● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ط5، د.ت، الجزء الثاني؛ ● الجرجاني، عبد القاهر (ت 471 هـ)، أسرار البلاغة، تح. هـ.ريتر، استنبول، مطبعة وزارةالمعارف، 1954م؛ ● حسين، طه (ت 1393 هـ/ 1973م)، حديث الأربعاء، المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، المجلّد الثاني، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط2، 1980م؛ ● المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 684 هـ/ 994م)، الموشح، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة، دار نهضة مصر، 1965م؛ ● المعري، أبو العلاء (ت 449 هـ/ 1057م)، رسالة الغفران، تح. محمد عزت نصر الله، بيروت، نشر المكتبة الثقافية د.ت.

د. محمد لطفي اليوسفي
جامعة تونس

البَرْذَعِيّ، أبو سعيد أحمد بن الحسن

(ت 317هـ/930م)

ولد بمدينة بَرْذَعَة وأصله منها، وبها نشأ وتعلّم، واختلف إلى مساجدها وشيوخها، فدَرَس العربية والقرآن والعلوم الدينية، وأتقنها، وكان ميّالاً إلى الفقه، فلازم أبا عليّ الدّقّاق الرّازيّ، وأخذ عنه الفقه، وتفقّه أيضًا على فقيه العصر أبي سهل موسى بن نصر الرَّازيّ ـ وهو شيخ شيخه أبي عليّ الدَّقّاق ـ فشاركه في التفقّه عليه، ولم يكتف بهذين الفقيهين إنّما أخذ عن فقهاء آخرين أمثال الفقيه علي بن موسى بن نصر الرّازيّ، وأبي خازم عبد الحميد بن عبد العزيز القاضي.

وعن هؤلاء الفقهاء وغيرهم اتّسَعَتْ مدارك أبي سعيد البَرْذَعِيّ، وعَلَتْ هِمّتُه حتى بان فضلُه، وظهر علمه، فتصدّر للتدريس ببغداد، فأقبل عليه الطلبة والدارسون يأخذون عنه، ويتفقّهون بوافر علمه، فكان شيخ الدهر، ونخبة العصر، والمُعوّل عليه بمساجدها سنين كثيرة، فارتحل الناس إليه من سائر الأقطار، وقصدوه من كل النواحي والأمصار، وتخرّج عليه جماعة غدوا ـ فيما بعد ـ من أعيان الفقهاء الأماثل، وبرعوا في الفضائل، حتّى لا يكاد يوجد لهم نظير ولا مماثل، كان منهم: أبو الحسن عبيد الله بن الحسين الكَرْخِيُّ، وأبو طاهر بن محمد بن محمد الدَّبَّاس، وأبو عمرو أحمد بن محمد الطَّبَرِيُّ، وأضرابهم من الطلبة النابهين.

كان أبو سعيد من الفقهاء الفضلاء، والعلماء المتعبِّدين، والقضاة المتقين، حسن الاستنباط للأحكام من الكتاب والسنّة، مُسَدّدًا فيها،

ورعًا تقيًا متواضعًا، ذكر حافظ الدين النَّسَفِيّ في كتابه «الكافي» ـ في باب اليمين في الطلاق والعتاق ـ عند ذكر المسألة البَرْذَعِيَّة، فقال: «إن أبا سعيد البَرْذَعِيّ قال: أشكلت عليّ هذه المسألة فلم أجد ببردعة من أسأله، فَقَدِمْتُ بغداد، فسألت عن القاضي أبي خازم فكشف عليّ ومَكَثْتُ عنده أربع سنين، وقرأت «الجامع الكبير» قبل أن آتي بغداد ثلثمائة مرّة أو أربع مائة مرّة».

وعرف أبو سعيد بأنه كان فقيها مناظرًا بارعًا، مقدّمًا في معرفة المسائل الفقهية المشكلة، سديد النظر في حلّها، متفردًا بتصحيحها وتصويبها، قد أوتي علمًا واسعًا ونظرًا ثاقبًا، فقد تحدّثت مصادر ترجمته عن مناظرته للشيخ داود بن علي الظَّاهِرِيّ وتفوّقه عليه، وذلك عندما «دخل بغداد حاجًا، فدخل الجامع، ووقف على داود بن عليّ الظاهِرِيّ، وهو يناظر رجلاً من أصحاب أبي حنيفة (النعمان بن ثابت رضي الله عنه) وقد ضَعُفَ في يده الحَنَفِيّ، فجلس البَرْذَعِيّ وسأله عن بيع أمّهات الأولاد.

فقال داود: يجوز.

فقال له البَرْذَعِيّ: لم قلت؟

قال: لأنّا أجمعنا على جواز بيعهنّ قبل العلوق، فلا نزول عن هذا الإجماع إلّا بإجماع مثله!

فقال البَرْذَعِيّ: أجمعنا بعد العلوق قبل وضع الحمل، أنه لا يجوز بيعها، فيجب أن نتمسّك بهذا الإجماع، ولا نزول عنه إلّا بإجماع مثله!!

فانقطع داود وقال: ننظر في هذا».

لقد كانت هذه الحادثة السبب الرئيس الذي حمل أبا سعيد البَرْذَعِيّ على الإقامة ببغداد، وذلك لغلبة أهل الظاهر في ذلك العصر، فقرّر السكن فيها، ومارس التدريس في مساجدها، حتّى انتهت إليه رئاسة الحنفية ببغداد في زمانه، فكان شيخها بلا منازع وواحد العصر بغير مدافع، قد جمع بين العلم والعبادة، والتقوى والورع والزهادة، ذكرت له منامات كانت أشبه بالكرامات: فقد رُوِي عن أبي سعيد البَرْذَعِيّ ـ بعد إقامته ببغداد للتدريس ـ أنه رأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. [الرعد: 17] فانتبه بدقّ الباب، وإذا قائلاً يقول له: قد مات داود بن علي صاحب المذهب، فإن أردت أن تصلّي عليه فاحضر.

حصل أبو سعيد على ثناء المؤرّخين له، ووصفوه بكل جميل، وأشادوا بعلمه وفقهه، وعُلُوّ منزلته وتقدّمه على شيوخ الحنفية ببغداد حتّى ساذهم ورأسهم، فكان كبيرَهم ومقدَّمَهم، ومن المتكلّمين على مذاهب المعتزلة.

أقام أبو سعيد سنين كثيرة، ومدّة طويلة ببغداد، ثم رحل إلى الديار المقدّسة لأداء فريضة الحج فقتل بمكّة المكرّمة في واقعة القرامطة مع الحجّاج في العشر الأوّل من ذي الحجّة سنة سبع عشرة وثلثمائة.

والبَرْذَعِيّ: نسبة إلى بَرْذَعة ـ بفتح الباء الموحدة، وسكون الراء المهملة، وفتح الدال المهملة، وفي آخرها العين المهملة ـ وهي بلدة من أقصى بلاد أذربيجان.

المصادر والمراجع

● الخطيب، تاريخ بغداد، أو مدينة السلام، مصر، مطبعة السعادة، 1349هـ/ 1931م؛ ● القرشي المصري (ت 775هـ)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، الهند، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، 1332هـ؛ ● ابن عزام التونسي، دستور الإعلام بمعارف الأعلام، نسخة خطّية بمكتبة الحرم المكي الشريف، مكّة المكرّمة تحت رقم 28 تاريخ؛ ● الهروي القاري، طبقات الحنفية، نسخة خطّية محفوظة في مكتبة الأوقاف المركزية ببغداد تحت رقم 1/ 929 ـ 930؛ ● التميمي المصري، الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تح. د. عبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة 1390هـ/ 1970م وما بعدها؛ ● الشيرازي، طبقات الفقهاء، تح. د. إحسان عباس، بيروت، دار الرائد العربي، 1970م؛ ● الفاسي المكي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، القاهرة، مطبعة السنة المحمّدية، 13789هـ/ 1958م؛ ● النديم، أبو الفرج محمد اسحاق، الفهرست، تح. رضا تجدد، طهران، مطبعة دانكشاه، 1971م؛ ● اللكنوي، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، بيروت، دار المعرفة، د.ت؛ ● الكفوي، كتائب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار، نسخة خطّية في المكتبة القادرية ببغداد تحت رقم 1242؛ ● الفيروزآبادي، المرقاة الوفية في طبقات الحنفية، نسخة خطية في دار الكتب المصرية تحت رقم «4647 تاريخ»؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، نشر جمعية المستشرقين الألمانية، الجزء السادس، باعتناء ديدرينغ، فيسبادن 1389هـ/ 1970م.

د. صالح مهدي عباس
جامعة الموصل ـ العراق

ابن البرذون، أبو إسحاق إبراهيم

(ت 297هـ/ 910م)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حسين الضبي مولاهم الشهيد القيرواني، المعروف بابن البرذون [سعد، قاسم علي، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، 1/ 174؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، 87، 87؛ عياض، القاضي، ترتيب المدارك، 5/ 117]. فقيه على مذهب الإمام مالك بن أنس، عالم بالذب عنه، يفتي به، نظار، متفنن. قال ابن الحارث: كان عالما، بارعا في العلم، يذهب مذهب الحجة والنظر، لم يكن في ناشئة القيروان أقوى على الحجة والمناظرة وإقامة الحجة على المخالفين منه. وقال القاضي عياض: كان ذا رواية وأدوات وتصرف، ومن

نظراء فقهاء المدنيين بالقيروان. . . ذا آثار وأبهة نبيلة، وكان يقول: إني أتكلم في تسعة عشر فنا من العلم. [سعد، قاسم علي، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، 1/ 174، 175؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، ص 87، 88؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/ 254؛ عياض القاضي، ترتيب المدارك، 5/ 117].

وقال أبو عبد الله الحسين بن سعيد الخراط: كان رجلا صالحا، فقيها، بارعا في العلم يذهب مذهب النظر، من رجال سعيد بن الحداد، لم يكن في شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة وإقامة الحجة على المخالفين منه [المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، 2/ 48].

تتلمذ لسعيد بن الحدّاد، وسمع من جماعة من رجال سحنون منهم عيسى بن مسكين، ويحيى بن عمر، ومحمد بن محمد، وجبلة بن حمود، وغيرهم [ابن ناجي التنوخي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، 2/ 261؛ سعد، قاسم علي، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، 1/ 174؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، ص 87، الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/ 254؛ عياض القاضي، ترتيب المدارك، 5/ 117؛ المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، 2/ 48].

تعرض إلى محنة شهيرة أدت به إلى تعذيبه وقتله، وذلك بسبب تمسكه بالمذهب المالكي وبالعقيدة السنية أيام وجود الشيعة بالقيروان، وقد ذكر المؤرخون والإخباريون تفصيلات هذه المحنة الشديدة. ومن بين ما قيل في ذلك: إن ابن البرذون كان شديد التحنُّك أو التحكك والمناظرة والمعارضة للعراقيين، فدارت عليه بذلك دوائر في دولتهم، ضربه مرّة بالسياط محمد بن أسود الصدّيني إذ كان قاضيا، وكان الصديني يصرح بخلق القرآن، ثم سعى إليه العراقيون عند دخول عُبيد الله الشيعي القيروان، لموافقتهم إياه في مسألة التفضيل، ورخصة مذهبهم. وقد سعى القاضي محمد بن عمر المردوي به وبالفقيه أبي بكر بن هذيل، إلى أبي العباس الشيعي، وقيل لأخيه أبي عبد الله الشيعي؛ فأمر حسن بن أبي خنزير عامل القيروان أن يقتلهما معا، فضرب رقابهما، وطيف بهما مسحوبين على وجهيهما بعد أن رُبطا إلى سند بغل، فجرهما من باب تونس إلى باب أبي الربيع، فصلبا هناك نحو ثلاثة أيام ثم أنزلا ودفنا. وقيل قُتلا ذبحا. وقد قُتل ابن هُذيل أولا، ثم قُتل ابن البرذون [ابن ناجي التنوخي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، 2/ 262؛ سعد، قاسم علي، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، 1/ 175؛ ابن فرحون، الديباج المذهب، 88؛ عياض القاضي، ترتيب المدارك، 5/ 118، 119].

وقد قيل: إن إبراهيم بن البرذون لما جُرّد للقتل قال له حسن بن أبي خنزير: أترجع عن مذهبك؟، فقال له: أعن الإسلام تستتيبني؟ فقتل. وقال المالكي: إنه لما امتنع هو وصاحبه من ذلك قال لهما: اخرُجا إلى الناس فقولا: إنه قد فعلنا ولا تفعلا فأبيا عليه ذلك، واعتلّا بأنه يُقتدى بهما، وقالا: عذاب الدنيا أيسرُ من عذاب الآخرة، فأمر بضربهما بالسوط حتى ماتا [ابن ناجي التنوخي، أبو

الفضل أبو القاسم بن عيسى، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، 2/ 264، 265].

ويذكر ابن الناجي أنه قد نُقل عن ابن البرذون قوله: «كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقيم الحدود بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويعينه على أموره، فلو لم يكن عنده إمام هدى، مستحقاً للتقدمة ما فعل ما فعل»، فبلغ قوله إلى ابن العباس الشيعي، فقال: كان يوسف الصدّيق من أعوان العزيز بمصر يعينه في أموره، فما كان فيه نقص ليوسف ولا زيادة في مقدار العزيز [ابن ناجي التنوخي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، 2/ 262].

وذكر الذهبي أنه لما أُتي بابن البرذون إلى ابن أبي خنزير، وقف عليه، فقال له: يا خنزير. فقال ابن البرذون: الخنازير معروفة بأنيابها، وقيل: بآبائها، وقيل: بأبنائها. فغضب وضرب عنقه.

وقال محمد بن خراسان: لما وصل عبيد الله إلى مدينة رقّادة (قريبة من القيروان)، طلب من القيروان ابن البرذون، وابن هُذيل، فأتياه وهو على السرير، وعن يمينه أبو عبد الله الشيعي، وأخوه أبو العباس عن يساره، فقال: أتشهدان أنّ هذا رسول الله؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمرُ عن يساره يقولان: إنه رسول الله، ما قلنا ذلك. فأمر بذبحهما. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/ 254؛ عيّاض القاضي، ترتيب المدارك، 5/ 119، 120؛ المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس، 2 / 149].

ومنع عبيد الله في هذا الحين الفقهاء أن يفتوا بمذهب الإمام مالك بن أنس، وأمرهم ألا يفتوا إلا بمذهبهم الذي ينسبونه إلى جعفر بن محمد، ويسمونه مذهب أهل البيت، ومن بين أحكامه وآرائه، سقوط طلاق البتة، وإحاطة البنات بالميراث. وقد غلظ الأمر على المالكية من هذا الحيز، ومُنعوا من القيام بالحلق والمجالس الفقهية والعلمية، ومن الإفتاء والاجتهاد، فكان من يأخذ منهم ويتذاكر معهم، إنما يكون بطريقة سرية، وعلى حال خوف وريبة. [عياض القاضي، ترتيب المدارك، 5/ 121].

المصادر والمراجع

● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين العمروي، بيروت 1417هـ / 1997، دار الفكر؛ ● سعد، قاسم علي، جمهرة تراجم الفقهاء المالكية، الحلقة الأولى، رجال المالكية من كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (476 ـ 544 هـ)، طبع ونشر دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الطبعة الأولى سنة 1423هـ / 2002 م، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة؛ ● عياض، القاضي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح. سعيد أحمد أعراب، طبعة أولى سنة 1401هـ 1981 م، مطبعة فضالة، المحمدية ـ المغرب؛ ● ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم، الديباج المذهب،

دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان؛ ● المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم ونسّاكهم وسير من أخبارهم وفضلائهم وأوصافهم، تح. بشير البكّوش، مراجعة محمد العروسي المطوي، بيروت، 1401هـ/ 1981 م، دار الغرب الإسلامي؛ ● ابن ناجي التنوخي، أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى (المتوفى سنة 839هـ)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، صنفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الاسيدي الدباغ (المتوفى سنة 699هـ)، أكمله وعلق عليه ابن ناجي، تح. محمد الأحمدي أبو النور، ومحمد ماضور، د.ت، مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة العتيقة بتونس.

د. نورالدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

البرزالي الإشبيلي، زكي الدين أبو عبد الله

(577هـ/ 1181م ـ 636هـ/ 1238م)

زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أبي يدلس البرزالي الإشبيلي، محدّث، أندلسي، من مدينة إشبيلية Sevila، ينتمي إلى قبيلة برزالة البربرية، وهو جدّ شيخ ابن عساكر، الحافظ علم الدين بن القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي، مؤرّخ دمشق، ولد سنة 577هـ. وتلقّى تعليمه الأولي في بلده الأندلس.

رحل إلى المشرق بقصد الحج وطلب الحديث النبوي الشريف سنة 602هـ/ 1205م. فقصد مدينة الإسكندرية، حيث باشر بسماع الحديث وكتابته. فسمع فيها من الحافظ علي بن المفضّل، وعبد الله العثماني. وسمع في القاهرة من القاضي عبد الله بن مجلّي، وكان زميله في السماع الحافظ المنذري، الذي تبادل معه السماع عند شيخهما الحافظ أبي الحسن المقدسي بالقاهرة [التكملة لوفيات النقلة، 6/ 313] وقدم مكة، فجاور فيها مدة تقرب من ثلاث سنوات، سمع خلالها من شيوخ متعدّدين أمثال زاهر بن رستم، ويونس الهاشمي. وغادر إلى دمشق التي وصلها في سنة 605هـ/ 1208م، وعاد بعدها إلى مصر ثم كرّ راجعا إلى دمشق، التي لم يبق فيها طويلاً أيضا، حيث رحل إلى خراسان مبتدأ جولة جديدة من السماع وطلب الحديث النبوي الشريف. فسمع بأصبهان من عين الشمس الثقفية، وبنيسابور من منصور الفراوي، والمؤيد بن محمد بن علي الطوسي، الذي سمع منه صحيح مسلم، وغير ذلك. واستمع إلى شيوخ كثيرين في هراة،

مرو، وهمذان، واربل. ثم زار بغداد وتكريت، حيث التقى بأبي الفتوح يحيى بن أبي السعادات بن سعد الله التكريتي (ت 618هـ/ 1221م)، صاحب دار الحديث فيها، وسمع منه، ووصل إلى الموصل، وحران ثم استوطن أخيرا في دمشق وأعقب بها وقد استمع فيها إلى عدد من علمائها، منهم: أبو البركات بن عساكر، وأبو الحسن علي بن محمود الصابوني، وأبو القاسم الحسين بن صصري، والقاضي أبو القاسم، الحرستاني، وغيرهم.

عُرف البرزالي في دمشق بخلقه الراقي، وبشاشته، وكثرة احتماله، وأنه كان ثقة يحفظ الحديث ويذاكر به، جيد الضبط، صحيح العقيدة، حسن الخط، نسخ لنفسه وللناس بخط حلو مغربي. وجمع من الحديث شيئًا كثيرًا، وخرّج لأشياخه عوالي مفيدة، وجمع لهم أسماء شيوخهم، ضمن تصنيف عرف بالمعجم الكبير في الشيوخ. وكان إمامًا بمسجد فُلوس بدمشق، وشيخًا للحديث في مشهد ابن عروة. وتخرّج عليه كثيرون، منهم أبو حامد بن الصابوني، وعمر بن يعقوب الأربلي، وأبو المجد بن العديم، وجمال الدين بن واصل الحموي، وأبو الفضل بن عساكر، ومحمد بن يوسف الذهبي، وغيرهم. توفي البرزالي في مدينة حماه في 14 رمضان 636هـ/ 1236م.

المصادر والمراجع

● ابن المستوفي، تاريخ اربل، تح. ابن السيد خماس الصقار، بغداد، دار الرشيد، 1980م، 1/ 300 وهامش 1، 2/ 202 ـ 503؛ ● المنذري، التكملة لوفيات النقلة، تح. بشار عواد معروف، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1976، 6/ 312 ـ 313، الترجمة 2893؛ ● ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، نشر، عزت العطار الحسيني، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1955 ـ 1956، 2/ 642 ـ 643؛ ● أبو شامة، ذيل الروضتين، تح. عزت العطار الحسيني، دمشق، 1947م، ص18؛ ● ابن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، تح. مصطفى جواد، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1957م؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، ط4، بيروت، دار إحياء التراث العربي، عن نسخة الحرم المكي، 4/ 1423 ـ 1424؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. بشار عواد معروف ويحيى هلال السرحان، ط3، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1986م، 23/ 55 ـ 56؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. أبو هاجر محمد بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، 3/ 314؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء، س. ديدرينغ، فيسبادن، 1970م، 5/ 252، الترجمة 2331؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، الهند، حيدر آباد الدكن، 1338م، 4/ 94؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، ط2، بيروت، دار المعارف، 1977م، 13/ 153؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مصوّرة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، وزارة الثقافة، 6/ 314؛ ● ابن القاضي، درّة الحجّال في أسماء الرجال، تح. محمد الأحمدي أبو النور،

تونس، القاهرة، المكتبة العتيقة ودار إحياء التراث، 1971، 2/ 298؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ط2، بيروت، دار المسيرة، 1972، 2/ 185؛ ● البغدادي، هدية العارفين، استانبول، 1955م، منشورات مكتبة المتنبي ببغداد، 2/ 113؛ ● الزركلي، الأعلام، ط2، القاهرة، مطبعة كوستاتوماس، 1955م، 8/ 24.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

■ البرزالي، علم الدين أبو محمد القاسم

(665 هـ/1266م ـ 739هـ / 1338 م) ■ ■ ■

هو عَلَم الدين، أبو محمد، القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي، الدمشقيّ، المؤرّخ، الحافظ، المصنّف. أصله مغربيّ ـ أندلسيّ، من قبيلة برزالة، وهي فخذ من بني يفرن الزناتيين. انتقلت جماعته إلى الأندلس أيام الحكم الأموي، ثم ترك أحد أجداده الأندلس وقصد الشام فاستقرّ بها.

وُلد علم الدين القاسم في سنة 665 هـ/ 1266م. وأُسمع العلم وهو صغير في سنة 673 هـ. من أبيه وغيره، ورحل في طلبه إلى حلب وبعلبك ومصر والحرمين الشريفين، وغيرها. وخرّج لنفسه أربعين بلدية، وخرّج لغيره، وبلغ عدد مشايخه ثلاثة آلاف شيخ، منهم ألفان بالسماع، وأكثر من ألف بالإجازة، وجَمَعهم في «معجم حافل»، قال فيه الحافظ «الذهبيّ»:

إنْ رُمتَ تفتيش الخزائن كلّها
وظهورَ أجزاءٍ بَدَتْ وعوالي
ونُعوتَ أشياخِ الوجودِ وما رَوَوا
طالِعْ أو اسمعْ مُعجم البِرزالي

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «نقْلُ البرزالي نقرٌ في حجر». وأحاط البرزالي بكثيرٍ من علوم عصره فحفظ الحديث ورواه، وتفقّه، وجوّد القراءات، وتقدّم في معرفة الشروط، وولّي تدريس الحديث بمدارس دمشق، وكتب الخط الجيّد، وحصّل كتباً كثيرة جمعها في أربع خزائن، وكان باذلاً لها للقرّاء والدارسين. ونسخ بخطه كثيراً جداً من الأجزاء، وكان فصيح القراءة، عالماً بالأسماء والألفاظ، سريع السرْد، مع عدم اللحن، والدمج، وقرأ ما لا يوصَف، حُلْو المحاضرة، قويّ المذاكرة، عارفاً بالرجال ولا سيما شيوخ زمانه وأهل عصره، ولم يخلّف في معناه مثله، ولا عمل أحدٌ في الطلب عمله.

حُبّب إليه التاريخ فألّف فيه كتاباً يُعتبر المصدر الأساس الذي اعتمده كثير من المؤرّخين

المعاصرين والمتأخرين من بعده، هو كتاب «المقتفي» الذي جعله مقتفياً لكتاب أبي شامة الدمشقي: «الروضتين في أخبار الدولتين»، ونوّه بذلك في مقدّمته، فقال: «. . وبعد، فإنّ علم التاريخ من أحسن العلوم وأشهرها، وأصل الفوائد وأبهاها، وأكمل المحاضرات وأزهاها. لأنه سبيل إلى الاعتبار، ومنهاج يعين على الاختصار، وتحفة تُريك من مضى من الأمم عياناً، ونزهة تشرح للمطالع فيه قلباً، وتبسطه لساناً. وكان تاريخ الشيخ الإمام العلاّمة الحافظ المفتي شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي المعروف بأبي شامة رحمه الله تعالى الذي جعله ذيلاً على لبابه المسمّى بالروضتين في أخبار الدولتين، ورتّبه على السنين وابتدأ فيه من أول سنة تسعين وخمسماية، وانتهى فيه إلى سنة وفاته سنة خمس وستين وستماية، وهي سنة مولدي، مجموعاً حسناً، وذيلاً مستحسناً. ولما طالعته وحصّلت به نسخة وقابلته، أحببت أن أذيّل عليه من تلك السنة، وأن أحذو حذوه فيما أتقنه وبيّنه، وأن أهتدي بأنواره، وأن أعدّ من جملة أعوانه وأنصاره، ليكون تاريخه معلماً، وإتقانه مُحكماً، والمسؤول من لطف الله تعالى الإعانة، ومن جميل كرمه الإبانة، ومن ها هنا أبتدي فأقول: سنة خمس وستين وستماية. المحرّم. في ليلة الرابع المحرّم توفي. . .».

اعتمد البرزالي السّرْد التاريخي، ولم يفصل بين الحوادث والوفيات، بل أدمج الاثنين ببعضهما، حسب التسلسل الزمني، فيبدأ بذكر السنة كعنوان، ثم ذكر الشهر بدءاً بشهر المحرّم، وفي أول السطر يذكر ترجمة المتوفى، أو الخبر إن كان في بداية الشهر، دون وضع أيّ عنوانٍ أو فاصل بين الوفاة والخبر، ويكتفي برسم دائرة صغيرة عند نهاية أحدهما. وفي حال الترجمة للوفيات، يبدأ بذكر يوم الوفاة تحديداً بلفظ «عشيّة» أو «بكرة» أو عقب صلاة الفجر مثلاً، أو في آخر الليل، وهكذا، ثم يذكر اسم المتوفى مع نَسَبه المطوّل في الغالب، وتحديد عدد المرّات التي صُلّي عليه، ومكان الصلاة، ومكان الدفن. ويذكر سماعه وطلبه للعلم وأسماء شيوخه، ويؤرّخ لمولده بالشهر والسنة، ويذكر أسماء الرواة عنه وتلامذته، ثم أقوال العلماء فيه، وفي هذا دليل على تحرّيه وعنايته بهذا الفنّ، فكان هو المرجع الثقة.

والكتاب يؤرّخ من سنة 665 هـ/ 1266م حتى سنة 720 هـ/ 1320م في جزءين كبيرين، وهو لا يزال مخطوطاً إلى الآن، ولا نتوقّع أن يُحقّق ويُنشر لصعوبة قراءته حيث طُمست أكثر صفحاته من الرطوبة التي لحقت بأوراقه، والذي يعيق تحقيقه أيضاً عدم وجود نسخة أخرى من المخطوط بمكتبة أحمد الثالث بمتحف طوبقابي سراي باستانبول.

والمرجّح لدينا أنّ البرزالي أراد أن يتمّ «المقتفي» فوضع مسوّدة جمع فيها تراجم المتوفّين، والحوادث إلى آخر سنة 738 هـ/ 1338م. ووقعت المسوّدة تحت يد صديقه المؤرّخ ابن الجزري المتوفى مثله في سنة 739 هـ/ 1339م. فنقل منها ما مجموعه 598 ترجمة، وضمّنها كتابه «تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه»، بالإضافة إلى 30 ترجمة اشترك الاثنان في كتابتها.

ويبدأ ابن الجزري بالنقل عن مسوّدة البرزالي اعتباراً من وفيات سنة 729 هـ. وكان أميناً في نقله، إذ راح يصدّر وفيات كل سنةٍ بتنبيه يدلّ على أنها ليست كلّها من جمعه، بل هو ينقل كثيراً عن صاحبه، فقال في صدر وفيات سنة 731 هـ. ما نصُّه: «قلت: كل ما أكتب من الوفيات في أوله «وذَكَرَ»، يكون من تعليق الحافظ علم الدين بن البرزالي.

وكلّما أكتبه: «وتوفي». أو «في كذى وكذى» هو ما عنيت بجمعه. وثمّ من التراجم يكون أنا وأيّاه مشتركين فيها، إمّا من المولد، أو ذكر مشايخ المتوفّى، أو شيئاً بلغه ولم يبلغني. فما ينبغي أن أضيّع تعبه وأدّعيه لنفسي*.

كما نقل ابن الجزري - غير الوفيات - كثيراً من الأخبار والحوادث، وما أنشده عن الشعراء والأدباء ممّن لم يُترجم لهم في الجزء الأخير من كتابه، لأنهم توفوا قبل سنة 725هـ. بعدّة سنوات، ومنهم من توفي في القرن السابع الهجري.

وقد حشدها ابن الجزري كلّها في آخر وفيات سنة 735 هـ. دون مراعاةٍ لأيّ ترتيبٍ من حيث التأريخ الزمنيّ. وعن البرزالي نقل وفيات جماعةٍ من البعلبكيّين والمصريين في آخر كتابه. وبذلك حفظ لنا ابن الجزري قسماً كبيراً من المسوّدة المفقودة للبرزالي.

وكان كتاب «المقتفي» للبرزاليّ منهلاً لكبار المؤرّخين، فنقلوا عنه نصوصاً كاملة من الحوادث، وتراجم الوفيات، نذكر منهم: النويري (ت 733هـ) في «نهاية الأرب في فنون الأدب»، والذهبي (ت 748 هـ) في «تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام»، وابن كثير (ت 774 هـ) في «البداية والنهاية»، وغيرهم.

حجّ البرزالي أربع مرّات، وتوفّي في المرّة الرابعة وهو مُحرم في سنة 739 هـ/ 1338م.

آثاره

1 - المقتفي (مخطوط في جزءين كبيرين)؛ 2 - تتمّة المقتفي (مسوّدة في حكم المفقودة نقل عنها ابن الجزري)؛ 3 - معجم الشيوخ والسماعات. (مخطوط)؛ 4 - مشيخة قاضي القضاة ابن جماعة. (تخريج). طُبع في جزءين؛ 5 - مشيخة المسند الكبير ابن عبد الدائم المقدسي (ت 668 هـ) (مخطوط).

المصادر والمراجع

● كشف الظنون 287 و 294 و1647 و1735؛ ● هدية العارفين 1/ 830؛ ● معجم المؤلفين 8/ 125، 124؛ ● عمر عبد السلام تدمري، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت 1411 هـ/ 1990م - القسم الثاني - ج 3/ 151 - 153 رقم 851.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية - طرابلس - لبنان

البرزلي، أبو القاسم بن أحمد بن محمّد

(741هـ/1339م - 844هـ/1439م)

هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد البرزلي البلوي، القيرواني ثم التونسي، فقيه تونس وإمامها، وصاحب «الديوان الكبير في الفقه والفتاوى». والبرزلي نسبة إلى قبيلة بربرية من نواحي المسيلة بالمغرب الأوسط (الجزائر) تعرف ببني برزلة أو برزالة، وعليه يجب أن تكون النسبة إليها البرزلي - أو البرزالي لكن اعتاد التونسيون من قديم على نطقها البرزلي (بضم الباء والزاي) [حسن حسني عبد الوهاب، العمر، 2/ 784].

ولد بمدينة القيروان سنة إحدى وأربعين وسبعمائة للهجرة، وبها نشأ وتعلم، فكان أوّل أساتذته بها الشيخ المفتي أبو محمد عبد الله الشبيبي البلوي القيرواني الذي تعلم عليه فنونا متعددة مختلفة ولازمه كثيرا إلى أن ارتحل إلى حاضرة تونس في حدود سنة خمس وستين وسبعمائة للهجرة بعد أن درّس وتولى الإفتاء، ولكن صلته بالقيروان لم تنقطع؛ فكان يأتي بلده زائرا، فيحفّ به العلماء والأعيان. وفي حاضرة تونس قرأ على الإمام أبي الحسن البطرني الأنصاري الفقه والتصوّف، وأجازه في جميع ما يحمله ويرويه وكتب له بخطه وأشهد على ذلك؛ وقرأ على الخطيب محمد بن مرزوق التلمساني الحديث والأدب، وعلى ابن الحاجة البلنسي القراءات السبع وغيرها، وكان ابن عرفة أعظم شيوخه تأثيرا في شخصيته، فأخذ عنه هديه وعلمه وطريقته ولازمه نحوا من أربعين سنة قرأ عليه فيها أكثر علوم الشريعة وشيئا من المنطق، وأجازه في جميع ما درّسه وكتب له بخطه مرارا. وقد ذكر البرزلي كل شيوخه في «الفتاوى» بأسمائهم وألقابهم وخصّ ابن عرفه بلفظ «شيخنا الإمام»، هذه العلاقة لم تقف عند حد الأخذ والقراءة بل تعدتها إلى درجة الملازمة والمناقشة وتبادل الرأي، مما جعله ينقل في كتبه عددا كبيرا من المسائل والفتاوى الفقهيّة التي سمعها من شيخه وكثيرا من أخباره ومجالسه ومواقفه؛ وتعود هذه العلاقة إلى ما قبل سنة سبعين وسبعمائة، واستمرت حتى وفاة ابن عرفة سنة ثلاث وثمانمائة للهجرة.

وكان البرزلي كثير الاعتماد على أقوال شيخه في فتاويه ودروسه، يذكرها محتجًّا بها، وكثيرا ما كان يعرض فتاويه على شيخه وكثير الاقتداء به، ولكن ذلك لم يمنعه من مناقشة آراء شيخه والرد عليها بكل لباقة وأدب، مما جعل ابن عرفة يصرّح بكلمته المشهورة - حينما عوتب على إرهاق نفسه بكثرة النظر في الكتب وطول السهر في البحث - «كيف أنام وأنا بين أسدين» الأبيّ «بفهمه وعقله» والبرزلي «بحفظه ونقله» [التنبكتي، نيل الابتهاج، 488].

ثم رحل إلى المشرق للحج سنة 799هـ وامتدت هذه الرحلة إلى سنة 800هـ، فدخل

الاسكندرية واتصل فيها بالشيخ أبي عبد الله محمد الدكالي المغربي، الذي قدم تونس في عشرة السبعينات وأنكر على علمائها مسائل منها أخذ الإمام الأجرة على إمامته، واحتدّ بينه وبين ابن عرفة الخلاف حتى اضطر إلى الخروج من تونس وانتقاله إلى مصر، فناظره البرزلي في ذلك؛ ثم لقي شيوخا بالحرمين الشريفين، ثم تجول في فلسطين والشام، ولقي بدمشق أبا العباس بن الحاج الإشبيلي إمام محراب المالكية بها؛ ثم أقام بمصر مدة وباحث فقهاءها في مسائل منها ما يسمى «بالجامكية»، ولقي بالقاهرة المحدث برهان الدين الشامي الشافعي وأخذ عنه، واستدعاه في الإجازة، فأجازه وقد وصفه البرزلي براوية الديار المصرية؛ كما درس بالقاهرة على أبي إسحاق الرسام، ثم عاد إلى تونس وقد أصبحت له مكانة مرموقة في مجتمعه عند العامة، مستشارا عند الخاصة، معتمد القول عند السلطان؛ ووجد فيه أبناء عصره العوض عن ابن عرفة. ولما توفي شيخه الغبريني سنة 813هـ أصبح إمام الجامع الأعظم (جامع الزيتونة) وخطيبه، وأصبح إليه المفزع في الفتوى. وكان الناس ربما يسألون غيره ويأتون إليه يصحّحون الجواب عنه، وربما يصوّب المجيب، وربما يخطّئه، ويقول ارجعوا وقولوا له لا تقل هذا وارجع عنه فإنه خلاف ما به العمل أو خلاف المشهور [محمد الحبيب الهيلة، الإمام البرزلي، مقال النشرة العلمية للكلية الزيتونية النسخة الأولى، العدد الأول، 204].

تولى البرزلي عدة مناصب شرعية والإقراء في مدارس الحاضرة وتلقى عليه عدد كبير من وجوه الفقهاء مثل ابن ناجي وعبد الرحمان الثعالبي وحلولو والرصاع والخطيب ابن مرزوق الحفيد وقد باشر هذه الوظائف بنزاهة تامة، وكان مرضيّ الطريقة والأخلاق، عالي الهمة، وجمع مع ذلك الحفظ للفقه، والاستحضار للمذهب المالكي حتى وصف «بشيخ الإسلام» [السخاوي، الضوء اللامع، 11/ 133].

وقد وقع بينه وبين معاصره أحمد الشماع (من تلاميذ ابن عرفة أيضا) نزاع طويل في مسألة العقوبة بالمال التي يقول بها البرزلي، فرد عليه الشماع وشنّع عليه لقوله بجوازها، وألّف فيها تأليفا في كراريس سماه «مطلع التمام ومنجاة الخواص والعوام، في رد القول بإباحة غرم ذوي الإجرام»، وذكر فيه أنّه تواتر عن شيخه ابن عرفة أنه كان يقول في سجوده: «اللهم احفظ دين محمد من البرزلي» [محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 1/ 116].

آثاره

ليس من شك في أن كتاب «الفتاوى» هو أكبر تآليف البرزلي، ورغم أن كل المصادر لم تنسب إليه كتابا غيره، فإن له مؤلفا آخر هو عبارة عن رسالة كتبها للرد على عمر الرجراجي، وقد أورد منها نصوصا طويلة في هذا الكتاب.

1 ـ كتاب كبير موسوم بالفتاوى أو النوازل أو ديوان البرزلي، وضع له العنوان التالي: «جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام». وصفه ابن مريم بأنه الديوان الكبير في الفقه والفتاوى، وهو من

كتب المذهب الأجلة أجاد فيه ما شاء [البستان، ص 150]، ووصفه السخاوي بالفتاوى المتداولة [الضوء اللامع، 11 / 133].

وفيه اعتمد البرزلي على كتب الفتاوى والنوازل السابقة وعلى مصادر الفقه المالكي مثل «المدونة» و «الموازنة» و «ابن الحاجب الفرعي» و «تهذيب المدونة للبراذعي» و«رسالة ابن أبي زيد القيرواني». أما طريقته في عرض المسائل فهو يعرض السؤال الذي وجّه إليه أو إلى أحد شيوخه أو إلى علم من رجال المذهب، ثم يورد الجواب من عنده إذا كان السؤال وجه إليه، أو ما أجاب به المسؤول من الشيوخ، ثم يعقب على ما ينقله تعقيبا يختلف باختلاف موقفه من القضية، فإذا وجد نقصا في جواب غيره أكمله بنقل أو بدليل سمعي أو قياسي، وكثيرا ما يستدل على القضية بمواقف السلف الصالح ومواقف شيخه ابن عرفة وأحكامه التي أمضاها؛ كما أنه كثيرا ما يغتنم المناسبات لذكر بعض الحوادث التاريخية الواقعة في عصره أو السابقة عنه مما يجعل كتابه من أهم المصادر التي لا يمكن أن يستغني عنها المؤرخ للمجتمع التونسي في العهد الحفصي، وقد بوّب كتابه على طريقة تتفق مع تبويب كتب الفقه، وأضاف إليها في النهاية أبوابا تتعلق بالأدعية والوعظ والرّقى والطب وغير ذلك من المسائل المتفرقة التي لا تتصل بالمسائل الفقهية، وقد اعتمد عليه الونشريسي في «معياره» عند ما تمس الحاجة إلى جلب فتاوى التونسيين، وقد أثبت سعد غراب في البحث الذي أعدّه عن كتاب «النوازل» واقعية البرزلي النابعة من مميزات المذهب المالكي ذي النزعة العملية التطبيقية من خلال المصطلحات الواردة في كتابه وتحرّيه في ضبط مكان النوازل، وبيّن أن هذا الكتاب هو في الحقيقة منجم ثريّ للمعلومات الاجتماعية والاقتصادية بمختلف أنواعها [مقال: كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية - مثال نوازل البرزلي، 102]. وهذا الكتاب يقع في أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين، ويوجد منه نسخ كثيرة بالمكتبة الوطنية بتونس، وتوجد نسخة بالزيتونة، وبالمدرسة العليا بالرباط، وبالمتحف البريطاني، وفي كثير من الخزائن الخصوصية، منها مكتبة حسن حسني عبد الوهاب [كتاب العمر، 2/ 785]. وقد اختصر هذا الكتاب تلميذاه أبو العباس حلولو القيرواني، وأبو عبد الله البوسعيدي البجائي، وسماه «الحاوي في النوازل» كما اختصره الونشريسي.

2 - رسالة رد فيها على عمر الرجراجي وأجاب فيها عن اعتراضاته على أهل تونس فإن نقله منها في الفتاوى يبلغ 22 صفحة من القطع الكبير؛ وكان أسلوبه فيها مغايرا لأسلوبه في «الفتاوى»، فهو يحاول أن يكتب بطريقة أدبية تطغى عليه مسحة أسلوب الفقهاء والمحدثين، أورد فيها ما أنكره الرجراجي أولا ثم أخذ في إجابته ودحض تهمه واحدة واحدة بطريقة لا تخلو - في بعض الأحيان - من المبالغة في تفسير أقوال خصمه.

3 - فهرست في أسماء شيوخه ومروياته في نحو ستة كراريس.

وكان البرزلي قد عدد في إجازته لابن مرزوق أسماء شيوخه شرقا وغربا وما روى عن كل واحد منهم، وهي إجازة حافلة ترشدنا إلى

طريقة رواية التدريس في ذلك العصر وما كان يقرأ من الكتب الأمهات. وقد قضى البرزلي حياته الطويلة التي امتدت قرنا من الزمان بين الفقه والتدريس والفتوى، حتى قال عنه تلميذه ابن ناجي إنه يفتي في ألف مسألة في اليوم الواحد [ذيل معالم الإيمان، 3/ 112]. وقد كانت وفاته في حدود سنة أربع وأربعين وثمانمائة للهجرة بتونس، ودفن «بالزلاج».

المصادر والمراجع

● السخاوي محمد، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، 12 جزءا، نشر مكتبة القدسي - القاهرة 1353هـ/ 1935م؛ ● ابن مريم، محمد التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر 1326هـ/ 1908م؛ ● التنبكتي، أحمد بابا (ت 1036هـ)، نيل الابتهاج لتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد الهرادمة، منشورات كلية الدعوة، طرابلس - ليبيا، ط1/ 1989م؛ ● مخلوف، محمد (ت 1360هـ)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت 1349هـ، عن المطبعة السلفية؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة المطوي والبكوش، 1410هـ/ 1990م، بيت الحكمة قرطاج، تونس؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين ط1، بيروت 1982م، دار الغرب الإسلامي.

د. هشام قريسة
المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية - تونس

أبو برزة الحاسب، الفضل بن محمد بن محمد

(ت 298هـ/912م)

هو الفضل بن محمد بن محمد بن عبد الحميد الخُتّلي (وقيل الجيلي) أبو برزة الحاسب، حفيد عبد الحميد بن واسع بن ترك. ولد ببغداد أوائل القرن الثالث الهجري ذكره الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» على أنّه من أهل الحديث الشّريف، وقال إنّه ثقة. وهو الّذي ترجم له في هذا الموضوع، حدّث عن أحمد بن عبد اللّه بن يونس، وثابت بن موسى، ويحيى الحماني الكوفيّين، ومحمد بن سماعة الرملي، ومالك بن سليمان الإلهاني، ونوح بن حبيب القومسي، روى عنه عبد الباقي بن نافع، وأبو محمد بن ماسي، وأبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف السقطي. وممّا روى بسنده: «أخبرنا الحسن بن أبي بكر، أخبرنا عبد اللّه بن إبراهيم أيّوب بن ماسي حدّثنا أبو برزة الحاسب، حدّثنا محمد بن سماعة، حدّثنا مهدي بن إبراهيم، حدّثنا مالك بن أنس عن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه، قال: قال لي أبو

سعيد: إنّي أراك تحب البادية، وتحبّ الغنم، فإذا كنت في غنمك أو في باديتك، فارفع صوتك بالآذان، فإنّه لا يسمع مدى صوتك في غنمك أو باديتك حجر ولا شجر ولا مدر، ولا شيء إلاّ شهد لك يوم الجمعة. ثمّ قال لي أبو سعيد: سمعت ذلك من رسول الله ﷺ». وقال الخطيب البغدادي: «سألت أبا بكر البرقاني عن أبي برزة الحاسب، قلت: أكان ثقة؟ فقال: إي لعمري وهو جليل. أخبرنا السمسار، أخبرنا الصفار، حدّثنا ابن نافع أنّ أبا برزة الحاسب مات في سنة ثمان وتسعين مائتين». قال لي هلال بن الحسن: «مات أبو برزة يوم السبت لأربع بقين من صفر، ومع هذا القدر لأبي برزة»، إلاّ أنّ المصادر لا تذكر شيئًا من مؤلّفاته في الحديث أو الفقه.

أمّا الجانب الآخر الّذي أكسبه صفة الحاسب، فهو اهتمامه بالحساب والجبر وما يتعلّق بذلك، ذكر ابن القفطي أنّه اشتهر بولعه الشّديد في الحساب، وقال: إن له استنباطات لم يسبق إليها، وهو الّذي ادّعى أنّ جده عبد الحميد صاحب اختراع الجبر وليس الخوارزمي، وقد ذكرنا ذلك في ترجمة «عبد الحميد بن واسع».

آثاره

تذكر المصادر له كتابين:

1 ـ كتاب المعاملات؛ 2 ـ كتاب المساحة.

المصادر والمراجع

● ابن النديم، الفهرست، المقالة السّابعة، الفنّ الثّاني، ص 447، ضبطه وحقّقه يوسف علي الطويل، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1416هـ / 1996م؛ ● حمدان، زهير، أعلام الحضارة العربيّة في العلوم السّياسيّة، دمشق 1995 م، مج. 2/ 196، وزارة الثّقافة السوريّة، ● الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السّلام، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1417هـ / 1997 م، 12/ 368؛ ● زكي، صالح، آثار باقية، 2/ 260 ـ 261؛ ● طوقان، قدري حافظ، تراث العرب العلمي، دار الشّروق 163، القاهرة؛ ● القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، أخبار العلماء الحكماء، مكتبة المثنّى، بغداد؛ مكتبة الخانجي، القاهرة، 254، 406؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، بيروت، 1414هـ / 1993 م، مؤسّسة الرّسالة، 2/ 624، .

● SEZGEN, Fuat, Geschichite des Arabischen Schrittum, Leiden, E. J. Brill, 1967 - 1982, Vol. 5.

د. عبد المجيد نصير
جامعة العلوم والتكنولوجيا ـ الأردن

البَرْزَنْجي، جعفر بن حسن بن عبد الكريم

(1128هـ / 1716م ـ 1177هـ / 1763 م)

عائلة السادات البَرْزَنْجي من العائلات المعروفة بالعلم والصلاح والتقوى، وقد أنجبت العديد من العلماء والمحقّقين، وأغنى الكثير من أفراد هذه العائلة المكتبة العربية الإسلامية بالكتب والأبحاث القيّمة؛ ومن أشهر أبناء عائلة البرزنجي: محمد عبد الرسول البرزنجي (ت 1103 هـ). وفي ظلّ العائلة الكريمة ولد الشيخ جعفر بن حسن بن عبد الكريم بالمدينة المنوّرة سنة 1128 هـ/ 1716 م، في مدرسة محمد آغا دار السعادة بالقرب من العين الزرقاء التي كانت من أهمّ مصادر المياه بالمدينة المنوّرة، وكان والده معلما في المدرسة وناظر أوقافها.

وبعد أن شبّ جعفر بن حسن وترعرع، حفظ القرآن الكريم على يدي الشيخ إسماعيل اليماني؛ ثم تلقّى علم القراءات على يد الشيخ يوسف الصعيدي. وبعد أن تمكّن من حفظ كتاب الله وتجويده شرع في تحصيل العلوم العقلية والنقلية على يدي عمّ والده الشيخ عبد الكريم بن حيدر البرزنجي وغيره من علماء المسجد النبوي حيث درس النحو والصرف والمنطق والبيان والبديع والفرائض والخطّ والحساب والفقه وأصوله. كما درس الفلسفة والهندسة واللغة والسير، وكتاب الرجال ومصطلح الحديث والتفسير.

وبعد أن أتم تعليمه على شيوخه وتمّت إجازته، جلس للتدريس في المسجد النبويّ ابتداء من رمضان سنة 1159 هـ، وكان خطيبا مفوّها وعالما متمكّنا يجيد المناظرة والجدل والمرافعة، فالتفت حوله الطلاّب من أهل المدينة والوافدين إليها، وقصده طلبة العلم من كلّ مكان، وارتحل إليه العلماء من شتّى البلاد بالمسائل المعقّدة، فكان يفتي فيها ويحلّها لهم في أسرع وقت لعلمه الغزير.

ولأن جعفر بن حسن درس جميع المذاهب الشرعية وأفتى فيها، فقد تقلّد فتوى المدينة المنوّرة إلى أن توفّي سنة 1177هـ/ 1763م.

آثاره

له عديد المؤلفات في مختلف أصناف العلوم ومن مؤلفاته:

1 ـ العقد الجوهر في مولد النبي الأزهر، ط؛ 2 ـ مختصر الضوء الوهّاج في قصّة الإسراء والمعراج، ط؛ 3 ـ الغصن الوردي في أخبار السيّد المهدي؛ 4 ـ جالية الكرب بأخبار أصحاب سيّد العجم والعرب؛ 5 ـ النفخ الفرجي في فتح الجتة جي، موجود في المكتبة الظاهرية بدمشق؛ 6 ـ إتحاف البرايا لعدّة الغزوات والسرايا في حياة الرسول؛ 7 ـ إضاءة الدراري لإرشاد الساري على صحيح البخاري، موجود في دار الكتب المصرية بالقاهرة؛ 8 ـ الروض المعطار فيما

للسيد محمد عبد رب الرسول البرزنجي من آثار.

المصادر والمراجع

● مرشد أحمد أمين، طيبة وذكريات الأحبّة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، جدّة 1416 هـ/ 1995م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 2/ 123.

د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري
جامعة الملك سعود ـ الرياض

البرشاني، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد

(806هـ/ 1403م ـ 888هـ/ 1483م)

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مسعود بن حسين بن عبد العزيز بن كامل، الأنصاري البرشاني، الوادي آشي؛ فقيه، لغوي، عالم بالفرائض والحساب. أصله من مدينة برشانة (Purchena)، الأندلسية الواقعة في وسط إقليم ألمرية (Almeria) تقريبا، على نهر المنصورة (Almansora). ثم تحوّل للإقامة في وادي آش (Guadix)، شمال شرقي غرناطة (Granada). أخذ العلم عن كبار علماء عصره في الأندلس، مثل الشيخ الرحال أبي عبد الله محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري المتوفى سنة 862هـ / 1457 م، الذي تميز بتمكنه في علم القراءات، وعلوم اللغة العربية، والفقه، وبعض العلوم العقلية. ويبدو أن البرشاني قد رافق أستاذه المجاري هذا لفترة طويلة، وذلك حسبما يبينه هو في كتاب احتفظ به أحد تلامذته، المعروف بابن زكري، والذي سنشير إليه لاحقا: «وكنت ممن لازمه للقراءة عليه زمنا طويلا، وانتفعت بفوائده انتفاعا جليلا، وأجازني على طريق الخصوص والعموم. وأذن لي في حمل جميع محمولاته من منقول ومفهوم، ومنثور ومنظوم...». وقد شملت هذه الإجازة أيضا برنامج الحاج أبي عبد الله المجاري المذكور، والذي أشار إليها البرشاني(بالدفتر).

ومن شيوخه أيضا، الأستاذ أبو عبد الله محمد بن مالك المنتوري، والغمام أبو عبد الله محمد بن محمد السرقسطي الأنصاري الغرناطي، عالم غرناطة، ومفتيها المتوفى سنة 865هـ / 1461 م، والأستاذ المصنف أبو القاسم القمارشي، والأستاذ الخطيب أبو عبد الله محمد اللخمي القرباقي، والأستاذ أبو عبد الله بن هارون البرشاني، وقد تفقه بهذين الشيخين، كما لقي الأستاذ أبا الحسن العامري [ثبت أبي جعفر البلوي، 183 ـ 184].

أقام البرشاني مدة في مدينة وادي آش،

ودرس فيها، وكان من جملة من درس عليه، وأخذ عنه، أحمد بن أبي يحيى، الذي كانت له رحلة إلى المشرق، وهو الذي أخبر السخاوي بترجمة البرشاني التي دوّنها له في كتابه [الضوء اللامع، 1/ 118]. ومن أشهر تلاميذه في وادي آش، علي بن أحمد بن داود البلوي المتوفى سنة 898هـ / 1493 م، فقد قرأ عليه بلفظه ألفية ابن مالك، وسمع في مجلسه كتبا عديدة في النحو والفقه، مثل تهذيب البراذعي، وجواهر ابن شاس، وكتاب سيبويه، وجُمَل أبي القاسم الزجاجي، وقوانين ابن الربيع. يضاف إلى ذلك أنه أخذ عنه مقالات أبي العباس أحمد الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء المتوفى سنة 721هـ / 1321 م، في علم العدد والحساب، الأمر الذي يشير إلى اهتمامات البرشاني بالعلوم العقلية، ودراسته لكتب ابن البناء المراكشي، التي وصلت إلى الأندلس، وشاعت فيها.

ومن تلامذته أيضا أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الفهري المعروف بالقرعة (ولد سنة 825هـ / 1422 م)، الذي درس عليه علم اللغة العربية، وقرأ عليه أجزاء من ألفية ابن مالك، قراءة تفقّه وتفهّم. وقد وصفه «بالغمام الخطيب، البليغ النحوي، البقية الصالحة، البركة، المنعم... وكان فصيحا، حسن الإلقاء، فاضل الذات، حسن الخلق...». وكان من أكثر تلامذته التصاقا به وقربا منه، أبو العباس أحمد بن زكري المغراوي التلمساني المتوفى سنة 899هـ / 1493 م، وصفه أستاذه البرشاني بالأديب الماهر، ولم يكتف بالدراسة عليه فحسب، بل طلب منه أن يجيز له ما رواه عن الحاج الأستاذ أبي عبد الله المجاري الذي كان، كما أسلفنا، أستاذا للبرشاني. وقد أشار إلى هذه المعلومة، أبو جعفر أحمد البلوي [ثبت البلوي، 425 - 426] الذي أطلعه ابن زكري على رقعة بخط البرشاني، يقول فيها إن تلميذه ابن زكري طلب «... أن آذن له على نحو ما أذن لي شيخنا المذكور رضي الله عنه، في حمل أسانيده ورواياته، مما احتوى عليه الدفتر وغيره، إن ثبت أنه من أسانيد شيخنا المسمى، وقد أذنت له، حفظ الله مقامه في العلم ومرتبته، في ذلك إسعافا لقصده السني، وإرضاء لغرضه العلمي». وكان تاريخ هذه الإجازة في رجب من عام 866هـ/ 1461م.

استمر البرشاني في عطائه العلمي، على الرغم من كبر سنه، الذي قارب الثمانين عاما. وكان يمارس حياته الاعتيادية إلى آخر يوم من عمره، الذي صلى فيه الجمعة والعصر والمغرب والعشاء جماعة. وقد سمعه جيرانه، قبيل وفاته في الليل، وهو في مضجعه يقول: «اللهم هوّن عليّ الموت»، ولم تكن زوجته حاضرة، وذلك في ليلة السبت، التاسع عشر لذي القعدة عام 888 هـ/ 19/ 12/ 1483م.

المصادر والمراجع

● البلوي، ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي، دراسة وتحقيق عبد الله العمراني، بيروت 1983، دار الغرب الإسلامي، 156، 183 - 184، 425 -

426 • المجاري، أبو عبد الله، برنامج المجاري، تح. محمد أبو الأجفان، بيروت 1982، دار الغرب الإسلامي، مقدمة التحقيق، 33، 39، 40، 71؛

• السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1/ 118.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

برصوم، أيوب بن إسطيفان

(1304هـ / 1887م ـ 1376هـ / 1957 م)

أيوب بن إسطيفان برصوم، لقب بأفرام عند انتخابه بطريركا، ولد في الموصل بتاريخ 5/ 6/ 1887، درس اللغة العربية، بصرفها ونحوها وآدابها على يد أحد علماء المسلمين في بلدته، حتى أصبح أحد أعلامها، ونوابغها وحجة في تاريخ نشأتها، وقرض شعرها بسهولة.

وفي دير الزعفران بتركيا، درس اللغة السريانية، والعلوم اللاهوتية والمنطق، وأتقن الفرنسية والتركية، وألمّ بالإنكليزية واللاتينية واليونانية، وأكبّ على دراسة العلوم الفلسفية في باريس على يد أستاذ خاص.

كان مدمنا للمطالعة، في مختلف العلوم والمعارف، ومغرما بالبحث والتدقيق، وله في تحرّياته مواقف، قلّما يضارعه فيها مضارع، وقضى بذلك أكثر من نصف قرن، ومع ذلك فلم ترتو نفسه.

تفرّغ لدراسة التواريخ الشرقية، فجمع في مكتبه آثارا خطّية قديمة وحديثة، اقتناها من مختلف المكتبات الشرقية والغربية.

رسم مطرانا لسوريا ولبنان عام 1918، ولما رسم بطريركا في 3/ 1/ 1932 نقل كرسي البطريركية من دير الزعفران بتركيا إلى مدينة حمص في سوريا العربية، ولهذا مدلول وطني كبير، وأسّس المدرسة الإكليركية، وأصدر المجلة البطريركية، ونشر فيها سبعة مجلدات، دبّج لها أبدع المقالات والأبحاث.

قام بأسفار عديدة إلى الآستانة، وبقية المدن التركية، ومصر، وزار مكتبة دير السريان في طور سينا، وقصد باريس، ولندن، وأكسفورد، وكمبردج، وروما، وفلورنسا؛ وأفاد من محاضرات العلماء المستشرقين، وأمهات المكتبات، علما وأبحاثا تاريخية جليّة؛ وأعطته هذه الرحلات فرصة نادرة للاطّلاع على أهمّ المؤلفات، التي وضعها المستشرقون في تاريخ الشرق العظيم.

وفي عام 1927 سافر إلى لوزان وجنيف، وحضر اجتماعات عصبة الأمم هناك، وغادرها إلى الولايات المتحدة وكندا، وعند

عودته عرّج على برلين، وبحث في خزانة الكتب الملكية.

أما بالنسبة إلى مكانته العلمية، فقد عرفت المحافل العلمية في الشرق والغرب مقدرته العلمية، ونبوغه ومواهبه هذه، فاعتبرته حجّة فريدة في مواضيع التاريخ الشرقي؛ لذلك كان علماء المشرقيات في الغرب يستشيرونه، في كلّ صغيرة وكبيرة، ويكتبون إليه مستفتين عن مواضيع تاريخية ولغوية وأدبية كبيرة، فيجود عليهم بالأجوبة المقنعة الكافية، وينقذهم من أخطاء علمية وتاريخية كثيرة، وبناء على هذه المنزلة التي حازها فقد عيّنته جامعة شيكاغو عضوًا في المعهد الشرقي، إثر المحاضرة النفيسة التي ألقاها في هذه الجامعة.

في عام 1932 عيّن عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وكانت خدماته لهذا المجمع عظيمة، لأن نزعته العربية والوطنية، كانت تحبّب إليه كلّ شيء، وعلى الأخصّ لغة الضاد العزيزة، وقد نشر مقالات نفيسة في هذا المجمع الكريم.

وعلى الصعيد الوطني، فقد أصاب لدى المغفور له الملك فيصل الأول حفاوة ومكانة؛ وله مواقف معروفة في المؤتمر العربي بدمشق، ومؤتمر فرساي، وكان له دور إيجابي في المعاهدة السورية الفرنسية عام 1936، وكانت علاقته سلبية مع السلطة الفرنسية المنتدبة.

ألقى في مؤتمر باريس عام 1919 كلمة باللغة الفرنسية، تطرّق فيها إلى أسس السلام في العالم، وبسط حالة البؤس والحرمان المحيطة بالشرقيين، وتوسّع في وصف المصائب والكوارث، التي ابتلي الشرق بها، وقال بعد المحاضرة: لم أر دمعة تسيل على خد، ولم أجد نظرة إشفاق على بؤس الشرقيين، وشعرت أنني أخاطب أصنامًا جامدة وصخورًا صمّاء، ويضيف قائلاً: لقد اجتمعت ببعض أحرار العرب، ووضعنا بعض النقاط، ودخلنا سويّة في اليوم الرابع إلى المؤتمر، فشخصت إلينا الأنظار، وتعجّب الحاضرون من أن يدخل مطران مسيحي يحفّ به مجاهدون عرب مسلمون، وما إن استقرّ بنا المقام حتى طلب إليّ زملائي أن أتكلّم، فأكّدت في مفتتح كلامي، أن العرب عرب سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين، ثمّ وصفت جهاد العرب، ومآثر أبطالهم، وذكرت أنّ لهم حقا مقدسا في الحرية والاستقلال والحياة الكريمة، لكونهم أمة عظيمة، لها تاريخها الخالد، والأيادي البيض على البشرية منذ أقدم العصور. وعندما شكلت حكومة عربية في دمشق تحت الانتداب الفرنسي استعدادا للحكم الوطني المستقل في سورية، دعي إلى الخطابة في النادي العربي بدمشق؛ وبحضور جمهرة غفيرة من أبطال العرب، وأحرارهم آنذاك، ارتجل خطبة عربية نفيسة، أظهر فيها حقوق العرب في الحرية، وأطرى جهادهم في سبيل الاستقلال، وأشار إلى شهدائهم في دمشق وبيروت.

توفي علاّمتنا الكبير في حمص بسوريا صباح الأحد في الثالث والعشرين من حزيران 1957م/ 25 ذو القعدة 1376هـ.

آثاره

هي عديدة ومتنوعة، تدلّ على عبقرية ومواهب عظيمة، تمثّلت بما تركه من مؤلفات ومقالات

ومحاضرات، نشرها، وألقاها في المحافل الثقافية المحليّة والدولية. ومن أهمّ هذه المحاور نذكر:

- أوّلا: المحور التاريخي: كان في هذا المجال حجّة لا يجارى. ومن أهمّ كتبه في هذا الباب نذكر: 1 - الدرر النفيسة في مختصر تاريخ الكنيسة؛ 2 - المورد العذب وهو اختصار للكتاب السابق؛ 3 - اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية؛ 4 - نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران؛ 5 - مزارع الجزيرة السورية؛ 6 - مقالات تاريخية نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجلّة الحكمة المقدسية بفلسطين.

ومن مخطوطاته التاريخية واللغوية نذكر: 7 - تاريخ كنسي مختصر؛ 8 - تاريخ بطاركة أنطاكية؛ 9 - تاريخ الأبرشيات السريانية؛

- ثانيا: النقد العلمي والأدبي: 1 - كلمة انتقادية على الزهرة الذكية؛ 2 - الردعة في تفنيد الرجعة؛

- ثالثا: البحوث اللغوية: 1 - الألفاظ السريانية في المعاجم العربية، وكان بحثا مطوّلا، أورد فيه 759 لفظة، وضعها على بساط البحث، درسا وتمحيصا، جمع في مقدمته بين اللغتين العربية والسريانية، بطريقة علمية، وأيد كونهما غصنين لأرومة واحدة، قدمه للمجمع العلمي العربي بدمشق؛ 2 - معجم عربي - سرياني؛ 3 - اختصار لمعجم ياقوت الحموي؛

- رابعا: الترجمة: إذا قرأنا نصوصه البليغة المترجمة من السريانية إلى العربية شعرنا كأنها في لغة الضاد مباشرة، وما ذلك إلا لأنه يجيد كلتا اللغتين، إجادة كبيرة، وله في هذا المجال؛ 1 - كتاب في كيفية الترجمة من السريانية إلى العربية، أسماه: رسالة في أصول التعريب عن السريانية؛ 2 - تفسير نبوءة إشعياء؛ 3 - خطبة الميلاد للعلامة الفيلسوف مارسوريوس ابن كيفا؛ 4 - رسائل القديس قليميس اليوناني؛ 5 قصة ماريوحنا الكبير رئيس دير أفتونيا؛

- خامسا: المحور الشعري: 1 - كان علامتنا، عاشقا للشعر العربي، أتقنه بسهولة، وله ديوان شعري آسماه: «قيثارة القلوب»؛

- سادسا: محور النثر: وفيه ترك لنا كل تراثه الأدبي، حيث وضعه في إنشاء جزل متين؛

- سابعا: التحقيق: 1 - كتاب تهذيب الأخلاق، للعلامة أبي زكريا يحيى بن عدي الفيلسوف، وقد نشر هذا الكتاب الجليل في مجلة اللغات الشرقية، الصادرة في شيكاغو سنة 1928 2 - رسالة في علم النفس الإنسانية، للعلامة أبي الفرج بن العبري؛ 3 - كتاب حديث الحكمة، للعلامة أبي الفرج ابن العبري؛ 4 - كتاب المرشد، تأليف أبي نصر يحيى بن جرير التكريتي؛ 5 - كتاب طب الغم، وشفاء الحزن، تأليف الأنبا ساويريوس، المعروف بابن المقفع، من علماء القرن العاشر الميلادي؛ 6 - كتاب تحرير مسائل حنين بن إسحق الطبية، للعلامة أبي الفرج بن العبري.

المصادر والمراجع

● كتب صاحب السيرة؛ ● الأب ألبير أبونا، أدب اللغة الآرامية؛ ● أوكين

برصوم، أضواء على أدبنا السرياني الحديث؛ ● بهنام، المطران بولس، نفحات الخزام؛ ● دي طرازي؛ الفيكونت فيليب، أصدق ما كان في تاريخ لبنان؛ ● إبراهيم، المطران يوحنا، مجد السريان.

جوزيف أسمر ملكي
المركز الثقافي ـ القامشلي ـ سوريا

البرقاني، أبو بكرأحمد بن محمد بن أحمد

(336هـ/948م ـ 425هـ/1034م)

أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي المعروف بالبرقاني، نسبة إلى قرية من قرى كاث بنواحي خوارزم، خربت أكثرها وصارت مزرعة [السمعاني، 1/ 323]. عالم بالقرآن والحديث والفقه والنحو.

ولد بخوارزم في آخر سنة 336هـ / 948م. قدم إلى بغداد وسكن فيها، ثمّ رحل رحلة طويلة في طلب العلم.

وكان زاهدا لا يملك شيئا، أحب رواية الحديث، وعانى الكثير في سماعه، فقد ذكر أنه خلال رحلته إلى إسفرايين، قال: دخلتها ومعي ثلاثة دنانير ودرهم، فضاعت الدنانير وبقي الدرهم، فدفعته إلى الخباز، فكنت آخذ منه كل يوم رغيفين وآخذ من بشر بن أحمد الإسفراييني جزءا فأكتبه وأفرغه بالعشي، فكتبت ثلاثين جزءا، ونفذ ما عند الخباز فسافرت [سير أعلام النبلاء، 13/ 301].

وسمع يومًا يقول لرجل من الفقهاء معروف بالصلاح وقد حضر عنده: «ادع الله أن ينزع شهوة الحديث من قلبي، فإن حبّه قد غلب عليّ، فليس لي اهتمام في الليل والنهار إلا به» [السمعاني، 1/ 323].

وقد عبر عن حبّه للحديث بقصيدة أوردها له الخطيب البغدادي، قال:

أعلّلُ نفْسي بكتْب الحديث
وأجمل فيه لَها الموعدا
وأشْغَلُ نفسي بتصنيفِه
وتخريجِه دائمًا سرمدا
فطورا أصنّفه في الشيو
خ، وطورًا أصنّفه مُسنَدا
وأقفو البخاريَ في ما نحا
ه وصنّفه جاهِدا مجهدا
ومسْلم إذْ كان زينَ الأنام
بتصنيفه مسلمًا مرشِدا
وما ليَ فيه سوى أنني
أراه هوىً صادق المقصَدا

وأرجو الثوابَ بكَتْبِ الصلا
ةِ على السيد المصطفى أحمدا

واسألُ ربي إلاه العبا
دِ جريا على ما به عوَّدا

[تاريخ بغداد، 4/ 375]

تلقى العلم في بلده خوارزم، فسمع الحديث على شيوخ العصر وعلمائه، فمن شيوخه في خوارزم، وبغداد ونيسابور: أبو العباس بن حمدان النيسابوري؛ محمد بن علي الحساني؛ أحمد بن إبراهيم بن حباب [الخطيب البغدادي، 4/ 373]؛ محمد بن جعفر بن هيثم البندار؛ أبو علي بن الصواف؛ أبو بحر بن كوثر البربهاري؛ أبو الحسن الدار قطني؛ أبو بكر بن مالك القطيعي؛ أبو محمد بن ماسي؛ أحمد بن جعفر بن مسلم؛ ابن كيسان [الخطيب، 4/ 373]. ثم واصل رحلته في طلب العلم فرحل إلى عدة مدن، منها: هراة، وسمع فيها من أبي الفضل بن خمرويه [تذكرة الحفاظ، 3/ 947]، ومن أبي حاتم محمد بن يعقوب، وأبي منصور الأزهري، أما بجرجان فقد سمع من أبي بكر الاسماعيلي (ت 371هـ / 981م) [تذكرة الحفاظ، 3/ 947]، وأبي محمد بن الحسن بن الحسين الغطريف (ت 377هـ / 987 م) [م.س، 3/ 971] وسمع بنيسابور من عمر بن حمدان، وأبي أحمد الحاكم [سير أعلام النبلاء 13/ 300]، وبمَرْو كتب عن عبد الله بن عمر بن عليك، وعبد الله بن أحمد بن الصديق، وأبي صخر بن مالك السعدي، وأبي أحمد الحاكم. وسمع بدمشق من أبي بكر بن أبي الحديد.

أما بمصر فسمع من الحافظ عبد الغني وعبد الرحمن بن عمر المالكي [سير أعلام النبلاء، 13/ 300].

ونظرا إلى اشتغال البرقاني بالعلم وانصرافه إليه، فقد علت منزلته حتى قيل فيه الكثير، نذكر من هذه الأقوال قول تلميذه الخطيب البغدادي: «كتبنا عنه: وكان ثقة ورعا متقنا متثبتا فهما، لم ير في شيوخنا أثبت منه، حافظا للقرآن عارفا بالفقه، له حظّ من علم العربية، كثير الحديث، حسن الفهم... [تاريخ بغداد، 4/ 374]. هذه المكانة المرموقة التي نالها وذيوع صيته جعلته مقصدا لطلاب العلم، وقد أشارت مصادر ترجمته إلى عدد من هؤلاء منهم: أبو عبد الله الصوري، محمد بن علي بن عبد الله (ت 441هـ / 1049 م) [تذكرة الحفاظ، 3/ 1114]؛ أبو بكر البيهقي، أحمد بن الحسن بن علي (ت 458هـ / 1065م) [تذكرة الحفاظ، 3/ 1132]؛ أبو بكر الخطيب، أحمد بن علي بن ثابت (ت 463هـ / 1070م) [تذكرة الحفاظ، 3/ 1135]؛ عبد العزيز بن أحمد الكناني (ت 466هـ / 1073م) [تذكرة الحفاظ، 3/ 1170]؛ الفقيه أبو إسحاق الشيرازي؛ سليمان بن إبراهيم الحافظ؛ أبو القاسم علي بن أبي العلاء المصيصي؛ أبو طاهر أحمد بن الحسن الكرجي؛ أبو الفضل بن خيرون؛ يحي بن بندار البقال؛ محمد بن عبد السلام الأنصاري [سير أعلام النبلاء، 13/ 302].

هذه المكانة العلمية الكبيرة وفّرت له حصيلة كبيرة من الكتب حتى يصحّ أن نقول إن لديه مكتبة كبيرة، وذكر الخطيب البغدادي أنه حين

انتقل من الكرخ إلى قرب باب الشعير سألني أن أشرف على حمالي كتبه، وقال: إن سئلت عنها في الكرخ، فعرفهم أنها دفاتر لئلا يظن أنها برسيم، وكان ثلاثة وستين سفطاً وصندوقين كل ذلك مملوء كتبا.

ذكر البرقاني أن شيخه أبا بكر الإسماعيلي يقرأ لكل واحد ممن يحضره ورقة بلفظة، ثم يقرأ عليه. وكان يقرأ لي ورقتين، ويقول للحاضرين إنما أفضله عليكم لأنه فقيه [تاريخ بغداد، 4/ 375]. كان عالماً متواضعًا. قال عنه الذهبي: «ومن همّته أنه سمع تلميذه الخطيب البغدادي، وحدّث عنه في حياته» [سير أعلام النبلاء، 13/ 301].

ولم يتوقف البرقاني عن التصنيف إلى حين وفاته. ويقال إنه مات وهو يجمع حديث مسعر بن كدام (ت 152هـ / 769 م) محدث من ثقات أهل الكوفة [الأصفهاني، حلية الأولياء، 7/ 209]. ولقد كان البرقاني نسيج وحده وممّن قيل فيه: إذا مات ذهب الحديث.

آثاره

1 ـ مسند ضم ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم، وجمع فيه حديث سفيان الثوري، وشعبة، وأيوب، وعبيد الله بن عمرو، وعبد الملك بن عمير، وبيان بن بشر، ومطر الوراق؛ 2 ـ التخريج لصحيح الحديث [الأعلام، 1/ 212].

المصادر والمراجع

● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، 4/ 373 ـ 375؛ ● السمعاني، أبو سعد عبد الكريم، الأنساب، بيروت 1988، دار الجنان 1/ 323؛ ● ابن الجوزي، أبو الفرج، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، طبعة حيدر آباد الدكن 8/ 78؛ ● ابن الأثير، عز الدين، اللباب في تهذيب الأنساب بيروت، 1966، دار صادر 1/ 140؛ ● ابن الصلاح، تقي الدين، طبقات الشافعية، تح. ساجدة هادي حسين الأوسي [رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد 1999، لم تطبع بعد]، 243؛ ● الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، طبعة حيدر آباد الدكن، 3/ 1074؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تح. أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية 13/ 299 ـ 302؛ ● المشتبه، تح. علي محمد البجاوي، مصر، 1962، 1/ 66، دار إحياء الكتب العربية؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تح. أحمد بن الطيب بن خلف، وأحمد بن محمد بن شراعة، بيروت، 1969، دار صادر، 7/ 331؛ ● الكتبي، محمد بن أحمد، عيون التواريخ، تح. نبيلة عبد المنعم داود، ج 13، الورقة 136 ب؛ ● السبكي، عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى، تح. عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة، 1966، ط. عيسى البابي الحلبي 4/ 47 ـ 48؛ ● ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل، البداية والنهاية في التاريخ، بيروت 1977، 12/ 36، مكتبة المعارف؛

● الأسنوي، عبد الرحمن بن الحسين، طبقات الشافعية، تح. عبد الله الجبوري، بغداد 1970، مطبعة الارشاد، 1/ 231، ● ابن قاضي شهبة، تقي الدين أحمد بن محمد، طبقات الشافعية، تح. د. الحافظ عبد الحليم خان، بيروت 1970، 1/ 203، مؤسسة دار الندوة الجديدة؛ ● ابن تغري بردي، أبو المحاسن جمال الدين، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصر، المؤسسة العامة للتأليف والنشر 4/ 280؛ ● السيوطي، جلال الدين، طبقات الحفاظ 418 تح. علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة وهبة 1973؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون بغداد، مكتبة المثنى، (اوفسيت)، 2/ 1682؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 3/ 88؛ ● البغدادي إسماعيل باشا، هداية العارفين، بغداد، مكتبة المثنى (اوفسيت)، 1/ 74؛ ● كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 2/ 74؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 1/ 212.

نبيلة عبد المنعم داود
مركز التراث الحضاري
بغداد ـ العراق

ابن البرقماني، فاضل الرشيد بن أبي الحسن

(ت بعد 826هـ/ 1422م)

فاضل الرشيد بن أبي الحسن الإسرائيلي، الطبيب السكندري، المعروف بابن البرقماني، طبيب، باحث. ولد في الربع الأخير من القرن الثامن الهجري في مدينة الإسكندرية، ونشأ فيها وبقي فيها حتّى وفاته، كرّس حياته لدراسة الطب وتعلّمه وأحرز نجاحا وافرا، ممّا مهّد له الطريق للتقرّب إلى نائب السلطان المملوكي بالإسكندرية، وذلك في عهد الملك الأشرف برسباي الدقماقي الذي تولّى الحكم في عام (825هـ/ 1422م)، والجدير بالذكر أنه ظهر في القرن التاسع الهجري، بعض الأطبّاء اليهود مثل شمس الدين بن العفيف (ت 841هـ/ 1438م) وكان رئيس بيمارستان قلاوون.

كانت مهنة الطب وسيلة للتقرّب من الحكّام، فربطت ابن البرقماني علاقة قويّة بنائب السلطان برسباي في الإسكندرية، فقرّبه إليه وشاوره في أمور تخصّ معيشته وحياته، فعاش في كنفه كما يعبّر عن ذلك، وحصل على مكانة اجتماعية مرموقة، وسمح له ذلك بأن يجمع بين الثروة والولاء للحكم، كما هي عادة أقرانه اليهود من الأطبّاء.

أجمعت المصادر القديمة على إغفال سيرة ابن البرقماني، ولا نعلم تفاصيل هامّة عن حياته، سوى ما ذكره في كتابه «المقالة المحسنية»، وكذلك نجهل تاريخ وفاته بدقة، مما دعانا لاعتبار وفاته بعد عام 826هـ/ 1422م أي بعد نسخ كتابه المذكور «المقالة المحسنية في تدبير حفظ الصحة البدنية».

كان الإمام المستعين بالله أبو الفضل العباس بن المتوكّل، العاشر من خلفاء بني العباس بمصر، قد تولّى سدة الحكم من 808هـ/ 1405م إلى 817هـ/ 1414م، وبعد وفاته توالى على سلطنة مصر أربعة من الحكام المماليك الجراكسة، حتّى تولّى برسباي الأشرف سيف الدين في عام 825هـ/ 1422م، وفي عهده كتب ابن البرقماني كتابه «المقالة المحسنية» بناء على أمر تلقّاه من الأمير بيليك نائب السلطان بثغر الاسكندرية وهو منصب هام يصفه القلقشندي بقوله: «وهي نيابة جليلة... ونائبها من الأمراء المقدّمين... وكان ابتداء ترتيب هذه النيابة في سنة سبع وستين وسبعمائة في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين» [صبح الأعشى، السفر الرابع، ص 307]، ويصف ابن البرقماني وليّ نعمته بأنه الأمير المنصور الاسفهسلار (مقدّم الجند) المقدّم بدر الملة مشير الدولة رأس الأمراء، عين الأعيان الكبير حامي ثغور المسلمين وعامرها، مؤيد كلمة الاسلام وناصرها نائب السلطنة العلية بثغر الاسكندرية. تتألّف «المقالة المحسنية» من مقدّمة صغيرة وعشرة فصول، ويشرح في المقدّمة سبب إقدامه على تأليف كتابه، وتبتدىء الفصول العشرة على التوالي:

الفصل الأول: في ماهية الصحة وأقسامها.

الفصل الثاني: في موضوع الصحّة التي يراد حفظها.

الفصل الثالث: في الهواء المحيط بابدان الناس.

الفصل الرابع: فيما يؤكل على اختلاف أنواعه.

الفصل الخامس: فيما يشرب على العموم.

الفصل السادس: في الحركة والسكون.

الفصل السابع: في النوم واليقظة.

الفصل الثامن: في الاستفراغ والاحتقان.

الفصل التاسع: في الحركات النفسانية.

الفصل العاشر: في أمور ليست بضرورية ولا ضارة: الحمام والاستحمام والأكل والجماع.

يتّضح لنا أنّ البرقماني كان طبيبا بحّاثة ومعالجا خبيرا، تطرّق لموضوع هام، كان يشغل اهتمام الملوك وعلية القوم على الأخصّ، ألا وهو موضوع الصحّة العامّة للفرد وعلاقتها بالبيئة، والنصائح الطبّية في الطعام والشراب، وكل ما يتعلّق بصحّة الإنسان في نومه ويقظته وحركته وسكونه، وهو من المواضيع المفضّلة لدى الأطبّاء اليهود.

وفي موضوع البيئة، يطرح ابن البرقماني أمورا هامّة منها قوله: «الهواء الذي يحفظ الصحّة هو النقي المعتدل الصافي اللذيذ المستنشق، غير المشوب بغريب ولا محتبس ولا موحش للنفس» [المقالة المحسنية في تدبير حفظ الصحّة البدنية]. ثمّ يتطرّق عن الهواء داخل

المدن، والمخاطر الصحّية التي قد يتعرّض لها الفرد، وكذلك لصفات المدن وشروط السكنى بها فيقول:

«وإن تكون البقعة قليلة الأشجار والأنهار، منكشفة الآفاق والجهات وخاصّة الجهة الشمالية وإن يكون ماؤها عذبا منكشفا للشمس والهواء» [المصدر السابق].

يحشد ابن البرقماني عددا من الأقاويل والاستشهادات المأخوذة من مصادر ومراجع عديدة لتأييد كلامه، ممّا يدلّ على ثقافته الواسعة الشاملة غير المعتمدة على مصادر معينة مثل اليونانية، وباستعراض سريع لها نجدها:

1 ـ المصادر اليونانية: وعلى رأسهم جالينوس، ويطلق عليه ألقابا عدّة منها: الفاضل، حكيم الطب وفيلسوفه، وينقل عنه أقوال ووصايا عديدة من كتابه حفظ الصحّة، يليه أفلاطون ثم أبقراط، وفيثاغور، وأرسطو وروفس الحكيم.

2 ـ المصادر العربية: وفي مقدّمتهم ابن سينا وموقف ابن البرقماني منه متأرجح، فتارة ينقده بقسوة ويرفض وصاياه بقوله: «وقد زعم الرئيس ابن سينا» [المصدر السابق]. ومرّة أخرى يستشهد به كأحد المسلمات، وهو موقف نقدي متشكّك تحليلي، ويتساوى الأمر مع الرازي فيذكر عنه «وزعم الرازي» ومرة أخرى «وقد أطنب الرازي رحمه الله»، وتصادف أيضا ذكرا لحنين بن اسحق وبختيشوع بن جبرائيل طبيب الخليفة المأمون، وقسطا بن لوقا، والطبيب الأندلسي عبد الملك بن زهر (ابن زهر الأندلسي)، ويستعين أيضا بأقوال الأصمعي.

3 ـ المصادر اليهودية: هذه المصادر لها أهميتها خاصّة عند ابن البرقماني فهو عندما يذكر الطبيب والفيلسوف موسى بن ميمون القرطبي يصفه: «أحد نجباء الأطباء المتأخرين» ويؤكّد كلامه كثيرا، وينقل كثيرا عمّن يسمّيهم «عباد بني اسرائيل» ما قالوه مثل: «وكان بعض عباد بني اسرائيل يقف على المائدة ويقول: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيرا فتشربوا فتناموا كثيرا فتحشروا عند الموت كثيرا، وهو تأثير لثقافته من موروثه الديني في تحقيق كلامه.

4 ـ المصادر القديمة: يروي ابن البرقماني عن سليمان بن داود عليهما السلام بعض أقواله، وكذلك حكم لقمان بن عاد ومنها: «يا بني اذا امتلأت المعدة، نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة».

5 ـ المصادر الفارسية: يذكر المؤلّف أقوالا عن «حكماء الفرس» منها: «إذا غضب القائم فليجلس وإذا كان جالسا فليقم». ويروي عن كسرى أنوشروان أنّ صاحب مائدة الطعام كتب إليه أنّ الملك أعزّه الله رفع يده من الطعام الطيب قبل أن يستوفيه، فكتب إليه كسرى: رفعنا عما نشتهي أسهل من العلاج بما نكره. وينقل أيضا عن يحيى بن خالد البرمكي وأيضا «أصاب بعض العجم فيما قال...» وفي موضع آخر «وذكر حذاق أطباء فارس»، ومن الملاحظ أنّ المؤلّف يسوق هذه الأقوال لدعم ما يورده من آراء صحّية، ولكنّها لا تشكّل ملامح طب فارسي مستقل الملامح، ومختلفة عن النظريات العامة الطبية

الموروثة من الطب اليوناني القديم.

6 ـ المصادر الهندية: ويذكر المؤلّف بعض الأقوال عن المجرّبين من الهنود وفي موضع آخر يقول «قال طبيب الهند...» من غير أن يذكر اسمه.

7 ـ المصادر الشخصية: وهي من أهمّ مصادره، وتعكس منهجه العلمي وطريقة تناوله للمعلومات الطبية، فقد حرص ابن البرقماني على ذكر مشاهداته العلمية وتحليلاته التي تنم عن ملاحظة لماحة فهو يروي: «وما شاهدته في بلدتي الإسكندرية، أنه تجاوزني شبان متغامرون على الشراب مستهترون به، متهوّرون، فيتهوّرون فيه...». ويذكر: «وممّا استنفدته من أحد أشياخي» بدون تحديد لاسمه أو شخصيته، ويروي معالجة نفسية لأعرابي، ادّعى الضعف الجنسي وأنه مسحور، فعالجه برقية من جلد غزال وكتب عليها ثلاثة أسطر باللغة العبرية، لا معنى لها فحسنت حاله. وكذلك يروي عن أرباب التجارب: وممّا جربه الأطباء والقدماء... وهكذا رأى الحذاق من الأطبّاء المحقّقين واعلم أنّ المحققين... من الأطباء قد رأوا غير ذلك...

وبالنسبة إلى المصادر العربية التي استند إليها ابن البرقماني نلاحظ بأنّها لا تتجاوز زمنيا القرن الرابع الهجري أي عصر ابن سينا، ويتجاهل تماما كلّ الأطبّاء والمؤلّفين الذين أتوا من بعده، وعلى الرغم من مرور قرون عديدة بالنسبة إلى عصره المتأخر (التاسع الهجري) فقد ظهر أعلام مميّزون من عرب ومسلمين في الطب، إلاّ أنّ ابن البرقماني يتجاهلهم تماما ويعتبرهم غير موجودين، انسجاما مع ستّة أسلافه من الأطبّاء اليهود.

ويتّضح لنا التأثّر العميق للتعاليم اليهودية في كتابه، فيذم الخمر اقتداء بموسى بن ميمون ويقترح مكانه شراب العسل، وما يؤخذ عليها لإطناب في وصف بعض الأمور غير الضرورية أو الهامّة، ولغة الكاتب إنشائية تبتعد عن الجزالة، ولكنّها انعكاس لعصر متأخر هو القرن التاسع الهجري الذي عاش فيه المؤلّف، الذي ترك موسوعة كاملة حول البيئة وحفظ الصحّة، نمّت عن ذكاء لمّاح ومعرفة تامّة بالمواضيع التي يطرقها، من خلال ملاحظاته وأقواله الذكية والواقعية، ونصائحه العملية البسيطة ولكنها هامّة في حفظ الصحّة تقوم في مجملها على الاعتدال في الطعام والشراب والحركة وكل ما يحتاجه الفرد في حياته اليومية.

وقد ذاعت «المقالة المحسنية» في تدبير حفظ الصحة البدنية، واهتمّ بها الأطبّاء والباحثون، وترجمت إلى اللغة التركية عام 1137هـ من قبل حياتي زادة حفيدي (محمد أمين أحمد بن مصطفى)، الذي عاش في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، وذلك للوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا (ت 1143هـ/ 1730م) وتوجد نسخة من المخطوط المترجم باللغة التركية في مكتبة جراح باشا في تركيا 2/ 115 [رمضان ششن ورفاقه، فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، ص 18].

■ آثاره

المقالة المحسنيّة في تدبير حفظ الصحّة البدنية، ويوجد منها نسخ مخطوطة عدّة هي: 1 ـ دار الكتب المصرية، رقم 514

طب/ف؛ 2 ـ الأحمدية، تونس، رقم 2/5429؛ 3 ـ آيا صوفيا، تركيا، رقم 3750؛ 4 ـ ولي الدين أفندي، تركيا، رقم 2549 .

المصادر والمراجع

من الصعب تحديد الأسباب التي أدّت إلى إغفال المصادر القديمة ابن البرقماني، مع أنه قد يذكر المؤرّخون أشخاصا أقلّ منه شأنا ولعلّ أحد الأسباب عدم تواجده في عاصمة المماليك «القاهرة»، وعدم استلامه لأيّ منصب هام في زمنه، كأن يكون مديرا أو عاملا في بيمارستان طبّي، أو ما شابه، إذا ما استثنينا صداقته لنائب السلطنة في الإسكندرية، أو لغياب أيّ حوادث هامّة في حياته تستحقّ الذكر من المؤرّخين، وهو نموذج للطبيب العملي الذي حاول أن تقدّم نصائحه العملية الصحّية، وأن يتفاعل مع المجتمع .

ومن المصادر القليلة التي تعرّضت لترجمة ابن البرقماني، ولم تصف أيّ شيء مفيد عن حياته، باستثناء بعض المعلومات البسيطة :

● البغدادي، اسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/ 1992م، 4/ 534؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ/ 1992م، 2/ 1783؛ ● ششن، رمضان ورفاقه، فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، 1404هـ/ 1984م، ص18؛ ● فهرس المخطوطات المصورة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي، إعداد قسم الفهرسة والتصنيف، مطبعة جامعة حلب، حلب 1986هـ، ص18؛ ● المنجد، صلاح الدين، مصادر جديدة عن تاريخ الطب عند العرب، مجلّة معهد المخطوطات العربية، المجلّد الخامس، ج2، جمادى الأولى 1379هـ/ 1958م، ص273؛ ● حميدان، زهير أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1996م، 4/ 171 .

د. محمد فؤاد الذاكري
باحث في التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

برقوق، الأخيطل أبو بكر محمد بن عبد الله

(ت بعد 252هـ/866م)

أبو بكر محمد بن عبد الله بن شعيب، المخزومي ولاءً، لقبه برقوق. لم تحفظ لنا المصادر سنة مولده، ولا سنة وفاته، لكننا نستطيع من تدقيق أخباره أن نحدّد عصره.

قال الأخيطل [طبقات الشعراء، ص 412]: «أنشدت يومًا أبا تمام شيئًا من شعري فقال لي: اذهب إذا شئت فليس للناس بعدي غيرك».

فإذا عرفنا أن أبا تمام عاش بين عامي 188-231هـ، توصلنا إلى أن برقوقا كان من شعراء القرن الثالث الهجري.

يعزز هذا أولا: ما ذكرته بعض المصادر من أنه قدم بغداد ومدح محمد بن عبد الله بن الطاهر، [معجم الشعراء ص 376؛ تاريخ بغداد 5/ 422؛ الوافي بالوفيات 3/ 307]، ومحمّد هذا كان مألفا لأهل الأدب والعلم، وُلّي نيابة بغداد أيام المتوكل وكان شجاعا وأديبًا وجوادًا ممدَّحا، عاش بين عامي 209-253هـ.

وثانيا: أنه مدح علي بن الحسين بن قريش لنصره «المعتز» الذي استطاع أنصاره إلزام «المستعين» بخلع نفسه وتولى المعتز الخلافة وبدأت خلافته يوم السبت لست خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومئتين. فالنص الذي بأيدينا يؤكد أن الأخيطل كان حيا في ذلك العام؛ قال بذكر اعتزال المستعين وتولّي المعتز الخلافة:

هذا العريفُ حمًى لهذي الدار
فحذارِ من أَسَدَ العرين حذارِ
لا تدفعُوا في صدر حقّ باطلاً
جهلاً فتنقلبوا على الأدبار
ظُلَلُ الأمير ظليلةٌ وهجيرُهُ
لفحٌ يباشر نضرة الأبشار
مَلِكٌ يُسِنُّ الموتَ شفرتَهُ إذا
جرّ القنا في العسْكر الجرّار
والسيفُ يشهد أنه لم يُعره
إلاّ كساهُ مهجةَ الجبار
فالدين معتزّ بمعتزٍّ به
غَضّ الخلافة مونق الإثمار
والمستعين مفارقٌ لدياره
يبْكي من الأنحاس والإقفار
أضحى كربْعٍ بالمفازة دارسٍ
اقوى وأقفر بعدَ عهد نوار
قد كنتَ وجُهتَ الردى وأمرتَه
ألاّ يفوتَ فعاد بالمقدار
لو لم يعد بجوار مدّته اشتفت
منه القنا جُرعُ الندم المدرار
لا يستدلُ عليكمُ بسواكمُ
الصبْحُ يُغني عنْ سنًى ومنار

هذا النص النادر الذي حفظه أبو بكر الصولي

في أوراقه، [القسم الذي حققه المستشرقان الروسيان، فكتور بيلايف وأنس خالدوف، ص425، موسكو 1998] قطع كلّ شك في أن شاعرنا أدرك النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. فالأخيطل كان من شعراء المئة الثالثة قطعا، وقد أخطأ ابن سعيد حين عدّهُ في شعراء المئة الرابعة [عنوان المرقصات ص. 38].

لم يصل إلينا من أخبار الأخيطل ما يصلح لحديث مستفيض عنه. كل ما وقفنا عليه أنه من أهل الأهواز وإليها نسب. وقد عاشَ مدة ما في البصرة حتى عدّه المبرد في الكامل من أهلها، وأنه هاجى الحمدوي وهو شاعر بصري معروف. ولقد أقام في واسط مدة أوهمت ابن أبي عون في تشبيهاته فسمّاه الأخيطل الواسطي، نسبةً الى واسط.

والواقع أن زوايا كثيرة ظلت غامضة في حياة الشاعر: فما حرفته؟ وأين لقي أبا تمام؟ وما تفاصيل حياته الاجتماعية؟ هل تزوج وهل أعقب؟ وأين مات ودفن؟

لقد وقف محقق طبقات الشعراء متحيرا أمام عبارة وردت محرفة مصحفة في كتاب طبقات ابن المعتز ونصها: «وكان يبيع الفلوس بباب الكرخ» علّق المحقق عليها في الهامش أنها ربما حُرفت عن الفتوس أو الكنوس. وكلمة الكرخ ذكر أن أصلها المخطوط «الكرج» الأمر الذي جعل العبارة كلها موضع نظر.

يقول هلال بن ناجي: إن كلمة «الكرخ» مصحفة والصواب: الكَرَج-كما ورد في الأصل المخطوط ـ والكَرَج هذه مدينة ذات قصور واسعة بين أصبهان وهمذان، أول من مَصّرها القائد أبو دلف القاسم بن عيسى العِجلي واتخذها وطنًا بعد أن ولاّه الرشيد إمْرة الجبل وكان شاعرًا جوادًا فارسًا ممدّحا، وإليها قصد الشعراء ومدحوه، وذكروها في أشعارهم، توفي أبو دلف سنة 226هـ وكان قد غدا من قواعد المأمون...الكَرَج هذه كان يباع فيها «القليس» وهو العسل، فشاعرنا كان يبيع القليس بباب الكَرَج وهو الوجه الصحيح لقراءة العبارة.

والسؤال الآخر هو: أين لقي الأخيطل أبا تمام، فأثنى عليه كما ورد في طبقات الشعراء؟ والجواب: إننا نرجح أنه لقيهُ في همذان في طريقه الى العراق ونزل في ضيافة آل سلمة ففرح به صاحب الدار فرحا شديدا، ثم فوجئ بنزول الثلوج وانقطاع الطرق لشهور، فعرض صاحب الدار على أبي تمام أن يضع مكتبته تحت تصرفه، ويبدو أنها كانت مكتبة نفيسة ضمت نوادر الكتب المخطوطة، فانصرف أبو تمام الى تصنيف عدد من الكتب من بينها حماستاه الكبرى والصغرى.

نرجح أن هذه الاقامة الطويلة في همذان أتاحت لشاعرنا أن يصل الى أبي تمام ويعرض عليه شعره، لقرب المسافة بين الكَرَج وهمذان، وهي لا تعدو عدة فراسخ، ونعتقد أن ذلك كان في عام 222هـ، وقد يكون لقيه في سُرّ منْ رأى عام 223هـ حين قام الخليفة المعتصم بتكريم قائده الكبير «الأفشين» احتفاءً بانتصاراته على بابك الخرّمي وفيها ألقى أبو تمام قصيدته التي أولها:

بذَّ الجلاد البلد فهو دفين
ما إن به إلاّ الوحوشَ قطين

في همذان أو في سرَّ من رأى التقى شاعرنا بأبي تمام وعرض عليه شيئا من شعره فأثنى عليه وقال ما قال.

صلة الأخيطل كانت وثيقة بالعراق، ورغم إجماع من ترجم له على أنه من المجيدين المحسنين وأنه مصيب التشبيه، مليح الشعر، إلاّ أننا لم نقف في المصادر على خبر ديوان له. شعر الأخيطل ذهب بددًا، لم يُعْنَ هو بجمعه ولا جمعه أحد العلماء وهذا يفسر ندرة ما وصل إلينا منه.

وهكذا لم يبق من شعره، سوى نتف أو مقطعات أو قصائد قصيرة تناثرت في شتيت المظان والمصادر مطبوعة ومخطوطة. لقد شدّني إلى هذا الشاعر جودة تشبيهاته، وشهادة أبي تمام له. ومعلوم أن أبا تمام كان ذا بصر في الشعر تكشف عن ذلك مختاراته، وأنه كان إمامًا من أئمة التجديد، فشهادة أبي تمام للأهوازي ذات قيمة كبيرة في تبين طبقته، والتعرف على مكانته.

آرٰاؤه

أثار الأخيطل اهتمام النقاد القدامى فقال ابن المعتز عنه: «هو من المجيدين المحسنين»، وأضاف: «وله البيت العجيب في تشبيه المصلوب الذي ليس لأحد مثله». فتأمّلْ قوله «الذي ليس لأحد مثله» وأن هذا القول صادر عن ابن المعتز أحد أئمة التشبيه ومصنف «كتاب البديع».

وقال أبو عبيد التبكري عنه: «إنه أديب جيد الشعر وأنه كان مصيب التشبيه». وقال عنه المرزباني: «ظريف مليح الشعر، يسلك طريق أبي تمام ويحذو حذوه». وعبارة المرزباني، هذه اقتبسها البغدادي في تاريخه، والصفدي في الوافي. إعجاب أبي تمام بشاعرنا واعتباره خليفته على ما ذكر ابن المعتز، وحذوه حذا أبو تمام على ما ذكر المرزباني، والخطيب البغدادي، والصفدي، يجرنا إلى تأمل خصائص مذهب أبي تمام الشعري، ومدى تمثل الأهوازي له.

المعروف أن أبا تمام كان شديد الاهتمام بالصنعة اللفظية، فقد أوغل في استعمال فنون البديع إيغالاً فاق به مَنْ تقدمه، فالاستعارة البديعية والبديع المستطرف من ميزات فنه الشعري، وكان مولعًا بالإغراب في تقصي وجوه المعاني، فالمعنى المستقصى من ميزات فنه الشعري أيضا. ثم إن وصف الطبيعة استحال عند أبي تمام إلى نظرات مطولة تأملية.

وقد ملأ أبو تمام شعره بالإشارات التاريخية والفلسفية والنحوية، فالشعر عنده فيض العقول، وقد أغرب في هذا حتى تحوّل شعره أحيانا إلى فلسفة. إن المعطيات الفلسفية التي كانت مدار اهتمام مجتمعه آنذاك لوّنت مذهبه الفني بلون فلسفي. ثم إن شعر أبي تمام، بعد هذا كله، كان جزل الألفاظ متين التراكيب، وكان لأبي تمام-قبل هذا كله-اطلاعه الواسع على الشعر العربي ومحفوظه العجيب منه. تلك هي الخصائص الرئيسية لمذهب أبي تمام الشعري، فما مدى تمثل الأهوازي لها؟

إن ما وصلنا من شعر الأخيطل هو من القلة بحيث لا يسمح بتقصي جميع الملامح الفنية لمذهب أبي تمام في شعره، ومع ذلك يمكن ملاحظة بعضها. فللأهوازي عناية بالطبيعة ووصفها، وله تشبيهات بديعة في ذلك، وله

اهتمام بفنون البديع وبفن التشخيص خاصة، فللّرجاء أذن، وللنعم نغمة، والفكر يمطر الفهم فيروي لبّ الفنى، وللغيم مدامع، والنوار يهبّ من النوم، والسرو الملتحف بالحرير الأخضر تميل الريح بعضه على بعض فكأنه يبغي التعانق ثم يرده الخجل، والعرب تصف المرأة الجميلة بدقة الخصر وامتلاء الساق، فوشاح الجميلة لا يلصق بخصرها لهيفته ودقته، وخلخالها غير قلق بساقها لامتلائه وخدله. وقد فرع الأخيطل على هذا، أن الجميلة المتسللة ليلاً تخاف نطق الوشاح وإن أمنت نطق الخلخال.

وزائرةٍ والشوقُ يحفِزُ قلبها
وما كنتَ ترجو أن تنَال مزارهَا

تحاذِر في الظلماء نُطقَ وشاحِها
وقد آمِنت خلخَالها وسوارها

[المختار من شعر بشار ص 149]

ولاحظ الإمام عبد القاهر الجرجاني أن تشبيه الجواري قدودهن بالسرو تشبيه عامي مبتذل، لكنهم جعلوا فيه الفرعَ أصلا فشبهوا السّرو بهن كقول الأخيطل:

حُفَّت بسروٍ كالقيان تلحّفتْ
خضَر الحرير على قَوامٍ معتدل

فكأنها والريحُ حينَ تُميلها
تبغي التعانق ثم يمنعُها الخجل

قال الجرجاني: المقصود من البيت الأول ظاهر، وفي البيت الثاني تشبيه من جنس الهيئة المجردة من هيئات الحركة، وفيه تفصيل طريف فاتن، فقد راعى الحركتين حركة التهيؤ للدنو والعناق، وحركة الرجوع إلى أصل الافتراق. وأدى ما يكون في الحركة الثانية من سرعة زائدة تأدية تحسب معها السمع بصرا تَبيّنًا للتشبيه كما هو تصوزا، لأن حركة الشجرة المعتدلة في حال رجوعها إلى اعتدالها أسرع لا محالة من حركتها في حال خروجها عن مكانها من الاعتدال، وكذلك حركة من يدركه الخجل فيرتدع أسرع أبدًا من حركته إذا همّ بالدنوّ، فإزعاج الخوف والوجل، أبدًا أقوى من إزعاج الرجاء والأمل، فمع الأول تمهل الاختبار، وسعة الحوار، ومع الثاني حفز الاضطرار، وسلطان الوجوب [أسرار البلاغة 193]، ووقف الإمام عبد القاهر الجرجاني عند بيتي الأخيطل في المصلوب فقال:

ومن لطيف هذا الجنس قوله في صفة المصلوب:

كأنه عاشقٌ قد مدَّ صفحته
يومَ الوادع الى توديع مرتَحِل

أو قائمٌ من نعاس فيه لوثتُه
مواصلٌ لتمطّيه منَ الكسل

ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل، ولو قال: كأنه متمط من نعاسٍ واقتصر عليه، كان قريب المتناول، لأن الشبه إلى هذا القدر يقع في نفس الرائي المصلوب لكونه من حدّ الجملة، فأمّا بهذا الشرط وعلى هذا التقييد الذي يفيد به استدامة تلك الهيئة فلا يحضر إلاّ مع سفر من الخاطر وقوة من التأمل وذلك لحاجة أن ينظر إلى غير جهة فيقول: هو كالمتمطي، ثم يقول: المتمطي يمدّ ظهره ويديه مدة ثم يعود إلى حالته، فيزيد فيه أنه مواصل لذلك، ثم إذا أراد ذلك طلب علّته وهي قيام اللوثة والكسل في القائم من

النعاس. قال الامام الجرجاني: وهذا أصل فيما يزيد به التفصيل وهو أن يثبت في الوصف أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علّة وسبب. [أسرار البلاغة ص171].

أبرز أغراضه الشعرية، وصف مظاهر الطبيعة: الرعد، البرق، المطر، رقة النسيم، الرياض. كما وصف ألوانا من الزهور: السوسن، الشقائق، وبعض النباتات المزهرة كالآس، والسرو وغيرها.

والملاحظ أنه انماز بالإصابة في التشبيه والإبداع فيه، ولذلك وجدنا كلّ كتب التشبيهات تولي شعره اهتمامًا وتستشهد بنماذج منه. فأنت واجد نماذج من شعره في كتب التشبيه الثلاثة، «تشبيهات ابن أبي عون»، و«غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات» لابن ظافر الأزدي، و«الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه» للصفدي. وهو دليل أصالة تشبيهاته.

ووصلت إلينا مقطعات له في الغزل وأبيات في وصف الخمرة والكأس، ومقطعات في المديح ولوحظ أن بعض ممدوحيه، وكان جوادًا، قد مرض وأقعده مرضه فهاجه ما أصاب ممدوحه، وكتب مقطّعتين من عيون شعره، قال في الأولى:

أعاذنا ذُو الجلال من سَقَمِكْ
وصان ما نحن فيه من نِعَمِكْ

وبيَّضَ الله وجه مكرمةٍ
ثباتُها بالثباتِ من قَدَمِك

وانهضَ الجودَ من كآبتهِ
يرعَ ما تستحقّ من ذِمَمِك

[كتاب المتنخل ص 945 - 946]

وقال في الثانية:

قد قلتُ حين رأيتُ الوعكَ ينفضهُ
كذا رأيتُ اهتزازَ البيض والأسلِ

انهض لعالِك من عَثْرٍ ومن زَلَلِ
مُسلما لبني الحاجات والامل

فقد تحيرتِ الهماتُ واطلعت
الى مسالك سبْل اللؤم والبُخلِ

يا قرّةَ لعيونِ المكرماتِ لقد
كانتْ شكاتُكَ فينا جَمْرةَ المقلِ

والشمس والبدرُ موجودٌ كسُوفهما
وليس يوجد في الشِّعْري ولا زُحَلِ

■ المصادر والمراجع

● الجرجاني، أسرار البلاغة، تح. هـ ريتر، استانبول 1954؛ ● الآبي، الأنس والعرس، مصورة مخطوطة في خزانتي؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت 5 ص. 422؛ ● ابن محمود، جنيد بن محمد، حدائق الأنوار وبدائع الأشعار، تح. هلال ناجي، بيروت 1995؛ ● ابن المعتز، طبقات الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر؛ ● ابن سعيد، علي بن موسى، عنوان المرقصات والمطربات، القاهرة 1286هـ؛ ● الازدي، علي بن ظافر، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، تح. محمد زغلول سلام ومصطفى الصاوي الجويني، دار المعارف بمصر 1971؛ ● الربداوي، محمود، الفن والصنعة في مذهب أبي

تمام، المكتب الاسلامي 1971؛ ● الخالديان، المختار من شعر بشار، تح. محمد بدر الدين العلوي، القاهرة؛ ● ياقوت، معجم البلدان، تح. فردیناند وستنفلد، لا يبزغ 1869 4/ 250-251؛ ● المرزباني، معجم الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فراج، القاهرة 1960؛ ● الميكالي، المنتخل، تح. د. يحيى وهيب الجبوري، بيروت 2000؛ ● القيسي، نوري و ناجي، هلال، بيروت 1419هـ - 1998 1/ 366 - 340؛ ● الصولي، كتاب الأوراق، تح. فيكتور بيلايف وأنس خالدوف موسكو، 1998؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، هلموت بيتر، 1961 3/ 307؛ ● المبرد، الكامل، تح. سيد شحاته، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة.

أ. هلال ناجي
باحث في التراث العربي
بغداد- العراق

البرقي، الحافظ أبو بكر أحمد بن عبد الله

(ت 270هـ/ 883م)

الحافظ أبو بكر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم بن سعيد الزهري، مولاهم المصري المعروف بابن البرقي، محدث حافظ، متقن ثقة، ومؤرخ، وفقيه، وهناك روايتان مختلفتان عن سبب حمله لقب البرقي، ففي الوقت الذي يشير فيه ابن الجوزي، إلى أنه يعود بأصله إلى بلاد برقة الواقعة غرب مصر في ليبيا الحالية [المنتظم، 5/ 71]، فإن الإمام الذهبي يرجع اللقب إلى كون عائلته كانت تتّجر إلى برقة [تذكرة الحفاظ، 2/ 134].

طلب العلم سوية هو وأخواه محمد وعبد الرحيم، وقد سمع كما يشير الذهبي من كثير من علماء مصر، وكان من أبرزهم الفقيه عمرو بن أبي سلمة التنيسي (ت 213هـ / 828 م)، وأسد بن موسى الأموي أسد السنة (ت 212هـ / 827 م) كما سماه معاصروه، وعبد الملك بن هشام (ت218هـ / 833م) الذي هذب سيرة ابن إسحاق، وهي المتداولة بين أيدينا الآن، إضافة إلى الحافظ محمد بن يوسف الفاريابي (ت 212هـ / 827 م) وغيرهم. وهؤلاء كما هو معروف من كبار محدثي وفقهاء مصر وعلمائها، ولم يعرف عن البرقي أنه رحل في طلب العلم كما كان التقليد الشائع آنذاك، حيث يرحل طلاب العلم نحو الشرق لاسيما العراق والشام والشرق الإسلامي في طلب الإسناد العالي، ولابد من الإشارة إلى أن من ترجم للبرقي

اقتصر على ترجمة مختصرة لا تتعدى بضعة أسطر، فلا يُعرف شيء عن تلاميذه باستثناء إشارة الصفدي إلى أن أحمد بن علي المديني هو الذي روى عنه كتابه «معرفة الصحابة وأنسابهم» [الوافي بالوفيات، 7/ 80]. ولا يُعرف الآن شيء عن هذا الكتاب المهم، حيث لم يشر إلى نقول منه في كتب معارف الصحابة التي كتبت من بعده، إضافة إلى أن هذا الكتاب رغم ما عرف عن تأليفه من قبل البرقي، فإن ابن الجوزي يشير إلى أنه صنفه أخوه محمد في البداية ولم يتمه فأتمه أحمد وحدّث به، وكان إسنادهما واحدًا ولا يعرف مدى دقة هذه الرواية.

وفي الوقت الذي يروي فيه الحافظ الطبراني (ت 360هـ / 970 م) عن أحمد البرقي بلفظه «حديثا» من خلال ثلاث روايات تتعلّق بالخليفة عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهم [المعجم الكبير، 1/ 64، 109، 2/ 148] مما يوحي بداهة بأن الطبراني قدم مصر وسمع من أحمد البرقي، فإن الذهبي يشير إلى أن الطبراني وقع في الوهم، فقد ذكر أحمد والمقصود هو أخوه عبد الرحيم، علماً بأن أحمد توفي قبل دخول الطبراني إلى مصر بعشر سنين أو أكثر [ميزان الاعتدال، 2/ 195]؛ ورغم دقة الذهبي المعروفة إلاّ أن هذه الرواية لا يمكن أن تحسم القضية، فمن الصعب قبول مسألة أن الطبراني الحافظ الكبير يقع في الوهم وهو ينقل عن شيخه فلا يفرق بين أحمد وعبد الرحيم، ولربما زار مصر قبل وفاة أحمد. وأخيرًا فإن المصادر لم تشر إلى علاقة البرقي مع ولاة مصر العباسيين أو إلى حاكم مصر القوي الذي خلفهم الأمير أحمد بن طولون (ت 270هـ / 883 م) والذي عرف عن علاقته الطيبة بالعلماء والفقهاء والمحدثين. وقد توفي البرقي في حادث مؤسف، حيث ضربته دابة عندما كان يمشي في سوق الدواب، فمات من يومه في شهر رمضان عام 270هـ / 883م.

■ آثاره

- «معرفة الصحابة وأنسابهم».

■ المصادر والمراجع

● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن، 1333هـ، دائرة المعارف العثمانية، 2/ 134 ـ 135؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط، علي أبو زيد، بيروت 1406هـ / 1986 م، مؤسسة الرسالة، 13/ 48 ـ 49، 4/ 401؛ ● م.ن، ميزان الاعتدال، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة، 1382هـ / 1963 م، دار إحياء الكتب العربية، 2/ 159؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، اعتناء إحسان عباس، دار النشر فرانز شتاينر بفسبادن، 1389هـ / 1969 م، 7/ 80؛ ● الطبراني، المعجم الكبير، حققه وخرّج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي، بغداد، 1984 م، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، 1/ 64، 109، 2/ 148؛ ● السيوطي، طبقات الحفاظ، تح. علي محمد عمر، القاهرة، 193/ 1973، مكتبة وهبة، ص 253؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار

من ذهب، بيروت، د.ت، دار إحياء التراث العربي، 1/ 158؛ ● البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إستنبول، 1951م عن طبعة طهران، 1387هـ / 1947 م، 1/ 50؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1376هـ / 1957 م، مطبعة الترقي، 1/ 281.

د. رعد محمود البرهاوي
دار المعلمات ـ الموصل ـ العراق

البرقي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد

(ت 274هـ/887م)

أحمد بن محمد بن خالد بن عبد الرحمن بن محمد بن علي البرقي، الكوفي، أبو جعفر.

لا تُعرف سنة ولادته، وقد توفي سنة أربع وسبعين ومائتين، وفي رواية سنة ثمانين ومائتين للهجرة الشريفة.

عالم مشارك في كثير من العلوم والفنون، وعَلم من أعلام المذهب الشيعي، وباحث ومصنف إمامي [كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 97 ـ 98].

من أهل برقة، وهي قرية من قرى مدينة «قُم» بدولة إيران. أصله من الكوفة.

من تلاميذه، اللغوي أحمد بن فارس [سزكين، تاريخ التراث العربي، 3/ 286 ـ 287].

آثاره

للبرقي تصانيف كثيرة، وقد ذكر العاملي أن له تسعة وتسعين مؤلفا، وذكر له النجاشي نحو مائة كتاب [كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 97 ـ 98؛ سزكين، تاريخ التراث العربي، 3/ 286 ـ 287]. من هذه التصانيف:

1 ـ التراجم والتعاطف؛ 2 ـ آداب النفس؛ 3 ـ آداب المعاشرة؛ 4 ـ كتاب المكاسب؛ 5 ـ كتاب الرفاهية؛ 6 ـ المحاسن، وهو كتاب في الفقه والآداب الشرعية، مطبوع في جزءين [مجلة معهد المخطوطات العربية، 4/ 240؛ سزكين، تاريخ التراث العربي، 3/ 286 ـ 287]؛ 7 ـ اختلاف الحديث؛ 8 ـ الأنساب؛ 9 ـ أخبار الأمم؛ 10 ـ الرجال، وهو مخطوط موجود في مكتبة الدراسات العليا ببغداد، وكان مطعونا في روايته للحديث عند الإمامية، قالوا: يأخذ عن الضعفاء [كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 97 ـ 98؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 205].

المصادر والمراجع

● الطوسي، الفهرست، 20 ـ 22؛ ● أعيان الشيعة، 9/ 399، 409؛

● الخونساري، روضات الجنات، 13؛ ● المازندراني، أبو علي محمد، منتهى المقال في علم الرجال، 41، 42؛ ● ميرزا محمد، منهج المقال، 42؛ ● المامقاني، تنقيح المقال، 82 ـ 84؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المتنبي ودار إحياء التراث العربي، 2/ 97، 98؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، 3/ 286 ـ 287؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 1/ 205.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

البركيوي، محيي الدين محمد بن بير علي بن اسكندر

(929هـ / 1523م ـ 981 هـ/ 1573 م)

ولد في 10 جمادى الأولى من عام 929هـ الموافق لـ 27 مارس من عام 1523م في بالي كسير. وكان والده رجل علم فاضلاً ينتمي إلى الزاوية، وهو مدرس في بالي كسير. وتلقى البركيوي تعليمه الأول على يد والده، حيث درس عنه اللغة العربية والمنطق وبعض العلوم الأخرى. وفي هذه الأثناء كان قد حفظ القرآن الكريم. ثم انتقل بعد ذلك إلى استانبول. وقرأ في مدرسة محمود باشا مؤلف «الهداية» الذي يدور حول الفقه الحنفي على يد كوقوك شمس الدين أحمد أفندي. وعقب ذلك دخل مدرسة حصكي. وأصبح تلميذا لأخي زاده محمد أفندي، وهو من أشهر علماء تلك الفترة. ثم تتلمذ بعد ذلك على يد قزل عبد الرحمن أفندي، قاضي عسكر الروميلي وحصل على درجة التدريس بعد نيله الإجازة. ثم أصبح بعد ذلك ملازما لعبد الرحمن أفندي، وأكمل اختصاصه. وعمل البركيوي بالتدريس في بعض مدارس استانبول لفترة من الزمن.

أصبح البركيوي قساما عسكريا في أدرنة وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني. وكان يقوم بإعطاء الدروس أثناء عمله في هذه الوظيفة، كما كان يقوم بالوعظ في الجوامع، ويدعو الناس إلى اتباع هدي القرآن الكريم والسنة المطهرة. ووقف في هذه الفترة ضد المظاهر غير الشرعية التي كانت توجد في ذلك العهد. مثل التعلية في المقابر وإيقاد الشموع عليها وقراءة القرآن الكريم بأجر وما شابه ذلك من البدع.

كما وقف كذلك ضد الاعتقادات الباطلة مثل انتشار الرشوة وسط القضاة، ومنح الدرجات العلمية لأبناء الأغنياء بمقابل، وغير ذلك من الأمور غير المشروعة. وقال البركيوي بعدم جواز وقف الأموال. وقام ظفر بن هذيل وهو تلميذ الإمام أبي حنيفة مع بعض العلماء بالاعتماد على رأيه هذا وعلى العرف في الرد على شيخ الإسلام أبي السعود أفندي الذي أفتى بجواز وقف الأموال، وكذلك القاضي

بلال زاده محمد أفندي الذي يشاركه الرأي بكتابة ردود في شكل رسائل وهي «إنقاذ الهالكين» في عام 967هـ/ 1560م و«إيقاظ النائمين» و«إفهام القاصرين» في عام 972هـ/ 1565م و«السيف الصارم» في عام 979هـ/ 1571م، وكانت آراء أبي السعود أفندي قد أثارت قبل ذلك جدلا واسعا فتمت الاستعانة بالبركيوي حتى لا تحدث فتنة، غير أن البركيوي تمسك برأيه وألف رسالة في الرد على أبي السعود أفندي ولم يغيّر من رأيه شيئا.

فقَدَ البركيوي الأمل في أن يتخلّى الناس عن البدع، فذهب إلى استانبول وانتسب إلى عبد الله القرماني، شيخ الطريقة البيرامية، وعاش في عزلة. وكان البركيوي قد أخذ مبلغ 4000 درهم أثناء عمله قساما عسكريا في أدرنة. فقام حسب ما ذكرت تسجيلات الدفاتر بإعادة المبلغ إلى أصحابه، وأخذ منهم عفوا. ووفقا لتوصية عبد الله القرماني الذي كان يريد عودة البركيوي من أجل أن يقوم بالتدريس والإرشاد لمريديه. وتم تعيينه في عام 971هـ/ 1564م كأول مدرس في المدرسة التي تم إنشاؤها من قبل عطا الله أحمد أفندي وهو أستاذ السلطان سليم الثاني البركيلي (البركيوي) في بركي. وأصبح مشهورا في فترة وجيزة من الزمن بفضل قدرته العلمية. وبدأت تتدفق عليه أعداد كبيرة من الطلاب حتى تحظى بتلقّي العلم عنه. وقضى القسم المتبقي من عمره في نشاطات التدريس والإرشاد والتأليف في بركي، ولهذا السبب اشتهر بـ «البركيوي».

لم يستنكف البركيوي من قول الحق. وقبل وفاته بعام كتب مؤلفه «الطريقة المحمدية» فأحدث صدى واسعا بين الناس، فاستدعاه صاقلي الصدر الأعظم محمد باشا إلى استانبول، وسأله عن آرائه من أجل رفع الظلم الذي يوجد في البلاد، فقدم له البركيوي توصيته.

وفي شهر جمادى الأولى من عام 981هـ الموافق لـ شهر سبتمبر من عام 1573م توفي أثناء أحد أسفاره في استانبول بعد أن أصابه الوباء. وحسب العام الهجري فإنه توفي في الثانية والخمسين من عمره، وتم نقل الجثمان إلى بركي ليتم دفنه فيها.

نجد من أبناء البركيوي مصطفى أفندي، ورياضي محمد أفندي وهو صاحب مؤلف «رياض الشعراء» وقد عمل في التدريس والقضاء، وفضل الله أفندي وعمل بالوعظ، وعصمتي محمد أفندي وعمل بالقضاء العسكري. وكان البركيوي حنفي المذهب وماتوريدي الاعتقاد. وذكرت جميع المصادر التي تناولت سيرته أنه من صفوة العلماء الذين نشأوا في عهد العثمانيين، كما كان إنسانا جيدا من حيث شخصيته الدينية والأخلاقية.

وكان البركيوي يقوم في مؤلفاته التي تدور حول الأخلاق والفقه بصفة خاصة بجانب نقل الآراء والمعلومات الكلاسيكية، بإعطاء أهمية خاصة للمسائل الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية التي كانت توجد في عهده، ثم يقوم بعد ذلك بكل شجاعة ودون تزييف بذكر آرائه وانتقاداته الشخصية التي تتعلق بهذه الأمور. وشكل هذا الوضع أوضح ميزة في شخصيته العلمية.

حملت مؤلفات البركيوي أهمية كبيرة في تناول المواضيع التي كان يحتاج إليها المجتمع، خاصة من ناحية عكس هذه المؤلفات للحياة الاجتماعية في تلك الفترة

ومشاكلها. وكان عالما ثقة غير متنازل. ومع هذا، ورغم المفهوم الذي كان شائعا في الفترة التي عاش فيها إلا أنه لم يقم بإهداء أي من مؤلفاته إلى أحد كبار رجال الدولة، بل على العكس من ذلك قام وبكل شجاعة بانتقاد الأخطاء التي رآها في كبار رجال الدولة والموظفين والإداريين في جميع الدرجات. واعترض بشدة على بيع الوظائف (المناصب) بالرشوة وأخذ القضاة والمحتسبين والموظفين الآخرين للرشوة ومنح الرتب العلمية والإدارية إلى غير أهلها وانتشار الجهل وجميع أنواع البدع والخرافات لهذا السبب.

ذكر المؤرخ مصطفى عالي - وهو من المعاصرين للبركيوي - عن حقيقته التالي: «أنه سيف استلّ من غُمده، وأنه خلق من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وبالرغم من انتساب البركيوي إلى الطريقة البيرامية، غير أنه لم يتوقف عن انتقاد بعض أرباب التصوف الذين انحرفوا عن أسس السنة في عهده وقاموا بإحداث البدع. ولم يستحسن الرقص والدوران، بل قام بتأليف رسالة بعنوان «القول الوسيط بين الإفراط والتفريط» بين فيها البدع والمغالاة التي يقوم بها بعض المتصوفة، وقام بانتقاد ذلك. ولهذا السبب تم اتهامه بأنه عدو للتصوف. إلا أن هذا الادعاء كان في غير محله. وبالإضافة إلى ذلك يوضح عبد الغني النابلسي (توفّي في عام 1143هـ/ 1731م) وهو متصوف مشهور وأحد الذين قاموا بشرح «الطريقة المحمدية»، أن البركيوي لم ينتقد كبار المتصوفة الذين اتبعوا أسس أهل السنة، بل انتقد أولئك الذين جاؤوا بحزمة من البدع والخرافات باسم التصوف [الحديقة الندية، 1، 155].

استفاد البركيوي في الأساس وبدرجة كبيرة في تأليفه لـ «الطريقة المحمدية» من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي. ويعتبر هذا دليلا واضحا على ارتباطه بالتصوف السني. وبالإضافة إلى ذلك تناول البركيوي بايزيد البسطامي والجُنيد البغدادي وغيرهما من المتصوفة بتقدير وإجلال، وذلك في مقابل أولئك الذين قام بانتقادهم من أرباب التصوف. ومن جانب آخر قام قوجه زاده عبد الناصر الأق شهيرلي، وهو أحد تلاميذ البركيوي، بتأليف رسالة تمت ترجمتها من قبل أحمد أفندي قوش أطه لي إلى اللغة التركية بعنوان «ترجمة أفراد البركيوية» [مكتبة السليمانية، دوغوم لي بابا، رقم 449]. ويتضح من خلال هذه الرسالة أن البركيوي كان يعيش يومه كاملا في حياة دينية وصوفية. ويلفت علي بن بالي، وهو أحد معاصري البركيوي ومؤلف «العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم» الانتباه إلى أن البركيوي بجانب كونه عالما كان أيضا شيخًا. ومن جانب آخر يضعه مصطفى عالي وهو من المعاصرين له ومؤلف «كنه الأخبار» في قائمة المشايخ وليس قائمة العلماء.

كان البركيوي بجانب هذا يتابع بشكل انتقادي التطورات الاجتماعية المختلفة، مختلفًا في ذلك عن عدد كبير من العلماء العثمانيين. كما أنه، وفي فترة لاحقة، قام عدد كبير من العلماء العثمانيين ورجال الدولة، بإرجاع الانحطاط الذي حل بالإمبراطوية إلى التطور الاجتماعي والأخلاقي السلبي، واعتبروه سببا أساسيا لهذا التخلف. وأشاروا إلى أن البركيوي انتبه لهذه الأسباب والنتائج الوخيمة التي سوف تفرزها الفترة التي كان يعيش فيها،

لذا تم اعتباره واحدا من أصحاب العقول النيرة من العلماء العثمانيين القلة الذين تابعوا التطورات الاجتماعية التي كانت في تلك الفترة. ولقيت مؤلفاته وعلى رأسها «الطريقة المحمدية» اهتماما كبيرا في جميع الفترات. وكان البركيوي بجانب درايته العلمية، شخصا ثقة ذا بصيرة وشجاعا تحمّل كامل مسؤوليته في الوقوف أمام المشاكل الاجتماعية. وقدّم خدمات جليلة في موضوع قواعد اللغة العربية، وذلك من خلال المؤلفات التي كتبها في هذا المجال وعلى رأسها «العوامل وإظهار الأسرار». ولقي شهرة واسعة عن جدارة.

ومما لا شك فيه أنه كان على قدر كبير من معرفة قواعد اللغة العربية التي تعتبر لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، وهما المصدران الأساسيان للدين الإسلامي، كما تعتبر كذلك اللغة المشتركة للحضارة الإسلامية. واحتوت هاتان الرسالتان بجانب المنهج العلمي السليم والمعلومات الجوهرية، على شرح قواعد مختلفة في النحو مع ذكر الأمثلة. واشتملت الجمل على الأسس التربوية، مما أكسبها قيمة كبيرة. وقد فرضا مكانهما في قائمة المؤلفات التي لا يمكن تجاوزها في تعلم اللغة العربية عبر العصور.

أثر البركيوي في العلماء العثمانيين الذين جاؤوا من بعده سواء عن طريق مؤلفاته أو عبر طلابه. وفتح الطريق أمام بعض الحركات الاجتماعية للظهور. وأهم مثال لذلك، هو حركة القاضي زاديين (عائلة الوعاظ) التي ظهرت في القرن السابع عشر الميلادي في فترات السلطان مراد الرابع والسلطان إبراهيم والسلطان محمد الرابع. ولقد فتحت النقاشات التي كانت تدور بين قاضي زاده محمد أفندي (توفي في عام 1045/ 1635) وعبد المجيد السيواسي وهو أحد شيوخ الطريقة الخلوتية في تلك الفترة، الطريق لتطورات اجتماعية ودينية في مؤسسات الدولة بعد أن كانت في البداية مجرد نقاشات فكرية. وكان قاضي زاده محمد أفندي والذين نهجوا نهجه من بعده، قد تأثروا بأفكار ابن تيمية والبركيوي. وقالوا بعدم جواز دوران الصوفية ورقصهم، وتعلم العلوم العقلية مثل الرياضيات والفلسفة، وقراءة المولد والقرآن الكريم في المقامات، وزيارة المقابر وأداء صلاة الجماعة في ليالي الرغائب والقدر، والبراءة وشرب الدخان والقهوة والمصافحة بعد الصلوات.

بيّن عبد المجيد السيواسي رأيا مخالفا بصورة عامة في هذه الأمور. واستمرت هذه الحركة بعد قاضي زاده محمد أفندي بقيادة بعض العلماء مثل أسطواني محمد أفندي، وواني محمد أفندي. وحظيت بدعم من السراي، وبتأثير منها استطاعت في بعض الأحيان أن تستصدر فرمانات من السلطان وفتاوى من شيخ الإسلام، تمّ بموجبها منع الممارسات التي تمت الإشارة إليها. وبتحريض من بعض الجماعات تمّ تنفيذ اعتداءات على أهل التصوف والتكايا وأحدثوا فيها الخسائر. ورأى أهل التصوف أن الدافع وراء تلك الأعمال هو مؤلفات ابن تيمية والبركيوي وبخاصة مؤلفه «الطريقة المحمدية»، ولذلك كتب بعضهم بعض الرسائل في الرد عليه.

آثاره

أ ـ النحو:

1 ـ العوامل: عبارة عن رسالة صغيرة باللغة العربية تدور حول علم النحو. وتعرف كذلك

بـ «العوامل الجديدة». وتمت طباعتها لأول مرة في عام 1234هـ باستانبول، ويبلغ عدد طبعاتها قرابة الخمسين طبعة في أماكن وأزمنة مختلفة. كما تم شرحها من قبل علماء كثيرين، وكتبت لهذه الشروح حواشٍ مختلفة؛ 2 ـ إظهار الأسرار: هو مؤلف باللغة العربية يدور موضوعه حول النحو. وتمت طباعته لأول مرة في عام 1219هـ باستانبول. ويبلغ عدد طبعاته قرابة الخمسين طبعة في مختلف الأماكن والأزمنة. كما توجد له شروح وحواشٍ كثيرة. وأشهر هذه الشروح هو الشرح الذي كتبه الشيخ مصطفى أطه لي بعنوان «نتائج الأفكار»؛ 3 ـ إمعان الأنظار: هو شرح لـ «المقصود» وهو مؤلف مشهور في قواعد اللغة العربية. وتم تأليفه في عام 952هـ/ 1545م. وطبع أكثر من خمس عشرة طبعة. وكانت أول طبعة له في عام 1207هـ في بولاق؛ 4 ـ كفاية المبتدي: (استانبول 1289، 1300، 1302، 1303 هـ . وهو مؤلف باللغة العربية يدور حول علم الصرف. وتم شرحه من قبل سليمان سري بعنوان «كفاية المنتهي في شرح كفاية المبتدي» (استانبول 1312هـ)، وأحمد قوش أطه لي بعنوان «عناية المبتغي» (استانبول 1284هـ)؛ 5 ـ إمتحان الأذكياء: (استانبول 1270، 1271، 1305، 1309، 1311هـ). عبارة عن مؤلف باللغة العربية يتعلق بموضوع النحو. وهو شرح لمختصر «لب الألباب في علم الإعراب» للقاضي البيضاوي الذي كتبه لمؤلف «الكافية» لابن حاجب المصري. وقد تم تحقيقه من قبل طارق مختار المليجي رسالة دكتوراه غير مطبوعة، 1410هـ/ 1989م، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم؛

6 ـ شرح الأمثلة: عبارة عن شرح قام به البركيوي لمؤلفه «الأمثلة الفضلية» الذي كتبه باللغة العربية من أجل ابنه فضل الله بشكل يختلف عن الكتاب المشهور «الأمثلة» والذي لايعرف مؤلفه على وجه التحديد.

ب ـ الأخلاق والتصوف:

7 ـ الطريقة المُحمدية والسيرة الأحمدية: هو عبارة عن مؤلف يتناول مواضيع الدين والأخلاق والتصوف، وهو مشهور شهرة كبيرة، وكتب باللغة العربية وتمت طباعته أكثر من خمس عشرة مرة، وأول طبعة له كانت في عام 1260هـ باستانبول. وكتبت العديد من الشروح حوله، ومن بين ذلك نجد شرح عبد الغني النابلسي الذي بعنوان «الحديقة الندية» (I ـ II استانبول 1290هـ) وشرح أبو سعيد الخادمي وهو بعنوان «البريقة المحمودية» (بولاق 1257هـ استانبول 1290هـ)، كما قام بعض العلماء بترجمته إلى اللغة التركية؛

8 ـ جلاء القلوب: رسالة تتعلق بالتصوف. وتم شرحها من قبل حسن الزنجاني بعنوان «ضياء القلوب» وعبد السلام القيصري بعنوان «شفاء القلوب».

ج ـ الفقه:

9 ـ وصيت نامه: وتعرف كذلك برسالة البركيوي. وهو مؤلف باللغة التركية عن علم الحال. وتمت طباعته مرات عديدة، وكانت أول طبعة له في عام 1218هـ باستانبول. وقام موسى دومان بدراسة لغته ونشره مشتملا النص والكلمات طبق الأصل [استانبول 2000م]. كما قام محمد جمال الدين قاويش إفنش بترجمة الترجمة التي قام بها المؤلف لـ

«وصيت نامه» إلى اللغة العربية إلى اللغة البوسنوية (سرايبفو 1908)، كما تمت ترجمتها من قبل Garcin de Tassy إلى اللغة الفرنسية (باريس 1822، 1874). وكتبت الكثير من الشروح والحواشي للكتاب من قبل العلماء العثمانيين. وتم إخراجه كذلك في شكل منظوم. واكتسب الكتاب أهمية بسبب كونه يعتبر أول مؤلف تتم طباعته في العهد العثماني من أجل مقابلة احتياجات العساكر من المعلومات الدينية، وذلك في إطار حركة الإصلاحات التي بدأت في عهد السلطان سليم الثالث؛ 10 ـ السيف الصارم في عدم جواز وقف المنقول والدراهم: هو مؤلف باللغة العربية، تمت كتابته ردا على أبي السعود أفندي الذي قال بجواز وقف الأموال والمنقول؛ 11 ـ إيقاظ النائمين وإفهام القاصرين: عبارة عن مؤلف يدور حول عدم جواز وقف الأموال وقراءة القرآن الكريم بمقابل مالي؛ 12 ـ إنقاذ الهالكين: هو رسالة أخرى لا تجيز كذلك وقف الأموال. وتوجد ترجمة لها باللغة التركية قام بها المؤلف بنفسه؛ 13 ـ معدل الصلاة: مؤلف يتعلق بتعديل أركان الصلاة. وتم شرحه من قبل عدد كبير من العلماء؛ 14 ـ ذخر المتأهلين والنساء في تعريف الأطهار والدماء: هو رسالة تتعلق بأحوال النساء الشهرية. وقام المؤلف بشرح هذه الرسالة بعنوان «زاد المتزوجين»، كما شرحها كذلك إسحق بن حسن الزنجاني؛ 15 ـ تعليقات على العناية: عبارة عن حاشية لشرح «العناية» الذي ألفه أكمل الدين البابرتي لمؤلف «الهداية».

د ـ العقائد ـ الكلام:

16 ـ أحوال أطفال المسلمين: عبارة عن رسالة تتعلق بوضع أطفال المسلمين في الآخرة؛ 17 ـ زيارة القبور: تمت طباعته مع آخر سبع رسائل ومؤلف «جلاء القلوب» وكذلك مع بعض الرسائل الأخرى للمؤلف (استانبول 1280)؛ 18 ـ تحفة المسترشدين في بيان مذاهب فرق المسلمين: تمت ترجمته إلى اللغة التركية ونشره من قبل عوني إلهان، كما ترجمه محرم عمردج إلى اللغة البوسنوية [انظر الببلوغرافيا].

هـ ـ التفسير ـ القراءات:

19 ـ تفسير سورة البقرة: هو عبارة عن تفسير نصف سورة البقرة ويلفت الانتباه من حيث الاهتمام الكبير بقواعد اللغة. ومع وجود الادعاء الذي يقول إنه أرفع من تفسير البيضاوي، إلا أنه أكثر اختصارا وأقل شهرة منه. وقام يشار دوزنلي بتحقيقه [رسالة ماجستير غير مطبوعة، استانبول 1989م، جامعة مرمرة ـ معهد العلوم الاجتماعية]؛ 20 ـ الدر اليتيم: رسالة تتكون من ورقتين، وتتعلق بالتجويد. وتمت طباعتها مع ترجمة «ترجمة الدر اليتيم» لإسكي زاده (توفي في عام 1243هـ/ 1827 ـ 1828م) ومع بعض الرسائل الأخرى التي تتعلق بالتجويد (استانبول 1253، 1280هـ، ازمير 1301هـ). وشرحت الرسالة من قبل المؤلف. وقام محمد عبد القادر خلف بنشرها [آفاق الثقافة والتراث، IX/ 34، دبي 1422هـ/ 2001م، ص 185 ـ 213].

و ـ الحديث:

21 ـ رسالة في أصول الحديث: هي عبارة

عن رسالة صغيرة، غير أنها قيمة جدا، وتم شرحها من قبل داود قارصي (استانبول 1272، 1288، 1289، 1293، 1314هـ). وكتب كل من مصطفى شوكت أفندي (توفي في عام 1292هـ/ 1875م) ويوسف بن عثمان الخربوتي (توفي في عام 1292هـ/ 1875م) حواشي لها. وقد تم طبع شرح داود قارصي طبعات مختلفة مع مؤلفي «راموز الأحاديث» و«غرائب الأحاديث» لأحمد ضياء الدين قمش خانوي (استانبول 1275، 1288، 1314، 1326هـ، بولاق 1303هـ). وتمت ترجمته من قبل صادق جيهان [انظر البيلوغرافيّا] وطلحة آلب (استانبول 1998م)؛ 22 ـ الأربعون: هو مؤلف يحتوي على أربعين حديثا في العبادة، ويوجد له شرح بعنوان «شرح الأحاديث الأربعين». وقام المؤلف بشرح أول ثمانية أحاديث منه، كما قام محمد أق قرماني (توفي في عام 1174هـ/ 1760م) بشرح بقية الأحاديث (تونس 1295هـ، استانبول 1289، 1316، 1321، 1323هـ). وترجمه مصطفى جمعي إلى اللغة التركية بعنوان «برهان المتقين ترجمة الحديث الأربعين» (استانبول 1290هـ)؛ 23 ـ كتاب الإيمان والاستحسان: [مكتبة عاطف أفندي، رقم 596 ـ 597].

كما توجد مؤلفات أخرى للبركيوي غير هذه، أما مؤلف «روضة الجنان في أصول الإعتقاد» والذي ينسب إليه، وترجمه محمود أسعد سيدي شهري ونشره [استانبول 1305]، فإن مؤلفه الأصلي هو حسن كافي أق حصار البوسنوي.

المصادر والمراجع

● علي بن بالي، العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم، مكتبة نور عثمانية، رقم 2838/ 3316، ورق 161 ـ 163؛ ● عطائي، ذيل الشقائق، I، 179 ـ 181؛ ● بشوي إبراهيم، التاريخ، I، 467؛ ● كاتب فلبي، ميزان الحق، استانبول 1306، ص 121 وما يليها ● كشف الظنون، I، 54، 117، 183 ـ 184، 214 ـ 215، 592، 737، 822، II، 1017، 1074، 1111، 1246، 1500، 1546، 1737، 2022، 2036 ـ 2037؛ ● عبد الغني النابلسي، الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية، استانبول 1290، I، 155؛

● أسعد إلري، الإمام البركيوي، ازمير 1954، ص. 3؛ ● الزركلي، الأعلام، VI، 286 ـ 287؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، IX، 123 ـ 124؛

- G. de Tassy, Exposition de la foi musulmane de Bırkewi, traduit du Turc, Paris 1822;؛

● قاموس الأعلام، II، 1284 ـ 1285؛ ● سجلي عثماني، IV، 121؛ ● عثمانلي مؤلفلري، I، 153 ـ 156؛ ● سركيس، مجمع المطبوعات، I، 610 ـ 611؛

- Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litterature, II, 582 - 586; Supplementband, I, 645, 683, 742;
- Nihal Atsiz, istanbul Kütüphanelerine Göre Birgili Mehmet Efendi Bibliyografyasi, istanbul 1966;
- Özege, Katalog, I, 121, 178; II, 663, III, 1341;

- Emrullah Yüksel, Les Idées Religieuses et Politiques de Mehmed al- Birkewi (929-981/1523-1573), Doktora, Paris 1972; • Emrullah Yüksel, «Birgivi», Turkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, istanbul 1992, VI, 191-194;
- Ahmet Turan Arslan, imam Birgivi: Hayati, Eserleri ve Arapça Tedrisatindaki Yeri, Istanbul 1992;
- فهرس المطبوعات التركية العثمانية، القاهرة 1982، ا، 51، 61، 84، 88 ـ 89، 95، 107، 128، 260؛
- محمد شكر، الإمام البركيوي، أنقرة 1994.
- Muharrem Omerdiç «Traktat o Ucenju Islamkih Frakcija od Muhameda Begove Biblioteke, XI-XII;
- Ibn Pira Ali el-Bergilja», Anali Gazi Husrev, 1985, p. 19-37;
- Sadik Cihan, «Muhammed b. Pir Ali Birgivi ve Risale fi Usul'l-Hadis'in Tercümesi», Ondokuz Mayis Universitesi Ilahiyat Fakültesi Dergisi, VI, izmir 1989, p. 173-215;
- Fahri Unan, «Dinde Tasfiyecilik Yahut Osmanli Sunniliine Muhalfet: Birgivi Mehmed Efendi», Türk Yurdu, X/36, 1990, p. 33-42;
- Mehmet Demirci, «Birgivi ve Tasavvuf», Kubbealti Akademi Mecmuasi, XXII/4, 1993, p. 29-38;
- Kasim Kufrali, «Birgivi», islam Ansiklopedisi, II, 634-635,
- Kasim Kufrali, «Birgewi», Encyclopaedia of Islam (new edition), I, 1235.

د. أحمد أوزال

هيئة الموسوعة الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا

ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي ـ السودان

البرماوي، شمس الدين محمد بن عبد الدائم

(763هـ / 1362م ـ 831 هـ/ 1428 م)

شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن عبد الدائم بن عيسى البرماوي النعيمي العسقلاني الشافعي؛ والبرماوي نسبة إلى برمة من نواحي الغربية بمصر، فقيه ومحدث لغوي. ولد في منتصف ذي القعدة سنة 763هـ / 1362 م، وكان والده مؤدبا للأطفال، فنشأ طالب علم، فحفظ القرآن وبعض كتب العلم [السخاوي، الضوء اللامع، 7/ 281]. ويشير ابن حجر إلى أنه تفقه في مرحلة الشباب على إبراهيم بن إسحاق الكندي، وعبد الرحمن بن علي القاري؛ كما سمع الحديث من ابن حجر العسقلاني، ولازم

الشيخ بدر الدين الزركشي واستفاد من علمه الغزير؛ وحضر دروس الشيخ سراج الدين البلقيني وقرأ عليه أكثر هذه الدروس، وسمع عليه مختصر المزني، وتتلمذ كذلك على الشيخ مجد الدين إسماعيل [إنباء الغمر، 3/ 414]، ويشير السخاوي إلى أساتذة آخرين تخرج على أيديهم مثل البرهان بن جماعة وابن الفصيح، والتنوخي، وابن الشيخة، والأنباسي، وابن الملقن، والعراقي. وقد أثنى ابن حجر على لطافة أخلاقه وحسن تودّده وإخلاصه في تدريس طلابه، إضافة إلى حسن خطه وكثرة حفظه؛ وكان يعاني من ضيق ذات اليد، ثم اتسعت أحواله في آخر عمره حيث شغل بعض المناصب منها نيابة الحكم في القضاء عن القاضي ابن أبي البقاء، كما ناب عن جلال الدين البلقيني ثم عن الأخنائي، ثم ترك المناصب وتوجه إلى دمشق، وأقبل على العلم وتعليمه وسرعان ما غادر القاهرة إلى دمشق بدعوة من زميله في طلب العلم نجم الدين بن حجي، فقرره في وظائف كثيرة واستنابه في الخطابة والحكم. ثم غادر دمشق بعد الوفاة المفاجئة لابنه محمد إلى القاهرة مع كتاب توصية من ابن الحجي، فتولى وظائف علمية في مدارس القاهرة، حيث درّس الحديث والفقه نيابة عن حفيد الشيخ ولي الدين العراقي، كما تولّى نيابة المشيخة على أوقاف المدرسة الجمالية، وتدريس الحديث فيها، إضافة إلى تدريس الفقه في المدرسة الخروبية، والتدريس في المدرسة الرواحية والأمينية؛ وقد درس الطلبة أهم كتب الفقه الشافعي وهي الحاوي، والتنبيه، والمنهاج، كل منها في سنة مع تولّيه الإفتاء بدار العدل؛ كما يشير السخاوي إلى أنه استقر شيخًا للمدرسة الفخرية، ودرّس التفسير في المدرسة المنصورية، وقد حج سنة 828هـ / 1424 م، وجاور فيها حيث نشر العلم. وعاد من الديار المقدسة عام 830هـ / 1426م إلى القاهرة، ثم إلى القدس الشريف حيث تولى التدريس في المدرسة الصلاحية ونظرها بتوصية من زميله ابن حجي، وقد أقام فيها قليلاً وانتفع به أهلها. ويشير الحنبلي إلى أنه قال في مرض موته «عندما عشنا متنا» إشارة إلى أنه مات وقد تنفس الصعداء على الصعيد المعاشي بعد ضيق ذات اليد والفقر [الأنس الجليل، 2/ 457].

أما تلاميذه فيشير السخاوي إلى أبرزهم وهم: المحلي، والمناوي، والعبادي، والزين رضوان، والتقي بن فهد، وابن ناصر الدين. كما أشار ابن العماد إلى تلميذ آخر اشتهر بعلمه وهو الحافظ تاج الدين الغرابيلي الكركي والذي قال في حق شيخه البرماوي: «هو أحد الأئمة الأجلاء، والبحر الذي لا تدركه الدلاء، فريد دهره... ما رأيت أقعد منه بفنون العلم مع ما كان عليه من التواضع والخير» [شذرات الذهب، 7/ 197 ـ 198].
توفي البرماوي في مدينة القدس بمرض القرحة عام 831هـ / 1428م ودفن في مقبرة ماملا عند الشيخ أبي عبد الله القرشي.

■ آثاره

كان البرماوي مؤلفًا مكثرًا، من تآليفه:
1 ـ شرح العمدة لشيخه ابن الملقن؛
2 ـ منظومة في أسماء رجالها وشرحها؛
3 ـ شرح صحيح البخاري في أربعة مجلدات، ويشير السخاوي إلى أنه استفاد في شرحه من مقدمة ابن حجر لفتح الباري، ولم

يبيض هذا الكتاب إلا بعد موته؛ 4 ـ ألفية في أصول الفقه وشرحها، واستمد فيه من كتاب شيخه الزركشي المسمى بالبحر؛ 5 ـ منظومة في الفرائض؛ 6 ـ شرح لامية الأفعال لابن مالك؛ 7 ـ البهجة الوردية؛ 8 ـ شرح الصدور بشرح زوائد الشذور؛ 9 ـ مختصرًا من السيرة النبوية، وكتب عليها حاشية؛ 10 ـ تلخيص المهمات، للأسنوي؛ 11 ـ تلخيص كتاب قوت القلوب، وهذا الكتاب لأبي طالب المكي الصوفي المشهور؛ 12 ـ شرح خطبة المنهاج للنووي؛ 13 ـ شرح اللمحة البدرية في علم العربية، لأبي حيان الأندلسي؛ 14 ـ شرح منهج الرائض في الفرائض؛ 15 ـ نظم ثلاثيات البخاري [هدية العارفين، 2/ 186]؛ 16 ـ المقدمة الشافية في علمي العروض والقافية [الزركلي، الأعلام، 6/ 189]؛ 17 ـ النبذة الذكية في الأصول الفقهية، مختصر [فهرس الخزانة التيمورية، 4/ 186].

المصادر والمراجع

● ابن حجر، أنباء الغمر بأنباء العمر، تح. حسن حبشي، القاهرة 1389هـ / 1969 م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث العربي، 3/ 414 ـ 416؛ ● السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة 1354 هـ، مكتبة القدسي، 7/ 281 ـ 282؛ ● الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، القاهرة 1248هـ / 1832، المطبعة الوهبية، 2/ 457؛ ● ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تح. فهيم محمد شلتوت، 1983 م، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 2/ 622؛ ● السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1387هـ، دار إحياء الكتب العربية، 1/ 439؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت، دار إحياء التراث العربي، 7/ 197 ـ 198؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طهران 1387هـ/ 1947م، المكتبة الإسلامية، 1/ 547، 2/ 959؛ ● الشوكاني، البدر الطالع لمحاسن من عاش بعد القرن السابع، القاهرة 1348 هـ، مطبعة السعادة، 2/ 181؛ ● البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إستنبول 1951م، عن طبعة طهران، 1387هـ / 1947 م، 2/ 186؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، مطبعة المثنى، عن طبعة إستنبول 1945، 1/ 616، 618؛ ● كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دمشق 1376هـ / 1957م، مطبعة الترقي، 10/ 132؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، د.ن، 1969م، 6/ 188 ـ 189؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. عبد الحليم النجار، القاهرة، 1977م، دار المعارف، 3/ 169، 2/ 318؛ ● فهرس الخزانة التيمورية، القاهرة 1369هـ / 1950 م، مطبعة دار الكتب المصرية، 4/ 185 ـ 186؛ ● الحمصي، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية،

علوم اللغة العربية والنحو، دمشق، 1393هـ / 1973 م، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ص303 ـ 305؛ ● منصور، فهرس المخطوطات المصورة الفقه وأصوله، تونس 1407هـ / 1986 م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1/ 58 ـ 59؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين 6/ 188 ـ 189.

د. رعد محمد البرهاوي

دار المعلمات ـ الموصل ـ العراق

البرمكي، أبو المعالي محمد بن تميم

(ت 411هـ/ 1021م)

محمد بن تميم البرمكي أبو المعالي، لغوي معجمي لا نعرف شيئا عن حياته وسيرته، فلا تذكر كتب التراجم تاريخ مولده ومكانه وشيوخه وكل ما تنص عليه أنه قدم مصر، وعدّه سزكين من أهل مصر [تاريخ التراث العربي، مجلد 8، 2/ 471].

وتكتفي المصادر بأنه صاحب كتاب المنتهى في اللغة، وأن هذا المصنّف معجم كبير يقع في ثمانية عشر جزءًا [الفيروزأبادي، البلغة، 213] صنّفه سنة 397هـ/ 1006م ونقله عن معجم الجوهري تاج اللغة وصحاح العربية «وزاد فيه أشياء قليلة، وأغرب في ترتيبه» [الصفدي، الوافي بالوفيات، 2/ 280]، وقد لاحظ ياقوت الحموي في ترجمته للبرمكي وهو يذكر المنتهى والصحاح، أنه «لا شك أن أحد الكتابين منقول من الآخر نقلا»، مما يدل على أن المسألة يحفّ بها شيء من الغموض، لكنه يضيف قائلا: «والذي أشكّ فيه أن البرمكي نقل كتاب الصحاح»، ويبرر ميله إلى أنّ البرمكي هو الذي نقل عن الجوهري أن أبا سهل محمد بن علي الهروي (372هـ/ 982م ـ 433هـ/ 1041م) «كان بمصر وحكى عن البرمكي وقد روى الصحاح عن ابن عبدوس»، وابن عبدوس هذا هو أحد رواة الصحاح عن الجوهري [بغية الوعاة، 1/ 455]، وأخيرا يفترض ياقوت أن كتاب الجوهري لعلّه خرج عنه إلى مصر ومؤلفه مازال حيّا [معجم الأدباء، 18/ 34 ـ 35]. أمّا الفيروزابادي (ت 817هـ / 1414 م) فلا يدري من أخذ عن كتاب الآخر، لكن يشير إلى أن ما يغلب على ظنّه «أن أحدًا منهما لم يطلع على صاحبه»، ويعلّل ذلك بقوله: «الجوهري مات ولم يكمل بعد تنقيحا، وإنما هو مسَوَّد، فكمّله ونقّحه بعض أصحابه، وأما المنتهي فما كمل إلاّ عام وفاة الجوهري» [البلغة، 213].

ومما يختلف فيه معجم البرمكي عن الصحاح أن الجوهري رتب مادة معجمه على أبواب تبعا

للحرف الأخير من الجذر، وعلى فصول تبعا للحرف الأول. أما البرمكي فقد رتب مادة معجمه على أبواب تبعا للحرف الأخير من الجذر، وعلى فصول تبعا للحرف السابق على الأخير، نحو (بلث، ثلث، حلث. . . ، نمث). ولذا قال القدماء: إنه أغرب في ترتيبه.

من هذا المعجم قطعة من حرف التاء في ستّ أوراق محفوظة في (كوبرلي) رقم 2/ 1522 من القرن الهجري السادس. وقد كان هذا المعجم موضع دراسة بعض المعجميين المعاصرين.

المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت بن عبد الله، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ط 1، 1991، بيروت، دار الكتب العلمية، 5/ 238؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، ط 2، 1390 ـ 1924، دار النشر فرانزشتاينر بفيسبادن، باعتناء س. ديدرينغ، 2/ 280؛ ● الفيروز آبادي، مجد الدين، البلغة في تراجم النحو واللغة، تح. محمد المصري، ط 1، 1407 / 1987، مركز المخطوطات والتراث، ص 191؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، 1384 ـ 1964، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1/ 68؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، بيروت، دار العلوم الحديثة، 2/ 61؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط 1، 1414 ـ 1993، مؤسسة الرسالة، 3/ 185؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية عرفة مصطفى ومازن عماوي، 1408 ـ 1988، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مج. 8، 2/ 471؛ ● نصار، حسين، المعجم العربي، ط 2، 1968، مكتبة مصر، 2/ 511.

د. ممدوح محمد خسارة
جامعة دمشق ـ سوريا
د. عبد السلام العيساوي
جامعة منوبة ـ تونس

برناز، الحاج أحمد بن مصطفى قارة خوجة

(1074هـ / 1664م ـ 1138هـ / 1726 م)

هو الحاج أحمد بن مصطفى بن الحاج محمد بن مصطفى قارة خوجة الحنفي التونسي المعروف بلقب برناز(الطويل الأنف بالتركية). إمام خطيب ومدرّس مهتمّ بالمنقول والمعقول وصاحب تآليف متعدّدة. ولد بتونس في أوّل العشر الأواسط من جمادى الثانية سنة 1074هـ / أوّل العشر الأواسط من جانفي 1664 م، ونشأ بها.

أصله من عائلة مشهورة ذات صيت ديني وسياسي، فقد قدم جدّه الأوّل مع الأتراك العثمانيين في زيّ درويش عند استعادة حصن حلق الوادي من الإسبان سنة 1573 م، ثمّ استقلّ بإمامة زاوية سيدي علي بن زياد، وقد سلك ابنه محمد طريق العلم والتقوى إذ كان فقيها محدّثا وعروضيّا إلى أن انتصب قاضيا، وهو على ما قيل أول قاض حنفي من أبناء البلد. كما تولى الجدّ الحاج محمد برناز إمامة جامع يوسف داي، والخطابة بجامع القصبة، وإمامة الصلوات الخمس بجامع محمد باشا، فضلا عن التدريس بالمدرسة الشمّاعيّة، وكذلك في ضريح الشيخ سيدي علي بن زياد بالزاوية المذكورة أعلاه. وصارت للجد بذلك مكانة مرموقة تشهد عليها وجاهته لدى الخاص والعام، وحظوته لدى رجال السياسة لا سيّما زمن حمودة باشا المرادي والدّاي أحمد خوجة، وكذلك تجميعه ثروة طائلة، ومخطوطات وكتبا.. وربّما عجّل هذا الموقع المتميّز في حتفه، فقد التزم الحاج محمد برناز وابنه مصطفى التعاون مع جماعة الحاج علي لاز ومحمّد آغا على إزاحة مراد باي الثاني ضمن صراع بين أجنحة السلط، وعند استعادة هذا الأخير نفوذه مجدّدا قبض عليهما في 18 صفر 1084هـ / 4 جوان 1673م وقتلهما، ونهبت أملاكهما وخزائن كتبهما، وكذا فعل بعديد المعارضين.

ويبدو أنّ أحمد برناز قد انكبّ على العلم منذ صغر سنّه فقد كان جدّه يأخذه معه إلى حلقات درسه، ولازمه حتّى أخذ عنه الحديث قبل وفاته سنة 1084هـ / 1673 م، ثم واصل تعلّمه على شيوخ عظام التقاهم بتونس أو بمصر عند ترحاله إلى الحجّ في ذي الحجّة سنة 1093هـ / ديسمبر 1682م أو بمكّة ذاتها، أو كذلك عند انتقاله غربا سنة 1107هـ/ 95 ـ 1696م، إلى عنابة وقسنطينة ومدينة الجزائر وزواوة من بلاد القبائل، إذ نعلم أنّه غادر البلاد «مغاضبا» حسب قول حسين خوجة، بعد أوبته من الحج، وقد يكون فرّ نحو الغرب لما علم من اضطهاد الباي طاطار للعلماء وفتكه ببعضهم. وربّما واصل سفره إلى بلاد المغرب الأقصى على ما نفهم من نصّ سؤال عرض عليه ببلاد المغرب (كذا) يضمّ عدّة فصول كما جاء في تأليفه إعلام الأعيان بتخفيفات الشرع عن العبيد والصبيان.

وتبدو قائمة شيوخه طويلة لرغبته في توسيع معارفه والتواصل مع العلماء أينما حلّ، حتى إن البعض ممّن أخذ عنهم كانوا يعترفون له بالكفاءة والمقدرة كقول مصطفى بن عبد الكريم: «ما قرأ عليّ أحد مثل قراءتك...»، أو قول الشيخ أحمد البصير البرغوثي نزيل زواوة في أحمد برناز: «أنت لحمة منّي»، أو سؤال بعض شيوخه أنفسهم في أن يكتب لهم بعض الحواشي والنبذ مثلما سنبيّن، أو انعكاس الآية إطلاقا وذلك بأن صار بعض شيوخه ذواتهم يأخذون عن تلميذهم أحيانا بعض المعارف لتنقّذه في الميدان، كأن يأخذ محمد بن محجوبة عن أحمد برناز كتاب الشاهدي في اللغتين التركية والفارسية، وقد كان يتقنهما، أو يأخذ الشيخ أحمد بن مزيان الزواوي متن الخزرجية عنه، وقد كان من البارعين في المسألة وخلّف تأليفا في الغرض كما سيأتي.

ولكثرة شيوخه واطلاعه على عديد العلوم وربطه منابع العلم المحلية بالروافد المشرقية وأخرى مغربية، عظم موقع أحمد برناز وقدره عند استقراره أخيرا بالبلاد التونسية. فتصدّر للتدريس في البداية بالمدرسة الشمّاعية حيث درّس جدّه الحاج محمد برناز. ثم أخذه أستاذه محمد محجوبة نائبا عنه بمدرسة يوسف داي وكذلك في الصلاة وخطبة الجمعة في الجامع المواجه لمقام محرز بن خلف وقد كان فيما بين شهر شعبان 1108هـ / فيفري - مارس 1697م وأوائل ذي الحجة 1116هـ / أواخر مارس 1705 م؛ وصار بعد هذا التاريخ منفردا بالأمر إثر تخلّي شيخه عن هذه الخطط لفائدته. كما عيّن في الأثناء مدرّسا بالعنقيّة (نهج عنق الجمل) لكي يتوّج مساره بتعيينه مدرّسا بجامع الزيتونة ومدرّس الحديث بمدرسة الجامع الجديد الذي بناه حسين بن عليّ بحومة سوق البلاط.

وقد أدّى انتصابه للتدريس في مدارس عدّة إلى تخرّج جمّ غفير من العلماء على يديه منهم الشيوخ يوسف درغوث الحفيد، ومحمد شلبي الحنفي، ومحمد الحركافي الضرير، ومنلا بكير، ومحمد قارة طباق، وأحمد النميس الحنفي، وأبو محمد عبد الله حسين بن رجب جنويز. ويبقى أشهر تلاميذه المؤرخان التونسيان الشيخان حسين خوجة ومحمّد الوزير السرّاج.

أمّا من الناحية السياسية فإنّ نكبة 1084هـ / 1673م التي ذهبت بأبيه وجدّه إثر قتل مراد الثاني، واضطهاده مراد باي الثالث في 1114هـ / 1702م قد جعلاه يعزف عن الخلطة السياسية وأكسباه حساسيّة تجاه السلطة ذاتها، ناهيك أنّنا نجد أولى اتصالاته بها كانت بالأمير حسين بن علي عبر قصيدة مدحيّة نظّمها عندما أقدم أوّل البايات الحسينيين على تعيين ابنه محمد لولاية العهد خلفا عن ابن أخيه عليّ باشا سنة 1137هـ/ 24 - 1725م. ولعلّ إقدام حسين خوجة المؤرخ على إيراد قصيدة برناز في الغرض يفيد بأمر هذا التواصل الاستثنائي غير المعهود بين العالم الفقيه الإمام ورجل السلطة المتنفذ، ممّا يكسب عمليّة التغيير في حدّ ذاتها شرعيّة مستوفاة من ناحية، ويمهّد لدخول برناز عالم السياسة «الشرعية» من ناحية ثانية. وإذا ما علمنا أنّ وفاة الرجل كانت في 17 ذي القعدة 1138هـ / 17 جويلية 1726م فهمنا مبرّرات هذا الإقدام على التواصل مع السلطة، إذ كان في آخر حياته أميل إلى السكينة والدّعة، وربّما كان أيضا في اتصاله هذا تحت تأثير تلميذه حسين خوجة «وزير» الباي حسين بن عليّ ومؤرّخه الرسمي، وكذلك تلميذه وصديقه الحميم محمد الوزير السرّاج مؤرخ البلاط أيضا.

والأكيد أنّ هذا الاتصال السياسي المتأخر بين الحاج أحمد برناز وحسين بن عليّ، وهذه التزكية المباشرة في أمر الاستخلاف، كانتا كافيتين لتعقّب ابنه من بعده من قبل علي باشا عند اعتلائه السلطة إثر 1740م حيث سجن الابن مدّة طويلة قبل أن يأمر بخنقه ضمن جمع من العلماء الذين تمّ الاقتصاص منهم على غرار مصطفى بن الحاج حسين خوجة وأحمد الكافي، وغيرهم كثير، مثلما أشار إلى ذلك المؤرخ الصغيّر بن يوسف الباجي.

ولعلّ انكفاء أحمد برناز على نفسه وقلة اتصاله برجال الدولة، وعزوفه عن الاهتمام مباشرة بأمور السلطة ريبة وخوفا، واهتمامه

أكثر بورود معين المعارف قد جعله ينكبّ أكثر على التأليف في ميادين متنوّعة لا سيّما أنّ الرجل قد تفرّغ كليّا أو يكاد للتدريس، بل ربّما التصقت المهمّتان ببعضهما البعض، فصارت دروسه مدخلا للبحث فيما استغلق عليه من المسائل، فجاءت رسائله ونبذاته وحواشيه تلبية لنداء الحاجة أكثر منها وليدة تطوّر فكري أو دليلا على انفتاح آفاق جديدة في البحث، سيّما أنّ هذه التآليف قد اختصّت بميادين معرفية متعدّدة.

ويمكن اعتبار تأليفه إعلام الأعيان بتخفيفات الشرع عن العبيد والصبيان من أهمّ كتب الحاج أحمد برناز، وفيه يتعرّض إلى وضعيّة بعض الشرائح الاجتماعية «الدونية» مركّزا على ضرورة رفع الحرج ودرء الحدود الشرعيّة عن الصبيان وكيفيّة سياستهم والإشفاق عليهم شأنهم في ذلك شأن العبيد إذ هم «إخوانكم فأطعموهم ما تأكلون». ويبرز المؤلف في أبواب متعدّدة حقوق الصبي على والده وشأن تعليمه وأوقات ذلك وحدود تربيته سيّما ما يخصّ أمر ضربه وما يورثه ذلك إن تجاوز الحدود، كما يوصي الأولاد بآبائهم خيرا وبأساتذتهم. فجاء هذا التأليف معرّفا بواقع الصبيان والعبيد من جهة، داعيا إلى تحسين صورتهم ووضعهم من جهة ثانية، مرتكزا في ذلك على أقوال السلف، ومستشهدا ببعض النصوص الشرعيّة وتفسير بعض الآيات المتعلقة بالغرض، وببعض الأشعار والحكم التراثيّة، ومستندا إلى بعض مقولات شيخه محمد بن شعبان الحنفي، أو إلى ما عاينه من وقائع في الشأن بتونس أو ببلد قسنطينة. ولا شك أن من دوافع دعوة المؤلف إلى رفع «قدر الصغير» وترفقه «بالفقراء والمساكين» وحنوّه «على أولاد المسلمين» واقتناعه بذلك، ضرورة إقرار بعض «حقوق الطفل» الدنيا آنذاك. بيد أن الأكيد أيضا أنّ في تاريخ المؤلف ذاته ما يبرّر الاهتمام بهذا الموضوع بالذات والإيغال في البحث فيه سيّما أنه قد افتقد في الوقت نفسه أباه وجدّه وهو لم يتجاوز العشر سنين.

ومع ذلك يظلّ كتابه «الشهب المخرقة لمن ادّعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة»، أهم تآليف أحمد برناز على الإطلاق. وهو تأليف ذو اهتمامات متعدّدة جمع فيه أحمد برناز «أخبار معاصريه» كما ضمّ بين طيّاته مواضيع مختلفة المشارب متباينة الأهميّة جمعها صاحبها في فقرات سمّيت كل واحدة شهابا، قد تطول لتمتاز بعدّة صفحات وقد تأتي الواحدة مختصرة مختزلة فلا يكون حيّزها سوى بعض الأسطر.

وقد مثل الرد على بعض معارضيه مدخلا لكتابة التأليف، إذ يعلمنا الحاج أحمد برناز بدعاوي فقيه اغتابه مرّات وآذاه وقدح أيضا في كفاءته ومكانته، ويحاول برناز في هذا الكتاب أن يبيّن الحقيقة ويبرز أفكاره وآراءه مع العمل في نفس الوقت على تقويم أفكار خصمه. وعبر هذه «المحاجة» جاء التأليف تبعا لذلك غنيّا بالمعارف مليئا بالمعلومات: ولئن لم يذكر اسم خصمه ولو مرّة واحدة في الشهب غير أنّنا نعلم مجمل أفكاره من خلال ما أفادنا به المؤلف كقوله بغلق باب الاجتهاد وانفراده بعلم المنطق حسب زعمه «وهو أفرغ من القصب»، وادّعائه معرفة العلوم جميعها وتقلب أخلاقه وكثرة تقوّله في الغير وطعنه في الإمام مالك وتعاليه عن التدريس مع «السادات المالكيّة المدرّسين» وإيثاره البنين

على البنات... الخ، إضافة إلى «تسلقه» السياسي و«انحدار» موقعه الاجتماعي وقصوره الفكري... فكان الحاج أحمد برناز يتسقط في الكتاب «عثرات» خصمه في كل شهاب من الشهب ذابًا بذلك عن نفسه معتقدا الإيقاع به طالما جاءته الأذيّة منه. ولذلك نرى المؤلف يستطرد في كل موضوع لكي يستعرض معلوماته فيدقق ويوضّح ويعمّق ويعقب. فالكتاب لا يمثل في الواقع وحدة متجانسة وإنّما جاءت مواضيعه في كل الشهب حسب حاجة المؤلف في التطرق إلى موضوع معيّن. فهو بعد عرض ما يدّعيه الخصم يستعرض معلوماته الجمّة ومختلف الأقوال المعارضة لأطروحات الرجل منكرا في الختام دعواه. وهكذا تمكّن المؤلّف من الخوض في مواضيع شتّى تهمّ الاجتهاد واللغة والموسيقى ومجالس الذكر، ومسائل تهمّ المناظرات العلميّة والعدل وخصائص الأمير الخيّر وفضائله، كما تطرّق إلى مواضيع الطلاسم وعلاقتها بالكواكب، وإلى البناء وأنواعه، والولاية والنبوّة لا سيّما ما يخصّ نبوّة النساء. وتحدث أيضا عن الغيبة والنميمة والتعلّم والتعليم وعن طبقات المجتهدين وشروط الإمامة. على أنّ أهم المواد التي تمّ الاهتمام بها في هذا التأليف هي تلك التي لها صلة بالتاريخ. فقد كان الحاج أحمد برناز يتخذ له الأحداث التاريخية المستمدّة من الواقع ركيزة محاججته، فإذا هو يتطرق إلى الخلفاء في صدر الإسلام وفي عهدي الدولتين الأمويّة والعبّاسية ويبحر في أمر النبوّة والأنبياء ومختلف حرفهم، ويستعرض أخبار السلاطين العثمانيين ومآثر بعضهم، وأمر الصّراع التونسي الجزائري لا سيّما في عهد شعبان حاكم الجزائر، كما يتوقف عند أخبار البايات المراديين وبعض أعمالهم ويتوسّع في إيراد بعض المراسلات القائمة بين علماء الجزائر والمغرب الأقصى؛ كما يورد تراجم طائفة من شيوخ الزيتونة المالكيين وغيرهم من العلماء ورجال الدين من أصحاب الكرامات مبرزا في مواقع عدّة من كتابه نوعيّة علاقة السلطة برجال الدين، ومتوقفا أيضا عند تاريخ بناء جامع الزيتونة وأهمّ التطورات المدخلة عليه، وأخبار خوارزم وبلاد القرم والهند وخراسان وطبرستان، وكذلك أخبار مدن الشام والعراق والجزيرة واليمن ومصر والجزائر وتونس ومياهها ممجّدا آثارها لا سيّما ساقية المياه المنطلقة من زغوان وآثار قصر الجم وقرطاج. فبدت في الغرض أفكاره «حداثيّة» تؤمن بالتطوّر عبر «الاجتهاد» غير غافلة عمّا أسسه الأوائل ووضعوه، بل إنّه كان ينظر نظرة إعجاب لما تركوه وخلفوه منبّها إلى ما قد تخلفه الفتن والحروب من دمار وإتلاف وتخريب.

ولما كان كتاب الشهب الذي يضمّ 152 شهابا (خلافا لما ادّعاه صاحبه من كتابة 160 شهابا) قد اعتمد عدة مصادر قديمة ومعاصرة له من مثل تلميذه محمد حسين السراج وغيره، فهو يعدّ أيضا من أهمّ المصادر التاريخية لفترة الدّايات والبايات بتونس خلال القرن السابع عشر للميلاد وكذلك لفترة نشأة الدولة الحسينية. كما أنّ الكتاب ذاته مثل مصدرا إعلاميّا مهمّا بالنسبة إلى مؤرّخي عصره مثل المؤرخ حسين خوجة في كتابه «ذيل بشائر أهل الإيمان»، ومحمد الوزير السرّاج في كتابه «الحلل السندسية»، ناهيك أنّه ذكر فيه اسمه 42 مرّة، غير أنّنا نعجب من

عدم تخصيص ترجمة له. وقد افترض البعض بأنه قد يكون قام بذلك في الجزء الرابع المفقود من الحلل.

وفي الجملة فإن أحمد برناز تميز بغزارة المعلومات وكثافتها ونقاوة علاقاته البشريّة وصفاء أطروحاته ذات الأبعاد الاجتماعية والإنسانية كتصدّره لمساندة «المستضعفين» وانتصابه للدّفاع عن الأطفال والعبيد والفقراء والمساكين لاعتبارات دينية وأخلاقيّة. كما تميز بأنه كان كثير التواضع، شديد الاستقامة، محترزا من الالتصاق برجال السلطة ولكن كل ذلك لم يبوّئه المكانة المناسبة، حسب بعض معاصريه، حتى أكّد تلميذه حسين خوجة رئيس ديوان الإنشاء في عهد حسين بن عليّ أن أستاذه برناز كان «قليل الحظ». والمسألة لا ترتبط في تقديري بمختلف المحن التي مرّ بها برناز وأبوه وجدّه من قبل والمصائب التي حلّت بالعائلة فقط، بل إنّ القولة تفيد أنّ الحاج أحمد برناز كان حريّا بأن يتصدّر موقعا أفضل وأحسن ممّا كان عليه، سيّما أنّ القضاة والمفتين من جيله لم يكونوا ضرورة أكثر كفاءة أو اقتدارا منه، فقد عدّه بعض معاصريه من العلماء آنذاك «عين الأعيان الحنفيّين». وبقدر ما بدا متواضعا غير ضنين بالمعلومة، فقد افتقده رجال العلم إثر مماته وبيّنوا في مراثيهم ما أجاد فيه وكيف أفاد.

آثاره

أ - المطبوعة:

1 - الشهب المخرقة لمن ادّعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، أخرج صاحبه منه نسخة أولى في جمادى الأولى 1124هـ / جوان 1712م، ثم نقحه وأضاف إليه زيادات، فأتمّ نسخته الثانية ضحوة الأربعاء الثالث أو الرابع من شهر ربيع 1129هـ / 15 أو 16 فيفري 1717م. فيكون قد بادر بكتابة هذا التأليف وعمره على ما يذكر في الشهب قريب من 50 سنة. حققه وقدمه الطاهر المعموري، ونشرته دار الغرب الإسلامي، بيروت 1990، ط 1، 616 ص؛ 2 - إعلام الأعيان بتخفيفات الشرع عن العبيد والصبيان، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس (6242 و... 3885). وقد يكون هذا العنوان هو آخر ما ألفه الحاج أحمد برناز، إذ كان يعود إليه بالتنقيح. ودليلنا على ذلك اختلاف النسخ بالزيادة والنقصان فضلا عن أنّ جلّ نسخ المخطوط المعروفة قد كتبت في صيغتها «النهائية» أواخر 1131هـ / 1719م من ناحية ثانية؛ 3 - تزيين الغرّة بمحاسن الدرّة، مخطوط بالمكتبة الوطنية (14397)؛ 4 - حاشية على شرح المنار لابن فرلاشته، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس (4411).

ب - المفقودة:

1 - رسالة إساغة الغصة بالخمر، ألفها سنة 1094هـ / 1683م ولم يتجاوز عمره 20 سنة [الشهب المخرقة...]؛ 2 - شرح على كتاب المحمديّة لكاليبولي، محمد أفندي؛ 3 - حواش على المرادي (شرح ألفيّة ابن مالك)؛ 4 - نكات على الخزرجية في المسائل العروضية؛ 5 - نبذة على مقامات الحريري؛ 6 - شرح الشافية في الصرف؛ 7 - شرح صحيح البخاري (بعض الفصول)؛ 8 - بائيّة في أصحاب أبي الحسن الشاذلي الأربعين؛ 9 - نبذة من حاشية الجاربردي على شرح الشافية في الصرف لابن الحاجب.

■ المصادر والمراجع

● الوزير السراج، محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح. محمد الحبيب الهيلة، بيروت، 1984 ـ 85، دار الغرب الإسلامي 3 مج (عدة مواقع)؛ ● ابن العزيز، حمّودة، الكتاب الباشي، تح. محمّد ماضور، تونس 1970، الدار التونسية للنشر، ص 299؛ ● خوجة، حسين، ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان، تح. وتقديم الطاهر المعموري، ليبيا تونس 1975 (عدّة مواقع سيّما ترجمة ص 230 ـ 234)؛ ● النيفر، محمد، عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، بيروت 1996، دار الغرب الإسلامي، ج. 1/ 507 ـ 508؛ ● بيرم الثاني، محمد، شرح المنظومة فيمن ولي الفتوى على مذهب الإمام النعمان بتونس، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، (مجموع 5648)، ص 308؛ ● مجهول، مراثي أهل القرن الثاني عشر، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس (5093)؛ ● ابن الخوجة، محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، تونس 1939، ص 11 ـ 12، 103 ـ 104، 199؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ط 1، بيروت 1982، 1/ 122 ـ 126؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 7، بيروت 1986، دار العلم الملايين 1/ 103؛ ● أبو ذينة، محمد، مشاهير التونسيين، ط2، تونس 1992 ص 86.

- Abdessalam (Ahmed): Les Historiens Tunisiens, Tunis, 1973-1972. p. 183.

د. الكزاي القسنطيني
جامعة تونس

■ ابن البَرْهان، أحمد بن علي

(479هـ/1086م ـ 520هـ/1126م)

هو أحمد بن علي بن محمد الوكيل الحنفي ثمّ الشافعي عرف بابن البَرْهان بفتح الباء وسكون الراء، ولد ببغداد في 18 جمادى الأولى [كحالة، معجم المؤلفين، 6/ 22]، وذكر ابن العماد أنّه ولد في شوال قال: «وفيها أبو الفتح أحمد بن علي بن البرهان بفتح الباء الشافعي ولد ببغداد في شوال سنة تسع وسبعين وأربعمائة» [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 3/ 61]، وأيّد هذه الرواية السبكي [أبو نصر السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 31].

كان ابن البرهان فقيها وأصوليا ومحدّثا وكان متبحرا في الأصول والفروع. ورد في البداية

أنّه كان على المذهب الحنبلي ومنه انتقل إلى المذهب الشافعي قال: «أبو الفتح ويعرف بابن الحمامي تفقّه على أبي الوفاء بن عقيل وبرع في مذهب الإمام أحمد؛ ثمّ نقم عليه أصحابه أشياء فحمله ذلك على الانتقال إلى مذهب الشافعي» [الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، 12/ 194]. وقال الصفدي: «تفقه في صباه على مذهب أحمد بن حنبل على ابن عقيل؛ ثمّ تمذهب للشافعي، وقرأ على أبي بكر الشاشي والغزالي وألكيا الطبري [الصفدي، الوافي بالوفيات، 7/ 207 - 208] كان موصوفا بحدّة الذكاء، فهو لم يسمع شيئا إلاّ حفظه؛ جاء في الوافي: «وكان ذكيا، حاذق الذكاء، حفظة لا يسمع شيئا إلاّ حفظه» [م.س، 7/ 208].

حرص ابن البرهان على الاشتغال بالعلم والحفظ والتنقيح والتحقيق وحلّ ما خفي من المسائل واستخراج معانيها. قال الذهبي: «كان أحد الأذكياء بارعا في المذهب وأصوله» [سير أعلام النبلاء، 19/ 456 - 457]، وأشاد بذكائه وحفظه السبكي، قال: «كان حاذق الذهن عجيب الفطرة لا يكاد يسمع شيئا إلاّ حفظه وتعلّق بذهنه، ولم يزل مواظبا على العلم حتّى ضرب المثل باسمه» [الطبقات، 6/ 30].

وكرّر هذه المحاسن ابن العماد قال: «وكان ذكيا يضرب به المثل في حلّ الأشكال. قال المبارك بن كامل: كان خارق الذكاء لا يكاد يسمع شيئا إلاّ حفظه، ولم يزل يبالغ في الطلب والتحقيق وحلّ المشكلات حتّى صار يضرب به المثل في تبحره في الأصول والفروع، وصار علما من أعلام الدين قصده الطلاب من البلاد حتّى صار جميع نهاره وقطعة من ليله» [شذرات الذهب، 3/ 61 - 62].

أخذ ابن البرهان المذهب الحنبلي عن ابن عقيل وتحوّل إلى الشافعية فتتلمذ على أبي بكر الشاشي والغزالي وألكيا الطبري وسمع الحديث عن أحمد بن الحسين الكرجي، وابن البطر، والحسين بن أحمد النعالي، وعلي بن الحسين البزاز [الصفدي، 7/ 207 - 208]، وقرأ صحيح البخاري على يد أبي طالب الزينبي.

تولى ابن البرهان التدريس بالمدرسة النظامية مدّة وعزل منها دون أن تذكر كتب التراجم السبب رغم مكانة الرجل العلمية وكثرة تلامذته، قال السبكي: «وولي تدريس النظامية مدّة يسيرة، ثمّ عزل، ثمّ وليها يوما واحدا، ثمّ عزل ثانيا؛ وكانت الرحلة قد انتهت إليه، وتزاحم الطلاب على بابه» [م.س، 6/ 30]، وكذلك في الوافي [م.س، 7/ 208]، وحدّد ابن العماد مدّة تدريسه بالمدرسة النظامية بشهر واحد قال: «درّس بالنظامية شهرا واحدا» [شذرات الذهب، 3/ 61].

وذكر ابن خلّكان أنّه تولّى التدريس دون شهر، قال: «وليَ التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد دون شهر» [ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 1/ 99]. وذاعت شهرته بين الناس وصار إماما كبيرا من أئمة المسلمين، وكان أكثر وقته منشغلا بالتدريس، جاء في الوافي: «وكان الطلبة يقصدونه من البلدان إلى أن صار جميع نهاره وقطعة من الليل مستوعبا للأشغال وإلقاء الدروس» [م.س، 7/ 208]؛ ولكثرة انشغاله بالتدريس وحلّ المشكلات المطروحة

لم يجد وقتا للاستجابة لبعض مقترحات تلامذته؛ قال السبكي: «وحكي أنّ جماعة سألوه أن يذكر لهم درسا من كتاب الإحياء للغزالي فقال لا أجد لكم وقتا فكانوا يعيّنون الوقت فيقول في هذا الوقت أذكر الدرس الفلاني إلى أن قرّروا معه أن يذكر لهم درسا من الإحياء نصف الليل» [م.س، 6/ 31]. وفي الوافي: «وطلب منه درس في الإحياء للغزالي فلم يكن له وقت إلى أن سألوه أن يكون الدرس نصف الليل»، فأجاب [م.س، 7 / 208]. وعن وقت تدريسه قال السبكي: «يجلس من وقت السحر إلى وقت العشاء الآخرة ويتأخر أيضا بعدها» [م.س، 6/ 30]. وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاة ابن البَرْهان فمرّة يذكر حاجي خليفة في كشف الظنون أنّه توفي سنة 518 هـ، ومرّة أنّ وفاته كانت سنة 520هـ وقال الصفدي: «وتوفي ـ ابن البرهان ـ سنة ثماني عشرة وخمس مائة ودفن بباب أبرز كذا ذكر ابن النجار؛ وقال غيره توفي سنة عشرين وخمس مائة وهو فيما أظنّ الصحيح» [الوافي، 7/ 208]. وقال ابن العماد: «توفي سنة عشرين وخمسمائة كذا قاله ابن خلّكان والمعروف أنّه توفي سنة ثماني عشرة قيل في ربيع الأول وقيل في جمادى الأولى» [شذرات الذهب، 3/ 62]. ومع هذا الاختلاف يكاد يحصل الإجماع حول أنّ سنة وفاته هي سنة عشرين وخمسمائة ببغداد.

آثاره

أمّا عن تصانيفه فقد ذكرت لنا كتب التراجم مجموعة منها: الأوسط والوجيز ذكرهما السبكي في طبقاته [م.س، 6/ 30].

وأضاف ابن العماد عنوان البسيط، قال: «وبرع في المذهب وفي الأصول. وكان هو الغالب عليه وله فيه التصانيف المشهورة منها البسيط والأوسط والوجيز وغيرهما» [م.س، 3/ 61]. ونجد في «الأعلام» لكحالة عنوان «الوصول إلى الأصول»، قال: «من تصانيفه البسيط والوسيط الوجيز في أصول الفقه والوصول إلى الأصول» [معجم المؤلفين، 6/ 22]. وذكر حاجي خليفة كتاب الأوسط والوجيز والوصول إلى الأصول قال: «الأوسط في أصول الفقه للشهاب أحمد بن علي المعروف بابن البرهان الشافعي المتوفى سنة 518 هـ» [كشف الظنون، 1/ 201].

كما أورد كتاب الوجيز في الأصول، قال: «والوجيز في الأصول لأبي الفتح أحمد بن علي المعروف بابن البرهان الشافعي المتوفى سنة عشرين وخمسمائة» [م.س، مج 2 / 2001]. وذكر أيضا الوصول إلى علم الأصول قال: «والوصول إلى علم الأصول لأبي الفتح بن البرهان هو أحمد بن علي بن محمد الوكيل الشافعي المتوفى سنة عشرين وخمسمائة ذكره السيوطي في المزهر» [م.س، 2/ 2014].

المصادر والمراجع

● الذهبي، شمس الدين محمد (ت 748هـ)، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط، ط 8، مؤسسة الرسالة 1412هـ/ 1992م، ج 19؛ ● السبكي، أبو نصر تاج الدين (ت 771 هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تح. محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، ط 1، مطبعة عيسى

البابي، ج 3؛ ● ابن العماد، الحنبلي (ت1089 هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطباعة والنشر، ج 3؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل (ت 764هـ / 1362م)، الوافي بالوفيات، ط2، دار النشر بفيسبادن 1402هـ/ 1982م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج 7، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج6؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 1/ 173.

د. حزاث بوعلاّقي
جامعة الزيتونة - تونس

برهان الدين البخاري، محمود بن الصدر

(ت 570هـ / 1174 م)

ينسب إلى عائلة برهان (آل برهان) التركستانية، والتي أنجبت الكثيرمن العلماء في الفترة التي كان يسيطر فيها القرخانيون على بخارى من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر الميلاديين. وكان كلّ من والده الصدر الشهيد (الصدر السّعيد) تاج الدين أحمد، وجده الصدر الكبير برهان الدين عبد العزيز بن عمر، وعمه الصدر الشهيد حسام الدين عمر بن عبد العزيز وابنه صدر الإسلام طاهر بن محمود في طليعة العلماء في الفترات التي عاشوا فيها.

يذكر أفراد العائلة أنهم ينحدرون من سلالة سيدنا عمر رضي الله عنه. ولُقب محمود بن الصدر الشهيد بألقاب مثل «برهان الدين»، و«برهان الملة والدين»، لذا أطلق على العائلة «آل برهان الدين». وأطلق لقب «الصدر» على جميع أفراد هذه العائلة ذات النفوذ والتأثير في إدارة مدينة بخارى، شأنهم في ذلك شأن بقية علماء المذهب الحنفي الآخرين الكبار في بخارى وجميع ماوراء النهر.

قام السلطان السلجوقي سنجر - الذي قضى على سلطة القرخانيين في ماوراء النهر - بتزويج أخته لعبد العزيز بن عمر وهو جدّ برهان الدين البخاري. وفي عام 495 هـ/ 1102م عينه على رئاسة القضاء في بخارى، ومنحه لقب «الصدر». ويعتقد أنه، وبعد وفاة عبد العزيز بن عمر في أوائل القرن السادس الهجري الموافق لأوائل القرن الثاني عشر الميلادي، انتقل مقام الصدر إلى نسله من بعده. وقد استشهد خلفه وهو ابنه صدر الشهيد حسام الدين عمر بن عبد العزيز في عام 536 هـ/ 1141م في معركة قطوان التي انهزم فيها السلطان سنجر أمام القرخانيين. ثم انتقل مقام الصدر إلى أخيه تاج الدين (تاج الإسلام) أحمد بن عبد العزيز، والذي يعتقد

أنه توفي في الفترة الواقعة بين عام 551 هـ/ 1156م وعام 559 هـ/ 1163م. وبعد ذلك انتقل مقام الصدر إلى ابن أخيه صدر جيهان محمد بن عمر وذلك لفترة قصيرة من الزمن، وعند وفاته خلفه برهان الدين البخاري ابن عم تاج الدين أحمد.

ولد برهان الدين البخاري في ميرغنان. وتقدم المصادر معلومات مختلفة عن بعضها البعض فيما يتعلق بحياته، ويذكر كلٌ من كاتب ڤلبي، وإسماعيل باشا البغدادي، وبروكلمان ـ الذي يقدمه على أنه حفيد لصدر الشهيد عمر بن عبد العزيز ـ أنه توفي في عام 616 هـ/ 1219م. ومن جانب آخر يبيّن بروكلمان في أحد المواضع أنه توفي تقريبا في عام 570 هـ/ 1174م. وانتقل مقام الصدر بعد برهان الدين محمود إلى عبد العزيز بن محمد بن عمر.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن عبد العزيز توفي في عام 593 هـ/ 1196 م، فإن التاريخ الذي أعطاه بروكلمان وهو تقريبا عام 570م يكون الأقرب إلى الصواب. ويعود اللبس في هذا الموضوع، إلى جانب عدم كفاية المصادر التي تتعلق بحياة علماء المنطقة، إلى وجود علماء كثيرين عاشوا في الفترة نفسها يحملون لقب «برهان الدين»، وكذلك تأليفهم لكتب تحمل اسم «المحيط». وبالإضافة إلى ذلك تذكر بعض المصادر خطأ اسم برهان الدين محمود على أنه «محمد».

تلقى برهان الدين البخاري دروسه من أشهر أساتذة المدارس التي تأهل فيها عددٌ كبير من رجال العلم والتي تم تأسيسها من قبل كل من والده وجدّه. وتذكر بعض المصادر أنه درس على يد عمه صدر الشهيد عمر بن عبد العزيز. وبالإضافة إلى ذلك ذهب إلى مختلف المدن وعلى رأسها بخارى وسمرقند والتقى كبار علماء الفترة، ونهل من علمهم. وأصبح مرجعا في مجال الفقه بصفة خاصة. ويعتبر ابن كمال باشا البخاري «مجتهدا في المسائل». وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء يأتي في مقدمتهم ابنه صدر الإسلام طاهر بن محمود. وعمل برهان الدين البخاري في الإفتاء والقضاء.

آثاره

1 ـ المحيط، ويعرف كذلك بـ «المحيط الكبير»، و«المحيط البرهاني»، و«المحيط البرهاني في الفقه النعماني». وهو كتاب جمع فيه المسائل التي توجد في كتب الإمام محمد في المذهب الحنفي «المبسوط/ الأصل» والذي يعرف بـ «ظاهر الرواية»، و«الجامع الكبير»، و«الجامع الصغير»، و«السير الكبير والزيادات». وأطلق عليها «نادر الرواية» ثم أخرجها في «الواقعات» والذي احتوى على المسائل السابقة وأكمله من المعلومات التي تعلمها من والده. وينسب البعض خطأ الكتاب إلى الصدر الكبير برهان الدين عبد العزيز، بينما يخلطه البعض بكتاب «المحيط» لبرهان الإسلام رضي الدين السرخسي. مع أن كتاب «المحيط البرهاني» للبخاري معروف ضمن المؤلفات الحنفية، كما أن كتاب «المحيط الرضوي» أو «محيط السرخسي» لصاحبه السرخسي معروف أيضا.

وتوجد من الكتاب نسخ مخطوطة عديدة في مكتبة السليمانية [مثلا أنظر: جار الله، رقم

852 ـ 854، 856 ـ 858، 860 ـ 862؛ داماد إبراهيم باشا، رقم 656؛ الفاتح، رقم 2110 ـ 2118؛ يوزقاط، رقم 215 ـ 221]. وقام أحمد عزيف عناية الدمشقي بنشر نسخة دار الكتب الظاهرية [رقم 13670 ـ 13671] ـ المتكونة من أربعة مجلدات ـ في أحد عشر مجلدا (بيروت 1424/ 2003)؛ 2 ـ ذخيرة الفتاوى، ويعرف كذلك بـ «الذخيرة» و«الذخيرة البرهانية». وهو يمثل خلاصة «المحيط». وتوجد منه نسخ مخطوطة عديدة في مكتبة السليمانية [مثلا أنظر: جار الله، رقم 649، 650، 651؛ داماد إبراهيم باشا، رقم 692؛ الفاتح، رقم 2308 ـ 2310، 2311 ـ 2317؛ السليمانية، رقم 648؛ الجامع الجديد، رقم 613 ـ 618]؛ 3 ـ تتمة الفتاوى، جمع فيه فتاوى عمه عمر بن عبد العزيز وآراءه في مختلف المواضيع، وكان عمه قد استشهد قبل أن يتم ترتيب المؤلف. وجاء برهان الدين البخاري بعد ذلك ورتب هذه الفتاوى والآراء وأخرجها في شكل كتاب. وأضاف كذلك المسائل الجديدة التي تتعلق بجميع مواضيع الكتاب [مكتبة السليمانية، الفاتح، رقم 2278، 2279؛ جار الله، رقم 915؛ مهرشاه سلطان، رقم 103؛ الجامع الجديد، رقم 597؛ طرهان هـ. سلطان، رقم 165]؛ 4 ـ الوجيز في الفتاوى، [مكتبة السليمانية، جار الله، رقم 961؛ حميديه، رقم 615؛ حكيم أوغلى، رقم 432؛ الفاتح، رقم 2209]؛ 5 ـ نصاب الفقهاء، [مكتبة السليمانية، داماد إبراهيم باشا، رقم 733؛ الجامع الجديد، رقم 674]؛

بالإضافة إلى هذه المؤلفات، ذكرت المصادر كتبا أخرى لبرهان الدين البخاري هي: 6 ـ «شرح الجامع الصغير»، 7 ـ و«شرح الجامع الكبير»، 8 ـ و«شرح الزيادات»، 9 ـ و«الفتاوى»، 10 ـ و«الواقعات»، 11 ـ و«التجريد البرهاني»، 12 ـ و«الطريقة البرهانية».

المصادر والمراجع

● القرشي، عبد القادر، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، نشر محمد عبد الفتاح الحلو، القاهرة 1393 ـ 1399/ 1973 ـ 1979، III، 42؛ ● ابن قطلوبغا، تاج التراجم، نشر محمد خير رمضان يوسف، دمشق 1413هـ/ 1992م، 58، 218، 352؛ ● طاش كوبري زاده، موضوعات العلوم، استانبول 1313، I، 734، 739؛ ● كاتب ڤلبي، كشف الظنون، I، 11، 343 ـ 344، 345، 564، 568، 823؛ II، 963، 1619 ـ 1620، 1954، 1998، 2002؛ ● اللكنوي، عبد الحي، الفوائد البهية، القاهرة 2، 7، 24، 58، 98، 149، 189 ـ 191، 205، 1324؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، I، 430، II، 404؛ ● الزركلي، الأعلام، نشر زهير فتح الله، بيروت 1984، VII، 161؛ ● «آل برهان»، دائرة المعارف بوزرغي إسلامي، طهران 1367، I، 608 ـ 606؛

● Ahmet Özel, Hanefi Fikih Alimleri, Ankara 1990, p. 61-62; ● Omeljan

Pritsak, «Al-i Burhan», Der Islam, XXX/1, 1952, p. 81-96.

- M. Saghir Hasan Masumi, «Burhan al- Shariah's al- Muhit al-Burhani», Islam Tetkikleri Enstitüsü Dergisi, V/4 (Istanbul 1973), p. 65-73;
- Ali Öngül, «Burhan Ailesi», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1992, VI, 430-432;
- Mustafa Uzunpostalci, «Burhaneddin el-Buhari», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, VI, 435-437

د. أحمد أوزال
هيئة الموسوعة الإسلامية ـ اسطنبول/ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي
تونس

ابن برهان العكبري، عبد الواحد بن علي بن عمر

(ت 456هـ/ 1064م)

عبد الواحد بن علي بن عمر بن إسحاق بن إبراهيم بن برهان - بفتح الباء - أبو القاسم الأسدي العكبري النحوي، صاحب العربية واللّغة والتواريخ وأيام العرب، عالم بالأدب والنسب، قرأ على عبد السلام البصري وأبي الحسن السمسمي وسمع من ابن بطة معجم الصحابة للبغوي.

قال ابن ماكولا: وذهب بموته علم العربية من بغداد، وكان فقيها حنفيًا برع في علم الكلام وتقدّم فيه. وقال ابن الأثير عنه: له اختيار في الفقه، وله أنس شديد بعلم الحديث ولم يرو شيئا من الحديث. وثمّة من رأي أنّ ابن برهان العكبري، كان أوّل أمره منجما ثمّ صار نحويا، وكان حنبليا فتحول حنفيا، وكان يميل إلى مذهب مرجئة المعتزلة، ويعتقد أنّ الكفار لا يخلدون في النار.

وترد أكثر من إشارة إلى أنه كان يميل إلى المردان من غير ريبة إذ كان يقبلهم واحدا واحدا ويدعو لهم ويسبح اللّه، ولعلّه في موقفه هذا يعبّر عن فهم خاص للجمال الذي أودعه الخالق في مخلوقاته.

ولدينا أكثر من إشارة تذهب الى أنّ العكبري كان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس ولا يقبل من أحد شيئا.

قال الباخرزي عنه: "رأيته ببغداد سنة خمس وخمسين وأربعمائة شيخا باذ الهيئة، رث الكسوة، يمشي وقد شمل العري طرفيه، ونظم رأسه وقدميه، وقصدته زائرا، ولم أكن عهدته، فإذا أنا في باب المراتب بشيخ على ما وصفت فلم أشك أنّه ضالّتي المنشودة، فاقتفيت أثره الى مسجد اجتمع فيه تلاميذه ينتظرونه، وكمه أعجر بأجزاء النحو، فدخل

عليهم، وقاموا إليه، واستند إلى المحراب وتكلّم في العلم الذي لقب فيه والفن الذي عقد بنواصيه، والضرب الذي أحاط به من جميع نواحيه... وكان في نفسي أن أختلف إليه وأغترف مما لديه، فقامت العوائق تدفع في صدري الأماني والأسفار تسيرني سير السواني» [دمية القصر وعصرة أهل العصر].

وذكره محمد بن هلال، وقال: «لولا شراسة خلق كانت منه على من يقرأ عليه ويستمليه لكانت له آثار باقية وكتب مروية، لما كان فيه من الفضائل القوية».

قال عنه السيوطي: وكان زاهدا، عرف الناس منه ذلك، وإلاّ لكانوا رموه بالحجارة لهيئته، وكان يتكبّر على أولاد الأغنياء. وإذا رأى الطالب غريبا أقبل عليه؛ وكان متعصبا لأبي حنيفة، محترما بين أصحابه.

ويتّضح من خلال عدة أخبار عن ابن برهان العكبري، أنّه كان لا يقبل من أحد شيئا، فقد جاء أنّ الوزير عميد الدين قد ورد بغداد، واستحضر ابن برهان، فأعجبه كلامه، فعرض عليه مالاً فلم يقبله فأعطاه مصحفا بخط ابن البواب وعكازة حملت إليه من الروم مليحة فأخذهما. فقال له أبو علي بن الوليد المتكلم: أنت تحفظ القرآن وبيدك عصا تتوكأ عليها، فلم تأخذ شيئا فيه شبهة؟ فنهض ابن برهان في الحال الى قاضي القضاة ابن الدامغاني وقال له: لقد كدت أهلك حتّى نبهني أبو علي بن الوليد وهو أصغر سنّا منّي، وأريد أن تعيد هذه العكازة والمصحف إلى عميد الدين فما يصحباني، فأخذهما وأعادهما إليه. كان ابن برهان العكبري، إذا ذكر المتنبي يعظّمه، وهذا مؤشر على سلامة ذوقه الشعري وحسن فهمه وإدراكه للشعر الحقيقي، ولا غرو في هذا فابن برهان نفسه كان شاعرا وقد ذكر أبو الفرج الغندجاني شعرا له، منه هذه الأبيات من المتقارب:

أحِبَّتنا بأبي أنتمُ
وسُقيا لكم أينما كنتُمُ
أطَلْتُم عذابي بميعادِكم
وقلتُم نزورُ وما زرتُمُ
فإن لم تَجُودوا على عَبْدِكم
فإن المُعزَّى به أنتُمُ

وعرف عن ابن برهان أنّه كان يخرج من داره وقد اجتمع على بابه من أولاد الرؤساء جماعة فيمسي وهم معه، وينقي على ذا مسألة وعلى ذا مسألة.

وكان ابن برهان محبا للباذنجان ويقول في تفضيله: إنّ الناس يأكلونه ثمانية أشهر في العام، وهم أصحّاء، ولو أكلوا الرمان أربعة أشهر فلجوا. وورد عن ابن برهان قوله: لو كان علم الكيمياء حقا لما احتجنا الى الرسل والبريد.

ويبدو أنّ ابن برهان كان حريصا على متابعة أمور تلاميذه الذين يحضرون حلقته، إذ لدينا ما يفيد أنّ تلميذا له قد انقطع عن حلقته، فسأل عنه، فقيل له إنّ عميد الملك اعتقل والده فانحدر إلى باب المراتب فصادف الكندري جالسا فحين رآه أقبل عليه مسلّما، والناس من حوله فقال له ابن برهان: «فيك الخصام وأنت الخصم والحكم»، فوجم الكندري، وسأل عمن في حبسه، فأخبر بالرجل، وأن ولده يغشى مجلس الشيخ للاقتباس فأطلقه ووهبه ما كان عليه، وكان ثمانية عشر ألف دينار».

توفي ابن برهان العكبري بعد أن أناف على الثمانين، وكانت وفاته سنة ست وخمسين وأربعمائة، ودفن في مقبرة الشونيزي.

آثاره

لم يصلنا من أسماء كتب ابن برهان إلاّ بعض العناوين هي: 1 ـ الاختيار، في الفقه؛ 2 ـ أصول اللّغة؛ 3 ـ اللمع، في النحو.

المصادر والمراجع

● الباخرزي أبو الحسن علي (ت 467هـ)، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ط 1، حلب 1348/ 1930، المطبعة العلمية، ص 309؛ ● ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ)، المنتظم في تاريخ المملوك والأمم، ط 1، 1358هـ، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 8/ 237؛ ● ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، بيروت، 1386هـ/ 1966 م، دار صادر، دار بيروت، 1/ 43؛ ● ابن حجر، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت 852 هـ)، لسان الميزان، ط2، 1390هـ/ 1971 م، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية / حيدر آباد الدكن، 4/ 82؛ ● ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي (ت 1089 هـ) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط2، بيروت 1979، دار المسيرة، 3/ 297؛ ● السيوطي جلال الدين بن عبد الرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللّغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، د.ت، المكتبة العصرية، ج2؛ ● الكتبي، محمد بن شاكر (ت 764 هـ)، فوات الوفيات والذيل عليها، تح. إحسان عبّاس، بيروت، دار الثقافة، 2/ 416؛ ● الذهبي، أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح. علي محمد البجاوي، ط 1، القاهرة 1963 م، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 2/ 675؛ ● الزركلي، الأعلام، 4/ 176؛ ● ابن القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1952 م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 176.

د. نجمان ياسين
جامعة الموصل ـ العراق

البرهانبوري، محمد بن يار محمد

(1041هـ / 1631م ـ 1110هـ / 1698 م)

هو محمد بن يار محمد بن خواجه محمد بن موهب البخاري ثم الهندي البرهانبوري المولد والدار، فقيه حنفي المذهب، متصوف، نقشبندي الطريقة، دار البلاد شرقا وغربا ورجع إلى بلده. ولد سنة 1041هـ / 1631 ـ 32م، وتوفي في حدود سنة 1110هـ / 1698م.

آثاره

1 ـ ترغيب الحسنات وترهيب السيئات، في الحديث؛ 2 ـ جامعة الدلائل شافعية لمذهب الحنفية؛ 3 ـ خلاصة الرسائل، في فضائل مكة؛ 4 ـ خلاصة السير، في التاريخ؛ 5 ـ رسالة في الحج والعمرة؛ 6 ـ الرسالة الكاشفة لهيئة الأراضي والسماوات بالأحاديث والآيات الواضحة؛ 7 ـ زبدة عقائد الإسلام، في شرح تهذيب المنطق والكلام، شرح القسمين الأخيرين؛ 8 ـ شرح الإرشاد، في النحو؛ 9 ـ شرح أشكال التأسيس؛ 10 ـ عطية الأحباب الفاصلة بين الحق والصواب، في الرد على المعترض على الشيخ أحمد الفاروقي؛ 11 ـ عمدة الوصف في الصلاة خلف المخالف؛ 12 ـ فائض المنيبين في السلوك والحقائق؛ 13 ـ الفوائد السنية في بيان الأمور الدنيوية والأخروية؛ 14 ـ الفوائد الفاخرة في بيان أحوال الدنيا والآخرة؛ 15 ـ مراد المقصود في دفع شبهات وحدة الوجود؛ 16 ـ مفرح القلوب، في الآداب والسلوك؛ 17 ـ مناسك الحج وبيان حقيقة المكة والمدينة، وغير ذلك.

المصادر والمراجع

- المحبي، خلاصة الأثر، 4/ 110 ـ 111؛ • البغدادي، هدية العارفين، 2/ 306؛ • م.ن، إيضاح المكنون، 1/ 282؛ • معجم المؤلفين، 11/ 130؛ • الزركلي، الأعلام، ط. 14، دار العلم للملايين، ط. 14، بيروت 1999، 7/ 135؛ • أسعد طلس، الكشاف، 279، 283؛ • فستنفلد في كتابه عن الصوفية.
- Brockelmann: 9,11/418, s 11/617.

د. جلال السعيد الحفناوي
جامعة القاهرة ـ مصر

ابن بري، أبو الحسن علي بن محمد

(660هـ/1261م ـ 730هـ/1330م)

أبو الحسن علي بن محمد بن الحسين المغربي الرباطي، نسبة إلى رباط تازة، مدينة بالمغرب. وهو مقرئ، فقيه، نحوي، عروضي، كاتب بليغ، بارع الخط. تَسُولي النسب. ولد بتازة حوالي 660هـ / 1261 م، ونشأ بها، وقرأ على علمائها، كأبي الربيع بن حمدون، وأبي الحسن بن سليمان القرطبي، ومالك بن المرحل، وغيرهم.

تولى خطة العدالة والتوثيق بتازة، ثم ألحقه السلطان أبو سعيد المريني بديوانه بفاس، فتولى رئاسة ديوان الإنشاء في حدود سنة 715 هـ وجعله كاتب ولده أبي الحسن، وأستاذه الخاص، فبقي معه إلى أن أدركته المنية بتازة في شوال. وقيل إن سبب ذلك أن تلميذه عيسى الترجالي عيّن قاضيا برباط تازا، فشق عليه أن يرى أستاذه يتردد إليه لأداء الشهادة، فنمى أمره إلى السلطان، فنقله إلى ديوان الإنشاء بفاس.

وتصدّر للإقراء والتدريس بجامع القرويّين بفاس، وروى القرآن والقراءات عنه وعن جمع منهم أبو الحجاج يوسف المكناسي، وعبد المهيمن الحضرمي، ومحمد بن الحاج البلفيقي، والشريشي معاصره وأول شارح لمنظومته الدرر اللوامع.

أثر في علم القراءات بقصيدته الدرر اللوامع مما زاد في ترسيخ قراءة نافع في الغرب الإسلامي حتى يومنا هذا. وقد نالت من الشهرة وبُعد الصيت في الغرب الإسلامي ما لم ينله كتاب آخر في القراءات، وكانت وما زالت محط الدراسات والأبحاث.

آثاره

1 ـ الدرر اللوامع في أصل مقرأ نافع، أرجوزة في مائتين وثلاثة وسبعين بيتا مطلعها: «الحمد لله الذي أورثنا كتابه، وعلمه علمنا». ضمنها قراءة نافع من روايتي ورش وقالون، وبيّن الخلاف والاتفاق بينهما في الأصول والفروع، وأورد فيها الحجج مع الاختصار وسهولة العبارة. نظمها سنة سبع وتسعين وستمائة (697 هـ)، وتلقاها عنه تلاميذه، وبدأت الشروح تتوالى عليها في الغرب الإسلامي، حتى وصلت شروحها والتعليقات عليها أكثر من خمسين. منها: * القصد النافع لبغية الناشئ والبارع في شرح الدرر اللوامع، لمعاصره وتلميذه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الشريشي الخراز (ت 718هـ)، وقد حققت في رسالة جامعية في كلية الآداب بالرباط 1416/ 1995؛ * شرح شعيب بن أبي مدين المجاصي وضعه سنة 727 هـ، وهو من أحسن شروحها، بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 3719، طبع بتحقيق التلميذي بن محمود بدار الفنون بجدة؛ * الوجيز النافع في شرح الدرر

اللوامع لابن مسلم القصري من تلامذة ابن بري (ت 773هـ)؛ * إيضاح الأسرار والبدائع، وتهذيب الغرر والمنافع في شرح الدرر اللوامع، لمحمد بن عمران السلاوي المعروف بابن المجراد (ت 778هـ)، يوجد في الخزانة العامة بالرباط؛ * المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع لعبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري (ت875 هـ) ط6، بالمطبعة الثعالبية بالجزائر 1324 هـ، في نحو 150 صفحة؛ * الأنوار السواطع على الدرر اللوامع للشوشاوي (ت 899 هـ)؛ * تحصيل المنافع من كتب الدرر اللوامع ليحيى بن سعيد السملالي (ت 962 هـ) وهو مختصر مفيد يوجد في الخزانة العامة بالرباط رقم 870 د؛ * الفجر الساطع والضياء اللامع في شرح الدرر اللوامع لابن القاضي (ت 1082 هـ) بفاس وهو أوسع الشروح، يوجد في الخزانة الحسنية بالرباط رقم 2965، 4481، وفي الخزانة العامة بالرباط رقم 989 ق؛ * النجوم الطوالع على الدرر اللوامع شرح إبراهيم المارغني رئيس المجوّدين بالزيتونة بتونس (ت 1349هـ / 1930 م) مطبوع في مجلد بالمطبعة التونسية 1354هـ، وهو أكثر الشروح شهرة؛ * شرح المنتوري محمد بن عبد الملك القيسي (ت 834 هـ) وقد حقق في رسالة جامعية بكلية الآداب بالرباط 1992م؛ * شرح علي بن محمد القلصادي (891 هـ)؛ * معونة الصبيان على الدرر اللوامع لسعيد بن الحاج الجزولي (ت 882 هـ) حقق في رسالة جامعية بكلية الآداب بالرباط 1414هـ/ 1994م؛ * شرح الحسن بن أحمد الدرعي (ت 1006 هـ)؛ * شرح أبي الحسن السجلماسي (ت 1054)؛ * الجامع في شرح الدرر اللوامع لمسعود بن جموع (ت 1119هـ)؛ * شرح إبراهيم التادلي الرباطي (ت 1311 هـ)؛ * إتحاف الطالب القانع بفهم معنى النظم المسمى بالدرر اللوامع للعرائشي المكناسي (ت 1351) ط. بالمطبعة الحجرية بالمغرب في ثلاث وأربعين ورقة؛ * إرشاد القارئ والسامع لكتاب الدرر اللوامع لأحمد بن الطالب إدوعيشي الشنقيطي (ت 1257)، وهو أكثر الشروح انتشارا بموريتانيا؛ * المقبول النافع على الدرر اللوامع لمحمد أحمد بن الطالب أعلى الشنقيطي (ت 1978)، حقق في رسالة جامعية بكلية الآداب بالرباط، ولها شروح أخرى بعضها هيئ للطبع؛ 2 ـ أرجوزة في مخارج الحروف، في 30 بيتا. وهي ذيل أرجوزة الدرر اللوامع، يوجد في القرويين بفاس رقم 1574؛ 3 ـ القانون في روايتي ورش وقالون، مختصر؛ 4 ـ مختصر شرح الإيضاح المسمى بالافصاح لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد (ت 688 هـ)؛ 5 ـ الكافي في علم القوافي؛ 6 ـ شرح وثائق الغرناطي؛ 7 ـ وثائق مختصرة؛ 8 ـ شرح تهذيب البرادعي، في الفقه، لم يكمله؛ 9 ـ شرح عروض ابن السقاط؛ 10 ـ اقتطاف الأزهار واجتناء الثمار، وهو اختصار لكتاب زهر الآداب للحصري؛ 11 ـ اختصار الشريشي على المقامات.

المصادر والمراجع

● مقدمات شروح أرجوزته؛ ● الإسحاقي، الرحلة، مخ. بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 4497؛ ● التنبكتي، أحمد بابا،

كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج، 269 ـ 270، رسالة جامعية حققها محمد مطيع، مرقونة في كلية الآداب بالرباط 1987 رقم ج 172 ـ 922 مطي؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، بغداد (د.ت)، مكتبة المثنى، 1/ 468؛ ● م.ن، هدية العارفين، بغداد (د.ت)، مكتبة المثنى، 1/ 416، وفيهما وفاته (709 هـ)؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1376هـ/ 1957م، مطبعة الترقي، 7/ 220؛ ● الزركلي، الأعلام، ط14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 5/ 5؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط. العربية، 1/ 96؛ ● أعراب، سعيد، القراء والقراءات بالمغرب، 22 ـ 23.

د. فاروق حمادة
جامعة محمد الخامس
الرباط ـ المغرب

ابن برّي، أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش

(499هـ/ 1106م ـ 582هـ/ 1187م)

أبو محمد عبد الله بن أبي الوحش بن عبد الجبّار بن برّي المقدسي المصري، لغويّ، نحويّ. ولد ونشأ وتوفّي بمصر. لا تذكر المصادر شيئًا عن نشأته، ويورد لسان العرب في مادّة «رمث» قصّة منسوبة إلى ابن برّي، مفادها أنّه أقبل على التمكّن من العربية عندما بلغ الخامسة عشرة بطلب من أبيه، الذي كان كتبيًا، لأنّ بعض من يجالسه ضحك منه لارتكابه لحنا في بيت شعر، وقد تتلمذ على أبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني النحوي، فقرأ عليه كتاب سيبويه، وقد يكون عرف ابن القطاع وسنّه إذ ذاك ستّ عشرة سنة، فسمع منه شيئا من معجم الصّحاح للجوهري، وقد يكون أيضًا أخذ عن محمد بن بركات بن هلال السعدي، وهو من النحاة واللغويين المعروفين في عصره، وقد خلفه في ديوان الإنشاء، واضطلع بخطّة «التصفّح» أي مراجعة الرسائل وإصلاح ما قد يكون فيها من خلل، ولم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين من عمره، ويشير السيوطي إلى أنّ أبا طالب عبد الجبّار بن محمد بن علي المعافري القرطبي كان «شيخه» [بغية، 26/ 72].

ولم يمض وقت طويل حتّى تصدّر للإقراء بجامع عمرو بن العاص، فأقبل عليه عدد كبير من الطلاّب، واشتهر حسب ما تشير إليه المصادر بمعرفته بكتاب سيبويه وغيره من الكتب النحويّة، وعلمه باللغة والشواهد. وقد تتلمذ عليه عدد من أعلام النحو في النصف الثاني من القرن السادس والنصف الأوّل من القرن السابع، ومنهم: أبو موسى الجزولي

صاحب المقدّمة في النحو والعروض والشعر والأخلاق، ويحيى بن عبد الله بن يحيى أبو الحسن الأنصاري، وقد برع في لسان العرب، وخلف ابن بري في «التصفّح بديوان الإنشاء»، وعبد المنعم بن صالح بن أحمد القرشي الاسكندري. ويقال إنّه كان ذا غفلة، و«يحكى عنه حكايات عجيبة» في ذلك [بغية، 2/ 34]، ورغم تعلّقه بالفصاحة يبدو أنّه كان لا يتقيّد بالإعراب.

آثاره

يعتبر القفطي «قليل التصنيف»، والواقع أنّ المصادر لا تذكر له أكثر من سبعة كتب، وجلّها مرتبطة بمصنّفات بعض أعلام اللغة والنحو من السلف، وهي من قبيل الإضافات والحواشي أو الردّ، وهذه المصنّفات هي:

1 ـ كتاب التنبيه والإيضاح عمّا وقع في الصحاح، تح. مصطفى حجازي، ومراجعة علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، وهذا الكتاب معروف بحواشي ابن برّي ضمّنه مؤلفه ملاحظاته واستدراكاته على «صحاح» الجوهري. فنسب الشواهد، وضبط الغريب، وفسّره . . . وقد ذكر السيوطي نقلا عن الصفدي أنّ ابن برّي لم يكمل حواشيه، وإنّما وصل فيها إلى مادّة «وقش»، ولا يمثّل ذلك إلاّ ربع الكتاب، ويعتبر محقّق هذا الكتاب أنّ ابن برّي أتمّ تصنيفه معتمدا على أن القفطي ذكر أن الكتاب جاء في ستة مجلدات، وعلى أن ما نقله ابن منظور عنه في لسان العرب يتجاوز هذه المادة، وأنّها تستمرّ في كلّ اللسان إلى جزئه الأخير (مقدّمة المحقّق وما بعدها)، ويمثّل هذا الكتاب أحد المصادر الخمسة التي اعتمدها ابن منظور في معجمه؛ 2 ـ اللباب في الرد على ابن الخشاب، نشر بعنوان الاستدراكات على مقامات الحريري وانتصار ابن برّي، إستنبول 1328 هـ، كما نشر ملحقا بالمقامات بالقاهرة 1326هـ؛ 3 ـ كتاب غلط الضعفاء من الفقهاء، نشره Studen Th. Woldeke Gewidmet I. Giessen, 1906 في ch. C. Torrey؛ 4 ـ حاشية على المعرّب وكتاب التكملة في ما تلحن فيه العامّة للجواليقي، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق؛ 5 ـ شرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي، حقّقه في رسالة لنيل الدكتوراه عبد مصطفى درويش بكليّة دار العلوم؛ 6 ـ جواب المسائل العشر. وهي التي سأل عنها أبو نزار الذي عرف بملك النحاة، وقد أثبتها السيوطي في «الأشباه والنظائر»؛ 7 ـ حاشية على درّة الغواص على أوهام الخواص للحريري (مخطوط)؛ 8 ـ الأخبار في اختلاف أئمّة الأمصار؛ 9 ـ وكان ابن برّي يقرض الشعر، ويبدو أنّه اعتمده أحيانا ليستعرض مختلف المعاني التي تفيدها لفظة ما، وقد ذكر له ابن منظور في مادة «حول» عشرة أبيات تختم كلّها بكلمة «حال»، كما ذكر له في مادّة «خبل» ثلاثة عشر بيتا تختم كلّها بكلمة «خال».

المصادر والمراجع

● ياقوت، معجم الأدباء، ط. دار المأمون؛ ● القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، دار الكتب، القاهرة 1371هـ/ 1952م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، مطبعة القاهرة، الوحدة؛ ● الذهبي، العبر في أخبار من غبر، ط. الكويت؛ ● ابن حجر، تبصير المنتبه،

مصر، 1964، نشر وزارة الثقافة؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1384هـ / 1965م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، مكتبة المثنى، بغداد؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون، منشورات مكتبة المثنى، بغداد؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 4؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، مج 1، ص 365، الملحق 1، ص 529؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط. ج، مج 3؛ ● شوقي ضيف، المدارس النحوية، مصر 1968م، دار المعارف؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 73 - 74.

د. إبراهيم السامرائي
جامعة بغداد ـ العراق

■ البريفكاني، نور الدين بن الشيخ عبد الجبار

(1205هـ / 1790م ـ 1268 هـ/ 1852 م)

نور الدين بن الشيخ عبد الجبار من أولاد شمس الدين الخلوتي، يعود نسبه إلى الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، ولد بقرية بريفكان في منطقة دهوك في شمال العراق سنة 1205هـ / 1790م. ويلقب بالغوث والقطب والوارث المحمدي، وهو من أكابر الشيوخ المعروفين في العراق بعد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وقد عرف الشيخ نور الدين بأنه صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الخارقة والإشارات العلية، وهو من أئمة السادات القائمين بالسنة وأحكام الدين، انقاد إليه كثيرون من الصلحاء والعلماء ومحبي طريقة التصوف في العراق، ويذكر أنهم بلغوا الآلاف، وكانت له المهابة والمكانة الكبيرة في نفوسهم والمسؤولين في عصره.

درس الشيخ نور الدين العلوم الإسلامية منذ صغره وتتلمذ على أئمة الشيوخ في عصره وحفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة من عمره، وكان كثير التنقل في قرى ومدن شمال العراق وخاصة الموصل، وأربيل، والعمادية للحصول على العلوم والمعارف وزيارة الشيوخ.

ويذكر أنه أخذ الإجازة بالعلوم من ثلاثة علماء هم: الشيخ يحيى المزوري، والشيخ إسلام الشوشي، والشيخ يونس الكردي. ويذكر الشيخ نور الدين عن نفسه قوله: إنه أخذ الإجازة العلمية من العلامة يحيى المزوري في علوم التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والنحو والصرف وعلم المنطق وعلم الكلام، وإن أستاذه قال له بعد أن وجد فيه علمًا وصدقًا وحسن سلوك: يا نور الدين اذهب ودرّس واقض بين الناس بالاجتهاد

واعمل باجتهادك، فأنت عالم من الأعلام.

وبعد أن اكتملت علوم الرجل ومعارفه كان يسعى إلى معرفة التصوّف وسلوك مسالك الصالحين، فذهب إلى الموصل وتتلمذ على يد الشيخ الجليل محمود بن عبد الجليل الخضري (ت 1231 هـ) المعروف بالولاية والكرامات وقد أعجب به، ثم أجازه وأعطاه خلافة القادرية والرفاعية، وبعد ذلك عاد الرجل إلى ناحية بريفكان ليقوم بعمارة تكية (مدرسة) جده الشيخ شمس الدين، وبقي هناك سنين طوالا متفرّغا للتدريس وتربية المريدين والاعتكاف لله تعالى مع ملازمة الصوم أو الخلوة وقيام الليالي، وقد فتح الله تعالى له مما يطول وصفه، وتاب على يديه آلاف المذنبين، ووصل إلى مدرسته الكثير من السالكين وعلماء التصوّف من الهند وأفغانستان وبلاد الشام، إضافة إلى مدن العراق الوسطى والجنوبية.

وللشيخ نور الدين الكثير من القصائد باللغة العربية والكردية والفارسية. ويذكر أنه كان يعرف العديد من اللغات، وكان يخاطب بها الكثير من طلاب التصوف الذين كانوا يأتون إليه من بلدان إسلامية عديدة، وقد شاهده بعض طلابه يتحدث الأفغانية.

وقد بقي الرجل قرابة الأربعين عامًا يعمل بجد وإخلاص في خدمة الإسلام وتربية المريدين في مدرسته في بريفكان حتّى وافاه الأجل سنة 1268هـ / 1852 م، ودفن بنفس قريته، وقبره معروف ويزار اليوم من قبل الكثيرين.

آثاره

ومن أهم آثاره العلمية الأخرى نذكر الكتب والرسائل التالية:

1 ـ إبراز دقائق الحقائق؛ 2 ـ البدور الجلية في التصوّف؛ 3 ـ بهجة السالكين؛ 4 ـ الجوهر المكنون؛ 5 ـ رسالة آداب الخلوة والسلوك؛ 6 ـ رسالة في حكم الدخان؛ 7 ـ كتاب الديوان العربي وقد اشتمل على جميع قصائده مع بعض شروحاتها باللغة العربية؛ 8 ـ الديوان الكردي، ضمّ قصائده باللغة الكردية؛ 9 ـ الديوان الفارسي، ضمّ القصائد باللغة الفارسية.

المصادر والمراجع

● البريفكاني، نور الدين، مرام الإسلام؛
● الحبار، الشيخ حسن، فيض الجمال؛
● العمري، الخطيب، غاية المرام في محاسن بغداد دار السلام؛ ● السامرائي، الشيخ يونس، تاريخ الطرق الصوفية؛
● محمد، عبد الصمد صوفي، الدرر المبين في مآثر الشيخ نور الدين البريفكاني.

د. دريد عبد القادر نوري
جامعة الموصل ـ العراق

ابن بريق، أبو حفص

(ق 4 هـ/ق 10م)

أبو حفص عمر بن بريق، لا نعرف شيئًا عن نشأته، إلا أنّ سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل، يشير إلى أنّه كانت له رحلة إلى القيروان، حيث لازم طبيبها المشهور أبا جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد الجزار (ت 369هـ/ 980م) لمدّة ستة أشهر، درس خلالها على يديه الطب، واطّلع على كتابه الموسوم «زاد المسافر وقوت الحاضر»، وهو كتاب في الطب والعلاج والمفردات. وعند رجوعه إلى الأندلس، أخذ معه هذا الكتاب، الذي أصبح من الكتب الطبيّة الشهيرة في الأندلس، وحُفظ من الضياع هناك، لا سيّما بعد أن تمّت ترجمته فيما بعد إلى اللغة العبرية من قِبل موسى بن طيبون بعنوان: «تزداد دارشم». وقد نشرت حول هذا الكتاب دراسات متعدّدة في الوقت الحاضر [ينظر مدخل القيرواني، ابن الجزار].

اشتهر ابن بريق بعد عودته إلى الأندلس، وعُرف بنبله وفضله، وخدم بالطب الخليفة عبيد الرحمن الناصر لدين الله (300 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م). وكان على اتّصال بكبار رجالات القصر والدولة، أمثال نجم بن طرفة، الذي كان يتولى منصب صاحب البيازة. وقد شاركه الأخير في أعماله، واستخلصه لنفسه، ممّا يدل على قوّة علاقاته في المجتمع القرطبي آنذاك. وقد اتّخذ ابن بريق من داره في قرطبة Cordoba عيادة له، ومحلاً لمعالجة المرضى ووصف الدواء لهم. وكانت هذه العيادة من الاتّساع، بحيث يقوم على خدمتها ستّة عشر صبيًا من فتيان الصقالبة التابعين له. وفضلا عن ممارسته للطب، فقد كان ابن بريق قارئا للقرآن الكريم، مطرب الصوت، لكنه لم يُعمر طويلاً، وتوفي في خلافة الناصر لدين الله.

المصادر والمراجع

● ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد سيد، القاهرة، نشر المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص107؛ ● صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، تح. حياة العيد بو علوان، بيروت، دار الطليعة، 1985، ص189؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1965، ص490 ـ 491، وقد تصحّف اسمه لديه إلى عمر بن جعفر بن بريق.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

البريكان، محمود داود سليمان

(1350هـ/1931م - 1421هـ/2002م)

ولد الشاعر محمود داود سليمان البريكان عام 1931م في قضاء الزبير، من مدن البصرة جنوبي العراق، وتعلّم في مدارسها الثانوية، ثم انتقل إلى بغداد ليدرس القانون في كلية الحقوق التي تركها عام 1949م، وعمل أثناء الدراسة مدرّسا، كما سافر إلى الكويت عام 1953م ليعمل في التعليم خمس سنوات، حيث عاد ليتم دراسته في الحقوق، ويعمل مدرسا للغة العربية في بغداد، ثم يستقرّ نهائيا في البصرة عام 1967م مدرسًا في معهد المعلّمين بالبصرة التي لم يفارقها حتّى وفاته مقتولا في حادث سطو على منزله مطلع آذار (مارس) عام 2002م.

بدأ البريكان الكتابة مع الجيل المعروف بالشعراء الرواد في العراق أواخر الأربعينات، وبذلك عاصر أهم حلقات التجديد في الشعر العراقي والعربي الحديث، وقد ربطته بالرواد علاقة وثيقة لا سيما بابن مدينته بدر شاكر السياب الذي وصف البريكان بأنه شاعر عظيم لكنه مقل وزاهد في النشر، رغم معايشته لأحداث ساخنة في حياة العراق السياسية، ومساهمته في الشعر الوطني عامَيْ 1947، 1948م وما بعدهما بما نشر في صحف بغداد والبصرة التي أصدر فيها عددًا واحدًا من مجلّة «الفكر الحي». كما كتب في الخمسينات قصائد حرة طويلة لعلّ أشهرها «أسطورة السائر في نومه» وفتح الباب لشعراء عديدين لكتابة هذا النوع من الشعر ذي الطابع الدرامي القصصي. وحافظ في قصائده على الأوزان متعدّدة التفعيلات، وعلى القوافي المتغيّرة. وهي طريقة اعتمدها منذ كتابة قصائده الحرّة الأولى التي تعد من بدايات الشعر الحر في العراق.

يوصف البريكان بأنه الصامت الكبير في الشعر العراقي، إذ لا نجد له ديوانا منشورا طيلة حياته، وتوقف عن النشر كلّيا عام 1970م. لكنه ظل يكتب الشعر بالطريقة ذاتها، مؤكّدًا أسلوبه الخاص في عرض الفكرة دون تقيد بحدود البيت الشعري، متّجها في مرحلة لاحقة إلى القصائد المكثفة التي تعتمد الجملة الشعرية، ولا تلتزم السطر الشعري المألوف، رغم التزامه بالبحور الشعرية التي لا ينصاع لموسيقاها الوزنية، كما يخفّف من تكرار القوافي لصالح تأملاته التي تركزت في قضية الوجود الإنساني، والموت الذي يتهدّد البشر وحياتهم وحضارتهم في المرحلة الثانية من شعره الممتدّة من 1958 - 1969م التي تلت بداياته الأولى بلور البريكان صورة «حارس الفنار» المطل على العالم من معزله أو منفاه، لكنه يبصر حركة الأشياء والناس، ويرصدها منتظرًا ما أسماه «الزائر المجهول» الذي يجيء فجأة فلا تظل سيادة إلا للأرياح التي يقول الشاعر: إنها «سيدة الفراغ»:

سقطت فنارات العوالم الرياح
هي بعد سيدة الفراغ
وكل متجه مباح

وقد نشرت بعض قصائد تلك الفترة في مختارات جمعت من الصحف والمجلات. وفي أوائل التسعينات نشر الشاعر ثماني عشرة قصيدة مؤرّخة بين عامي 1970، 1992م تحت عنوان مشترك هو «عوالم متداخلة» موحيًا بفكرة التعدّد ضمن وحدة النص، فالعوالم تشير إلى التعدّد والتفتّت، لكن تداخلها يمنحها وحدة عضوية وبنائية تظهر في سماتها الموضوعية والفنية.

وفي هذه المجموعة تظهر فكرة الذكرى والنسيان، فالعوالم التي تصورها القصائد، تتغلّب على النسيان بالذكرى، وكأنها تهيّئ مسرحًا لبدء الحياة ونهاية الإنسان الذي يموت في غيبوبة الذكرى، محاطًا بأساطيره ومعتقداته وأحلامه ومخاوفه.

لقد صرح الشاعر في مقابلة معه بأنه ينحاز إلى «الشعر العميق الذي يبدو مشحونًا بالفكرة غير أنه في الواقع يتقيّد بحرارة خاصة. ويحمل من الإحساس أكثر مما يسمّى في العادة شعرًا عاطفيًا».

وطريقة البريكان التي لخصها في قوله الآنف كانت وراء أثره الواضح في شعراء الأجيال التالية له، فهو يستعين بالسرد وعناصره المكانية والزمانية لتوصيل فكرته، مهدئًا موسيقى قصائده، مستفيدًا من خبرة واضحة واطلاع واسع على الموسيقى العالمية التي دأب على الاستماع لها، وامتلك معرفة واسعة بها، حتى أنه ترك مخطوطا بين أوراقه حول الموسيقى وعلاقتها بالفنون الأخرى وفي مقدمتها الشعر.

أما نزعته للسرد في قصائده، فتتمثّل في اختيار الأمكنة وإسقاط الوعي والشعور بها، بعد تأمّل أثر الزمن فيها، وما يخلفه وجود الانسان فيها كذكرى من الماضي، مثل لقطاته الذكية المستلّة من مسرح مهجور، أو كهف منعزل، وغرفة فارغة وصفها بقوله:

غرف تسبح فيها ذرات غبار لا مرئي
ذرات عوالم قبل العالم
وزمان قبل زمان الذكرى

وبهذا حقق البريكان لقصائده عمقًا تأمليًا لم يسلبها فنيتها وموسيقاها، بل زادها متعة وجاذبية.

آثاره

- الرقص في المدافن، قصائد، مخطوط.

حاتم الصكر
جامعة صنعاء - اليمن

بريلوي، سيد أحمد شهيد

(1201هـ/1786م ـ 1247هـ/1831م)

هو سيد أحمد بريلوي الشهير باسم سيد أحمد شهيد، ولد بقرية «راي بريلي» من أعمال لكهنو في غرة سنة 1201هـ / 1786م من أسرة كريمة، اشتهرت بالعلم والتقوى، وينتهي نسبها إلى سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما، ولم تتجه نفسه إلى التعليم برغم حرص والده ومعلميه على تعليمه، حتى إذا توفي والده وهو في السابعة عشرة من عمره ترك بلدته، وسافر إلى لكهنو، وانخرط في سلك الجنود عند أحد الأمراء المسلمين.

رحل إلى دهلي عندما بلغ الثامنة عشرة، وتتلمذ على شاه عبد العزيز الفقيه الإسلامي المشهور، وابن شاه ولي الله الذي يطلق عليه لقب «شمس الهند». وكان شاه عبد العزيز يحاول جاهداً أن ينشر تعاليم أبيه، ويشجع الحركة الفكرية التي كان قد بدأها في القرن الثامن عشر، والتي تهدف إلى إصلاح المجتمع الإسلامي على أساس المبادئ الاجتماعية والاقتصادية الإسلامية، على أن سيد أحمد بريلوي نجح في طبع هذه الحركة بالطابع السياسي، وعمل على تحقيق استرداد أو استعادة الحكم الإسلامي في الهند الذي بدونه لا يستطيع المجتمع الإسلامي أن ينتظم في اتساق مع مبادئ الإسلام.

وحوالي سنة 1225هـ انضم سيد أحمد بريلوي إلى جيش نواب أمير خان بنداري، وعندما تقرر حل جيش نواب أمير خان بعد معاهدته مع بريطانيا التي جعلت منه حاكماً مستقلاً على إمارته تحت السيادة البريطانية اتجه سيد أحمد بريلوي إلى دهلي، ومن هناك بدأ حركته الإصلاحية، ونجح في أن يجذب حوله عدداً كبيراً من الأتباع المخلصين له ولحركته الإصلاحية. ويبدو أن سيد أحمد بريلوي كان مفكراً أكثر منه كاتباً، إذ إن أفكاره الإصلاحية وردت في كتاب «صراط مستقيم». فهو يرى من اللازم أن يعيش الإنسان عيشة فاضلة تتفق مع قانون الإسلام، ونهج القرآن، وعبادة الله وحده، والتوجه إليه تعالى مباشرة وبدون وساطة بشرية، وكذلك دعت هذه الأفكار التي نادى بها المسلمين إلى «الجهاد» لاستئصال جذور الشر، وإقامة العقيدة السليمة التي لا تشوبها البدع الزاحفة إليها من مصادر غير إسلامية.

نادى سيد أحمد بريلوي بكثير من الأفكار الإصلاحية. من ذلك «السند» الذي عين بمقتضاه خلفاءه على بتنه (شاه محمد حسن ـ ولايت علي ـ عنايت علي). يقول: «إن قانون الرسول يقوم على أمرين: دفع الشرك ورد البدعة».

ودفع الشرك يعني عدم التصديق بأن الملائكة والأرواح والمرشدين والروحيين والحواريين والمعلمين وطلاب العلم والأنبياء والقديسين

في إمكانهم التغلب على أي صعب يقابل أي إنسان. وعدم الإيمان بأن واحداً من هؤلاء المذكورين يستطيع أن يحقق لمخلوق آخر أي رغبة له أو مطلب، كذلك يجب إنكار قدرة واحد من هؤلاء في المنح والعطاء أو إزالة الشر، بل يجب النظر إليهم جميعاً على أنهم بلا حول ولا قوة ولا علم، كذلك يجب التوقف عن تقديم النذور للأنبياء والرجال الصالحين أو الملائكة وذلك بغرض الحصول على أي مبتغى، لكن يجب النظر إليهم على أنهم عباد الله. إن الإيمان بأن لهؤلاء القدرة على التحكم في الأحداث أو أن لديهم علم الله هو عين الكفر.

أما رد البدعة فتعني العقيدة السليمة أي تكريس كل جهد النفس لممارسة الحياة كما كانت تمارس في عهد الرسول، وتجنب كل البدع مثل حفلات الزواج، التي يسودها الاختلاط واللهو، وتجمعات التعزية، وتزيين وتجميل القبور، وإقامة الشواهد على القبور، وإنفاق الأموال في الاحتفال بذكرى الميت، والقيام بالتعزية، وغير ذلك. ويجب على الإنسان أن يحاول جاهداً أن يتوقف تماماً عن ممارسة كل هذه الأمور.

وكانت قد ظهرت جماعة من مسلمي البنغال تهتدي بتعاليم سيد أحمد شهيد بريلوي بعد أن التقته في كلكتا، وهكذا حدث اتصال بين مسلمي البنغال والمراكز الروحية في شمال الهند. ثم اتجه إلى دهلي، وبدأ سلسلة الدروس والتدريس والإرشاد، واتصل بعلماء عصره وأقارب شاه عبد العزيز، وكان يخرج مع العلماء في دورات تبليغية إرشادية في مظفرنكر، وسهارنبور، ورامبور، وبريلي وشاه جهان بور وبنارس ولكهنو، فيلقي دروسه على الناس، ويعظهم ويعلمهم العقائد الإسلامية الصحيحة حتى يزيد من تمسكهم بدينهم في مواجهة حملات التنصير البريطانية، فكان من ناحية يقدم النظريات الصحيحة لإصلاح عقائد المسلمين وأعمالهم، ومن ناحية أخرى يسعى إلى تحريك عواطف الجهاد في سبيل الله في نفوسهم، وحاول أن يقضي على البدع وتقاليد الشرك التي تفشت بين المسلمين آنذاك، مثل زيارة القبور، وتقاليد الزواج الهندوكية، والإسراف والتبذير، وعدم الزواج من الأرامل، وغير ذلك من بدع الشرك.

وعزم سيد أحمد شهيد على السفر للحج سنة 1236هـ بصحبة سبعمائة شخص وهو عدد ضخم بالنسبة إلى ذلك العصر، مما ترك أثره في المناطق التي مر بها حتى وصل إلى كلكتا، فدخلت مدن كثيرة في بيعته على التوبة والجهاد وانخراط الناس قاطبة في سلك الإصلاح والتربية، ولم يشذ منهم إلا الشاذ. وخلال السفر إلى الحج نال ورفاقه زادا روحانياً قوّى من عزيمته أكثر فأكثر، وقبل عودته من الحج انتقل شاه عبد العزيز إلى الرفيق الأعلى إلا أن هذا لم يفتَّ في عضده، وبعد عدة أشهر بدأ يستعدّ للجهاد.

وصل سيد أحمد شهيد إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة سنة 1237 هـ، وهناك علم بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومحاولاته الإصلاحية مع أتباعه. وكان ذلك في الوقت الذي كانت جماعة المصلح الشهير محمد بن عبد الوهاب تلقى فيه مطاردة ومحاربة من الحكومة التركية ونوابها، إلا أن سيد أحمد شهيد عاد إلى الهند وهو يحمل بين

جنباته معظم الأفكار التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، ورغم أن حركة سيد أحمد شهيد لم تطبق تماماً ما جاء في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب نظراً إلى ظروف المسلمين في الهند ومحاولة سيد أحمد شهيد جمع شمل كل من يجد لديه استعداداً للمضي على الطريق الصحيح ولو بخطوة واحدة، ورغم هذا فقد أطلق على حركته في الهند اسم «الحركة الوهابية الهندية»، رغم أن أفكار سيد أحمد شهيد قد طبعت في كتاب «الصراط المستقيم» سنة 1233هـ أي قبل وصوله إلى الحجاز بأربع سنوات.

وامتدت الحملة التي شنها أعداء الإسلام على الحركة السلفية في الجزيرة العربية إلى بلاد الهند، وحاول الإنجليز ترويج فكرة الوهابية اسماً على حركة سيد أحمد شهيد حتى يخوّفوا الناس منها، بعد ما أذاعوا دعاياتهم المسمومة الكاذبة ضد حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب واتهامها بالتشذد ونفور الناس منها؛ ولهذا كان إطلاق اسم وهابي على سيد أحمد شهيد ورفاقه لمصلحة طبقة المقلدين أصحاب البدع والخرافات من المسلمين من جهة، ولمصلحة الإنجليز الذين خشوا الصحوة الإسلامية في الهند من جهة أخرى.

وكما تعرضت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية لهجوم المغرضين النصارى، تعرضت حركة سيد أحمد شهيد أو الحركة الوهابية في الهند ـ كما أطلق عليها ـ لمثل ما تعرضت له زميلتها في الجزيرة العربية. قال «هيوكس» في قاموس الإسلام في مقال «الوهابية»: «ثم لما توجه رجل مضطرب قلق من الهند إلى مكة للحج للتكفير عن ذنوبه تقبّل تأثير المبشرين الوهابيين (يقصد السلفيين) هناك الذين كانوا ينشرون دعوتهم الوهابية (يقصد السلفية) سراً في الحجاج، عاد اللص وقاطع الطريق سيد أحمد الذي ينحدر أصله من «رائي بريلي» بعد تأدية مناسك الحج في مكة عام 1227هـ / 1812م بعزم إعادة الهند الشمالية بكاملها إلى راية الإسلام».

عندما عاد سيد أحمد بريلوي من مكة بدأ في تنفيذ برنامجه الذي فكر فيه طويلاً، برنامج الجهاد، وذلك لتأسيس حكم إسلامي في شبه القارة الهندية يتفق والمبادئ الإسلامية. وفي نهاية 1243هـ / 1826م بدأ بالجهاد الفعلي ضد السيخ في البنجاب وبسرعة شديدة ازداد نفوذ سيد أحمد بريلوي، وانتشرت سطوته بين قبائل منطقة الحدود، وفي نهاية 1244هـ / 1827م قام أتباعه في منطقة الحدود بانتخابه إماما ومنحوه السلطة لإنجاز مهمة الجهاد، وتوزيع الغنيمة بمقتضى الشريعة الإسلامية، واعترف به حكام بشاور كإمام لهم، وذكر اسمه في الخطبة؛ وأصبح حلمه بتأسيس دولة إسلامية على وشك أن يصبح حقيقة ماثلة، فقد جاءه المدد البشري من كل الهند للاشتراك في الجهاد.

وفي السادس من يناير 1245هـ / 1829م عقد مجلس مثلت فيه كل القبائل والأطراف، وتقرر إحلال العمل بالشريعة الإسلامية مكان العمل بالقانون القبلي السائد، وتنازل الرؤساء المحليون عن سلطتهم لسيد أحمد بريلوي الذي عهد إليهم بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية في مقاطعاتهم، وبحلول منتصف

1246هـ / 1830م كان بريلوي قد نجح في هجماته التي شنها على السيخ واحتل بشاور، وامتدت أحكام الشريعة الإسلامية إلى عموم منطقة بشاور وما حولها.

إلا أن هذه التجربة لم تثمر عن نجاح، ويرجع هذا إلى أن أتباع سيد أحمد بريلوي من أهل الهند، كانوا يطبقون مبادئ الشريعة الإسلامية بعنف، بالإضافة إلى أن سكان مناطق الحدود الشمالية الغربية لم يكونوا مستعدين نفسياً للتخلي عن تقاليدهم الاجتماعية. ومن هنا ظهرت معارضة ضد أتباع سيد أحمد بريلوي أدت إلى مقتل الكثيرين منهم في إحدى الليالي غدراً، وكانت نكسة في حركة المجاهدين، ومع هذا استمر سيد أحمد بريلوي في جهاده ضد السيخ يرافقه شاه إسماعيل شهيد ومولانا عبد الحي اللذين كانا ذراعه اليمنى بحق في حركته الإصلاحية والجهاد، إذ كان شاه إسماعيل جريئاً جسوراً شجاعاً باسلا، وقف في وجه الباطل وفي وجه البدعة بسيف لا يكلّ، بينما كان مولانا عبد الحي عالماً جليلاً وإنسانا يتصف بالصمت، وكان إيمانه قوياً محكماً كالصخرة، وطبيعته الوقار والتحمل واتخاذ أبي بكر الصديق مثالا له.

لم يكتف سيد أحمد شهيد ورفاقه بالجهود الرامية إلى الدعوة بالكلمة، بل أعدوا أنفسهم للشهادة على طريق الحق من أجل إقامة مجتمع مسلم صحيح، وحكومة شرعية، ولهذا أعدوا خطتهم للجهاد ضد السيخ من منطقة الحدود شمال البلاد وغربها حيث تنتشر قرى المسلمين ومدنهم هناك، فإن لم يجدوا العون من أحد فلن يجدوا على الأقل معارضة؛ كما كان السيخ قد بدؤوا في بسط نفوذهم على تلك المنطقة، وكانوا يوقعون بالمسلمين مظالم كثيرة. وهكذا رأى سيد أحمد شهيد بفراسة المؤمن أن يبدأ الجهاد ضد السيخ من تلك المنطقة حتى تبدأ الحركة قوية صلبة، وبعدها يتفرغ للإنجليز.

وحين خرج سيد أحمد شهيد عام 1242هـ / 1826م في رحلة الجهاد ماراً ببهاولبور والسند وأفغانستان عاقداً العزم على الوصول إلى إقليم الحدود، لم يكن معه أكثر من خمسمائة أو ستمائة مجاهد يحملون السيوف والبنادق، ولم يكن معهم مدفع واحد، وحين وصلت بعض القوافل من الهند كان التقدير التقريبي لعدد المجاهدين حوالى ألفي مجاهد أو أكثر قليلاً، ولا شك أن بعض الأهالي في المناطق المحلية قد اشتركوا في القتال في مختلف المعارك، مما كان يزيد أحياناً في عدد المجاهدين. وكان هذا يوقع السيخ في مواقف حرجة حتى أنهم اضطروا إلى تسليم منطقة «اتك بار» كلها للمجاهدين.

أعلن علماء ورؤساء قبائل البنجاب في يناير 1827م (1242 هـ) انتخاب سيد أحمد شهيد أميراً لجماعة المؤمنين، حتى يكون له حرية التصرف في تنظيم أمر الجهاد وتقسيم الغنائم وإقامة صلاة الجمعة، ونشر الشريعة الإسلامية. واستمر سيد أحمد شهيد في قتال السيخ. كما اضطر إلى قتال الأفغان أحياناً؛ وبعد أن فتح مدينة بشاور عام 1246هـ / 1830م تمكن السيخ بدهائهم من استمالة بعض علماء المسلمين الذين أثاروا الفتن ضد سيد أحمد شهيد، وأصدروا فتاوى ضده، كما قاموا بنقل بعض أفراد القوة المنظمة مما

اضطره إلى ترك بشاور والتراجع إلى مدينة بالاكوت، ونتيجة لخيانة بعض ضعاف النفوس تسلل السيخ إلى مدينة بالاكوت حيث استشهد سيد أحمد شهيد، وشاه إسماعيل شهيد في مايو 1247هـ / 1831م وتمكن حوالى 800 مجاهد من النجاة بأرواحهم وعادوا إلى الهند إلا أن حوالي 150 مجاهداً رفضوا العودة وتمركزوا في «ديره والي» وظلت دعوتهم للجهاد مستمرة لسنوات.

وبعد موت سيد أحمد بريلوي أقام أتباعه على الحدود مركزاً لهم في وادي سوات وتوقفوا عن الجهاد لسنوات عديدة، ثم ظهر نشاطهم من جديد ضد السيخ خلال السنوات الأخيرة من حكم السيخ للبنجاب، وقاد الحركة خلفاء سيد أحمد بريلوي في بتنه، ودعوا للجهاد سكان البنغال وبهار وحيدر آباد، وتمكنوا من فرض نفوذهم على منطقة كبيرة على طول الضفة اليسرى لنهر السند . . . وعندما امتد النفوذ البريطاني إلى البنجاب اضطر المجاهدون للتخلي عن هذه المناطق، وقبض على زعماء حركة الجهاد، وتم التحفظ عليهم مدة أربع سنوات.

ويرى البعض أنه بعد استشهاد سيد أحمد بريلوي انقسمت حركته إلى مجموعتين تمركزت إحداهما في دهلي والأخرى في بتنه، وقامت جماعة دهلي فصرفت النظر عن الأمور العسكرية، واهتمت بالحفاظ على عقائد المسلمين وثقافتهم، أما جماعة بتنه فقد مضت على نفس لائحة عمل سيد أحمد شهيد أي الهجرة إلى منطقة الحدود للجهاد بالروح والنفس والمال والمتاع، واستمر هذا حتى الربع الثالث للقرن التاسع عشر.

■ آثاره

- الصراط المستقيم، وهو الكتاب الوحيد الذي تركه سيد أحمد شهيد، وقام رفيقاه شاه إسماعيل ومولوي عبد الحي بترتيبه. وندرك منه مدى تفهم سيد أحمد الكامل للمسائل الدينية المختلفة، وأنه حاول طرد الإنجليز والقضاء على السيخ، ونشر التعاليم الإسلامية الصحيحة، ولم يعارض التصوف مثل الوهابيين، ط. كلكتا، 1238هـ / 1922م.

■ المصادر والمراجع

● محمد إكرام، موج كوثر، تاج كمبني، نيودلهي 1970، 13 ـ 33؛ ● سيد أبو الحسن الندوي، سيرة سيد أحمد شهيد، لكهنو، 1941؛ ● م. ن، الدعوة الإسلامية في الهند، الطبعة الثالثة، المجمع الإسلامي، لكهنو، 1986م، 25 ـ 27؛ ● النمر، عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1990م، 418 ـ 420؛ ● إبراهيم، سكير عبد الحميد، الأدب الأردي الإسلامي، الرياض، (د.ت) 294 ـ 298، 304 ـ 309.

د. جلال السعيد الحفناوي
جامعة القاهرة ـ مصر

البريلوي، محمد أحمد رضا

(1272هـ/1856م - 1340هـ/1921م)

العلامة البحاثة المفتي محمد أحمد رضا بن نقي علي البريلوي، ولد بمدينة «بريلي» الواقعة في ولاية اترابراديش بشمالي الهند يوم الاثنين للعاشر من شوال 1272 هـ/ 14 يونيو 1856 م، وتلقى العلوم الابتدائية على يد والده الذي كان من كبار علماء الأحناف والذي يقول عنه العلامة البريلوي: «إنه كان نهاية جميع العظماء وخاتم أجلّة الفقهاء»، فنشأ وتثقّف في بيئة علميّة أدبيّة دينيّة، وسرعان ما فاق أترابه في عديد من العلوم والفنون ولا سيّما في الفقه والحديث والتفسير، واشتغل بالتدريس والإفتاء والتصنيف والوعظ والإرشاد وإصلاح شؤون الأمّة. ولإصلاح ذات البين بدأ يفتي في عمر لم يتجاوز 14 عاما، وفي 1295هـ تشرف بالحج للمرة الأولى بمعيّة والده، واستغل هذه الفرصة لتقوية لغته العربيّة والاستفادة من علماء الحجاز الكبار من أمثال الشيخ أحمد زيني دحلان الشافعي، والشيخ عبد الرحمن سراج مفتي الأحناف بمكّة، والشيخ حسين بن صالح جمل الليل، وألّف بعض الكتيّبات والرسائل أثناء مكثه في الحرمين الشريفين، وناقش وتباحث في بعض القضايا الدينيّة والعلميّة مع علماء الحجاز المرموقين الذين تأثروا بغزارة معلوماته في العلوم والمعارف الدينيّة. وبعد الرجوع الى الهند عكف على تأليف الكتب والرسائل التي تتناول وتعالج بصفة عامة القضايا الفقهيّة. وانخرط العلامة البريلوي في السلسلة الصوفية على يد الشيخ آل رسول الحسيني المارهروي وحصل على الإجازة منه في الطريقة الصوفية المختلفة وهي: النقشبندية، والسهروردية، والجشتية.

لقد عاش العلامة البريلوي حياة حافلة بالنشاطات الدينيّة والعلميّة والأدبيّة، فظهرت أعماله العلميّة منذ صغره حيث قام بشرح كتاب «هداية النحو» وهو في العاشرة من عمره؛ ثمّ ألّف كتاب «ضوء الهداية أعلام الحمد والهواية»، ولم يكد يناهز عمره الثالثة عشرة، وهذا ما يحدو بنا إلى القول بأنّ العلاّمة البريلوي كان شديد الاعتناء بالقضايا الأدبيّة والدينيّة منذ نعومة أظفاره، وظل يسير على نفس الدرب حتّى أواخر أنفاسه في يوم الجمعة 25 صفر 1340هـ/ 28 اكتوبر 1921م.

وتدل عناوين كتبه الآتي ذكرها على أنّ العلامة كان متصلبا في القضايا الفقهية والسياسية إذ كانت له في ذلك آراء ونظريات ومعتقدات، وتشهد بتشددها أكثر مؤلفاته التي تنمّ على التبحّر في العلم وكثرة المطالعة، وقوّة استدلاله فكان راسخا طويل الباع في العلوم الرياضية والهيئة والنجوم والتوقيت، وملمًّا بعلوم الرمل والجفر مشاركا في أكثر العلوم.

وبالإضافة إلى ذلك كله كان العلامة البريلوي ينظم الشعر بالعربية والفارسيّة والهنديّة والأردية؛ ومنظوماته في هذه اللغات الأربع تتّصف بالسهولة والسلاسة وتنمّ عن شاعر موهوب بعيد عن التكلّف والتصنّع، حتّى يبدو كأنّما نشأ وتربّى في إحدى بوادي الجزيرة العربيّة وتضلّع من فنون الشعر العربي المختلفة، فأصبح قادرا على استعمال الكلمات والتراكيب اللغويّة بأحسن معانيها؛ ولم يكتسب العلامة البريلوي هذه العلوم الأدبيّة إلاّ ليستعين بها على فهم القرآن الكريم والأحاديث النبويّة في سياقها التاريخي والأدبي. ومن هنا لم يكن هدفه من الاحاطة بالشعر العربي القديم إلاّ لحل المعضلات اللغويّة والمعنوية الموجودة في متون الكتب الدينيّة وبسبب ذلك تطوّر وتحسّن ذوقه الأدبي حتّى بدأ يسكب عواطفه في قوالب الشعر بالبراعة والرشاقة التي تضاهي شعراء العربية.

ومن الجدير ملاحظته أن قصائده بصفة عامّة تدور حول مدح النبي الكريم، إذ لم يقرض الشعر لغاية الفوائد الدنيويّة، ولذلك تتميّز معظم أشعاره بحرارة الشوق وصدق العاطفة، وكلّ من يقرؤها يستشفّ منها حبه الشديد للذّات النبوية الكريمة، ولذلك غدا شهيرا بين الناس بلقب «محب الرسول الكريم».

وإلى جانب المدائح النبويّة قرض العلاّمة البريلوي الشعر في أغراض في الهجاء والرثاء؛ ونستشفّ من هذه الأغراض أنه كان شديد الأنانية ومفرط الحساسية، إذ لم يكن يحب أن يعارضه أحد في معتقداته الدينيّة وآرائه السياسيّة، وبسبب هذه الغيرة المفرطة أصدر فتاوى التكفير ضدّ أكثر علماء عصره من أمثال العلامة الكبير أشرف علي التهاوني، والعلاّمة عبد الباري فرنجي محلي، وهجاهما هجاء مقذعا.

■ آثاره

ترك البريلوي آثارا علميّة أدبيّة رائعة يربو عددها حسب قول بعض مؤرخيه على خمسمائة كتاب ثلثها بالعربية، ومن أكبرها وأضخمها «الفتاوي الرضوية»، وهي في اثني عشر مجلّدا ضخما في آلاف الصفحات. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ معظم مؤلفاته يدور حول القضايا الدينيّة والكلاميّة التي كانت الشغل الشاغل لمسلمي الهند في حياته. وهذا واضح من عناوين كتبه التي نشير إلى بعض منها وهي: 1 ـ الزبدة الزكيّة في تحريم سجود التحيّة؛ 2 ـ المحاكمة المكّية في حكم جلود الأضحية؛ 3 ـ العروس المعطار في زمن دعوة الافطار؛ 4 ـ قمر التمام في نفي الظل عن سيد الانام؛ 5 ـ كفل الفقيه الفاهم في أحكام قرطاس الدراهم؛ 6 ـ بذل الجوائز على الدعاء بعد صلاة الجنائز؛ 7 ـ صلات الصفافي؛ 8 ـ نور المصطفى؛ 9 ـ الطاري الداري لهفوات عبد الباري؛ 10 ـ الجزار الدياني على المرتد القادياني؛ 11 ـ السوء والعقاب على المسيح الكذاب؛ 12 ـ حسام الحرمين على منحر أهل الكفر والمين؛ 13 ـ سلطنة المصطفى في ملكوت كل الورى؛ 14 ـ منير العين في تقبل الابهامين.

د. محمد أسلم إصلاحي
مركز الدراسات العربية والإفريقية
جامعة دلهي الجديدة ـ الهند

البزّار، أبو بكر أحمد بن عمرو

(210هـ/825م ـ 292هـ/905م)

أبو بكر بن عمرو بن عبد الخالق البصري، المعروف «بالبزار»، حافظ، من علماء الحديث، المعروفين، والبزّار بتقديم الزاي على الراء المهملة نسبة إلى عمل بزر الكتان زيتا بلغة البغداديين [الذهبي، المشتبه، ص 38].

ولد سنة نيف عشرة ومائتين، ولم يذكر أصحاب التراجم والطبقات شيئًا عن نشأته ومراحل حياته الأولى وإنما تحدّثوا عن رحلته في الشيخوخة ناشرًا لحديثه، فحدث بأصبهان عن الكبار، وببغداد ومصر، ومكة، والرملة، بفلسطين وأدركه أجله فمات في سنة اثنتين وتسعين ومائتين للهجرة.

سمع هدبة بن خالد، وعمرو بن علي الفلاس، وبندار، وابن المثنى، وعبد الله بن شبيب وخلقًا كثيرا. وروى عنه من أهل أصبهان أبو الشيخ، وأبو أحمد العسال، وأبو القاسم الطبراني وغيرهم؛ ومن أهل مصر أبو بكر بن المنهدس، ومحمد بن أيوب، والحسن بن رشيق؛ ومن أهل بغداد ابن قانع، وابن نجيح وغيرهم [ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ج 1، ص 238]. وقد أملى أبو سعيد النقاش مجلسا عن نحو من عشرين شيخًا حدثوه عن أبي بكر البزار، كان يعتبر من علماء العامة وكان يشبّه بأحمد بن حنبل في زهده وورعه، واتّفق أصحاب التراجم على صدقه وثقته وحفظه، ونقل عن تلميذه أبي الشيخ من أهل أصفهان قال: كان أبو بكر البزار أحد حفاظ الدنيا رأسا، ولم يكن بعد علي بن المديني أعلم بالحديث منه، اجتمع عليه حفاظ أهل بغداد فبركوا بين يديه فكتبوا عنه، كما روى عنه أبو عوانة في صحيحه، ولكن غرائب حديثه وما ينفرد به كثير، قال الحاكم النيسابوري: سألت الدار قطني عنه فقال: يخطىء في الإسناد والمتن، حدث بالمسند بمصر حفظا ينظر في كتب الناس ويحدث من حفظه، ولم يكن معه كتب فأخطأ في أحاديث كثيرة. وجرّحه النسائي وقال: «ثقة يخطىء كثيرا». وقال أبو أحمد الحاكم: «يخطىء في الإسناد والمتن» [الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ج 1، ص 124].

ومما ألزم فيه الوهم في السند أنه روى عن عمرو بن علي الفلاس عن يحيى بن سعيد القطان عن مالك عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه رفع: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أبحلال أم بحرام»، قال الدار قطني: وهم فيه البزار وليس محفوظا عن مالك، وإنّما رواه يحيى بن سعيد عن ابن أبي ذئب، وقد ذكر الدار قطني طرقا مختلفة لهذا الحديث كلها عن طريق يحيى القطان عن أبي ذؤيب، وممّا ألزم فيه الخطأ في المتن ما رواه بسنده عن أبي مزة

السكري عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، بخبر «الإمام ضامن» فزاد في متن الحديث: قالوا: يا رسول الله لقد تركتنا نتنافس في الآذان بعدك قال: «إنه يكون قوم بعدكم سفلتهم مؤذنوهم»، قال ابن القطان: «هذه زيادة منكرة» وقال الدار قطني: «ليست محفوظة»، ذكر ابن حجر أن هذه الزيادة لم ينفرد بها البزار، فقد روي هذا الحديث من طرق أخرى عن أبي حمزة المذكور، كما أثبت ابن عدي هذه الزيادة من حديث السكري فبرىء البزار من عهدتهم، كما أخرج البيهقي هذه الزيادة في «سننه» من طريق عمرو بن عبد الغفار، ومحمد بن عبيد، وأبي حمزة السكري ثلاثتهم عن الأعمش [لسان الميزان، ج1، ص 238].

آثاره

ألف البزار مسندين أحدهما الكبير المعلّل سمّاه «البحر الزاخر» والثاني «صغير»، كما له «شرح على موطأ مالك» وحينما يقال البزار صاحب المسند، فإنّما يقصد به كتابه الكبير المسمّى: «المسند المعلّل» تكلّم فيه عن أسانيده فبيّن الصحيح من غيره، قال العراقي: ولم يفعل ذلك إلاّ قليلا إلاّ أنه يتكلّم في تفرّد بعض رواة الحديث ومتابعة غيره عليه، وقد جرد زوائده الحافظ الهيثمي وسماه «كشف الأستار عن زوائد البزار»، والمسانيد [ج مسند] هي كتب في الحديث النبوي غير مرتّبة على الأبواب والموضوعات وإنّما رتّبت على حروف الهجاء في أسماء الصحابة ـ كما فعله غير واحد ـ بحيث يكون حديث كل صحابي على حدة، صحيحا كان أو حسنا أو ضعيفا، وهذه الطريقة في الإسناد هي أسهل تناولا، أو رتبت على القبائل، أو السابقة في الإسلام أو الشرافة النسبيّة أو غير النسبيّة أو غير ذلك، وقد يقتصر في بعضها على أحاديث صحابي واحد كمسند أبي بكر أو أحاديث جماعة منهم كمسند الأربعة، أو طائفة مخصوصة، جمعها وصف واحد كمسند المقلّين، ومسند الصحابة الذين نزلوا مصر إلى غير ذلك، ومسند البزار هو من المسانيد المرتّبة على حروف الهجاء في أسماء الصحابة، وهو مسند مشهور ضخم في مجلّدات كما نصّ على ذلك أصحاب التراجم.

المصادر والمراجع

● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، تح. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1422هـ/ 2001م؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء وبهامشه «إحكام الرجال من ميزان الاعتزال» للذهبي أيضًا تح. أبو سعيد العموري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ/ 1996م؛ ● العسقلاني، ابن حجر، لسان الميزان، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط2، 1390هـ/ 1407م؛ ● حاجي خليفة (ت1067هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 6 مج، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● الكتاني، الرسالة المستطرفة، دار قهرمان للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركيا.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

البزّار، أبو طاهر عبد الواحد بن عمر

(278هـ/ 891م - 349هـ/ 961م)

عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم البغدادي البزّار، نسبة إلى أعمال البَزْر. وكنيته أبو الطاهر. في تاريخ مولده اختلاف بين المترجمين له حيث ذهب شمس الدين الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد أو مدينة السلام»، إلى أنّ محمد بن أبي الفوارس بعدما ذكر وفاة المترجم له قال: ويقال إن مولده في رجب ببغداد سنة ثمانين ومائتين وأنّه كان يسكن الجانب الشرقي منها، وذكر غيره أنّ البزّار البغدادي المقرئ ولد سنة ثمان وسبعين ومائتين وعاش سبعين سنة. وهو الذي عليه أكثر كتب التراجم.

يعدّ عبد الواحد عند أصحاب التراجم من أعلام النصف الثاني من القرن الرابع بالعراق وإمام المقرئين والنحاة بالكوفة في زمانه، عُرف بأنّه أعلم الناس بحروف القراءات ووجوهها، وله في ذلك تصانيف عدّة. قال شمس الدين الذهبي: إنّ ابن هاشم أبو الطاهر البغدادي، المقرئ أحد الأعلام ومصنف كتاب «جامع البيان».

أخذ القرآن عرضا على أحمد بن سهل الأشناني، وأبي عثمان سعيد بن عبد الرحمان الضرير، فبلغ عليه إلى سورة «التغابن»، كما تعلّم القراءات سماعا على أبي بكر بن مجاهد، وسمع الحروف من جماعة شاركه شيخه ابن مجاهد في أكثرهم، ومنهم: إبراهيم بن عرفة، وإبراهيم بن محمد بن أيوب، وأحمد بن رستم، وأحمد بن عبيد الله، وأحمد بن فرح، وأحمد بن علي بن الحسين الخزامي، والحسن بن الحباب، وغيرهم [ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القرّاء، 1/ 485 - 486].

وقد أطنب أبو عمرو الداني في وصفه، وقال: «لم يكن بعد أبي مجاهد مثل أبي الطاهر بن أبي هاشم في علمه وفهمه مع صدق لهجته واستقامة طريقته، كان ينتحل في النحو مذهب الكوفيين، وكان بارعا فيه». وقال القفطي في كتابه «تاريخ النحاة»: «قرأ البزّار كتاب سيبويه على أبي محمد بن درستويه الفارسي ولم يُرَ بعد ابن مجاهد في القراءات مثله».

وقال الحافظ أبو عمر: «سمعت فارس بن أحمد يقول: دخل أبو الطاهر ذات يوم في مجلس ابن مجاهد، وقد فرغوا من مسألة جرت بينهم، فقال لهم: فيمَ كنتم؟ قالوا: مسألة جرت، فقال لهم: هلمّوها، فقالوا: إنّ الجواب فيها قد استوعب، فقال: هلمّوها فإنّ الأسد إذا حضر تضارطت الثعالب» [ابن الجزري، غاية النهاية، 1/ 487].

وقال أبو عمرو الداني: «سمعت عبد العزيز الفارسي يقول: لمّا توفي ابن مجاهد أجمع

الناس على أن يقدموا شيخنا أبا الطاهر لِيُقْرِئ موضعه، فتصدّر للإقراء في مجلسه، وقصده الأكابر فتحلّقوا عنده كعقيل بن البصري، وكان من جلّة أصحاب ابن مجاهد، وكأبي بكر الجلاء ونظائرهما. وكان قد تميّز عن جميع أصحابه بمخالفته لهم في إمالة فتحة النّون من لفظة «الناس» في موضع الجر حيث وقع، وكان القرّاء ينكرون ذلك عليه. وهي قراءة لأبي عمرو الداني رواها عنه أبو عمر الدوري، وروى إمالتها أبو الطاهر صاحب الترجمة عن أبي الزعراء عنه» [ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج2، ص 62].

وفي الفهرست ذكره ابن النديم في القرّاء الشواذ، وقال: «كان بارعا في الإلقاء والإقراء، ويعرف قطعة من النحو حسنة»؛ وذكر مصنفاته وقال: «توفي يوم الخميس لثمان بقين من شوال سنة 349» [ابن النديم، الفهرست، 3 ـ 4].

روى عنه القراءة عرضا وسماعا: إبراهيم بن مخلد بن جعفر المعدّل، وأبو الحسن علي بن أحمد الحمامي المقرئ، وأحمد بن عبد الله بن الخضرمي، وأبو الفرج أحمد بن موسى، وعبيد الله بن عمر المصاحفي، وجعفر بن محمد بن الفضل، وعلي بن محمد الجوهري، ومحمد بن صبغون، وعبيد الله بن أحمد الصيدلاني، وأبو القاسم عبد العزيز بن جعفر خواستي الفارسي، وأبو الحسين علي ابن العلاّف الكبير، وغيرهم.

قال الخطيب البغدادي:

ـ حدثنا عن البزار تلميذاه إبراهيم بن مخلد بن جعفر، وأبو الحسن بن الحمامي المقرئ، قالا: كان ثقة أمينا يسكن الجانب الشرقي من بغداد؛ أخبرني علي بن أبي علي قال: حدثني أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد الله الشاهد، قال: كنت أمشي يوما مع أبي الطاهر بن أبي هاشم المقرئ ـ وكان أستاذي ـ فاجتزنا بمقابر الخزيران، فوقف عليها ساعة؛ ثم التفت إليّ، فقال لي: «يا أبا القاسم ترى لو وقف هؤلاء هذه المدّة الطويلة على باب ملك الروم ما رحمهم؟ فكيف تظنّ بمن هو أرحم الراحمين؟ وبكى»؛ ـ أخبرني الحسن بن أحمد بن عبد الله الصوفي، قال: أخبرنا علي بن أحمد بن عمر المقرئ، قال: مات أبو الطاهر بن أبي هاشم المقرئ يوم الخميس لعشر بقين من شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وصلّى عليه ابنه في جامع الرّصافة ودفن في مقبرة الخيزران. [الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ج 12 ص 254].

آثاره

ذكر له إسماعيل باشا البغدادي في «إيضاح المكنون» وفي «هديّة العارفين» مجموعة مصنّفات أهمّها:

1 ـ كتاب الانتصار لقراءة حمزة، وقد ذكره له أيضا ابن النديم في «الفهرست» وأبو عمرو الداني في ترجمته له؛ 2 ـ كتاب الفصل بين أبي عمرو والكسائي 3 ـ كتاب الخلاف بين أبي عمرو والكسائي؛ 4 ـ كتاب الخلاف بين أصحاب عاصم: حفص وسليمان وكلاهما مذكور في الجزء الثاني من الإيضاح أيضا؛ 5 ـ كتاب الشواذ السبعة؛ 6 ـ كتاب الهاءات، وكتاب الياءات؛ 7 ـ قراءة الأعمش، قراءة حمزة، قراءة حفص صنعته،

قراءة الكسائي [إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين لأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج ١، ص 633].

المصادر والمراجع

● الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح. بشار عوّاد معروف وشعيب الأرنؤوطي وصالح مهدي عباس، ط ١ سنة 1404هـ / 1984 م، مؤسسة الرسالة؛ ● الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد ـ الدكن ـ الهند سنة 1357 هـ، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، ط ١، 1422هـ / 2001 م، دار الغرب الإسلامي؛ ● البغدادي، هدية العارفين لأسماء المؤلفين وآثار المصنفين مكتبة، (د.ت.)، المثنى بغداد؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. رضا التجدد بن علي زين العابدين الحائري، المازندري، طهران. 1350هـ / 1971م.

د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

البزّار، أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب

(150هـ/767م ـ 229هـ/848م)

هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشام بن ثعلب، ويقال هو خلف بن هشام بن طالب بن غراب، أحد القراء العشرة، والمقرئ المشهور ببغداد، واشتهر بلقب البزار، وروى عنه أنه كان يكره أن يقال له البزار ويقول: ادعوني المقري.

كما يلقب بالأسدي، والبغدادي، وكنيته أبو محمد.

وقد ولد خلف بفم الصلح قرب واسط سنة 150 هـ/ 767 م، وقد حفظ القرآن، وهو ابن عشر سنين، وابتدأ في طلب العلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة فبرع في القراءات والنحو، ثم اشتهر أمره وهو في السابعة عشرة من عمره، حيث كان قد تلقى القراءات بالكوفة على يد سليم بن عيسى تلميذ حمزة وأجلّ أصحابه، فقال له سليم: ما سمعت أقرأ منك، ثم أقام خلف ببغداد يقرئ الناس، ويروي الأحاديث.

وكان خلف قد سعى أن يقرأ على أبي بكر بن عياش بقراءة عاصم، فكأن أبا بكر استصغر شأنه فقد كان في السابعة عشرة من عمره، فتركه خلف وقال: لم أكن لأقرأ على من يستصغر حامل القرآن، ثم ندم خلف بعد ذلك، فطلب قراءة عاصم وكتبها عن يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش.

ومن علو شأن خلف في القراءة قول

العباس بن محمد الدوري، ما رأيت أحدًا أقرأ للقرآن من خلف، ما خلا خلاد القارئ.

وقدم خلف على أيوب بن المتوكل بالبصرة فقام من مجلسه وأجلس خلفا فيه، وجلس بين يديه، فكبر ذلك على أصحابه، فالتفت إليهم وقال: إني رأيت البارحة فيما يرى النائم كأنه قد دخل هذه القرية أمير المؤمنين.

ولما قدم أيوب بن المتوكل الكوفة، كان يسأل خلفا عن دقائق قراءة حمزة، ومن تقدير العلماء له قول حسين بن فهم: ما رأيت أنبل من خلف بن هشام، كان يبدأ بأهل القرآن، ثم يأذن لأصحاب الحديث، وكان يقرأ من حديث أبي عوانة خمسين حديثًا.

وكان خلف من أصحاب السنة، يتحرى الصحيح من الحديث، وكانت فيه بلية شرب النبيذ على التأويل، ثم رجع عن ذلك وترك شربه، فأعقبه الله الصوم فكان يصوم الدهر إلى أن مات.

وكان خلف محل الثقة والقبول من علماء الجرح والتعديل، فلما ذكر عند أحمد بن حنبل، قيل له: يا أبا عبد الله إنه يشرب الخمر، فقال: قد انتهى إلينا علم هذا عنه، ولكن هو والله عندنا الثقة الأمين شرب أو لم يشرب.

كما وثقه يحيى بن معين، وقال: الصدوق الثقة، وقال عنه أبو عبد الرحمن النسائي: بغدادي ثقة، وقال عنه علي بن عمر الحافظ: كان عابدًا فاضلاً.

أما عن شيوخه فقد روى القراءة عرضًا عن سليم بن عيسى عن حمزة مرارًا، وكذلك عن عبد الرحمن بن أبي حماد عن حمزة.

كما سمع خلف من الكسائي ولم يقرأ عليه القرآن، إنما سأله عنها، وسمعه يقرأ القرآن إلى خاتمته، وضبط ذلك عنه بقراءته على أصحابه، وروى عن الكسائي قراءة الأعمش عن زائدة بن قدامة، كما روى خلف قراءة عاصم من طريق أبي زيد الأنصاري عن المفضل الضبي، كما أخذها عرضًا عن يعقوب بن خليفة الأعشى صاحب أبي بكر شعبة صاحب عاصم.

ورواها من طريق يحيى بن آدم أبي زكريا الصلي عن أبي بكر شعبة عن عصام، كما روى قراءة نافع من طريق إسحاق بن محمد بن أبي السائب المخزومي المسيبي.

كما روى القراءة وعرضها على عبد الله بن يزيد أبي الأقفال المخرمي البغدادي، وروى الحروف عن إسماعيل بن جعفر وعبد الوهاب بن عطاء، وعبيد بن عقيل، وروى رواية قتيبة عن عبيد بن عقيل من طريق ابن شنبوذ، والمطوعي أداءً وسماعًا.

وروى عن محبوب البصري عن خالد بن الحذاء بعض قراءة نصر بن عاصم.

وفي الحديث النبوي سمع مالك بن أنس، وحماد بن زيد، وأبا معاوية وخالد بن عبد الله، وشريك بن عبد الله، وأبا الأحوص سلام بن سليم، وروى عن أبي عوانة، وأبي شهاب الحناط، وابن أبي الزناد، وحبان بن علي، والداراودي.

واهتم خلف بالنحو فأتقنه، وبلغ من عنايته به أن أشكل عليه باب من النحو فأنفق ثمانين ألف درهم حتى حفظه.

وقد تلقى العلم على يديه تلاميذ كثر فروى القراءة عنه عرضًا وسماعًا وراقه أحمد بن إبراهيم وأخوه إسحاق بن إبراهيم، وأحمد بن يزيد الحلواني، وإبراهيم بن علي القصار، وإدريس بن عبد الكريم الحداد، ومحمد بن مخلد الأنصاري، وأحمد بن زهير، وأحمد بن محمد البرائي، وسلمة بن عاصم، وعبد الله بن عاصم، وعلي بن الحسين بن سلم، ومحمد بن إسحاق شيخ ابن شنبوذ، ومحمد بن الجهم، ومحمد بن عيسى، والفضل بن الزبيدي، وعلي بن محمد بن نازك، وإبراهيم بن إسحاق، ومحمد بن إبراهيم، ومحمد بن سعيد الضرير، وأبو بكر بن أسد المؤدب، وعبيد بن عقيل، وعبد الوهاب بن عطاء، وموسى بن عيسى، وأبو الوليد عبد الملك بن قاسم، وعمر بن فايد، والحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن الفهم بن محرز الحافظ البغدادي، وأبو محمد الشعراني الأديب الفقيه العابد، ومحمد بن حماد بن بكر بن حماد المقري.

ويرغم رواية خلف لقراءة حمزة، فقد كان له اختياره الذي رواه عنه إسحاق الوراق وقام به بعده، وأما إدريس بن عبد الكريم الحداد فقد روى رواية خلف عن حمزة، كما روى اختيار خلف، كما روى اختيار خلف أبو الحسن بن عبد الكريم البغدادي.

فكان خلف يأخذ بمذهب حمزة غير أنه خالفه في مائة وعشرين حرفًا، تمثل اختيار خلف في القراءة كما قال ابن أشتة.

وقال ابن الجزري: تتبعت اختيار خلف فلم أره يخرج عن قراءة الكوفيين في حرف واحد بل ولا عن حمزة والكسائي وأبي بكر إلا في حرف واحد وهو قوله «وحرام على قرية» قرأها كحفص بالألف.

وروى أبو العز القلانسي في كتاب الإرشاد، عن خلف السكت بين السورتين فخالف الكوفيين.

وإذا كانت قراءة خلف لا تخرج عن قراءات الكوفيين، فليست تقل عنها في التواتر شيئًا. ومن تلاميذه الذين قرأوا عليه ابن سعدان الضرير الذي أتى الكوفة وطلب منه أيوب بن المتوكل أن يقرأ عليه كما يقرأ على خلف، فقرأ بالتحقيق (الأناة في التلاوة وإعطاء كل حرف حقه ومستحقه) فقال له: حسبك، ثم التفت إلى أصحابه وقال: من لم يدخل الكوفة ويشرب من ماء الفرات، لم يقرأ القرآن، وهذا يدل على استحسانه لقراءة خلف بالتحقيق. فقد كان خلف يأخذ تلاميذه بالتحقيق في القراءة، ولما سئل عن ذلك قال: حتى إذا صاروا إلى المحاريب حدّروا (أسرعوا بالتلاوة مع استعمال الحدود الدنيا من المدود).

ومن تلاميذه الذين رووا عنه الحديث، أبو زرعة، وعباس الدوري، ومحمد بن الجهم السمري، وأحمد بن أبي خيثمة، ومحمد بن أحمد بن البراء، وإبراهيم الحربي، وإدريس بن عبد الكريم الحداد، وموسى بن هارون، والحسين بن فهم، وأبو بكر بن أبي الدنيا، والحسن بن سلام، وأبو القاسم البغوي.

وقد روى عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل حديث شريك عن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ رجم يهوديًا ويهودية.

آثاره

ورد أن خلفًا صنف كتابًا في القراءات سماه «كتاب حروف القراءات» وبذلك يكون خلف قد أسهم في القراءات قراءة وإقراءً وتصنيفًا.

وفي نهاية حياته ابتلي بالجهمية، فاختفى منهم، ومات في أثناء اختفائه ببغداد، يوم السبت السابع من جمادى من عام 229هـ / 844م عن عمر يقارب الثمانين.

وأما بعد وفاته فقد رثاه بعض محبيه بقوله:

مضى شيخُنا البزّارُ بالفضل يذكرُ
هَجّان إمام في القراءة مبْصِرُ
سقى اللّهُ قبرًا حلّه من غمامة
يوابل غيثٍ صَفْوُه متفجِّرُ
لقد فازَ أقوامٌ بصُحبةِ شيخِنا
وأخْذهم عنه القراءة أكثروا
وقد طلب الحسادُ في الناس كيدَه
فما قدَرُوا حتى عَمُوا وتحيَّرُوا

وهذا يدل على عظم المكانة التي يتمتع بها خلف في نفوس تلاميذه وتقديرهم له.

ومن دلائل فضله أنه بعد موته رئي في المنام فقيل له: يا أبا محمد ما فعل بك ربك؟ فقال: غفر لي، وقال لي إقرأ القرآن، فقرأت القرآن، فما غيّر علي إلا حرفا واحدا.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، مطبعة العلوم، توزيع دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 14، 1420 هـ/ 1999 م؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة، مصر، 1325 هـ/ 1931 م؛ ● البخاري، التاريخ الكبير، حيدر أباد الدكن، 1379 هـ/ 1959 م؛ ● ابن حجر، تقريب التهذيب، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مصر؛ ● أبو عمر الداني، التيسير في القراءات السبع، عني بتصحيحه أوتوبرتزل، استانبول، طبعة الدولة، جمعية المستشرقين الألمانية، 1349 هـ/ 1930 م؛ ● ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، ط 1، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، 1372 هـ/ 1952 م؛ ● الخزرجي، خلاصة تهذيب الكمال، المطبعة الخيرية، د.ت؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، مكتبة القدسي، 1351 هـ/ 1932 م؛ ● ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1379 هـ/ 1957 م؛ ● الداودي، طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة، 1392 هـ/ 1972 م؛ ● محمد بن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، نشره ج. برجشتراسر ط، مطبعة السعادة، 1353 هـ/ 1962 م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413 هـ/ 1992 م؛ ● القسطلاني، لطائف الإشارات إلى فنون القراءات، تحقيق وتعليق الشيخ عامر السيد عثمان ود. عبد الصبور شاهين، ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1329 هـ/ 1972 م؛ ● شمس الدين الذهبي، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة،

1389 هـ/ 1969 م؛ ● ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، المطبعة التجارية ومكتبتها د.ت.؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط. السعادة بمصر، 1367 هـ/ 1949م.

د. محمود فزاح
جامعة الاسكندرية ـ مصر

البزّاز، حسن بن حسن بن علي

(1261هـ/1845 م ـ 1305هـ/1887م)

حسن بن حسين بن علي، الملقب بالملا حسن البزاز، من أشهر شعراء الموصل، ولد سنة 1261هـ/ 1845م، ودرس على الشيخ صالح بن طه الخطيب، وغلب عليه الشعر حيث كانت البزازة حرفته.

أخذ الطريقة الرفاعية عن الشيخ حاجي سلطان، والطريقة القادرية عن الشيخ محمد النوري، فَقَدَ بصره في أواخر حياته.

أغلب شعره في التصوف والمدائح النبوية، له ديوان شعر مطبوع مع ديوان محمد شيت الجومرد، وأعيد طبع وتحقيق ديوانه من قبل د. فاتح عبد السلام عام 1988، توفي حسن البزاز سنة 1305هـ/ 1887م.

عرف الملاّ حسن أفندي البزاز بالزهد والتقوى والورع الشديد، فقد ولد في أسرة معروفة بالزهد والتقوى وتأثر بها وعاش في كنفها يتلقى بذوره الروحية الأولى من سيرتها، وقد ساهم المناخ الديني والعلمي المزدهر لمدينة الموصل في تشكل ملامح الشاعر، وقد ساهم المناخ الديني والعلمي المزدهر لمدينة الموصل في تشكيل ملامح الشاعر واكتمال تجربته الشعرية الصوفية، تلك التجربة التي ولدت ناضجة كما تشير عدة دلائل إلى ذلك، منها أن البزاز كان ينظّم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره، ففي سنة 1227هـ، نظّم قصيدة موضوعها حالة سقوط الثلج في الموصل، جاء فيها:

تجلّى علينا عارضٌ غير ماطر
ولكنّه بالثلج عمَّ النواحيَا
فأصبحت الخضراءُ بيضاء قد زهتْ
وعادت رباها والبطاحُ كواسيَا
وكم بسطت منه البرودة والشتا
بساطًا على وجهِ البسيطة باهيًا

وتجمع المصادر التي تعرّضت لترجمة الملاّ حسن أفندي البزاز أنه كان فطنًا ذكيًا وشابًا لوذعيًا، وأنه كان من الأدباء الفضلاء المشتهرين بنظم الشعر والذائعي الصيت، وأنه كان علاّمة ألمعيًا، وكان إلى جانب شاعريته عالمًا أديبًا، قرأ عليه جمهرة من الأعلام، منهم محمد شيت الجومرد (ت 1343هـ/

1924م)، الذي جمع شعر البزاز وطبعه بمصر سنة 1305هـ، وتجدر الإشارة هنا، إلى أن القصائد التي جمعها الجومرد في الديوان لا تمثّل إلاّ النزر اليسير من شعر البزاز الذي لم يهتم أحد بتدوينه في وقتها، ولم يقدّم لنا الجومرد شيئًا عن حياة الشاعر البزاز، على الرغم من مصاحبته له، ودرايته بأحواله وطرائق عبادته وتصوّفه وتفكيره.

كان تيار المناسبات رافدًا من روافد الشعر العراقي في القرن التاسع عشر، وقد اتّسم الشكل الفني لقصائد الشعراء بصيغ التقليد والاجترار، وقد يكون السبب في هذا التقليد أن البيئة الاجتماعية التي عاشوا فيها، كانت نفسها تجتر التقاليد الموروثة التي لم تعد تلائم العصر، ويمكن أن نستثني من هذا الحكم عدة حالات شعرية عند حيدر الحلي، ومحمد سعيد الحبوبي، وعبد الغفار الأخرس، والملا حسن البزاز، فهؤلاء على قدرٍ عالٍ من الشاعرية، جعلهم أهلاً لبلوغ مكانة مرتفعة في صفحة الشعر العراقي في تلك الأيام.

تجمع الروايات الشفاهية المتداولة عشرات السنين على أن ديوان البزاز الذي بين أيدينا الآن والمطبوع في مطبعة حجرية بمصر سنة 1305هـ، لا يمثل إلاّ النزر اليسير من شعره، فهو من الشعراء المعروفين بقوّة الارتجال وسرعته، حتّى أن بعضًا من العوائل الموصلية ذات الصلة المتينة به كانت تعرفه بألقاب أخرى، فعائلة آل النقيب وهي من العوائل العريقة والفاضلة في الموصل، كانت تطلق عليه دائمًا اسم ملا حسن أفندي - الغوري - وذلك لسرعة استحضاره القصيدة، ولولا تعلّق الناس بشعره العذب الرقيق الموصول الأسباب بروح السماء وعلى رأس أولئك المجتبي لشعره تلميذه الشيخ محمد شيت الجومرد، لما وصلت إلينا بعض قصائد الشاعر محفوظة في كتاب مطبوع، وإن ساءت طباعته إلاّ أنه يقضي وطر الباحثين والدارسين والقرّاء.

ومن علامات زهد البزاز أنه لم يكن راغبًا بطبع أشعاره، لأنه كان يعتقد أن ما يقوله ليس شعرًا قدر كونه وصالاً صوفيا يسعى إليه، ومرتبة عليا يبغيها، وثمّة من يذهب إلى أن الشاعر البزاز، كان حيًا يوم قام الجومرد بطبع ديوانه، لكنه لم يكن يعلم بصنيع الجومرد، ولم يكن راضيًا عمّا فعل، ويقال إنه غضب على تلميذه الجومرد وقال إنه قلّل من قيمة المديوان.

لقد حفظت لنا ذاكرة الناس بعضًا من قصائد البزاز إلى جانب الديوان المطبوع، تارة بشكل موشّح يغنى في مناسبات دينية، وأخرى بشكل أدعية رقيقة علقت بألسن الأجيال يردّدونها بحب وشغف.

يُعَدُّ البزاز من أبرز شعراء مرحلته التاريخية، وتتوزّع أغراض شعره بين مديح الرسول الكريم محمد ﷺ وآل بيته الطيبين والأولياء والأئمّة والوقوف على مآثرهم الخالدة، وبين التضرّع إلى الله سبحانه وتعالى والفناء في ذاته.

والبزاز أهمّ شاعر في القرن التاسع عشر نظم القسم الأكبر من شعره في مدح رسول الله ﷺ وتبيان لواعج العشق الصوفي المتجلّي في حلل من رياحين الرضا المستحيل، وهو أقل الشعراء الصوفيين تطرّفًا في نظرته للحياة وأمورها.

إنّ قراءتنا لمدائح الشاعر تجعلنا نستعيد في ذاكرتنا تاريخًا طويلاً موغلاً في القدم من المدائح النبوية، ففي إحدى قصائده الشهيرة استشفاف لروح البردة وفحواها دون أن يقلدها فنيا.. إذ قال:

هذا العقيقُ وهذا البانُ والعلمُ
فاخلع نعالك فيه إنّهُ حرَمُ
وقفْ على الجزع نقْض حقّ أربعة
فإنها أربعٌ عندي لها ذممُ

ولا نكاد نجد الشاعر الملا حسن أفندي البزاز في ديوانه إلاّ متوسّلاً بالرسول الكريم، مناجيًا اسمه أو متضرّعا بفضله أو مستعطفًا لكي يشفع له.

وقد اقتفى البزاز طريق الشعراء الأولين الذين مدحوا الرسول العربي ﷺ فحاكاهم في الألفاظ والمسمّيات التي جاءوا بها، فذكر في شعره «صبا نجد» و«رامة» و«آرام النقا» و«الغضا» و«ثنيات اللوى»، تلك الأماكن التي وردت في الشعر العربي الإسلامي الذي امتدح الرسول الكرسم.

وعلى الرغم من أن الشاعر، كان يسكن في مدينة الموصل الموغلة في الحضارة، والمرتمية في أحضان الربيع والزهور وشقائق النعمان، فإنه أخذ يتلذّذ بتلك الأنسام البدوية الصافية التي كانت تعبق بها جزيرة العرب والتي كان قد تغنّى برائحتها الشعر العربي القديم كريح «الخزامى» و«العرار» محاولاً في شعره أن يعيش داخل الجو النفسي للبيئة التي عاش فيها الشاعر العربي الذي مدح الرسول الكريم، فكان تقليده روحيا لا فنّيا أو أدبيًا، فقد ورد في شعره:

وإذا جزت بوادي ضارج
فاحملي منه عرارًا وخزامى

وكذلك قوله:

كم هصرنا بالحمى غصن النقا
وَجنَيْنَا الورد قطفًا ولثامًا

لقد كان الشاعر ينتقل بعد مقدمة غزلية - وصلت في إحدى قصائده إلى اثنين وأربعين بيتًا - إلى مدح الرسول الكريم، وهي حالة جعلته يقترب بمديحه من غزله، بحيث أصبحت اللغة في وعائه الشعري ذات نسيج بنائي وروحاني متوحّد، ولعلّ هذا من الأمور التي يستوجبه الغرض الصوفي إذ الغزل من مكوّنات التعبير الصوفي ومن طبيعة المتصوّفين أصلاً.

ومدح البزاز آل الرسول الكريم ﷺ جميعًا، وأفرد للإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قسمًا من قصائده، وكان البزاز يسعى جاهدًا لأن يجعل آل البيت سببًا من أسباب وصوله إلى العُلا المحمّدي، وعاملاً من عوامل التودّد إلى المقام المرتجى، ومن الجدير بالذكر أن جميع رجالات الصوفية الذين امتدحهم البزاز، كانوا يرجعون بنسبهم إلى الرسول العربي الكريم.

واشتهر البزاز بأنه رجل صالح في قومه، له كرامات تصل الخوارق التي لا يصدقها كثير من الناس الذين ليس لهم دراية بسير الصالحين وأصحاب الطرق العبادية الصوفية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشاعر البزاز، لم يكن متنازلاً عن اشتراطات الحياة ومتطلّباتها أو تاركًا لمقتضيات الحياة الدنيا كما قد يحصل

عند غيره من المتطرّفين، وإنّما كان رجلاً «واقعيًا» في سلوكه اليومي وحياته المعيشيّة، فقد بدأ حياته مزارعًا له الكثير من الأراضي الزراعية، يزرعها مع إخوانه في ضواحي الموصل القديمة والقريبة المعروفة بقرية «جليوخان» وكان يلتزم زراعة الأراضي المجاورة القريبة من أملاك العوائل الأخرى.

ومما يذكر عن البزاز، أن السلطان عبد الحميد أهدى إليه أرضًا واسعة تعرف في الموصل باسم «الجفت لك» واسمها الحالي حاوي الكنيسة تكريمًا له وإجلالاً لمكانته.. وإن التحوّل المهم في حياة البزاز المعيشية، هو خسارته لأموال كبيرة عندما زرع أراضيه الكثيرة، ولم يحصد منها شيئًا إذ كانت السنة مجدبة، الأمر الذي دفعه إلى ترك هذه المهنة، والالتجاء إلى تجارة بيع الأقمشة «البزازة» التي اتّخذها باب رزق له وعرف بها هو وأولاده من بعده، إذ تعاطوا المهنة نفسها، فصار اسم العائلة «البزاز» بعد أن كانت تعرف باسم «بيت حسين الملا علي» وتذكر الروايات الموثوقة عن البزاز أنه كان زاهدًا في عمله التجاري لا يبغي الربح الفاحش، ولا يمكث في دكانه أكثر من ساعتين، وإذا سئل عن سبب إغلاقه الدكان مبكّرًا كل يوم يقول: اشتروا من جاري الذي لم يبع شيئًا بعد، وكان يقضي بقية النهار في الدرس على يد الشيخ عبد الله أفندي الذي لقبه بالبزاز.

وكانت مهنة البزاز غير مستحبة في نفس الشاعر، فهو يرى أنها قد سلبته همّته، إذ يقول فيها:

وقعت من البزازة في خمول
أطال عليَّ الزمان به عتابي
أيسلبني الزمانُ ثيابَ عزي
وأكسو أهلَهُ جُدد الثياب

وقد قال عن إضاعته لأمواله الكثيرة في الزراعة:

وقالوا كنتَ ذا مالٍ جزيل
وأنتَ اليوم تشكوه انتزاعا
تُراكَ اضعتَه في ارض قفر
فقلتُ نعم لزمت به الضياعا

وحقًا أضاع البزاز ثروته وبدد أمواله، ولم تبقَ ضياعه لتدرّ الربح، ولكنه كان الرابح الرئيس في إبداعه لشعره الرصين الغني بدلالاته والذي يبرهن أن المعرفة هي التي تبقى، وأن الثروة الحقيقية هي ثروة العقل التي كانت من نصيب البزاز.

آثاره

- ديوان البزاز، الملا حسن أفندي البزاز الموصلي الخزرجي، أعده وقدّم له د. فاتح عبد السلام، بغداد، 1988م، وطبعته الأولى الابتدائية في مصر سنة 1305هـ.

المصادر والمراجع

● الدليمي، محمد نايف، ديوان الموشحات الموصلية، مكتبة بسام، الموصل، 1975م؛ ● الأطرقجي، د. ذو النون، الشعر في الموصل، بحث منشور في موسوعة الموصل الحضارية، ج5، جامعة الموصل، 1992م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة

الثالثة؛ ● المختار، أحمد محمد، تاريخ علماء الموصل، الموصل، ط2، 1984م؛ ● صائغ، سليمان، تاريخ الموصل، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1927م؛ ● البيطار، عبد الرزاق، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، دمشق، 1961م؛ ● الورد، باقر أمين المحامي، أعلام العراق الحديث، مطبعة بغداد، 1978م؛ ● الفاروقي، العمري، أحمد عزة باشا، العقود الجوهرية في مدائح الحضرة الرفاعية، طبعة مصر، 1306هـ.

د. نجمان ياسين
كاتب ـ الموصل ـ العراق

البزّازي، حافظ الدين محمد بن محمد

(ت 827هـ/1424م)

هو حافظ الدين محمد بن محمد بن شهاب بن يوسف الكردري الخوارزمي الحنفي المعروف بالبزازي؛ صاحب الفتاوى البزّازية، فقيه، أصولي، يعرف أيضا بابن البزّاز، بفتح الباء الموحدة والزّايين بينهما ألف، وهي نسبة إلى من يبيع البز، وهو الثياب، واشتهر بها جماعة من المتقدمين والمتأخرين منهم المترجم له [ابن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، 1/ 146].

أصله من كردر بجهات خوارزم [شذرات الذهب، 7/ 183]. ويرى اللكنوي أنّ أصله من بلدة سراي قريب نهر آتل، ثم رحل إلى بلدة قريب بلده خارج ترخان في ساحل نهر آتل، وأقام بها سنين، ودرس فيها وناظر الأئمة والأعلام، ودارس الفقهاء، ثم عاد إلى بلاده. وبعدها رحل إلى بلاد الروم وبلاد القرم والبلغار [الفوائد البهية، 187].

لم تذكر مصادر ترجمته شيوخه ولا تلاميذه، ولكنها ذكرت أنّ من أخذ عنه ابن عربشاه أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم الرومي الحنفي العجمي (ت 854هـ / 1450م) وهو أديب ومؤرخ ومشارك في أنواع العلوم [شذرات الذهب، 7/ 280]، أقام عنده نحو أربع سنين، وأخذ عنه الفقه وأصوله، وقرأ عليه المنظومة في الفقه. وكذا اتصل به سعد الدين بن الديري، سعد بن محمد بن عبد الله النابلسي الأصل نزيل القاهرة (ت 867هـ / 1462 م) [الفوائد البهية، 78]، وكان من المعجبين بالبزازي حتى وصفه بأنه من أذكياء العالم [الضوء اللامع، 10/ 37]، واشتهر البزازي بعلمه، وكان يفتي بتكفير تيمورلنك.

صاحب عددا من العلماء وتباحث معهم، ومن العلماء الذين صحبهم وتباحث معهم شمس الدين محمد بن حمزة بن محمد

الرومي الفناري (ت 834هـ / 1431 م) وهو عالم مشارك في العلوم العقلية والنقلية، وغلبه البزازي في الفروع وغلبه الفناري في الأصول.

آثاره

1 ـ البزازية في الفتاوى وهو كتاب جامع لخص فيه زبدة مسائل الفتاوى والواقعات من الكتب ورجح ما ساعده الدليل وذكر الأيمة أن عليه التعويل في المذهب الحنفي وسماه «الجامع الوجيز»؛ فرغ من جمعه وتأليفه كما ذكر في أواسط كتابه عام اثنتي عشرة وثمانمائة قبل دخوله بلاد الروم، والكتاب مطبوع في مجلدين أوله حمدا لمن دعا إلى دار السلام . . . إلخ.

ولبعض الفقهاء منتخب من البزازية ويسمى أيضا «فتاوى الكردري» [حاجي خليفة، كشف الظنون، 1/ 242، 2/ 1229]؛ 2 ـ شرح مختصر القدوري، وكتاب المختصر للقدوري البغدادي الحنفي (ت 428 هـ) هو الذي يطلق عليه لفظ الكتاب في المذهب، وهو متن متين معتبر متداول بين الأيمة الأعيان، وهو مشتمل على اثني عشر ألف مسألة وشروحه كثيرة جدا منها شرح البزازي؛ 3 ـ مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ويسمى المناقب الكردريّة، طبع مع كتاب مناقب الإمام المذكور للموفق بن أحمد المكي، حيدر آباد، الهند 1320هـ في مج واحد [سركيس، معجم المطبوعات العربية، 1/ 556]؛ 4 ـ مختصر في بيان تعريفات الأحكام؛ 5 ـ آداب القضاء ذكرهما الزركلي في [الأعلام، 7/ 44]؛ 6 ـ مناسك الحج [كحالة، معجم المؤلفين، 11/ 224].

المصادر والمراجع

● السخاوي، محمد بن عبد الرحمان (ت 902 هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت؛ ● حاجي خليفة (ت 1067 هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت (د.ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● ابن العماد الحنبلي، عبد الحي (ت 1089 هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية؛ ● اللكنوي، محمد عبد الحي (ت 1304هـ)، الفوائد البهية في تراجم الحنفية مع التعليقات السنية، بيروت 1324 هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر، (مج. 1)؛ ● الزركلي، خير الدين (ت1976 م)، الأعلام، بيروت ط8/ 1989م، دار العلم للملايين؛ ● كحالة، عمر رضا معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية، بيروت 1376هـ/ 1957م، دار إحياء التراث العربي.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس
د. نبيلة عبد المنعم داود
مركز إحياء التراث العلمي ـ بغداد

البَزْدوي، أبو اليُسر محمد بن محمد بن الحسين

(421هـ/1030م - 493هـ/1100م)

أبو اليسر محمد بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم صدر الإسلام البزدوي نسبة إلى مدينة بَزْدة (بفتح الباء المنقوطة الواحدة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وفي آخرها الواو)، وهي قلعة حصينة على مسافة 32 كيلومترًا من مدينة نسف ما بين نهر جيحون ومدينة سمرقند على طريق مدينة بخارى الشهيرة في بلاد ما وراء النهر.

فقيه مدينة بخارى، وقاضي مدينة سمرقند انتهت اليه رئاسة الحنفية في بلاد ما وراء النهر، وقد توفي ببخارى سنة 493هـ / 1099م.

عاصرت أسرة البزدوي السلاجقة أو ما يسمى بسلاجقة خراسان تمييزا لهم عن سلاجقة العراق. وكان هؤلاء قد أخذوا يستقرون في بلاد ما وراء النهر قادمين من بلاد التركستان منذ بداية القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، وقوي نفوذهم مع مرور الزمن واصطدموا بالدولة الغزنوية وهزموها في سنة 429هـ / 1037م عند مدينة سرخس ودخل السلاجقة مدينة نيسابور في خراسان، ويعدّ هذا التاريخ بداية دولة السلاجقة، الذين ما لبثوا أن مدوا نفوذهم غربًا إلى الخلافة العباسية ودخلوا بغداد عام 447هـ / 1055م.

وعلى الرغم من عدم وضوح الصلة بين هذه الأسرة والسلاجقة إلا أنّ تبرّز عدد من أفراد هذه الأسرة القضاء يدلّ على شهرتهم وتميّزهم لاسيما أن رئاسة الحنفية كانت في أيدي هذه الأسرة. وكان جد هذه الأسرة الفقيه عبد الكريم بن موسى بن عيسى (ت 390هـ / 999 م) فخر الإسلام البزدوي، وأخو أبي اليسر محمد أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم البزدوي (400هـ/ 1009م - 482هـ / 1089 م)، أبو العسر فقيه بلاد ما وراء النهر وصاحب الطريقة على مذهب أبي حنيفة، له مؤلفات عديدة في هذا المجال، [بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 6/ 288].

وقد درس أبو اليسر محمد بن محمد البزدوي الفقه الحنفي على أيدي كبار علماء عصره أمثال الفقيه إسماعيل بن عبد الصادق، وعن جد أبي اليسر عبد الكريم، وعن أبي منصور الماتريدي محمد بن محمد بن محمود، وعن أبي بكر الجوزجاني، وعن يعقوب بن يوسف السياري وغيرهم.

وكان إمام الأئمة كثير التصانيف في الفقه الحنفي، وقد أملى كثيرًا ببخارى ودرس الفقه وكان من فحول المناظرين. وممن تفقه عليه وروى عنه نجم الدين عمر النسفي، وعلاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي، وابن أبي اليسر أبو المعالي أحمد بن محمد بن محمد بن الحسين البزدوي القاضي بمرو.

آثاره

من أهم مؤلفاته الفقهية:

1 ـ أصول الدين، مكتبة إسماعيل صائب، كلية اللغة بأنقرة 2/ 1261، وريتر بمجلة Oriens، 1/ 56، الهامش الأول [بروكلمان، تاريخ، 6/ 290]؛ 2 ـ المبسوط في فروع الفقه، في مجلدات [كشف الظنون، 2/ 1581؛ هدية، 2/ 77؛ معجم المؤلفين، 11/ 210]. ويقول صاحب كتاب الجواهر المضيئة إنه يقع في 11 مجلدًا؛ 3 ـ شرح الجامع الكبير، والجامع الصغير، وهو كتاب في تفسير القرآن يقع في قرابة 120 مجلدًا، ولم نعثر على ذكر لهذه المؤلفات في المراجع المعاصرة مما يجعلها في حكم الكتب المفقودة أو المغمورة.

المصادر والمراجع

● السمعاني، الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، بيروت 1988، دار الجنان 1/ 339؛ ● عبد القادر بن أبي الوفا، الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، الهند، حيدر آباد الدكن، 1332 هـ، 1/ 372؛ ● اللكنوي الهندي، أبو الحسنات محمد، الفوائد البهية في تراجم الحنفية، تعليق محمد بدر الدين أبي فراس النعساني، مصر مطبعة السعادة، 101، 188؛ ● الحموي، معجم البلدان، بيروت 1955، دار صادر ـ دار بيروت 1/ 409؛ ● البغدادي، هدية العارفين، إستنبول، 1955، وكالة المعارف، 2/ 77؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، بغداد، 2/ 1581، مكتبة المثنى؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة السيد يعقوب بكر، ورمضان عبد التواب، دار المعارف، 1977، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 6/ 288، 290؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1960، مطبعة الترقي، 11/ 210؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 7/ 22.

د. حازم غانم حسين
جامعة الموصل ـ العراق

بُزُرج، أبو محمد بن محمد العروضي

(ت 200هـ/896م)

أبو محمد بُزُرج بن محمد العروضي الكوفي من علماء الكوفة، عروضيّ، لغوي، حافظ وراوية. كان منقطعًا إلى الفضل بن يحيى.

تتفق الأخبار في أنه كان كثير الحفظ والرّواية، وأن الناس يجتمعون عليه لذلك، فاتّسعت دائرة مجلسه ممّا ساء الرّاويتين المعاصرين له حمادًا وجُنادًا. فدسّا إليه من

اختبره ممّن أثبت أنه إنما كان يكذب في ما يرويه من أخبار وما يذكره من أسانيد، وأنه كان يحدّث بالحديث عن رجل فعل شيئاً، ثمّ يحدّث به عن رجل آخر بعد ذلك. فتركه النّاس لذلك حتّى يجلس وحده.

آثاره

1 ـ كتاب العروض، أو العروض الكبير حسب ما ورد في إنباه الرواة، تذكر الروايات أنه نقض فيه العروض على الخليل وأبطل الدّوائر العروضية والعلل التي وضعها الخليل واستشهد على ذلك بأشعار رواها ونسبها إلى قبائل العرب؛ 2 ـ كتاب معاني العروض، وهو مرتّب على حروف المعجم؛ 3 ـ كتاب النّقض على الخليل وتغليطه في العروض؛ 4 ـ كتاب الأوسط في العروض؛ 5 ـ كتاب تفسير الغريب؛ 6 ـ أشعار مرويّة ذكر بعضها صاحب إنباه الرواة، 1/ 243.

المصادر والمراجع

● القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، 1/ 241 ـ 243؛ ● ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، 2/ 11؛ ● ابن النّديم، الفهرست، 113؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 7/ 71 ـ 75.

د. خالد ميلاد
جامعة منوبة ـ تونس

البزّي، أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله

(170هـ/786م ـ 250هـ/864م)

أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن القاسم بن أبي بزّة المكّي، مقرئ مكّة ومؤذن المسجد الحرام. وأبو بزّة الذي ينسب إليه البزي، فارسي الأصل من مدينة همدان، اسمه بشار، أسلم على يد الصحابي السائب بن أبي السائب المخزومي رضي اللّه عنه. ويعدّ البزّي من كبار أئمة القراءات، ومن أشهر من روى عن ابن كثير القارىء المكّي ت 120هـ / 737م بواسطة السند، وقد ولد سنة 170هـ / 786م. قرأ البزّي القرآن الكريم على عكرمة بن سليمان، وأبي الأخريط وهب بن واضح، وعبد اللّه بن زياد مولى عبيد بن عمير الليثي، عن إسماعيل بن عبد اللّه القسط، وقد اتفق الناقلون عن البزّي على أنّ إسماعيل القسط قرأ على ابن كثير نفسه، وهو أحد القراء السبعة المشهورين، وقارىء أهل مكّة. ولم يكتف البزّي بعلم القراءات وإنما تلقّى علم الحديث النبوي الشريف عن مؤمل بن إسماعيل، ومالك سعيد بن الحسن، وأبي عبد الرحمن المقرىء، وسليم بن حرب وآخرين [الذهبي، معرفة القراء، 1/ 144].

ويلاحظ أن البزي طلب العلم على علماء

مكّة، ولم تكن له رحلة خارج الحجاز، إذ لم يشر إلى ذلك كل من ترجم له، كما لم تكن له مواقف على الصعيد السياسي، أو على صعيد العلاقة مع رجال الإدارة في الحجاز أو خارجه، كما لم يشر إلى موقفه من فتنة خلق القرآن عام 218هـ / 833 م، في عهد الخليفة المأمون وإلى انتهاء الأزمة عهد المتوكّل الذي تولى الخلافة عام 232هـ / 846م.

أما أبرز تلاميذه الذين قرؤوا عليه فهم: إسحاق بن محمد الخزاعي، والحسن بن الحباب، وأحمد بن فروخ، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن علي، وأبو جعفر محمد بن عبد الله اللهبيان، وأبو العباس أحمد محمد اللهبي، وأبو ربيعة محمد بن إسحاق، ومحمد بن هارون، وموسى بن هارون، ومضر بن محمد الضبي، وأبو أحمد بن محمد الخزاعي، والعباس بن أحمد البرتي، وأبو علي الحداد، وأبو معمر الجمحي، ومحمد بن علي الخطيب. كما روى عنه القراءة قنبل، وحدث عنه أبو بكر أحمد بن عميد بن أبي عاصم النبيل، ويحيى بن محمد بن صاعد، ومحمد بن علي بن زيد الصايغ، وأحمد بن محمد بن مقاتل [ابن الجزري، غاية النهاية، 1/ 119 ـ 120].

ومن الجدير بالذكر أنّ البزّي اشتهر دون غيره من علماء القراءات بما رواه عن ابن كثير، وتكمن أهمّيته في أن له اجتهادات على قراءات ابن كثير، وتتسم سلسلة إسناد قراءته بأنّها ليس فيها قطع، وهذا يدل على أن قراءته متواترة. ولهذا السبب أجمع أهل مكّة على قراءته، وكانت قراءته متفقًا عليها؛ وللبزّي آثار في القراءات، فإنّه ألّف كتابًا في القراءات نقل عنه الداني في المفردات السبع، ولكن الكتاب مفقود لم يصل إلينا [الفضيلي، القراءات، 32].

وفي الوقت الذي أثنى فيه علماء الجرح والتعديل على رسوخه في علم القراءات وخاصة قراءة ابن كثير، فإنّهم ضعفوه في علم الحديث وتكلّموا فيه، على الرغم من أنّ الحاكم النيسابوري صحّح له حديثًا مرفوعًا في التكبير عند القرآن. فقد قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: ليّن الحديث؛ وقال العقلي: هو منكر الحديث؛ وقال أبو حاتم الرازي: هو ضعيف الحديث لا أحدث عنه، ولم يوثّقه إلا ابن حبان في كتابه الثقات [ابن حجر، لسان الميزان، 1/ 283 ـ 284].

المصادر والمراجع

● ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، 1952م، ج 1، ق 1/ 71؛ ● ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد (د.ت) 1/ 149؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره برجستراسر، طبع لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر 1352 هـ، 1/ 119؛ ● ابن حجر، تهذيب التهذيب، حيدر آباد الدكن 1327 هـ، 1/ 79؛ ● م.ن، تقريب التهذيب، تح. عبد الوهاب لطيف، بيروت 1975 م، دار المعرفة، 1/ 25؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، 1/ 541؛ ● م.ن، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح. محمد سعيد جاد الحق، القاهرة 1967 م، دار الكتب

الحديثة، 1/ 143 - 144؛ ● تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام، تح. عمر عبد السلام، بيروت، 1989 م، دار الكتاب العربي، 1/ 150؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة 1350 هـ، عنيت بنشره مكتبة القدسي، 1/ 120 - 121؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. احسان عباس، دار صادر بيروت (د.ت) 3/ 42؛ ● الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم، ط. 14، بيروت 1999 م، دار العلم للملايين، 1/ 204؛ ● الفضيلي، القراءات القرآنية، تاريخ وتعريف، بيروت 1988 م، دار العلم، 32/ 33؛ ● الصابوني، التبيان في علوم القرآن، بيروت، 1970، دار الإرشاد، 249.

د. عبد الستار حمدون عبد الله
جامعة الموصل - العراق
د. رعد محمود البرهاوي
جامعة الموصل - العراق

ابن بزيزة، أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم

(606هـ/1209م - 662هـ/1263م)

عبد العزيز بن إبراهيم بن أحمد بن محمد التَّيْمي، القرَشي، المعروف بابن بَزيزَة، أبو فارس وقيل أبو محمد.

اختلف الّذين اعتنوا بترجمته في تحديد تاريخ ولادته وتاريخ وفاته، ذهب محمد محفوظ في «تراجم المؤلّفين» [1/ 127] إلى أنّه ولد بتونس سنة 616هـ / 1229 م، في حين ذهب حسن حسني عبد الوهاب في «كتاب العمر» [1/ 394] إلى أنّه ولد سنة 606هـ / 1209م وهو الأرجح. أمّا وفاته فقد ذكر حسن حسني عبد الوهاب أنّها كانت بتاريخ 674 هـ. وقال مقديش في «نزهة الأنظار» أنّها كانت سنة 659هـ، وقال بروكلمان أنّها كانت سنة 664هـ. والتّحقيق ما نقله التنبكتي في «نيل الابتهاج» نقلا عن تقييد البسيلي عن كتاب «المُشرق في تحلية عُلماء المغرب والمشرق» لأحمد بن محمد المعروف بالشّريف الغرناطي (ت 696 هـ) وهو أنّه توفّي في الرّابع من ربيع الأوّل سنة 662هـ وهو معاصر لابن بَزيزة. ويدعم هذا القول ما ذكره الزّركشي في «تاريخ الدّولتين».

دفن ابن بَزيزَة بمقبرة محرز بن خلف داخل باب سويقة بحاضرة تونس.

درس الفقه على أبي محمد عبد السّلام البُرجيني (ت 662هـ / 1263 م) الفقيه الصّوفي والقاضي المشهور تلميذ زكريّاء بن الحدّاد المهدي تلميذ الإمام المازري. كما درس على محمد بن عبد الجبار الرّعيني السّوسي.

برز في علم الكلام والتّفسير مع تضلّع في الفقه، حتّى أنّ خليل اعتمده في كتابه الشهير. «وعُدَّ من أيمّة المذهب المالكي المعتمد عليهم». وقد وصفه بعضهم ببلوغ درجة الاجتهاد [حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، 1/ 394].

درّس بالجامع الأعظم بالزّيتونة، وتخرّج على يديه جماعة بلغوا المناصب العليا منهم محمد بن صالح بن رحيمة الكِناني الشاطبي نزيل بجاية الّذي أجازه.

عاش ابن بَزيزَة صدر الدّولة الحفصيّة في عهد الأمير الشّهير أبي زكريّاء الحفصي (ت 647هـ / 1249 م) وقد عرفت تونس في عهده المنعة والقوّة.

فقد أقام هذا الأمير الحفصي أركان الدّولة فاستقلّ عن الموحّدين من بني عبد المؤمن بمرّاكش الّذين تراجعت قوّتهم وضعف سلطانهم. وتمكّن من جهة أخرى من قمع ثورة البربر من قبيلة هوّارة. بل عمل أبو زكريّا على توسيع سلطانه حتّى بايعته الجزائر، كذلك سجلماسة وسبتة وطنجة من بلاد المغرب. واهتمّ هذا الأمير بالعلم وأهله. «فابتنى جامع القصبة وصومعته، وأنشأ في قصره مكتبة عظيمة جمع فيها ستّة وثلاثين ألف مجلّد من أنفس المؤلّفات» [حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، 129].

وقد أصبحت تونس قبلة العلماء والأدباء والشّعراء، وأضحى جامع الزّيتونة قطبا علميًا يلتقي فيه العلماء الوافدون من الأندلس ومن بلاد المغرب وإفريقيا.

برز ابن بَزيزَة في علم الكلام خاصّة، فقد ظهر تمكّنه من هذا الفنّ وضلوعه في مقالات الأشاعرة وفي الردّ على مقالات أهل الاعتزال من خلال كتابه «الإسعاد في تحرير مقاصد الإرشاد» الّذي ألّفه لشرح كتاب «الإرشاد إلى قواعد الأدلّة في أصول الاعتقاد» لإمام الحرمين عبد الملك الجُوَيني (ت 478هـ / 1085 م)، فقد وضّح ما أشكل من مفردات الإرشاد وحلّل مشكلاته ومقاصد تأويلاته وتعقّب الآيات والأخبار والقضايا الأصوليّة ففكّ رموزها وأبان عن دلالاتها.

جاء في مطلع كتابه: «بدأ الإمام (الجويني) بالاسم الاعظم الّذي هو قطب الأسماء، والجامع لمعانيها، وقد رأينا أن نفرد للكلام عليها كتابا مستقلاً بنفسه، جامعا لحقائقها، مطّلعا على أسرارها، إن شاء اللّه وأمهل في العمر ويسّر إتمامها في هذا القصد الجميل، واللّه يجعل ذلك لوجهه . . .».

وهو إلى ذلك متمكّن من علم الحديث روايةً ودرايةً مع حسّ نقدي. تبيّن ذلك عند تحقيقه مسائل رأى أن الجويني لم يُوفّق في التّدقيق فيها. يقول في كتابه «إيضاح السّبيل إلى مناحي التّأويل: «ثمّ ذكر (الجويني) بعد قوله عليه السّلام: إنّ اللّه خلق آدم على صُورته. وهو حديث انفرد به مسلم. وفي إفراد مسلم بن الحجّاج خلاف بين أهل العلم. ووهم الإمام بقوله غير مدوّن. وقد ذكرنا لجميع طرقه وتأويلاته في كتاب «منهاج العوارف إلى روح المعارف». ولا نطيل بذكرها ههنا. فمن أراد فليطلبه هنالك».

وفي كتابه «الإسعاد» إشارة إلى منهجه النّقدي الّذي اعتمده في تآليفه. وهو ما ينمّ على

اطّلاع واسع وقدرة عجيبة على توظيف معارفه، سواء في علم الكلام أو علم الحديث أو التفسير أو اللّغة وعلومها.

من ذلك أنّه نبّه في كتابه المذكور على نقده لبعض أطروحات الفيلسوف ابن رُشد الحفيد في كتابه «مناهج الأدلّة» حيث قال في الإسعاد: «وله في كتابه الصّغير الّذي سمّاه منهاج الأدلّة مواضع نبهنا عليها وفيها غلط فاحش».

إنّ المنحى النقدي الّذي تميّز به ابن بَزيزة يؤشّر على امتلاكه منهجا تأليفيّا بين المقاصد والوسائل، بين المقالات الأصوليّة، وعلوم اللّغة من نحو وصرف وبلاغة، ولعلّ ذلك ما دعاه ومكّنه من تأليف تفسير متّسع للقرآن الكريم جمع فيه بين آراء الزّمخشري وابن عطيّة من خلال الكشّاف والمحرّر الوجيز.

■ آثاره

1 ـ الإسعاد في تحرير مقاصد الإرشاد، وهو شرح على «الإرشاد إلى قواعد الأدلّة في أصول الاعتقاد»، لأبي المعالي عبد الملك الجويني، إمام الحرمين...

والكتاب في أصول الدّين (علم الكلام) ألّفه ابن بَزيزة بتونس سنة 644هـ / 1247م منه نسخة خطيّة في دار الكتب الوطنيّة بتونس تحت رقم 21615 (أصلها من مكتبة الشّيخ علي النّوري الصّفاقسي). ويوجد مع شرح ابن بَزيزة في نفس المجلّد شرح آخر لكتاب الإرشاد للجويني وهو لتقيّ الدين المُظفّر بن عبد الله المصري المعروف بالمُقترح (ت 612هـ)، وهو فقيه أصولي.

كما توجد نسخة خطيّة ثانية لـ«الإسعاد» بدار الكتب الوطنيّة، بتونس تحت رقم 604. وتوجد نسخة بخزانة جامع القرويّين بفاس تحت رقم 1273؛ 2 ـ البيانُ والتّحصيل المطّلع على علوم التّنزيل، وهو في تفسير القرآن الكريم جمع فيه المشكلات بين تفسيري الزمخشري في الكشاف وابن عطيّة في المحرّر الوجيز. منه نسخة في جامع القرويّين بفاس تحت رقم 28؛ 3 ـ مناهج المعارف إلى روح العوارف، فيه تأويل لأكثر الآيات والأحاديث المشكلة واختصره في الكتاب التّالي؛ 4 ـ إيضاح السّبيل إلى مناحي التّأويل؛ 5 ـ شرح التّلقين لعبد الوهاب بن نصر، القاضي، في الفقه؛ 6 ـ شرح الأحكام الصُّغرى لعبد الحقّ الإشبيلي في علم الحديث؛ 7 ـ شرح الأحكام الكُبرى لعبد الحقّ الإشبيلي في علم الحديث؛ 8 ـ شرح العقيدة البُرهانيّة لأبي عمرو عثمان بن عبد اللّه القيسي المعروف بالسّلالجي (ت 574هـ)، وتُسمّى قوّة الإرشاد. وهي في العقائد والسّلوك، من شرح ابن بَزيزة نسخة في دار الكتب المصريّة تحت رقم 18 تصوّف؛ 9 ـ شرح المُفصّل في النّحو للزّمخشري؛ 10 ـ غاية الأمل في شرح الجُمل للزّجاجي. منه نسخة بخطّ المؤلّف في مكتبة كوبرلي بإستنبول تحت رقم 1/ 1484؛ 11 ـ الأنوار في فضل القرآن والدُّعاء والاستغفار: وهي رسالة صغيرة أورد فيها أربعين حديثا في فضل القرآن. وفي آخرها باب في فضل الدّعاء. توجد نسخة منها في دار الكتب الوطنيّة بتونس تحت رقم 19160؛ 12 ـ شرح أسماء الله الحسنى.

المصادر والمراجع

● ابن أبي الضياف أحمد، الإتحاف، 1/ 162 ـ 163، تونس 1963م؛ ● التنبكتي أحمد، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط. بهامش الديباج المذهب لابن فرحون، ص 178؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر، 2 ج، تونس/ بيروت، 1410هـ / 1990 م، 1/ 394 ـ 397؛ ● الزركشي، محمد، تاريخ الدولتين، الموحدية والحفصية، ص 38، تح. محمد ماضور، تونس، المكتبة العتيقة؛ ● فهرس الكتبخانة الخديوية، 2/ 30؛ ● فهرس الكتب العربيّة في دار الكتب الوطنيّة المصريّة، 1/ 189؛ ● فهرس المخطوطات، خزانة القرويّين، 1/ 27 ـ 73؛ 3/ 332 ـ 333؛ ● كحالة، رضا، معجم المؤلفين، 15 ج، دمشق 1397هـ/ 1960 م، 5/ 239؛ ● الوزير السّراج الأندلسي، الحلل السّندسيّة في الأخبار التّونسيّة، دار الغرب الإسلامي 1985 م، 1/ 645؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيّين، لبنان، 1981م، 1/ 127 ـ 129؛ ● محمد مخلوف، شجرة النّور، القاهرة، 1349 / 1350 هـ، 1/ 190.

د. عبد الرزاق بسرور
وزارة التربية ـ تونس

البساطي، أبو عبد الله محمد بن أحمد

(760هـ/ 1359م ـ 842هـ/ 1439م)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الطائي القاهري، المالكي، المعروف بالبساطي (أو البسطي)، فقيه مالكي من القضاة وعالم مشارك في الأصول والنحو واللغة والمعاني والمنطق والحساب. ولد في جمادى الأولى سنة ستين وسبعمائة للهجرة (وفي رواية سنة 62) ببساط من قرى الغربية بالأعمال البحرية من أعمال مصر، واشتغل بالعلم منذ صباه، فأخذ عن مشايخ بلده. ثمّ ارتحل إلى القاهرة سنة 778هـ واشتغل بفنون كثيرة من العلم. وكان نابغة الطلبة في شبيبته.

وأول من أخذ عنه من المشايخ بالقاهرة النور الجلاوي المغربي المالكي ولازمه نحو عشر سنين في الفقه والعقليات وغيرها. ولما مرض الجلاوي أشار عليه بالقراءة في العقليات على العز بن جماعة، فلازمه في ما كان يقرئه من العلوم عقليًا ونقليا؛ وكذلك انتفع في الفقه مع فنون كثيرة وأكثرها أصول الفقه بابن خلدون، وفي العقليات بالشيخ قنبر العجمي؛ واشتدت ملازمته له، وأحبه الشيخ حتى أنه خصه بالاجتماع به دون رفقائه لما رأى من مزيد اهتمامه بالعلم؛ وسمع البخاري ومسلم

وبعض السنن من طائفة من أيمّة الحديث منهم التقي البغدادي سنة 790هـ، ولكنه لم يكثر منه ولم يزل يدأب في العلوم ويتطلّب المنطوق منها والمفهوم حتّى تقدم في أكثر علوم عصره؛ ونقل عنه تلميذه السخاوي أنه قال: «أعرف نحو عشرين علما لي نحو عشرين سنة ما سئلت عن مسألة منها» [الضوء اللامع، 7/ 6]. وعاش دهرا في بؤس بحيث إنه كان ينام على قشر القصب، وربما مضت الأيام وليس معه الدرهم بحيث يضطرّ لبيع بعض نفائس كتبه إلى أن تحرّك له الحظ فاشتغل بالتدريس وكان أوّل تدريس وليه تدريس الفقه بالشيخونية في سنة 805هـ ثم بالصالحية، وولاه جمال الدين الأستدار تدريس الفقه بمدرسته أول ما فتحت سنة 811هـ ثم تولى مشيخة تربة الملك الناصر فرج بن برقوق بالصحراء في سنة 818هـ بعناية نائب الغيبة الأمير ططَرْ، وناب في الحكم عن ابن عمه، ثم تولى القضاء بالديار المصرية في جمادى الأولى سنة 823هـ بعد موت جمال الدين عبد الله بن مقداد الأقفهسي في آخر الدولة المؤيدة، واستقر في قضاء المالكية نحو عشرين سنة إلى أن مات. حجَ سنة 833هـ وجاور بمكة سنة 834هـ وهو على قضائه، وهناك أقرأ كتبا كثيرة وانتفع به جماعة امتدحه منهم أبو السعادات بن ظهيرة [التنبكتي، نيل الابتهاج، هامش الديباج، 300 ـ 301].

تخرج به خلق كثير وتزاحم الأيمّة من سائر المذاهب والطوائف في الأخذ عنه منهم أبو القاسم النويري، والقلصادي، والكمال بن الهمام الحنفي، والنور السنهوري، والتقي الشمني، والمؤرخ شمس الدين السخاوي، ومحمد بن فرحون وغيرهم [مخلوف، شجرة النور الزكية، 241].

استمر البساطي في التدريس والقضاء، ولم يزل على ارتفاع مكانه في أمور الدنيا والدين حتّى توفي في رمضان سنة 842هـ، وصلّى عليه الحافظ ابن حجر العسقلاني إماما وقد رثاه الشهاب ابن أبي مسعود المنوفي بقوله من الخفيف:

مـاتَ قاضـي القضـاةِ يـا علـمُ فـاهْـجـعْ
واطْـوِ مـن بـعْـدِه بـسـاطَ الـبِـسَـاطـي
وابـكِ شـمـسًـا أغـارهـا الـقـبـرُ وافْـرُش
لـلـثّـرى وجـنـتـيْـك بـعـدَ الـبِـسَـاطـي

ثمّ دفن بجانب شيخه العز بن جماعة في تربة بني جماعة وأوصى أن لا يعلّم قبره بأحجار [السخاوي، الضوء اللامع، 7/ 7].

آثاره

عرف البساطي بالتآليف الكثيرة والمتنوّعة في شتّى العلوم النقلية والعقلية وكذلك في علوم اللغة والهيئة والحساب، **منها ثلاثة كتب في الفقه:**

1 ـ المغني في الفقه، متن جعله على تصحيح ابن الحاجب وشراحه لم يكمل، وصل به إلى كتاب «الحج»؛ 2 ـ شفاء الغليل في شرح مختصر خليل، في سفرين؛ أكثر فيه من الأبحاث اللفظية، قليل الفقه على نقص فيه من «السلم» إلى «الحوالة» و«الفرائض»، فكمله تلميذه أبو القاسم النويري؛ 3 ـ توضيح المعقول وتخريج المنقول على مختصر ابن الحاجب الفرعي، لم يكمله أيضا. وله كتب عديدة في الأصول والكلام، هي عبارة عن

تعليقات وحواش منها: 4 ـ حاشية على شرح المواقف لعضد الدين الإيجي؛ 5 ـ مقدمة، مشتملة على مقاصد الشامل، في الكلام وأخرى في أصول الدين؛ 6 ـ نكت على طوالع الأنوار للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي؛ 7 ـ تقريض،على كتاب «الرد الوافي» لابن ناصر الدين.

وسبب تأليف «الرد الوافر» أن ابن تيمية أفتى بحرمة شد الرحال إلى قبور الأنبياء، فصنف ابن الزملكاني رسالة في ردّه حتّى صرّح بكفر من أطلق عليه شيخ الإسلام فانتدب حافظ الشام ابن ناصر الدين الدمشقي (ت 842 هـ) فجمع كتابا انتصر فيه لابن تيمية سماه «الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيميّة شيخ الإسلام، كافر»، ويمكن أن تراجع هذه المسألة في ترجمة ابن الزملكاني.

وكان البساطي قد أجاد في هذا التقريظ ولمح فيه بالحط على علاء الدين البخاري الحنفي (ت 841 هـ) لأجل تجاذبهما في ابن عربي، حيث نازع البساطي العلاء البخاري في ذمّه لابن عربي وتكفير من يقول بمقالته.

وله في العربية والنحو: 8 ـ حاشية على «المطول» لسعد الدين التفتازاني (ت 792 هـ) و«المطول» هو شرح عظيم لكتاب «تلخيص المفتاح» في المعاني والبيان لجلال الدين القزويني الشافعي (ت 739 هـ)؛ 9 ـ شرح الدريدية أو مقصورة ابن دريد البصري اللغوي (ت 321 هـ)، وهي قصيدة طويلة مدحية تقع في 229 بيتا من الشعر أودع فيها صاحبها أغراضا نبيلة ومواعظ حسنة وحكما بالغة؛ 10 ـ شرح ألفية ابن مالك النحوي (ت672هـ)؛ 11 ـ شرح بديعية ابن حجة الحموي (ت 837 هـ)، وهي قصيدة تقع في 143 بيتا مشتملة على أنواع عديدة من البديع وهو علم يعرف به حسن الكلام ورونقه؛ 12 ـ مقدمة في العربية.

وله في المنطق والحكمة: 13 ـ حاشية على لوامع الأسرار لقطب الدين الشيرازي التحتاني، واللوامع شرح لمطالع الأنوار في المنطق للقاضي سراج الدين الأرموي (ت 682 هـ).

وله تآليف أخرى في علوم متفردة: 14 ـ كتاب في الطب على مفردات ابن البيطار المالقي (ت 646 هـ) ويسمَى أيضًا «جامع مفردات الأدوية والأغذية»؛ 15 ـ رسالة في المفاخرة بين مصر والشام؛ 16 ـ قصة الخضر عليه السلام؛ 17 ـ شرح التائية لابن الفارض الحموي (ت 576 هـ)، في التصوّف.

المصادر والمراجع

● السخاوي، شمس الدين (ت 902هـ)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة؛ ● السيوطي، جلال الدين (ت 911 هـ)، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، 1399هـ / 1979، دار الفكر؛ ● التنبكتي، أحمد بابا (ت1036هـ)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، بيروت، دار الكتب العلمية؛ ● حاجي خليفة (ت 1067 هـ)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، د.ت، دار إحياء التراث العربي؛ ● ابن العماد الحنبلي، عبد الحي

(ت1089 هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، دار الكتب العلمية؛ ● الشوكاني، محمد بن علي (ت1250هـ)، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، القاهرة 1348 هـ، دار المعرفة للطباعة؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 5/ 332.

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن بسّام، علي بن بسام الشنتريني

(بُعَيْد 460هـ/1067م ـ 542هـ/1147م)

علي بن بسام التغلبي الشنتريني، نسبة إلى شنترين (Santaren)، وتقع اليوم في البرتغال على بعد 67 كيلو مترا إلى الشمال الشرقي من لشبونة (أشبونة) [الترجمة الفرنسية لصفة جزيرة الأندلس من الروض المعطار، 129؛ ومادة شنترين في دائرة المعارف الإسلامية، ط. جديدة، 9/ 308]. وهي على جبل شاهق، ولها ربض على الضفة اليمنى من نهر تاجة (Tagus) على مسافة قصيرة من مصبّه في المحيط الأطلسي. وتتوسط منطقة خصبة وفيرة المحصولات والبساتين، وتتبعها جزر في المحيط، وكانت حسب القسمة الإسلامية تعدّ من كورة باجة [صفة المغرب... والأندلس من نزهة المشتاق، تح. دوزي، ودي غويه ـ أمستردام 1969، 186].

لم تنصفه كتب التراجم، فابن سعيد في [المغرب 1/ 417]، تح. شوقي ضيف، القاهرة 1952] يدرج اسمه في أدباء شنترين، ولا يزيد على أن يستكثر على رجل من غرب الأندلس النائي أن يؤلف مثل كتاب الذخيرة، ثم ينسى ابن سعيد هذا كله ويقول [رايات المبرزين، 62]: «وكان مستوطنا إشبيلية وأظنّه منها». ولا يعرف ياقوت عنه إلا أنه صاحب الذخيرة [معجم الأدباء، 4/ 1667، بيروت 1993]. وظنّ السخاوي أن الذخيرة كتاب في تاريخ الجزيرة الخضراء (إحدى المدن الصغيرة بالأندلس) [الإعلان بالتوبيخ، 125، دمشق 1349 هـ]. وقد أفادت المصادر الأندلسية والمشرقية مثل نفح الطيب ووفيات الأعيان ومسالك الأبصار.. إلخ. من كتابه دون أن تعرف شيئا عنه. ولكن بعض المحدثين بنوا أجزاء من سيرته اعتمادا على الذخيرة.

نسبته إلى شنترين تدلّ على أنه ولد ونشأ فيها، وظلّ في منطقة الغرب من شبه الجزيرة الأيبرية حتّى استولى ألفونسو الخامس (أذفونش) على بلده سنة 485هـ / 1092 م، فتفرّق أهلها في بلدان الأندلس، وبلغت بابن بسام هجرته القسرية إلى إشبيلية، عاصمة دولة

بني عباد من ملوك الطوائف، وهو كما يقول: «مفلول الغرب، مروّع السرب» [1/ 19]، فاستوطنها سنوات «ولا أنس إلا الانفراد، ولا تبلّغ إلا بفضلة الزاد» [م.س، 20].

أما في شنترين فيمكن القول إنه كان مرفّه العيش في بلد كثير الخيرات، معروفا بين أبناء وطنه بأدبه ونسبه التغلبي، يخالط الأدباء والشعراء، ويحضر مجالسهم. وفي أحد تلك المجالس التقى الشاعر الكبير عبد المجيد بن عبدون، وجرت بينهما نادرة طريفة، ظلّ يذكرها حتّى سجلها في الذخيرة [1/ 144]. وكان يسافر إلى القرى المجاورة وإلى مدينة لشبونة، وفيها تعرف إلى زعيم محلي هو الوزير الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري الذي لقي منيّته على أيدي جماعة من منافسيه [2/ 378، 786].

ولما هاجر إلى إشبيلية فَقَدَ ما كان يعتمد عليه: سعة الحال المادّية، والحسب الذي يفيء إليه، ووجد نفسه لاجئا في بيئة تعدّه غريبا. وكانت إشبيلية في أواخر أيام بني عباد تعاني أيضا التغيّر الذي يصاحب انتقال السيادة من يد إلى أخرى، فشهد فيها ابن بسام بقية من عظمة المعتمد، كما شهد مصيره النهائي على أيدي المرابطين. وتعرف إلى كثير من أحوال إشبيلية وأدبائها، ووصل نفسه بصداقة مع منجّم المعتمد: أبي بكر الخولاني، وكان يتردد إلى بيته، ويروي عنه أخبارا وأشعارا. ولما أصبحت المدينة تحت ولاية سير بن أبي بكر الأمير المرابطي احتلّ ابن بسام بعض الوظائف في الدولة الجديدة، ولذلك لم تكن مشاعره مع ملوك الطوائف لأنهم زائلون. ولم يكن يعجبه في إشبيلية - وهو المنفي من وطنه - تزلّف الشعراء للحكام ومخادعتهم بقولهم إن ملوك الطوائف يدفعون الضرائب لصاحب قشتالة نصرا للإسلام، بل علّق على مثل هذا الموقف بقوله: «وهذا مدح غرور وشهادة زور» [2/ 515]، وبخاصة أنه شهد في دار بعض الأشراف رسائل توجّه إلى الولاة تستحثّهم على الإسراع في جمع الضرائب، التي كانت سمة إذلال لأولئك الملوك.

ولم يكن ينتقل عن إشبيلية إلا لزيارة قرطبة، ذات المنزلة الثقافية العريقة، ونراه يزورها لأوّل مرّة سنة 494هـ/ 1092 م، ويدخل عليه حيث يقيم هلال بن الأديب ويقرع سمعه بشعر لأبي بكر بن عبد العزيز [2/ 536 - 537] فينتهز الفرصة ليكتب رسالة إلى الشاعر، يحملها إليه هلال المذكور.

ولكن استقراره في إشبيلية - عاصمة المرابطين - كان ضروريا للقيام بمشروع أدبي يجمع فيه أشعار الشعراء وترسّل الناثرين. وكان المشروع، وهو كتاب الذخيرة، واضحا في نفسه من حيث الزمان والمكان، فهو سيقصره على القرن الخامس هجري ولا يعرض لأدباء العهد الأموي والعامري لأنه يعد مشروعه الجديد مكملا لما قام به ابن فرج الجياني في كتابه «الحدائق». ومن حيث المكان فهو يقسم كتابه قسمة جغرافية، فيخصص قسما لقرطبة وما يصاقبها من موسطة الأندلس، وقسما لأهل الجانب الغربي، إشبيلية وما اتصل بها حتّى ساحل المحيط، وقسما ثالثا للجانب الشرقي من الأندلس. ثم يخصص قسما رابعا نصفه لأهمّ من طرأ على الأندلس من إفريقية

والشام والعراق، ونصفه الثاني لأشهر المعاصرين في هذه الأقاليم. وكل قسم من أقسام «الذخيرة» يقع في جزءين. وكان الذي حفزه إلى هذا التأليف إهمال الأندلسيين لتراثهم الأدبي واستهانتهم به، وتقليدهم للمشارقة واحتفالهم بكل ما يرد من المشرق. ومع أنه نعى على أهل بلاده حبّهم للتقليد، فإنه لم يلبث أن وقع فيه، إذ صرّح أنه يحاكي بـ «الذخيرة» كتاب «اليتيمة» للثعالبي في قسمته إلى أربعة أقسام؛ ولكن ابن بسام في هذا أخطأ وظلم نفسه بهذا التصريح، إذ لا يقف «اليتيمة» على مستوى «الذخيرة» في غناه وامتلائه بالأخبار والأشعار، وليس للثعالبي في «اليتيمة» مثل أسلوب ابن بسام، وصاحب «الذخيرة» ناقد أصيل ذو اهتمام خاص بالبديع وبالكشف عن توارد شاعرين أو أكثر على معنى واحد (أي موضوع السرقات الشعرية).
لكن على الرغم من اهتمام ابن بسام بالشعر فإنه يقدم الناثرين على الشعراء، ويقول: «ومع أن الشعر لم أرضه مركبا، ولا اتخذته مكسبا، ولا ألفته مثوى ولا منقلبا، إنّما زرته لماما، ولمحته تهمّما لا اهتماما»، فهو - في حقيقة الأمر - مترسل يقول الشعر أحيانا.
وكان في خطّته العامة أن يصون كتابه عن الهجاء - وهذا منزع أخلاقي عند بعض الأندلسيين - ولهذا اكتفى بإيراد المعاريض أو الهجاء الذي لا يذكر فيه اسم المهجوّ. وأعرض عن شرح الغريب. واكتفى بإيراد ما اتّصل بالشعر والنثر من أخبار. وعوّل في توضيح الحوادث على ابن حيان مؤرخ الأندلس، فإذا لم يجدها عنده صاغها بأسلوب يشبه بعض الشيء أسلوب ابن حيان، وبذلك احتفظ بمادة كثيرة من تاريخ الأندلس، تبرز قيمتها إذا تذكرنا أن كثيرا مما كتبه ابن حيان لم يصلنا.
ولم يكن إنجاز هذا المشروع سهلا، بل كان يتطلّب جهدا وصبرا عظيمين على مدى سنوات، وكان ابن بسام يخشى أن يسيء الناس في إشبيلية وغيرها فهم ما يريد تحقيقه؛ كان يخشى أن يتّهم بأنه إنما يريد أن ينتحل ما يصله من عيون الشعر والنثر. هذا إلى ما لقيه من مشقّة للحصول على ما يعينه من وثائق ومراجع، وما واجهه من قراءة خطوط صعبة، ومخطوطات حائلة. ولما كمل كتابه أهداه إلى شخص لم يذكر اسمه، ومن الصعب اكتشاف ذلك على وجه التحقيق.

آثاره

1 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، نشر على مراحل، بعض الأجزاء حققها شوقي ضيف وآخرون بإشراف طه حسين، وطبع في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة = فؤاد الأول) سنة 1942، ثم حققه إحسان عباس ونشرته دار الثقافة ببيروت سنة 1399هـ / 1979 م، والدار العربية للكتاب بتونس سنة 1981؛ 2 - ذخيرة الذخيرة، لعله اختصار للذخيرة؛ 3 - الإكليل المشتمل على شعر عبد الجليل (ابن وهبون)؛ 4 - سلك الجواهر من نوادر ترسيل ابن ظاهر (صاحب مرسية)؛ 5 - الاعتماد على ما صح من أشعار المعتمد بن عباد؛ 6 - نخبة الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار.

المصادر والمراجع

إضافة إلى ما ورد في المدخل من مراجع نذكر ما يلي:

● ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة؛ ● الضبي، أحمد، بغية الملتمس، 376، 378؛ ● بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، تر. حسين مؤنس، القاهرة 1855م، Ch. Pellat, EI 2 Vol. III, p. 296 - 288 734; ● ابن محمد، علي؛ ابن بسام الأندلسي وكتابه الذخيرة، الجزائر 1989م، في 442 صفحة.

د. إحسان عباس
الجامعة الأردنية ـ عمان

البستاني، ادوار خليل عيد

(1324هـ/1906م ـ 1400هـ/1979م)

ولد في دير القمر بلبنان في 19 نيسان 1324 هـ/ 1906م. تلقى علومه في مدرسة الآباء اللعازاريين (عينطورا)، ونال الشهادة بتفوّق. أكمل الدرس والتحصيل على الرغم من أنّه عُيّن كاتباً في العدليّة، فسجّل اسمه في معهد الحقوق الفرنسيّ في بيروت، ونال الشهادة، وأصبح من رجال القانون، بيد أنّه لم يتعاط المحاماة بل ظلّ موظّفاً في العدليّة.

ولتضلّعه من اللغتين العربيّة والفرنسيّة، عُيّن مترجماً، فرئيساً لقلم الترجمة، ثمّ رئيساً لدائرة الترجمة والمنشورات الرسميّة في وزارة العدل، فترجم الأحكام القضائيّة من الفرنسيّة إلى العربيّة وبالعكس. كما بدأ مع خليل تقيّ الدين ترجمة قانون العقوبات، وهو نصّ من ثلاثمائة صفحة بحجم صفحات الجريدة الرسميّة، لكنّه ترك العمل قبل نهاية الربع الأخير منه.

انتُدِب، أثناء انعقاد مؤتمر الأونيسكو في بيروت العام 1948 م، للقيام بالترجمة الفوريّة، فقام بهذه المهمّة خير قيام. وعُيّن رئيساً لدائرة الترجمة والمنشورات لرئاسة الجمهوريّة ورئاسة الوزراء، فتخلّى عن القضاء وقبل الوظيفة إلى أن أصبح مديراً للشؤون الإداريّة في وزارة العدل، حتّى تاريخ إحالته على التقاعد. ويُعَدُّ إداريّاً كبيراً وفي طليعة موظّفي الدولة الأكفاء النزهاء. توفّي في 2 آذار العام 1979 م/ 1400 هـ.

يمتاز إدوار البستاني، في سائر مؤلّفاته، بسلاسة التعبير على متانة وإيجاز، لا أثر للحشو ولا للتصنّع في كلّ ما يكتب، يميل مع الطبع الدافق، ولا يجري قلمه إلاّ تلبية لنداء الخاطر، غير متأثّر بهوى دخيل، وإرادة عابثة مغرضة.

هو ناثر بليغ، وشاعر يذوب رقّة وعاطفة، وله قصائد مهمّة في موضوعات مختلفة، وكلّها من وحي خياله ونضج عاطفته، وقد اشتهر

بالغزل المعبّر عن صدق الميل، ونعومة الهوى، والحسّ المرهف، والشعور بالجمال، فينتزع أجمل صورة شعريّة ترسمها أنامل الفنّ ملوّنة بأعذب ما يسكبه عليه الخيال من ألوان العاطفة.

يحبّ الجمال، وإذا أحبّ رأى في محبوبه كلّ شيء جميل، فيقول:

أحبُّكِ حُبَّ الندى للزهرْ
وحبَّ الشذا لشفاهِ السحَرْ

وحبَّ الجفونِ لنورِ العيونِ
وحبَّ العيونِ لنورِ البصرْ

ولكنَّ حبّيَ اقلُّ هناءً
واكثرُ دمعًا وابقى اثرْ

وحبَّ الغريبِ لوجه الحبيب
وحبَّ الكئيبِ لوجهِ القمرْ

وحبَّ الشريد لوادٍ بعيدٍ
وحبَّ الاقاحي لقطْرِ المطرْ

وبيني وبينكِ في مقدسِ السرّ
ما بين ذوبِ الكرى والنظَرْ

عصارةُ نفسي ونهلةُ كاسي
على شفتيكِ رُؤى وصُوَرْ

تجرّدتُ من عرضِ الشكلِ حتّى
كأنّي حديثٌ مضى أو خبرْ

وإنّي لحنٌ وجيعٌ تعطّرْ
من أنّتي ريشةٌ ووترْ

فرش نثار الخلودِ عليكِ
وفي مقلتيكِ غفا واستقرّ

إنّه لحبٌّ نقيّ آثاره أجمل ما في الحياة من جمال يرضي العين والروح، وإنّه لشعر يسمو بصاحبه إلى ذروة التفوّق في الخيال حيث يصعّد أنغاماً سحريّة تنبعث مع تواقيع الألفاظ الموسيقيّة العذبة الجَرْس، ممّا يجعل النفس تطرب لمثل هذا الحبّ.

آثاره

لمع في مطلع حياته في مجالات الأدب، فألّف وترجم ونظم الشعر، لكنّ انتظامه في سلك الوظيفة خفّف اندفاعه الأدبيّ وإكمال مسيرته العلميّة.

بدأ الترجمة وهو في التاسعة عشرة من عمره، وكان بعدُ تلميذاً في عينطورا، وذلك بأن ترجم تمثيليّة 1 ـ «في سبيل التاج» لواضعها فرنسوا كوبيه، مُثّلت في باحة سرايا دير القمر في مطلع العشرينات. 2 ـ وله منشورات كثيرة منها ما هو موضوع ومنها ما هو مترجَم. أمّا الموضوع فرواية «القبر والأمل»، وهي قصّة قصيرة، وصفها بالرواية الغراميّة التهذيبيّة، ألّفها وهو طالب في مدرسة عينطورا؛ 3 ـ مناهج الترجمة: وهو كتيّب قيّم، طبع العام 1945م، يعلّم أصول الترجمة، اعتمد فيه على عوامل الذوق في الترجمة مع مراعاة الدقّة، وحسن السبك، وتوخّى من المبادئ ابتعاد المترجم عن الابتذال في النقل والانحراف عن المعنى، واستلهامه من روح المؤلّف. وتضمّن الكتيّب أربعة أبواب هي:

أ ـ باب أصول الترجمة.

ب ـ باب الترجمة العمليّة.

ج ـ باب تصادم العبقريات.

د ـ باب الأمثلة والشواهد.

وقسّم كلّ باب إلى فصول. ويدلّ الكتاب على ما كان عليه المترجِم من مقدرة في الترجمة والتعريب، ومن تضلّعه من أصول اللغتين الفرنسيّة والعربيّة، وهذا ما ندركه في سائر كتبه، ولاسيّما التقنية منها وتلك التي تعالج الشؤون العسكريّة، إذ فيها الكثير من الابتكار، وتوليد المعاني، واستنباط المصطلحات والمفردات في زمن لم تكن قد وضعت بعد القواميس والمعاجم المتضمّنة مثل هذه الأمور، ويعبّر عن مقدرة البستاني في فنّ الترجمة.

ويعلّم الكتاب أصول الترجمة بأسلوب علميّ تطبيقيّ واضح؛ 4 ـ الكتاب الذهبيّ لجيوش الشرق 1918 ـ 1936: طبع العام 1938م، ووضع مقدّمته الجنرال هونتزيغر القائد الأعلى لجيش الشرق. وقد وُضع في لغة حربيّة مقتضبة، فكان لا بدّ للمعرِّب الأمين من أن يحفظ له هذه الصبغة من الاقتضاب والإيجاز، ولكنّ له مقابل ذلك حسنتين من الوضوح والجلاء، وميزتين من الرشاقة والروعة، «فعسى أن يكون موضوعه قدوة لجيشنا الناشئ»، على اعتبار أنّ عناصر هذا الجيش الوطنيّة أصبحت نواة جيش لبنان المستقلّ العام 1945؛ 5 ـ رحلة إلى الشرق للرحّالة الفرنسيّ فولني وعنوانه أساساً

وقد وضع له المترجم عنواناً آخر هو مباحث أجنبيّة في تاريخ لبنان: «ثلاثة أعوام في مصر وبرّ الشام» طُبع العام 1949م، وقال المترجم في المقدّمة: «هذا الرجل، البحّاثة، العبقريّ الفرنسيّ فولني، الذي جاء إلى الشرق في أواخر القرن الثامن عشر، لم يأته كسائر رحّالي الفرنجة الذين تدافعوا إليه على التوالي بداعي الفضول، ومشغوفين بصوفيّته الغامضة، وروحانيّته المبهمة الغائمة، بل لعلّه انطلق إليه بقصد معيّن من حكومته عهدئذٍ لاستطلاع أحوال السلطنة العثمانيّة في ذلك الشطر من العالم الذي ما برح مطمح الفاتحين، ومحطّ أطماعهم منذ أقدم العصور»؛ 6 ـ خواطر بسكال للفيلسوف الفرنسيّ المشهور، طبع العام 1972، وهو من أهمّ كتب إدوار البستاني المترجمة من الفرنسيّة إلى العربيّة. قال في المقدّمة: «الحديث عن بسكال، والإحاطة بجوانب شخصيّته الفريدة، مغامرة من البديهي أن يجاوز مداها هذه الأسطر الوضيعة. أمّا كلمتي هنا فنظرة خاطفة، ما أبعدها عن الشمول، وهي، إذن، مدخل ضيّق إلى المجال الأوسع في إطلالة على أجواء السناء والنبوغ. حسبي أن أشرف مع القارئ على الخواطر الخالدات لنألف مناخ السموّ والجلال، ونرتفع إلى تجلّيات الصوفيّة والاعجاز»؛ 7 ـ آلام ورتر للشاعر الألمانيّ غوته، إذ عهدت إليه وزارة التربية القيام بهذه الترجمة لمناسبة الذكرى المئويّة للعبقريّ الألمانيّ.

8 ـ وللبستاني غير ذلك من الكتب الموضوعة والمترجمة ومقالات وأبحاث أدبيّة قيّمة نُشرت في مجلّات وجرائد عدّة، وديوان شعر غير مطبوع.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● البستاني، كميل أفرام، دير القمر في ثنايا الزمن، المطبعة العربيّة، بيروت، «Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1873-1874 et 1875، 2000 ص 535؛ ● البستاني، ملحم ابراهيم، كوثر النفوس وسفر الخالدين، مطابع المرسلين اللبنانيّين، جونيه، لبنان، 1954، ص 529 ـ 532؛ ● الجندي، أدهم، أعلام الأدب والفنّ، مطبعة الاتّحاد، دمشق، 1958، ج 2، ص 278؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه، الجزء الرابع، أعلام النهضة القرنان التاسع عشر والعشرون، منشورات الجامعة اللبنانيّة قسم الدراسات الأدبية 7، بيروت، 1983، ص 103 ـ 104؛ ● نعمه، جوزف، دير القمر عاصمة لبنان القديم، مطبعة جوزف رعيدي للطباعة، 2001، ص 443 ـ 445.

2 ـ الجرائد:

● النهار، 20 آذار 1979، ص 7.

د.يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البستاني، بطرس بن بولس بن عبد الله

(1234هـ/1819م ـ 1300هـ/1883م)

هو بطرس بن بولس بن عبد الله البستاني، لغوي، ومؤرّخ، وخطيب، وعالم واسع الاطّلاع، وأحد أركان النهضة العربيّة الحديثة. ينتمي إلى أسرة ريفيّة تخصّصت في الزّراعة فحملت لقب البستاني [جورج نخلة، أعلام لبنان، 3].

لم يكن بطرس العالم الوحيد الّذي أنجبته هذه العائلة فهناك العالم فؤاد أفرام البستاني، وسليمان البستاني وسليم البستاني، إلاّ أنّ بطرس أشهرهم جميعا نظرا إلى ما يتمتّع به من ثقافة موسوعيّة وإبداعات في مجال التأليف والكتابة والخطابة، لذلك كان جديرا بحمل لقب «معلّم القرن التّاسع عشر» [نخلة، م.س، 32].

ولد بطرس البستاني بن بولس بن عبد الله البستاني في قرية الدبيّة في لبنان وتوفّي ببيروت. بدأ البستاني بتلقّي العلم منذ صغره في قرية الدبّية على يد رجال الكنيسة في مدرسة «تحت السنديانة»، فتلقى العربيّة والسّريانيّة وأصول الفضائل المسيحيّة على يد الخوري ميخائيل البستاني. ونظرا إلى ما امتاز به البستاني من شدّة الذّكاء أرسله المطران

عبد الله البستديانة إلى مدرسة «عين ورقة» التي أمضى فيها عشر سنوات 1830 ـ 1840م أتقن خلالها: اللّغة العربيّة، والمنطق، والتاريخ، والحساب والجغرافيا وعددا من اللّغات كالسّريانيّة، واللاّتينيّة والإيطاليّة، إضافة إلى اللاهوت ومبادىء الحقّ والقانون [زيدان، جورجي، مشاهير الشّرق، 8/ 35].

تخرّج البستاني من مدرسة «عين ورقة» بتفوّق كبير ممّا شجّع البطريرك يوسف حبيش على إرساله إلى روما لمتابعة دراسته هناك إلاّ أنّ رفض أمّه لسفره بسبب وفاة والده حال دون ذلك [نخلة، م.س، 5].

تابع البستاني دراسته فكان معلّم نفسه حتى أتقن الإنكليزيّة والعبريّة، وتوسّع في دراسة اللّغة العربيّة وآدابها؛ وكان إلى جانب ذلك يتابع ما يستجدّ من المعرفة والعلوم في مختلف اللّغات [البستاني، فؤاد إفرام، م.س: د].

بعد تخرّجه من مدرسة «عين ورقة» عيّن مدرّسا فيها لكنّه لم يستمرّ طويلا، فغادرها إلى بيروت ليعمل مترجما لدى كلّ من البعثة الإنكليزيّة التي دخلت إلى لبنان بحجّة مساعدة الدّولة العثمانيّة على طرد إبراهيم باشا، والبعثة الأمريكيّة في لبنان لتعليم اللّغة العربيّة لأفراد البعثة الأمريكيّة وترجمة بعض الكتب وتعريبها. وأثناء عمل البستاني لدى البعثة الأمريكيّة تعرّف على كلّ من الدّكتور كورنيليوس فانديك، والدكتور عالي سميث وقامت بينهم صداقة متينة أدّت إلى اشتراك البستاني مع الدّكتور فانديك في تأسيس مدرسة «عبيه» 1846م وفق أحدث الطّرق التّربويّة، وعمل مدرّسا فيها لمدّة عامين [زيدان، م.س، 2/ 36].

وفي 1848م شرع الدكتور سميث في ترجمة العديد من أسفار التّوراة؛ ونظرا إلى أنّ البستاني يتقن إلى جانب العربيّة والإنكليزيّة كلاّ من السّريانيّة والعبريّة فقد استعان به الدّكتور سميث في ترجمة أسفار الكتاب المقدّس إضافة إلى العديد من الكتب الأدبيّة. وفي نفس العام 1848م ترك البستاني التّدريس في مدرسة عبيه، وعاد إلى وظيفة التّرجمة، فعمل مترجما لدى القنصليّة الأمريكيّة في بيروت حتّى عام 1862م. وقد كانت هذه الفترة الطّويلة التّي قضّاها البستاني مترجما لدى البعثات الأجنبية الإنكليزيّة والأمريكيّة، والعلاقات التّي أقامها مع شخصيّات علميّة بارزة أمثال الدّكتور فانديك والدّكتور سميث، ذات أثر عظيم في إغناء مداركه العلميّة والثّقافيّة في شبابه. ذلك أنّه لم يكتف بالاطّلاع على الأنظمة التّربويّة والتعليميّة الحديثة التّي كانت تطبّقها تلك الدّول، بل إنّه ازداد اطّلاعا على أحوال تلك البلاد وما حقّقته من نهضة علميّة واجتماعيّة.

وفي عام 1847 ـ 1848م اشترك المعلّم بطرس البستاني مع مجموعة من رفاقه في تأسيس جمعيّة ثقافيّة علميّة هي «الجمعيّة السّوريّة»، وهي ذات هدف سياسي واجتماعي، وقد جمع البستاني نشاطات وأعمال هذه الجمعيّة في كتاب «أعمال الجمعيّة السّوريّة».

وفي أواخر الأربعينات بدأت تظهر اتّجاهات البستاني نحو «الحرّيّة والوطنيّة» فكان فعّالا في عدد من الجمعيّات حيث ألقى عددا من

المحاضرات التي تدعو إلى الحرّيّة والوحدة الوطنيّة. وفي 14 كانون أوّل 1849م ألقى البستاني أشهر خطبه وكانت بعنوان «خطاب في تعليم النساء» في جلسة مفتوحة «للجمعيّة السّوريّة» [داية، جان، المعلّم بطرس البستاني، دراسة ووثائق، 13].

وفي عام 1863م أسّس البستاني «المدرسة الوطنيّة» ردًا على المجازر الطائفيّة التي حدثت في لبنان، وهي تقوم على الحريّة الدّينيّة، فكانت تقبل الطّلبة من كافة الطوائف والأجناس دون التعرّض لمذاهبهم الخاصّة. فدرس فيها طلبة من سوريّة ولبنان ومصر والآستانة، واليونان، والعراق، وقد تولّى بطرس البستاني إدارتها إضافة إلى تدريس بعض المواد.

وفي عام 1868م اشترك البستاني مع البازجيين في تأسيس «الجمعية العلمية السّورية»، وهي جمعيّة ذات هدف سياسي واجتماعي تسعى إلى رفع شأن العرب والعربيّة والدعوة إلى الوحدة العربيّة ونبذ التعصّب الديني والطائفي [نخل، جورج، م.س، ص8].

أصدر البستاني عددا من الصحف هي: النفير سوريّة، والجنان، والجنّة، والجنينة.

آثاره

1 ـ محيط المحيط (بيروت، 1867م / 1870 م)، وهو معجم استند فيه إلى «القاموس المحيط» للفيروزأبادي، لكنّه خالف ترتيب الفيروزأبادي القائم على الترتيب بحسب الحرف الأخير من الجذر (أي: باب الحرف الأخير من الجذر، وفصل الحرف الأوّل منه)، ورتّبه بحسب الحرف الأوّل من الجذر، محافظًا على عبارات الفيروزبادي في كثير من الألفاظ، لكنّه زاد أشياء كثيرة وخاصّة الأسماء التي جاءت بها العلوم الحديثة في عصره والمنقولة عن اللّغات الأجنبيّة، كما أوضح الكثير من أصول الألفاظ الأعجمية التي كان أصلها مجهولا أو مهملا وجمع الكثير من الألفاظ العاميّة وفسّرها بالألفاظ الفصيحة، وقد صدّر كلّ باب بكلمة عن الحرف المعقود له، شارحا فيها موقعه في الترتيب الألفبائي، واسمه في العبريّة والسّريانيّة، واستعمالاته المختلفة، وقدْره في حساب الجُمّل. كما نبّه على باب كلّ فعل ليُعرف تصريف الماضي والمضارع منه، ضابطًا الأسماء بالحركات، مقسّما كلّ صفحة إلى عمودين، وواضعا في أعلاها كلمتين: إحداهما في يمين الصفحة تدلّ على المادّة الأولى فيها، والأخرى في يسارها تدلّ على مادّتها الأخيرة. وقد صدر هذا المعجم في مجلّدين كبيرين (صدرا في بيروت سنة 1867 م، وسنة 1870 م. وكان البستاني قد فرغ من تبييضه سنة 1869م. وقد أعادت مكتبة لبنان في بيروت طباعته بحلّة جديدة وفي مجلّد واحد سنة 1977 م)؛

2 ـ قطر المحيط، صدر هذا المعجم في طبعته الأولى ببيروت سنة 1869، وهو معجم مدرسي موجه إلى الطلاّب، قد اختصر فيه المؤلّف معجمه الكبير «محيط المحيط»؛

3 ـ دائرة المعارف، وهي دائرة معارف علميّة عربيّة، وقد أصدر منها ستّة أجزاء، وكان يهيّيء المجلّد السابع للطبع عندما وافته المنيّة، فأصدر ابنه سليم المجلّد السّابع سنة 1883 م، والثامن سنة 1884م. ولمّا توفّي

سليم، واصل إخوته العمل فيها بمساعدة نسيبهم سليمان البستاني، فأصدروا المجلّد التاسع سنة 1887 م، والعاشر سنة 1898م، والحادي عشر سنة 1900 م، وتوقّف العمل عند كلمة «عثمانيّة» وقد جدّد هذه الموسوعة فؤاد أفرام البستاني، مضيفا إليها الكثير من المواد العلميّة وغيرها، فأصدر منها أربعة عشر مجلّدًا (من باب الهمزة حتّى مادّة «أطلس»)؛ 4 ـ شرح ديوان المتنبّي، بيروت 1860 5 ـ مصباح الطالب في بحث المطالب بيروت 1854م، وهو شرح على «بحث المطالب» للمطران جرمانوس فرحات؛ 6 ـ مفتاح المصباح، بيروت، 1862 م، 1867م، في أصول الصّرف والنّحو للمبتدئين، وهو مختصر المصباح؛ 7 ـ نفير سوريّة دار فكر للأبحاث والنّشر، بيروت، 1990م، ومن ضمنه وطنيّات بطرس البستاني ليوسف قوزما الخوري؛ 8 ـ الهيئة الاجتماعيّة والمقابلة بين العوائد العربيّة والافرنجيّة، بيروت 1869م؛ مطبعة المعارف، 1869م، هو الخطبة؛ 9 ـ مجموع خطب علميّة وأدبيّة، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت 1882م؛ وتتكوّن من خطبة في آداب اللّغة وخطاب في تعليم النّساء . . . إلخ. ولعلّ المعلّم بطرس هو أوّل من طرق باب تعليم النّساء في الشرق؛ 10 ـ كشف الحجاب في علم الحساب بيروت 1848م وأعيد طبعه مرارا؛ 11 ـ روضة التاجر في مسك الدفاتر، بيروت 1851م؛ 12 ـ بلوغ الأرب في نحو العرب: لا يزال مخطوطا؛ 13 ـ ترجمة كتاب روبنصن كروزوي، 1861م؛ 14 ـ قصّة أسعد الشدياق باكورة سوريا، بيروت 1860 و1878م.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● شيخو، لويس، الآداب العربيّة في القرن التّاسع عشر، بيروت 1908 م، 2/ 110 ـ 111؛ ● البستاني، بطرس، أدباء العرب، بيروت 1988، دار نظير عبّود، 409؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. مطبعة مجلّة صوت سوريّة، دمشق، 1954 م، 2/ 248 ـ 249؛ ● السندوبي، حسن، أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري، مصر، 1332هـ / 1914م، 205 ـ 221،؛ ● فنديك، إدورد، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، مصر، 1313هـ / 1896 م، 303 ـ 329 ـ 410 ـ 411؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظّنون عن أسماء الكتب والفنون، طبعة دار مكتبة المثنّى، ببغداد (بالأوفست)، 1/ 442، 2/ 235 ـ 359 ـ 446؛ ● البستاني، بطرس، سلسلة المناهل، رقم 11، مكتبة صادر، بيروت؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللّغة العربيّة، مصر، 1913 ـ 1914 م، 4/ 297 ـ 299؛ ● طرازي، دي فيليب، 1/ 89 ـ 92، تاريخ الصّحافة العربيّة، بيروت، 1913 م، المطبعة الأدبيّة؛ ● زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التّاسع عشر، ط. 2، مصر 1910 م، مطبعة الفجّالة، 2/ 25 ـ 32؛ ● الشّنتاوي، أحمد وغيره، دائرة المعارف الإسلاميّة، لا ت، دار المعرفة، لبنان، 3/ 628 ـ 629؛ ● البستاني، فؤاد أفرام،

الرّوائع، العدد 22، دار المشرق، بيروت، 1929؛ ● عبّود، مارون، روّاد النهضة الحديثة، دار مارون عبّود، بيروت 1986 م، 2/ 204 ـ 209؛ ● البستاني، ملحم ابراهيم، كوثر النّفوس، بيروت، 1954 م، 337 ـ 351؛ ● داغر يوسف أسعد، مصادر الدّراسة الأدبيّة، منشورات الجامعة اللبنانية، مصر، 1346هـ / 1928 م، 2/ 181 ـ 185؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات؛ ● الفاخوري، حنا، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ط. دار الجيل، بيروت، 1991 م، 4/ 113 ـ 132؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين لأسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، استنبول، 1951 م، (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنّى في بغداد)، 1/ 233.

2 ـ المجلاّت:

● الجنان، 14/ 289، 321، 337؛ ● مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، 45/ 595؛ ● المقتطف، 8/ 1 ـ 7؛ ● الهلال، 4/ 361 ـ 368؛ ● الورود، السّنة الثّامنة، العدد 6، ص31؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط. ج، ملحق 3 ـ 4، فصل البستاني.

د.جبرائيل بشارة
جامعة دمشق ـ سوريا
د.عبد الغني أبو العزم
جامعة عين الشق ـ الدار البيضاء ـ المغرب

البستاني، بطرس سليمان

(1313هـ/1895م ـ 1389هـ/1969م)

من أشهر أدباء العرب في القرن العشرين، ومن أهمّ مؤرّخي الأدب العربي. صحافيٌّ لامع، بحّاثة، مدرّسٌ بارع.

ولد في دير القمر سنة 1895م، وتلقى دروسه في معهد الإخوة المريميين لمدّة ثلاث سنوات في بلدته، ونشأ عصاميًا وأخذ يثقّف نفسه، وقطع مراحل الحياة مكدًّا دارسًا في دراسات على ذاته، مستوحيًا من خاله القاضي الأديب والبحّاثة ميخائيل عيد البستاني، الاتجاه الأدبي والبحثي، فتعشّق اللغة العربية وهو صبيٌّ درج، فجرى حبّها في عروقه مجرى دمه.

ثمّ استقدم بعد الحرب معلّمًا لتدريسه اللغة الفرنسية، وتشعّبت مواهبه بين الأدب العربي والفرنسي. وبدأ حياته الأدبية بنشر قصائد الصبا في جريدة «دير القمر» لنسيبه نعوم أفرام البستاني سنة 1913، وزاول التعليم في مدارس الحكومة العثمانية، وراح يكتب في صحف «البرق»، و«الأحوال»، و«الروضة».
وأنشأ جريدة «الحرية» وهي يومية سياسية سنة

1920م، ثمّ أنشأ في بيروت جريدة «البيان» الأسبوعية سنة 1923م وكانت أدبية وسياسية مصوّرة، وكانت تصدر في 8 صفحات حتى سنة 1929م، فأخرجها باثنتي عشرة صفحة، ثمّ بعشرين، إلى أن حجبها عام 1930م، وعالج القضايا السياسية والاجتماعية بصدق وجرأة. وكانت منبرًا للفنون الأدبية من شعر وقصّة وبحث.

ثمّ تولّى رئاسة تحرير جريدة «الأحوال» لخليل بدوي، كما شارك في تحرير صحف أخرى من بينها «المكشوف». وتأسّست آنذاك أوّل نقابة صحافة في لبنان، فانتخب أمين صندوقها.

تولّى تدريس الأدب العربي والفلسفة العربية في مدرسة إخوة المدارس المسيحية في بيروت، ثمّ درّس الأدب العربي في مدرسة الحكمة، ثمّ في معهد المعلّمين العالي الذي أنشئ سنة 1951، قبل إنشاء الجامعة اللبنانية وفي المدرسة الحربية. وعندما تأسّست الجامعة اللبنانية ابتدأ بتدريس الأدب وفقه اللغة فيها .

■ آثاره

1 ـ أدباء العرب، 3 أجزاء، بيروت، دار صادر، الأول في الجاهلية وصدر الإسلام، بيروت، 1931م. الثاني في الأعصر العباسية، ويشتمل على خصائص آداب العبّاسيين وعلومهم، وميّزات شعرائهم وكتّابهم، ويستفيض في النقد والتحليل، لأنّ هذا العصر، وهو عصر حضارة العرب، ولم يتح له في أيّام صدور الكتاب (1934م) بحث شامل يجلو حقائقه ويكشف عن كنوزه. واكتفى بطائفة معدودة من الشعراء والكتّاب وفقًا لنظام شهادة البكالوريا اللبنانية . ولم يخلط فيه الأدب الأندلسي بالأدب الشرقي، كما فعل غيره، ممّن تقدّمه من مؤرخي الآداب، لأنّ العوامل التي أثّرت فيه غير العوامل التي أثّرت في ذاك. الثالث في الأندلس وعصر الانبعاث، بيروت، 1937م، وقد خصّ هذين العصرين ببحث منفرد، لأنّهما يفتقران إلى درسٍ صحيح، وكانا لا يزالان حتّى صدور الكتاب في عزلةٍ تامّة عن أقلام النقّاد. ومرّ إلمامًا على عصر الانحطاط وبيّن ميزته السياسية والأدبية وصولاً إلى عصر الانبعاث.

ويعتبر هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة الأوّل من نوعه، إذ أسهب في نقد آثار الأدباء وفي تحليل ميّزات العصور الأدبية والتاريخية. وهو أوّل كتاب جعل الغَزَل من مواد التدريس، وركّز على أسس الأدب المقارن، فجال فيه جولات موفّقة لم يُسبَقْ إليها، حتّى أنّ البستاني كان أوّل دارس حديث في النهضة الأدبية المعاصرة بعد المرحلة الانتقالية التي مثّلها جرجي زيدان والأب لويس شيخو وغيرهما من الأدباء، فأمضى عمره يتتبّع أبعاد الحضارة العربية، منطلقًا من جذورها، وملاحقًا فروعها.

وقد نالت هذه المجموعة رواجًا كبيرًا في مختلف المدارس اللبنانية، نظرًا لأسلوبها وعمقها وتسلسلها وطاقة مؤلّفها التربوية والأدبية، وبقيت بحقّ أفضل كتاب مدرسي منذ صدوره حتى تعديل مناهج البكالوريا اللبنانية في بداية السبعينات من القرن العشرين، وقد أخذ عنه الكثير من المؤلفين في مجال الكتب المدرسية وغيرها فيما بعد. وقد اضطر البستاني في سبيل تأليف هذا

الكتاب والقيام بأعباء التدريس إلى حجب جريدة «البيان». وقد طبع الكتاب طبعات كثيرة؛ 2 ـ معارك العرب في الشرق والغرب، بيروت، دار المكشوف، 1944، ويتناول فيه أشهر المعارك التي نشبت بين العرب والأعاجم منذ صدور الإسلام حتى زوال الخلافة العربية؛ 3 ـ منتقيات الأدباء العرب في الأعصر العبّاسية، بيروت، مكتبة صادر، المطبعة البولسية، 1948م، 494 صفحة جمع فيه ما ظهر من مختارات الأدب العربي بما فيها من الشكل والتصحيح والتدقيق اللغوي والتحقيق وتفسير الألفاظ والمعاني لكل من الشعراء والأدباء: بشار بن برد، وأبو تمام، وأبو نوّاس، ودُعبل، وابن المقفّع، والبحتري، وابن الرومي، والجاحظ، والمتنبّي، وأبو فراس، وبديع الزمان الهمذاني، وأبو الفرج الأصبهاني، والحريري، وابن الأثير؛ 4 ـ الشعراء الفرسان، بيروت، 1944، وعالج فيه شعر البطولة في العصر الجاهلي، وآداب الفروسية وحياة شعرائها، واختتم الكتاب بفصل في آداب الفروسية الغربية مظهرًا ما بينها وبين الفروسية العربية من أوجه الشبه والخلاف. وقد غمر بحثه الجوّ الأدبي؛ 5 ـ معارك العرب في الأندلس، بيروت، دار المكشوف، 1944م، طبعة أولى، ثمّ طبعة ثانية 1946م.

وحقّق الكتب التالية:

6 ـ رسالة التوابع والزوابع، لابن شهيد الأندلس، دراسة تاريخية أدبية، بيروت، مكتبة صادر، 1951م؛ 7 ـ معجم لسان العرب، لابن منظور، بيروت، دار صادر 62 مجلّدًا؛ 8 ـ رسائل إخوان الصفا، دار صادر، بيروت؛ 9 ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، بيروت، دار صادر ودار بيروت.

ومن أعماله، وضعه الصياغة العربية للترجمة الجديدة للعهد الجديد من الكتاب المقدّس، التي قام بها الآباء اليسوعيون (صبحي حموي ويوسف قوشقجي)، وكذلك أشرف على وضع سلسلة «مناهل الأدب العربي» التي أصدرتها دار صادر في بيروت.

وكان عضوًا في لجنة وضع القاموس العسكري اللبناني، إلى جانب الشيخ عبد الله العلايلي والشيخ فؤاد حبيش. وهو قاموس فرنسي عربي كان يجري إعداده لحساب وزارة - الدفاع الوطني، قيادة الجيش - الأركان متضمّنًا المصطلحات العسكرية وأسماء قطع الأسلحة والأدوات والآلات الحربية والفنون العسكرية.

ولمّا كانت له سلسلة لقاءات مع طلّاب الحكمة والجامعة اللبنانية وألقى خلالها دروسًا ومحاضرات توزّعها طلّابه وأفادوا منها، وقد نُشرت هذه المحاضرات بعد جمعها في الجزء الأوّل من موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي، دار كلمات للنشر سنة 1995م.

وللبستاني أحاديث إذاعية ومقالات في عدد من الصحف والمجلّات، كما كان يعمل وهو على فراش المرض على تأليف كتاب جديد راح يمليه إملاء.

اشتهر بالأخلاق الرضيّة وبالتواضع والبُعد عن الأضواء، والإيمان ، والحكمة، والصلاح. وعُرف بنقده الجريء لكبار الشعراء والكتّاب، ومنها مناقشة دارت بينه وبين الدكتور طه حسين، عندما زار الأديب المصري لبنان،

حول صحّة الشعر الجاهلي، إذ كان رأي البستاني مخالفًا لرأي طه حسين الذي اعتبر الشعر الجاهلي منحولاً، وأن رواته قتلوا جميعهم، في حين أن الشعر الجاهلي - في نظر البستاني - ليس كلّه منحولاً أو موضوعًا.

المصادر والمراجع

1 - الكتب:

● البستاني، بطرس، مناهل الأدب العربي، ترجمته ومختارات من أدبه، بيروت، دار صادر ؛ ● البستاني، ملحم ابرهيم، كوثر النفوس وسفر الخالدين، مطابع المرسلين اللبنانيين، جونيه، لبنان، 1954م، ص. 570 - 574 ؛ ● الجندي أدهم، أعلام الأدب والفنّ، الجزء الثاني، مطبعة الاتحاد، دمشق، 1958م؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الثالث، القسم الثاني، صفحة 194 - 195؛ ● صفير، المطران نصر الله، وغابت وجوه، 1956 - 1974م، الجزء الثاني، صفحة 284 - 285؛ ● عبد الساتر، حسيب، أنا والحكمة، الجزء الأوّل، منشورات الحكمة، بيروت مطبعة جوزف الحاج 1992م؛ ● نعمه، جوزف، دير القمر عاصمة لبنان القديم، سنة 2001م، ص. 446 - 449.

2 - الموسوعات :

● Encyclopédie maronite, 2004, Tome II, P. 6

● موسوعة الحضارة العربية، العصر الجاهلي، دار كلمات للنشر، 1995م، الجزء الأوّل.

3 - المجلاّت:

● مجلّة «الحكمة»، مجلّد 5 ، عدد 6 ، نيسان 1956؛ ● حوليات معهد الآداب الشرقية في ذكرى الأستاذ فؤاد أفرام البستاني، 1906 - 1994 ، المجلّد السابع: السنوات 1993 - 1996م.

د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية - لبنان

البستاني، سعيد سليم

(1341هـ/1922م - 1398هـ/1977م)

ولد في قرية المرج في إقليم الخرّوب في 14 كانون الأوّل العام 1341 هـ/ 1922م - لبنان. تلقى دروسه الابتدائيّة في مدرسة الشيخ في برجا، وفي السابعة من عمره قدم إلى بيروت والتحق بمدرسة القدّيس يوسف حيث تابع دروسه الابتدائيّة والثانويّة ونال شهادة البكالوريا وهو في الرابعة عشرة من عمره. وأكمل دروسه الجامعيّة في معهد الآداب الشرقيّة في جامعة القدّيس يوسف حيث أحرز شهادة الكفاءة العليا في اللغة

العربيّة العام 1956م، وأتمّها في السوربون حيث نال شهادة الـ agrégationأي التبريز في اللغة العربيّة العام 1960م وهي التي ترمي إلى توظيف المدرِّسين، فكان أوّل لبنانيّ يحمل لقب «أستاذ مبرِّز»، إذ بلغت علاماته بفضل إتقانه المدهش للغتين العربيّة والفرنسيّة وسعة ثقافته ومعارفه مبلغاً لم ينته إليه أحد قبله. ثمّ نال دكتوراه دولة في الأدب العربيّ العام 1967م. كما نال إجازة في الفقه وعلم النفس والترجمة. ودرس طبّ الأطفال مدّة سنتين. وأتقن الى العربية الفرنسيّة والسريانيّة واللاتينيّة والانكليزيّة. تزوّج دلال البستاني العام 1948م ورزق منها ولدان: وليد ورئيف.

مال إلى التدريس منذ مطلع شبابه. وفي العام 1940م، دفعته الحرب العالميّة الثانيّة إلى تدريس اللغة اللاتينيّة مدّة سنتين في معهد الرهبنة الأنطونيّة في بعبدا، إلى أن دخل التعليم الرسميّ في العام 1942م وعُيّن معلّماً في مدرسة الرميلة الرسميّة، وتقدّم إلى امتحانات دار المعلّمين فكان الأوّل بين الناجحين. ثمّ عُيّن مديراً لمدرسة عاليه الرسميّة في العام 1949 م، وشغل هذا المنصب مدّة خمس سنوات أظهر في خلالها من المقدرة ما لفت إليه أنظار الرؤساء، فانتُدِب للاسهام في تحرير المجلّة التربويّة، ثمّ تولّى أمانة سرّ التحرير. وفي العام 1955م عُيّن مفتّشاً تربويّاً في وزارة التربية الوطنيّة، وكانت تجربة مهمّة إذ نقلته من قرية إلى قرية وعرّفته بأخلاق الناس. وأرسله البطريرك بولس المعوشي في العام 1956م إلى فرنسا وبلجيكا وانكلترا وسويسرا للاطّلاع على أحوال المدارس هناك. وبعد عودته اقترح مشروع تجمّع المدارس أي إنشاء مدرسة في نقطة مركزيّة بين عدّة قرى يصل إليها الطلاّب من القرى المجاورة. وبدأ تنفيذ المشروع في قرية المرج. وفي العام 1958م علّم في مدرسة شملان التي كانت تلقّن الأجانب اللغة العربية. بعدها التحق بالجهاز الإداريّ للجامعة اللبنانيّة، واستفاد من منحة للتخصّص في باريس بين 1960 و 1962م. وتولّى بعد نيله الدكتوراه التدريس مدّة سنتين في فرع الدراسات العربيّة والاسلاميّة في جامعة باريس برتبة أستاذ مساعد، إلى أن عاد في العام 1963م إلى بيروت حيث عُيِّن أستاذاً في كلّيّة الآداب في الجامعة اللبنانيّة، وأستاذاً في معهد الدراسات الشرقيّة التابع للجامعة اليسوعيّة. ثم عُيِّن عميداً لكلّيّة إدارة الأعمال في الجامعة اللبنانيّة العام 1974 م، وأضيفت إلى مسؤوليّاته كلّيّة الآداب والعلوم الانسانيّة في فرعها الجديد الثاني الذي أُنشئ في العام 1976. وإلى جنب وظائفه الرسميّة مارس تدريس الأدب العربيّ في مدرسة السيدة للآباء اليسوعيّين في الجمهور وفي المدرسة الحربيّة.

شارك في المجلس الأعلى للتربية الذي تأسّس إبّان الحرب في لبنان، وأسهم في وضع أسس الشرعة التربويّة الحديثة، والدستورين الجزائريّ والموريتانيّ.

مارس الصحافة وكتب في عدد من الصحف، منها لسان الحال، والعمل حيث كان يوقّع مقالاته باسم «أبو غسّان» بين 1955 و1956م، وفي النهار بين 1968 و 1969م ولا سيّما في قضية التعريب في التعليم.

له أبحاث مختلفة في آداب اللغة العربيّة

وتاريخها، ونظريات تربوية. وكتب مقالات في الموسوعة الاسلامية وفي دائرة المعارف للدكتور فؤاد افرام البستاني، وقد كان سكرتيرها، وشارك في عدة مؤتمرات علمية وتربوية دولية ومحلية.

توفي في بيروت العام 1398 هـ/ 1977م. وأقيم له مأتم مهيب حضره عدد من الشخصيات السياسية والدينية وعمداء الجامعات. وتلي الرقيم البطريركي، ومما جاء فيه: «غاب من هو في قمة النضج والعطاء، بعدما قضى عمره بين المكتبات دفاعاً عن نظرية تربوية يرى في اعتمادها ما يحمل الطلاب على تذوق الحضارات في عصر طغت فيه المادة». ومُنح وسام المعارف الذهبي.

عُرف سعيد البستاني بالحيوية والاندفاع، ودقة الملاحظة، وحدة الذكاء، والصراحة بلا محاباة، والاستقامة في ما يقول ويفعل. محدِّث لبق، وفي كلامه ما يدلّ على اتزان وعلم. وفيّ للأقرباء والأصحاب، صلب العقيدة والمبدأ، أنوف على دعة ولين أخلاق.

وعلى الرغم مما لقيه من محاربة بعض المتنفّذين ذوي المآرب والمصالح الخاصة، وقف بثبات داحضاً كلّ غيّ، جاعلاً مصلحة الوطن فوق الجميع وكان مدرسة في الوطنية. وكان يرى أنّ المرتكز الأساسيّ لكلّ وطن أن يكون عند الناس مفهوم الوطن. وإنّ إرادة العيش المشترك هي وحدها التي تحمل الإنسان على الانفتاح على الآخر وعلى فهم الآخر.

دافع بقوّة عن تفريع الجامعة اللبنانية ودعا إلى تجديدها وإصلاحها، لأنّ أي إصلاح تربويّ لا يتم إنْ لم يُتَوَّج بإصلاح جامعيّ شامل، ومما قاله في هذا المجال: «بتطلّعنا إلى جامعة جديدة، نحن نواصل المسيرة. نرفض أن نكون قوماً بلا جذور، كما لا نريد أن يكون غيرنا بلا جذور... الجامعة الجديدة قامت بمختلف فروعها تعمل كما لو كانت من أرقى الجامعات».

ولج عالم الأدب منقّباً باحثاً دقيقاً واضعاً الدراسات الكثيرة. وكانت له في الأوساط المثقّفة مكانة مرموقة. دعا إلى التقارب بين المسيحيّين والمسلمين والسعي الحثيث لجمع الكلمة والعمل الدائب على بثّ روح الألفة والمحبّة والاتّحاد والتعاون والإخاء. وكان في المجالس الخاصّة والعامّة عاملاً مخلصاً لا يترك مناسبة من دون أن يصدح بكلمة الحق ويؤدّي واجبه الانسانيّ والتاريخيّ.

■ آثاره

ترك سعيد سليم البستاني عدداً من المؤلّفات لا يزال بعضها مخطوطاً. وأهم مؤلّفاته:

- ابن الرومي حياته وآثاره (ابن الرومي في بيئته) (بالفرنسيّة)، منشورات الجامعة اللبنانيّة قسم الدراسات الأدبية 2، بيروت، 1967. وهذا الكتاب هو في الأساس أطروحة الدكتوراه الدولة التي نالها من جامعة السوربون. وقد درس فيه مدينة بغداد في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي من الناحية الاتنيّة والاجتماعيّة والظروف الاقتصاديّة والناحية السياسيّة والدينيّة، وتناول ابن الرومي وعلاقته بالآخرين وبشعراء

عصره، كما درس شعره والمرحلة التي كان فيها شاعراً في البلاط.

وله مؤلّفات أهمّها مدرسيّة طُبعت بغير اسمه. وفضلاً عن ذلك له مقالات متفرّقة في موضوعات مختلفة، وقصائد زجليّة رائعة وساخرة انتقد فيها بعض الشخصيّات، وشعر فرنسي رقيق. وترجم دواوين بعض الشعراء اللبنانيّين إلى الفرنسيّة.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● البستاني، ملحم ابرهيم، كوثر النفوس وسفر الخالدين، مطابع المرسلين اللبنانيّين، جونيه، لبنان، 1954، ص 632؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة: الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه، الجزء الرابع، أعلام النهضة القرنان التاسع عشر والعشرون، منشورات الجامعة اللبنانيّة قسم الدراسات الأدبية 7، بيروت، 1983، ص 105؛ ● هكذا نلتقي، الناشر ضياء نوري الشيخ مشكور، مطبعة الآداب في النجف الشريف، 1390 هـ/ 1970 م؛

2 ـ الجرائد والمجلاّت:

● الأنوار، 1و4 أيّار 1977؛ ● البيرق، 3و 4 و6 أيّار 1977؛ ● جريدة لبنان، 11 أيّار 1977؛ ● العمل، 1 و4 و5 أيّار 1977؛ ● مجلّة المستقبل، العدد 15، 4 حزيران 1977؛ ● النهار، 1 أيّار 1977، و3 أيّار 1977، و4 أيّار 1977

- Encyclopaedia of Islam, Supplement, Fascicule 3-4, Leiden, E. J, BRILL, 1981, P. 160 .

د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البستاني، سليم بطرس

(1263 هـ/1846م ـ 1302 هـ/1884 م)

ولد سليم البستاني العام 1846م/ 1263هـ في قرية عبيه الشوفيّة، في لبنان، حيث كان والده العلاّمة بطرس البستاني يساعد أحد كبار المرسلين الأميركيّين الدكتور كورنيليوس فان دايك الذي كان يبني مدرسة هناك العام 1846م. وما أن بلغ سنّ الإدراك حتّى أرسله والده، الذي عاد من عبيه إلى بيروت، إلى المدرسة الانكليزيّة في زقاق البلاط ببيروت فتعلّم أصول الكتابة والقراءة. ثمّ درس على والده العلوم النقليّة والفلسفة والسياسة المدنيّة قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره، وقرأ العربيّة على الشيخ ناصيف اليازجي، وأصبح يتقن اللغات العربيّة، والفرنسيّة، والانكليزيّة، والتركيّة، كتابة وترجمة بسهولة وبلاغة. ثمّ

انتقل إلى مساعدة والده في شؤونه الادارية والثقافيّة، وشغل وظيفة مترجم مكان أبيه في القنصليّة الأميركيّة العام 1862 م، وبقي فيها مدّة عشر سنوات، فنبغ في الفنّ السياسيّ والاقتصاديّ والإداريّ، فأعجب به رئيسه غاية الإعجاب. شغل نيابة رئاسة المدرسة الوطنيّة التي أسّسها والده العام 1863 م، ودرّس الصفوف العليا الانكليزيّة والتاريخ والطبيعيّات.

شغف بالمطالعة والتأليف والترجمة، ووزّع نشاطه عضواً في كلّ من بلديّة بيروت والجمعيّة السوريّة الثانية، وشغل نيابة الرئاسة فيها، وزوّدها الكثير من الخطب والمقالات البعيدة المنال. وألقى الخطب وأمدّ المجمع العلميّ الشرقيّ بالمقالات الأدبيّة والاجتماعيّة المختلفة، وعُرف بإدارته الممتازة والهمّة والجهاد والنشاط.

وللدلالة على همّته وكمال نشاطه وتفوّقه قيل فيه بعد وفاته:

أفْنيتَ عُمرَكَ في عُلىً ومآثرٍ
وإفادةٍ للعلمِ أو تصنيفِ

وسبحتَ في بحرِ العلومِ مُكابِداً
أمواجَه والناسُ دونَ سيوفِ

يا شمسُ ما لكِ تطلعينَ ألم تَرَيْ
شمسَ المعارفِ غُيِّبت بكسوفِ

عمَّ المصابُ به الطوائفَ كلَّها
لما ألمَّ وخصَّ كلَّ ضعيفِ

ساعد سليم والده في نشر «دائرة المعارف» التي بدأ العمل عليها العام 1875م حتّى وفاة والده العام 1883م. ومن ثمّ تابع العمل عليها بموازرة أشقّائه حتّى وفاته، فأنجز الجزء السابع منها ونشر الجزء الثامن.

كما باشر تأليف معجم تركيّ على نسق «دائرة المعارف»، فقصد الأستانة ليقدّمه إلى السلطان العثمانيّ، إلاّ أنّ الوفاة عاجلته قبل إبرازه إلى دائرة الوجود.

تأثّر سليم بالغرب وبثقافته وكتبه وتقاليده ومدنيّاته، فتلوّنت الثقافة العربيّة عن يده وإنْ لم تأت متناسقة الألوان ومكتملة النضج، ما ساعده على ترجمة العديد من الكتب الأجنبيّة، كما تأثّر بأبيه.

كتب سليم في مجلّة «الجنان» التي أصدرها والده، وهي مجلّة سياسيّة علميّة أدبيّة تاريخيّة، كانت تصدر مرّتين في الشهر، وكانت من أشهر المجلاّت وأكثرها انتشاراً وإفادة للناس في عصره. فدبّج فيها أكثر مقالاتها ولاسيّما الافتتاحيّات السياسيّة والمسلسلات التاريخيّة والرواثيّة، وتحوّل امتيازها إلى سليم بعد وفاة منشئها العام 1883م. كما أسّس سليم بمساعدة والده جريدتي «الجنّة» و«الجنينة» العام 1870م. وكانت جريدة «الجنّة» تظهر يومي الثلاثاء والجمعة من كلّ أسبوع، أمّا «الجنينة» فهي سياسيّة ذات صفحتين بقطع الوسط، تصدر أربع مرّات كلّ أسبوع: الاثنين والأربعاء والخميس والسبت. احتجبت «الجنّة» العام 1875م.

إزاء هذه المهارات الجديدة وتحريره المقالات في الجرائد الثلاث اضطر سليم إلى الاستقالة من القنصليّة الأميركيّة العام 1871م، وظهرت آثاره الأدبيّة والصحافيّة والعلميّة في هذه الصحف.

سافر إلى مصر مرّتين، فقابل المسؤولين السياسيّين طالباً إليهم تعضيد مشروعاته

ومشروعات أبيه الثقافيّة ولاسيّما ترويج مجلاّته ودائرة المعارف التي كان والده قد بدأ بها العام 1876م، فظفر من الأماني وأدرك من الرغائب عند خديوي مصر اسماعيل باشا.

امتاز بسرعة الخاطر، وأنس المحضر، ولين العريكة، واصطناع المحامد، وتلبية القاصدين والوفاء، والتجافي عن محاقدة الأعداء، والمضيّ في حسم المشاكل وحلّ العراقيل ومواساة البائسين، وتفريج المكروبين. رقيق المعشر، وديع، سليم السيرة والسريرة، دمث الأخلاق، حادّ الذكاء.

تزوّج سليم في 21 آب العام 1874م حنّة أيّوب ثابت، ورزق منها بنتين وصبيًّا، وتوفّي بعد عشر سنوات من زواجه إثر نوبة قلبيّة في 17 أيلول 1302 هـ/ 1884م.

اعتمد سليم البستاني في نسج رواياته على الحوادث الضخمة كالحروب، يسهب في تفاصيلها ضمن إطار ملحميّ خارق. لم ترتبط الحوادث في رواياته برباط الوحدة الفنّيّة الأصيلة. وكان يكتب الصفات الطويلة في مطالع رواياته قبل أن يطرق الموضوع الأساسيّ. نوّع نماذج شخصيّاته فاختارها من مختلف طبقات المجتمع.

ألّف رواياته بروح الصحافيّ ومن أجل غايات إصلاحيّة وتعليميّة مختلفة، ونشأ عن غايته الأساسيّة غايات ترفيهيّة، نقديّة، إصلاحيّة وتعليميّة. حروب ملحميّة وأوصاف رومنطيقيّة في مواقف الحبّ والطبيعة في إطار من المبالغة وتضخيم الأحداث، تلك هي الأجواء العامّة التي لوّنت روايات البستاني وميّزته. واعتمد في روايات على السرد المباشر، أمّا الحوار فكان نادراً. واهتم إلى سبك المعاني بأبسط الجمل وأوضح العبارات، فجاءت أفكاره بلغة سليمة خالية من السجع والألاعيب اللغويّة المبتذلة.

أمّا موضوعاته الصحافيّة فتدور في حقول السياسة، والاجتماع، والتاريخ، والجغرافيا، والطبيعيّات، والتربية والتعليم، وتاريخ بعض الحشرات والحيوانات. كانت مقالته السياسيّة عرضاً مبسّطاً للأحداث المعقّدة. أمّا في مقالاته العلميّة المسلسلة فكان يتّبع منهجاً معيّناً واضحاً لترتيب أفكاره وآرائه.

خدم البستاني وطنه ببثّ الأخبار وتوجيه الناس إلى فضائل اجتماعيّة وحضاريّة متنوّعة. وقد مهّد بمقالاته العلميّة إلى تقبّل الناس العلوم الحديثة بعد أن كانت مجهولة في عصره بأسلوب علميّ سهل ولغة بسيطة.

وتتجلّى محاسنه بإحاطته بالموضوع من وجوهه جميعها وبصحّة المعلومات التي قدّمها. واتّسمت أبحاثه في دائرة المعارف بملامح الرصانة العلميّة. كان ينقل إلى قرّائه ما يريد من المعلومات بأبسط الأساليب وأوضح الكلمات والتعابير.

ويمكن اعتباره من أبرز الكتّاب الموسوعيّين بعد أبيه الذين قامت على أكتافهم بوادر النهضة اللغويّة لاستنباط الأسلوب العلميّ الحديث.

آثاره

للمؤلّف على صفحات المجلاّت «الجنان» و«الجنّة» و«الجنينة» روايات وأقاصيص مترجمة وموضوعة ومسرحيّات ومسلسلات تاريخيّة وجغرافيّة ومقالات سياسية وعلميّة متفرّقة، بالإضافة إلى مساهمته الكبرى في دائرة المعارف.

I ـ مؤلَّفاته القصصيّة:

ألّف البستاني في الرواية والأقصوصة والمسرحيّة.

أ ـ الرواية: له تسع روايات موضوعة:

1 ـ «الهيام في جنان الشام»، وهي رواية اجتماعيّة ظهرت مسلسلة في «الجنان» العام 1870 م، عدد صفحاتها نحو 161 صفحة من القطع المتوسّط. وتدور الرواية حول حكاية حبّ عنيف نشأت بين السائح الغنيّ سليمان والفتاة الجميلة وردة نموذج الفتيات المهذبات في مدينة دمشق، ومحور الرواية الأساس الاخلاص في الحبّ والوصول إلى الزواج؛

2 ـ زنّوبيا، وهي قصة تاريخيّة نشرت في «الجنان» تقع في 168 صفحة، وجوهر الموضوع قصّة حب تدور بين جوليا ابنة الملكة زنّوبيا وبيزو اللاجئ السياسيّ في تدمر. وتنتهي بالزواج. نشرت العام 1871م؛

3 ـ بدور، تاريخيّة ومحورها قصّة حب كبيرة بين صقر قريش وابنة عمّه بدور، وانتهت بالزواج. نشرت في «الجنان» العام 1872م في 168صفحة؛

4 ـ أسما، رواية اجتماعيّة نشرت في «الجنان» العام 1873م، تقع في 161 صفحة. تدور حول عائلتين متناقضتين في الأخلاق والعادات والتقاليد، وتربطهما مصلحة تجاريّة واحدة إلى جانب الجوار والصداقة المتبادلة. وعلى الرغم من الحبّ المتبادل بين شبان وشابات الفريقين عمد البستاني إلى تفريق الشمل لعدم التناسب في الأخلاق والفضائل. وتتضمّن الرواية مجموعة مواعظ ونصائح اجتماعيّة واضحة الهدف في التوجيه والارشاد من دون الالتفات إلى ما تحتّمه عليه القصة من الأسلوب الفنّيّ الدقيق؛

5 ـ الهيام في فتوح الشام، رواية تاريخيّة، صدرت في مسلسل في مجلّة «الجنان» العام 1874م، عدد صفحاتها 168 صفحة؛

6 ـ بنت العصر، رواية اجتماعيّة، صدرت مسلسلة في «الجنان» العام 1875م، عدد صفحاتها 64 صفحة.

7 ـ فاتنة، رواية اجتماعيّة، صدرت مسلسلة في «الجنان» العام 1877م، تقع في 168 صفحة؛

8 ـ سلمى، خرج البستاني في هذه الرواية من أسلوبه التقليديّ ووصف حياة الريف اللبنانيّ. صدرت بين العامين 1878 ـ 1879م في «الجنان»، تقع في 208 صفحات. تنتهي بمأساة ليشهد البستاني على ظلم العثمانيّين؛

9 ـ سامية، رواية اجتماعيّة تتضمّن عناصر قصصيّة واجتماعيّة غير مألوفة في إنتاجه. صدرت مسلسلة في «الجنان» بين العامين 1882 ـ 1884م. عدد صفحاتها 312.

ب ـ الأقصوصة: إلى جانب الروايات له نوعان من الأقاصيص: مترجمة وموضوعة.

* الأقاصيص المترجمة: كان ينشر أقصوصته في «الجنان»، ويعنونها ويذكر أنّها مترجمة من دون التنويه إلى اسم صاحبها ولغتها الأصليّين. ومن أهمّ الأقاصيص المترجمة: «الغرام والاختراع»، «الصواعق»، «الحب

الذاتم»، «السعد في النفس»، «جرجينيّه»، «ماذا رأت مسّ دارنكتون»، وقد صدرت جميعها في العام 1875م. أمّا في العام 1876م فقد ظهرت «حلم المصوّر»، «سمّ الأفاعي»، «سرّ الحبّ»، «حيلة غرامية»، «حكاية الغرام»، «زوجة جون كافار»، ثمّ «خاتون المودّة»، «لا تنسي»، «قمريّة»، في العام 1877م، وأخيراً «قصر الصخور»، «السوداء»، «أخبار خاتون ومحبّيها» صدرت في العام 1879م.

* الأقاصيص الموضوعية: وقد جاءت منتشرة في السنوات الأولى من مجلّة «الجنان» وهي خمس: «رمية من غير رام»، «حاذر وليلى»، «نجيب ولطيفة»، «زفاف فريد» و«غانم وأمينة».

ج ـ المسرحيّة:

له ثلاث مسرحيّات مثّلها في الجمعيّة السوريّة، وهي:

1 ـ الإسكندر المقدوني، 2 ـ قيس وليلى، 3 ـ ويوسف واصطاك.

II ـ مؤلّفاته التاريخيّة:

لسليم البستاني ثلاثة كتب تاريخيّة نشرت جميعها مسلسلة في «الجنان» هي: 1 ـ «تاريخ فرنسا الحديث»، ألّفه بمساعدة خطّار الدحداح. يتضمّن هذا الكتاب تاريخ الأمبراطور نابوليون الأوّل وينتهي بوفاته؛ 2 ـ «تاريخ نابوليون بونابرت في مصر وسوريا». كان مسلسلاً في «الجنان»، طبع العام 1914م في مطبعة غرزوزي ويقع في 200 صفحة؛ 3 ـ «رجال السياسة والماليّة والتجارة». يتضمّن هذا الكتاب ذكر قارّات العالم كلّها ووضعها الجغرافيّ وأجناس سكّانها.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● البستاني، ملحم ابرهيم، كوثر النفوس وسفر الخالدين، مطابع المرسلين اللبنانيّين، جونيه، لبنان، 1954، ص 352؛ ● جبّور، مفيد، سليم البستاني الروائيّ في مجلّة «الجنان»، أطروحة أعِدّت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانيّة في اللغة العربيّة وآدابها، الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة الآداب والعلوم الانسانيّة، بيروت، 1991؛ ● جحا، ميشال، سلسلة الأعمال المجهولة سليم البستاني، ط 1، رياض الريّس للكتب والنشر، لندن، 1999؛ ● حمزة، عبد اللطيف، أدب المقالة الصحفيّة في مصر، دار الفكر العربيّ، القاهرة، 1950 ـ 1963، ج 1، ص 233؛ ● خطّار، جان جرجي، سليم البستاني حياته وآثاره، رسالة أعدّت لنيل الكفاءة في كلّيّة التربية، 1970؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، الجزء الثاني، الفكر العربيّ الحديث في سير أعلامه، الراحلون (1800 ـ 1955)، مشورات الجامعة اللبنانيّة قسم الدراسات الأدبيّة 7، بيروت، 1983، ص 188؛ ● دي طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة العربيّة، المطبعة الأدبيّة، بيروت، 1913، ج 2، ص 68 ـ 70؛ ● زيدان،

جرجي، مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ط3، ج 2، تاريخ آداب اللغة العربية، ج 4، ص 70، 274؛ ● شيخو، الأب لويس، الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر، ج2، ص6.

2 ـ الجرائد والمجلاّت:

● لسان الحال، العدد 712، 25 أيلول 1884، والعدد 7954، 27 كانون الأوّل 1919؛ ● المقتطف، الجزء الأوّل من السنة التاسعة، (تشرين الأوّل 1884)، ص 48 ـ 49.

د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البستاني، سليمان بن خطّار بن سلّوم

(1273 هـ/1856م ـ 1343 هـ/1925 م)

ولد سليمان بن خطّار بن سلّوم بن نادر البستاني في 22 أيّار 1856م/1273هـ، في مزرعة بكشتين التابعة للدبيّة من إقليم الخرّوب من قضاء الشوف في لبنان.

تلقّى دروسه في مسقط رأسه وتعلّم مبادئ اللغة العربيّة والسريانيّة. ولمّا بلغ السابعة التحق بالمدرسة الوطنية في بيروت لنسيبه المعلّم بطرس البستاني ولزمها ثماني سنوات (1863 ـ 1871 م)، وتضلّع في العربيّة والانكليزيّة والفرنسيّة، وبرع في الطبيعيّات والرياضيّات والتاريخ والجغرافيا. وفاز بالشهادة النهائيّة.

مارس التعليم وكتب في «الجنّة» و«الجنان» و«الجنينة» غير منقطع عن المطالعة والتبحّر في العلوم والآداب، والتزيّد من اللغات، فكان يحسن العربيّة، والسريانيّة، والفارسيّة، والتركيّة، ويكتب الانكليزيّة والفرنسيّة كتابة جيّدة، ويلمّ بالالمانيّة، والإيطاليّة، واللاتينيّة، والعبريّة، واليونانيّة القديمة، والحديثة.

لم يأل جهداً في نشر المعارف وتعزيز النهضة الأدبيّة. فتنبّهت له قنصليّة الولايات المتّحدة في بيروت وانتدبته ترجماناً لها. واختارته جمعيّة «زهرة الآداب» رئيساً لها لدورتين متتاليتين. وانتسب إلى جمعيّة الاتحاد والترقّي العثمانيّة والتزم مبادئها.

كان محبّاً للرحلة، فسافر إلى البصرة العام 1876 م، وأنشأ فيها مدرسة أدارها مدّة سنة، وأنشأ أوّل مطبعة وأوّل جريدة. ثمّ انصرف إلى التجارة، ودرس أحوال العراق وأخلاق أهله وعاداتهم. واتّخذ بغداد مقاماً له، وتزوّج مريم ابنة سريوس البغداديّ ولم يُرزق منها أولاداً. عُيّن عضواً في محكمة بغداد التجاريّة، فمديراً لشركة عمان الخديويّة

العثمانية وفي الوقت نفسه مديراً لمعمل حديد أنشأه مدحت باشا.

زار أطراف نجد، واليمن، وحضرموت دارساً شؤون سكّانها وأساليب معيشتهم وعاداتهم، مجالساً شيوخ القبائل، محادثاً شعراءها وجامعاً الكثير من أشعارهم. وأمضى تسع سنوات متنقّلاً في مجاهل البادية وتعرّف إلى عدّة قبائل (قبيلة الصلبة) وكتب عنها بحثاً في المقتطف العام 1887 م، وأجرى أبحاثاً عن كل قبيلة وأحصى أعداد البدو.

عاد إلى بكشتين العام 1885 م، ثمّ غادرها العام 1886م إلى بيروت حيث انقطع لإتمام «دائرة المعارف». فقد شارك مع نسيب ونجيب، ابني بطرس البستاني، في تأليف وإصدار الجزء التاسع من «دائرة المعارف» العام 1887 م، والعاشر العام 1898م والحادي عشر العام 1900، وله في بعض أجزائها مقالات وبحوث، وكتب عدّة فصول، منها فصل في الاختزال (الستينوغرافيا).

واخترع أداة لقلب أوراق النوطة على البيان وغيره، وابتدع في الشعر «المثنى» وذلك ببناء القصيدة على قافية يرجع إليها في كلّ بيتين مرّة وعروض البيت الثاني فيه مطلقة من القافية على ما اصطلح عليه المتأخّرون في «الرباعيّ» الذي سمّوه «الدوبيت الأعرج».

وما لبث أن سافر إلى الآستانة للحصول على إجازة لطبع «دائرة المعارف» باللغة العثمانيّة، فكان له ذلك وقد تعرّف إلى كبار رجال السلطنة العثمانيّة. ثمّ عاد إلى بغداد ثانية، وقضى فيها مدّة، إلى أن رجع إلى الآستانة حيث أقام سبع سنوات (1891 - 1898 م) وكان كثير التنقّل في أثنائها بين الشرق والغرب. ومن الآستانة سافر إلى أميركا لتولّي إدارة القسم العثمانيّ في معرض شيكاغو، فأنشأ هناك جريدة عثمانيّة أسماها «شيكاغو سركيس»، لكن لم يُكتَب لها النجاح، فعاد أدراجه إلى الآستانة.

وبعد سنوات من الرحلات قفل راجعاً إلى لبنان، مستعيداً العمل في تعريب الإلياذة، وإعداد ما تبقّى من «دائرة المعارف».

تضلّع في اللغة الفارسيّة وتعرّف إلى مؤلّفات عمر الخيّام والفردوسي وأُعجب بـ«الشاهنامة»، وكان قد باشر تعريب الإلياذة للشاعر الإغريقيّ هوميروس، فزادته ملاحم الفرس رغبة في هذا العمل.

ثمّ قصد مصر وأقام في القاهرة يعمل بالتجارة. وفي العام 1904م نشر في مطبعة «الهلال» في مصر إلياذة هوميروس معرّبة نظماً في أحد عشر ألف بيت، وصدّرها بمقدّمة في هوميروس وشعره وآداب اليونان والعرب مع شرح تاريخي وأدبي يدلّ على علو كعبه في أدب العرب والافرنج، وذيّلها بمعجم عام وفهارس.

انتخب سليمان البستاني نائباً عن ولاية بيروت في العام 1908 م، وكان عضواً في مجلس المبعوثان. ورئس خمس لجان كان أهمّها «لجنة الشؤون الخارجيّة» و«لجنة السلام». ثمّ عُيّن عضواً في مجلس الأعيان. وعهد إليه السلطان العثماني رئاسة الوفود التي زارت أوروبا، وعُيّن غير مرّة مندوباً في عددٍ من المؤتمرات الأوروبيّة. ورأس لجاناً عديدة منها اللجنة الخارجيّة، واللجنة النيابيّة الدوليّة، ولجنة التحكيم الدوليّ أو هيئة الصلح الدوليّة. وعيّنته السلطنة العثمانيّة سفيراً فوق العادة لدى الدول الأوروبيّة.

أُسنِدت إليه وزارة التجارة والزراعة والغابات والمعادن في العام 1913 م، فأبان عن كفاية وعلم، وقام بعدّة إصلاحات. وبقي في منصبه الوزاريّ حتّى اندلاع الحرب العالميّة الأولى العام 1914م، إذ حاول أن يثني السلطنة العثمانيّة عن دخول الحرب، ولكنّه فشل، فقدّم استقالته وسافر إلى سويسرا حيث أقام خمس سنوات ساءت في خلالها صحّته. ثمّ نُقِل إلى القاهرة للمعالجة، فتحسّنت صحّته. وفي العام 1924م قصد نيويورك للاستشفاء فتوفّي فيها في الأوّل من حزيران العام 1925م. وأقيمت له حفلات تأبينيّة في المهجر، ثمّ نُقِل جثمانه إلى لبنان ودفن في مسقط رأسه. وأقيمت له ندوات تكريميّة كان آخرها في العام 1996م في بلدة الدبّيّة لمناسبة مرور إحدى وسبعين سنة على وفاته.

اتّصف سليمان البستاني بقلّة الكلام، وكثرة التفكير، وشدّة العزم، وسعة الصدر، وحسن المعاشرة، وإباء النفس والزهد عن المال والألقاب. كان يبسّط فكرته أو اقتراحه بهدوء ودقّة في التعبير وتعمّق في البحث.

لم يخترع أوزاناً جديدة للشعر العربيّ، ولكنّه تصرّف بها تصرّفاً أميناً ينطلق من عبقريّة راجحة وإحساس صادق. نوّع في الإخراج وشذّ عن القافية. وشعره في قصيدة «الداء» وموشّحة «الشفاء» أقرب إلى الوجدان والاختلاج الشعوريّ.

يقول في مطلع قصيدة «الداء»:

ألـمٌ تـسـالمُ وعـيـشُـكَ بـاتَ مُـرّا
تُـوسِّـدُ مـن لـظـى الآلامِ جَـمْـرا

تُـقـلِّـبُ فـي فـراشِ الـسُّـقْـمِ جـنْـبـاً
لـجـنْـبٍ مَـوقـداً بـطـنـاً وظَـهْـرا

وجـفْـنُـكَ لا يـذوقُ الـغـمـضَ سـهْـداً
وإنْ هـجـعـتْ عـيـونُ الـنـاسِ طُـرّا

وفي قصائد «الذنب والغفران»، و«الخيبة والرجاء»، و«الخيانة والوفاء»، و«الترك والعرب»، وغيرها، برزت نزعته الانسانيّة الأخلاقيّة من خلال نظرة فلسفيّة معمّقة. وتجلّى نفَسُه الملحميّ المديد في ترجمة الإلياذة.

ومن شعره الملحميّ نختار من ترجمة الإلياذة مطلع النشيد الأوّل:

ربّةَ الـشـعـرِ عـن أخـيـلِ بْـنِ فـيـلا
أنـشـديـنـا واروي احـتـدامـاً وبـيـلا

وعرف في النشيد الثالث اختيار الأوزان الموافقة للموضوع، والمعبّرة خير تعبير عنه، جوّاً وتصويراً ونغماً وإيقاعاً.

يظهر من خلال مقدّمته المهمّة المستفيضة الموثّقة لإلياذة هوميروس أنّه باحث وناقد وعالم ورائد في الأدب المقارن. وهي تبيّن موسوعيّته المعرفيّة، واطّلاعه على آداب الشرق والغرب، ومقدرته النقديّة المتطوّرة المبنيّة على الشكّ المنهجيّ والعلم والمنطق السليم والدقّة والأمانة. إنّه محلّل قدير ونزيه ودقيق وذكيّ وجريء، لا يتوانى عن انتقاد هوميروس نفسه مع كلّ إعجابه وتقديره للإلياذة.

امتاز بالنزاهة والتجرّد والإخلاص الشديد للسلطنة العثمانيّة ولكلّ ما يعود بالخير والنفع

عليها ووحدتها وقوّتها وتقوية جيشها وانتظام إدارتها الداخليّة ونجاح علاقاتها الخارجيّة، وتأمين المساواة بين مواطنيها، ومحاربة التعصّب الدينيّ والقوميّ لدى أبنائها، والبحث في زيادة ثرواتها، وتقوية ماليتها، وتوازن ميزانيّتها، وإصلاح طرقها، وإنشاء المكاتب الزراعيّة، وإصلاح المدارس والمحاكم، وانتقاء المأمورين، وترقية المعارف، واستئصال شأفة الفساد والرشوة.

ولم يحُل إخلاصه للسلطنة العثمانيّة دون دفاعه عن العرب لغةً وشعباً وولاياتٍ. فأيّد استعمال اللغة العربيّة في مجلس المبعوثان وفي المحاكم والمدارس الحكوميّة، وسائر الدوائر في بلاد العرب. ودافع عن البصرة، وبغداد، واليمن، وطالب بتخفيف الضرائب عنها، واجتهد في إزالة روح التعصّب والتفريق.

أمّا على الصعيد اللبنانيّ فقد كان يدرأ الضرر عن لبنان قدر الإمكان، بحكمة ورويّة، ساعياً للمحافظة على امتيازاته وولائه للسلطنة، وداعياً إلى وحدة صفّ اللبنانيّين وقتل روح التعصّب القائمة بينهم.

يبقى أنّ سليمان البستاني معتدل، متّزن، إصلاحيّ هادئ، متحفّظ، أرستقراطيّ الفكر مع تواضع ظاهر، لم يفهم السياسة وصوليّة، ولا أنانيّة طاغية، ولا سلطاناً وجاهاً، ولا سلبيّة عقيمة، بل فهمها إصلاحاً للنفع العامّ ورسالة قوميّة نبيلة تعتمد الكرامة والحرّيّة والعدالة لقيادة شعب على نحو ما هو الأفضل، وفهم مهمّتها إرادة رشيدة واقتصاداً صحيحاً وكفاية وعدلاً ونزاهة وإخلاصاً.

آثاره

أ ـ آثاره المطبوعة:

1 ـ مقالاته وبحوثه في مجلاّت: «الجنان» و«الجنة» و«الجنينة»؛ 2 ـ دائرة المعارف: اشترك في العمل فيها في مستهلّ اشتغاله بالأدب: المجلّد التاسع يحتوي على 762 صفحة مع 74 صورة، المجلّد العاشر يحتوي على 760 صفحة مع 83 صورة، المجلّد الحادي عشر يحتوي على 752 صفحة؛ 3 ـ إلياذة هوميروس: معرّبة نظماً وعليها شرح تاريخيّ أدبيّ. طُبعت في مصر العام 1904م في 1260 صفحة كبيرة مزيّنة بكثير من رسوم آلهة اليونان. المتقدّمة وحدها 200 صفحة وعليها قامت شهرة البستاني. تناول فيها أهمّ مشكلات الأدب العربيّ بالنظر إلى الأدب العالميّ والأدب اليونانيّ خصوصاً؛ 4 ـ عبرة وذكرى أو الدولة العثمانيّة قبل الدستور وبعده، صدر عن مطبعة الأخبار في مصر العام 1908م في 204 صفحات، وهو سلسلة من البحوث في أساليب الحكم والحرّيّات وأركان المجتمع وموارد الثروة الخاصّة في حكم رصين وتوجيه صحيح وأسلوب أنيق؛ 5 ـ الداء والشفاء: قصيدتان، نظم الأولى العام 1918م في إبّان اشتداد المرض عليه في أحد مستشفيات سويسرا، والثانية العام 1919م وقد تماثل للشفاء.

وله بعض القصائد المتفرّقة وهي: أخلاقيّة وفلسفيّة مثل «الذنب والغفران»، و«الخيبة والرجاء»، و«الخيانة والوفاء»، و«الترك والعرب».

ب ـ آثاره المخطوطة:

1 ـ تاريخ العرب: بلغت صفحاته ألفاً من القطع الكبير، وفيه دوّن البستاني معلومات عن قبائل العرب وأمورها من خلال رحلاته؛ 2 ـ ديوان العرب الحاليّين: وهو مجموعة من شعر العرب الحاضر المنظومة بلهجات القبائل المختلفة، دوّنها بنفسه في خلال تردّده إلى منازل القبائل؛ 3 ـ مذكّراته كتبها باللغة الانكليزيّة، عدد صفحاتها يزيد على الألف، وقد ضمّنها خواطره في أسفاره وآراءه الكثيرة من سياسيّة وفلسفيّة وأدبيّة.

المصادر والمراجع

● أعلام من الشوف، مجلس إنماء قضاء الشوف، 1997، ص 133 ـ 168؛ ● البستاني، فؤاد افرام، سليمان البستاني، سلسلة الروائع رقم 44، ط 2، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1963؛ ● البدوي الملثّم، سليمان البستاني وإلياذة هوميروس، دار المعارف بمصر، 1963؛ ● الجندي، أنور، تطوّر الترجمة في الأدب العربيّ المعاصر، مطبعة الرسالة، مصر، لا ت، ص 41 ـ 44؛ ● زيادة، نقولا، أعلام عرب محدثون من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص 169 ـ 174؛ ● صوايا، ميخائيل، سليمان البستاني، سلسلة أعلام الفكر العربيّ، ط 1، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، 1960؛ ● سليمان البستاني والياذة هوميروس، مكتبة صادر، بيروت، لا ت؛ ● غريّب، جورج، سليمان البستاني في مقدّمة الإلياذة، دار الثقافة، بيروت، لا ت؛ ● كرد علي، محمّد، المعاصرون، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، علّق عليه وأشرف على طبعه محمّد المصري، مطبعة دار أبو بكر، 1401هـ/ 1980م، ص 235 ـ 240؛ ● المؤتمر العام الثالث لمنظّمة الأونسكو، أعلام اللبنانيّين في نهضة الآداب العربيّة، نشرته اللجنة اللبنانيّة لإعداد شهر الأونسكو، تشرين الثاني/ كانون الأوّل 1948، بيروت، 1948، ص 11 ـ 18، ـ 163 169؛ ● موسى، منيف، سليمان البستاني في حياته وفكره وأدبه، ط 1، دار الفكر اللبنانيّ، بيروت، 1984؛ ● الهاشم، جوزف، ذكرى سليمان البستاني أو سليمان البستاني والإلياذة، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، لا ت.

د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البستاني، عبد الله بن ميخائيل

(1271هـ / 1854م ـ 1348هـ / 1930 م)

عبد الله بن ميخائيل بن ناصيف البستاني؛ لغويّ، أديب، شاعر، مُربّ، وعضو المجمع العربي بدمشق.

ولد في كانون الأول سنة 1854م بقرية الدبيّة في قضاء الشوف بلبنان.

تعلم مبادئ الحساب والخط في مدرسة قريته، قبل أن ينتقل إلى المدرسة الوطنية ببيروت التي أنشأها نسيبه اللغوي الأديب المعلم بطرس البستاني. وفي هذه المدرسة درس اللغة العربيّة على اثنين من أشهر جهابذة ذلك العصر، هما الشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ يوسف الأسير، كما درس الفرنسيّة حتى أحسن التكلّم بها والترجمة منها.

أنهى عبد الله دراسته في المدرسة الوطنية سنة 1873 م، فاستدعاه الأمير ملحم أرسلان قائم مقام الشوف يوم ذاك، وأقامه أستاذًا في مدرسة عبية الدرزية المعروفة بالداوديّة. لكنه لم يمكث في هذه المدرسة إلاّ بعض السنة، إذ غادرها إلى صيدا لتعليم أحد الأمريكيين اللغة العربية، فأمضى فيها سنتين. ثم درّس في المدرسة الحكوميّة في الدامور.

لم يمكث البستاني مدّة في مدرسة الدامور حتى عنّ له أن يزاول الصحافة، فسافر مع إسكندر عمون إلى قبرص، وهناك أنشأ جريدة سمّاها «جهينة الأخبار»، وما إن صدر العدد الأوّل من هذه الجريدة، حتى منعتها الحكومة العثمانية من دخول أراضيها، فاضطرّ البستاني وصديقه إلى إيقافها والعودة إلى لبنان.

وفي لبنان، عاد البستاني إلى مهنة التدريس، فالتحق هذه المرّة بمدرسة الحكمة، ثمّ بالمدرسة البطريركية للروم الكاثوليك، فعلّم اللغة العربية وآدابها فيهما، وبقي في المدرسة البطريركية إلى سنة 1914م لما أقفلت أبوابها بسبب الحرب العالمية الأولى. وكان قد علّم أيضا في مدرسة «الفرير» ببيروت عدة سنوات. وهكذا تخرّج على يديه عدد كبير من رجال الأدب في القرنين التاسع عشر والعشرين، منهم الأمير شكيب أرسلان، ووديع شديد عقل، وبشارة الخوري، وإسعاف النشاشيبي، وداود بركات، وأمين تقي الدين، وشبلي الملاط، وغيرهم كثيرون.

وفي السنة 1930م توفي عبد الله البستاني ببيروت عن عمر يناهز ستًا وسبعين سنة، ودفن في دير القمر.

ومن أشهر آثاره «البستان»، وهو معجم لغويّ في جزئين، اعتمد في جمعه على لسان العرب لابن منظور وتاج العروس للزبيدي، لكنه لم يرتّبه ترتيبهما حسب منهج القافية (أي باب الحرف الأخير من جذر الكلمة، وفصل الحرف الأول منه)، بل رتّبه ترتيبًا جذريًا ألفبائيا حسب الحرف الأول من جذر الكلمة، فالثاني، وهكذا؛ وأدخل فيه الكثير من أسماء

المكتشفات والمخترعات والدّخيل والمولّد. وقد انتقده ماري أنستاس الكرملي انتقادًا مريرًا، وخاصة في كتابه «نشوء اللغة العربية»، وفي مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، 14/ 127 ـ 140، وفي لغة العرب 9/ 305؛ وعارف النكدي في مجلة المجمع العلمي، 11/ 183 ـ 186؛ ومجلة المشرق، مج. 26 (1928)، ص 151 ـ 152. ثم أصدر معجما آخر بعنوان «فاكهة البستان» ليجعل منه معجمًا عمليًا يجد فيه الطالب ما يحتاج إليه في دراسته، والمثقف ما يحتاج إليه في شؤون حياته. ويمتاز هذا المعجم بوضوح المعاني، ودقّة الشروح، والضبط والاختصار.

والشيخ البستاني كان من الأوائل الذين نظموا التمثيليات شعرا، وممن فتحوا باب الشعر القصصي. وقد كان يضعها سنةً بعد سنة في مدرسة الحكمة والمدرسة البطريركية ليمثّلها تلاميذه فيها. وهي تمتاز بتنسيق حوادثها، وتنظيم مشاهدها، ومتانة عبارتها، ورقيق منظومها ومنثورها.

■ آثاره

أ ـ في اللغة:

1 ـ البستان، بيروت 1927 ـ 1930، المطبعة الأمريكية، وله طبعات حديثة؛ 2 ـ فاكهة البستان، وهو من معجمه البستان، ط. بيروت، المطبعة الأمريكية، وأعيد طبعه في مكتبة لبنان 1980 باسم «الوافي، معجم وسيط للغة العربية»، وعلّل الناشر تسميته الجديدة بأنه يفي بحاجة الطالب والمثقف؛ 3 ـ كتاب النحو، وهو الجزء الثاني من بحث المطالب للمطران جرمانوس فرحات، مع زيادات، بعبدا/لبنان 1900 م؛ 4 ـ مناظرة لغوية أدبيّة بين الأساتذة عبد الله البستاني وعبد القادر المغربي والأب أنستاس الكرملي، القاهرة 1355 هـ، مكتبة القدسي. وقد امتدّت هذه المناظرة أحد عشر شهرًا، من 30 تشرين الثاني سنة 1921م إلى 30 تشرين الأول سنة 1922م. وبعد انتهائها، اقترح الشيخ عبد القادر المغربي انتخاب عبد الله البستاني عضوًا في المجمع العلمي العربي، فانتُخب بالإجماع.

ب ـ وفي الرّوايات النّثريّة:

5 ـ جسّاس قاتل كليب؛ 6 ـ امرؤ القيس، في حرب بني أسد؛ 7 ـ عمر الحميريّ أخو حسّان؛ 8 ـ السموأل أو وفاء العرب.

ج ـ وفي الروايات الشعريّة التّمثيليّة:

9 ـ حرب الوردتين؛ 10 ـ يوسف بن يعقوب؛ 11 ـ بروتوس أيام تركوين الظالم؛ 12 ـ بروتوس أيام يوليوس قيصر؛ 13 ـ مقتل هيرودوس لوالديه، في خمسة فصول، بيروت 1889 م، المطبعة الأدبية. ولا نعرف رواية مطبوعة للبستاني غير هذه الرواية؛ 14 ـ رواية هزلية نهج فيها نهج موليير (Molière) في روايته البخيل، وقد مُثّلت مرارًا في مدرسة الحكمة، والمدرسة البطريركيّة؛

د ـ وفي التحقيق:

15 ـ كتاب الاقتضاب في أدب الكُتّاب، لابن السيد البطليوسي؛ 16 ـ ديوان أبي فراس الحمداني؛

هـ ـ وفي التعريب:

17 ـ حكايات لافونتين، تعريب عن الفرنسية

إلى الشعر العربيّ؛ 18 ـ خطاب في التاريخ العام، تعريب عن المطران الفرنسي بوسويه بمعاونة شاكر عون، بيروت 1882 م، المطبعة الكاثوليكية؛

و ـ وفي الشعر:

19 ـ قصائد شعرية كثيرة، ولكنّها لم تُجمع في ديوان. وهي تمتاز بالفخامة، وقوّة التركيب، والقرب من الشعر الجاهلي؛ 20 ـ تشطير معلقة عنترة، وتحويلها مدحا في المطران يوسف الدبس.

المصادر والمراجع

● أدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، دمشق 1954 ـ 1958م، 2/ 253 ـ 255؛ ● باز، جرجي نقولا، سليمان البستاني، بيروت 1952، مطبعة صادر، الصفحات الأولى؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 6، بيروت 1984 م، دار العلم للملايين، 4/ 141؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت د.ت، دار إحياء التراث العربي، 6/ 148 ـ 149؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت 1983، منشورات الجامعة اللبنانية، 2/ 193 ـ 194؛ ● سركس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية والمعرّبة، القاهرة 1928 م، مطبعة سركيس بمصر، 560 ـ 561؛ ● مناظرة لغوية أدبية بين الأساتذة عبد الله البستاني، وعبد القادر المغربي وأنستاس الكرملي، القاهرة 1355 هـ، مكتبة القدسي، 96؛ ● البستاني، ملحم إبراهيم، كوثر النفوس وسفر الخالدين، بيروت ـ جونية 1954، مكتبة البستاني، مطبعة المرسلين اللبنانيين، 398 ـ 419 ... إلخ.

د. إميل يعقوب
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البستاني، كرم بن سليمان بن حسن

(1312 هـ/1894م ـ 1386 هـ/1966 م)

ولد كرم بن سليمان بن حسن افرام البستاني في بلدة دير القمر ـ لبنان في 21 شباط العام 1312 هـ/ 1894م. نشأ وترعرع في هذه البلدة التي أحبّها. وصبغت شخصيّته وطباعه بعنفوان مغلّف بالاتّزان الهادئ. واشتهر منذ يفاعته بشغفه بالعلم. تلقّى علومه الابتدائيّة في مدرسة الآباء اليسوعيّين في بلدته، وأتقن العربيّة بالمطالعة، والفرنسيّة على معلّم خاصّ، وألمّ بالتركيّة والانكليزيّة.

انخرط بعد انتهاء دروسه موظّفاً في ملاك شركة السكّة الحديد قبل الحرب العالميّة الأولى. وتنقّل في وظيفته من بيروت إلى ريّاق وإلى ضهر البيدر، وانتهى به المطاف

رئيساً لأهمّ محطّة وقتئذٍ محطّة عاليه. وما أن أوشكت الحرب على النهاية حتّى ترك الوظيفة وهو برتبة مدير الشركة في بيروت. فامتهن التدريس والصحافة ورافق رهطاً من رجال الصحافة.

عمل محرّراً في عدد من الصحف اللبنانيّة، فكتب أوّل الأمر في جريدة «الأرز» للشيخ يوسف الخازن، ثمّ عاد وانتقل إلى جريدة «لسان الحال» لرامز سركيس حيث مكث مدّة طويلة. وحرّر بعدها في جريدة «الوطن» للشاعر وديع عقل. وساعد أخاه بطرس في جريدة «البيان» على تدبيج مقالات أدبيّة ونقديّة وتاريخيّة. كما حرّر في صحف «البرق» و«الفتاة» و«الراصد» و«صدى الأحوال». عُرف ببلاغته وبراعته في معالجة أبحاثه، وأصبح قبلة أنظار الصحف الكبيرة، فاستعانت بمقدرته على تزويدها مقالاته القيّمة.

أسهم في تحرير أبحاث لعدد من المجلات منها: «عسكري الشرق»، و«الجنديّ اللبنانيّ»، و«المكشوف» تتناول أغراضاً أدبيّة، وتاريخيّة، واجتماعيّة، ونقديّة، وأخلاقيّة. وكان في كلّ ما كتب من الأدباء المدقّقين معنىً ومبنىً.

مال إلى التعليم لخدمة الناشئة والوطن، فابتدأ حياته التدريسيّة العام 1926م في مدرسة الأخوة المسيحيّة في الجمّيزة (بيروت) حيث علّم اللغة العربيّة والأدب والفلسفة للصفوف العليا مدّة طويلة وفي الوقت نفسه في جامعة القدّيس يوسف. ثم في مدرسة راهبات الفرنسيسكان، فالبزنسون، والقلبين الأقدسين، ومؤسّسة مار بولس. وكان فيها مثال المهذّب الأعلى الذي يعطي من عقله علماً واسعاً، ومن روحه شرفاً ووطنيّة صادقة، فأحبّه طلاّبه وأثنوا على جهاده وإخلاصه.

عُرف بهدوء طباعه واتّزانه وبعده عن المجتمع وحفلاته. أحبّ الموسيقى والكتاب والجلوس مع الأصدقاء. وظهرت عليه في ريعان الشباب ميول غزليّة عاطفيّة عذريّة رقيقة. وقامت مناظرات شعريّة غزليّة طريفة بينه وبين العديد من الشعراء في جريدة «البيان». وكان يتلو أبياته الغزليّة متغنّياً بحبيبة جميل بثينة أو بإحدى معجباته. وأهمّ مناظرة قامت في «البيان» تلك التي جابه فيها الشاعرين الناشئين إدوار عيد البستاني وميشال الجاهل، ودار الموضوع حول حادثة سُجنت فيها إحدى الفتيات الجميلات. دافع عنها وقال فيها قصيدة أنهاها:

أخَذوني إلى الطّبيبِ وقالوا
هلِ الدّواءُ للعاشقِ المِسْكينِ
صحّتُ ما لي وللطبيبِ دَعوني
نظرةٌ من حبيبي تُشفيني

وشُغِف بالسينما فكان يرتادها أربع مرّات في الأسبوع، ووضع سيناريو أوّل فيلم عربيّ أُنتج في لبنان نحو العام 1934م بعنوان «هياكل بعلبك». توفّي العام 1966م/ 1386هـ. وقد أبّنه حينها البطريرك مار نصرالله بطرس صفير عندما كان مطراناً بكلمة جاء فيها: «عاش العمر يكافح في ميدان القلم. أستاذاً يقبل عليه الطلاّب، فيرتوون من منهله. وكان عذباً فيّاضاً، وصحافيّاً يدبّج المقالات يشبعها من روحه الأصيلة، وكاتباً يضع المؤلّفات يشدّ فيها الماضي إلى الحاضر، وينبش دفائن التاريخ، فإذا لبنان مرتبط بأوثق الروابط بالحكايات والأساطير، وشاعراً يتخيّر

الألفاظ وكأنّها لآلئ في يد الجوهري ينظمها بمنتهى الدقّة والعناية، فتأتي قصائد تنمّ عن ذوق أدبيّ رفيع، وتشيع في أبياتها روحاً سمحاء تدلّ على شعور رهيف».

آثاره

لم تحل مشاغله الكثيرة دون الانتاج الحرّ، بل كان يخصّص قسماً من أوقاته للتأليف، فوضع كتباً مدرسيّة أشهرها:

1 ـ الحصائد للحفظ والتحليل، في جزءين، الجزء الأوّل مكتبة صادر، بيروت، المطبعة البولسيّة حريصا، د. ت. وهو حافل بالمختارات الشائقة التي تروق للطالب بما فيها من فوائد لغويّة وأدبيّة وتاريخيّة وأخلاقيّة؛ 2 ـ البيان، ط 3، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1962، وهو خلاصة ما يحتاج إليه الطالب من القواعد البيانيّة التي تهذّب ذوقه الإنشائي وتنظّم تفكيره؛ 3 ـ مبادئ العربيّة في الصرف والنحو، الجزء الثالث، أوجزه وسهّل أسلوبه، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1950، 1951، 1955، 1960.

كما وضع كتباً قيّمة في أغراض متعدّدة، أهمّها:

4 ـ أساطير شرقيّة، ط 1، منشورات دار المكشوف، بيروت، 1944؛ 5 ـ أميرات لبنان، مكتبة صادر ـ مطبعة المناهل، بيروت، 1950، تكلّم فيه على السيّدات اللواتي اشتهرن في تاريخ لبنان وعُرفن بامتياز خاصّ وفضيلة خاصّة؛ 6 ـ الأدب الأندلسيّ الأدب المشرقيّ من الانحطاط، «المجاني الحديثة» عن مجاني الأب شيخو، الجزء الخامس، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1951؛ 7 ـ أقصوصة الميلاد، سلسلة الخمير في العجين رقم 8، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1959؛ 8 ـ سلطانة العذارى، سلسلة الخمير في العجين رقم 4، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1959؛ 9 ـ حكايات لبنانيّة، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1961. ضمّنه الحكايات التي يتناقلها اللبنانيّون من جيل إلى جيل. وضعها بأسلوب سهل فصيح لقي رواجاً عظيماً؛ 10 ـ ثلاث قدّيسات من الشرق، سلسلة الخميرة في العجين رقم 10، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1961؛ 11 ـ النساء العربيّات، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1964. وضع فيه تاريخ النساء على الصعيد العربيّ بعامّة منذ أوّل تحرير المرأة حتّى أيّامه؛ 12 ـ يوسف الصدّيق، سلسلة الخمير في العجين رقم 12، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1968؛

أمّا على صعيد دراسة مصادر التراث الاسلاميّ فقد أسهم ووقف على تحقيق وشرح كتاب أبي الفرج الأصفهاني «قطوف الأغاني»، الأجزاء من 1 إلى 15، مطبعة المناهل، مكتبة صادر، بيروت، 1950. وضبط وشرح كتاب ابن عبد ربّه «العقد الفريد» من رقم 1 إلى 31، مكتبة صادر، بيروت، 1951 ـ 1954.

ومال إلى دواوين مشاهير الشعراء فشرح كثيراً منها أهمّها: ديوان ابن زيدون، وديوان ابن خفاجة، وديوان ابن هانئ الأندلسيّ، ولزوم ما لا يلزم وسقط الزند لأبي العلاء المعرّي، وديوان الخنساء، وديوان عروة بن الورد، وديوان زهير بن أبي سلمى، وديوان طرفة بن العبد، وديوان النابغة الذبياني. وأعدّ شرح دواوين أخرى.

وعرّب عن الفرنسيّة «مشاهدات في لبنان».

يتميّز أسلوبه الكتابيّ بالتعقّل والأصوليّة والوضوح، وتحليله النقديّ بالموضوعيّة والجلد على الاستقصاء العلميّ.

ولكرم البستاني شعر رقيق في الغزل. وقد اكتفى بجمع شعره من دون طبعه في ديوان على الرغم من أنّه نشر في مجلاّت وجرائد عديدة. ومن قصائده «يا غزال الشام يا ما أظلمك». وقصيدة «الغريبة» التي يصوّر فيها غريبة تصف وحشتها وآلامها والمصائب التي توالت عليها، فشرّدتها وحيدة في بلاد لا أنيس لها فيها.

وله غير قصيدة لحّنها له بعض الموسيقيّين وردّدتها الإذاعات.

اتّصف إنتاجه بالعمل القيّم، يجود به غير مدلٍ ولا مزهوٍّ، يزيّنه الوقار، وتجمّله الوداعة.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● البستاني، ملحم ابرهيم، كوثر النفوس وسفر الخالدين، مطابع المرسلين اللبنانيّين، جونيه، لبنان، 1954، ص 567 ـ 569؛ ● جبر، جميل، لبنان في روائع أقلامه، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1964، ص 131؛ ● الجندي، أدهم، أعلام الأدب والفنّ، ج 2، مطبعة الاتّحاد، دمشق، 1958، ص 273؛ ● صفير، المطران نصرالله، وغابت وجوه 1956 ـ 1974، الجزء الثاني، لا ط.، لا. ت، ص 169.

2 ـ الجرائد والمجلات والموسوعات:

● الأديب، الجزء 5، السنة 25 (مايو 1966)، ص 62؛ ● المشرق، 30 (1932)، ص 893، 31 (1933)، ص 329؛ ● ملحق النهار، العدد 9328، الأحد أوّل أيّار 1966، ص 13.

● Encyclopaedia of Islam, Supplement, Fascicule 3-4, Leiden, E. J. Brill, 1981, P.160.

د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البستاني، مخايل بن أنطون بن عيد

(1285 هـ/1868م ـ 1353 هـ/1934 م)

ولد مخايل بن أنطون بن عيد البستاني في بلدة دير القمر بلبنان، في 9 تشرين الأوّل العام 1868 م/ 1285 هـ. تلقى مبادئ اللغة العربيّة وشيئاً من الفرنسيّة في مدارس بلدته، ثمّ يمّم مدرسة الحكمة في بيروت حيث درس العربيّة على نسيبه الشيخ عبد الله

البستاني، والفرنسيّة على أساتذة مهرة مدّة خمس سنوات (1882 - 1887 م). ودرس اللغة التركيّة على نفسه، وأتقن الترجمة منها إلى العربيّة.

وفي عهد متصرّف جبل لبنان واصا باشا (1883 - 1892 م)، إثر خروجه من المدرسة، دخل في خدمة العدليّة، فعُيّن كاتباً أوّل لمحكمة دير القمر البدائيّة العام 1889م، ثمّ رُقّي إلى عضو في المحكمة نفسها، ثمّ رُقّي في عهد المتصرّف يوسف باشا إلى رئاسة محكمة المتن البدائيّة العام 1907 م، فإلى رئيس محكمة قضاء كسروان العام 1915 م، ثمّ إلى عضو في محكمة استئناف متصرّفيّة جبل لبنان العام 1917م.

وبعد الحرب العالميّة الأولى، ودخول الفرنسيّين في تشرين الثاني 1918م إلى لبنان، عُيّن حاكم صلح في قضاء المتن، ثمّ مستشاراً في محكمة التمييز في بيروت في 14 أيلول 1920 م، وضُمّت إلى وظيفته الأولى من أيّار 1921 م، رئاسة محكمة بيوع الحرب، فطبّق قانون البيوع بمهارة عجيبة لا يعكّرها الشاكون ولا المتذمّرون.

وفي 18 أيّار 1923 م، عُيّن عضواً في المجلس العدليّ، لبعض الجنايات العظمى، وفي أيّار 1924 م، عُيّن مستشاراً في محكمة التمييز المختلطة. ثمّ عُيّن (تمّوز 1926 م) رئيس محكمة استئناف الجنح، ثمّ رئيس محكمة الاستئناف الحقوقيّة والتجارة، ومنها دائرة الاتّهام في آذار 1928م. وفي حزيران 1929 م، رُقّي إلى وظيفة المدّعي العام الأوّل في محكمة الاستئناف.

توفّي في مسقط رأسه في الأوّل من أيلول 1934 م/ 1353 هـ.

عُرف بالنزاهة وصدق الضمير، وصودف أن أحيلت عليه دعوى على جانٍ، توسّط له أحد كبار الموظّفين الفرنسيّين لتخفيض الحكم، فوقف البستاني غاضباً ومعه بقيّة أعضاء المحكمة وقال:

فويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ
لقاضي الأرضِ من قاضي السماءِ

ويشرح أعماله في سائر أدوار حياته قائلاً:

تولّيتُ القضاة حديث سِنّ
فقمتُ بهِ بإخلاصٍ ودينِ

فما خالفتُ في حكمٍ ضميري
وما صونتُ متخفضَ الجبينِ

وما حابيتُ ذا مالٍ وجاهٍ
وغير اللهِ لم يكُ من مُعينِ

وها إنّي على حالي مقيمٌ
وقد جاوزتُ حدّ الأربعينِ

ولم يكن متمسّكاً بالمال ساعياً في جمعه، ولكنّه كان يستسهل بذله في سبيل عياله وفي طرق الخير والإحسان، قال:

يقولُ الناسُ ما ذخرتَ مالاً
وقد قضيتَ عمرَكَ بالقضاءِ

وزوجُكَ مالُها ما كان نَزْراً
وإنّ أباكَ خصّكَ بالعطاءِ

وراتبُكَ الذي ما انفكَّ يوماً
ذهبتَ بكلّهنّ على السواءِ

اجــبــتُــهُــمْ إذ دخــرتُ جــمــيــلَ ذِكــرٍ
أفــضّــلُــهُ عــلــى كــلِّ الــثــراءِ

حاز وسامًا رفيعًا من الحكومة الفرنسيّة.

امتاز بثقافة واسعة وإتقان اللغات، وبدماثة الأخلاق والحكمة والصلابة والشهامة.

آثاره

1 ـ مرجع الطلاّب: شُغِف بعلم الفقه ومارسه درساً وتدريساً وعملاً في المحاكم اللبنانيّة، لذلك وضع في أثناء رئاسته محكمة المتن البدائيّة، هذا الكتاب وطُبع في المطبعة العلميّة ليوسف صادر بيروت العام 1914 م، وهو مؤلّف من 717 صفحة من القطع الكبير، وكان في أيّامه أدقّ كتابٍ فقهيّ حنفيّ حديثٍ يمكن الاعتماد عليه، ويشتمل على نصوص مهمّة لا توجد في بعض المطوّلات، صدّره بديباجة ومقدّمة في المنطق.
طرق فيه كلّ بابٍ من أبواب الفقه، واختار قدر الامكان الفتاوى المشهورة، وأكْثَرَ النقل تفقيهاً للطالب النبيه، وتذكيراً للعالِم الفقيه، وبيّن في مقدّمة الكتاب حدود الفقه ومآخذه، وأدمج فيه تعريفات في بعض العلوم العربيّة، وأعْقبَها بمبحث عام في المعاملات الفقهيّة كي يتنوّر بها عقل الطالب، ورغبةً في زيادة الحفظ من أقوال العلماء، فيرى مطالع هذا الكتاب أنّ الفقه سهل المنال.
واشتهر البستاني بعلم الفرائض، فكان قوله حجّة لا تُقرع، وفصل الخطاب، وله في الكتاب نبذة ملخّصة في هذا العلم.
قال الأستاذ يوسف غانم في كتابه «مشاهد الرجال» إنّ «البستاني كان قاضياً كبيراً في علمه، كبيراً في نزاهته، كبيراً في عفّته، وهو من قضاة الجنّة، وما أقلّهم إزاء قضاة النار».
جاء الكتاب من الناحية اللغويّة مورد المتأدّبين، وروضة الكتبة المجيدين. ومن الناحية القضائيّة، معين المتفقّهين، ومرجع القضاة والمحامين. وضعه على نسقٍ جديدٍ وأسلوبٍ مفيدٍ.

2 ـ ديوان شعر غير مطبوع منه إلاّ بعض قصائد في بعض مجموعات، فيه مدائح مترفّعة عن كلّ مطمح وغاية، وينمّ عن رقّةٍ شاعريّةٍ وعاطفةٍ صادقةٍ ولغةٍ أنيقةٍ، وأوصافه لا تقلّ حسناً عن أوصاف الشعراء المُجيدين من متقدّمين ومتأخّرين، فقد اجاد وصف النّمِر في قصيدة مطلعها:

سـرى ضـاربـاً فـي الـبـيـدِ والـلـيـلُ روّقـا
طـريـدَ مـلـمّـاتٍ بـه الـهـمُّ أحـدقـا

فـخـالَ الـدُّجـى جـيـشَ الـزنـوجِ مـجـمـراً
يـسـدُّ عـلـى أقـوامِ قـيـصـرَ أطـرقـا

وأبدع في وصف شالوط دير القمر بقوله:

الا حـبّـذا الـشـالـوطُ فـي الـديـرِ جـاريـا
عـلـيـهِ نـشـأ أهـلُ الـنـبـاهـةِ والـبـاسِ

يُـدارُ عـلـى الـقـومِ الـعـطـاشِ كـأنّـه
سـلافٌ أديـرتْ فـي الـكـؤوسِ لـجـلاّسِ

فـيـعـتـزُّ مـن يُـروى بـه فـتـخـالـه
غـنـيّـاً مـلـيّـاً وهـو فـي حـالِ إفـلاسِ

يُـقـالُ بـهِ مـا قـيـلَ فـي الـخـمـرِ سـابـقـاً
تـوجّـهـهُ لـلـجـوفِ يـذهـبُ لـلـراسِ

نطق شعره بلسان العاطفة وحوادث الزمان، وتصويرٍ حيّ لأخلاقه وروحه، وتصلّبه أمام صنوف الدهر.

أحبّ عمل الخير فاصطنعه ودعا إليه قائلاً:

عندَ الجميعِ اصطنعِ الجميلا
رُبَّ زمانٍ مكَّنَ الذليلا

ورأى الصفح عن الجاني دون نسيان الذنب عداوة، فقال:

ليس بكافٍ عفونا عن جانٍ
إنْ تعفُ فارمِ العفوَ بالنسيان

وله أيضاً قصيدة مهداة إلى قداسة البابا لاوون الثالث عشر، نُشرت في كتاب «التهاني الشرقيّة في يوبيل الحضرة البابويّة»، الصادر عن المطبعة العموميّة، بيروت 1888م، كما له محفورات شعريّة وتاريخيّة على مداخل بعض الصروح ومنها: باب أنطش سيّدة التلّة في دير القمر، الذي تناول فيه المدبّر أفرام حنين الديراني؛ 3 ـ محرّرات عدليّة، مطبوع قسم منها في بعض المجلاّت؛ 4 ـ مترجمات عدليّة عن اللغة التركيّة، بعضها مطبوع ومنشور، كقانون رسم التمغة، وقانون انتقالات الأموال غير المنقولة؛ 5 ـ المساهمة في ترجمة قوانين من الفرنسيّة إلى العربيّة.

إنّ معارف مخايل البستاني هي معارف فقهيّة وقانونيّة واسعة، وشعره رصين، قدّر مواطنوه مواهبه وخدماته العديدة، فهو:

عادلٌ مقسّطٌ وميزانُ حقٍّ
لم يحفْ في قضائه للموالي

المصادر والمراجع

● الأسود، ابرهيم، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، المجلّد الأوّل، السنة 1925، Officier d'académie ص 570 ـ 571؛ ● البستاني، ملحم ابرهيم، كوثر النفوس وسفر الخالدين، مطابع المرسلين اللبنانيّين، جونيه، لبنان، 1954، ص 536 ـ 547؛ ● الجندي، أدهم، أعلام الأدب والفنّ، دمشق، 1954، ج2، ص 258 ـ 259؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبيّة، الفكر العربي الحديث في سير أعلامه، الجزء الثالث، القسم الثاني، (الراحلون 1800 ـ 1972)، منشورات الجامعة اللبنانيّة قسم الدراسات الأدبيّة 7، بيروت، 1972، ص 200 ـ 201؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء السابع، الطبعة الثانية، ب.ت، ص 336؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة، وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقيّة والغربيّة مع ذكر أسماء مؤلّفيها ولمعة من ترجمتهم، وذلك من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة لهجريّة 1339 الموافقة لسنة 1919 ميلاديّة، مطبعة سركيس بمصر، 1346 هـ/ 1928 م، ص 561؛ ● غانم، يوسف، مشاهد الرجال، مطبعة صادر، بيروت، 1934؛ ● كحّاله، عمر رضا، معجم المؤلّفين ومصنّفي الكتب العربيّة، الجزء الثاني، مطبعة الترقّي بدمشق، 1376 هـ/ 1957م، ج 13، ص 56؛ ● نعمه، جوزف، دير القمر عاصمة لبنان القديم، مطبعة جوزف رعيدي للطباعة، 2001، ص 373 ـ 375.

د. يوسف لبكي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البستاني، أبو يحيى فؤاد أفرام

(1324هـ/1906م - 1411هـ/1990م)

هو أبو يحيى فؤاد أفرام جرجس البستاني، مؤرّخ، وكاتب موسوعي غزير الإنتاج، ندر نظيره علماً وثقافةً وغزارة إنتاج. ولد بدير القمر، في لبنان نهار الثلاثاء في 15 آب سنة 1906م. باشر دروسه في مدرسة راهبات مار يوسف الظهور في بلدته، ثمّ في معهد الإخوة المريميّين (الفرير ماريست)، وأتمّها في جامعة القدّيس يوسف ببيروت.

درّس الآداب العربيّة والفلسفة الإسلاميّة، والتاريخ اللّبناني، والحضارة الإسلاميّة في كليّة القدّيس يوسف (1925 - 1935م)، ومعهد الإخوة المريميّين (1932 - 1943م)، ودار المعلّمين والمعلّمات (1933 - 1955م)، والكليّة البطريركيّة (1941 - 1942م)، ومعهد الحكمة (1942 - 1944م)، والأكاديميّة اللّبنانيّة للفنون الجميلة (1947 - 1955م)، والجامعة اللّبنانيّة (1953 - 1970م).

أسهم مع الأب رنه موترد اليسوعي في إنشاء «دراسات الآداب الشرقيّة» الّتي أصبحت فيما بعد «المعهد الآداب الشرقيّة». وسعى في تأسيس دار المعلّمين والمعلّمات، ثمّ تولّى إدارتها من سنة تأسيسها 1942م حتّى سنة 1953م. كما سعى في تأسيس الجامعة اللّبنانيّة، وتولّى رئاستها من سنة تأسيسها 1953م حتّى بلوغه سنّ التقاعد سنة 1970م.

بدأ نشاطه الصّحافي بالكتابة في جريدة «البيان» سنة 1925م، ثمّ عُهد إليه، سنة 1927م، بأمانة تحرير مجلّة «المشرق»، فأصدر منها ثمانية عشر مجلّدًا، وأسهم في تحويل مجلّة «المكشوف» من مجلّة للعري إلى صحيفة أدبيّة رفيعة المستوى، كما أنشأ مجلّة ثقافيّة قصصيّة خاصّة بالتلامذة سمّاها «المدرسة»، وكتب مئات المقالات في الكثير من الصّحف والمجلاّت، منها الأسبوع العربي، والبشير، والبيرق، والتلغراف، والجريدة، والجندي اللّبناني، وحرّاس الأرز، والدّراسات الأدبيّة، ودير القمر، والرّعيّة الجديدة، والرّقيب، والزّمان، والشّراع، والشّمس، وصوت الأحرار، والصّيّاد، والطّريق، والطّيّار، والعالم اللّبناني، والعمل، والفكر الجديد، ولبنان، واللّواء، والمشرق، والمكشوف، والنّهار، والنّهار العربي والدّولي، والهدف.

وكان عضوًا في عدد من الجمعيّات والرّابطات العلميّة والأدبيّة كالرّابطة الأدبيّة، والجامعة الأدبيّة، وجمعيّة الدّراسات العربيّة، وأهل القلم، والأليانس فرانسيز، والمجمع الدّولي لرؤساء الجامعات، والأكاديميّات اللّبنانيّة، وغيرها.

ألقى حوالي ألفي محاضرة في لبنان، وسورية، والعراق، ومصر، والبحرين، والكويت، وتونس، والمغرب، والمملكة العربيّة السّعوديّة، وفرنسا، وإسبانيا،

وألمانيا، وإيطاليا، وإيران، وتركيا، والمكسيك، والولايات المتحدة الأميركيّة.

وشارك في الكثير من المؤتمرات الدّوليّة والثقافيّة، وكان له فيها جميعاً أبحاث ومناقشات، وذلك في بيروت، ودمشق، وباريس، وإستنبول، وبغداد، والموصل، وطهران، وهمذان، والبندقيّة (إيطاليا)، وتوبنغن (ألمانيا)، وعمّان.

كان له العديد من الأحاديث الإذاعيّة، وخاصّة في إذاعة بيروت، وصوت لبنان، وإذاعة لبنان الحرّة، وإذاعة الشرق الأدنى في يافا ثمّ في لندن، وإذاعات الكويت، والعراق، وإيران، وفرنسا، وإسبانيا. كما كان له أحاديث تلفزيونيّة في التلفزيون اللّبناني، والعراقي، والسّوري، والفرنسي، والنّرويجي.

نال دكتوراه شرف في الآداب من جامعة ليون في فرنسا سنة 1957 م؛ ودكتوراه شرف في الآداب من جامعة سانت أدوارد في أوستن (تكساس، الولايات المتّحدة الأميركيّة)، سنة 1958 م؛ ودكتوراه شرف في الحقوق من جامعة جورج تاون (واشنطن)، سنة 1958م. وأصبح عضو الأكاديميّة الدّوليّة للعلوم السّياسيّة (جنيف، سويسرا) سنة 1982م.

كذلك نال العديد من الأوسمة من لبنان، والفاتيكان، وإسبانيا، وتركيا، وإيران، وتونس، والمغرب، والسنغال، وإيطاليا، وفرنسا.

توفّي في بيروت في الثّامن والعشرين من شهر شباط سنة 1990م.

آثاره

1 ـ أحاديث الشّهور (مؤسّسة بدران، بيروت، 1973م)؛ 2 ـ الأدب العربي في آثار أعلامه، بالاشتراك مع واصف بارودي وخليل تقي الدين، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، المطبعة العصريّة، صيدا، د.ت؛ 3 ـ أرميا النّبيّ، بيروت 1973 م؛ منشورات الدّائرة؛ 4 ـ 14 أيلول، نشره باسمه المستعار «لبناني عتيق»، بيروت 1979 م، منشورات الدّائرة؛ 5 ـ الأسبوع الحاسم في تاريخ الإنسانيّة: سوانح وتأمّلات في أسبوع الآلام، بيروت، 1990 م، منشورات الدّائرة؛ 6 ـ أسبوعيّات، خواطر لبنانيّة في الأحداث والمحدثين، 1977 ـ 1980 م، نشرها باسم مستعار «أبو نضارة»، بيروت، 1980 م، لا تا؛ 7 ـ تاريخ لبنان التّمهيدي المصوّر، بالاشتراك مع أسد رستم، بيروت 1939 م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 8 ـ تاريخ لبنان في ساعة، بيروت 1949 م، منشورات النّدوة اللّبنانيّة؛ 9 ـ تاريخ لبنان الموجز، بالاشتراك مع أسد رستم، بيروت 1937 م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 10 ـ تذكار اليوبيل إلى الشيخ عبد الله البستاني، بيروت 1928 م، لا تا؛ 11 ـ التّذكرة اللّبنانيّة: أقوال مختارة في لبنان من آثار أبنائه في الوطن والمهجر، بيروت 1986 م، منشورات الدّائرة؛ 12 ـ توق النّفوس إلى جنّة الفردوس في شعر مار أفرام، بغداد، 1974 م، لا تا؛ 13 ـ حظيّات: خواطر لبنانيّة في الأحداث والمحدثين، نشره باسم مستعار، هو «القمان»، بيروت 1986 ـ 1987 م، منشورات الدّائرة؛ 14 ـ حول الموقد، حكايات لبنانيّة، مخطوط؛

15 ـ خمسة أيّام في ربوع الشّام، بيروت 1950 م، مطبعة العمّال اللّبنانيّين؛ 16 ـ خواطر وعبر في ذكرى فخر الدين الكبير، نشره باسمه المستعار «لبناني عتيق»، جونية 1977 م، مطابع الكريم الحديثة؛ 17 ـ خيبة الدّكتور، بيروت، 1957 م، منشورات الدّائرة؛ 18 ـ دائرة المعارف، وهي قاموس عامّ لكلّ فنّ ومطلب، جدّد فيها دائرة المعارف لبطرس البستاني، مضيفًا مئات الموادّ المستجدّة. وقد ظهر منها قبل وفاته أربعة عشر مجلّدًا؛ انتهى المجلّد الرّابع عشر بمادّة «أطلس» (بيروت، 1956 ـ 1983م)، وظهر المجلّد الخامس عشر بعد وفاته. وهذه الدّائرة إذا قُدّر لها أن تكتمل، ستكون أضخم موسوعة عربيّة، وربّما أضخم الموسوعات العالميّة. أمّا موادّها، فمجموعة أبحاث علميّة دقيقة يكتبها الاختصاصيّون لغير الاختصاصيّين، بأسلوب واضح قريب المنال، سهل الفهم والاستساغة.
وله فيها العديد من الأبحاث في التّاريخ، الجغرافية، والمجتمع العربي والإسلامي، والشّؤون الدّينيّة، والميثولوجيا.
19 ـ الرّسائل اللّبنانيّة، أصدرها باسم مستعار، هو «جنان الحارثي»، بيروت، 1975 ـ 1976م؛ وطبعة ثانية، سنة 1985م، نشرتها دائرة المعارف؛ 20 ـ رصافة هشام ورقّة الرّشيد، رحلة حديثة إلى صحراء سوريّة الشّماليّة، بيروت 1936 م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 21 ـ الرّوائع، وهي سلسلة أبحاث في الأدب، ومنتخبات من أشهر أعلامه. ظهر منها بحسب التّسلسل التّاريخي: (1) علي بن أبي طالب، 1927م؛ (2) الشنفري، 1927م؛ (3) المهلهل، 1927م؛ (4 ـ 5 ـ 6) ابن بطوطة، ثلاثة أجزاء، 1927 م؛ (7) امرؤ القيس، 1927م؛ (8 ـ 9) ابن عبد ربه، جزءان، 1927 م؛ (10) أبو العتاهية، 1927م؛ (11 ـ 12) المتنبي، جزءان، 1927م؛ (13 ـ 14 ـ 15) ابن خلدون، ثلاثة أجزاء، 1928 م؛ (16) أبو فراس الحمداني، 1928م؛ (17) أبو العلاء المعري، 1928م؛ (18 ـ 19 ـ 20) الجاحظ، ثلاثة أجزاء، 1928م؛ (21) ناصيف اليازجي، 1929م؛ (22) المعلّم بطرس البستاني، 1929م؛ (23) ولي الدين يكن، 1929م؛ (24) طرفة ولبيد، 1929م؛ (25) زهير بن أبي سلمى، 1929م؛ (26) عمرو والحارث، 1929م؛ (27) عنترة، 1930م؛ (28) الخنساء، 1930م؛ (29) الحطيئة، 1930م؛ (30) النّابغة الذّبياني، 1931م؛ (31) الأعشى الكبير، 1932م؛ (32) كعب بن زهير، 1933م؛ (33) حسان بن ثابت، 1934م؛ (34 ـ 35 ـ 36) الأخطل، ثلاثة أجزاء، 1936م؛ 1939م؛ 1930م؛ (37 ـ 38) الفرزدق، جزءان، 1941م؛ (39 ـ 40) جرير، جزءان، 1941م ـ 1942م؛ (41 ـ 42 ـ 43) إبراهيم اليازجي، ثلاثة أجزاء، 1952م؛ (44 ـ 45 ـ 46 ـ 47) سليمان البستاني، أربعة أجزاء، 1953 ـ 1955م؛ (48 ـ 49 ـ 50) أحمد شوقي، ثلاثة أجزاء، 1959 م؛ (51 ـ 52) ابن زيدون، جزءان، 1960م؛ 1961م؛ (53 ـ 54) ابن حزم، جزءان، 1966م؛ (55) ابن خفاجة، 1968م؛ (56) ابن شهيد، 1968 م؛ (57) ابن حمديس، 1977م؛

22 ـ ساحة الملوك، نظرات في الشعر العصري، مخطوط؛ 23 ـ على عهد الأمير، سلسلة حكايات تاريخيّة تصوّر الحياة اللّبنانية القديمة، بيروت 1926 م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 24 ـ عناد الرّوح في التّذكار المئوي الثّاني للأباتي مخيطار، بيروت، 1926م، لا تا؛ 25 ـ في بلد الأمير؛ 26 ـ في حنايا المغارة، حكايات ميلاديّة، مخطوط؛ 27 ـ في الشّعاع المطمئن، بيروت 1985م، منشورات الدّائرة؛ 28 ـ كاهن الله، بيروت 1987م، منشورات الدّائرة؛ 29 ـ الكتاب الأبيض اللّبناني، وثائق دبلوماسيّة حول الأزمة اللّبنانيّة الفلسطينيّة، جونية 1976م، مطابع الكريم؛ 30 ـ كنز الرّحمة، بيروت 1986م، منشورات الدّائرة؛ 31 ـ كوكب البريّة، بيروت 1981م، منشورات الدّائرة؛ 32 ـ كيف أفهم الأدب، محاضرة ضمن مجموعة محاضرات ألقيت في جمعيّة خرّيجي القسم الثّانوي في الجامعة الأميركيّة، بيروت 1937م، مطبعة الاتّحاد؛ 33 ـ لبنان ما قبل التّاريخ، بيروت، 1974م، منشورات الجامعة اللّبنانيّة؛ 34 ـ لماذا؟، قصة لبنانيّة تاريخيّة، بيروت، 1930م، 35 ـ مار مارون، بيروت 1965م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 36 ـ مارينا اللّبنانيّة راهبة قنوبين، بيروت 1983م؛ 37 ـ مع جبران خليل جبران، 1919 ـ 1982 م، بيروت، 1983م، منشورات الدّائرة؛ 38 ـ ملحمة الاغتراب اللّبناني في أربعة وعشرين نشيدًا، بيروت، 1974م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 39 ـ منجد الطلاّب، ط. 1، بيروت 1974م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 40 ـ مهمّة الجامعة في العالم العربي، بالاشتراك مع طه حسين وكامل عياد ونقولا زيادة، بيروت 1955م؛ 41 ـ مواقف لبنانيّة: خواطر لبنانيّة في الأحداث والمحدثين، بيروت، 1982م، منشورات الدّائرة؛ 42 ـ النّقد الأدبي: فائدته، وطريقته العمليّة، بيروت، 1930م، المطبعة الكاثوليكيّة؛ 43 ـ النّهج الواضح في مبادئ الأدب وفنونه، بيروت، 1953م؛ 44 ـ يوميّات: خواطر لبنانيّة في الأحداث والمحدثين، اثنا عشر جزءًا، بيروت 1975 ـ 1980م، لا تا؛ ونشرها باسم مستعار هو «لبناني عتيق»؛

ونشر كتاب «لبنان في عهد الأمراء الشهابيّين»، بيروت 1969م، منشورات الجامعة اللّبنانيّة، للأمير حيدر الشهابي؛ ومذكّرات رستم باز، بيروت 1955م، منشورات الجامعة اللّبنانيّة.

كما نشر كتاب طنوس الشدياق «أخبار الأعيان في جبل لبنان»، نظر فيه ووضع مقدّمته وفهارسه، بيروت 1970م، منشورات الجامعة اللّبنانيّة؛ وديوان المعلم نقولا الترك، بيروت، 1970م، منشورات الجامعة اللّبنانيّة؛ و«رواية الملكين»، للخوري مارون غصن، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، 1927م؛ وكتاب «فخر الدين أمير الدروز» لفوستنفلد، تعريب بطرس شلفون، وقد حقّقه فؤاد البستاني واضعًا فهارسه وخاتمته، بيروت 1981م، منشورات دار لحد خاطر.

المصادر والمراجع

● أباظة، نزار، والمالح، محمد، إتمام الأعلام، ذيل لكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي، ط. 1، دار صادر، بيروت،

1999م، ص 202 ـ 203؛ ● محمد خير رمضان يوسف، تتمّة الأعلام للزركلي، ط. 1، 2/ 14 ـ 15، بيروت 1998م، دار ابن حزم؛ ● فؤاد أفرام البستاني، نشر المؤلّف، لا ت، بيروت؛ ● متري بولس، الفنّ القصصيّ، ط. 2، بيروت، 2001م، دار أغات؛ ● مجلّة آفاق الثّقافة والتّراث، العدد الرّابع، شوّال 1414 هـ، ص 121؛ ● مجلّة الفيصل، العدد 208، شوّال 1414هـ، ص 140 ـ 141؛ ● فردينان توتل، المنجد في الأعلام، مطبوع مع المنجد في اللّغة، ط. 37، بيروت، 1998 م، دار المشرق؛ ● الجرائد اللّبنانيّة الصّادرة بتاريخ 1 مارس 1990م.

د. إميل يعقوب
الجامعة اللّبنانية ـ لبنان

البسطامي، عبد الرحمان بن محمد بن علي بن أحمد

(ت 858هـ/ 1454م)

ولد في أنطاكيا، وتنقل في مدن كثيرة بهدف الإطلاع على اللغة العربية وآدابها. وزار المراكز العلمية في بلاد الشام. ويذكر م. سميث دون الإشارة إلى المصدر أن عبد الرحمن البسطامي ربما شهد أحداث غزو الشام من قبل تيمور في عام 803هـ/ 1401م. وإثر ذلك ذهب البسطامي إلى القاهرة وتعلم اللغة والعلوم الدينية إلى جانب السيمياء، والطب، والتاريخ وبرع فيها. ثم ذهب إلى بورصه في وقت غير معروف، وكانت هذه المنطقة تمثل مركزًا للعلم والثقافة في الدولة العثمانية. وعرف هذا الرجل برعايته لأهل العلم، وقد نال حضوة كبيرة لدى السلطان مراد الثاني، وأهدى بعض مؤلفاته لهذا السلطان.

وتعرف عبد الرحمن البسطامي في بورصه على العالم العثماني المشهور الملا فناري واستفاد منه استفادة واضحة في اللغة والآداب العربية.

أحبّ البسطامي بورصه حبا كبيرا ولذلك فقد قضى بقية حياته في هذه المنطقة. وعايش ثلاثة سلاطين من سلاطين آل عثمان هم السلطان يلدرم بايزيد، والسلطان محمد چلبي، والسلطان مراد الثاني. وتوفي في بورصه ودفن فيها.

يصف طاش كوبري زاده عبد الرحمن البسطامي بأنه «الشيخ العارف بالله»، ويقول عنه إنه كان معجبا بايزيد وهو حنفي المذهب ومن مواليد أنطاكيا. ويقول عنه كذلك إنه كانت له معارف جيدة بعلوم الحديث، والتفسير، والفقه، والوفق، والتكثير كما له علم واسع بخواص الحروف، وعلم الجفر، ومواضيع التاريخ. وتروى حوله قصص غريبة في المواضيع الأخيرة. وبالإضافة إلى ذلك يورد

طاش كوبري زاده بأنه اطلع على أكثر نسخ المؤلف، ويصف خطه بأنه كان جميلا جدا.

آثاره

إلى جانب المصادر الكلاسيكية التي تحدثت عن مؤلفات عبد الرحمن البسطامي، توجد كتب كثيرة لهذا المؤلف تحمل اسمه. وقسم من هذه المؤلفات لم يسعفنا الحظ بالإطلاع عليها، وهذه المؤلفات تعطينا فكرة جيدة عن الحياة الثقافية والعلمية في الفترة التي تسبق السلطان محمد الفاتح. ويذكر كاتب چلبي لعبد الرحمن البسطامي ما يزيد عن الثلاثين مؤلفا، وأغلبها في علم الحروف، وعلم الحواس، والتصوف، والطب، والتاريخ. أما إسماعيل باشا البغدادي فيذكر للبسطامي ثلاثة وأربعين عنوانا من كتبه. ويذكر بروكلمان ستة وثلاثين عنوانا من عناوينها، ويذكر كذلك المكتبات التي توجد فيها هذه المؤلفات. وأهم هذه الكتب هي على النحو التالي:

1 ـ الفوائح المسكية في الفواتح المكية : تم إهداء هذا المؤلف إلى السلطان مراد الثاني، وهو عمل موسوعي ويعتبر أهم مؤلف للبسطامي. ويورد كاتب چلبي أن هذا المؤلف يعرِّف بأكثر من مائة موضوع من مواضيع العلم، وفيه معلومات غريبة وعجيبة لم تعرف حتى ذلك التاريخ، كما أنه يحتوي على علوم شرعية وفروع كثيرة من العلوم العربية. ويعتبره من بين كبار العلماء، وكتابه كتب على طريقة كتاب «موضوعات العلوم». ويتكون المؤلف من خمسة وثمانين بابا، وقد بدأ في إعداده في عام 805هـ/ 1402م وأنهاه في عام 844هـ/ 1440م. وذكر المؤلف المصادر التي استفاد منها في إعداد هذا الكتاب. غير أن مجدي يذكر أن البسطامي لم ينه هذا العمل. ويوجد هذا المؤلف الآن في المكتبات التركية [مكتبة السليمانية، حميدية، رقم 688، آياصوفيا، رقم 4160؛ ومكتبة نور عثمانية، رقم 2519/ 20]، وبالإضافة إلى ذلك توجد منه نسخ مخطوطة كثيرة [انظر: Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, II, 300; Supplementband, II, 324]؛ 2 ـ مناهج التوسل في مباهج الترسل : وهو من أشهر مؤلفات عبد الرحمن البسطامي، ويدور حول الوظائف السحرية للحروف، ويتكون من 46 «لطيفة». ويذكر في كل لطيفة سرًّا من الأسرار، ويضيف إلى كل واحدة منها «نكتة» و«حكاية» من الحكايات. ويصفه مجدي بأنه «مصدر لاشبيه له في الدلالة على الهداية وفي جلب السعادة لمن أشقاهم طالعهم والوصول بهم إلى الخير والفأل السعيد»، وهذا المؤلف طبعه صلاح الدين الصفدي رفقة كتاب «جنان الجناس» (استانبول 1299هـ) ؛ 3 ـ شمس الآفاق في علم الحروف والأوفاق : [مكتبة حاجي سليم آغا، رقم 527]. حسب المعلومات التي قدمها طاش كوبري زاده يعتبر هذا المؤلف من أوائل الكتب التي كتبت في علم «أعداد الوفق» وهو كذلك من أجملها ؛ 4 ـ مفتاح الجفر الجامع : [مكتبة السليمانية، آياصوفيا، رقم 2812/ 3]. حسب ما ذكره إحسان فاضلي أوغلي فإن هذا المؤلف يعرف أيضا باسم «الدر المعظم في السر الأعظم»، وقد تمت ترجمته في عام 1006هـ/ 1597-1598م بأمر من السلطان محمد الثالث من قبل شريف ابن السيد محمد بن الشيخ برهان الدين المدرس المعروف بشريف أفندي. وتوجد

نسخة المترجم في مكتبة سراي متحف طوب قابي تحت الرقم 7739؛ 5 ـ وصف الدواء في كشف آفات الوباء : [السيد علي باشا، رقم 2811/ 44]. يتناول هذا الكتاب موضوع مرض الوباء وكيفية علاجه. وهو أول رسالة تتناول موضوع الوباء في العهد العثماني، وبالإضافة إلى ذلك يتحدث عن بعض الكتب التي قرأها بنية الشفاء عن فرق ومذاهب مختلفة، ويذكر فيه أسماء عدد من الطرق والشيوخ وروايات متعددة فيما يتعلق بتاريخ التصوف؛ 6 ـ الأدعية المنتخبة والأدوية المجربة : [نسخة المؤلف: مكتبة السليمانية، آياصوفيا، رقم 377/ 3]. ويورد هذا المؤلف الطب النبوي، والطب الحروفي، وطريقة معالجة الوباء بالطب النباتي. ويتطرق الكتاب من حين لآخر إلى جالينوس، وأبي بكر محمد بن زكريا الرازي. كما يذكر العديد من أسماء شيوخ الطرق الصوفية؛ 7 ـ درة فنون الكتاب وقرة عيون الحُسّاب : حسب ما ذكر إحسان فاضلي أوغلي فإن هذا الكتاب يمثل أهمية كبيرة في تاريخ العلم عند العثمانيين. وقد تمت كتابته لمحاسبي الديوان، وهو كتاب في الرياضيات، وهو الكتاب الأول في هذا المجال. ويقول كاتب چلبي إن هذا المؤلف لم يصل إلى أيدينا؛ 8 ـ خرائد الملوك في فرائض السلوك: مؤلف يتكون من بابين، ويتناول في الباب الأول أهمية الفضائل في مجال الإدارة. وتوقف في الباب الثاني عند الروايات المتعلقة بالخضر وإلياس والتي يبدو فيها شيء من التناقض، وعمل على إزالة هذا التناقض. ويذكر كاتب چلبي أن هذا المؤلف قد تم إهداؤه إلى القاضي خضر ابن إلياس. وإذا أخذنا بالاعتبار المعلومات التي جاءت في «الشقائق النعمانية» لطاش كوبري زاده (ص 95 ـ 96) فإن هذا الرجل شأنه شأن عبد الرحمن البسطامي كان قد تعلم في مصر وانتقل إلى بورصه واستقر فيها، وهناك عمل في التدريس والقضاء، وهذا الشخص يمكن أن يكون خضر شاه أفندي (ت 853هـ/ 1449م)؛ 9 ـ الدرر في الحوادث والسير: حسب ما أورد كاتب ڤلبي [في «كشف الظنون» I، 750 ـ 751] فإن هذا المؤلف هو عبارة عن سرد للأحداث من خلال التسلسل الزمني منذ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى عام 700هـ/ 1301م؛ 10 ـ نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك: حسب ما يذكر كاتب چلبي كذلك [في «كشف الظنون» II، 1963] فإن هذا المؤلف يحتوي على معلومات تاريخية مختصرة منذ الهجرة النبوية وحتى عام 806هـ/ 1404م؛ 11 ـ رشح أذواق الحكمة الربانية في شرح أوقات اللمعة النورانية: هو عبارة عن شرح لكتاب أبي العباس أحمد بن علي البوني المشهور بمؤلفاته في السحر والطلاسم والمسمى «اللمعة النورانية». ويبدو أن هذا الكتاب هو الذي ذكره بروكلمان [Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, II, 300] بعنوان «أوراق الحكمة الربانية في شرح اللمعة النورانية»، وهذا الكتاب موجود في مكتبة السليمانية [يني جامع، رقم 785]. وقد قام البسطامي بقراءة «اللمعة النورانية» للبوني على عز الدين محمد ابن جماعه في مصر عام 807هـ/ 1405م، وأنهى شرحه في عام 841هـ/ 1437م؛ 12 ـ الفوائد السّنيّة : أورد كاتب چلبي [في «كشف الظنون» I، 514] أن هذا الكتاب

عبارة عن تلخيص لكتاب النووي المسمى «تهذيب الأسماء»؛ 13 ـ كيمياء السعادة الربانية وسيمياء السيادة الروحانية: ألف في عام 820هـ/ 1417م، وهو شرح لكتاب أبي العباس أحمد بن علي البوني في معاني الأسماء الإلهية؛ 14 ـ الدرة اللامعة في الأدوية الشافية: [وهبي البغدادي، رقم 2132/ 1؛ كشف الظنون، I، 743]. يتكون من عشرة أبواب وهو يتعلق بمسألة تأثير الدواء بفعل خصائص الدعاء؛ 15 ـ مفتاح أسرار السعادة في عالم الغيب والشهادة: يدور حول الأسرار الخفية لأسماء الله تعالى، ووفقا لما جاء في «كشف الظنون» لكاتب چلبي (II، 1759) فإن هذا المؤلف يتكون من مقدمة و«كتابين» وخاتمة. وقد ألف في عام 828هـ/ 1425م [للاطلاع على النسخ المخطوطة لمؤلفات البسطامي في مكتبات تركيا والعالم [انظر: Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, II, 300-301; Supplementband, II, 323-324؛ ولمزيد من التفصيل حول هذه المؤلفات انظر: Ihsan Fazli Oğlu, Divan Ilmi Arastirmalar, p. 229-240].

المصادر والمراجع

● طاش كوبري زاده، الشقائق النعمانية، نشر أحمد صبحي فرات، استانبول 1405هـ/ 1985م، ص. 46 ـ 47، 95 ـ 96؛ ● المؤلف نفسه، مفتاح السعادة، القاهرة 1968، II، 591، 596؛ ● مجدي، ترجمة الشقائق، نشر عبد القادر أوزجان، استانبول 1989، ص. 67-69؛ ● چلبي كاتب، كشف الظنون، استانبول 1360-1362/ 1941-1943، I، 514، 701، 742، 743، 750-751؛ II، 1033، 1566، 1759، 1845، 1905، 1963؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، استانبول 1951-1955، I، 531-532؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت 1984، IV، 91؛ ● كحاله، معجم المؤلفين، دمشق 1376-1381/ 1957-1961، V، 184-185؛

- Brockelmann, Geschichte der arabischen Litteratur, Leiden 1943-49, II, 300-301; Supplementband, Leiden 1937-42, II, 323-324;
- Franz Babinger, Osmanli Tarih Yazmalari ve Eserleri, trc, Bahriye üçok, Ankara 1982, p. 18-20;
- Ihsan Fazlioğlu, «Ilk Dönem Osmanli Ilim ve Kültür Hayatinda Ihvânu's-Safâ ve Abdurrahmân Bistâmî» Dîvân Ilmî Arastirmalar, Istanbul 1996/2, p. 229-240;
- M. Smith, «al-Bistami» Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition), Leiden 1954, I, 1286;
- Hamid Algar, «Bestâmî», Encyclopaedia Iranica, Londan 1985, IV, 182-183.

د. مصطفى شاغريجي
استنبول ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي ـ السودان

البسطامي، أبو يزيد طيفور بن عيسى

(188هـ / 804م - 261هـ / 875 م)

أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان، من جهابذة التصوّف الإسلامي، له الأثر الكبير في معاصريه ومن جاء بعده من المتصوّفة على اختلاف مذاهبهم وتباين أروماتهم.

ولد ونشأ ببسطام من بلاد خراسان سنة 188هـ / 804 م، وتوفي بها سنة 261هـ / 875م. كان جدّه «سروشان» من المجوس الذين أسلموا. شكّل وأخويْه آدم وعلي ثلاثة متصوّفة في بيت واحد، كانوا جميعا أرباب أحوال إلاّ أن أبا يزيد «كان أجلّهم حالاً» [الرسالة القشيرية، ص 13]، لقّبه صاحب لسان الميزان بشيخ الصوفية، كما صنّفه مؤرخو التصوف وأصحاب الطبقات في أوائل المتصوفة، وفي الطبقة الأولى من طبقاتهم [السلمي، طبقات الصوفية، فهرس الكتاب]، ويعدّه الكلاباذي في كتابه التعرّف من رجال الصوفية الذين نطقوا بعلومهم وعبّروا عن مواجيدهم، ونشروا مقاماتهم ووصفوا أحوالهم قولا وفعلا [ص 27، 29]. جاء في دائرة المعارف الإسلامية أنه أول من قال بمذهب الفناء، ويعرف أتباعه بالطيفورية أو البسطامية [مج. 3، 331] وإلى جانب التصوف عُرف البسطامي - أيضا - بروايته للحديث النبوي وإسناده.

لم يترك البسطامي تصانيف في التصوُّف، فكل ما خلّفه مقولات وعبارات تحمل حكما ومواعظ وشطحات صوفية، مليئة بالرمز والإشارة حتى اتخذ منها مواقف متباينة بسبب حملها على معان متباينة من حيث الفهم والتأويل: ونتيجة لذلك عدّه البعض وليّا صالحا صاحب كرامات، وعدّه البعض الآخر مارقا عن الدين يجب طرده من المدينة، وهو الأمر الذي حدث له بالفعل، حيث أخرج من بسطام، فاتجه إلى مكة حاجا، ثم عاد إلى جرجان، ولم يدخل بسطام إلاّ بعد موت حاكمها الحسين بن عيسى البسطامي.

يعود الفضل في حفظ أقواله أوّلا إلى ابن أخيه أبي موسى بن آدم، ومن خلاله عرف الجنيد أفكار البسطامي وشرحها وأذاعها، كما ترجم بعضها إلى اللغة العربية؛ ولأبي موسى ولدٌ زاهدٌ أيضا لُقّب بالبسطامي الأصغر وحمل الاسم نفسه تيمّنا بالبسطامي الأكبر هو: أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم بن علي الزاهد البسطامي الأصغر [ياقوت، معجم البلدان، 421].

ومن المتصوفة الذين اتصلوا به وتأثروا بأفكاره أبو موسي الدابيلي، وأبو إسحاق بن هروي؛ كما دوّن بعضهم سيرته ومقالاته مثل أحمد بن خضرويه، ومحمد سهلجي صاحب كتاب النور... [هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، 289].

تداول أتباع البسطامي أفكاره وممارساته الصوفية في شكل أقوال فيها وصف لأحواله ومقاماته العرفانية، وفيها مواعظ أخلاقية تهذّب النفس وتروّضها على التعفّف والتحلّي بالأخلاق الإلهية لما للتصوّف من صلة وطيدة بالأخلاق، بل هو الأخلاق الفاضلة بعينها، ولا وصول إلى الله ـ المراد من التصوف ـ إلاّ بالأخلاق أوّلا، مع النفس ومع الغير ومع الله، يقول البسطامي: «أقرب الخلق إلى الله، أوسعهم لخلقه خلقا فتواضعوا» [السلمي، المقدمة في التصوف، 68].

يذهب أبو يزيد في مجال الأخلاق وضرورة تمثّلها لدى الصوفي حتى تتطابق مع آرائه إلى حد النصح بعدم الاكتراث لخرق العادات، إن كان صاحبها مجردا من السلوك القويم والمقوّم، فيقول: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة» [الرسالة القشيرية، 14].

وإذا كان التصوّف أخلاقا، ومبرّرات غرضه تقويم السلوك الإنساني وترويض النفس والسموّ بها عن الدنايا، فإنه مع البسطامي ومعاصريه من المتصوّفة بدأ ينتقل من الأخلاق الممارسة لذاتها أو المجسدة في تعبّد وزهد، إلى محاولة الوصول إلى الله والفناء فيه بالتجرد التام من كل ما سوى الله ولن يتأتّى ذلك إلاّ بالعرفان، والذي يتدرّج بدوره في سلّم الأحوال والمقامات، ويكون أرفع من مجرّد العبادة ومن الزهد، وإن بقيا من منطلقاته ومقوّماته، يقول البسطامي: «لا يعرف نفسه من صحب شهوته»، فالمتمسك بملذات الدنيا يصعب عليه حتى معرفة نفسه، ومن جهل نفسه جهل ربه. وعن شرط الزهد في العرفان قال أيضا: «المعرفة بطن جائع، وبدن عار». هذا عن الزهد، أما عن تميّز العبادة سواء بزهد أو بدونه عن المعرفة الصوفية فيقول واصفا تجربته: «عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئا أشدّ عليّ من العلم ومتابعته».

يكمن تميّز العرفان عن العبادة والزهد في أن العبادة والزهد وسيلتان لمعرفة الله معرفة يقينية لا شك معها، وصعوبتها تكمن في أنها لا تتأتّى إلا بمفارقة النفس وبرعاية إلهية مسبوقة بمجاهدات ورياضات، «وأدنى ما يجب على العارف أن يهب له ـ أي الله ـ ما قد ملّكه». أما أقصى ما يجب فترك الدنيا والآخرة وكلّ ما سوى الله، فعبادة الصوفي وزهده ليسا من أجل دنيا، ولا من أجل آخرة، لا خوفا من النار ولا طمعا في الجنة، فالمراد هو الوصول إلى الله والابتهاج بتلك الغاية القصوى. يقول البسطامي واصفا تدرّجه في هذا الزهد حتى بلغ الوصال: «... كنت ثلاثة أيام في الزهد فلما كان اليوم الرابع خرجت منه، اليوم الأول زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق لي سوى الله، فهمت، فسمعت هاتفا يقول: يا أبا يزيد لا تقوى معنا، فقلت: هذا الذي أريد، فسمعت قائلا يقول: وجدت وجدت».

وبهذا الوصل يتمكن العارف من معرفة الله، ومعرفة مخلوقاته، ومنهجه نور الله المستفاد من تجربته الكشفية، يقول: «عرفت الله بالله،

وعرفت ما سوى الله بنور الله». [الشعراني، الطبقات الكبرى، 1/ 65].

بهذا كله يكون مصدر المعرفة وموضوعها عند البسطامي هو الله، ومنهجها الكشف، وشرطها العمل، وكلما تجسدت ازداد صاحبها يقينا وبلغ الغاية منها، وهي الاتصال بالله والفناء فيه، حينها يدرك الصوفي المطلق، وتتحوّل إرادته من إرادة بشرية محدودة إلى إرادة إلهية وعلم إلهي مطلقين.

وإذا بلغ العارف المراد أدرك من المعرفة ما يعجز اللسان عن التعبير عنه، وإذا ما رام ذلك فإن الذي يبلغه من فناء وما يشاهده ستحمله عبارة دونه، ويفهم منها السامع ما لم يتعوّد على سماعه، من غريب العبارة والمعنى، ويتّخذ من ذلك مواقف مختلفة.

ذلك النوع من المعرفة، وتلك الأقوال الغريبة المعبّر عنها، هي المسمّاة بالشطحات الصوفية، وهي العبارات التي أثارت جدلا كبيرا، وفُهم منها القول بالاتحاد فكفّره لأجلها فريق، وشُرحت وأوّلت: وبرّر القول بها فريق ثان، وعدّها فريق ثالث على أنها مدسوسة عليه ولم يقل بها ألبتة. ومن أهم هذه الشطحات وأشهرها قوله: «سبحاني ما أعظم شأني».

وقد نسب إلى البسطامي شرح هذه العبارة بما مفاده أنه، وهو في غمرة تجلّ من تجلياته الصوفية، نزّه الله بعبارة «سبحان الله»، فاعترض عليه في سرّه الله أن نزّه نفسك أولا، لأن الله لا عيب فيه يحتاج إلى أن ينزّه عنه. ومن ثم راح البسطامي يتعالى عن الرذائل ويتحلّى بالفضائل حتى صار يقول: «سبحاني ما أعظم شأني» من باب التحديث بالنعمة. [نهاد خياطة، دراسة في التجربة الصوفية، 96].

هذا التبرير لا يرقى إلى ما وضعه كبار المتصوفة من شرح وتأويل لعبارة البسطامي «سبحاني ما أعظم شأني»، فأقرب المتصوفة إليه زمنا الجُنيد يقول عنها بأنها تعبير عما شاهده في مقام الفناء، حيث غاب عن ذاته ولم يعد يرى سوى الله وجلاله، يقول الجنيد: «... الرجل مستهلك في شهود الجلال، فينطق بما استهلكه، أذهله الحق عن رؤيته، فلم يشهد إلا الحق، فنعته» [التفتازاني، مدخل إلى التصوف، 121].

أما الغزالي فيشرح هذه العبارة ويؤوّلها في كتابه «المقصد الأسنى» بأنها لا تخرج عن أحد معنيَيْن: إما أن البسطامي يتحدث عن الله بضمير الأنا، بمعنى أن الله هنا هو المتكلم وليس البسطامي. وإما أنه يتحدث بأنانيته، وهنا تكون المقولة صدرت منه في غمرة الوجد والسكر وهو في مقام الفناء، وتنزيهه لذاته يكون بالمقارنة مع خلق الله لا مع الله، يقول الغزالي: «قول أبي يزيد قد يصحّ عنه ... إمّا أن يكون جاريا على لسانه في معرض الحكاية عن الله... وإمّا أن يكون قد شاهد كمالا لاحظه في صفة القدس ... فأخبر عن قدس نفسه، فقال! سبحاني ... للإضافة إلى عموم الخلق ... فلا نسبة له إلى قدس الرب تعالى وعظم شأنه ... ويكون قد جرى هذا اللفظ على لسانه في سكر».

وإلى هذا المعنى يشير ابن عربي عند شرحه لعبارة البسطامي «سبحاني...»، فيذهب

إلى عبارة قالها عند بلوغه أحد المقامات الصوفية العالية ونال رتبة الإمام [ابن عربي، كتاب المنزل القطب، 10] حيث يأنس الواصل بالجلال الإلهي، ويندهش لما يرى فتصدر منه هذه الأقوال؛ ثم يبرئ ابن عربي هذه العبارة من معنى الشرك والاتحاد، فيرى رأي الغزالي بأنه قول بلسان الصوفي وبأنانية الإله لا أنانية الصوفي، كما أنها يمكن أن تقال في حال السكر لا في حال الصحو، يقول ابن عربي: «إن الاتحاد محال أصلا، وإن المعنى الحاصل عندك من الذي تريد الاتحاد به هو الذي يقول أنا فليس باتحاد إذن، فإنه الناطق منك لا أنت، فإذا قلت «أنا» فإنك لا تخلو أن تقول «أنا» بأنانيتك أو بأنانيته، فإن قلتها بأنانيتك فأنت لا «هو»، وإن قلت بأنانيته فما قلت فهو القائل «أنا» بأنانيته فلا اتحاد البتة... فإن عرف شرف «الهو» فقوله على الصحو غير جائز» [ابن عربي، كتاب الياء، 50].

ومن الشطحات الصوفية الأخرى التي تنسب إلى البسطامي قوله: «رفعني الحق مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك. فقلت: زيّني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديّتك. حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هناك». هذه العبارات تعبر عن قمة الفناء ومحو ذات العارف بالكلية لتبقى ذات واحدة هي ذات الله وأحديّته. ونحو هذا المعنى قال أيضا: «كنت لي مرآة فصرتُ أنا المرآة».

مثل هذه الشطحات كانت المبرّر الرئيس لخصوم البسطامي، من الفقهاء خاصة، لتكفيره وإخراجه من الملّة بتهمة الشرك والقول بالاتحاد، كما وجدوا في مجوسية جده «سروشان» ذريعة للقول بأن أبا يزيد رواسبه العقدية مزدكية، لذلك جاء فكره ملونا بآراء شرقية قديمة وثنية.

إن مجوسيّة جدّ البسطامي لاحقته على الرغم من إسلامه، وشكّلت له هاجسا حتى أنه كان يقول: «منذ ثلاثين سنة وأنا أصلّي، واعتقادي في نفسي عند كل صلاة أصليها كأني مجوسي أريد أن أقطع زنادي» [الرسالة القشيرية، 14].

وتبقى مع كلّ هذا أفكار البسطامي تثير الاهتمام بين الأخذ والردّ إلى يومنا هذا، كما تبقى أفكارا راقية: فعلى الذي يريد أن يفهمها أن يقرأ ما قاله أبو علي الجوزجاني عندما سئل عن أفكار البسطامي فأجاب: «... من أراد أن يرتقي إلى مقام أبي يزيد فليجاهد نفسه كما جاهد أبو يزيد، فهناك يفهم الكلام» [الشعراني، طبقات الصوفية، 66].

المصادر والمراجع

● العسقلاني، لسان الميزان، صورة من طبعة حيدر أباد الدكن 1330هـ/ 1912م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 3/ 214 - 215؛ ● السلمي، الطبقات الصوفية، تح. نور الدين شريبة، ط. 2، القاهرة 1406/ 1988، مكتبة الخانجي، ص 67 - 74؛ ● م. ن، المقدمة في التصوف وحقيقته، تح. يوسف زيدان، 1407/ 1987، مكتبات الكلية الأزهرية، ص 68؛ ● الشعراني، الطبقات الكبرى، القاهرة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح

وأولاده، 1/ 65 ـ 66؛ ● ابن عربي، كتاب الياء، حيدر أباد الدكن 1367/ 1948، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، ص 5؛ ● م. ن، كتاب المنزل القطب، حيدر أباد الدكن 1367هـ/ 1948م، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، 10؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 143 ـ 144؛ ● القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت، دار الكتاب العربي، 13، 14؛ ● الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تقديم وتح. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دمشق 1407/ 1986، دار الإيمان، 27، 29؛ ● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ط. 2، بيروت سنة 1995، دار صادر، 1/ 421؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، تعريب محمد ثابت الفندي وآخرون، انتشارات جهان، تهران / بودر حمبري، 3/ 331؛ ● بدوي، عبد الرحمان، شطحات صوفية، أبو يزيد البسطامي، القاهرة 1949؛ ● نهاد خياطة، دراسة في التجربة الصوفية، ط. 1، دمشق 1411هـ/ 1994م، دار المعرفة، 96 ـ 102؛ ● محمود، عبد الحليم، أبو يزيد البسطامي، القاهرة (د. ت.)، دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع؛ ● التفتازاني، أبو الوفاء الغنيمي، مدخل إلى التصوف الإسلامي، القاهرة 1988، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 121؛ ● نيكلسون، رينولد، في التصوف الإسلامي وتاريخه، تعريب أبو العلا عفيفي، القاهرة 1375هـ/ 1956م، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر؛ ● كوربان، هنري، تاريخ الفلسفة الإسلامية، تر. نصير مروة وحسن قبيسي، بيروت 1966، منشورات عويدات، 289.

د. ساعد خميسي
جامعة منتوري ـ قسنطينة

البسطي، أبو عبد الله محمد القُسطرلي

(ت 844 هـ/ 1440 م)

أبو عبد الله محمد القُسطرلي، أو القَسطُرّلي، محدث، فقيه، لغوي، وعالم بالحساب. أصله من قُسطُرّيَة، بضم الطاء وتشديد الراء، كما ضبطها ياقوت الحموي. وهي مدينة بالأندلس من عمل جيان (Jean)، وتقع بينها وبين بيّاسة (Bacza). سكن بعد ذلك في مدينة بسطة (Baeza) التي تقع إلى الجنوب الشرقي منها. وهذه المدينة الأخيرة أيضاً من عمل جيان التي لا تفصلها عنها إلا ثلاث مراحل، وتقع شرقي غرناطة (Granada) بالقرب من وادي آش.

عاش أبو عبد الله محمد القسطرلي في أيام مملكة غرناطة. ولا نعرف تاريخ ولادته، لكنه على الأغلب عاصر العديد من ملوك غرناطة، اعتباراً من عهد محمد الخامس الغني بالله في ولاية حكمه الثانية المبتدئة بسنة 762هـ / 1361م - 794هـ / 1392م، وحتى وفاته زمن محمد السابع المعروف بالأيسر، الذي حكم من سنة 820هـ / 1417م - 858هـ / 1454م. ولقد تميزت هذه الحقبة بكثرة الصراعات الداخلية بين أسرة بني نصر الحاكمة، وكثرة أطماع القشتاليين، الذين كانوا يتربصون الفرص لغزو مملكة غرناطة. وقد تعرضت هذه المملكة فعلاً في هذا العهد إلى الكثير من الغزوات التي شملت مدينة بسطة ووادي آش، لاسيما في السنوات الأخيرة من حياة محمد القسطرلي، ومع ذلك عاش هذا العالم حياته مشاركاً في كثير من العلوم السائدة في عصره، شأنه شأن الكثير من العلماء الذين نبغوا في هذا العصر.

والحقيقة أن معلوماتنا عن أبي عبد الله القسطرلي شحيحة جداً، وهي تأتي بالدرجة الأولى من الترجمة المختصرة التي كتبها له أبو الحسن علي بن محمد بن علي القرشي البسطي الشهير بالقلصادي المتوفى بمدينة باجة التونسية سنة 891هـ / 1486م. فقد عرّف به ضمن شيوخه الذين أخذ عنهم العلم بمدينة بسطة، ووصفه بـ «الفقيه الإمام الصدر الورع الخيّر سيدي أبو عبد الله محمد القسطرلي، رحمة الله عليه» [رحلة القلصادي، 84]. وقد أشار إلى مشاركة أستاذه في أكثر العلوم، من القراءة، والحديث، واللغة العربية، وغير ذلك. وذكر بشكل خاص أنه جوّد عليه بعض أجزاء القرآن العزيز، كما قرأ عليه بعض المقالات في الحساب، لأبي العباس أحمد الأزدي المراكشي المعروف بابن البناء المتوفى سنة 721هـ / 1331م.

إن إشارة القلصادي إلى أخذه لمقالات ابن البناء عن أبي عبد الله القسطرلي، تشير بوضوح إلى اهتمام الأخير ومعرفته بعلم الحساب الذي اشتهر به ابن البناء، وله فيه مؤلفات كثيرة وصل بعضها إلى الأندلس عن طريق العلماء الذين رحلوا إلى ابن البناء في المغرب للدراسة عليه، وعادوا ببعض مؤلفاته التي أطلع عليها القسطرلي ودرسها، وأحكم تعلّمها، حتى أصبح مؤهلاً فيما بعد لتدريسها على تلامذته، ومنهم القلصادي الذي نبغ في هذا العلم مستقبلاً، إلى درجة أنه ألّف فيه نحو سبعة عشر مصنفاً. ولاشك أن الفضل الكبير في هذا يرجع إلى شيخه الذي درس عليه هذا العلم [السخاوي، الضوء اللامع، 6/ 14]. وبعد حياة حافلة بالعلم والعطاء، توفي أبو عبد الله محمد القسطرلي، إثر وباء انتشر في البلاد عام 844هـ / 1440م.

المصادر والمراجع

- الحموي، معجم البلدان، بيروت 1977، دار صادر، 4/ 347؛
- القلصادي، رحلة القلصادي، تح. محمد أبو الأجفان، تونس، 1985، الشركة التونسية للتوزيع، 84؛
- السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن

التاسع، بيروت، (د.ت)، دار مكتبة الحياة، 6/ 14؛ ● البقاعي، عنوان الزمان، مخطوط دار الكتب القومية بمصر، رقم 4911، 2/ 406 (لضبط كلمة القسطرلي، نقلاً عن: رحلة القلصادي، لم أطلع عليه).

أ.د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

■ بسيّس، محمد الصادق بن محمود

(1332هـ / 1914م ـ 1398 هـ/ 1978 م) ■ ■ ■

ولد الشيخ محمد الصادق بن الحاج محمود بن محمد بسيّس في 2 نوفمبر 1914م / 14 (13 حسب التقويم) من ذي الحجة 1332هـ بحي تربة الباي من تونس العاصمة التي قدم إليها أسلافه من قرية «بني خيار» بالوطن القبلي. امتحن بوفاة أبيه ولما يبلغ العاشرة، وبعد خمس سنوات لحقت به أمه، فعرف اليتم هو وأخوه محمد الطيب وأخواته الثلاث...

وفي صباه اختلف إلى الكتّاب حيث حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ بعض المتون. كما حضر دروس الشيخ عبد العزيز الباوندي (ت 1940) في جامع «الحلق» بحي باب الجديد، وجامع رحيبة سيدي الجبالي قرب نهج القعادين من حي باب سويقة الشعبي العريق بتونس العاصمة.
ثم زاول تعلمه الثانوي والعالي في جامع الزيتونة حيث أحرز شهادة التحصيل سنة 1942، وتخرج منه بشهادة العالمية في العلوم الشرعية. وفيه أخذ العلم عن شيوخ أجلاء منهم الشيخ الشاعر أبو الحسن بن شعبان (ت 1963) الذي لقنه دروس الإنشاء [من ذكرياتي، النهضة الأدبية، 14 فيفري 1944]، والشيخ محمد العزيز جعيط (ت 1970)، والشيخ محمد البشير النيفر (ت 1974)، والشيخ محمد الزغواني (ت 1979).

وفي نفس الوقت كان يتردد على المدرسة الخلدونية للاستفادة من دروسها ومحاضراتها ومكتبتها، وعلى غيرها من المكتبات مثل مكتبة التلميذ الزيتوني، ومكتبة العطارين (دار الكتب الوطنية الآن) لمطالعة ذخائرها وكنوزها من المطبوعات والمجلات، خاصة منها «الرسالة» لأستاذه ـ كما قال ـ أحمد حسن الزيات الذي كتب عنه بكل تقدير وإعجاب مقالة «وأسفاه على أستاذنا الزيات» [الصباح، 4 جويلية 1968]، و«الثقافة» لأحمد أمين، وممن عدّهم من أساتذته عبر المجلتين عباس محمود العقاد كاتبه الحبيب إلى قلبه كما جاء في مقاله الرثائي « ذكرى وفاء للعقاد » [الصباح، 9 أفريل 1964]. ثم أغراه شغفه بالمطالعة إلى الإبحار في عالم

المخطوطات أنّى وجدها، سواء كانت في مكتبات الأحمدية أو العبدلية أو الخلدونية أو العطارين، أو عند أستاذه حسن حسني عبد الوهاب (ت 1968)، الذي فتح له خزائن مكتبته، فكتب عنها بتقدير كبيرعدة مقالات، منها: «التراث التونسي المخطوط بالمكتبة الوهابية» [العمل/أدب وثقافة، 18 ـ 25 سبتمبر 1970].

ومن المؤثّرات فيه أيضا تردُّده على النوادي العلمية والأدبية. وأبرز من عرفهم فيها ولازمهم الشيخ محمد العربي الكبادي (ت 1961)، كما عرفه شيخا له في المدرسة العليا للغة والآداب العربية بالعطارين، فاستفاد من بحر علومه في اللغة العربية، ومن فيض حافظته في الشعر والنثر. وله في هذا الشيخ مقالات ودراسات طافحة بالإكبار والاعتراف بجميل التأثير، يبدو أنها نواة كتابه عنه. وهذا إضافة إلى من عرفه فيها من أساتذة آخرين مثل عثمان الكعاك (ت 1976)، وحسن حسني عبد الوهاب السابق ذكره، سواء في مدرسة العطارين أو في مجلس «بيت الحكمة» الذي كان يعقده في منزله، والمستشرق الفرنسي ويليام مارسي (ت 1956).

وبعد التخرُّج من الزيتونة وإثر النجاح في مناظرة التدريس باشر الشيخ بسيس التعليم بالعاصمة منذ سنة 1944 في فروع جامع الزيتونة ومعاهدها الثانوية. منها في ما نذكر معهد ابن عبد الله. ثم انتقل سنة 1962 بعد توحيد التعليمين الزيتوني والمدرسي، وإنشاء كلية الشريعة وأصول الدين، إلى هذه الكلية ليدرس فيها العلوم الشرعية والتصوّف... إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1975، ليتفرّغ للكتابة والتأليف...

والشيخ بسيس يمتاز بعلوّ الهمة وقوة العزيمة والنشاط الدائب. وكان سريع الانفعال، لَجُوجًا، وخطيبا جهوريّ الصوت، وباحثا، ومحققا، وكاتبا، ومذيعا. عرفته النوادي الأدبية منذ سنة 1936 بمحاضراته وتدخُّلاته في مثل جمعيات قدماء الصادقية والشبان المسلمين والخلدونية، والملتقيات الدينية مثل ملتقيات القيروان في المولد النبوي، وملتقى ابن عرفة بمدنين، وملتقى الفكر الإسلامي بالجزائر... كما عرفته الصحافة بمقالاته المسترسلة مثل الزهرة، والنهضة، والنديم، ولسان العرب، والصباح، والبصائر الجزائرية، وجريدة العمل بملاحقها: أدب وثقافة، والعمل الثقافي، والعمل الأدبي، ومجلات الثريا، وتونس الفتاة، واللغات، والفكر، وجوهر الإسلام والهداية، وغيرها، والإذاعة بأحاديثه في برنامج حديث الصباح، وبرنامج حصة المرأة الذي كان يشرح فيه القرآن والحديث النبوي، ويبث الوعي الديني، والروح الإسلامية الصافية، ومبادئ الإسلام السمحة؛ وكذلك كان يلقي دروسا إصلاحية في الجوامع مثل جامع ضاحية أريانة حيث كان يسكن، وكان موعد درسه بين العشاءين كل يوم خميس.

وهو ذو نشاط اجتماعي وجمعياتي بارز. انضمّ بحماس إلى لجنة إغاثة الفقراء والمحتاجين التونسيين، وإلى لجنة تأسيس جمعية الشبان المسلمين، والرابطة الأدبية (1936)، والرابطة الرياضية الزيتونية، وبيت الحكمة التي كان كاتبها العام.

وكان أيضا وطنيًّا عاملا في صلب الحزب الحر الدستوري الجديد بحركيّته وخطبه حتى اعتبرته السلطة الاستعمارية من العناصر الخطرة. فألقت عليه القبض بعد حوادث 9 أفريل 1938، وسجنته حوالي أربعة أشهر. ثم وضعته بعد سراحه تحت المراقبة وطائلة مطاردته وتفتيش منزله حدّ إتلاف أوراقه ومخطوطاته.

ولا شك أن انتماءه إلى تونس البلد العربي المسلم قد أيقظ في وجدانه وعقله وسلوكه هويّته العربية الإسلامية. فكان بتأثير هذه المنازع الثلاثة يستجيب ويعمل بصدق وحماس لكل ما هو وطني وعربي وإسلامي، خاصة القضية الفلسطينية التي كان يدافع عنها دفاعه عن وطنه سواء بانخراطه عضوا عاملا في «جمعية إغاثة منكوبي فلسطين» (1936)، أو بكتابة مقالات طافحة بالشعور القومي مثل مقالته: «يا مسلمون يا مسلمات أجيروا فلسطين العربية!» [الزهرة 1 - 3 جويلية 1936]. كما تولّى رئاسة لجنة الدفاع عن فلسطين [الزهرة، 7 ديسمبر 1947].. فكان يعقد اجتماعات لمناصرة فلسطين مثل الاجتماع الذي عقد في الجامع الأعظم وخطب فيه هو والشاذلي بن القاضي، والحبيب شلبي من اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي، ولما أبداه من نشاط حوْل القضية الفلسطينية إلى حدّ التخلف عن دروسه عُرف في الأوساط التونسية بالشيخ الفلسطيني. كما كانت له علاقات وطيدة ببعض الشخصيات الفلسطينية مثل المجاهد محمد علي الطاهر، والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وغيرهم [فجيعة العالم الإسلامي بفقد أمين الحسيني ومحمد علي الطاهر، الصباح، 6 سبتمبر 1974].

ولم تكن حياته الطافحة بالنشاط لتخلو من المنغّصات، فقد أصيب خلال عام 1952 بكسر في رجله اليسرى لما كان خارجا في ليلة ممطرة من بيت شقيقه المحامي محمد الطيّب بسيّس. وعلى الرغم مما بذله من علاج دام أشهرا بتونس فقد اضطُرّ إلى التداوي بباريس حوالي أربع سنوات تعلّم خلالها اللغة الفرنسية. ولما عاد إلى الوطن سنة 1956 كان به نقص في رجله وعَرَج ألزمه أن يلبس حذاءًا عالي الكعب الأيسر، وأن يعتمد على عصا ظلّت ملازمة له إلى أن توفي فُجاءة يوم الأربعاء 27 شوال سنة 1398هـ/ 11 أكتوبر 1978م، ودفن يوم الخميس بمقبرة الزلاج بالعاصمة.

والشيخ بسيّس تأثّر، منذ شبابه الباكر بالهدي القرآني والسنة النبوية والإصلاح الديني في دروس الشيخ عبد العزيز الباوندي، ثم بابن تيمية الذي عقد مقارنة بينه وبين الشيخ رشيد رضا في ما بعد [الزهرة، 5 جوان 1942]، فبالتصوف وأعلامه، خاصة منهم الإمام الغزالي الذي ولع بكتبه كثيرا حتى كاد يحفظ منها إحياء علوم الدين عن ظهر قلب... إلخ.

ومن المحْدثين تأثر بجمال الدين الأفغاني (ت 1897)، وعبد الرحمان الكواكبي (ت 1902)، والشيخ الإمام محمد عبده (ت 1905)، ومحمد رشيد رضا (ت 1935)، والأمير شكيب أرسلان (ت 1946)، ومن التونسيين بخير الدين باشا التونسي (ت 1889)، والزعيم الشيخ عبد العزيز

الثعالبي (ت 1944): فطالع لهم آثارهم خاصة مجلة المنار للشيخ رضا، بل إنه كان يراسل من كانت لهم بالشيخ رضا علاقة ومعرفة. من ذلك أنه راسل شكيب أرسلان، وشيخ الجامع الأزهر، والدرديري رئيس الشبان المسلمين بمصر، ومحبّ الدين الخطيب، سائلا عن الرشيد رضا بعد مضيّ عام على وفاته فأجابوه [النهضة، 22 نوفمبر 1936].

ولا شك في أن هذا المنزع الإصلاحي، بالإضافة إلى العامل الوطني، هو الذي حثه على تحقيق كتاب «خلاصة النازلة التونسية» للشيخ محمد السنوسي (ت 1900)، والترجمة له في كتاب، إذ كانت لهذا الشيخ علاقة وطيدة بجماعة «العروة الوثقى» حتى إنه هيأ بيته للشيخ محمد عبده ليعقد مجالسه بأعضاء «العروة الوثقى» التونسيين، من أمثال الشيخ أحمد الورتتاني (ت 1302هـ/ 1885م)، والشيخ سالم بوحاجب (ت 1342هـ/ 1924م)، لما زار تونس في صفر 1302هـ/ نوفمبر 1884م. وأقام فيها حوالي أربعين يوما. وهكذا تسنّى للشيخ بسيس أن يتشرّب مذهبا إصلاحيا يقوم على الدعوة إلى نهضة أمة العرب والمسلمين في «الاقتصاد والأخلاق والصناعة والتجارة وغيرها من القيم الحضارية. ولن يتم لهذه الأمة ما تصبو إليه من مطامح ورغائب في الحياة، إلا إذا قامت دعائم نهضتها على أسس من الإسلام الصحيح، والأخلاق الفاضلة، والسلوك المستقيم، والسيرة الطيبة. ذلك أن الإيمان القويّ بالله والتحلّي بالخلق الكريم هو الذي يشحذ عزائمها، ويقوّي إرادتها، ويوفّر لها أسباب الفوز ووسائله في بناء صرحها الحضاري» [الإسلام وأخلاقه في إصلاح المجتمع، العمل/أدب وثقافة، 22 ماي 1970، 10].

من هذه المبادئ الإصلاحية العامة، ومما أتيح لنا الإطلاع عليه من آثاره، خاصة مقالاته، يمكننا أن نستنتج أركان منهجه الإصلاحي في ما يلي:

- **الإصلاح الاجتماعي**: يقوم هذا الإصلاح عند الشيخ بسيس على أساس التحلي بطيّب الأخلاق؛ ومن مظاهره الكثيرة الإحساس بروح التضامن مثلما دعا إليه وقام به هو نفسه لما انخرط في جمعية إغاثة فلسطين سنة 1936، وترأس جمعية لجنة الفقراء والمحتاجين التونسيين سنة 1950، وكتب في ذلك مقالات، منها: إلى الإصلاح أيها العلماء! وإلى البذل أيها الأغنياء! [النهضة، 23 ديسمبر 1950].

- **الإصلاح التربوي**: منطلقه في هذا الإصلاح «أن الإنسان لا يمكنه النهوض بأعباء مسؤولياته في هذا الوجود إلا بالاعتماد على قوى العقل وقوى الروح معا. لا بد أن نخوّل نظامنا التربوي القدرة على تنمية المواهب الروحية والفضائل الأخلاقية إلى جانب تلقين الذهنية الإيجابية» [الإسلام وأخلاقه في إصلاح المجتمع، م.س.]. وفي سبيل هذا الإصلاح ندّد بالهيمنة الاستعمارية على التعليم العربي الإسلامي التونسي، وكتب عديد المقالات موضّحا الخلل وسوء التخطيط، منها: هيمنوا على سياسة التعليم، [الزهر، 30 أكتوبر 1947]؛ رسالة جامع الزيتونة في القرن العشرين، [النهضة، 2 أفريل 1950 وما بعده]؛ إلى أين تسير يا جامع الزيتونة؟ [م.س، 9 ديسمبر 1950 وما بعده]... إلخ.

ـ **الإصلاح اللغوي**: الغرض من هذا الإصلاح هو تمكين العربية من التعبير عن شؤون العصر، وتطويرها في جميع المجالات لتكون عامل نهضة لا عامل تأخر. وما بعثه إلى ضرورة هذا الإصلاح هو أن «جميع المقوّمات لأيّ شعب من الشعوب هي اللغة، لأن كافة المشخّصات ليست في الواقع إلا مدارك لغوية وخزانة للتعبيرعن القيم الحضارية، وإعلان عن الوجود المميّز لتلك الأمة عن الأمم الأخرى، ولغتنا العربية الفصحى الأم لغة عريقة الوجود في الأسرة اللغوية العالمية . . .» [من بداية الصراع إلى نهاية الرواسب، العمل الثقافي، 23 أفريل 1971]. ونظرا إلى أهمية دور اللغة في إنقاذ الأمة العربية من هوان التأخر ومذلة الضعف، وإلى ماضيها وأمجادها، وإلى كفاءاتها في التعبير عن كتاب الإسلام الأول والتراث العربي والفكر الإنساني خصّ اللغة العربية بالكثير من المقالات والدراسات نذكر منها تمثيلا: معجم فيشر، [النهضة، 15 و22 مارس 1950]، موقف العربية إزاء التعبير عن الحضارة، [العمل/أدب وثقافة، 27 جوان 1969 وما بعده]، دور مجمع اللغة العربية، [م. س. عدد 5 سبتمبر 1969]، لغة الاعتزاز، [م.س. 26 سبتمبر 1969]، متى تخرج الدعوة إلى التعريب من الجدال إلى الاستقلال، [العمل الثقافي، 12 نوفمبر 1971]، المعجم العسكري الموحد، [العمل الثقافي، 7 ـ 28 جانفي 1972 (4 حلقات)]. . . إلخ. كما ناصر الفصحى على العامية، وله في هذا الغرض مقالات، منها: تنازع البقاء ـ ظاهرة اللغوي، [العمل الثقافي، 3 ديسمبر 1971] . . . إلخ.

ـ **الإصلاح السياسي**: في هذا الإصلاح دعا إلى ضرورة الدفاع عن البلاد العربية والإسلامية في هويتها وحريتها واستقلالها ومختلف قضاياها، خاصة منها وطنه التونسي وقضية فلسطين كما سبق ذكره. وكان هذا الدفاع سببا في دخوله السجن في أحداث 9 أفريل 1938؛ وفي محاكمته في ماي 1948 بتهمة اللاسامية التي أقامها عليه اليهود الصهاينة أمام المحكمة الجناحية الفرنسية بتونس، ولأن التحقيق لم تثبت لديه أركان التهمة حكمت عليه المحكمة بغرامة مالية زهيدة المبلغ أخذا بخاطر الادّعاء الصهيوني في ما يبدو، وخشية إثارة الرأي العام الذي تجنّد إعلاميا داخلا وخارجا للدفاع عن الشيخ وقضيته القومية. ومن القضايا التي بحثها في هذا المنزع الإصلاحي قضية نظام الحكم بين الشوري والإطلاق في مقال: حوار في الحكم المطلق بين خيرالدين والسنوسي [العمل / أدب وثقافة، 21 أوت 1970]؛ وفي مقال آخر: شجاعة الشيخ محمد بيرم الخامس أمام السلطان عبد الحميد [م.س، 28 أوت 1970].

ـ **إصلاح الشباب**: وهذا الإصلاح من الموضوعات التي اهتم بها الشيخ بسيس لما شاهد عليه الشباب من ضعف في إحساسه الديني والوطني، وتعلّقه بقشور الحضارة الغربية كما في مقالة: ليصرخ شباب تونس [الزهرة 24 أكتوبر 1947]؛ ومقالة الوطنية بين السلبية والإيجابية » [العمل الثقافي، 30 أفريل 1971]، . . . إلخ.

ـ **معارك إصلاحية**: هي معارك خاضها الشيخ بسيس للدفاع عن الإصلاح والمبادئ الإسلامية

والسنة النبوية وجامعة الزيتونة ضد المفتونين بالغرب باسم المعاصرة والتقدُّم، المغترّين بمغالطات المستشرقين في تزييفهم للإسلام وحضارته، واستنقاصهم لتاريخه ولغته.

وفي الصحف التونسية سجلات لهذه المعارك مما ينمُّ عن قوة شكيمة، وصلابة موقف، وحجاج قوي، ومعرفة بأصول الدين والمذاهب الفكرية والسياسية والإصلاحية. وقد صاغ كل ذلك في أسلوب يأخذ من بيان أحمد حسن الزيات، وطه حسين، وعباس محمود العقاد، ومصطفى صادق الرافعي: وعن الأخيرين أخذ في ما يبدو النزوع إلى الجدل والحجاج وقوة المنطق والتعقيد، وعن طه حسين التطويل والإسهاب حدّ أن تبلغ مقالاته الثلاث أو الأربع حلقات وربما أكثر... فمن هذه المعارك الإصلاحية نذكر ما يلي:

ـ **حول جامع الزيتونة**: هذه المعركة أثارها محجوب بن ميلاد لتهجُّمه في محاضرة له على الزيتونة والزيتونيين، فكتب الشيخ بسيس ثلاث مقالات يفنّد فيها مزاعمه، ويبيّن له فضل الزيتونة على تونس والمغرب العربي في الحفاظ على الدين الإسلامي، واللغة العربية، ونشر العلم، ومقاومة الاستعمار [النهضة، 14 و 24 نوفمبر، و 19 ديسمبر 1944].

ـ **حول كتاب «من هنا... نبدأ» لخالد محمد خالد**: بدأت هذه المعركة بنقد بسيس للكتاب المذكور في سبع حلقات [النهضة، 5 أوت ـ 5 ديسمبر 1950]، فتصدّى له محجوب بن ميلاد أستاذ الفلسفة في المعهد الصادقي وقتئذ بنقد مجّد فيه الكتاب في أحد عشر حلقة [الصباح، 2 مارس ـ 28 أفريل 1951]؛ عندئذ يعود الشيخ بسيس إلى الرد عليه [النهضة، 22 و24 مارس 1951]؛ فيجيبه ابن ميلاد قبل أن ينهي مقالاته بمقالة حول إفلاس الفقهاء [الصباح، 6 أفريل 1951]. وهنا يبادر بسيس بالردّ عليه بمقال إن الباطل كان زهوقا [النهضة، 20 أفريل 1951]، مُبديا أسفه على الحالة المزرية التي انتهى إليها الجدال بدل البحث في الأسباب الموجبة للخلاف، وطرح البدائل لمعالجة ما اعترى التعليم والمجتمع من الوهن والتأخر. وبعد أن أنهى ابن ميلاد ردوده ذيّلها بمقالة أمة تريد الحياة [الصباح، 5 ماي 1951].

ـ **دفاع عن الإسلام**: وهو عنوان سلسلة من المقالات [الصباح، 6 جويلية ـ 7 ديسمبر 1961] ردّ بها على مساجلة فريد غازي في «الثقافة والكفاح الثقافي» [التجديد، العدد 3، أفريل 1961] مع الشاذلي الفيتوري عن مقالته «الثورة الاجتماعية والبحث الثقافي» [التجديد، العدد الأول، فيفري 1961]. وكان سبب إثارة الشيخ بسيس هذه المعركة أن فريد غازي حلل في مساجلته، من منطلق جدلي مادي، مفهوم الثقافة والثقافة الإقطاعية والثقافة البرجوازية الجديدة بتونس، متخلصا من ذلك إلى اتهام عمر بن الخطاب بالإقطاعية والقوة والعنف مما كان سببا في اغتياله، وآخرين من الصحابة وغيرهم بالثرى الفاحش مثل عثمان الذي يمثل صورة الإقطاعي الكامل، والزبير بن العوام، وطلحة، وعبد الرحمان بن عوف،... إلخ، وما ثورة أبي ذرّ إلا دلالة واضحة على هذه الإقطاعية الإسلامية، وعدم وجود الاشتراكية الإسلامية...

وكان لمحمد الصادق بسيس، إلى جانب همومه الإصلاحية، مشاركة أدبية تجلّت خاصة في النقد والدراسة الأدبية. وقد أتيح له أن تكون له آراء في الأدب وشؤونه: منها مثلا رأيه في أن رسالة الأديب هي التي تقوم على الحرية والمسؤولية، يقول: «أنا أفهم أن الأديب حين يستعدُّ بفضل مواهبه ومكاسبه لأن يؤدي رسالته الأدبية في مجتمعه، ينبغي أن يكون في أدائها حرا في مجال التعبير... لأن الأديب هو الذي رشّحه وعيه الوجداني لأن يكون إنسان الحرية، والحس المرهف، والإرادة الصارمة، والاختراع الجميل..» [رسالة الأديب حرية ومسؤولية، العمل الثقافي، 19 نوفمبر 1971]. وإذا كانت الحرية شرطا للأديب فلا بد له من المحافظة عليها والمطالبة بما يفتقده منها. يقول: «إن موقفنا - معاشر الأدباء - يجب أن يكون الحماية للحرية الفكرية بدفاعنا عن الموجود منها، والجهاد للحصول على المفقود منها. فلا أدب بلا حرية، ولا حرية بلا مسؤولية؛ ومن لا يتصف بهذا فليعتزل الأدب؛ فما هو منه في صدر ولا وِرْد، ولا قبيل ولا دبير» [م.س.].

ولإبلاغ هذه المواقف والآراء الأدبية كتب الشيخ بسيس عديد الدراسات والمقالات في الحقل الأدبي تناول فيها موضوعات عامة، أو تراجم لشخصيات أدبية، أو نقدا لها. نذكر منها تمثيلا لا حصرا: شاعر القيروان صالح سويسي [الزهرة، 28 ديسمبر 1941]، تواضع المعري وكبرياؤه [النهضة، 5 جويلية - 16 أوت 1950(5 حلقات)]، أبو حيان التوحيدي في المقابسات [العمل، 29 أكتوبر - 3 نوفمبر 1965]، الشاعر محمد الورغي يشدو بمنازه تونس [العمل / أدب وثقافة، 11 ديسمبر 1970]، خزنة دار مثال ممتاز في إنشاد الشعر [م. س، 29 جانفي 1971] .. إلخ.

ولإيمان الشيخ بسيس بحرية النقد، والتعبير عن مواقفه الجمالية والأدبية، وتمسُّكه بقيمه الدينية، خاض عدة مساجلات أدبية ومعارك نقدية، منها: - مساجلة حول نسبة بيتين للشاعر علي الغراب شارك فيها الشاعر محمد الفائز وآخرون [النهضة، 6 ديسمبر 1936 - 14 مارس 1937]، - معركة حول القصة التجريبية «الإنسان الصفر» [مجلة الفكر، ديسمبر 1968] للكاتب القصصي والمسرحي عز الدين المدني حاكى فيها الأسلوب القرآني بحجة البحث عن الذات من خلال عالم اللغة والأشياء، فتصدى له الصادق بسيس بمقالتين هما: حزب الخنفشار (حول الإنسان الصفر) [الصباح، 3 جانفي 1969]، ودياجير الفجر [الصباح، 10 جانفي 1969]؛ عندئذ رد عليه المؤلف وعلى غيره ممّن نقد قصته بمقالة «بيان وأسئلة يلقيها عزالدين المدني على الصادق بسيس ويونس الرويسي» [الصباح، 10 جانفي 1969] تهكّم في قسمها الأول على مؤدبه رامزا به إلى الشيخ بسيس، وفي قسمها الثاني طرح عليه أسئلة حول معنى القراءة والأدب التجريبي والكتابة، وغير ذلك مما تنادي به حركة الطليعة الأدبية التي ينتمي إليها المدني، وكأنه أراد بهذه الأسئلة أن يبيّن له أن عمله يندرج في ما يسميه النقد الحديث في علم النص بالتفاعل النصي والمحاكاة النصية الساخرة (الباروديا) لمّا يحاكي الروائي

نصا أول لصياغة نص آخر؛ ولكن الشيخ بسيس لم يقتنع بهذه الأسئلة التي لا تبرّر في نظره التطاول على النص المقدّس، فعدّ ذلك منه هروبا إلى الأمام وعقّب عليه بمقال ثالث عنوانه «ولاذ الخنفشار بالفرار» [الصباح، 23 جانفي 1969].

ـ **معركة حول الفصحى والعامية**: قامت هذه المعركة بين الشيخ بسيس والأستاذ رشاد الحمزاوي الذي لم ير بأسا في دراسته «واقع الأدب التونسي المعاصر» [العمل/أدب وثقافة، 8 أوت 1969، 8] من استخدام اللهجات العامية محتجّا بأن القرآن نزل بسبعة أحرف وربما أكثر: فردّ عليه الشيخ بمقالين هما: «العربية بين الوفاء والجحود» [العمل/أدب وثقافة، 22 أوت 1969]، و«حجة داحضة لدعاة العامية» [م.ن، 29 أوت 1969]،... وللشيخ بسيس معارك ومساجلات أخرى، منها مساجلة بينه وبين الشيخ محمد العروسي المطوي حول توحيد المجامع اللغوية العربية أو تعددها، [العمل، الملحق الثقافي، 26 مارس 1971 ـ 21 جانفي 1972م]؛... إلخ.

ومن كل ما سبق نتبيّن أن الشيخ بسيس كان من المثقفين المؤمنين برسالة المثقف والشاعرين بالمسؤولية في الدفاع عن القضايا الاجتماعية والهوية الوطنية والقومية، كما كان من الملتزمين برسالة الإصلاح الديني الدّاعين إلى صفاء الإسلام ونقائه، والعاملين على تخليصه من شوائب الخرافة والجمود. وإذا كانت بعض الأطراف تراه سلفيا في مواقفه فلأنه كان لا يتسامح في ما جاء به القرآن والسنة، ولا يتنازل عن الثوابت الإسلامية واللغوية. وفي ما عدا ذلك فهو متفتّح، بعيد عن التعصّب المقيت، والتزمّت المرذول...

آثاره

أ ـ المطبوعة:

1 ـ خلاصة النازلة التونسية لمحمد بن عثمان السنوسي، تح، تونس 1396هـ/1976م، الدار التونسية للنشر. وفيه أرّخ للحركة الاحتجاجية التي قادها المؤلف محمد السنوسي (1851 ـ 1900) ضد بلدية تونس العاصمة سنة 1885م لرفعها أسعار الماء، وللمطالب التي قدمها المحتجون إلى الباي في قصره بضاحية المرسى. وكانت نتيجة هذه الحركة نفي محمد السنوسي إلى مدينة «قابس» بالجنوب التونسي، وآخرين إلى مناطق أخرى من البلاد التونسية، وتراجع البلدية عن قرارات الزيادة في الضرائب وارتفاع أسعار استهلاك الماء، وغيرها...؛ 2 ـ محمد بن عثمان السنوسي: حياته وآثاره، تونس 1978م (صدر بعد وفاته)، الدار التونسية للنشر، وهو ترجمة ودراسة إصلاحية أدبية لمؤلف خلاصة النازلة التونسية المعدود من رجالات الإصلاح بتونس وأحد أعضاد خير الدين باشا التونسي؛ 3 ـ رياض الصالحين لأبي زكريا يحيى النووي، تح. القاهرة 1979، المكتبة العتيقة ـ تونس، ودار التراث ـ القاهرة.

ب ـ المخطوطة:

1 ـ نظرات في التصوُّف الإسلامي (في العصر الحفصي)؛ 2 ـ عبد العزيز المهدوي الصوفي التونسي؛ 3 ـ أبو عبد الله محمد المرجاني؛ 4 ـ خطة الحسبة في تونس؛ 5 ـ الرعاية

الصحية في الإسلام؛ 6 ـ دفاعا عن السنة النبوية؛ 7 ـ مكانة الاجتهاد في الإسلام؛ 8 ـ نظرة في حياة الإمام الرازي وآثاره؛ 9 ـ علاقة الأمير شكيب أرسلان بحركات التحرير بأقطار المغرب العربي؛ وكان ألقى محاضرتين في أربعينية وفاته في معهد البحوث الإسلامية بالخلدونية سنة 1946، ثم نشر عنه حوارا بعنوان علائق الأمير شكيب أرسلان بالمغرب العربي، في جريدة الصباح [14و21 مارس 1968]؛ 10 ـ شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي، للشيخ بسيس في هذا الشيخ الشاعر الذي كان له أستاذا، عدة مقالات لعلها أجزاء من هذا الكتاب، وكان نشرها في الدوريات التالية: الفكر [ماي 1961م]، والصباح [20 و27 أفريل 1961م، و9 فيفري 1967م، و15 و22 فيفري 1968م، و9 سبتمبر 1972م]، والعمل/أدب وثقافة [13 و20 و27 فيفري 1970م، و12 فيفري 1971م]؛ 11 ـ ريحان الأديب، وهو عبارة عن طرائف ونوادر ومقابسات استقاها من المخطوطات والمطبوعات والروايات، والظاهر أنه ألفه على منوال عدة كتب من التراث لها نفس العنوان تقريبا مثل «ريحان الأدب» لأبي الحسن علي بن موسى العمادي الأندلسي (ت 673 هـ) وفيه جمع عيون الأخبار ومستحسنات الأشعار[حاجي خليفة، كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي، 1/ 940]، أو على مثال «زهر الآداب» لإبراهيم الحصري، وقد نشر منه عدة حلقات في جريدة النهضة الأدبية بداية من العدد الخامس الذي اشتمل على مقدمة الكتاب [31 جانفي 1944]، ومن نماذجه: التدخين، (من إنشاد الكبادي للشهاب الخفاجي)؛ لا تقنع بما دون النّجوم (بيتان للمتنبي)؛ [م.س، عدد 16، 17 أفريل 1944]، وإلى علماء الدين (عن شذرات الذهب)، إلخ...؛ 12 ـ سبك المقال لفك العقال للمؤرخ التونسي عبد الواحد ابن الطواح (ت 718هـ / 1318 م)، تح. قدمه لأحد الناشرين لطبعه لكن مصيره الآن مجهول، علما بأن الكتاب صدر عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1995م، تح. محمد مسعود جبران...

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، تونس 1972، الدار التونسية للنشر، المحاضرة السابعة؛ ● ملتقى الإمام محمد بن عرفة، تونس 1977، 545؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، تونس 1982، دار الغرب الإسلامي، 1/ 130 ـ 136؛ ● بوذينة، محمد، مشاهير التونسيين، تونس 1992، ص 442.

2 ـ الدوريات:

● الثريا، هل تريد أن تعرف... الأستاذ محمد الصادق بسيس؟ جانفي 1946، 8؛ ● الخنيسي، محمد رؤوف، الإذاعة عدد 432، 15 اكتوبر 1978؛ ● بوالأجفان، محمد، في ذكرى محمد الصادق بسيس، جريدة بلادي 27 نوفمبر 1978.

د. محمد الهادي الطاهر المطوي

جامعة تونس

البِسيلي، أبو العباس أحمد بن محمد

(ت 830 هـ/ 1437 م)

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أحمد البَسِيلي، بفتح الباء وكسر السين، وفي الضوء اللامع [ج 11، ص 190] قسم الأنساب، بكسر الباء وفتح السين، وسكون الياء البِسَيْلِي، الجزائري المولد والنشأة ثمّ التونسي استيطانا ودفنا، ويرى الباحث التونسي سعد غراب في كتابه «تفسير ابن عرفة ورواياته أو مدخل لتفسير ابن عرفة الورغمّي» في ملتقى الإمام ابن عرفة [ص 397 ـ 406] أنّه المسيلي بقلب الباء ميمًا، وذلك نسبة إلى المسيلة عاصمة إقليم الزاب الشهيرة بالقطر الجزائري، ويستدلّ على ذلك بأن الإبدال بين الميم والباء أمرٌ معروف وشائع في العربية إذ هما حرفان شفويان متقاربان، وإن من أشهر أمثلة الإبدال بين هذين الحرفين أنه يقال: مكّة كما يقال بكّة. ويعارضه محمد محفوظ في هذا الرأي عند ترجمته للبسيلي نافيا أن يكون ما شاع واطّرد في الفصحى مُلزمًا لأن يكون كذلك في اللّهجة الدارجة [محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 1/ 137 وما بعدها].

ترجم له محمد مخلوف في «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» بـ: أحمد بن عمر، وليس ابن محمد.

انتسب المترجم له في جامع الزيتونة إلى حلقة شيخ الشيوخ وعمدة أهل التحقيق والرسوخ الإمام ابن عرفة الورغمّي التونسي، إمام حاضرة تونس وخطيبها بالجامع الأعظم مدّة خمسين سنة، وكان حضوره عنده سنة 785هـ/ 1388م، كما أخذ عن أشهر معاصريه من شيوخ الطبقة الأولى بالزيتونة، ومنهم: أبو عبد الله محمد بن أبي العبّاس البطرني الأنصاري التونسي الفقيه المحدّث، الراوية المقرئ (ت 793هـ)، وكان قد استخلفه ابن عرفة في الخطابة بالجامع الأعظم حين سافر إلى الحجّ سنة 792هـ؛ وكذلك قاضي القضاة وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي، الإشبيلي أصلا التونسي مولدًا، ومؤسس علم الاجتماع والمتبحّر في سائر العلوم والإخباري العجيب والكاتب الأديب (ت 807هـ بالقاهرة)؛ ومن شيوخ صاحب الترجمة أيضا قاضي الجماعة أبو مهدي عيسى الغبريني، فقيه تونس وعالمها وخطيبها بعد ابن عرفة، أوحد أهل زمانه علما ودينا وفضلا. ولما حاز مُتَرْجِمُنا العلوم ونبغ في التفسير والعروض والفقه وغيرها، نظّم أوقاته بين التدريس والتأليف، فتصدّى للتدريس بالمدرسة الحكيمية ـ نسبة إلى محمد بن علي اللخمي المعروف بابن حكيم؛ كما كان كثيرا ما يُقرِئ بسقيفة داره، وألزم نفسه بالتأليف والتقييدات على الكتب وشروح المدوّنات؛ فكان إماما فقيها وعالما كاملا وخيّرا فاضلا؛ تخرّج على يديه تلاميذ كثرٌ من

حاضرة تونس وخارجها، فنشروا علمه وأدبه في أصقاعهم، وكانت تآليفه عديدة وتصانيفه مفيدة.

ومن أشهر من أخذ عنه قاضي الجماعة في الطبقة الثامنة عشرة من طبقات المالكية بفرع إفريقية: أبو العبّاس أحمد بن محمد بن عبد الله القلشاني، العلامة المقرئ، الحافظ لمذهب مالك؛ وأبو عبد الله محمد بن عمر القلشاني التونسي الإمام الفقيه وقاضي الجماعة بتونس؛ وأبو زيد عبد الرحمان الغرياني الطرابلسي، عالم طرابلس ومفتيها في عصره.

ولئن لم يذكر الباحثون تاريخ ولادته ولم يقفوا على التأريخ لها بالسنوات أو بالأحداث البارزة المشهورة فقد أجمعوا على أنّ وفاته كانت بتونس سنة 830هـ / 1437 م، ولم يشذّ عن ذلك إلاّ صاحب «الضوء اللامع» الذي جعلها سنة 848 هـ.

آثاره

1 ـ له تفسير، قيّده عن شيخه ابن عرفة وأضاف إليه زوائد من غيره، قال فيه بعد أن أورد أسئلة وأجوبة في بعض الآيات: «وهذه الأسئلة وأجوبتها وأمثالها وكلّ ما ذكرنا في كتابنا هذا ممّا يقع بين الطلبة في مجلس شيخنا ابن عرفة أو بينهم وبينه...». وله قصّة مع هذا التقييد ذكرها له كلّ من أحمد بن عمر بابا التنبكتي في «نيل الابتهاج بتطريز الديباج المهذب» لابن فرحون [ص 77]، ومحمد محفوظ في تراجم المؤلفين التونسيين [1/ 137 وما بعدها]، والوزير السراج في الحلل السندسية في الأخبار التونسية [3/ 650]، ومفادها أنه لما ألّف البسيلي تفسيره هذا سمع به الأمير الحسين ابن السلطان أبي العبّاس الحفصي، وكان فقيها؛ فراسله فيه يطلبه منه، فامتنع البسيلي وماطله أياما، فأرسل إليه مرّة ثانية وأمر رسله ألاّ يفارقوه حتى يسلّمه لهم، فلمّا رأى الشيخ صاحب الترجمة الجِدّ في الأمر أخذ منه من سورة الرعد إلى سورة الكهف ودفع لهم الباقي فمشوا، ثمّ مات ومات الأمير أيضا وبيع التقييد في تركته، فسافر به مشتريه إلى بلاد السودان وبقي أهل تونس لا شعور لهم به. فلذلك كان أصل نسخته من نسخة السودان، ومن هنالك انتشر، وقد كان الشيخ المؤلف لمّا طُولب به اختصر منه تقييدا صغيرا جدّا توجد نسخة منه في المكتبة العامة بالجزائر معارضَة على نسخة المصنف وقديمة نسبيّا مؤرخة في شوال 1007هـ / ماي 1599م. كما توجد ثلاث نسخ منها في الخزينة العامة بالرباط، وفي الخزينة الملكيّة بالرباط أيضا نسختان؛ ونسخة أخرى في مجلّد ضخم في الزاوية الحمزية بالمغرب الأقصى؛ وفي المكتبة الوطنية بتونس نسخة مبتورة الأوّل رقمها 10792.

وقد بيّن مؤلّفه في المقدّمة مادّة جمعه وطريقته في تأليفه فقال: «وهذا تقييد على كتاب الله المجيد قصدت فيه جمع ما تيسّر حفظه وتقييده في مجلس شيخنا أبي عبد الله محمد بن عرفة ـ رحمه الله تعالى ـ ممّا كان يبديه هو أو بعض حذّاق طلبة المجلس زيادة على كلام المفسرين، وأضيف إلى ذلك في بعض الآيات شيء من كتب التفسير مع ما سمح به الخاطر، هذا مع ممانعة ما اقتضته الحال من الذهن الجامد والفكر الخامد،

والله سبحانه أستعين فهو خير ميسّر وخير معين»؛ وذكر الزركلي [الأعلام 1/ 227] أنّ النصف الثاني من هذا التقييد في خزانة تمكرت بسوس المغرب تحت رقم 2862. وذكر فيه أنه أوّل ما حضر عند ابن عرفة كان عام خمسة وثمانين وسبعمائة (785هـ) [محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، 1/ 137 ـ 138]؛ 2 ـ تقييد صغير في التفسير يبلغ حجمه حوالي سدس التقييد الكبير يعتريه بعض النقص من جراء هذا الاختصار المخلّ الذي وصل إلى حدّ إهمال بعض السور بصفة تامّة، وخاصة في نهايته إذ يقف في سورة الصفّ. توجد نسخة منه في المغرب الأقصى في الخزانة العامة بالرباط؛ 3 ـ تقييد في الوفيات، وقد ذكره له بابا التنبكتي في «نيل الابتهاج» عند ترجمته لابن بزيزة التونسي؛ 4 ـ شرح على الجمل في المنطق؛ 5 ـ شرح على الخزرجية في العروض؛ 6 ـ شرح على مدوّنة الإمام سحنون؛ وقد ذكر له هذه التصانيف كلّها، خير الدين الزركلي في الأعلام [1/ 227]، ومحمد بوذينة في مشاهير التونسيين [ص 74]، ومحمد محفوظ في تراجم المؤلفين التونسيين [1/ 138]. ولمّح الرصّاع إلى تآليف المترجم له فقال: «وله تآليف عديدة وتصانيف حسنة».

المصادر والمراجع

● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، وترجمة رقم 906، بيروت 1349هـ، دار الكتاب العربي، 251؛ ● الوزير السرّاج، محمد بن محمد الأندلسي، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح. محمد الحبيب الهيلة، تونس 1970، الدار التونسية للنشر، 3/ 650؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ط1، سنة 1404/ 1984، دار الغرب الإسلامي، 1/ 137 ـ 139؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 8، سنة 1989، 1/ 227؛ ● بوذينة، محمد، مشاهير التونسيين، الحمامات / تونس 2001، ص 74؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، والمطوي، محمد العروسي، والبكوش، بشير، كتاب العمر، بيروت 1990، دار الغرب الإسلامي، 1/ 172 ـ 174.

د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

البشتي، أبو حامد أحمد محمد الخارزنجي

(ت 348هـ/959م)

أبو حامد أحمد بن محمّد البشتي نسبة إلى بشت وهي بلدة بنواحي نيسابور، وأمّا الخارزنجي فهي نسبة إلى خارزنج وهي قرية بنواحي نيسابور من عمل بشت، ومنها أيضا أبو القاسم يوسف بن الحسن بن يوسف بن محمّد بن إبراهيم ابن إسماعيل الخارزنجي متكلّم وفقيه (ولد سنة 445 هـ) [اللّباب 1/ 410].

أبو حامد أحمد البشتي من أبناء القرن الرابع الهجري، أجمع مترجموه كالقفطي وياقوت والسيوطي والصفدي وغيرهم على أنّه «إمام أهل الأدب بخراسان في عصره بلا مدافعة» [الإنباه، 1/ 107] وكذلك قال عنه الحافظ أبو عبد الله بن البيع في تاريخ نيسابور فهو قد فاق فضلاء عصره معرفة باللغة [الأنساب 12/ 13]. لمّا حجّ بعد السنة الثلاثين والثلاثمائة هجريًا الموافق لسنة اثنتين وأربعين وتسع مائة ميلاديًا، شهد له أعيان زمانه، أمثال أبي عمر الزاهد صاحب ثعلب ومشايخ العراق بالتقدّم والنبوغ [روضات الجنات - وفيّات الأعيان].

ولمّا دخل بغداد، تعجّب أهلها من تقدّمه في معرفة اللغة وتمكّنه منها رغم أنّه لم يختلط بأهل البادية مصدر الفصاحة، ولم يأخذ عنهم مباشرة فقيل: «هذا الخراسانيّ لم يدخل البادية قطّ وهو من آدب الناس، فقال أنا بين عربين بشت وطوس» [الأنساب 12/ 13، الوافي بالوفيّات 8/ 8، معجم الأدباء 1/ 461...] وكتابه المعروف بـ «التكملة» هو البرهان على تقدّمه وفضله اللغويّ، وإن كان الأزهري قد نقده.

سمع الحديث من محمّد بن إبراهيم بن عبد الله البوشنجي وأقرانه. وحدّث وسمع منه أبو عبد الله الحاكم الحافظ. يقول القفطي دون ذكر مصدره «بلغني أنه حدّث» [إنباه الرّواة، 1/ 107].

مات أبو حامد أحمد بن محمد البشتي الخارزنجي في رجب سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة هجريًا الموافق لسنة تسع وخمسين وتسع مائة ميلاديًا. وورد في «اللّباب» للجزري وفي «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان أنّه توفي سنة ثمان وأربع مائة للهجرة. وقد حمل الزركلي هذا الخلاف الأخير في تاريخ وفاته على الخطأ المطبعيّ. لم يذكر مكان وفاته.

آثاره

1 - التكملة: صنّف البشتي تكملة على كتاب العين كمّل به كتاب العين للخليل بن أحمد في النحو (ت 175هـ). ذكره الميداني في مجمع الأمثال (2/ 134) وأثنى عليه، واعتبره جلّ مترجمي البشتي كتابا دالاّ على تقدّم واضعه في علم اللغة. إلاّ أنّ الكتاب لم يسلم من نقد الاختصاصيين في منهجيّة التأليف،

وعاب عليه الأزهري صاحب الجمهرة التصحيف يقول : «وممّن ألّف وجمع من الخراسانيين في زماننا هذا فصحّف وأكثر فغيّر رجلان، أحدهما يسمّى أحمد بن محمّد البُشتي ويُعرف بالخارزنجي والآخر أبو الأزهر البُخاري. فأمّا البشتي فإنّه ألّف كتابا سمّاه «التكملة»، أومأ إلى أنه كمّل بكتابه كتاب «العين» المنسوب إلى الخليل بن أحمد، وأمّا البخاري فإنّه سمّى كتابه «الحصائل» وأعاره هذا الاسم، لأنه قصد تحصيل ما أغفله الخليل.

كما يُعاب على البشتي أنّه أسند ما في كتابه إلى علماء كالأصمعي وأبي عبيدة وأبي عبيد وابن السّكيت وأبي زيد وقطرب والأخفش واللّحياني واليزيدي وغيرهم، من غير سماع ومن غير أن يكون قد جلس إليهم أو أخذ عمّن جلس إليهم. يقول أبو حامد البشتي الخارزنجي: «وإنّما إخباريّ عنهم إخبار عن صحفهم، ولا يزري ذلك على من عرف الغثّ من السّمين وميّز بين الصحيح والسّقيم...» [الإنباه/ الوافي بالوفيات/ معجم الأدباء].

تعرّض كتابه التكملة إلى جملة من التهجين والقدح بسبب إخباره عن علماء لم يتّصل بهم مباشرة وإنّما نقل عن صحفهم. والصّحفيّ هو من يأخذ العلم من الصّحيفة لا عن الأستاذ. وعيبُ هذا المنهج حسب الناقدين أن الآخذ عن الصحيفة يصحّف فيكثر، لأنّ هذه الصّحف لم تضبط بالنقط الصحيح ولم يرفع إعجامها ولم يتولّ تصحيحها أهل العلم [إنباه الرواة 1/ 110]. يقول الأزهري «لعلّ النّسخ التي نقل عنها ما نسخ كانت سقيمة» [إنباه الرّواة 1/ 111]. ويقسو الأزهري في نقده على البشتي، فيذهب إلى أنّه قد صحّف كثيرا من الحروف وأخطأ في تفسير بعضها «فالواجب على طلبة هذا العلم ألاّ يغترّوا بما أودع كتابه، فإنّ فيه مناكير جمّة لو استقصيت تهذيبها اجتمعت منها دفاتر كثيرة» [تهذيب اللغة 1/ 40].

بل إنّ ما نقله من تصحيفه ليس إلاّ القليل اليسير من بعض ما قرأ من كتابه، فتصحيفه وخطؤه يدلاّن حسب الأزهري على «أنّه لا معرفة له ولا حفظ» [إنباه الرواة 1/ 119]. وقد ورد ذكر عديد الكلمات التي نقلها أبو حامد البشتي فأدخل عليها تغييرات عن غير قصد وحرّف في مستوى حركاتها أو حروفها أو في شرحها [تهذيب اللغة للأزهري 1/ 40، إنباه الرواة 1/ 111] ؛ 2 ـ شرح أبيات أدب الكاتب لأبي محمّد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة النحوي (ت 270هـ)؛ 3 ـ كتاب التفصلة.

المصادر والمراجع

● الأزهري، تهذيب اللّغة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، تح. عبد السلام محمّد هارون، 1964؛ ● الميداني، الأمثال، مطبعة عبد الرحمان محمّد، 1352هـ، مصر؛ ● السّمعاني، الأنساب، تح. عبد الرحمان بن يحيى المعلّمي اليماني، نشر محمد أمين دمج، بيروت، ط2، 1980، 10 أجزاء؛ ● الحموي، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، 20 جزءا، مطبعة المأمون؛ ● الجزري، اللّباب في تهذيب الأنساب، 3 أجزاء، دار صادر، بيروت؛ ● القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، مطبعة دار الكتب

المصريّة، 1952 ؛ ● الصّفدي، الوافي بالوفيّات، باعتناء إحسان عبّاس، دار النشر فرانز شتايز فيسبادن، 18 جزءاً، 1969؛ ● العسقلاني، تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، الجزء الأوّل، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط2، 1971؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، جزءان، تحقيق محمّد الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 4 أجزاء، دار الفكر؛ ● الخوانساري، روضات الجنّات، 4 أجزاء، ط2، مطبعة الحاج السيّد السعيد الطباطبائي؛ ● البغدادي، هديّة العارفين بأسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، جزءان، منشورات البغدادي، 1951؛ ● البستاني، فؤاد أفرام، دائرة المعارف، مقال أبو حامد البشتي، ج4، بيروت، 1962؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، 6 أجزاء، ترجمه عن الألمانيّة رمضان عبد التوّاب، دار المعارف، ط5، 1983؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط10، دار العلم للملايين، بيروت، 1992؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، المكتبة العربيّة بدمشق، مطبعة الترقّي، 1993.

د. زكية السائح دحماني
جامعة تونس

ابن بشر، عثمان بن عبد الله

(1210هـ/1795م - 1290هـ/1873م)

عثمان بن عبد الله بن بشر، يعود نسبه إلى فخذ حرقوص من آل عيد، أحد بطون قبيلة بني زيد بن سويد القضاعية القحطانية، أهل بلدة شقراء، وشقراء مركز منطقة الوشم في بلاد نجد.

ولد ابن بشر في بلدة جلاجل إحدى بلدات منطقة سدير، وسدير إحدى مناطق إقليم نجد الواسع. وقد نشأ وترعرع في بلدته هذه، وأخذ علومه الابتدائية على أيدي معلّمي بلدته؛ ثم أخذ في طلب العلم العالي، فقرأ على عدد من علماء نجد الذين اشتهروا في زمانه؛ منهم الشيخ علي بن يحيى بن ساع، قاضي ناحية سدير في عهد الإمام سعود بن عبد العزيز، والشيخ عبد الله بن ذهلان، والشيخ إبراهيم بن سيف قاضي ناحية سدير في عهد الإمام تركي بن عبد الله، والشيخ عبد الكريم بن معيقل، والشيخ غنيم بن سيف.

وممّا لا شكّ فيه أنّ ابن بشر عاصر نموّ الدولة السعودية الأولى وتطوّرها، كما عاصر

نموّ الدعوة السلفية وتطوّرها، وفي الوقت نفسه عاصر ابن بشر حوادث سقوط الدولة السعودية الأولى على يد إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا عام 1233هـ / 1818م، وعاصر كذلك قيام الدولة السعودية الثانية ونموّها وتطوّرها. وكان يحضر دروس الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بحضور الإمام سعود بن عبد العزيز المعروف بسعود الكبير، الإمام الثالث من أئمة الدولة السعودية الأولى، وذلك في كتب التفسير مثل تفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير. كذلك استمع إلى دروس الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب في كتاب «مرآة الملوك»؛ وعدّ ابن بشر أديبا ومؤرخا معتبرا، وأصبحت له مكانة مرموقة في مجتمعه، وله حظوة عند حكّام الدولة السعودية الثانية وخاصّة عند الإمام فيصل بن تركي، أقوى أئمة الدولة السعودية الثانية وأشهرهم.

تميّز ابن بشر في كتابة تاريخه بالنهج العلمي إلى حدّ ما. فقد استقى معلومات كثيرة ومتنوّعة من عدد كبير ممّن كتبوا في تاريخ نجد، أو في غير تاريخ نجد، لكن له صلة بموضوعه وخاصة في السوابق وغيرها. وقد أورد ابن بشر في تاريخه عددا من العلماء الذين أخذ عنهم، نذكر على سبيل المثال لا الحصر الإمام أبا الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، والإمام جلال الدين بن عبد الرحمن بن محمد السيوطي، وعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي في كتابه «سمط النجوم العوالي من أخبار الأوائل والتوالي»، ومرعي بن يوسف الحنبلي في كتابه «نزهة الناظرين في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين»، وأحمد المنقور في تاريخه، ومحمد بن ربيعة العوسجي في تاريخه، وابن عباد في تاريخه، ومحمد بن سليمان الوهيبي في ترسيمانه، وحسين بن غنام في تاريخ «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام»، وغيرهم.

وممّا يميّز ابن بشر في كتابة تاريخه أنه اعتمد كثيرا على الروايات الشفوية من أفواه علماء عايشوا الحدث التاريخي بأنفسهم، يقول ابن بشر في هذا الصدد: «وأخذت صفة الوقائع والمواضع من أفواه رجال شاهدوها، ولما لم يدركوه فيها فعمّن شاهدوها ونقلوها، وبذلت جهدي في تحرّي الصدق، ولم أكتب إلاّ ما يقع في ظنّي أنه الحقّ من قول ثقة يغلب على الظنّ صدقه...».

ومما يميّز معلومات ابن بشر أنه ممّن شاهد الحوادث التاريخية وعاصرها وتفاعل معها، فهو يكتب تاريخا عاصره بنفسه، واستقصى حوادثه السياسية والاجتماعية والتعليمية وغيرها. هذه الميزة مهمّة جدًا خاصة عندما يتّصف الكاتب أو المؤرخ بالثقة والدقة في استقصاء المعلومات التي يدوّنها.

وممّا يميّز معلومات ابن بشر في تاريخه أنه تصدّى للمسائل التاريخية ذات الصلة بالمجتمع، فهو يذكر الوفيات، والظواهر الطبيعيّة من خسوف القمر وكسوف الشمس وتطاير بعض النجوم في السماء كأنها الجراد، وكأنها شعلة نار، وسقوط الأمطار، وأثر ذلك في معيشة الأهالي، وسقوط البرد، وزحف الجراد والدبا والأوبئة والأمراض الأخرى، وارتفاع الأسعار أو انخفاضها، ومدى أثر ذلك في حياة السكّان العامة، كلّ ذلك

عاصره ابن بشر وشاهده بنفسه واستقى بعض معلوماته من ثقات.

وممّا يميّز ما أورده ابن بشر من معلومات تاريخيّة أنه اتّصف بالعدل والثقة وصدق الرواية واتّساع المعرفة والاطّلاع، ومعاصرته لأكثر الحوادث التاريخية التي دوّنها في كتابه، بالإضافة إلى كثرة الموضوعات التي تناولها في هذا الكتاب، وهي في الواقع أشبه بموضوعات شاملة تعالج القضايا السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، فكتابه هذا لا غنى عنه للباحث في تاريخ نجد والجزيرة العربية.

طبع كتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد» عدة طبعات لأهميته. فقد طبع طبعة أولى مختصرة في مطبعة الشاه بندر ببغداد في العراق عام 1328هـ على نفقة الشيخ محمد بن مانع وسليمان الدخيل. ثم طبع في الهند تحت عنوان «علق المجد» بدلا من «عنوان المجد» سنة 1349هـ على نفقة الشيخ محمد بن حسين نصيف ومحمد صالح نصيف وعبد الفتاح قتلان في المطبعة السلفيّة بمكّة المكرّمة، ولم تكن طبعة كاملة لكلّ ما ورد في مخطوط الكتاب، بل اعتراها تحريف ونقص. ثم طبع في القاهرة بمصر سنة 1373هـ على نفقة الشيخ عبد المحسن أبابطين صاحب المكتبة الأهلية بالرياض، وجاءت هذه الطبعة ناقصة ومحرّفة لأنها طبعت عن نسخة المطبعة السلفيّة بمكّة المكرّمة. ثمّ قامت وزارة المعارف السعودية بطبع كتاب «عنوان المجد» على نفقتها سنة 1373 هـ، وجاءت هذه الطبعة كاملة، إذ أخذت من النسخة الكاملة المحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني (المكتبة البريطانية) بلندن تحت رقم 771 Or.

لا أحد ينكر أنّ شهرة ابن بشر العلمية وانتشار اسمه ليس في بلاد نجد وحدها، وإنما في بلاد أخرى كثيرة، تعود إلى نشر كتابه التاريخي المسمّى «عنوان المجد في تاريخ نجد»، فهو مؤلف تاريخي مهمّ استفاد منه عدد من الكتاب والمؤرخين القدامى والحديثين والمعاصرين الذين اهتمّوا بدراسة تاريخ الجزيرة العربية الحديث، خاصة من اعتنوا بكتابة التاريخ السعوديّ في دوريه الأول والثاني.

كان ابن بشر يقدّر علم التاريخ ويحبّه، جاء في مقدمة كتابه: «فإن النفوس تتشوّق لأخبار الماضين، وتتوق لأحوال الولاة المتقدّمين والمتأخرين، ولم يزل أهل العلم يؤرخون وقائع الملوك وأخبارهم ويبحثون عن حوادث أيامهم وأعصارهم» [ج 1، ص 1]. ويقول في مطلع الجزء الثاني من كتابه: «إن علم التاريخ علم شريف فيه موعظة واعتبار واطّلاع على حوادث الدهر الدّوّار، ومعرفة أحوال الماضين ممّا يوقظ الأذهان والأفكار، ويقيس العاقل نفسه على ما مضى من أمثاله في هذه الديار. وقد قصّ الله علينا بعض أخبار الأمم في الكتاب: قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ **[يوسف: 111]**.

وجد ابن بشر تقصيرا ملحوظًا في كتابة تاريخ البلاد النجدية، فذكر في مقدمة الجزء الأول من كتابه: «واعلم أن أهل نجد وعلماءهم القديمين والحديثين لم يكن لهم عناية بتاريخ أوطانهم ولا من بناها، ولا ما حدث فيها وسار إليها، وسار منها إلا نوادر يكتبها بعض

علمائهم، هي عنها أغنى، لأنّهم إذا ذكروا قتالا وحادثة قالوا: «في هذه السنة جرت الوقعة الفلانية» ولا يذكرون صفتها ولا موضعها» [عنوان المجد في تاريخ نجد، 1/ 4].

اهتمّ ابن بشر في المقام الأوّل بتدوين تاريخ آل سعود، وهو الهدف الرئيس من تأليف كتابه «عنوان المجد». يقول ابن بشر في مقدّمة الجزء الأوّل: «ثمّ إنّي أردت أن أجمع مجموعًا من وقائع آل سعود وأيامهم وأخبارهم، ولا وجدت من يخبرني عنها إخبارا صادقًا ولا متقنا لها لا يقول إلا حقًا، والكذب آخر هذا الزمان غلب على الناس. فلا نتجرّأ أن نكتب كل ما نقوله في القرطاس لأننا وجدناهم إذا سمعوا قولاً نقلوه من موضع إلى موضع زادوه ونقصوه، واختلاق الكذب عليهم أغلب، وذهبوا فيه كلّ مذهب» [ص، 4 ـ 5].

واعترف ابن بشر في مقدمة كتابه الجزء الثاني بمدى الصعوبة التي تتعرّض كتابة التاريخ ومدى انعكاس ذلك على كتابه، يقول: «واعلم أيدك الله أن التصنيف أمر صعب لا ينال إلاّ بكدّ وتعب، ومتعرّضا لألسنة الحاسدين وتنقشات الطاعنين، والقلب في أشغاله شاغلة، ومقاسات أمورها هائلة، وما أنا فيه من طلب المعيشة وترادف الهموم وأشياء يعلمها الحيّ القيوم. ولست ممّن يدخل في هذا الشأن ولا يبرز في ذلك الميدان...» [ج 2، ص 3].

دوّن ابن بشر في كتابه هذا حوادث دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، وحوادث تاريخ الدولة السعودية منذ قيامها إلى ما قبل وفاة الإمام فيصل بن تركي بخمس عشرة سنة وكانت وفاة الإمام ابن تركي عام 1282هـ / 1865م.

وجاء تدوين حوادثه على شكل تسلسل زمني، أي أنّه نهج المنهج الحولي في كتابة التاريخ، وهو أمر انتهجه معظم مؤرخي زمانه. وقد بدأ ابن بشر تدوين حوادث تاريخه هذا بسنة 158 اهـ وانتهى منه سنة 1267 هـ، أي أنه سجّل حوادث تاريخيّة تغطّي فترة أكثر من قرن. وتركّزت معلومات ابن بشر في تاريخه على الدعوة الإصلاحية وحوادث تاريخ الدولة السعودية إلى آخر حوادث عام 1267 هـ.

حوى كتاب ابن بشر مجموعة من الحوادث التاريخية التي تسبق الفترة ألتي خصّص تاريخه لها، وتدور حوادثها عن البلاد النجدية أو عن حوادث تاريخية غير نجدية، لكن لها صلة مباشرة بتاريخ نجد، فأورد هذه الحوادث ضمنا في كتابه تحت عنوان «سابقة»، يقول ابن بشر في هذا المجال: «واعلم أنّ بعض من سبق من علماء نجد أرّخوا تاريخات، ورسموا ترسيمات، قصروا فيها عن المطلوب، ولكن لا فائدة في معرفة بعض الحوادث والأماكن وسنين الجدب والخصب ومعرفة اختلاف أهل نجد وافتراقهم قبل ظهور هذا الدين... وهي قبل كتابي هذا متّصلة به، فلا رأيت أتركها... فأردت أن أدخل السنين السابقة بين سني هذا الكتاب، منتشرة فيه متتابعة، كل سنة سابقة تحت كل سنة لاحقة، والعلامة عليها قولي سابقة» [مقدمة الجزء 1، 30].

■ آثاره

1 ـ عنوان المجد في تاريخ نجد؛ 2 ـ مرشد الخصائص ومبدي النقائص والطفيليين؛

3 ـ فهرس طبقات الحنابلة للحافظ ابن رجب، جاءت مرتّبة على حروف المعجم؛ 4 ـ الإشارة في معرفة منازل السبعة السيّارة؛ 5 ـ بغية الحاسب، في الجداول الحسابية (رسالة في الحساب)؛ 6 ـ سهيل في ذكر الخيل.

المصادر والمراجع

● الخويطر، عبد العزيز العبد الله، عثمان بن بشر، منهجه ومصادره؛ ● الشل، عبد الله بن يوسف، دراسة تحليلية لكتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد»؛ ● م.ن، أهمّ المصادر النجديّة لتاريخ الدولة السعودية، دراسة تحليليّة، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندريّة، كلّية الآداب، قسم التاريخ، 1400هـ / 1980م.

د. عبد الفتاح حسن أبو علية
المملكة العربية السعودية

ابن بُشرَى الغرناطي، علي

(ق 8هـ/14م - ق 9هـ/15م)

لم يُذكر لهذا الوشّاح في مشهور من المصادر الأندلسية أوالمغربية باتفاق الباحثين. ولقبه قليل التردد في كتب التراجم الأندلسية. إذ لا وجود له في تاريخ ابن الفرضي ولا في جذوة الحميدي... وورد مرّة واحدة في الصلة [رقم 148: أحمد بن بشرى الأموي من أهل طليطلة... توفي سنة 485هـ] وأخرى في تكملة ابن الأبار [رقم 1177: محمد بن علي ابن بُشرى: من دانية. دخل بغداد وسمع بها سنة 513].

والانتساب إلى بني أمية في المثال الأوّل قد يدل على سلالة جدّها الأوّل ربما كان بُشرى مولى الحكم المستنصر بالله بن الناصر [التكملة 1 رقم 603]. لكن حسب المثال الثاني توجد سلالة أخرى ربما كان جدّها الأوّل أيضا بُشرى مولى أبي بكر بن العربي [التكملة رقم 604].

ويسمح هذا اللقب بإمكانيات ثلاث في قراءته: بِشْرِي - بُشْرِي - بُشرَى. ولا نملك أي معطى يبرّر ترجيح قراءة على أخرى بصفة قطعية، وإن كان أ. جونز يميل إلى القراءة الأولى بكسر الباء والراء مع ياء، ملاحظا - دون ذكرمصدره- أنها صيغة معهودة في الاستعمال المغربي بيد أنّ هذا اللقب قليل الوجود كما ذكرنا في كثيرمن كتب التراجم.

وقد اخترنا القراءة التي يميل إليها جورج كولان بدون تعليل قاطع (بُشْرَى) بضم الباء وفتح الراء مع ألف مقصورة - فهي تبدو لنا في تسمية الجدّ الأوّل المولَى أكثر التئاما بمنزلته الاجتماعية إذ يعامل كأنّه من الأشياء

وليس كائنا عاقلا، ولا اعتبار للجنس في تسميته «بُشرَى».

فهذه السلالة أندلسية وإن كان ذكرها في كتب التراجم قليلا. وأصلها ربما كان من قرطبة أو من إشبيلية ثم انتشرت بأرجاء الأندلس كطليطلة ودانية وغرناطة. . .

هذا شأن الاسم والسلالة. أمّا الرجُل صاحب «عدة الجليس» فقد ارتد أمر الباحثين في شأنه إلى كتابه «عدّة الجليس» يلتقطون منه معطيات قليلة هي التالية:

فهو وشّاح إذ أورد لنفسه في كتابه هذا اثنتي عشرة موشحة. ثم هو أورد موشحة رقم 135 لابن الخطيب (ت 776هـ/ 1374م) وأخرى رقم 242 لابن خاتمة (ت770هـ/ 1368م). ممّا يسمح بالقول إنّه رُبّما كان من أجيال النصف الثاني من القرن 8هـ/ 14م وربّما تأخر زمانه إلى القرن 9هـ. وقد يُفهم من تغزله بأحمد بن القسطل بمراكش ومن تعلقه بهذا المعشوق في 10 موشحات أنّه عاش بهذه المدينة مدة غير محددة. وربّما كانت مراكش مقرّ ابن بُشرى بعد غرناطة، إذ لم يذكر مدينة أخرى في موشحاته. أم هل يكون ذكر اسمي المدينة والمحبوب من محض الخيال؟

آثاره

الثابت في شأن ابن بُشرى أنه أديب وشّاحٌ تجاوز النظم في فنّ التوشيح إلى التأليف فيه. وقد تكون له مؤلفات عدة في مجال الأدب. لكننا لا نعرف منها إلاّ «عدّة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس». وهو كتاب مختارات في فنّ التوشيح النفيس.

أصل هذا الكتاب مخطوطة وحيدة اقتناها المستشرق الفرنسي جورج كولان من إحدى خزائن المغرب الأقصى وأعارها لعدد من الباحثين استفادوا منها طوال الأربعينات وبعدها. منهم عبد العزيز الأهواني، ومحمد الفاسي، وغرسية غُومس وانتهى إلى س. م شتيرن ... وبموته انقطعت أخبار المخطوطة إلى أن مات كولان أيضا. ثم ظهرت كتابا ضخمًا مطبوعًا بتحقيق ألان جونز، كامبريدج (1992). استغرقت المخطوطة منه 531 ص من الحجم الكبير مع مقدّمة بالانقليزية (10 ص) وفهارس (10 ص).

وتحتوي المخطوطة ديباجة المؤلف ومدوّنة مختارة من الموشّحات عددها 354 موشحة منها نحو 195 موشحة لمجهولين والبقية منسوبة لوشاحين من القرن 5هـ وما بعده إلى النصف الثاني من القرن 8هـ.

ثمّ إنّ أكثر من ثلثي المدوّنة لم ترد في مصادر أخرى. والكثير من أسماء الوشاحين لم يُعرف من قبل. وبعضهم عُرف شاعرا ولم يُعرف وشّاحًا. ونصوص الموشّحات جلها إن لم نقل كلها وردت كاملة مما يساعد على تجاوز المنقوص منها في المصادر المعروفة سابقا.

أمّا من حيث الأغراض والمواضيع فابن بُشرَى لم يعتن بالموشح الزهدي أو الصوفي رغم انتشار هذا النوع منذ ابن عربي (ت 638هـ) والششتري (ت 668 هـ). وساد في مختاراته الغزل والمدح وهذا شأن كل مدوّنة الموشحات.

إنّ هذه المجموعة التي حُرم من الاطلاع عليها جلّ الباحثين العرب على مدى نصف قرن تقريبا من شأنها أن تفتح بظهورها آفاقا

جديدة في دراسة التوشيح. فمن ذلك أنّه سيسمح بإعادة النظر في بعض نظريات الاستشراق في شأن الموشحات. ومن ذلك أننا قد اهتدينا إلى التعرف على «الموشح العروس» لابن غرلة ضمن الموشحات المجهولة النسبة. بينما أعرض عن إيراد نصّه كل من ابن سناء الملك والحليّ. وهو يمثّل اتجاهًا مخصوصا في فنّ التوشيح... الخ.

المصادر والمراجع

أهمّ المصادر ذكرت في التحرير نضيف إليها أهم المراجع:

● ألان جونز، مقدمة «عدة الجليس» بالانقليزية؛ ● عناني، محمد زكرياء، الموشحات الأندلسية سلسلة عالم المعرفة عدد 31، 1980 الكويت؛ ● ريدان سليم، ظاهرة التماثل والتميّز في الأدب الأندلسي من القرن 4 إلى 6هـ. منشورات كلية الآداب منّوبة، تونس 2001، 413/1؛ ● الغائب والشاهد في الموشحات الأندلسية، أوريس، تونس 2000، ص115، فصل: الموشح العروس موجود، مجلة دراسات أندلسية (تونس) عدد 15، جانفي 1996 ص 67، فصل: «العروس» موشح معرّف، مجلة دراسات أندلسية عدد 17، جانفي 1997 ص 71.

د. سليم ريدان
جامعة منوبة ـ تونس

ابن بشران، أبو غالب محمد بن أحمد بن سهل

(380هـ/990م ـ 462هـ/1069م)

محمد بن أحمد بن سهل الواسطي، أبو غالب، يعرف بابن بشران وكذلك بابن الخالة، نحوي لغوي أديب محدث ينسب إلى جدّه لأمّه ابن بشران، ولد في قرية نهر سابس القريبة من واسط بالعراق.

أخذ عن ابن دينار الكاتب صاحب أبي علي الفارسي، وجالس ابن الجلاّب، وتخصّص بابن كروان وقرأ عليه كتاب سيبويه، ولازم حلقة أبي إسحاق الرّفاعي صاحب السيرافي، وقرأ عليه القرآن ودواوين الشعر [معجم الأدباء، 17/ 221]، وتذكر كتب الطبقات أنه حدّث عن أبي الحسن علي بن الحسن الجاذري، سمع منه تاريخ واسط، وحدّث عن أحمد بن محمد بن سهيل بن مردويه، وأبي الفتح محمد بن الحسن بن عبد الله الكاتب، وأبي الحسين علي بن محمد بن دانيال، وأحمد بن عبيد بن بيري. وهكذا أصبح «صاحب نحو ولغة وحديث وأخبار» حسب ما جاء في «بغية الوعاة» نقلا عن ياقوت [1/ 26] ويعتبر جامعا بين «الدراية والفهم والرواية» ثقة حافظا، ويبدو أنه كان

من الشهود العَدْل في المحاكم بمدينة واسط.

وروى عنه جماعة منهم أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي، وأبو نصر بن ماكولا، وهبة اللّه الشيرازي، وأبو المجد محمد بن جهور القاضي الواسطي، وآخر من روى عنه فضل اللّه بن محمد العراقي. والقاضي أبو الفرج محمد بن عبد اللّه بن الحسن البصري الذي روى عنه القفطي بأنّه اجتمع بابن بشران بواسط وقرأ عليه كتاب «الحماسة» سنة 460هـ / 1067 م، [إنباه الرواة 3/ 44]؛ على أنّه لم يكن يتردّد عليه الاّ عدد قليل من الطلاب لأنّه كان معتزليا في وقت كانت العامة تنفر من هذه الفرقة وآرائها. ولعلّ هذا ما دعا قاضي واسط إلى مصادرة كتبه بدعوى الحفاظ عنيها.

آثاره

لم يصلنا من كتب ابن سهل شيء رغم أنّ كتب التراجم تذكر أنّ له كتبا حسنة كثيرة وقفها على مشهد أبي بكر الصديق. ذكر العسقلاني أنّه ألّف ديوانا من أشعار العرب [لسان الميزان، 5/ 143]، وقد احتفظت بعض المصادر بمقتطفات من أشعاره في الزهد وذات الصبغة العاطفيّة.

المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، 17/ 214؛ ● القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، تح. محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة 1374/ 1955، 3/ 44؛ ● القفطي، المحمدون من الشعراء، تح. محمد عبد الستار فان، حيدر اباد الدكن 1385/ 1966، ص 56؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، تح. هلموت ريتز، بيروت 1381/ 1961، 2/ 82؛ ● ابن قاضي شهبة، طبقات النحاة واللغويين، تح. محسن عياض، النجف 1973، ص 42؛ ● ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، حيدر أباد الدكن، 5/ 43 ـ 44؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة 1384/ 1964، 1/ 26؛ ● ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب، القاهرة 1350/ 1931، 3/ 310؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة 5/ 85؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 10/ 62؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة الكبرى، طهران 1416/ 1995، 2/ 477؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 5/ 314.

د. خالد ميلاد
جامعة منوبة ـ تونس

البشروش، محمد بن محمد

(1329هـ / 1911م ـ 1363هـ / 1944 م)

هو محمد بن محمد بن حمدة البشروش، ولد في 21 أفريل 1911 بدار شعبان من ولاية نابل بالوطن القبلي (تونس).

بعد أن زاول دراسته الأولى بالكُتّاب، ومدرسة دار شعبان التي تخرج منها بالشهادة الابتدائية سنة 1925، التحق بتونس العاصمة للدراسة في جامع الزيتونة، لكنه لم يلبث ـ اختصارا لمدة الدراسة بسبب تواضع مهنة والده الذي كان يعمل حلاقا ـ أن تحول، بعد سنتين، إلى القسم الإسلامي من مدرسة ترشيح المعلمين بالعاصمة.

وبعد تخرّجه سنة 1930 معلّما امتهن التعليم الابتدائي في مدارس قرى «ملّيتة» بجزيرة قرقنة (1930 ـ 1931)، و«نفطة» بالجنوب التونسي (1931 ـ 1934)، حيث تعرّف على شاعر تونس الفذّ أبي القاسم الشابي الذي ربطته به صداقة روحية وأدبية متينة، و«الكريب» بولاية الكاف (1934 ـ 1937)، و«الحمّامات» بولاية نابل حيث تقع قريته دار شعبان(1937 ـ 1943)، وأخيرا في مدرسة «حمام الأنف» الضاحية الجنوبية للعاصمة التونسية (1943 ـ 1944).

في ضاحية حمام الأنف عرف الاستقرار الذي كان يبحث عنه لوقوعها بين قريته دار شعبان والعاصمة حيث يتوافر النشاط الثقافي، ولكن المنيّة داهمته في 5 ذي الحجة 1363هـ / 20 نوفمبر 1944م. ربما بتأثير مرض الضعف العصبي الذي كان ملازما له، وهو ما صرّح به لأبي القاسم الشابي في إحدى رسائله إليه، أو بضعف القلب حسب شهادة أخيه، أو بهما معا مع ما كان يعانيه من إرهاق المهنة وأتعاب، جرّاء نشاطه الثقافي والأدبي والصحفي.

وعلى الرغم من قصر هذا العمر فإن محمد البشروش يعدُّ من أعلام الأدب والثقافة والصحافة الذين عرفتهم تونس في النصف الأول من القرن العشرين، لنشاطه الدائب وحماسه الفياض ودفاعه المستميت عن أدب عربي تونسي جديد، وثقافة وطنية حديثة؛ يشترك في ذلك هو وصديقاه أبو القاسم الشابي ومحمد الحليوي لإيمانهم معا بروح التجديد الأدبي والتشابع على الرومنسية التي كانت مذهب الثلث الأول من القرن العشرين في المهجر الأمريكي (الرابطة القلمية)، والبلاد العربية خاصة مصر (جماعة الديوان، ورابطة أبولو). وقد كشف عن هذا التوافق في الرؤى الجمالية وحماسهم الأدبي ما كانوا يبدعونه من أعمال أدبية، ويتبادلونه من رسائل [رسائل الشابي].

وكان البشروش، لتجسيم مختلف اهتماماته الأدبية والثقافية والرؤى الفنية التي آمن بها وناضل وضحّى من أجل إذاعتها بين الناس، قد توخّى سبيلين اثنين:

الأول: النشر في صحف عصره مثل الزهرة، والنهضة، والزمان؛ ومجلات التعليم العربي، والمدرسة، والعالم الأدبي، ومجلته المباحث. كما نشر بالفرنسية في مجلة إفريقيا الأدبية الفرنسية، وحاضر على أمواج الإذاعة التونسية. وكان يمضي مقالاته باسمه الحقيقي غالبا، و باسم مستعار أحيانا أخرى مثل محمد عبد الخالق، والقروي...

الثاني: إصدار مجلة أدبية، بعد فشل تأسيس مشروع دار نشر تونسية، ومشروع إصدار مجلة باسم «المجمع». فكانت «المباحث في الأدب والفن والتاريخ والفلسفة»، أو«المباحث» اختصارا. صدر عددها الأول في ذي الحجة 1356هـ / جانفي 1938م. في شكل كتاب كبير بسبع عشرة صفحة. وفي افتتاحيته حدّد ما يبيّن منهجها وأبعادها الثقافية فقال: «وقد أسّسنا هاته المجلة لتساهم في تبليغ رسالة الأدب. فمن أجل الأدب فقط أسسناها. وهي لا تُعنى بخدمة مذهب محدود سواء من الفلسفة أو الفن أو التاريخ أو غيرها من أنواع الأدب. ولكنها تخدم كل رأي وكل مذهب حيّ هو للفن يمتّ بصلة الرحم والقربى. وهي تخدم الثقافة عصارة نفس الإنسان وعقله بمفهومها الأشمل ومدلولها الأتم. وهذا بوسائلنا المتواضعة... وبوسائلنا المتواضعة دائما سنعتني عناية خاصة بالبحث عن تاريخ الحياة العقلية بهاته البلاد في أيّ عصر كانت قديما أو حديثا، وجمع أشتاتها المتناثرة الضائعة تحت ركام من غبار الإهمال».

ولكنها لم تلبث، على الرغم من صدورها كل شهرين، أن احتجبت بعد عددها الثاني في مارس 1938 لضعف إمكانيات البشروش المادية وغلاء الورق، وما لحقه جراءها من خسارة ليست له القدرة على مجابهتها وحده براتبه الشهري. هذا بالإضافة إلى سكناه بالحمامات بعيدا عن العاصمة وظروف الحرب العالمية الثانية.

ثم عاوده الحنين إلى إصدارها ثانية بالتعاون مع بعض أصدقائه في شهر أفريل 1944 في شكل جريدة أدبية شهرية بعنوان «المباحث مجلة تاريخية فنية علمية». وقد ظل يصدرها إلى شهر نوفمبر من نفس السنة تاريخ وفاته، فتولّى الإشراف عليها بعده عدد ممن شاركوه تحريرها. إلى أن بلغت من الأعداد ثلاثة وأربعين في سلسلتها الجديدة. وبه، وهو العدد المزدوج 42 ـ 43 سبتمبر/ أكتوبر 1947، احتجبت عن الصدور نهائيا بعد أن شجعت عديد الأقلام والمواهب على الإبداع، وأبرزت ما يتمتّع به رجل الأدب والفكر بتونس من مواهب وقدرة على النضال الأدبي وتحدّي كل العراقيل سواء كانت مادية أو ثقافية أو سياسية أو استعمارية، وتركت أثرا مدوّيا في الحياة الأدبية والفكرية بتونس لما توخّته في منهجها من مزاوجة بين الأدب والعلم والفن والفلسفة، وبين إحياء التراث العربي وترجمة نماذج من الفكر الغربي وأدبه وعلومه وفنونه.

ومن أبرز ما عرف به البشروش في آثاره وعند الدارسين «النقد الأدبي». أولا لوفرته في آثاره، وثانيا لما تضمّنه من تجديد في الرؤى، وصرامة في المقاييس، وتنشيط لحركة النقد والأدب بتونس.

وللتدليل على هذا الدور الذي قام به في النقد الأدبي التونسي نذكر نقده في فن القصة الجديد على الواقع الأدبي التونسي وقتئذ، فقد خص هذا الفن بمقالات نظرية مثل:

«القصة في الأدب العربي»، و«القصة كما يجب أن نفهمها»، و«القصة والتجرد فيها» [البشروش، حياته وآثاره، 141 ـ 152]. في هذه المقالات حاول البشروش تعريف القصة فقال: إنها «أداة لا تضارعها أداة لخدمة الفن، ومعرض لا يضارعه معرض لشتى صور الحياة واختلاف مناظرها وألوانها وما فيها من جمال ودمامة ولذة وألم. فهي أنشودة شعرية بديعة تترنّم بآمال الوجود وأسحاره، وتتغنّى بآلامه. هي أيضا «فن للفن» لا تعرف لا هداية ولا رشادا. وإنه لمن خطل الفهم وعقمه أن تقصر القصة على خدمة الشعب فقط...» [م. س، 147]:

وقال أيضا معرفا القاصّ ومحدّدا أهم شروطه وأركانه: «والقاص فنان، والفنان يجب أن يكون حرا طليقا، أمامه الحياة واسعة رحبة، عميقة، محدودة. فمن الحرام بل وجريمة لا تغتفر إذا صفّدناه وأجبرناه على استمداد أشخاص قصته من جمهور القوم، ورأيناه شاذا ليس له قيمة ولا يقام له وزن إن هو لم يبعث البطل واحدا من الناس يقوم بأعمال في المقدور القيام بها» [م. س، 149]. وهكذا يمكن القول إن محمد البشروش كان بهذا التحديد لمفهوم القصة وأركانها من أنصار اتجاه الفن للفن.

ولإدراكه بأنه يتناول القصة باعتبارها فنا جديدا سعى أيضا إلى التعريف بأنواعها مثل قصص الطبائع، وقصص العادات، وقصص القضيّة أو الأطروحة، وقصص الأفكار، كما تناول الفرق بين البطل والشخصيات في هذه أو تلك.

ومما عُني ببحثه أيضا في موضوع القصة هو: هل كان للعرب قصة؟ كان ذلك في مقال «القصة في الأدب العربي» ردا على المستشرق الفرنسي «وليام مارسي» الذي أنكر على العرب أن تكون لهم قصة ما عدا «ألف ليلة وليلة»، وحتى هذه اعتبرها هندية الأصل وصلت إلى العرب عن طريق اللغة الفارسية.

ويحاول البشروش في بحثه أن يفرق بين «نوفال» Nouvelle و«رومان» Roman، وقد استعمل لكليهما مصطلح «قصة»، وليس قصة قصيرة ورواية كما نفعل الآن، مما يدل على أن هذين المصطلحين لم يكونا رائجين في بداية الثلاثينات؛ كما يفرق بين «كونت» Conte و«فابل» Fable، وهما حسب قوله من نوع ما يسميه العرب «حكاية» تجوُّزا مثل حكايات المقامات عند الهمذاني والحريري، وحكايات كليلة ودمنة. ليصل في النهاية إلى أنه «ليس في الأدب العربي ما يدعى «النوفال» و«الفابل»، وأن ما يوجد من «الرومان» يجب أن نعترف بأن الفن فيه لم يرتق إلى درجة لها نصيب من الذكر والتقدير..» [م. س، 143].

ولتلافي هذا النقص، فتكون للأدب العربي الحديث قصة، يناقش زكي مبارك الذي لا يحبّذ الإبداع القصصي لما فيه من قصد وتكلُّف وافتعال، ولقوله بأن المرأة بحجابها تقف عقبة في سبيل إيجادها، فيرى «أن القصة عدوّة الافتعال وحبيبة الفطرة، ونحن إذا طلبناها للأدب العربي فإنما أردنا أن يكون هذا الأدب أوسع تعبيرا عن الحياة وأشمل تصويرا لحقائقها ومفاتنها؛ فإن في الحياة من المشاهد والصور ومن المناظر والحقائق ما لا يتسع صدر غير صدر القصة لاحتوائها، ولا فم غير فم القصة للتغنّي بأشواقها وآمالها،

وبآلامها وشقائها، وبما فيها من حسن وجلال وفتنة» [م. س، 143 ـ 144]. أما المرأة فليست عقبة أمام تعاطي القصة وإبداعها لأن وضع المرأة الشرقية وضع متطور أولا، وثانيا لأنه يمكن تصويرها كما هي في البيت والريف، وليس من الضروري كما يقول المازني أن تقع حوادث الرواية في الطرقات أو المنتديات أو المحافل العامة حتى يصحّ القول بأن الحجاب عقبة في سبيل التأليف الروائي... الخ [م. س، 144 ـ 145].

ومن الأمثلة الدالة على ضرورة وجود القصة في الأدب العربي في رأي البشروش رواية «إبراهيم الكاتب» للمازني التي خصّها بمقال نقدي تطبيقي أكد فيه رأيه بأن لا افتعال في فن القصة، وأن المرأة لم تقف عقبة في سبيل إبداعها، كما لن تقف في سبيل إبداع غيرها [م. س، 356 ـ 361]. وفي النهاية يؤكد الدعوة إلى كتابة القصة، كما فعل هو نفسه لما أسهم في تأسيسها بتونس، فيقول: «لقد تحتّمت الدعوة إلى القصة، وإليها يجب أن تتّجه غايات الأدباء حتى نجعلها المعيار الذي يوزن به الأدب العربي كما يوزن به الأدب الغربي، لأنها أصدق مرآة للعبقرية والنفوس» [م.س، 145].

ومن القضايا النقدية التي طرحها البشروش في نقده ودخل بسببها في مساجلة مع صديقيه الحليوي والشابي قضية «لصوصيّة الشعر»، أو ما يسميه النقد الحديث بالتناص أو التظافر النصي أو التداخل النصّي، أو غير هذه المصطلحات. فقد كتب البشروش مقالة عن لصوصية الشعر بمناسبة مقال كتبه محمد الحليوي في نقد كتاب «على السفود» للرافعي الذي اتهم فيه العقاد باللصوصية. فيكون رأي البشروش في هذه المسألة، بعد عودته إلى كتاب «العمدة» لابن رشيق، وتطبيق ما قرأ على شعر العقاد، أن الشاعر نوعان: صادق وهو من وفّق في اختياره وانتقائه فكان شاعرا باختياره، صادقا بانتقائه؛ وكاذب وهو من عُني بنقل السخيف من الخيال والشائه من المعاني، وذلك دليل على هُمود الطبيعة وارتكاس النفس، فكان كاذبا باختياره، زائفا بانتقائه واقتباسه. ثم يصنّف الشاعر الصادق إلى رجلين: «شاعر باختياره واقتباسه، وشاعر بشخصيته وذاتيته. ذلك شاعر يولد كل يوم، وهذا شاعر الإلهام الذي تضنّ به الأجيال والأعوام. فالشاعر سواء كان شاعر اختيار أو كان شاعر شخصية، لا لصوصية في شعره ولا سرقة. وإذا كان لا بد لهؤلاء السادة من لصوصية فهي لصوصية الحياة؛ أما اللصوصية كما يفهمونها ويريدون أن يفهموا بها الشعر فهي دعوى فارغة، ومقياس مخذول، لا دقة فيه ولا صواب» [م. س، 226 ـ 227].

وبهذا التحليل الدقيق الذي قسم فيه البشروش الشعراء إلى شعراء اختيار أو قريحة، وشعراء شخصية أو عبقرية ينتفي السرق في الشعر وتبطل كل ادّعاءات النقد الأدبي القديم الذي عقد محاكم للشعراء وأدانهم بالسرقة واللصوصية، وكأن محمد البشروش كان يبشر قراءه بالنقد الحديث في اعتباره أن النص هو مجموعة نصوص تراكم في ذاكرة الشاعر عبر تعلُّمه منذ الصغر، وقراءاته المختلفة في الكبر...

وإيمان البشروش بالتجديد الأدبي وضعه في صف الثائرين على الاتجاه القديم، ونقد

ممثليه نقدا لاذعا مثلما فعل في مقالته «الأصنام الثلاثة» التي نقد فيها انتخاب الشعراء الثلاثة عبد الرزاق كرباكة ومحمود بورقيبة والطاهر القصّار في الاستفتاء الذي نظمه زين العابدين السنوسي في مجلته «العالم الأدبي» سنة 1932، في حين احتل الشابي زعيم المجددين بتونس المرتبة الرابعة.

وبعد توطئة ذكر فيها أسماء شعراء تفتخر بهم شعوبهم، وسخطه على فكرة الاستفتاء ذاتها والشعراء الذين غرّروا بالشعب لانتخابهم والشعب نفسه الذي استجاب لهذه «المهزلة» كما قال، يذكر مقياسه النقدي الذي اعتمده في نقد الشعراء الثلاثة وهو مقياس الصدق النفسي فيقول: «إن طريقتنا في تقدير الشاعر وفهمه هي التساؤل عن نصيب نفسه من هاته الحياة الداوية. فالشاعر الصادق عندنا ليس هو ذاك الذي يعيش في منعزل عن الكون، ولكنه هو ذاك الذي تربطه بما حوله صلات النفس الشاعرة النافذة. وهو ذلك الذي يبعث أقواله تشبّ عن قلب صادق واع لا أثر للزّائف والمتكلف منه. فإذا تكلم فإنما ليكشف خفايا نفس كل إنسان، وإذا غنّى فإنما لينشد بكل قلب من أبناء الحياة. فهذا هو الشاعر الذي يفهمه كل إنسان لأنه في قلب كل إنسان. وهذا هو الشاعر الذي يجتاز الأمصار ويجتاز السنين والقرون الطوال فتبقى نردّد أغانيه وأشعاره ما بقيت لنا نفوس تتحرك وقلوب تهتز وتطرب، وإنّنا إذ نقرأ شاعرا فإنما نتساءل بعد قراءته ماذا قال؟ وهل في قوله أثر لنفس الإنسان؟ وهل تراني خسرت لو لم أقرأه، أو تراني كنت سعيد الحظ إذ جهلته؟» [م. س، 196 - 197]. أما الجوانب الشكلية من أوزان وتفاعيل ولغة وقواعد فقد أسقطها من منهجه لأنه كان معنيا بالكلام عن النفس التي لا يكون الإنسان إنسانا بدونها فما بالك بالشاعر [م. س، 197].

والواقع أن البشروش كان في نقده عنيفا، ساخرا، ذاتيا: إذ إنه دخل شعر شعرائه الثلاثة، منذ الكلمات الأولى، بنيّة تحطيم من سماهم «الأصنام الثلاثة». لذلك لجأ إلى تأويل الكلمات والمعاني تأويلا ليس وراءه إلا التعسُّف والحط من الشعر والشاعر معا. فكرباكة في مقياسه «يريد أن يكون شاعرا، فيأبى الله إلا أن يجعله مُقفرا من نفس الإنسان.. إنه صورة متحركة ناضبة من معنى الحياة، فلنحشرْه إذًا في زمرة الشعراء المزيّفين» [م. س، 204]. وبنفس الحكم تقريبا يختم نقده للشاعرين محمود بورقيبة، والطاهر القصار.

وممّن اهتم البشروش بنقدهم «المعري في اللزوم»، وابن رشيق، وابن شرف، وجبران بمناسبة تأبينه، والشابي في عدة مقالات، كما قارن بينه وبين ماريوس سكاليزي الشاعر التونسي الولادة والإقامة، والصقلي الأب، والمالطي الأم، فوجد بينهما عديد المتشابهات من نبوغ، ومرض، وتشاؤم، وموت مبكر ... إلخ، فكان من المبكّرين في تعاطي النقد المقارن بتونس [م. س، 304؛ وانظر 296 - 299، 306 - 308].

وعالج أيضا، عدا نقد الإبداع الأدبي شعرا ونثرا، قضايا ونظريات أخرى مثل «الأدب القومي» حسب المصطلح السائد وقتئذ حتى عرف «بزعيم حركة الأدب القومي في تونس»

[سلامة، محمد البشروش، 133]. وهو ما جره إلى البحث عن الأدب التونسي قبل الإسلام. ولعله بهذا التوجّه كان يؤكد للمستعمر الفرنسي الشخصية التونسية الأدبية والفكرية العريقة، وعبقرية المكان التونسي الذي أنتج إبداعا ومبدعين منذ غابر التاريخ إلى اليوم، ولاعتقاده «أن الأمة التي مات ذهنها ماتت، ولن تموت ما بقي الذهن فيها يعمل ويكدّ» [محمد البشروش، 397]؛ كما عني بالأدب العامي والأسلوب وهما من ذيول معركة الأدب القومي، وبالتاريخ العلمي مثل تاريخ الطب عند العرب، والفني مثل تاريخ الموسيقى التونسية وأعلامها، وبالآثار التونسية.. الخ. وعني أيضا بالترجمة الأدبية لعديد الأعلام سواء من التونسيين أو العرب أو الأجانب، وبطرح عدة مسائل ثقافية وما تعانيه من أزمات مثل أزمة الكتاب والصحافة، وطبع المخطوطات التونسية، والثقافة الصحيحة، ومسالك التربية والتعليم؛ ومما أسهم به أيضا كتابة عدد من القصص القصيرة، لتأصيل فن القصة بتونس؛ ونظم قصائد شعرية عمودية ومنثورة؛ ونشر مترجمات أدبية، إضافة إلى ما نشره من مقالات باللغة الفرنسية في بعض المجلات مثل مجلة «إفريقيا الأدبية» التي نشر فيها دراسة عن الأدب التونسي الحديث... إلخ.

لقد كان محمد البشروش أديبا وناقدا وصحفيا وافر النشاط، واسع الثقافة، مؤمنا بالتجديد، مطلعا على الآداب العربية قديمها وحديثها، والآداب الفرنسية وهو ما مكنه من الترجمة منها وإليها. ونحن لا نجد ما هو أوفق للتعريف بنشاطه الجمّ، وتشجيعه للحركة الأدبية بتونس، من ذكر ما نشرته عنه مجلة المباحث بعد وفاته نقلا عن أحاديثه التي كان يحدّث بها زملاءه بقوله: «إني أرى من واجبي الوفاء لأرواح ابن رشيق وابن شرف وابن هانئ وابن خلدون والشابي في هذه البلاد التي خلّدوا فيها، بمآثرهم، روح الحضارة العربية والفكر العربي. أرى من واجبي المحافظة على ما بذروا من صالح الغرس لأني بدمي وجوارحي ووراثتي وعقلي أشعر بتضامني مع الأجيال الماضية من أمتي؛ وأراني خائنا لهم غادرا بهم إذا انصرفت عن روحهم الذي به كانت هذه الأمة أمة، وبه انتسبت إلى الجماعات البشرية التي تستحق الحياة، ولها على الحياة حقوق» [م. س، 449 - 450].

آثاره

1 - المباحث، مجلة أدبية علمية، جملة ما صدر منها عددان في سلسلتها الأولى، جانفي - مارس 1938؛ وثلاثة وأربعون عددا مع اعتبار الأعداد المزدوجة في سلسلتها الجديدة من آفريل 1944 إلى سبتمبر - أكتوبر 1947؛ 2 - مقالات ودراسات، جمعها وقدم لها عبد الحميد سلامة في كتاب بعنوان «محمد البشروش حياته وآثاره»، تونس 1978، الدار التونسية للنشر؛ 3 - مجموعة رسائل، منها نماذج في كتاب محمد الحليوي «رسائل الشابي»؛ وفي كتاب سلامة «محمد البشروش حياته وآثاره».

المصادر والمراجع

1 - الكتب:

• سلامة عبد الحميد، محمد البشروش

حياته وآثاره، جمع وتقديم، تونس 1978، الدار التونسية للنشر؛ ● الحليوي، محمد، رسائل الشابي، ط. الأولى، تونس، جانفي 1966، منشورات دار المغرب العربي؛ ● م. ن، في الأدب التونسي، تونس 1969، الدار التونسية للنشر، ص 105 ـ 113، 165 ـ 176، 182 ـ 199؛ ● الجابري، محمد صالح، الشعر التونسي المعاصر 1870 ـ 1970، ط. 1، تونس 1974، الشركة التونسية للتوزيع، ص 249 ـ 262، 269 ـ 279؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، ط1، بيروت 1982، دار الغرب الإسلامي، 1/ 140 ـ 141؛ ● المطوي، محمد الهادي، محمد الحليوي ناقدا وأديبا، تونس 1984، الدار العربية للكتاب؛ ● مواعدة، محمد، حركة الترجمة بتونس وأبرز مظاهرها في الأدب، تونس 1986، الدار العربية للكتاب؛ ● الهمامي، بدر الدين، العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب انطلاقا من مجلة المباحث، تونس، أوت 1996؛

2 ـ الدوريات:

● المباحث، عدد 9، ديسمبر 1944 (خاص بوفاته)؛ ● المطوي، محمد الهادي، حول كتاب محمد البشروش حياته وآثاره، الحياة الثقافية، السنة السابعة، العدد 21، ماي ـ جوان 1982؛ ● عزونة، جلول، ريادة محمد البشروش في دراسة الأدب التونسي قبل الإسلام، مجلة الإتحاف، س 11، عدد 62، أكتوبر 1995، وانظر كتابه "دراسات حضارية عن تونس" (د. ت.)، دار الإتحاف للنشر.

د. محمد الهادي الطاهر المطوي
جامعة منوبة ـ تونس

ابن بشرون المجريطي، أبو بكر محمد

(كان حيًّا عام 450هـ/1058م)

أبو بكر محمد بن بشرون المجريطي، عالم في الكيمياء، عاش في الأندلس، وتتلمذ على أستاذه أبي مسلمة محمد بن إبراهيم بن عبد الدائم المجريطي، شيخ الأندلس في علوم الكيمياء، ومؤلف كتاب رتبة الحكيم ومدخل التعليم، وهو غير الفلكي المشهور بأبي القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي. وقد عاش أبو مسلمة في النصف الأول من القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر للميلاد، لهذا فإن ابن بشرون كان حيًا إذن حتى عام 450هـ / 1058م. أي أنه عاصر حقبة ملوك الطوائف في الأندلس.

ولا تتوفر معلومات كثيرة عن حياة ابن

بشرون، ولكن يمكن استخلاص بعض الحقائق من رسالة كتبها إلى زميل له في الدراسة دعاه بأبي السمح (من المحتمل أنه أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهواري المتوفى سنة 426هـ / 1034 م، وهو أيضًا تلميذ الفلكي مسلمة بن أحمد المجريطي). وتتضمن هذه الرسالة أجوبة عن أسئلة أبي السمح له حول بعض المسائل المتعلقة بعلم الكيمياء. وفي هذه الرسالة يعرض ابن بشرون التقنية الخيمائية الأساسية قائلا: «... أبيّن لك من هذه الصفة ما يُحتاج إليه، فتبدأ بمعرفته، فقد قالوا: ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال؛ أولها هل تكون؟ والثانية من أي تكون؟ والثالثة من أي كيف تكون؟ فإذا عَرَفَ هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه، وبلغ نهايته من هذا العلم...».

ويبدو أن صلة ابن بشرون كانت أقوى بأستاذه أبي مسلمة من زميله أبي السمح، فكان يسأله عن بعض الأجوبة التي سأله عنها زميله، وبعد أن يستوعب حلول المسائل، يحاول أن يبرهن على صحة ما قاله الأستاذ، بإقامة أشكال هندسية، ضمنها الرسالة المبعوثة إلى أبي السمح، مع تبسيطها بأمثلة عملية ثم اختتم الرسالة بقوله: «فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به إليك مفسّرًا، ونرجو بتوفيق اللّه أن تبلغ أملك والسلام». ولكن ابن خلدون الذي أورد نص هذه الرسالة كاملاً، يعلق عليها بقوله: «... وأنت ترى كيف صرف ألفاظهم كلها في الصناعة إلى الرمز والألغاز التي لا تكاد تبين ولا تُعرف، وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية...». ورأي ابن خلدون هذا يأتي في سياق موقفه من هذه الصناعة، والعاملين فيها، والمصنِّفين في حقلها، فهو يشير مثلاً إلى جابر بن حيان الذي وضع سبعين رسالة كلها شبيهة بالألغاز، بحيث لا يملك مفاتيحها إلا من أحاط بكل العلم الموجود فيها [المقدمة، 525].

آثاره

1 ـ سر الكيمياء، وهي الرسالة التي أوردها ابن خلدون كاملة في مقدمته، وتوجد مخطوطة في بعض المكتبات التي أشار إليها سزكين، منها: بشير آغا 505 (86 أ ـ 92 أ، 756 هـ)؛ ينظر: مجلة معهد الدراسات الإسلامية Isl Teck Enst Derg. في إستنبول م2، 2 ـ 4/ 1960/ 238؛ طهران، كلية الآداب 98 د (غير كاملة انظر: فهرس ص 311)؛ طهران: خانقاه نعمة اللّه 145 (164ب ـ 168 ب، القرن الحادي عشر الهجري) Petersburg: جامعة 1192 (وينظر: I Zap koll Vast، ص 360؛ وينظر: بروكلمان: ملحق م2، ص 1034، رقم 10)؛ 2 ـ مختصر لرتبة الحكيم ومدخل التعليم، وهو بالأصل كتاب أستاذه أبي مسلمة المجريطي، اختصره في رسالة موجودة في مكتبة جامعة إستنبول، 6247أ (126ب ـ 191أ).

المصادر والمراجع

● ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 505 ـ 513، 525؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، السعودية،

1983، 4/ 439، 440، 445؛ • قنواتي، جورج، الخيمياء العربية، بحث ضمن كتاب موسوعة تاريخ العلوم العربية، بيروت 1997، مركز دراسات الوحدة العربية ومؤسسة عبد الحميد شومان، 3/ 123 ـ 124.

أ. د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

البشري، عبد العزيز بن سليم

(1303هـ/1886م ـ 1362هـ/1943م)

أديب مصري، ولد في بيت لحم، إذ كان أبوه سليم بن أبي فراج البشري، نسبة إلى «محلّة بشر» بمحافظة البحيرة، أحد علماء الدين، وتولّى، أي والده، منصب شيخ الأزهر مرتين.

تعلّم عبد العزيز البشري بالأزهر، وتخرّج فيه عام 1911 م، وعيّن بعد تخرّجه سكرتيرا لوزارة الأوقاف، ثم سكرتيرا برلمانيا لوزير المعارف، وتولّى القضاء الشرعي في بعض المدن المصرية، عُيّن وكيلا للمطبوعات، ثمّ مراقبا إداريا بمجمع اللغة العربية.

أثر في نشأته وفي تكوين ثقافته أمران:

أوّلهما: نشأته في بيت لحم.

وثانيهما: دراسته في الأزهر واطّلاعه على الثقافة الإسلامية. اتّجه البشري إلى الأدب القديم، فقرأ لكثير من الشعراء، مثل المتنبي، وأبي تمام، والبحتري، واطّلع كذلك على التراث النقدي العربي. إذ يرى أنّ قصور النقد العربي يعود إلى العناية بالجزئيات، بنقد اللفظ في الجملة أو بنقد الجملة في العبارة، وإنّما الشأن في نقد الكلام بوصفه كُلاًّ متكاملا، لا انفصام بين أجزائه ولا انفصال.

أُعجب بشعر أحمد شوقي، وحافظ ابراهيم، وإسماعيل صبري، وكذا بأسلوب المنفلوطي في النثر، واتّصل بإبراهيم المويلحي وابنه محمد المويلحي، والشيخ علي يوسف (صاحب جريدة المؤيّد)، وعرف بعضا مما تُرجم من الآداب الغربية إلى اللغة العربية.

تأثّر بالجاحظ وكتاباته، خاصّة «البخلاء» و«الحيوان»، وأخذ عنه روح السخرية والتهكّم، ولذا كان البشري على الرغم من نشأته الدينية الأزهرية شخصية ساخرة تتّسم بالمرح والدعابة والفكاهة.

انتقد في كتاباته المجتمع العربي، وثار على عاداته السيّئة، ورفض تقاليده السقيمة، وسخر من أفكاره المهترئة.

كان أحد روّاد صالون الأديبة «مي زيادة»، الذي كان يؤمه أيضا أحمد شوقي، وأحمد لطفي السيد، وخليل مطران، وحافظ إبراهيم.

توفي في الخامس والعشرين من مارس عام 1943م.

آثاره

1 ـ في المرآة، 1927، ويصور في هذا الكتاب عدة شخصيات، محللا وناقدا لها، مثل سعد زغلول، وهدى شعراوي؛ 2 ـ المختار، 1938، 1959، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات ويقع في جزأين؛ 3 ـ قطوف، 1947 م، 1953 م، ويضم العديد من المقالات، وقد نشر بعد وفاة البشري في جزأين؛ 4 ـ التربية الوطنية للمدارس الثانوية، 1928 م، بالاشتراك مع محمد رفعت؛ 5 ـ تاريخ الأدب العربي، أُلِّف لتلاميذ السنتين الثالثة والرابعة من المدارس الثانوية، واشترك معه في تأليف هذا الكتاب وسابقه: علي الجارم، وأحمد الإسكندري، وأحمد أمين، وأحمد ضيف، وطُبع الكتابان بالمطبعة الأميرية ببولاق عام 1938؛ 6 ـ المفصّل في تاريخ الأدب العربي، جزآن، وهو كتاب تعليمي للمدارس الثانوية، وُضع لسنتين الرابعة والخامسة من التعليم الثانوي، واشترك أيضًا في تأليفه معه أحمد الإسكندري، وأحمد أمين، وعلي الجارم، وأحمد ضيف، وطبع بمكتبة الآداب بالقاهرة، د.ت.

المصادر والمراجع

● خفاجي، محمد عبد المنعم، الأزهر في ألف عام، عالم الكتب، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ط2، 1408هـ/ 1988م؛ ● الرمادي، جمال الدين، عبد العزيز البشري، سلسلة أعلام العرب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، العدد 24؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 12، 1997؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1414 هـ/ 1993م؛ ● جمال الدين الرمادي، أدب عبد العزيز البشري، ماجستير، كلّية الآداب، جامعة القاهرة، 1953م؛ ● أبو سلطان، فرج، التيار الإجتماعي في أدب البشري، ماجستير، كلّية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر؛ ● عبد البر، طه عبد الرحيم، عبد العزيز البشري الأديب الناقد، دكتوراه، كلّية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، 1971م؛ ● إبراهيم محمد إبراهيم قاسم، الفكاهة والسخرية بين المازني والبشري، ماجستير، كلّية اللغة العربية، القاهرة، جامعة الأزهر، 1978م؛ ● الشبرواي، محمد عبد الهادي علي الجهوري، ملامح المجتمع المصري في أدب الشيخ عبد العزيز البشري، ماجستير، كلّية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر 1989م؛ ● السطوحي، سها عبد الستار علي، السخرية في أدب عبد العزيز البشري، دكتوراه، كلّية الألسن، جامعة عين شمس، 1998م.

د. فتح الله أحمد سليمان
جامعة القاهرة ـ مصر

ابن بشكوال الأندلسي، خلف بن عبد الملك

(494هـ/1101م ـ 578هـ/1183م)

هو أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال بن يوسف بن داحة بن راكه بن نصر بن عبد الكريم بن واقد (أو وافد) الخزرجي الأنصاري. وقد ضبط ذلك أبو عبد الله بن الأبّار الأندلسي (ت 658هـ / 1260 م) في الترجمة التي أثبتها له في كتابه «التكملة» والتي تُعد أوْفى التراجم التي وضعت له، بلْ إنّ كلّ من تحدّث عن حياة ابن بشكوال أو ترجم له نقل أو لخّص ما ورد في هذه الترجمة بالذّات.

ينتمي ابن بشكوال إلى عائلة ذكر ابن الأبّار أنّ أصلها من «شرّين» التي ذكر أنّها تقع بحوز «بلنسيّة» بشرق الأندلس، وهي مناطق يعرفها ابن الأبّار جيّدا، إذ هو منها. وقد نبّهت بعض التّراجم الحديثة الّتي وضعت لابن بشكوال [انظر 2 .ق.ظ] إلى ضرورة عدم الخلط بين «شُرّين» هذه و«شرّيون» الواقعة في حوز «طروال». وسواء هذه أو تلك فإنّهما موقعان مغموران ولا نجد لهما ذِكرا مثلا في معجم «ابن عبد المنعم الحميري» المسمّى بـ«الرّوض المعطار». الذي استقصى فيه المواقع الأندلسيّة.

ولئن كنّا لا نعرف بالتدقيق متى استقرّت هذه العائلة بقرطبة فلا يستبعد أن يكون ذلك بين 485هـ / 1092م و 495هـ / 1102م أثناء محاصرة النصارى بلنسية وأحوازها ممّا حدا بالكثيرين منهم إلى الهروب نحو مناطق أخرى.

ويبدو أنّ هذه العائلة ليست من أصول عربيّة، ولا هي قديمة في إسلامها. فعمود النّسب الذّي يقدّمه ابن الأبّار يُفصح عن عدد من الأسماء الأعجميّة، ولا تبدأ الأسماء العربيّة فيه إلاّ مع جدّ « أبي القاسم خلف» أي «مسعود». فكلّ من راكة وداحة اسم أعجميّ وتجمع كلّ الأبحاث أنّ بشكوال تعريب لـ Pasual، وقد حفظت لنا المصادر ترجمتين لفردين من أفراد هذه العائلة هما والد أبي القاسم وأخوه.

فأبوه عبد الملك بن مسعود كان من الحافظين للفقه المالكي كما كان «عرّافا بالشروط وعللها حسن العقد لها» [الصلة ج 1، رقم 777]؛ أمّا أخوه أبو عبد الله محمّد (509هـ/ 1115م ـ 577هـ/ 1182م) فكان هو الآخر من الفقهاء، لكنّه لم يبلغ مكانة أخيه العلميّة.

تتلمذ أبو القاسم على عدد كبير من الشيوخ بالسماع أو بالاجازة وقد بلغ عدد من التقاهم في قرطبة حسب ما ذكره ابن الأبّار خمسة عشر أستاذا، لكنّه اكتفى بذكر ثلاثة من رجال إشبيلية مع الإشارة إلى أنّه التقى فيها غيرهم.

واعتمادا على ما يقوله ابن الأبّار من ناحية وعلى بعض الإشارات غير المباشرة من ناحية

ثانية يبدو أنّ تأثّر ابن بشكوال في الميدان العلمي كان أساسا بثلاثة شيوخ، هم والده، وأبو محمّد بن عتاب أوّلا، وهما من قرطبة، إذ قال ابن الأبّار: «عليهما كان معوّله في الرّواية»؛ ثمّ أبو بكر بن العربي، وهو من إشبيلية.

أمّا والده، فإن كان من تأثير له فيه فهو يتمثّل بلا شكّ في تنشئته في إطار التّفكير المالكي وتدريبه على الانخراط في دوائر نوعيّة من الشّيوخ شاعت في العصر المرابطي، خصائصها الأساسيّة تتمثّل في امتلاكها لشعور قويّ بالانتماء إلى هذا المذهب وتشبّث بالموطأ على أساس أنّه كتاب فقه وكتاب حديث، وكذلك بالمدوّنة وغيرها من أمّهات كتب المالكيّة، مع تعاطي التّوثيق كإحدى الحرف الأساسيّة.

أمّا شيخ أبي القاسم ابن بشكوال الثاني والذي كان بلا شكّ الأكثر تأثيرا فيه فهو أبو محمّد بن عتّاب، أحد كبار رواة العلم بقرطبة وولد أحد كبار الفقهاء المالكية بها في العهد الطائفي، وهو أبو عبد اللّه بن عتّاب، المتوفّى سنة 462هـ / 1070 م، عن سنّ تناهز الثمانين، فقد أجمعت كلّ المصادر على الإقرار بمكانته، وقال فيه القاضي عياض: «إنّه بقيّة المشيخة بقرطبة ومسنديهم ومقدّم مفتيهم وأكبر مسنديهم» [الغنية، رقم 64].

والشخصيّة الثالثة التي ارتبط بها ابن بشكوال في تكوينه، هو الفقيه أبو بكر بن العربي الإشبيلي. إنّ هذا الشيخ يُعتبر من أكبر الفقهاء الأندلسيين في القرن السادس الهجري وحتّى في تاريخ المالكيّة بصفة عامّة. وقد اشتهر بالقدرة على التأليف والبراعة في الفقه والاهتمام بعلم الحديث.

وقد أخذ ابن بشكوال بالإجازة من أعلام من الأندلس ومن المشرق، وممن أجازه من الأندلس أبو علي الصدفي، وأبو محمد بن يربوع، وأبو القاسم بن منظور، وأبو عمران بن أبي تليد... وأجازه من المشرق أبو المظفر الشيباني، وأبو علي بن العرجاء، وأبو طاهر السلفي وهو الذي أصبح شيخ الرواية والحديث بدون منازع في وقته بالاسكندريّة...

عاش ابن بشكوال فترتين متميّزتين في التاريخ الأندلسي لكلّ منهما جملة من التوجّهات تُميّز المناخ الفكري فيهما، بقطع النّظر عن المميّزات السّياسيّة؛ ونعني بالأولى الفترة المرابطيّة حيث ساد الفقه والفقهاء. وأساسا الفقه المالكي. وعمّ التقليد وغلب الاهتمام بالفروع؛ والثانية هي الفترة الموحّديّة حيث ظهرت توجّهات تحارب بعض هذه المظاهر. وخاصّة التّقليد والتشبّث بالفروع. وداعية إلى اعتماد ما نادى به باعث التّفكير الموحّدي «محمد بن تومرت» (ت 524هـ / 1130 م) من عودة إلى الأصول، بل بدت عند أصحاب التّوجّهات الموحّديّة في بعض الفترات محاربة للمالكيّة إلى درجة الأمر بحرق عدد من أمّهات كتبها، وهو ما تمّ في عهد الخليفة الموحّدي الثالث «أبي يوسف يعقوب» الملقّب بـ«المنصور» (حكم بين سنة 580هـ / 1184م / وسنة 595هـ / 1199 م). والموحّدون أخذوا في تعويض المرابطين بالأندلس منذ سنة 539هـ / 1144 م، رغم أنّ مدينة مرّاكش العاصمة السّياسيّة لم تسقط في أيديهم سوى سنة 541هـ / 1146 م؛ فيكون ابن بشكوال بذلك عاش تقريبا النّصف

الأول من حياته في العهد المرابطي. وقد بدأ في الأندلس إجمالا سنة 483 ـ 484هـ / 1090 ـ 1091م وقضى النصف الثاني في ظلّ الموحّدين.

شغل ابن بشكوال بعض الخطط التي يؤهّله لها تكوينه فقد عيّنه أبو بكر بن العربي على قضاء بعض الجهات التابعة لإشبيلية، وذلك أثناء تولّي أستاذه هذا قضاء هذه المدينة في عهد المرابطين، والنهاية السيّئة التي عرفها إذ ثارت العامّة عليه لأسباب مختلفة اضطرّته إلى الفرار [ابن عذاري، 4/ 92 ـ 93].

وفي سنّ الرابعة والثلاثين تقريبا أخذ ابن بشكوال يسلك سُلّم الوظائف المعروف للفقهاء، أي التدرّب على القضاء في جهات من درجة ثانية تحت رعاية قاض كبير، مع التلبّس أحيانا بعقد الشروط، وهو ما قام به في انتظار تعيينه قاضيا لمدينة ذات أهميّة أكبر، ثمّ لإحدى العواصم الجهويّة.

لكن من الواضح أنّ هذا المسار قد انقطع، فلم تذكر المصادر لابن بشكوال بعد ذلك أي اشتغال بوظيفة ما. فقد يكون لحقه ما لحق ابن العربي راعيه؛ فهو لم يدع إلى القضاء مرّة أخرى رغم ولائه الكبير للدّولة المرابطيّة، يضاف إلى ذلك ما مال إليه علماء كثيرون من العزلة من جرّاء الاضطرابات التي شهدتها الأندلس والتي آلت إلى ما يعرف بالفتنة الثانية ابتداء من سنة 539هـ / 1145 م، ويبدو أنّ ابن بشكوال كان من هؤلاء العلماء الذين فضلوا الابتعاد عن الأحداث والاختلاط بالناس عموما.

ولئن شهدت قرطبة في منتصف الأربعينات من القرن السادس هدوءا واضحا ونشاطا علميّا كثيفا بفضل استقرارها تحت الموحّدين فإنّ ابن بشكوال لم يُدْعَ في عهد هؤلاء إلى الاضطلاع بأية وظيفة ولم يتّصل بهم وقد يكون ذلك راجعا الى موقفه منهم فهو لا ينسى أنّه فقيه وأن الموحّدين حاربوا الفقهاء وكانوا سبب ما تعرض له شيخه ابن العربي من مصاعب عندما توجّه إلى مرّاكش سنة 541هـ/ 147 1م ـ وقد تجاوز السبعين. على رأس وَفْد لتقديم بيعة إشبيليّة للموحّدين، فتعرّض إلى السجن وتدهور صحّته؛ ورغم الإفراج عنه فقد آل الأمر إلى وفاته بنواحي فاس في طريق العودة نحو الأندلس. فنحن نعتقد أنّ كلّ ذلك لم يكن ليجعل من ابن بشكوال أحد المتحمّسين للنظام الجديد، بل بعث في نفسه مشاعر العزوف عنه، وهي مشاعر أخذت تنمو فيما بعد أمام مبادرات الموحّدين وشعاراتهم التي زادت في محاربتهم للفقهاء. وحتّى للمذهب المالكي ـ وأرادت ترسيخ بعض معتقداتهم ـ وخاصّة منها تلك المتعلّقة بمهديّة إمامهم «ابن تومرت» وعصمته. فبقي ابن بشكوال بعيدا عنهم رغم أنّه عاش في ظلّهم ما يفوق الثلاثين سنة، وانكبّ أساسا على التدريس والتأليف.

لقد احتلّ ابن بشكوال مكانة هامّة جدّا في الفترة الموحّديّة في ميدان التّدريس ورواية العلم. هذه المكانة أثبتتها علميّا الدّراسات الحديثة [Urvoy p. 181]، بعد أن أكّدت عليها المصادر القديمة. فابن الأبّار لم يدّخر جهدا في إبراز هذا الجانب من نشاط ابن بشكوال، فذكر أنّ هذا الأخير: «اقتصر على إسماع العلم»، وأنّ «هذه الصّناعة كانت بضاعته، والرواة عنه ـ لعلوّ الإسناد وسعة المسموع ـ لا يحصون كثرة»، ليؤكّد أنّه كان «مُتّسع الرواية، شديد العناية بها، عارفا بوجوهها، حجّة فيما يرويه ويُسنده، مُقلّدا في

ما يُلقيه ويُسمعه، مُقدّما على أهل وقته في هذا الشأن، معروفا بذلك، حافظا حافلا...».

ويمكن تفسير مكانته هذه، بالإضافة إلى ما عرف به من «علوّ الإسناد وسعة المسموع»، بما اتسم به من صفات أخلاقيّة امتدحها كلّ من عرفه، وهذا ما يلخّصه ابن الأبّار بقوله: «حدّثنا عنه جماعة من شيوخنا الجلّة ووصفوه بصلاح الدّخلة، وسلامة الباطن، وصحّة التواضع، وصدق الصّبر للراحلين إليه، ولين الجانب وطول الاحتمال في الكبرة للإسماع».

لكلّ ذلك اشتهر ابن بشكوال في ميدان التّدريس والرّواية، ونقل بذلك عِلما كثيرا. فذكر ابن الأبّار أنّه: «أسند عن شيوخه نيّفا وأربعمائة كتاب بين كبير وصغير». وقد ارتادت مجالسه أعداد كبيرة من الطّلبة أصبح بعضهم من كبار العلماء والرّواة بدورهم، وقد ذكر أسماء بعضهم في ترجمته؛ منهم ابن خير الإشبيلي الذي، وإن توفّي قبله، فقد كان يصغره سنّا (ولد سنة 502هـ / 1108 م، وتوفّي سنة 575هـ / 1179 م)، وهو صاحب الرّوايات الواسعة الدّالة عليها «الفهرسة» التي وضعها. كما نكتشف أسماء طلبة آخرين من خلال مختلف التراجم، مثل عالمي الحديث الكبيرين في العصر الموحدي ونعني الأخوين ابني «حوط الله»: «أبا داود سليمان»، و«أبا عبد الله محمّد»؛ فقد ذكر ابن الزّبير في «صلة الصّلة» في ترجمة الأخير منهما [ج 3، رقم 221] أنّهما سمعا على ابن بشكوال وقرآ أكثر من ستّين تأليفا بين كبير وصغير منها الموطأ والخمسة إلاّ سنن أبي داود». كما نذكر من تلامذته «أبا الخطّاب بن دحية» (ت 633هـ / 1235 م) نزيل القاهرة، والذي عُيّن لمدّة على رأس دار الحديث الكامليّة.

ولئن لم تذكر المصادر على وجه الدقّة كلّ ما كان يُدرّس ابن بشكوال. فإنّ جملة من الملاحظات، ومنها ما ذكر هنا حول ابني حوط الله، تؤكّد أنّ تدريسه كان مركّزا على كتب الحديث بالأساس، إضافة إلى كتب الزّهد وكذلك مؤلّفاته الشّخصيّة.

■ آثاره

خلّف ابن بشكوال خمسين تأليفا [ابن فرحون، الدّيباج، 1316، 116] في أنواع مختلفة من «التصانيف المفيدة» [ابن خلكان، وفيّات الأعيان، 2/ 240]، أشارت المصادر إلى عناوين حوالي عشرين مصنّفا منها [البغدادي، هديّة العارفين، 1/ 349]. وقد حاولت بعض المصادر الحديثة إحصاء أكثر عدد ممكن من هذه المؤلّفات بطرق مختلفة، ونجح بعضها في وضع قائمة هامّة، كتلك التي وضعها إبراهيم الأبياري في مقدّمة إحدى نشرات كتاب «الصّلة» (القاهرة، 1989 م) أشهر كتاب لابن بشكوال على الإطلاق.

وتتضمّن هذه القائمة اثنين وعشرين تصنيفا نضيف إليها ثلاثة عناوين أخرى هي معجم شيوخ ابن بشكوال، ومعجم شيوخ الفقيه الحافظ أبي عمر بن عبد البرّ النّميري، وكتاب التنبيه لمن دخل الأندلس من التابعين.

1 ـ كتاب الصّلة: نشره لأول مرة المستشرق كوديرا Francesco Codera، مدريد 1883؛ ثمّ أشرف على نشره وتصحيحه السيّد عزّة العطّار الحسيني بعنوان: كتاب الصّلة في

تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم، ط. 1، 1370هـ/ 1955م؛ ط. 2، مكتبة الخانجي 1414هـ/ 1994م؛ وحققه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني ببيروت 1414هـ/ 1989م.

واصل ابن بشكوال في كتابه هذا عمل القاضي عبد الله بن محمّد بن الفرضي (ت 403هـ / 1012م) أحد مشاهير المحدّثين والمؤرّخين الأندلسيين الذي وضع كتابا في التراجم سمّاه: «تاريخ العلماء والرّواة للعلم بالأندلس»، وترجم ابن بشكوال في كتابه لرجال القرن الخامس وعدد من رجال القرن السّادس الهجريّين، مع إعادة بعض التراجم التي وضعها ابن الفرضي لأسباب مختلفة. ثمّ كما هو معروف واصل ابن الأبّار (ت 658هـ / 1260 م) الكتابين بكتاب سمّاه: «الذّيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة». فتكوّنت بذلك سلسلة متّصلة من التراجم هي ثمرة اجتهاد كبير للتعريف بعلماء الأندلس. خاصّة في مختلف الميادين الدّينيّة. وذلك منذ دخول هذه المنطقة حظيرة الإسلام، حتّى سقوط كبريات معاقلها في القرن السّابع الهجري. الثالث عشر ميلادي، وانحسار الرّقعة الإسلاميّة في حدود مملكة غرناطة. ومن المعروف أنّ «لسان الدّين بن الخطيب» (ت 776هـ/ 1375م) قد وضع كتابا في التعريف برجال هذه المملكة في الميادين العلميّة والسياسيّة، وهو كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة». وهذا الكتاب وإن لم يُعتبر تذييلا على الكتب التي ذكرناها إلاّ أنّه يقوم بنفس الدّور. وغير خاف فيما نعتقد ما لهذه المؤلّفات من أهمّيّة قصوى في تسليط أضواء كثيرة ومختلفة على الحياة العلميّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة، وغيرها في بلاد الأندلس في الفترة الإسلاميّة. وقد حاز «كتاب الصلة» شهرة واسعة ولقي استحسانا كبيرا حتّى أصبح يعرّف صاحبه به؛ 2 ـ كتاب المستغيثون بالله تعالى عند المهمّات والحاجات والمتضرّعون إليه سبحانه بالرّغبات والدعوات، مدريد، 1991م؛ 3 ـ كتاب القربة إلى الله بالصّلاة على نبيّه، مدريد، 1995م؛ 4 ـ معجم شيوخ ابن بشكوال، ذكره ابن الأبّار في ترجمته، وقال: «وله معجم في مشيخته مفيد قد كتبته». وابن بشكوال يتّبع في ذلك تقليدا كان منتشرا لدى علماء الأندلس، إذ اهتموا كثيرا بوضع معاجم يذكرون فيها شيوخهم وبعض أخبارهم ومرويّاتهم. فهذا ما فعله القاضي عياض مثلا في «الغنية»، أو «ابن عطيّة» المفسّر في «الفهرس». ويؤكّد «ابن خير» (ت 575هـ / 1179م). وجود هذا «المعجم إذ أشار إليه في «فهرسته» [ص 434]؛ 5 ـ معجم شيوخ الفقيه الحافظ أبي عمر بن عبد البر النميري، ذكره كذلك ابن خير (ص 432)، وقال إنّ ابن بشكوال جمعه ورتّبه على حروف المعجم. وابن عبد البرّ شخصيّة علميّة كان لها وزنها في العهد الطّائفي بالأندلس وعاش بين سنة 368هـ / 979م، وسنة 468هـ/ 1077م، وهي سنة وفاة الخطيب البغدادي، ويحلو للكثيرين تلقيب هذا الأخير بـ«حافظ المشرق»، وتلقيب ابن عبد البرّ بـ«حافظ المغرب» [الدّيباج، 358]؛ 6 ـ كتاب التّنبيه والتّعيين لمن دخل الأندلس من التّابعين، ذكره ابن الأبّار واعتمده في التّرجمة لأحد التّابعين، وهو «المغيرة بن أبي بردة» الذي دخل الأندلس في جيش «موسى بن نصير»

[التكملة، رقم 1787]؛ 7 ـ كتاب الغوامض والمبهمات، وقال إنّه في اثني عشر جزءاً؛ 8 ـ كتاب الفوائد المُنتخبة والحكايات المستغربة، في عشرين جزءاً؛ 9 ـ كتاب المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل، في واحد وعشرين جزءاً؛ 10 ـ غنية الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المبهمة؛ 11 ـ أخبار ابن عُيينة؛ 12 ـ أخبار ابن المبارك؛ 13 ـ أخبار ابن المطرّف؛ 14 ـ أخبار ابن وهب؛ 15 ـ أخبار إسماعيل القاضي؛ 16 ـ أخبار الأعمش؛ 17 ـ أخبار قضاة قرطبة؛ 18 ـ أخبار المحاسبي؛ 19 ـ تاريخ الأندلس؛ 20 ـ الحكايات المستغربة.

المصادر والمراجع

● ابن بشكوال، كتاب الصّلة، مجلّدان، نشر عزّت العطّار الحسيني، القاهرة 1955م؛ تح. ● ابن الأبّار، أبو عبد الله محمّد، ت 658هـ / 1260م، التكملة لكتاب الصّلة، مجلّدان نشر عزت العطّار الحسيني، القاهرة. بغداد 1956م؛ ● م.ن، المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي، نشر إبراهيم الأبياري، القاهرة ـ بيروت 1989م؛ ● ابن خلكان، أبو العبّاس أحمد، ت 681هـ / 1282م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تح. إحسان عبّاس، بيروت 1969م؛ ● ابن خير، أبو بكر الإشبيلي، فهرسة ما رواه عن شيوخه، طبعة جديدة (منقّحة عن الطبعة الأولى بتحقيق Francesco Codera، سرقسطة، 1893م)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت 1979م؛ ● ابن الزّبير، أبو جعفر أحمد، ت708هـ/ 1308م، صلة الصلة، تح. عبد السلام هارون 1989؛ ● السّلفي، أبو طاهر أحمد، ت 576هـ/ 1180م، معجم السّفر [أنظر أخبار وتراجم أندلسيّة مستخرجة من معجم السّفر، تح. إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت 1963م]؛ ● ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمّد المرّاكشي، ت 703هـ/ 1303م، السّفر السّادس، تح. إحسان عبّاس، بيروت 1973م، دار الثقافة؛ ● ابن عبد المنعم، أبو عبد الله محمّد الحميري، كان حيّا سنة 866هـ/ 1453م، الرّوض المعطار في خبر الأقطار [انظر صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الرّوض المعطار]، ط2، نشر وتصحيح Proven E. Levi، دار الجيل، بيروت 1988م؛ ● ابن عذاري، أبو العبّاس أحمد المرّاكشي، كان حيّا سنة 720هـ/ 1320م، البيان المغرّب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 4، تح. إحسان عبّاس، بيروت 1980م، دار الثّقافة؛ ● ابن عطيّة، أبو محمّد عبد الحقّ الغرناطي، ت 541هـ / 1148م، فهرس ابن عطيّة، تح. محمّد أبو الأجفان ومحمّد الزّاهي، بيروت 1980 م، دار الغرب الإسلامي؛ ● ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاّح عبد الحي، ت 1089هـ / 1680م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط. ثانية منقّحة، بيروت 1979م، دار المسيرة؛ ● ابن حمادي، عمر، كتب الطّبقات ومشاكل استغلالها في أبحاث الدّيموغرافيا التاريخيّة، انظر:

الدّيموغرافيا التّاريخيّة في تونس والعالم العربي (تأليف جماعي)، ص5 ـ 25، تونس 1993م، دار سراس للنشر، المعهد الأعلى للتّربية والتكوين المستمرّ؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 2/ 311؛ ● عنان، عبد الله، دُول الطّوائف منذ قيامها حتّى الفتح المرابطي، مطبعة لجنة التّأليف والترجمة والنّشر، القاهرة، 1960م؛ ● م.ن، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس، القاهرة 1964؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة، طهران 1416/ 1995، 2/ 479؛

- Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, T.III, Ibn Baskual, p.756 (Mr. Ben Cheneb).
- Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, T. III, Idjaza, p.1046-1047 (G.Vajda).
- Urvoy (Dominique), Le monde des ulémas andalous du Vème/XIème au VIIème / XIIIème siècle, Etude Sociologique, Genève, 1978.

د.عمر حمادي
جامعة تونس
د.منير رويس
جامعة الزيتونة ـ تونس

البشيتي، جمال الدين عبد الله بن أحمد

(762هـ/1361م ـ 820هـ/1417م)

هو عبد الله بن أحمد بن عبد العزيز البشيتي، نسبة إلى (بشيت) قرية بأرض فلسطين. فقيه شافعي، لغوي، أخباري. تختلف الروايات في نسبته ولقبه، بين البشبيشي والبشيشي (دون باء ثانية) كمال الدين، والبشيتي (بتاء ودون شين ثانية) جمال الدين. وقد رجحنا ما أثبتناه للمدخل، وهي من ترجمة ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب، لأنه ضبط النسبة بالحروف والحركات، وقال إنها نسبة إلى (بشيت) قرية في فلسطين، وحدد سنة الولادة بالسنة والشهر.

كما تختلف في بلده، ففي حين يذكر عمر كحالة صاحب «معجم المؤلفين» أنه بغدادي قاهري، يذكر صاحب «شذرات الذهب» أنه فلسطيني المولد. ولكنها تتفق على أنه عاش في مصر وتوفي في الإسكندرية.

تفقه بسراج الدين بن الملق، وأخذ العربية عن الشمس الغماري.

آثاره

1 ـ كتاب التذييل والتكميل لما استعمل من اللفظ الدخيل. ويوجد في مخطوط لاندبرج، [وينظر: Vollers ZDMG 50/609]؛

2 ـ أخبار قضاة مصر؛ 3 ـ شواهد العربية.

المصادر والمراجع

● السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت (د. ت). 5/ 7؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ط 1، 1406/ 1986، 9/ 214؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع وكالة المعارف باستنبول، دار العلوم الحديثة، بيروت ج 1، ص 468؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، تصحيح رفعة بيلكة الكليسي، دار العلوم الحديثة، بيروت، (د. ت)، 1/ 45؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر (د. ت)، 6/ 91؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1414/ 1993، 2/ 224؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 68.

د. ممدوح محمد خسارة
جامعة دمشق

ابن بشير، أبو طاهر إبراهيم بن عبد الصمد

(ت 536هـ/ 1144م)

إبراهيم بن عبد الصمد بن بشير، التنوخي، أبو طاهر، من أبرز أعلام الفقه المالكي في القرن السادس الهجري، وعالم أصولي متمكّن. كان مقيما بالمهدية من مدن تونس، وبها كان يدرس ويفتي، وكان لاستبحاره في الفقه وأصوله قد بلغ درجة الاجتهاد خاصة في استنباط الفروع من القواعد الفقهية.

لا تذكر المصادر تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، ويبدو أنّه ولد في نهاية القرن الخامس الهجري أو بداية القرن السادس، حيث إنه فرغ من تأليف كتابه «المختصر» سنة 526هـ/ 1131م كما ذكر ذلك في نهاية الكتاب. وقد رجح أحد المحققين بقاءه على قيد الحياة إلى ما بعد سنة 536هـ/ 1144م بناء على عدة قرائن [التنبيه، 1/ 94]. مات شهيدا، قتله قطاع الطرق وهو في طريقه إلى الحج في العقبة ودفن هناك.

أخذ الفقه والأصول عن عدد من أعلام عصره، وعلى رأسهم محمد بن عتّاب، وأبي

الوليد بن رشد كما نصّ على ذلك كتاب تراجم مالكية لمؤلف مجهول، وأبي عبد الله المازري حسبما أثبته محقق كتاب «التنبيه».

لا نعرف شيئًا عن تلاميذه اللهم إلا ما ذكره محققا «كتاب العمر» من أنّ أبا الحسن التيقوسي كان من المعدودين في أصحابه. ويرجح أن موقف الموحدين السلبي من المذهب المالكي وأعلامه من أسباب التعتيم على سيرة ابن بشير وأخباره.

آثاره

كان ابن بشير غزير التأليف، ولكنّ معظم مؤلفاته ضاعت، ولم يبق منها إلاّ القليل، ومن مصنفاته:

1 ـ كتاب التنبيه على مبادىء التوجيه، اعتبره هو نفسه كتابا للفقه المقارن وبمثابة مدخل لكتابة الموسع الأنوار البديعة في أسرار الشريعة، توجد منه عدّة نسخ مخطوطة بالمغرب منها نسخة بالقرويين تحت عدد 1875، وأخرى تحت عدد 819، وثالثة غير مرقّمة. ونسخة بالخزانة العامّة بالرباط تحت عدد 397، ونسخة بالجامع الأعظم بتازة رقمها 217، وقد حقّق الدكتور محمد بلحسان مؤخرا جزءين منه من بداية الكتاب إلى نهاية باب الزكاة، وهو مرقون بكلّية الآداب بالرباط؛ 2 ـ الأنوار البديعة في أسرار الشريعة، نسبه لنفسه في أوّل كتاب التنبيه؛ 3 ـ التهذيب على التهذيب يوجد مخطوطا بخزانة القرويين تحت عدد 380؛ 4 ـ التحرير ويسمّى أيضا المختصر، وتوجد نسخة مخطوطة بالخزانة العاشورية تحت عدد (ق.أ) 190، وأخرى بدار الكتب المصرية تحت عدد 2/ 37 مجاميع، أنهى تأليفه سنة 526هـ/ 1131م كما ذكر ذلك في نهاية الكتاب، ويشتغل الأستاذ محمد أبو الأجفان حاليا بتحقيقه؛ 5 ـ كتاب الجامع، توجد ورقات منه بخزانة تمكروت بجنوب المغرب تحت عدد 2470؛ 6 ـ شرح الجلاب نقل عنه الونشريسي في عدّة البروق، ص232، 644؛ 7 ـ النظائر، نسبه إليه القرافي في الذخيرة؛ 8 ـ شرح اللمع الشيرازية في أصول الفقه نسبه إليه الونشريسي، [المعيار، 12/ 40]؛ 9 ـ النوازل، نسبه إليه الحطاب، [مواهب الجليل، 3/ 283]؛ 10 ـ الأجوبة، نسبه إليه الحطاب كذلك [مواهب الجليل، 2/ 345].

المصادر والمراجع

● الديباج المذهّب، ج2، ص265 ـ 266؛ ● صلة السمط، ج4، ص133؛ ● شجرة النور الزكية، ج1، ص126؛ ● فهرس خزانة جامع القرويين، ج1، ص373، ج2، ص420 ـ 421، ج3، ص224 ـ 225؛ ● كتاب العمر، ج1، ص693؛ ● معجم المؤلفين، ج1، ص143؛ ● القرافي، الفروق، 341؛ ● التنبيه على مبادىء التوجيه، تح. محمد بلحسان، مرقون بكلية الآداب بالرباط؛ ● الونشريسي، المعيار المعرّب، 12/ 40.

د. عبد السلام بلاّجي

جامعة محمد الخامس ـ الرباط

البشير، أبو عبد الله النعمان الأنصاري

(2هـ/623م - 65هـ/684م)

اسمه النعمان بن بشير بن سعد بن حصين بن ثعلبة الخزرجي الأنصاري، يكنى أبا عبد الله. أمير خطيب، شاعرٌ من أجلاء الصحابة.

قال ابن حزم: والنعمان بن بشير أول مولود وُلد بالمدينة بعد قدوم رسول الله ﷺ إياها، وكان ذلك في ربيع الآخر، على رأس أربعة عشر شهراً. أمّه عَمْرَةُ بنت رَوَاحة، أخت عبد الله بن رواحة. قال فيها قيس بن الخطيم: [من المتقارب]

أجَدَّ بعَمْرَةَ غُنْيانُها
فتهجُرَ أمْ شانُنا شانُها

وعَمْرَةُ مِنْ سَرَوَاتِ النسا
ءِ تَنْفَحُ بالمِسْكِ أرْدانُها

تنسب إليه «معرة النعمان» بلد أبي العلاء المعري. كانت تعرف بالمعرّة، مرّ بها النعمان ابن بشير، فمات له ولد فدفنه فيها؛ فنسبت إليه.

قال الأصفهاني: «وله - أي للنعمان - صحبة بالنبي ﷺ، ولأبيه بشير بن سعد ...». روى عن النبي ﷺ وعن خالد بن عبد الله بن رواحة وعمر وعائشة. وروى عنه ابنه محمد ومولاه سالم وعروة والشعبي والسبيعي وأبو قلابة. يقال إن النعمان جاء إلى النبي ﷺ ومعه رجل آخر؛ ليشهدا معه غزوة له - فيما قيل - فاستصغرهما وردّهما.

أبو النعمان بشير بن سعد أول مَنْ قام يوم السقيفة من الأنصار إلى أبي بكر رضي الله عنه فبايعه، ثم توالت الأنصار فبايعته. شهد بشير بيعة العقبة وبدراً وأحداً والخندق... قيل: واستُشهد يوم عين التمر مع خالد بن الوليد (ت 21هـ/ 643م).

النعمان من أهل المدينة، أنصاري يفتخر بنسبه المذكور. قال معتزاً بانتمائه إلى الأنصار، في وفد قومه إلى معاوية بن أبي سفيان، مخاطباً سَعْداً أبا دُرَة: [من الكامل]

يا سَعْدُ لا تُعِدِ الدعاء فما لنا
نَسَبٌ نجيبُ به سوى الأنصارِ

نَسَبٌ تخيّرهُ الإلهُ لقومنا
أثْقِل بهِ نسباً على الكفّارِ

إنّ الذينَ ثَوَوْا ببدرٍ منكمُ
يومَ القليبِ هُمُ وقودُ النّارِ

للنعمان أخت اسمها أميمة بنت بشير بن سعد، وله من الوِلْد محمد وشبيب وأبان وبشير وإبراهيم ويزيد وعبد الله (وكان شاعراً)، وحميدة التي تزوّجها رَوْح بن زِنْباع، ثم تزوّجت بالفيض بن أبي عقيل الثقفي. وحميدة - المذكورة - شاعرة مجيدة مكثرة. كانت تهجو زوجيها جميعاً هجاءً كثيراً. قالت في الأول رَوْح بن زِنباع: [من الطويل]

بكى الخزُّ من رَوْح وأنكر جِلْدَهُ
وعجَّتْ عجيجاً مِنْ جُذَامَ المطارفُ

وقالت تخاطب أخاها الذي زوّجها من رَوْح ابن زنباع، لائمةً إياه على فِعله: [من الوافر]

أَضَلَّ اللهُ حِلْمكَ مِنْ غُلامِ
متى كانت مناكِحُنا جُذَامِ

أَتَرْضَى بالأكارِعِ والذُّنابى
وقَدْ كُنَّا يُقِرُّ لنا السَّنَامُ

ولها في زوجها الثاني الفيض أهاجي، تلعب فيها باسمه؛ فيأتي الهجاء أشدّ ألماً وأبعد أثراً، على شاكلة قولها: [من البسيط]

سُمِّيتَ فيضاً وما شيءٌ تفيضُ بهِ
إلاّ سُلاحُكَ بين البابِ والدَّارِ

وللنعمان عقبٌ كثير، من ولده عبد الخالق بن أبان بن النعمان، وهو شاعر. وشبيب بن يزيد ابن النعمان، شاعر أيضاً. وبالأندلس من ولده قوم بقرية شُوش الأنصار من أعمال إشبيليّة، وهم بنو عبد السلام بن سريَ...

وجّهته نائلة (زوجة عثمان) بقميص عثمان إلى معاوية في الشام؛ فنزل بها، ثم بالعراق. وصار ولده بعد ذلك إلى المدينة وبغداد. شهد «صفين» مع معاوية .

عُرِف النعمان بجودته في الشعر والنثر. قال فيه صاحب الأغاني: والنعمان بن بشير من المُعْرَقين سلفاً وخلفاً. جدّه شاعر، وأبوه وعمه شاعران، وهو شاعر، وأولاده وأولاد أولاده شعراء. جدّه سعد بن الحصين، كان يقول: [من البسيط]

إنْ كنتِ سائلةً والحقُّ مُعْتَبةٌ
فالأزْدُ نِسْبَتُنا والماءُ غسَّانُ

شُمُّ الأنُوفِ لهُمْ عزٌّ ومكرمةٌ
كانتْ لهُمْ مِنْ جِبالِ الطَّوْدِ أَرْكانُ

من بواكير شعره، أبيات قالها، وهو حديث السّن في امرأة من بني القين، يقال لها «ليلى»، أهدت له ولقومه هدية: [من الخفيف]

يا خليليَّ ودِّعا دارَ ليلى
ليس مِثْلي يَحُلُّ دارَ الهَوَانِ

إنَّ قينيَّةً تَحُلُّ محلاً
فَحَفيراً فجنتيْ تَرْفُلانِ

لا تُؤاتيكَ في المغيبِ إذا ما
حالَ من دونها فُرُوعُ قَنانِ

إنَّ لَيْلى ولوْ كَلِفتُ بليلى
عَاقَها عنكَ عَائِقٌ غيرُ واني

ولسِماك بن حرب شهادة في مكانته النثرية. قال فيه: كان من أخطب ما سمعت. روي من خطبة له في الكوفة، يوم قامَ أهلها فصاحوا طالبين زيادة عشرة دنانير في أعطياتهم، أمرها معاوية لهم، جاء فيها: ... اسكتوا، فلما أكثروا، قال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ مثلُ الضبع والضب والثعلب، فإن الضبع والثعلب أتيا الضب في وجاره، فناداه: أبا الحِسْل، فقال: سميعاً دعوتما، قالا: أتيناك لتحكم بيننا، قال: في بيته يُؤتى الحَكَم. قالت الضبع: إني حللتُ عيبتي، قال: فِعل الحُرّة فعلتِ. قالت: فلقطتُ ثمرةً، قال طيّباً لقطتِ، قالت: فأكلها الثعلب، قال: لنفسه نظر، قالت: فلطمتُهُ، قال: بِجُرْمِهِ، قالت: فلطمني، قال: حر انتصر، قالت: فاقض بيننا، قال: حدِّث امرأة حديثين، فإن أبتْ فعشرة...

وَلِيَ النعمان القضاء بدمشق بعد فضالة بن

عبيد، سنة 53هـ، وولي اليمن لمعاوية، وكان أحد عماله، ثم استعمله يزيد على الكوفة تسعة أشهر، وعزله وولاّه حمص. يقال إن ليلى القينيّة قدمت عليه، وهو أمير على حمص، فلما رآها عرفها؛ فأنشا يقول: [من الطويل]

ألا استأذنتْ ليلى فقلنا لها لجي
وما لكِ أنْ لا تدخلي بسلامِ

فإنّ أناساً زُرتِهِمْ ثم حَرّموا
عليكِ دخولَ البيتِ غيرُ كِرامِ

فأحسن إليها ورفدها طول مقامها إلى أنْ رحلت.

استمر النعمان في ولاية حمص إلى أن مات يزيد بن معاوية. فلما بويع لمروان دعا النعمان إلى ابن الزبير، وخالف على مروان بن الحكم، وتمرّد أهل حمص؛ فخرج هارباً، فاتبعه خالد بن خليّ الكلاعي وقتله.

كان النعمان صاحب حيلة، ووُسِم بحسن التصرف. روي أن أعشى هَمْدان (ت 83هـ/702م) جاءه وهو عامل حمص، فشكا إليه حاله، فكلّم له النعمان اليمانية، وقال لهم: هذا شاعر اليمن ولسانهم واستماحهم له؛ فقالوا: نعم، يعطيه كل رجل منّا دينارين من عطائه، قال: لا، بل أعطوه ديناراً، واجعلوا ذلك مُعَجّلاً؛ فقالوا له: أعطِهِ إياه من بيت المال، واحتسب ذلك على كل رجل من عطائه. ففعل النعمان، وكانوا عشرين ألفاً، فأعطاه عشرين ألف دينار، وارتجعها منهم عند العطاء، فقال الأعشى يمدح النعمان: [من الطويل]

ولمْ أرَ للحاجاتِ عندَ التماسها
كنُعمانَ نُعمانِ النّدى ابنِ بشيرِ

إذا قال أوفى ما يقول ولم يكنْ
كمُدْلٍ إلى الأقوامِ حَبْلَ غُرورِ

متى أكفرِ النُّعمانَ لا أُلْفَ شاكراً
وما خيرُ مَنْ لا يُقْتَدى بشكورِ

فلَوْلاَ أخو الأنصارِ كنتُ كنازلٍ
ثَوَى ما ثَوَى لم يَنْقلبْ بنقيرِ

يُحكى أن النعمان بن بشير دخل على معاوية، حين هجا الأخطلُ الأنصار، فلما مثل بين يديه، أنشأ يقول: [من الطويل]

معاويَ إلاّ تعطنا الحقَّ تَعْتَرف
لِحَي الأزْد مشدوداً عليها العمائمُ

أيَشْتُمُنا عبدُ الأراقِمِ ضلّةً
وما ذا الذي تُجْدي عليك الأراقمُ

فما لي ثأرٌ دونَ قطعِ لسانِهِ
فدونَك مَنْ تُرضيهِ عنك الدراهمُ

وإنّي لأغضي عن أمورٍ كثيرةٍ
ستُرْقَى بها يوماً إليكَ السّلالِمُ

فما أنتَ والأمرُ الذي لستَ أهلَهُ
ولكنْ وليُّ الحقِّ والأمرِ هاشمُ

إليهم يصيرُ الأمرُ بعدَ شَتاتِهِ
فَمَنْ لكَ بالأمرِ الذي هو لازمُ

بهم شرعَ اللهُ الهدى فاهتدي بهِ
ومنهم له هادٍ وإمامٌ وحاكمُ

فلما بلغت القصيدة إلى معاوية، أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه، فاستجار بيزيد بن معاوية، فمنع منه، وأرضوا النعمان حتى رضي وكفّ عنه.

توفي في ولاية مروان. قال ابن حزم: افتتح

مروان بن الحكم دولته بقتله، وسيق إليه رأسه من حمص. وقيل: قتل يوم «مرج راهط»، فلما قُتل وضع رأسه في حِجْر زوجته الكلبية، التي كان تزوجها من قبلُ معاوية، ومن ثَمَّ حبيب بن مسلمة، قالت: ألقوا رأسه في حجري فأنا أحقَ به، فألقوْهُ في حجرها، فضمّته إلى جسده، وكفّنته ودفنته.

عُرف شعره بالجودة والأصالة، مما يُسْتجاد له، قصيدة منها: [من المتقارب]

أهــيَّــجَ دمــعَــكَ رَسْــمُ الــطَّــلَــلْ
غــفَــا غــيــرَ مُــطَّــرِدٍ كــالــخَــلَــلْ
تَــعَــمْ فــاسْــتَــهَــلَّ لَــعِــرْفَــاتِــهِ
يَــسُــحُّ ويَــهْــمِــي بِــفَــيْــضٍ سَــبَــلْ
بِيَــارُ الألُــوفِ واتــرابِــهــا
وإذْ أنــتَ بــالــحُــبِّ كــالــمُــخْــتَــبَــلْ
لــيــالــي تَــسْــبِــي قُــلُــوبَ الــرِّجــا
لِ تَــحْــتَ الــخُــدُور بِــحُــسْــنِ الــغَــزَلْ
كــأنَّ الــرُّضَــابَ وصــوبَ الــسَّــحَــا
بِ بــاتَ يُــشَــابُ بِــذَوْبِ الــعَــسَــلْ
مِــنَ الــلَّــيْــلِ خَــالَــطَ أنــيــابَــهــا
بُــعَــيْــدَ الــكــرى واخــتــلافَ الــعِــلَــلْ

قيل: أخذ هذا المعنى جميل بثينة [الديوان، تح. د. حسين نصار، ص107-108]، فقال: [من الكامل]

وكــأنَّ طــارقَــهــا عــلــى عِــلَــلِ الــكــرى
والــنَّــجْــمُ وَهْــنــا قَــدْ دنــا لــتــغــوُّرِ
يَــسْــتَــمُّ ريــحَ مُــدَامــةٍ مــعــلــولــةٍ
بِــسَــحِــيــقِ مِــسْــكٍ فــي ذكــيِّ الــعَــنْــبــرِ

المصادر والمراجع

● البلاذري؛ فتوح البلدان، حقّقه وشرحه وعلق على حواشيه: عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، منشورات مؤسسة المعارف، بيروت، 1407هـ-1987م، ص 179، وص341؛ ● ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ج3، ص 529-530؛ ● ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ ـ 2001م، ص 364 ـ 365؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986م، مج8، ص36؛ ● أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، تح. عبد الستار أحمد فرّاج، دار الثقافة، بيروت، د.ت، مج16/ 3-23؛ ● الفيروزأبادي، القاموس المحيط، دار الفكر، بيروت، 1398هـ-1978م، مج4، ص 182؛ ● محمد بن حبيب، كتاب المحبر، اعتنى بتصحيح هذا الكتاب د. إيلزة ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص 276 وص294 وص 421؛ ● ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1404هـ/ 1984م، مج5/ 156.

د. محمد كشّاش
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البصادي، الطالب مختار بن أحمد جويدة

(ت 1240هـ/1824م)

هو الطالب مختار بن أحمد جويدة البصادي شيخ قبيلته في عصره. كان عالما ضليعا وقاضيا عدلا، اجتمعت له خطّتا القضاء، ورئاسة جماعة الحلّ والعقد في البصاديين، ولا سيّما بعد ارتحالهم شرقا من منطقة الكبلة، وإن بقيت منهم بطون مستقلّة في تلك المنطقة.

كانت له صلات بالشّيخ سيد المختار الكنتي، والطالب مصطفى الغلاوي، والمرابط سيدي محمود الحاجي. له مراسلات ونوازل فقهيّة وأنظام تدلّ على تضلّعه في علوم المعقول والمنقول [مخطوطات مكتبة خطري بن الشّيخ المجتبى بمدينة الصفا بالحوض الغربي]. كما ذاع صيته في المشرق العربي. وكان لوفاته أصداء بلغت بلاد مصر حسب ما ذكره ابن اطوير الجنّة [التّاريخ، حوادث 1240هـ]، من أنّ حسن الأبطحي عالم الأزهر لم يصدّق وفاة البصادي، لعظم شأنه عنده، إلاّ بعد أن جاءت بها الأركاب الحجيّة، وشهد عليها عدول العلماء الحجّاج مثل: يحظيه وغيره.

وقد أورد ابن اطوير الجنّة تاريخ وفاة الطالب مختار مضيفا قوله: «وتاريخنا هذا صحيح» ردّا على من زعم خلاف ذلك، حسب ما جاء في «تاريخ الذهور» لابن امبوجة التيشيتي في التّعليق على حوادث نفس العام.

رثاه ابن عمّه غالي البصادي بقصيدة تعتبر مرثيّة الصّحراء، مطلعها:

أودت ولا تــرة حــوادث الــزّمــن
بذي رعين وكسرى وابن ذي يزن

دفن الطالب مختار في تاسكاست بمدفن العلب الأبيض، وهي مزارة عظيمة في الرقيبة من بلاد العصابة.

المصادر والمراجع

● ابن الهادي، موريتانيا عبر العصور، ص 130؛ ● ابن حامد، إدوبسات، م.س.

د. حماه الله ولد السالم
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

البُصاديّ، غالي بن المختار فال

(ت 1240هـ/1824م)

هو غالي بن المختار فال بن أحمد تَلْمود ابن الحبيب البصاديّ، «العالم المؤلف الجليل»، اشتهر بالبراعة في الفقه والأصول وعلوم العربية، وكان شاعرًا مُفلقًا حسن النسج رائق اللفظ، موصوفًا بالأدب والفضل، مَضيّ الدين والمروءة، محمود السجايا.

كان جدّه الطالب أحمد تلمود من أعيان العلماء المدرِّسين بهذا القطر، وكان هو من أعيان علماء مدينة شنقيط، أقرّ له علماء وقته حتى قال فيه أديب علمائهم حرمة الله بن عبد الجليل العلويّ (ت 1243هـ/ 1827م).

لله دَرُّكَ ما أغلاك من غالي
يا ذا البُصادي وما أعلاك من عال

نشأ غالي في حِضْن أمّ بَرّةٍ مبالغة في رعايته وتدليله، ولها في ذلك حكايات تُروى، ولكنه لما بلغ سن التعليم أظهر من النجابة والاجتهاد في التحصيل ما نال به التفوّق على كثير من أقرانه. وتلقى علومه عن أكابر علماء عصره، مثل المختار بن بونا (ت 1220هـ/ 1805م)، وكان من آثر طلابه لديه وأوثقهم وأنهضهم بما يستعينه الشيخ فيه من شؤون. كما أخذ عن سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم العلويّ (ت 1233هـ/ 1817م)، ومحمد بن الطلْبه اليعقوبي (ت 1274هـ/ 1857م).

وله أشعار نعتها مترجموه بالكثرة وأشادوا بجودتها، وأورد منها ابن حامد نماذج في النسيب، والمديح، وصعوبة الشعر على غير رجاله، والشكوى من ناقصي الأهلية من القضاة الحاكمين بالهوى والرشى، فمن سائر شعره قوله:

أبى الشعرُ إلا أن يكونَ ارتجالَه
عزيزًا إذا لم ترتجله رجالُه

فكم جالَ في ميدانه متشاعرٌ
يرى أنه سهلُ السبيل مجالُه

فحادت به الألحان عن صَوْب قَصْده
وألْقته في الجَفْر المُجَوَّخ جالُه

وقوله في قضاة الجَوْر المرتشين:

إلى رافع الشكوى رفعنا يَد الشكوى
مِنَ اقضيةٍ بالجَور عمَّت بها البلْوى

قضاء قضاةٍ جامحاتٍ نفوسُهمْ
عن الحق لا يَقضون إلا بما تَهوَى

تصدّر للإفتاء والحكم منهمُ
مجانينُ لا يدرون ما الحكم والفَتوَى

إذا لاح وجُه الحكم بالحقّ أعرَضوا
جُنوحًا لراشيهمْ وإن ناقضتْ دَعوَى

فعُونوا بوجه الله مما أصابهمْ
ووَيْلٌ له إن الجحيم هي المأوَى

ألا فارْتشوا ما شئتمُ إنّ حسْبكمْ
جهنّم إذ تَلْوُنها لكمُ مَثوَى

ففيها رَخّي يوم القضاء مُعدّةٌ
لتشْديخ هام الحاكمين بلا تَقْوى

■ آثاره

رغم تنويه من ترجموا لصاحبنا بعلمه وتنوع معارفه، فإن ذلك لا يجد ما يعكسه في كثرة ما ترك من آثار؛ فالمعروف من تصانيفه عدد قليل لا يعدو بضعة عناوين، فلعل الشعر والتدريس كانا أغلب عليه فاستأثرا بجلّ اهتمامه. وهذه العناوين في مجملها أنظام أدارها المؤلف حول سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات رضوان الله عليهن، وهي:

1 ـ وسيلة الجليل إلى بعوث صاحب الإكليل، وهو نظم في سرايا النبيّ ﷺ وبعوثه، ذيّل به غزوات البدويّ كما صرح به واصفًا نظمه هذا:

تنظمًا على صفْوِ البعوث مُحتوي
مذيّلا مَغازي البدوي

وقد حقق تحقيقًا أوليًا في رسالة تخرج بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية. طباعة جدة د. ت.؛ 2 ـ تحفة الجليل، وهو شرح وضعه على النظم السابق؛ 3 ـ شرح للامية الأفعال (مخطوط)؛ 4 ـ سيرة أمهات المؤمنين؛ 5 ـ كتاب في علم القراءات؛ 6 ـ العمدة والنخر في أسماء من له الفخر، وهو نظم في أسماء النبيّ ﷺ؛ 7 ـ وسيلة الرواج في ذكر الأزواج، وهو نظم موضوعه التعريف بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن، حقق تحقيقًا أوليًا في رسالة تخرج بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية؛ 8 ـ كتاب في الصرف.

■ المصادر والمراجع

● الشنقيطي، أحمد الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، الخانجي بمصر، ط2، 1958، ص 372 ـ 374؛ ● النحوي، الخليل، بلاد شنقيط، المنارة والرباط، تونس 1987، ص 522؛ ● ابن حامد، المختار، حياة موريتانيا، مرقون بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، جزء البُصاديين، ص. 94، 103؛ ● فال، غالي بن المختار، تحقيق نظم السرايا والبعوث، تح. رقية بنت أعلِ سالم، رسالة تخرج مرقونة بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، السنة الجامعية، 89هـ/ 1990؛ ● ابن ميلود، محمد يحيى، رسالة تخرج مرقونة بالمعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، السنة الجامعية، 89هـ/ 1990م.

د. محمد محمود بن صَدْفه
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

ابن بصّال، محمد بن إبراهيم

(عاش في القرن 5هـ/11م)

هو محمّد بن إبراهيم بن بصّال (ابن بصُو: Ibn Baso في المؤلفات الغربية).
نباتي عالم بالزراعة... ورد اسمه في صيغ مختلفة؛ ابن بصال، ابن البصّال، ابن فُضال، ابن بطّال، ابن فصّال... إلخ. وليس غريبا أن يكون هذا التّحريف الذي لحق اسمه قد جعله مغمورًا، فلم يذكره بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي» كما لم يذكره سارتون في كتابه «تاريخ العلم». وقد يتبادر إلى الذهن أن اسمه «ابن بصّال» مشتقّ من كلمة «البصل» العربية. ولكنّ الأرجح أنّ هذا الاسم المنتشر بكثرة في الأندلس هو تصغير للكلمة الإسبانية باثو Bazo أو Baso (Brun بالفرنسية) ومعناها الأسمر. وهي كلمة مرادفة لكلمة موريل Maurel تصغير لكلمة مُور Maure، أي العربي.

عاش ابن بصّال في صميم القرن 5هـ/ 11م، ولم نتمكّن ـ بالاعتماد على ما لدينا من مصادر ـ من تحديد سنة ولادته ولا سنة وفاته. لكنّ المتأكّد أنّه عاش في طليطلة وعمل في بلاط المأمون بن ذي النّون (435هـ/ 1043م ـ 468هـ/ 1075م) وألف له كتابه «ديوان الفلاحة»، وقام بفريضة الحج فزار، وهو في طريقه إلى الأماكن المقدّسة ذهابا وإيّابا صقليّة، ومصر (الاسكندرية)، وخراسان. ورجع من رحلته بفوائد جمّة في علمي النّبات والزّراعة. وجلب معه بعض البذور وكيفيّة زراعتها كالقطن والحنّاء.

إثر سقوط طليطلة بيد ألفونسو السادس سنة 478هـ / 1085م انتقل ابن بصّال إلى إشبيلية وخدم صاحبها المعتمد بن عباد. وأنشأ له حدائق ملكيّة على غرار حدائق طليطلة التي أنشأها صديقه ابن وافد للمأمون بن ذي النون.

وفي إشبيلية التقى ابن بصّال أشهر علماء الفلاحة بالأندلس كعلي بن اللّونكو (ت بقرطبة 8 ـ 499هـ/ 1105م) تلميذ ابن وافد. وكان مثل أستاذه مختصا في الطبّ، مهتمّا بالنّبات والزّراعة. كما التقى بابن حجّاج الإشبيلي صاحب كتاب «المقنع» في الفلاحة الذي ألفه سنة 466هـ/ 1073م وتهجّم فيه على طرق أهل البراري غير العلميّة في الفلاحة ومعالجة الأرض.

عاش ابن بصّال في قرن شهد فيه علم الفلاحة تطوّرا كبيرًا سيكون له تأثير في مختلف العصور، بالأندلس وخارجها. وأصبحت الأندلس في هذا القرن مع علماء أمثال ابن بصّال حقلا تُجرى فيه التجارب على البذور الآتية من الشرق، وتُقارن فيه الأصناف المختلفة من النّبات الواحد وتدرس خصائصها الزّراعية والطبيّة.

وكان من نتائج هذا النّشاط الفلاحي نظريّا وتطبيقيا ظهور عدّة مؤلّفات في هذا الميدان. وأغلبها تُشير، في أماكن متعدّدة منها، إلى ابن بصّال وكتابه «ديوان الفلاحة»،

وتعترف له بالمكانة المرموقة التي يحتلّها في علم الفلاحة.

من ذلك أن ابن بصّال ذكره تلميذ له (لم يصلنا اسمه) عدة مرات في كتابه «عمدة الطبيب في معرفة النّبات لكلّ لبيب»، وهو عبارة عن معجم نباتي اعتنى به المستشرق الإسباني أسين بلاثيوس، من ذلك قوله عنه:

آ ـ وقد ذكر لي ابن بصّال أنّه رأى السّوسن الأزرق في صقليّة والاسكندريّة.

ب ـ وأنا قد رأيت هذا النوع من إسبرج الحدائق ممّا زرعه ابن بصّال في بستان السّلطان (المعتمد بن عبّاد).

ج ـ وكلّ هذه الأنواع من الياسمين تنبت في بلنسيّة والإسكندرية وخراسان. وقد ذكر ذلك غير واحد، ومن بينهم ابن بصّال.

وأشار إليه معاصره أبو عبد الله محمد بن مالك المعروف بالطّغنري (كان حيًّا في 480هـ/ 1087 م) في كتابه «زهر البستان ونزهة الأذهان» فذكر تجاربه في زراعة الرّمان. كما نقل عنه إمكانية زراعة شجر التّين في أيّ وقت من السّنة، وأن اللّوز إنّما يزرع من البذور.

وكذلك أشار ابن حجّاج (عاش في القرن 5هـ/ 11م) إلى ابن بصّال في كتابه «المقنع».

كما ذكر عدّة مرّات في كتاب «الفلاحة» لابن العوّام (كان حيّا في 571هـ/ 1175م)، وفيه تنويه بتجارب ابن بصّال في المقدّمة. وهناك عدّة نقول عنه في صلب الكتاب. ويبدو أنّ هذه النّقول أخذها ابن العوّام من أصل كتاب ابن بصّال. لأنّ ما نقله لا نجده في المختصر الذي وصلنا.

وذكر ابن لُيُون (ت 750هـ/ 1349م) في أرجوزته في الفلاحة أنّه استفاد من كتاب ابن بصّال وسمّاه بالكتاب النّفيس.

ويعتبر كتاب «ديوان الفلاحة» الذي تعزى إليه شهرة ابن بصّال ثمرة جهود مؤلّفه في بلاط طليطلة. ومع الأسف لم يصلنا من هذا الكتاب إلاّ مختصر له. وجعله ابن بصّال تحت عنوان القصد والبيان، ويحتوي على ستّة عشر بابا هي: 1 ـ باب في المياه؛ 2 ـ باب في الأرضين؛ 3 ـ باب في السرقين (السماد)؛ 4 ـ باب في اختيار الأرض؛ 5 ـ باب في غرس الأشجار؛ 6 ـ باب في ضروب الغراسات؛ 7 ـ باب في تثمير الثّمار (تشذيب الأشجار)؛ 8 ـ باب في تركيب الثمار؛ 9 ـ باب في معاني التّركيب؛ 10 ـ باب في زراعة الحبوب؛ 11 ـ باب في زراعة البذور،؛ 12 ـ باب في زراعة القثاء والبطيخ؛ 13 ـ باب في زراعة البقول؛ 14 ـ باب في زراعة خضر البقول؛ 15 ـ باب في زراعة الرّياحين؛ 16 ـ باب جامع لما لا يستغني عنه أهل الفلاحة.

ولا نجد في كتاب ابن بصّال أيّة إشارة إلى مصادر سابقة، ممّا يدلّ على أنّ مادّة الكتاب كانت ثمرة تجارب المؤلّف. لهذا اعتبر كتابه أشهر المؤلّفات الأندلسيّة في الفلاحة داخل العالم الإسلامي وخارجه، وأكثرها موضوعيّة وطرافة.

ورغم أنّ الأندلس بها أنهار جارية، فإنّ مياه المطر والآبار لها أهمّيتها في الفلاحة. ولهذا ضبط ابن بصّال طرقا بها يستدلّ على وجود الماء في موضع مّا أو انعدامه، على قلّته أو كثرته، على عذوبته أو مرارته. ووصف الطرق العمليّة لحفر بئر، وما يُختار لها من موضع، وما يستخدم لذلك من لوالب وعوارض وقواديس وسانية. ولابن بصّال محاولات

للريّ قطرة قطرة، وذلك بوضع الشجرة بين قلّتين مثقوبتين من الأسفل ومغروستين إلى العنق في الأرض، وتُملآن مرّة بعد مرّة كلّما نفد الماء منهما. كما أشار بكلّ وضوح إلى البيوتات المُكنّة (أي المكيّفة). ولئن كانت الطرق هذه بسيطة وبدائيّة بالنّسبة إلى عصرنا، فإنّها جديرة بكلّ احترام لسبقها وريادتها.
ولمّا أصيبت أشجار طليطلة بمرض خطر تركها شبه محترقة، قام ابن بصّال بقطع ما على وجه الأرض منها في فصل الرّبيع وأحرقه وأبقى على الجزء المغروس في الأرض، فنمت منه فسائل ترك بعضها ونقل بعضها الآخر.

آثاره

1 ـ ديوان الفلاحة، وصلنا مختصرا تحت عنوان القصد والبيان ترجم إلى القشتالية في القرون الوسطى (XIII)، تح. وتر. محمد عزيمان وخوسي ماريا ميّاس فلّيكرُوزا، تطوان 1955؛ 2 ـ وهناك بعض النقول عنه في الزراعة وردت في مخطوطتين من مخطوطات الأكاديمية الملكيّة التاريخيّة بمدريد هما: في المخطوطة الأولى نُقُول عن ابن بصّال وكذلك عن أبي خير الإشبيلي، وفي المخطوطة الثانية هناك: أ ـ قواعد فلاحية لأبولونيو؛ ب ـ ديوان الفلاحة لابن فُضال؛ ج ـ موجز الغراسة والتلقيح لابن فُضال، ونرجّح أنّ ابن فُضال إنّما هو تحريف لابن بصّال.

المصادر والمراجع

● ابن بصّال، كتاب الفلاحة، مقدّمة المحقّقين عزيمان وفلّيكروزا، تطوان 1955؛ ● المقري، نفح الطيب، تح. إحسان عبّاس، بيروت 1968، 3/ 151؛ ● سويسي، محمد، من مميّزات البحث العلمي بالأندلس في ميدان الطبيعة والطبّ والفلك (بحث قدّم في النّدوة العالميّة الثانية لتاريخ العلوم عند العرب، الكويت، 10 ـ 14 ديسمبر 1983)؛ ● فلّكروزا، ملاّس، علم الفلاحة عند المؤلّفين العرب، تعريب عبد اللطيف الخطيب، تطوان 1957؛ ● فيرنيت خوان، فضل الأندلس على ثقافة الغرب، تعريب نهاد رضا، تقديم فاضل السّباعي، دمشق 1997، ص 69.

- Mills Vallicrosa : Los cinco ultimos capitulos de la Obra Agronomica de Ibn Bassl, Tamuda 1/1953, pp. 47-58; ● Mills Vallicrosa Josè. Ma: Sobre Bibliographia Agronomica Hispano-Arabe : Andalus, vol. 19/ 1954. pp. 129-142; ● Colins. G. S: Encyclopédie de l'Islam "Filha" : T. II/p. 922; ● Bolens Lucie : Agronomes Andalous du Moyen - Age, Genève - Paris 1981; ● Ebn el Awam : Libro De Agricultura. Traducido al Castellano y anotado por Joseph Antonio Banqueri . Estudio preliminar y notas : J.E. Hernndez Bermejo Y E. Garcia Snchez, Ministerio de Agricultura, Madrid 1988.

د. جمعة شيخة
جامعة تونس

البُصْروي، علاء الدين علي بن يوسف

(ت 902هـ/ 1499م)

هو علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي، البُصْرويّ، الشافعيّ، ولد سنة 842 أو 843 هـ/ 1438 أو 1439م. ويُعرف بالبُصرويّ نسبة إلى بلدة بُصرى القريبة من دمشق.

اشتغل بالعلم، وبرع في الفقه، ولازم شيخ الإسلام رضيّ الدين الغزّي، وولده العلاّمة شهاب الدين، عمّ والد «نجم الدين الغزّي» صاحب «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة»، ثم لازم «زين الدين خطّاب الغزّي» شيخ الشافعية بدمشق (ت 878 هـ) وغيره من العلماء. وتولّى منصب نائب القاضي الشافعيّ بدمشق، ومارس التدريس في الجامع الأمويّ، وألّف عدّة كتب، منها كتاب في التاريخ جعله تكملةً لتاريخ «برهان الدين البقاعيّ» (ت 885 هـ) يبدأ بحوادث سنة 871هـ/ 1466 م، وينتهي بحوادث سنة 904هـ/ 1498م. وهو يؤرّخ بشكل خاص لمدينة دمشق في الحقبة المتأخرة من عصر المماليك، وهي حقبة تقلّ فيها المصادر التاريخية بشكلٍ ملحوظ، قياساً إلى مصادر عصر المماليك الغزيرة عن مصر. ومن هنا يكتسب «تاريخ البُصْرويّ» أهميّته إلى جانب كونه سجلاً يومياًعن حوادث دمشق وما يرتبط بها، فهو أقرب ما يكون من كتاب معاصره «ابن طوق الدمشقي» (ت 915 هـ) المعروف بـ «يوميّات دمشق»، ونُشر باسم «التعليق»، ويقرُب أيضاً من «حوادث دمشق اليومية» لـ «البديري الحلاّق» (ت بعد 1175هـ)، ومن «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» لـ «ابن طولون الدمشقيّ» (ت 953 هـ)، وقد اعتمد هذا الأخير على كتابه فنقل منه حرفياً في عدّة مواضع، وصرّح بذلك.

و«تاريخ البُصرويّ» يتّفق في بعض الوقائع والأحداث والوفيات بما في كتاب «حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران» لـ «ابن الحمصيّ» (ت 934 هـ) وهو يقدّم وصفاً دقيقاً لأحوال القُضاة والقضاء، وترجم لعددٍ كبير من القضاة ومساعديهم، كما ترجم للعلماء والأعيان، مع ذِكر محاسنهم ومساوئهم معتمداً على مشاهداته الشخصيّة ومعلوماته الذاتية، واتصاله بأكثرهم، واطّلاعه على أمورهم، وهذا ما يميّزه عن غيره من المؤلّفين الذين يتّكئون على كتابات سابقيهم.

ونهج «البُصرويّ» نهج التأريخ المتساوق الذي يُدْرج الوفيات ضمن سياق الحوادث، ويبدأ السنين بذكر اسم الخليفة، واسم السلطان، ويعرض مادته شهراً بشهر، وتتّسم أخباره بالإيجاز والاختصار، وكذلك تراجم الوفيات بحيث لا تزيد الترجمة على بضعة أسطر، في لغةٍ يشوبها الغلطُ والركاكة في بعض الأحيان، مثل كثير غيره من مؤرّخي عصره. ويهتمّ بشكل خاص بعرض أسعار الموادّ الغذائيّة،

وحالات الغلاء وارتفاع الأثمان، مع كوارث الطبيعة والأمراض والحرائق.

وقد تأثّر «البُصرويّ» بوظيفة نائب القاضي، فعرض في أثناء تدوينه للحوادث بعض المسائل الفقهيّة المتعلّقة ببعض الأوقاف، وبعض مسائل الطلاق، والخُلع، والفرائض، والحجّ، وفتاوى في مسائل أخرى. وهو يسرد الأخبار والوفيات دون عناوين، وليس في كتابه إلاّ عناوين السنين فقط، وعند بدء حوادث سنة 901 هـ. وضع لها عنوان: «قرّة الناظر بأخبار القرن العاشر»، ووسّع نطاق المعلومات فأخذ يذكر أسماء الحكام في مصر والشام، مع ذكر الأمراء وأصحاب المناصب من قُضاة، ونوّاب، ونُظّار، وكُتّاب، وحُجّاب، وغيرهم.

آثاره

1 ـ تاريخ البُصْرويّ؛ 2 ـ شرح جمع الجوامع؛ 3 ـ النفحة الزكية في شرح المقدمة الآجرومية.

المصادر والمراجع

● المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع 1/ 181؛ ● معجم المؤلّفين الدمشقيّين 271؛ ● التاريخ العربي والمؤرّخون 4/ 207.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

البصري، أبو الحسين محمد بن علي

(ت 436هـ/1044م)

هو محمد بن علي بن الطيب البصري أبو الحسن الفقيه الأصولي المتكلّم. ولد بالبصرة وسكن بغداد ودرس بها علم الكلام والفقه وأصوله والفلسفة وعلوم الطبيعة حتّى صار علما بارزا في عصره. قال سزكين: «هو أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري ولد بالبصرة ودرس ببغداد» [سزكين، تاريخ التراث العربي م 1، 4/ 86]. وقال البغدادي في ترجمته لأبي الحسين: «بصري سكن بغداد ودرس بها الكلام إلى حين وفاته» [الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، 4/ 186].

واعتبره ابن خلّكان أحد أئمة عصره في مذهبه قال: «أبو الحسين محمد بن علي الطيب (حذف هنا لفظ ابن بين علي والطيب والذي عليه مجمل رأي أصحاب التراجم هو علي بن الطيب) بصري متكلّم على مذهب المعتزلة وهو أحد أئمتهم» [ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 4/ 271].

من أشهر مشائخ أبي الحسين محمد بن علي البصري، القاضي عبد الجبّار وهو من كبار أعلام الاعتزال، فقد درس عليه واستفاد منه كما درس على أصبغ بن محمد السّمح

المتوفى سنة 426هـ / 1035م. قال سزكين: «درس ببغداد على القاضي عبد الجبّار كما درس على أصبغ بن محمد السّمح» [بروكلمان، 1/ 472؛ سزكين، 4/ 86].
تبوّأ أبو الحسين محمد بن علي البصري مكانة متميّزة بين علماء عصره ووصف بأنّه كان جيّد الكلام، بارعا في الجدل والمناظرة، متمكنا من اللغة، غزير العلم. وكان مناصرا لمذهبه الكلامي، ومدافعا عن شيوخ الاعتزال في مجلسه. قال الذهبي: «أبو الحسن البصري شيخ المعتزلة، كان فصيحا بليغا عذب العبارة يتوقد ذكاء، وله اطّلاع كبير» [الذهبي، سير أعلام النبلاء 17/ 587]، إلاّ أنّه رغم ذوده عن الاعتزال لم يكن محلّ إعجاب كلّ المعتزلة لما وجده من انتقاد وعدم إعجاب من قبل تلامذة أبي هاشم الجبائي. قال سزكين: «وكان يعدّ في عصره أحد أنباه المعتزلة، ومع ذلك فقد كان غير محبوب عند أتباع أبي هاشم الجبائي» [م ا، 4/ 86].
إنّ أبا الحسين البصري الذي بدا مصدرا في الفقه وأصوله، وفي علم أصول الدين لم يول اهتماما كبيرا لعلم الحديث وروايته، فقد روي عنه أنّه روى حديثا واحدا كان كثير التداول بين رجال الاعتزال. قال البغدادي: «وكان يروي حديثا واحدا سألته عنه فحدّثنيه من حفظه قال: قرىء على هلال بن محمد بن أخي هلال الرأي بالبصرة وأنا أسمع، قيل له: حدّثكم أبو مسلم الكجي، وأبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي، والغلابي، والمازني، والزريقي قالوا: حدّثنا القعنبي عن شعبة عن منصور عن ربعي عن أبي مسعود البدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ ممّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت». الغلابي هو محمد بن زكرياء، والمازني هو محمد بن جبّان، والزريقي هو أبو علي محمد بن أحمد بن خالد البصري روى عنه عبد الله بن عدي الجرجاني هذا الحديث». وذكر المحقق أنّ هذا الحديث أخرجه الطيالسي (621)، والبخاري 4/ 215 و8/ 35 في الأدب وغيرهما [تاريخ مدينة السلام، 4/ 168؛ الوافي بالوفيات، 4/ 125].
هذا عن المكانة العلميّة لأبي الحسن بن محمد البصري. أمّا عن وفاته فتتّفق كتب التراجم على أنّه توفي ببغداد في يوم الثلاثاء الخامس من شهر ربيع الآخر سنة ستّ وثلاثين وأربع مائة ودفن في مقبرة الشونيزي وقد شاخ، وصلّى عليه القاضي أبو عبد الله المصيهري [البغدادي، تاريخ مدينة السلام، 4/ 169؛ الصفدي، م س، 4/ 125؛ الذهبي، السير 17/ 587].

آثاره

صنّف أبو الحسين تصانيف ذكر منها:
1 ـ المعتمد في أصول الفقه، وهو كتاب يرجع إليه في علم أصول الفقه طبع في جزأين كبيرين بدأه بتعريف علم أصول الفقه لغة واصطلاحا كقوله: «وأمّا قولنا أصول الفقه فإنّه يفيد على موجب اللغة ما يتفرّع عليه الفقه كالتوحيد والعدل وأدلة الفقه ويفيد في عرف الفقهاء النظر في طرق الفقه على طريق الإجمال وكيفيّة الاستدلال به» [أبو الحسين البصري، المعتمد في أصول الفقه، 1/ 9].
ولأبي الحسن البصري كتب أخرى ورد ذكرها في كتب التراجم مثل 2 ـ كتاب تصفح الأدلة في أصول الدين، في مجلدين؛ 3 ـ غرر

الأدلة في الأصول، في مجلد كبير؛ 4 ـ شرح الأصول الخمسة؛ 5 ـ كتاب الإمامة؛ 6 ـ كتاب في أصول الدين؛ 7 ـ فائت العين في اللغة، وضعه على كتاب العين للخليل بن أحمد [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 3/ 259؛ البغدادي، هدية العارفين، 6/ 69]، وكانت هذه التآليف عمدة عند كبار العلماء بعد أبي الحسين ونوّه بفضلها أصحاب التراجم. قال الصفدي: «وتنبّه الفضلاء لكتبه واعترفوا بحذقه وذكائه» [الوافي، 4/ 125]، وقال ابن خلّكان: «وانتفع الناس بكتبه» [م. س.م، 4/ 271].

المصادر والمراجع

● البغدادي، أبو بكر أحمد الخطيب ت 463 هـ، تاريخ مدينة السلام، تح. بشار عواد، م 4، دار الغرب الإسلامي؛ ● ابن خلّكان، أبو العباس أحمد، ت 681هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، م4، صادر، بيروت؛ ● الذهبي، شمس الدين محمد، ت 748هـ، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرنؤوط، ط8، مؤسسة الرسالة 1412هـ/ 1992م، ج17؛ ● ابن العماد، عبد الحيّ الحنبلي، ت 1089هـ/ 1679م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج3؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل، ت764هـ/ 1362م، الوافي بالوفيات، ط2، 1402هـ/ 1982م، دار النشر بفيسبادن؛ ● فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، م1، ج 4، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود المملكة العربية السعودية 1403هـ/ 1983م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 6/ 275.

د. حزات بوعلاّقي

جامعة الزيتونة ـ تونس

البصري، أبو حفص الربيع بن صبيح السّعدي

(ت 160هـ/776م)

أبو بكر، ويُقال: أبو حفص، مولى بني سعد بن زيد مناة.

روى عن ثابت البُناني، وحازم الكرماني، والحسن بن أبي الحسن البصري، والحسن بن مسلم بن يَنّاق، وحميد الطويل، وعبد الله بن أبي نجيح، وعبد ربّه بن ربيعة، وعسل بن سفيان، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، وقيس ابن سعد المكّي ومجاهد بن جبر، ومحمد بن سيرين، ونافع مولى ابن عمر، وهُدبة بن المنهال الأسدي، ويزيد الرقّاشي، وأبي الزبير المكّي، وأبي عثمان الأنصاري، وأبي غالب صاحب أبي أمامة.

وروى عنه: إبراهيم بن سعد، وآدم بن أبي إياس، وخالد بن يزيد القسام، وداود بن المُحَبَّر، وسعد بن الصَّلْت البجلي قاضي شيراز، وسفيان الثوري، وأبو داود سليمان ابن داود الطيالسي، وشُعيب بن مُحرز، وصيفي بن ربعي، وعاصم بن علي، وعبد الله بن غالب العبّاداني، وعبد الله بن مبارك، وعبد الرحمن بن مهدي، وعلي بن الجعد، وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي، ووكيع بن الجرّاح، ويحيى بن زياد الرقّي ولقبه فُهير.

قال البخاري، عن أبي الوليد الطيالسي: كان الربيع بن صبيح لا يدَلّس [التاريخ الكبير، 3/ الترجمة 952]. وقال أبو داود، عن أبي الوليد: ما تكلّم أحدٌ في الربيع إلاّ والربيع فوقه [سؤالات الآجري، 5/ الورقة 3]. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه: لا بأس به رجلٌ صالح [العلل، 1/ 135]؛ وقال أبو زرعة: شيخ صالح صدوق [الجرح والتعديل، 3/ الترجمة 2084]؛ وقال مسلم ابن إبراهيم، عن شعبة: الربيع بن صبيح من سادات المسلمين أخرجه ابن عدي، عن الساجي، عن أحمد بن محمد، عن مسلم [الكامل، 1/ و 343]، وقال يعقوب بن شيبة: رجل صالح صدوق ثقة، ضعيف جدًا. يعني: صالح صدوق ثقة في دينه وسلوكه وأخلاقه، ضعيف في الحديث لعدم معرفته به. استشهد به البخاري في [الكفارات، 8/ 184]، وروى له الترمذي وابن ماجة.

قال ابن شاهين في ثقاته... قال شعبة: لقد بلغ الربيع بمصرنا هذا ما لم يبلغه الأحنف بن قيس [الترجمة، 353].

وفي كتاب الضعفاء للعقيلي، قال بسنده: حدثنا بشر بن عمر قال: ذهبت إلى شعبة يوما فإذا هو يقول: تبلغون عني ما لم أتكلّم به؟، من سمعني منكم أقع في الربيع بن صبيح؟ والله لا أحدثكم بحديث حتى تأتون الربيع فتكذبون أنفسكم، إن في الربيع خصالاً لا يكون في الرجل الخصلة الواحدة منها فيسود بها.

قال الذهبي في [سير أعلام النبلاء، 7/ 287]: الربيع بن صبيح البصري العابد، الإمام، من أعيان مشايخ البصرة. وروى عباس عن ابن معين: ثقة.

كان من عُباد أهل البصرة، وكان يُشَبّه بيته بالليل بالنحل، إلاّ أن الحديث لم يكن من صناعته، فكان يَهِم كثيرا، قال أبو الحسن بن عبد الرحمان بن خلاد الرامهرمزي: أول من صنف وبوّب، فيما أعلم، الربيع بن صبيح بالبصرة.

قال غسان بن المفضل الغلابي: سمعت من يذكر أن الربيع بن صبيح كان بالأهواز، ومعه صاحب له، فتعرّضت لهما امرأة، فبكى الشيخ، قال له صاحبه: ما يبكيك؟ قال: إنها لم تطمع في شيخين إلا وقد رأت شيوخًا قبلنا يتابعونا، فلذا أبكي [سير أعلام النبلاء، ج3/ 289].

وكان المهدي ـ الخليفة العباسي ـ قد سير جيشا في البحر بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي إلى بلاد الهند، قد حاصر الجيش مدينة باربد وفتحها عنوة؛ وكان من بين المجاهدين: الربيع بن صبيح. وفي أثناء العودة أصاب الجيش مرض في أفواه الجنود، فمات منهم نحو ألف رجل منهم الربيع ودفن في إحدى الجزر [الطبري والكامل في التاريخ حوادث سنة 1260هـ؛ العبر 1/ 223-234؛

شذرات الذهب، 3/ 247]، حلاه أبو نعيم في الحلية بقوله: ذو العقل الرجيح، والعمل النجيح، الربيع بن صبيح. وقد أورد صاحب الحلية عددا من الأحاديث أسندها عن الحسن البصري، ومحمد بن سيرين، ويزيد الرقاشي وغيرهم.

قال أبو النعيم: أحاديث الربيع عن الحسن البصري كلها مفاريد، وأحاديثه عن يزيد الرقاشي منها غرائب ومنها مشاهير.

المصادر والمراجع

● الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، 1409هـ/ 1988م، ج6/ 304-310؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. صلاح الدين المنجد، الكويت 1960، ج1/ 234؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة، 1413هـ/ 1993م، ج7/ 287- 290؛ ● المزي، يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ/ 1987م، ج9/ 89- 94؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت، ج1/ 247؛ ● تاريخ الطبري، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، (حوادث عام 160هـ)، ج8/ 12؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 160هـ، ج6/ 46؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دمشق 1957، ج4/ 151؛ ● الزركلي، الأعلام، القاهرة، ط2، ج3/ 39.

أ.هلال ناجي
باحث في التراث العربي
بغداد ـ العراق

البصري، أبو سعيد الحسن بن يسار

(21هـ/642م ـ 110هـ/728م)

الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، المكنى بأبي سعيد [ابن المرتضى، المعتزلة، 12] واحد من أشهر التابعين في القرن الأول للهجرة/ السابع للميلاد. ولد بالمدينة المنوّرة في سنة 21هـ / 642 م، وليس صحيحًا ما ذكره الشبيبي [الصلة، 291] من أن مولده كان سنة 22هـ / 642 ـ 643، لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب. ونشأ وترعرع في بيت أم المؤمنين أم سلمة، لأنّ والدته خيرة كانت مولاة لها، وكان أبوه يسار من سبي ميسان العراق [ابن سعد، الطبقات الكبرى، 7/ 156]. وتسكت جميع المصادر عن لقاء خيرة بيسار، خصوصًا أن بعضها يشير إلى

أن أباه كان فارسيا، لكن لا نعرف كيف وصل المدينة؛ غير أن رواية ابن سعد أن والده يسارا «اشترته الربيع بن النظر، عمة أنس بن مالك فأعتقته»؛ لكن المسعودي قال إنها امرأة من الأنصار [مروج الذهب، 3/ 138]. وقد ولد الحسن على الرق [ابن النديم، الفهرست، 354]. والظاهر أن تربية الحسن البصري كانت بمستوى ابن عباس أو يقلّ عنه. نشأ الحسن بوادي القرى، وفي أخباره أنه رأى نفرا من الصحابة منهم طلحة وعثمان، وأنه شهد يوم الدار وله يومئذ أربع عشرة سنة. كما كانت رعاية علي بن أبي طالب للحسن ذات دلالة عميقة في فهمه العقدي والفقهي فيما بعد. وقد انتقل الى البصرة في خلافة علي، واستقرّ بها. قرأ الحسن القرآن على حطان بن عبد الله الرقاشي (ت بعد 70هـ)، وعلى أبي عالية الرياحي (ت بعد 90هـ)، وروى الحديث عن عمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة، والنعمان بن بشير، وأنس بن مالك، وخلق من الصحابة والتابعين. واتخذ موقفا محايدًا ومترددًا من المسائل الكبرى التي أثارتها الأحداث في ذلك الوقت، وهي أحداث كبيرة كمقتل عثمان بن عفّان، وحقيقة الصراع بين الصحابة وعلي بن أبي طالب في معركة الجمل، وحقّ علي في الخلافة إزاء ادّعاء معاوية بن أبي سفيان بنزع الخلافة عن علي في الشام، وانتهت بمعركة صفين التي انتهت بالتحكيم. فانقسم المسلمون الى ثلاثة اتجاهات: اتجاه يرى أنّ عليّا على حقّ، واتجاه يرى أنّ عليًّا ومعاوية معًا على باطل، واتجاه من القاعدين عن مناصرة الأولين او الآخرين، وكأنهم شكّلوا طلائع «المرجئة».

والمدهش في سيرة الحسن البصري، أنّه ظلّ يمارس الوعظ والتفسير في حلقة دراسية في مسجد البصرة. وتمرّ به الأحداث الجسام وهو لا يقول فيها أكثر ممّا يدلّ على تحرّزه في أن لا يقول ما يريد. ومن ذلك أنه عاصر مشكلة قتل الخوارج الامام علي بن أبي طالب في الكوفة، واستخلاف معاوية ابنه يزيد خليفة من بعده، ووجد الحسن نفسه أمام متغيّرات سياسية مرعبة في قتل الحسين بن علي في كربلاء، ثمّ ما عمّ العراق (البصرة والكوفة) من مفاجآت الحركة الزبيرية، ومقتل مصعب بن الزبير في الكوفة، وكيف انتقل الحكم الأموي من آل أبي سفيان إلى آل مروان في دمشق. وحافظ الحسن البصري على الصلة بعبد الملك بن مروان، وكانت بينهما مراسلات لكنّه لم يكن مطمئنًا لسلوك الحجاج بن يوسف الثقفي [ابن المرتضى، 12 ـ 14] الذي أباح لنفسه أن يقتل سعيد بن جبير وغيره من التابعين؛ ولكنه لم يتعرّض للحسن البصري أكثر من إحراجه في الرأي والتصريح بما يردّ عنه موقفًا عدائيًا من الأمويين، ومع ذلك مال إلى زيد بن علي بن الحسين الذي قتله الأمويون أيضًا سنة 122هـ/ 740م. وهكذا تستمرّ الأحداث بالحسن البصري قابعًا في مسجد البصرة يعظ ويفسّر ويذهب الى تأويل المفاهيم بما يتّفق وحركة التجديد في الفكر الإسلامي في ذلك العصر. وكان إخلاصه لمثله يحمله على ازدراء من يحترف الارتزاق بأمور العقيدة. فقد انتهى القرّاء حين وجدهم على باب ابن هبيرة، وقال لهم: «ما يجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء، أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم،

ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم» [الحلية، 2/ 151]. وتوفّي الحسن في البصرة سنة 110هـ / 728م [ابن الأثير، الكامل، 4/ 205] وله من العمر سبع وثمانون سنة أو في التسعين [المسعودي، مروج، 3/ 138].

وبناء على ما تقدّم، نجد المسائل الآتية في اجتهادات الحسن البصري في مسجد البصرة:

ـ الأولى: أن الحسن البصري استطاع أن يجمع حوله في حلقته بمسجد البصرة مجموعة من الذين يتساءلون عن حلول للمشاكل المستجدّة في حركة الأحداث. وهنا نشأت أقوال القدرية والمرجئة؛ وحسم الحسن البصري النزاع بتسمية من لا يقف مع الحق وينتصر للباطل بالمنافق، فلا إرجاء في الأحكام، وضرورة القول بالقدر. وهذا الموقف للحسن البصري جعله يقول ما لا يريد قوله فهو من أهل القدر ولا يتحدّث عنه كثيرًا خوفًا من سلطان الأمويين [ابن المرتضى، 15]، ويرفض الإرجاء ولكنه يتابع أحداثه. وخرج عليه واصل بن عطاء (ت 131هـ / 748 م) الذي حدّد المصطلح بالقول بـ «المنزلة بين المنزلتين»، واعتزل حلقة البصري [قارن، Al-Aasam, Ibn ar-Riwandi, p.344]، وكوّن حلقة طلائع المعتزلة. ومن هنا، فالحسن البصري عدّهُ المعتزلة واحدًا من أصولهم الأولى في عقيدة الاعتزال [ابن المرتضى، 12 ـ 15].

ـ الثانية: أنّ الحسن البصري كان بعيدًا عن ملابسات الحكم الأموي، مع الشعور الداخلي بذنوب الأمويين في الحكم مثل استخلاف يزيد، ومقتل الحسين، واستباحة الكعبة من قبل الحجّاج، ومقتل الصحابة والتابعين على أيدي الأمويين وولاتهم، وغيرها. كل ذلك ولّد شعورًا بالذنب الداخلي في أعماق الحسن البصري، فآثر الاعتكاف والعبادة والزهد، وجعل من وعظه تعميقًا لتصغير الدنيا وتعظيم الآخرة. وبهذا يكون قد وضع أسس الأفكار الزهديّة المنظّمة في البصرة التي تحوّلت فيما بعد الى تصوّف [الشيبي، الصلة، 291 ـ 297] وأصحاب الخرقة الصوفية، حتّى أنهم ينسبون إلى عليّ بن أبي طالب في إلباس البصري الخرقة [م.س، ص 295]، وكأنه ربط بين زهده والتصوّف شكلاً وموضوعًا.

ـ الثالثة: أنّ الحسن البصري مثّل في طبقة التابعين أنموذجا لأولئك الصحابة القاعدين، فلم يتحمّس في أقواله لأصحاب الحقّ في غير تصريحات مشكوك فيها كلّ الشكّ، وفي تصريحاته التي لا تفصح عن موقف الواثق من نفسه في زحمة متغيّرات المفاهيم وظهور مصطلحات فرضتها الحياة الجديدة للمسلمين في عموم أرجاء الدولةالعربية وهي تختلط بالأديان والعقائد والملل والنحل في المشرق والمغرب. وكان من الظاهر على الحسن البصري أنّه يتردّد في حسم كثير من الموضوعات الذاتية العقدية في قلب الدولة (العراق والشام والحجاز)، فكيف الحال بما استجدّ من غرائب الأقوال والأفكار في المشرق وصولاً إلى الهند وحدود الصين وكل ما وراء النهر مع كل رقعة فارس وخراسان وأذربيجان، وصولاً إلى مصر وتونس فالمغرب حتّى الأندلس. وهنا نلاحظ أنه

عاصر صراعًا جديدًا في انقسام المسلمين إلى الشيعة، وأهل السنّة، والخوارج؛ فكان الحسن البصري غير موثوق به من قبل الشيعة [القمي، الكنى والألقاب، 2/ 76]، وقد اختلف فيه أهل السنة، وكفّره الخوارج. وهذا كله ساق إلى مشكلة الحسن البصري الذي ألبسه مؤرّخوه المختلفون ثوبًا سياسيًا يمثّل شكل الموقف المتشدّد في آن لا يحسب على حزب من الأحزاب أو فرقة من الفرق الأولى في الإسلام.

أخذ الحسن القراءة عرضا عن حطان بن عبد الله الرقاشي (ت بعد 70 هـ)، وأخذ حطان عن أبي موسى الأشعري الذي عرض على الرسول ﷺ، ويرد اسم حطان بين أصحاب المصاحف من التابعين [المصاحف للسجستاني، 90]؛ كما قرأ الحسن على أبي العالية الرياحي، رفيع بن مهران (ت بعد 90 هـ) وهو من كبار التابعين، وعرض على أبي كعب وزيد بن ثابت وابن عباس [طبقات ابن الجزري، 1/ 284]؛ وعن الحسن أخذ أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وعبد الله بن أبي إسحاق وسواهم من المشاهير. لكنّ الحروف التي تفرّد بها الحسن جعلت علماء القراءة يصنّفون قراءته في الشواذّ. والحقّ أنّ قراءة الحسن بجملتها من القراءات الصحيحة في مقاييس القرّاء والفقهاء، لأنها موافقة للعربيّة وللرسم العثماني وصحيحة السند، ولكنّه قرأ في أحرف يسيرة بما يخالف الرسم العثماني، أو يخالف مقاييس النحويّين واللغويّين، ولم تثبت روايتها عن غير طريقه، من نحو: نعجة، وتسعة، وعسيتم، وجأن، وأدرأتكم، وسأوريكم، والأنجيل، وينحاتون، وربط الخيل، والشياطون، والصواقع، وصفقا باليمين، ونحوها من أبنية نادرة في اللّغة [الظواهر اللغوية في قراءة الحسن، 102 وما بعدها]، لكنّها وجدت تخريجها في كتب اللغويين وعزوها إلى لهجات العرب الفصيحة، وإن لم تكن الفصحى [المحتسب لابن جنّي، 2/ 115]. ويبدو أن قلة الشيوخ الذين أخذ عنهم الحسن وهما اثنان فقط، كانت أيضًا سببا في عدّ قراءته في الشواذّ. إذ بلغ شيوخ بعض القرّاء ما يزيد على السبعين من التابعين، وذلك ما نجده عند نافع بن أبي نعيم وأبي جعفر المدني؛ فيكون شرط التواتر غير قائم في قرّاء الحسن الذي كان يركن إلى سليقة لغوية تعتمد الفصاحة العالية التي نعهدها في المتقدّمين من السلف مثل ابن مسعود، وأنس بن مالك، وابن عبّاس، وأبيّ، ونحوهم؛ وهم ممّن رويت عنهم أحرف كثيرة في الشواذّ، وغالبا ما يكون ذلك لمخالفتها للرسم العثماني [الظواهر اللغويّة في قراءة الحسن، 29].

ونلاحظ أيضًا أنّ الحسن البصري، عدا ما يدّعيه المعتزلة أنه من مؤسّسي أفكارهم الأولى، هو رأس فقهي لأهل السنّة والجماعة لتحفّظه الشديد؛ وبينما رآه الشيعة الإمامية غير موثوق به، كذلك رآه ابن سعد [الطبقات، 1/ 114] أنه ليس بحجة، تمامًا كما تشكّك السلفيون من أهل السنة في رواياته فنسبوه إلى التدليس والانتحال [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 71]، حتّى اتهم بأنه كان يروي الحديث نقلاً عن الرسول الكريم دون أن يخبرنا عمّن نقله من

الصحابة [نصر بن مزاحم، وقعة صفّين، 346]؛ غير أنّ الحماس السنّي المتأخر قاد إلى القول بأنّ الحسن البصري كان كنز معلومات مهمّة عن عصر الصحابة، فقد التقى بحوالي ثلاثمائة منهم، كان سبعون من بينهم من البدريّين [ابن المرتضى، 15]. وهذه تزكية للحسن البصري وأهمّيته في الفقه والتفسير، كما بولغ في معرفته النبويّة حتّى قيل إنه شرب من جرّة ماء في بيت النبي (بيت أم سلمة) [الشيبي، الصلة، 293، وينقله عن العطار في تذكرة الأولياء، 1/ 22]، وصحيحها أنها جرة ماء في بيت عليّ بن أبي طالب، لأن تهافت القصّة واضح من كون الحسن ولد بعد وفاة الرسول بعقد من الزمان. وقد حيكت حول الحسن البصري الكثير من الأقوال والأفكار والأفعال إذا ما فحصها المحقق المدقّق وجدها منحولة وقد وضعها أصحاب أغراض سياسية وفقهية وعقديّة متأخرَة عن زمانه. كما روي عنه الكثير من المواقف غير المعقولة، وأبرزها أنه لأمَ الإمام عليّ بن أبي طالب على موقفه في صفّين [الشيبي، الصلة، 293]، وهذا أمر روّج له مؤرخون، لبيان صدق نوايا الحسن البصري، كما استنكره آخرون لتأكيد المرويات الكاذبة التي نقلت عنه؛ وربّما يعود ذلك إلى أنّ الحسن كان يعتمد المعنى دون النص في الحديث؛ وأعجب ما في هذا السياق شكوك بعض المتحدثين أنه روى عن الصحابي أبي هريرة، وهي رواية لا تختلف في مضمونها المتشدّد عن أنّ الخليفة عمر بن الخطّاب دعا له، والحسن في عمر سنتين، بأن يكون من فقهاء الأمّة؛ ولا تختلف هذه عن أخذه العلم النبوي من آل البيت (عليّ والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي الباقر)، حتّى رويت حادثة أنّه التقى عليًا بن الحسين في المدينة المنوّرة، فقبّل يديه ورجليه تكريمًا لزهده وصلاحه ونسبه العالي في الإمامة [الشيبي، الصلة، 154 - 155].

والمشهور عن الحسن البصري أنه لم يكن راوية للحديث فقط، بل كان مفسّرا للقرآن أيضا، لأنّ طريقته الوعظية إنما جعلت منه يستند دائمًا إلى الكتاب والسنة، وزاد على ذلك، بفكّ رموز المعاني بالاستناد إلى الإسرائيليات، مع اعتماد واضح على مبدأ التفسير بالرأي، فكانت طريقته تستند إلى ما يمليه عليه العامل النفسي للمسألة المطروحة على بساط البحث والمناظرة. وهذا هو اتّجاه المعتزلة الذي ضاع مع ضياع وجودهم ومنهجهم فيما بعد. وينسب ابن النديم إلى الحسن كتابا في الردّ على القدريّة ألّفه لعبد الملك بن مروان أو لعمر بن عبد العزيز [الفهرست، 202؛ المعارف لابن قتيبة، 225].

وكانت طريقة الحسن البصري في التفسير سلوكيّة تعبّدية، حتّى قال الجاحظ فيه: «لقد كان رحمه الله رجلاً خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه، فإن وافقه حمد الله وسأل الزيادة من فضله، وإن خالفه أعتب وأناب» [البيان والتبيين، 3/ 154]. كما وُصِفَ كلامه أنّه من كلام الأنبياء، حسب ما يذكر الزركلي [الأعلام، 2/ 242] الذي ينقله عن الغزالي في إحياء علوم الدين حيث يلوم القصّاصين والواعظين لما يفترون من كذب، ولكنّه - أي الغزالي - استثنى

المخلصين وعلى رأسهم الحسن البصري [الأعسم، الفيلسوف الغزالي، من 76هـ، 49]، لكنّ الشريف المرتضى يقول صراحة إنّ كلام الحسن البصري إنّما يتطابق مع كلام عليّ بن أبي طالب «لفظًا ومعنى، أو معنى دون لفظ»، ويذكر أمثلة لذلك [الأمالي، 1/ 106 - 108]. كما نسب إليه جعفر الصادق التسرّع في فهم النصّ القرآني في تفسيره [الكليني، أصول الكافي، 1/ 51]. ومع كل ذلك، يبقى الحسن البصري في رأي أهل الأدب أنّه كان قادرًا على أن يعظ الملوك والأمراء كما وصفه التوحيدي، وقال: «رجل كبير الحكمة، معروف الحنكة... هذا الرجل الصالح... الحسن البصري» [الإمتاع والمؤانسة، 3/ 158، 214].

آثاره

نحن لا نعرف ماذا ترك البصري من مؤلّفات، فكلّها تبدو لنا منسوبة إليه: 1 - تفسير القرآن، وهو شذرات منتشرة في أخباره عند مؤرخي سيرته؛ 2 - عدد آيات القرآن، وهو كتاب في حساب وتنظيم آيات القرآن؛ 3 - في نزول القرآن، وهو كتاب في بيان أسباب النزول القرآني. وهذه العنوانات الثلاثة، ذكرها ابن النديم [الفهرست، 51، 56 - 57]؛ 4 - الإخلاص، وهو كتاب ادّعى الحلاّج [انظر هذه المادة لكاتب هذه السطور في هذه الموسوعة] في محاكمته أنّه اطّلع عليه واستند إليه في موضوع الحج في غير موضع الكعبة [قارن، Massignon, Quatre textes, pp. 10-11].

المصادر والمراجع

● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط. القاهرة 1348هـ/ 1929م؛ ● ابن سعد، الطبقات الكبرى، نشرة ليدن 1917 - 1928؛ ● ابن المرتضى، باب ذكر المعتزلة، نشرة أرنولد، حيدر أباد الدكن 1316هـ [قارن، Arnold, 1902 T. Al-Mu'tnzilah part (I), Leibzig 1902]؛ ● ابن النديم، الفهرست، ط القاهرة 1348هـ/ 1929م؛ ● التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، القاهرة 1939 - 1944م؛ ● الجاحظ، البيان والتبيين، نشرة السندوبي، القاهرة 1947؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، ط حيدر أباد 1955؛ ● الشريف المرتضي، الأمالي، نشره أبي الفضل إبراهيم، القاهرة 1954م؛ ● القمي، عباس، الكنى والألقاب، النجف 1376هـ/ 1956م؛ ● الكليني، أصول الكافي، ط. طهران 12788 هـ/ 1861م؛ ● المسعودي، مروج الذهب، ط القاهرة 1348 هـ/ 1929م؛ ● الأصفهاني، أبو نعيم، حلية الأولياء، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967م؛ ● ابن مزاحم، نصر، وقعة صفّين، نشرة هارون، القاهرة 1365هـ/ 1946م؛ ● الأعسم، عبد الأمير، الفيلسوف الغزالي، ط بيروت 1981؛

● Al-A'asam. a. : Ibn arRawandi's Kitab Fadihat al-Muítazilah, Beirut-Paris1975 - 1977;

● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 2/ 242

(وقد ذكر أنّ لاحسان عباس كتابًا في الحسن البصري، وهو مطبوع، لكننا لم نستطع الاطلاع عليه)؛ ● الشيبي، كامل، الصلة بين التصوّف والتشيّع، ط2، القاهرة 1969م؛ ● أبو جناح، صاحب الظواهر اللغوية في قراءة الحسن البصري، ط2، دار الفكر، عمّان، 1999م؛
● Massignon, L.: Quatre texte inédits relatifs à la biographie d'al-Hosayn ibn Mansour al-Hallaj, Paris 1914.

د. عبد الأمير الأعسم
بيت الحكمة ـ بغداد ـ العراق
د. صاحب جعفر أبو جناح
جامعة صنعاء ـ اليمن

البصري، ابن سند بدر الدين عثمان بن سند

(1180هـ/1766م ـ 1242هـ/1827م)

بدر الدين عثمان بن سند النجدي الوائلي البصري، فقيه، وأديب، وشاعر، ومؤرخ. له مشاركات في أنواع من العلوم. ولد بجزيرة فيلكة بالكويت في أسرة أصلها من نجد. نزحت أسرته، وهو صغير، من فيلكة إلى الأحساء. وهناك درس على الشيخ عبد الله البيتوشي (ت 1210 أو 1211هـ/1795 ـ 1796م) النحو والصرف، والأدب، وعلوم القرآن، وشيئا من المنطق. ثم رحل إلى البصرة واستقر بها في حدود عام 1204هـ/1789م حيث واصل دراسته على مشاهير علمائها، منهم: الشيخ محمد بن عبد الله بن فيروز النجدي، والشيخ علي بن حسين بن كثير، والشيخ أبي الحسن السندي وغيرهم. وشملت دراسته في البصرة اللغة والنحو، وعلوم القرآن، والحديث، والحساب، وعلم الهيئة (الفلك). ثم تولى التدريس في مدارس البصرة. تردد على بغداد وأخذ عن علمائها وحصل على إجازات علمية منهم، وتأثر فيها بالشيخ خالد النقشبندي (ت 1242هـ / 1827م) مجدد الطريقة النقشبندية الصوفية في العراق، كما قام برحلة علمية إلى حلب ودمشق. استقر في بغداد بعد عام 1232هـ / 1816م ونال حظوةً لدى داود باشا، والي بغداد بين عامي 1232 ـ 1247هـ/ 1816 ـ 1831م [رؤوف، مقدمة كتاب مطالع السعود، 8 ـ 19]. اختلفت الآراء في تاريخ وفاته والأرجح أنها كانت في 19 شوال 1242هـ / 1827م [العباسي، أعيان البصرة، 17] ودفن في مقبرة الشيخ معروف الكرخي ببغداد.

كان عثمان بن سند من العلماء العارفين وأفاضل المحدثين، له اطلاع واسع في علوم اللغة العربية والفنون الأدبية [الآلوسي، المسك الأذفر، 142]، كما كان شاعرًا مكثرًا،

ومؤرخا نافذ النظر [العزاوي، تاريخ الأدب العربي، 2/ 45]، كما وصف بأنه من نوابغ المتأخرين [الزركلي، الأعلام، 4/ 206].

وقد حظي بتقدير معاصريه واحترامهم، فقرّبوه وأقبلوا على الإفادة من علمه وأدبه، وقد نوّه جميع من ترجم له بوافر علمه، ورجاحة عقله، وحسن أدبه، وعلوّ خلقه.

ترك مؤلفات كثيرة في موضوعات مختلفة شملت علوم اللغة العربية، والحديث، والفقه، والعقائد، والتصوف، والتاريخ، والتراجم، والحساب. ومعظم تآليفه شروح وتعليقات على مؤلفات سابقة لمن تقدمه. وفي تواريخه وتراجمه أصالة، ومادة علمية دقيقة استقاها من روايات شهود عيان للحوادث، ومن وثائق رسمية أتيحت له فرصة الاطلاع عليها، ومؤلفات بعض من سبقه ممن كتبوا عن حوادث العراق في عهد المماليك (1750 - 1831م) إضافة إلى معلوماته الشخصية عن مشايخ وأعيان عصره وحوادثه. ومن أبرز آثاره في هذا المجال كتاب «مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود»، سجل فيه حوادث العراق بين 1188 - 1242هـ / 1774 - 1826م. وقد سار فيه على طريقة الحوليات في ترتيب الحوادث على السنين، وترجم فيه لكثير من رؤساء القبائل ومشاهير الفرسان، ولطائفة من علماء عصره. وتجاوز حوادث العراق إلى ذكر أخبار الوهابيين في نجد، وثورة اليونانيين على الحكم العثماني. وله في التراجم كتاب «سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد»، وهو في سيرة أحد أعيان البصرة، وضمّنه تراجم أعيان ومشايخ من البصرة والزبارة والبحرين والكويت ونجد والعراق، وفيه شعر كثير. وكتاب آخر لم يتمه هو «الغرر في وجوه القرن الثالث عشر» كتبه على غرار سلافة العصر للمدني.

■ آثاره

ترك عثمان بن سند مؤلفات عديدة بلغت نحو أربعين مؤلفًا [العباسي، أعيان البصرة، 16]. ذكر أغلبها في [رؤوف، مقدمة مطالع السعود، 24 - 31] وفي [الآلوسي، المسك الأذفر، 142 - 143] وفي [Brockelmann, Supp II, 1938: 791]، وغيرها من فهارس الكتب والمخطوطات. ولا يتسع المجال هنا لذكرها، لذا سنكتفي بذكر مجموعة منها وهي:

1 - بهجة النظر في نظم نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، والأصل لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ/ 1448 - 1447م)، منه نسخة في دار العراق للمخطوطات في بغداد برقم 8716/ 9 في 16 صفحة [أسامة النقشبندي وظمياء عباس، مخطوطات الحديث النبوي الشريف وعلومه في دار صدام للمخطوطات، 77]؛ 2 - هادي السعيد، وهي منظومة في العقائد ضمّنها «جوهرة التوحيد» للشيخ إبراهيم بن اللقاني المالكي (ت 1040هـ / 1630 م) وزاد عليها من الفرائد ما جعلها كالعقد الفريد [الآلوسي، المسك الأذفر، 143 - 142]؛ 3 - أوضح المسالك على مذهب الإمام مالك، وهو نظم كتاب علي بن خضر العمروسي (ت 1173هـ / 1760 م) في فقه المالكية. طبع في بومبي بالهند عام 1315هـ / 1897 م؛ 4 - نظم قواعد الإعراب، والأصل لابن هشام النحوي (ت 762هـ / 1361 م) ذكره الآلوسي [المسك الأذفر، 142]، وذكر له أيضًا «نظم الأزهرية في

النحو»؛ 5 ـ نظم مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وهو في النحو والصرف [العزاوي، تاريخ الأدب العربي، 2/ 136]، وذكر الزركلي أنه في نحو خمسة آلاف بيت [الأعلام، 4/ 367]؛ 6 ـ الجوهر الفريد على الجيد، في العروض، منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة الأوقاف العامة في بغداد تاريخها 1230هـ / 1815م برقم 6165 في 187 ورقة [عبد الله الجبوري، فهرس المخطوطات العربية، 3/ 183]؛ 7 ـ رسالة في التصوّف، نسخة في مكتبة برلين برقم 10125 كما ذكر بروكلمان [Brockelmann, Supp. II, 1938, 791]؛ 8 ـ الصارم القرضاب في نحر من سبّ أكارم الأصحاب، وهو نظم في أكثر من ألفي بيت ردّ فيه على قصيدة لدعبل الخزاعي الشاعر الهجاء (ت 246هـ/ 860 ـ 861م) منه نسخة في مكتبة المجمع العلمي العراقي [عواد، مخطوطات المجمع العلمي، 1/ 88 ـ 89]؛ 9 ـ نظم خلاصة الحساب، [عباس العزاوي، تاريخ علم الفلك في العراق، 264 ـ 265]؛ 10 ـ تفهيم المتفهم شرح تعليم المتعلم، في آداب التعليم، طبع في قازان ـ 1896م؛ 11 ـ مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود، وقد سبقت الإشارة إليه، اختصره أمين الحلواني المدني وحذف منه الشعر والنثر واقتصر على الوقائع التاريخية، وطبعه في بومبي بالهند في 1304هـ / 1886م بعنوان «مختصر مطالع السعود». وأعيد طبعه في القاهرة بتحقيق محب الدين الخطيب في 1315هـ / 1897م. ثم حُقق ونُشر كاملاً من قبل عماد عبد السلام رؤوف وسهيلة عبد المجيد القيسي وطُبع في الموصل في 1991م؛ 12 ـ أصفى الموارد من سلسال أحوال مولانا خالد، وهو ترجمة للشيخ خالد النقشبندي وأساتذته وتلاميذته ومريديه وخلفائه، ويتضمّن أيضًا قصائد لعثمان بن سند، وقد طبع في القاهرة في 1313هـ / 1895م؛ 13 ـ سباتك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد، الذي سبقت الإشارة إليه، وفيه 42 ترجمة. طبع في بومبي بالهند طبعتين في 1306هـ / 1888م و 1315هـ / 1897م؛ 14 ـ قصائد في أغراض مختلفة، موزعة في العديد من دور الكتب والمخطوطات [النقشبندي وعباس، مخطوطات الأدب في مكتبة المتحف العراقي، 462، 465، 485، 552].

المصادر والمراجع

● البغدادي، هدية العارفين، 1/ 661؛ ● مجلة لغة العرب، السنة 3، الجزء 4، تشرين الأول/ أكتوبر 1913، 181 ـ 186؛ ● الالوسي، المسك الأذفر، 141 ـ 146؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14 بيروت 1999، 4/ 206؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 6/ 255؛ ● العزاوي، عباس، تاريخ الأدب العربي، 2/ 45، 135 ـ 136، 155، 220 ـ 222؛ ● عواد، ميخائيل، مخطوطات المجمع العلمي العراقي، 1/ 88 ـ 89، 2/ 94 ـ 96؛ ● رؤوف، عماد عبد السلام، مقدمة كتاب مطالع السعود، 7 ـ 32؛ ● م. ن، التاريخ والمؤرخون العراقيون، 171 ـ 172؛ ● باش أعيان العباسي، عبد الله؛ ● أعيان البصرة، 15 ـ 16؛

● Brockelmann, Supp II, 1938, 791.

أ. د. خليل علي مراد
جامعة الموصل ـ العراق

البصري، أبو عبيدة، عبد الواحد بن زيد

(ت 177هـ/793م)

زاهد، قدوة، واعظ، شيخ العُبّاد. حدّث عن الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن راشد، وعبادة بن نسيّ، وأسلم الكوفي وعدّة.

وحدَّث عنه محمد بن السمّاك، ووكيع، وزيد ابن الحباب، وأبو سليمان الداراني، ومسلم ابن إبراهيم، وآخرون.

قال ابن حبّان: كان ممن غلبت عليه العبادة، حتى غفل عن الإتقان، فكثرت المناكير في حديثه. فأدّى ذلك إلى تركه. قال البخاري: تركوه، وقال النسائي: متروك الحديث.

قال ابن الحواري: قال لي أبو سليمان: أصاب عبد الواحد الفالج، فسأل الله أن يطلقه في وقت الوضوء، فكان إذا أراد الوضوء انطلق، وإذا رجع إلى سريره فلج. وكان يقول: عليكم بالخبز والملح، فإنه يذيب شحم الكلى، ويزيد في اليقين.

قال معاذ بن زياد: سمعت عبد الواحد بن زيد غير مرة يقول: ما يسرّني أنّ لي جميع ما حوته البصرة بفلسين.

وقال مسمع بن عاصم: شهدت عبد الواحد يعظ، فمات في المجلس أربعة. وعن حصين الوزان قال: لو قسم بثّ عبد الواحد على أهل البصرة لوسعهم. وكان يقوم إلى محرابه كأنه رجل مخاطب. وعن محمد بن عبد الله الخزاعي: قال صلى عبد الواحد بن زيد الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة. وقال الذهبي: نصب عبد الواحد نفسه للكلام في مذاهب النسّاك وتبعه خلق.

وكان عبد الواحد صاحب فنون، داخلا في معاني المحبة والخصوص، وقد بقي عليه شيء من رؤية الاكتساب، وفي ذلك شيء من أصول أهل القدر. فإن عندهم: لا نجاة إلاّ بعمل، فأما أهل السنة فيحضون على الاجتهاد في العمل، وليس به النجاة وحده دون رحمة الله.

قال الذهبي: وفي الجملة، عبد الواحد من كبار العبّاد، والكمال عزيز. وروى أبو نعيم الأصبهاني بسنده: أنه كان لعبد الواحد بن زيد ابن متعبد، وكان مع ذلك قد كفاه جميع أمره وحوائجه، ومات الفتى فوَجدَ به عبد الواحد وجدًا شديدا، وذكره ذات يوم فدمعت عيناه وقال: لقد نغّص عليّ الحياة بعده، ثمّ رجع وقال: وهل الحياة إلاّ منغصة؟

ورغم أنّ المترجم له كان ناسكا وكان من العبّاد، إلاّ أنه كان يشارك في غزوات الجهاد، قال: كنا في غزاة لنا ونحن في العسكر الأعظم، فنزلنا منزلا فنام أصحابي، وقمت أقرأ جزئي. فجعلت عيناي تغالباني وأغالبهما حتّى استتممت جزئي، فلما فرغت وأخذت مضجعي قلت: لو كنت نمت كما نام

أصاحبي كان أروح لبدني فإذا أصبحت قرأت جزئي. قلت هذه المقالة في نفسي والله ما حركت بها شفتاي، ولا سمعها أحد منّي. ثمّ نمت فرأيت في منامي كأني أرى شابا جميلاً قد وقف عليّ وبيده ورقة بيضاء كأنّها الفضّة.

فقلت: يا فتى ما هذه الورقة التي أراها بيدك؟ فدفعها إليّ فنظرت فإذا فيها مكتوب:

ينام من شاء على غفلةٍ
والنومُ كالموت فلا تتّكلِ
تنقطعُ الأعمالُ فيه كما
تنقطع الدنيا عن المنتقلِ

وتغيّب الفتى عنّي فلم أره! وظللت أردّد هذا الكلام كثيرًا وأبكي، وأقول: فرّق النوم بين المصلين وبين لذّتهم في الصلاة، وبين الصائمين وبين لذّتهم في الصّيام.

وحدّث عبد الواحد بن زيد فقال: أصابتني علّة في ساقي فكنت أتحامل عليها للصلاة. فقمت عليها من الليل فأجهدت وجعا، فجلست ثمّ لففت إزاري في محرابي ووضعت رأسي عليه فنمت، فبينما أنا كذلك إذا أنا بجارية تفوق الدنيا حسْنا تخطر بين جوار مزينات حتّى وقفتْ عليّ وهنّ من خلفها وقالت لبعضهنّ: ارفعنه ولا تهجنه، فأقبلن نحوي فاحتملنني عن الأرض وأنا أنظر إليهن في منامي. ثم قالت لغيرهنّ من الجواري اللاتي معها: افرشنه ومهّدنه ووطئن له ووسّدنه، ففرشن تحتي سبع حشايا لم أر لهنّ في الدنيا مثلا، ووضعن تحت رأسي مرافق خضرا حسانا. ثم قالت للائي حملنني: اجعلنه على الفرش رويدا لا تهجنه، فجعلت على تلك الفرش وأنا انظر إليها وما تأمر به من شأني. ثم قالت: احففنه بالريحان، فأُتِيَ بياسمين فحفت به الفرش، ثم قامت إليّ فوضعت يدها على موضع علّتي التي كنت أجدها في ساقي فمسحت ذلك المكان بيدها، ثمّ قالت: قم شفاك الله إلى صلاتك غير مضرور. فاستيقظت والله وكأنّي أنشطت من عقال، فما اشتكيت تلك العلّة بعد ليلتي تلك، ولا ذهبت حلاوة منطقها من قلبي: قم شفاك الله إلى صلاتك غير مضرور.

وحدّث عبد الواحد بن زياد قال: نمت عن وردي ليلة، فإذا أنا بجارية لم أر أحسن وجها منها، عليها ثياب حرير خضر، وفي رجلها نعلان تقدس بأطراف زممها فالنعلان يسحبان والزمامان يقدّسان، وهي تقول: يا ابن زيد جِدَّ في طلبي فإني في طلبك، ثم جعلت تقول برخيم صوتها:

من يشتريني ومن يكنْ سكني
يأمن في ربْحه من الغبَنِ

فقلت: يا جارية ما ثمنك؟ فأنشأتْ تقول:

تودُّد الله معْ محبّتِه
وطول شكر يُشابُ بالحزَن

فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت:

لمالك لا يردُّ لي ثمنًا
من خاطبٍ قد أتاه بالثّمن

فانتبهت وآليت نفسي أن لا أنام بالليل.

وحدّث عبد الواحد بن زيد، قال: سألت الله ثلاث ليال أن يريني رفيقي في الجنّة، فرأيت كأنّ قائلاً يقول لي: يا عبد الواحد رفيقك في الجنة ميمونة السوداء، فقلت: وأين هي؟ فقال: في آل بني فلان بالكوفة. قال:

فخرجت إلى الكوفة، فسألت عنها فقيل: هي مجنونة بين ظهرانينا ترعى غنيمات لنا. فقلت: أريد أن أراها. قالوا: اخرج إلى الخان فخرجت، فإذا هي قائمة تصلّي وإذا بين يديها عكازة لها وعليها جبة من صوف مكتوب عليها: لا تباع ولا تشترى.
وإذا الغنم مع الذئاب لا الذئاب تأكل الغنم، ولا الغنم تفزع من الذئاب. فلما رأتني أوجزت في صلاتها ثم قالت: ارجع يا ابن زيد، ليس الموعد هاهنا غدًا الموعد ثمّ. فقلت لها: رحمك الله وما يعلمك أني ابن زيد؟
فقالت: أما علمت أنّ الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. فقلت لها: عظيني! فقالت: واعجبا لواعظ يوعظ.

ثم قالت: يا ابن زيد! إنه الغنى ما من عبد أعطي من الدنيا شيئا فابتغى منها ثانيا إلاّ سلبه الله حبّ الخلوة معه، ويبدله بعد القرب البعد، وبعد الأنس الوحشة. ثم أنشأت تقول:

يا واعظًا قام لاحتساب
يزجر قوما عن الذنوبِ
تنهى وأنت السّقيم حقا
هذا من المنكر العجيبِ
لو كنت أصلحتَ قبل هذا
غيّك أو تبتَ منْ قريبِ
كان لِمَا قلت يا حبيبي
موقعُ صدق من القلوبِ
تنهى عن الغي والتمادي
وأنتَ في النهيِ كالمُريبِ

فقلت لها: إنّي أرى هذه الذئاب مع الغنم، لا الغنم تفزع من الذئاب، ولا الذئاب تأكل الغنم، فأيش هذا؟ فقالت: إليك عنّي، فإنّي أصلحت ما بيني وبين سيّدي، فأصلح بين الذئاب والغنم.

قال عبد الواحد بن زيد: ما للعاملين والبطنة؟ إنّما العامل تجزيه العلقة التي تقوم برمقه. قال حصين بن القاسم الوزان: وسمعته يقول يوما: عاهدت الله عهدا لا أحنث بعهدي عنده أبدا، قلت: ما هو يا أبا عبيدة؟ قال: اقصر يا حصين. قلت: أوَمَا تؤمّل في إخبارك إياي خيرا من قدره؟ قال: بلى! قلت: فأخبرني. قال: عاهدته أن لا يراني نهارا طاعما أبدا حتّى ألقاه.

قال حصين: فإنّه كان ليشتدّ به المرض فيجتهد به إخوانه أن ينال شيئا فيأبى ذلك حتّى قضي عليه. وروى سيار بن عاصم عنه أنه قال: من نوى الصبر على طاعة الله صبّره الله عليها وقوّاه لها، ومن نوى الصبر عن معاصي الله أعانه الله على ذلك وعصمه منها. قال: وقال لي يا سيار: أتراك تصبر لمحبة عن هواك فيخصب صبرك؟ لقد أساء بسيده الظن من ظنّ به هذا وشبهه. قال: ثمّ بكى عبد الواحد حتّى خفت أن يغشى عليه، ثم قال: بأبي أنت يا مسبغ نعمه غادية ورائحة على أهل معصيته، فكيف ييأس من رحمته أهل محبّته.

قيل لعبد الواحد بن زيد: إنّ بالبصرة رجلا يصلّي ويصوم منذ خمسين سنة، هل قنعت منه بعد؟ قال: لا! قال: فهل رضيت عنه؟ قال: لا. قال: فهل أنست به بعد؟ قال: لا. قال: فإنما ثوابك من عملك التزيّد في الصوم والصلاة؟ قال: نعم! قال: لولا أنّي أستحي منك لأعلمتك أنّ عملك مدخول.

وقال عبد الواحد بن زيد: ما أحبّ شيئا من الأعمال يتقدّم الصبر إلاّ الرضا، ولا أعلم درجة أرفع ولا أشرف من الرضا، وهي رأس المحبّة. وقال: الإجابة مقرونة بالإخلاص لا فرقة بينهما.

وحدّث مسلم العبداني قال: قدم علينا مرّة صالح المري، وعبد الواحد بن زيد، وعتبة الغلام، وسلمة الأسواري، فنزلوا على الساحل قال: فهيّأت لهم ذات ليلة طعاما فدعوتهم إليه، فجاؤوا، فلمّا وضعت الطعام بين أيديهم إذا قائل يقول من بعض أولئك المطولة وهو على ساحل البحر مارا رافعًا صوته يقول:

وتلهيك عن دارِ الخلود مطاعمٌ
ولذّةُ نفس غيُّها غير نافع

قال: فصاح عتبة صيحة، فسقط مغشيا عليه. وبكى القوم، ورفعنا الطعام وما ذاق أحد والله لقمة واحدة.

ومن حكمه الخالدة قوله: جالسوا أهل الدين، فإن لم تجدوهم فجالسوا أهل المروءات، فإنهم لا يرفثون في مجالسهم. وقال الحارث بن عبيد: كان عبد الواحد بن زيد يجلس إلى جنبي عند مالك بن دينار، فكنت لا أفهم كثيرا من موعظة مالك، لكثرة بكاء عبد الواحد. وقال حاتم بن سليمان الطائي: شهدت عبد الواحد بن زيد في جنازة حوشب فلمّا دفن قال: رحمك الله يا أبا بشر، فلقد كنت حذرا من مثل هذا اليوم، رحمك الله يا أبا بشر، فلقد كنت من الموت جزعا، أما والله لئن استطعت لأعملنّ رحلي بعد مصرعك هذا، قال: ثمّ شمّر بعد واجتهد.

قال عبد الواحد بن زيد: طريق بين القلبين منخرقة لا يحجز المار فيها شيء، خروج الموعظة من قلب المتكلّم تقع في قلب المستمع كما خرجت من قلب الواعظ لا يغيّرها شيء.

حدث مسمع بن عاصم، قال: شهدت عبد الواحد بن زيد عاد مريضًا من إخوانه، فقال: ما تشتهي؟ قال: الجنة ! قال: فعلام تأس من الدنيا إذا كانت هذه شهوتك؟ قال: آسى والله على مجالس الذكر ومذاكرة الرجال بتعداد نعم الإلاه، قال عبد الواحد: هذا والله خير الدنيا، وبه يدرك خير الآخرة.

وقال عبد الواحد بن زيد: من قَوِي على بطنه قوي على دينه، ومن قوي على بطنه قوي على الأخلاق الصالحة، ومن لم يعرف مضرّته في دينه من قبل بطنه، فذاك رجل في العبّادين أعمى. قال مضر القارئ: سمعت عبد الواحد ابن زيد يقول: وعزتك لا أعلم لمحبتك فرح مَن أحلّ الصادقين دار الكرامة، وأورث الباطلين منازل الندامة، اجعلني ومن حضرني من أفضل أوليائك زلفى، وأعظمهم منزلة وقربى، تفضلا منك عليّ وعلى إخواني، يوم تجزي الصادقين بصدقهم دانت قطوفها دانية متدلّية عليهم ثمارها.

حدّث أبو علي الأزدي عن عبد الواحد بن زيد، قال: خرجت أنا ومحمد بن واسع، ومالك بن دينار نحو بيت المقدس، فلمّا كنّا بين الرصافة وحمص سمعنا مناديا ينادي من تلك الرمال: يا محفوظ يا مستور اعقل في ستر من أنت، فإن كنت لا تعقل فاحذر الدنيا، وإن كنت لا تحسن أن تحذرها فاجعلها شوكة وانظر أين تضع رجلك؟!

قال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم، وجنّة الدنيا، ومستراح العابدين.

قال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب في صومعته، فقلت لأصحابي: قفوا! فكلّمته فقلت: يا راهب، فكشف سترا على باب صومعته فقال: يا عبد الله بن زيد، إن أحببت أن تعلم علم اليقين، فاجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد، قال: وأرخى الستر.

حدّث عبد الواحد بن زيد قال: خرجت أنا وفرقد السبخي، ومحمد بن واسع، ومالك بن دينار، نزور أخا لنا في أرض فارس برامهرمز إذا نحن بضوء في سفح جبل، فنزعنا نحوه فإذا نحن برجل مجذوم يقطر قيحا ودما. فقال له بعضنا: يا هذا لو دخلت هذه المدينة فتداويت وتعالجت من بلائك هذا، فرفع طرفه إلى السماء فقال: إلهي أتيت بهؤلاء ليسخطوني عليك، لك الكرامة والعتبى بأن لا أخالفك أبدا.

مات عبد الواحد بن زيد البصري بعد الخمسين ومائة، قال الذهبي، وقال: ويقال بقي إلى سنة سبع وسبعين ومائة، وهذا بعيد جدا، وإنّما المتأخر إلى هذا التاريخ الحافظ عبد الواحد بن زيد البصري.

المصادر والمراجع

● الأصفهاني، أبو نعيم، حيلة الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت، ج6/ 155- 165؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. علي أبو زيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993، ج7/ 178 180؛ ● البخاري، التاريخ الكبير، تح. عبد الرحمان المعلمي اليماني، الهند، دائرة المعارف العثمانية، 1380هـ، ج6/ 62؛ ● البخاري، التاريخ الصغير، تح. محمود إبراهيم زايد، دار الوعي والتراث، حلب، 1977، ج2/ 144؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام، مكتبة القدسي، القاهرة، 1368هـ، ج6/ 243- 245؛ ● الذهبي، ميزان الاعتدال، تح. علي البجاوي، القاهرة، 1963م، ج2/ 672- 673؛ ● ابن حبّان السبتي، كتاب المجروحين، تح. محمود إبراهيم زايد، حلب، 1396هـ، ج2/ 154- 155؛ ● ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، تح. عبد الرحمان المعلمي اليماني، حيدر آباد، 1373هـ، ج6/ 20؛ ● ابن المعين، يحيى، المعرفة والتاريخ، تح. أحمد محمد نور سيف، مكّة المكرّمة، 1979م، ج2/ 122 و3/ 61؛ ● ابن الجوزي، صفة الصفوة، تح. محمود فاخوري ومحمد رواس قلعة جي، دار الوعي، حلب، 1393هـ/ 1973م، ج3/ 321- 325.

أ. هلال ناجي
باحث في التراث ـ العراق

البصري، أبو القاسم علي بن حمزة

(ت 375هـ/985م)

علي بن حمزة البصري أبو القاسم، وكنيته في بعض المراجع (أبو نعيم). لغوي، أديب، ناقد.

ولد بالبصرة وعاش فيها وأقام في بغداد مدة، ولما ورد المتنبي بغداد، كان علي بن حمزة فيها، وفي داره نزل، واختيار المتنبي علي بن حمزة مضيفا له دليل على مكانته العلمية في بلده، وعلى صلته الطيبة به، فقد وصفه مؤرخ صقلية الحسن بن يحيى الصقلي براوية المتنبي.

لم تذكر المصادر التي بين أيدينا أسماء شيوخه ولا طلبته. مما يدل على أنه لم يكن له شيخ مشهور. ارتحل إلى صقلية وتوفي بها. وصف بأنه من أهل اللغة الفضلاء المتحققين العارفين.

آثاره

1 ـ التنبيهات على أغاليط الرواة، وهو كتاب يرد فيه ابن حمزة البصري على الأغلاط التي وقع فيها المتقدمون من مشاهير اللغويين والأدباء، ويصوّبها بحسب ما يرى.

يتضمن الكتاب الرد على أبي زياد الكلابي، وعلى ابن الأعرابي، وعلى أبي عمرو الشيباني في نوادرهم، والرد على ابن السكيت في «إصلاح المنطق»، والرد على أبي حنيفة الدينوري في كتابه «النبات»، والرد على الجاحظ في كتابه «الحيوان»، والرد على أبي عبد القاسم بن سلام في كتابه «الغريب المصنف»، والرد على ابن ولاد النحوي في كتاب «المقصور والممدود»، والرد على ثعلب في كتاب «الفصيح»، وعلى المبرد في كتابه «الكامل».

والذي يجدر ذكره هو أن كل واحد من هذه الردود التي يتضمنها كتاب التنبيهات، ذكر باسم كتاب مستقل منسوب للبصري. والواقع أنها أبواب في كتاب «التنبيهات على أغاليط الرواة». ومخطوط الكتاب منتشرة في كثيرة من المكتبات العالمية.

ذكر الزركلي صاحب «الأعلام» وسزكين صاحب «تاريخ التراث العربي» أن الكتاب مطبوع، ولكن الملاحظ أن ليس كل الكتاب مطبوعا، بل المطبوع منه هي الأبواب التي يردّ فيها علي بن حمزة البصري على المبرد في «الكامل»، وثعلب في «الفصيح»، وأبي عبيد في «الغريب المصنف»، وابن السكيت في «إصلاح المنطق»، وابن ولاد في «المقصور والممدود». أما بقية الردود فليست مطبوعة، ولعل تلك الردود ناقصة من أصل المخطوطة التي وصلت إلينا، كما ذهب فؤاد سزكين صاحب «تاريخ التراث العربي»، وكما ورد في بعض الدراسات المعاصرة.

والتنبيهات المطبوعة جاءت في كتابين:

الأول: كتاب «المنقوص والممدود للفراء، والتنبيهات لعلي بن حمزة البصري»، الذي حققه عبد العزيز الميمني وصدر عن دار المعارف بمصر سنة 1967، ويقع في (388) صفحة، وتبدأ التنبيهات والردود من الصفحة 79 من كتاب الميمني.

والثاني: كتاب «تنبيهات علي بن حمزة على ما في الغريب المصنف من أغلاط». للدكتور أحمد طه حسانين سلطان، دار البشري بالقاهرة، 1988، يقع في (149) صفحة، وينتصر فيه المؤلف غالبا لأبي عبيد صاحب الغريب المصنف؛ 2 ـ كتاب الآباء والأمهات، انفرد بذكره إسماعيل البغدادي صاحب «إيضاح المكنون»، وعنه نقل فؤاد سزكين صاحب «تاريخ التراث العربي»؛ 3 ـ نوادر في النحو. انفرد بذكره إسماعيل البغدادي صاحب «إيضاح المكنون»، ولم تذكر المراجع المتداولة مخطوطته؛ 4 ـ ينسب إليه فؤاد سزكين صاحب «تاريخ التراث العربي» أنه جمع ديوان شعر أبي طالب. ولكنه لم يصل إلينا.

ولا شك في أن كحالة صاحب «معجم المؤلفين» قد وهم عندما ذكر له كتاب «الغريب المصنف»، ولعل وراء هذا سهوا أو سقطا طباعيا.

المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت بن عبد الله، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت، ط 1، 1991، دار الكتب العلمية، 4/ 108؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، 1384هـ/ 1964م، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 2/ 165؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، وكالة المعارف إستنبول، دار العلوم الحديثة بيروت، 1/ 682؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، تصحيح رفعة بيلكة الكليسي، بيروت، (د. ت)، دار الحديثة، 1/ 322، و 2/ 260؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، (د. ت)، دار المعارف بمصر، 2/ 194؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط 1، 1414هـ/ 1993م، مؤسسة الرسالة، 2/ 246؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية عرفة مصطفى ومازن عماوي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1988 ـ 1408، مج. 8، 1/ 189 ـ 190؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 283.

د. ممدوح محمد خسارة
جامعة دمشق

البصير، محمد مهدي

(1314هـ/1896م ـ 1394هـ/1974م)

شاعر وسياسيّ عراقي معروف، ولد في مدينة الحلة في العراق سنة 1896م في أسرة عربية احترفت الخطابة الدينية في المنبر الحسيني. ترجع هذه الأسرة في نسبها إلى قبيلة بني كلاب العربية العريقة. تعرف أسرة البصير في مدينة الحلة العراقيّة بأسرة «شيخ شهيب» نسبة إلى أحد أجداده وهو واعظ ديني معروف توفى سنة 1311هـ.

وتحت تأثير الجو الديني لأسرته نشأ الشاعر والكاتب محمد مهدي البصير، ولقّب بالبصير تلطفا بعد أن فقَدَ بصره وهو في سن الخامسة من عمره لأصابته بالجدري. وانسجاما مع تقاليد أسرته في ممارسة الشعائر الدينيّة لبس العمّة وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان يعاون والده في قراءة المقدّمة في خطابة المنبر الحسيني، ثمّ أصبح قارئا مشهورا في مدينته.

اتجه البصير إلى الأدب والشعر والسياسة في بداية العقد الثاني من عمره، فاشتهر شاعرا وسياسيا ومتحدثا لبقا، ونتيجة لجهوده الشعريّة والسياسيّة الكبيرة لقّب بشاعر ثورة العشرين وهي الثورة التي قام بها الشعب العراقي عام 1920 ضدّ الاحتلال الإنجليزي للعراق، وسماها المؤرخون والسياسيون في العراق بثورة العشرين نسبة إلى سنة تفجيرها.

سافر البصير إلى مصر للدراسة ومكث فيها سنة واحدة، تعلم فيها اللغة الفرنسيّة. ثمّ ترك مصر وسافر إلى فرنسا لإكمال دراسته في جامعاتها وحصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الفرنسي من جامعة مونبليه عن أطروحته الموسومة: «Le Lurisme de Corneille» (شعر كورناي الغنائي) عام 1937م.

عاد إلى العراق بعد حصوله على الدكتوراه، وعيّن مدرسا في دار المعلمين العالية، وهي مؤسسة جامعيّة تخرج فيها العديد من كبار الأدباء والباحثين والمفكّرين العراقيين، وبقي فيها حتّى تقاعده.

يعتبر محمد مهدي البصير في نظر جيله واحدا من المنابر الوطنيّة البارزة في العراق، وفي نظر طلابه مدرسة تربويّة وأدبيّة وثقافيّة، وهو في نظر المؤرّخين واحدا من القلائل الذين بعثوا الحماسة في الناس في ثورة العشرين، وفضلا عن شعره في هذه الثورة فإنّ كتابه الذي طبع سنة 1923 بعنوان «تاريخ القضيّة العراقيّة»، يعتبر مصدرا مهما عن ثورة العشرين.

لقد طغى الشعر السياسي الملتزم على نتاج البصير الشعري، وهذا ما نجده في ديوانه الشعري الثاني «البركان» الذي طبعه عام 1959، وكذلك هو الحال في نتاجه الثقافي العام، فكتابه «خطرات في السياسة والمجتمع» الذي طبع سنة 1952 يؤكد الأفكار الملتزمة التي تضمنها شعره.

لقد كتب عن البصير كثيرون، وتناولت جهوده الفكريّة والأدبيّة أطاريح جامعيّة، ولعلّ أبرز من كتب عنه الناقد والكاتب المعروف الدكتور علي جواد الطاهر، ومنعم حميد حسن الذي تناول البصير بكتاب مستقل طبع صدر سنة 1980.

آثاره

1 ـ الشذرات، ديوان شعري، بغداد 1922؛ 2 ـ تاريخ القضية العراقيّة (1 ـ 2)، بغداد 1923 ـ 1924؛ 3 ـ دولة الدخلاء، تمثيلية، بغداد 1925؛ 4 ـ النفثات (1 ـ 2)، بغداد 1925؛ 5 ـ بعث الشعر الجاهلي، بغداد 1939؛ 6 ـ نخبة من شعر محمد مهدي البصير، نشرها، روفائيل بطي في الأدب العصري في العراق 20، القاهرة 1923؛ 7 ـ المختصر، مجموع يضم شيئا من النظم والنثر، بغداد 1340هـ؛ 8 ـ الموشح في الأندلس وفي المشرق، بغداد 1948؛ 9 ـ نهضة العراق الأدبيّة في القرن التاسع عشر، بغداد 1946؛ 10 ـ في الأدب العباسي، بغداد ط1، 1949، ط 2، 1955؛ 11 ـ عصر القرآن، بغداد 1، 1947، ط2، 1955؛ 12 ـ البركان، ديوان شعري، بغداد 1959؛ 13 ـ سوانح، ج1، بغداد 1967؛ 14 ـ خطرات، ج1، بغداد 1953؛ 15 ـ المجموعة الكاملة لشعر محمد مهدي البصير، بغداد 1977.

المصادر والمراجع

- عواد، كوركيس، معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين 1800 ـ 1969، مجلد 3، مطبعة الإرشاد، بغداد 1869، من منشورات المجمع العلمي العراقي؛
- المطبعي، حميد، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج1، ط1، دار الشؤون الثقافيّة، بغداد 1995؛
- البصير، محمد مهدي، المجموعة الشعريّة الكاملة، بغداد 1977.

د. جاسم محمد حسن
جامعة الموصل ـ العراق

البصير، يوسف بن إبراهيم

(ق 5هـ/11م)

أحد كبار الفلاسفة اليهود القرائين الذين عرفوا ظهورهم وانتشارهم في ظل الحضارة الإسلامية. لا يعرف مكان مولده بالضبط ولكنه عاش بين بغداد وبلاد فارس في النصف الأول من القرن الخامس هـ/الحادي عشر للميلاد على ما بيّنه كل من فيركوفيتش وهاركافي، ولقب بالبصير أو «الرائي» بالعبرية بعد أن كف بصره وكان كثير الترحال حتى عده البعض من دعاة القرائين في الأمصار. وقد خلط كثيرون بينه وبين القرائي الآخر أبو

يوسف يعقوب القرقساني الذي عاش قبله بقرن من الزمان تقريبا .

وهو يعتبر من كبارعلماء التلمود والأدب الرباني، وكانت له مشاركة في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الذي طعم به المذهب القراني في مناظراته مع الربانيين جمهور اليهود. وحذا حذو الاعتزال في تفكيره وأرائه الدينية بان أعطي أولوية للعقل على النقل قائلا بالتحسين والتقبيح العقليين، كما ذهب إلى أن العقل وحده يمكنه معرفة الحكمة من الفعل الإلهي ونفى عن الله الجسمية وأثبت له الإرادة والوحدانية والأزلية. كما احتلت مسألة العدل والجبر والاختيار منزلة خاصة في فلسفته الكلامية معتبرا أن الله لا يفعل إلا الأصلح بمقتضى حكمته لا بمقتضى الضرورة، وأن الإنسان حر في أفعاله وإن كان في علم الله السابق أنه سيفعل ما يفعل فلا يعزب عن علمه السابق شيء، وأن الله يجازي الأخيار من الناس في الآخرة، وأن عليه أن يقبل توبة التائب ويرفع عنه العذاب.

آثاره

1 ـ المحتوي، وهو أربعون فصلاً حاول فيها أن يطوع الاعتزال لخدمة المذهب القرائي. وكثيرا ما ناظر في هذا الكتاب النصارى والثنوية والمجوس والابيفوريين وغيرهم. وقد ترجم الكتاب من العربية إلي العبرانية بعنوان «سفر نتيموت» أو «زخرون هادوت» ترجمه فيما يبدو طوبيا بن موسى؛ 2 ـ كتاب التمييز أو الكتاب المنصوري وهو أيضا ثلاثة عشر فصلا ترجمه طوبيا بن موسى بعنوان «ماخكمات بتي»، وفي آخر فصل منه حمل بشدة على الكتاب الصوفي الباطني المعروف بـ «الشعور قوما» رافضا مذهب بنيامين النهاوندي في قوله إن العالم هو صنعة الملائكة. ويبدو مما كتب أنه كان على معرفة وثيقة بنصوص سعديا غاؤون وخصوصا كتابه الأمانات والاعتقادات «امنوت فيديعوت» إذ كثيرا ما نجد أثرا لنصوصه في ثنايا كتاب التمييز؛ 3 ـ كتاب الاستبصار، وهو في مسائل الأحكام الشرعية وتعالج بعض فصوله مسائل الميراث والطهارة حسب المذهب القرائي، وتوجد نسخ من بعض أجزائه في المتحف البريطاني دون اسم المؤلف. وقد ترجم طوبيا بن موسى القسم المتصل بالأعياد وفيه مناظرة للبصير ضد سعديا الفيومي.

وقد اعتبر القراؤون البصير أحد أركان مذهبهم وعمدتهم في مسائل المناظرة والأحكام يستوي في ذلك يهودا هاداسي، أو هارون بن يوسف هاروفي أو من جاء بعدهما من أمثال هارون بن ايلياء في القرن الثامن/ الرابع عشر الذي كثيرا ما استشهد به في كتابه «شجرة الحياة» «عيتس حاييم»، ويذهب ليون نيموي، وإسحاق بار مركون إلى أنه كان وراء حركة الإصلاح التي عرفتها الحركة القرائية فيما يتصل بمسائل أحكام النسب والقرابة التي وجدت غايتها في ما كتبه يوشع بن يهودا.

المصادر والمراجع

- Encyclopaedia Judaica. Jerusalem, Keter Press, 1971;

- P. F. Frankel, Ein mutazilitischer Kalam aus dem 10, Jahrhundert (1872);
- S. Poznaski, Karaite Literary Opponents of Saadiah Gaon (1908), 46-48;
- Steinschneider Moritz, Arabische litteratur der Juden, Hildesheim GeorgOlms Verlagbuchandlung.

د. فوزي البدوي

جامعة منوبة - تونس

ابن بُصيص، محمد بن موسى بن علي الشافعي

(ق 8هـ/14م)

لعل أول من ترجم له كان مستقيم زادة سليمان سعد الدين في كتابه الموسوم «تحفة خطاطين» المطبوع في الأستانة بمطبعة الدولة سنة 1928، ص 46، قال إنه: محمد ابن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن البصيص، وإنه شرح القصيدة الرائية لابن البواب. وقال: وفي هذا الشرح فوائد عن ابتداء الخط الكوفي، واختراع الكتابة المنسوبة من قبل الوزير ابن مقلة، وقد ذكر في البداية أن له اليد الطولى في معرفة دقائق حسن الخط. والظاهر أن مستقيم زادة قد وقف على مخطوطة شرح ابن البصيص، ولم تكن عنده معلومات عن الشارح، فاستقى معلوماته من الشرح نفسه، واستنتج مما فيه معرفته الجيدة بدقائق حسن الخط لما قدّمه في الشرح من مادة فنية وعلميه فيما يتعلق بالخط وأصوله وأدواته ومواده.

ثم جاء حبيب أفندي (ت1311هـ) فترجم في كتابه [خط وخطاطان، مطبعة أبو الضياء، قسطنطينية 1306هـ، 48] لابن البصيص، ونقل ما أورده مستقيم زادة بنصّه. وحذف «ال» التعريف من شهرته للضرورة اللغوية الأعجمية، فصارت شهرته «ابن بصيص»، كما حذفها عبد القادر الصيداوي في منظومته «وضّاحة الأصول» التي نشرها كاتب هذه المادّه في [مجلة المورد البغداديه، 1986]، للضرورة الشعريه، كما غيّر اسم أبيه فجعله «عبد الله» للسبب ذاته، ولكي ينسجم ويوافق قافية صدر البيت، وقد نسب المؤرخ عباس العزاوي في مقالته الموسومة «الخط ومشاهير الخطاطين في الوطن العربي» التي حققها ونشرها ابنه السيد فاضل عباس العزاوي [بمجلة سومر البغداديه، م 38 ج1 و2، 1982، ص284-302] الشرح إلى أبيه أي إلى: نجم الدين موسى (651 716هـ) لأنه المشهور بهذا اللقب، غطت شهرته على ابنه. وترجم له ابن حجر العسقلاني، في [الدرر الكامنة، 5/ 147] فقال: موسى بن علي

محمد الشهير بابن البصيص، نجم الدين المجوِّد كاتب الخط المنسوب، ولد بحماة سنة 651هـ واخترع المنسوب، فأتقنه وكتب الأقلام بها، ثم اخترع قَلَماً سمّاه «المعجز»، وانتفع به الدمشقيون وكتب هو بخطّه كثيرا ورزق الخطوة. وكان مع ذلك يعمل بالفأس في بستانه ويضرب اللبن ويبني بيده. وكان ينظم نظماً سافلاً عَرِيّاً عن الأعراب على طريقة الصوفية، وكان مأموناً عفيفاً، ومن شعره:

تشفّع بالنبيّ فكلُّ عَبْدٍ
يُجار إذا تشفّع بالنبيِّ
ولا تجزع إذا ضاقت أمورٌ
فكمْ للّه من لُطفٍ خفيِّ

توفّي ابن البصيص في ذي القعدة سنة 716هـ.

هذه الترجمة القصيرة المكتنزة بالمعلومات المفيدة التي أوردها ابن حجر، أنارت جوانب من حياة الابن المترجم له

فيمكن القول دون تردد أنه نشأ برعاية أبٍ خطاط مبدع بلغ من إبداعه أن مدّ جناحه فانتفع الخطاطون الدمشقيون من علمه وفنه، بل جاوز ذلك إلى ابتكار قلم سماه «المعجز» وهذا وضعه في مصاف عباقرة الخطاطين الذين وُفّقوا إلى ابتكار أنواع جديدة من الخط رفدوا بها مسيرة الخط العربي وتطوره عبر العصور. وكما كان الأبُ عفيفاً متديّناً متمسكاً بتعاليم دينه، سلك الابن مسلكه، ونلمس ذلك واضحاً في شرحه لرائية ابن البواب حيث ختم الشرح بقوله: «اللهم ارزقنا التوفيق لما تحبُ وترضى، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة، واسترنا بين يديك يا أكرم الأكرمين، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، لا تفضحنا بين يديك، وأجرنا برحمتك يا أرحم الراحمين، واهدنا إلى أحمد الطرائق فإنه لا يهدي إلاّ أنت يا كريم».

فمثل هذا الكلام ينمّ عن إيمان عميق، ونقاء سريرة وتمسك بمبادئ الإسلام الحنيف. نشأته في ظل أب عملاق من عمالقة الخط العربي، أورثه حُبَّ الخط العربي والتعمق في فهم قواعده وأصوله وفنونه وأدواته، الأمر الذي أتاح له تقديم هذا الشرح النفيس لرائية ابن البواب.

إن كل المصادر التي ذكرت ابن البصيص كان المقصود فيها الأب، كما جاء في «لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف» لمؤلفها حسين بن ياسين بن محمد الكاتب (ت بعد 780هـ)، و«الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر، و«جامع محاسن كتابة الكتاب» للطيبي، و«وضاحة الأصول» للصيداوي، وقد وَهِمت محققة «المختطف» السيدة هيا محمد الدوسري، فجاءت بسيرة أحمد بن بُصيص اليمني النحوي اللغوي العروضي (ت768هـ) بزعم أنه المقصود. وواضح أن لا علاقة لهذا العالم بهذا الموضوع الذي تعرض لطريقة «خط الأشعار». والذي تعرض لهذا الخط محمد بن موسى (الابن) في شرحه هذا بشكل دقيق موضحاً فيه حقيقة ما ذكره صاحب «لمحة المختطف» عن من هو ابن البصيص، وما المقصود برأيه في قلم الأشعار.

يستنتج مما تقدم أن المترجم له خطاط وابن خطاط، مبدع، حموي الأصل صنّف هذا الشرح لرائية ابن البواب. وقد حفظت لنا مكتبة ولي الدين أفندي التي تضمها مكتبة بايزيد في الأستانة مخطوطته الفريدة في الدنيا

ضمن مجموع برقم 801، يشغل منه الورقات (11-24) اسم الناسخ وتاريخ النسخ مجهولان، وهو من موقوفات والدة السلطان العثماني عبد المجيد خان سنة 1266هـ.وقبل الحديث عن محتويات هذا المخطوط، نرى ضرورياً الإشارة إلى مختصر له ظفر به كاتب هذه الترجمة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنوّرة عام 1977 ونشره في مجلة «المورد» البغدادية سنة 1986.

هذا المختصر مجهول المؤلف جعل عنوانه «رسالة في علم القلم والحبر والكتابة والورق»، تصنيف الشيخ أبي الحسن علي بن هلال الكاتب البغدادي المعروف بابن البواب، وجمعت شروحها من شرح ابن بصيص ومن شرح ابن الوحيد. والرسالة المذكورة من صنع جامع مجهول لا نعرف اسمه ولا عصره، قام بنسخ قصيدة ابن البواب الرائية الشهيره ووضع لها شرحاً جمعه من شرحي ابن البصيص وابن الوحيد سماه «المنظومة المستطابة في علم الكتابة». وكنت قد نشرت شرح ابن الوحيد عام 1967 في تونس، وكنت لا أعرف لشرح ابن البصيص مظنة، فقد اغتبطت بالظفر، بهذه الرسالة، ورغم أن الجامع المجهول قد دمج الشرحين معاً، إلاّ أنّ سبْق معرفتي بشرح ابن الوحيد سهّل عليّ أمر فرز أقوال ابن البصيص وتصديرها باسمه وردّها إليه. كان المجموع محفوظاً برقم خاص 80 ورقم عام 277. ويشغل الصحائف 177-180 من المجموع، وكان العنوان من وضع جامعها المجهول كما قلنا. وقد ضمّ المختصر الذي نشرناه اثني عشر نصاً من رسالة ابن البصيص مجتزأة من الأصل ثابتة النسبة له، وقد أكد هذه الحقيقة محقق النسخة الكاملة الخطاط الموهوب الاستاذ يوسف ذنون في تحقيقه الرائد لها، المنشور مبتوراً في العدد الاول من المجلد التاسع والعشرين الصادر ببغداد عام 2001.

إن نشرة الأستاذ يوسف ذنون، قد كشفت معلومات مجهولة عن والد الشارح ودوره البنّاء في تطور ومسيرة الخط العربي في عصره. فهو يشير في شرحه إلى بعض اختيارات أبيه موسى بن علي في بري الأقلام وشحمة القلم. ثم أورد رأياً لأبيه في الكتابة، لم نظفر به في مرجع آخر قال: الكتابة تنقسم إلى أقسام، من ذلك ما ينقسم إلى أصلين، الأصل الأول: قلم المحقق، وهو أول ما يُبدأ به، وذلك لتحقيق حروفه وهو أن تكون واوه مفتوحة، كذلك فاؤه وميمه، ومجلسه وحروفه محققة ومجلسيه، ومنه يستخرج قلم الريحان ـ النسخ: وهو الذي تكتب به الأحاديث النبوية، وكتب الفقه، وكتب النحو، وكتب اللغه وغيرها.

والأصل الثاني: وهو قلم الثلث، وهو أصل الكتابة، ومتى أتقنه الكاتب أتقن جميع حروف الكتابة فهذا قلم الثلث، هو أساس الكتابة وأصلها، ومنه تتفرع الأقلام، وفرعه مستخرج منه . ومن التوقيعات يُستخرج منه فرعه وهو قلم الرقاع الذي تكتب به المراسلات بديوان الانشاء على القصص وغيرها من سائر كُتّاب التصرف وكُتاب الشروط. ثم أن الشيخ والدي - رحمه الله- نظر إلى الأصل الأول، وهو قلم المحقق وإلى الأصل الثاني وهو قلم الثّلث، فجمعهما فامتزج بعضهما ببعض فسُميَ بقلم الأشعار،

وهو القلم السابع. ومنهم من يسميه المؤنق. قال الشارح: فهذه الأقلام السبعة التي جمعها والدي ووضعها ورتبها هذا الترتيب. ثم إن والدي برع في الكتابة وحذا حذو ابن البواب والولي (العجمي) وأزيد، ولكنهما بالسبق حازا التفضيل، وكتب «قلم المزوج» وتفرّد به، وفاق من تقدّمه، والى زماننا هذا لم يأتِ من كتبه مثله، واخترع قلماً سُمّيَ «المعجز والمخلع» جمع فيه سائر الأقلام. وقال بعض الشعراء في كتابة الشيخ أبيه:

كتابةُ الشيخ نجمُ الدين معجزَةٌ
فَجَرِّب النقل كي تعلم بلا إنكارْ
فإنّها عندَ نقل الوضع تعرفها
بالعجز عنها فَهاكَ الخُبْرَ بالاخبارْ

ووقع الشارح في سقطة علمية حين نسب لأبيه كلاماً في وصف الخط الحسن، وهذا النص قديم، ورد عند أبي بكر الصولي في كتابه [أدب الكُتّاب، ص50]، ومن الخطأ نسبته لوالد الشارح. ثم أورد الشارح كلاماً لأبيه في قسمة الأقلام قال: «قلم المنثور، والمقترن، والطومار، والحواشي، والغبار، والشعرة، والذي أشار إليه والدي في قلم الثلث لأنه أصل الكتابة فقال: هذا القلم هو واسطة عقد الأقلام وحاكمها، والمرجوع إليه في جميع الأقلام، والسُلّم الذي يتوصل به إلى الطومار، ويندرج تحته ما دونه من الأقلام الصغار، مثل المنثور والحواشي والغبار والمحقق. فهو الذي تحققت حروفه، والتواقيع الذي تداخلت حروفه وتعلقت خلاف المطلق، تنظر إلى المُحَقَّق بفتح أكثر عيونه، ليس هو برطوبة محضة تستدعي ما تستدعيه العجلة من التعليق، ولا يبوسة محضة فيحتاج إلى التحقيق، ولا بُدّ من معرفتها من شيخ يوقف ويهدي إلى الطريق القائد إليها، ليعلم أنواع النِسَب والمقادير، ويمكن مع إعطاء الصغير حكمَ الكبير، فاعلم ذلك وقس عليه متيقناً أنك لا تكاد تظفر ببعضه ما لم تتكل بكليتك على الله ثم عليه».

بالإضافة لهذه المعلومات المجهولة عن والد الشارح، فإنّ الشارح قد عرّف بالأقلام (الخطوط) الشائعة في بواكير القرن الثامن الهجري، ووظائفها، والأغراض التي استعملت فيها. كما أوضح بعض التجارب العملية التي عايشها، والخبرات الخطية التي شرحها، وتظهر دقائق الصنعه ماثلة في نصوصه. ثم إن انعكاس الثقافة الخطية الشائعة في عصره، شكّل مادة دراسية نادرة لفترة مطموسة الملامح في مصادر ذلك العصر.

إن قصيدة ابن البواب (ت413هـ) انصبت على آلات الكتابة وأدواتها، وقد تصدّى لشرحها ثلاثة أعلام عَبْر العصور: ابن الوحيد، وابن البصيص، والجعبري، والشرح الأول حققته ونشرته في تونس عام 1967، وشرح ابن البصيص حققه ونشره الخطاط القدير الأستاذ يوسف ذنون في بغداد عام 2001، وهو مدار حديثنا، أما شرح إبراهيم ابن عمر الجعبري (ت732هـ) فما زال مفقوداً، والجدير بالذكر أن الجعبري حصر مصنفاته في مخطوطة كتابه «الهبات الهنيات في المصنفات الجعبريات» وقد حققه ونشره د. صالح مهدي عباس، ولم يورد الجعبري ذكر هذا الشرح في فهرست كتبه، وربما كانت عناوين بعض كتبه غير الواضحة المحتوى هي المحتجنة لهذا الشرح مثل كتابه: المفيد في

شرح القصيد، وكتابه الأفهام، والإصابة في مصطلح الكتابة، والله أعلم.

وأول ما تجدر الإشارة إليه عند الموازنة بين شرحي ابن الوحيد وابن البُصيص أن بعض أبيات الرائية شرحها ابن الوحيد، ولم يشرحها ابن البصيص ومنها البيت التالي:

وإذا عـمـدتَ لـبَـرْيـهِ فَـتَـوَخَّـهُ
عـنـد الـقـيـاس بـأوسـط الـتـقـديـر

هذا البيت أورده ابن الوحيد وشرحه في الآتي:

يعني متوسطاً في طوله وقِصَره وثخانته ورقته، إلا أن تبري للطومار فتستغلظ وبالضدّ. وأما ابن البصيص فقد أسقطه في شرحه.

وقد يقع الضد، فتجد بيتاً شرحه ابن البصيص ولم يشرحه ابن الوحيد، مثل البيت الآتي:

إن كـان عـزمُك فـي الـكـتـابـة صـادقـاً
فـارغـبْ إلـى مـولاك بـالـتـيـسـيـر

فهذا البيت أغفل ابن الوحيد شرحه، وشرحه ابن البصيص فقال:

إن الشرطية، وهي تقتضي في الاستقبال تعليق جملة على جملة فتسمى شرطاً، والثانية جزاءً، ومن حقهما أن يكونا فعلين، ويجب ذلك في الشرط، فإن كانا مضارعين جزمتهمالأنهما اقتضاهما فكملت. كان فعل يرفع الاسم وينصب الخبر. (عزمُك في الكتابة صادقاً) قصدك وسعيُك في طلب العلو والسموّ والرفعة. فارغب: وهو جواب الشرط، اطلب واجتهد في تحسين الخط واقصد وتوكل على الله تعالى في أمورك ليسهل عليك العسير.

وأحياناً أخرى يختلف متن البيت بين الشرحين وبالتالي شرحاهما اختلافاً بيّناً، مثاله: بالصيغه التالية ورد البيت التالي عند ابن الوحيد:

أَعْـدِدْ مـن الأقـلام كـلّ مُـثـقّـفٍ
صُـلْـبٍ يَـصـوغُ صـيـاغـة الـتـحـبـيـر

فقال في شرحه: قوله: أعدد فيه إشارة الى تفضيل الاقلام العتيقة المختزنة على الحديثة العهد بالقطع وتحريض على تعتيقها. ومثقف: مُقَوَّم وهو مشتق من الثِقاف وهي الخشبة التي تقوّمْ منها الرماح والسهام. ويروى مثقفٌ هشٌ والتجربة تخالفها، لان القلم الرخو يضطرك إلى تقصير جلفته جداً ويحفى سريعاً و(يصوغ) استعار، والتحبير: النقش من الحبرة لكن البيت نفسه ورد في شرح ابن البصيص بالصيغة التالية:

أَعْـدِدْ مـن الاقـلام كـلَّ مُـقَـوَّمٍ
سَـهْـلٍ عـلى الـسـكـين غـيـر عـسـيـر

قال ابن البُصيص في شرحه له أعدد: أي حصّل من الأقلام، وخُذْ منها ما هو مُقَوّم غير أعوج ولا مفتول ولا مبطوح، وصفته أن يكون مُقوَّما فيه خطوط بيض، ويكون سهلاً على السكين في البرية غير عسير.

ويلاحظ هنا الفارق الكبير بين صيغة الشرحين. ومثال آخر في اختلاف نصّي الشرحين جاء في شرح البيت التالي:

انـظـر إلـى طَـرَفَـيْـهِ فـاجـعـل بَـرْيَـهُ
مـن جـانـب الـتـدقـيـق والـتـخـصـيـر

قال ابن الوحيد في شرحه: يعني أنّ البري يجب أن يكون من رأس الأنبوبة فإنة أصلب أجزائها لأنّ رطوبته قد جفّت بسبب انكشاف

قشرها عنه ودوام قرع الشمس له، ولذلك صار رأس الأنبوبة أدقّ لتلززه، وقد بينت أن صلابة القلم مطلوبة ورأس الأنبوبة أصلبها.
وقال ابن البُصيص في شرح البيت مع ملاحظة أن كلمة التدقيق وردت عنده بلفظة: الترقيق.
قال: أمرك بالنظر إلى القلم والى جانبيه، فأيهما كان أدقّ وأرق فاجعل البَرْية من الجانب الدقيق والمختصر، وفيه فائدة أخرى لم يدركها كلّ أحد، إنك تضعه على الأرض فيتدحرج ثم يقف ويسكن، فابْرِ من الموضع الذي وقف، فما تجيء مفتولة البرْية. وهذا الفارق الكبير بين الصياغتين في الشرحين، يؤكد استقلالية كل منهما، فابن البُصيص لم يقف بالتأكيد على شرح ابن الوحيد الذي سبقه في الوفاة بعدة عقود. قال ابن البواب:

واجعل لجِلْفته قواماً عادلا
يخلو من التطويل والتقصير

قال ابن الوحيد في شرحه له:
لكل قصبة جِلفة بحسب صلابتها، فالصُّلْبة تطوَّل، وحَدُّها أن لا تأخذ في الخطّ وتُعطي، فتختلف ثخانةُ الكتابة ويجيء شرح البيت عند ابن البُصيص كالآتي: واجعل: الواو للعطف، جعل: شرح. وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام، لدنو الخبر رجاء، لدُنوّ الخبر حصولا، لدُنوّ الخبر أخذاً فيه.
فأخذ القلم وشرع في البري.
قوله: لِجِلفته قواماً عادلاً، الجِلفة: طول البرية، اختلف فيها الكتاب فمنهم من يقول: كمناقير الحمام واعتدال السهام. ومنهم من يقول: لا طويلة ولا قصيرة يقصد الاعتدال، وهو الذي أشار إليه الشيخ بقوله: «يخلو من التطويل والتقصير» وهو اختيار الشيخ والدي - رحمه الله- ويتضح مما تقدم أن شرح ابن البصبص كان يتميز بالشروح النحوية، خلافاً لشرح ابن الوحيد.
ويتميز شرح ابن الوحيد بالاقتضاب في تعابيره خلافاً لشروح ابن البصيص. ولكن المهم في الأمر أنه كان لكل من الشرحين استقلاليته التامة، وأن كلاً من الشارحين وهما خطاطان موهوبان قد استخدما تجاربهما الذاتيه الفنية في صياغة شرحيهما.

المصادر والمراجع

● مستقيم زاده، سليمان سعد الدين (1131-1202هـ)، تحفة خطاطين، باللغة التركية، مطبعة الدولة استانبول، 1928م؛ ● حبيب أفندي (ت1311هـ)، خط وخطاطان، مطبعة أبو الضيا، قسطنطينيه، 1306هـ؛ ● العزاوي، عباس، الخط ومشاهير الخطاطين في الوطن العربي، بحث في مجلة سومر العراقية، 1982، م38، ج 1-2 / 284 - 302؛ ● العسقلاني، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح. محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ج5/ 147؛ ● الصيداوي، عبد القادر، وضاحة الأصول، تح. هلال ناجي، مجلة المورد، م15، بغداد، 1407هـ/ 1986م، ص159- 172؛ ● الكاتب، حسين بن ياسين بن محمد، لمحة المختطف في صناعة الخط الصلف، تح. هيا محمد الدوسري، الكويت 1992؛ ● الطيبي، محمد بن حسن، جامع محاسن كتابة الكتاب، تح. د. صلاح الدين المنجد، بيروت، 1962؛

● مجهول، المنظومة المستطابة في علم الكتابة، تح. هلال ناجي، مجلة المورد، بغداد، 1986؛ ● ابن الوحيد، محمد بن شريف، شرح ابن الوحيد على رائية ابن البواب تح. هلال ناجي تونس، مطبعة المنار، 1967؛ ● ابن البصيص، محمد بن موسى بن علي، شرح قصيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب، نشرت في كتاب «هلال ناجي في ميلاده السبعين»، وكان جزء مبتور منها قد نشر في مجلة المورد البغدادية، 2001م؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، طهران، ج2، العمود 231؛ ● الصولي، أدب الكتّاب، تح. محمد بهجة الأثري، القاهرة، 1341هـ؛ ● الجعبري، إبراهيم بن عمر، الهبات الهنيات في المصنفات الجعبريات، تح. د. صالح مهدي عباس ونشره في كتابه "برهان الدين الجعبري وفهرست مصنفاته"، بغداد، حزيران 1984؛ ● ششن، رمضان، مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات، وقف أيسار الأستانة، 1997.

أ. هلال ناجي
باحث في التراث - العراق

البطّاشي، محمد بن شامس بن خنجر

(1330هـ / 1912م - 1420هـ / 2000 م)

محمد بن شامس بن خنجر البطاشي، قاض فقيه شاعر، ولد ببلدة المسفاة من ولاية قريات بسلطنة عمان، ونشأ في بيئة كريمة، وترجع لآبائه وأجداده رئاسة قبيلة بني بطاش وتدبير شؤونها.

رباه عمه المهنا بعد وفاة أبيه وهو رضيع، وحفظ القرآن في الثامنة من عمره، ثم تاقت نفسه للمزيد، فقصد نزوى عاصمة الإمامة ومعقل العلم آنذاك، فأخذ علوم العربية عن الشيخ حامد بن ناصر النزوي، وعلوم الفقه والأصول والتفسير عن العلامة عبد الله بن عامر الغزري، واستفاد من الشيخين: عامر بن خميس المالكي وسعيد بن ناصر الكندي، كما لازم الإمام محمد بن عبد الله الخليلي وأخذ عنه كثيرا من خلال مصاحبته له ومجالسته إياه. وبعد النشأة الأولى في قريات ومرحلة التلقي في نزوى، بدأ الشيخ البطاشي مرحلة العطاء بتوليه القضاء في بلاده قريات عدة مرات، أولها سنة 1357 هـ، ثم تقضى في ولاية الحمراء، فولاية بدبد قاضيا وواليا، انتقل بعدها إلى ولاية جعلان، حتى استقر به المقام في مسقط العاصمة، فعمل في محاكمها بدرجاتها الثلاث: الشرعية فالاستئناف فالتظلمات، واستوطن مدينة مطرح.

وبعد مسيرة 60 عاما في سلك القضاء طلب الإعفاء سنة 1416هـ / 1996م فأعفي.

عاصر البطاشي خلال عمره الطويل دولا عديدة، فأدرك إمامة الإمام سالم بن راشد الخروصي (1331 ـ 1338 هـ) وهو صغير، ونشأ وترعرع وشب في إمامة الإمام محمد ابن عبد الله الخليلي (1338 ـ 1373 هـ)، معاصرا في الوقت نفسه لدولة السلطان تيمور ابن فيصل (1331 ـ 1350 هـ) وابنه السلطان سعيد بن تيمور (1350 ـ 1390 هـ)، ثم قضى بقية عمره في عهد حكومة السلطان قابوس بن سعيد (من سنة 1390هـ/ 1970م) وزار حواضر عدة منها: مصر، والهند، والسعودية، وقد حج بيت الله الحرام مرارا عديدة.

اكتسب خبرة واسعة في القضاء، ظهر آثرها في مؤلفاته وفي سعيه للإصلاح بين الناس وحل خصوماتهم، وكان له في نظم الشعر باع شاسع، قال أول قصائده وسنه 16 عاما، كما أخذ بحظ وافر من علم الأنساب، حتى إن الإمام الخليلي كان يدعوه «نسابة عمان».

توفي صبيحة الأول من شوال سنة 1420هـ/ 8 يناير 2000 م، بعد أن أمّ الناس في صلاة عيد الفطر المبارك.

آثاره

1 ـ غاية المأمول في علم الفروع والأصول: أول تصانيفه، ابتدأ فيه سنة 1376 هـ، وهو مجموع في العقيدة والفقه وأصوله، قال في مقدمته: «... ألفته من كتب أصحابنا الأخيار، الذين لا يلحق لهم في المكرمات غبار، وأكثر ما فيه عن الثميني «الثمين في كتاب النيل»، وقطب الأئمة في شرحه، والشيخ خميس «في منهج الطالبين»، ونور الدين «في سائر مؤلفاته»، وقد اعتمدت في الأقوال على ترجيحهم، وعولت في تصحيحها على تصحيحهم». طبع بوزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان في 9 أجزاء سنة 1404هـ/ 1984م ـ 1407هـ / 1987 م، ولا ينتهي المطبوع بخاتمة، ويذكر خالد بن مهنا البطاشي في تقديمه له أن أصل الكتاب المخطوط في 5 مجلدات، فلعل الجزء الأخير (وهو القسم الثاني من المجلد الخامس) لم يطبع بعد؛ 2 ـ سلاسل الذهب في الأصول والفروع والأدب: موسوعة نظمية، في 10 مجلدات ضخمة، ضمت 124 ألف بيت (مئة وأربعة وعشرين ألف بيت)، نظم فيها شرح النيل لقطب الأئمة وزادها أشياء كثيرة، ابتدأ بتأليفها سنة 1382هـ وفرغ منها سنة 1385هـ، وحوت أبواب العلم والتوحيد والآداب والتفسير وأصول الفقه والطهارات والصلاة والزكاة والصوم والحج والأيمان والكفارات والحقوق والنكاح والفرقة والبيوع والمعاملات والإجارات والضمانات والإمامة والحدود والنفقات والديات والوصايا والفرائض والمنجيات والمهلكات، ثم كان ختامها بالسير وتاريخ عمان إلى آخر عهد اليعاربة.

وذكر في نهاية الجزء العاشر أنه ينوي إضافة مجلد يكون الحادي عشر في الترتيب، ويجعله في إتمام تاريخ عمان من أفول دولة اليعاربة إلى العصر المتأخر.

طبع الكتاب بوزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان في 10 أجزاء مطلع القرن

الهجري الحالي؛ 3 ـ إرشاد الحائر في أحكام الحاج والزائر: كتاب متوسط الحجم، جمع فيه غالب المسائل المتعلقة بالحج والعمرة، مركزا على ما يكثر وقوعه من النوازل، متوخيا حاجة العامة على كتاب وسط بين التطويل المفرط والاختصار المفرط، وقد اعتمد في أكثره على شرح النيل للقطب محمد بن يوسف أطفيش (ت 1332هـ / 1914 م) وأتمه سنة 1388 هـ، وصدرت طبعته الأولى عن وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان سنة 1400هـ / 1980م.

اعتنى به مؤخرا ولده حارث بن محمد البطاشي، فشرحه في كتاب سماه «عقد الجواهر شرح إرشاد الحائر»، صدر في مجلدين ضخمين سنة 1420هـ / 1999م عن دار ومكتبة الهلال/بيروت؛ 4 ـ الكشف عن الإصابة في اختلاف الصحابة: رسالة صغيرة، تناول فيها الفتنة الواقعة زمن الصحابة، وضمنها تعريفا بالمذهب الأباضي وما يتميز به عن المذاهب الأخرى، فرغ من تحريرها سنة 1407 هـ، وطبعت بمكتبة الضامري بعمان سنة 1414هـ / 1994هـ؛ 5 ـ سيرة ذاتية: لا تزال مخطوطة، وثق فيها أطوار حياته، وتطرق إلى تاريخ الحقبة المتأخرة بعمان التي عايشها وكان شاهدا على وقائعها ومجرياتها، أتمها وهو في الخامسة والثمانين من عمره سنة 1415هـ؛ 6 ـ مجموعة جوابات فقهية: لا تزال متناثرة، ولو قدر لها أن تجمع وترتب لبلغت عدة مجلدات؛ 7 ـ رسائل صغيرة: في موضوعات فقهية وتاريخية عديدة ومتنوعة، لا تزال بخط يده، منها ترجمة للشيخ عامر بن خميس المالكي؛ 8 ـ قصائد وأراجيز: في الاستنهاض والمديح والرثاء وغيرها من أبواب الشعر، ضاع كثير منها، وما بقي لم يجمع بعد، وهو يضم مجلدا أو يزيد، منها: أرجوزة نحوية، وقصائد في الأحداث المعاصرة.

أسعد بن حمو المقيمي
سلطنة عمان

ابن بطال، أبو أيوب سليمان بن محمد

(ت 402هـ/1011م)

أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسي، ويدعى أيضا بالمُتَلَمِّس، فقيه مالكي، وشاعر محسن. ولد بمدينة بطليوس Badajozبالأندلس، وينتمي إلى بني بَطال، وهم بالأصل من القبائل العربية التي جاءت من اليمن. تتلمذ في بلده، وفي قرطبة، على شيوخ عصره. ثم انتقل إلى مدينة البيرة Elvira التي توفي بها عام 402هـ /

1011م وقد انقطع عقبه. وهذا يعني أنه عاصر حقبة الخلافة الأندلسية، ورموزها الكبار في الأندلس منذ أواخر عهد عبد الرحمن الناصر، ثم عهد ابنه الحكم المستنصر؛ وعاش الصدر الأخير من حياته في ظلّ الدولة العامرية بزعامة الحاجب المنصور وأبنائه حتى نهاية عهدهم سنة 399هـ / 1009م، ولكن لا يبدو أنه تقلّد منصبا للدولة على الرغم من أنه كان مقدمًا في أهل العلم، والفقه، والفهم، والشعر، والأدب؛ وأن كتابه «المقنع في أصول الأحكام»، كان عليه مدار المفتين والحكام.

ولا تشير المصادر المتيسّرة إلى أسماء شيوخه، ولكن لدينا أسماء بعض تلامذته، وأحد أصدقائه، وهو أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين (ت 398هـ / 1007م)، الذي اشتهر بتحرير الشروط، ونبغ في دراسة الفقه، وألف مدونته المشهورة، وله تصانيف في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين. ومن المحتمل أن ابن بطال تدارس هذه العلوم معه، وأخذ كل واحد منهما عن الآخر. أما أهمّ تلاميذه، فهو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، عالم الحديث المعروف الذي روى عنه (ت 463هـ / 1070م)، وحكم بن محمد بن حكم من أهل قرطبة، الذي رحل إلى المشرق، وعاد إلى الأندلس حيث توفي سنة 400هـ / 809م. ومن تلاميذه أيضًا ابن أبي الربيع الإلبيري، وابن الدمغة، وابن الحصّار الإمام.

كان سليمان بن بطال في شبابه كثير الشعر، ينشده على البديهة، ويطرق مختلف أبوابه وفنونه، لا سيّما الغزل، والوصف، وقد أُطلق عليه لقب «العين جودي» لكثرة ما كان يردد هذه العبارة في أشعاره. ولكنه عندما كبر في السن، ترك ذلك، ومال إلى الزهد والانقباض، والتفرغ للتأليف في موضوعات الفقه وغيرها من الكتب الدينية.

آثاره

1 ـ كتاب المقنع في أصول الأحكام، وصفه تلميذه ابن عبد البر، قائلا: «ليس لمالكي مثله في معناه»، وكان هذا الكتاب مرجعًا للمفتين والحكام، ذكره ابن خير الاشبيلي (ت 575هـ / 1179م) في فهرسته نقلا عن محمد بن عتاب القرطبي، عن أبي عمر بن عبد البر النمري تلميذ سليمان بن بطال. ويبدو أن كتاب المقنع كان يتضمّن أيضا معلومات تاريخية، يمكن بواسطتها توثيق بعض أحداث الأندلس. فقد أشار ابن الأبار [الحلة السيراء، 1/ 155] إلى تولي جودي بن أسباط، وهو أحد أعيان العرب المناصب في مدينة البيرة المناصب لا سيّما الشرطة والقضاء، وذلك نقلا عن كتاب المقنع لابن بطال في الأحكام؛ 2 ـ كتاب الدليل إلى طاعة الجليل؛ 3 ـ كتاب أدب المهموم؛ 4 ـ كتاب الموقظ، وهو في الزهد؛ 5 ـ كتاب شرح البخاري، أشار إليه المقري [نفح الطيب، 3/ 451]، وقال إن ابن حجر أكثر من النقل عنه في فتح الباري. ولم يذكر ذلك غيره ممن ترجموا لابن بطال، وربّما كان المقري، قد خلط بينه وبين علي بن خلف بن بطال (ت 449هـ / 1057م)، الذي اشتهر بتأليفه لكتاب شرح الجامع الصحيح للبخاري.

المصادر والمراجع

● الحميدي، جذوة المقتبس، القاهرة، 1966، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 222؛ ● عياض، ترتيب المدارك، تح. سعيد أحمد أعراب، الرباط، 1983، 8/ 29 ـ 30؛ ● ابن خير، فهرست ما رواه عن شيوخه، تح. فرانشسكة قدارة زيدين وخليان ربارة طرغوة، بيروت، 1979، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط2؛ عن طبعة سرقسطة 1893، 252، 531؛ ● ابن بشكوال، كتاب الصلة، القاهرة، 1966، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1/ 197؛ ● الضبي، بغية الملتمس، نشر، فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1884، 282؛ ● ابن الأبار، الحلة السيراء، تح. حسين مؤنس، القاهرة، 1963، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1/ 155؛ ● المقري، نفح الطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، 3/ 292، 450 ـ 451؛ ● الزبيدي، تاج العروس، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 7/ 229؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون، ط3، طهران، 1967، عن طبعة إستنبول 1947، 1/ 478؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1957، مطبعة الترقي، 4/ 273؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 3/ 132.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف

(ت 449هـ/1057م)

علي بن خلف بن عبد الملك بن بَطّال البكري القرطبي المالكي، ويعرف أيضًا بابن اللّجام، يكنى بأبي الحسن، محدث وفقيه من أهل قرطبة بالأندلس. وبنو بَطال بالأصل من القبائل العربية التي جاءت من اليمن. أما لقبه، ابن اللّجام، فربّما يعود إلى اشتغال والده بصنع اللجام للخيل، ولو أن هذه اللفظة قد تحرّفت أو تصحفت أيضًا إلى ابن اللحّام، فيتغير بذلك المعنى [عياض، ترتيب المدارك، 8/ 160]. كان ابن بطال من أهل العلم والمعرفة والفهم، مليح الخط، حسن الضبط، وقد عُني بالحديث النبوي الشريف العناية التامة، وأتقن ما قيّد عنه.

عاصر علي بن بطال أواخر عهد الخلافة الأموية بالأندلس، وشاهد انهيار الدولة العامرية في أوائل سنة 399هـ / 1009 م، ثم سقوط الخلافة الأموية نهائيا عام 422هـ/ 1031م وما رافقها من فتنة عمّت الأندلس

عامة، ومدينة قرطبة بشكل خاص. وقد اضطر نتيجة لتلك الظروف القاسية إلى مغادرة قرطبة والاستقرار في مدينة بلنسية Valenciaفي شرق الأندلس، التي كانت تحكم من قبل عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر، أحد أحفاد الحاجب المنصور، الذي دامت إمارته في بلنسية نحو أربعين سنة، إلى وفاته عام 452هـ / 1061م. وقد استطاع عبد العزيز أن يمد سلطته إلى مناطق أخرى مثل مرسيه Murcia، وألمرية Almeria. وكانت مدينة لورقة Lorcaتتبع المرية، وتشير المصادر إلى تولي ابن بطال القضاء في هذه المدينة الأخيرة. ومن المحتمل أن ذلك حصل بعد استيلاء عبد العزيز العامري عليها، وإخضاعها ضمن سلطته. ولا نعرف كم استغرقت ولايته على قضاء هذه المدينة. وهل توفي فيها أم أنه رجع إلى بلنسية حيث لفظ أنفاسه الأخيرة في شهر صفر سنة 449هـ / 1057م.

درس ابن البطال الحديث ورواه عن شيوخ عصره بالأندلس، من أمثال أبي أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي المحدث المشهور (ت 429هـ / 1037 م)، وأبي المطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعي (ت 413هـ / 1022 م)، وأبي الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي، صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس (ت403هـ / 1012 م)، والقاضي المهلب بن أحمد بن أبي صفرة التميمي (ت 436هـ / 1044م)، وقاضي الجماعة بقرطبة، أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث، الذي كان من أعيان أهل العلم بالأندلس، وله الكثير من المؤلفات في معاني الزهد وضروبه (ت 429هـ/ 1037م). وغيرهم.

ولا تشير المصادر التي ترجمت لابن بطال إلا إلى عدد محدود من تلاميذه، الذين حدثوا عنه، ويكتفي البعض منها بالقول «وحدّث عنه جماعة من العلماء»، ولدينا أسماء اثنين من هؤلاء التلاميذ، وهما: عبد الرحمن بن بشرى من مدينة سالم Medinacelliفي الشمال الشرقي من الأندلس، وأبي داود سليمان بن نجاح، الذي نبغ وأصبح عالما بالقراءات، واللغة العربية، وعلم العروض، وألف كتابًا في الرسم القرآني بعنوان «التنزيل».

■ آثاره

صنّف ابن بطال بعض المؤلفات، منها:

1 ـ شرح الجامع الصحيح للبخاري، الذي كان يتألف من عدة أسفار، استفاد منه العديد من المحدثين الذين جاءوا بعده، ونقلوا عنه. ويبدو كما يشير حاجي خليفة، أن غالب هذا الشرح كان من فقه الإمام مالك، من غير تعرض لموضوع الكتاب [كشف الظنون، 1/ 546]. أما كتابه الثاني، فهو أيضًا في الحديث، وهو بعنوان: 2 ـ الاعتصام في الحديث؛ 3 ـ له كتاب آخر، ولكن في موضوع الزهد والرقائق. ومن المحتمل أنه تأثر بأستاذه القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله، الذي كان مهتمًا بهذه المواضيع وألف فيها، كما أسلفنا.

■ المصادر والمراجع

● القاضي عياض، ترتيب المدارك، تح. سعيد أحمد أعراب، الرباط 1983، 8/ 160؛ ● ابن بشكوال، كتاب الصلة،

القاهرة 1966، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 2/ 414؛ • الضبي، بغية الملتمس، نشر فرانسسكو كوديرا، مدريد 1884، 409؛ • الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت 1413 هـ، مؤسسة الرسالة، 18/ 43؛ • ابن فرحون، الديباج المذهب، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة 1974، دار التراث، 2/ 105 ـ 106؛ • ابن العماد، شذرات الذهب، بيروت، المكتب التجاري، 2/ 283؛ • ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، بيروت، دار الكتاب العربي، عن طبعة 1349 هـ، ص 115؛

• الزبيدي، تاج العروس، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، 7/ 229؛ • خليفة، حاجي، كشف الظنون، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، عن طبعة إستنبول 1941، 1/ 119، 546؛ • البغدادي، هدية العارفين، إستنبول 1955، 1/ 688؛ • الزركلي، الأعلام، ط2، القاهرة، مطبعة كونستانوماس، 1955، 5/ 96؛ • كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1957، مطبعة الترقي، 7/ 87.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

ابن بطّة العكبريّ، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد

(304هـ / 917م ـ 387هـ / 997م)

ولد ابن بطّة في قرية عكبرا ـ القريبة من بغداد ـ يوم الاثنين لأربع خلون من شوال سنة أربع وثلثمائة.

عاش في ظلّ أبيه وتربّى في حجره، فاعتنى به عناية تامة، وكان حريصا عليه وعلى تعليمه على عادة أبناء عصره، فدفعه إلى الكُتّاب في عكبرا يتأدب عليهم، ويتعلّم منهم العربيّة والعلوم الشرعيّة وفي مقدمتها القرآن الكريم، فلما أجاد ابن بطّة إتقان هذه العلوم الأساسيّة، سعى بنفسه للسماع على شيوخ عكبرا البارزين والفقهاء المشهورين، فأخذ يختلف إلى حلقاتهم الدراسيّة في المساجد، ويتردّد إليهم كثيرا، فأصبح من جملة طلبة عكبرا النابهين، والمتشوّقين إلى طلب العلم والسعي في الحصول عليه.

واتّفق أن دخل عُكبرا جماعة من أهل بغداد، كانوا شركاء في العمل للشيخ محمد بن محمد بن حمدان والد عُبيد الله بن بطّة، كان فيهم رجل يعرف بأبي بكر، فقال لأبي عُبيد الله بن بطّة: ابعث بابنك إلى بغداد، ليسمع الحديث؟

فقال: انّه صغير؟

فقال أبو بكر: أنا أحمله معي

قال عُبيد اللّه بن بطّة: فحملني أبو بكر إلى بغداد، وكان ذلك في آخر سنة خمس عشرة، وأوّل سنة ستّ عشرة وثلثمائة.

ولم يكتف عُبيد اللّه بن بطّة بدخول بغداد والسّماع على شيوخها، بل تاقت نفسه إلى الرحلة في طلب العلم خارج بغداد للحصول على عُلُوّ الإسناد ومذاكرة المشايخ ولقائهم والتعرّف إليهم، فشد الرحال إلى مكة المكرّمة مرارا، والثغور، والبصرة، وأردبيل، ودمشق، وحمص، وغيرها من البلاد، وأخذ من علماء هذه البلاد وهم صفوة مختارة من حَمَلَة الفقه والحديث والأصول والعلوم الشرعيّة كافة كان منهم:

أبو القاسم عبد اللّه بن محمد البغويّ، وإسماعيل بن العباس الورّاق، وأبو بكر عبد اللّه بن محمد بن زياد النّيسابوريّ، والحسن بن عليّ بن زيد السّامريّ، ومحمد بن محمد السّرّاج، ومحمد بن مخلد بن حفص الدّوريّ العطّار، ومحمد بن أحمد بن ثابت العكبريّ، وجعفر بن محمد بن أحمد القافلائيّ، وأبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد اللّه الخرقيّ، وأبو بكر عبد العزيز بن جعفر المعروف بغلام الخلاّل، وأبو القاسم حفص بن عمر بن الخليل، وأبو بكر أحمد بن عبيد الصّفّار، وعليّ بن يعقوب بن إبراهيم بن أبي العقب، وأبو طالب أحمد بن نصر الحافظ، والحسين بن إسماعيل بن محمد البغداديّ القاضي المحامليّ، وأبو ذرّ أحمد بن محمد بن محمد بن الباغنديّ، وخلق سواهم.

ولما رجع عبيد اللّه بن بطّة من رحلته العلميّة، لازم بيته أربعين سنة، فلم يُر في سوق، ولا رُئي مُفطرا إلاّ في يوم الفطر والأضحى وأيّام التشريق، ومع ملازمته لبيته وعدم الخروج منه، ازدحم الطلبة على باب داره، ينتظرون الإذن بالسّماح لهم للسّماع عليه والأخذ عنه، فأدخلهم بيته، وأسمعهم ما تفرّد بروايته من مسموعاته ومرويات شيوخه الذين سمع منهم، ولاسيما شيوخ الرحلة خارج بغداد، ومن هؤلاء الطلبة من لازمه مدّة طويلة وتخرّج به، وعُرف بملازمته له.

وكان يجلس في مجلسه يوم الجمعة، متوجّها إلى القبلة والناس بين يديه، وكان يتطيلس بإزار مربع على رأسه، فربما استنكر شينا من حلقته من حديث أو نحوه، فيُومئ، فيقول: أحسنوا الأدب! فيحتشم ذلك وينكفّوا. لقد درس عليه جملة طيبة من الطلبة البغداديّين والوافدين صاروا فيما بعد أعلاما بارزين، وفقهاء نابهين، ذاع صيتهم في الآفاق، كان منهم:

أبو علي الحسن بن شهاب بن الحسن العكبريّ، وأبو عبد اللّه الحسن بن حامد بن علي بن مروان البغداديّ، وأبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان العكبريّ، وأبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن أحمد البرمكيّ البغداديّ، وعبد العزيز بن علي الأزجيّ البغداديّ، وأحمد بن محمد العتيقيّ، وأبو القاسم عُبيد اللّه بن أحمد بن عثمان الأزهريّ، وعبد الملك بن عمر بن خلف الرّزّاز، وأبو الفتح محمد بن أحمد بن محمد بن أبي الفوارس البغداديّ، وعليّ بن أحمد بن البُسريّ، وأبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى السّعديّ،

وأبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانيّ الحافظ، وغيرهم.

لقد كان عبيد الله بن بطّة على درجة كبيرة من الحفظ والإتقان، وقوّة الذاكرة، وحدّة الذكاء، يشهد له بذلك معاصروه وطلابه، حتّى عُدّ من أذكياء العصر، قال تلميذه أبو عليّ الحسن بن شهاب العكبريّ: «حضرت مجلس عُبيد الله (عبيد الله بن بطّة) وقد حضره مؤدّبي أبو إسحاق الضّرير، فقال له: لو اشتغلت بشيء من العربيّة؟ أو كلاما هذه معناه ـ فقال: هذا مسند أحمد، يأخذ أحدكم أي جزء شاء ويقرأ عليّ الإسناد لأذكر المتن، أو المتن لأذكر الإسناد! فاحتشمنا أن نقول له ذلك، أو كما قال».

وكان عبيد الله بن بطّة مع جلالة قدره، وموفور حظّه، عابدا زاهدا، وعالما متواضعا، مُطرح التكلّف، يميل إلى الخمول والابتعاد عن الناس، فقد حكى عنه أبو الفتح العكبريّ، قال: وجدت بخطّ أبي قال: اجتاز الشيخ أبو عبد الله بن بطّة بالأحنف العكبريّ، فقام له! فشقّ ذلك عليه، فأنشأ يقول:

لا تَلُمْني على القِيام فَحَقّي
حين تَبْدُو أن لا أملّ القِيامَا

أنتَ مِن أكرم البريّةِ عِندي
ومِنَ الحقّ أنْ أجِلّ الكِرَامَا

ومع اعتلال صحته وإصابته بناصور في عينيه مُنع من تناول العشاء لأجله، فكان يسرد الصّوم، ويجعل عشاءه قبل الفجر بيسير، ولا ينام حتّى يصبح. وكان عالما بمنازل الفجر والقمر.

وكان رحمه الله أمارا بالمعروف، نهاء عن المنكر، لم يبلغه خبر مُنكر إلاّ غيّره، وكان حسن الهيئة، لم يُر في شيوخ أصحاب الحديث ولا في غيرهم أحسن هيئة منه.

وكان يكثر من إيراد الأحاديث الدالة على مكانة الفقيه، وما يجب أن يكون عليه من خشية الله تعالى، والخضوع له، وعدم الحسد للآخرين، وعدم أخذ الأجرة على العلم، وكأنّه يذكر طلابه ويرشدهم إلى واجبهم في المستقبل، لأنّ في هذه الأحاديث تبصرة وذكرى لأولي الألباب الذين يخافون الله ويخشونه في الغيب، وليكونوا قدوة لغيرهم. وكان من جملة تلك الأحاديث ما رواه: عن عليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه، قال: «ألا أخبركم بالفقيه كلّ الفقيه؟ من لم يُقنّط الناس من رحمة الله، ولم يُؤمّنهم من مكر الله، ولم يُرخّص لهم في معاصي الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره».

وعن الفُضيل بن عياض قال: «إنّما الفقيه الذي أنطقته الخشية، وأسكتته الخشية، إن قال قال بالكتاب والسّنّة، وإن سكت سكت بالكتاب والسُّنّة، وإن اشتبه عليه شيء وقف عنده، وردّه إلى عالمه».

وعن أبي حازم قال: «لا يكون العالم عالما حتى يكون فيه ثلاث خصال: لا يُحقّر من دونه في العلم، ولا يحسد من فوقه، ولا يأخذ علمه دنيا».

وعن الحسن البصريّ قال: «ما رأيت فقيها قط، إنّما الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، الدائب على العبادة، المتمسك بالسنة».

آثاره

كان للإمام عُبيد الله بن بطّة باع طويل في التأليف، ونظر ثاقب في التصنيف، قد جمع بين صحيح العقل، وصريح النقل، ذا اطلاع واسع على المشكلات، ومعرفة تامة بحل المعضلات. عكف على الجمع والتأليف في فنون شتى من العلم والمعرفة، وإن كان الغالب عليها الفقه، كان منها:

1 ـ الإبانة الصغرى؛ 2 ـ الإبانة الكبرى؛ 3 ـ الإمام ضامن؛ 4 ـ الإنكار على من أخذ القرآن من الصحف؛ 5 ـ الإنكار على من قصر بكتب الصحف الأولى؛ 6 ـ إيجاب الصداق بالخلوة؛ 7 ـ تحريم الخمر؛ 8 ـ تحريم النميمة؛ 9 ـ التفرّد والعزلة؛ 10 ـ ذم البخل؛ 11 ـ ذم الغناء؛ 12 ـ الرّدّ على من قال: الطلاق بالثلاث لا يقع؛ 13 ـ السنن؛ 14 ـ صلاة الجماعة؛ 15 ـ صلاة النافلة في شهر رمضان بعد المكتوبة؛ 16 ـ فضل المؤمن؛ 17 ـ المناسك؛ 18 ـ منع الخروج بعد الأذان والإقامة لغير حاجة؛ 19 ـ النهي عن صلاة النافلة بعد العصر وبعد الفجر.

توفي عُبيد الله بن بطّة في يوم عاشوراء سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، ودفن بعُكبرا، وقبره مشهور بالزيارة، رحمه الله تعالى.

المصادر والمراجع

● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ـ أو مدينة السلام ـ مطبعة السعادة، مصر، 1349هـ/ 1931م؛ ● ابن عزام التونسي، دستور الاعلام بمعارف الاعلام، (ت 891هـ) نسخة خطية بمكتبة الحرم المكي الشريف، مكة المكرمة تحت رقم (28 تاريخ)؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء السادس عشر، تحقيق: أكرم البوشي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1403 هـ/ 1983م؛ ● الفراء، طبقات الحنابلة، أشرف على طبعه محمد حامد الفقي، القاهرة، مطبعة السنة المحمودية، 1371 هـ/ 1952م؛ ● طاش كبرى زادة، طبقات الفقهاء، والصحيح هو لابن كمال باشا أحمد بن سليمان (ت 940 هـ) الموصل، مطبعة الزهراء، 1961 م؛ ● الذهبي، العبر في خبر من عبر، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، الكويت، 1960م؛ ● العسقلاني، لسان الميزان، الهند، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانيّة، 1329هـ ـ 1331هـ/ 1911م ـ 1912؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الهند، حيدر آباد الدكن، دائرة المعارف العثمانيّة 1357هـ؛ ● العليمي، المنهج الأحمد في تراجم الامام أحمد، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مراجعة وتعليق عادل نويهض، بيروت، عالم الكتب، 1403 هـ/ 1983م؛ ● الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، (ت 747 هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1963م.

د. صالح مهدي عباس
مركز إحياء التراث الصحي
بغداد ـ العراق

بطحيش، أحمد بن بكر

(1095هـ/1684م ـ 1147هـ/1734م)

هو أحمد بن بكر بن أحمد بن محمد بطحيش الحنفي العكّي [المرادي، سلك الدرر، ج 1 ص 152؛ كحالة، المعجم، ج 1 ص 175] وقيل: أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمود العريضي البطحيشي [الزركلي، الأعلام، ج 1 ص 105].

فقيه، فرضي، مفت، شاعر، ميقاتي عالم بالرياضيات، تولّى الإفتاء بعكّا [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 152؛ الزركلي، الأعلام، ج. 1 ص 105؛ كحالة، المعجم، ج. 1 ص 175.]

توفي سنة 1147هـ/ 1734م [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 155؛ الزركلي، الأعلام، ج. 1 ص 105.]

آثاره

1 ـ «فتاوى العكّي» [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 152؛ البغدادي، هدية العارفين، ج. 1 ص 172؛ كحالة، المعجم ج. 1 ص 175]؛ 2 ـ «حاشية على تنوير الأبصار في شرح الدرّ المختار في الفروع» [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 152؛ كحالة، المعجم، ج. 1 ص 175]؛ 3 ـ «شرح ملتقى الأبحر في الفروع» [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 152؛ البغدادي، هدية العارفين، ج. 1 ص 172]؛ 4 ـ «الألفية الجيبيّة» وقيل «الألفة الجيبية» في علم الميقات [المرادي، سلك الدرر، ج 1 ص 152؛ البغدادي، هدية العارفين، ج 1 ص 172؛ إيضاح المكنون، ج. 1 ص 119؛ الزركلي، الأعلام، ج 1 ص 105]؛ 5 ـ «شرح منظومة ابن الشحنة محبّ الدّين» وهي ألفية في الفرائض [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 152؛ البغدادي، هدية العارفين، ج. 1 ص 172؛ كحالة، المعجم، ج. 1 ص 175]؛ 6 ـ «حاشية على نزهة النظّار في علم الغبار في الحساب» [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 152؛ البغدادي، هدية العارفين، ج. 1 ص 172]؛ 7 ـ «خلاصة الأثر في سيرة سيّد البشر» وهو اختصار للسيرة الحلبية يوجد مخطوط الجزء الثاني والأخير منه وهو ضخم جدًا في خزانة الرّباط رقم: 1393 ك [الزركلي، الأعلام، ج. 1 ص 105؛ كحالة، المعجم، ج. 1 ص 175]؛ 8 ـ وله بعض أشعار رائقة يذكرها صاحب سلك الدرر [المرادي، سلك الدرر، ج. 1 ص 152 ـ 155].

المصادر والمراجع

● المرادي، محمد خليل أفندي المرادي (ت 1206هـ) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (جزءان)، مكتبة المثنى

ببغداد؛ • البغدادي، إسماعيل باشا (ت1351هـ)، هديّة العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون (جزءان)، ط. 1402هـ/ 1982م، دار الفكر؛ • م.ن، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (جزءان)، ط. 1402هـ / 1982م دار الفكر، بيروت؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام (8 أجزاء)، ط. 4، 1979م، دار العلم للملايين بيروت، لبنان؛ • كحّالة، محمد عمر رضا، معجم المؤلفين تراجم مصنّفي الكتب العربية (15 جزءا في 7 مجلّدات)، مكتبة المثنّى ودار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

منير بن المختار التليلي
جامعة الزيتونة ـ الجامعة العربية للعلوم
تونس

ابن البَطِر، أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبد الله

(398هـ/1007م - 494هـ/1100م)

نصر بن أحمد بن عبد الله بن البطر، الغَرَبي، البغدادي، البزّاز، أبو الخطّاب.

والغَرَبي نسبة إلى محلّة ببغداد يقال لها باب الغَرَبة، وباب الغَرَبة أيضاً أحد أبواب دار الخلافة ببغداد، سمّي بغَرَبة كانت فيه، وهي شجرة ضخمة خضراء، عند شاطئ دجلة [الأنساب 9/ 333، اللباب 2/ 377].

ولد ابن البطر ببغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة كما ذكر ابن الجوزي والذهبي [المنتظم 9/ 129؛ سير أعلام النبلاء 19/ 46] وتردّد السمعاني بين سنتي 97 و 98.

ويبدو أن أسرته كان تخدم في دار الخلافة، فقد ذكر سبط ابن الجوزي أنّ ابن البطر كان على دواليب البقر مشرفاً على العلوفات، فكتب إلى الخليفة المستظهر بالله: «العبد ابن البقر المشرف على البطر» فضحك الخليفة من تغفيله. والذي يغلب على الظنّ أنّ هذه الحكاية لآخر من أسرته ممّن يحمل اللقب نفسه؛ لأنّ شخصية ابن البطر المحدّث المقرئ لا تحتمل مثل هذه الغفلة وهو يخاطب الخليفة تحريراً، كما لا تحتمل الاشتغال بمثل هذا العمل الذي لا يؤهل صاحبه ليكون من علماء الإقراء والرواية، حتى لو كان مشرفاً على العمل لا يزاوله بنفسه.

تلقى ابن البطر علوم الحديث من علماء بغداد ومشاهيرها مثل أبي محمد عبد الله بن أبي عبيد الله بن البيّع، وعمر بن أحمد العُكبَري، وأبي الحسين علي بن بشران، وأبي الحسن ابن رزقويه، وأبي بكر المتّقي، ومكّي الحريري، وسواهم.

وبعد أن استوفى عدّته من علوم عصره لا سيّما علم الحديث جلس للإقراء، فأقبل عليه الطلبة ورحل إليه طلاب الحديث وتزاحموا عليه، وفيمن حدّث عنه جماعة من أهل بغداد ومن غيرها من البلدان مثل أصبهان وواسط والموصل وهمذان ومرو وهراة. ولأنّه عُمِّر طويلاً، إذ عاش حوالي سبع وتسعين عاماً، انفرد في وقته بالرواية. قال السمعاني: وعُمِّر حتى صارت إليه الرحلة من الأطراف، وتكاثر عليه الطلبة». [سير أعلام النبلاء 19/ 48] وممّن حدّث عنه من الأئمة الكبار أبو علي بن سكرّة الصدفي (ت 514هـ) وأبو بكر الأنصاري، وعبد الوهاب الأنماطي، وسعد الخير الأندلسي، وأبو طاهر السلفي (ت576هـ) وإسماعيل بن السمرقندي، وابن البطّيّ، وعبد الخالق اليوسفي، وعبد الواحد ابن الحسين البارزي وغيرهم كثيرون.

حقق ابن البطر في مجال رواية الحديث منزلة جعلت الذهبي يدعوه «مُسند العراق» ونقل عن أبي طاهر السلفي قوله: سألت شجاعاً الذهلي عن ابن البطر فقال: كان قريب الحال، ليّناً في الرواية. فراجعته في ذلك وقلت: ما عرفنا ممّا ذكرت شيئاً، وما قرئ عليه شيء يُشك فيه، وسماعاته كالشمس وضوحاً. فقال: هو لعمري كما ذكرت، غير أني وجدت في بعض ما كان له به نسخة سماعاً يشهد القلب ببطلانه. ولم يُحمل عنه من ذلك شيء [سير أعلام النبلاء 19/ 47، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد 240] وفي هذا المعنى يقول ابن سكرّة الصدفي فيه: شيخ مستور ثقة. ويوثقه ابن الجوزي بقوله: كان شيخاً صالحاً صحيح السماع، حدّثنا عنه أشياخنا». [المنتظم 9/ 129] ولم يذكر مترجموه أنّه ألف كتاباً أو شارك في تصنيف.

توفي ابن البطر في 16 ربيع الأول سنة 494هـ عن ست وتسعين عاماً، ودفن في مقبرة باب حرب شرقيّ مدينة بغداد.

المصادر والمراجع

● السمعاني، الأنساب، ط1، مطبعة محمد هاشم الكتبي، بيروت؛ ● الدمشقي، ابن كثير، البداية والنهاية، ط4، دار الحديث، القاهرة، 1417هـ ـ 1997م؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1408هـ/ 1985م؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. د. صلاح الدين المنجد، وزارة الإرشاد، الكويت، 1963م؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت؛ ● ابن الأثير الجزري، اللباب في الأنساب؛ ● ابن النجار، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، حيدر آباد. د.ت؛ ● الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ● ابن الجوزي، المنتظم، ط دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1357هـ.

د. صاحب جعفر أبو جناح
جامعة صنعاء ـ اليمن

البطروجي، أبو إسحق نور الدين

(كان حيًّا في القرن 6هـ/ القرن 13م)

هو أبو إسحق نور الدين البطروجي من أجلّ علماء الفلك العرب. من أصل أندلسي؛ يقول إدريس المرابط إنّه أصيل بلدة بيدروش، قرب قرطبة.

ويذكر «صنشيز بيرز» أن بعض المصادر تجعله عالما من مرّاكش، وأخرى ترى أنه من إشبيلية. ويقول المنوني، بالاستناد إلى «خلاصة تاريخ العرب» لسيديّو إنّ فلكيا يدعى البطروجي المرّاكشي كان حيّا في عصر يعقوب المنصور الموحّدي (579هـ/ 1184م - 594هـ/ 1198 م). واستنبط نظاما فلكيا طريفا، ويضيف أنّ هذا العالم حرّر رسالة في الأجرام السماوية نقلت إلى اللاتينية وتمّ نشرها. فهذا العالم، بلا شك، هو بطروجينا.

وتتلمذ البطروجي لابن طفيل ولازمه، وكان من بين تلامذته أيضا ابن رشد. وامتاز كلّهم بالنقد، وكانوا مخلصين للحق إلى أبعد الحدود. وقد أبدوا، في حقل الفلك، عدم الارتياح لنظام بطليموس وما يشمله من أفلاك فرعية، ودوائر خارجة عن المركز، وكلّ ما يتناقض مع المبدإ الذي كان يضع الأرض في المركز الحقيقي للكون. ونسب ابن رشد إلى ابن طفيل نظريات في تركيب الأجرام السماوية وحركاتها.

وقال البطروجي إنّ أستاذه قد وفق لنظام فلكي جديد وأتى بآراء مبتكرة لم يأت بها بطليموس، وإن نظامه يحقق حركات الأجرام دون وقوع في الخطأ، على أنه يجب أن نذكّر بما أدّى به، من قبل، تفكير الزرقالي في مدار بيضوي لتفسير حركة عطارد، الأمر الذي يشابه تشابها ملحوظا ما بلغ به تطوّر تفكير كبلار بالنسبة إلى المريخ.

وكرّر البطروجي الأرصاد بالمغرب، ومن ذلك رصده لميل فلك البروج سنة 550هـ/ 1156م.

وفي الأخير حاول أبو إسحق العودة إلى نظرية أودوكيوس (408- 355 ق.م) القائلة إن الكواكب السيارة لها نفس المركز. ورمى إلى إلغاء المدارات الخارجة عن المركز التي قطعت الصّلة مع المبدأ الأرسطاطاليسي القائل بوجود حركة دائرية منتظمة في عالم السّماء.

وفي الخلاصة إنّ نقد البطروجي في علم الهيئة المصاحب لشرح ابن رشد لمصنّفات أرسطو (De Caelo e mundo) «السماء والعالم»، وكتاب «الطبيعة» دخل سريعا إلى العالم المسيحي بترجمات Michel Scotto (1217) وجيرارد الكريموني Coloymus، وتردد صداه بأروبا. ومن أشهر من اعتنق الفلسفات الجديدة القديس طوماس الإكويني...

ثم إن النظريات التابعة للحركة المجرّدة Cinématique الجديدة فتحت الأبواب أمام البحوث العلمية حول الحركة المنتظمة التسارع Mouvement uniformément accéléré وكان منها أعمال Gérard de Bruxelles (كان حيّا سنة 1250م)

و Guillaume Hetesbury (كان حيًّا بين سنتي 1330 ـ 1371م). ونشطت العقول من عقالها وتمهّدت الطريق إلى ثورة علمية عارمة في تاريخ الفكر البشري: ثورة كوبرنيكوس.

آثاره

1 ـ كتاب المناظر؛ 2 ـ كتاب في الرسم المنظوري (Perspective)؛ 3 ـ كتاب نظرية الكواكب السيّارة أو كتاب الهيئة؛ وهو الكتاب الذي اشتهر به لأنه جمع فيه نظرياته في الحركة وتطوّرها والسرعة، وقد نقله إلى العبرية موسى بن طبّون، من مدينة مونبليي، سنة 1259 م؛ ثم نقل إلى اللاتينية (سنة 1529م) وطبع أوّل مرّة بالبندقية سنة 1531م بعنوان: Planetarium Alpetrage Arabi ودرس العالم الألماني Regiomontanus آثار البطروجي (1436 ـ 1476م).

المصادر والمراجع

• شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط. 31، ديسمبر 1983؛ 3/ 200؛ ط. 3، حزيران 1998، 2/ 212؛ • طوقان، قدري حافظ، العلوم عند العرب، بيروت 1983؛ • المنوني، عن خلاصة تاريخ العرب لسيديو، ص 215، وتاريخ الأندلس، 2/ 260.

- Carmody, Regiomontanus, notes on Al Bitrugis/Astronomy in Isis nº 42, 1951, pp, 121-130.
- Höeffer, Histoire de l'astronomie, Paris 1873, p, 372.
- Lamrabet (D), Introduction à l'Histoire des Mathématiques Maghrébines, Rabat, 1994, p. 77, nº 369.
- Sanchez, Perez-F. Vera: 3,49.
- Suter: 325.
- Vernet, Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne, Sindbad, 1985, p.p. 62, 153, 158, 196-197, 204 - 205.

د. محمد سويسي
جامعة تونس

ابن البطريق، أبو زكرياء يحيى

(ت 220هـ/835م)

أبو زكرياء يحيى (أو يوحنّا) بن البطريق. لا نعرف عن ولادته ونشأته شيئًا، لكننا نعلم أنّ أباه يحيى البطريق قد عاش في زمن المنصور العبّاسي (136هـ/ 754م ـ 158هـ/ 775م)، وأنه من المسهمين في حركة الترجمة إذ كلّفه المنصور «بنقل أشياء من الكتب القديمة» حسب ابن النديم [الفهرست، 384]، وقد أضاف ابن أبي أصيبعة [عيون

الأنباء، 1/ 250] إلى ذلك: «وله نقل كثير جيّد»، وأنه قد وَجَدَ «بنقله كتبا كثيرة في الطبّ من كتب أبقراط وجالينوس». فقد يكون يحيى الابن إذن قد ولد قبل سنة 158هـ/ 775م ببغداد. ويبدو من تسمية والده بالبطريق أنّه ليْس من الفُرس أو من السُّريان بل من الروم، ويؤكد ذلك قول ابن أبي أصيبعة [عيون الأنباء، 1/ 205] في التعريف به: «وإنّما كان لطينيّا يعرف لغة الروم اليَوْم وكتابتها، وهي الحروف المتصلة لا المنفصلة اليونانيّة القديمة»؛ وهذا يعني أنه روميّ لكن أصله ليْس من بيزنطة الشرقية ـ وعاصمتها القسطنطينيّة ولغَتها اليونانية التي يطلق عليها العرب عامّة «الرومية» ـ بل من بيزنطة الغربية التي كانت عاصمتها رومة ولغتها اللاتينية التي قد يسمّيها العربُ «رومية» أيضا، وهذه اللاتينية هي التي عناها ابن أبي أصيبعة [ينظر حول الروميّة وصلتها باليونانية واللاتينية: إبراهيم بن مراد، مسائل في المعجم ـ دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997، 191 ـ 194].

ويؤكد ما ذَهَبَ إليه ابن أبي أصيبعة وما ذَهبنَا إليه حول أصله الروميّ اللاتيني ومعرفته باللغة الرومية اللاتينية ما ذَكَرَهُ هو نفسه في مقدمة ترجمته لكتاب أرسطو «سِرّ الأسْرَارْ»: إنه قد جدّ في نقله من اللسان اليوناني إلى اللسان الرومي، ثم من اللسان الرومي إلى اللسان العربيّ [تنظر تعاليق فؤاد السَيّد في تحقيقه لطبقات الأطباء لابن جلجل، ص 68، تعليق (11)]، وقد أراد البعْض أن يرى في كلمة «الرومي» تحريفًا لـ«السُّرياني»، وجعل الترجمة الأصلية إلى السريانية ومنها إلى العربية [مقدمة كازيمير بترايتس لتحقيق كتاب الآثار العلويّة، 60]؛ ولَمْ نجدْ في كلامه ما يُقنع.

لقد ظلّت مراحل حياة ابن البطريق إذن مجهولة. وجلّ ما نعلمه عنه أنّه «كان في حملة الحسن بن سهْل» [ابن النديم، الفهرست، ص 304]، وأنه قد صحب المأمون وكان ممّن أرسلهم إلى بلاد الرّوم لاجتلاب الكتب اليونانيّة، وأنه كان مُؤلّفا ومترجمًا.

أمّا الحسن بن سهْل الذي كان في حملته فلا شك أنه الأمير الحسن بن سهْل الذي وجّهه المأمون إلى العراق سنة 198هـ/ 813 «عاملا عليها وعلى غيرها من البلد» [اليعقوبي، التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1970، 2/ 445]، بينما كان هو في مَرو ينتظر العودة إلى بغداد، وقد كان ابن سهل كاتب المأمون بعد دُخوله إلى بغداد سنة 204هـ/ 819م واستقرار الخلافة له، وقد كان أديبًا مترسّلا وشاعرا. وأمّا صحبة ابن البطريق للمأمون فلأنه كان له مولًى [ابن جلجل، طبقات الأطباء، 67]، وكان من جملة التراجمة الذين يُكلّفهم بنقل الكتب اليونانية إلى العربيّة، ونعلم أنه كان من الوفد الذي أرْسَلَهُ إلى بلاد الروم: «فإن المأمون كانَ بَيْنَهُ وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمُون. فكتب إلى ملك الروم يسْأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع. فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجّاج بن مطر، وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم. فأخذوا ممّا وجَدُوا ما اختاروا. فلمّا حملوه إليه

أمَرَهُمْ بنقله فنُقِل» [ابن النديم، الفهرست، 304].

وما ذكرْناه عن صلته بالمأمون يجْعلُنا نرجّح وجوده في الربع الأوّل من القرن الثالث الهجري، على الأقلّ. فلقد استقرّ المأمون ببغداد وبقي فيها خليفة من سنة 204هـ / 819م إلى وفاته سنة 218هـ / 833 م، وقد كانت صحبة ابن البطريق للمأمون ببغداد، ومنها كانت سفْرته إلى بلاد الروم مع الوفد المكلّف باجتلاب الكتب. والمرجّح أن تكون سفرة هذا الوفد أيام حكم الامبراطور الروماني ميخائيل الثاني (Michael II: 205هـ/ 820م - 214هـ/ 829م)، ويُستبعد أن يكون الإمبراطور الذي سبقه - وهو ليون الخامس (Léon V: 198هـ / 813م - 205هـ / 820 م) أو الإمبراطور الذي تلاهُ وهو ثيوفيل (Théophile: 214هـ / 829م - 227هـ / 842 م) لأنّ الخلافة لم تستقرّ للمأمون استقرارًا تامًّا بعْدُ في زمن الأوّل، ولأنّ علاقته بالأخير كانت رديئة إذ كانت بينهما حروب كثيرة قد بدأها المأمون سنة 215هـ / 830م. وهذا كلّه يجعلنا نرجّح أن تكون وفاة ابن البطريق في أواخر خلافة المأمون أو بُعيدها بقليل، أي بين 215هـ / 830م و 220هـ / 835م.

كان ابن البطريق مؤلفا، ومترجمًا. وقد عُني المحدّثون بالبحث في ما ألّفه وما ترجمه هو ووالده البطريق، وأهمّ ما وضعوا في ذلك قائمتان: الأولى [ينظر: D. M. Dunlop: The Translations of al-Bitrq and Yahya (Yhanna) b. al-Bitrq, in the Journal of the Royal Asiatic Society, 1959, p. p. 140-151] تشتمل على ثمانية عشر عُنوانا قد اعتبر أحَدُها - هو «سرّ الأسرار» - منحولا؛ واشتملت الثانية على خمسين عنوانًا [تنظر: مقدمَة كازيمير بترايتِس Casimir Petraitis لتحقيق كتاب الآثار العلوية، 32 - 65]. وقد تعسّف صاحب هذه القائمة تعسّفا كبيرًا إذ نسب إلى يحيى بن البطريق جُلّ ما ورد في عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة منسوبًا إلى يحيى النحوي [عيون الأنباء، 1/ 105]، والسببُ في ذهابه هذا المذهب هو ما لاحَظَه من تشابه في المفردات وفي الأسلوب (Vocabulary and Style) بين بعض الكتب المنسوبة إلى يحيى النحويّ التي اطّلع عليها وكتاب الآثار العلويّة الذي ترجمه ابن البَطريق!

ويلاحظ من قائمة مؤلفات ابن البطريق ومترجماته أنّه قد عني بالطبّ والفلسفة، ولكن الفلسفة كانت عليه أغلبَ. ولا تمكننا النصوص التي وصلتْنا له من تكوين رأي دقيق عن تفكيره ومعارفه، لكنّها تمكّننا من الحكم على طريقته في الترجمة. فلقد كانت «الترجمة الحرفيّة» عليه أغْلب سَواءٌ في نقل المصطلحات اليونانيّة أو في نقل التراكيب العاديّة، وقد عدّ بعْض القدماء هذه الطريقة خاصّة بابن البطريق وبعْض مَنْ عاصَرَه مثل ابن ناعمة الحمصي [خليل بن أيبك الصفدي، الغيث المسْجم في لاميّة العجَم، دار الكتب العلميّة، بيروت 1975، 1/ 79]. فهي طريقة قد سبقت مدرسةَ حنيْن بن إسحاق التي طوّرت حركة الترجمة في القرن الثالث الهجْري وحركة الإنشاء العلمية العربية عامّة، وقد كان ابن البطريق من أوائل بُناتها.

آثاره

الكتب التي أنهانا البحث إلى نسبتها إلى ابن البطريق أحد عشر: ثلاثة من تأليفه، وثمانية من نقله إلى العربيّة:

أ ـ الكتب المؤلّفة:

1 ـ كتاب السموم [ابن النديم، الفهرست، ص 379، وفيه «السمومات»؛ Sezgin: GAS 3/225]، ومنه نسخة مخطوطة في تركيا [رمضان ششن وغيره: فهرس مخطوطات الطبّ الإسلاميّ باللغات العربيّة والتركية والفارسيّة في مكتبات تركيا، استانبول، 1984، 388]؛ 2 ـ كتاب أجناس الحشرات، [ابن النديم، الفهرست، 379]؛ 3 ـ جوامع كتاب النفس لأرسطو، و«الجوامع» مفردها «جامع» وهو الكلام الذي قلّت ألفاظه وكثرت معانيه، وقد استُعْمِلَ مصطلح «جوامع» في عصر الترجمة للدلالة على الشروح والملخّصات التي كانت توضع لمؤلفات أصليّة.

ب ـ الكتب المترجمة: منها أربعة قد نشرت وأربعة لم تنشر: الكتب المنشورة: 1 ـ الآثار العلويّة لأرسطو، نشره عبد الرحمان بدوي ضمن كتاب «أرسطوطاليس: في السماء والآثار العلويّة» (القاهرة، 1961)، ثمّ نشره كازيمير بترايتس (Casimir Petraitis): كتاب الآثار العلويّة لأرسطوطاليس: The Arabic Version of Aristotle's Meteorology، دار المشرق، بيروت 1967)؛ 2 ـ في السماء والعالم لأرسطو: نشره عبد الرحمان بدوي تاليًا لكتاب الآثار العلوية، ضمن كتاب «أرسطوطاليس: في السماء والآثار العلويّة»، القاهرة 1961، ص ص 123 ـ 387؛ 3 ـ كتاب الحيوان لأرسطو، وهو كتاب كبير في تسع عشرة مقالة، وقد عده العرب في القديم كتابًا واحدًا [ينظر مثلا: ابن النديم، الفهرست، 312؛ القفطي، تاريخ الحكماء، ص 41]، وكذا سمّاه الجاحظ في كتابه الحيوان وأخذ منه نقولا كثيرة [ينظر: وديعة طه النجم، منقولات الجاحظ عن أرسطو في كتاب الحيوان، نصوص ودراسة ـ معهد المخطوطات العربيّة، الكويت 1985؛ وينظر أيضًا: Sezgin: GAS 3/350 ـ 351]، على أنّ الغالب عند المحدثين هو تقسيمه إلى ثلاثة كتب هي (آ) طباع الحيوان، وتكوّنه المقالات 1 ـ 10؛ (ب) أجزاء الحيوان، وتكوّنه المقالات 11 ـ 14؛ (ج) في كون الحيوان، وبه المقالات الخمس الباقية، أي 15 ـ 19، فكأنه إذن كتاب في ثلاثة أجزاء. وقد حقق عبد الرحمان بدوي الجزئين الأوّل والثاني من ترجمة ابن البطريق ونشرهما: «طباع الحيوان»، دار المطبوعات، الكويت 1977، ثمّ «أجزاء الحيوان»، عند الناشر نفسه 1978. وأمّا «في كون الحيوان» فقد حققه يان بروخمان (J. Brugman) ويوان دروسّات لولوفس (H.J. Drossaart Lulofs) ونشراه في ليدن: Aristotle Generation of Animals. The Arabic Translation commonly ascribed to Yahy ibn al-Bitrq. Leiden. E.J. Brill, 1971 وقد نشرت الباحثة المصريّة عزة محمد سليم سالم المقالة الرابعة عشرة (المقالة الرابعة عشرة من كتاب طبائع (كذا) الحيوان البحري والبرّي لأرسطوطاليس، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، 1985) دون أن تعلم بنشر عبد الرحمان بدوي

لأجزاء الحيوان، وأهمّ ما في نشرتها مقارناتها الموسّعة بين النصّ العربيّ والأصل اليوناني، أمّا قراءتها للنصّ فلم تَسْلَمْ من التحريف؛ 4 ـ كتاب سرّ الأسرار، ويعرف أيضًا بكتاب السياسة في تدبير الرياسة، المنسوب إلى أرسطو. وقد نسب ابن جلجل الكتاب إلى أرسطو [طبقات الأطباء، ص 67]، وقال إنه كتبه للاسكندر المقدوني ـ ونسب ترجمته إلى ابن البطريق، ونقل قولَ ابن البطريق في ذلك. على أنّ من المحدّثين ـ من المستشرقين خاصّة [ينظر مثلا : Lucien Leclerc, Histoire de la médecine arabe, I/181-182؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربيّ، 4/ 94 ـ 95]، وهو في نظره «كتاب لفّقه أحد العرب في القرن العاشر أو الحادي عشر من مصادر مختلفة»؛ وقد ذهب دنلوب (Dunlop) مذهبه في بحثه عن ترجمات البطريق وابنه يحيى. على أنّ عبد الرحمان بدوي لم يرَ في نسبة الكتاب إلى ابن البطريق خطأً فنشره ضمن كتابه «الأصول اليونانيّة للنظريات السياسيّة في الإسلام» (القاهرة 1954، 65 ـ 271)، وقد تابعَه في هذا الرأي محقق كتاب الآثار العلويّة (58 ـ 61).

وأمّا الكتب الأربعة الباقية ـ وهي الكتب غير المنشورة ـ فمنها كتابان يوجدان مخطوطيْن، وكتابان مفقودان. والموجودان هما : 5 ـ كتاب البثور في علامات الموت لأبقراط، منه نسخة في تركيا [مخطوطات الطبّ الإسلامي. . . ، ص 3، ـ وكذلك بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، :Sezgin GAS 3/39-40, 95/4]؛ 6 ـ كتاب الترياق إلى بيسن لجالينوس، ومنه نسخة في تركيا أيضًا [فهرس مخطوطات الطبّ الإسلامي، 162 ـ 163]. وأمّا الكتابان المفقودان فهما : 7 ـ كتاب البرسام للإسكندروس (Alexandre de Tralles)، وقد قيل إنّه ترجمةُ لشخص اسمه القحطي [ابن النديم، الفهرست، ص 353؛ القفطي، تاريخ الحكماء، 55]؛ 8 ـ كتاب طيماوس لأفلاطون [ابن النديم، الفهرست، 307].

المصادر والمراجع

• ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد السيّد، القاهرة 1955، 67 ـ 68؛ • ابن النديم، الفهرست، تح. رضا تجدّد، طهران 1971، 211؛ 304 307، 312، 349، 353، 379؛ • القفطي، تاريخ الحكماء، وهو منتَخب الزوزنيّ المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي، تح. يوليوس لبّر، ليبزيغ 1903، و40، 55، 131؛ 379؛ • ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. أوغست ملَر، القاهرة 1299هـ / 1882 م، 1/ 205؛ • ابن العبري، أبو الفرج، تاريخ مختصر الدول، نشرة أنطوان صالحاني اليسوعي، ط. 2، بيروت 1958، 138؛ • بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربيّ، تر. السيّد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر، القاهرة 1975، 4/ 94 ـ 95؛ • كازيمير بترايتس، مقدمة تحقيقه للآثار العلويّة، 27 ـ 65؛

- Fuat Sezgin : GAS = Geschichte des Arabischen Schrifttums. Band III, Leiden, Brill, 1970, p. 164, 225 - 240, 349-351.
- Lucien Leclerc M., Histoire de la médecine arabe, Paris, 1876, 1/ 181-182.

د. إبراهيم بن مراد
جامعة منوبة ـ تونس

ابن البطريق، سعيد

(263هـ/876م ـ 328هـ/940م)

من أهل فسطاط مصر، كان مشهورا عارفا بعلم صناعة الطب ومتقدما عن أقران زمانه، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم.

وفي أول سنة لخلافة القاهر بالله محمد بن أحمد المعتضد بالله، عُين سعيد بن البطريق بطريركا على الاسكندرية وسُمّي أوتوشيوس وذلك في شهر صفر عام 321هـ وكان في أيامه شقاق عظيم بينه وبين شعبه.

ومن أشقائه عيسى بن البطريق، وكان طبيبا ومتميزا في المداواة والعلاج، مشكورا في صناعة الطب. وكان مقامه أيضا بمدينة الفسطاط بمصر القديمة... وتوفي بها.

آثاره

1 ـ كتاب في الطب وعمل كناش؛ 2 ـ كتاب الجدل بين المخالف والنصراني؛ 3 ـ كتاب نظم الجوهر، ثلاث مقالات. كتبه إلى أخيه عيسى بن البطريق المتطبب في معرفة صوم النصارى وفطرهم وتواريخهم وأعيادهم وتواريخ آلملوك المتقدمين. وذكر البطارقة وإخوانهم ومدة توليهم وحياتهم ومواضعهم وما جرى في ولايتهم. وقد سمى هذا الكتاب بالذيل.

وقد تسمى أكثر من واحد باسم ابن البطريق كسعيد بن البطريق، صاحب السيرة، ويحيى أبي يوحنا بن البطريق، وعيسى بن البطريق. وقد ذكر العمري في كتابه «مسالك الأبصار» بعد ترجمة ابن عدلان أبياتا نسبها إلى ابن بطريق ولم يزد عليها أية إفادة.

المصادر والمراجع

● الأب جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت؛ ● ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء، ج 2 ص 546؛ ● شيخو، شعراء، ج 2 ص 266، 227.

د. عبد الفتاح مصطفى غنيمة
أكاديمية العلوم ـ مصر

ابن بطلان، أبو الحسن المختار بن الحسن

(ق 5هـ/11م)

هو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان. طبيب نصراني من أهل بغداد، ولد في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد. تتلمذ على أبي الفرج عبد الله بن الطيب البغدادي. وأتقن على يده قراءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها، وأصبح من أكبر أصحابه. وكان أبو الفرج يجلّه ويعظّمه ويكرمه، ويقدمه على بقية تلاميذه. كما قرأ على علماء زمانه من نصارى الكرخ وحرّان، منهم أبو الحسن ثابت بن إبراهيم بن زهرون الحراني الطبيب، فانتفع به في صناعة الطب وأصبح يرتزق بها.

خرج ابن بطلان من بغداد سنة 439هـ / 1047م، قاصداً الأنبار، ثم تابع طريقه للرحبة، ومنها انتقل إلى الموصل، ثم زار ميافارقين وديار بكر، وأخيراً حلّ في مدينة حلب. فأقام فيها مدة ملازماً لمعزّ الدولة ثمال بن صالح، الذي بالغ في إكرامه. ولما طلب ابن بطلان منه أن يرد أمر النصارى في عبادتهم إليه حقق طلبه وولاّه ذلك. إلا أن ابن بطلان اشتد في إقامة القوانين الدينية عندما تولى أمرهم في كنائسهم وتقرير صلواتهم، فكرهه النصارى وهجوه. وكان بحلب طبيب نصراني يعرف بالحكيم أبي الخير المبارك بن شرارة، وكان ابن بطلان حينما يجتمع به يناظره في أمر الطب ويستطيل عليه، وهذا ما جعل ابن شرارة عدواً له، يشنّع عليه بين أهالي حلب.

غادر ابن بطلان حلب وما حمدها، وتوجّه إلى مصر فوصلها سنة 441هـ / 1049 م، وأقام فيها ثلاث سنين، اجتمع خلالها بالطبيب والفيلسوف المصري علي بن رضوان، وكان ذلك في أواسط المئة الخامسة للهجرة، وفي عهد الخليفة المستنصر بالله. ويقال بأن السبب الذي دعا ابن بطلان للقيام بهذه الرحلة رغبته الاتصال بعلي بن رضوان، والذي كان من أشهر علماء مصر وفلاسفتها، ورئيس الأطباء فيها في ذلك الوقت.

لقد جرت بين الطبيبين ابن بطلان وابن رضوان عدة مراسلات ومناظرات، تتعلق بمختلف العلوم. وكان أحدهما إذا ألّف كتاباً أو أبدى رأياً يردّ عليه الآخر منتقداً مؤلفاته ومسفّهاً آراءه.

خرج ابن بطلان من مصر مغضباً، بعد الخصام الذي جرى بينه وبين ابن رضوان، واتجه إلى مدينة إنطاكية، ومنها رحل إلى القسطنطينية، فوصلها سنة 446هـ/ 1054م، وكان مرض الطاعون منتشراً فيها. فمكث مدة سنة يزاول معالجة المرضى، فلاحظ أن أكثر من يصاب بهذا الداء كان يتألم من قروح تنشأ حسب رأيه من الصفراء السوداوية (Atrabile)، ومن انتفاخ الطحال.

عاد ابن بطلان بعد ذلك إلى إنطاكية وأمضى فيها مدة يزاول الطب. ثم انعزل بعد ذلك في

صومعة أحد الأديرة، واكتسى بمسوح الرهبان. ونظراً إلى براعته في علوم الأدوية والمداواة فقد كلّفه رئيس الدير بالإشراف على بيمارستان إنطاكية، فسعى لتوسعته وتحسين طرق معالجة المرضى فيه، وبقي يقوم بهذا العمل حتى وفاته.

وجاء في كتاب «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي أن ابن بطلان توفي في إنطاكية سنة 444هـ، بينما يقول ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» أن ابن بطلان ألف كتابه «دعوة الأطباء»، وكتب في آخره: «أنا مصنّفها يوانيس الطبيب، المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون، بدير الملك المنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية، في آخر إيلول سنة خمس وستين وثلثمائة وألف، ويكون ذلك بالتاريخ الإسلامي في سنة خمسين وأربعمائة». وهذا يدل على ابن بطلان توفي بعد ذلك التاريخ، وقد بقي عزباً، فلم يتخذ زوجة ولا خلّف ولداً.

لقد جرت بين الطبيبين علي بن رضوان وابن بطلان، عند اجتماعهما بمصر، عدة مراسلات، طرح فيها ابن رضوان على ابن بطلان عدداً من المسائل، منها السهل ومنها الصعب، لكي يطّلع على ما لديه من ذخيرة علمية. ويقول ابن بطلان إنه أجاب في الحال عن بعضها، وتراخى عن إنفاذ الإجابة عن بعضها الآخر، إبقاءً لصلة المودّة.

كان ابن رضوان يتعالى على غيره من الأطباء، كما كان ينتقد أقوال ومؤلفات من عاصره أو سبقه منهم. ويذكر ابن أبي أصيبعة أن ابن رضوان كان في حديثه وبحثه سفاهة وتشنيع على من يناقشه أو يتكلم عنه. ولم يكن لابن رضوان في صناعة الطب معلّم ينسب إليه. وقد قام بتأليف كتاب خلاصته أن تحصيل صناعة الطب عن طريق قراءة الكتب أوفق وأجدى من الحصول عليه عن طريق المعلمين.

كان والد ابن رضوان فرّاناً يعمل في منطقة الجيزة بمصر، وكان ابنه علي منذ صغره يرغب في التعلم. وعندما بلغ العاشرة انتقل إلى القاهرة، وتابع تحصيله فيها عن طريق قراءة الكتب. واستطاع في أوائل شبابه أن يتمّ قراءة ما وصل إلى يده من كتب الفلسفة والمنطق، وعلم الفلك والتنجيم والطب. ونظراً إلى سوء حاله وضيق ذات يده اضطر للتكسب في الطرقات، تارة بالتنجيم وتارة بالطب. وحينما بلغ الثانية والثلاثين كثرت زبائنه وازداد دخله، فاشترى الأملاك وأصبح من كبار الأطباء. ولما بلغت شهرته مسامع الحاكم بأمر الله نصّبه رئيساً لأطباء مصر.

لقد بدأت المناقشة والمنافسة بين ابن بطلان وابن رضوان حينما ألف الأول مقالة في الاعتراض على من قال إن الفرخ أحرّ من الفروج بطريقة منطقية، في أول وصوله إلى مصر. وهذا القول ينسب إلى الطبيب أبي الفرج جورجس بن يوحنا اليبرودي، والذي كانت بينه وبين ابن رضوان مراسلات ومناقشات طبية. ثم اشتد الخصام بين ابن بطلان وابن رضوان حينما ألف ابن بطلان كتاباً ذكر فيه بصورة مفصّلة سبعة أسباب لأجلها صار المتعلم على أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصّحف، إذا كان القول واحداً. وفي كتاب ابن أصيبعة بيان مسهب

لتلك الأسباب، وهو رأي ناقض فيه ابن رضوان الذي تعلم عن طريق قراءة الكتب.

كان ابن رضوان أسود اللون قبيح الصورة. وله مقالة ردّ فيها على من عيّره بذلك، وفيها يقول بأن الطبيب الفاضل لا يشترط فيه أن يكون جميل الوجه.

ألف ابن بطلان رسالة دعاها «وقعة الأطباء» ذكر فيها كثيراً من الأحداث والنوادر التي صادفها في مصر. ومنها المجادلات والمحادثات التي جرت بينه وبين ابن رضوان، وكان يطلق عليه اسم تمساح الجن. وقد هجاه بهذين البيتين [من الطويل]:

ولمّا تبدّى للقوابل وجهه
نَكَصْن على أعقابهن من الندمْ

وقلن وأخفَيْن الكلام تستُّراً
الا ليتنا كنّا تركناه في الرَّحِمْ

لقد قارن ابن أبي أصيبعة بين ابن بطلان وخصمه ابن رضوان فقال: «كان ابن بطلان أعذب ألفاظاً وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب وما يتعلّق به. وكان ابن رضوان أطبَّ وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها». ومن المستحسن أن يضاف إلى هذا القول: إن ابن بطلان كان يهتم بكل ما يسمع من حروب وغلاء، أو خراب وبلاء، في الأماكن التي يحلّ بها أو يجاورها ومنها:

- تكلم عن الوباء الذي عرض في القسطنطينية عند طلوع الكوكب الآثاري في الجوزاء سنة 446هـ، فقضى على كثير من أهلها، بحيث امتلأت المدافن بالموتى، وبلغ عدد ما دفن في كنيسة لوقا أربعة عشر ألف نسمة.

- تكلم عن الأوبئة التي انتشرت في الفسطاط وبلاد الشام، منذ سنة 447هـ، فمات كثير من سكانها وجميع الغرباء فيها. ثم انتقل هذا الوباء بعد ذلك إلى العراق، واستمر أذاه حتى سنة 454هـ، فقضى على أكثر أهله.

- لقد وصف ابن بطلان الأمراض التي عرضت للناس في كثير من الأقطار العربية، ومنها الإصابة بالقروح السوداوية وأورام الطحال، وتغيّر ترتيب نوبات الحميات. وعزا تلك الأوبئة إلى بعض الأحداث الطبيعية أو الفلكية. ومنها نقصان مياه النيل، أو ظهور المذنبات، أو نزول زحل في برج السرطان، ثم يقول أخيراً: «إن حكم بطليموس قد صحّ في قوله: إن زحل والمريخ متى اقترنا في السرطان زلزل العالم».

- أحصى ابن بطلان عدد الأطباء والعلماء والفقهاء والقضاة الذين توفوا خلال تلك الأوبئة في البلاد العربية، فبلغ عددهم (18)، وكان أولهم الحسن البصري وآخرهم أبو العلاء المعري.

وكان ابن بطلان قد صنّف كتاب «دعوة الأطباء» للأمير نصر الدولة بن نصر أحمد بن مروان، وجعله على مذهب كليلة ودمنة. وهو يمتاز بمزج الهزل بالجد، وفيه باطل ينطق عن حق، وخير القول ما أغنى جده عن هزله. وفيه قصص الحكماء وكلام البلغاء ونوادر لفلاسفة أجلاء، ويُظهر ابن بطلان فيه فضل الأطباء المتعلمين على الممخرقين والدجالين في صنعة الطب. ولهذا الكتاب نسخة مخطوطة نفيسة ومذهبة، محفوظة في مكتبة الأمبروزيانه في ميلانو بإيطاليا، كتبها محمد بن قيصر الاسكندري سنة 672 هـ.

عدد أوراقها 34ق، من القطع الصغير، وفيها رسوم لأشخاص بأوضاع مختلفة، وبسحنة مغولية.

هذا ويعد كتاب «تقويم الصحة بالأسباب الستة»، أضخم مؤلفات ابن بطلان وأكثرها أهمية. لأنه جمع فيه المعلومات الطبية المتعلقة بعلم الأدوية المفردة والمركبة، وأسماء الفاكهة والبقول، وأنواع التوابل والبخورات. . .، مع ذكر منافعها ومضارها، والأوقات المناسبة لاستعمالها. وهو ما حصل عليه من مؤلفات من سبقه من أطباء يونان وسريان وعرب. أما السبب في شهرة هذا الكتاب فهو أنه كان أول مؤلف طبي عربي يكتب على شكل جداول. ويقول ابن بطلان في مقدمة هذا الكتاب إن الأسباب الستة، التي لا بد لكل إنسان يؤثر دوام صحته من تعديلها واستعمالها وهي:

أولاً: إصلاح الهواء الواصل إلى قلبه.

ثانياً: تدبير مأكله ومشربه.

ثالثاً: تعديل حركاته وسكونه.

رابعاً: منع نفسه من الإغراق في نومه ويقظته.

خامساً: تقدير استفراغ واحتقان فضلاته.

سادساً: أخذ نفسه بالقصد (بالاقتصاد) في فرحه وغضبه، وفزعه وغمه. فهذا وجه اعتدالها، وبه تكون هذه الأسباب الستة حافظة للصحة.

لقد قام الطالب السوري السيد حسام الخادم، عند انتسابه إلى كلية الفلسفة والآداب في جامعة بروكسل الحرة، بالبحث عن مخطوطات كتاب «تدبير الصحة» لابن بطلان، بقصد تحقيق ودراسة هذا الكتاب، ليكون موضوعاً لنيل شهادة الدكتوراه من تلك الجامعة. فاستطاع اكتشاف وجود 16 نسخة مخطوطة منه موزعة في أشهر المكتبات العالمية. كما استطاع الحصول، عن طريق المراسلة، على نسخ مصورة لـ 15 مخطوطة لهذا الكتاب. أما المخطوطة السادسة عشرة، والموجودة في مكتبة رامبور بالهند، فإنه لم يستطع الحصول على نسخة مصورة لها.

ويقول السيد حسام: إن هذا الكتاب، على الرغم من شهرته في الشرق والغرب، فإن أحداً لم يقم بدراسته، علماً بأنه قد ترجم إلى اللاتينية في أوروبا خلال القرن الثالث عشر للميلاد. وفي أوائل القرن الرابع عشر ظهرت في إيطاليا عدة مختصرات للكتاب المترجم، وفي القرن السادس عشر ظهرت بعض الدراسات لتلك المختصرات.

أما النص العربي لكتاب «تقويم الصحة» فلم يُحقق أو يدرس أو يختصر في أي بلد عربي أو إسلامي أو أجنبي. لقد قارن السيد حسام بين المخطوطات التي عثر عليها، لينتخب أجودها، وبالتالي ليجعله المصدر الأساسي لتحقيقه. فوجد أن أجودها هي المخطوطة التي قُدمت إلى السلطان أبي المظفر غازي بن يوسف بن أبي ناصر، ويعود تاريخ تدوينها إلى سنة 610هـ / 1213م. فقام بتحقيقها ودراستها باللغة الفرنسية، ثم طبعها وقدمها لجامعة بروكسل سنة 1981 ـ 1982 ونال على أثرها درجة الدكتوراه.

لقد سعى محقق هذا الكتاب إلى المحافظة على شكل وأبعاد عدد أوراق المخطوطة الأصلية عند طبعها بعد التحقيق. فبلغ عدد أوراق الكتاب، والصفحات المكتوبة فيه 85، لأن الكتابة كانت على وجه واحد من الورقة.

تكلم ابن بطلان في كتابه هذا عما يستعمله الإنسان من مواد أولية نباتية وحيوانية، وعن فوائدها وضررها، وعن المأكولات التي تصنع منها، وعن الأوقات المناسبة أو الضارة عند تناولها... وجعل في كل صفحة جدولاً طولياً يضم سبعة أنواع من تلك المواد يذكر فيها، وعلى خطوط عرضية، اسم المادة وطبعها وصفاتها وفائدتها وضررها... وفي الصفحة التي تليها يوجد جدول آخر عرضانياً ذكر فيه تعليقات على المواضيع المطروقة في الصفحة التي سبقتها. وفيما يلي المواضيع المطروقة في تلك الصفحات:

1 ـ الفواكه. 2 ـ الحبوب. 3 ـ الخبز. 4 ـ البقول. 5 ـ التوابل. 6 ـ الخل والمخللات. 7 ـ الأصباغ والمطيبات. 8 ـ المطجنات. 9 ـ الألبان. 10 ـ الجبن والبيض. 11 ـ لحوم الحيوانات. 12 ـ لحوم الطيور. 13 ـ الأسماك طريها ومالحها. 14 ـ أعضاء الحيوانات. 15 ـ المطبوخات. 16 ـ المقليات والكباب. 17 ـ المشويات. 18 ـ الحلوى. 19 ـ الخلال والفسول. 20 ـ مياه الأمطار والعيون. 21 ـ الخمور. 22 ـ الرياحين. 23 ـ الأنقال (المكسرات). 24 ـ الغناء وأدواته. 25 ـ السُكر والنوم واليقظة. 26 ـ الاستفراغ والجماع والخمار. 27 ـ الحركة والسكون والرياضة. 28 ـ الحمام وأدواته. 29 ـ البخور والأشربة. 30 ـ الأهوية والأزمنة.

مما سبق يتبين لنا أن كتاب تقويم الصحة هو موسوعة مبتكرة في حفظ الصحة، جعلها مؤلفها على هذا الشكل تسهيلاً لمطالعتها والاستفادة منها. وهو خير ما كتب من مؤلفات مماثلة، وهذا نموذج من جداوله الطولانية والعرضانية:

الفاكهة

الرقم الإبجدي	الاسم	الطبع	الدرجة	الجودة	المنفعة	المضرة	دفع الضرر	المتولد منه	المزاج	الأسنان	الأزمان	البلدان
	التين	حار يابس ـ حار رطب	الأولى	الوزيري المقشر	مخرج الرمل من الكلى والسموم	يحدث نفخا وغلظا	بالسكنجبين والمري	غذاء صالح	بارد	الكهول	للخريف	المعتدلة

الاختيارات

التين: يفضّل الوزيري على الأسود، للطافته واعتدال حرارته وعسر تعفنه. وهما يدفعان الوسخ إلى تحت الجلد فيحدثان قملاً وحصفاً وعرقاً وحميات إذا فسدا. وهما ينفعان الصدر والظهر، وهزال الكلي والباه.

ويقول ابن بطلان في آخر كتابه تقويم الصحة: «ولعل بعض من يقرأ كتابي هذا يقول: قد عشتُ زماناً لم أحتج إلى ما في هذا الكتاب. فكم من مرة جمعت في معدتي هذه الأطعمة

في حالة واحدة، على ضد الأحوال المذكورة، فلم أر إلا خيراً.

ولو فكر لعلم أن الله تعالى لو عاقب العبد بأول ذنب لم يذنب إنسان... وعلم أيضاً أن بدن الإنسان مثل الأرض التي إذا قام عليها صاحبها بالعمارة والماء المعتدل، وقص الزائد من عشبها، زاد ريعها، وبالضد. وإذا صح هذا في الأراضي فأحرى بذلك في بدن الإنسان».

آثاره

1 ـ مقالة في شرب الدواء المسهل؛ 2 ـ كتاب في سقي الأدوية المسهلة وتركيبها؛ 3 ـ مقالة في كيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه وخروج فضلاته؛ 4 ـ مقالة إلى علي بن رضوان عند وروده الفسطاط سنة 441هـ، جواباً عما كتبه إليه؛ 5 ـ مقالة في علة (سبب) نقل الأطباء المهرة تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج...؛ 6 ـ مقالة في الاعتراض على من قال إن الفرخ أحرّ من الفروج بطريقة منطقية؛ 7 ـ كتاب المدخل إلى الطب؛ 8 ـ كتاب دعوة الأطباء؛ 9 ـ كتاب دعوة القسوس؛ 10 ـ مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة؛ 11 ـ كناش الأديرة والرهبان؛ 12 ـ كتاب تقويم الصحة؛

المصادر والمراجع

● القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، 192 ـ 207؛ ● ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، 190 ـ 191، 210؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 2/ 238 ـ 242؛ ● ابن بطلان، تقويم الصحة، تح. ودراسة مخطوطاته حام الخادم (بالفرنسية)، جامعة بروكسال، 1981 ـ 1982؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 7/ 191.

أ. د. محمد زهير البابا

مجمع اللغة العربية ـ دمشق

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله

(703هـ/1304م ـ 776هـ/1374 ـ 1375م)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللّواتي الطنجي الملقب في المشرق بشمس الدين، والمكنى بأبي أحمد على اسم ولد له يحمل هذا الاسم...

ومعلوم أن «لواتة» قبيلة واسعة الانتشار يؤكد المقريزي أنها عربية [المقريزي، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب].

ولد بطنجة يوم الاثنين 17 رجب 703هـ /

24 فبراير 1304 م، ويبدو أن الأسرة تنتسب إلى سيدة كانت تحمل اسم فاطمة: عادة معروفة في إفريقيا من قديم تنسب الناس فيها إلى أمهاتهم. وتتحول فاطمة في المشرق، تدللا إلى بطة، ونحن نعرف من الأعلام ابن بطة العكبري (ت 387 هـ)، وتمسي بطة في المغرب بطوطة كسفودة على ما في تاج العروس للزبيدي.

وبيت ابن بطوطة معروف بأنه بيت علم وقضاء. ففي البرتغال كان هناك القاضي محمد بن محمد بن عبد الرحمان اللواتي الشهير في طنجة بابن بطوطة ... كما قرأنا عن أسرة البطوطي التي وضع أحد أفرادها بفاس قطعة إسطرلاب فائقة الدقة [التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 52/ 7].

وتقوم شهرة ابن بطوطة على أنه من الرحالين العالميين الكبار، فقد قام برحلات ثلاث هي التالية:

في الأولى، وكان غرضه منها أداء فريضة الحج، ساح ببلاد المشرق العربي والإسلامي. فمن بلاد المغرب العربي انتقل إلى مصر، وسوريا، والحجاز، والعراق، واليمن، والصومال، وعمان، والبحرين، وخوزستان، وفارس، وما وراء النهر، وتبريز، وبلاد التتر، وتركستان، وبعض بلاد الهند، والصين، وجزر مالديف، وجاوة، وغيرها. ولم تكن رحلته خطية حسب الترتيب الذي ذكرنا، إذ كان كثيرا ما يعود إلى نفس البلد، مرة أو أكثر، لدواع مختلفة كالحج، أو افتقاد وسائل الارتحال، أو غيرها. وقد دامت هذه الرحلة خمسا وعشرين سنة (2 رجب 725هـ / 14 جوان 1325م - شعبان 750هـ / نوفمبر 1349م).

وفي الثانية تجوّل لمدة قصيرة عبر مملكة غرناطة وغيرها من البلاد الأندلسية.

وفي الثالثة خرج من سجلماسة في غرة محرم 753هـ / 18 فيفري 1352م، إلى جنوب القارة الإفريقية، فزار الصحراء، وبلاد السودان الغربي، والسنيغال، وغامبيا، وغينيا، ومالي، والنيجر، وغيرها، وتوغل في مجاهلها متعرفا على غرائبها وعادات شعوبها، ثم عاد منها إلى سجلماسة في ذي القعدة 754هـ / ديسمبر 1354م.

وكان ابن بطوطة عقب كل رحلة يتصل بالسلطان المريني أبي عنان فارس بن علي (729هـ / 1329م - 759هـ / 1358م)، وهو الذي أمر كاتبه محمد بن محمد بن جُزَيّ الكلبي (ت 757هـ / 1356م) ليدوّن عنه رحلته، فانتهى منها في 3 ذي الحجة 756هـ / 9 ديسمبر 1356.

ومكافأة لابن بطوطة، عدا ما كان يجود به عليه من الصلات، عيّنه في منصب قاضي إقليم «تامسنا» الذي يعتبر من أوسع الأقاليم المغربية في مملكته فاس وأغناها على ذلك العهد. وقد ظل في هذا الطور من حياته، ومدته ثلاثة عشر سنة، مجهول التقلبات والتفاصيل والحياة العائلية ما عدا منصب القضاء الذي ظل يشغله إلى حين وفاته.

وإذا كان مترجموه أهملوا الحديث عن ظروف حياته، فإن الحافظ ابن حجر في «الدرر الكامنة» يفيد أن ابن بطوطة بقي إلى سنة سبعين، وأدركته وفاته وهو متولّ للقضاء يعني حتى عهد السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن أخي السلطان أبي عنان مما يعني أن أجله

أدركه بتامسنا التي كانت عاصمتها آنذاك «أنفا»، الدار البيضاء حاليا، وليس بفاس ولا بطنجة كما يقول بعض الناس.

على أن هناك من المؤرخين من رأى انه توفي سنة 779هـ / 1377 ـ 1378م [هدية العارفين، 6/ 169؛ الزركلي، الأعلام، 6/ 235]، أو سنة 776هـ / 1374 ـ 1375م [حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، 36].

وتتمثل أهمية رحلة ابن بطوطة التي امتدت على حوالي ثماني وعشرين سنة، في أنها احتوت على موضوعات متنوعة من جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية ودينية وثقافية وعلمية، وعرضت عديد العادات والتقاليد مما أهّلها لتكون مصدرا إناسيا/أنثروبولوجيا، ومعرضا حيا لحياة الشعوب التي تناولتها بالوصف، نحن اليوم ـ من وجهة نظر تاريخية ـ في مسيس الحاجة إليها لمعرفة نفسياتها، وطرق تفكيرها وسلوكاتها، وإسهاماتها الحضارية.

من هذه الصور مثلا وصف العادات والتقاليد والملابس والأطعمة والأشربة والطقوس الدينية، والحياة في البلاطات والمنازل والأسواق والمعابد وأنواع البريد، والأسفار برا وبحرا، والنقود، والفنون مثل فن الرسم عند الصينيين، وغير ذلك مما حفلت به الرحلة من الموضوعات.

وحتى نذكر أمثلة مدققة نشير إلى معالجته، وهو في الهند وسيلان، لقضية التعايش بين الهندوس والمسلمين، تلك القضية التي أدركها جيدا واستوعبها، ونحن بحاجة اليوم إلى قراءة جديدة للرحلة حول هذا الموضوع.

ولم يفت ابن بطوطة كذلك أن يسجل معلومات عن وسائل الملاحة، فقد كان يتعرف على جنسيات السفن التي كان يمتطيها للقيام برحلته، بل لم يفته أن يشيد بمن يستحق الإشادة إنصافا وعدلا، ويندّد بمن كان سلوكه لا يُرتضى، لا فرق عنده بين مسلم وغيره، على نحو ما كان يفعله الرحالة ابن جبير، والرحالة أبو حامد الغرناطي الذي نعرف عن تفسيره العجيب لحديث «الدنيا سجن المؤمن»... ولقد أخذنا فكرة عن الحركة البحرية والأساطيل التجارية التي كانت لها الهيمنة على ذلك العهد، فقد كان يتنقل مع السفن الجنوية والصينية واليمنية والعمانية والكطلانية...

والحديث عن المراكب والسفن يسلمنا إلى الحديث عن الرياح الطيّبة وتحكّمها في مواعيد السفر. وهذا الموضوع لعلاقته بالارتحال أجبر ابن بطوطة على أن يكون من العارفين بالرياح التي تعصف بالصاري والقريّة من غيرها..

وقد كوّن لديه الوضع الاجتماعي للمرأة ومركزها عند الأمم التي زارها، أفكارًا لا تخلو من إطراف وإتحاف، فلقد تحدث على عفّة المرأة وشفقتها وهو في خراسان، كما تحدّث عمّا تبلغه المرأة من مكانة سامية في بلاد الترك والتتر حتى أن القرارات لا تصبح نافذة إلا إذا صدرت عن أمر الخواتين إلى جانب السلاطين ! وحتى في بلاد السودان والصحراء عندما تتمتع السيدة بحريتها في التعامل الشريف، وعندما تتميز باستظهار القرآن في هنور جنوب القارة الهندية.

ويندرج في هذا الاتجاه الخاص بطرح عديد الموضوعات ذلك النوع من المقارنات الطريفة والدالة على الحس الاقتصادي والتجاري الذي كان يتوافر عليه، والذي يعبّر عن شمولية شخصيته: قضية تتبّعه للأسعار وتتبّعه للمكاييل والمعايير والموازين، وقيمة العملات حتى لكأنك مصحوبٌ بجريدة تطلعك على أسعار ما يجري في السوق. وهكذا لم يكن الرحالة رجل فقه وأحكام وأوراق فقط، ولكنه كان أيضا رجلا مطلعا على كل شيء!

لقد بدا ابن بطوطة مهتما بقضايا الصرف والمقارنة بين العملة هنا وهناك، ومثاله عندما كان بمصر ومنطقة الخليج وتركيا والهند التي بعث منها أربعين دينارا ذهبيا هنديا إلى طفله بدمشق، وكذلك المقارنة بين الرطل في هذه الجهة والمنّ في الجهات الأخرى، والأوقية وما تعرّف عليه هناك في الهند ممّا سمّاه التنركة... ولم يفته أيضا، وهو يتحدّث عن دور ضرب السّكّة في الصين أن يذكر دور السكة في بلاده المغرب، وأن أسعار الخيول في بلاد الأوزبك غيرها في الجهات الأخرى... وأن أسعار الفِراء في الأرض الباردة ترتفع إلى مبلغ هائل لا يتصوّره شخص نشأ في أرض دافئة لا تحتاج للفراء!

وقد رأيناه أحيانا يربط بين المعلومات المتعلّقة بآسيا والمعلومات المتصلة بإفريقيا السوداء... ومن هنا اعتبرت الرحلة في العصر الوسيط دليلا تجاريا للذين تهمّهم الدراسات الاقتصادية على ذلك العهد على ما أشرنا إليه...

وإلى جانب الموضوعات الكثيرة التي تحتفل بها الرحلة احتوت على جوانب من سيرته الذاتية مما يجعل منها مصدرا لحياته وفكره ومعارفه. ففي الاسكندرية مثلا ذكر أنه أخذ عن الشيخ ياقوت تلميذ أبي العباس المرسي، فهو شاذلي بالواسطة، وقد حصل في دمشق على نحو من ثلاث عشرة إجازة، وممن أجازوه حافظ الحفّاظ أبو المحاسن المزّي، وأم عبد الله زينب بنت الكحال المقدسية. ولقد كان حريصا على أن يذكر أسماء الذين أجازوه في أرض الشام، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على «انتساب» الرجل إلى بيت علم وفقه وحديث...

ويخبرنا أيضا أنه تولّى القضاء في دهلي (الهند) عامين، وفي ذيبة مهل (جزر مالديف) عاما ونصف العام.

ولا يفوته كذلك أن يحدثنا في جرأة وصراحة عن زيجاته، بل إنه لم يجد أي حرج في الحديث عن الخصومة التي شبّت بينه وبين صهره لزوجته الصفاقسية... ولم يجد ما يمنعه لكي يقترح توقيف ركب الحاج في الجبل الأخضر (ليبيا) حتى يحتفل بعرسه على سيدة فاسية كانت ترافق والدها إلى مكة...

ولم تكن هذه «الفاسية» هي الأخيرة في حلقات السلسلة الطويلة لزوجاته التي قد تكون بدأت من طنجة، فقد تزوّج بدمشق عند زيارته الأولى حفيدة لسيّد من مكناس كان مقيما هناك، وقد عرفنا من أسماء زوجاته الأسيويات «مباركة» و«الحور نسب»، و«عاشوراء» التي تزوّجها في البنغال. أما اللاتي لم نعرف أسماءهنّ فعددهنّ كثير وكثير!

ومما كشفت عنه الرحلة ذلك الحس الوطني لدى ابن بطوطة، وحتى نعرف درجة هذا الحس نلاحظ أنه كان يتصيّد ذكر المغرب في كل مجال يستدعي ذكره. فهو يفيدنا مثلا أن المغاربة شاركوا ضد هجوم القرامطة على الكعبة. وهي الحقيقة التي نجد لها صدى في المصادر القديمة للتاريخ الدولي للمغرب [التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 4/ 144 ـ 145].

ولم ينس كذلك أن يقارن بين نظام الدارات في الصين ومثيلاتها في سجلماسة، وبين قطع الأسطول والأجفان وعددها بالمغرب والصين.. سواء منها الحربية، أو التجارية بالمصطلح الحديث.

وقد ذكر ميناء سبتة المغربية وهو بمدينة صنُوب على ضفاف البحر الأسود في طريقه إلى أوزبكستان. ولقد علقت بمخيّلته صور الأودية الكبرى بالمغرب، فهو يقارن وادي سلا بنهر مدينة استنبول... وعند حضور الأسماك التي كان يتذوّقها في منطقة هذا الخليج كان يقارن بعضها بما يعرفه بالمغرب، وعند رؤيته للأواني الخزفية التي تقدم إليه، لا بدّ أن يعتزّ بالخزف الذي تصنعه الأيادي المغربية.

ويلاحظ أن الرجل كان في مستوى ما تنعم به بلاده من ذكر جميل. ولا بدّ أن نحضر معه، ذات يوم، خروجه إلى الأسواق ليقتني الملابس المناسبة لرحلة صيد دعاه إليها السلطان. إنه كان يريد «أن يظهر القوة والهمة» على حدّ تعبيره... لقد كان حريصا على الاعتزاز بهويته المغربية في البلاط الهندي.

ومما يلفت الانتباه أنه تناول تلك الموضوعات والمشاهدات بواقعية آنا، وعجائبية آنا آخر إذا كانت كذلك في ذاتها أو في مخياله، إذ كان يمليها من ذاكرته لأن مذكراته قد ضاعت منه في ما قيل في البحر الهندي، فيعوض الواقعي بالخيالي دون أن يذهب في ظنه أنه يجانب الحقيقة والواقع، أو أنها من إضافات مدون الرحلة ابن جُزَي. ولا شكّ أن لابن جزي بهذه الإضافة أو التدخل أثرًا في أسلوب الرحلة، كما أن له أثرًا في اعتماد السجع أحيانا، وتغيير لغة الرحالة بلغة يظهر فيها الجانب التفسيري لبعض الألفاظ والمصطلحات، وبتضمين معلومات شخصية أو قطع شعرية مما قد يعدّ حشوا على الرحلة، فيسبغ عليها بعض التفكك يفقدها الوحدة والتناسب والتناسق. على أن أسلوب ابن بطوطة، وهو أسلوب شفوي، يظهر خاصة في تلك اللغة السردية ووصف المشاهد بلا تكلف وتصنّع مما أضفى عليها الواقعية، فكان غرضها الأول الإفادة والإبلاغ.

ولما كانت الرحلة قد اشتملت على ما يعدّ من الخرافات والأساطير والعجائب التي يتردد العقل في قبولها، فقد كذّبه معاصروه منهم ابن جزي نفسه، كما شكك بعض المستشرقين في بعض موادها؛ لكن وجد منهم من مال إلى تصديقها بعد أن اطلع رحّالة آخرون على تلك البقاع النائية وشاهدوا فيها ما رواه ابن بطوطة. ومن أمثلة ذلك ما شهد بصحته المستشرق الروسي كراتشوفسكي بقوله: «وأخيرا في القرن العشرين نلحظ بداية عهد من الاعتراف بقيمته من جديد. أخذ يكتسب الأنصار يوما بعد يوم، خاصة أن رواياته عن مواقع مجاورة كجزر مالديف مثلا قد أكّد الرحالة المتأخرون صحتها برمتها»

[كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، قسم 1/ 428 ـ 435].

هذه هي التهمة الأولى التي وجهت لابن بطوطة في رحلته. أما الثانية فهي أنه كان محدود الثقافة، عاجزا عن الكتابة والتدوين. وقد استنتجوا هذا المأخذ من أنه لم يدوّن رحلته بنفسه. وهي تهمة عارية عن الصحة، وخطأ بيّن، تكشف لنا عنه أولا الصفة التي رشحت ابن جزي للقيام بهذا العمل والتي أشار إليها المقري في «النفح» «بأنه، أي ابن جزي، إن كتب أربى على ابن مقلة بخطه...»: وثانيا ما أضفاه ابن جزي نفسه في المقدمة على ابن بطوطة من كل الأوصاف التي تؤكد على عمق معارف الرحالة: فهو «الشيخ، وهو الفقيه، وهو الثقة، وهو الصدوق، وهو الذي باحث فرق الأمم، وسير العرب والعجم، ولم أتعرض ـ يقول ابن جزي ـ للبحث عن حقيقة ما قال لأنه سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك!..». وهذا إضافة إلى أنه كان عارفا ببعض اللغات مثل الفارسية والتركية...

وعلى الرغم مما شاب الرحلة من غياب الجانب النقدي والتحليلي لبعض الأخبار إلا ما ندر، أو اختصار في الوصف والحديث على بعض الأقطار مثل بلاد المغرب العربي سواء عند خروجه منها أو عودته إليها خاصة أن ما بينهما حوالي خمس وعشرين سنة، فإن ابن بطوطة قدم لنا في رحلته عالما ثريًا بالمعلومات، ومشوّقا بالغرائب، وممتعا بالأحداث، وهو ما يجعل منها وثيقة هامة وصورة متوهجة عن شخصية صاحبها في ذكائه الجيد، وجرأته وصراحته وحبه للاطلاع والرحلات والمغامرات، ولا مبالاته بالأهوال التي تعرض لكثير منها، فكان بكل ذلك وبرحلته الباقية أبد الدهر من أشهر الرحالين العرب بل العالميين في كل العصور.

ولا بد أن نذكر هنا أن الحديث عن ماركو بولو البندقي اقترن بالحديث عن ابن بطوطة الطنجي لدى كل الذين اهتموا بالرحالة، وخاصة عند علماء الغرب.

وقد كان من حقهم أن يفعلوا ذلك، فإن الأول هو الذي قصد ـ قبل نحو من ستين سنة من تحرّك ابن بطوطة ـ الشرق الأقصى، وسُجلت مذكراته التي كانت، في ما بعد، محلّ تعليق واسع... لكن الملاحظ أن رحلة ابن بطوطة اتسع فضاؤها أكثر مما كان الأمر بالنسبة إلى رحلة ماركو بولو، علاوة على الحصيلة العلمية التي كانت تختلف من الواحد إلى الآخر...

وهكذا فإن ابن بطوطة قد حقق رحلته وحيدًا؛ وإذا كان محرر رحلته، ابن جزي، يقتصر على إضافات محدودة وموثّقة يبدؤها بكلمة «قال ابن جزي» ويختمها بكلمة «انتهى»، فإن روستتشلو Rustichello محرر رحلة ماركو بولو الصادرة سنة 1519م كان يضيف من خياله وخاصة عند الحديث عن الصين... وبينما ظهرت طبعات من رحلة ماركو بولو، منذ صدور الترجمة الانقليزية (1818م) لويليام مارسدن (Marsden, M.W.) بلغ عددها أزيد من مائة ليس بينها اثنتان متفقتان لما زيد على كل منها من إضافات، فإن رحلة ابن بطوطة بقيت على ما نسخت عليه بفاس عام 757هـ/ 1356م.

يضاف إلى كل هذا أن رحلة الأول اقتصرت على آسيا دون إفريقيا... ومعنى هذا أن جمهور ابن بطوطة كان أوسع من جمهور ماركو بولو. وفي معرض اعتزاز ابن بطوطة بطول نفسه في الرحلة، واتساع رقعة منهاجه في التجوال، ذكر أنه يفوق السائح المصري الشيخ عبد الله الذي لم يدخل لا إلى الصين ولا إلى جزيرة سرنديب، ولا المغرب، ولا الأندلس، ولا بلاد السودان. وإني لأرى أنه لو قدر لابن بطوطة أن يجتمع بماركو بولو لعلّق بمثل هذا التعليق، إذ إننا عرفنا أن الأراضي التي زارها الرحالة الطنجي كانت تفوق كثيرا وكثيرا ما قطعه ماركو بولو. لقد قطع ابن بطوطة حوالي 120,000كلم، لم يصل ماركو بولو إلى ربعها.

وقد تفوق رحالة طنجة على رحالة البندقية بشيء أهم، وهو أنه استطاع أن يمتزج مع سكان البلاد التي وصلها عن طريق المصاهرات والوظائف السامية التي تقلّدها، والاتصالات التي كان يجريها مع مختلف الأوساط، الأمر الذي كان يرضي فضوله وتطلعاته المتنوّعة والمتجدّدة في ذات الوقت. ويكفي لكي نعرف حجم الرجلين ومدى رصيد الجانب المعرفي لكلا العملين أن نقوم بجرد الأسماء الجغرافية والأعلام الشخصية التي وردت عند هذا وذاك، لنخلص إلى الإشادة بذاكرة الرحالة المغربي التي استطاعت أن تختزن كل تلك الأسماء جغرافيا وإنسانيا، وأن تحتفظ بشكلها وضبطها ومواقعها على الرغم من السطو الذي وقع على مذكراته في المحيط الهندي!

وإلى جانب هذا فإنه من المفيد أن نعرف أن كثيرا من الذين اشتغلوا بابن بطوطة لم يَفُتْهُم أن يوسعوا دائرة بحثهم حول المناطق التي زارها. فالبحرين مثلا يتجاوز مدلولها عنده ما هي عليه اليوم، وفي مصاحبته للأميرة البيزنطية من أوزبكستان إلى إستنبول علينا أن نعرف المناطق التي سلكها... إلخ. إن كل هذا يبرر قولنا إن الرحالة المغربي ابن بطوطة كان عالميا بكل معنى الكلمة، ولم يكن رحالة إقليم أو قارة!

لقد عرفت تلك الفترة من التاريخ عددا من الرحلات التي قام بها عدد ممّن عرفنا، كان منهم من عالم الغرب ماركو بولو السابق ذكره، وأودوريك Odoricالذي زار آسيا مباشرة بعد بولو... وكان فيهم من عالمنا العربي ابن فضلان، وابن جبير، والعبدري، وأبو حامد الغرناطي... لكن رحلة ابن بطوطة بفضائها الواسع ومدّتها الطويلة ومحتواها الضخم فاقت كل تلك الرحلات...

آثاره

1 - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحرير وترجمة ديفريمري Defremery، وب. ر. سنغوينتي Sanguinetti (R. B)، باريس 1853 - 1859م (ثلاث نشرات)، ومطبعة الجوائب، إستنبول 1862 والقاهرة عدة طبعات، وبيروت: دار صادر - دار بيروت 1960 م، بتقديم كمال البستاني. كما وقع اختصارها، وتهذيبها في عدة نشرات صدرت بالقاهرة... ونشرت منها ترجمات كاملة أو عدة فصول بلغات أجنبية مثل ترجمة هـ. أ. ر. جب، كمبريدج 1358هـ/ 1962 وما بعدها... إلخ؛ 2 - الوسيط في أخبار

من حل تمنطيط [ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، 1/ 69، ط. دار الكتاب - الدار البيضاء، سنة 1960]؛ 3 - قصائد شعرية عديدة. قالها في الكثير ممن اتصل بهم من الملوك والأمراء وغيرهم ليستعين بهباتهم على الارتحال.

■ المصادر والمراجع

● ابن بطوطة، تحفة النظار... [الآثار]؛ ● ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة؛ ● م.ن. نفح الطيب؛ ● ابن خلدون، المقدمة؛ ● ابن حجر، العسقلاني، الدرر الكامنة، حيدر أباد 1929 - 1931، 3/ 480 - 481؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت.)، 6/ 169؛ ● البستاني، فؤاد أفرام، ابن بطوطة، سلسلة الروائع، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1927؛ ● زيادة، محمد مصطفى، رحلة ابن بطوطة، القاهرة 1939؛ ● كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، 1/ 428 - 435؛ ● بدوي، فؤاد، ابن بطوطة، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، دار العلم للملايين، بيروت 1999، 6/ 235 - 236؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت 1983، 6/ 521 - 527؛ ● محمود، حسين حسني، أدب الرحلة عند العرب، ط. 2، دار الأندلس، بيروت 1403هـ / 1983م؛ ● التازي، عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مطبعة المحمدية 1986، 4/ 144 - 145، 7/ 52؛

- Brockelman, C. G.A. L, T. II, pp. 332-333, S. 2, pp. 365-366.
- Miquel, A. EI2, Leyden-Paris 1975, T III, pp. 758-59.

د. عبد الهادي التازي
الأكاديمية الملكية
الرباط - المغرب
د. محمد الهادي المطوي
الجامعة التونسية

■ بطي، روفائيل

(1319هـ/ 1901م - 1376هـ/ 1956م) 

ولد الكاتب والصحفي رفائيل بطي عام 1901 في مدينة الموصل، ودرس في مدارسها الأولية؛ ثم استقر في بغداد لدراسة القانون في كلية الحقوق حتى عام 1914 حيث عمل في الصحافة وأصدر في العام نفسه مجلّة «الحرية» شهرية علمية أدبية كما وصفها، لكنها أصدرت عددها الأول والثاني مزدوجا في الخامس عشر من تموز - يوليو

1924 واستمرت عامين صدر خلالها عشرة أعداد في السنة الأولى، وعشرة أخرى في السنة الثانية ويتّضح منهج المجلّة في «الاستهلال» الذي افتتحت به إصدارها حيث أكدت أن لا حياة حقة إن لم يحرر الأحياء أنفسهم، لأنّ الحرية إكسير الحياة، وطمحت المجلّة إلى أن تكون «عاملا حرّا نافعا في خدمة هذه النهضة التي دب دبيبها في البلدان العربية ولها من نهجها القومي ما يجعلها صلة الإخاء بين أبناء العرب، كما أنها الرابطة التي تربط بين أدبائهم ومفكّريهم».

واختتمت المجلّة استهلالها بصرخة موجّهة إلى المفكّرين والشعراء والكتاب:

فـلـنـحـرّر ضـمـائـرنـا
يـا مُـفـكّـري الـعـرب!
ولـنـحـرّر ألـسـنـتـنـا
يـا شـعـراء الـعـرب
ولـنـحـرر أقـلامـنـا
يـا كـتّـابَ الـعـربِ

وقد سعت المجلّة لتأكيد مبادئها تلك، فعرفت بالنتاج الثقافي العالمي، .ونشرت الشعر الأجنبي المترجم، ولخصت أبرز الكتب العالمية، كما احتفلت بالنتاج الأدبي العربي الجديد، أما في مجال التجديد الأدبي فقد انطلق رفائيل بطي من الاعتقاد بأن «الأدب العصري» الذي يدعو إليه، بحاجة إلى أن ينفتح على ما أبدع الغربيون من فنون وآداب، شأنه في ذلك شأن الحياة العصرية، وهي التي حدد لها رفائيل بطي عدة مبادىء لا بد من توفرها، ومنها: الجرأة والصراحة، وتحرير الصحافة، وإصلاح التعليم، وتحرير المرأة وتعليمها وعملها، وتعلّم العلم الغربي ولغة الغرب. ويواصل بطي من خلال مجلته ما كان قد بدأه في كتاب «سحر الشعر» الذي صدر عام 1922 في القاهرة، حيث جمع فيه أبرز الآراء المجدّدة في الشعر للعقاد، وجبران خليل جبران، ومعروف الرصافي، وميخائيل نعيمة، وعبد الرحمن شكري، وأنيس المقدسي، وغيرهم، إضافة إلى مقالات وقصائد لأدباء غربيين، وتجتمع تلك المختارات حول هدف واحد هو أن يغدو الشعر حرّا من النظم، عصريا يتمرّد على القواعد البالية، ويواكب تطوّر الحياة، والنهضة القومية العربية مطلع القرن العشرين، وهو يلتقي في جهده هذا، بدعوات جرجي زيدان في «الهلال»، والعقاد وزملائه في «الديوان» وميخائيل نعيمة في «الغربال»، ومقدمة الزهاوي لديوانه الذي طبع في القاهرة، ودعا فيها إلى الشعر المرسل، ودعوات أمين الريحاني إلى كتابه الشعر المنثور وتجديد الأساليب الكتابية..

وذلك جزء من المناخ الثقافي التجديدي الذي شاع في الربع الأوّل من القرن العشرين. أما مؤلّفه التالي «الأدب العصري في العراق العربي» الذي صدر عام 1923 فيؤكّد ذلك المنحى التجديدي، من خلال التعريف بالأساليب الأدبية الجديدة، ويناقشها، وينقدها، ويربطها بمؤثراتها العربية.

وفي العام نفسه يزور أمين الريحاني العراق، وتترك زياراته أثرًا كبيرًا في الحياة الثقافية، حيث دعا إلى تجديد الأساليب الكتابية، ونقل آراء المجدّدين من شعراء المهجر وأدبائه، ونشر كثيرًا من ريحانياته التي ضمّت شعره

المنشور، فألّف رفائيل بطي كتابه «أمين الريحاني في بغداد» مطلقًا على الريحاني لقب «والت ويتمان العرب» نسبة إلى صاحب الديوان النثري «أوراق العشب»، وصدر له في العام نفسه 1923 «كتاب تقويم العراق» عارضًا آراءه السياسية والاجتماعية حول نهضة وطنه، وشروطها التي في مقدمتها التمسك بحريته وعروبته وثقافته، والإخاء بين أبنائه.

وتأثرًا بالريحاني يصدر بطي ديوانًا من الشعر المنثور عام 1925 بعنوان «الربيعيات» الذي ضم قطعًا من قصائده المنثورة التي لا تلتزم وزن الشعر وقوافيه، لكنها تحافظ على إيقاع عباراته وتراكيبه. ونقديا اجتهد بطي في الدعوة إلى ما أسماه «الخروج من مضيق التقليد إلى فضاء الإبداع والاطلاق» في استقصاء لمفهوم «العصرية» في الكتابة، وتعقبه في نتاج الأدباء العرب، فكتب عن «العصرية في شعر شوقي»، «الشخصية الكتابية في العراق»، وفند القول بسهولتها وأكد صلاحية الفصحى للتعبير عن جميع خوالج الإنسان العربي، كما دعا إلى تعليم اللغات من أجل النهضة الأدبية، وعرف بموجات التحديث في الشام والعراق..

أصدر بطي عام 1929 صحيفة «البلاد» اليومية التي استمرّ ورثته في إصدارها بعد وفاته، وهي من صحف العراق المؤثرة في الرأي العام رغم استقلالها، وبسبب آرائه الوطنية ورفضه الوصاية والانتداب على العراق نفي بطي، وسجن عام 1914 ثم سافر إلى القاهرة عام 1946 للعمل في جريدة «الأهرام». وخلال وجوده في مصر كتب مقدمة مهمة لديوان الشاعر بدر شاكر السياب «أزهار ذابلة» الذي ضمّ قصائد مبكرة من الشعر الحر، منوّها بإرسال شعر السياب على سجيّته من غير أن يتقيّد بالقوالب التقليدية، واصفا إياه بالشاعر الطليق الذي يحاول جديدًا في قصيدته «هل كان حبا» وهي القصيدة الحرّة الأولى التي كتبها السياب عام 1946، متمنّيا أن يمضي السياب في جرأته في هذا المسلك الجديد ليؤثّر «في شعر اليوم» كما يقول.

وحين عاد إلى العراق عام 1948 ترشّح لعضوية المجلس النيابي، وفاز بها كما شغل عام 1953 منصب وزير شؤون الصحافة والإرشاد في الحكومة العراقية، لكنه سافر إلى مصر عام 1955 بدعوة من الجامعة العربية ليحاضر حول الصحافة العراقية، وقد نشر محاضراته تلك في كتاب بعنوان «الصحافة في العراق» في العام نفسه.

توفي رفائيل بطي بالسكتة القلبية ببغداد يوم 10 نيسان عام 1956م.

آثاره

1 ـ سحر الشعر، المطبعة الرحمانية بمصر، 1922، 4 مجلّدات؛ 2 ـ الأدب العصري في العراق العربي، القاهرة، 1923؛ 3 ـ أمين الريحاني في بغداد، بغداد، 1923؛ 4 ـ تقويم العراق، بغداد، 1923؛ 5 ـ الربيعيات، منشورات مجلّة الحرّية، بغداد، 1925؛ 6 ـ الصحافة في العراق، القاهرة، 1955م.

المصادر والمراجع

● الصكر، حاتم، روفائيل بطي وريادة النقد الشعري في العراق، منشورات الجمل، كولونيا، 1955؛ ● البصري،

عبد الجبار داود، رواد المقالة في الأدب العراقي الحديث، وزارة الإعلام، بغداد، 1975؛ ● الحديثي، ماهر دللي، روفائيل أديبًا، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، معهد الجامعة العربية، بغداد، حزيران 1990؛ ● الهلالي، عبد الرزاق، الزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية، دار الرشيد، بغداد، 1982، ص 24، 83، 101، 137.

د. حاتم الصكر
جامة صنعاء ـ اليمن

البعلبكي، قسطا بن لوقا

(205هـ/820م ـ 300هـ/912م)

ولد قسطا بن لوقا البعلبكي في مدينة بعلبك في حدود سنة 205هـ/ 820م، جال في آسيا الصغرى في شبابه دارسا، وحصل من تصانيف الروم الكثير وعاد إلى الشام، واستدعي إلى العراق، فاستقر في بغداد ومعه تصانيف يونانية فنقل كثيرا منها إلى العربية، وكان بارعا في اللغات اليونانية، والسريانية، والعربية.

بالإضافة إلى كونه مقتدرا في الطب، والهندسة، والرياضيات، والعلوم الطبيعية والمنطق، والفلسفة، والموسيقى [الفهرست، 353؛ عيون الأنباء، 329؛ الأعلام، 5/ 196 ـ 197]. انتقل إلى أرمينيا في شيخوخته ومن المحتمل أن ذلك كان بدعوة من أمير يدعى سنحاريب ربما عرف قسطا خلال زيارته الخليفة في بغداد.

وفي أرمينيا ألف مصنفات عدة لأبي الغطريف البطريق مولى الخليفة وهو من أهل العلم والفضل، فألف له قسطا كتبًا كثيرة، جليلة المعاني، مختصرة الألفاظ في أصناف العلوم؛ وتوفي هناك نحو سنة 300هـ / 912م، فبنى الملك على قبره قبة وأكرمه إكرام الملوك ورؤساء الشرائع [بروكلمان، الترجمة العربية، 4/ 97؛ الوافي بالوفيات، 24/ 244].

ترجم قسطا بن لوقا للخليفة المستعين (248هـ / 862م ـ 251هـ/ 866م) كتابين لايرن، وثيودوسيسوس، وألف لأبي الحسن علي بن يحيى المنجم المتوفى سنة (275هـ/ 888م) [الأعلام، 5/ 31] مقدمة في الرياضيات، وألف رسالة في العمل بالكرة الفلكية لأبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير الخليفة المعتمد. وفي خلافة المقتدر ألف لإبراهيم بن عبيد الله المدبر المتوفى سنة 279هـ / 893م [الأعلام، 1/ 60] كتابه «الجامع في الدخول إلى علم الطب»، وردّ على أبي عيسى بن المنجم عن رسالته في نبوة

محمد ﷺ، ثم عمل الفردوس في التاريخ [عيون الأنباء 329؛ الوافي بالوفيات، 24/ 244؛ بروكلمان، 4/ 99].

قال ابن النديم عند تناول ترجمته: «وقد كان يجب أن يقدم على حنين بن إسحق، لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب». وقال ابن جلجل: «يعتبر قسطا بن لوقا من مشاهير الأطباء ونقلة العلوم في الإسلام»، كان معاصرًا ليعقوب بن إسحق الكندي المتوفى سنة 255هـ / 868 م، وحنين بن إسحق العبادي المتوفى سنة 260هـ / 873 م، وثابت بن قرة الحراني المتوفى سنة 288هـ / 901 م، وأحمد بن يحيى المنجم المتوفى سنة 300هـ / 912م [الفهرست، 353؛ طبقات الأطباء، 76].

آثاره

لقد بلغت آثاره أكثر من سبعين مؤلفا بين كتاب ورسالة في صناعة الطب، والأدوية، والمعالجات، وعلم الفلك، والتنجيم، والحساب، والهندسة، والجبر، والمنطق، والفلسفة والتاريخ. والبعض من تآليفه التي وصلتنا موزعة في خزائن المخطوطات في العالم. من آثاره:

1 ـ زاد المسافر في الطب، وهو أول كتاب في طب السفر لم يسبق إليه أحد، تناول فيه ما يحتاج إليه المسافر من أمور طبية فيما لا يوجد طبيب؛ وقد استفاد منه الحسن بن نوح القمري المتوفى بعد سنة 380هـ / 990م في كتابه «الغنا والمنى» في الطب. ولعل هذا الكتاب هو نفس كتاب «تدبير الأبدان في السفر للسلامة من المرض والخطر»، الذي ذكر ضمن آثار المؤلف، كتبه إلى أبي محمد الحسن بن مخلد بن الجراح وزير الخليفة المعتمد سنة 263هـ / 877م المتوفى سنة 269هـ / 882م [الأعلام، 2/ 222]، تناول فيه تدبير بدنه في سفره إلى الحج وجعله في 14 بابًا هي:

الباب الأول: في كيفية تدبير السير وأوقات الطعام والشراب والنوم والباه.

الباب الثاني: العلم بالأعياء وما يحدث وكم أنواعه وبأي شيء يعالج.

الباب الثالث: في أصناف الغمز، ودلك أسفل القدم، وفي أيّها يحتاج إلى دلك القدم.

الباب الرابع: في العلل التي تتولّد من هبوب الرياح المختلفة وتغيّر الهواء وعلاجها.

الباب الخامس: في وجع الأذن الذي يعرض من هبوب الرياح الشديدة البرد والحر.

الباب السادس: في الزكام والنوازل والسعال في الحر والبرد وعلاج ذلك.

الباب السابع: في علل العين التي تحدث من اختلاف الهواء والغبار والرياح وعلاجها.

الباب الثامن: في امتحان المياه المختلفة، ليعلم أصلحها للاستعمال.

الباب التاسع: في إصلاح المياه الفاسدة.

الباب العاشر: في الاحتيال ـ في عوز الماء وقلته ـ بما يقطع العطش.

الباب الحادي عشر: التحرز من كل الهوام وبأنواعها.

الباب الثاني عشر: في علاج عام، في لسع الهوام جميعا.

الباب الثالث عشر: عن ماذا يتولد العرق المديني، وبماذا يتحرز من تولده.

الباب الرابع عشر: في صفة علاج العرق المديني إذا تولد في البدن.

نسخة من الكتاب في دار بغداد للمخطوطات برقم 2/ 27034 ترقى إلى القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي. ونسخة في المتحف البريطاني 2: 424. [مخطوطات الطب والصيدلة لأسامة النقشبندي ص 167؛ بروكلمان، 4/ 298]؛ 2 ـ رسالة في الأسطرلاب الكري، رتبها المؤلف على أبواب، في ذكر أجزاء الأسطرلاب ووصفها وأسمائها ومعرفة أخذ الارتفاع وميل الشمس وأبعاد الكواكب ومعرفة غاية الارتفاع. نسخة منها في دار بغداد للمخطوطات برقم 2/ 27794. وفي ليدن بالرقم 1053 [مخطوطات الفلك والتنجيم ص 82؛ بروكلمان 4/ 98]؛ 3 ـ كتاب الفصل بين النفس والروح، ويسمى في بعض المصادر الفرق بين النفس والروح، نسخة خطية قديمة مكتوبة سنة 349هـ / 960م بمكتبة أحمد الثالث بإستنبول تقع ضمن مجموع برقم 3482، ونسخة في جوتا برقم 1158، نشرها جابرييلي على أساس نسخة جوتا، ونسخة في المكتبة الخالدية بالقدس الشريف، نشرها الأب لويس شيخو على هذه النسخة في مجلة المشرق 1911م ص 94 ـ وأعاد نشرها في «مقالات فلسفية قديمة» في بيروت سنة 1911م وللكتاب ترجمة لاتينية لباروخ نشرت في سنة 1878م [الفهرست، 353؛ بروكلمان، 4/ 99؛ ذخائر التراث 2/ 762]؛ 4 ـ كتاب العمل بالكرة الفلكية، وهو كتاب في النجوم واستخدام الكرة الفلكية، وقد سماه ابن النديم كتاب العمل بالكرة النجومية، نسخة منها في بودليان 2/ 297، وألف رسالة أخرى بالعنوان نفسه لأبي الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد نسخة منها في مكتبة آيا صوفيا برقم 2635 [الفهرست، 353؛ عيون الأنباء، 30؛ بروكلمان، 4/ 98 ـ 99].

ومن آثاره الأخرى: 5 ـ رسالة في اختلاف الناس في سيرهم وأخلاقهم وشهواتهم واختياراتهم عن أبي علي الحارثي، نسخة منها في برلين برقم 5387؛ 6 ـ رسالة في الفرق بين الحيوان الناطق والصامت [ذكرها ابن جلجل، ص 76]؛ 7 ـ كتاب في البلغم وعلله: وهو المقالة الأولى من ست مقالات ألفها لأبي الغطريف، نسخة منه في ميونيخ برقم 805؛ 8 ـ رسالة في علل الشعر، ألفها للحسن بن مخلد الجراح وزير المعتمد سنة 263/ 877م نسخة منها في المتحف البريطاني؛ 9 ـ المدخل إلى علم النجوم؛ 10 ـ المدخل إلى علم الهندسة؛ 11 ـ ثلاث مقالات في رفع الأجسام الثقيلة، طبع سنة 1894م [تاريخ العلوم عند العرب، 118؛ الأعلام، 5/ 107]؛ 12 ـ كتاب النبض ومعرفة الحميات وضروب البحرانات؛ 13 ـ الفلاحة اليونانية، طبع [الأعلام 5/ 197؛ ذخائر التراث 2/ 762]؛ 14 ـ كتاب في علة طول العمر وقصره يتبع فيه رسالة لأرسطاطاليس، في أيا صوفيا نسخة منه تقع ضمن مجموع برقم 3724؛ 15 ـ وفي المجموع نفسه رسالة في إصلاح الأدوية المسهلة ونفي ضررها ومقدار الشربة منها؛

16 ـ كتاب المرايا المحرقة؛ 17 ـ كتاب الاستدلال بالنظر إلى أصناف البول؛ 18 ـ كتاب حساب التلاقي على طريق الجبر والمقابلة [تاريخ العلوم عند العرب ص 119]؛ 19 ـ كتاب البرهان على عمل حساب الخطأين، نسخة منه في المكتب الهندي بلندن 1043/ 12، راجعه جابر بن إبراهيم الصابي، وفي ليدن 3/ 54 [بروكلمان، 4/ 99]؛ 20 ـ كتاب في الأخلاط الأربعة وما تشترك فيه؛ 21 ـ صناعة الجبر لديوفنطس طبع بتحقيق رشدي راشد بالقاهرة [ذخائر التراث، 2/ 762]؛ 22 ـ كتاب إيرن الاسكندري في رفع الأشياء الثقيلة نشره كرداي فو في المجلة الآسيوية بباريس [ذخائر التراث، 2/ 762]. ينظر في بقية مؤلفاته في [الفهرست، 353؛ عيون الأنباء، 331؛ تاريخ الأدب العربي، 4/ 98 ـ 103؛ الوافي بالوفيات، 24/ 244 ـ 245؛ هدية العارفين، 1/ 835؛ تاريخ العلوم عند العرب، 118].

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، 1 ـ 8، دار العلم للملايين، بيروت الطبعة الرابعة؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية)؛ ● فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين 1970؛ ● عبد الرحمن، ذخائر التراث العربي الإسلامي 1 ـ 2 بغداد 1983؛ ● ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، تح. فؤاد سيد طب القاهرة 1955؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء تح. نزار رضا، مكتبة دار الحياة بيروت؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. رضا تجدد، طبع أوفسيت؛ ● مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا، رمضان ششن، إستنبول 1984؛ ● النقشبندي، مخطوطات الطب والصيدلة في مكتبة المتحف العراقي، بغداد 1981؛ ● النقشبندي وظمياء، مخطوطات الفلك والتنجيم في مكتبة المتحف العراقي 1982؛ ● نوادر المخطوطات العربية في مكتبات تركيا، رمضان ششن، 3 ج، طبع بيروت 1982؛ ● البغدادي، هدية العارفين 2 ج، طبع اوفسيت؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، جمعية المستشرقين الألمان ـ طبع بيروت.

د. أسامة ناصر النقشبندي

دار بغداد للمخطوطات ـ بغداد

البعلبكي، منير

(1337هـ/1918م - 1420هـ/1999م)

ولد منير البعلبكي من أسرة بيروتية مرموقة، رأسها جدّ ارتحل مع الأبدال الذين كانوا يردون من بعلبك لردّ الغزو من البحر والدفاع عن الثغور [أحمد أبو سعيد، معجم أسماء الأسر والأشخاص، ص 160]؛ تلقّى علومه الأولى في مدارس جمعيّة المقاصد، ثم انتقل في سن التاسعة إلى مدرسة الابتدائية التابعة للجامعة الأمريكية في بيروت وقضى فيها سنتين انتقل بعدهما إلى القسم الاستعداديّ الذي أصبح فيما بعد جزءًا ممّا يعرف اليوم بالانترناشوينال كولدج (I.C). وقد أُولع منذ سنوات دراسته تلك باللغة العربيّة والأدب العربيّ، وكان لأستاذه كنعان الخطيب أثر واضح في ذلك، فقد تعهّده بالرعاية وجعله خطيب حفلة التخرّج من القسم الاستعداديّ في العام 1934م. ثم التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت متخصصًا بعلوم العربيّة والتاريخ الإسلامي، وتخرّج منها عام 1938م. ومن أبرز الذين درس عليهم في تلك الفترة الدكاترة قسطنطين زريق وأنيس الخوري المقدسي وأسد رستم، وجبرائيل جبّور.

وفي العام 1940 لبّى دعوة من مدير المعارف في العراق، الأستاذ ساطع الحصري، للتدريس في دار المعلّمين في كلّية الملك فيصل في بغداد، ثمّ انتقل في السنة التالية إلى دمشق للتدريس في الكلّية العلميّة حيث قضى ثلاث سنوات قبل عودته إلى بيروت للتدريس في كلّية البنات الأهلية، وكلّية المقاصد الإسلاميّة، وغيرهما، ثم في الجامعة الأمريكية في بيروت حيث درّس مادّتي الأدب العربيّ والتاريخ الإسلامي للصفّين الجامعيين الأوّل والثاني.

وخلال تلك الفترة، وفي العام 1945 تحديدًا، أسّس مع زميله بهيج عثمان - وكان إذ ذاك سكرتيرًا لتحرير مجلّة «الأديب» التي أنشأها ألبير أديب - مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر أسماها «دار العلم للملايين»، حتى إذا اشتدّ ساعدها تخفّف من أعباء التدريس الثانوي والجامعي، وانصرف إلى الترجمة والتأليف. وكان أوّل ما أصدره من تلك الدار ابتداء من العام 1945 سلسلة من الكتب المترجمة لعلّ أشهرها «سلسلة علم النفس» وكتاب «العرب: تاريخ موجز» لفيليب حتّي أستاذ اللغات الشرقية في جامعة برنستون الأمريكية. وعن «دار العلم للملايين» صدرت مجلّة «الآداب» عام 1953 وكان البعلبكي واحدًا من أصحاب امتيازها، ومجلّة «العلوم» سنة 1956 وتولّى البعلبكي رئاسة تحريرها منذ نشأتها حتّى العام 1972م. وكذلك نشر البعلبكي في مجلة «المكشوف» (المجلّد الرابع، سنة 1938) دراسة مطوّلة في سبعة أجزاء عن «ألف ليلة وليلة» تعقّب فيها أصول هذا الكتاب وردّها إلى الفرس والهنود والعرب.

ولعلّ أبرز إسهام منير البعلبكي يقع في اتجاهين كبيرين: عمله في التعريب، وعمله المعجميّ الموسوعيّ. فمنذ تأسيسه «دار العلم للملايين» انقطع إلى الترجمة والتعريب فأصدر أكثر من مائة كتاب مترجم من أشهرها في الأدب العالمي: «البؤساء» لفكتور هيجو، و«قصة مدينتين» و«أوليفر تويست» لتشارلز ديكنز، و«كوخ العمّ توم» لهربيت ستاو، و«الشيخ والبحر» و«ثلوج كالمنجارو» و«داعًا للسلاح» لإرنست همنغواي، و«أرض الله الصغيرة» لإرسكين كالدويل، و«جين إير» لشارلوت برونتي، و«العقب الحديدية» لجاك لندن، و«الأرض الطيّبة» لبيرل باك، و«العاقر»، و«شارع السردين المعلّب» لجون شتاينبك، و«حكايات من إيطاليا» لمكسيم غوركي، و«حياتي» لأنطون تشيخوف، و«المسخ» لفرانز كفكا. ومن ترجماته المعروفة في المجالات الفكرية والاجتماعية: «قصة تجاربي مع الحقيقة» و«قصّة اللاعنف في جنوب إفريقيا» للمهاتما غاندي، و«عند قدَمي غاندي» لراجندرا براساد أوّل رئيس لجمهورية الهند، و«دفاع عن الإسلام» للورا فاغليري، و«تاريخ الشعوب الإسلامية» لكارل بروكلمان، و«الإسلام والعرب» لروم لاندو، و«روّاد الفكر الاشتراكي» للبروفيسور ج. هـ. كول، علاوةً على كتب كثيرة في تاريخ الفكر والحضارة والفلسفة.

لقد عُرفت ترجمات منير البعلبكي بالدقة والأمانة وروعة الأسلوب العربيّ، الأمر الذي أكسبه لقب «شيخ المترجمين العرب». ويقول الأستاذ أحمد شفيق الخطيب: «الأستاذ بعلبكي، تُرجمانًا، أدخل الترجمة إلى عصر جديد يحتفظ فيه العملُ القصصيّ أو الروائيّ أو الاجتماعيّ بروحه الأصليّة، فتشعر أنك تقرأه في لغة أصلٍ لا في لغةِ ترجمة. العالم العربيّ عرف منير بعلبكي، أوّل ما عرفه، كأحد المترجمين العرب الكبار بل أحد ثلاثتهم كما وصفه عميد الأدب العربي طه حسين، من خلال الروائع التي انتقاها للترجمة من عيون الأدب وقمم الفكر العالميّ» [جلسة تأبين منير البعلبكي في 11/ 4/ 2000 في مجمع اللغة العربية، القاهرة].

ويبدو أن معاناة منير البعلبكي خلال عمله في الترجمة هي التي أوحت له بفكرة الانصراف إلى العمل المعجمي. فقد شعر بأنّ المعجمات الإنكليزية ـ العربية التي كان يستعين بها في عمله ـ على فائدتها وجهد أصحابها ـ لم تكن تفي بحاجة المشتغل في حقل الترجمة، ولم تبلغ شأو الصناعة المعجميّة في الغرب. وقد كان البعلبكي منذ أوّل عهده في الترجمة يدوّن على هوامش معجماته الإنكليزية ـ العربية ما تخلو منه تلك المعجمات من الكلمات والعبارات الاصطلاحية التي تقع عليها فيجتهد في ترجمتها. وقد ذكر هذا الأمر في تصديره الطبعة الأولى من قاموس «المورد» عام 1967 فقال: «وهكذا اجتمعت لي ذخيرة ملحقة بكلّ من هذه المعاجم يسّرت لي عملي في حقل الترجمة ووفّرت عليّ من الوقت والجهد اللذين كنت أنفقهما في مراجعة الأمّهات الإنكليزية». ثم إنّ هذه الذخيرة كانت نواة لمعجم «المورد» الإنكليزي ـ العربي الذي صار أوسع المعجمات انتشارًا في العالم العربيّ وأبعدها أثرًا في الطلاّب

والمترجمين والباحثين. وكان الغرض من تأليف هذا المعجم، كما يقول البعلبكي في تصديره، أن يقدم للقارىء العربيّ معجما شاملاً يغنيه عن العودة المستمرّة إلى المعجمات الإنكليزية التماسا لمادّة لم يقع عليها في المعجمات الإنكليزية - العربيّة، أو بحثًا عن معنى بعينه من معاني تلك المادّة، علاوة على معرفة المصطلح العربيّ المقابل لكلّ معنى من تلك المعاني.

وإن الذي يميّز العمل المعجميّ عند البعلبكي أنه جعله يرقى إلى مستوى الصناعة المعجميّة وذلك انطلاقًا من المنهج الصارم الذي ألزم به نفسه في تأليفه. ومن أركان هذا المنهج النصّ على طريقة لفظ الكلمات، وتمييز أنواعها الصرفية، وسرد المعاني متتابعة بحسب الأنواع الصرفيّة، وترتيب المعاني كلّها على أساس تسلسلها التاريخي، وتصنيف معاني المادّة الواحدة وتقسيمها إلى أُسَر أو زُمَر تدلّ عليها تقسيمات داخلية ضمن المادّة، والإكثار من شواهد الاستعمال إيضاحًا لدور السياق في تحديد المعنى، والعناية بالعبارات الاصطلاحيّة التي ألحقها بموادّها ودعمها بأمثلة وشواهد كثيرة. إلاّ أن الإسهام الأكبر للبعلبكي في عمله المعجميّ إنّما هو إصراره على أن يكون لكلّ كلمة، بل لكل معنى من معانيها حيثما تدعو الحاجة، مصطلح عربيّ، وذلك استدراكًا لعيب أساسيّ في المعجمات الإنكليزية - العربية إذ إنها كثيرًا ما تورد شرحًا للمادة وتهمل المصطلح المناسب، أو تستخدم مصطلحًا واحدًا لكلمتين إنكليزيتين اثنتين أو أكثر، أو تأتي بعدّة كلمات عربيّة إزاء لفظ إنكليزي واحد، فيفضي هذا إلى اضطراب شديد وينعكس سلبًا على دقّة الاستعمال العربيّ لدى المترجمين والكتّاب والطلبة. ولمّا لم يكن كثير من الكلمات، ومن ظلال معانيها، يحظى بوجود مصطلح عربيّ مقابل، عمد البعلبكي إلى الاجتهاد في وضع المصطلحات المبتكرة التي وقع معظمها موقعًا حسنًا عند الناس فدخل في حيّز الاستعمال وصارت له سيرورة، ولا يخفي ما لذلك من أثر بعيد في ترسيخ الفصحى من حيث قدرتها على الحركة وعلى الوفاء بمطالب الحياة في مختلف وجوهها ومظاهرها. ومن إسهام البعلبكي في مجال المصطلحات مشاركته المستمرة في أعمال مجمع اللغة العربية في القاهرة - وقد انتُخب عضوًا فيه في العام 1984 - من خلال الأبحاث الكثيرة التي أعدّها والاقتراحات التي قدّمها للمجمع في شتّى مصطلحات العلوم.

ولمّا كان العمل المعجميّ الجدّي خاضعا لنواميس التطوّر والترقّي كان البعلبكي يضيف في كل طبعة من طبعات «المورد» السنوية عشرات الكلمات والمعاني المستجدّة، وكان ينص على بعضها في مطلع الكتاب. ثم إنه عقد العزم على إعداد معجم إنكليزي - عربيّ ضخم يبلغ حجمه أربعة أضعاف حجم «المورد» «قِوامه الخُطّة التي وُضعت للمورد أصلاً، مع توسيع مادّته وشروحه وأمثلته، وتضمينه خصائص لم يُسبق إليها في المعجمات العربية ثنائية اللغة» [مقدمة «المورد الأكبر»، ص 5]. ومن أهمّ تلك الخصائص الاستيعاب في الموادّ والعبارات الاصطلاحية، واستيفاء الشرح لإضافة معانٍ

ومدلولات مستحدثة في الاستعمال، وترتيب المعاني بحسب تسلسلها التاريخيّ، والنصّ على مصطلح بعينه في كلّ مادّة أو في كلّ معنى متفرّع من مادّة رئيسيّة، والإكثار من الأمثلة الإيضاحيّة والشواهد المنسوبة إلى أصحابها، والاهتمام بمصطلحات العلم والحضارة ولا سيّما ما استجدّ منها في العقود الأخيرة في الطب والإلكترونيات والكومبيوتر إلخ، وذكر المرادفات والأضداد في مواضع كثيرة، وتحديد زمن وضع الكلمة في الاستخدام، وتأثيل الكلمات بإيراد الأصول التي أُخذت منها. وإلى هذا فقد غدا هذا المعجم موسوعيًا باشتماله على مواد موسوعية تكمل المواد اللغوية التابعة لها، من أسماء حيوانات أو نباتات أو عناصر كيميائية أو عصور جيولوجية أو حركات أدبيّة إلخ، علاوة على المداخل المخصّصة لمشاهير الرجال والنساء من قدماء ومحدثين وللأعلام الجغرافية وأعلام الميثولوجيا القديمة، على طريقة كبرى المعجمات الإنكليزية ـ الإنكليزية. وقد أنجز البعلبكي القسم الأكبر من هذا المعجم ثم أعدّه وراجعه وأكمله نجله، كاتب هذه الترجمة، وصدرت نسخته الأولى في العام 2004.

أما «موسوعة المورد» الإنكليزية ـ العربية فقد أصدرها البعلبكي، بين العامين 1980 و1983، في عشرة أجزاء، مع جزء خاصّ بالفهارس، وهي نتيجة جهد استمرّ ثلاث عشرة سنة من العمل الدؤوب. وقد رتّبها على أساس المصطلح الإنكليزي لأسباب عدّة، أوّلها أنه أرادها مكمّلة لقاموس «المورد» الإنكليزي ـ العربيّ وموسّعة لموادّه العلميّة والفنّية، وثانيها أن الكثرة الكبيرة من موادّ الموسوعة ترِد في الكتب الجامعية والمصادر المتداولة بصيغتها الإنكليزية، الأمر الذي يجعل الموسوعة المرتّبة على أساس المصطلحات الإنكليزية أقرب منالاً وأيسر مأخذًا، وثالثها أن آلافًا من المصطلحات العلميّة العربيّة لا تزال قلقلة مترجرجة وخاضعة لاجتهادات المعجميّين والمجمعيين المتفاوتة، وأنّ آلافًا منها لم تُسِر بعدُ على الألسن والأقلام [مقدّمة «موسوعة المورد»، ج1، ص7 ـ 8]. ولقد كان البعلبكي يدرك أن الموسوعة العربيّة المرجوّة يجب أن تكون بمستوى الموسوعات العالميّة حجمًا ومادّة وشروحًا، وأن هذا العمل الجبّار إنّما تقوم به المجامع اللغوية وترعاه المؤسسات والحكومات [مجلّة الراية، 28/ 1/ 1999، ص 138]، إلا أنه أراد أن يثبت ـ كما كان يحلو له أن يردّد ـ أن شخصًا واحدًا قد يستطيع إنجاز موسوعة متوسّطة الحجم إذا هو تنكّب مشقّة البحث والتمحيص في المصادر على اختلافها، وأتقن اختيار أفضل ما في كل منها، واجتهد في وضع المصطلحات العربيّة المقابلة، فلا يجوز أن تنوء المجامع بمثل هذه المهمّة الجليلة.

لقد حاول البعلبكي في عمله المعجميّ والموسوعيّ أن يرقى بصناعة المعجم في العالم العربيّ إلى مستوى عالميّ. وممّا يقول في ذلك أحمد شفيق الخطيب: «المعجميون عندنا، قبل منير البعلبكي، كانوا في غالبيّتهم مُفْرداتيين Lexicologist، وبمورد البعلبكي تعرّفنا الصناعة المعجمية وفنّ التأليف المعجمي العربيّ. لقد كان، طيّب الله ثراه،

رائدًا في مضمار الصناعة المعجميّة ـ معجميّا Lexicographer من الطراز الأوّل» [جلسة تأبين منير البعلبكي في 11/ 4/ 2000].

المصادر والمراجع

● أبو سعد، أحمد، معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، ط2، بيروت 2003، ص 160 ـ 161؛ ● الخطيب، أحمد شفيق، جلسة تأبين منير البعلبكي في 11/ 4/ 2000 في مجمع اللغة العربية ـ القاهرة. مجلة المجمع، العدد 91؛ ● الخوري، إبراهيم عبده، شموع في البال، بيروت، 2003، ص147 ـ 148؛ ● السحّار، سعيد جودة، موسوعة أعلام الفكر العربي، ج3، القاهرة 2002، ص120 ـ 121؛ ● سيف، أنطوان، الريح العنيدة، أقلام لبنانيّة في غروب القرن العشرين، بيروت 2000، ص161 ـ 164؛ ● ضيف، شوقي، «شخصيات مجمعيّة: الأستاذ منير البعلبكي»، مجلة مجمع اللغة العربية ـ القاهرة، العدد 72، 1993، ص153 ـ 154 و 163 ـ 164؛ ● مجلّة الراية، الأعداد الصادرة في 31/ 12/ 1990، ص40 ـ 42، و 14/ 1/ 1991، ص34 ـ 36، و21/ 1/ 1991، ص38 ـ 39، و 28/ 1/ 1991، ص36 ـ 39؛ ● مجلة العربي، العدد 417، أغسطس 1993، ص58 ـ 64.

د. رمزي منير بعلبكي
الجامعة الأمريكية ـ بيروت ـ لبنان

البعلي، أبو الخير عبد الرحمن بن عبد الله

(1110هـ/ 1698م ـ 1192هـ/ 1778م)

نسبه كما ذكره في إحدى مخطوطاته أبو الخير عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن محمد الحنبلي مذهبًا، الخلوتي طريقة، الحلبي أصلًا، الدمشقي مولدًا، البعلي نسبة، لأن أحد أجداده ولد ببعلبك وقطنها فنسب إليها. فقيه، محدِّث، حافظ، مقرىء، شاعر.

ولد بدمشق يوم الأحد 12 جمادى الأولى 1110هـ / 1698م. أخذ علومه الأولى عن والده، قرأ القرآن، وجوّدَ الخطّ، ولمّا بلغ العاشرة من سنيه انصرف إلى دراسة النّحو والفقه والحديث، أخذها عن أبي الفضائل عوّاد الحنبلي (ت 1168 هـ). وبعد وفاة والده سنة 1122هـ لازم مع أخويه أحمد ومحمد دروس أبي المواهب بن عبد الباقي البعلي الحنبلي (1044 ـ 1126 هـ) في الفقه والحديث نحو خمس سنين، وحضر دروس عبد القادر التّغلبي في الحديث والفقه والنّحو

والفرائض والحساب والأصول مدّة خمس عشرة سنة نال بعدها إجازة عامّة.

كان شغوفًا بالحديث والقراءات والتفسير والتّصوّف والفقه والشّعر والعروض، والبيان والنّحو والصّرف، حتّى أربى مشايخه على الخمسين. قرأ على عبد الغني النابلسي (1050 ـ 1143 هـ) التّفسير والتّصوّف، وكتاب نصوص الحكم. ثمّ انصرف إلى التّصوّف فلازم محمد بن عيسى الكناني الخلوتي (ت 1153هـ / 1740م) مدّة خمس عشرة سنة، وأخذ منه الطّريقة، وتلقّن الذّكر. زار القسطنطينيّة ورجع إلى حلب سنة 1144هـ، وسمع من علمائها أمثال محمد بن عقيلة، وصالح البصري، ومحمد الحلبي المعروف بالزمّار، وحضر دروسه في صحيح البخاري، وظلّ مقيمًا فيها حتّى وفاته سنة 1192هـ / 1778م.

اشتغل بالفقه والفرائض على مشايخ الحنابلة، وترك ثلاثة كتب فقهيّة، اشهرها كتاب «كشف المخدرات والرّياض المزهرات، شرح أخصر المختصرات»، طبع في القاهرة، المطبعة السلفيّة. هو كتاب في الفقه الحنبلي، والأصل «أخصر المختصرات» ألّفه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بدر الدين بن بلبان البعلي (1006 / 1083م) اختصره من كتاب وضعه بنفسه اسمه «كافي المبتدي».

وضع الشّارح مقدّمة تحدّث فيها عن تاريخ الفقه الحنبلي. وفي رأيه أنّ أحمد بن حنبل، لم يؤلّف في الفقه كتابًا، وإنّما أخذ أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته، وقوله: «لا ينبغي، أو لا يصحّ، أو لا أستقبحه، أو هو قبيح، أو أقرّه، أو لا أراه للتّحرّم، أو لا يعجبني، أو لا أستحسنه». . .

ونستخلص مضمون «كشف المخذّرات» من بيتي شعر أثبتهما في المقدّمة، وقد جمعا فصول الكتاب، قال عبد الرحمن البعلي:

عدّة كتب ذا الكتاب عشره
مع ثمانٍ كلّها مشتهره
أبوابُه سبعٌ، فصوله مائة
وستّة، وهي به مُنتشِره

حرص المؤلّف على شرح كلّ لفظة، وعبارة وردت في الأصل «أخصر المختصرات». بدأ بشرح «بسم اللّه الرحمن الرّحيم»، قال: «الباء: للمصاحبة والاستعانة، متعلّقة بمحذوف وتقديره «فعلاً» أولى، و«اللّه» عَلَمٌ على الذّات الواجب الوجود».

«الرحمن الرّحيم» مشتقّان من الرّحمة، والرّحمان أبلغ من الرّحيم، لأنّ زيادة البناء تدلّ على زيادة المعنى غالبًا، معنى الرحمن: المفيض لجلائل النّعم، و«الرّحيم»: المفيض لدقائقها. . .

سلك طريقة الشّرح المزجي، يذكر الأصل ضمن قوسين، ثمّ يتبعه بشرح المعنى، بأسلوب مبسّط يعتمد البرهان والجدل. ولا يهمل الاعراب إن كان يخدم المعنى ويوضّحه. وأنهى بشرح كتاب الإقرار، وهو لغة الاعتراف. كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 102]، وقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، وشرعًا معناه الإظهار، أي إظهار مكلّف، مختار ما عليه. هو في الفقه لم يجتهد، بل اكتفى بالشّرح والنّقل لأنّه يعتمد الطّريقة السلفيّة. إنّما كان ناجحًا في الاختيارات والشّروحات.

اشتغل بالحديث رواية ودراية، من أجل ذلك قام برحلات طويلة يطلبه في مظانه، ولدى شيوخه، سمعه من مئات المحدِّثين، قال المرادي: «وأشياخه كثيرون لا يحصون»، روى عن الثّقات، أمثال عواد الحنبلي النابلسي، وأبي المواهب الحنبلي البعلي، وقرأ صحيح البخاري على محمد الحلبي المعروف بالزمّار، وأخذه لمدّة خمس عشرة سنة عن محمد بن عيسى الكناني الخلوتي، ومنها «الأربعون حديثًا» للغزالي.

اشتهر البعلي بين المحدِّثين بمتابعة الأسانيد القليلة الوسائط، وكانت مفخرة لصاحبها، إذ لا يتقنها إلاّ قلّة، والّذين يمتلكون هذا النّوع من الأسانيد، لا يجيزونها إلاّ لمن تتوافر فيه شروط الأمانة والحفظ. في عام 1144هـ دخل حلب فسمع الحديث المسلسل بالأوّليّة، وصحيح البخاري من المحدّث المكّي وأعلى أسانيده في صحيح البخاري (محمد بن إسماعيل، المتوفّى سنة 256هـ / 870 م).

روايته له عن محمد الكناني عن المُسند القُدوة إبراهيم الكوراني، نزيل المدينة (المتوفّى 1101هـ / 1689 م) بسنده عن شيخه عقيلة المكي عن المحدّث الشّهير حسن بن علي العجمي المكي، وفي كلٍّ من السّندين بين البعلي والبخاري عشرة، والبخاري حادي عشرهم.

وبالنّسبة إلى ثلاثيّاته، يكون بينه وبين صاحب الرّسالة النّبيّ محمد ﷺ أربعة عشر. وهذا سند عالٍ، يندر وجوده بهذه الطّريقة المختصرة.

واهتمّ بعلوّ الأسانيد عدد من البعليّين، منهم محمد الحرفوشي البعلي (المتوفّى 1059هـ / 1648 م). وكان ثقة روى بتسع وسائط عن الإمام علي، ولا يدانيه أحد بعلوّ السّند غير حديث قاضي الجن، الّذي نقله حسين بن حيدر الكركي البعلي (كان حيًّا عام 981هـ)، بإسناده عن المولى جلال الدواني، عن وسائط ثلاث أُخر عن قاضي الجنّ عن رسول اللّه ﷺ قال: «من تزيَّا بغير زيِّه فَقُتِل، فلا قود ولا ديَة».

وحرصًا منه على أسانيده، وضع معجمًا لشيوخه، أكّد فيه كثرة سماعه للحديث، وقراءة سيرة النّبيّ وشمائله، ومعرفة أحوال الصّحابة والتّابعين، وأثّرت هذه المعرفة في استقامة سلوكه، واستعذاب العذاب في طلب العلم.

والمشيخة تشتمل على ذكر الشّيوخ الّذين لقيهم المؤلّف، وأخذ عنهم أو أجازوه، وإن لم يلقهم، إنّما عرفوه بالسماع.

أمّا طريقته في المشيخة فغير ملتزمة منهجيّة موحّدة، في التّرجمة للشّيوخ، إلاّ باعتماد رقم مسلسل للشّيوخ الّذي روى عنهم، ويبدأ بذكر اسم الشّيخ ونسبه لكنّه لا يلتزم ضبط تاريخ الرّواية اليوم والشّهر والسّنة والمكان، إلاّ نادرًا. ثمّ يورد الحديث بالاسناد المتّصل إلى رسول اللّه ﷺ، ثمّ يذكر إخراج البخاري ومسلم للحديث أو انفراد أحدهما بإخراجه، ويبيّن كيفيّة وقوع الحديث له عاليًا.

قال المرادي في سلك الدّرر: «كان فقيهًا بارعًا بالعلوم، خصوصًا في القراءات». لمّا بلغ سنّ التّمييز قرأ القرآن حتّى ختمه على والده في مدّة يسيرة، وكان يتمتّع بحافظة

ممتازة. وشرع يطلب العلم في سنة 1120هـ وله من العمر عشر سنين، واشتغل بالقراءات مدّة عشرين سنة حتّى أتقنها. وكان لا يعمل بالشّاذ، وينكر القراءة بما ليس بين الدفّتين. لقد رفض قراءة محمد بن أحمد بن شنبوذ (المتوفّى 328هـ / 940 م) الّذي أبدل بعض الكلمات بمرادفاتها أو أضاف بعضها ممّا جاء في التّفاسير. قرأ «كالصّوف المنفوش» بدل ﴿كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5]، وقرأ «يأخذ كلّ سفينة صالحة غَصْبًا» بدل ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا﴾ [الكهف: 79].

بعد براعة البعلي بالقراءات انصرف إلى التّفسير فحضر دروس محمد المرادي في تفسير البيضاوي، وحفظ القرآن على الحافظ المقرىء المتقن إبراهيم الدمشقي، والتزم المدرسة الشميصاتيّة في دمشق يُعلّم القرآن ويروي الحديث، وأطال الإقامة فيها حتّى صارت وطنًا له، قال في ترجمته لنفسه «الحلبي أصلاً، الدّمشقي مولدًا... الشميصاتي موطنًا».

وللبعلي ديوان شعر ضمّ وعظًا ورثاء ووصفًا، وظهرت ثقافته القرآنيّة بالإكثار من صنعة التّضمين والاقتباس من القرآن الكريم.

أعـبـدِ الـلّـه وجـاهـد
فـإذا فـرغـت فـانْـصَـب

والـزم الـتّـقـوى خـلـوصًـا
وإلـى ربِّـك فـارغـب

والاقتباس أن يأتي المتكلّم في كلامه المنظوم أو المنثور بشيء من ألفاظ القرآن الكريم والحديث بلا تغيير كثير، على وجه لا يكون فيه إشعار بأنّه من القرآن أو الحديث.

أعـبـد الـلّـه ودع عـنـك
الـتـوانـي بـالـهـجـود

ومـن الـلّـيـل فـسـبِّـحـه
وإدبـار الـسّـجـود

وله عاقدًا الحديث:

حـصِّـل الـعِـلْـمَ فـمـن حـصَّـلَـه
نـالَ عـزًّا والـغـنـى مـع ديـن

رغَّـب الـمـخـتـارُ فـيـه قـائـلاً
«اطـلـبـوا الـعـلـمَ ولـو بـالـصِّـيـن»

والعقد غير الاقتباس، يأخذ العبارة بجملة لفظها ويخضعها للوزن الشّعري. وله:

أطِـلْ صـمـتًـا ولا تـعـجَـلْ
بـإفـتـاءٍ تَـفُـزْ فـادرِ

فـكـلّ الـعـقـل فـي صـمـت
«ونـصـف الـعـلـم لا أدري»

إنّ ثقافته في القرآن والحديث غلبت على شعره، وظهرت في معظم قصائده: الرّثائيّة والوصفيّة والإرشاديّة...

آثاره

1 - كشف المخدرات والرّياض المزهرات، شرح أخصر المختصرات، طبع في القاهرة، المطبعة السَّلفيّة، د. ت؛ 2 - معجم شيوخه؛ 3 - منار الإسعاد في طريق الإسناد؛ 4 - مختصر الجامع الصّغير للسّيوطي (أنور الأخبار وروض الأبرار في حديث النّبيّ المختار)؛ 5 - النّور الوامض في علم الفرائض، فقه؛ 6 - بداية العابد، وكفاية الزّاهد، فقه؛ 7 - الجامع لخطب الجوامع؛ 8 - رحلة؛ 9 - ديوان شعر.

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل، إيضاح المكنون، بيروت، مكتبة المثنّى، 1/ 493؛ ● البغدادي، إسماعيل، هديّة العارفين، بيروت، دار العلوم الحديثة، 1/ 553؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 3/ 314؛ ● الشطي، جميل، مختصر طبقات الحنابلة، دمشق، 1339 هـ، 132؛ ● الكتاني، محمد عبد الحيّ، فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، فاس، 1346 هـ، 2/ 134؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، بيروت، مكتبة المثنّى، 5/ 148؛ ● مخطوطات دار الكتب المصريّة، 1/ 159؛ ● المرادي، محمد خليل، سلك الدّرر في أعيان القرن الثاني عشر، المثنّى، بغداد، 2/ 304 ـ 308؛ ● نصر الله، حسن عباس، تاريخ بعلبك، بيروت، 1984م، الوفاء، 2/ 287 ـ 291.

د. حسن عباس نصر الله
الجامعة اللبنانية
طرابلس ـ لبنان

البعلي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي الفتح

(645هـ/ 1209م ـ 709هـ/ 1274م)

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل بن بركات الحنبلي، فقيه حنبلي، محدث لغوي، ولد في مدينة بعلبك. فنُسب إليها، فيقال: «البعلبكي» و«البعلي» اختصارا، وسمع بها وبدمشق على كثير من شيوخ عصره، وعُني بطلب الحديث، وقرأ العربيّة واللغة على «ابن مالك» (ت 672هـ) ولازمه حتّى برع في ذلك. وأمّ بمحراب الحنابلة بجامع دمشق الأمويّ مدّة طويلة، ودرّس به وبالمدرسة الصدريّة، والمدرسة الحنبليّة، وبغيرها من المدارس، وأفتى زمنا طويلا، وتخرّج به جماعة وانتفعوا بعلمه.

كان إماما في المذهب الحنبلي، وفي العربية، والحديث، غزير الفوائد، متقنا، ثقة، صالحا، متواضعا على طريقة السلف، مطّرحا للتكلّف في أموره، حدّث بدمشق، وبعلبك، وطرابلس، وزار القدس، ودخل القاهرة يريد أن يسمّع ابنه من شيوخها، ويطلب لنفسه التدريس في إحدى مدارسها لزيادة رزقه، فوافاه الأجل قبل أقلّ من شهر فيها.

آثاره

صنّف عدّة تصانيف في أكثر من فنّ، ممّا يدلّ على سعة معلوماته وتنوّع علومه ونتائجه، فكتب في الطب، والنحو، واللغة، والفقه، والحديث.

1 ـ رسالة في الطب تتكوّن من أربعين بابًا تضمّ الأحاديث الواردة في هذا الفنّ وفي الحثّ على التداوي من الأمراض، وأحاديث تصف أدوية لبعض الأمراض. وهي في مخطوط ضمن مجموع، محفوظ بجامعة برنستون، رقم 61 مجموعة جاريت، الأوراق من 82 إلى 94 ونسخة أخرى في جامعة إستانبول، بالقسم العربي، رقم 8/ 11 في 61 ورقة؛ 2 ـ زوائد على ثلاثيات الأفعال، منه مخطوط بمكتبة قوغوشا بتركيا رقم 1069/ 35 كتبه سنة 707؛ 3 ـ شرح قسم الصرف من ألفية ابن مالك، أتمّه سنة 698هـ، ومنه مخطوط بمكتبة راغب باشا بتركيا رقم 570؛ 4 ـ الفاخر في شرح جمل عبد القاهر الجرجاني، فرغ من كتابته بدمشق سنة 695هـ، منه مخطوط في 275 بمكتبة الأسكوريال رقم 27؛ 5 ـ المثلث ذو المعنى الواحد، مطبوع؛ 6 ـ شرح الرعاية لابن حمدان وهو في الفقه الحنبلي؛ 7 ـ شرح حديث أم زرع؛ 8 ـ شرح ألفية بن مالك؛ 9 ـ المطلع على أبواب المقنع، وهو شرح لألفاظه المشكلة في الفقه على مذهب الإمام «أحمد بن حنبل» (ت 241هـ) لمؤلّفه «موفّق الدين بن قُدامة الجماعيلي» (ت 620هـ). قام البعليّ بتقييدها لفظا، ورتّبها على أبواب «المقنع»، وبيّن في مقدّمته أنّه لا يؤخّر اللفظة من باب إلى آخر غالبا، إلاّ أن تكون مضافة إلى بعض الأبواب، فتُذكر ثمّ، كلفظة الغُسل، والصلاة، والزكاة، والحج، والجهاد، ونحو ذلك، فتُطلب في أول ذلك الباب. وذكر ألفاظا تُشكل على بعض المبتدئين دون غيرهم، وربّما ذكر بعض اللفظات التي قد يُغلط فيها. وضع تراجم الأنبياء وأئمّة الحنابلة في آخر الكتاب مرتّبين على الأسماء، تحت عنوان: «باب ما ذُكر في الكتاب من الأسماء»، فبدأ بالرسول ﷺ وكنيته وأخلاقه، ثمّ يليه الإمام أحمد بن حنبل، ثمّ مؤلّف «المقنع» ابن قُدامة، ثمّ آدم عليه السلام، فإبراهيم الخليل عليه السلام، وبعده تراجم لأعلام المذهب، وفيهم الخليفتان الراشدان، عثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، رضي اللّه عنهما، وبعدهما الأنبياء عيسى، ولوط، وموسى، عليهم السلام. وهذا يعني أنّ البعليّ جمع في كتابه بين الشروح اللغويّة للألفاظ الفقهيّة، وبين التراجم للأعلام من الرسل والأنبياء والأئمّة، بمن فيهم النساء: آمنة أمّ النبيّ ﷺ، والسّيدة عائشة أمّ المؤمنين، وهند بنت عتبة. وهو في هذا الكتاب يبرهن على إحاطته الواسعة في علم اللغة العربيّة وحفظه للشواهد الأدبيّة، واطّلاعه على عشرات المعاجم والقواميس اللغويّة، ودواوين الشعراء، ومصنّفات النحويّين واللغويّين، والفقهاء على اختلاف مذاهبهم فضلا عن الشواهد القرآنيّة، والأحاديث النبويّة، وقدرته على التعريف باللفظ لغة واصطلاحا.

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1/ 1810؛ ● ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل [السفر الرابع،/ 140 ـ 141؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين

العمروي، دار الفكر، بيروت، لبنان (1417هـ/ 1997م)، 17/ 382 ـ 383؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة، سبتمبر 1992، 6/ 326؛ ● السّيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، 1/ 207؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، باعتناء س. ديدرينغ، دار النشر فرانز شتاينر بفيسبادن، الطبعة الثانية غير المنقّحة سنة 1394هـ/ 1974م، 4/ 316؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي دار الآفاق الجديدة بيروت، لبنان، 6/ 20 ـ 21؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 11/ 116.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان
د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

البعلي، شمس الدين محمد بن الموصلي

(699هـ/ 1299م ـ 774هـ/ 1372م)

محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان بن عبد العزيز بن الموصلي، البعلي المولد والنشأة، الشافعي (شمس الدين). فقيه، لغوي، نحوي، ناظم، خطاط، خطيب.

ولد ببعلبك سنة 699هـ / 1299م. وقرأ على الشجاع عبد الرحمن خادم اليونيني، وسمع من القطب موسى اليونيني بجامع الحنابلة في بعلبك. ومحمّد بن أبي الفتح الحنبلي، ويوسف المزي... وانتقل إلى حماة ودمشق، وطلب العلم فيهما؛ وسمع الحديث، فكان من شيوخه فيه شمس الدين محمد بن أبي الفتح الحنبليّ البعليّ، والشيخ عفيف الدين إسحاق بن يحيى الامدي، وشيخ الإسلام جمال الدين يوسف المزّي، وشمس الدين الذهبي، والشيخ جمال الدين يوسف العزازيّ بطرابلس، والشيخ بدر الدين بن مكّي أخذ عنه الحديث والعربية، وقاضي القضاة محيي الدين بن جهبل، وشيخ الإسلام قاضي القضاة شرف الدين البارزيّ بحماة أخذ عنه الفقه، والشيخ بدر الدين محمد التبريزيّ، قاضي بعلبك، والشيخ جمال الدين الخابوريّ، وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن المجد البعليّ أخذ عنه الفقه

والعربيّة، والشيخ نجم الدين أحمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن بابا جوك.

مهر في الفنون، وقال الشعر، وكان جيّد الخطّ، ماهرا في الخطابة، تصدّر في الجامع الأمويّ للخطابة، وله خط ينسب إليه حتّى قيل عنه: «كان إماما في الفقه، واللغة العربية، ماهرا في النظم والنثر إنشاء وخطبا، يكتب الخطّ المليح».

استوطن دمشق، وحصّل فيها وظائف، ثمّ عوند فيها، فأعرض عنها، واتّجر في الكتب، فربح، حتّى إنّه لمّا مات خلّف نحوا من ثلاثة آلاف دينار. وتصدّر بالجامع الأموي، وولي التدريس بالفاضلية بعد ابن كثير.

مال إلى فقه اللّغة، وقام بتدريس هذا النوع من العلوم. وأنهى تجربته بنظم كتاب فقه اللّغة للثعالبي، ووضع أرجوزته بين أيدي طلابه.

ومع أنّه أخذ عن الحنابلة في بعلبك، لكنّه التزم الفقه الشافعي، نظم «منهاج الطالبين» للنووي يحيى بن شرف (ت 676هـ/ 1277م) في فروع الفقه الشافعي. قال فيه قاضي القضاة شرف الدين البارزي: «لا يزاد في النثر على هذا اللّفظ».

عرض في أراجيزه وشروحه مصطلح علم الفقه، فهو علم مستنبط، تعرف منه أحكام الدين، بل هو الوقوف على المعنى الخفي مكشوفا بالنظر والاستدلال. ولما كانت الشروح موكلة بتوضيح الأصول لجأ إلى المزيادات لإتمام الأبحاث أو تدوين الاعتراضات، أو تفصيل المجمل، أو تكملة الإهمال... ونهج في نظمه الترتيب المألوف للكتب والأبواب. بدأ بكتاب الطهارة، لتعريف الماء المطلق، العاري عن الإضافة، الباقي على وصف خلقته، منتهيا بسلب الطهوربة.

لقد طوع الرجز ببراعة لنظم أدق التفصيلات الشرعية، وملاحقة تفريعاتها، وتدوين الاعتراضات.

بحث في كتاب «القضاء» التولية والعزل، ولم يخالف سائر الفقهاء بالتشريع (الكفائي) في القضاء؛ فإن قام به من يصلح له، سقط الفرض عن الباقين، وإن امتنع الجمهور أثموا. وأجبر الإمام أحدهم على القضاء، وحدّد صفات القاضي بثمانية شروط هي: الحرية، الذكورة، الاجتهاد، البصر، التكليف، العدالة، النطق، الكفاية، أي أن تكون فيه قوّة على تنفيذ الحق بنفسه، ولا يصحّ قضاء مغفّل.

وفصّل معنى الاجتهاد ومتطلّباته، فلا يجوز تولية جاهل بالأحكام الشرعية، وطرق استنباطها، انطلاقا من القرآن الكريم ومعرفة العام والخاص، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمبيّن، والناسخ والمنسوخ. ولا بدّ من إتقان السنّة، ومعرفة المتواتر والآحاد، والمرسل، والمتصل، وحال الرواة، جرحا وتعديلا، ولا بدّ من علوم مساعدة مثل إتقان لسان العرب لغة وإعرابا، لمعرفة عموم اللفظ وخصوصه، وإطلاقه، وتقييده وإجماله، وبيانه...

في كتاب البيع التزم آراء سلفه، فالمعاطاة ليست بيعا على المذهب الشافعي، لأنّ البيع عقد مركّب من إيجاب وقبول، شرط مقابلة

مال بمال أو نحوه. ويتطلّب صيغة هي الإيجاب من جهة البائع، وأهلية البائع والمشتري، إصلاحية المعقود عليه. وفي باب الإجارة، لا تصحّ إلاّ بتحديد أركانها وهي: العاقدان، والصيغة، والأجرة، والمنفعة، فلا يصحّ استئجار تفاحة للشمّ.

نظم «مطالع الأنوار على صحاح الآثار» الأصل لإبراهيم بن يوسف بن قرقول (ت 569هـ). وهو بحث في غريب الحديث، وفتح ما استغلق من كتب: الموطأ، ومسلم، والبخاري... وأيضا ما غمض من المفردات، والتراكيب والمعاني، وضبط الألفاظ، وتصحيح ما فيها من الأوهام...

آثاره

1 ـ بهجة المجالس، ورونق المجالس، (في خمسة مجلّدات)؛ 2 ـ نظم منهاج الطالبين للنووي في الفقه؛ 3 ـ لوامع الأنوار، نظم مطالع الأنوار ـ في نظم غريب الموطأ ومسلم والبخاري لابن قرقول في الحديث؛ 4 ـ الدرّ المنتظم في نظم أسرار الكلم نظم كتاب فقه اللّغة للثعالبي؛ 5 ـ غاية الإحسان، في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ **[النحل: 90]**؛ 6 ـ شعر متفرّق؛ 7 ـ رسالة نثريّة إلى الصفدي المؤرّخ.

المصادر والمراجع

● العسقلاني ابن حجر، أنباء الغمر بأبناء العمر، دمشق 1963، 1/ 52؛ ● الدرر الكامنة، د.ت، بيروت، دار الجيل، 4/ 188؛ ● الحلبي، بدر الدين حبيب، درّة الأسلاك في دولة الأتراك، 2/ 474؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، بيروت، د.ت، مكتبة المثنّى، 1568؛ ● الداوودي، شمس الدين محمد، طبقات المفسّرين، بيروت، 1983، دار الكتب العلميّة، 2/ 241؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 7/ 39 ـ 40؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات النحاة، مصر، 1973، 1/ 228؛ ● الصفدي خليل بن أيبك، الوافي بالوفيّات، دمشق 1953، الهاشميّة، 1/ 262؛ ● ابن العماد الحنبلي، عبد الحيّ، شذرات الذهب، بيروت 1979، دار المسيرة، 6/ 236؛ ● ابن فهد الهاشمي، لحظ الألحاظ، دمشق 1347 هـ، 252؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، مكتبة المثنى، 11/ 235؛ ● المقريزي، أحمد، السلوك لمعرفة دول الملوك، 1970، دار الكتب المصرية، 3/ 209؛ ● نصر الله، حسن عبّاس، تاريخ بعلبك، بيروت 1984، الوفاء 1984، 2/ 513 ـ 515؛ ● النعيمي، عبد القادر، الدارس في أخبار المدارس، دمشق 1948، 1/ 95؛ ● ابن تغري بردي، يوسف، المنهل الصافي، 1956، دار الكتب المصرية 3/ 288؛

● Brock. G, 2/161, S2. 20.

د. حسن عباس نصر الله
الجامعة اللّبنانية ـ طرابلس ـ لبنان
د. سليمان إبراهيم العايد
جامعة أم القرى
مكة المكرمة ـ السعودية

البَعيث، خداش بن بشر بن خالد

(ت 134هـ/ 751م)

هو خِداشُ بنُ بِشْرِ بن خالد، من بني مُجاشِع، التميميّ.

كنيته: أبو مالك، وأبو يزيد. ومالك هو ابنه الأكبر.

لُقّب البعيث لبيتِ شعرٍ له وهو أول شعر قاله، على حد قول ابن قتيبة المتوفى سنة 231 هـ/ 845 م:

تَبعَّثَ مني ما تَبعَّثَ بعدما
أُمِرَّتْ قُوايَ واستَمرَّ عَزيمي

أراد أنه قال الشعر بعدما كبر وأسَنّ. وتبعّث الشعرُ: انبعثَ كأنه سال وانفجر.

«أُمِرّتْ قواي»: اشتد أسري وخَلْقي. «واستمرّ عزيمي»: أبصرتُ أمري فمضيتُ على ما أعزمُ عليه. وهناك غير «بعيث» في الشعراء، منهم البعيث الحنفي، وقيل الهاشمي، وهناك البعيث التغلبي الزِّراميّ؛ والبعيث المجاشعي، شاعر أموي من أهل البصرة، قصد الشام غير مرة. أمُّه أمَةٌ أصفهانية وقيل من سجِستان، واسمها وردة، وقيل: مروة؛ وكانت لدى القعقاع بن معبد بن زرارة (المتوفى بعد سنة 8هـ/ 629م)، اشتراها منه أحدهم ووهبها لبشرِ بن خالد، والد البعيث، فولدت البعيث وكلُّ أمة عند العرب تدعى: فَرْتَنا. وكان يطلق عليها، في معرض الهجاء الدائر بين البعيث وجرير والفرزدق: «حمراء العجان»، كقول الفرزدق عقب انتحال البعيث بعضَ شعره:

إذا ما قلتُ قافيةً شروداً
تَنَحَّلها ابنُ حَمراءِ العِجانِ

«القافية الشرود»: السّائرة في البلاد، و«ابن حمراء العجان» مَسَبَّةٌ - عُيِّرتْ بالخِدمة والامتهان لدى الناس فيَعْرقُ ما بين قُبُلِها ودُبُرها - وهو ما يسمى بالعِجان - فيتسلّخ ويَحمرُّ.

ويذكر ابن قتيبة أن له أولاداً، وأن له عقباً في البادية، مما يوحي بحياة مختلطة ومتنقلة بين المدن والبادية.

وكان سبب المهاجاة بين البعيث وجرير أنّ البعيث سُرقتْ له إبلٌ، فوجدها لدى ناسٍ من بني يربوع يقال لهم بنو ذُهيل، فطالبهم بها، فقالوا: إنما كانت مع لصٍّ، فانتزعناها منه. وكانت بين البعيث وبين هؤلاء القوم صلةُ رَحم من قبل النوّار بنت مجاشع: الأسرة التي ينتسب إليها البعيث. وبينهم شاعر مفوّه هو غسّان السليطي، يخوض حرب هجاء مرير مع جرير، فشكوا إليه قهرَ جرير صاحبَهم (أي السَّليطي)، فناصرَهم البعيث وقال:

ألِنْ يسَّرتْ مِعْزى عطيَّة، وارتعتْ
تِلاعاً من المَرُّوت أحوى جميعُها

تعرَّضتَ لي، حتى صككتُكَ
صَكّةً على الوجه، يكبو لليدين اميمُها

أليست كُليبٌ ألأمَ الناس كلِّهمْ
وأنتَ، إذا عُدَّتْ كليبٌ، لئيمُها؟

أراد أن جريراً لمّا حسنت حال أهله بعد الشفاء، طغى وانتفش؟ و«يسّرت المعزى» كثرت وكثر لبنها. وارتعت: رعتْ. والتلاع ج تلعة: مسيل الماء، والمرّوت: موضع في ديار بني تميم. والحميمُ: النبتُ إذا طال وكثر. وقوله: صككتك صكّة: ضربتُك. والأميم والمأموم: المضروب على أمّ رأسه....

وبعد أن وجد الإبل وأطلق لسانه في جرير وأسرته، مشيداً ببني غسّان السليطي، بلغ ذلك عطيّةَ بن جِعال أحد بني يربوع فقال له: وما أنتَ وهذا يا بعيثُ؟ أتدخلُ بين بني يربوع، وأنتَ رجل من بني مجاشع؟ فبلغ ذلك جريراً، فأنشأ يقول:

يا عَبْدَ بَيْبَةَ ما غَيْرُ مُحْلِباً
لتُصيب عُرَّةَ مُجرِبٍ وتُلاما

بَيْبة: جَدَّة البعيث، وكان يعرف بالبعيث بن بَيْبة. والمحلِب: المُعين. والعرّة: الجَرَب؛ والمجْربُ: الذي قد جَربتْ إبلُه.

نُبِّئْتُ أنَّ مُجاشعاً قد أنكروا
شَعراً تَردَّفَ حاجِبَيْهِ تُؤاما

أراد أنه أزَبُّ الحاجبين كثير شَعَرهما... و«شعراً تَردَّف»: ركب بعضه. «تؤاما: تنبتُ شعرتان في مكان واحد.

مَهلاً بعيث فإنَّ أمَّك فَرْتَنا
حمراءُ أثْخَنَتِ العلُوجَ رُدَاما

نَعت أمه بالفرتنا أي الفاجرة. أثخنت العلوج: غلبتهم وأسخنتهم بالردام، وهو الضراط.

وأغلظ له جرير في الهجاء المقذع، حتى استغاث البعيث بالفرزدق، الذي كان في البصرة وقد قيَّد نفْسه، وآلى أن لا يَفُكَّ قيدَه حتى يقرأ القرآن، أي يحفظه ويجمعه في صدره. وأنشأ البعيث لأجل ذلك قصيدة لاميَّة يخاطب الفرزدق معاتباً ويهجو جريراً، في ثمانية وأربعين بيتاً، ومنها، مخاطباً الفرزدق:

لعَمْري لقد ألهى الفرزدقَ قيْدُهُ
ودُرْجُ نَوارٍ ذو الدِّهانِ وذو الغِسْلِ

يقول: شَغلَه قيدُه والجلوسُ مع امرأته النَّوَّار، ذاتِ العناية بأناقتها متعطّرة مُمْتَشِطة، كما شغله القيامُ على نفسه عن الذَّبِّ عن أعراض مجاشع...

فأجابه جريرٌ، بقصيدة لاميَّة قوامها خمسة وستون بيتاً، قائلاً للفرزدق:

جزِعْتَ إلى دُرْجَي نَوارٍ وغِسْلِها
وأصبحتَ عبداً لا تُمِرُّ ولا تُحْلي

أي لم يكن لك نكيرٌ إلاّ الرجوع إلى امرأتك والجلوس معها... والدرجُ: شيء تضع فيه النساءُ الطيب.

ثم يلتفت إلى البعيث ليقول، معيّراً بأمّه:

يَفيشُ ابنُ حَمراءِ العِجانِ كأنّه
خَصيُّ بَراذينٍ تقاعَسَ في وَحْلِ

فأخزى ابنُ حمراءِ العجان مجاشعاً
وما نالتِ المجْدَ الذَّلاةُ التي يُدْلي

أي يفخر بالباطل. والبرذون، ما كان من الخيول أو البغال غير العربية. والتقاعُس: الرجوع إلى الوراء.

وكانت نساءٌ من بني مجاشع قد أتين الفرزدق وهو مُقَيَّد وقلن: قبحَ الله قيدَك، فقد هتكَ

جرير عورات نسائك، فلحيتَ شاعر قوم. فأغضبْنه، ففضَّ قيده، فأنشأ قصيدة لاميَّة قوامها ستة وعشرون بيتاً علّل فيها أسباب قيده، وبيّن قدراته ومزاياه، متعرّضاً لجرير في بضعة أبيات، ثم عاد إلى شيمه الخلقية الرفيعة وسيرة قومه وشخصه، في أبيات جمعت الفخر بفرعيه الذاتي والقومي، إلى الهجاء والتعريض، فيجيبه البعيث في قصيدة لامية مماثلة، قوامها ثمانية وأربعون بيتاً معظمها في المدح الذاتي، والقبلي، وبضعة أبيات في نهايتها، نال فيها من جرير شر نَيْل، ونعته هو وقومه بأقبح النعوت، من مثل قوله:

سَـوَاسـيـةٌ سـودُ الـوجـوه كـأنـهـمْ
ظَـرَابـيُّ غـربـانٍ بـمـجـرودةٍ مَـحْـلِ

سواسية: مستوون في الشر. والظرابيُّ: ج ظَربان: دويبة منتنة الريح كثيرةُ الفَسْو. والمجرودة: الأرض فيها جراد.

وكـلُّ كُـلَـيـبـيٍّ صـفـيـحـةُ وَجـهـهِ
أذلُّ لأقـدام الـرجـالِ مِـن الـنـعـلِ

وكـلُّ كـلـيـبـيّ يَـسـوقُ أتـانَـهُ
لـه حـاجـةٌ مـن حـيـثُ تُـثـفرُ بـالـحَـبْلِ

أثفر الدابة: شدّها بالحبل من خلف. قصد الحاجة إلى فرجها المشدود بالحبل.. وهو أشد الهجاء وأوجعه.

وخلاصةُ الكلام في مسيرة العلاقة بين البعيث وجرير، أن الهجاء قد لجَّ بينهما، طوال أربعين سنة، لم يتغلّب واحدٌ منهما على صاحبه، ولم يتهاج شاعران في العرب في جاهلية ولا إسلام بمثل ما تهاجيا به. وكان الفرزدق يعين البعيث، وهذا الأخير يعين غسّان السليطي على جرير.

وللحقيقة فإن حجم الشعر وحدّة الهجاء قد بلغا لدى جرير رتبة أعلى مما هي لدى البعيث والفرزدق. فقد «سقط البعيث» أمام جرير [المؤتلف والمختلف/ ص 71] «وقد غلبه جريرٌ وأخمله» [طبقات ابن سلاّم ج - 2/ 535].

وللحقيقة أيضاً إنّ انتصار الفرزدق للبعيث، لم يأخذ وتيرة واحدة. فكثيراً ما نَشب الهجاء بين الشاعرين وإن لم يأخذ الحدة نفسها التي كانت بين البعيث وجرير. وها هو البعيث يهاجم الفرزدق بعد أن أدرك أن هذا الأخير كان يعبث بالاثنين. وأنه وضع نصب عينيه الانصراف كلياً إلى جرير الذي كان يرى انتصاره عليه، انتصاراً على الاثنين؛ فأحسّ البعيث بذلك، فوجّه إلى الفرزدق سهامه، قائلاً:

أشـاركـتـنـي فـي ثـعـلـبٍ قـد أكـلْـتُـه
فـلـم يَـبـقَ إلاَّ رأسُـه وأكـارعُـهْ

فـدونـكَ خُـصْـيَـيْـهِ ومـا ضـمَّـتِ آسْتُـهُ
فـإنـك قَـمَّـامٌ خـبـيـثٌ مَـراتِـعُـهْ

الأكارع ج كراع: من قوائم الدوابّ، وهو أخبث ما فيها. والرأس لا خير فيه. يقول: أكلتُ لحم جرير، فلم يبقَ لك إلا أخبثه؛ فجئتَ لدناءتك تشاركني فيما فرغتُ منه.

والقمّام: الكسّاح الذي يكنس القمامة وما تحويه من سقط الطعام الخبيث وأراذل الأشياء، ولا يتوقى قذره....

على هذا المنوال جرت حياة البعيث، فلما عرف راحة أو مرحلة قرّتْ فيها نفسهُ بين شعراء عصره الذين وصف حركتهم الشعرية وكأنها ساحة قتال يتقاتلون فيها كما يتقاتل

حُمُر الوحش أو كما سمّاهم هو: «الأعيار» ألا وهم: الفرزدق وجرير، والأشهبُ وَزبّابُ ابْنا رُمَيلة (توفي الأشهب بعد سنة 86 هـ/ 705م)، ورُميلة: أمُّه...

ويذكر في هذا الصدد أنه اجتمع على باب الوليد بن عبد الملك: الفرزدق وجرير والبعيث والأشهب بن رميلة، فأمر أن يدخل عليه الشعراء، باستثناء البعيث الذي أخّره عليهم. فلما دخل عليه قال: «يا أمير المؤمنين، إنَّ من حضَرَكَ ظَنُّوا أنك إنما قدَّمْتَهم عليَّ لفضلٍ وجدتَه عندهم لم تجده عندي. قال: أوَلستَ تعلم أنهم أشعر منك؟ قال: كلا، والله؛ ولأُنشدنّك من أشعارهم ما لو هجاهم أعدى الناس لهم، ما بلغ منهم ما بلغوا من أنفسهم...».

ثم أخذ يسرد عليه بعض أشعارهم، الواحد تلو الآخر، منتقياً من شعرهم ما يَعيبُهم، ويرفع من قدره، فقال له الوليد: «لعمري؛ لقد عبْتَ مَعيباً».

ثم استنشده وأحسن جائزته» [الموشح للمرزباني، ص 263 ـ 260].

وكان للبعيث أسرة وأولاد، منهم مالك وبكر. خرجا مع أبيهما إلى المدينة، فأرسلهما يرعيان عليه الإبل، فمرض مالكٌ، فأرسل بكراً إلى أبيه ليَقْدُم عليه، فقدِمَ، فوجده قد مات، فقال، من قصيدة حكمية مؤثرة:

أرسلَ بَكْراً، مالِكٌ يَسْتَحِثُّنا
يُحاذرُ من رَيْبِ المنون فلم يَئِلْ
أمالِكُ مهما يَقْضِهِ اللهُ تَلْقَهُ
وإنْ حانَ رَيْثٌ من رفيقكَ أو عَجَلْ

وجاء: «وما وَأَلْ» أي لم يَعُد... وجاء أيضاً: «ما يَقْدر الله... وإنْ حُتِمَ...».

[الشعر والشعراء، 2/ 55؛ لسان العرب (شمل)، 370].

■ آثاره

لا نعرف حجم الشعر الذي تركه البعيث، إذ لم نعثر على ديوانه، ولا علم لنا بأن أحداً قد حققه وجمعه. فعوّلنا على مصدرين اثنين رئيسين هما: «لسان العرب»، و«كتاب النقائض»، وبعض المصنفات وكتب التراجم، سمحت لنا باطلاع بيِّن على الأغراض الشعرية التي نظم لأجلها معظم شعره، وصاغ مقاصده وأفكاره؛ فتبيَّن لنا أنه طرق معظم أبواب الشعر السائدة في عصره، وهي: الوصف والهجاء والمديح والغزل، إضافة إلى أغراض أخرى ثانوية في القضاء والقدر ورحيل الأحبة والوقوف على الأطلال، مما نبسط الكلام فيه في السطور الآتية...

اشتملت أشعار البعيث على أوصاف كثيرة، تفوق ما قاله في أغراض أخرى، وربما يعود السبب إلى أن الوصف غرض شعري عام في معظم الأغراض الشعرية، سواء أكان مديحاً أم هجاء أم غزلاً ونسيباً أم رثاء وما شابه. والأرجح أنه لم يكتب شعراً وصفياً لذاته. فإذا به يصف أشياء مختلفة: إنسانية بشرية، وحيوانية، وطبيعية كما يقف بعض الشيء أمام الزمن والمشاعر الإنسانية، وأمور أخرى مرتبطة بالإنسان أو الحيوان، أو بكليهما معاً... سبيله في ذلك التشبيه والتخيل والرّد الشعري المباشر، كوصف الأسنان في الفم وتشبيهها بالأقحوان والسحائب والأمطار، كما يفيدنا البيت الآتي:

وذي أُشُـرٍ، كـالأقـحـوان، تـشـوفـهُ
ذِهـابُ الـصَّـبـا والـمُـعـصـراتُ الـدوالِـحُ

المعصرات الدوالح: السحب التي أثقلها المطر، فهي تمشي مشيَ المثقل. والذهاب: المطر [لسان العرب (دلح)، 2/ 435].

ووصْف العيون الزرقاء بالشاء السمينة أو ضرب من التمر.. [لسان العرب، (ربح) 2/ 444]

ووصْف الثور الوحشي والكلاب الصائدة، على جانب من التشابيه الجميلة، كقوله من قصيدة سينيَّة:

مُـحـرَّجـةٌ حُـصٌّ كـأنَّ عـيـونَـهـا
إذا أَذَّنَ الـقـنَّـاصُ بـالـصـيدِ، عَـضْـرَسُ

فـصـبَّـحـهُ عـنـد الـشـروق، غُـديَّـةً
كـلابُ ابـنِ عـمَّـارٍ عِـطـافٌ وأطـلـسُ

يذكر كلاب الصيد، وقد شبَّه عيونها الحمراء بالعضرس، وهو نبات له لون أحمر. وحصٌّ: انحصَّ شعرها، أي سقط.. ومحرَّجة: صفة للكلاب: وقوله: صبَّحه، قصد حمار الوحش.

[لسان العرب، (بسر) و(عضرس) 4/ 59 و6/ 142].

ووصف الخمر والريق، في معرض وصف الحبيبة، كقوله:

بـأطـيـبَ مِـن فـيـهـا، ولا طـعْـمَ قَـرقـفٍ
عُـقـارٍ تَـمـشَّـى فـي الـعـظـام شـؤونُـهـا

شؤونها: أي شؤون الخمر، وهي ما دبَّ منها في عروق الجسد. [اللسان (شأن)، 13/ 231].

ووصف الناقة والبيداء، ووصف القطا، والزمن الماضي والشباب... كقوله في وصف القطا:

وقد خَلَّفتْ أسرابَ جَونٍ من القَطا
زواحـفَ، إلاّ أنـهـا تـتـزغَّـمُ

سـمـاويَّـةٌ كُـدْرٌ، كـأنَّ عـيـونَـهـا
يُـذافُ بـه وَرْسٌ حـديـثٌ وكـركُـمُ

تنزغَّم: تقول كلاماً لا يفهم.... والكركم: الزعفران، وهو عروق صفر معروفة [اللسان، (زغم) و(كركم)، 12].

وقوله في الشباب وزمن الصِّبا:

بُكِّي على إثْر الشباب الذي مضى
ألاَ إنَّ أخـدانَ الـشـبـاب الـرَّعـارِعُ

الرعارع: ج رعْرَع ورَعْراع: المراهق الحَسَن الاعتدال، وقد تحرَّك وكبر [اللسان (رعع)، 8/ 128].

على الرغم من أنّ الهجاء قد غلب على شعر البعيث، فإنه لا يكاد يخرج عن مهجوَّيْه الرئيسين: جرير والفرزدق؛ الأول بصفة دائمة حتى الموت، والثاني في مناسبات ومواسم محدودة؛ وهناك بعض الأهاجي لبعض أعيان عصره من شعراء ورجال قبائل معروفين، نذكر منهم ناجية بن صَعْصعة عمَّ الفرزدق، وقد لامه (أي ناجية) على تعرّض البعيث لعشيرة الفرزدق التي ناصرته ووقفت إلى جانبه، ومع ذلك هجاهم البعيثُ وبَرَّح بهم، قائلاً من مقطعة رباعيّة:

أنَـاجـيَّ إنـي لا إخـالُـكَ نـاجـيـاً
ولا مُـفـلِـتـي إلاّ رَكـوبـاً مُـوَقَّـعـا

أتــاجــيَّ قــد عُــدَّ الــلــئــامُ فــلا أرى
مــن الــنــاس أدنــى مــن أبــيــكَ وأَوْضَــعــا

وقوله «موقَّعا» أي: موقَّعٌ به آثار الدَّبَر.

[النقائض، 1/ 181]

وأما هجاؤه لجرير، فقد مثّلنا له بعدد من الشواهد الشعرية، ونحن نتحدث عن مسيرته الشعرية وعلاقاته بشعراء عصره، وخاصة الأبيات السبعة الأخيرة من لاميّته التي هجا فيها جريراً ومطلعها الطللي:

أهــاجَ عــلــيــك الــشــوقَ أطــلالُ دِمْــنــةٍ
بــنــاصِــفَــةِ الــجــوَّيْــن أو جــانــب الــهَــجْــلِ

وقد مثلتُ على ذلك في مقطع سابق....

ومن أهاجيه في جرير أيضاً قصيدة ميميّة، من ستة عشر بيتاً استهلّها بوقفة طلليّة ليقول له بما يشبه الجرح الذي لا يندمل:

لَــقــىً حَــمَــلَــتْــهُ أُمُّــهُ وهــي ضَــيــفَــةٌ
فــجــاءت بــنــزٍّ لــلــنُّــزالــةِ أرشَــمــا

مُــدامِــنُ جَــوعــاتٍ كــأنّ عــروقَــهُ
مَــسَــارِبُ حَــيّــاتٍ تَــشَــرَّبْــنَ سَــمْــسَــمــا

اللَّقى: المُلقى المُهان. يقول إنّ أمّه حملته وهي ضيفة لقوم فجروا بها... والمُدامِن: المتابع الذي لا يزال يجوع. يقول: كأنّ عروقه من هُزاله وجوعه، مثل آثار حيّاتٍ غلاظ تَشَرَّبْنَ دهْنَ سِمْسِم (إذ وردَ «سِمْسِما» بكسر السينَيْن) ويقال: أخذ بعضها من بعض السَّمْ.... [النقائض، 1/ 44]

وهناك مقاطع هجاء أخرى، بالغ البعيث فيها في تجريح جرير وأمّه، أورد منها ياقوت الحموي ثلاثة مقاطع تضمنت أحد عشر بيتاً، بينها البيتان الآتيان:

ألــســتَ كــلــيــبــاً ثــمَّ أُمُّــكَ كــلْــبَــةٌ
لــهــا بــيــن أطــنــاب الــبــيــوت هَــريــرُ

ولــو عــنــد غــسَّــانَ الــسـلـيـطـيِّ عَرَّسَتْ
رَغــا قَــرَنٌ مــنــهــا وكــاسَ عــقــيــرُ

الأطناب، ج طنب: الحبل يشدُّ به الوتد وخلافه. الهريرُ: صوت الكلب. عرّستْ: نزلتْ. وكاسَ عقيرُ: رَغا بعير إلى بَعير بدافع الشبق.... [معجم الأدباء، 11/ 53 ـ 55]

نادرة هي قصائد الغزل في شعر البعيث، مما تسنّى لنا قراءته والاطّلاع عليه. وأكثر أشعار النسيب مبثوثة في فواتح معظم قصائد المدح والهجاء؛ وفيها حنينه إلى الحبيبة التي يدعوها «ليلى» وتارة «الخنساء» وثالثة: «أسماء»... ولا ندري هل هي أسماء حقيقية أم تقليدية نَحَا فيها نحو شعراء المديح والغزل القدامى...

ومن أبرز ما قاله في هذا الباب، قصيدة عينيّة، لا ندري ما إذا كانت مستقلّة في غرض الغزل أم هي مقدمة لغرض آخر مديح او هجاء... ومطلعها:

أزارتْــكَ لــيــلــى والــنــجــومُ خَــواضِــعُ
وقــد بَــهــرَ الــلــيــلَ الــنــجــومُ الــطــوالــعُ

ومنها قوله يحنّ إلى أيام الحب وما آلت إليه فيما بعد من بُخْل في الوصال وندرة في اللقاء:

تُبكّي على إثر الشبابِ الذي مضى
ألا إنّ أخــدانَ الــشــبــاب الــرعــارعُ

طمِعتُ بليلى أن تَريعَ، وإنما
تُضَرِّبُ أعناقَ الرجالِ المطامعُ

وبايعتُ ليلى في الخَلاء، ولم يكن
شهودي على ليلى عُدولٌ مقانِعُ

تَريع، من الرَّيْع: الرجوع. وفي رواية أخرى: «تُقطِّعُ» بدل «تُضرِّب».

[لسان العرب (رعع) 8/ 128، و(ريع) 8/ 138 (وقطع) 8/ 278؛ وانظر: تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، 1/ 732].

وإلى شعر الحب والنسيب، ينتسب شعر آخر في رحيل الأحبة والفراق واللوعة عليهم، والوقوف على أطلالهم الدارسة، وقد أوفى البعيث على هذا الغرض، فوفّق في تصوير ذلك والتعبير عن معاناته القلبية وخطرات الذاكرة، من مثل قوله:

ألا راحَ بالرَّهْنِ الخليطُ فهجَّروا
ولم يُقْضَ من بين العشيَّاتِ عُنْصرُ

وقوله، في موضع آخر:

أهاجَ عليك الشوقَ أطلالُ دِمْنةٍ
بناصفةِ البُرْدَين، أو جانب الهُجْلِ

أتى أبدٌ من دون حِدْثانِ أهلها
وجَرَّتْ عليها كلُّ نافجةٍ شَمْلِ

وأبقى طَوالُ الدهر من عَرَصاتها
بقيّةَ أرقامٍ كأرديةِ الطَّبلِ

الناصفة: المسيل الواسع. ومعنى البيت الثاني: أقربُ عهدها قد أتى عليه، أبد أي دهر، فكيف أبعدُهُ؟ والنافجة: الريح الشديدة الهبوب. والشملُ: الشمالُ. والأرمام: الآثار الباقية، كالجبال. والطبلُ وأردية الطبل: جنس من البرود... والطبلُ أيضاً: الناس... [كتاب النقائض، 1/ 133]

لم نعثر على أشعار كثيرة في المدح، وهو قليل بالنسبة إلى الهجاء وسائر الأوصاف؛ وربما تضمنت بعض قصائد الهجاء أبياتاً كثيرة في مدح خصوم المهجو، كما يمكن العثور على كثير من الهجاء في قصائد المدح... وقد أشارت بعض المصادر إلى مدح الخليفة الوليد بن عبد الملك، ومدح زياد بن أبيه الذي قال فيه، مشيداً بإنجازاته العمرانية ومنها أحد المساجد:

بنى زيادٌ لذكر الله مَصْنعةً
من الحجارة، لم تُرْفَعْ من الطينِ

والمصنَعُ والمصانعُ: الحصون. [اللسان (صنع)، 8/ 212].

لم يخرج البعيث عن النسق الشعري السائد في عصره والذي تتنوع فيه أغراض القصيدة وموضوعاتها، ولا سيما في قصائد المدح والهجاء، وقلّما تستقل قصائد موضوع واحد، باستثناء قصائد الغزل العذري او العُمري وبعض قصائد شعراء البيت الهاشمي...

وسنأخذ مثالين شعريَّين للبعيث، أحدهما في الغزل، والثاني في الهجاء، ونستقرئ الملامح الرئيسية للنهج الشعري عنده...

المثال الأول: نصّ غزلي مقتطع من قصيدة ميمية غير محدّدة الغرض، ولعلها في مدح أحد القواد الأمويين في أحد الثغور العربية، خالد بن أميّة، قوامه عشرة أبيات؛ الخمسة الأولى في وصف امرأة جميلة قضى معها ليلة غرامية، واستمتع بمفاتنها الأنثوية، واصفاً ذلك بكثير من الإحساس والانفعال، دون أن

يتبذّل أو يسفّ، جامعاً بذلك بين الوصف الحسّي الجمالي الذي اتصف به شعر الغزل الإباحي، وصدق الإحساس والمعاناة لدى شعراء الحب العذري، وهو ما يمكن اعتماده في معظم الشواهد الشعرية التي عبَّر فيها عن لواعجه واحتراقه وهو يتحدث عن رحيل الأحبة، وعهود الوصال، وأشجان التلاقي والافتراق...

ومَجدولةٍ جَدْلَ العِنانِ خريدةٍ
لها شَعَرٌ جَعْدٌ ووجهٌ مُقَسَّمُ

وثَغْرٌ نقيُّ اللونِ عذبٌ مَذاقُهُ
يُضيءُ له الظلماءُ ساعةَ تَبسِمُ

وثديانِ كالحُقَّيْنِ، والبطنُ ضامِرٌ
خَميصٌ، وجَهْمٌ نارُهُ تتضرَّمُ

(...) أباكرُها صهباءَ كالمِسْكِ ريحُها
لها أرَجٌ في دَنِّها حين يُرْسَمُ

[الكامل في التاريخ، 6/ 253].

يؤكد هذا النص، بتمامه، أن البعيث لم يخلص لموضوعة الغزل - إذا كان الغرض كذلك - لأنه تحدَّث عن فعال القائد الأموي وجهاده ومقاساته... ولا لموضوعة المدح - إذا كان الغرض كذلك - لأنه غلَّب الغزل على المدح والإشادة.

المثال الثاني: هجاء لجرير، في قصيدة طويلة نسبياً (ثمانية وأربعون بيتاً) مُقسَّمة كما يلي:

1 - مطلع طللي جزل، لم يخرج فيه عن سنّة السلف في تحديد الأماكن الدارسة وعوامل الطبيعة التي أسهمت في التغيير والبلى... وكلام في الدِّمن والعرَصات (أي ساحات اللهو الحالمة) ووصف النوق وارتحالها بأصحابها.. وقد استغرق ذلك تسعة أبيات... ومطلعها:

أهاجَ عليكَ الشوقَ أطلالُ دِمنةٍ
بناصِفَةِ الجَوَّيْنِ أو جانبِ الهَجْلِ؟

2 - كلام متصل بالوقفة الطللية، يدور حول الحبيبة... ولا ندري هل هي «الخنساء» كما يسميها، أم هي صفة لها، يذكر فيه الصدود والبخل في الوصال - يستمر ذلك حتى نهاية البيت الخامس عشر...

3 - مفاخرة مطولة بنفسه وبأهله وعشيرته بني مجاشع، ووقفة إشادة بأبيه وجده الذي حمل كل مآثر أجداده وفضائلهم، عارضاً لمجمل الإنجازات والمكاسب التي حققها أجداده في حروب الآخرين لأجل السيادة والإغاثة والإجارة. وقد استغرق هذا النص ستة وعشرين بيتاً، أي أكثر من نصف القصيدة.

4 - هجاء جرير وقومه الذي استغرق سبعة أبيات، لكنها تضاهي العشرات لشدة وجعها، وقوة تأثيرها. ولعل هذه القصيدة، أفضل مثال لنهج الشاعر وأسلوبه الشعري العام الذي يخضع لطريقة الشعراء بعامة في الإحاطة والتنويع، ولدفق المشاعر والأفكار في قريحة الشاعر، فينطلق من تعبئة ذاتية مضطرمة، على قدر من التوافق والمجاراة لطرائق الشعراء المعاصرين له.

احتلَّ البعيث موقعاً خاصاً في زمانه، فأجاد في كلّ من القصيد والأرجاز والخُطَب، فذُكر مع الكميت والطرمّاح بن حكيم؛ وكان «أخطب بني تميم، إذا أخذ القناة» وذكر الجاحظ، نقلاً عن يونس بن حبيب: «لئن كان مُغلَّبا في الشعر، لقد كان غُلِّبَ في

الخُطب» «وإذا قالوا غُلِّبَ فهو الغالب». [البيان والتبيين، 1/ 374 و 4/ 84].

وعدّه ابن سلاّم في مقدمة الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين، مع القطامي وكثيّر وذي الرمّة.

وقال جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911هـ/ 1505 م، إن البعيث واحد من الشعراء الذين يُحتجُّ بشعرهم في العربية، حيث جمعنا له في «لسان العرب» ستة وسبعين بيتاً في واحد وخمسين جذراً لغوياً، أسهمت كثيراً في دراسة شعره وتبيُّن ملامح من سيرته وأحواله...

ووصف ابن سلام لغة البعيث وشعره، فقال: «كان البعيث شاعراً فاخر الكلام حُرّ اللفظ»، ونضيف: حيث يدعو المقام إلى قوة الكلام وجزالة تراكيبه، تراه يرفع من وتيرة النبرة ويكثف من مقاصد المعنى، فيخرج الكلام مغمّساً بدواة الاستعلاء المشحون بالانفعال كقوله، مفاخراً بأحد جدوده:

وكُلُّ تراثِ المجدِ أورثني أبي
إذا ذكر الغالي من الحَسَبِ الجَزْلِ
وجدتُ أبي من مالكٍ حَلَّ بيتُه
بحيث تنصّى كلُّ أبيضَ ذي فَضْلِ
أغرُّ يُباري الريحَ في كلِّ شتوةٍ
إذا اغبرَّ أقدامُ الرجالِ من المَحْلِ

التنصّي: التعلّق بالشيء، وهو مأخوذ من النّصّ: الرفعة والعلو... ومنه المنصّة. كلُّ أبيض: كناية عن الشريف الحسيب.

وإذا أراد الكلام في مقام ليّن، رَقّ اللفظ، وانخفضت النبرة وشاعت منه عذوبة وطلاوة.

ألا أصبحتْ خَنْساءُ جاذِبةَ الوَصْلِ
وضَنَّتْ علينا والضنينُ من البُخْلِ
فصَدَّتْ فأعدانا بهَجْرٍ صُدودُها
وهنَّ من الإخلافِ قبلكَ والمَطْلِ
عَطَوْنَ بأعناقِ الظباءِ وأشرقتْ
مَحاجِرُهُنَّ الغُرُّ بالأعينِ النُّجلِ

عطون: مددْن... [النقائض، 1/ 135 ـ 136، 138].

وما كان أصدقه حينما قال: «إني واللهِ ما أرسلُ الكلام قضيباً خشيباً، وما أريد أن أخطبَ يوم الحَفْلِ إلاّ بالبائت المحكّك» [البيان والتبين، 1/ 204]

الخشيبُ: الذي لم يُحكم ولم يجوّد؛ والبائت: الذي يستغرق من صاحبه البيات والسهر لتجويده، والمحكّك: المنخول المصقول.

المصادر والمراجع

● كتاب النقائض، بين جرير والفرزدق. تأليف: أبو عبيدة معمّر بن المثنى، بعناية وإشراف المستشرق الانكليزي: أنطوني بيفان، طبع في ليدن سنة 1905 م؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة، القاهرة سنة 1977؛ ● الجمحي، ابن سلاّم، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه، أحمد محمد شاكر، القاهرة سنة 1974؛ ● الآمدي بشر، المؤتلف والمختلف، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج، القاهرة سنة [1381هـ/ 1961م]؛ ● الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، تحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة [1395هـ/ 1975م]؛ ● المرزباني، محمد بن عمران، الموشّح، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة سنة 1965؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، إشراف د. أحمد فريد الرفاعي، القاهرة سنة 1323هـ/ 1905م؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد الحادي عشر، دار بيروت، بيروت سنة 1982؛ ● السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، بعناية المولى، البجاوي، إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة سنة 1963؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، دار العلم للملايين، بيروت سنة 1984؛ ● الأيوبي، ياسين، معجم الشعراء في لسان العرب، الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت سنة 1987.

د. ياسين الأيوبي
الجامعة اللبنانية ـ لبنان

البغدادي، أديب بن محمد سعيد التقي

(1313هـ/1895م ـ 1364هـ/1945م)

أديب بن محمد سعيد التقي المعروف بالبغدادي، ولد وتوفي بدمشق، وتعلّم في مدارسها الابتدائية، وأتمّ دراسته الثانوية في المدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، وهي المدرسة الثانوية الوحيدة في ولاية سورية آنذاك.

كان منذ يفاعة سنه مولعًا بقراءة كتب التراث وبخاصة كتب الشعر والأدب العربي. تخرج في علوم البلاغة والنقد الأدبي على يد العلامة الشيخ محسن الأمين، عُيّن معيدًا في المدرسة السلطانية عام 1912م. ثمّ شارك في الحرب العالمية الأولى ضابط احتياط في جيش السلطنة العثمانية، وخدم في جبهة الأناضول. عُيّن في عهد الاستقلال العربي السوري الأول (1918 ـ 1920 م) مدرّسا لمادتي التاريخ والتربية في المدرسة السلطانية وفي دار المعلمين الابتدائية التي كانت جزءًا منها، وشارك في حركة تعريب المصطلحات، وأصبح عضوًا في ديوان الترجمة والتأليف في وزارة المعارف. وكان يشرف مع زميله العلامة عز الدين علم الدين التنوخي على إصدار مجلة «التربية والتعليم» الصادرة عنها. ثمّ أصبح عضوًا في لجنة المؤلفات المدرسية فرع تأليف كتب التاريخ والجغرافية، ثمّ أصبح مديرًا للمدرسة الابتدائية النموذجية المعروفة بـ «المدرسة البحصة» عند مرجة دمشق (ساحة الشهداء). نحّتْهُ السلطات الاستعمارية الانتدابية عن التعليم لأنه كان يذكي في نفوس

تلاميذه روح العروبة ويبذر فيهم بذور الوطنية، فاختير ليكون مديرًا للمدرسة العلوية الأهلية بدمشق (المحسنية حاليًا على اسم العلامة محسن الأمين) فجعل منها مدرسة تضاهي مدارس الإرساليات الأجنبية.

غادر دمشق لدى اندلاع لهيب الثورة السورية الكبرى (1925 ـ 1927 م) إلى إمارة شرقي الأردن فكلف بتدريس الأدب العربي والتاريخ والجغرافية في ثانوية مدينة السلط، وكان زميله الأديب سعيد البحرة مديرًا لها.

عاد إلى دمشق بعد انتهاء الثورة وانتسب إلى معهد الحقوق العربي في الجامعة السورية، ونال إجازته. أهّلتْهُ سمعته الأدبية لشغل منصب أستاذ الأدب العربي في تجهيز الإناث، ثمّ انتدب ليكون محاضرًا في الأدب العربي في مدرسة الآداب العليا بدمشق التي لم تعش طويلاً (1928 ـ 1931) لخوف السلطات الانتدابية من الروح الوطنية التي سادت فيها.

انتخب في عام 1942 عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق. عاجلته المنية حين كان يعد العدة للذهاب إلى القاهرة لتقديم أطروحة الدكتوراه في الأدب العربي في الموضوع الذي كرس حياته للعمل فيه عن الشريف الرضي.

■ آثاره

ترك المترجم له عددا كبيرا من المقالات والدراسات والقصائد الشعرية مبعثرة في مجلات مختلفة ومنها مجلة «التربية والتعليم»، ومجلة «العرفان» بصيدا، ومجلة «المجمع العلمي العربي» بدمشق، ومجلة «المدرسة»، ومجلة «أصداء» وغيرها. ومن كتبه المطبوعة:

1 ـ التاريخ العام: الجزء الأول في القرون الأولى (القديمة) والوسطى؛ والجزء الثاني في القرون الأخيرة (التاريخ الحديث)، وهما كتابان مدرسيان، ط.؛ وتاريخ العصر الحاضر، مخطوط؛ 2 ـ سير التاريخ الإسلامي (ط)؛ 3 ـ سير العظماء، ج 1، مطبوع و ج 2 مخطوط؛ 4 ـ نهضة اليابان السياسية والاجتماعية، مطبوع؛ 5 ـ مصطفى كمال باشا في الأناضول، مطبوع؛ 6 ـ أغاريد التلميذ (مجموعة شعرية)، طبع عام 1927؛ 7 ـ مبادىء التربية والتعليم، كتاب فرنسي ترجمة عن التركية، طبع عام 1918؛ 8 ـ ديوان شعر من 239 صفحة، طبع عام 1932، مطبعة ابن زيدون؛ 9 ـ الشريف الرضي، عصره وحياته ومنازع أدبه، مطبعة كرم بدمشق؛ 10 ـ المسيح الهندي أو الجامعة الأحمدية، مطبوع، وهو يبحث في تاريخ الحركة القاديانية، مطبوع؛ 11 ـ تاريخ العهد النبوي والخلفاء الراشدين، سيرة سيدنا علي بن أبي طالب، مخطوط؛ 12 ـ سيرة بسمارك بطل الاتحاد الألماني، مخطوط؛ 13 ـ الجغرافية الاقتصادية، مخطوط؛ 14 ـ تاريخ الختان ومحسناته، مخطوط؛ 15 ـ مائتا مسألة في الحساب النظري والجبر والمثلثات والميكانيك والفيزيك، مخطوط؛ 16 ـ غرائب العادات، مطبوع؛ 17 ـ شعر الخيام وفلسفته، مخطوط؛ 18 ـ رواية الوجيه المتحضر، مخطوط؛ 19 ـ كتاب الطرف في ستة أجزاء، مطبوع؛ بمشاركة الأساتذة الجندي والقواس والسراج.

المصادر والمراجع

● مجلة العرفان، السنة 11 عام 1925، ص 1024؛ ● سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات، وفي جامع التصانيف، الفقرات 54، 147، 796؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، 1/ 286؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 2/ 222، والمستدرك على معجم المؤلفين، 89؛ ● عبد القادر عيّاش، معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، 79؛ ● أحمد قدامة، معجم معالم وأعلام، 185؛ ● حسني سبح، مجلة المجمع، مج. 21 لعام 1946م، 5 ـ 6؛ ● صلاح الدين المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين، 419.

زهير محمد ناجي

دمشق

البغدادي، أبو إسحاق إبراهيم بن جابر

(235هـ/850م ـ 310هـ/922م)

أبو اسحاق إبراهيم بن جابر البغدادي [الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج11، ص303؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، ج1، ص17؛ البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ج6، ص53؛ النديم، الفهرست، ص 364].

عالم كبير من علماء المذهب الفقهي الظاهري الذي يُنسب إلى الإمام داود بن علي الأصبهاني الذي يُدعى بداود الظاهري، لكونه أوّل من بعث المدرسة الظاهرية ولشهرته البالغة في التعويل على ظواهر الأدلّة والنصوص والألفاظ الشرعية الإسلامية وترك التأويل والتعليل والقياس وسائر أوجه النظر المقاصدي والمصلحي. وقد كان للإمام داود دور في تأسيس هذا المذهب وبعث نواة كيانه ومنظومته [الخادمي، نور الدين، الدليل عند الظاهرية، ص26 وما بعدها؛ البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ج8، ص 374].

كما يُنسب إبراهيم بن جابر البغدادي للعلامة الفقيه علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ) الذي كان له دور في تدوين المذهب وتطويره ونشره والدفاع عنه والانتصار له في بلاد الأندلس التي ينتشر فيها المذهب المالكي وقتئذ. وقد جاء في كتاب هدية العارفين أنّ إبراهيم بن جابر شافعي المذهب. ويبدو أنّ أصل مذهبه الشافعية غير أنه انتقل منه إلى المذهب الظاهري.

ولد سنة خمس وثلاثين ومائتين، وفي «تاريخ بغداد» للبغدادي سنة خمس وثمانين ومائتين، ومات في شهر ربيع الآخر سنة عشر وثلاثمائة للهجرة النبوية الشريفة [البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ج6، ص54؛ كحالة، عمر

رضا، معجم المؤلفين، ج1، ص 17].
قال الخطيب البغدادي: كان ثقة إمامًا. وقال أبو الحسن الدارقطني: إبراهيم بن جابر أبو إسحاق الفقيه صاحب كتاب الاختلاف، إمام فاضل. وذكر أبو بكر البرقاني أنّ أربعة من أهل العلم اجتمع لهم الفقه والحديث، أحدهم إبراهيم بن جابر [البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ج6، ص 53].
وصفه ابن العماد الحنبلي بأنه صاحب التصانيف، الفقيه الثبت، وبأنه يروي «الخلافيات» عن الحسن بن أبي الربيع، والرمادي [الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص 303].
حدث عن الحسين بن عبد الرحمن الجرجراني، والحسن أبي الربيع الجرجاني، وأحمد بن منصور الرمادي، وعباس بن محمد الدوري، ومحمد بن عبد الملك الدقيقي، وحمدان بن علي الوراق [البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ج6، ص 53].
روى عنه أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال، وأبو القاسم الطبراني، وعبيد الله بن عبد الرحمن الزهري [البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ج6، ص53؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص 303].

آثاره

- اختلاف الفقهاء، وقيل: اختلاف المذاهب [البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين، ج5، ص 4]. وقد وصفه الخطيب البغدادي بأنه جمّ المنافع كثير الفوائد [البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، ج6، ص53؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج1، ص 17].

وقال ابن النديم: وله من الكتب، كتاب الاختلاف، ولم يعمل أكبر منه، وأصحابه يستحسنونه [النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق، الفهرست، ص 364]

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية باستانبول سنة 1951م، وأعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بغداد د.ت؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان دت؛ ● الخادمي، نور الدين مختار، الدليل عند الظاهرية، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1421هـ/ 2000م؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين العمْرَوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1417هـ/ 1997م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق، (ت 380هـ)، الفهرست، شرح وتعليق الدكتور يوسف علي الطويل، وضع فهارسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيرت، لبنان، الطبعة الأولى سنة 1416هـ/ 1996م.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

البغدادي، إسماعيل باشا بن محمد أمين

(1255هـ/1839م ـ 1339هـ/1920م)

لا توجد معلومات كافية بشأن حياته. ولد في بغداد في عام 1255هـ/ 1839م. ويعرف أيضا بلقب «باباني» أو «بابان زاده» لانتسابه إلى أسرة بابان (آل بابان) التي كانت تدير مدينتي السليمانية وشهرزور الموجودتين في العراق في العهد العثماني. وقد درس في مدرسة الضباط بالعراق وارتقى ليصبح في رتبة ضابط. وفي عام 1875 ذهب إلى استانبول، وفي عام 1292هـ/ 1878م استقر في باقر كوي وقضى الفترة اللاحقة من حياته في هذه المنطقة. وعقب إعلان المشروطية الثانية في عام 1908 أصبح مديرا للشعبة الثانية لدائرة الجندرمة برتبة أمير لواء. وبعد أن تقاعد من هذه الوظيفة في عام 1920، توفي بعد ثلاثة أشهر من خروجه من وظيفته، ودفن في مقبرة باقر كوي.

آثاره

بالإضافة إلى وظائفه العسكرية وأعماله في هذا المجال ترك إسماعيل باشا البغدادي مؤلفين مهمين، هما اللذين اشتهر بهما وخاصة بعد قدومه إلى استانبول ومكوثه فيها لمدة 35 عاما:

1 ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون: كتب هذا المؤلف كذيل لكتاب كاتب جلبي المسمى «كشف الظنون». وفي هذا المؤلف يقدم تعريفا مختصرا لـ 19000 كتاب باللغات العربية، والتركية، والفارسية. وقد كتبه باللغة العربية وتناول فيه الكتب التي لم يطلع عليها كاتب جلبي أو ظهرت من بعده. ولعل هذا الذيل الذي وضعه إسماعيل باشا البغدادي يعتبر أطول وأوسع ذيل وضع لكتاب «كشف الظنون». ورتب الذيل على النحو الذي رتب عليه «كشف الظنون» حسب الترتيب الألفبائي. وتمت كتابة هذا الذيل في السنوات 1294 ـ 1323هـ/ 1877 ـ 1905م. وبعد مدة طويلة من ذلك أخذت نسخة المؤلف كأساس وقام شرف الدين بالط قايا، وكليسلي رفعت بلكه بإعداد المجلد الأول منه في حين قام كليسلي رفعت بلكه بإعداد المجلد الثاني من الكتاب. وطبع في استانبول من قبل وزارة التعليم [I - II، 1947 ـ 1945]. وبسبب الحاجة إلى هذا الكتاب أعيد طبعه طبعة مطابقة للأصل في عام 1972. كما طبع في إيران في عديد النسخ على شكل أوفست في عام 1387هـ/ 1967م. وتوجد نسخة ناقصة من مسودة «إيضاح المكنون» في مكتبة الإدارة العامة لبنك يابي كريدي في استانبول؛ 2 ـ هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين: هو عبارة عن موسوعة للتراجم والكتب. ويتكون من مجلدين، ويضم ترجمة لحوالي 10000 من العلماء الذين ظهروا في العالم الإسلامي،

وفيه ذكر لحوالي 50000 من كتبهم وتأليفاتهم. ورتب المؤلف كتابه ترتيبا ألفبائيا حسب الأسماء. وعند تقديمه لتراجم الأشخاص يذكر في البداية سلسلة الاسم ونسبته ولقبه وشهرته والبلاد التي ينتمي إليها ومذهبه وتاريخ وفاته ثم يذكر بعد ذلك أسماء الكتب التي ألفها. ونلاحظ أنه يكتفي مع بعض الأسماء بعرض معلومات مقتضبة جدا، بينما يقدم حول أشخاص آخرين معلومات واسعة ويطنب في التعريف بهم وبمؤلفاتهم.

وبالنسبة إلى الأسماء التي يشك في كونها تركية فإنه يعلم عليها بإشارات نجمية. غير أن هناك الكثير من الأشخاص من أصل عربي وعاشوا في مدن تركية ذكرهم على أنهم أتراك. وأخذت نسخة المؤلف من «هدية العارفين» كأساس وتم إعدادها من قبل كليسلي رفعت بلكه، وابن الأمين محمود كمال إنال، وعوني أق قوجي في مجلدين للنشر وتم طبعها عن طريق وزارة التعليم باستانبول. وطبع المجلد الأول في عام 1951 وطبع المجلد الثاني في عام 1955. وهذا الكتاب أيضا طبع طبعات كثيرة على شكل أوفست في طهران وبيروت شأنه في ذلك شأن «إيضاح المكنون». وقام ناتل بيرقدار بإعداد فهرس جديد للكتاب المذكور متخذا في ذلك كأساس كنية المؤلفين ونسبتهم ولقبهم، وطبع من قبل وزارة التعليم [هدية العارفين، فهرس لأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول 1990]. وكتب عبد الله محمد الحبشي مقالة بيّن فيها الأخطاء المتعلقة بأسماء المؤلفين اليمنيين المذكورين في هذه الموسوعة [«تصحيح الأعلام اليمنية في هدية العارفين»، مجلة معهد المخطوطات العربية، XXXIII/ I، صفد - الكويت 1989، ص. 261 - 275].

المصادر والمراجع

● كاتب جلبي، كشف الظنون، مقدمة الناشر، I، 13؛ ● البورصوي، محمد طاهر، المؤلفون العثمانيون، استانبول 1333 - 1342، III، 28؛ ● عزاوي عباس، عشائر العراق، بغداد 1366/ 1947، II، 98 - 100؛ ● المؤلف نفسه، تاريخ العراق بين الاحتلالين، بغداد 1375/ 1955، IV، 91 - 92؛ ● قوفسا إبراهيم علاء الدين، موسوعة مشاهير الأتراك، استانبول، بدون تاريخ، ص. 193؛ ● كوركيس عوّاد، معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين، بغداد 1969، I، 113؛ ● باقر أمين الورد، أعلام العراق الحديث (1869 - 1969)، بغداد 1977، I، 129 - 130؛ ● عماد عبد السلام رؤوف، التاريخ والمؤرخون العراقيون، بغداد 1983، ص. 284 - 285؛ ● الزركلي، الأعلام، نشر زهير فتح الله، بيروت 1984، I، 326؛ ● عتبه عبد الرحمن، مع المكتبة العربية، بيروت 1404/ 1984، ص 79 - 80؛ ● التنوخي عز الدين التنوخي، «هدية العارفين»، مجلة المجمع العربي العلمي، دمشق، المجلد XXXIII/ I، العدد I، 1955، ص 129 - 131؛

● Rudolf Sellheim, «Ismâil Bâsâ Al-Bagdâdi, Hadiyat al-ârifîn asmâ al-muallifin wa âtâr al-musannifîn», Oriens, VIII, Leiden 1955, p. 295-

296; • «Babanzâde Ismail Pasa» Türk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi, Istanbul 1976-I, 275;

- Mr Basrî, A'lâmû'l-edeb fi'l-Irâki'l-hadîs, London 1415/1994, I, 281;
- Hulûsi Kiliç «Bagdatli Ismai Pasa», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1991, IV, 447-448;
- Ömer Faruk Akn, «Kilisli Rifat Bilge», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 2002, XXVI, 21;
- Cemsîd Kiyânfer, «Bagdâdî, Ismail Pasa», Dânisnâme-i Cihân-i Islâm, Tahran 1376, III, 570-572.

د. أحمد أوزال
هيئة الموسوعة الإسلامية ـ استانبول ـ تركيا
ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

البغدادي، أبو الحارث الليث بن خالد

(ت قبل 240هـ/854م)

الليث بن خالد أبو الحارث البغدادي، ثقة معروف حاذق ضابط، وكان من أعيان أهل الأداء ببغداد وتوفي قبل الأربعين ومائتين تقريبا [ابن الجزري، غاية النهاية، 2/ 43].

درس على حمزة بن القاسم أبي عمارة الأحول الأزدي الكوفي؛ [ابن الجزري، غاية النهاية، 1/ 264].

ومن تلامذته: محمد بن يحيى أبو عبد الله الكسائي الصغير البغدادي مقرئ محقق جليل شيخ متصدّر ثقة، ولد سنة تسع وثمانين ومائة، أخذ القراءة عرضًا عن أبي الحارث الليث بن خالد وهو أجلّ أصحابه [ابن الجزري، غاية النهاية، 2/ 279]، والفضل بن شاذان بن عيسى أبو العباس الرازي الإمام الكبير ثقة عالم روى القراءة عن الليث بن خالد عرضًا وسماعًا [ابن الجزري، غاية النهاية، 2/ 10، 34]، وسلمة بن عاصم أبو محمد البغدادي النحوي صاحب الفراء، روى القراءة عن أبي الحارث الليث بن خالد [ابن الجزري، غاية النهاية، 1/ 311 ـ 2/ 34].

المصادر والمراجع

• ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت 833 هـ)، غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج. برجستراسر، مكتبة الخانجي، مصر، 1932م، 1/ 264؛ • ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت 1089 هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، 1350 هـ، 1/ 95.

د. عبد الستار حمدون عبد الله
جامعة الموصل ـ العراق

البغدادي الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت

(392هـ/1002م ـ 463هـ/1072م)

أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي محدّث مؤرّخ حافظ، وُلد في قرية من أعمال نهر الملك تدعى بهنيقة جنوب بغداد، وقيل إن مولده كان في غزية في منتصف الطريق بين مكة والكوفة، والخبر الأول أرجح. وهو يعد مع ابن عساكر (ت 571هـ/ 1176م) من أبرز مؤلّفي القرن الخامس والسادس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين إذ وصف أنه من الحفاظ المؤرّخين المقدمين ومن ختم بهم ديوان المحدثين. فقد برز الخطيب في باب الحديث والتاريخ في القرن الخامس، كما برز ابن عساكر في التاريخ والحديث في القرن السادس. وذلك من خلال كتابيهما الأثيرين لدى باحثي الحضارة العربية الإسلامية. فالخطيب الذي ختم به ديوان المحدثين في العراق لمع صيته من خلال كتابه المتميّز «تاريخ بغداد» ذلك الكتاب الذي يمكن اعتباره موسوعة تاريخ بغداد حتّى القرن الخامس، لا يقارن إلاّ بابن عساكر وكتابه «تاريخ مدينة دمشق» الذي يصدق وصفه بموسوعة حضارية لتاريخ دمشق حتّى القرن السادس. فكلا الكتابين مرجع أساس للباحثين في تاريخ المنطقة والفترة، ووصف بأنه مؤرّخ ومحدّث عصره في المشرق كما كان ابن عبد البر في المغرب [Wustenfeld. Geschichte chreiber p. 69-70].

نشأ الخطيب البغدادي نشأته الأولى في قرية درزيجان التي تقع في جنوب بغداد حيث كان يعمل والده خطيبا لجامع القرية، وكان مؤهلا ليتولّى العناية بولده وتوجيهه فأدبه أوّلا بإشارة والده هلال بن عبد الله الطيبي (ت 422هـ/ 1032م) فتعلّم قراءة القرآن على يديه وعلى أستاذ آخر هو منصور الحبال. وبدأ يتعلّم الحديث في سنّ مبكّرة (403هـ) وهو ابن إحدى عشرة سنة، على أبي الحسن بن زرقويه بجامع بغداد، ثم أخذ يتردّد على مجلس أبي حامد الاسفراييني الفقيه الشافعي (ت406هـ/ 1015م). كما أفاد من محدث شهير هو أبو بكر البرقاني الذي أخذه من فقيهين شافعيين هما أبو الطيب الطبري، وأحمد بن محمد الحاملي (ت415هـ/ 1024م). كما أخذ عن الكثيرين من علماء بغداد ذكرهم في تاريخ بغداد إذ روى عن بعضهم كأبي القاسم عبيد بن أحمد الأزهري، وأبو الحسين محمد بن الحسين القطان الأزرق، فقد أورد عن كل منهم ما يزيد على الألف رواية في كتابه [موارد الخطيب، ص31 ـ 33]. ولم يكتف الخطيب بالأخذ والدراسة على علماء بغداد من أدباء وفقهاء ومحدّثين ومؤرّخين، بل نراه على طريقة أهل العلم في ذلك الوقت وخاصة بغداد، فنراه يرحل في طلب العلم إلى البصرة، ونيسابور، وأصبهان، وهمدان. كما رحل إلى الشام فسمع في دمشق، وصور،

والقدس. كما سمع من علماء مكة أو القادمين إليها عندما أدى فريضة الحج إذ سمع من أبي عبد الله محمد بن سلام القضاعي وقرأ البخاري على كريمة بنت حمد المرزوية في خمسة أيام. وكانت الغاية من الرحلة كما ذكر هو تحصيل علو الإسناد ولقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة عنهم [الجامع لأخلاق الراوي، ص168 - 169].

ونرى الخطيب لا يهتم بالرحلة البعيدة فقط بل إن شغفه جعله يبحث عن الشيوخ الساكنين في مواقع قريبة من بغداد كجرجرايا، وعكبرا، وبعقوبا، والأنبار، والنهروان. وذكر أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم في كل بلد كما زار البصرة والكوفة سنة 412هـ، وزار نيسابور سنة 415هـ، ومرّ أثناء ذهابه إليها بحلوان وأسد أباد، وهمدان، وساوه، والري. ويبدو أنه أقام بنيسابور حتّى سنة 419هـ ومقصده الرئيس فيها كان أبا العباس محمد بن يعقوب الأصم. وكان معظم الذين أخذ عنهم في نيسابور هم من تلاميذ الأصم. وكانت هذه الرحلة هي الأولى للخطيب إلى المشرق، إذ إنه عاد للمشرق ثانية بعد فترة وجيزة من الرحلة الأولى. وتفسير القيام بهذه الرحلة الثانية ربّما يعود إلى أنه أراد هذه المرّة بنية مسبّقة زيارة أصفهان والأخذ عن شيخ محدّثيها في ذلك الوقت، أبي نعيم الأصفهاني (ت 430هـ/ 1038م)، وكان يحمل معه رسالة توصية من شيخه البرقاني إلى أبي نعيم، الذي استفاد منه كثيرا لأنه روى عنه في تاريخ بغداد، 589 رواية بأسانيد مختلفة. رغم هذه الفائدة الكبيرة فإنه أخذ عن شيوخ كثيرين فيها ذكرهم في تاريخه. كما زار الخطيب الدينور لكنه لم يصرّح متى تمّت الزيارة لكنه روى عن اثنين من شيوخها في التاريخ.

بعد هاتين الرحلتين يعود الخطيب إلى بغداد ويقيم فيها حتّى سنة 440هـ/ 1048م ولا يعرف الكثير عن حياة الخطيب في هذه الفترة وربّما اعتكف في هذه الفترة على الاستفادة من المادّة التي جمعها في رحلاته ودراساته في تأليف كتابه «تاريخ بغداد» مما اضطرّه للتفرّغ للعمل في الكتاب. ويستدلّ على ذلك أنه تمنّى على الله في سنة 444هـ/ 1052م أثناء أدائه الحج أن يحدث به في جامع المنصور ببغداد. وهذا يعني أن الكتاب قد تم إنجازه في ذلك الوقت.

وقد زار الخطيب دمشق مرارا في 440 - 444 - 446هـ لكن زيارته الرابعة هي الطويلة بينها، وكانت كما يبدو على أثر اضطراره للخروج من بغداد على آثر حركة الباسيري سنة 451هـ، فقد كان الخطيب على صلة وثيقة بالوزير ابن المسلمة، فعندما قتل الوزير أثناء الاضطراب السياسي الذي مرّت به بغداد إثر هذه الحركة فَقَدَ الخطيب سنده فيها فنرجح أنه غادرها هاربا، فوصل دمشق حاملا معه بعض ما تضمّه مكتبته، فخرج في بداية العام ووصل دمشق في أواخره (في يوم الأضحى من سنة 451هـ). وأقام الخطيب في دمشق حتّى سنة 459هـ وكان يعقد مجلسه للتدريس في الجامع الأموي. وقد لقي فيها بعض العنت من أتباع الدولة الفاطمية لأنه كان يحدث فيها بكتاب «فضائل الصحابة الأربعة» لأحمد بن حنبل و«فضائل العباس» لأبي الحسن بن زرقويه. وكاد أن يقتل في إحدى المرات، لولا إجارة بعض العلويين له، فتمكّن من الهرب إلى صور أوائل عام 459هـ، وكان قد زارها من

قبل فأقام فيها هذه المرّة مدّة ثلاث سنوات أي حتّى سنة 462هـ. وأثناء إقامته كان يتردّد على بيت المقدس التي كان قد زارها قبلا في سنة 446هـ. وبعد غياب طال مدة أحد عشر عاما عاد الخطيب من صور إلى بغداد أواخر سنة 462هـ. وأثناء عودته إلى بغداد أقام بدرب السلسلة بجوار المدرسة النظامية. وفي هذه الفترة حقّق منيته التي كان قد تمناها أثناء الحج في سنة 445هـ. إذ حدث بجامع المنصور بكتابه تاريخ بغداد. لكن ذلك لم يستمر طويلا إذ مرض في رمضان من سنة 463هـ فأوصى بتوزيع ثروته ووقف كتبه على المسلمين وسلمها إلى أبي الفضل بن خيرون ليتولاّها، وقد دفن في مقبرة باب حرب بجانب بشر الحافي (ت227هـ/ 841م).

شملت مصنّفاته الميادين التي أولاها اهتمامه وهي: الحديث وعلومه، والتاريخ وعلم الرجال، والفقه وأصوله، والرقائق والأدب، وبلغ مجموع مصنّفاته ستة وثمانين مصنّفًا، منها سبعة وثلاثون مصنّفًا في الحديث وعلومه، سوى علم الرجال، وخمسة وعشرون مصنّفًا في التاريخ ـ بضمنه علم الرجال ـ وأربعة عشر مصنّفًا في الفقه وأصوله، وثلاث مصنّفات في الأدب، ومصنّفان أحدهما مجهول الموضوع، والآخر قد لا تصحّ نسبته إليه وهو في الرقائق. وقد ألّف منها ستة وخمسين مصنّفًا قبل سنة 453هـ. والباقي بعد ذلك.

والمرجّح أنه لم ينجز «تاريخ بغداد» إلاّ بعد سنة 446هـ. ففي هذه السنة رجع من الحجّ ومرّ بطرابلس الشام، فلَقي فيها بلديّه «عبد الله بن محمد بن علي البغدادي» الذي حدّثه عن بعض متقدّمي العِلم عن أنهار بغداد، فأثبت «الخطيب» فصلاً عنها في مقدّمة تاريخه. وتناول فيه خطط بغداد، ثم تراجم الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة والقضاة وغيرهم من أعيانها إلى جانب المحدّثين الذين أولاهم اهتماما خاصًا. ورتّبه على أساس الحروف، لكنّه لم يلتزم الترتيب الأبجدي دائمًا، ويبدو أنه راعى نظام الطبقات ضمن الحرف الواحد وإن لم يصرّح بذلك، كما لم يلتزم به دائما، إلاّ أننا نجده يبدأ بتراجم المتقدّمين ويؤخر المتأخرين وفاةً. ورغم أنّ الترتيب على الحروف يمنع تكرّر التراجم، فإنّ ثمّة تراجم كرّرها في الأسماء ثم في الألقاب والكُنى، ولكنّه كان يختصر الترجمة في المرّة الثانية ويشير إلى تقدّمها قبل ذلك. وكان يفعل ذلك عندما يقع الاختلاف عند المؤلّفين السابقين له وينقل عنهم، فيضطرّ أن يذكر اسم صاحب الترجمة في أكثر من موضع حسب اختلاف المصادر.

ويعتبر «تاريخ بغداد» أكبر موسوعة في تراجم رجالها، وخاصة أهل الحديث، إذ بلغ مجموعهم خمسة آلاف محدّث من مجموع المترجم لهم في الكتاب وعددهم 7831 شخصًا. وذكر من طريقهم آلاف الأحاديث بالأسانيد، والكثير منها في كتب الصحاح الستّة، بل إنّ معظمها من معاجم شيوخ ومُنتخبات وأجزاء حديثية يختلط فيها الصحيح والضعيف. وقد تعقّب الخطيب بعضها وانتقدها، غير أنه لم يفعل ذلك دائمًا. ولكنْ لا بدّ من الالتفات إلى الأهمّية الفائقة للنصوص التي حفظها ونقلها عن الكتب المفقودة، خاصّة عندما ينفرد بها أو يكاد، أو عندما يقدّم عنها أوسع المقتطفات. فعلى سبيل المثال يكاد ينفرد بما اقتبسه من

مصنّفات ابن المنادي (ت 336هـ) المفقودة. ومن خلال التراجم التي جاءت في أربعة عشر مجلّدًا نقف على أسماء 446 كتابًا أُلّفت جميعا في القرون الثالث والرابع والخامس الهجرية، وفي شتّى المواضيع، وإذا قورنت هذه القائمة بكتاب «الفهرست» لابن النديم (ت 438هـ) تبيّن أنّ الخطيب ذكر 298 كتابًا لم يذكرها ابن النديم، ممّا يدلّ على أهمّية الإضافة التي قدّمها في هذا المجال، رغم أنه أهمل الإشارة إلى كثير من المصنّفات الأخرى.

وأهمل الخطيب تخريج تراجم الرياضيين، والفلكيين، والفلاسفة، ولم يستوعب تراجم رجالات السياسة والإدارة والحرب، ولا الأدباء والشعراء والمغنّين.. ولم يقدّم معلومات مفصلة عن التاريخ السياسي والعسكري ولا عن الإدارة والنواحي الاقتصادية. ومن هنا نعرف أنّ «تاريخ بغداد» ليس تاريخا شاملاً رغم غناه ووفرة مادّته عن الحياة الثقافية. ومع ذلك اختصره وذيّل عليه السمعاني (ت 562هـ)، والذهلي (ت 507هـ)، وابن المارستانية (ت 599هـ)، وابن منظور (ت 711هـ)، والذهبي (ت748هـ). أما الذي اقتبسوا عن «تاريخ بغداد» فهم كثيرون لا يمكن حصرهم.

وفي مصطلح الحديث كان دور الخطيب مبرّزًا، حيث صنّف في قوانين الرواية كتابًا سماه «الكفاية في علم الرواية»، وفي آدابها كتابًا سماه «الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع»، وقلّ فنٌّ من فنون الحديث لم يصنّف فيه كتابًا مفردًا، فكان كما قال الحافظ ابن نُقطة (ت 629هـ): «كل من أنصف عَلِم أنّ المحدّثين بعد الخطيب عيال على كتبه». وأسلوب الخطيب في بحثه عن جواز «تقييد العلم» أو النهي عنه أن يعرض النصوص مرتّبة على فصول الكتاب، ثم لا يتدخّل بين القارىء والنصوص، بل يجعل النصوص تنطق بما تريد. وحين تصدّى للكشف عن أوهام أئمّة المحدّثين وأعلام النقّاد في جمْع عدّة محدّثين تحت اسم واحد، فإنه شهد لمن سبقه في التصنيف في هذا الموضوع الهامّ، واعترف لهم بفضل السبق والعلم والفضل.

ورغم أنّ الحديث وعلومه هو الغالب على ثقافة الخطيب فإنّه أولى الفقه عناية أيضًا، فدرسه منذ صباه، وحثّ أهل العلم على تعليمه، ولم يقتصر على معرفة فروع الفقه مما يلزمه في عبادته ومعاملاته، إنّما تناول أصول الفقه أيضًا وألّف فيه كتابين، هما: «الفقيه والمتفقّه»، و«الدلائل والشواهد على صحّة العمل بخبر الواحد»، ويُعتبر كتاب «الفقيه والمتفقّه» من أهمّ كتب الخطيب بعد «تاريخ بغداد»، ولا يضاهيه سوى كتاب «الكفاية في علم الرواية» على اختلاف الفنون التي تناولتها الكتب الثلاثة، ولم يكن الأدب ببعيد عن عناية الخطيب، فقد أفاد من روايات الأدباء وأشعار الشعراء في كثير من مؤلفاته، ويبدأ واضحا في كتابيه: «البخلاء»، و«التطفيل وحكايات الطُفيليّين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم». وهو ينزع منزع القُدامى ممّن سبقوا الجاحظ (ت 255هـ) من حيث الاهتمام بجمع الأخبار وتنسيقها وضمّها في أبواب، وترك الروايات والنصوص تعبّر عن مقاصد الكتاب دون تدخّل منه بالشرح والتحليل والتعليل، وهذا هو منهج الخطيب في معظم مصنّفاته، اتّبعه في «البخلاء» رغم طبيعة مادّته الأدبية، فهو لم ينفكّ عن طبيعة ثقافته ومنهجه كمؤرّخ ومحدّث.

آثاره

1 ـ تاريخ بغداد، القاهرة، 1349هـ/ 1931م، ط2، بيروت، 1968، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997، حظي هذا الكتاب بعدّة ذيول وضعها السمعاني في (563هـ/ 1167م) وابن الدبيثي (637هـ/ 1239م)، والقطيعي (634هـ/ 1236م)، وابن النجار (643هـ/ 1245م) وكتابه أحفل الذيول إذ أدخل فيه كتابي السمعاني وابن الدبيثي وزاد، وأكمل ابن الدمياطي (749هـ/ 1348م) ما فعله ابن النجار وسماه «المستفاد من ذيل بغداد لابن النجار»، صدر في جزئين ببيروت سنة 1998؛ 2 ـ الكفاية في معرفة أصول علم الرواية، حيدر آباد 1357هـ/ 1938م، القاهرة 1972؛ 3 ـ تقييد العلم، دمشق 1949؛ 4 ـ موضح أوهام الجمع والتفريق، حيدر آباد 1378هـ/ 1959م؛ 5 ـ الفقيه والمتفقه، تح. الأنصاري، الرياض، 1389هـ/ 1969م؛ 6 ـ التطفيل وحكاية المتطفلين، دمشق 1346هـ/ 1927م، النجف، 1966؛ 7 ـ البخلاء، تح. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي وأحمد القيسي، بغداد 1384هـ/ 1964م؛ 8 ـ حديث الستة من التابعين، مطبوع؛ 9 ـ الفصل للوصل المدرج في النقل، مطبوع؛ 10 ـ شرف أصحاب الحديث، مطبوع؛ 11 ـ نصيحة أهل الحديث، مطبوع؛ 12 ـ الرحلة في طلب الحديث، مطبوع؛ 13 ـ الجامع لأخلاق الراوي وآدب السامع، مطبوع؛ 14 ـ الأسماء المبهمة في الأنباء المحجمة، مطبوع؛ 15 ـ تلخيص المتشابه في الرسم وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم، مطبوع؛ 16 ـ السابق واللاحق، مطبوع؛ 17 ـ مسألة الاحتجاج للشافعي مطبوع. . .

المصادر والمراجع

● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص68، دار صادر، بيروت 1979؛ ● العمري، أكرم ضياء، موارد الخطيب البغدادي، بيروت 1975م؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج16، تح. محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ص129 ـ 135، رقم الترجمة 3407؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد مدينة السلام، ج1، تح. مصطفى عبد القادر عطا، مقدمة التحقيق، دار الكتب العلمية بيروت، طبعة أولى 1997م؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، تح. إحسان عباس، بيروت، ص92 ـ 93؛ ● ابن الدمياطي، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، ج21 ـ 22، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، طبعة أولى، بيروت، 1998، ص38 ـ 42، رقم الترجمة 38؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام، الجزء الخاص بوفيات 461 ـ 470، تح. عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، طبعة أولى 1994، ص85 ـ 112؛ ● روزنتال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية 1983م، نشر ضمن الكتاب

«الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ» للسخاوي؛ ● الزركلي، الأعلام، ج1، ص172، دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة، بيروت 1992؛ ● السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج2، تح. مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، طبعة أولى 1999، بيروت، ص362 ـ 369؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، ج7، تح. إحسان عباس، سلسلة النشرات الإسلامية، نشر المعهد الألماني، بيروت، الطبعة الثالثة، 1991، ص190 ـ 199، رقم الترجمة 3137؛ ● بدران، عبد القادر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987م، ص399 ـ 402؛ ● ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج41، تح. عمر بن غرامه العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة أولى، بيروت 1991م، ص204 ـ 206؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، 1977، ص 101 ـ 103؛ ● الألباني، محمد ناصر، فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية، دمشق 1970م؛ ● مرجليوث، د.س، دراسات عن المؤرخين العرب، ترجمة حسين نصار، القهرة، د.ت؛ ● ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تح. رياض عبد الحميد مراد، مراجعة روحيّة النحّاس، دار الفكر، طبعة أولى، دمشق، 1984، ج3، ص173 ـ 176؛ ● ابن هداية الله، أبو بكر، طبقات الشافعية، تح. عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة 1982، ص164 ـ 166؛ ● الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم الأدباء، تح. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ج1، ص384 ـ 396، رقم الترجمة 120؛ ● العش، يوسف، الخطيب البغدادي مؤرّخ بغداد ومحدّثها، دمشق، المكتبة العربية، 1945م؛

- Brockelmann, C., Geschichte der arabischen Litteratur, 1937-42, 1943-49, Vol. I, 401, S.I. 563;
- E.I, new Edition Vol. IV, p. 11-112, Brill, 1987;
- Wustenfeld, F, Die Geschichtes-chreiber der araber und ihre werke Gotting, 1882, p. 69-70, nr.208.

د.فالح حسين
الجامعة الأردنية

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية
طرابلس ـ لبنان

البغدادي، عبد القادر بن عمر بن بايزيد

(1030هـ/1621م ـ 1093هـ/1682م)

عبد القادر بن عمر بن بايزيد بن الحاج أحمد، ولد في بغداد، وشغف منذ صباه بالتأدّب ومعرفة اللغة وإتقان الفارسية والتركية إلى جانب العربية، نزح إلى دمشق حين اشتدّ الصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية، واستولى السلطان مراد الرابع على بغداد سنة 1048 هـ. وفي دمشق درس على محمد بن كمال الدين الحسيني نقيب الأشراف، ومحمد بن يحيى الفرضي، ورحل إلى مصر سنة 1050 هـ، وهو في العشرين من عمره. وفيها تلقى علومه الشرعية وآلاتها النقلية عن مشايخ الأزهر، ومنهم: النور الشبراملّسي والبرهان الميموني وسري الدين الدروري. وكان أكثر استفادته من شهاب الدين الخفاجي، أبرز شيوخ عصره، فقد قرأ عليه التفسير والحديث والآداب، وأجازه بذلك وبمؤلفاته. والإجازة مثبتة في كتاب الخفاجي «ريحانة الألباء». كان البغدادي إذا ذكره أو ذكر الشيخ يس الحمصي يذكر كلاً منهما بلفظ «شيخنا»، وقد أمضى في مصر سنوات حافلة بالعلم والتأليف، سافر في أثنائها إلى القسطنطينية، وآنذاك أوقف اشتغاله بتأليف «خزانة الأدب»، وكان آنئذ قد وصل إلى الشاهد 669، وأقام هناك ستة أشهر عاد بعدها إلى مصر في السابع من ربيع الأول 1078 هـ. وعندما عزل إبراهيم إلى بلاد الروم أتيح له ـ وهو في طريقه إليها، أن يدخل دمشق مرة أخرى؛ كما أتاحت له إقامته في مدينة «أدرنة» الرومية أن يتصل بالوزير الأعظم أحمد باشا بن محمد كيريلي، وكان عالماً محبّاً للعلماء، وباسمه ألّف حاشية على شرح قصيدة «بانت سعاد» لابن هشام، كما اتصل بالسلطان العثماني محمد خان بن إبراهيم الذي عرف فضله وعلمه، فأهدى إليه البغدادي كتابه «الخزانة».

وفي «أدرنة» زاره المولى محمد المحبّي مؤلف «خلاصة الأثر»، وعن ذلك قال: «وكان بينه وبين والدي حقوق ومودّة قديمة، فرحّب بي، وأقبل عليّ، وكان إذ ذاك في غاية من إقبال الكبراء عليه».

وقد قاسى في سنيه الأخيرة آلام علّة شديدة، قذفت به إلى السآمة والملالة، فذهب إلى «معرة مصرين» بنواحي حلب، ثم عاد إلى بلاد الروم، وأصيب سنة 1087م برمد كاد يذهب بنور عينيه، وسافر إلى القسطنطينية سنة 1091هـ ثم إلى مصر من طريق البحر، وما لبث أن توفّي.

كان ـ كما وصفوه وكما ظهر من مصنفاته ـ «مطلعاً على أقسام كلام العرب: النظم والنثر، راوياً لوقائعها وحروبها وأيامها»، وأحسن المتأخرين معرفة باللغة والأشعار والحكايات، حفظ مقامات الحريري وكثيراً من دواوين العرب على مرّ العصور، وأحبّ اقتناء الكتب حتى قيل إنه جمع ألف ديوان من دواوين العرب العاربة، ولمّا مات الشهاب الخفاجي تملّك أكثر كتبه.

وذكر بعض من ترجموا له أنه لم ينظم شعرا ترفعا عنه، وقد نسبت إليه أبيات في هجاء طبيب يبين فيها الفحش والتكلّف.

وكان البغدادي معروفا بالفضل والوفاء واحترام شيوخه والإقرار بجميلهم. ومن ذلك أن بعضهم قال له لما رأى من سعة حفظه وقوّة استحضاره: «ما أظنّ هذا العصر سمح برجل مثلك، فقال له: جميع ما حفظته قطرة من غدير الشهاب (الخفاجي) وما استفدت هذه العلوم إلا منه».

وهو - إلى جانب أخلاقه السامية - من أكثر المصنّفين إحاطة بالمعارف واستيعابا للذخائر وقدرة على التأليف الباهر، استعان على ذلك بتجارب متنوّعة صادفها في رحلاته، وحذق بالمصادر العربية وغير العربية، لذا وصفه العارفون بأنّ «كل تآليفه مفيدة نافعة».

والملحوظ أنّ أكثر ما ألّفه اتّجه إلى التوسّع في شرح شواهد العربية والتعليق عليها والترجمة لقائليها من مثل ما صنعه في شواهد الكافية والشافية والتحفة الوردية وكذلك في حاشيته على شرح «بانت سعاد».

وإذا كان الأصفهاني في القرن الرابع الهجري قد دوّن أخبار الجاهليين والإسلاميين مستعينا بأبيات الأغاني، فإن البغدادي استعان بأبيات الشواهد ليفيض في الحديث عن فنون الأدب والبلاغة وأخبار العرب وأيامها في الجاهلية والإسلام، مع إشارات إلى اللهجات المختلفة للقبائل وذكر معاني الأمثال والأمثلة وأصولها...، دون أن يطغى ذلك على هدفه الأول، وهو تحقيق المسائل النحوية ودراستها دراسة علمية، تحرص أحيانا على الفهرسة والتبويب وكتابة المقدمات التي توضّح المنهج وتحدّد أزمنة التأليف.

واعتمد فيما صنّفه على الآلاف من المراجع كانت في حوزته، ومعظمها قد اغتالته بعد ذلك أيادي الضياع، ولم يعد لها في أيامنا وجود، ولكنّ مؤلفاته احتفظت بنصوص نادرة منها يعزّ العثور عليها، ويذكر - على سبيل المثال - ماأشار إليه فؤاد سزكين في الجزء الثاني من كتابه «تاريخ التراث العربي»، من أنه أفاد من: أشعار تغلب لأبي عمرو - ديوان عدي بن زيد - مجموع شعر أبي طالب عمّ النبيّ - شعر محمد بن بشير الخارجي بخط ابن نباتة - ديوان أبي وجزة السلمي - ديوان علي بن جبلة العكوك... الخ -، ويذكر أيضًا أنّه اطّلع عند أستاذ له على نسخة من ديوان المتنبي عليها تصويبات وتعليقات بيد المتنبي.

وكثيرا ما كان ينسخ الكتب بخطّه، ذكر أحمد زكي باشا في تحقيقه لكتاب الأصنام لابن السائب الكلبي أنّه عن مخطوط بخطّ البغدادي، وذكرت بعض الفهارس أنّ في خزائن الكتب مخطوطات بخطّه، منها «فرحة الأديب» لأبي محمد الأعرابي، و«مجمع الأمثال» للميداني، و«كتاب المعمرين» للسجستاني.

آثاره

أشهر مؤلفاته وأيسرها وأجمعها للفائدة:

1 - خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، هو موسوعة لغوية تاريخية: يقول المحبّي إنه «جمع فيه علوم الأدب واللغة ومتعلّقاتها بأسرها إلا القليل». وذكر البغدادي في مقدمته لهذا الكتاب موادّه التي عوّل عليها في شروحه وتحقيقاته، وهي مواد ترجع في مجملها إلى: علم النحو - شروح الشواهد - تفسير أبيات المعاني المشكلة - دفاتر أشعار العرب من

الدواوين والمجاميع ـ فنّ الأدب ـ كتب السير وكتب الصحابة وأنساب العرب ـ طبقات الشعراء وغيرهم ـ كتب اللغة ـ أغلاط اللغويين ـ كتب الأمثال ـ كتب الأماكن والبلدان. . . ، وأثنى المحبي على «الخزانة»، وقال إنه ملكه بالروم وانتفع به ونقل منه نفائس أبحاث لا توجد في غيره. حققه عبد السلام هارون وطبع في 13 مجلّدا سنة 1979 ـ 1983. ولعلّ أهمّ ما يميّز البغدادي أنه اعتنى بنقد النصوص وتحقيقها، مع التثبّت وإيراد كل شيء في موضعه مع اللطافة وقوّة الذاكرة؛ 2 ـ شرح الشواهد الشعرية الواردة في شرح الرضى على الشافية لابن الحاجب في الصرف»، وفيه 130 بيتا، ضمّ إليها أبيات أحمد بن الحسن الجاربَردي التي انفرد بها، وعددها 52، وطبع في القاهرة، حجازي 1358هـ / 1929 م، وفي بيروت، دار الكتب العلمية، 1395هـ / 1975 م؛ 3 ـ الحاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام، فرغ من تأليفه سنة 1082 هـ، طبع في بيروت 1400هـ / 1980 م؛ 4 ـ شرح أبيات مغني اللبيب لابن هشام، أو شرح شواهد المغني، وفيه 946 شاهدا، بدأ تأليفه سنة 1086 هـ، ثمّ توقّف عنه فترة، وأتمّه سنة 1091 هـ، وطبع في ثمانية أجزاء في دمشق 1393 ـ 1395هـ / 1973 ـ 1975 م؛ 5 ـ شرح شواهد شرح التحفة الوردية في النحو، والتحفة منظومة اختصر فيها ابن الوردي اللمحة البدرية لأبي حيان وشرحها. وقد ألّف البغدادي كتابه في حوالي 23 يوما من أيام شهر رجب 1087 هـ، وطبع في إستانبول؛ 6 ـ لغة شهنامة، شرح فيه بالتركية غريب الألفاظ الفارسية الواقعة في كتاب شاهنامه، ألفه سنة 1067 هـ، وطبع في بطرسبرج 1895 م؛ 7 ـ رسالة في معنى التلميذ، وهي بحث لغوي يؤصل مادة هذه الكلمة ووزنها وفعلها ووجوه استعمالها، نشرت لأوّل مرة في مجلّة «المقتطف»، عدد مارس 1945 م، ثمّ في سلسلة نوادر المخطوطات سنة 1951 م، ثمّ سنة 1973م.

المصادر والمراجع

● المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، مصر، 1284 هـ، الوهبية، 2/ 451 ـ 454؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، القسم الثامن، تر. محمود فهمي حجازي وعمر صابر عبد الجليل، القاهرة 1995، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص58 ـ 59؛ ● سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلدان: الأول والثاني، تر. محمود فهمي حجازي، المملكة العربية السعودية، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1403هـ/ 1983م، 1/ 270، 2/ 41، 179، 237، 274، 319، 369، 428، 429، 573؛ ● عبد السلام محمد هارون، تقديمه لكتاب خزانة الأدب، ط2، القاهرة 1979 م، الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ● فاطمة محجوب، الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية، القاهرة د.ت، دار الغد العربي، 7/ 241 ـ 245؛ ● الزركلي، الأعلام، ط14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 41.

د. محمد يونس عبد العال
جامعة القاهرة ـ مصر

البغدادي، أبو العلاء صاعد بن الحسن

(ت 417هـ/1026م)

أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي، لغوي، يرجع بأصله إلى ديار ربيعة بالموصل. روى بالمشرق عن القاضي أبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، وأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي، وأبي بكر بن مالك القطيعي، وأبي سليمان الخطابي. وقد تفقّه في اللغة والأدب، وأقام ببغداد مدّة، ثمّ بلغه أنّ اللغة بالأندلس مطلوبة، والآداب هناك مرغوب فيها من أمرائها ورعيّتها، فرحل إلى الأندلس، ودخلها في حدود سنة 380هـ/ 990م، أيام الخليفة هشام الثاني بن الحكم المستنصر بالله (366 ـ 399هـ/ 976 ـ 1008م). وكان المهيمن على السلطة في الأندلس آنذاك هو الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر. فأكرمه المنصور، وزاد في الإحسان إليه، والأفضال عليه، وأراد أنْ يعفي به آثار أبي علي القالي البغدادي، الذي كان قد وفد على الأندلس في عهد خليفتها عبد الرحمن الناصر لدين الله (30 ـ 350هـ/ 912 ـ 961م).

آثاره

كان صاعد عالما باللغة والأدب والأخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيّب المعاشرة، فنال حظوة لدى المنصور، وجمع له كتابا أسماه:

1 ـ كتاب الفصوص، نحا فيه منْحى أبي علي القالي في النوادر، وهو يحتوي على آداب وأشعار وأخبار. وقد أثابه المنصور عليه بخمسة آلاف دينار، وأمره أن يُسمعه للناس بالمسجد الجامع في مدينة الزاهرة. فاحتشد له جماعة من أهل الأدب ووجوه الناس. ولقد اتهم صاعد بالكذب في نقله، لهذا رفض الناس كتابه. ولكن رواية ابن خير الاشبيلي عن هذا الكتاب التي يوصلها إلى شاهد العيان، حيان بن خلف بن حيان القرطبي (ت 469هـ/ 1079م)، ربّما تدحض ما يُتّهم به، وليس فيها ما يشين الكتاب. وقد قرأ ابن حيان هذا الكتاب على مؤلّفه في داره سنة 399هـ/ 1008م [ابن بسام، الذخيرة، ق4، مج1، ص9، هامش 1]. وعن ابن حيان اتّصلت روايته بابن خير، بواسطة أبي محمد بن عتّاب (ت 531هـ/ 1136م). وكان صاعد البغدادي قد بدأ تأليف هذا الكتاب في ربيع الأوّل سنة 385هـ، وانتهى منه في رمضان من العام نفسه. ويوجد بمكتبة القرويين بمدينة فاس، نسخة جيدة منه.

وصنّف صاعد البغدادي أيضا كتابين آخرين للمنصور بن أبي عامر، أحدهما: 2 ـ كتاب الهَجَفْجَفُ بن غَيْدقان بن يَثْرَبي مع الخِنُوت مخرمة بن آنيف، وهوعلى طراز كتاب أبي السري سهل بن أبي غالب الخزرجي. 3 ـ كتاب الجواس بن مُعْطَل المذحجي مع

ابنة عمّه عفراء. ويشير أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، كما ينقل عنه الحميدي، إلى أنّ هذا الكتاب، هو كتاب مليح جدا، وأنّ الحاجب المنصور كان كثير الشغف به، حتّى أنه رتّب له من يخرجه أمامه في كل ليلة ويقرؤه له [جذوة المقتبس، ص 204]. ويذكر ياقوت أيضا بأنّ هذا الكتاب «لطيف ممتع جدا انخرم في الفتن التي كانت بالأندلس، فسقطت منه أوراق لم توجد بعد» [معجم الأدباء، 11/ 284].

وتروي كتب التراجم الكثير من المفارقات والنوادر التي أحاطت بوجود صاعد البغدادي في بلاط المنصور بن أبي عامر، وحضوره لكثير من المناظرات التي تحاول التأكّد من قابليته اللغوية والشعرية، والأدبية، والتي كانت غالبا ما ترجح كفته فيها على الرغم من شكوك المنصور والحاضرين، ويرجع ذلك إلى سرعة بديهته، وأجوبته الحاضرة، وقابليته على الرد. وعلى الرغم من كثرة حساده ومنافسيه الذين عملوا على الإيقاع به، واتّهموه بانتحال الشعر، وتلفيق الأخبار، ورموا كتابه في النهر، فلا يمكن إنكار دوره الحضاري والثقافي في الأندلس. وعن طريقه وصلها الكثير من الكتب والمؤلّفات من المشرق.

وبعد موت الحاجب المنصور، لم يحضر صاعد البغدادي مجلس أحد ممّن ولي الأمر من بعده، وتعلّل لهذا الغرض، بمرض لحق بساقه. وقد غادر قرطبة بسبب الفتنة واتّجه إلى مدينة دانية Daniaشرق الأندلس، وحضر مجلس أميرها مجاهد العامري، ونال فيه حظوة. ثم انتقل إلى جزيرة صقلّية، حيث توفّي فيها سنة 417هـ/ 1026م.

■ المصادر والمراجع

● الحميدي، جذوة المقتبس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، ص240 ـ 244؛ ● ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1979، ق4، مج1، 8 ـ 56؛ ● ابن خير، فهرسة ما رواه عن شيوخه، نشر، فرانشكة قدارة زيدين وخليان ربارة طرغوة، سرقسطة، 1893، أعادت نشره دار الآفاق ببيروت، 326، 406؛ ● ابن بشكوال، كتاب الصلة، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966، 1/ 237 ـ 238؛ ● الضبي، بغية الملتمس، نشر، فرانسسكو كوديرا، مدريد، 1884، ص306 ـ 311؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، بيروت، طبعة دار المستشرق، 11/ 281 ـ 286؛ ● عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح. محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط7، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1978، 50 ـ 60؛ ● القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1950، 2/ 85؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1968، 2/ 488 ـ 489؛ ● ابن حجر، لسان الميزان، ط2، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1971، 3/ 160؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت،

المكتبة العصرية، 1964، 2/ 7 ـ 8؛ ● المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، 3/ 75 ـ 84، 95 ـ 98؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ط2، بيروت، دار المسيرة، 1972، 3/ 206؛ ● بلاشير، كتب عنه بحثا في مجلّة Hersperis، العدد العاشر، 1930، ص28؛ ● ألبير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، 1967، 94 ـ 102.

د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

البغدادي، القاضي أبو محمّد عبد الوهاب بن علي

(362هـ/ 973م ـ 421هـ/ 1031م)

أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي فقيه مالكي أصولي ومحدّث وشاعر يعرف بابن نصر، ولد ببغداد يوم الخميس 2 شوّال سنة 362 هـ، من أسرة علميّة، ذلك أن أباه عليّا كان شاعرًا وأنّ أخاه محمدا كان أديبا. درس القاضي على مشاهير فقهاء عصره ومحدّثيه ومقرئيه وروى وحدّث عنهم وأبرزهم أبو مروان عبد الملك المرواني (ت 353 هـ)، وأبو محمد بن عبد اللّه الأبهري (ت 375 هـ)، وأبو عبد اللّه الحسين بن محمد العسكري (ت 375 هـ)، وأبو القاسم عمر بن محمد بن سينك (ت 376 هـ)، وعبد اللّه بن الحسين بن الجلاّب (ت 378 هـ)، وأبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين (ت 385 هـ)، وأبو الفتح يوسف بن عمر القواس (ت 385 هـ)، وأبو محمد عبد الوهاب بن محمد المعروف بابن الإمام (ت 387 هـ)، وأبو طاهر محمد بن عبد الرحمن المخلص (ت 393 هـ)، وأبو الحسن علي بن عمر القصّار (ت 397 هـ)، وأبو الحسن محمد بن عبد اللّه بن الحسن البصري المعروف بابن اللّبان (ت 402 هـ)، وأبو بكر محمد بن الطّيّب الباقلاّني (ت 403 هـ)، وأحمد بن محمد بن الصّلت (ت 405 هـ)، وأبو القاسم يوسف بن أحمد الدينوري (ت 405 هـ)، وأبو عمر القاسم بن جعفر الهاشمي (ت 414 هـ)، وأبو علي الحسن بن أبي بكر بن شاذان (ت 425 هـ).

وبعد أن أتمّ القاضي تعلّمه ببغداد انتصب بها مدرّسا فقرأ عليه عديدون برّزوا في الفقه، منهم: أبو الفضل محمد بن عبيد اللّه بن عمروس (ت 452 هـ)، وأبو بكر أحمد بن الخطيب البغدادي (ت 463 هـ)، وأبو العبّاس أحمد بن منصور الغسّاني (ت 468 هـ)، وأبو إسحاق إبراهيم الشيرازي (ت 476 هـ). ومعلوم أنّ القاضي عبد الوهّاب كان قد ارتحل عن بغداد مرّتين كانت إحداهما إلى

البلاد الحجازية لأداء فريضة الحج وقد مرّ أثناءها بمدينة دمشق حيث أقام شهرا. أمّا الأخرى فكانت إلى بلاد مصر سنة 420 هـ، وقد أشار إليها في البيت التالي [الوافر]:

قطعت الأرض في شهريْ ربيع
إلى مصر وعدت إلى العراق

[ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 221]. وقد اضطرّت القاضي إلى رحلة مصر خصاصة ألمّت به في بغداد فلم يجد بدًّا معها من الرحيل عنها على الرغم من عميق تعلّقه بها وشديد إلحاح علمائها وسادتها في سبيل إثنائه عن قراره، وكان ردّه عليهم قوله: «والله لو وجدت في بلدكم كسرتين من ذرة ما خرجت منه»، وأنشدهم قوله [البسيط] [عياض، المدارك، 7/ 223].

لا تطلبنّ من المجبوب أولادا
ولا السّرابَ لتسقي منه وُرّادا
ومن يرومُ من الأرذال مكرمة
كمن يروم من الاتبان أوتادا

يضاف إلى ما ذكر دافع ثان مفاده أنّ القاضي البغدادي نسب إلى الإمام الشافعي قوله في مرض موته: «ليتني ما خالفت مالكا» مما أثار حفيظة أتباع الإمام وعرّض القاضي للتهديد وأملى عليه الانصراف حفاظا على حياته [محمد الراعي، انتصار الفقير السالك، 298].

وفي مصر قرّ قرار صاحب الترجمة ونال حظوة لدى أهلها وأولي الأمر منهم حتى زعم بعضهم أنه قال عند وفاته بها: «لا إله إلاّ الله لمّا عشنا متنا». ودعاه إلى القيروان الشيخ أبو عمران موسى الفاسي (ت 430 هـ) فأجاب الدعوة وتأهّب للسفر بيد أنّ الشيخ أبا بكر بن عبد الرحمان عمل على ترغيبه عن القيروان لخلاف نشب بينه وبين أبي عمران فلم يكن من القاضي عبد الوهّاب إلاّ أن تراجع معرضا عن الرحلة، غير آبه للدعوة الموجّهة إليه من قبل أبي عمران ومن بعده أبي بكر وعمر ابني عبد الله بن أبي زيد، ومكث بمصر حيث تتلمذ له أبو عمران الفاسي، وأبو القاسم عبد الواحد بن علي البغدادي (ت 456 هـ)، وأبو عبد الله محمد بن شمّاخ الغافقي(ت 459 هـ)، وأبو الحسن يحيى المرسي (ت 496 هـ). وفي مصر أيضا تولّى قضاء المالكية بعد أن تولّى قبلها قضاء باذاريا وباسكايا وأسعرد والدينور، من أعمال العراق، وظلّ في تلك الخطّة بمصر إلى تاريخ وفاته بها في صفر من سنة 421هـ / فيفري - مارس 1030م وهناك دفن بمقبرة القرافة الصغرى.

آثاره

لقد جمع القاضي عبد الوهّاب بين القضاء والتدريس والتأليف فوضع ما يزيد على عشرين مؤلّفا في الفقه وأصوله أسهم بها في إثراء المكتبة العربية الإسلامية، وكانت على غاية من العمق والدقّة، وقد وصلنا بعضها وتلاشى بعضها الآخر، منها ما يلي: الإفادة، التلخيص، المفاخر، الجموع والفروق، المقدّمات، شرح التلقين، شرح المدونة، الممهّد في شرح مختصر الشيخ أبي محمد وهو منقوص ومفقود أكثره، شرح اللّمع، في أصول الفقه لأبي الفرج عمر بن محمد البغدادي، أوائل الأدلّة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمّة، عيون المسائل، النصرة لمذهب إمام دار الهجرة ذكر أنّه أتلفه أحد

قضاة الشافعيّة حرقا أو غرقا في البحر. أمّا الآثار الموجودة فمنها:

1 - التلقين، وهو من أهمّ المختصرات في فروع المالكية، شرحه مؤلفه أوّل مرّة ثمّ تداول على شرحه آخرون منهم أبو عبد الله محمد المازري (ت 536 هـ)، وأبو بكر بن العربي (ت 543 هـ)، وعبد العزيز بن إبراهيم بن بزيزة (ت 562 هـ)، ومحمد بن علي القيسي (ت. 567 هـ)، وعلي القلصادي (ت. 891 هـ)؛ 2 - الإشراف على مسائل الخلاف استعرض فيه المسائل الخلافية بين المذاهب السنّيّة وضمّنه ردوده على الخصوم ومناظرات بين أهل السنّة والمعتزلة وافتراضات للأسئلة المحتمل ترتّبها على مقاله وردوده عليها معتمدا العقل والنقل ومستندا إلى الكتاب والسّنة والإجماع والقياس وسائر أصول الفقه. طبع بتونس د.ت؛ 3 - رسالة إلى صاحب مصر، أوردها ابن بسّام [الذخيرة 4/ 2/ 520 - 521]؛ 4 - أشعار، شهد أبو العلاء المعرّي لصاحبها بالإجادة والتفوّق وذلك من خلال قوله [البسيط]:

والمالكي ابن نصْر زار في سفر
بلادَنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقّه أحيى مالكًا جدَلا
وينشر الملك الضّليل إنْ شعَرا

[ابن بسّام، الذخيرة، 4/ 12/ 16].

المصادر والمراجع

● الشيرازي، طبقات الفقهاء، ط. بيروت 1978، 168؛ ● ابن بسّام، الذخيرة، ط. ليبيا - تونس 1975، 4/ 12/ 16؛ ● عياض، ترتيب المدارك، ط. الرباط 1983، 7/ 223؛ ● الدبّاغ، معالم الإيمان، ط. تونس 1320، 3/ 118؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ط. بيروت 1978، 3/ 221؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، ط. حيدر آباد 1338، 3/ 41 - 42؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، ط. بيروت 1966، 12/ 32 - 33؛ ● محمد الراعي، انتصار الفقير السالك، ط. بيروت 1981، 298؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 184.

د. محمد الأزهر باي
جامعة الزيتونة - تونس

البغدادي ملك النّحاة، أبو نزار الحسن بن صافي

(489هـ/1096م - 568هـ/1173م)

هو الحسن بن صافي بن عبد اللّه البغدادي، أبو نزار. نحوي، فقيه، أديب.

ولد ببغداد لأب كان مولى لتاجر، وكان لا يذكر اسم أبيه إلاّ بكنيته لئلا يعرف أنّه مولى، ولعلّ لتلقيب نفسه «ملك النحاة» وسخطه على من لا يخاطبه بهذا اللّقب صلة بذلك الوضع الاجتماعي.

قرأ الفقه على الشيخ أحمد بن موسى الأُشْنُهِي، والأصول على أحمد بن علي بن برهان، وقرأ علم الخلاف على الشيخ أسعد بن أبي نصر بن الفضل الميهني. ودرس النحو على عليّ بن محمد بن الفصيحي، وسمع الحديث من أبي طالب الزّينبيّ الحنفيّ، وقرأ الكلام على أبي عبد اللّه محمد بن أبي بكر القيرواني.

درّس في المسجد الجامع ببغداد، ثمّ سافر إلى واسط، وغزنة، وكرمان، والشام، فأقام في حلب مدة، ثمّ قدم دمشق واستوطنها في رعاية الملك نور الدين محمود بن زنكي. ويبدو أنّه حلّ بدمشق مرّة أولى، فهجاه ثلاثة من شعرائها، فعاد إلى الموصل؛ لكن لم يستقرّ بها، فرجع إلى دمشق.

وقد قرأ عليه - حيث حلّ - طائفة من طلبة العلم أصبحوا فيما بعد أعلاما في عصرهم، منهم: ابن عساكر علي بن الحسن صاحب تاريخ دمشق، وابن الباقلاّني عبد اللّه بن منصور، والحسين بن محمد، وشميم الحلّي علي بن الحسن، وعثمان بن عيسى البلطي الموصلّي.

ولئن اعتبر من «أئمّة النحاة... متفنّنا في العلوم» [بغية الوعاة، 1/ 504]، فقد اتفق معظم من ترجم له على أنّه كان كثير العُجْب بنفسه والاستخفاف حتّى بأكابر العلماء والمتقدّمين؛ ممّا أورثه عداوة معاصريه من العلماء، كابن برّي، وابن الشجري، فأزروا به وبعلمه.

آثاره

توزعت مؤلّفاته على العلوم التي أتقنها وهي النحو، والفقه، والأدب. والكتب التي تذكرها المراجع له هي:

1 - المسائل العشر المتعبة للحشر، في النحو واللّغة.

ولم يسلم له من عوادي الدهر إلاّ هذا الكتاب، أمّا الكتب الأخرى فلا نعرفها إلاّ بالاسم؛ إذ لم تشر فهارس المخطوطات المتداولة إلى أماكن وجودها. وحتّى كتابه المذكور «المسائل العشر المتعبة للحشر»، لم تصل إلينا مخطوطته مستقلة، بل وصلت إلينا من خلال كتاب لابن بري هو جواب المسائل العشر، الذي يردّ فيه على ملك النحاة، كما أنّ هذه المسائل والردّ عليها وردت متفرقة في

تضاعيف كتاب «سفر السعادة وسفير الإفادة» للسّخاوي.

يضمّ الكتاب مجموعة من المسائل النحويّة واللّغويّة، ولكنّها ليست على درجة من الصعوبة والتعقيد ممّا يؤهّلها لحمل هذا العنوان.

طبعت هذه المسائل في كتاب «ملك النّحاة حياته وشعره ومسائله العشر مع ردّ العالم اللّغوي ابن برّي» بتحقيق حنا حداد، ومن منشورات جامعة اليرموك بالأردن سنة 1982.

كما طبعت ضمن كتاب الإمام ابن بري «جواب المسائل العشر»، بتحقيق محمد الدالي، إصدار دار البشائر بدمشق سنة 1418هـ ـ 1997م. ويقع الكتاب مع فهارسه ومقدّمته في 138 صفحة، ولا تزيد المسائل والردود عليها وتحقيقها على سبع وثمانين صفحة.

2 ـ الحاوي، في النحو، مجلدتان؛ 3 ـ التذكرة السّفريّة، في النحو، وهي في أربعمئة كراسة؛ 4 ـ العمد، في النحو. ويرد في بعض المصادر باسم العمدة؛ 5 ـ المنتخب، في النحو؛ 6 ـ المقتصد، في الصرف، مجلدة ضخمة؛ 7 ـ الحاكم، في الفقه الشافعي، مجلدتان؛ 8 ـ أسلوب الحقّ في تعليل القراءات العشر، في مجلدتين؛ 9 ـ مقامات ملك النّحاة، وهي خمس مقامات؛ 10 ـ العروض، كتاب مختصر؛ 11 ـ مختصر في أصول الدين؛ 12 ـ مختصر في أصول الفقه؛ 13 ـ مقدّمة في النحو؛ 14 ـ ديوان شعره.

المصادر والمراجع

● الحموي، ياقوت بن عبد اللّه، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت ط1، 1991، دار الكتب العلميّة، 2/ 493 ـ 496؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، بيروت (د.ت)، 2/ 92 ـ 93؛ ● اليافعي، عبد اللّه بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، بيروت، ط1 1997، 3/ 291، دار الكتب العلميّة؛ ● الفيروز آبادي مجد الدين، البلغة في تراجم أئمّة النحو واللغة، تح. محمد المصري، ط1 1407 ـ 1987، مركز المخطوطات والتراث، 84 ـ 85؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1384 ـ 1964، مطبعة عيسى البابي الحلبي، 1/ 504 ـ 505؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، بيروت ط1، 1406/ 1986، دار ابن كثير، دمشق، 4/ 227؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت (د.ت)، دار العلوم الحديثة، 1/ 391، 624، 628، 773، 2/ 1170، 1787، 1849؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، بيروت، (د.ت)، دار العلوم الحديثة، 2/ 475؛ ● البغدادي إسماعيل باشا، هديّة العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، بيروت (د.ت)، دار العلوم

الحديثة 1/ 279؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، ط10 ـ 1992، دار العلم للملايين، 2/ 193؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ط1، 1414هـ/ 1993م، مؤسسة الرسالة، 1/ 554.

د. ممدوح خسارة
جامعة دمشق

البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر

(ت 429هـ/1037م)

عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله التميمي، أبو منصور الفقيه الشافعي. ولد ببغداد ونشأ بها، وسافر مع أبيه إلى خراسان، وسكنا بنيسابور.

درس على إبراهيم بن محمد، أبي إسحاق الإسفراييني الأصولي الأشعري الفقيه الشافعي (ت 418هـ / 1028 م) وكان من الأئمة المعروفين وله مدرسة مشهورة بنيسابور [عيون التاريخ، 13 / الورقة، 85 أ]، قرأ عليه البغدادي أصول الدين، ومهر في فنون عديدة وخصوصًا في علم الحساب، ويذكر السبكي أنه سمع من أبي عمرو بن نجيد، وأبي عمرو محمد بن جعفر بن مطر، وأبي بكر الإسماعيلي، وأبي أحمد بن عدي [طبقات الشافعية، 5/ 137].

وقيل إنه كان يدرس في 17 فنا، وتكاملت ثقافته حتى أصبح عارفا في الفرائض والنحو والعلوم الأخرى، وكان والده ذا مال وثروة فأنفقه عبد القاهر على أهل العلم والحديث، ولم يكتسب بعلمه مالا، وبعد وفاة أستاذه أبي إسحاق الإسفراييني جلس للإملاء في مسجد عقيل فأملى سنين، ولذيوع صيته وعلمه اختلف إليه الأئمة فقرؤوا عليه. ومن تلامذته: أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله، أبو بكر (ت 458هـ / 1066م) [اللباب، ابن الأثير، 1/ 202]؛ وزين الإسلام عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري (ت 465هـ / 1073م) [البداية والنهاية، 12/ 107]؛ وعبد الغفار محمد بن الحسين بن شيرويه (ت 510هـ / 1116م) [هدية العارفين 1/ 587]؛ وناصر بن الحسين بن محمد بن علي بن القاسم المروزي (ت 444هـ / 1052م) وهو الذي تفقّه عليه البيهقي [شذرات الذهب، 1/ 273].

أثنى العلماء الذين ترجموا لعبد القاهر على علمه، فقيل فيه: «من أئمة الأصول وصدور الإسلام، بإجماع أهل الفضل والتحصيل، بديع الترتيب، غريب التأليف والتهذيب، تراه الجلّة صدرا مقدّما، وتدعوه الأئمة إماما مفخما...» [طبقات الشافعية، السبكي، 5/ 137].

وقيل عنه: الأستاذ الكامل ذو الفنون، الفقيه، الأصولي، الأديب، الشاعر، النحوي، الماهر في علم الحساب، العارف بالعروض [إنباء الرواة على أنباه الرواة، 2/ 185]، وقيل: إمام عظيم القدر، جليل المحل، كثير العلم، حبر لا يساجل في الفقه وأصوله والفرائض والحساب وعلم الكلام [طبقات الشافعية، 5/ 136]. عاش أكثر حياته في نيسابور إلاّ أنّه اضطرّ الى مفارقتها بسبب فتنة التركمانية سنة 429هـ / 1038م حتّى قيل «ومن خراب نيسابور اضطرار مثله إلى مفارقتها».

انتهت حياة عبد القاهر البغدادي عام 429هـ/ 1037م بعد أن ترك نيسابور الى مدينة إسفرايين، وهناك توفي في نفس السنة، ودفن إلى جانب شيخه أبي إسحاق الاسفراييني. هذا ما أجمعت عليه أكثر مصادر ترجمته إلا أنّ ابن شاكر الكتبي ذكر أنّها كانت سنة 420هـ / 1029م.

ونقل للذهبي عن «أبي عثمان الصابوني» قوله: «كان الأستاذ أبو منصور من أئمّة الأصول وصدور الإسلام بإجماع أهل الفضل، بديع الترتيب، غريب التأليف، إماما، مقدما، مفخما».

لأبي منصور البغدادي كتاب يسمّى «أصول الدين» يشرح عقيدة الأشعريّة في خمسة عشر أصلا تشمل: التوحيد والنبوّات، والإمامة، وأحكام الفرق الأخرى.

والكتاب يمثّل الفكر الكلامي الأشعري الذي يجمع بين العقل والنقل، ويناقش مذاهب الفلاسفة وقضايا السفسطة والجواهر والأعراض، ومسائل الحسّ والنظر.

وفي مسألة حدوث العالم يستعرض كافّة الاتّجاهات الفكريّة في حركة الأرض والكواكب، ويختار وقوف الأرض، وينقل عن أصحابه أنّ الله تعالى وقفها لا على جسم وليس الهواء المحيط لها حاملا لها، وأنّه يجوز وقوف كلّ جسم لا في مكان !!.

وتوالت بعد ذلك مباحث حول صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى. ثمّ انتقل إلى النبوّات وذكر إجماع أصحاب التواريخ من المسلمين على أنّ أعداد الأنبياء عليهم السلام مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا كما وردت به الأخبار الصحيحة !!.

ثمّ تكلّم عن تشريعات الإسلام ما اتّفق عليه وما اختلف فيه، وبيّن أنّ إنكار ما اجتمعت الأمّة عليه من نصّ من القرآن والسنّة كفر، وأنّ مخالفة شيء ممّا اختلف فيه سلف الأمّة ليس كفرا.

وأتبع ذلك بالحديث عن أحكام التكليف والأمر، ثمّ وصل إلى أحكام العباد في المعاد والبعث، وما يعاد من الأجسام والأرواح، والحيوانات، وحكم الأطفال ومن لم تبلغه دعوة الإسلام، وبيان من يقطع بإيمانه من أهل الإيمان.

ثمّ شرع في أحكام الإمامة وشروط الزعامة ونقل عن الجمهور الأعظم من أهل السنّة والمعتزلة والخوارج أنّ طريق ثبوت الإمامة الاختيار من الأمّة باجتهاد أهل الاجتهاد منهم واختيارهم من يصلح لها، وأنّه كان جائزا ثبوتها بالنص، غير أنّ النصّ لم يرد فيها على واحد بعينه، فصارت الأمّة فيها إلى الاختيار.

واختتم البغدادي كتابه هذا بتكفير سائر الفرق المخالفة لمذهبه وأوجب قتلهم بعد امتناعهم عن التوبة، إلاّ أنّه أوجب ذلك على السلطان وليس للرعيّة إقامة الحدّ على المرتدّ.

وقد اشتهر البغدادي كذلك بكتاب في الرياضيات سمّاه «التكملة في الحساب». وله كتاب آخر سمّاه «كتاب في المساحة» أوجز فيه قواعد إيجاد مساحات المثلّثات والأشكال الرباعية بمختلف أنواعها وكذا الدوائر. كما تناول فيه قواعد إيجاد حجوم الأشكال المنظمة. وعلى الرغم من أنه أخفق في إعطاء القاعدة الصحيحة لإيجاد مساحة قطعة الدائرة فإنه يعدّ من القلائل ـ من بين علماء العرب والمسلمين القدامى ـ الذين قدّموا القاعدة الصحيحة التي تعطي حجم الكرة ومساحتها. والملاحظ أنه يسمّي الأجسام الثلاثية الأبعاد جثثا، ويسمّي السطوح المستوية بسائط. ويتّضح من قراءة «التكملة في الحساب» أنّ البغدادي، على غرار بعض سابقيه، لم ينشغل كثيرا بتدقيق المصطلحات العلمية وتوحيدها.

ويعتبر مؤرّخو الرياضيات كتاب «تكملة الحساب» مؤلفا بالغ الأهمّية لسببين هما:

أولا: لما احتواه من نتائج أصيلة في نظرية الأعداد.

ثانيا: لما ورد فيه من تعاليق ومعلومات سمحت لمؤرّخي العلوم بتسليط الضوء على بعض النصوص المفقودة في كتابات للخوارزمي. فقد أورد ابن طاهر البغدادي مثلا مسألة في الزكاة قال بشأنها إنّ الخوارزمي ذكرها في كتابه «الجمع والتفريق»، وهو كتاب يعتقد أنه مؤلف آخر غير كتاب «الحساب الهندي» المفقود باللغة العربية. وما يرجّح هذا الاعتقاد أنّ للخوارزمي كتابا في الجبر يضمّ فصولاً عن الوصايا والتركات وغيرها لكنه لا يحتوي على فصل في الزكاة.

ويتناول كتاب «التكلمة» أنظمة الحساب التي انتشرت في العالم الإسلامي عندما بلغ أوج عطائه الفكري، وقد استعرض المؤلف فيه مفاهيم ونتائج في نظرية الأعداد وصل بعضها للعرب من الإغريق، لكنه قدّم إلى جانب ذلك نتائج أصيلة. واعتنى البغدادي بتقديم تلك المعلومات في قالب يجعل من هذا الفرع الرياضي نظاما حسابيًا متكاملا.

وقد حقّق مؤرخ الرياضيات العربية أحمد سليم سعيدان كتاب «تكملة الحساب» عام 1985 استنادا إلى مخطوطتين، إحداهما برقم 1/ 2708 موجودة في مكتبة لاللي في تركيا تقع في 102 صفحة. والأخرى برقم 1/ 793 في دار الكتب المصرية بالقاهرة وتقع في 85 صفحة، فُقدت إحدى صفحاتها. ولم يذكر اسم أيّ من الناسخين. وتاريخ النسخ غير واضح في المخطوطتين. كما حقّق سعيدان الكتاب في المساحة للبغدادي في نفس المؤلف الذي حقّق فيه كتاب «التكملة»، وهذا استنادا إلى مخطوطة توجد في مكتبة لاللي برقم 2/ 2708 وتقع في 19 صفحة، وهي بخطّ نفس الناسخ الذي نسخ مخطوطة «تكملة الحساب» في مكتبة لاللي.

وأولى المؤرخون أهمّية بالغة لكتاب «التكملة في الحساب» حيث يعتبر الحساب علما ذا مكانة خاصّة في المجتمع الإسلامي، إذ تدخل تطبيقاته في قسمة المواريث

والتركات، وقضاء الديون، وضبط المعاملات التجاريّة، والمساحات الزراعية وغيرها. ولذلك أحاطه علماء العرب والمسلمين بعناية كبيرة. ومن بين الأوائل الذين ألفوا فيه الخوارزمي في كتابه «الجمع والتفريق»، والبغدادي، في «تكملة الحساب». يقول البغدادي في مقدمة هذا الكتاب: «لقد نظرت في الكتب الحسابيّة فوجدتها نوعين: أحدهما على حدّ الاستقصاء في أبوابه دون فصوله، والآخر على حدّ الاختصار الذي يعرفه الماهر في الحساب دون المبتدىء فيه، فألفت هذا الكتاب جامعا لأصول حساب اليد وأبواب حساب التخت، وشرحت فيه رسوم أهل الحساب.. [سعيدان، التكملة، 20]. ويذكر الكاتب أنّ مؤلّفه يُنْتَفَع به في أبواب الزيج وتقويم الكواكب ومعرفة المساحات والارتفاعات والساعات وتحديد المساحات والفرائض والمواريث والوصايا والديون والأرباح والزكوات وسائر المعاملات.

ويقول السبكي عن عبد القاهر بن طاهر البغدادي عندما أرغمته الحياة على مغادرة مدينة نيسابور: «ومن حسرات نيسابور اضطرار مثله إلى مفارقتها». لا شك أن تلك الحسرات كانت صادقة لما تميّز به هذا الرجل من عمق في المعارف الدينية والرياضية.

آثاره

1 ـ التكملة في الحساب، تح أحمد سليم سعيدان، الكويت 1985، معهد المخطوطات العربية؛ 2 ـ كتاب في المساحة، تح. أحمد سليم سعيدان، في كتاب «التكملة في الحساب»، لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، الكويت 1985، معهد المخطوطات العربية؛ 3 ـ كتاب أصول الدين، مطبوع في 184 صفحة، ومن آخر طبعاته طبعة صدرت عام 1997؛ 4 ـ الفرق بين الفرق، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، مصوّرة، بيروت، دار المعرفة؛ ـ الفرق بين الفرق، وبيان الفرقة الناجية منهم، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق، بيروت 1987، دار الجيل.

ويذكر حاجي خليفة في كشف الظنون أنّ للبغدادي مؤلفات أخرى منها: 5 ـ تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر؛ 6 ـ تأويل متشابه الأخبار؛ 7 ـ نفي خلق القرآن؛ 8 ـ الإيمان وأصوله؛ 9 ـ بلوغ الجدى (أو الجدا) عن أصول الهدى.

المصادر والمراجع

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 48؛ ● أبو منصور البغدادي، أصول الدين، بيروت، دار الكتب العلميّة؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، 12/ 44؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، القسم الرابع، ترجمة محمد عوني وآخرين، القسم الرابع/ 24؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. سعيد الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 17/ 572؛ ● السبكي، طبقات الشافعيّة الكبرى، 5/ 136؛ ● أبو منصور البغدادي، الفرق بين الفرق، تح. الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 3/ 203؛

- طوقان، حافظ، تراث العرب العلمي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ودار الشروق، صدرت الطبعة الأولى عام 1941، بيروت د.ت؛
- Youschkevitch, A.P, Les mathématiques arabes (VIII-XV siècles), Trad. Cazenaze, M. & Jaouiche, K., Vrin, Paris, 1976;
- O' Connor J.J, & Robertson, E.F., AlBaghdadi, In http://www-history.mcs.st-andrews.ac.uk/history/Mathematicians/Al-Baghdadi, hlml.

د. أبو بكر خالد سعد الله
المدرسة العليا للأساتذة ـ الجزائر
د. مزاحم علاوي الشاهري
جامعة الموصل ـ العراق
د. محمد المسيّر
جامعة الأزهر ـ القاهرة

البغدادي، موفّق الدين أبو محمد عبد اللطيف

(557هـ/1161م ـ 629هـ/1231م)

هو موفّق الدين، أبو محمد، عبد اللطيف ابن يوسف بن محمد، الموصلي الأصل، البغدادي، موسوعي، اهتمّ بفنون عديدة، الطب، والفلسفة، والحديث، واللغة.

ولد عام 557هـ/ 1162م في بغداد، كان قصير القامة نحيفا ضعيف البنية وقد كني بـ «ابن نقطة» وكقه جي زادة، وابن الأبّاد، وهو من عائلة مثقّفة من مدينة الموصل. وكان والده يوسف عالما في القرآن والحديث، وعمه سليمان عالما في الفقه بصفة خاصة. وقد ذكر ابن أبي أصيبعة وهو أحد معاصريه في كتابه «عيون الأنباء» أنه بدأ في طلب العلم منذ نعومة أظفاره. وبعد أن حفظ القرآن الكريم درس الحديث والفقه وعلم اللغة، ودرس أمهات الكتب الأدبية ونال في ذلك الإجازة. وفي سبيل توسيع معارفه وعلومه تنقل بين مراكز العلم والثقافة في عصره، وقد شارك في المناظرات والملتقيات العلمية في الأماكن التي زارها.

وبعد أن درس العلوم العقلية والفلسفية عن العالم ابن طظلي (ابن نائلي) الذي قدم من المغرب إلى بغداد قرأ كتب ابن سينا، وبهمنيار، والغزالي، وجابر بن حيان وانتقل إلى الموصل في عام 585هـ/ 1189م وتعرّف على كمال الدين بن يونس العالم المشهور في عصره وأخذ عنه العلم. ونجد من أساتذته أيضا ابن فضلان، وأمين الدولة، وابن التلميذ، والأنباري، وأبا زرعة القدسي.

وأثناء وجوده في الموصل كان عبد اللطيف البغدادي يدرّس في مدرسة ابن مهاجر وفي

دار الحديث، وقد كانت بالنسبة إليه مناسبة ليطلع على كتب شهاب الدين السهروردي المقتول وقد انتقد بعد ذلك هذا الفيلسوف الإشراقي بلغة حادة وعنيفة. وفي عام 585هـ/ 1190م انتقل إلى دمشق وناظر تاج الدين الكندي، وأثناء وجوده فرض مكانته العلمية المرموقة في وقت قصير.

وبعد عام من ذلك اتّجه إلى القدس ومنها إلى عكّا ليلتقي بصلاح الدين الأيوبي الذي كان يقيم هناك، بيد أنه لم يتمكّن من الالتقاء به لانشغاله بالاستعداد للحرب فالتقى ببهاء الدين بن شداد، وعماد الدين الكاتب، والوزير القاضي الفاضل وغيرهم، وياسين السيميائي، والفيلسوف اليهودي المشهور بابن ميمون وغيرهم من علماء عصره وأدبائه.

ومن بين هؤلاء الذين تعرّف عليهم البغدادي نجد أبا القاسم الشاعري الذي أولاه اهتماما خاصا ودرس عنه شروح الفارابي، والإسكندر الأفروديسي، وثمتيوس لكتب الأفلاطوني الجديد أرسطو. وفي عام 588هـ/ 1192م عاد البغدادي مجددا من القاهرة إلى القدس. وبعد أن التقى بصلاح الدين الأيوبي وأحفاده. وأثناء وجوده في القاهرة (1199-1201م) درس الطب في الأزهر، واشتغل بالتأليف، وفي هذه السنوات شهدت مصر قحطا وعاش الشعب المصري حالة من البؤس المادي والمعنوي، وقد شرح هذه الأزمة الاقتصادية والاجتماعية بشكل مفصل في كتابه المشهور «الإفادة والاعتبار».

وفي عام 603هـ/ 1206م درّس في الأقصى بالقدس، وفي السنة التالية درّس في مدرسة العزيزية بدمشق، وكانت أكثر دروسه هنا في مجال الطب، كما أنه ألّف أهمّ كتبه المتعلّقة بالطب في دمشق. ومن بين الذين درسوا عنه الطب والد ابن أبي أصيبعة، وقاسم بن خليفة، وعمه رشيد الدين علي بن خليفة، وطبيب الملك العادل رشيد الدين بن علي الصوري.

وقد ذكرت المصادر أنه بين سنوات 1220-1229م قام بزيارة شملت أهم مراكز الأناضول في تلك الفترة مثل أرضروم، وأرض نجان، وكماه، ومالطا، وديفريمي وسني. وفي هذه الأثناء كان تحت حماية أحد أبناء منكوجوك وهو علاء الدين داوود بن بهرام، ولهذا السبب فقد أهدى إليه كثيرا من كتبه. وقد كانت حياته مفعمة بالنشاط العلمي. وفي عام 626هـ/ 1229م عاد عبد اللطيف إلى حلب، وبعد سنوات قضاها في حلب عزم على أداء فريضة الحج، وفي طريقه مرّ بموطنه ومسقط رأسه بغداد بيد أنّ الأجل وافاه بعد فترة قصيرة إذ توفي بها في 626هـ/ 9 نوفمبر 1231م.

وقد اشتغل البغدادي في البداية بعلم الكيمياء (السيمياء) وبعد أن توصل إلى قناعة ببطلان هذا العلم تركه، ووقف بالمرصاد لكل من يعمل به، ومن بين هؤلاء ياسين السيمياني. وكان يقول إنه خدع بما كتبه ابن سينا في هذا الموضوع، ولم تذكر لنا المصادر صلاته بالأساتذة والطلبة عندما كان يدرّس الطب في دمشق والقاهرة مثل: ابن النقاش، وابن المطران، ومهذب الدين الدخوار، وابن جميع، وابن ميمون، وابن المدوّر وبصفة خاصة ابن أبي أصيبعة. وإذا كان بعض المؤلفين يذكرون أنه لم يتبنّ أي مدرسة في

الفلسفة المشائية الأرسطية، ذلك أنه ألّف حول كتابات أرسطو في الفيزياء والميتافيزيقا وعلم النفس، والطبيعيات، فاختصر بعضها وشرح بعضها الآخر في الحواشي. وإضافة إلى هذا فقد كتب شروحات وحواشي حول كليات الفارابي في المنطق ورد نظرية ابن سينا بأنّ «المبادئ المشروطة تقود إلى نتائج مشروطة» كما رفض «القياسات الشكليّة الرابعة».

وقد كتب أهم مؤلفاته متأثرا بكتاب «ما وراء الطبيعة» لأرسطو، وهذا الكتاب كان له تأثير كبير في العالمين الإسلامي والمسيحي في القرون الوسطى، وهذا يبيّن أنّ البغدادي بقي فيلسوفا مشائيا مرتبطا بمدرسة ابن سينا والفارابي المتأثّرين بالأفلاطونية الجديدة.

ولم يكن في مجال نقله يردد ما قاله السلف بل مارس التجربة وكان صاحب نظريات علمية جارى بها كبار فلاسفة اليونان، وعلماء التشريح، وأساتذة الطب، ويكفي أن نقرأ رحلته في مصر التي وصلت إلينا بعنوان «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» لنقف على مدى رسوخ قدمه في العلم.

فرحلته لم تكن لمجرّد التنزّه ووصف البلاد والمعالم التي يمرّ بها، بل هو رحّالة عالم، محلّل، لا يكتفي برؤية الأشياء وذكرها دون أن يدرس طبيعتها، ويبيّن ماهيّتها وخاصيتها، ويقارن بينها وبين أمثالها في بلاد أخرى، ويُجري عليها بحثا علميا منهجيّا، يناقش فيه نظريات العلماء والمفكّرين، ويُجري بنفسه التجارب ليؤكّد صواب رأيه وخطأ نظريات الآخرين.

فلقد صادف زمان رحلة البغدادي في مصر في أواخر القرن السادس الهجري حدوث مجاعة رهيبة عظيمة ألمّت بمصر تحدّث عنها المؤرّخون بإسهاب، فلم يشأ أن يكون مقلّدا لهم في وصفهم لهذا الحدث الخطير والمروّع، بل وجد فرصة لإعمال فكره ومنهجه العلمي التجريبي حين كانت الجثث تملأ النيل والطرقات، فراح يدرس العظام البشريّة عظمة عظمة، ويقارن تركيب الجسم البشري بما ورد في كتب الأطبّاء اليونان والعرب، ليخلّص بنتائج مؤداها أنّ بعض هؤلاء الأطباء قد أخطأوا، فالمعاينة والمشاهدة والدراسة الواقعيّة أقوى من كلّ النقولات مهما كان مصدرها. إذ عندما عاين مياه النيل وساءه ما فيه من عفن بسبب عدم جريان الماء لانخفاض مياه النيل، قرّر أنّ تسخين هذا الماء أو غليه لا يخلّصه ممّا فيه من شوائب لغلبة العفن على الماء. وفي هذه الحالة فهو يفضّل مياه الآبار.

وعند وصفه لنباتات مصر أظهر قدرة كبيرة على التأمّل، وكتب فصلا جيّدا عن الحياة الحيوانية ضمّنه معلومات عرضيّة يمكن أن يتصيّدها القارئ من بين فيض من الكتابات في مجالات أخرى، أو يتصيّدها من بين استطرادات لا حصر لها، وقد رتّبها وجعل لها فصولا بعينها، ممّا يؤكّد منحاه العلمي، وهو يقدّم فكرة جيّدة وواضحة عن الأسلوب العلمي الذي اتّبعه العرب لإيجاد أدلّة يؤيّدون بها ما يقرأونه في الكتب، وهي طريقة تدلّ على استقلالهم في الرأي، ووسائلهم العلمية الصحيحة، وعدم خضعهم لحجج «جالينوس» أو غيره، فأفصح هو بجلاء عن أهمّية

المشاهدة ودقّة التحرّي، أولا، كما كان يفعل «رشيد الدين الصوري» (ت 639هـ) عند تصوير النبات.

ويُظهر البغدادي تفوّقه في مجال التشريح على جالينوس، وأثبت بكل جلاء أنه كان أوّل من انتقده نقدا صريحا، مُظهرا خطأه في تشريح الإنسان، معتمدا على المشاهدة والفحص، إذ كان المتعاطون للطب وصلوا إلى كتاب جالينوس في التشريح فعسر عليهم فهمه لاقتصاره على القول دون العيان، فقام البغدادي باصطحابهم لمعاينة المسألة على الواقع الحسّي، إذ كان في «المقس» تلّ عليه رمم كثيرة «فخرجنا إليه فرأينا تلاّ من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه من الموتى به، نحدّس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفا فصاعدا، وهم على طبقات في قرب العهد وبعده. فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علمًا لا نستفيده من الكتب، إمّا أنها سكتت عنها، أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه، أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها، والحسّ أقوى في الدلالة من السمع. فإنّ جالينوس، وإنْ كان في الدرجة العليا من التحرّي والتحفّظ فيما يباشره ويحكيه، فإنّ الحسّ أصدق منه.

فمن ذلك عظم الفكّ الأسفل، فإنّ الكل قد أجمعوا على أنه عظمتان بمفصل وثيق عند الحنك. وقولنا الكلّ إنّما نعني به هاهنا جالينوس وحده، فإنه الذي باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه، وصنّف فيه عدّة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب.

والذي شهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا، واعتبرنا ما شاء الله من المرّات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف من الاعتبارات، فلم نجده إلاّ عظما واحدا من كل ما شاهدناه منه وحكيناه. وكذلك في أشياء أخرى غير هذه. ولئن مكّنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي فيها ما شاهدناه وما علمناه. ثم اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدّم ذكرَها فوجدته على ما حكيت، ليس فيه مفصل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفيّة والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرّق. وهذا الفكّ الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلاّ قطعة واحدة».

نحن إذا، لسنا أمام رحّالة يجوب البلاد، ويحكي الأخبار، ويصف الأماكن، ويروي قصصا وحكايات، بل أمام عالم فذّ، وأمام فيلسوف، وطبيب، متكلّم بليغ، ومنطقي، وأمام محدّث وحكيم، وأستاذ في الحساب، واللغة، وعلم النفس، والقياس، والعلوم الطبيعية، والإلهيات، تدلّ على ذلك مؤلفاته المتنوّعة، ومناظراته العديدة مع علماء عصره.

■ آثاره

تحتل آثاره حيّزا كبيرا في المصادر الكلاسيكيّة، وأغلب مؤلّفاته في شكل رسائل وتبلغ 160 رسالة وهي كالآتي:

ثلاث وخمسون في الطب والصيدلة، وأربع في علم الحيوان، وأربع في علم النباتات، وعشرون في علم المنطق، وثماني عشرة في الفلسفة وثلاث عشرة في النحو، وثماني

رسائل في الحديث، واثنتان في التفسير، واثنتان في الفقه، واثنتان في الكلام، وعشر في المناهج والتاريخ، وأربع رسائل في الأخلاق والسياسة. أمّا بقيّة الرسائل فهي في مواضيع مختلفة ومتعدّدة مثل علم اللغة، والنقد الأدبي، والرياضيات، ومذكرات، ورحلاته، وعلم المعادن، بيد أنّ ما وصلنا من هذه المؤلفات المذكورة في المصادر كان قليل العدد:

1 ـ الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة، وكتابه هذا يعتبر أشهر كتبه في العالم الإسلامي والغرب، أهداه إلى الخليفة الناصر لدين الله. وقد ألف هذا الكتاب عندما كان يقيم في القاهرة، وهو كتاب صغير الحجم ولكنه ثري فيما احتوى عليه من معلومات، فهو يقدّم معلومات قيّمة فيما يتعلّق بوضع مصر في تلك الفترة من الناحية الجغرافية والطوبوغرافية والاجتماعية والاقتصادية.

والكتاب يتكوّن من قسمين (مقالتين)، يحتوي القسم الأول على ستة فصول وأمّا القسم الثاني فيحتوي على ثلاثة فصول. ويذكر في الفصل الرابع من القسم الأول معلومات خاطئة تتعلّق بأمر عمر بن الخطاب (بحرق الكتب الموجودة في مكتبة الإسكندرية)، وقد شكلت هذه المعلومات مصدرا للمؤرّخين اللاحقين كما استغلت من قبل الطاعنين في الحضارة الإسلامية. غير أنّ هذه الرواية تبيّن بطلانها في القرن التاسع عشر عن طريق بعض الباحثين الغربيين المطّلعين فبيّنوا أنّ هذه الرواية لا تتفق مع الحقائق التاريخيّة وإنّما يمكن أن تكون دسّت من قبل الصليبيين بهدف الإساءة إلى المسلمين، وأثبتوا بما لا يدع مجالا للشك أنّ هذه المكتبة احترقت عام 47 قبل الميلاد أثناء تخريب مدينة سيزار.

وقد تضمّن كتاب «الإفادة والاعتبار» معلومات مهمّة بشأن الآثار الرومانية واليونانية القديمة الموجودة في مصر وبشكل خاص في الجيزة، وبوصير، وعين شمس، والإسكندرية. وقد أثار الكتاب اهتمام الباحثين الغربيين منذ وقت مبكّر. ففي عام 1636 عندما كان المستشرق الإنجليزي إدوارد بوكوكه Edward Poocoke عائدا من حلب حمل معه نسخة الكتاب بخط مؤلفه وقدمه إلى مكتبة بودلين في أكسفورد وترجمه إلى اللاتينية، وبعد أن نشرت هذه الترجمة بنصّها العربي بواسطة توماس هيد، أوكسفورد 1702، نشرها جوزيف وايد بنصها مرة أخرى، توبينغن 1787، وقد شرع حفيد بوكوكه في ترجمتها من جديد إلى اللاتينية إلاّ أنه مات قبل أن يكملها، وأتمها وايد ونشرها مع متنها العربي، أكسفورد 1800. وتعتبر ترجمة أنطوان إسحق سلفستر دو ساسي إلى اللغة الفرنسية هي الأفضل حيث نشرت مع متنها العربي وهوامشها، باريس 1810.

وقد طبع كتاب «الإفادة والاعتبار» في القاهرة عام 1286هـ. كما نشره كذلك سلامة موسى في كتابه «عبد اللطيف البغدادي في مصر»، القاهرة 1353هـ. وقد كان عمله تجاريا. كما ضمن الكتاب في مؤلف بول جاليونجي Ghalioungui Paul والذي أسماه «عبد اللطيف البغدادي طبيب القرن السادس الهجري»، القاهرة 1958، ص65-152، وقد كانت تكرارا لطبعتين الأخيرتين.

وبعد أن نشرت النسخة المخطوطة والموجودة

في مكتبة بودلين وبتقديم من جون فيديان، لندن 1962، قام مع كمال هافوت زاند وإيفي فيديان بترجمته هذا الكتاب إلى الإنجليزية ونشر متضمّنا النص العربي، لندن 1965، كما نشر الكتاب من قبل أحمد غسان سابانو، دمشق 1403هـ/ 1983م، إلاّ أنه إلى جانب بعض الهوامش البسيطة لم يختلف عن الطبعات السابقة، وقد نشر الكتاب في عمل جاد عن طريق علي محسن عيسى مال الله، المورد XIII/ 1-2، بغداد، 1984، ص163-182؛ 2 ـ الطب من الكتاب والسنة، نشره عبد المعطي أمين القلعجي، بيروت، 1988؛ 3 ـ كتاب الأربعين الطبية، نشر كمال يوسف الحوت، بيروت 985هـ/ 1405م؛ 4 ـ غريب الحديث؛ 5 ـ المجرّد، مختصر من غريب الحديث؛ 6 ـ الواضحة في إعراب الفاتحة، نحو 20 كراسا؛ 7 ـ الألف واللام؛ 8 ـ كتاب رُبَّ؛ 9 ـ كتاب في الذات والصفات الذاتية الجارية على ألسنة المتكلّمين، وهو ردّ على الكندي البغدادي (ت 613هـ)؛ 10 ـ قوانين البلاغة؛ 11 ـ الإنصاف بين ابن برّي وابن الخشّاب في كلامهما عن المقامات؛ 12 ـ الجامع الكبير في المنطق الطبيعي والإلهي، زهاء 15 مجلّدا؛ 13 ـ الكلمة في الربوبية؛ 14 ـ الحكمة الكلامية؛ 15 ـ تهذيب كلام أفلاطون؛ 16 ـ المنحى الجليّ في الحساب؛ 17 ـ التجريد في اللغة؛ 18 ـ شرح أحاديث ابن ماجة المتعلّقة بالطب؛ 19 ـ مختصر الحيوان للجاحظ؛ 20 ـ كتاب في النبات؛ 21 ـ رسالة في النفس؛ 22 ـ رسالة في العلم الإلهي؛ 23 ـ رسالة في الماء؛ 24 ـ حقيقة الدواء والغذاء؛ 25 ـ رسالة في الحواس؛ 26 ـ المدينة الفاضلة، اللغة وكيفية تولّدها؛ 27 ـ القدر؛ 28 ـ شرح: بانت سعاد؛ 29 ـ ذيل الفصيح؛ 30 ـ خمس مسائل نحوية؛ 31 ـ شرح مقدّمة بابشاد؛ 32 ـ شرح على الفخر الرازي في تفسير سورة الإخلاص؛ 33 ـ شرح نقد الشعر، لقدامة؛ 34 ـ مسألة أنت طالق في شهر قبل ما بعد قبله رمضان؛ 35 ـ قبسة العجلان، في النحو؛ 36 ـ اختصار العمدة، لابن رشيق؛ 37 ـ مقدمة حساب؛ 38 ـ كتاب الفصول في الحكمة؛ 39 ـ شرح التقدمة، لبقراط؛ 40 ـ اختصار كتاب الحيوان، لأرسطوطاليس؛ 41 ـ أخبار مصر الكبير.

ويذكر Stern M. S أنّ لعبد اللطيف البغدادي رسائل في مكتبة حسين جلبي في بورصة (تحت رقم 823)، وهي كتاب النصيحتين، ورسالة في مجادلة الحاكمين الكيميائي والنظري، ورسالة في المعادن وكشف شبه أهل الكيمياء، ورسالة للإسكندر في الفصل، ومقالة في المراذل المسماة بالديابيتيس، وغيرها من الرسائل، كما قدم معلومات حول محتويات الرسائل وأهمّيتها.

وقد نشرت المقالتان الأخيرتان، وهما:

A Collection of treatise by Abdal-Latif al-baghdadi islamic studies, I/1, Karachi 1962, s. 53-73.

مقالتان في الخواص والمسائل الطبيعية ورسالة للإسكندر في الفصل ورسالة في المراذل المسماة بالديابيتيس بواسطة بول جاليونجي، وسعيد عبده، الكويت 1972.

وإذا كان الطبيب الصيني ليهصوان هو الذي قام بالبحوث المتعلّقة بمرض السكر وذلك في

القرن التاسع [انظر ISIS LXIV/222، 1973، s. 233]. فإنّ عبد اللطيف البغدادي هو أول من اكتشف علاقة مرض السكر بالكبد، وقد ترجمت مقالته المتعلّقة بمرض السكر من قبل Thies Jurgen-Hano إلى اللغة الألمانية: «Der Diabetestraktat Abdal-Latif al-Baghdadi, Bonn 1971».

■ المصادر والمراجع

● القفطي، أنباه الرواة، نشر محمد أبو الفضل، القاهرة 1369- 93/ 1950 - 73، II، 193-196؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، تح. نزار رضا، بيروت، 1965، ص683-696؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، XXII، 320-323؛ ● الكتبي، فوات الوفيات، تح. إحسان عباس، بيروت، 1973-1974، II، 385 388؛ ● السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح. عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة، 1383-1964، 96-76، VIII، 313؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل، القاهرة 1384هـ/ 1964م، II، 106-107؛ ● كراشوفسكي Kracovsky. A، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، موسكو، ص 344-348؛ ● منتصر، عبد الحليم، الإفادة والاعتبار، موسوعة تراث الإنسانية، القاهرة، I، Ts، 116-122؛ ● شحادة، عبد الكريم، البغدادي الأثري العربي الرائد، عاديات حلب، حلب 1977، III، 177-199؛ ● م.ن، أضواء على الطبيب العربي والعالم الموسوعي عبد اللطيف البغدادي، أبحاث الندوة الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، حلب 1977، I، 396 734؛

- Manfred Ullmann, Die Medizin in islam 1970, s, 170-172, 278-279; • George Sarton, Introduction to History of Science, New York 1975, II/2, s. 599-600; III/2, s. 1960; • Fuat Sezgin, Geschichte des Arabischen Schriftums, III, 30-31, 33, 411, IV, 9-10, 289, VI, 100, VII, 143-144; • Garry-J. Tee On Sami Hamernch, Rewev of der Diyabetesraktat. Abd, al-Latif, ISI, LXIV/222 (1973), s. 232; • Shawkat Mahmood Toorwa, The education Quarterly, XIII/3, Cambridge 1996, s. 35-53; • S. M. Stern, Abd al-Latif al Baghdadi, Encylopaedia of ISLAM, I, 74; • Mahmut Kaya, Abdüllatif el-Baghdadi, Türkiye Dianet vakfi islam Ansiklopedisi, Istambul 1987, I, 254.

د. أحمد أوزال
مركز الداراسات الإسلامية - اسطنبول
ترجمة مصطفى بن الطاهر الستيتي - تونس
د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

البُغدي، أبو سعيد فخر الدين بن شرف الدين

(634هـ/1234م ـ 685هـ/1286م)

ولد في عام 631 الموافق لعام 1234 في الحلة. ووالده هو شرف الدين علي أمير الحلة، وجده هو جمال الدين كشتمير، ميرزوبان العراق (أمير حدود العراق). توفي والده وهو في الخامسة من عمره، واستدعي إلى سراي الخلافة في حماية جده. وألبسه الخليفة المستنصر بالله الخلعة، وأمر بأن يكون قائدا على فرقة من المشاة تتكون من خمسين شخصا، وأصبح بذلك من أعيان الدولة، وذلك في محاولة منه لتخفيف آلام جمال الدين كشتمير الذي فقد ابنه وهو في مقتبل العمر. وهكذا تلقى البغدي تعليما في الإمارة، وأصبح يعيش بين الخليفة والوزراء. وصار أصغر أمير يتم منحه رتبة في الدولة العباسية.

نجا البُغدي من الموت عند استيلاء هولاكو السلطان الإيلخاني على بغداد بمساعدة أحد الخوارزميين الذين كان جده كشتمير قد أحسن إليهم من قبل. وقد افتري عليه بأنه يريد الإطاحة بالخليفة، غير أنه ثبت عدم صحة هذا الادعاء، وأُعدم من أطلق هذه الافتراءات. وفي الثلاثين من عمره قدم مؤلفه «غنية القاري» الذي يحتوي في بدايته على تصاوير تظهره في صورة رجل طاعن في السن إلى هولاكو. وعندما رأى هولاكو صورة البُغدي وهو باللحية البيضاء تساءل عن سبب عدم تناسب هذا مع شبابه، فرد عليه البغدي بأنه عاش في الدولة الإيلخانية، وأراد أن يكون مسنا. وهكذا نال عطف هولاكو. ولم يعمر البغدي طويلا، فقد توفي في يوم الاثنين 23 شعبان من عام 685 الموافق لـ 14 أكتوبر من عام 1286 في بغداد وهو في الثالثة والخمسين من عمره، وتم دفنه في مشهد سيدنا الحسين، رضي الله عنه، بجانب جده جمال الدين كشتمير.

■ آثاره

كان البُغدي منذ فترة طفولته يشترك مع جده في عمليات الصيد. وبمرور الزمن أصبح مولعا بالصيد وصيد الطيور. وقاده هذا الاهتمام إلى تأليف كتابه «كتاب القانون الواضح في معالجة الجوارح»، وهو كتاب يدور حول الصيد بالصقور. وتمت كتابته في عام 666هـ/ 1267م. وتوجد نسخته الوحيدة في مكتبة كوبريلي [قسم فاضل أحمد باشا، رقم 978]. وذكر البغدي في بداية كتابه أن أحدا من قبله لم يتناول علم الصيد بالصقور. وبيّن أن حبه للطيور الصائدة هو الذي جعله يكتب هذا المؤلف. وأوضح أنه قرأ ما كتبه السابقون في هذا الموضوع، وأخبر إلى أنه، وبالإضافة إلى هذه المعلومات والتجارب، أضاف أفكاره الشخصية وآراءه.

أعد البُغدي كتابه من بابين. تناول في الباب الأول المعلومات النظرية التي تتعلق بالموضوع، في حين احتوى الباب الثاني على

القواعد التطبيقية. وبدأ كل باب بمقدمة ثم عرض الفهارس ثم قسم أجزاءه بالترتيب إلى أبواب وفصول وأقسام.

ومن المؤلفات التي تمت كتابتها في هذا المجال قبل البُغدي نجد مؤلف أبي الجيش خمارويه بن أحمد (توفي في عام 282/ 896) / باسم الخليفة العباسي المعتضد بالله في مصر عندما كان نائبا له، وكتاب أمير أبي القاسم بن طغج والمعروف باخشيد التركي (توفي في عام 334/ 946) والذي كتبه باسم الطائع لله في مصر عندما كان نائبا له، وكتاب قاسم بن علي بن حسين بن أبي طالب نور الدين بن حسين الزينبي والمعروف بنظام الحضرتين. وكتب مؤلفه «القوانين السلطانية» في عام 556هـ/ 1161م من أجل المكتفي لأمر الله وابنه المستنجد بالله، وذلك عندما كان رئيسا للقضاء في بغداد.

بيّن البُغدي أن هذه المؤلفات تحتوي على قدر كبير من التضاد وعدم الترابط من حيث الآراء والمفاهيم. وذكر أن الأخطاء الموجودة بداخلها هي من المستنسخين. وأوضح أنه قام بترتيبها، وينتهي الكتاب بالخاتمة. وأشار هنا إلى أنه اختصر هذا المؤلف من مسودات كتابه «غنية القاري في علاج الجوارح والدواري»، والذي كان قد كتبه من قبل. وبيّن أنه لو لم يقم باختصار كتابه هذا لوصل إلى خمسة مجلدات. وأوضح أنه كتب هذا المؤلف في شهر واحد من عام 666هـ/ 1267م، وبعد شهر بدأ في تبييضه. وقام عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أبي المعالي المعروف بأبي الفواتي باستنساخ النسخة الموجودة في ميراغه. وفي عام 667هـ/ 1268م تم تقديمه إلى الكاتب بصورة مقروءة ونص أصلي.

المصادر والمراجع

● ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، القاهرة 1899، ص. 50؛ ● ابن الفوطي، تلخيص معجم الآداب، نشر مصطفى جواد، بغداد 1962 ـ 1965، IV/III, IV - I, 131- 132, IV-I 702؛ ● المؤلف نفسه، الحوادث الجامعة، نشر مصطفى جواد، بغداد 1351هـ/ 1932م، ص. 104 ـ 105، 131 ـ 133، 401 ـ 403؛ ● ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، Bibliothèque Nationale رقم 1597، ورق 108 أب؛ ● طاش كوبري زاده، مفتاح السعادة، القاهرة 1968، I، 279؛ ● كاتب چلبي، كشف الظنون، I، 365.

● Kilisli Rifat Bilge, «Istanbul Kütüphanele-ride Bulunan Bazna-meler», Türkiyat Mecmuasi, VII-VIII/2 (1942), p. 175-176; ● Cevat Izgi, «Türk Hayvan Bilincisi Kuste-miroglu Bogdu Beg (1233-1286) ve Av Kuilarinin Bakimi Konusundaki Kitabi», Halk Kültür, II/1 (1985), p. 59-71.

د. جواد إيزكي
جامعة إستنبول

ترجمة: مصطفى بن الطاهر الستيتي ـ تونس

البغطوري، مُقرين بن محمد

(ت في النصف الأول من القرن 7هـ/13م)

مقرين بن محمد البغطوري، مترجم ومؤرخ من جنوب شرقي إفريقية.

ولد في قرية بغطورة ـ بقطورة، الواقعة قرب مدينة شروس، غربي جبل نفوسة، وقد كانت عامرة منذ العصر القديم، حسبما تدل عليها آثارها.

ترجم له أبو العباس أحمد الشماخي (ت 928هـ / 1522 م) في سيره، واعتمد عليه عديد المرات، ذاكرا إياه تحت اسم مقرين تارة ومقرن أخرى (ص 301، 305). ومقر، في لغة نفوسة، تعني كبير الشأن، وهو لفظ متداول في سائر البلاد المغربية. ذكر في صيغة المذكر (مقر) والمؤنث (مقريت) والاشتقاق (أمقران). ومنذ العصر القديم، ورد ذكر اسم لوبي قديم: م. ق .ر، كما تسمى أحد البونيين مقر (Macer Imilconis Abdismunis)، وورد في نقيشة لاتينية اسم مقرين (Marcinus). أما ابن خلدون، فقد تحدث عن مقر ـ مغر، إحدى بطون هوارة النازلة بجهة طرابلس، ونظرا إلى كون «مقر» كلمة معرّبة، فقد كتب اسم البغطوري بطرق متعددة: مقران ـ مقرن ـ مقر ـ مقرين.

تعلم مقرين، على عادة أهل عصره، على مشائخ الإباضية بجبل نفوسة، ولازم خصوصا شيخين: الأول هو أبو محمد بن محمد بن عبد الله بن مصكود المجدولي، وهو فقيه ومؤرخ إباضي، أخذ من أبي سليمان داود بن هارون صاحب كتاب في المسائل ومن جده عبد الله بن مصكود. أثنى عليه البغطوري، إذ قال: أفضل من أدركت، وكان عالما بسيرة الأولين وأخبارهم، كأنّه حضر معهم. وكانت أكثر مجالسه في رواية هذه الأخبار التي نقلها مقرين في مصنفه، وجعل منها المصدر الأساسي له؛ والثاني هو أبو يحيى توفيق الجناوني، وهو فقيه ومؤرخ إباضي، من قرية اجناون بجبل نفوسة. نقل عن شيخه عبد الله بن مصكود أخبار داود بن هارون ورواياته. له تقييدات على سير مشائخ المذهب، وتآليف مختصرة منها تلخيص كتاب الطهارات. ويستفاد من رواية ذكرها الشماخي أنّه يكبر مقرين بثلاثين سنة. لازمه البغطوري بأجناون أثناء تأليف كتابه سنة 599هـ / 1202م.

ويعدّ مقرين البغطوري من بين العلماء الذين نقلوا المذهب الأباضي عن أسلافهم وعرفوا به حتى نعته أبو العباس أحمد الشماخي بكونه أحد الأشياخ الذين تمسكوا بالعلم وأتمّوا بالعمل واتبعوا الطريق، وهو ممن حفظ على المذهب وحافظ على السير، وذلك أثناء حقبة تميّزت بتراجع أتباع المذهب الأباضي، على إثر الانتشار الهلالي ثمّ هيمنة المصامدة الموحدين على البلاد.

آثاره

ذكر الشماخي أنه ألّف في الفقه ما تيسر، غير أنّ هذه التآليف لم تصلنا. وأهمّ مصنّف ذكر له هو كتاب: «سير مشائخ نفوسة»، الذي أورد ذكره الشماخي تحت تسميات أخرى، أهمّها: كتاب السير - كتاب سير مشائخ نفوسة - كتاب سير أشياخ نفوسة - سير مشائخ نفوسة - كتاب السير لمشائخ نفوسة - كتاب سير نفوسة - كتاب سير الجبل - سير نفوسة. وقد أحصينا 83 مرة، ورد فيها ذكر المؤلف أو الكتاب في سير الشماخي.

استند فيه أساسا على التراجم التي أوردها عبد الله بن مصكود وعلى الروايات الشفوية لأبي يحيى توفيق الجناوني، حتّى أنه لازمه في إقامته بأجناون قرب جادو لتصنيف كتابه. وكان ذلك في شهر ربيع الثاني سنة 599هـ / ديسمبر 1202 - جانفي 1203م.

ترجم فيه لأكثر من تسعين علما من جبل نفوسة، يتراوح تاريخهم منذ ظهور الأباضية بالجبل في القرن الثاني هـ/ 8م إلى حد القرن السادس هـ/ 12م. وقد استهلّه مقرن بما يلي: روي أنّ أهل الدعوة كانوا يتزاورون فيما بينهم، يزور أهل المشرق المغرب ليعرفوا ما هم عليه، ويزور أهل المغرب أهل المشرق ليستفيدوا منهم العلم.

ولئن وجدت مصنفات في السير الأباضية سابقة، مثل سير أبي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي (ت 471هـ / 1078 م)، وأبي الربيع سليمان الوسياني (أواسط القرن السادس هـ/ الثاني عشر م)، الذي ترجم لعلماء المغرب عموما وأهل الجريد ووارجلان خصوصا، فإن مقرين قد خصّ موطنه جبل نفوسة بسائر تراجمه. وهو ما يفسّر أنّ النص تضمن عددا من الفقرات المكتوبة بلهجة نفوسة.

وفي الجملة، يعد الكتاب مصدرا هامّا في التاريخ الثقافي والاجتماعي المغربي، اعتمده الشماخي بكثرة في كتاب السير. غير أنّ أبا القاسم البرادي (القرن الثامن هـ/الرابع عشر م) لم يشر إليه، عند ذكره لقائمة المصنفات الأباضية.

وكتاب السير موجود في بعض المكتبات الخاصة، رغم ما أشار اليه لويسكي من كونه ضائعا.

المصادر والمراجع

● البغطوري، مقرن، كتاب سير نفوسة (مخطوط)؛ ● الوسياني أبو الربيع، كتاب السير (مخطوط)؛ ● الدرجيني أبو العباس أحمد، طبقات المشائخ بالمغرب، تح. إبراهيم طلاي، قسنطينة د.ت؛ ● أبو القاسم البرادي، كتاب الجواهر المنقاة في إتمام ما أخلّ به كتاب الطبقات، القاهرة، 1325هـ؛ ● الشماخي، أبو العباس أحمد، كتاب السير، تح. محمد حسن، تونس 1995؛

- T. Lewicki, les historiens, biographes, Traditionnistes ibadites - wahabites de l'Afrique du Nord du VIII-XVI ème s., Folia Orientala, T III, 1961, Fasc. 1-2, pp, 111-113;
- A.K.Ennami, A description of new Ibadi manuscripts from North Africa, Journal of Semetic Studies, Vol. XV, 1970, pp. 84-85.

د. محمد حسن
جامعة تونس

ابن البغونش، أبو عثمان سعيد بن محمد

(ت 444هـ/1052م)

هو سعيد بن محمّد بن فتحون السّرقسطي أبو عثمان، المعروف بابن البغونش البغدادي، [إيضاح المكنون، ج. 1 ص 572؛ كحالة، المعجم، ج. 4 ص 230].

توفي سنة 444هـ/ 1052م [كحالة، المعجم، ج. 4 ص. 230].

آثاره

«الرسائل في الفلسفة» [البغدادي، إيضاح المكنون، ج. 1 ص 572؛ كحالة، المعجم، ج. 4 ص 230].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا (ت1351هـ)، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (جزءان)، ط. 1402هـ/ 1982م دار الفكر، بيروت؛ ● كحالة، محمد عمر رضا، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية (15 جزءا في 7 مجلدات)، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

منير بن المختار التليلي
جامعة الزيتونة ـ الجامعة العربية للعلوم ـ تونس

البغوي، أحمد بن منيع

(160هـ/776م ـ 244هـ/858م)

أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوي أبو جعفر حافظ محدث، نزيل بغداد، وجد أبي القاسم البغوي لأمّه. سمع هشيما وطبقته، وروى عن ابن علية، والحسن بن سوار، وداود بن الزبرقان، وابن عيينة، وابن المبارك، وحدث عن عبد العزيز بن أبي حازم، ويزيد بن هارون، وروح بن عبادة، وأبي أحمد الزبيري، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وإبراهيم بن طهمان، وحماد بن أبي سليمان.

حدث عنه البخاري، ومسلم، وأبو داود،

والنسائي، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وموسى بن هارون، وأبو يعلى الموصلي، وآخرون. [التقييد لأبي بكر البغدادي، 1/ 128].

وأخذ عنه الحسين بن محمد النيسابوري الحافظ المعروف بالقباني [طبقات الحفاظ 1/ 300]؛ وإسحق بن إبراهيم الأصبهاني الراوي مسنده [شذرات الذهب، 1/ 259]؛ وأبو قريش محمد بن جمعة القهستاني [نفس المصدر، 1/ 268]؛ وعبيد الله بن يعقوب الأصبهاني راوي المسند عن جدّه [نفسه، 2/ 120]؛ و عبد الواحد الأصبهاني راوي المسند عن عبيد الله بن جميل [نفسه، 2/ 291]؛ وسعيد بن أبي الرجاء الأصبهاني برواية المسند [نفسه، 2/ 99].

آثاره

- المسند.

المصادر والمراجع

- الذهبي، سير أعلام النبلاء، 11/ 483، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه، شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ؛ • ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 1/ 105، تح. شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، دار الكتب العلمية، بيروت؛ • السيوطي، طبقات الحفاظ، تح. علي نقي منزوي، 2/ 212، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ؛ • ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 11/ 324، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م؛ • الربعي، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، 2/ 536، تح. عبد الله أحمد سليمان الحمد، دار العاصمة، الرياض 1410هـ؛ • البغدادي، التقييد، 1/ 187، 321، تح. كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ، ط1 .

د. مصطفى الشليح
جامعة المحمدية ـ المغرب

البغوي، أبو الحسن علي بن العزيز

(ت 286هـ/899م)

أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور، أبو الحسن البغوي. نزيل مكّة، شيخ الحرم، إمام، محدث، حافظ. كان حسن الحديث، ثقة، مأمونا، صادقا [الذهبي، 13/ 348 ـ 349؛ ابن العماد، 2/ 193].

أحد الحفاظ المكثرين مع علو الإسناد مشهور، لكنه كان يطلب على التحديث ويعتذر بأنه محتاج، وهو في طبقة صغار شيوخ النسائي. وهو عم المسند الحافظ الكبير أبي القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز

البغوي المعروف بابن بنت منيع، وجده لأمه هو أحمد بن منيع أحد الحفاظ، وأخوه هو ثابت بن عبد العزيز، المحدِّث [العسقلاني، تهذيب التهذيب، 7/ 316؛ لسان الميزان، 4/ 241؛ المزي، 23/ 355].

صاحب أبا عبيد القاسم بن سلام البغدادي، الفقيه القاضي الأديب المشهور. روى عنه غريب الحديث، وكتاب الحيض، وكتاب الطهور، وغير ذلك [ياقوت الحموي، 1085؛ المزي، 23/ 356]؛ سمع أبا نُعيم، وعفّان، والقَعْنبي، ومُسْلم بن إبراهيم، وموسى بن إسماعيل، وأبا عبيد، وأحمد بن يونس، وعلي بن الجعْد، وعاصم بن علي، وطبقتهم. أخذ القراءات عن أبي عُبيد وغيره.

حدّث عن حجاج بن منهال ومحمد بن كثير وعمرو بن عون وعمر الرفّاء وغيرهم؛ سمع منه الحروفَ أحمد بن التائب، وإبراهيم بن عبد الرزاق، وأبو سعيد بن الأعرابي، وأبو إسحق بن فِراس، ومحمد بن عيسى بن رِفاعة، وأحمد بن خالد بن الجبّاب.

حدّث عنه ابن أخيه عبد الله بن محمد بن عبد العزيز، وعلي بن محمد بن مَهرَويه القَزويني، وأبو علي حامد الرفّاء، وعبد المؤمن بن خَلَف، وأبو الحسن علي بن إبراهيم بن سَلَمة القطّان، وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطَّبَراني، وأبو محمد دعلج بن أحمد السجزي، وأبو علي الكتامي القرطبي، وأبو محمد يحيى بن منصور بن عبد الملك قاضي نيسابور، وابن حيّون الأندلسي، وأحمد بن محمد بن أبي الموت المكي [الذهبي، 13/ 348 ـ 349، 16/ 28؛ القيسراني، 3/ 870؛ العسقلاني، لسان الميزان، 1/ 296].

تجمع معظم المصادر على أن وفاته كانت في عام 286 هـ، وإن ذكر بعضها أنه توفي سنة 287هـ [حاجي خليفة، 1685؛ ابن النقطة الحنبلي، 1/ 408].

آثاره

1 ـ المسند المنتخب [حاجي خليفة، 1685]؛ 2 ـ المسند الكبير [الذهبي، 13/ 348].

المصادر والمراجع

● السيوطي، طبقات الحفاظ، ط1، 1403 هـ، بيروت، دار الكتب العلمية، 1/ 278؛ ● ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة (د. ت)، دار الفكر، 2/ 193؛ ● ابن النقطة، أبو بكر محمد الحنبلي، التقييد لمعرفة رواة الأسانيد، تح. كمال يوسف الحوت، ط1، بيروت 1408 هـ، دار الكتب العلمية، 1/ 408؛ ● العسقلاني، لسان الميزان، تح. دائرة المعارف النظامية (الهند)، ط3، بيروت، 1986م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 4/ 241، 1/ 296؛ ● المزي جمال الدين، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح. بشار عواد معروف، ط1، بيروت 1992 م، مؤسسة الرسالة، 23/ 355؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت 1992 م، دار الكتب العلمية، 1685؛ ● الزركلي، الأعلام، ط10، بيروت 1992 م، دار العلم للملايين، 4/ 300؛ ● الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح. علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط1، بيروت

1995م، دار الكتب العلمية، 5/ 173؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت (د.ت)، دار إحياء التراث العربي، 7/ 124؛ ● القيسراني، تذكرة الحفاظ، تح. حمدي عبد المجيد إسماعيل السلفي، ط1، الرياض، 1415 هـ، دار الصميعي، 2/ 622، 3/ 870.

د. سعيد الوكيل
جامعة القاهرة ـ مصر

البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد

(213هـ/828م - 317هـ/929م)

هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ابن بنت أحمد بن منيع البغوي نسبة إلى مدينة بغشور التي تقع في إقليم خراسان بين هراة ومرو الروذ [ياقوت الحموي، معجم، 1/ 468]، والتي كان جدّه ينتسب إليها [السمعاني، أنساب، 375].

ولد البغوي في مدينة بغداد سنة 213هـ / 828م، وقد لقي منذ صغره اهتماما ملحوظا من قبل أسرته وبخاصة جدّه لأمّه أحمد بن منيع وعمّه علي بن عبد العزيز حيث تتلمذ السماع على أيديهما [الذهبي، تذكرة، 2/ 737]. وعند نشأته سمع من علي بن الجعد (230هـ/ 844م) وعلي بن المديني (234هـ/ 848م)، وأحمد بن حنبل (241هـ/ 855م)، وأبي نصر التمار (288هـ/ 900م)، ويحيى بن عبد الحميد الحماني (228هـ/ 842م) [الذهبي، تذكرة، 2/ 737]، وخلف بن هشام البزاز (229هـ/ 843م)، وأبي بكر بن أبي شيبة (235هـ/ 849م)، وداود بن رشيد (239هـ/ 853م)، وداود بن عمر الضبي (228/ 842)، وشيبان بن فروخ (235هـ/ 849م)، وغير هؤلاء كثيرون [السمعاني، أنساب، 375].

وبعد تفقهه في الحديث بات واحدا من أكبر محدثي العراق في عصره يأتي إليه الناس ليسمعوا منه ويأخذوا عنه [ابن عماد، شذرات، 2/ 275].

وقد روى عنه العديد من المحدثين أمثال يحيى بن محمد بن صاعد (318هـ/ 930م)، وعلي بن إسحق المادراني (334هـ/ 945م)، وعبد الباقي بن قانع (351هـ/ 962م)، وحبيب بن الحسن القزاز (359هـ/ 969م)، ومحمد بن عمر الجعابي (355هـ/ 965م)، وأبي حفص بن الزيات (375هـ/ 985م) وأبي بكر بن شاذان (405هـ/ 1014م)، وابن شاهين (385هـ/ 995م)، والدارقطني (385هـ/ 995م)، وغيرهم [البغدادي، تاريخ، 10/ 111].

ونظرا إلى مكانته في الحديث فقد وثقه العديد من المهتمين بهذا العلم؛ وقد سئل أبو

عبد الرحمن السلمي الدارقطني (385/ 995)، فقال عنه: «ثقة جليل إمام من الأئمة ثبت» [أبو يعلى، طبقات الحنابلة، 1/ 191]؛ وقال الدارقطني أيضا: «كان أبو القاسم بن منيع قلما يتكلّم على الحديث؛ فإذا تكلّم كان كلامه كالمسمار في الساج» [م.س]؛ وقال موسى بن هارون (294هـ: «لو جاز أن يقال للإنسان أنّه فوق الثقة لقيل لأبي القاسم ذلك» [ابن حجر، لسان الميزان، 3/ 340]؛ وسئل ابن أبي حاتم هل يدخل البغوي في الصحيح فقال: نعم [البغدادي، تاريخ، 1/ 116]؛ ووثقه الخطيب البغدادي فقال: «ثقة ثبتا مكثرا فهما» عارفا [الذهبي، ميزان، 2/ 493].

وقد حاول البعض الإساءة إليه وتضعيف أحاديثه [الذهبي، ميزان، 2/ 493]. وقد رفض موسى بن هارون ذلك وعدّه مظهرا من مظاهر الكراهيّة والحسد له [ابن حجر، لسان، 3/ 340].

امتهن البغوي حرفة الوراقة منذ صغره وبات ناسخا متميّزا، نسخ لنفسه الكثير من الكتب ومنها بعض كتب الحديث النبوي التي بدأ بنسخها منذ سنة 225 هـ [ابن عماد، شذرات، 2/ 275]، كما نسخ كتاب المغازي لابن إسحق [الخطيب البغدادي، تاريخ، 1/ 113].

ولا بد من الإشارة إلى أنّ عصر البغوي شهد أحداثا جساما أدّت إلى قيام انتفاضات فكريّة وأزمات اقتصاديّة ولّدت تطرّفا شديدا حتى بات التطرف مظهرا من مظاهر العصر [حمدان الكبيسي، عصر الخليفة المقتدر، 5].

وتوفي البغوي سنة 317 هـ/ 929م [أبو يعلى، طبقات، 1/ 192]، بعد عمر ناهز المائة سنة.

آثاره

للبغوي عدد من المصنّفات من أبرزها: 1 - كتاب المعجم الكبير؛ 2 - كتاب المعجم الصغير؛ 3 - كتاب المسند؛ 4 - كتاب السنن على مذاهب الفقهاء [ابن النديم، الفهرست، 233]؛ 5 - الجعديات [السيوطي، طبقات الحفاظ، 312].

المصادر والمراجع

● السمعاني، الأنساب، تقديم عبد الله بن عمر البارودي، مؤسّسة الكتب الثقافيّة، بيروت، 1988؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، بيروت. د. ت، دار إحياء التراث العربي؛ ● ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، 1350م، مكتبة القدس؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، د. ت، دار الكتاب العربي؛ ● أبو يعلى، طبقات الحنابلة، القاهرة، 1952؛ ● ابن الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، بغداد، د. ت، مكتبة المثنى؛ ● ابن حجر، لسان الميزان، حيدر آباد، الدكن، 1330م؛ ● السيوطي، طبقات الحفاظ، القاهرة، 1973؛ ● ابن النديم، الفهرست، بيروت، 1978؛ ● ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، 1955، دار صادر؛ ● عمر رضا كحّالة، معجم المؤلّفين، دمشق، 1957، مطبعة الترقي؛ ● فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، القاهرة، 1971؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 4/ 119.

د. هاشم يونس عبد الرحمن
جامعة الموصل - العراق

البغوي، أبو محمد الحسين بن محمد

(436هـ/1044م - 510هـ/1117م)

هو أبو محمد الحسين بن محمد ولد ببلدة «بغ» من خراسان الواقعة بين (مَرْو) و(هَرَات)، وإليها نسبته «البغوي»، ويعرف بـ «الفرّاء» لاشتغاله بالفراء وبيعها، ويلقّب بمحيي السنّة وركن الدين [السيوطي، طبقات المفسّرين، 13].

قرأ القراءات على أبي نصر محمد بن أحمد بن علي المقري المروزي تلاوة ورواية، وعلى أبي القاسم طاهر بن علي الصيرفي، وعلى أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران في كتابه المعروف بكتاب الغاية.

وأخذ الفقه عن القاضي الحسين، فكان أخصّ تلامذته، وسمع الحديث منه ومن أبي عمر عبد الواحد المليحي، وأبي الحسن الداودي، وأبي بكر يعقوب بن أحمد الصيرفي، وأبي الحسن علي بن يوسف الجويني، وأبي الفضل زياد بن محمد الحنفي، وأحمد بن أبي نصر الكوفاني، وحسان بن محمد المنيعيّ، وأبي بكر محمد ابن الهيثم الترابي، وأبي الحسن محمد بن محمد الشيرازي وغيرهم. فكان إماما جليلا، ورعا زاهدا، فقيها ومحدّثا، ومفسّرا جامعا بين العلم والعمل، مالكا سبيل السلف. صنّف في تفسير كلام الله، وأوضح المشكلات من قول النبيّ ﷺ، وروى الحديث واعتنى بدراسته [ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 1/ 145].

وقد تتلمذ عليه أبو منصور محمد العطّاري المعروف بحفدة، وأبو الفتوح محمد الطائي، وأبو المكارم فضل الله بن محمد النّوقاني، وروى عنه بالإجازة الفخر بن علي النّوقاني الذي أجازه رواية البخاري.

توفّي البغوي عن بضع وثمانين سنة في شوال سنة 516هـ بمرو الرّوذ، وبها كانت إقامته، ودفن عند شيخه القاضي الحسين [ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 1/ 145 - 146].

قال عنه التاج السبكي في طبقات الشافعية: «الشيخ الحسين بن مسعود الفرّاء الشيخ أبو محمد البغوي صاحب التهذيب الملقّب بمحيي السنّة وركن الدين أيضا...». ونقل عن والده التقيّ السّبكي أنّه قال في كتاب الرهن من تكملة شرح المهذّب: «اعلم أنّ صاحب التهذيب قلّ أن رأيناه يختار شيئا إلاّ وإذا بُحث عنه وُجد أقوى من غيره، هذا مع قلّة كلامه، وهو يدلّ على نبل كبير، وهو حريّ بذلك فإنّه جامع لعلوم القرآن والسنّة والفقه».

أمّا ما اشتهر به المترجم له من التصانيف كمفسّر فهو: معالم التنزيل قال عنه صاحب كشف الظنون: «معالم التنزيل في التفسير للإمام محيي السنة أبي محمد حسين بن مسعود الفرّاء البغوي الشافعي... كتاب متوسّط، نقل فيه عن مفسّري الصحابة والتابعين ومن بعدهم، واختصره الشيخ تاج

الدين أبو نصر عبد الوهاب بن محمد الحسيني (ت 875 هـ)» [حاجي خليفة، كشف الظنون، 285]، ووصفه علاء الدين الشيحي المعروف بالخازن في مقدّمة تفسيره بقوله: «لباب التأويل في معاني التنزيل، من أجلّ المصنفات في علم التفسير وأعلاها، وأنبلها وأسماها، جامع للصحيح من الأقاويل، عار عن الشبه والتصحيف والتبديل، محلّى بالأحاديث النبويّة، مطرّز بالأحكام الشرعية، موشّى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصّع بأحسن الإشارات، مخرّج بأوضح العبارات، مفرغ في قالب الجمال بأفصح مقال» [الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ص 1]. وقال عنه ابن تيمية: «والبغوي تفسيره مختصر من تفسير الثعلبي، لكنّه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة...» [ابن تيميّة، مقدّمة في أصول التفسير، 19]. وقال عنه في فتاواه، وقد سئل عن أيّ التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة؟ الزمخشري أم القرطبي أم البغوي أم غيرهم؟: «أمّا التفاسير الثلاثة المسؤول عنها، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة: البغوي، لكنّه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك». أمّا الكتاني فقد قال عنه: «وقد يوجد فيه، يعني معالم التنزيل، من المعاني والحكايات ما يحكم بضعفه أو وضعه» [الكتاني، الرسالة المستطرفة، ص 58]، والتفسير مطبوع مرارا في الهند ومصر، كما طبع في نسخة واحدة مع تفسير ابن كثير القرشي الدمشقي بمطبعة المنار لمحمد رشيد رضا الذي قال عنهما: «هذان التفسيران من أشهر كتب التفسير في العناية بما روي عن تفاسير السلف، وبيان معاني الآيات وأحكامها، وتحامى ما أطال به الكثيرون من مباحث الإعراب ونكت فنون البلاغة والاستطراد لعلوم أخرى لا يحتاج إليها في فهم القرآن، ولا التفقّه فيه ولا الاتّعاظ به». وقد أمر بطبع هذين التفسيرين معا، ناصر الدين ومحيي آثار السلف سلطان عبد العزيز بن عبد الرحمان الفيصل، إمام نجد وملحقاتها، لأجل نشر الدين الحقّ في تلك البلاد [البغوي، مقدمة معالم التنزيل، ص7 - 8].

وقد قدّم المترجم له لتفسيره - مبيّنا منهجه فيه - قائلا: «فجمعت بعون الله وحسن توفيقه كتابا وسطا بين التطويل المملّ والقصير المخلّ، وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه حبر هذه الأمة، ومن بعده من التابعين وأئمّة السلف مثل مجاهد وعكرمة وعطاء بن رباح والحسن البصري وقتادة وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي وزيد بن أسلم والكلبي والضحّاك ومقاتل بن سليمان والسدّي وغيرهم، فأكثرها ممّا أخبرني به الشيخ أبو سعيد أحمد بن محمد الشريحي الخوارزمي فيما قرأته عليه عن الأستاذ أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي عن شيوخه...». وكان يستدلّ على ما يذهب إليه من التفسير بالأحاديث فيقول: «وما ذكرت من أحاديث الرسول في أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم فإنّ الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليهما مدار الشرع وأمور الدين، فهي من الكتب المسموعة للحفظ وأيمّة الحديث،

وأعرضت عن ذكر المناكير وما لا يليق بحال التفسير» [البغوي، مقدمة معالم التنزيل 1/ 9].

أمّا طريقته في هذا التفسير فقد كان يفسّر الآية بلفظ سهل وموجز، ثمّ ينقل ما جاء عن السلف في تفسيرها دون ذكر السند، مكتفيا في ذلك بأن يقول مثلا: «قال ابن عبّاس كذا وكذا»، أو «قال مجاهد كذا وكذا»، أو «قال عطاء كذا وكذا»، حتى لا يكرّر ما ذكره في المقدّمة إسناده لكلّ من يروي عنهم، كما أنّه لكونه من الحفّاظ المتقنين للحديث كان يتحرّى الصحّة فيما يسنده إلى الرسول، ويعرض عن المناكير، وما لا تعلّق له بالتفسير، إلاّ أنّه روى عن الكلبي وغيره من الضعفاء. وقد تعرّض في تفسيره للقراءات لكن بدون إسراف منه في ذلك، كما يتحاشى ما ولع به كثير من المفسّرين من مباحث الإعراب ونكت البلاغة، والاستطراد إلى علوم أخرى لا صلة لها بعلم التفسير؛ وإن كان في بعض الأحيان يتطرّق إلى الصناعة النحويّة لضرورة الكشف عن المعنى؛ ولكنّه مقلّ لا يكثر، وقد يذكر بعض الإسرائيليّات دون أن يعقّب عليها مثل ما ذكره في قصة هاروت وماروت رواية عن الضحاك وغيره عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ..﴾ [البقرة: 251]، [البغوي، معالم التنزيل، 1/ 604 ـ 609]، كما أنّه ينقل الخلاف عن السلف في التفسير، ويذكر الروايات عنهم في ذلك دون أن يرجّح رواية على رواية، أو يضعف رواية ويصحّح أخرى، يقول عنه الذهبي: «وعلى العموم، فالكتاب في جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير» [محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسّرون، 1/ 238].

آثاره

صنّف البغوي كتبا كثيرة في العلوم الإسلامية، فله في الحديث: 1 ـ شرح السنّة، ط؛ 2 ـ مصابيح السنة، ط؛ 3 ـ الجمع بين الصحيحين، ط؛

وله في الفقه الشافعي:

4 ـ التهذيب، خ.

كما له: 5 ـ فتاوى مشهورة لنفسه غير فتاوى «القاضي حسين» التي علقها هو عنه. وقد بورك له في تصانيفه ورزق فيها القبول الحسن بحسن نيّته، حيث كان لا يلقي الدرس إلاّ على طهارة، كما كان قانعا يأكل الخبز وحده، ثمّ عذل في ذلك فصار يأكله بزيت [السيوطي، طبقات المفسرين، 13].

المصادر والمراجع

● البغوي، معالم التنزيل، القاهرة 1343 هـ، مطبعة المنار؛ ● ابن خلّكان، وفيّات الأعيان، القاهرة 1936م، مطبعة بولاق؛ ● الداودي، طبقات المفسّرين، بيروت 1403 هـ، دار الكتب العلمية؛ ● ابن السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح. عبد الفتاح محمد الحلو، محمود محمد الطنّاحي، ط 1 (د. ت)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه؛ ● ابن تيمية، مجموع الفتاوى، الرباط 1981، مكتبة المعارف.

د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

بغيع، محمد بن محمود بن أبي بكر

(930هـ/1523م ـ 1002هـ/1594م)

محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري الصنهاجي المشهور ببغيع، وبغيع «بباء مفتوحة فغين معجمة ساكنة فياء مضمومة فعين مهملة مضمومة» هكذا ضبطه تلميذه أحمد بابا في [نيل الابتهاج، ص 341].

تعلّم بمدينة جني، ودرس بها على والده محمود، الفقه وعلوم العربية، وعلى خاله وغيرهما من علماء المدينة. ثم رحل إلى مدينة تنبكت فدرس على الشيخ أحمد بن محمد بن سعيد سبط الشيخ محمود بن عمر بن أقيت، ولازمه في مختصر الشيخ خليل حتّى أتقنه عليه. ورحل إلى المشرق بصحبة أخيه أحمد وخالهما، فلقي محمد بغيع بمصر الناصر اللقاني والتاجوري، والزين البحيري، والشريف يوسف الأرميوني، والبرهمتوشي الحنفي، والإمام محمد البكري، ودخل الحجاز فلقي جماعة من شيوخها وأدى فريضة الحج ثم عاد إلى مدينة جني، وبعد وفاة والده وخاله قرّر هو وأخوه أحمد مغادرة مدينة جني وسكنى مدينة تنبكت، فعاود محمد بغيع الدراسة على الشيخ أحمد بن سعيد، فدرس عليه الفقه والحديث والعربية وقرأ عليه الكثير من المؤلّفات مثل موطأ الإمام مالك ومدونة سحنون، ومختصر ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل، ودرس على أحمد بن أحمد والد الشيخ أحمد بابا علوم الأصول والبيان والمنطق، وقرأ عليه وسمع منه أصول السبكي، وتلخيص المفتاح، وكتاب الجمل للخونجي في المنطق.

وهو من أسرة معروفة بالعلم والدين والنزاهة في مدينة جني، فقد كان والده محمود من أعيان علماء المدينة وثقاتها معروفًا بصلابة دينه، قوالا للحق لا يخاف في ذلك سلطانًا فمن دونه. ذكر محمود كعت [الفتاش، 15 ـ 16] أن أسكيا إسحاق عندما زار مدينة جني جمع رجالها الخاصة منهم والعامة في المسجد الكبير، وبعد أن طيب أسماءهم بكلمات، طلب منهم إخباره عن الظالمين والمفسدين، ومثيري المشاكل في المدينة، لأنه كما قال: ما دخل مدينتهم إلاّ لإصلاح أمورها، والسعي في خير أهلها، فلما طال سكوتهم ولم يرد أحد له جوابًا قال له الفقيه محمود وكان جالسًا بقربه: «إن أعلمناك بذلك الظالم فماذا تفعل به؟ فقال: أفعل به ما يستحقّ من قتل أو ضرب أو سجن أو إجلاء، أو رد ما أتلفه من المال وغرمه، فقال له الفقيه محمود: ما عرفنا هنا أظلم منك، أنت أبو كل ظالم وسببه، ولا يغصب غاصب هنا مغصوبا إلا لك وبأمرك وبقوتك، إن كنت تقتل الظالم فابدأ بنفسك، وبادر به، وهذا المال الذي يجلب اليك من هنا، ألك هنا عبيد يحرثون لك؟ أو مال يتجر به لك؟ فلمّا سمع ذلك تحير وتدهش. . وبكى حتّى رحمه الناس» وحاول أعوانه وجنده التعرّض للفقيه

محمود وكادوا أن يسطوا اليه، فردّهم أسكيا وانتهرهم. ثم لما عاد أسكيا اسحاق الى كاغ وأدركه في الطريق إليها نعي خطيب مدينة جني أصدر أمرًا عاجلاً حمله أحد أعيان جيشه ينص على تعيين الفقيه محمود خطيبًا وقاضيًا لمدينة جني أحب ذلك أم كره. ولما وصل رسول أسكيا مدينة جني طلب من حاكم المدينة والفقهاء الحضور معه للدخول الى الفقيه محمود، فأخذوه وجعلوا خلع أسكيا في عنقه وعمموه ثم قرأوا عليه كتاب أسكيا بولاية القضاء وحملوه على فرس أمر له بها أسكيا الى داره، وهو يرفض ذلك ويصرخ ويبكي بكاء الصبي كما يقول محمود كعت [90]. وظلّ القاضي محمود يمارس التدريس وإسماع الطلبة، محفوظ الحرمة والمكانة، مقدرًا من آل أسكيا إلى أن توفي بمدينة جني.

عاصر محمود بغيع من سلاطين دولة سنغاي، أسكيا إسحاق (ت 956هـ/ 1549م) وأسكيا داود (ت 991هـ/ 1583م)، ثم أسكيا الحاج (ت 995هـ/ 1586م) ثم أسكيا محمد، وكان في أيامه غلاء وقحط عم بلاد السودان الغربي، وحكم مدة سنة وأربعة أشهر، ثم ولي أسكيا اسحاق الحكم سنة 996هـ/ 1588م وكان كريما جوادًا بلغ الغاية في التصدق على الفقراء والمحتاجين وكان محبًا للعلماء مكرمًا لهم، يشاورهم في أمور الدين والدنيا. وشهدت مدينة تنبكت في عصر هؤلاء السلاطين ازدهارًا كبيرًا في كافة المجالات فنشطت الحركة العلمية، وتعدّدت مساجد المدينة، وكثرت فيها دور التعليم، وظهرت أصناف الحرف والمحترفين لتلبية حاجات البلد من الضروري والكمالي من أصناف المعاش، وعم البلاد الأمن والاستقرار [الفتاش، 180] الى أن كانت سنة 999هـ/ 1590م فدخلت القوات السعدية بقيادة جؤذر، وتمكّنت بعد معارك من دخول العاصمة كاغ وإسقاط دولة سنغاي، وكانت تنبكت واحدة من المدن التي سقطت بيد جيوش السعديين [مدخل التنبكتي، أحمد بابا] وقد شهد محمد بغيع الكثير من تلك الأحداث، وامتحن مع من امتحن من علماء المدينة ووجهائها بذلك الاحتلال.

كان محمد بغيع كما قال تلميذه أحمد بابا [نيل الابتهاج، 341] عالمًا متفنّنا في كثير من العلوم، صالحًا عابدًا من خيرة عباد الله الصالحين والعلماء العاملين، مطبوعًا على الخير حسن النيّة، سليم الطوية، يتساوى لديه الناس في حسن الظن، ومن عجائب زمانه في حسن الخلق والأخلاق والمروءة، ساعيًا في حوائج الناس لدى القضاة، وإرشادهم ونصحهم لما فيه خيرهم. مقبلاً على ما يعنيه متجنّبًا الخوض في الفضول، ارتدى من المسكنة والعفة والنزاهة أزين رداء، فألقى الله محبّته في قلوب الكافة، وائتلفت عليه الأفئدة. وكان مع ذلك محققا ذكيًا فطنًا غواصًا باحثًا عن الدقائق والنطائف العلمية، حاضر الجواب، سريع الإدراك، منور البصيرة، آية في قوة الإدراك منوّر الفهم، موفقًا في ذلك، ووسم بأنه المجدّد على رأس المائة العاشرة، وفي ذلك يقول أحمد بابا في منظومته:

وعاشر القرون قد أتى
محمد إمامنا وهو الفتى

[أزهار الرياض، 3/ 57].

تصدَّر للتدريس والفتيا بمدينة تنبكت بعد وفاة شيخه أحمد بن سعيد، وجمعت مجالسه العلمية كبار الطلبة والمبتدئين، الأذكياء منهم وبطيئي الفهم، وقد عرف عنه الحرص الشديد على إيصال العلم وإفهام الجميع، فكان لا يملّ من إعادة الدرس والمسائل مرات عديدة حتى يضجر من حضر مجلسه، ومع ذلك فهو لا يكلّ ولا يملّ الى أن يجد من المتعلّم تجاوبًا فيما يقرره من المسائل، قال أحمد بابا [نيل الابتهاج، 341] «سمعت بعض أصحابنا لما رأى صبره في ذلك يقول: أظن هذا الشيخ شرب ماء زمزم لئلاّ يملّ من الإقراء تعجّبا منه».

وكانت مجالسه تبدأ بعد صلاة الفجر الى الضحى الكبيرة، ثم يعود لداره ويصلي الضحى، وربّما مشى بعد ذلك الى القاضي في حوائج الناس، أو لصلح بينهم، ثم يبدأ بالإقراء في بيته وقت الزوال ثم يصلّي الظهر بالناس، ويستمر بالتدريس الى صلاة العصر، وبعد الصلاة ينتقل الى مكان آخر يدرس فيه الى قرب الأصفرار، ثم يصلّي المغرب في الجامع ويدرّس فيه الى آذان العشاء، ثم يعود بعد الصلاة الى بيته.

وجمعت مجالسه العلمية بين علوم التفسير والفقه والحديث والعربية والعقائد والمنطق، ومن المؤلّفات التي كان يدرسها؛ موطأ الإمام مالك، والمدوّنة، ومختصر ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، ومختصر الشيخ خليل في الفقه، وجمع الجوامع للسبكي شرح المحلّي في الأصول، والصحيحين، البخاري ومسلم، وألفية العراقي وشرحها في علم الحديث، والتسهيل والألفية في النحو، وتلخيص المفتاح في البيان، وشرح الخزرجية في العروض بشرح الشريف والدماميني، ومنظومة ابن عاصم في مسائل الأحكام مع شرح ولده عليها. وجامع المعيار في الفتاوي للونشريسي، والمدخل لابن الحاج الفاسي، وعقيدة السنوسي الصغرى والكبرى مع شرح زروق عليها، وجمل الخونجي، ومنظومة المغيلي وشرحها في المنطق.

طلبه أسكيا داود لقضاء جني بعد وفاة والده محمود فأبى وامتنع، وكذلك امتنع أخوه أحمد، وعزم عليهما أسكيا داود وشدد، ولم تنفع شفاعة الشافعين لهما، حتّى اضطرا الى الاعتصام بالمسجد فمكثا فيه شهورًا ورسل أسكيا تتردد اليهما الى أن أعفى عنهما، وطلبهما للمثول أمامه فسافرا برفقة الشيخ أحمد بن سعيد ولقوا الأسكيا داود في كاغ فأنزلهم منزلاً حسنا وأسبغ عليهم الكثير من الرعاية والكرم، ومكثوا في ضيافته مدة وهو يزورهم كل ليلة ثم عادوا إلى مدينة تنبكت [الفتاش، 114 ـ 115].

وفي سنة 991هـ/ 1583م توفي القاضي العاقب بن محمود، وخلت تنبكت من قاض يفصل بين الناس، وينظر في مصالح المسلمين بسبب رفض أخيه عمر ولاية المنصب على الرغم من تردّد رسل أسكيا الحاج إليه مرات وإلحاحهم عليه لمباشرة القضاء، وظلّ هذا الوضع مدّة سنة ونصف والمدينة بدون قاضٍ. «ودفعًا لما بدا في الناس في ذلك الزمان المقترة من الخسارة وأكل بعضهم أموال بعض، وتضييع أموال اليتامى» [الفتاش، 126]، تصدّى محمد

بغيع لمهمّة الفصل بين الناس، وعد ذلك ضرورة شرعية لا بد منها في مثل تلك الظروف، فكان يجلس بعد صلاة الفجر مع بعض طلبة العلم بباب مسجد يحيى ويفصل بين المولدين والمسافرين، ويدعو من له حق على من امتنع به للنظر في دعواه، ويأمر وينهى ويسجن ويضرب من استحقّ الضرب [الفتاش، 126] في حين كان الفقيه والمفتي أحمد معيا يفصل بين أهل سنكري [تاريخ السودان، 118].

ولم يسلم محمد بغيع من كلام المرجفين وسفهاء الناس فاتهموه بحب الدنيا وطلب المناصب، وظنوا في دينه وزهده الظنون، وكثيرًا ما كان يجد في محل جلوسه للقضاء بطاقات مكتوبة تحمل هذه المعاني من الكلام فيقرأها ويقول لمن حضره من الطلبة وغيرهم: «. . .قد تعيّن ذلك علينا ويسألنا الله عن كلّ ما تضيّع في هذا الزمان ولا نبالي لوم أحده» وكان طوال تلك المدّة يراسل أسكيا الحاج وأعوانه مع بعض علماء المدينة لتولية الفقيه عمر بن محمود القضاء ومن دون أن يعلم بذلك أهل تنبكت، ولما تمّ ذلك وولي عمر بن محمود القضاء وعلم منتقدوه حقيقة الأمر ندموا على ما اقترفوا بحق الشيخ محمد بغيع، فزاده الله رفعة وجلالة في عيون الناس.

وواجه محمد بغيع أيامًا ثقيلة وعصيبة بعد احتلال مدينة تنبكت من قبل القوات السعدية، وسعى مع بقية علماء المدينة الى نبذ الخلاف والفتنة خاصة بعد واقعة الجامع الكبير التي وقعت بين أهل تنبكت والقائد المصطفى والذي كان من نتائجها القبض على آل أقيت وعددًا من علماء المدينة ورجالها وكان محمد بغيع من بينهم ثم أطلق سراحه، وسجن آل أقيت، ثم سيقوا بعد ذلك الى مراكش [مدخل التنبكتي، أحمد بابا] واستدعاه القائد محمود بن زرقون، وأمره أن يدوّن شهادته مع جملة الشهود الذين شهدوا على صورة كتاب سوغ فيه ابن زرقون أعماله تجاه آل أقيت، واتهمهم فيه بإثارة الناس ضد جند المغاربة، وبالتعاون مع آل أسكيا، والسعي إلى جمع الرجال لقتالهم إلى غير ذلك من التهم الباطلة. ورفض محمد بغيع ذلك رفضًا قاطعًا ولم تُجْدِ أساليب الترهيب التي اتّبعها معه ابن زرقون في شيء، فاتهمه بالكتابة إلى أسكيا نوح وموالاته وأن خطه دليل إثبات عليه لا ينكر وشهد شاهد من الحضور على ذلك وهدّده بقطع يده، وقيل بقتله إن لم يشهد كما شهد غيره، وظلّ الشيخ على موقفه فلما آيس منه خلى سبيله [الفتاش، 176 _ 177].

توفّي في شوال سنة 1002هـ/ حزيران 1594م.

درس عليه جمع كبير من أهل تنبكت وغيرها من مدن السودان الغربي، وعرف عنه التواضع مع أهل العلم وطلابه، محببًا لهم الطلب والسهر في سبيله، فكان يبذل لهم نفائس الكتب ولا يمنعها عن أحد منهم، وربّما يأتي لبابه طالب يطلب منه كتابًا فيعطيه له من غير معرفة سابقة، فكان العجب العجاب في ذلك إيثارًا لوجه الله تعالى مع محبّته للكتب وتحصيلها شراءً ونسخًا [نيل الابتهاج، 342].

ويعد أحمد بابا التنبكتي من أجل تلاميذه، قرأ عليه الكثير من المؤلّفات التي كان يدرسها في مجالسه العلمية، ولازمه مدّة زادت على

العشر سنين، وأجازه إجازة عامّة، وأخذ عنه أيضًا عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الرحمن، ومحمد بن أحمد بابا، وأبناء أخيه إبراهيم ومحمد والمصطفى.

آثاره

وعلى الرغم من انشغال محمد بغيع بالتدريس والفتيا طيلة يومه، فقد كتب مؤلفات منها:

1 ـ حاشية على مختصر الشيخ خليل، ذكرها أحمد بابا في نيل الابتهاج والكفاية والبغدادي، وكحالة، والزركلي، وابن مخلوف؛ 2 ـ حاشية على شرح التتائي الكبير على مختصر خليل، نبه فيه على ما تضمّنه شرح التتائي من السهو نقلاً وتقريرًا، ذكره أحمد بابا في نيل الابتهاج والكفاية، وابن مخلوف؛ 3 ـ فتاوي في مسائل عديدة، قيدها عنه أهل العلم، ذكرها أحمد بابا والزركلي، وابن مخلوف.

ونسب إليه البغدادي وكحالة كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج وهو وهْم ظاهر، فالكتاب المذكور لتلميذه أحمد بابا.

المصادر والمراجع

● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج وكفاية المحتاج، القاهرة، 1932م، 341 ـ 342، نسخة الحرم المكي، ورقة 176و؛ ● المقّري، أزهار الرياض، تح. مصطفى السقا، القاهرة، 1939، 3/ 57؛ ● كعت، محمود، تاريخ الفتاش، أنجي، 1913، 88 ـ 90 و114 و115، 126 و175 ـ 177و 180؛ ● السعدي، تاريخ السودان، ط. هوداس، 1818م، 43 و118؛ ● القادري، التقاط الدرر، تح. هاشم العلوي، بيروت، 1983، ص20 ونشر المثاني، طبع حجر، 1/ 23؛ ● بلو، محمد، إنفاق الميسور، تح. بهيجة الشاذلي، الرباط، 1996، 312 ـ 315؛ ● الأفراني، صفوة من انتشر، طبع حجر، مراكش، ص35؛ ● البغدادي، هدية العارفين، استانبول، 1951، 2/ 260؛ ● الحجوي، الفكر السامي، المكتبة العلمية، المدينة المنوّرة، 4/ 105؛ ● ابن مخلوف، شجرة النور، القاهرة، 1349هـ، 1/ 297؛ ● الزركلي، الأعلام، ط3، 7/ 310 و10/ 229؛ ● كحالة، معجم المؤلّفين، دمشق، 1965، 12/ 315، زبادية، مملكة سنغاي، 138.

د. ناطق صالح مطلوب
جامعة الموصل ـ العراق

ابن البغيل، أبو جعفر أحمد بن قاسم

(ت 750هـ/1349م)

أبو جعفر أحمد بن قاسم بن عبد الله بن إبراهيم الخولاني أو (الجذامي)، المعروف بابن البغيل، فقيه، لغوي، مؤرخ. من أهل المرية (Almeria) بالأندلس، وأصله من مدينة مرسية (Murcia)، انتقل منها أبوه إلى المرية، واستقر فيها. وكانت هذه المدينة، تُعد في الحقبة التي عاش فيها ابن البغيل من أهم ثغور مملكة غرناطة، بعد مدينة مالقة (Malaga). ولكنها كانت في الوقت نفسه تتعرض إلى مخاطر خارجية من الإسبان، وكذلك إلى أحداث داخلية خطيرة تتعلق بالصراع بين أفراد الأسرة النصرية الحاكمة، والنزاع مع شيخ الغزاة المريني. ولا تشير المصادر المتيسرة إلى دور ابن البغيل في أحداث عصره، باستثناء أنه كان يتصرف في الأعمال الاستقبالية بدار الأشراف في المرية، لحقبة طويلة من حياته [ابن القاضي، درة الحجال، 1/ 135]. ويبدو أن عمله هذا كان أشبه ما يكون بوظيفة الحاجب، أو مسؤول العلاقات العامة، حسب تعبيرنا الحالي، في دار الأشراف، الذي ربما كان مكاناً لاجتماع علية القوم في المرية. ومن الواضح أن هذا العمل لم يكن يلائم طبيعة ابن البغيل، الذي كان "ينتحل طريقة الفقراء، ويظهر من مظاهر التصوف، لهذا فقد انقطع عنه لفترة قصيرة تنسكاً"، لكنه رجع إليه لأنه، كما يبدو، كان مصدر رزقه الوحيد.

كان ابن البغيل إضافة إلى تصوفه ونسكه، من كبار أدباء مدينة المرية وشعرائها، وكتابها النبلاء. وقد درس اللغة على أبي القاسم محمد المقري اللغوي، كما روى عن الأستاذ أبي جعفر بن عبد النور المالقي. ومن تلامذته، خالد بن عيسى البلوي، مصنف الرحلة المعروفة باسم: "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق". وقد عاصر بعض أعلام مدينة المرية، من أمثال أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري المتوفى سنة 770هـ/ 1368م، الذي كان يتناشد معه الشعر، ومما أنشده ابن البغيل لابن خاتمة (من الطويل):

أما والهوى العُذْريُّ والعفَّةُ التي
تكفُّ عن الأوهام حتى عن الطّيف

لقد ذهبت منها النفوسُ بفتنة
مُضلّلة تهدي النفوس إلى الحتف

فما نَهَتْني إذ نهتْني قُوى النُّهى
ولم تكنِ التقوى لتقوى على الكفّ

ويتفق الذين ترجموا لابن البغيل، على أنه كان كاتبًا نبيلاً، وشاعراً مطبوعاً، حسن المجالسة، ذكيّ النفس، لطيف الشمائل، حسن الخط، يضاف إلى ذلك أنه كان مؤرخاً يكتب عن أهل بلاده. وينقل ابن حجر العسقلاني عن لسان الدين بن الخطيب، في كتابه: "التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى" (الذي يحتوي على تاريخ مختصر لمملكة غرناطة، وتراجم لأعيانها، ويوجد جزء منه بالمخطوط رقم

554/ غزيري، بمكتبة الاسكوريال)، قوله عن ابن البغيل أنه: «أرخ وقيّد، وأحكم بناء العبارة، وشيّد ورقّم الرسائل، والوقائع، ورسم الأخبار، وكتب الوقائع بنفسه». كما أورد له نماذج من شعره، بألفاظ ومعان جميلة [الدرر الكامنة، 1/ 151]

ويبدو أن كلام ابن الخطيب عن أسلوبه، وتدوينه للوقائع ينسحب على أحد مؤلفات ابن البغيل في مجال التاريخ. لكننا لم نعثر إلا على إشارة واحدة إلى هذا المؤلف، حيث يشير ابن القاضي إلى قيامه بتصنيف «تاريخ حسن في حصار البرجوني لمدينة المرية» [درة الحجال، 1/ 134]، الذي لم يصلنا مع الأسف. والملك البرجوني المقصود هو خايمي الثاني (Jaime II) ملك أراغون، الذي شنّ هجوماً على المرية سنة 709هـ/ 1309م. وقد بذل المهاجمون النصارى جهوداً كبيرة للاستيلاء على المرية، ونصبوا عليها المجانيق، فلقيهم المسلمون، وكبدوهم خسائر فادحة، ودام الحصار للمدينة ستة أشهر. ولكن المعركة انتهت بهزيمة النصارى على يد جيوش الأندلس، بقيادة شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلاء المريني، وتم رفع الحصار عن المدينة. وقد تطرق إلى هذا الحصار الكثير من المؤرخين الأندلسيين والمغاربة، مثل ابن الخطيب في «اللمحة البدرية»، وابن القاضي المكناسي في «درة الحجال»، والونشريسي في «المعيار المعرب». ومن المرجح جداً أنهم نقلوا معلوماتهم عن كتاب ابن البغيل عن حصار المرية الذي أشرنا إليه أعلاه. ولا شك أن هذا الكتاب احتوى على تفصيلات أوفى وأدق، لأنه مخصص بأجمعه لهذا الحدث، ولأن كاتبه كان من أهل المرية، الذي عاصر الحصار، وكان شاهد عيان عليه. وقد عاش ابن البغيل نحو أربعين سنة أخرى بعد هذا الحصار، وشهد العديد من الأحداث المهمة فيها، وربما دوّن البعض منها، ولكن لم تصل إلينا معلومات عنها.

وقد توفي ابن البغيل في وباء الطاعون، الذي أصيبت به المرية في منتصف القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي. وهو الوباء المعروف بالفناء الكبير الذي استمر مدة أحد عشر شهراً، وقضى على عدد كبير من سكانها، كان من ضمنهم ابن البغيل، الذي توفي في العاشر من المحرم سنة 750 هـ/ 1349م.

المصادر والمراجع

● ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح. محمد سيد جاد الحق، ط 2، القاهرة، 1966، دار الكتب الحديثة، 1/ 151، الترجمة 603؛
● ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، 1970، دار التراث وتونس، المكتبة العتيقة، 1/ 133 ـ 135، الترجمة 164؛ ● البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح. حسن السائح، المحمدية، المغرب، مطبعة فضالة، مقدمة المح II 1/ 31؛
● السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، بيروت، 1969، دار النهضة العربية، 102 ـ 103.

أ. د. عبد الواحد ذنون طه
جامعة الموصل ـ العراق

بُغْيوغُو، أحمد بن محمود

(ت 978هـ/1570 ـ 1571م)

أحمد بغيوغو هو عالم فقيه من فقهاء مملكة سونغاي الإسلاميّة خلال القرن العاشر الهجري/ القرن السّادس عشر الميلادي. وهو ابن القاضي الجنوي محمود بن أبي بكر الونكري وشقيق الفقيه المشهور محمد بغيوغو [البرتلي، فتح الشكور، 28 ـ 29].

لا نجد في المصادر التّاريخيّة ذكرًا لتاريخ ولادته، لكن من المرجّح أنّ مكانها كان بمدينة جنّي Djenniالّتي تقع اليوم في المنطقة الوسطى من جمهورية مالي، فقد كانت موطن والده وبها كان تولّيه منصب القضاء.

ولا نجد فيها كذلك معطيات متعلّقة بتربية أحمد بغيوغو. لكن بناءً على كون أسرته من أهمّ الأسر في مملكة سونغاي من حيث حظّها في العلم ودورها في الدّعوة ونشر الثّقافة الإسلاميّة [أحمد، حركة التّجارة والإسلام والتّعليم الإسلامي، ص 351]، فلا شكّ أنّ نشأته في ظلّ هذه الأسرة كانت دينيّة إسلاميّة وأنّه، على غرار أخيه محمد بغيوغو، بدأ تعلّمه على أيدي بعض الأعلام في أسرته، وخاصّة منهم والده وخاله اللّذين اشتهرا بالعلم والفقه. فعنهما تلقّى دروسه الأولى في اللّغة العربيّة وفي الفقه الإسلامي [السّعدي، تاريخ السّودان، 45].

والظّاهر أنّه لا يوجد فارق عمري كبير بينه وبين شقيقه محمد بغيوغو إذ ارتبطت المرحلة الموالية من تكوينه به، فكان رفيقه عندما انتقل إلى مدينة تمبوكتو الّتي كانت تعدّ في ذلك العصر من أهمّ مراكز الثّقافة في العالم الإسلامي، إذ كانت على حدّ سواء قبلة الطلاّب والعلماء السّودان ومورد غيرهم من المشارقة والمغاربة.

إذن نزل أحمد بغيوغو مع أخيه بهذه المدينة، فكان أهمّ العلماء الّذين اتّصلا بهم من الأسرة الأقيتيّة الّتي تربطها بأسرتهما علاقات متينة وضرب من التّحالف على نشر الإسلام وثقافته وعلومه في مختلف أرجاء السّودان الغربيّ [أحمد،م. س، 351]. وتنصّ المصادر على علمين من الشيوخ الأقيتيّين الّذين اتّصل بهم الأخوان: أوّلهما الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد (ت 976هـ/ 1568م). وكانت بداية دراستهما عليه قبل رحلتهما إلى الحجّ. والظّاهر أنّهما اقتصرا عنده أوّلاً على قراءة مصنّف واحد من المصنّفات الإسلاميّة الهامّة، وهو مختصر الخليل. ذلك أنّ هذا العالم واضع حاشية على هذا المصنّف [م. س، 331]. وإذن فقد كان المشهور من مدرّسي تمبوكتو بعمق معرفته بهذا الكتاب وقدرته على تعليم الطلاّب مادّته ومضامينه.

وقبل أن يتمّا تكوينهما عند هذا الفقيه ثمّ يتّصلا بالأقيتيّ الثّاني، اعتزما مع خالهما

الرّحلة إلى الحجاز للحجّ، فكان لأحمد بغيوغو مثل ما كان لأخيه وخاله من حضور مجالس العلم في القطر المصريّ والاتّصال بعدد من أعلام الفكر في هذه البلاد على غرار النّاصر اللّقاني، والتّاجوريّ، والشّريف يوسف الأرميونيّ، والبرهموشيّ الحنفيّ، ومحمد البكريّ. ولا شكّ أنّه استفاد من ذلك في تكوينه وصقل مواهبه [م. س].

تذكر المصادر أنّه لمّا عاد الثّلاثة من المشرق بعد الحجّ، توفّي خال الأخوين، فرجعا إلى أستاذهما ابن سعيد ثانيا ليكملا تكوينهما في الفقه والحديث، فقرآ عليه الموطّأ والمدوّنة وغيرهما [السّعدي، م. س، 45].

بعد ذلك اتّصل أحمد بغيوغو مع أخيه بالفقيه الأقيتيّ الثّاني، أي أبي العبّاس أحمد بن أحمد ابن عمر بن محمد أقيت (ت 991هـ/ 1583م) والد المؤرّخ الفقيه أحمد بابا التّمبوكتيّ. فتكوّن عنده مثل أخيه في علم أصول الفقه والمنطق والبلاغة العربيّة. ومن أمّهات المصادر الّتي قرأها مع أخيه على هذا الفقيه أصول السّبكيّ وتلخيص المفتاح [م. س].

بهذا الحدّ من تكوين أحمد بغيوغو تكتفي المصادر التّاريخيّة. فإذا كانت قد ذكرت أنّ أخاه محمد بغيوغو قد نال إجازته على يدي هذا العالم، فقد انصرفت عمّا يتعلّق به. وعليه لا نجد فيها شيئًا عن العالم الّذي أجازه، أهو والد المؤرّخ أحمد بابا أم غيره؟.

ويحتمل هذا الإهمال أنّ أخاه محمدًا كان أرسخ منه قدمًا في العلم والمعرفة، أو أنّ الظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة هي الّتي رجّحت كفّة أخيه عليه من حيث الشّهرة وما يترتّب عليها عادة من عناية المؤرّخين والمترجمين.

وبناء على ما ذكرنا من كون الدّارسين قد أولوا عناية خاصة بحياة أخيه مما حجب جزءا من حياته هو، فإنّنا لا نجد معلومات عن النّشاط الفكريّ الّذي مارسه أحمد بغيوغو بعد نبوغه، فنحن لا نعلم أكان مثل أخيه متفرّغا للتّدريس والتّأليف أم أنّه اكتفى بالتّدريس دون الثّاني؟ والظّاهر لنا أنّه لو كان من المصنّفين لما أهملت المصادر التّاريخيّة الإشارة إلى ما خلّده من إنتاج فكريّ. لذلك نرجّح أنّه اقتصر في حياته على ممارسة التّدريس، فقد كان في مرحلة من تاريخ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في السّودان الغربيّ تتجه عناية العلماء فيها نحو دعوة النّاس إلى الإسلام وتعليمهم العبادات والمعاملات والقيم الإسلاميّة، ولم تحدث فيها النّقلة الحقيقيّة إلى التّخصّص في البحث والتّأليف [الغربيّ، بداية الحكم المغربيّ في السّودان الغربيّ، ص 509 ـ 510].

ولعلّ ما يدعم هذا الرّأي الموقف الّذي اتّخذه أحمد بغيوغو وأخوه عندما قرّر السّلطان أسكيا داود تعيين أحدهما لخطّة القضاء في مدينة جنّي، إذ يتضمّن امتناعهم عن قبول هذا المنصب ولجوئهما إلى مسجد على مدى أشهر عديدة كونهما مقتنعين بأنّ وظيفة العالم النّموذجيّة هي الدّعوة والتّدريس. يؤكّد هذا ما جاء في تاريخ الفتّاش من أنّه لمّا حمل السّلطان أسكيا إسحاق (1539 ـ 1549م) والدهما على تولّي القضاء في غاو يشغ استغرب ابنه أحمد فسأله: «لِمَ قبلت هذا المنصب؟ فأجاب بأنّه كان مضطرّا مجبرًا» [كعتو، محمود، تاريخ الفتّاش، 165 ـ 169].

إنّنا نجد في هذا الاستفهام معنى الإنكار وتعبيرًا عن نزعة فكريّة وموقف أخلاقيّ يدعو من ناحية إلى اجتناب منصب القضاء وغيره من المؤسّسات السّياسيّة لكونها محفوفة بخطر الزّيغ وقلّة التّقوى ومجانبة العدل [الغربيّ،م. س. 391]، ومن ناحية ثانية إلى اعتبار الدّعوة والتّدريس الوظيفة الفضلى للعالم، لكونها أضمن لمبادئه ولاستقلاله الفكريّ. وإذن فهي الأوفر حظًا من شروط الانقياد لأوامر الشّرع وفهم مقاصده وروحه.

ولئن خلت المصادر التّاريخيّة من هذا الجانب الهامّ من حياة أحمد بغيوغو، فإنّها لم يَفُتْها أن تشير إلى المنزلة العلميّة والدّينيّة الّتي كانت له بين أهله في زمانه، ففي إصرار السّلطان أسكيا اسحاق على استعماله هو أو أخيه لخطّة القضاء دليل على أنّه كان من الفقهاء الكبار المؤهّلين لوظيفة القضاء، كما نجد في اشتراطه للعفو عنهما حضور كليهما إلى بلاطه بغاو دليلاً على اعترافه لكلّ منها برفعة منزلته في العلم والتّقوى والورع، لا سيّما أنّ أهالي مدينة جنّي كانوا يدعمون السّلطان في استخدامهما. وعلى هذا النّحو وصف السّعدي أحمد وأخاه بكونهما فقيهين عالمين فاضلين صالحين [السّعدي،م. س، 19]. وكفى أنّ أحمد بغيوغو كان ضمن الأعلام المترجم لهم في كتاب فتح الشّكور؛ فقد ذكر البرتلّي في خطبته أنّه لم يتناول فيه إلاّ المشاهير من العلماء في بلاد التّكرور [البرتلّي، فتح الشّكور، 25 ـ 26]. وقد عدّه المؤرّخ كي ـ زربو من الأقطاب السّودان الّذين استفادوا من الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، فتمكّنوا من المساهمة في النّهوض بالحياة الثّقافيّة والفكريّة في افريقيا الغربيّة ودفعها إلى منعرج جديد، لعلّ أهمّ خصائصه تعميم الكتابة واعتماد اللّغة العربيّة في الإنتاج الفكريّ.

المصادر والمراجع

● البرتلي، أبو عبد اللّه محمد، فتح الشّكور في معرفة أعيان علماء التّكرور، تح. محمد إبراهيم الكتّاني ومحمد حجّي، بيروت، 1981 م، دار الغرب الإسلامي. يمتاز هذا المصدر بتضمّنه لمدخل خاصّ بأحمد بغيوغو وفيه ذكر لتاريخ وفاته ومعلومات عن بعض أفراد أسرته؛ ● السّعدي، عبد الرّحمن، تاريخ السّودان، تح. أ. هوداس (O. Houdas.)، وتلميذه بنوة، باريس، 1981م، ميزونوف (Maisonneuve). توجد هنا أيضًا معطيات مفيدة عن دراسة أحمد بغيوغو، لكنّها جاءت مرتبطة باسم أخيه؛ ● الغربيّ، محمد، بداية الحكم المغربيّ في السّودان الغربيّ، إشراف نقولا زيادة، وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد، 1982م. دار الرشيد للنشر، يمتاز هذا المرجع بالرّؤية النّقديّة، لذلك يمكن الاستفادة منه في تقييم حصيلة التّفاعل الفكريّ والثّقافيّ بين السّودان في هذه المنطقة والحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ ● أحمد، مهدي رزق اللّه، حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي أفريقيّة قبل الاستعمار وآثارها الحضاريّة، الرّياض، 1998 م، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة.

هذا مرجع مفيد في الاطّلاع على الظّروف

العامّة لعصر أحمد بغيوغو، لكن لا نجد فيه فقرة خاصّة به، فما يتعلّق به من المعلومات تابع لأخيه.

- KATI (M.), Chronique du chercheur pour servir l'histoire des villes, des armées et des principaux personnages du Tekrour, Trad. O. Houdas et M. Delafosse, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1913.
- KI-ZERBO (J.), Histoire de l'Afrique Noire d'hier à demain, Ed. Hatier, Paris, 1978.

نجد في هذا المصدر معلومات عن حياة محمود بغيوغو بعد تحصيله. ومنها قصّته هو وأخوه مع السّلطان أسكيا إسحاق.

هذا المرجع يفيد في بيان الإطار التّاريخيّ الحضاريّ العام لحياة أحمد بغيوغو وللدّور الّذي كان له في المرحلة الّتي ظهر فيها من مراحل التّفاعل بين الحضارتين السّودانيّة والعربيّة الإسلاميّة.

وليلاي كندو

جمهورية بوركينا فاسو

بُغْيوغُو، محمد بن محمود

(930هـ/1523م - 1002هـ/1593م)

يعتبر هذا العالم التّمبوكتيّ الفقيه من أشهر العلماء ورجال الدّعوة الإسلاميّة في السّودان الغربيّ على وجه العموم وفي منطقة مالي (Mali) على وجه الخصوص. وهو ابن الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر الونكري أصلاً والجنويّ موطنًا والمعروف بـ«بُغْيُوغُو» أو «بَغْيُغ». وله شقيق فقيه يدعى أحمد بغيوغو [السّعدي، تاريخ السّودان، 43].

تؤكّد المصادر على أنّ مولد محمد بغيوغو كان عام 930هـ [م.س، 46] الموافق لسنة 1523م. وإذن فقد عمّر زهاء اثنتين وسبعين سنة ميلاديّة. أمّا مكان ولادته، فالظّاهر أنّه كان في مدينة جنّي (Djenni) الّتي ينتسب إليها والده. وقد كانت من أهمّ المدن في مملكة سونغاي. وتقع اليوم في المنطقة الوسطى من جمهوريّة مالي.

وتربّى محمد بغيوغو في أسرة متديّنة محافظة مشتهرة بالعلم والاشتغال بالدّعوة الإسلاميّة. وكانت بينها وبين الأسرة الأقيتيّة الشّهيرة علاقة متينة، فقد كانتا الأسرتين الأساسيّتين اللّتين نهضتا بدور بارز في نشر العلم والدّين الإسلاميّ في مملكة سونغاي [أحمد، حركة التّجارة والإسلام والتّعليم الإسلاميّ، 351].

هكذا كانت بداية تكوينه على أيدي أعلام من أسرته، فتلقّى دروسًا في علوم اللّغة العربيّة والفقه الإسلاميّ عن والده وخاله الفقيه [السّعدي،م. س، 45]. ثمّ انتقل رفقة أخيه إلى مدينة تمبوكتو فاتّصلا بعلمين بارزين من

الأقيتيّين، أحدهما الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد (ت 976هـ/ 1568م). وقد درسا عليه في علوم الفقه والحديث. ومن أمّهات المصادر الاسلاميّة الّتي قرآها عليه مختصر الخليل، وموطّأ الإمام مالك والمدوّنة.

وثاني العلمين الفقيه أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت (ت 991هـ / 1527م) والد الفقيه والمؤرّخ المشهور أحمد بابا التّمبوكتيّ (ت 1036هـ/ 1627م). وعلى يده تكوّنا في علم الأصول وفي المنطق والبلاغة العربيّة. ومن أهمّ المدوّنات التي قرآها عليه أصول السّبكي وتلخيص المفتاح [م.س، 46].

في أيّام تكوينه بمدينة تمبوكتو، قام محمد بغيوغو رفقة أخيه وخاله برحلة إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ، فتمكّنوا من حضور مجالس العلم بمصر، والاتّصال بعدد من أعلام الفكر الإسلاميّ بها، من أمثال النّاصر اللقّاني، والتّاجوري، والشّريف يوسف الأرميوني، والبرهموشي الحنفيّ، والإمام محمد البكري، وغيرهم من علماء المشرق؛ فكان أن أفادهم واستفادوا منهم [م.س، وكذلك أحمد،م. س، 351].

وعلى هذا، فقد تكوّن محمد بغيوغو في كثير من العلوم الإسلاميّة في زمانه، وجمع في ذلك إلى الاستفادة من أعلامها البارزين في السّودان الغربي الاحتكاك بغيرهم من مشاهير رجال الفكر المشرقيّين. وإذن فقد صار على حدّ عبارة أحمد بابا التّمبوكتيّ شيخ وقته [السّعدي،م. س، 45] وعالمًا متعدّد الاختصاص، ذا ثقافة واسعة متنوّعة، ناهيك أنّه كان شغوفًا بالمطالعة ولوعًا باقتناء الكتب ونسخها. وبذلك كوّن مكتبة قيّمة من الكتب النّادرة النّفيسة [أحمد، مهدي رزق اللّه،م. س، 350].

وكان للشّيخ محمد بغيوغو نشاط فكري تمثّل أساسا في اشتغاله بالتّدريس، فكان أهمّ شيوخ المؤرّخ الفقيه أحمد بابا التّمبوكتيّ على الإطلاق [كي ـ زربو، تاريخ افريقيا السّوداء، 150]. فقد لازمه هذا العالم في مرحلة تعلّمه مدّة نيفت على عشرة أعوام. قرأ عليه خلالها مختصر الخليل والموطّأ وأصول السّبكي وألفيّة العراقيّ وتلخيص المفتاح وصغرى الإمام السّنوسيّ وحكم ابن عطاء اللّه السّكندريّ وغيرها [السّعدي،م. س، 45 ـ 56]. وعلى العموم كان بغيوغو أستاذ المؤرّخ في علوم اللّغة والمنطق والبلاغة والعروض وفي علم الفقه وأصوله وفي علم التّفسير والحديث [م. س]. وقد نصّ المؤرّخ على ذلك فقال: «وبالجملة فهو شيخي وأستاذي، ما نفعني أحد كنفعه (...)، وأجازني بخطّه جميع ما يجوز له وعنه» [م. س].

وتؤكّد المصادر أنّ محمد بغيوغو كان مطبوعًا على الخير وعلى حسن النيّة والتّواضع والسّعي في حوائج النّاس، وأنّه كان يدعوهم إلى محبّة العلم والمواظبة على تحصيله. فكان على الرّغم من تعلّقه بكتبه، يبذلها لكلّ من يطلبها منه دون حرص على استرجاعها، فكان ذلك سببًا في ضياع الكثير منها [بلّو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التّكرور، 214].

وعلى إثر الحملة العسكريّة الّتي قادها السّلطان المرّاكشيّ أحمد المنصور باللّه السّعدي (1578 ـ 1603) على مملكة مالي

سنة 1581م، وما ترتّب عليها من نكبة العلماء في تمبوكتو وخصوصًا منهم الأقيتيّون، كان محمد بغيوغو ممّن نجا، فكان أهمّ من ظلّ بتمبوكتو يواصل الدّعوة ونشر التّعليم الإسلاميّ. ويروى أنّه وقف مع الباشا المرّاكشيّ إذّاك موقفًا شجاعًا تتأكّد فيه خصاله الحميدة ولزومه التّقوى وحرصه على العدل. فقد أمره الباشا بالشّهادة زورًا على الفقهاء المأسورين المعتقلين، ليتّخذها حجّة لإدانتهم بالمروق والتّعاون مع السّلطان نوح الّذي كان يتزعّم حركة النّضال ضدّ الاحتلال المغربيّ. لكن على الرّغم من تهديد الباشا إيّاه بقطع يده، امتنع عن تلك الشّهادة، حتّى اضطرّ الباشا إلى العفو عنه إكبارًا لنبل موقفه. وهكذا صار محمد بغيوغو يحظى عند الباشا باحترام وشفاعة لكثير من أهالي تمبوكتو [أحمد، م. س، 351 ـ 352].

ولئن كان بغيوغو متشبّثًا بأمور القضاء ساعيًا لنشر العدل والخير لكلّ النّاس، فقد امتنع عن تولّي خطّة القضاء على الرّغم من إلحاح السّلطان أسكيا داود على تعيينه هو أو أخوه لهذا المنصب في مدينة جنّي، بتأييد من أهالي المدينة. حتّى إنّه لجأ وأخاه إلى مسجد من مساجد المنطقة طيلة أشهر، يستقبلان رسلاً من السّلطان، إلى أن قرّر العفو عنهما شرط أن يحضرا في بلاطه بمدينة غاو لإفادته بعلمهما وصلاحهما [كعتو، تاريخ الفتّاش، 208 ـ 210]. ولعلّ مردّ هذا التّهرّب من خطّة القضاء إلى تأثّر الشّقيقين بمحنة والدهما مع أسكيا إسحاق، إذ أجبره هذا السّلطان على ذلك المنصب بجنّي، فلم يعمّر بعد ذلك إلاّ بضعة أسابيع [م. س، 165 ـ 169].

وقد بيّن الغربيّ أنّ الفقهاء السّودان كانوا يتهرّبون من قبول منصب القضاء عند فراغه خشية الزّيغ واجتنابًا لارتكاب المعاصي وظلم النّاس ممّا به يكون استحقاق غضب اللّه [الغربيّ، بداية الحكم المغربيّ في السّودان الغربيّ، 391]. وممّا يمكن به تفسير موقف الفقيه بغيوغو حرصه على التّفرّغ للتّدريس والدّعوة والحياد في الدّفاع عن حقوق العامّة.

وكان من علامات تواضع بغيوغو أنّه لمّا عرض عليه تلميذه أحمد بابا بعض أبحاثه ومؤلّفاته سرّ بها وقرّظها بخطّه عليها واستفاد من بعضها في دروسه [السّعدي، م. س، 46].

وتفيد المصادر أنّه كانت لبغيوغو إلى جانب نشاطه في التّدريس عناية بالتّأليف، فكانت له تعاليق وحواش نبّه فيها على أخطاء السّهو الواردة في شرح أمّهات من كتب الفقه والحديث، على غرار شرح المختصر والشّرح الكبير للقّاني وغيرهما [أحمد، م. س، 350]. ويروى أنّه حرّر إلى جانب ذلك عدّة فتاوى، وأنّ تلميذه أحمد بابا قد جمع مؤلّفاته كلّها في كتاب مستقلّ [الغربيّ، م. س، 524 ـ 525]. وجاء عند صاحب الإنفاق أنّه «كان محقّقًا درّاكًا، ذكيًا فطنًا غوّاصًا على الدّقائق حاضر الجواب سريع الفهم منوّر البصيرة» [بلّو، م. س، 215]. كما جاء في مقال دياب أنّ بغيوغو كان حجّة الإسلام في السّودان وأنّ شهرته بلغت مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ [دياب، علماء بلاد السّودان الغربيّ، 150].

وبناء على كون مؤلّفات بغيوغو حواشيَ وتعاليق وفتاوى، فينطبق عليه ما رآه الكتّاني

من أنّ علماء السّودان كانوا مردّدين لما قاله السّابقون [البرتلي، فتح الشّكور في معرفة أعيان علماء التّكرور، ص 6]. أمّا الغربيّ فاعتبرها مؤلّفات خالية من إبداع متميّز سواء أكان ذلك من حيث الموضوع أم أسلوب العرض والتّحليل، وفسّر التزامهم بالقوالب القديمة باعتمادهم على الحافظة وخوفهم من التّحريف خشية المؤاخذة والتّعنيف مؤكّدًا أنّ هذه النّزعة ممّا يمليه المذهب المالكيّ الحريص على النّقل الدّقيق والعرض الأمين. وعلى هذا الأساس اتّهمت المدرسة الشّرعيّة السّودانيّة بالقصور وبالمعرفة السّطحيّة بأغراض الشّريعة [الغربيّ،م. س، 522].

كذلك يفسّر الغربيّ القصور الّذي اتّهمت به المدرسة الشّرعيّة السّودانيّة بأنّ جمهور المثقّفين السّودان كانوا ينزعون بالنّشاط الفكري نزعة سحريّة. وهي نزعة سلفيّة تلزم الخلف بتعقّب أقوال السّلف الصّالح، مثلما يجب على السّاحر الوريث أن يكون على صورة السّحر في تشكّله القديم. وهذا ممّا أفضى عندهم إلى اعتبار العالم الفقيه جزءًا من كيان الشّرع نفسه. فكانت تنسب إليهم الخوارق والكرامات، ويعتبرون من الأولياء الصّالحين [م.س، 522 ـ 523].

وعلى عكس هذا رأى الكتّاني أنّ الذّنب في مظاهر التّقليد عند العلماء السّودان إنّما هو ذنب العصر الّذي اتّسمت فيه الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في المشرق والمغرب على حدّ سواء بالجمود والرّكود والتّقليد، وأكّد أنّه يجب اعتبار الفضل الّذي كان لهؤلاء المقلّدين في نشر الثّقافة العربيّة الإسلاميّة في المناطق النّائية [البرتلي،م. س، 6].

لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ بغيوغو كان من العلماء السّودان الّذين استفادوا من المعطيات الثّقافيّة في عصرهم فأسهموا من ناحية في النّهوض بالحياة الثّقافيّة والفكريّة بالسّودان الغربيّ، ومن ناحية ثانية في دفع التّفاعل بين الحضارة الافريقيّة السّودانيّة والحضارة العربيّة الإسلاميّة إلى منعرج جديد. ويكفي بغيوغو أنّه كان أستاذ المؤرّخ أحمد بابا التّمبوكتيّ الشّهير.

آثاره

ـ حواش وتعاليق وفتاوى جمعها أحمد بابا التمبكتي في مدوّنة مستقلّة. ونحن لا نعلم إلى الآن ما عنوانها. وأغلب الظّنّ أنّها من الأعمال الّتي ضاعت إثر النّكبة الّتي حلّت بمدينة تمبوكتو. وتبعًا لذلك يعسر علينا مراجعة المواقف النّقديّة المتّخذة منها ومن أمثالها.

المصادر والمراجع

● التّمبوكتيّ، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج. هذا المصدر ذو أهميّة بالغة في معرفة حياة محمد بغيوغو ونشاطه الفكري، فمنه استفاد السّعدي كثيرًا من المعلومات المتعلّقة بهذا العالم، لا سيّما أنّ التّمبوكتيّ كان تلميذًا له؛ ● السّعدي، عبد الرّحمن، باريس 1964م، تاريخ السّودان، تح. أ. هوداس (Houdas O.)، ميزونوف (Maisonneuve). في هذا الكتاب معطيات مفيدة عن حياة محمد بغيوغو، لكن قليلة هي المعلومات المتعلّقة بإنتاجه الفكري؛ ● بلو، محمد، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التّكرور، وزارة الأوقاف، القاهرة 1964م. ويبدو

أنّ بلّو قد اعتمد على السّعدي كليًا، فلم يضف شيئًا إلى ما ورد في تاريخ السّودان؛ ● البرتلي، أبو عبد الله محمد، فتح الشّكور في معرفة أعيان علماء التّكرور، تح. محمد إبراهيم الكتّاني ومحمد حجّي، بيروت 1981م، دار الغرب الإسلامي. لا نجد فيه مدخلاً خاصًا لمحمد بغيوغو، لكن نجد فيه ما يتعلّق بوالده وأخيه وغيرهما ممّن يتّصل به نسبه؛ ● أحمد، مهدي رزق الله، حركة التّجارة والإسلام والتّعليم الإسلامي في غربي أفريقيّة قبل الاستعمار وآثارها الحضاريّة، الرّياض 1998م، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة. نجد في هذا المرجع ما يوضّح بعض المعطيات العامّة الواردة في المصادر القديمة، لكنّه لا يتجاوز هذا الحدّ، فهو من المراجع العامّة؛ ● الغربي، محمد، بداية الحكم المغربيّ في السّودان الغربيّ، إشراف نقولا زيادة، وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد 1982م، دار الرّشيد للنّشر. ويمتاز هذا المرجع بالرّؤية النّقديّة، وفيه معطيات عن حياة محمد بغيوغو وعن مراحل التّفاعل الفكريّ والثّقافيّ بين السّودان في هذه المنطقة والحضارة العربيّة الإسلاميّة؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين.

- KATI (M.), Chronique du chercheur pour servir l'histoire des villes, des armées et des principaux personnages du Tekrour, Trad. O. Houdas et M. Delafosse, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1913.
- KI-ZERBO (J.), Histoire de l'Afrique Noire d'hier à demain, Ed. Hatier, Paris, 1978.

د. وليلاي كندو
جمهورية بوركينا فاسو

بغْيُوغو، محمود بن أبي بكر

(ت حوالي 959هـ/51 ـ 1552م)

يعتبر محمود بغيوغو فقيهًا وقاضيًا من أعيان العلماء في منطقة مالي خلال القرن العاشر الهجريّ الموافق للقرن السّادس عشر الميلادي. وهو ابن أبي بكر ووالد الفقيهين المشهورين محمد بغيوغو وأحمد بغيوغو. أصله ونكريّ (أو ونغريّ)، أي أنّه ينتمي إلى الجنس الماندي (Mandi) من سكّان السّودان الغربيّ [البرتلي، فتح الشّكور، 113 ـ 114].

ولئن أغفلت المصادر التّاريخيّة ذكر تاريخ ولادته، فقد ورد فيها أنّ موطنه كان مدينة جنّي (Djenni) السّعدي، [تاريخ السّودان، 19 ـ 20] الّتي كانت تقع في الجنوب الغربيّ

لمدينة تمبوكتو الشّهيرة، وهي الآن في المنطقة الوسطى من جمهوريّة مالي.

لا نجد في المصادر التّاريخيّة معطيات عن طفولته ولا عن تكوينه وشيوخه، لكنّ الثّابت أنّه كان من أسرة متديّنة لها منزلة مرموقة في الحياة الفكريّة والاجتماعيّة بمملكة سونغاي الإسلاميّة. فقد أورد بعضهم أنّ الأسرة بغيوغو هي قرينة الأسرة الأقيتيّة من حيث الدّور الّذي نهضت بها في الدّعوة إلى الإسلام ونشر تعاليمه وتدريس مختلف العلوم الّتي انتهى إليها تطوّر الحضارة العربيّة الإسلاميّة في ذلك العصر [أحمد، حركة التّجارة والإسلام، 351]. فلا شكّ إذن أنّه كان لهذا المحيط العائليّ دور في تكوين محمود بغيوغو وتمهيده للتّقدم في اكتساب المعرفة الإسلاميّة، حتّى كان نبوغه واستحقاقه للقب الفقيه العالم.

لقد عنيت المصادر التّاريخيّة بتحديد النّشاط الفكريّ والمهني الّذي كان لمحمود بغيوغو بعد مرحلة تكوينه وهو ولاية منصب القضاء. فقد أورد صاحب تاريخ الفتّاش أنّه لمّا تولّى السّلطان أسكيا اسحاق الحكم إثر وفاة السّلطان أسكيا إسماعيل سنة 946هـ/1539م، زار مدينة جنّي فأمر أهلها بأن يخبروه بأولئك الّذين يشوّهون سمعة المسلمين ويضطهدون سكّان المدينة، فلزم الحضور الصّمت. عندئذ بادر الفقيه محمود بغيوغو فبيّن أنّ الظّالم المستبدّ ليس سوى السّلطان السّائل نفسه، إذ لا يكون ظالم بالمدينة إلاّ عاملاً بإذن منه؛ وما الضّرائب الّتي تجمع له إلاّ مظهرٌ صارخٌ من ظلمه واستبداده، فإن أراد السّلطان الإنصاف لأهل جنّي، فما عليه إلاّ أن يشرع في إقامة الحدّ على نفسه. ويروى أنّ السّلطان قد تأثّر بهذا الكلام وصدّق محمود بغيوغو وبكى؛ ثمّ طلب المغفرة من اللّه [كعتو، تاريخ الفتّاش، 165 - 169].

بعد هذه الواقعة الّتي برهن فيها الفقيه محمود بغيوغو على شجاعته وتحرّيه العدل في حكمه، وعلى التزامه بحريّة الفكر والرّأي، لم يتوان السّلطان أسكيا إسحاق عن تعيينه قاضيًا على مدينة غاو بعد وفاة قاضيها. غير أنّ المصادر تختلف حول اسم القاضي الّذي خلفه محمود بغيوغو. فجاء عند صاحب الفتّاش أنّه الكاتب أحمد سنكمو (أو سنقم) (Sankomou) [م. س]، بينما نجد عند السّعدي أنّ محمود بغيوغو هو القاضي السّادس لمدينة جنّي بعد القاضي الخامس العبّاس كب الّذي تولّى الخطّة بعد سنكمو [السّعدي،م. س، 19].

والظّاهر أنّ غاو كانت تابعة لمدينة جنّي. لذلك نجد اختلافًا بين كعتو والسّعدي في تحديد اسم المنطقة الّتي عيّن فيها بغيوغو للقضاء. أمّا الاختلال الّذي في سلسلة القضاة بجنّي فالرّاجح ما أثبته السّعدي، إذ عُني على عكس كعتو بوضع سلسلة تامّة للقضاة في هذه المدينة، في حين أنّ اهتمام كعتو كان أساسًا بقصّة بغيوغو مع السّلطان أسكيا.

وجاء عند كعتو أيضًا أنّ رجال أسكيا قد قادوا محمود بغيوغو عنوة إلى غاو حيث حمله السّلطان على قبول المنصب، فتألّم لذلك هو وجميع أفراد أسرته حتّى وافته المنيّة بعد ذلك ببضعة أسابيع [كعتو،م. س. ص 169].

ويروى أنّه عاتب السّلطان أسكيا فذكر أنّه حرّم المنام على عينيه، فقضى عليه دوام السّهر. ثمّ دعا على السّلطان بأن يبعث اللّه الفساد في حياته وأن يجلب عليه ويلات الزّمن [م. س].

في هذه القصّة بين بغيوغو والسّلطان تأكيد لما ذكره الغربي من أنّه «كان القضاة يتهرّبون من قبول المنصب عند فراغه لخوفهم من اللّه ومن ارتكاب المعاصي عن حسن نيّة» [الغربيّ، بداية الحكم المغربيّ في السّودان الغربيّ، 391]. ولعلّ مردّ هذا الموقف السّلبي إلى كون بعض السّلاطين الأسكيّين مارسوا الظّلم والاستبداد في حكمهم، فصار العلماء يتّقون كلّ منصب يقرّبهم منهم خشية أن يكونوا شركاءهم في ظلمهم، فيحيدوا عن شرع اللّه ويبتعدوا عن شواغل العامّة وعن واجب الدّعوة إلى الإسلام ونشر ثقافته وعلومه. وما إرغام بغيوغو على تولّي القضاء وما حفّ به من إذلال وإهانة إلاّ شكلٌ من أشكال انقياد السّلطان لهواه وقلّة اكتراثه لشروط العدل والإنصاف وحكمه.

إنّ هذه القصة تدلّ على سبب عناية العلماء في السّودان الغربيّ إلى حدود القرن السّادس عشر الميلادي وتوجّههم نحو الدّعوة وممارسة التّدريس [الغربيّ، م. س، 509 - 510] حتّى إنّ هذه الوظيفة صارت في اعتقادهم النّشاط الفكريّ النّموذجيّ لكلّ عالم.

هكذا نرى طغيان الجانب القضائيّ على غيره من جوانب حياة محمود بغيوغو الفكريّة، فلا نجد من المصادر ما ينصّ على ما مارسه هذا العالم قبل تولّيه القضاء من نشاط فكريّ. لكن إذا كان من الممكن أنّه كان يشتغل بالتّأليف، لأنّ هذا النّشاط لم يكن المظهر الطّاغي على الحياة الفكريّة في السّودان الغربيّ آنذاك. فالاحتمال الرّاجح أنّه كان داعيًا مدرّسًا على غرار أمثاله من الفقهاء في زمانه. يؤكّد هذا أنّه كان أحد الشّيخين الأوّلين لابنيه [السّعدي، م. س، 45].

وبناء على المنزلة الّتي كانت لبغيوغو في الحياة الفكريّة والاجتماعيّة وعلى الشّجاعة الّتي تحلّى بها في إقرار الحقّ والزام العدل وعلى غير هذا من الخصال الّتي امتاز بها، اعتبره السّعدي من علماء مدينة جنّي المشهورين بالعلم الذين يحسن التبرّك بذكرهم [السّعدي، م. س، 19 - 20]. كما أنّ ترجمة البرتلّي له في كتابه فتح الشّكور شهادة له بأنّه كان حقا من العلماء الأعيان المشهورين في بلاد السّودان خلال القرن العاشر الهجريّ.

المصادر والمراجع

● البرتلي، أبو عبد اللّه محمد، فتح الشّكور في معرفة أعيان علماء التّكرور، تح. محمد إبراهيم الكتّاني ومحمد حجّي، بيروت 1981م، دار الغرب الإسلامي. يتضمّن هذا المصدر معلومات أوّليّة مفيدة عن نسب محمود بغيوغو ومنزلته العلميّة؛ ● السّعدي، عبد الرّحمن، تاريخ السّودان، تح. أ. هوداس (O. Houdas,)، وتلميذه بنوة، باريس 1981م، ميزونوف (Maisonneuve). توجد هنا أيضًا معطيات مفيدة عن دوره في تكوين ولديه وعن تولّيه القضاء في جنّي؛ ● أحمد،

مهدي رزق الله، حركة التّجارة والإسلام والتّعليم الإسلامي في غربي افريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضاريّة، الرّياض 1998م، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة. هذا مرجع مفيد في الاطّلاع على الظّروف العامّة للعصر الّذي عاش فيه بغيوغو؛ ● الغربي، محمد، بداية الحكم المغربيّ في السّودان الغربيّ، إشراف نقولا زيادة، بغداد 1982م، وزارة الثّقافة والإعلام، دار الرّشيد للنّشر. يمتاز هذا المرجع بالرّؤية النّقديّة، لذلك يمكن الاستفادة منه في تقييم حصيلة التّفاعل الفكريّ والثّقافيّ بين السّودان في هذه المنطقة والحضارة العربيّة الإسلاميّة.

نجد في هذا المصدر معلومات عن حياة محمود بغيوغو بعد تحصيله. ومنها قصّته مع السّلطان أسكيا داود.

- KATI (M.), Chronique du chercheur pour servir l'histoire des villes, des armées et des principaux personnages du Tekrour, Trad. O. Houdas et M. Delafosse, Ed. Ernest Leroux, Paris, 1913.

د. وليلاي كندو
جمهورية بوركينا فاسو

البقاعي، أحمد بن علي البقاعي الدمشقي الحنفي

(ت 889هـ/1484م)

نسبته البقاعي إلى خربة روحا بالبقاع، في لبنان ولد سنة (848هـ/1444م)، وعُرف في بلده بابن عُبَيْة (تصغير عباءة) [الملا الحصكفي، متعة الأذهان، 1/ 115؛ السخاوي، الضوء اللامع، 2/ 12]، ويبدو أن الأسرة انتقلت إلى دمشق، وسكنت بحي البقاعيين الكائن بجوار المدرسة الصابونية الشافعية، وكان لهم كبير ومستشار [ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان، 1/ 12].

وصف بالمروة والكرم، وبأقضى القضاة [البصروي، تاريخ، 100؛ السخاوي، الضوء اللامع، 2/ 12]، وقال عنه البصروي «كان له استحضار وذهن لا بأس به» [البصروي، تاريخ، 100]. اشتغل وحصل وتفنن وشارك في عدة علوم منها، المنطق والعربية والكلام [الملا الحصكفي، متعة الأذهان، 1/ 115].

قرأ على قاسم الحنفي، قاسم بن قُطلوبْغا بن عبد الله السُّودوني، كان يعرف بقاسم الحنفي، وبه يوقع ت 879هـ/ 1474م، من كبار شيوخ وعلماء العصر، فقيه، محدث،

حافظ ، حنفي المذهب، تصدى للإفتاء والتدريس، وأخذ عنه الفضلاء في فنون كثيرة ، وحفظت له المصادر عناوين أكثر من مئة وثلاثة أعمال ما بين كتاب ورسالة ومقال.

لم تذكر المصادر مكان دراسة أحمد بن علي البقاعي عليه، ولا العلوم أو الفنون التي درسها، والأرجح أن يكون درس عليه العلوم التي أهلته لتولي نيابة القضاء فيما بعد، من أصول فقه، وحديث وما يتعلق بهما، إضافة إلى المنطق والعربية والكلام [السخاوي، الضوء اللامع، 6/ 184 رقم 635].

وذكر السخاوي، قدوم أحمد بن علي البقاعي إلى القاهرة، وأنه أخذ عن السخاوي، والسخاوي علاّمة مشهور، طبقت شهرته الآفاق ، أثنى عليه العلماء وأخذ عنه العديد من الطلبة والدارسين، ومؤلفاته ومصنفاته تجاوزت المئات [السخاوي، الضوء اللامع، 8/ 1-32].

تولى أحمد بن علي البقاعي، عدة وظائف منها، نيابة الحكم ، فقد ناب في القضاء في دمشق [السخاوي، الضوء اللامع، 2/ 12]، وناب عن والده في نظارة أوقاف الحرمين بدمشق، ويبدو أن سيرته وسيرة والده في مباشرة أوقاف الحرمين لم تكن حسنة، فقد أخذ عليه وعلى والده بيع أكثر من عشرين جهة من الأوقاف بدلاً من تنميتها وحفظ عين رقبتها [البصروي، تاريخ، 100]، ولا ندري مدى اتفاق تصرفه بالأوقاف والمسوغات الشرعية، لا سيما وأن البصروي كانت بينه وبين أحمد بن علي البقاعي منافرة بسبب المدرسة العزيزية، وكان ذلك سنة 886هـ/ 1481م، في بيت القاضي قطب الدين الخيضري [أحمد بن طوق، التعليق، 1/ 107] ومع أن ابن طولون لم يفصل بأسبابها، فالأغلب أن يكون للتزاحم على التدريس منها.

ومن الجدير بالذكر أن أحمد بن علي البقاعي درّس في الخانقاه الخاتونية الكائنة ظاهر باب النصر شرقي جامع دنكز، وقد نزل له أبو بكر ابن عبد الله بن عبد الرحمن ابن قاضي عجلون عن الوظيفة [النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، 2/ 144].

ومن ناحية أخرى ، فقد أشار ابن طولون الصالحي في حوادث صفر (885هـ/ 1451م)، إلى وقوع قضية بين عبد الله الباعوني وابن البانياسي وابن الناعوري والشهاب البقاعي ونقيب القلعة المملوكي، بسبب غيضة (بستان) من غياض السلطان (الدولة) اقتضى الحال إلى إمساكهم والكلام الوحش بينهم ، وأخذ الخشب والغيضة منهم للسلطان والإشهاد عليهم بذلك [ابن طولون الصالحي، مفاكهة الخلان، 1/ 12].

ومن الجدير بالذكر أن أحمد بن علي البقاعي تعلق بالطب في آخر عمره ، وكان يدرس فيه في جامع يلبغا كل سبت وثلاثاء ، وجامع يلبغا يقع في الشمال الغربي من القلعة في منطقة سوق الخيل [النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، 2/ 423].

وتزوج في رمضان من سنة 889هـ/ 1484م، من امرأة ثانية لعلها ابنة العلاء المرداوي، فأعقبه مرض في معدته، اعتقد أحمد البقاعي أن سببه شيء فعلته إحدى الزوجتين بحجاب أو سم، فطلقهما. وبعد مدة توفي ودفن بمقبرة

باب الفراديس في التربة المعروفة بمرج الدحداح [البصروي، تاريخ، 100؛ ابن الحمصي، حوادث الزمان، 1/ 295].

آثاره

عاش أحمد بن علي البقاعي، زهاء أربعين سنة، ولم يُعرف له تصانيف علمية فيما عدا كتاب واحد هو: «التحفة السنية في المقالات الطبية»، منه نسخة مخطوطة في خزانة أيا صوفيا - بالسليمانية، بتركيا، رقمها 3578، ويبدو أنها نسخة فريدة [البغدادي ، إيضاح المكنون، 1/ 251]، ولعلها المادة التي كان يدرسها في جامع يلبغا في السنة الأخيرة من عمره.

المصادر والمراجع

● ابن الحمصي، أحمد بن محمد شهاب الدين، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تح. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، صيدا ، المكتبة العصرية، 1419هـ/ 1999م ؛ ● ابن طولون الصالحي، محمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح. محمد مصطفى، ط. القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، 1381هـ/ 1962م، الجزء الأول؛ ● أحمد أبو طوق، التعليق (يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق)، تح. جعفر المهاجر، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 2000؛ ● البصروي، علي بن يوسف بن أحمد، تاريخ البصروي (صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك)، تح. ودراسة أكرم حسن العُلَبي، دمشق، دار المأمون للتراث، 1408هـ/ 1988م؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، بيروت، مكتبة المثنى، د. ت؛ ● السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت، دار مكتبة الحياة ، د.ت، الأجزاءالثاني والسادس والثامن؛ ● الملا الحصكفي، أحمد بن محمد (انتقاء)، متعة الأذهان من التمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والأقران انتقاه من ابن طولون الصالحي وابن عبد الهادي، يوسف بن حسين، تح. صلاح الدين، خليل الشيباني الموصلي، بيروت، دار صادر، 1999، جزآن ؛ ● النعيمي الدمشقي، عبد القادر بن محمد، الدارس في تاريخ المدارس، تح. جعفر الحسني، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية 1988، جزآن.

د. محمد عيسى صالحية
جامعة اليرموك ـ أربد
الأردن

البقاعي، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن

(809هـ/1406م - 885هـ/1480م)

هو إبراهيم بن عمر بن حسن، أبو الحسن الخرباوي، البقاعيّ، الرِّباطيّ العلاّمة، المحدّث، الحافظ، المؤرّخ، المفسّر، الفقيه، الشاعر، المجوّد، الكاتب، الناقد، المصنّف، الغازي، المشارك في كثير من العلوم، أحد أعلام عصره المشاهير.

ولد سنة 809 هـ/ 1406م بقرية خربة روحا بالبقاع، في لبنان، ونشأ فيها حتى بلغ الثانية عشرة من عمره، حيث نقله جدّه لأمّه إلى دمشق بعد مقتل أبيه وعمّيه إثر نزاع في قريتهم بين أسرته وأسرة أخرى، وكان انتقاله إلى دمشق بداية إقبال السعادتين الدنيوية والأخروية عليه، إذ حظي بتجويد القرآن وتجديد حفظه، وأفرد القراءات وجمعها على بعض المقرئين، ثمّ على شيخ المقرئين «الشمس ابن الجزري» صاحب «غاية النهاية في طبقات القرّاء» لمّا قدم إلى دمشق سنة 827هـ واشتغل بالنحو والفقه وغيرهما من العلوم. ثمّ انتقل إلى مصر وأقام بالقاهرة، وأخذ الحديث عن الحافظ ابن حجر، والفقه عن التقيّ ابن قاضي شهبة، ولازم « القياتي»، و«الوناني»، وله سماع بالخليل، وطرابلس، وحلب، وغيرها، وجمع في مجلّد ضخم شيوخه وأقرانه الذين أخذ عنهم وسمع منهم وعاصرهم، فكان يعددهم يربو على الألف.

ومهر وبرع في الفنون، ودأب في الحديث، وفاق أقرانه بتعدّد معارفه وإحاطته بعلوم عصره، وكثرة مؤلفاته، وخروجه للجهاد والغزو ضدّ الفرنج، فجمع بين العلم والعمل، مع الوعظ والمناقشة والمناظرة وسعة الاطلاع، ومقارعة العلماء ومحاججة رجالات عصره. ومع ذلك بالغ السخاوي في الانتقاص منه، فقال «إنّه ما بلغ رتبة العلماء، وما أتقن فنّا، وأنّ تصانيفه شاهدة على ذلك». فتصدّى الشوكاني للدفاع عنه فقال: «بل تصانيفه شاهدة بخلاف ما قال السخاوي، وإنّه من الأئمّة المتقنين المتبحّرين في جميع المعارف، ولكن هذا من كلام الأقران في بعضهم بعضا، بما يخالف الإنصاف لما يجري بينهم من المناقشات تارة على العلم، وتارة على الدنيا. ومن أمعن النظر في كتاب برهان البقاعيّ في التفسير الذي جعله في المناسبة بين الآي والسور، علم أنّه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء، الجامعين بين علمي المعقول والمنقول، وكثيرا ما يشكل عليّ شيء في الكتاب العزيز فأرجع إلى مطولات التفسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي، وأرجع إلى هذا الكتاب فأجد ما يفيد في الغالب. وقد نال منه علماء عصره بسبب تصنيف هذا الكتاب وأنكروا عليه النقل من التوراة والإنجيل، وترسّلوا عليه، وأغروا

به الرؤساء، ورأيت له رسالة يجيب بها عليهم وينقل الأدلّة على جواز النقل من الكتابين، وفيها ما يشفي. ولما تنكّر به الناس وبالغوا في أذاه غادر مصر وأقام بدمشق».

وقد خرج مع الغزاة أكثر من مرة للجهاد ضدّ الفرنج، منها غزوة سنة 844هـ خرج فيها إلى قبرص ورودس في البحر، ثمّ غزوة في سنة 847هـ إلى رودس، وأخرى في السنة التالية 848هـ وصنّف عن هذه الغزوات وقائع عاشها وشاهدها بنفسه، واعتمدها المؤرّخ ابن حجر فنقلها عنه وضمّنها كتابه «إنباء الغمر»، وكان ابن حجر من شيوخه وأصحابه، ويكفيه فخرا أن ينقل عنه ابن حجر.

ويعتبر كتابه «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران» من المصادر التاريخية الهامة في بابه، فهو وإن كان يترجم للشيوخ الذين أخذ علومه عنهم، وأقران من العلماء والأعلام، فإنه لا يخلو من المعلومات التاريخية والأخبار التي انفرد بها دون غيره، وقد اختصر هذا الكتاب بكتاب آخر هو «عنوان العنوان».

وفي دار الكتب المصرية مخطوط نادر ليس عليه اسم مؤلّفه، يؤرخ من سنة 871هـ حتى سنة 880هـ ومعه تتمّة تنتهي بحوادث سنة 904هـ ونرجّح أن القسم الأوّل من المخطوط هو للبرهان البقاعي، لتناوله أخبارا كثيرة في بلاد الشام، ومنها البقاع. أما القسم الثاني من المخطوط فاتّضح أنه «تاريخ البصروي» (ت 990هـ)، وهذا القسم، وهو ذيل على «تاريخ البقاعي». وفي أخبار الجلاد في فتح البلاد نجد البقاعي قد اقتبس حركة الفتوحات الإسلامية الأولى من كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري (ت 279هـ)، ثم تناول الفتوحات الأخرى اللاحقة، حتى تحدّث عن فتح قبرص في عصر المماليك، وغزو رودس، وكان مشاركا فيهما بنفسه. ومن هنا جاءت معلوماته موثّقة باعتباره شاهدا حيّا، أسهم بنفسه في تلك الغزوات، ومن هنا كان وصفه لمدن الشام الساحلية وسواحل قبرص ورودس ذات أهميّة حيث زارها بنفسه ووصفها، فقد اعتمد المؤرّخون على مؤلفاته من بعده.

آثاره

صنّف عشرات الكتب في شتّى المواضيع، وقيل إنّها زادت على 150 مؤلّفا.

1 ـ الإباحة في شرح الباحة؛ 2 ـ الأجوبة السرية عن الألغاز الجزرية؛ 3 ـ أحسن الكلام المنتقى من ذمّ الكلام للهروي؛ 4 ـ أخبار الجلاد عن فتح البلاد؛ 5 ـ أسد البقاع الناهسة في معتدى المقادسة؛ 6 ـ الإسفار عن أشردة الأسفار، وهو مختصر ألّفه سنة 844هـ لما خرج إلى غزوة قبرص ورودس من البحر؛ 7 ـ أسواق الأشواق من مصارع العشّاق؛ 8 ـ إشعار الواعي بأشعار البقاعيّ، وهو ديوان شعره؛ 9 ـ أشلاء الباز على ابن الخبّاز؛ 10 ـ الإطلاع على حجّة الوداع؛ 11 ـ إظهار العصر لأسرار أهل العصر في الوفيات من سنة 850هـ إلى سنة 870هـ، وهو ذيل على كتاب أستاذه ابن حجر إنباء الغمر؛ 12 ـ الإعلام بسنيَ الهجرة إلى الشام؛ 13 ـ الأقوال القديمة في حكم النقل من الكتب القديمة؛ 14 ـ إنارة الفكر بما هو الحق في كيفية الذكر؛ 15 ـ الانتصار بالله الواحد القهّار؛ 16 ـ الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان؛ 17 ـ الباحة في علمي

الحساب والمساحة؛ 18 ـ بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة السيد ورقة؛ 19 ـ بيان الإجماع على منع الاجتماع في بدعة الغناء والسماع؛ 20 ـ التتميم على إيساغوجي؛ 21 ـ تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتّحاد في ردّ الفصوص وأمثالها؛ 22 ـ تدمير العارض في تكفير ابن الفارض؛ 23 ـ تهديم لأركان من ليس في الإمكان أبدع مما كان؛ 24 ـ تهذيب الجمل في مختصر نهاية الأمل، في المنطق؛ 25 ـ جواهر البحار في نظم سيرة النبي المختار؛ 26 ـ الجواهر والدرر في مناسبة الآي والسور؛ 27 ـ خير الزاد المنتقى من كتاب الاعتقاد للبيهقيّ؛ 28 ـ دلالة البرهان على أن ليس في الإمكان أبدع مما كان؛ 29 ـ دلائل البرهان القويم على تناسب آي القرآن العظيم في مختصر نظم الدرر؛ 30 ـ دلائل البرهان لمنصفي الإخوان على طريق الإيمان؛ 31 ـ رفع اللثام عن عرائس النظام، في العروض والقوافي؛ 32 ـ سرّ الروح وهو شرح كتاب الروح لابن قيم الجوزية؛ 33 ـ شرح جمع الجوامع للسبكي، في الفروع؛ 34 ـ الضوابط والإشارات لأجزاء علم القراءات؛ 35 ـ معظم وسيلة الإصابة في صنعة الكتابة؛ 36 ـ عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران؛ 37 ـ عنوان العنوان بتجريد أسماء الشيوخ والأقران، وهو اختصار للذي قبله؛ 38 ـ الفتح القدسي في آية الكرسي؛ 39 ـ القول المسدّد في الذّبّ عن مسند الإمام أحمد؛ 40 ـ القول المفيد في أصول التجويد؛ 41 ـ كفاية القاري؛ 42 ـ ما لا يستغني عنه الإنسان من ملح اللّسان، في النحو؛ 43 ـ مختصر في السيرة النبويّة والثلاثة الخلفاء؛ 44 ـ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور؛ 45 ـ مصرع التصوف، مطبوع؛ 46 ـ المقصد الأسمى في مطابقة اسم كلّ سورة للمسمّى؛ 47 ـ نظم الدرر في تناسب الآي والسور، في تفسير القرآن؛ 48 ـ النكت والفوائد على شرح العقائد لسعد الدين التفتازاني؛ 49 ـ النكت العرفية على الألفية للعراقيّ، في الحديث؛ 50 ـ لعب العرب بالميسر في الجاهلية الأولى، طبع في ليدن سنة 1303هـ، وكتب خطّه على كتاب الرحلة الشامية لتلميذه ابن منصور المرسويّ الحلبيّ.

المصادر والمراجع

● السخاوي، الضوء اللامع، 1/ 101 ـ 111؛ ● الزركلي، الأعلام، 1/ 5 ـ 6؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 71؛ ● عمر عبد السلام تدمري، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، بيروت 1995، طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، القسم في جزء 1/ 227 ـ 238، رقم 42؛ ● المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، 1/ 203؛ ● ابن الحمصي، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تح. عمر عبد السلام تدمري، بيروت 1999، طبعة المكتبة العصرية، صيدا، 1/ 245 ـ 248، رقم 308، وفيه حشدنا مصادر كثيرة.

د. عبد السلام تدمري

الجامعة اللبنانية ـ لبنان

بقدونس، رشيد بن عبد الرزاق

(ت 1362هـ/ 1943م)

مدرس، وأديب، ومؤرخ عربي سوري، دمشقي الولادة والوفاة.

تلقى علومه في مدارس دمشق؛ ثمّ انتسب إلى المدرسة الإعدادية الحربيّة فيها، وأوفد لتفوقه إلى الآستانة لمتابعة دراسته الحربية العليا حيث تخرج منها ضابطا.

أتقن العربيّة والتركية وعرف الفارسية واليونانيّة والفرنسية. انضمّ إلى الحكومة العربية المستقلة الأولى (1918 - 1920) وعمل ضابطا في الجيش العربي النظامي الوليد. شارك في تعريب المصطلحات العسكريّة، وعمل عضوا في لجان التعريب التي شكلت، واختير ليكون عضوا في المجمع العلمي العربي.

بعد القضاء على الحكومة العربيّة المستقلّة (24 تموز 1920) في معركة ميسلون، عمل مدرسا لمادتي التاريخ والجغرافية في المدرسة التجهيزيّة (السلطانيّة سابقا أو مكتب عنبر) التي كانت الثانوية الرسميّة الوحيدة في ولاية سورية، ثمّ انصرف إلى البحث والتأليف فكتب كثيرا من الأبحاث كان ينشرها في الجرائد والمجلات المختلفة ومنها مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. وكان من أوائل الذين ساهموا في تعريب مصطلحات التاريخ والجغرافية إلى اللغة العربيّة، اشتهر بمواقفه الوطنيّة في عهد الانتداب. أطلق عليه الأستاذ ظافر القاسمي لقب معلم الوطنية وبطل الثورة الفكريّة [محمد ظافر القاسمي، مكتب عنبر 104].

أمّا الأستاذ الرئيس محمد كرد علي فقال عنه إنه من الشخصيات الراقية الذين يؤلفون مجمعنا وصاحب المباحث اللغويّة والأدبيّة الجيدة [مجلة المجمع العلمي العربي، السنة الأولى، الجزء 12].

آثاره

كان من رواد التأليف التاريخي العلمي الحديث، تبويبا، وفهرسة، وتحليلا، وتعليلا، ومن أوائل واضعي ومعربي مصطلحاته:

1 - كتاب إيضاح المبهمات من كتاب تعليم المشاة (ط)؛ 2 - كتاب التاريخ العام، الجزء الأول ألفه لطلاب المدارس التجهيزيّة حسب برنامج عام 1923 جاء في مقدمته: «وقد رأيت التلاميذ يضيعون أكثر أوقاتهم في كتابة ما يمليه عليهم الأستاذ.. إنّ الأسماء اليونانيّة ذكرتها بالعربيّة كما يتلفظها اليونان في الغالب ولذلك لا تطابق في لفظها الأسماء الفرنسيّة الموضوعة إلى جانبها»؛ 3 - التاريخ العام، الجزء والقسم الأول المتعلق منه بتاريخ أوروبا مترجم عن الفرنسيّة، أمّا الثاني فهو من تأليفه «ويزيد هذا الجزء على ذلك ألا وهو استعمال الألفاظ الأجنبيّة.. وقد أبقيتها بلا

تعريب إلى أن يمنحنا المجمع العلمي ألفاظا تقوم مقامها».

المصادر والمراجع

- مجاهد، الأعلام الشرقية، 2/ 24؛
- أحمد قدامة، معالم وأعلام، 139؛
- كحالة، معجم المؤلفين، 4/ 159؛
- عبد القادر عياش، معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين، 66؛
- الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 3/ 24.

زهير محمد ناجي
دمشق

بُقْطر، إلياس

(1198هـ / 1784م - 1236هـ / 1821 م)

معجمي من أصل مصري هاجر إلى فرنسا وألف أول معجم للفرنسية والعربية. كان قد اتصل بالحملة الفرنسية على مصر (1797 - 1801) فتعلّم قدرًا من اللغة الفرنسية وقام لها ببعض أعمال الترجمة المحدودة، وهو بعد في سنوات الصبا. وظلّ بعد عودة الحملة الفرنسية من مصر على صلة بالتمثيل الفرنسي في مصر، ورشحه ذلك كله للسفر إلى فرنسا وهو في السادسة والعشرين ليعمل في التدريس والترجمة، وليس صحيحًا أنه هاجر مع عودة الحملة الفرنسية. بدأ عمله العلمي بعد سفره إلى فرنسا، تعاون أول الأمر في إعداد خرائط لمصر، وعيّن مدرسا للعربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، وألف لمن يتعلمون العربية هناك كتابا صغيرا في تعليم مبادىء الكتابة العربية وكتابا في تصريف الأفعال العربية، وشارك أيضًا بالكتابة في المجلة الموسوعية باللغة الفرنسية.

ولكن عمله الكبير كان القاموس الفرنسي العربي، كان هذا القاموس مشروعا فرنسيا في إطار مهمة مدرسة اللغات الشرقية الحية التي أسست في باريس 1795 لتكوين المترجمين في العربية أو الفارسية أو التركية، فكانوا يتعلّمون اللغة الشرقية ويزوّدون بالمعلومات الأساسية في الآداب والحضارة والتاريخ والمجتمع. ومن أعلام هذه المدرسة رائد الدراسات العربية في أوروبا المستشرق دي ساسي. كان قرار الإنشاء ينص على تأليف نحو لكل لغة في هذه اللغات، فألّف دي ساسي كتابه الكبير في النحو العربي. وتلبية لمتطلّبات تعليم اللغة والترجمة طالب المجمع العلمي (Institut) في تقريره إلى الامبراطور سنة 1806م بتأليف قاموس فرنسي عربي؛ وذلك بعد أن تولّى محمد علي باشا حكم مصر 1805م، وأخذ في التخطيط لبناء دولة حديثة. وفي هذا الإطار الفرنسي كان عمل بقطر وظلّ يعمل فيه حتى وفاته، وترك وراءه

أصول هذا القاموس لدى صديقه الفرنسي كوسان دي برسفال فراجعه ونشره في مجلّدين في باريس 1828، 1829م. وهكذا تمّت مراجعة هذا المعجم في تلك السنوات التي عرفت أيضًا البعثة المصرية الأولى للدراسة في باريس، وكان فيها رفاعة الطهطاوي.

يهدف هذا المعجم إلى الوفاء بمتطلّبات الرحالة والمترجمين الفرنسيين في التعامل بالعربية، كما يساعد غير الفرنسيين في تعلّم الفرنسية. وكانت الرغبة قويّة في صناعة معجمات مزدوجة اللغة حتّى إن كوسان دي برسفال كان قد فكر في عمل معجم عربي فرنسي على أساس معجم خوليوس العربي اللاتيني مع إضافة مداخل عربية جديدة إليه. ومعجم خوليوس رائد الدراسات العربية في هولندا كان مشهورًا في أوروبا كلها منذ القرن السابع عشر الميلادي. أما في فرنسا فقد كانت هناك مشروعات معجمية أخرى للعربية والفرنسية لم تنفذ. وكان بقطر يعرف الجهود الأوروبية السابقة عليه، ومنها القاموس الإيطالي من إعداد (F. Domenica Germano di Silesia) والمعجم الإسباني العربي P. Canes، وكذلك معجم خوليوس.

إن معجم بقطر مزدوج اللغة، المداخل هنا فرنسية جمعها بقطر مستويات لغوية فرنسية، كان هدفه الأول تقديم كلمات الحياة اليومية الفرنسية، سواء أكانت من اللغة المكتوبة أم من اللغة المنطوقة. وفي إطار هذا الهدف تجنّب القاموس تلك الكلمات العلمية التي يقتصر تداولها على خاصة العلماء، وكذلك الكلمات التي لا نكاد نجدها إلا في الشعر. وقد تضمّن القاموس مفردات اللغة العامة، وفيها كلمات دخلت من العربية عن طريق الإسبانية وظلّت تحمل دلالة محلّية مثل alcade = قاض في بلاد أسبانيا. اهتمّ القاموس أيضًا بالتعبيرات المرتبطة بالأدوات الوظيفية مثل: (a) وقدم تراكيب فرنسية ومقابلاتها العربية المتعدّدة؛ مداخل القاموس فيها تعبيرات كاملة من اليونانية أو اللاتينية كانت متداولة عند كبار المثقفين الأوروبيين، مثل: Ex Abrupto – على غفلة، بلا مقدمة، بلا ديباجة. ويضمّ أيضًا اختصارات فرنسية، مثل: S.M صاحب الجلالة.

اعتمد القاموس في بيان المقابل العربي على كل المصادر الممكنة في عصره. كان يشرح الكلمة الفرنسية بعدة كلمات عربية من اللغة الفصيحة أو العامية المتداولة في مصر والشام على وجه الخصوص، ولم يكن الأمر سهلا. اضطرّ بقطر في حالات كثيرة إلى شرح كلمة أوروبية واحدة بسلسلة من الكلمات المتتابعة، مثل: Alibi = حضور في غير موضع، وجود ثبت أنه كان موجودا في موضع آخر. وكان عليه في مئات المداخل أن يكون الشرح بكلمات عربية متعددة؛ مثل: Ambassade = سفارة، رسالة، وظيفة الرسول، وقد استقرّت بعد ذلك كلمة سفارة وهي الكلمة المأثورة في التراث العربي للدلالة على مهمة سياسية؛ وأصبحت في العصر الحديث دالة على التمثيل الدائم للدولة في دولة أخرى. أما كلمة Ambassadeur = رسول من ملك إلى آخر، سفير، إلجي، فقد استقرت لها الكلمة الثانية، واختفت كلمة «إلجي» التي كانت مستخدمة في الدولة العثمانية. بعض التعبيرات الفرنسية لا تحمل ظلا دلاليا دينيا، ولكنه ترجمها بالمتداول في العربية بظل دلالي ديني، مثل: Ainsi soit-il, je le souhaite إن

شاء الله، آمين. وقراءة هذه المداخل مع مقابلاتها العربية توضح الفروق في السياق الثقافي بين الفرنسية في أوروبا والعربية في الشرق الإسلامي المسيحي.

قدّم القاموس في عدد من المقابلات العربية مادة لغوية عامية في حالات كثيرة، مثل Maintenant = هلق (سوريا)، دالوقت (مصر)، وكذلك Liard - فلس، سحتوت، وكذلك Marron = أبو فروة (سوريا)، شاه بلوط، كستنة، كستانية. وتدل هذه الكلمات في أكثر الحالات على نمط الحياة اليومية والعبارات الدالة عليها، وبعضها شائع في عدد من الأقطار العربية، مثل: Malheuresement = من قلة البخت، وكذلك Jeune homme de bonne maison = ابن ناس، وهي مقابلات متداولة ويختلف توزيعها من حيث المستويات اللغوية، ولكنهابصفة عامة من رصيد العامية العربية يقوم على عناصر عربية ومعرّبة.

يضمّ القاموس مقابلات عربية كثيرة تقوم على ألفاظ دالّة على السلطة والجيش والإدارة العليا وكذلك الإدارة المحليّة، مثل: Major général = ناظر الجيش، وكذلك Maison royale = قرايب السلطان، وكذلك Maire = شيخ بلد، Mairie = دار شيخ البلد، وهي مقابلات لكل منها سياقه الإداري في الفرنسية والعربية؛ ولكن مؤلف القاموس اضطرّ إلى شرحها بدلا من إيجاد المقابل، مثل: Lazaret = محل يسكنه مدة أربعين يوما من يشك به طاعون.

إن بيان المعاني اتخذ عدة طرق ولكنها في أغلب الحالات ترتبط بالسياق التاريخي والاجتماعي للكلمة؛ وفي حالة تعذّر إيجاد المقابل يكون الحل هو عدم إعطاء المقابل العربي المباشر وشرح الاستخدام ببيان سياق الموقف، مثل: Lady = اسم يعطى للنساء الأشراف في بلاد الانكليز. وبعض أسماء الأعلام مثل أسماء القصور لا نتوقّع فيها لاسم العلم ترجمة، والترجمة للشرح، مثل: Louvre, palais à Paris = قصر السلطان في مدينة باريس.

وينبغي الإشارة إلى ارتباط عدد من الكلمات العربية في المقابلات بدلالتها التاريخية، كلمة مملكة كانت تسمية عامة للدولة بغض النظر عن نظامها، ومن ثم نجد عنده confédération d'état = معاهدة ممالك.

وبعض الكلمات تكوّنت دلالتها في إطار تاريخ الحضارة لإسلامية، وأفاد منها القاموس، مثل كلمة de derniers temps = المتأخرين، وكذلك سلطان tête couronnée = وكذلك كلمة Legs pieux وقف (ج) أوقاف، وكذلك Légitimement = بالحلال.

وفي الوقت نفسه نجد عنده محاولة تقديم المفاهيم الأوروبية الجديدة بالعربية، مثل Le corps législatif = ديوان أصحاب الشرائع، وكذلك laïque = عالماني، وهذا فيما يبدو أقدم استخدام لهذه الكلمة لهذا المفهوم، وكذلك: Lumière نورانية، نور العقل، وكذلك Matérialiste مادية. وبقدر ما نجد في المقابلات العربية كلمات تكوّنت دلالاتها التاريخية في سياق الحضارة العربية الإسلامية فإنا نجد أيضًا محاولة التعبير بالعربية عن مفاهيم ونظم جديدة.

يدل القاموس على صلة وثيقة بكلمات من تاريخ الثقافة والعلوم، دخلت من العربية إلى اللغات الأوروبية، وأعادها إلى عروبتها،

مثل: Alchimie = علم الكيمياء، alchimique = كيمياوي، وكذلك Almageste = المجسطي، وكذلك Logique = علم المنطق. وفي هذا السياق نجد مصطلحات متداولة في الدراسات العربية، مثل: Lettre = حرف، وكذلك Lettre ponctuée = حرف معجم، وأيضًا Lettre sans points = حرف مهمل. وهذه الكلمات العربية تعد من ذلك الرصيد العربي المستمرّ عبر القرون وأفاد منها الطهطاوي، وبعضها مما تكوّنت مداخله الفرنسية في سياق تعليم العربية في فرنسا.

تضمّ المقابلات العربية عددًا محدودًا من الألفاظ الأوروبية الدخيلة، بعضها بالصيغة الإيطالية، مثل: بوليصة، وكرنتينة، وبعضها بالصيغة الفرنسية Laque = إلى جانب كلمات (صبغ). وهناك كلمات دخيلة من الفارسية مستخدمة في العربية منذ قرون، مثل hopital = بيمارستان، مارستان، أو دخيلة من التركية مثل: إلجي (ومن معه) في مقابل، Légation Ambassadeur et toute sa suite Légion وكذلك طابور.

نجد في تدوين الأصوات غير العربية استمرارا للنظام القديم في كلمات موروثة، كما نلاحظ بداية النظام الجديد في كتابة تلك الأصوات. نظام التدوين القديم نجده مثلاً في مدخل Latin = لاطيني، وهنا صوت (t) بحرف (ط) طبقا لعرف قديم، وفي: musique = موسيقا، وهنا صوت (q) دون حرف (ق) طبقا لعرف قديم أيضًا. ولكننا نلاحظ أيضا أمثلة دالّة على بداية النظام الجديد، في: Luthéranisme مذهب لوتير، وذلك بتدوين (t) بحرف (ت)، وكذلك في: d'Amérique بلاد الأمريك، وكذلك في: franc = فرنك، وذلك بتدوين (q) بحرف الكاف. وقد استقر هذا إلى مدى بعيد في الدخيل الجديد من اللغات الأوروبية إلى العربية.

وهكذا يعدّ القاموس الفرنسي العربي الذي أعده إلياس بقطر وراجعه كوسان دي برسفال عملا علميا له مكانته في تاريخ صناعة المعجم المزدوج اللغة، وهو بالقدر نفسه وثيقة لغوية دالة على مشكلات لقاء الحضارتين العربية الاسلامية والفرنسية الأوروبية في بدايات القرن التاسع عشر.

■ آثاره

1 ـ الألفباء العربية، باريس 1820.

- Alphabet Arabe, Paris 1820.

2 ـ مختصر في التصريف العربي، باريس 1980.

- Abrégé des conjugaisons arabes, Paris 1980.

3 ـ قاموس فرنسي ـ عربي، باريس 1928 ـ 1929.

- Dictionnaire Français - Arabe, Paris 1928-1929.

■ المصادر والمراجع

● مقدمة المعجم في معلومات عن المؤلف؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 2/ 9؛

- Dictionnaire de Biographie française, VI, 755, Paris 1954.
- Fück, Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955.

د. محمود فهمي حجازي

رئيس جامعة نور ـ مبارك ـ قازاخستان

البقلي، أبو محمد روزبهان بن أبي النصر الفسوي

(ت 606هـ/1209م)

روزبهان بن أبي النصر البقلي الفسوي الشيرازي، صدر الدين، أبو محمد؛ عالم صوفي مشارك في التفسير والحديث والفقه والأصول والكلام والتصوف. توفي في منتصف المحرم 606هـ.

آثاره

من تصانيفه الكثيرة: 1 ـ مكنون الحديث؛ 2 ـ حقائق الأخبار؛ 3 ـ الموشح في المذاهب الأربعة وترجيح قول الشافعي بالدليل؛ 4 ـ كتاب العقائد؛ 5 ـ الإغاثة؛ 6 ـ عرائس البيان في حقائق القرآن، وهو تفسير على طريقة أهل التصوف. قال عنه: صنفته موجزًا مخففا لا إطالة فيه ولا إملال، وذكرت ما سنح لي من حقيقة القرآن ولطائف البيان بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة. وربّما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ ثم أردفت بعد قولي أقوال مشايخي بما عبارتها ألطف وإشارتها أظرف، وتركت كثيرًا منها ليكون أخف محملاً وأحسن تفصيلاً.

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، مكتبة المثنى، 2/ 1121؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، 4/ 175؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 11، بيروت 1999 م، دار العلم للملايين، 3/ 35.

د.أحمد دهمان

جامعة البعث ـ حلب

سوريا

ابن بقودا الأندلسي، بحي بن يوسف

(القرن 5هـ/11م)

عاش بحي بن يوسف بن بقودا الأندلسي في سرقسطة بني هود في المنتصف الثّاني من القرن الحادي عشر، وشغل في هذه المدينة منصب الحبرانيّة والقضاء. ولا يعرف شيء عن كيفيّة دراسته ولا عن شيوخه. ومن الأكيد أنّه تأثّر بكتابات سعديه كؤون الفيّومي

الّتي يرى أنّها «تنير العقل وتدقّق الأفهام»، وكتابات شلمه بن جبيرول وهو معاصر له. ومن الأكيد أيضا أنّه اتّبع في تعليمه النّهج الأندلسي الّذي يولي ملازمة الأحبار والفقهاء كبير عناية. كما أنّ معارفه العربيّة في جملتها، تبيّن أنّه تتلمذ على أعلام مسلمين كعادة يهود الأندلس. وقد أخذ عنهم جلّ ما يعرف من علوم كلاميّة، إن لم نقل كلّها، وأخذ عنهم معارفه العربيّة والإسلاميّة ممّا كان سائدا إذ ذاك في الأندلس. وخصوصا معارف الأفلاطونيّة المحدثة وعلم التّصوّف. وله بعض اطّلاع على النّصرانيّة. وكلّها معارف نستشفّها من مؤلّفاته الّتي تُظهره لنا رجلا عارفا بعلوم التّوراة، والتّلمود، والكتابات اليهوديّة على اختلاف مشاربها، ومطّلعا على التّراث اليوناني والعربي، وخصوصا الاتّجاه الأفلاطوني المحدث، والتّصوّف الإسلامي وبعض مذاهب المسيحيّة.

وضع مؤلّفات هي: «النّسق والمرتبة في الخليقة» وقد ضاع، ومعجما عبريّا عربيّا، لا يزال مخطوطا، وشعرا فلسفيّا في النّفس فُقِد هو الآخر، ونسب إليه كتاب بعنوان «معاني النّفس». وأهمّ مؤلّفاته وأكثرها تأثيرا هو كتابه «الهداية إلى فرائض القلوب».

ألّف كتابه بعربيّة فصيحة سليمة، وكتبه بخطّ عبري على عادة اليهود. وكان الهداية أوّل كتاب ترجمه يهودا بن تبون إلى اللّغة العبريّة حوالي 1160هـ، كما ترجمه في نفس الفترة تقريبا، يوسف قمحي، ترجمة لم يكتب لها نفس ذيوع ترجمة ابن تبون، ثمّ ترجم إلى عديد من اللّغات وأصبح توراة الزّهّاد اليهود فيما بعد.

ألّف الكتاب لأسباب كثيرة، منها أنّ أهل زمانه من بني ملّته، تركوا الحبل على الغارب في أمور دينهم ما ظهر منها وما كان أقرب إلى العامّة، فبالأحرى ما خفي منها في ثنايا الكتاب (التّوراة) وما نهجه السّلف الصّالح وما تدعو إليه فرائض القلوب. ومنها أنّ كتابه كان أصلا نابعا من تجربة فرديّة خاصّة ازدادت مع الزّمان، فوضع لها قانونا يحدّها. ومنها أنّ هذه التّجربة قد تضيع بميل الهوى. لذلك فالكتاب شاهد منبّه يرجعه إلى الصّواب، وبه يطلب نفسه بعلم ما جمع ويلزمها العمل به. وأخيرا أحبّ أن يجعل من هذه التّجربة: «كلمة كليّة باقية، وكنزا مدخرا، وسراجا يستضيء النّاس بنوره ويهتدون بهداه. إذ رجوت أن يكون انتفاع غيري به أكثر من انتفاعي به، واهتداء سواي به من كمال حظّي فيه، فعزمت أن أصنّف في هذا المعنى كتابا مفصّلا على أصول فرائض القلوب ولوازم الضّمائر، وأجعله جامعا لجملة كافية في معانيها، موضحا لسبل الخير، دالاّ على مناهج الرّشاد، قائدا إلى مسالك السّلف، حاصلا على أدب الصّالحين، منبّها من الغفلة ميقظا من السّنة، غائصا على دقائق هذا العلم ولطائفه، ملهما إلى العلم بالله وبشرائعه، باعثا على طلب النّجاة، منشّطا للعامل، منهضا للمتغافل، هاديا للسّابق الأوّل، ملحقا للتّابع الأخير، مدرّبا للمبدين ومسدّدا للمتأخّرين...» [ص 22، الإحالات على الطّبعة المذكورة أسفله].

وبالجملة فالقصد من تأليفه تنبيه الغافل، والمقصّر، والمستخفّ، والنّاكر من أهل ملّته، بما يؤيّده البرهان ويشهد العقل بصحّته

وصدقه. ولم يكن يقصد محاجّة الأديان الأخرى، بقدر ما كان يقصد عرض حقائق ما كان يعتقده هو وما كان يزخر به تراث من ينتسب إليهم.

قسّم المؤلّف كتابه إلى عشرة أبواب، مسبوقة بمقدّمة، وقسّم كلّ باب إلى عدّة فصول تختلف عددا وطولا وقصرا.

ابتدأ المقدّمة بـ: «قال المؤلّف: تبارك الله إله إسرائيل، الحقيق بمعنى الواحد الحقّ، الأزلي الوجود الدّائم الجود، الّذي أبدع الموجودات للدّلالة على وحدانيّته، واخترع المخلوقات للشهادة على قدرته، وابتدأ المحدثات للتّنبيه على حكمته وعموم نعمته» [ص 3]. ثمّ بيّن أنّ العلم فضل من الله على الإنسان، وأنّه ثلاثة أقسام: علم طبيعي، وهو علم طبائع الأجسام وأعراضها. وعلم رياضي، وهو علم العدد، وعلم الهندسة، وعلم النّجوم، وعلم تأليف اللّحون، وهو الموسيقى. وعلم إلهي، وهو العلم بالله وكتابه وسائر المعقولات كالنّفس، والعقل، والأشخاص الرّوحانيّة. والعلم الأخير أرفع العلوم وأعظمها. وفتح الله على الإنسان لفهمه ثلاثة أبواب هي العقول السّليمة، وكتاب الله، والآثار المنقولة عن السنة الأوائل عن الأنبياء.

وعلم الدّين نفسه ينقسم إلى قسمين: علم بفرائض الجوارح، وهو علم الظّاهر. وعلم بفرائض القلوب، وهي الضّمائر، وهو علم الباطن. فعلم الباطن يتضمّن الاعتقاد بأنّ للعالم خالقا ابتدأه من لا شيء ثمّ إخلاص التّوحيد لهذا الخالق، وأنّه ليس كمثله شيء. ثمّ الالتزام بالطّاعة له، فالاستدلال عليه بمخلوقاته فالتّوكّل ثمّ التّواضع والخشوع، فالخوف منه والمراقبة له والحياء من اطلاعه على الظّاهر والضّمير. ثمّ التّشوّق إلى رضاه، والإخلاص في العمل لوجهه. ثمّ المحبّة في ذوي محبّته، تقرّبا إليه، والبغضة في باغضيه وما أشبه ذلك ممّا لا ظهور له على الجّوارح. وهذه هي الأبواب العشرة الّتي يتكوّن منها موضوع الكتاب.

وقد تصفّح بحي كتب الأوائل فوجدها جميعا لا تتناول إلاّ علم الظّاهر، وكلّها يدور حول الشّرائع دون الانشغال بعلم الباطن فـ: «علم فرائض القلوب مهملا غير مضبوط في كتاب يحوي أصوله، وسدى غير مزموم في تأليف يحيط بفصوله» [ص 8]. فبحث في كتاب الله وأقوال أنبيائه عن علم الباطن، فوجده منبثا فيها، مكنوزا في بطونها، وتأمّل «سير النّاس في أكثر الأعصار الموصوفة في الكتب» فوجدها بعيدة عن هذا الصّنف من الفرائض غير الخواص من النّاس، في حين عري منها العوام، وهم في أشدّ الحاجة إلى التّنبيه عليها والإرشاد إليها. وعليه فهذا العلم ضرورة، إذ هو نور القلوب وضياء النّفوس، وهو فريضة على كلّ قادر عقلا وجسما، لأنّ القصد من موضوعه الّذي هو فرائض القلوب هو «موازنة الظّاهر والباطن وتعادلهما في الطّاعة لله، حتّى تستوي شهادة القلب واللّسان والجوارح بالعبوديّة لله، ويصدق كلّ واحد منها صاحبه ويشهد له بذلك ولا يخالفه ولا يناقضه...» [ص 20].

ولمّا كان همّ المؤلّف أن يكون كتابه سهل المنال حتّى ينهض بما أراد النّهوض به، فإنّه تحفّظ فيه من استعمال «الدّلائل الّتي تجري

على قوانين المنطق، والعلم الرّياضي» [ص 26] إلاّ الباب الأوّل. وكان معتمده في كتابه الأمور المعقولة الّتي قرّبها «بالمثالات القريبة الّتي لا شكّ في صحّتها وصدقها وبالمكتوبات الواردة في كتب الأنبياء والأولياء»، فآثار الأوائل - يعني من أهل الملّة اليهوديّة - والأفاضل والحكماء من كلّ طبقة، مثل نوادر الفلاسفة، وآداب أهل الزّهد في الدّنيا، وسيرهم المحمودة لـ«سكون النّفوس إليها وإصغاء القلوب إلى عملها» [ص 26].

وجميع فرائض القلوب وآداب النّفوس داخلة في طيّ هذه الأصول العشرة الّتي تضمّنها الكتاب أمرا ونهيا [ص 36].

ويختم بحي مقدّمته بخلاصة هي أنّ ذا الفهم الجيّد يستنبط من كتاب اللّه ثلاثة أجزاء: أحدها معرفة المعاني اللّطيفة الرّوحانيّة الّتي هي علم الباطن، مثل علم فرائض القلوب وآداب النّفوس. وثانيها علم فرائض الجوارح، مثل الصّلوات والأعياد في زمانها ومكانها. والجزء الثّالث علم التّواريخ، ومعرفة طبقات النّاس، وتناسلهم على رتبة الأجيال السّالفة، وما جرى من القصص والأخبار في عهد الماضين. ويعرف كلّ شيء، من ذلك في زمانه ومكانه اللاّئق به، حسب الحاجة إلى ذلك، ويستعين على تصرّفه في كلّ واحد منها بالعلم الرّياضي، وبعلم البرهان، وبعلم الاستدلال المنطقي. إذ منها تكون المقدّمات للعلم الإلهي، ومن جهلها جهل آثار حكمة الخالق تعالى في مخلوقاته، وجهل أمور جسمه فضلا عن سواه [ص 32].

وتناول المؤلّف في الباب الأوّل وجوه إخلاص «توحيد الخالق. والتّوحيد هو أصل الدين وأسّه، وبه ينفصل الإيمان عن الشّرك. وهو رأس حقيقة الدّين، ومن زاغ عنه لم يصحّ له عمل ولا يثبت له إيمان». وهذا هو معنى الشّهادة.

وطرق التّوحيد أربعة: باللّسان، وبالقلب، واللّسان عن تقليد، وبالقلب واللّسان بعد الاستدلال بطريقة النّظر، بغير علم بمعنى الواحد الحقّ. والرّابعة وهي أفضلها، هي توحيده بالقلب واللّسان بعد الاستدلال عليه والوقوف على حقيقة وحدانيّته بطرق النّظر واستعمال القياس العقلي. ويبدأ النّظر في وحدانيّة اللّه بالنّظر في خلق العالم ومن ثمّ الاستدلال على وحدانيّته. ولهذا مقدّمات ثلاثة: أوّلها أنّ الشّيء لا يصنع نفسه، وثانيها أنّ المبادئ متناهية العدد، لها أوّل لا أوّل قبله. والثّالثة أنّ كلّ مؤلّف محدث، والعالم مؤلّف من عناصر أربعة في نظام وترتيب لا يحدث عن صدفة، وعليه فالعالم مخلوق وخالقه واحد، صحّت وحدانيّته بسبعة وجوه، وهي:

1 - من جهة اعتبار علل الموجودات، فهي أقلّ عددا من معلولاتها «وكلّما بحثنا عن علل تلك العلل صاعدا وجدناها أقلّ عددا أيضا منها، وكلّما صعدت قلّت في العدد إلى أن تنتهي إلى علّة واحدة هي علّة العلل» [ص 50].

2 - من جهة أثر الحكمة الظّاهرة في جميع هذا العالم أعلاه وأسفله، ونباته وحيوانه.

3 - من قبل الحدوث العالم لجملة العالم، فإنّ الدّلائل دلّت على حدوث العالم، ووجب عن ذلك أن يكون له محدث لامتناع تكون الشّيء من قبل نفسه.

4 ـ أنّ ذات الخالق واحدة.
5 ـ أنّ الوحدة أقدم من الواحد وهي جوهر.
6 ـ أنّ الكثرة عرض داخل على الجوهر.
7 ـ أنّ الخالق واحد وقادر على خلق العالم.

وبعد أن قدّم بحي البرهان على وحدانيّة اللّه عقلا ونقلا، في ذاته وفي مخلوقاته، انتقل إلى الحديث عن صفاته وهي قسمان: ذاتيّة وفعليّة. فالذّاتيّة هي الثّابتة له قبل الخلائق وبعدهم، وهي ثلاثة صفات: الوجود الواحد القديم، وهذه الصّفات لا توجب لذاته «تغيّرا وانفصالا وإنّما معناها نفي أضدادها عنه. فالحاصل من معناها في عقولنا وإفهامنا أنّ خالق العالم لا متكثّر ولا معدوم ولا محدث» [ص 69].

أمّا الصّفات الفعليّة «فهي الأوصاف الّتي يوصف بها من أجل مفعولاته، وقد يشترك في الوصف بها مع بعض المخلوقين» ووجب وصفه بها لمعرفته والوقوف على وجوده، وهي ضربان: تدلّ على شكل وصورة جسمانيّة، وأخرى تدلّ على حركات وأفعال جسمانيّة. وأتى بحي بأمثلة من التّوراة لكلّ هذه الصّفات، وبيّن أنّ الجسمانيّة منها ضروريّة للجاهل حتّى يعمّه الإيمان (ثواب، عقاب) [ص 76]. وقد كثرت صفاته تعالى لكثرة مخلوقاته. غير أنّ الوقوف عليه من جهة آثاره أفضل من الوقوف عليه من جهة ذاته: «فإنّه أقرب كلّ قريب من جهة آثاره وأبعد كلّ بعيد من جهة تمثّل ذاته وتصوّره، إذ لا وجود له في أوهامنا بوجه من هذه الجهات» [ص 89]. والصّفات في مجملها مجازات لا حقائق.

ويختم بحي الباب بذكر مفسدات التّوحيد، وهي الشّرك باللّه، واعتقاد التّجسيم، والشّرك الخفيّ، وهو الرّياء بأعمال الدين، والميل مع الهوى.

وتناول في الباب الثّاني وجوه الاعتبار بالمخلوقين، وفضل نعمة اللّه عليهم. بدأ الباب بذكر إغفال الكثير من النّاس هذا الفضل لأسباب هي: كثرة الشّغل بالدّنيا، والجمع لها، والحرص على ما فات منها، وتعذّر من لذّاتها، وخروج الإنسان إلى الدّنيا وهو جاهل في حال البهائم، وجهله أسباب النّعم ومنافع المحن ممّا يحمله على الجحود. ثمّ انتقل بحي إلى أمر الاعتبار، فتناول فيه ستّة معان هي: ماهية الاعتبار وحقيقته، هل يلزم الاعتبار بالمخلوقات أم لا؟، كيفيّة وجه الاعتبار بالمخلوقين، كم صنوف الحكمة في المخلوقين؟، أيّ الصّنوف أقرب إلى الإنسان وبما يجب الاعتبار؟، ثمّ مفسدات الاعتبار.

فاللّه خلق الأشياء مختارا غير مقهور ولا مضطرّ، وفعل الأشياء المختلفة حسب ما أوجبته حكمته، لتدلّ باختلافها على وحدانيّته، وعلى أنّه مختار لفعله [ص 98]. والاعتبار في هذه المخلوقات المختلفة هو ما يميّز العاقل عن غير العاقل. وذلك لأنّ الاعتبار هو: «النّظر في أركان العالم وفي فروعه المؤلّف منها، وفي وضع أجزاء كلّ مركّب، ووجه المنفعة فيه، وآثار الحكمة في خلقته وهيئته وشكله ومصلحته وعلّته التّماميّة الّتي خلق من أجلها، والتّمييز عن روحانيّة هذا العالم وجسمانيّته، وعلله ومعلولاته، وناطقة وصامتة، ومتحرّكه وساكنه، وجامده ونباته، وأعلاه وأسفله، وأنّ الخالق ركّب العالم تركيبا محكما، ورتّبه ترتيبا مبرما،

وفصّله تفصيلا بيّنا، وجعله مشيرا إليه، ودليلا عليه، كما تدلّ الصّنعة على الصّانع، والدّار على الباني الّذي بناها» [ص 100].

وأعظم مخلوقات اللّه وأوجبها اعتبارا الإنسان، فهو العالم الصّغير. وعليه يلزم النّظر في نشأته وتأليفه، وأجزائه وتركيب أعضائه، ومنفعته بكلّ واحد منها، والضّرورة الدّاعية إلى وضعه وتشكيله على ما هو عليه، ثمّ النّظر في مصالحه في كلّ خلق من أخلاقه، وقوى نفسه، ونور عقله، وجواهره وأعراضه، وآماله وانتهاء أمره. والوقوف على سرّ الإنسان هو الوقوف على سرّ العالم. والوقوف عند عضو من أعضائه وقوف عند مكوّنات العالم المختلفة المؤتلفة، المتضادّة المتكاملة. وخلاصة الباب، أنّ آثار المخلوقات الدّالّة على وجود اللّه، مرتبطة بوجود منفعة الإنسان واتّساق الكون. وهذا الاتّساق يدرك بالعقل، وإن كان كلّ فعل من الإنسان بتدبير من اللّه إلاّ ما فوّض اللّه أمره إلى الإنسان من طاعة ومعصية، بيّنتها الشّرائع الموحى بها، الّتي هي نفسها نعمة من النّعم، مثلها كمثل العقل، والعناية الظّاهرة في الملك، والاتّجار والتّدبير.

ومفسدات الاعتبار هي نفس مفسدات التّوحيد، غير أنّ الاعتبار يوجب توابع. أهمّها تحصيل نعم الإله، والتزام الطّاعة بسببها، وترديد آثار حكمته في النّفس والتّفكير فيها والبحث عنها، في كلّ ما يرد من المحسوسات والمعقولات، ما سلف منها وما تجدّد.

ووجوب التزام الطّاعة هو موضوع الباب الثّالث.

يبدأ بحي بتبيان تعامل النّاس فيما بينهم، وما يوجبه هذا التّعامل من أخلاق جعلت الإنسان أعلى من كلّ المخلوقات. وإن كان أضعف جسما وأقلّ قوّة من الحيوان. ثمّ بيّن أنّ الطّاعة واجبة عقلا ونقلا، وجب التّنبيه عليها بالشّرع للحدّ من زيغ الشّهوة، ولحماية العقل الغريب في جسم تغذية اللّذات. فالشّرع جامع للفرائض العقليّة والسّمعيّة الّتي يرقى منها إلى الطّاعة الّتي تلزم الإنسان من وجهة الاستدلال العقلي الّتي هي غاية الغرض المقصود به خلق النّوع الإنساني في هذه الدّار [ص 132]. والشّرع يؤدّي إلى الاعتدال فلا يصبح الإنسان عبدا لشهوته، ولا يهمل في نفس الوقت حاله طلبا لكمال التّدبير وحفظ النّوع. كما أنّه يقود العقل عند الخاصّة، وينوب عنه لدى العامّة. ولذلك وضع الشّارع الشّرع على قطبي الرّهبة والرّغبة، وجعله ثلاثة أقسام: أمرا ونهيا ومباحا. والأمر قسمان: «فرائض القلوب، وهو ما صحّ بالاعتقاد مثل التّوحيد، والإخلاص والتّوكّل عليه، والاستسلام إليه، والرّضا بقضائه، والإيمان بأنبيائه، والتّحقّق بالشّريعة، والخوف من اللّه، والحفظ للشّرائع، والتّفكير في عجائبه والاعتبار لنعمه» [ص 40]. وفرائض القلوب والجوارح معا مثل توحيد اللّسان مع القلب، وتلاوة الكتاب والتّعلّم، والصلاة والصّيام، والصّدقة والسّكون عن الأعمال في أيّام السّبوت والأعياد.

والنهي أيضا قسمان: فرائض القلوب، وفرائض الجوارح. أمّا فرائض الجوارح المنهي عنها، فمثل الشّرك سرّا، والرّياء، وحبّ فعل ما نُهي عن فعله، وهو العجب

والتّكبّر والزّهو واحتقار النّاس، والاستخفاف بالأنبياء وكلام اللّه الوارد على ألسنتهم، والبغضة في الخير وأهله، والأنس بالأشرار، والحسد والبغي، وحبّ الشرّ، والبلاء في النّاس، والتّسخط على قضاء اللّه. وأمّا فرائض الجوارح المنهيُّ عنها، فمثل الشّرك علانيّة، والإيمان الكاذب، وإفشاء الكذب، والنّميمة بين النّاس، وأكل ما حرّم اللّه، وغشيان النّساء المنهي عنهنّ، وسفك الدّماء.

والمباح ينقسم ثلاثة أقسام: القصد فيما هو ضروري للإنسان، وتدبير حاله، مثل القوت والكلام. والسّرف، وهو تجاوز الحدّ إلى الفضول في مثل ما سبق. والتّقصير، وهو ما لم ينته به الإنسان إلى حدّ القصد فيه مثل ما ذكر.

وهنا تعرّض بحي إلى طبقات العلماء اليهود، ومذاهب أهل الشّريعة في اعتقادهم، ليصل إلى التّنبيه المعتمد على العقل. فعقد حوارا بين هذا الأخير والنّفس بيّن فيه مساوئ هذه. وهي: حبّ اللّذّات الجسميّة، وحبّ الرّياسة. وذكر أنّ نجاة النّفس لا تتحقّق إلاّ بالموازنة بين الفضيلة الّتي تحصل عند الفراق، والرّذيلة الّتي تخصّها عند دوام ألفة الجسم. والتّوازن يكون بمداواة النّفس من مفسدات الطّاعة. وأخطر هذه المفسدات هي مسألة الجبر والاختيار، إذ جاء في الكتاب ما دلّ على الاثنين، وكذا اختلف العلماء في أمر هذه المسألة العويصة، فمنهم من قال بالاختيار، ومنهم من قال بالجبر، ومنهم من قال بالاثنين. ولعلّ بحي أقرب إلى هذا المذهب الأخير لسرّ أراده اللّه [ص 163 - 164]. وبعده تحدّث بحي عن سرّ بقاء النّفس في هذه الدّنيا، وأنّها خلقت من لا شيء، وأنّ الجسم عالَم صغير استقرّت به، ورأت من نوافذ حواسّه، وتدبّرت بقوّاده الأربعة الّذين هم: الدّماغ، والقلب، والكبد، والأنثيان. واستعانت بجنوده الّتي هي القوّة الجاذبة، والقوّة الماسكة، والقوّة الهاضمة، والقوّة الدّافعة. واحتكمت إلى وزيريه اللّذين هما العقل والهوى، ممّا يكسبها أخلاقها الخيّرة أو السيّئة. ومن هذه الأخلاق: الفرح والحزن، الرّجاء والخوف، الشّجاعة والجبن، الحياء والقحة، الرّضا والغضب، الرّحمة والقساوة، الخشوع والشّموخ، المحبّة والبغضة، السّخاء والبخل، الكسل والنّشاط.

والطّاعة للّه توجب التّوكّل عليه، وهو الباب الرّابع. وفي التّوكّل جزيل المنافع في الدّين والدّنيا. فمن منافعه في الدّين سكون النّفس والاعتماد على الخالق، وإخراج حقوق اللّه من مال اللّه لمن كان له مال، والقناعة لمن افتقده، ولم يكن له أصلا. ومن منافع التّوكّل على اللّه في الدّنيا، سكون القلب من هموم الدّنيا، والرّاحة من اضطراب النّفس وقلقها، وراحة الأبدان من الأسفار الطّويلة، وراحة البدن والنّفس من المشاق والصّناعات المتعبة، وترك التزام خدمة الملوك في رسومهم وظلم رعيّتهم، وقلّة قلق النّفس بالتّجارة، والسّرور بكلّ حال.

وللتّوكّل مقدّمات بها يصحّ، وهي أوّلا: أنّ اللّه أرحم بعباده، وأنّه لا يجهل وجوه مصالحهم، وأنّه أقوى الأقوياء، وأنّ البشر لا ينفع نفسه ولا غيره ولا يضرّهما، وأنّ اللّه أنعم على العباد دون حاجة إلى شيء، وأنّ

الكلّ مكوّن في العالم من جوهر وعرض لا يزيد ولا ينقص على ما قدّره الخالق كمّا وكيفا وزمانا. ثانيا: أنّ اللّه مطّلع على البشر لا يخفي منهم عنه شيء. ثالثا: إفراد التّوكّل للّه. رابعا: وجوب القيام بما يلزمه اللّه من طاعة وعمل، والابتعاد عمّا ينهى عنه. خامسا: اعتماده أنّ تمام الأمور الحادثة في هذا العالم بعد الخليقة، يقع بإقدار الخالق ومشيئته للخروج من العدم إلى الكون، وبوضعه أسباب ووسائط منها القريب ومنها البعيد، ومنها الظّاهر ومنها الباطن، لإتمام ما قدّر كونه.

ويتوكّل الإنسان على اللّه في أمور جسمه خاصّة، وأمور كسبه وأسباب رزقه، وأمور عياله وبنيه وقرابته وأوليائه وأعدائه، وفرائض القلوب والجوارح المخصوص به نفعها وضرّها، وفرائض الجوارح الّتي يتعدّى نفعها وضرّها إلى غيره، وثواب الآخرة الّذي يكون بحبّ العمل في الدّنيا، وثواب الآخرة الّذي يكون من اللّه على وجه التّفضيل على خاصّته وأوليائه.

ومن مفسدات التّوكّل ما سبق ذكره من المفسدات بإضافة الجهل باللّه، وبصفاته الحسنى، والجهل بشريعته الّتي هي الحثّ على السّكون إليه والتّوكّل عليه، وميله إلى الأسباب القريبة الّتي يباشرها. وختاما فإنّ التّوكّل عشر درجات حفظها الكتاب في ألفاظ عشر عبرانيّة ذكرت في أماكنها.

والتّوكّل يوجب الإخلاص في العمل للّه وهو الباب الخامس. والإخلاص هو القصد بالظّاهر والباطن في العمل بطاعة اللّه. ويكون في إخلاص التّوحيد، واعتبار نعم اللّه، والتزام الطّاعة، وإفراد اللّه بالتّوكّل، والإيمان بأنّ الضرّ والنّفع لا يأتي إلاّ بإذن الخالق، واستواء المدح والذمّ من النّاس، وترك التّزيين للنّاس، وإخلاء البال والقلب من الدّنيا عند عمل الآخرة، ومراقبة اللّه، والحياء منه، ومشورة العقل في كلّ ما يوسوس به الهوى، إذ الهوى يفسد الاعتقاد ويشكّك في النّفس، والخلق، والنّبوّة، وصحّة المنقول، والثّواب، والعقاب في الدّنيا والآخرة، ويحبّب الملاذ ومنافسة ذوي السلطان. وإذا عجز عن إغواء الإنسان بهذه مال إلى الخداع، واعتمد المدح والثّناء، ممّا يوصل إلى العجب والرّياء. فإذا عجز، مال إلى شغل الإنسان بالدّنيا ومالها، ثمّ نازع الإنسان في أمور العقاب والثّواب، والجبر والعدل، وتأجيل الطّاعة، والتّقليل من شأن النّاس، واغتنام الفرص، والتّعاظم بالعلم، ومقت من أحبّه اللّه. وخلاصة الباب، مراقبة الوهم، والفكر، والوسواس، إذ أكثر الفساد والصّلاح لا يكون إلاّ من جهاتها بحسب صلاحها وفسادها.

ويبدأ الجزء الثّاني من الكتاب بالباب السّادس، وهو التّواضع للّه. والتّواضع هو خشوع النّفس وخضوعها وصغر قدرها. وأقسامه ثلاثة: أوّلها خمول النّفس، وصبرها على الضرّ، ويكون ذلك بعد ارتفاع الهمّة والأنفة. وثانيها التّواضع للنّاس. وثالثها التّواضع للّه. وهو الدرجة العليا في التّواضع. والتّواضع أوّل الواجبات. وجميع الفرائض والفضائل تالية له، فإنّه رأس وابتداء. ولا يمتنع إن يجتمع عجب الإنسان بفضائله الرّوحانيّة، مثل العلم والعمل الصّالح، وحسن الطّاعة شكرا بعظيم نعمة اللّه

عليه. ومن فوائد التّواضع ما هو دنيوي، ومنها ما هو أخروي. فالدّنيوي، القناعة والصّبر عند حلول الآفات، وتقلّب الأمور، والفوز بحبّ النّاس. والأخروي، الاقتراب من إدراك العلوم، وسرعة عمل الطّاعات بجدّ ونشاط، وحبّ الله للمتواضع وغفران ذنبه.

الباب السّابع في شرح وجوه التّوبة وحدودها وتوابعها.

فالتّوبة هي الخضوع لطاعة الله بعد الخروج عنها والزّلل فيها واستدراك ما فات منها، إمّا جهلا وإمّا غلبة من الهوى، وإمّا غفلة، وإمّا لمصاحبة أهل السّوء. وأقسام التّوبة تتجلّى في رجل لم يجد للبعد عن المعصية سبيلا فهو عبد هواه، ورجل تائب بقلبه وجوارحه، يقاوم هواه بعقله، غير أنّ هواه يصارعه ويغالبه، ورجل استكمل جميع شروط التّوبة وغلب هواه.

وحدود التّوبة: النّدم، والتّرك، والإقلاع، والإقرار بالتّوبة، والاستغفار بها، وضمان عدم العودة بعد التّوبة. ومن مفسداتها الإصرار على المعصية، والعودة إليها بعد استكمال شروطها وتأجيلها. والتّوبة عن بعض والإصرار على البعض. وقد تعسّر توبة من أخطأ في حقّ النّاس، ومن اعتاد فعل القبيح، وسفك الدّماء عملا أو دفع إلى ذلك، أو أتلف مالا بنميمة إلى سلطان، أو أتى محرّما أولَدَ منه، أو تعوّد لسانه الاغتياب والوقيعة، أو ضلّل بمذهب سوء، أو تقاعس عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، طمعا في مال من وجب عليه أمره أو نهيه. وكيف ما كان، فمن عزم على التّوبة بشروطها يسّر الله له أسبابها.

ومن شروط التّوبة محاسبة النّفس. والمحاسبة هي موضوع الباب الثّامن، وهي: «تأمّل الإنسان ومراجعة أمور دينه ودنياه بينه وبين عقله، وليعرف بذلك ماله وما عليه من الحقوق» [ص 306]. وهذه المحاسبة تأتي على قدر العقول والأفهام، وهي فرض عين. ووجوهها ثلاثون، وردت في الكتاب، منها محاسبة النّفس بعظيم نعمة الله على الإنسان في تأليفه جسمه، وتمام صورته ونوعيّته، وأشكال أعضائه، وإخراجه من بطن أمّه، وبإفادته بالعقل والتّمييز والشّريعة والكتاب الصّادق، والفهم والإدراك، والتّدبّر في صنع العالم وتأليفه ونظامه، والإخلاص في توحيده والتّطهّر للصّلاة والقيام بها على وجوهها، إذ بفضلها يطّلع الإنسان على الأسرار، «فيرى بلا عين، ويسمع بلا أذن، ويخاطب دون لسان، ويحسّ بالأمور دون حواس، ويشعر بها دون قياس» [ص 321]. ومحاسبة النّفس عند الشّره إلى الدّنيا.

وجملة القول، فإنّ هذه الوجوه تلخّص فضائل الأبواب السّابقة الّتي ببلوغها يتمثّل الإنسان صورة الخالق بعد أن جلّى نفسه بالرّياضة، ودهن صفحتها بالتزام وجوه المحاسبة الثّلاثين، فينال ما ينال حسب صفاء جوهر هذه النّفس، وقبولها لأنوار اليقين الواردة عليها من الله.

والزّهد أحد وجوه المحاسبة وهو الباب التّاسع.

والزهد اسم تحته معان «والاسم عنوان منشور والمعنى سرّ مستور»، فإذا فكّت طينته وحلّ طابعه، ظهر سرّ معناه واتّضح مغزاه. وحَدُّهُ بالكلام المطلق، قمع شهوة النّفس، والصّبر

على الشيء المزهود فيه عند القدرة عليه، والتمكّن منه لعلّة توجب ذلك [ص 354 ـ 355]. والغرض منه للإنسان ولسائر الحيوان إصلاح الأجسام، وانتظام الأحوال، مثل سياسة الملوك، وتدبير المدن، وسياسة الأطبّاء للأصحّاء والمرضى. وهذا زهد عام، أمّا الزهد الخاصّ، وهو الّذي حرصت عليه الشرائع، فهو صلاح النفوس في الدّار الآخرة. والزّهد خلق تعتدل به النّفس، فتمتنع «عن كلّ راحة ولذّة جسمانيّة، إلاّ الطّبع الّذي لا بدّ منه» [ص 357]. ووجود زهّاد في الأمّة ضرورة شرعيّة، حتّى يبرئوا سقمها. وعلى هؤلاء أن يشاركوا الأمّة في الحضر، ويعايشوا الخلق بقلوب زهدت في الدّنيا، ليسهموا بالبناء وعمارة الأرض، لدوام النّسل والحرث.

وصفات الزّاهد: «بشره في وجهه، وحزنه في قلبه. أوسع شيء صدرا، وأذلّ شيء نفسا. لا حقود ولا حسود. ولا عيّاب ولا مغتاب. يكره الرّفعة ويشنأ السّمعة. وقور ذكور صبور شكور. كثير الحياء. قليل الأذى. إن ضحك لم يخرق، وإن غضب لم ينزق. ضحكه تبسّم. واستفهامه تعلّم. كثير علمه، عظيم حلمه. وثيق عزمه» [ص 363]. ومن الزّهد ما هو لكلّ النّاس، ومنه ما هو تابع لما جاء في أوامر التّوراة. وقد خصّ اللّه به بني إسرائيل دون غيرهم. وجاءت أحواله في الكتاب والتلمود. والجوارح أدوات الزّهد، بها يحسن وبها يسوء. وأحوال بني إسرائيل في تاريخهم وتقلّباتهم شاهد على ذلك.

ومن الزّهد صدق المحبّة للّه وهي الباب العاشر.

والمحبّة «غاية المراتب، ونهاية المنازل، في درجات أهل الطّاعة للّه» [ص 378] وأوّل أبوابها الخوف من اللّه، والحنين إليه. إذ هي «انقطاع النّفس ونزاعها بذاتها إلى اللّه، لتتّصل بنوره الأعلى. وذلك أنّ النّفس جوهر بسيط روحاني تنزع إلى شاكلتها من الأشخاص الرّوحانيّة، ونافر بطبعها من يخالفها من الأجسام الكثيفة» [ص 379]. وتكون المحبّة من أجل الإحسان، ومن أجل التّجاوز عن السّيئات. وأرفعها المحبّة إجلالا لا رهبة ولا رغبة. وتكون كليّة بالنّفس، والجسم، والمال في الظّاهر والباطن. ومقدّمات هذا محبّة إخلاص التّوحيد، وإخلاص العمل، والتّواضع للّه ولأوليائه، ومحاسبة النّفس على نعم اللّه، وعلى ستر الذّنوب والإمهال فيها، والاعتبار بالسّالف، والاعتبار بما يشاهد في مخلوقات اللّه.

وأصدق محبّة فيه، هي الجود بكلّ موجود. وتكون بعون من اللّه، ولا يفسدها إلاّ ما يناقض مقدّماتها. ودليلها الانشغال باللّه أوامر ونواهي، وعباداتٍ وتدبّرًا وحمدًا، «والخلوة بذكره جلّ وعزّ. والأنس به عند خلاء كلّ حبيب بحبيبه، وانفراد كلّ محبوب بمحبوبه» [ص 390]. وغاية المحبّين في اللّه أن تصبح «قلوبهم سماويّة روحانيّة في أبدان دنيويّة».

وخلاصة الكتاب أن يجعل الإنسان العقل أميرا، والحلم وزيرا، والعلم دليلا، والزّهد خليلا. وأن يترفّق ويتأنّى في اكتساب الفضائل حسب احتمال الحال، وأن يحذر الإفراط والسّرف بغير تدريج [ص 395].

قصدنا الإطالة في تقديم كتاب الهداية، لأسباب منها أنّ مؤلّفه يعتذر عن قلّة زاده في

العربيّة وجهله بفصيحها ونحوها، مع أنّه لم يخرج عن نهجها القويم إلاّ نادرا. فأحببنا أن يكون تتبّعنا لأسلوبه والحفاظ عليه ما أمكن، دليلا على انتشار العربيّة واستعمالها الاستعمال الحسن لدى طوائف الأندلس في هذا الوقت المبكّر نسبيّا من تاريخ فكرهم.

ومنها أيضا أنّنا أحببنا أن نركّز على مدى قوّة آثار الإرث العربي الإسلامي في أوائل المؤلّفات اليهوديّة بالأندلس، لنبيّن مدى تغلغل المؤلّفات الشّرقيّة في بوادر الفكر اليهودي في الأندلس تغلغلا يدعو إلى إعادة النّظر في تاريخ العلوم الوافدة من المشرق على المغرب.

كما أردنا من هذا العرض المفصّل أن نبيّن النّهج الّذي نهجه العلماء اليهود في التّعامل مع الموروث الدّيني الإسلامي، واستعماله مكوّنا عضويّا في تراثهم الدّيني، بعد أن حذفوا منه أسماء أصحابه وعناوين مصادره، ليكون لهم حجّة على صدق ما بين أيديهم هم. وهذا نهج تمسّك به فيما بعد مؤلّفوهم وتراجمتهم، وكان لهذه العمليّة في تاريخ الفكر أثرها العميق والمعقّد، ممّا لم يُكشف عنه حتّى الآن. وكيف ما كان الحال، كيف تعامل بحي مع هذا الإرث الإسلامي؟ أو بالأحرى ما هو منهجه؟ وما هي مصادره في مؤلّفه الهداية إلى فرائض القلوب؟

نهج بحي نهج الخطاب المباشر، فحديثه مع طالب مريد يريد أن يوضّح له السّبيل القويم في الحياة، فزوّده بزاد تعدّدت مشاربه ومصادره، وكان يخاطبه بـ«يا أخي»، وقد يكون هذا المريد هو كلّ قارئ للكتاب في الطّائفة. وهذا هو نفس المنهج الوارد في كتاب إحياء العلوم وعجائب المخلوقات، وفي بعض كتب الغزالي الأخرى. وهو النّهج الّذي استعمله كثير من علماء الإسلام مثل ابن طفيل، وابن رشد، وغيرهما، كما هو معروف. وكما اعتمد هؤلاء المثل للتّبيان والحجّة اعتمده بحي أيضا.

وإذا كانت التّوراة، والتّلمود، و«المدرشيم»، وأقوال بعض الأعلام اليهود، مثل سعديه كَؤون، شواهد دالّة على ما يريد، فإنّها في واقع الأمر تظهر وكأنّها زائدة، إذ يمكن أن تسلب من الكتاب دون أن تخلق خللا في بنيته وتركيبه، فيصبح الكتاب بمحتواه جزءا مكوّنا لتلك المؤلّفات العربيّة الإسلاميّة الّتي نهجت نهجه إذ ذاك. فعنوان الكتاب نفسه «الهداية إلى فرائض القلوب»، ينبئ عن أثر مذهب الاعتزال الّذي يضع فرائض القلوب في مقابل فرائض الأعضاء. ونظريّة النّفس الّتي هي فيض في جسم غريب، تنتظر العودة إلى أصلها وموضعها - وهي محور الكتاب، أو من أهمّ محاوره - تظهر الصّيغة الأفلاطونيّة المحدثة الّتي نشرها إخوان الصّفاء، وقد وصلت رسائلهم الأندلس قبل تأليف بحي بن بقودا كتابه «الهداية» بسنين قليلة. وإذا كان لُباب الكتب الإسلاميّة الّتي قصدت تهذيب النّفس وسنّ طريق السّعادة الأبديّة، هو القرآن والحديث النّبوي، فإنّ بحي في كتابه استثنى القرآن، ولكنّه أورد الكثير من الأحاديث النّبويّة إمّا معنى وإمّا نصّا، بعد أن حذف ذكر اسم النّبيّ وعوّضه بقال أحد الفضلاء، أو قال آخر، أو قال بعض الصّالحين.

كما أنّ بحي أتى بكثير من أقوال الخلفاء الرّاشدين مثل أبي بكر، وعمر بن الخطّاب، وعلي، وكذا عمر بن عبد العزيز، أو بعض الصّحابة وأعلام الإسلام ومتصوّفتهم دون ذكر

أسمائهم. ومن البديهي أن يتبادر إلى الذهن مقارنة محتوى «الهداية» بمؤلّفات الغزالي، مثل «إحياء علوم الدّين»، و«المضنون به»، و«ميزان العمل على الخصوص»، وهذا أمر يدعو إلى التّنقيب في هذه الكتب ومقارنة محتواها بمحتوى الهداية، على الرّغم ممّا ذهبت إليه الآراء القائلة بأنّ ابن باقودا ألّف كتابه في وقت لم تؤلّف فيه بعد كتب الغزالي، أو على الأقلّ لم تصل الأندلس. والواقع أنّ ابن باقودا نقل نصوصا كاملة من كتاب «الحكمة في مخلوقات الله» للغزالي، وهو الكتاب الّذي يعدّه عبد الرحمن بدوي من الكتب المشكوك في نسبتها إلى أبي حامد [مؤلّفات الغزالي، ص 257]. فهل يمكننا اعتبار اعتماده على كتاب «الحكمة في مخلوقات الله»، بالقدر الّذي أوردناه، دليلا على عدم نسبة هذا الكتاب إلى الغزالي، باعتبار أنّ كتب أبي حامد لم تكن قد وصلت الأندلس عندما كان ابن بقودا يؤلّف كتابه هذا؟ أم نعتبره دليلا على دخول مؤلّفات الغزالي إلى الأندلس دخولا مبكّرا؟ الأمر يدعو إلى كثير من النّظر والتّحقيق.

وإذا كان ابن باقودا بخيلا في ذكر مصادره غير اليهوديّة، وإذا تجنّب ذكر أسماء ومؤلّفات من نقل عنهم أو نقل لهم، فإنّه فيما يتعلّق بذكر أسماء اليونانيّين لم يكن كذلك، إذ ذكر كتاب «الهندسة» لإقليدس، وذكر أرسطو وجالينوس وكتابه «منافع الأعضاء». ولم يذكر من الشّعر العربي إلاّ بيتا واحدا للمتنبّي دون أن ينسبه إلى أحد، وهو:

وإذا كانت النّفوس كبارا
تعبت في مرادها الأجسام

ولا شكّ أن هناك مصادر أخرى اعتمدها ابن باقودا تحتاج إلى كثير من الوقوف لاستخراجها، وخصوصا مؤلّفات التّصوّف الّتي كانت معروفة إذ ذاك.

آثاره

1 ـ الهداية إلى فرائض القلوب، تأليف الواعظ الديان بحي بن يوسف بن باقودا الأندلسي، اعتنى بطبعه على أصل النّسخ الخطيّة الموجودة في اكسفورد، وباريس، وبترسبورغ وزاد عليه مقدّمات، وتمهيدات، ومباحث عن متن الكتاب ومصادره وترجمته العبرانيّة ومسائل تاريخيّة ولغويّة إبراهيم سالم بنيمين يهودا... طبع أوّل مرّة بالمطبعة البريليّة في ليدن 1907 ـ 1912م (النّشرة جيّدة وقد نقل النّاشر فيها الكتابة من الحرف العبري إلى الحرف العربي).

ترجم ابن تبون الهداية إلى اللّغة العبريّة، ونشر هذه التّرجمة، إسرائيل هليفي في القدس، 1969م. ونشر بحاشية شرحه الّذي أنجزه طوب هاليبانون. وهناك نشرة أخرى غير جيّدة لـ أ. زفروني بالقدس، سنة 1928م.

وترجمه إلى الفرنسيّة:

André Chouraqui, les Devoirs du cœur, Ed. Desclée de Brouwer, Paris, 1978.

2 ـ معاني النّفس، نشر نصّه العربي مع شرح ألماني Goldziher I، في برلين، 1902م. وترجمه من العربيّة إلى العبريّة Broyde، ونشر في باريس، 1896م.

3 ـ معجم عربي عبري، مخطوط يوجد في المكتبة الوطنيّة بباريس، رقمه 1277ع، 341 ورقة.

المصادر والمراجع

- إسحق بوليوس كوطمان، الفلسفة اليهوديّة (باللّغة العبريّة)، موسد بياليك القدس، 1951 م، ص 100 ـ 104؛
- موسوعة الأعلام البارزين من اليهود (باللّغة العبريّة)، إشراف مردخاي مركليوت، نشر سفنه، تل ـ أبيب، 1986 م، ج 1، عمود 259 ـ 265؛ ؛ • حاييم شرمان، الشّعر العبري في الأندلس ولبروفانس (باللّغة العبريّة)، موسد بياليك، القدس، ودفير، تل ـ أبيب، 1954م، ج 1، القسم الثّاني، 343 ـ 353؛
- ISAAC BROYDE, Les réflextions sur l'Ame (Bahya), Paris, 1896, pp. 3 - 16.
- S. MUNK, Mélanges de philosophie juive et arabe, Paris, 1955, p. 482.
- C. SIRAT, Philosophie juive au Moyen-Age, Paris, C. N. R. S., pp. 73 - 74.
- G. VAJDA, La Théorie ascétique de Bahya Ibn Paquda, Paris, 1947.
- G. VAJDA, Introduction à la pensée juive du Moyen-Age, Paris, Vrin, 1947, pp. 85 - 94.
- G. VAJDA, L'amour de Dieu dans la théorie juive du Moyen-Age, Paris, Vrin, 1957, pp. 92 - 98.

د. أحمد شحلان
جامعة محمد الخامس ـ المغرب

البقّوري، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم

(ت 707هـ/1307م)

أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم بن محمد البقّوري الأندلسي المالكي، وقيل اسمه محمد بن محمد بن إبراهيم ونسبته مختلف في ضبطها، فقيل يُنسب إلى بَقُّورة ـ بالباء ـ، وقيل إلى يقُّورة ـ بالياء ـ، ولذلك لُقب بالبقوري كما لُقب باليقوري بحسب الاختلاف في النسبة.

وسبب الاختلاف يعود إلى اختلاف العلماء والمترجمين في إعجام البلدة التي ينتسب إليها، فهي بقورة عند من قال: إنه البَقُّوري، وهي يقُّورة عند من قال إنه: اليقُّوري. غير أن الأرجح عند أغلب المترجمين أنه من بلدة بقُّورة بالأندلس [كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 216؛ مخلوف، شجرة النور، 211؛ ابن فرحون، الديباج، 322؛ البقوري، ترتيب فروق القرافي، 10].

خرج من الأندلس إلى المغرب التي أقام فيها بمدينة مراكش، ثم خرج إلى الحج ببيت اللّه

الحرام، وفي طريقه دخل مصر، ثم مكة التي حج بها، وبعد ذلك عاد إلى مراكش التي توفي بها سنة 707هـ [ابن فرحون، الديباج، 322؛ الزركلي الأعلام، 5/ 297؛ مخلوف، شجرة النور، 211]، ويذكر أنه عند عودته من الحج ركب من الأسكندرية سفينة، فانكسرت بركابها في البحر، فغرق كل من فيها، ولم ينج إلا هو ورجل آخر، وقد تعلقا بصندوق حتّى خرجا إلى ساحل البحر [المراكشي، الإعلام، 3/ 243].

أثنى العلماء على سيرته الحسنة وعلمه الواسع وفقهه الدقيق. فقد اشتهر بالفضل والورع والصلاح والتواضع مع العامة والخاصة من الناس، وعُرف برسوخه في الفقه وأصوله وقواعده، ولذلك وُصف بالإمام والشيخ والفقيه والمحدث والأصولي والعلامة القدوة العمدة الفهامة. ويكفي في كل ذلك إقدامه على ترتيب الفروق التي كتبها القرافي وتلخيصها، مما يدل على عمق اطلاعه على فنون شرعية ثلاثة، هي فن الفقه وفن أصول الفقه وفن القواعد الفقهية.

كما كان البقُّوري مبجّلا ومحترما ومحلّ ثقة أمام الأمراء والحكام، وذلك لما عرفوا في الرجل من خصال الأمانة والصدق وحسن الإشارة والإفادة، فقد قام بسفارتهم، وحمل عند خروجه لمكة المكرمة هدية إلى الناصر محمد بن قلاوون من عند الملك المريني، وهي تتمثل في مجموعة من المصاحف المرصعة (ختمة قرآنية كبيرة) بلغت حمل بغل، تكلف البقُّوري بإيصالها إلى الناصر وإعلامه أنها وقف للمساجد الشريفة الثلاثة.

ولم يكن قربه من الأمراء قد جلب له سعة الرزق أو علوّ المكانة والصفة، بل عاش هذا العالم الفقر والزهد والورع، وحاز محبة العامة والخاصة، وبلغ من سمو المكانة وحسن الثناء، بفضل الله عليه الذي امتن عليه بصفات العلم والصلاح والتواضع [مخلوف، شجرة النور، 211؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 297؛ ابن فرحون، الديباج، 321؛ المقري، نفح الطيب، 2/ 53].

وقد جاء في مصادر ترجمة البقوري أن له شيخين اثنين فقط، وهما:

1 ـ القاضي الشريف أبو عبد الله محمد الأندلسي، وقد سمع منه البَقُّوري الحديث؛
2 ـ الإمام شهاب الدين القرافي (684هـ) الذي أخذ عنه بمصر عندما دخل إليها قبل سفره إلى الحج.

ويبدو أن السبب الراجح في غياب أسماء شيوخ البَقُّوري من مصادر التراجم يعود إلى عدم شهرة شيوخ بلده بالأندلس، والذين قد أخذ عنهم كثيرا من تحصيله العلمي قبل خروجه إلى مراكش، ثم مصر، ثم مكة المكرمة [مخلوف، شجرة النور، 211؛ البقوري، ترتيب فروق القرافي، 12]

آثاره

1 ـ ترتيب فروق القرافي وتلخيصها والاستدراك عليها، وتوجد نسخة مخطوطة منه في المكتبة الوطنية بتونس وبمكتبات أخرى. وقد حقّق الكتاب الميلودي بن جمعة والحبيب بن طاهر. كما يتم تحقيقه حاليا بكلية الشريعة بالرياض في إطار رسالة علمية جامعية. ويذكر أن هذا العنوان هو من وضع المذكورين اللذين حققا الكتاب، وليس هو

من وضع البَقُّوري نفسه، فلم يثبت أنه سماه بهذا العنوان، أو سماه بغيره، وإنما صرح فقط بهدفه من وضع الكتاب، ولذلك أشار المترجمون إلى تسمية الكتاب بعناوين من عندهم، كعنوان «حاشية على القرافي في الأصول» و«كلام على كتاب القرافي في الأصول»، وعلى أي حال فإن العنوان الذي اختاره المحققان يعبر بدقة عن مضمون الكتاب، ويضبط شأن التسمية ويحسم الخلاف بين المترجمين والمؤرخين وأهل العلم قاطبة. وقد اعتمد البقُّوري في كتابه على أمور ثلاثة مهمة: ـ الترتيب: أي ترتيب الفروق على منهج دقيق، ابتدأ فيه من الكليات إلى الجزئيات، جامعًا بين الفروق بحسب وحدة الموضوع. ويذكر أن القرافي لم يعتن في كتابه «الفروق» بالناحية المنهجية في عرض الفروق، بل عرضها مبعثرة وغير مرتبة وغير متناسقة بحسب موضوعاتها، ولم يتدرّج في تقديمها بحسب الانتقال من الأصول إلى الفروع أو من الكليات إلى الجزئيات، الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة فهم الكتاب وتعذر الاستفادة منه بيسر، ولذلك لجأ البقُّوري إلى عمل الترتيب بغية تيسير الرجوع إلى الكتاب والإفادة به. ومعلوم أن القرافي قد غُيّب هذا العمل، لا لأنه جهله أو غاب عنه، وإنما لأنه آثر جمع الفروق وتدوينها كلما ذكرها ومن غير وضع خطة مسبقة لبحثها وتدوينها. وكتاب «الذخيرة» للقرافي شاهد له على معرفته بقواعد التدوين وبمنهج التأليف. ـ التلخيص: أي التصرف في كتاب الفروق بالحذف وبتغيير الصياغة أحيانا، ومن غير إخلال بالمضمون. ـ الاستدراك: أي بالتعليق على ما ذكره القرافي، أو الاعتراض على بعض ما أورده، وترجيح غير ما رجحه [البَقُّوري، ترتيب الفروق، 6 ـ 7؛ مخلوف، شجرة النور، 211؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 297]؛ 2 ـ إكمال الإكمال للقاضي عياض على شرح صحيح مسلم. وقد سماه البَقُّوري بعنوان «إكمال الإكمال على كتاب مسلم»، وذلك في القاعدة السابعة والعشرين من القواعد الأصولية [كحالة، معجم المؤلفين، 8/ 216؛ ابن فرحون، الديباج، 322؛ الزركلي، الأعلام، 5/ 297؛ البقوري، ترتيب فروق القرافي، 13؛ مخلوف، شجرة النور، 211].

المصادر والمراجع

● البقوري، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، ترتيب فروق القرافي وتلخيصها والاستدراك عليها، تح. الميلودي بن جمعة والحبيب بن طاهر، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان 1423هـ/ 2002م، مؤسسة المعارف، ص6 ـ 7، 10، 12 ـ 13؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 5/ 297؛ ● ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم، الديباج المذهب، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 322؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، لبنان، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، ج/ 216؛ ● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، ص211؛ ● المراكشي، عباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حلّ

مراكش وأغمات من الأعلام، فاس، المغرب، سنة 1355هـ/ 1937، ط. الأولى، الجديدة بطالعة، ج/ 243؛ ● المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. إحسان عباس، بيروت، لبنان سنة 1388هـ/ 1968م، دار صادر، 2/ 53.

د. نور الدين الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن بقي القرطبي، أبو بكر يحيى بن أحمد

(ت 540هـ/50 ـ 1151م)

هو الشاعر الأندلسي أبو بكر يحيى بن أحمد بن بقي. اختلف في اسم أبيه فقال ابن الأبار إنه يحيى [التكملة، 722/ 2] وقال السلفي إنّه حكم [أخبار..، 50] وقالت مصادر أخرى إنّ اسمه عبد الرحمان [وفيات، 248/ 5؛ معجم الأدباء، 19/ 20؛ الأعلام، 188/ 9]، ونسبه بعضها إلى جده فقيل يحيى بن بقي [فلاند، 322؛ أزهار 2/ 208؛ المغرب، 19/ 2]. واختلف في نسبته فقيل قرطبي في الأكثر وسرقسطي وطليطلي في البعض. يقول اقرب المترجمين منه عهدا كابن بسام وابن الأبار وابن سعيد ـ الذي يزعم أن لجده معرفة به، ان ابن بقي طليطلي ويذكر ابن بسام انه غادر طليطلة إبان الفتنة بقول: «فأخرجته فتنة طليطلة... ولما يسطع بعد ضوؤه». [الذخيرة، ق 2، مج 2 / 615]. وفتنة طليطلة المقصودة هنا هي غزو ألفونس السادس Alphonse 6 هذه المدينة عام 477 هـ/ 1085م. ولما كان خروجه منها في سن مبكرة على ما يتردد في بعض المصادر، فانه من الممكن أن يكون قد ولد في سبعينات القرن الهجري الخامس أو قبلها بقليل.

استقر ابن بقي في إشبيلية وفيها التقى بشاعر آخر مهاجر مثله من الثغور الشمالية هو الأعمى التطيلي (ت 525 هـ/ 1130 م) وسوف يكون هذا اللقاء مفيدا في ثراء تجربتيهما ويساهم في أن يجعل منهما أبرز شاعرين في عصرهما. وتنقل المصادر أنّ ابن بقي كان في مجلس بإشبيلية جمع وشّاحين يتبارزون فلما قرأ التطيلي موشحته التي مطلعها [الديوان، 253]:

ضاحِكٌ عن جُمانْ سافِرٌ عنْ بدرِ
ضاق عنهُ الزّمانْ وحَواهُ صدْري

مزق ابن بقي موشحته وتبعه كل الوشاحين.

وكانت إشبيلية تعيش في عصر الشاعر أولى عهودها مع المرابطين في ذلك الوقت ولم يعد للأدب المكانة الرفيعة التي كانت له عهد بني عبّاد. لذلك لم يجد ابن بقي لشعره السوق النافقة لا في إشبيلية ولا في غيرها من مدن

الأندلس التي حل بها مادحا .

مدح ابن بقي في إشبيلية الوزير أبا العلاء بن زهر (ت 525 هـ) الأديب والطبيب. ومدح في قرطبة الوزير الفقيه أبا الحسين بن سراج (ت 508 هـ/ 1114 م). وعلى الرغم من رفعة ممدوحيه ظلّ يشكو بؤس حظّه وفشل كسبه فيقول:

أكُلُّ بني الآداب مثلي ضَائِعٌ
فاجعل ظُلمي أُسوةً في المَظَالِمِ

[الذخيرة ق 2 مج2/ 626]

ويقول بعد أن غادر الأندلس وشد الرحال إلى المغرب:

قالوا تغرَّبْتَ عن أقطار أندلُس
ومن يُقيمُ على هونٍ وإقلالِ

[خريدة، 2/ 239]

وفي المغرب مركز الدولة المرابطية قصد ابن بقي سلا وفيها مدح الأمير يحيى بن علي بن القاسم مدة قبل أن يعود إلى الأندلس خائب الأمل كما في قوله التالي [خريدة، 2/ 245 ـ 246]:

أوغلْتُ في المغربِ الأقْصَى
وأَعْجَزَني نيل الرغائبِ حتى أُبْتُ بالنَّدمِ

وإزاء انغلاق الآفاق بالمغرب والأندلس يطمع ابن بقي في الهجرة إلى الشام أو العراق، لكنه يقضي دون أن يحقق هذا المبتغى فيتوفّى بوادي آش عام 540 هـ/ 1151 ـ 1150م في أكثر الروايات وفي عام 545 هـ/ 1155م في بعضها.

إن حياة ابن بقي التي يكتنفها حرمان كثير وبرم بوضعية الأديب لا تختلف إلا في التفاصيل عن سير شعراء آخرين عاشوا في عصر المرابطين الذي نعته قوميز Gomez بأنه عصر كان الأديب فيه «يقاوم الفاقة والجهل» [Al-Andalus 10 (1945), 285-340].

عُرف ابن بقي بأنه شاعر وشّاح رغم أنه قال القصيد أيضا. وأهم عقبة تعترض دراسة شعره غياب مدونة كاملة أو شبه كاملة له. ولا يمكن إزاء هذا الغياب إلا أن نقدم بعض الملاحظات المنقوصة عن شعره.

أغلب المختار من شعره غزل ونسيب أو شكوى وبعض منه في المدح. لم يسلك فيه غريب المسالك في لغته أو أخيلته لكنه بدا مرتكزا بالأساس على المعاني الطريفة كقوله في قطعة غزلية لاقت استحسان المغاربة والمشارقة:

زَحْزَحْتُهُ عن أضلُعٍ تشتاقُهُ
كي لا ينامَ على وِسَادٍ خافِقِ

ولعل الطريف من المعاني عنده ـ وهو قليل ـ جنوح إلى تجريد المشخص واستعمال اللغة مرجعا يستمد منه معانيه. كما في قوله مادحا [الذخيرة، ق 2 مج 2 / 628]:

ومن لي بتَقْبيلِ الحُرُوف فإنَّها
ثُغُورُ الدُّمَى إلا ابيِضَاضُ المَبَاسِمِ

وأما ابن بقي الوشّاح فلقد قال عنه ابن الخطيب «رب الصنعة ومالكها وناهج الطريقة المثلى وسالكها» [جيش، 2] تميزت موشحاته بخرجاتها الأعجمية [اللغة الرمنثية Roman). وإلى هذا الامتزاج التفت كثير من دارسي الأدب الأندلسي وخصوصا من

الأوروبيين إلى موشحاته. [De La Granja; in E. 13/752b] كما مزج في الخرجات كذلك بين الفصيح والعامي. وفي موشحاته بعض الميل إلى الخروج عن الوزن الشعري بما يزيده في الأقفال أو الأدوار من الأجزاء. ولقد لاحظ القدامى ذلك في موشحاته [دار الطراز، 34].

ويلحظ في موشحاته ميل إلى الإكثار من التقفية الداخلية بفعل تعديد أجزاء الأقفال أو الأدوار. وربما قصد بعض معاصريه هذه الظاهرة حين قال إنّ الوشّاحين عالة عليه في موشحته التي مطلعها: «بأبي ظبي حمى» إن صحت نسبتها إليه.

آثاره

ما وصلنا من أشعار ابن بقي يقتصر على ما أوردته كتب الاختيار المغربية كالذخيرة أو المشرقية كالخريدة واكتفت أغلب المصادر وخصوصا القريبة منها إلى عصر الشاعر على القصيدة والمقطوعة دون الموشحة التي تأخر حضورها في كتب الاختيار زمنا أثّر في صحة نسبة بعضها إلى ابن بقي.

وصلت أشعار ابن بقي إلى المشرق في حياته على الأغلب إذ يذكر العماد الأصفهاني أن عبد الله المغربي الأديب الأندلسي (ت 549 هـ/ 1154 م) أنشده شعرا لابن بقي وأنه قد نقل أشعاره من كتاب اختيار كان فيما يبدو معروفا في المشرق هو كتاب عثمان بن بشرون المهدوي وعنه نقل أن «له ما ينيف على ثلاثة آلاف موشحة ومثلها قصائد ومقطعات منقحة» [خريدة، 2/ 237]. وهذا العدد وإن كان يعز على مفرد أن يقدر عليه فإنه يدل على غزارة شعر الرجل.

المصادر والمراجع

● السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ط بيروت 1963 ص 50؛ ● ابن خاقان، قلائد العقيان، المكتبة العتيقة تونس ص322؛ ● ابن بسام، الذخيرة، الدار العربية للكتاب ليبيا ـ تونس 1981، ق 2 مج 2 ص ص 615 ـ 636؛ ● العماد الأصفهاني، جريدة القصر وجريدة العصر ط، الدار التونسية للنشر تونس 1986، 2/ 236 ـ 247؛ ● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ط دار المأمون مصر 1355هـ، 19/ 20؛ ● ابن سناء الملك، ديوانه، دار الطراز دمشق بيروت 1949؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان ط، السعادة القاهرة 1367هـ، 5/ 248؛ ● ابن الأبار، التكملة ط. مجريط 1887م 2/ 722؛ ● ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب ط. القاهرة 1964، 2/ 19؛ ● رايات المبرزين وغايات المميزين ط. مدريد 1941، ص 48؛ ● عنوان المرقصات، ط. القاهرة 1286 هـ، ص 86؛ ● العمري، مسالك الإبصار، مخ. ج. 11 ورقة 280؛ ● ابن الخطيب، جيش التوشيح تح. ● هلال ناجي مط، المنار، تونس ص 2 ـ 15، 1967؛ ● ابن خلدون، المقدمة مط. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني بيروت 1961، ص 1139؛ ● ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح. إبراهيم الأبياري، القاهرة 1954 ص 198؛

● المقري، ازهار الرياض ط. القاهرة 1940 2/ 208؛ ● نفح الطيب، ط بيروت 1388هـ 5/ 159، 289، 367؛ ● الزركلي، الأعلام ط. بيروت 9/ 188.

• F. De La Granja; Encyclopédie de l'Islam, Ibn Baki (n. e.), tome 3 p. 752.

د. توفيق قريرة
جامعة تونس

ابن أبي بكار/بكر، أبو عبيد الله الزبير

(172هـ/788م - 256هـ/870م)

أبو عبيد الله الزبير بن أبي بكر (ويعرف ببكار) بن عبد الله مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير.

ولد بالمدينة المنورة سنة 172هـ ونشأ بها وأخذ العلم عن أبيه وعن جماعة من الشيوخ منهم: سفيان بن عُيينة، والمدائني علي بن محمد، والنضر بن شُميل المازني.

قدم بغداد في عهد الخليفة المتوكل ودخل على محمد بن عبد الله بن طاهر، وكان على الشرطة والجزية وأعمال السواد وخلافة أمير المؤمنين ببغداد، ثم قدم على الفتح بن خاقان وسأله أن يستأذن له على المتوكل، فاستأذن له وقال له: جائزتك تلحقك، وكتاب عهد بالقضاء على مكة لاحق بك. فلمّا وصل إلى منزله جاءه خادم بصلة أمير المؤمنين، ولمّا وافى مكة جاءه رسول معه عهد بقضاء مكةَ، وكان ذلك سنة 242هـ. وقد ظلّ الزبير في عمله هذا حتى وفاته سنة 256هـ.

كان الزبير من العلماء بالحديث والأخبار وأنساب العرب، وكان إلى ذلك شاعرًا. وقد روى عنه جماعة من العلماء منهم: أحمد بن يحيى الملقّب بثعلب، ووكيع القاضي محمد بن خلف بن حيّان، وأحمد بن سليمان الطوسي.

كان الزبير يتردد على بغداد ويحدّث بها، وقد ألّف أكثر من ثلاثين كتابًا فُقد أكثرها، وقد ذكرها ياقوت في «معجم الأدباء». ومن كتبه التي سلمت لنا كتاب «نسب قريش» وكتاب «الموفّقيات»؛ ومن مؤلفاته الأخرى «أخبار العرب وأيامها»، وله كتاب في طائفة من الشعراء.

وفي كتاب «الأغاني» أخبار كثيرة مروية عن الزبير بن بكّار، منها تصحيحه لأنساب بعض القرشيين وأخبارهم، وتصحيح عزو أشعار لغير قائلها، وله آراء في نقد الشعر وشروح لغوية للأشعار. ومن هذا نتبين أنّه كان عالمًا بأنساب القرشيين وأشعارهم، وعالمًا متمكنا في اللغة وقد أجمع مترجموه على أنّه كان عالما ثقة أمينًا في روايته.

آثاره

من مؤلفاته المشهورة:

1 - جمهرة نسب قريش وأخبارها، حققه وشرحه العلاّمة محمود محمد شاكر. على أنّ هذا الكتاب لم يصل إلينا كاملاً وإنّما فُقد جانب كبير منه، وما وصلنا منه يشتمل على أنساب بني أسد بن عبد العُزى بن قُصيّ، وإليهم تنتمي أسرة الزبير، وأنساب بني عبد الدار قُصي بن كلاب بن مُرة، وبني عبد بن قصي، وبني زهرة بن كلاب بن مُرة، وبني تيم بن مُرة، وبني مخزوم بن يقظة بن مُرّة، وبني عدي بن كعب بن لؤي - ومنهم بنو جُمح وبنو سهْم، وأنساب بني عامر بن لؤي بن غالب، وبني سامة بن لؤي بن غالب، وبني خزيمة بن لؤي، وبني محارب بن فهر.

وقد فصّل الزبير في أنساب هؤلاء تفصيلا لا نجده في غيره من كتب الأنساب، وقد فقدت من الكتاب الأجزاء التي تشتمل على أنساب بني هاشم وبني أمية.

اتبع المؤلف في كتابه هذا نهجًا يخالف ما جرت عليه كتب الأنساب الأخرى، فقد بدأ بالفروع وانتهى بالأصول، وقد أثنى مترجموه على كتابه هذا فقال فيه ياقوت: «وعلى كتابه قريش الاعتماد في معرفة أنساب القريشيين».

استمد الزبير مادة كتابه من مصادر شتّى أهمّها كتاب «نسب قريش» الذي ألّفه عمه المصعب بن عبد الله الزبيري، وقد جمع المؤلف إلى الأنساب أخبارًا كثيرة أسندها إلى رواتها، وعُني خاصة بأنساب أسرته آل الزبير وأضفى عليهم الصفات التي تعلي من شأنهم. وقيمة الكتاب أنّه أوفى كتاب في أنساب قريش، وأنّه أورد أخبارا كثيرة حول قبيلة قريش لا نقع عليها في أي مصدر آخر.

2 - الأخبار الموفقيات، ألّف الزبير هذا الكتاب باسم ابن المتوكل على الله الأمير طلحة الملقب بالموفّق بالله (ت278هـ) الذي كان يدبر أمور الدولة في عهد أخيه المعتمد على الله، وقد فُقد جانب كبير من هذا الكتاب ولم يبق منه إلاّ أجزاء متفرقة، ولكنها تدلّ على ضخامة أصل الكتاب، وقد طبع الكتاب في بغداد سنة 1972 بتحقيق سامي العاني.

موضوع الكتاب أخبار تتصل بنواح شتّى، منها موضوعات أدبية وأخرى تاريخية وسياسية وإدارية واجتماعية، حدث بعضها قبل الإسلام وجُلّها ممّا حدث بعد الإسلام، وكلّ خبر يدور حول أحد الأشخاص، منهم الخلفاء والولاة والقُوّاد والشعراء والفرسان والأدباء والعلماء، وكلّ هذه الأخبار مقطوع بصحتها، والمؤلف يسند كلّ خبر إلى راويه. وقد يضيف المؤلف بعضًا من التعليقات على مروياته.

قدّم ابن بكار لكتابه بمقدمة وجيزة قال فيها بعد حمد الله والصلاة على نبيّه: «أما بعد، فهذه أخبار موفّقات للسيَر، الذي يتأمل بها فيفهم معانيها ويتأدّب على حسن أظرافها. وهي مجموعة من لطائف وأخبار وأشعار ونكتات من كلام الزبير بأسانيدها» والكتاب مطبوع منه أربعة أجزاء 16 و 17 و 18 و 19 [الزركلي، الأعلام، 3/ 42].

المصادر والمراجع

• ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح.

إحسان عباس، 2/ 311؛ • ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ط. الرفاعي، 11/ 161؛ • الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، 8/ 467؛ • بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، (المترجم)، 3/ 40؛ • الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين، 3/ 42.

د. إحسان النص
مجمع اللغة العربية
دمشق

البكتاجي، أبو محمد

(كان حيًا 1222هـ/1807م)

يعرف في المصادر بالبكتاشي، أبو محمد، شاعر، ناثر، موظف رسمي. وُلد بالموصل في حدود سنة 1145هـ/ 1732م، وأخذ عن شيوخ بلده، عرفنا منهم موسى بن جعفر الحدادي (ت 1186هـ/ 1772م). ويبدو أنّه في صدر شبابه كان عاطلا عن العمل منصرفا إلى الأدب منعّما بدخل لا نعرف مصدره. بيد أنّ الاستمرار في «حرفة الأدب» جعلته يتفوق من جهة ويفتقر من أخرى. فاتصل بالولاة الجليليين محمد أمين بن حسين باشا (ت 1189هـ) وولديه سليمان (ت 1211هـ/ 1796م) ومحمد (ت 1221هـ) ثمّ نعمان بن سليمان (ت 1223هـ). وقد تولّى في عهدي سليمان ومحمد وظيفة «كاتب العربيّة». وبقي متصلا بالجليليين حتّى بعد اعتزاله الوظائف، فمدحهم وطلب المعونات منهم نقدا وعينا.

تتلمذ على بكتاش الأديب الجليلي عثمان بن سليمان بن محمد أمين (ت 1245هـ). ورغم أنّ الجليلي يسمي عثمان «أستاذي البكتاشي» إلاّ أنّه لم يكن برّا به. فقد وجه إليه انتقادات ساحقة في كتابه «الحجة».

أولع بكتاش بنظم التواريخ الشعريّة - ربما «وراثة» عن شيخه موسى الحدادي - . وابتكر نظم قصائد طوال يمثل كل شطر وكل عجز فيها تاريخا خاصا. ونظم موشحات غزليّة وخمرية رقيقة. وكتب «البند».

في تاريخ وفاته اختلافات في المصادر. فبينما يقول أحدهم إنه توفي آخر القرن الثاني عشر الهجري يضع آخر تاريخ 1190هـ. إلاّ أنّ باحثا موصليا وجد آخر قصيدة قالها سنة 1222هـ فعدّ هذه السنة تاريخ وفاته على المجاز والترجيح والمقاربة لا على الحقيقة والتطابق.

نظم قصيدة طويلة يمدح سليمان الجليلي ويؤرّخ الإنعام عليه برتبة الوزارة سنة 1188هـ مؤرّخا بكل صدر وعجز السنة المذكورة.

بشرى لقد جلّتْ الحدَبا وأهليها
وزارةٌ ابهجت بالعز واليها

زفّت إليه بأسنى جليّة فزها
أمامها حيثُ جاء الفتْح يُجليها

وقال يمدح محمد أمين الجليلي بعد أن أطلق من الأسر في روسيا والتقى السلطان العثماني الذي منحه أعلى لقب في الامبراطوريّة العثمانيّة: «الغازي»:

لا يُرتقى أوجُ الفخار الأنفسِ
عند اللّقا إلّا بشقّ الأنفُسِ

فاصبر إذا التقتِ الأعنة والتوتْ
قصبُ الأسنة صبر قِرمٍ أشرسِ

وتدرَّع الصّبرَ الجميلَ ودُسْ على
شوكِ القنا حافٍ بغير تهجُّسِ

وقال من موشح:

أدرِ الخمْرَ العتيقْ
في كؤوسٍ من عقيقْ
واطف من قلبي الحريقْ
بأبا ريق الرحيقْ
من يدي ساقٍ عشيقْ
مائس القدِّ رشيقْ
بحياة الروح أقْبل
وبموت العقل راحْ

وقال من بند في مدح سليمان باشا:

«مليك ملك الناس. بما فيه من البأس. وحلت عقد اليأس. أياديه بأكياس. فحطت بالقنا الخطى. على صلت أعاديه. سطورا لم تكن قط سوى خط أياديه. جواد ملأ الأرض. ندى بالطول والعرض...».

يقول محمد أمين العمري (ت 1203هـ) في «منهل الأولياء»: «أديب آديب، حسن العبارات، منفتح الكلمات، رائق النظم، كل شعره منسجم».

أمّا تلميذ بكتاش، عثمان الجليلي (ت 1245هـ) فيقول في «الحجة»: «ليس له تصرف تام في الأدب، بل هو مُقلد» و«وقد ادعى رتبة الاجتهاد مع قصر باعه... جميع نظمه وقصائده بمضمون واحد... ومعانيه وألفاظه متكرّرة».

يقول الصائغ (ت 1961م) في «تاريخ الموصل»: «ينحصر شعره في المديح. وفيه أيضا الخمري والغزلي والفخري والبطلي» ووصفه بالشاعر المجيد ونظمه بالنفاسة والجودة.

آثاره

1 ـ «ديوان شعره» جمعه وحققه باحث موصلي في أطروحة دكتوراه، غير منشورة.

ومن النسخ الخطية للديوان توجد ببغداد في «الدار العراقيّة للمخطوطات» وفي خزانة إبراهيم الواعظ القاضي (ت 1958م)؛

2 ـ «البند» طبع له عبد الكريم الدجيلي (ت 1974م) ستة بنود في كتابه «البند»؛

3 ـ التخميس، له تخميس همزيّة البوصيري منهما نسختان في مكتبة الأوقاف في الموصل برقمي الحسنية 57/ 25/ 13 والخياط 1/ 16/ 11 على التوالي وفي المكتبة المركزيّة العامّة في الموصل قصائد وموشحات وبنود ضمن مجاميع خطية.

المصادر والمراجع

● الدجيلي، عبد الكريم، البند في

الأدب العربي، تاريخه ونصوصه، بغداد 1959، ص 49 ـ 57؛ ● الديوه جي، سعيد، تاريخ الموصل، الموصل 2001، 2/ 236؛ ● الصائغ، القس سليمان، تاريخ الموصل، بيروت 1928، 2/ 189 ـ 194؛ ● الحياني الجليلي، الحاج عثمان بك، الحجة على من زاد على ابن حجة الموصلي، نشر د. محمد صديق الجليلي، الموصل 1937، ص 4، 24، 68 ـ 71، 80، 82؛ ● الدليمي، محمد نايف، ديوان الموشحات الموصلية، الموصل، 1975، ص 85 ـ 91؛ ● المرادي، سلك الدرر، أوفست مكتبة المثنى، بغداد عن ط. بولاق 1301هـ، 3/ 162 ـ 163؛ ● أحمد، سالم عبد الرزاق، فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل، الموصل 1975، 1977، 1/ 251، 5/ 96، 6/ 225، وهـ 14؛ ● النقشبندي، أسامة، وعباس، ظمياء، مخطوطات الأدب في المتحف العراقي، الكويت، ط1، 1985، ص215؛ ● الديوه جي، سعيد، مخطوطات المكتبة المركزية في الموصل، مجلة المجمع العلمي العراقي جد. الخامس عشر، 1967، ص 311، 324؛ ● د. الجلبي الموصلي، داؤد، مخطوطات الموصل، بغداد 1927، ص135، 143، 274؛ ● منهل الأولياء، محمد أمين بن خير الله الخطيب العمري، تح. سعيد الديوه جي، الموصل 1967، 1/ 187 ـ 188، 289 ـ 290؛ ● د. القريشي، رضا محسن، الموشحات العراقية منذ نشأتها إلى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد، 1981، ص 377، وهـ 31 ـ 379، وظ. ك. ص 450؛ ● رؤوف، عماد عبد السلام، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، النجف الأشرف 1975، ص 369، 372؛ ● الساداني، أحمد حسين محمد، ديوان عثمان بكتاش الموصلي المتوفى سنة 1222هـ، جمع وتحقيق ودراسة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل 1996؛ ● الجلبي، بسام إدريس، موسوعة أعلام الموصل، ط. على الكومبيوتر، معجم المؤلفين الموصليين (مخ).

بسام إدريس الجلبي
الموصل ـ العراق

ابن بكر، أبو عبد الله محمد بن يحيى الأشعري

(674هـ/1276م ـ 741هـ/1340م)

محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد الأشعري المالقي، أبو عبد الله، ويعرف بابن بكر، الفقيه، المحدث، قاضي الجماعة.

أصل هذا العالم الجليل من مدينة مالقة، ومن ذُرِّيَّة بَلْج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن ابن يزيد بن أبي بردة عامر بن أبي عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعريّ صاحب رسول الله، ﷺ.

ولد أبو عبد الله الأشعري بمدينة مالقة في أواخر ذي الحجة سنة أربع وسبعين وستمائة، ونشأ بها، وأخذ عن علمائها المتميزين، وشيوخها النابهين، فلازم قبل سنّ التكليف صِهْرَه الشيخ الفقيه الوزير أبا القاسم بن محمد بن الحسن المالقي. وقرأ عليه بمنزله القرآن الكريم، وتأدّب به.

ثم اختصّ بالأستاذ المتفنن الخطيب، إمام القراءات، والبصير في صناعة النحو، الفقيه الأصوليّ أبي محمد عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السداد الباهليّ المالقيّ (ت705هـ/ 1305م)، وقرأ عليه القرآن العظيم جمْعًا وأفرادًا بسند قراءته عن شيوخه الأندلسيين في الإقراء. وأخذ عنه العربية، والفقه، والحديث، ولازمه مدّة وتأدّب به.

وقرأ على خاتمة المقرئين المتميزين، شيخ الإقراء بغرناطة الأستاذ أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الجيَّانيّ الغرناطيّ (ت708هـ/ 1308م).

وأخذ علوم الحديث الشريف عن المحدّث الفاضل الراوية أبي عبد الله محمد بن عيَّاش الأنصاريّ الخزرجيّ القرطبيّ، فقد قرأ عليه كثيرا من كتب الحديث المهمة منها «صحيح مسلم» وسمع عليه جميع هذا الكتاب إلّا دولة واحدة (مجلسًا واحدًا).

وأخذ الحديث الشريف أيضا عن المحدّث الرُّحَلَة الحافظ أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد الفهريّ السبتيّ (ت721هـ/ 1321م).

وأخذ عن الفقيه اللُّغَويّ أبي القاسم بن محمد ابن أحمد بن حسن الحجري المالقيّ ابن السكوت (ت60هـ/ 1291م).

ودَرَس الفقه وأصوله على الفقيه القُدوة المشاور والصّدر الكبير أبي عبد الله محمد ابن يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع القرطبيّ (ت719هـ/ 1319م).

وأخذ الفقه أيضا عن الفقيه الخطيب المفوه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الهاشميّ الطنْجاليّ المالقيّ (ت724هـ/ 1324م).

وأحكم علوم اللسان والأدب على العلامة اللغوي الأديب الأستاذ أبي عبد الله محمد بن

أحمد بن داود بن موسى اللخمي المعروف بابن الكماد (ت712هـ/ 1312م) كان له حظ من العربية واللغة والأدب، وتصدَّر لتدريسها بغرناطة وغيرها.

وأخذ عن الفقيه اللُّغويّ أبي الحَسَن علي ابن العلامة أبي الحَجَّاج يوسف بن محمد الصنهاجيّ المالقيّ المعروف بابن مصامد (ت702هـ/ 1302م).

وقرأ على الخطيب المقرئ اللغوي الولي الصالح أبي الحسن فضل بن محمد بن علي ابن فضيلة المعافري (ت696هـ/ 1297م).

ثم رغب أبو عبد الله الأشعريُّ في الرحلة لطلب العلم خارج الأندلس فولى وجهه شطر المغرب العربي قاصدا مدينة سبتة التي كان يطمح في السَّماع على شيوخها والمذاكرة مع علمائها، فالتقى مجموعة طيبة من الشيوخ الصالحين درس عليهم وأخذ عنهم علوم القرآن الكريم، والفقه وأصوله، والحديث النبوي الشريف، كان منهم: العلامة المحدث الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاريُّ التلمسانيُّ (ت690هـ/ 1291م)؛ والعدل الرَّاوية المحدِّث أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد العزيز الهواريُّ السبتيُّ (ت701هـ/ 1302م)؛ والأستاذ المقرئ أبو القاسم محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن القيسيُّ (ت701هـ/ 1302م)؛ والسيد وشيخ الشرفاء أبو علي الحسين بن أبي التُّقى طاهر بن رفيع الحسيني السبتي (ت702هـ/ 1303م)؛ والشيخ الأديب المعمر أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون الطائيُّ القرطبيُّ (ت702هـ/ 1303م)؛ والأديب المؤرِّخ المحدِّث أبو العبَّاس أحمد ابن محمد بن ميمون الأشعريُّ المالقيُّ (ت706هـ/ 1306م).

واستطاع أبو عبد الله الأشعريُّ الحصول على إجازات عدد من علماء المشرق من الحجازيين والمصريين والشاميين ممَّن تفرَّدوا بالرواية عن شيوخهم، وذاعت شهرتهم في الآفاق، كان منهم: مُسْنِد الوقت، محدِّث مكة، الرَّاوية أبو المعالي أحمد بن إسحاق بن محمد بن المؤيد الأبَرْقُوهِيُّ (ت701هـ/ 1302م)؛ والحافظ المؤرِّخ النسابة شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي المصري (ت705هـ/ 1305م)؛ والعلاَّمة الحافظ، المؤرِّخ، اللغوي محمد بن محمد ابن أحمد بن سيد الناس اليَعْمريُّ الأندلُسيُّ ثم الشاميُّ (ت705هـ/ 1305م).

وبعد هذه الرحلة عاد أبو عبد الله إلى موطنه مالِقة، وقد ازداد علمه، واتَّسعت مداركه، وبان فضله، وتميَّز على غيره، فتصدَّر للتدريس في العلوم التي أحكمها وأتقنها، فقد كان ذا باع طويل ومعرفة واسعة بالأصول والفروع، والعربية والتفسير والقراءات، مُبرِزًا في علم الحديث الشريف تاريخا وإسنادًا، وجرحًا وتعديلاً، وتصحيحًا وضبطًا، حافظًا للألقاب والأسماء والكنى، مشاركا في الفرائض والحساب، وكان يدرس هذه العلوم بالمسجد القريب من منزل سكناه احتسابا، فازدانت به مدينة مالِقة إذ رفع منار العلم بها، وازدحم عليه الطلبة وانتظموا في حلقة درسه، ينهلونَ من مَعين علمه ما كان بهم حاجة إليه، ويُبصِّرهم بأمور دينهم ودنياهم، وكان عونًا لهم على نيل المراتب وبلوغ المطالب. وكان كثير النصيحة، حريصا على الإفادة، عطوفا

على الطلبة، مُحبًا في العلم والعلماء، فنَفَعَ وأدَّب وخرَّج وهذَّب، حتى ساد عصره، وفاق أقرانه، وأصبح المُشار إليه ببلده، وكان من جملة طلبته: عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبتي، أبو محمد (ت749هـ/1348م)؛ وأحمد بن محمد بن علي الأمويُّ المالقيُّ، أبو جعفر بن بُرْطال (ت750هـ/1349م)؛ ومحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن يوسف الهاشمي الطنجالي، أبو عبد الله (ت753هـ/ 1352م)؛ وأحمد بن علي بن أحمد الحِمْيَرِيُّ الغرناطيُّ، أبو جعفر الشُّقوريُّ (ت756هـ/ 1355م)؛ وفرج بن قاسم بن أحمد بن لب التَّغلِبِيُّ الغرناطيُّ، أبو سعيد بن لُب (ت782هـ/ 1380م)؛ وعلي بن عبد الله ابن الحسن النباهِيُّ المالقيُّ، أبو الحسن (كان حيًّا 793هـ/ 1391م).

كان أبو عبد الله الأشعريُّ من البيت المشهور بالتَّعيين والتقدُّم والأصالة، والرئاسة والسيادة، فتقدَّم لرئاسة بلده مالقة، ناظرًا في أمور العقد والحل، ومصالح الكافة، فقام بها أحسن قيام وباشرها على خير ما يرام. ثم تولَّى القضاء بها، وكان قوّامًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، فأظهر في أحكامِه من الجزالة والشدَّة، ما ملأ به وجْدًا صُدور الحَسَدَة ونسبوا إليه أمورًا حملت على إخراجه من مالقة إلى غرناطة. فدخل غرناطة وافر الحرمة، عظيم الشأن مبجلا، وتولى بها القضاء والخطابة في محرم الحرام سنة سبع وثلاثين وسبعمائة/ 1336م، فسار في القضاء سيرته المعهودة من شِدَّة، وصرامة معروفة، ألَّبَتْ عليه الحُسَّاد، وأثارت في نفوس الآخرين الأحقاد، فتجرَّع في غرناطة، ما تجرَّعه في مالِقة فكأنه مع المتاعب والمشاكل على ميعاد، فابتعد عن القضاء وانصرف إلى التدريس ونشر العلم وقد أثنى على تلك السيرة الحسنة لسان الدين بن الخطيب قائلا: «فقام بالوظائف وصدع بالحقّ، وجرَّح الشهود فزَيَّف منهم ما ينيف على السبعين عددًا، واستهدف بذلك إلى معاداة ومناضلة، خاض ثبجها وصادم تيارها، غير مبال بالمغبة، ولا حافل بالتبعة، فناله لذلك من المشقّة والكَيد العظيم، ما نال مثله حتى كان يمشي إلى الصلاة ليلا في مسلة لا يطمئن على حاله.

جرت في هذا الباب حكايات إلى أن استمرت الحال على ما أراده الله، وعَزَمَ عليه الأمير في بعض من الخطة ليرده إلى العدالة، فلم يجد في قناته مغمَزًا، ولا في عُودِه معجمًا، وتصدَّر لبثِّ العلم بالحضرة، يقرئ فُنونًا منه جمة، فنفع وخرَّج، ودرَّس العربية والفقه والأصول وأقرأ القرآن، وعلم الفرائض والحساب، وعقد مجالس الحديث شرحا وسماعا على سبيل من انشراح الصدر، وحسن التجمل وخفض الجناح»

أما خطابة المسجد الجامع بغرناطة فقد تقلدها عن كفاءة عالية وشهرة علمية سامية، مع نُسُكٍ وزَهادة، ووَرَع وعبادة. وكان في خطبه وصلاته كثير الخشوع، لا يتمالك من سَمِعَ صوته - في الغالب - من إرسال الدموع، يقرأ في الصبح بما فوق المفصل، فيحسبه المُصَلِّي خلفَه كأنما قرأ بآية واحدة، لحسن قراءته، وطيب نغمته وصدق نيته، وإذا ذكر شيء من أمور الآخرة ظهر على وجهه الاصفرار، ثم يغلبه البكاء، ويتمكن منه الانفعال.

وكان أبو عبد الله من الفقهاء المُتّقين، والعُبّاد الصالحين زاهدًا متواضعًا، مُطّرحًا للتكلف، عديم المبالاة بالملبس موصوفا بالمروءة وقضاء حوائج الناس، وقلّما كان يتخلف في يوم من أيامه عن عيادة مريض أو شهود جنازة، أو تفقّد مُحتاج، أو زيارة منكوب. ويذكر الخطيب أبو جعفر الشُّقوريُّ عن مروءة أبي عبد الله الأشعريّ فيما رواه عنه أبو الحسن النُّباهيُّ، فيقول: «كنت قاعدا يوما بين يديه، في مجلس قضائه من حضرة غرناطة، مهدها الله تعالى، وإذا بامرأة قد رفعت له بطاقة مضمنها: يا سيدي، رضي الله عنكم، إنّما محبّتها في الرجل الذي طلّقها، وهي تريد من يكلمه في ارتجاعه لها وردّها إليه. قال: فتناول القلم وكتب على ظهر البطاقة أحرفًا ودفعها إليّ، فإذا هي: الحمد لله، من وقف على ما في المقلوب فليُصْغِ لسماعه إصاغة مُغيث وليَتشفع لتلك المرأة عند مفارقها تأسّيا بشفاعة رسول الله، ﷺ لبَرْبَرَة في مُغيث. والله تعالى يسلم لنا العقل والدين، ويَسْلُكُ بنا سبيل المُهتدين».

وكان كثير النصيحة، والاجتهاد فيها، لم يترك مناسبة تدعو لذلك إلاّ اغتنمها فرصة سانحة للوعظ والإرشاد، وكان ينصح طلبته بقوله: «أوصيكم -بعد تقوى الله العظيم- بثلاث خصال: ألاّ تكتبوا خطا دقيقا، فإنّه يَضُرُّ بأبصاركم، ويقِلُّ انتفاعُ الغير به بعدَكم، وإذا خطّطتم أحدا، فلاحظوا تخطيطه أن يكون الشخص المُخطّط غير خَليٍّ من المعنى الواقع في اسمه، توخيا منكم للصدق، وتحريا عن التجاوز المحض، ولا يكن همكم بكتب الشيوخ لكم على ما قرأتم، وليكن همكم أن تكونوا من الديانة والدراية بمثابة من يقبل قوله فيما يدعيه ولا يكذب فيه».

كان أبو عبد الله الأشعريُّ أديبا بليغا، فصيح اللسان، حسَنَ الإيراد، له نثر بديع يعْلَقُ بالفؤاد، وله مقالات جمعت بين فصاحة الألفاظ، وبلاغة المعاني، وكلامه المرسل سهل حسن، نبيل المقاصد والأغراض. وله رسالة كتبها إلى أمير غرناطة عندما كان مُعْتَقَلاً بدار الأشراف على ما نسب إليه من المسامحة في إضاعة مال الجباية، نقتطف منها: «... أليس من قواعد الحكم نظرُ حالِ المدّعي وحالُ المدّعى عليه، ومَنْ يَليقُ به ما عزي له ومن لا يُناطُ به ما نُسبَ إليه؟ هل يستويان مثلا أو يتقاربان قولاً، ويتقارنان عملاً، أو يتباعدان بُعْدَ المشرِقَيْن، ويتباينان فوق ما بين غُطارِدَيْن؟ فمَن الذي يتلو الآيات ويردّد واعِظَها ويسرُد الأحاديث ويسمع مواعظها، ويطرد في الأسحار الهجوع ويرسل في مجالس الخبر الدموع، ويتعبّدُ مع العابدين، ويتقلّبُ مع السّاجدين؟ أم هو كذا وكذا وكَيْت وكَيْت ممّا يَكثُر عند التّعدادِ ولا يُجمَلُ في مثله استعمالُ القَلم والمِداد؟ فعلى مَنْ تُحمَّل اليمين والكذب، أعلى من ألِفه الجَدُّ أم على مَنْ غلب عليه اللّعِبُ؟ فإنّ غيرَ هذا أو غير هذا لأمر ما وقيل هما في الثّناء سَيّان، وعند النّداء سِيّان، وقد ظهر للمدّعي في صكوك الحساب رُجحَان، وهذا ديوان العمل فيه شهادة فلان على خطّ المطلوب وفلان، فأدْرَأ هذه الشُّبْهَة المُشوّهة والحُجّةُ الداحِضة المُمَوّهة. فإنّ اضطرابَ المذاهب في العمل بالكتاب وتَفرُّقِ أربابها على أشتّات الطُّرق والشِّعاب، فمنهم من أهمله جملة في كل

الأمور، ومنهم من أعمله في بعضها وهو القول المشهور، يا لَلعَجَب إذا كانت شهادة العدول ترد بالاستبعاد، بدعوى فيما يقدر على تحصيله بيسير العشرات والآحاد، وعند التأمُّلِ بإنصافٍ، وتجنُّبِ المَيْل والانحراف، يبدو من أحوال هذه القضية قرائن توجب فضَّ ذلك المكتوب، وتُؤذِن ببراءة المَحْبوس من العدد المطلوب، وإن كان من جدَّ هذا القول ليس من أهل التحبير، ولا ممّن عُرِف بجودة البيان وبلاغة التعبير، فإنّه ذو عُسْرَةٍ جادٌّ بما وَجَدَ، وحليفٌ وَجْدَ عَضَرَ بلائِهِ طبعه شِدّةٌ ما به من الكمد، أبقاك الله وكتب لك سَدادَ الرأي وسعادة الأبد، وعِزًّا ونعيمًا لا يحصرهما حَدٌّ، ولا ينتهيان إلى أمد، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله صلاةً دائمةً ما دام ثناؤه في الألسُن وثراه في الخُلد".

وعَلّقَ على هذه الرسالة أبو الحسن النُّباهيُّ قائلا: «وهذا المرسومُ الفريد إن كان شيخنا أبو عبد الله بن بكر قد أتى به على البَديهة، أنه لأغْرَب من الخُطبة التي قام بها مُنذر بن سعيد بين يَدَيْ الخليفة الناصر، حين أُرْتِجَ على محمد بن عبد البَرّ، وحِيلَ بينه وبين ما رواه، وانقطع القولُ بأمير الكلام أبي علي القالي. وإن كان الشيخ قد جدد قديما ما أظهره وأعدّه، قَصَدَ مُناظرة أخيه، فلقد أحْسَنَ في عمله ما شاء، وأجاد الإبداع والإنشاء».

يُعَدُّ أبو عبد الله الأشعري من الفقهاء الفضلاء، قد جمع بين العلم والعمل والعبادة، والتقوى والوَرَع والزَّهادة، طَفَحَتْ صفحاتُ مصادر ترجمته بالثَّناء عليه، وأشادت بفضله وعِلمِه، وَوُجوبَ الانقياد إليه. وقد أثنى عليه تلميذه أبو الحسن عليُّ بن عبد الله النُّباهِيُّ المالقيُّ مؤلف كتاب «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» إذ عقد موازنة بينه وبين عدد من العلماء الأجلاّء في جوانب متعددة، تَنِمُّ عن قوّة شخصيَّة أبي عبد الله الأشعري، وسداد رأيه، وشدّة ورعه، فقد عَدَّ قيامه بتجريح الشهود، وتزييف ثلاثين منهم، وما لحقه جرّاء ذلك من المشقة والنصب والكَبْد، أشْبَه القضاة بيحيى بن مَعْمَر الذي سجَّل في يوم واحد بالسُّخْطَةِ على تسعة عشر رجلاً.

وفي توجيه طلاّبه وحَثِّهم على الجدّ والاجتهاد منذ الصغر أشبه بقول الجُنَيْد بن محمد لفتيان الطلبة: «يا معشَرَ الشباب، جِدُّوا قبل أن تبلغوا مبلغي! فتضْعَفُوا وتقْصروا كما قَصَرْت!» حتى صار أصحاب أبي عبد الله الأشعريِّ على هيئة متميِّزة من لباسٍ واقتصادٍ، وجِدٍّ واجتهادٍ بفضلِ نُصحِه وإرشاده.

وفي تشدُّده بالأحكام، والتزامه بالصرامة في تنفيذ الحقوق وإقامة الحُدود، أشبَه علماء وقته بالقاضي سَحْنون بن سعيد لم يكن ذلك ببَعيد.

وفي معاملته لأصحابه والعطف عليهم، وقضاء حوائجهم والصفح عنهم أشبه بمذهب الفَرَج بن كنانة، فإنه لا يرى زلّة لصديقه ولا يعدل في حاجته إليه عن طريقه.

وكان من فقهاء الأمّة، وعلمائها الأجلاّء، وقضاتها الفُضلاء، يُقاس بالقاضي محمد بن بشير المعافريِّ الذي كان صدرًا من صُدورِ هذه الأمّة.

وفي رسالته التي وجّهها إلى أمير غرناطة إثر اعتقاله، وقد كتبها على البَديهيَّة، أنه لأغرب من الخطبة التي قام بها مُنذر بن سعيد بين يدي الخليفة الناصر، حين أُرْتِجَ على محمد

ابن عبد البرّ وجِيْلَ بينَه وبينَ ما رَواهُ، وانقطع القول بأمير الكلام أبي علي القاليّ.

وفي إصدار أحكامه لا يقلّد مذهبًا، ورُبَّما نحا في بعض أحكامه إنحاء مُصْعَب بن عِمْران أحد القضاة قديمًا بقرطبة، فكان لا يقلّد مذهبًا ويقضي بما يراهُ صوابًا.

وكان يأخذُ بمذهب اللَّيْث بن سعد في كراء الأرضِ بالجُزْءِ ممّا تُنْبِت.

فُقِدَ في مصاف المسلمين يوم المُناجزة الكبرى بطَريف، شهيدًا مُحَرِّضًا يشحذُ البصائرَ ويشير على الأمير أن يُكْثِرَ من قول «حسبُنا الله ونِعمَ الوَكيل» وقد كَبَت دابَّتَه التي كان عليها راكبا، وأفاق رابط الجأش، مجتمع القوى، وأشار عليه بعض المُنْهَزِمينَ بالرُّكوب فلم يكن عنده قُوّةٌ عليه، وقال له «انصرف! هذا يوم الفرح» إشارة إلى قوله تعالى في الشُّهداء ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: 170]، وذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جُمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة.

المصادر والمراجع

● ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح. محمد عبد الله عنان، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1393هـ/ 1973م؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسلامبول، مطبعة وكالة المعارف، 1951م؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مطبعة عيسى البابي، 1384هـ/ 1964م؛ ● ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان)، تح. محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، دار التراث، 1390هـ/ 1970م؛ ● العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تح. محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1385هـ/ 1965م؛ ● مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، مكتبة القدسي 1350هـ؛ ● النباهي، المالقي، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تح. أ. ليفي بروفنسال، القاهرة، دار الكاتب العربي، 1948م؛ ● التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، القاهرة، مطبعة المعاهد، 1351هـ، (طبع على حاشية الديباج المذهب)؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، إسلامبول، وكالة المعارف، 1951م.

د. صالح مهدي عباس الخضيري
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد ـ العراق

البكر، منذر عبد الكريم عيسى

(1936م - 1999م)

منذر عبد الكريم عيسى البكر، مؤرخ وأكاديمي عراقي، ولد في قضاء أبي الخصيب في محافظة البصرة عام 1936. درس في مدارس القضاء ومدينة البصرة. ثم التحق بقسم الآثار في كلية الآداب والعلوم جامعة بغداد، وتخرج منه عام 1957 حاصلاً على درجة الباكالوريوس في الآثار الإسلامية بتقدير امتياز شرف، مما أتاح له أن يحظى بزمالة إلى جامعة لايبزك في ألمانيا الشرقية (آنذاك) فنال درجة الدكتوراه فلسفة في الآثار الإسلامية عام 1966. وكان عنوان رسالته «تطوّر الواجهات المعمارية في الشرق القديم والإسلامي: دراسة في واجهة جامع السلطان حسن في القاهرة».

وعند عودته إلى العراق عيّن مدرّسا في كلّية الآداب، جامعة البصرة المدينة التي آثر الاستقرار بها. وشغل في كلية الآداب منصب رئيس القسم بين عامي 1970 و 1975، ثم انتقل بعد ذلك إلى كلّية التربية حتى عام 1988، وحصل على الأستاذية وعاد إلى كلية الآداب رئيسًا لقسم التاريخ من جديد. وفي تلك الأثناء انتخب البكر عضوًا في المجلس الوطني العراقي مع مواصلته التدريس حتّى وافاه الأجل أثناء إلقائه إحدى المحاضرات العامة عام 1999.

لقد كان نشاط الأستاذ البكر زاخرا طوال عقود ثلاثة، فقد نشر أربعة كتب وأكثر من خمسين بحثًا، فضلاً عن مشاركته في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية، كما استضافته جامعات عربية وعالمية أستاذا زائرًا مثل، جامعات صنعاء، والرياض، وباكو، ومايننز وغيرها، علاوة على تدريسه في الدراسات الأولية والعليا لمادة تاريخ العرب قبل الإسلام والتاريخ القديم وإشرافه على خمسة عشر رسالة ماجستير ودكتوراه.

ويمكن تحديد طبيعة الاتجاه والإسهام الفكري للأستاذ البكر ضمن أطر ثلاثة: زمني، ومكاني، وموضوعي. فإذا كان قد حصل على درجة الدكتوراه في موضوع الآثار الإسلامية في العهد المملوكي في مصر، فلا نجد له كتابًا في التاريخ الإسلامي، حيث كرست جميع كتبه لمرحلة ما قبل الإسلام. أما أبحاثه، فلم يفرد للتاريخ الإسلامي منها خلا سبعة من أبحاثه. في حين تركزت أغلبيتها على التاريخ العربي قبل الإسلام.

أما الإطار المكاني لنشاطه البحثي فمختلف تمامًا عن وجهته الأولى، فلم يفرد لمصر - محور رسالته - إلاّ بحثًا واحدًا نشره عام 1968، وهو بمثابة تلخيص للرسالة عينها، وبالمقابل نجد أبحاثه تنصب على أربع مناطق: اليمن وقد كتب عنها ثلاثة عشر بحثًا، والعراق عشرة أبحاث، والجزيرة العربية سبعة أبحاث، ثم الخليج العربي ثلاثة أبحاث. وكان للبصرة مدينته الأثيرة حضور طيب من اهتمامه فقدم بشأنها أربعة أبحاث.

والمطلع على عناوين أبحاثه يراها تصدر عن توجّه عروبي قومي، هدفه التأكيد على مكانة العرب في تاريخ ما قبل الإسلام، وشعورهم المشترك بالانتماء إلى أمة عريقة، وحرصهم المتواصل على توحيد صفوفهم في مواجهة التحديات الأجنبية. وقد عالج ذلك بالتفصيل في أكثر من دراسة كما هو الحال في دراسته «المحاولات الوحدوية في الجزيرة العربية قبل الإسلام» التي نشرها في مجلة «آفاق عربية» العراقية عام 1979، و«من ملامح الحس القومي عند العرب قبل الإسلام» المنشورة في مجلّة «المؤرخ العربي» عام 1986 وغيرها. وفي ضوء ذلك انساقت دراساته للتاريخ السياسي العربي الذي احتلّ النصيب الأوفر من اهتمامه فخصّه بكتبه جميعا وثلاثة وعشرين بحثًا منشورًا.

ويمكن تقسيم هذه الأبحاث إلى مجموعتين: المجموعة الأولى أبحاث مكرّسة لدراسة قبائل وممالك الجزيرة العربية التي تأتي في مقدمتها قبائل اليمن ودولها مثل سبأ ويمنت، وأوسان وغيرها، وتأتي بعدها مناطق اليمامة والحيرة. والمجموعة الثانية تلك التي تتناول تصدّي العرب للقوى الأجنبية مثل أبحاثه عن كفاح عرب الجزيرة للغزو الأجنبي قبل الإسلام والصراع العربي الفارسي. ولا سيما في الحديث عن دور العرب في الخليج العربي في مواجهة التحدّيات الخارجية كما هو الحال مع بحثيه: «صور من المقاومة العربية للأطماع الأجنبية في الخليج العربي» الذي قدم في عام 1975 للمؤتمر الدولي للتاريخ والآثار في بغداد؛ و«صور من كفاح عرب الخليج في عصور ما قبل التاريخ» المنشور في مجلّة «الخليج العربي» في السنة ذاتها. وتأتي بعد ذلك في الأهمّية دراساته في التاريخ العمراني والأثاري، وخصّه بثمانية أبحاث كرست لدراسة واجهات القصور اليمنية والمعالم العمرانية في البصرة. أما دراسته للتاريخ الفكري العربي، فنبعت كذلك من الاتجاه ذاته حيث عكف على تسليط الضوء على دور عدد من الفلاسفة والكتاب العرب في تكوين التراث اليوناني أمثال فورفوريوس وإيمبولس. وهما مفكران سوريان أسهما كما أوضح الأستاذ البكر، اسهاما لافتا في إغناء التراث اليوناني. وقد جمع خلاصات أبحاثه في هذا المضمار وأعاد نشرها عام 1975 في بحث بعنوان «الفكر العربي في التراث اليوناني». كما رصد في مرحلة لاحقة من حياته طبيعة التأثير الفكري والحضاري العربي في منطقة أخرى هي فارس القديمة.

ومما هو جدير بالإشارة، أن إكمال الأستاذ البكر لدراساته في ألمانيا الشرقية كان أتاح له إجادة اللغة الألمانية، والتمعّن في دراسة الإسهامات الاستشراقية الألمانية الضخمة في حقل التاريخ العربي القديم. ولعل ذلك ما يفسّر تحوّل اهتمامه تجاه هذا الحقل. ومن جانب آخر فإنه اتجه إلى تعريب بعض هذه الدراسات مثل دراسة ور. شتيل في التاريخ السياسي والفكري للعرب قبل الإسلام التي نشرها عام 1969 في مجلة «الفكر الحي» البصرية. ودراسات كاسكل عن «تاريخ السلالة اللخمية» التي نشرت في كلية الآداب جامعة البصرة عام 1980 وغيرهما. كما ظهر توجهه البحثي في دوره مشرفًا على الرسائل الجامعية، فقد أشرف على خمس عشرة رسالة ماجستير ودكتوراه. خمس منها عن قبائل عربية هي أسد، ومذحج، وخولان، وهمدان، وثلاث عن الدول العربية القديمة:

الحضر، والدولة الصلحية، ودولة الأنباط؛ ورسالتان عن الاتجاهات الوحدوية في الجزيرة العربية قبل الإسلام. وثلاث رسائل عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والديني لليمن قبل الإسلام.

ولا يكتمل الحديث عن الأستاذ البكر إلا بالإشارة إلى دوره رئيسا للتحرير، وعضوًا في هيئة تحرير دوريات أكاديمية وعلميّة بارزة، مثل مجلّة كلية الآداب جامعة البصرة، ومجلّة الخليج العربي، ومجلة كليّة التربية جامعة البصرة؛ وإن القسم الأكبر من أعماله نشر في هذه الدوريات.

آثاره

أ ـ الكتب:

1 ـ محاضرات في تاريخ العرب القديم، جامعة البصرة 1972؛ 2 ـ دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام (الدول الجنوبية) 1980؛ 3 ـ الجذور التاريخية لعروبة الأحواز 1981؛ 4 ـ دراسات في تاريخ العرب قبل الاسلام 1993؛

ب ـ الأبحاث:

ـ 1968: 1 ـ التطور التاريخي لواجهة جامع السلطان حسن في القاهرة، مجلّة الجامعة ع3 ـ 4؛ ـ 1969: 2 ـ ضريح المحسن البصري ومسجد الكواز، نموذجان للعمارة الإسلامية في البصرة، مجلة الجامعة ع 5؛ 3 ـ التاريخ السياسي والفكري العربي قبل الإسلام، ترجمة وتعليق، مجلّة الفكر الحيّ، مديرية تربية البصرة، ع 2؛ 4 ـ تاريخ الدولة الصفارية، مجلة المربد، ع 2 ـ 3؛ ـ 1970: 5 ـ العرب والتجارة الدولية منذ أقدم العصور إلى نهاية العصر الروماني، مجلة البريد، ع 4؛ 6 ـ إيمبولس، الكاتب العربي الطوباني، مجلة المورد، ع1؛ ـ 1971. 7 ـ لحيان المملكة العربية القديمة، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ع 5، ترجمة؛ ـ 1972: 8 ـ مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ع6؛ 9 ـ ملاحظات حول الألفاظ الهندية، مجلة اللسان العربي؛ 10 ـ التَميّات الساسانية، مجلة كلية الآداب، ع 7؛ ـ 1973: 11 ـ فورفوريوس الفيلسوف العربي، مجلة المورد، ع3 ـ 4؛ 12 ـ عمارة جرها العربية، مجلة الخليج العربي، ع 1؛ ـ 1974: 13 ـ المسكوكات اللحيانية، مجلة المسكوكات، ع 7؛ 14 ـ العمارة الإسلامية في كردستان، مجلة شمس كردستان؛ ـ 1975: 15 ـ بحث تاريخي في جغرافية شبه الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، ع9؛ 16 ـ الصراع الأموي السياسي والاقتصادي حول السلطة في بداية العصر، مجلة المورد، م3، ع3؛ 17 ـ ظهور الخيل عند العرب، مجلة العرب، ج3 ـ 4؛ 18 ـ صور من المقاومة العربية للأطماع الأجنبية في الخليج العربي، المؤتمر الدولي للتاريخ والآثار، بغداد؛ 19 ـ صور كفاح عرب الخليج في عصور ما قبل التاريخ، مجلة الخليج العربي، ع2؛ 20 ـ الفكر العربي في التراث اليوناني، مجلة الآداب، جامعة البصرة؛ ـ 1977: 21 ـ الشناشيل في البصرة، مجلة المرفأ، ع 25؛ ـ 1979: 22 ـ مساهمات العرب في التراث اليوناني، المورد، م8، ع 2؛ 23 ـ المحاولات الوحدوية في الجزيرة العربية قبل الاسلام،

مجلة آفاق عربية، ع6؛ 24 ـ قوائم ملوك الحيرة، مجلة كلية الآداب، ع 16؛ 25 ـ تاريخ السلالة اللخمية، مجلة كلية الآداب، ع 17؛ 26 ـ ملوك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنت، حوليات الجامعة التونسية، ع 18؛ 27 ـ اليمامة أو العروض وجرها في عصور ما قبل الإسلام، مجلة كلية التربية، ع 3؛ ـ 1981: 28 ـ قبيلة يمنت ودورها السياسي في تاريخ اليمن، دراسات يمنية، ع 25 ـ 26؛ 29 ـ الشمس في عبادة العرب قبل الإسلام، مجلة كلية التربية، جامعة البصرة، ع 7؛ ـ 1982: 30 ـ تدخل كندة في سياسة الحيرة، مجلة كلية التربية، جامعة البصرة، ع8؛ 31 ـ دراسة في الفكر السياسي في العراق القديم، مجلة الخليج العربي، م 10؛ ـ 1983: 32 ـ الملاحة البحرية في الخليج العربي، مجلة دراسات في العلوم الاجتماعية، ع1، م3؛ ـ 1985: 33 ـ دولة ميسان العربية، مجلة المؤرخ العربي، م 26؛ ـ 1988: 34 ـ دراسة في الميثولوجيا العربية، الديانة في بلاد العرب قبل الإسلام، مجلة دراسات في العلوم الاجتماعية، م8 . . . إلخ.

المصادر والمراجع

● معلومات سيرية قدمتها كتابة زوجة منذر البكر؛ ● معلومات شفهية قدمها عامر سليمان، أستاذ التاريخ القديم في كلية الآداب، جامعة الموصل، صديق المترجم له؛ ● معلومات سيرية قدمها جواد مطر الحمد، كلية الآداب، جامعة بغداد وهو تلميذ المترجم له وأنجز تحت إشرافه الماجستير والدكتوراه.

د. ناصر عبد الرزاق الملاّ
جامعة الموصل ـ العراق

البَكريّ، أبو البقاء محمد بن عبد الرحمن

(807هـ/1404م ـ 891هـ/1486م)

محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن محمد البكري، الدّهروطي، ثم القاهري، الشافعي. يعرف بالجلال البكري (أبو البقاء جلال الدين). فقيه أصولي نحوي. برع في أصول الفقه، وتفرّد في عصره بحفظ فقه الشافعية، حتى إنه كان يترفّع عن أهل عصره في هذا الفن لعدم وجود من يقارنه فيه [الشوكاني، 2/ 182 ـ 183].

ولد بدهروط في صعيد مصر الأدنى، وبها نشأ. ثم انتقل إلى القاهرة، وزار دمشق وبيت المقدس وحجّ البيت الحرام.

قرأ على التقي بن عبد الباري، والشمس سبط ابن اللبان، والرماوي، والجلال البلقيني، والحافظ ابن حجر [الشوكاني، 2/ 182].

أخذ عنه الفقه الشيخ عبد الحق بن محمد بن

عبد الحق السنباطي، المعروف بابن الحق (ت 931هـ)، وعبد الرحمن بن الشيخ علي بن أبي بكر المتوفى سنة 923هـ [العيدروسي، 1/ 141].

ولئن برع في الفقه فإنه شارك في الأصول والعربية، ووُلي قضاء الإسكندرية سنة 863هـ، وحُمدت سيرته؛ ولكنه عُزل، فعاد إلى القاهرة حيث اشتغل بالإقراء والإفتاء إلى أن توفي بها في منتصف ربيع الآخر عام 891هـ [الزركلي، 6/ 194؛ عمر رضا كحالة، 10/ 134].

آثاره

له تصانيف كثيرة معظمها في فروع الفقه الشافعي. منها: 1 - الابتهاج بحواشي المنهاج، مخ. بدار الكتب المصرية، 1907 فقه شافعي، 212 ورقة. وهناك نسخة أخرى تحت رقم 11 فقه شافعي، 177 ورقة؛ 2 - بهجة الراغبين بحواشي روضة الطالبين، مخ. بالمكتبة العامة لبلدية الإسكندرية، تحت عنوان «حاشية على الروضة للنووي»، 820 ب، 245ق. وفي مكتبة مركز إحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، 521، وهو مصور عن مخطوط بمكتبة مكة المكرمة، تحت رقم 99، 150 ورقة؛ 3 - شرح الروضة للمقّري؛ 4 - شرح التدريب للسّراج البَلقيني؛ 5 - شرح تنقيح اللباب، وهو اختصار أحمد بن عبد الرحيم العراقي (ت 826) لكتاب «لُباب الفقه»، وسماه «الفتح العزيزي»؛ 6 - شرح مختصر التّبريزي، وهو شرح لمختصر التبريزي في فروع الشافعية لأمين الدين مظفر بن أحمد التبريزي المتوفى سنة 621هـ؛ 7 - نكت على المنهاج؛ يشار كذلك إلى أنه كان قد شرع في شرح البخاري [الزركلي، 6/ 194؛ عمر رضا كحالة، 10/ 134؛ فهرس دار الكتب المصرية؛ فؤاد سيد، 1/ 298؛ فهرس الفقه الشافعي، ص 169].

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت 1992م، 2/ 154، دار الكتب العلمية، 1626؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، ط10، 1992م، دار العلم للملايين، 6/ 194؛ ● العيدروسي، عبد القادر بن شيخ عبد الله، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ط1، بيروت 1405هـ، دار الكتب العلمية، 1/ 141؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت (د.ت)، دار إحياء التراث العربي 10/ 134؛ ● فؤاد سيد (تصنيف)، فهرس المخطوطات المصورة، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1954م، دار الرياض للطبع والنشر، 1/ 298؛ - قسم الفهرسة ● وقسم الحاسب الآلي (إعداد)، فهرس الفقه الشافعي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1418هـ، جامعة أم القرى، 169؛ ● الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من عاش بعد القرن السابع، بيروت (د.ت)، دار المعرفة، 2/ 182 - 183.

د. سعيد الوكيل
جامعة القاهرة
د. نور الدين الخادمي
جامعة الزيتونة - تونس

البكري، أبو السرور بن محمد بن محمد

(ت 1060هـ/1650م)

هو أبو السرور بن محمد بن محمد أبي السرور بن محمد زين العابدين بن محمد بن أبي بكر الصدّيق، سبط آل الحسن، يُعرف بالبكري، الصّدّيقي، نسبة لخليفة رسول الله ﷺ.

هكذا كُتب اسمه.

وساق هو نَسَبَه مطوّلاً في افتتاحيّة كتابه «قطف الأزهار من الخطط والآثار». وهو من أسرة مصريّة ظهر منها أكثر من مؤرّخ في العهد العثماني، وألّفوا عدّة كتب عن العثمانيّين، وعن دخولهم مصر، ودولتهم فيها، وصنّفوا في فنون أخرى، نذكر منهم: «محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري، أبو الحسن» (توفي 952 هـ/ 1545 م). له «تسهيل السبيل في تفسير القرآن»، و«شرح منهاج النووي»، و«منظومة الدرّة المكلّلة في فتح مكة المبجلّة» وغيره. و«محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري» (توفي 994 هـ/ 1585 م). له: «الفتح المبين بجواب بعض السائلين»، و«تحفة السالك لأشرف المسالك» و«شرح مختصر أبي شجاع في فروع الفقه الشافعي»، و«ديوان شعر». و«محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن زين العابدين» (توفي 1028هـ/ 1618م) له: «المنَح الرحمانية في الدولة العثمانية» و«فيض المنّان بذكر دولة عثمان».

وبالمقارنة بين ما ذكره «كحّالة» في «معجم المؤلّفين»، وما ذكره «شاكر مصطفى» في «التاريخ العربي والمؤرّخون» نجد تداخلاً وتضارباً وتكراراً لأسماء المؤلّفين وتواريخ وفاتهم وأسماء مؤلّفاتهم، ما يقتضي التأنّي والبحث برويّة عن حقيقة اسم المؤلّف واسم الكتاب الذي يُنسب إلى كلٍّ منهم، حيث نُسب الكتاب الواحد لاثنين من أبناء هذه الأسرة.

كما تحتاج وفيات أفراد الأسرة البكرية للتحقيق والتدقيق، فقد ذكر بعضهم أنّ صاحب «قطف الأزهار من الخطط والآثار» هو: «شمس الدين بن أبي السرور البكري الصدّيقي» المتوفّى سنة 1060 هـ/ 1650م. دون توثيق. بينما كتب المؤلّف اسمه على النحو الذي أثبتناه أعلاه، وهو يقول إنه فرغ من كتابة نسخته أثناء سنة 1058 هـ/ 1648م. ويؤكّد أنّ والده ألّف في موضوع أمراء مصر ونوّابها من الخلفاء في تواريخه، وذكر خاتمة تتضمّن ذكر قضاة الديار المصرية منذ فُتحت على يد «عمرو بن العاص»، وذكر قضاة الدولة العثمانية من حين جعل السلطان «سليمان» أول قاضٍ حنفيّ بمصر وإلى أواخر سنة 1057هـ، ويشير المؤلّف إلى والده في أكثر من موضع في كتابه، ويردّد قوله: «حفظه الله»، ما يعني أنه بقي حيّاً إلى ما بعد سنة 1058 هـ، كما يشير إلى عمّ والده «الشيخ تاج العارفين محمد بن زين العابدين»، وجدّ

والد والده «عارف الزمان. . الأستاذ الأعظم الشيخ محمد الصدّيقي التيمي سبط آل الحسن»، و«ابن مزهر» جدّ أولاده لوالدتهم، والجدّ الرابع له «الشيخ جلال الدين الصدّيقي» الذي أنشأ بركة القرع المجاورة للجامع الأبيض بأرض الطبّالة بالقاهرة، وتوفي سنة 891 هـ، وجدّه لوالده «الأستاذ العارف بالله محمد أبو البقاء جلال الدين الصدّيقي» الذي أنشأ جامع بركة الرطلي، في سنة 908 هـ/ 1502م، وتوفي سنة 922 هـ/ 1516م. وكان «أبو البقاء جلال الدين» هذا قد أخذ العلم عن عمّه المعروف أيضاً بالشيخ جلال الدين البكري، وبقي ابنه الشيخ «محمد الصديقي» والد المؤلّف يسكن في منزل يطلّ على جامع بركة الرطلي، بجانب جامع «علم الدين شاكر بن الجيعان».

هذه المعلومات المتناثرة بثّها مؤرّخنا في كتابه المخطوط «قطف الأزهار» الذي اختصره من كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بكتاب «الخطط المقريزية» للمؤرّخ «تقيّ الدين المقريزيّ» (توفي 852هـ). وزاد عليه من السنة التي وقف «المقريزيّ» عندها إلى دخول العثمانيين مصر بقيادة السلطان «سليم الأول» والأحداث التي جرت في مصر حتى أواخر سنة 1057 هـ/ 1647م. مشيراً إلى ذلك في مقدّمة الكتاب، وقد رتّبه على أربعةٍ وثلاثين باباً، ولم يلتزم بترتيب «المقريزي» في كتابه، بل اختصر منه الكثير، ومع ذلك جاءت المادّة المأخوذة عنه أكثر من نصف حجم مختصره، وحين ينقل «البكري» عن «المقريزي» يعتمد عبارةً هي: «قال مؤلّف أصله رحمه الله، وهو المقريزي»، وإذا أضاف زيادةً من لَدُنْه بدأها بعبارة: «أقول» أو «قلت».

وفي الباب الثامن من المخطوط نقف على مثال من طريقة المؤلّف في عرضه لمادّته، كما جاء بأغلاطه اللغوية: «الباب الثامن في ذكر الفُسطاط وفتح مصر على يد عمر (!) بن العاص وأخطاطها وما يتبع ذلك من ذِكر وُلاتها وخلافوها (!) وملوكها، وذكر فتحها على يد المرحوم السلطان سليم وأخذ (!) من الغوري وطومان باي وذلك على سبيل التفصيل، وذكر نواب الدولة الشريفة العثمانية خلّد الله تعالى بجاه سيّدنا محمد خير البريّة، من أول تولية خير بك باشا على مصر وإلى آخر تولية الوزير محمد باشا بن حيدر، وذلك على سبيل الإجمال، لأنّ مولانا الأستاذ الوالد حفظه الله ذكرهم في تواريخه العدد على سبيل التفصيل، وذكر خاتمة تجمع ذكر قضاة الديار المصرية من منذ فُتحت على يد عمرو بن العاص وذكر قضاة الدولة الشريفة العثمانية من حين جعل المرحوم مولانا السلطان سليمان قاضياً حنفياً وإلى حين ولاية زين العابدين أفندي المتوفي (!) بمصر في شوال سنة ست وخمسين وألف. كل ذلك من زيادتي التي لم يذكر المؤلّف ـ أعني مؤلّف أصله الشيخ تقيّ الدين المقريزي، رحمه الله ـ ليتمّ بهذا المختصر الفائدة. فأقول: قال مؤلّف أصله رحمه (!) إعلم أن».

وفي الكتاب المخطوط أغلاط وأخطاء كثيرة يقتضي تصويبها عند التحقيق، ومن ذلك: «ابن الطير» (!) والصواب: «ابن الطُوير» وهو صاحب كتاب «نزهة المقلتين في أخبار الدولتين» والمتوفى سنة 617هـ/ 1220م.

ولما كان الملك الأشرف برسباي الدقماقي المتوفى سنة 841 هـ/ 1437م. هو آخر ملوك مصر الذين ذكرهم «المقريزي» في خططه، فقد زاد المؤلّف عليه بقوله: «ومن زيادتي التي لم يذكرها أحد يصلها المؤلّف لتستمرّ بهذا المختصر الفائدة ذكر ملوكها ونوابها وذكر فتحها على يد مولانا السلطان سليم خان وأخذها من السلطان وواقعته معه ومع طومان باي، وذلك على سبيل التفصيل، وذكر بكلربكية آل عثمان على مصر من حين تولية خير بك باشا وإلى آخر تولية الوزير محمد باشا بن حيدر وذلك في أواخر سنة سبع وخمسين وألف على سبيل الإجمال في تراجمهم لأن ذكرها مولانا الأستاذ الوالد - حفظه الله تعالى - في تواريخه وذكر خاتمة تتضمّن ذكر قضاة الديار المصرية من حين فتحها على يد عمرو بن العاص..».

ويتكئ المؤلّف في تأريخ الحقبة المتقدّمة من أواخر دولة المماليك على كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لـ «ابن إياس» (ت930 هـ/ 1523 م)، كما يتخذ من كتاب والده مصدراً للتأريخ عن مصر في العصر العثماني، وقد أشار إلى ذلك، في أكثر من موضع في كتابه «قطف الأزهار»، كما يأتي بأخبار ومعلومات خاصة لم يذكرها غيره. أمّا زياداته على «المقريزي» ممّا يسبق عصر المماليك، فتعتمد على مصادر كثيرة جداً، منها كتب الصحاح في الحديث، ومعاجم اللغة، وكتب التواريخ المتقدّمة، ودواوين الشعراء، ومعاجم البلدان التي يصرّح بأسمائها أو أسماء أصحابها.

ولا يُخفي «البكري» ولاءه وثناءه على الدولة العثمانية، ونَيْله وذمّه لدولة المماليك، وأورد في ذلك حكاية نقلها عن والده في ترجمة السلطان «بايزيدخان» والد السلطان «سليم» وعقّب المؤلّف على الحكاية بقوله: «قلت: وهذا الأمر إنّما هو من الله تعالى حتى أرسل مولانا السلطان سليم خان إلى أخذ البلاد، وقمع الأعداء والحسّاد، وأخذ الديار المصرية، وجلوسه على تخوتها اليوسُفيّة، وبلّغه الله تعالى كل الأمنية، بجاه سيّدنا محمد خير البريّة، وأخذها من يد الدولة الظالمة، فأصبحت ببهجته على كل البلاد ضاحكة باسمة، أبقا (!) الله تعالى ذريّته ببقاء المُلك فيهم إلى يوم القيامة..».

■ آثاره

- قطف الأزهار من الخطط والآثار (مخطوط، باريس، رقم 1765).

■ المصادر والمراجع

● كحالة، معجم المؤلّفين 11/ 229 - 230، 281، 290؛ ● مصطفى شاكر، التاريخ العربي والمؤرّخون 3/ 143، 259، 265.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية - طرابلس - لبنان

البكري، الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي

(1319هـ/1901م - 1406هـ/1986م)

ولد الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي يوم الخميس 3 أكتوبر 1901 ببلدة العطف، أقدم قرى وادي ميزاب، ولاية غرداية بالجزائر. تعلم القرآن ومبادئ التوحيد بالمسجد العتيق بالعطف، كما أخذ مبادئ اللغة الفرنسية في المدرسة الفرنسية بالعطف، وفيها حفظ القرآن، ودرس العقيدة والفقه وعلوم القرآن وعلوم اللسان على عمه، عمر بن حمو بكلي بمعهد العطف، وبعده على الشيخ يوسف بن بكير حمو علي، خريج دار الزيتونة. ثم انتقل إلى عاصمة الجزائر وفيها أخذ عن الشيخ المولود الزريبي الأزهري، شرح لامية الأفعال وشذور الذهب. وبعد وفاة عمه انتقل إلى تونس في أواخر سنة 1922، ودرس في جامع الزيتونة التفسير على الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والأدب والبلاغة على الشيخ الطيب سيالة، ودرس الأصول على الشيخ الزغواني، ومتنَ جمع الجوامع على الشيخ محمد بن القاضي، كما درس الأشموني على الشيخ الصادق النيفر.

أما في المدرسة الخلدونية فقد درس العلوم العصرية. ومن أساتذته فيها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، والأستاذ عثمان الكعاك، والشيخ العبيدي. وكان طيلة وجوده في تونس ما بين سنتي 1923 و1929، مساعداً للشيخ أبي اليقظان رئيس البعثة العلمية الميزابية، وبعد انتقال الشيخ أبي اليقظان إلى الجزائر، بقي في نفس المهمة مع خلفه الشيخ قاسم بن الحاج عيسى ما بين سنة 1926 و1929.

كان في هذه المدة التي قضاها بتونس شديد الاتصال بطلائع الحزب الحر الدستوري: الشيخ عبد العزيز الثعالبي، والشيخ أبي إسحاق إبراهيم أطفيش، والشيخ توفيق المدني، والشيخ صالح بن يحيى. وفي أثناء تلك الندوات التي كانت تعقد بدار البعثة تكونت آراؤه السياسية والوطنية. وبمشاركته في اجتماعات وندوات الحزب، امتزج تعليمه وتكوينه العلمي بالحياة الوطنية والاجتماعية والسياسية، فاستطاع أن يوفق بين النشاط السياسي، ومتابعة دروسه في الزيتونة والخلدونية.

ولما أنهى دراسته بتونس وعاد إلى العطف سنة 1930، أجمعت البلدة كلها على ترشيحه لمنصب القضاء بها وكان الإجماع من هيئة العزابة ورؤساء العشائر وأعيان البلدة، وحين قبل بعد تردد قرّرت السلطة العسكرية إلغاء محكمة العطف وإلحاقها بمحكمة بني يزجن، وبذلك تخلص الفرنسيون ممن تشتم منه رائحة الدستور وتونس وروح الوطنية.

وعند تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سنة 1931، حضر جلستها التأسيسية وعين عضواً في لجنة صياغة قانونها الأساسي.

وفي شهر ماي من سنة 1934، عين عضوا في حلقة العزابة بالعطف. وعند اشتداد الأزمة الاقتصادية في الثلاثينات استنجد به والده وطلب مساعدته في العمل التجاري بالعاصمة، فلبى النداء ودخل ميدان التجارة، إلا إنه لم ينقطع عن العمل الفكري، وظل في هذا الأثناء ملازما ومعينا للشيخ أبي اليقظان في عمله الصحفي، وكان يقوم بالترجمة للمقالات من الصحف الفرنسية، ونشرت له مساهمات عديدة تجاوزت سبعين مقالة، في جرائد: وادي ميزاب، والمغرب، والنور، والنبراس، والأمة.

شهدت سنة 1939 منعرجا حاسما أثّر في مسيرة حياته العلمية والمهنية، فقد جاءه وفد من أعيان مدينة بريان يطلبون منه الاستقرار في مدينتهم للمشاركة في النهضة العلمية، والتفرغ للتعليم وإدارة مدرستها. فقبل العرض وترك التجارة، واستقر في مدينة بريان منذ ذلك التاريخ، واستلم مهامه الجديدة وتفرغ للتربية والتعليم، ولأنه نجح في مهمته، فقد عين واعظا ومرشدا في مسجدها، ثم عضوا في حلقة عزابة بريان، ثم أصبح بعدها رئيسا للحلقة، ثم واصل أعماله الإصلاحية بتأسيس جمعية الفتح التي تتولى الإشراف على النشاط العلمي في مدينة بريان.

وعند اندلاع الثورة شارك في العمل السياسي والتنظيمي، فألقي عليه القبض سنة 1957، واستمر في جهاده بعد إطلاق سراحه. وفي سنة 1966 عين عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر، وعضوا في لجنته للإفتاء.

تولى رئاسة مجلس عمي سعيد، وهي الهيئة العليا لمساجد الأباضية بالجزائر بعد مرض الشيخ بيوض، ونائبه الشيخ يوسف بن بكير.

وعندما لازم داره في السبعينات بسبب المرض، نظم ندوة أسبوعية في منزله عرفت بندوة الأربعاء، يحضرها نخبة من الأساتذة والمرشدين، استمرت إلى آخر يوم من حياته، وبعد وفاته انتقلت الندوة إلى المسجد القبلي ولا تزال إلى اليوم.

توفى الشيخ البكري في بريان مساء يوم الاثنين 3 جمادى الأولى 1406 الموافق 13 جانفي 1986 بعد مرض عارض.

آثاره

1 ـ تحقيق كتاب «النيل» للشيخ عبد العزيز الثميني؛ 2 ـ تحقيق «قواعد الإسلام» للشيخ إسماعيل الجيطالي، وطبع الكتاب أول مرة طبعة حجرية في مصر سنة 1297هـ، مع حاشية على كتاب قواعد الإسلام، لمحمد بن عمر القصبي الشهير بالمحشي. اختصر الكتاب والحاشية معا الشيخ محمد بن يوسف أطّفَيّش في كتاب سماه «الذهب الخالص المنوه بالعلم الخالص»، صححه وعلق عليه الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أطّفَيّش، دفين القاهرة وطبعه بالمطبعة السلفية سنة 1343هـ؛ 3 ـ فتاوى البكري، صدر الجزء الأوّل منها سنة 1981، والثاني سنة 1983، بمدينة غرداية ـ الجزائر؛ 4 ـ وصية الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي، نشرت الوصية بعد شهرين من وفاته في مارس 1986، وكان كتبها سنة 1959، وراجعها سنة 1980، وقدم لها الشيخ الحاج أيوب إبراهيم بن يحيى قرادي.

المصادر والمراجع

● المجموعة الكاملة للأعمال المقدمة في الأيام الدراسية العلمية حول: فكر الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن بكلي. في بريان أيام 21 ـ 23 مارس 2002، من تنظيم جمعية البكري الثقافية ومكتبة الصفاء للشيخ محمد علي دبوز؛ ● معجم أعلام الأباضية: قسم المغرب الإسلامي، بيروت 2000، 2/ 249.

محمد عيسى موسى

مجمع اللغة العربية ـ الجزائر

البكري، صلاح عبد القادر

(1330هـ/1912م ـ 1414هـ/1993م)

ولد في اندونيسيا، ينحدر من أسرة يافعية استقرّت بحضرموت قديما وهاجر بعض أفرادها إلى أندونيسيا أحد مهاجر الحضارمة بالشرق الآسيوي.

سافر إلى مصر عام 1930م، ودرس بها مرحلة الكفاءة والثانوية ثم التحق بقسم التاريخ بجامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأوّل آنذاك) وحصل على الليسانس عام 1938 ثم التحق بمعهد التربية العالي حيث نال درجة دبلوم في التربية وعلم النفس عام 1940م. عيّن بعد ذلك مدرسا بمدرسة القبّاري بالإسكندرية ثم نقل إلى مدرسة محمد علي الثانوية بالقاهرة.

ترك التدريس عام 1950، حيث سافر إلى هولندا ليشغل مذيعًا بالقسم لعربي لإذاعتها. وفي عام 1952 انتدب للتدريس بمدرسة الفلاح الثانوية بمكة المكرّمة.

وفي عام 1957 عمل مديرًا لقسم الأحاديث بالإذاعة العربية السعودية بجدة، ثم مديرًا لإذاعة نداء الإسلام، ثم مراقبًا دينيا لهذه الإذاعة.

توفي بأندونيسيا، وعن خبر وفاته قالت صحيفة «الشرارة» الأسبوعية الصادرة في 1 صفر 1414هـ «بهدوء غريب دون أي صخب إعلامي، نعت أخبار أندونيسيا أحد ألمع المؤرّخين والإذاعيين اليمنيين الأستاذ الراحل صلاح البكري عن عمر يناهز 81 عاما بعد حياة حافلة بالبحث والتأليف». لقد كان حقًا علمًا من أعلام النهضة العلمية ورائدًا من رواد الفكر الحر وداعية إلى التجديد والتقدّم.

آثاره

1 ـ تاريخ حضرموت السياسي، جزءان، مطبوع؛ 2 ـ في شرق اليمن «يافع»، مطبوع؛ 3 ـ الجنوب العربي، مطبوع؛ 4 ـ في جنوب الجزيرة العربية، مطبوع؛ 5 ـ حضرموت وعدن، مطبوع؛ 6 ـ جغرافية البلاد العربية،

مطبوع؛ 7 ـ تاريخ الإرشاد بأندونيسيا، نشرته الإدارة المركزية لجمعية الإرشاد الإسلامية، جاكرتا أندونيسيا، بقلم الخطاط، حمدان حارس، وطبع فوتر المعارف، سورابايا.

المصادر والمراجع

● صحيفة «الشرارة» الأسبوعية، عدد 824، يوليو 1993؛ ● سلطان ناجي، اليمن بيبلوغرافيا، مجلّة «الثقافة الجديدة»، عدن، عدد 6 ـ 7، السنة الأولى، 1971؛ ● صلاح البكري، تاريخ الإرشاد بأندونيسيا، الطبعة الأولى، 1992 ن، ص2؛ ● مجلّة «العرب»، دار اليمامة، الرياض، ج9 ـ 10، أغسطس، سبتمبر 1997م.

د. صلاح علي بن مدشل
جامعة حضرموت ـ اليمن

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز

(432هـ/1041م ـ 487هـ/1094م)

هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيّوب بن عمرو البكري، المُكَنّى بأبي عبيد. موسوعي أندلسي، جمع معارف متنوّعة وبرز في علمي اللّغة والجغرافيا. توفي حسب ابن بشكوال [الصلة، 278] بقرطبة في شهر شوال سنة 487هـ/ أكتوبر ـ نوفمبر 1094م. وقد نقل هذا التاريخ ابن الأبّار [الحلة، 1/ 186]، وابن أبي أصيبعة [عيون، 500]، والصفدي [الوافي، 15/ 59 ـ 60]، والسيوطي [بغية الوعاة] وغيرهم. غير أنّ الضبّي انفرد بذكر تاريخ 496هـ/ 1102. أما تاريخ ميلاده فقد اختلف فيه الدّارسون، إذ جعله «حسين مؤنس» سنة 432هـ / 1040 ـ 1041م، وهو يتّبع في ذلك المستشرق «جاينخوس»، بينما يجعلها «ليفي بروفنسال» في حدود سنة 413هـ عندما يذكر أنّ سنّه ناهزت الثّلاثين عندما لجأ مع أبيه إلى قرطبة وهذا غير محتمل؛ فإذا اعتبرنا أنّه توفّي سنة 487هـ وأنّه عمر أكثر من ثمانين سنة يمكن الترجيح بأنّه ولد في بداية العقد الأوّل من القرن الخامس.

أصله من نبلة (Niebla)، سكن شلطين (Saltes) ثمّ قرطبة. انحدر من أسرة من بيوتات الأندلس. فقد تولّى جدّه الأوّل أيّوب بن عمرو قضاء بلده، أمّا جدّه أبو زيد محمد بن أيّوب فقد ولي ولبة (Huelva) وشلطين وما بينهما من الثّغر الغربي. وكان سنة 403هـ/ 1012م، على إثر سقوط الخلافة الأموية، على رأس هذه الإمارة الصغيرة التي نشأت في الركن الجنوبي الغربي بالأندلس، على ساحل المحيط الأطلنطي. وظلّ ابنه عز الدولة عبد العزيز البكري أميرا لها، إلى أن انتزعها منه المعتضد بن عبّاد، صاحب

إشبيلية، سنة 443هـ/ 1051م. واستمرّت مدّة البكريين بشلطين وما إليها إحدى وأربعين سنة، حسب ابن الأبّار وابن عذاري.

عاش الحقبة الأولى من حياته في هذه الكورة الواقعة حاليًا في البرتغال وإسبانيا. ثمّ تبع أباه إلى قرطبة، حيث استقرّا تحت حماية أميرها أبي الوليد محمد بن جهور، مثلما أورد ذلك «المتين» لابن حيّان الذي اعتمده ابن بسّام وابن الأبّار. وكان أبو عبيد وقتذاك، حسبما ذكر ذلك ابن الأبّار وابن عذاري، من الفتيان بذّ الأقران جمالا وبهاء، وسُرُوًا وأدبا ومعرفة؛ وفي قرطبة تتلمذ البكري على مشاهير شيوخها خصّ منهم ابن بشكوال بالذكر أبا مروان بن حيّان صاحب التاريخ المشهور، وأبا بكر المصحفي، وأبا عبّاس العذري، وأبا عمر يوسف بن عبد البرّ المحدّث المشهور [الصلة، 287]. وهو ما مكّنه من تحصيل معرفة واسعة بفروع من العلم مختلفة؛ وقد قال عنه ابن بشكوال: هو «من أهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بمعاني الأشعار والغريب والأنساب والأخبار متقنا لما قيده، ضابطا لما كتبه. وهو عند ابن بسام آخر علماء الجزيرة بالزمان وأجلّهم في البراعة والإحسان. وأضاف ابن خاقان (ت528هـ) بأنّه «عالم الأوان ومصنّفه، ومقرظ البيان ومشنّفه، بتواليف كأنّها الخرائد وتصانيف أبهى من القلائد».

وقد اشتهر أبو عبيد وهو في قرطبة بأنّه رجل علم وبحث وانصراف إلى شيء من اللّهو والشراب، وهو ما يعتبره حسين مؤنس سببا في عزوف البكري عن حياة السياسة. فاكتفى بالتنقّل في بلاطات أمراء الأقاليم، فقد انتقل لفترة وجيزة إلى إمارة المرية حيث تقلّد خطّة وزير لأميرها من بني صمادح محمد بن معن الذي عهد إليه بمهمّة تمثيله لدى أمير إشبيلية الأمير ابن عبّاد. ولما سقطت إمارة إشبيلية تحت ضربات المرابطين رجع أبو عبيد البكري إلى قرطبة وظلّ فيها إلى وفاته. وقد التقى في المريّة بابن عذاري (478هـ/ 1085م) وسمع منه.

وكان شاهد عيان لدخول المرابطين الأندلس ونهاية ملوك الطوائف سنة 483هـ/ 1090م. وقد أرّخ لبداية الحركة المرابطيّة في كتابه «المسالك».

ولئن كان البكري موسوعيًا فإنّه اشتهر بأعماله الجغرافيّة، فقد جاء فيها بكثير من الجديد قياسا بما كتب إلى حدّ عصره. فقد أضاف بالنسبة إلى سابقيه من «المسالكيّين» الدقّة والتّمحيص والتثبّت من المعلومة رغم أنّه لم يكن من الرحّالة، والأخذ عن مؤلفات سابقيه من الثقاة مثل «محمد بن يوسف الورّاق القيرواني»، أو من شيوخه أمثال «أحمد بن عمر العذري»، كما يبدو أنّه قد اعتمد على وثائق رسميّة من مخزونات قرطبة.

فمن الإضافات المتفرّدة لأبي عبيد في «مسالكه» أنّه كان يدعم ضبط المواقع باستطرادات متّصلة بالتاريخ والسياسة والإتنوغرافيا، الأمر الذّي أضفى على عمله الجغرافي صبغة شبه علميّة من فرط دقّتها حتى أخذ عنه الإدريسي أكثر من مرّة، فكتابه «المسالك والممالك» هو بمثابة مؤلّف في الجغرافية البشرية والاقتصاديّة يختلف كلّيا عن كتب المسالك التقليديّة، وقد اعتبره حسين مؤنس «قمّة من قمم التأليف الجغرافي في هذا النوع عند المسلمين».

آثاره

1 - سمط اللآلي في شرح أمالي القالي (ت 356هـ)، في جزئين؛ حققه عبد العزيز الميمني اعتمادا على نسخة سالمة من الخروم، الهند 1936. وهو شرح لكتاب الأمالي الذي يعدّ من أمّهات المصنّفات في الأدب العربي التي عنيت برواية الشعر والأدب، وبذكر نوادره وتفسير غوامضه، أملاه صاحبه القالي البغدادي بقرطبة، بعد أن انتقل إلى الأندلس. أمّا البكري، فقد اتّبع في شرحه طريقة تقييد كلّ ما يمرّ به من الفوائد، تاركا ما لم يقف له على أثر من الأبيات بياضا. وهو ما أكمله محقّق الكتاب. ويرى هذا الأخير أنّ هذه التنبيهات قليلة الجدوى، وأنّ أبا علي منها براء وتعود تبعاتها على أشياخه. وأنّ البكري نفسه وقع في أغلاط؛ 2 - كتاب التّنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه، نبّه فيه إلى الأخطاء الواردة في الأمالي بطريقة لا تخلو من التطاول. وقد طبع كملحق تابع لكتاب الأمالي لأبي علي القالي البغدادي، اعتمادا على مخطوطة واحدة، تح. إسماعيل بن يوسف دياب، القاهرة 1926، 2/ 1 - 132؛ وحققه أيضا الأب أنطون صالحاني، بيروت 1921، ومصر 1954؛ 3 - فصل المقال في شرح الأمثال، شرح فيه كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام، وكان واسع الاطلاع، إذ أغنى فيه شرحه بالتحقيقات في اللغة والأنساب والشعر، منبّها إلى ما أجمله ابن سلام، محاولا إصلاحه وتتبّع زلاّته. غير أنّ محققي الكتاب أشارا إلى الهنات التي وقع فيها البكري في تعقبه لأبي عُبيد القاسم، بطريقة متميّزة بالاعتداد بالنفس. ولم يستفد من هذا المصنّف إلاّ بعض طلبته، تح. إحسان عباس وعبد المجيد زين العابدين، بيروت (الرسالة)؛ 4 - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ورد ذكره في «اللآلي» وفي مقدّمة «معجم البلدان» لياقوت. وهو معجم لأسماء المواقع المتعلّقة بالمشرق وخصوصا بالجزيرة العربيّة، مع مقدمة خصّت جغرافية هذا المجال ومواضع القبائل فيها. وقد اعتمد فيه على أقوال اللّغويين والجغرافيين القدامى، وذلك إضافة إلى الأخبار والروايات والشعر.

وقد عدّه الدارسون للأدب الجغرافي العربي، بمثابة الحدث التأليفي الفريد بل ربّما بمثابة التّجديد العميق في التّأليف الجغرافي، لأنّه - إلى حدّ علمنا - أوّل قاموس جغرافي عربي بالمعنى المعاصر. فقد نسج البكري على منوال معاجم اللغويين العرب عندما عاد إلى تقليد قد نُسي أو كاد، فصاغ مؤلّفا يعرّف بخصائص الأماكن والمواضع في الجزيرة العربية، استنادا إلى ما ورد منها في القرآن والحديث والأشعار، ووجه التّجديد تمثّل في تبويبه للكتاب حسب مداخل نَظْمها وفق ترتيب أبجدي محكم نسبيّا، وهو يتوخّى الحذر في مقدّمة الكتاب عندما ينبّه القرّاء إلى المنهج المتّبع، الأمر الذي يؤكّد جانب التجديد في عمله ذلك. فقد ورد هذا الكتاب بمثابة الجسر بين اللغة والجغرافية كأوّل معجم جغرافي في التأليف العربي. نشر معجم أبي عبيد البكري نشرة أولى سنة 1876 - 1877م على يد المستشرق فرديناند فستنفالد Ferdinand

Wustenfeldاعتمادا على أربعة مخطوطات، ثمّ نشره ثانية مصطفى السقّا اعتمادا على مخطوطات أخرى في أربعة أجزاء بالقاهرة سنتي 1945 و1951، وفي بيروت سنة 1983؛ 5 ـ المسالك والممالك، يعتبر هذا المؤلف من أهمّ المصنّفات الجغرافية العربية التي وصلتنا، ويُرجّح أنّه ألّفه في مرحلة النضج، وعلى مراحل، وإن لم يتجاوز تاريخ الأحداث التي ذكرها سنة 460هـ. عالج فيها بدقّة الجغرافية البشريّة لشعوب العالم المعروف عصر ذاك، وخصوصا الإسلاميّة منها، وتطرّق إلى معلومات تاريخيّة متفرّقة تخصّ الحقبتين القديمة والإسلاميّة. بدأ بذكر البلدان والشعوب بصفة عامّة، ثمّ تعرّض إليها على انفراد، فتحدّث عن سكّانها وعن حدود الأقطار والملوك ووصف المناخ والطبيعة وحياة النّاس وعاداتهم.

ولئن تضمّن هذا المصنّف معطيات جغرافية وتاريخيّة واقتصاديّة واجتماعيّة حول العالم المعروف وقتذاك، فإنّ مصادره لا تتمثّل في المشاهدة المباشرة، إنّما اعتمدت الكتب والوثائق. وهو ما يعني أنّها لا تخصّ في كثير من الأحيان القرن الخامس هـ، بقدر ما اقترنت بتاريخ التأليف المعتمد، وكانت سابقة لعصره بقرن من الزّمن أو أكثر، وذلك باستثناء المادّة الخاصّة بالمغرب الأقصى والسودان التي وقع تحيينها عن طريق شهادات مباشرة.
وقد حرص البكري على ذكر مصادره سواء أنقل بعض فقراتها حرفيّا أو قام بتلخيصها، ومنها تاريخ الطبري، ومروج الذهب للمسعودي، ومعارف ابن قتيبة، وفتوح ابن عبد الحكم، وكتاب القوطي (Orose) الذي ترجم إلى العربية في الأندلس، كما استعمل المصادر الجغرافيّة العربيّة المشرقيّة ككتاب البلدان لليعقوبي، والأعلاق النفيسة لابن رستة، ومسالك ابن خرداذبة. . . واعتمد في القسم الخاص بإفريقيّة والمغرب على محمّد بن يوسف الورّاق (363م)، وربما على وثائق أرشيفيّة لكتابة تاريخ الأدارسة وبرغواطة. أمّا بالنسبة إلى الأندلس، فقد أحال على أحمد بن محمد الرازي، ويرجّح أنّه اعتمد على مصنّفات شيخه العذاري فيما يتعلّق ببعض البلدان المتوسطية والأوروبية. ويتكوّن كتاب «المسالك والممالك» من جزأين: احتوى الأوّل مقدّمة عامّة (مفقودة)، تلتها مقدّمة تاريخيّة تخصّ بدء الخليقة وذكر الأنبياء. وتناول بعدها المعتقدات والهياكل الدينيّة . ثمّ شرع في دراسة الجغرافية العامة في مختلف البلدان: الهند والصين والترك والشام وفارس والإغريق والسودان والبربر والصقالبة والفرنج والجلالقة، فملوك اليمن والحجاز والعراق، إلخ.

أمّا الجزء الثاني، فخصّص فيه فصولا دقيقة لبلاد الشام والروم والروس، وتناول بعدها مصر، ومنها انتقل إلى بلاد المغرب التي حظيت بقسط وافر من المعطيات حول المسالك والمدن. وانطلاقا من الصحراء المغربيّة (أغمات وسجلماسة)، انتقل إلى بلاد السودان التي حظيت بأهمّ فصول وأغزرها مادّة، مقارنة مع بقيّة المصادر العربية. وانتهى بالحديث عن الأندلس وبلاد جليقية والفرنجة، وهو فصل ناقص.

ونشر القسم الخاص ببلاد المغرب دي سلان (De Slane)، الجزائر 1911؛ وترجمه إلى

الفرنسيّة، الجزائر 1913 . ونشرت فصول منه بطريقة متفرّقة خاصّة بإفريقيا السوداء والأندلس وأوروبا [مقدمة التحقيق لفان ليوفن وفيري، 30]، وقام بنشره كاملا في جزأين فان ليوفن وفيري، الدار العربيّة للكتاب 1992. وتظلّ الموقعيّة الواردة في الكتاب في حاجة إلى تحقيق وتدقيق؛ 6 ـ شفاء عليل العربيّة، كتاب في اللغة، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، والبغدادي في هديّة العارفين؛ 7 ـ كتاب صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنّف، مؤلّف آخر في الشروح اللغوية، ذكره البكري في اللآلي، وابن خير [فهرست، 502]؛ 8 ـ كتاب في أعلام نبوّة نبينا، تأليف في الدين، ذكره ابن بشكوال وابن الأبّار، وهو مفقود؛ 9 ـ كتاب النبات، تناول فيه أصناف النبات وفق الترتيب الأبجدي. اعتمده ابن عبدون في تأليف كتابه «عمدة الطبيب في شرح الأعشاب». وذكره ابن خير في الفهرس، وابن أبي أصيبعة في طبقاته، وقد سمّاه «أعيان النبات والشجيرات الأندلسيّة». وهو مفقود؛ 10 ـ التدريب والتهذيب في ضروب أحوال الحروب، ذكره في معجم ما استعجم [ص 398]؛ 11 ـ كتاب الأمثال، ذكره البغدادي في هديّة العارفين [2/ 453]؛ 12 ـ الإحصاء لطبقات الشعراء؛ 13 ـ اشتقاق أسماء الشعراء

المصادر والمراجع

● ابن بسّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، بيروت 1978، القسم الثاني، 1/ 232 ـ 238؛ ● ابن بشكوال، الصلة، القاهرة 1994، 1/ 277 ـ 278؛ ● الضبي، بغية الملتمس، بيروت (دار الكتاب اللّبناني) 1967، 346؛ ● ابن خير، فهرسة ما رواه عن شيوخه، بيروت 1979، 502؛ ● ابن الأبّار، الحلة السيراء، تح. حسين مؤنس، القاهرة 1985، 2/ 180 ـ 187؛ ● ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، تح. شوقي ضيف، القاهرة 1978، 1/ 347 ـ 348؛ ● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، بيروت 1987، 3/ 84؛ ● ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تح. حسين الخربوش، الزرقاء (الأردن) 1989، 3/ 615 ـ 620؛ ● ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت 1983، دار الثقافة، 3/ 240 ـ 242، 299؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، 15/ 59 ـ 60؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 285؛ ● المقري، نفح الطيب، بيروت دار صادر، 3/ 184؛ ● البغدادي، هديّة العارفين، إستنبول، 1955، بيروت، دار إحياء التراث، د.ت، 2/ 453؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، دمشق 1961، 6/ 75؛ ● بروكلمان (كارل)، تاريخ الأدب العربي، الجزء الثالث، ترجمة عبد الحليم النجّار، القاهرة، 1962م؛ ● الحجّي، عبد الرحمان علي، جغرافيّة الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك، بيروت 1968م، دار الإرشاد؛ ● حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، الطبعة الثانية، 1986م، مكتبة مدبولي؛ ● سوسة أحمد، الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربيّة، المجلّد

الثاني، مادّة البكري، بغداد، 1974م، منشورات نقابة المهندسين؛ ● كراتشكوفسكي (إغناطيوس يوليانوفتش)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمه من الروسية صلاح الدّين عثمان هاشم، الطبعة الثانية، بيروت 1987م، دار الغرب الإسلامي؛ ● الغنيم، عبد الله يوسف، الجغرافي العربي أبو عبيد البكري: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، الكويت 1974؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. 14، بيروت 1999، دار العلم للملايين،

- De slane, Description de l'Afrique septentrionale, 2ème édition, Alger 1910, 4/89 • R. Brunschvig, Al Warrak, Mélanges Gaudefroy Demonbynes, le Caire, 1935 - 45, p. 151-52 • R. Blachère, Extraits des principaux géographes arabes, Paris 1932. 11 • Wüstenfeld F., Geographische Wörterbuch des Abú Obeid Allah ibn Abdelaziz Al-Bakri, nach den Hand schhriften Zu Leiden, Cambridge, London und Mailand, Göttingen, Paris, 1876 - 1877

د. محمد حسن
جامعة تونس
د. علي التومي
جامعة تونس
د. الحبيب النصراوي
جامعة تونس

■ البكري، محمد تاج العارفين بن أبي بكر

(980هـ/1572م - 1050هـ/1640م) ■ ■ ■

هو محمد تاج العارفين بن أبي بكر بن أحمد البكري بن أبي بكر العفاني العثماني التونسي، ولد في حاضرة تونس سنة 980هـ من سلالة ذريّة الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه فكان من السادات البكريين وارثي الفضائل كابر عن كابر ومَن ملئت بمفاخرهم الصحف والدفاتر، وأصل جدّ البكريين الذين ينتسبون إليه هو الشيخ أبو بكر دفين المنيهلة من ضواحي تونس العاصمة.

نشأ صاحب الترجمة في بيت علم ودالة وفضل وجلالة وثراء، تلقى العلوم بجامع الزيتونة على أعلم مشايخ عصره منهم: أبو الفضل قاسم بن الشيخ زروق بن الشيخ عظوم القيرواني، الفقيه المطلع والمحقق للفتيا والنوازل (1009هـ)، وأبو عبد الله محمد بن منصور قشور الجبالي، العالم المحرر والفقيه الفاضل، والشيخ محمد الأندلسي التونسي إمام جامع الزيتونة وخطيبه (1017هـ) وأبو طالب الشيخ ساسي بن محمد نوينة الأنصاري

الأندلسي التونسي، قاضي ومفتي الحاضرة، قلّ مَنْ يوجد من مشايخ تونس مَنْ ليس في إجازته سند منه. ومنهم أبو الغيث المعروف بالقشاش التونسي الأستاذ الرحالة العالم الكبير القدر، الشهير الذكر، الكثير الكرامات الظاهرة، وقد صاهره تلميذه المترجَم له: محمد تاج العارفين البكري في ابنته، ومن بيتها انجرّ غالب أوقاف البكريين مع دنيا عريضة. تصدّى للتدريس بالجامع الأعظم فكان له مجلس عظيم في الحقائق والمعارف والرقائق، وكان تدريسه لمذهب المالكي ومدونة الإمام سحنون في الفقه والخزرجيّة في العروض وكتاب الجميل في المنطق وكتابي الرشاد والمصابيح في الأصول، كما له دروس في التفسير وإحياء علوم الدين وقوت القلوب، حتى أصبحت له أهلية الترجيح والاجتهاد في المذهب [محمد مخلوف، شجرة النور الزكية، 293].

تولّى إمامة جامع الزيتونة بإشارة من شيخه أبي يحيى بن قاسم الرصاع التونسي ابن وزير الأمير حميدة الحفصي، حيث استشير في مرضه عمّن يخلفه في الإمامة، وذكروا له ابنه يحيى، فقال: لا؛ فذكروا له محمد بَرَاوْ فقال: يصلح إلا أنّ أهل تونس يأنفون مَن ليس منهم، ثمّ ذكروا له الشيخ محمد الغمّاد فقال: جوهرة عليها الران؛ فقالوا: الشيخ محمد تاج العارفين، فقال: جوهره ما مَسّتْهَا يَدَان. فكان أوّل مَن تولّى الإمامة بجامع الزيتونة من البكريين وذلك سنة (1034هـ/ 1623م) فقام بها وزان المحراب والمنبر بعلمه وعمله وصلاحه مع فصاحة اللسان وثبات الجنان، قيل انه لم يخطب على منبر جامع الزيتونة من إنشاء غيره ولم يكرر خطبة قط [محمد السنوسي، مسامرات الظريف، ص 107].

كما كان زينة للجامع يقرئ فيه صحيح البخاري ودروسًا في علوم الدين. قال ابن أبي دينار في «المؤنس» واصفًا انفراده بالرواية والدراية في علم الحديث في العصر التركي، ومجلس درسه في البخاري: «ولم يكن بالديار التونسية من يوم حلّ بها العسكر العثماني مَنْ يتعاطى الرواية والدراية إلا شيخ العلم الرباني أبو عبد الله محمد تاج العارفين العثماني، سقى الله ثراه بالرحمة والرضوان، وكان مجلسه بالجامع الأعظم من أجلّ المجالس، يحضره الإجلاء من أهل العلم، وتدور بينهم المجالس الجميلة، ولا يخلو مجلسه من فوائد في الثلاثة أشهر: رجب وشعبان ورمضان إلى يوم الختم وهو يوم السادس والعشرين من رمضان وقد واصل ابنه أبو بكر من بعده هذه المجالس والأختام، واستمرت إمامة جامع الزيتونة وخطابته وراثية في بيت البكريين بين بنيه مائة وثلاث وسبعين (173) سنة.

كان الحاكم التركي يعتمد عليه في بعض المهمّات السياسيّة، فلمّا وقعت الحرب بين تونس والجزائر من أجل الخلاف حول الحدود المقررة بينهما منذ سنة 1023هـ/ 1614هـ في واقعة «السطارة» ويقال «الشطارة» أيضًا وهو اسم مكان قرب مدينة «الكاف» من التراب التونسي، في 11 رمضان من سنة 1037هـ/ 17 ماي 1628م على عهد يوسف داي والي تونس وحسين باشات والي الجزائر، تشكل وفدٌ خرج من تونس يتركّب من المترجم له ومعه وليّ الله الشيخ إبراهيم الجديدي الغرياني القيرواني والشيخ عبد النبي خطيب جامع القصر بباب منارة من مدينة

تونس ومن معهم لعقد الصلح مع الجزائيين وتعيين الحدود، وتمّ الاتفاق على أنّ الحدّ الفاصل بين البلدين هو وادي «سراط» بحيث يكون غربيّه للجزائر وشرقيّه لتونس، وكُتب رسم التحديد بشهادة المفتي المالكي الشيخ قاسم البرشكي والشيخ ابن أبي الربيع الحانفي، ورمضان أفندي خطيب الجامع اليوسفي، وعلي آغة كرسيّ الجزائر. ورجع صاحب الترجمة بعد تمام الصلح وإقرار الهدنة [محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف، تح. الشاذلي النيفر، ص 107].

أخذ عنه خلق كثير من أرجاء البلاد التونسية ثمّ نشروا علمه وآدابه بين الناس في الجوامع بأصقاعهم ومنهم ابنه أبو بكر بن محمد تاج العارفين البكري الذي خلفه في العلم والخطابة والتدريس بجامع الزيتونة، فكان من رجال العلم والدين والحامل لرايته، أقام منارة العلم على منوال أبيه وظهرت عليه مكاشفات وأسرار لم تكن لأمثاله، جلس لإقراء البخاري دراية بجامع الزيتونة وعمره سبعة عشر عامًا فحضر درسه جلّ علماء عصره، وكان له في ذلك مجلس على غرار مجلس أبيه من أجل المجالس في رجب وشعبان ورمضان إلى يوم الختم أيضًا في ليلة السابع والعشرين من رمضان إلى أن توفي سنة 1072هـ فأصبح المجلس مجلس رواية للتبرّك لا غير.

ومن تلاميذ المترجم له أيضًا أبو القاسم بن جمال الدين محمد بن خلف المسراتي القيرواني الإمام الحامل لراية العلوم، وقد أجاز له شيخه جميع مؤلفاته ورواياته. ومنهم أيضًا أبو الفضل المسراتي التونسي مفتي تونس وعالمها المعروف بالفضل والعلم (ت1085هـ)، وأبو راوي عبدالله بنمحمد بن عمران ابن الشيخ القطب عبد السلام بن سعيد الأسمر الذي أكثر من ملازمة شيخه فصار عالمًا صوفيًا مربّيا واصلا. ثمّ الفقيه الإمام العلم الهمام، خاتمة المحققين والأعلام والفضلاء الكرام أبو عبدالله محمد الحجيج التونسي الذي حضر حلقات الأب والابن والعالم بقراءات السبع المشهورة، وكذا الشيخ ساسي الإمام المقرئ بجامع الزيتونة، والشيخ الصالح الشهير الذكر والكرامات عامر الزوغي الذي زاويته ببلدة مسجد عيسى بن مسكين قرب بلدة الساحلين من ولاية المنستير بالساحل التونسي [محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكيّة ص 293].

وقد كان بين صاحب الترجمة وبين أصدقائه من الأعيان الفضلاء والأئمة النبهاء من أقطار أخرى تراسل علمي ومناظرات يدلان على فضل ونبل وعلم، ومِنْ هؤلاء أبو العباس أحمد بن محمد الزموري قاضي فاس ومفتيها (ت 1057هـ)، وأبو الحسن علي بن عبدالواحد بن محمد بن سراج السجلماسي الجزائري (ت 1057هـ)، وأبو مهدي عيسى ابن عبدالرحمن السكناني مفتي مراكش وقاضيها وعالمها (ت 1062هـ)، وعبدالرحمن بن عبدالله بن عمران السعدي التنبكتي السوداني (ت 1066هـ)، وأبو عبد الله محمد بن أحمد ميارة الفقيه الفصيح؛ ومن هذه الرسائل رسالة بعث بها من قصر جابر سنة 1037هـ مكاتبًا بها صديقه الشيخ أبا محمد عبدالكريم بن محمد الفكون

القسنطيني الإمام العلامة العمدة والقدوة، الجامع بين علمي الظاهر والباطن، تدلّ على أنّ للرجل يدًا طولى في النثر العربي؛ مطلعها: «الحمد الله الذي أطلع شمس الفكونيّة من الأفق المغربي، ويا عجبًا من طلوعها أمانًا للعالم، وجمع فيها ما افترق من شتات العلوم، وأزاح بها سبل الإشكال، وأراح بها منسحب الجهالة المخدّرة لوجوه المعاني والأشكال، وقيّد شواهد العلوم، وقرّر بها على طريق التحقيق بين المنطوق والمفهوم، وضمّنها أبياتًا شعرية من البحر الطويل وأخرى من المجتثّ، كما ختمها بقوله: رقمه بأنامل التقصير: العبد العاجز الفقير والمذنب الجاني: محمد تاج العارفين العثماني لطف الله تعالى به، ويمّنه بتاريخ ذي العقدة الحرام عام سبع وثلاثين وألف بقصر جابر، جبر الله صدع قلوبنا وغفر عظيم ذنوبنا وجعل استعدادنا لمعاده، وقرّ دعاوينا فيما ينجينا ويقرّبنا منه زلفى بمنّه ورحمته وصلى الله على مسكة الختام ولبنة التمام سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام» اهـ [محمد السنوني، مسامرات الظريف، 107].

وقد ذكرها له أيضًا كلّ من: محمد بوذينة في «مشاهير التونسيين»، ومحمد مخلوف في «شجرة النور الزكية»، ومحمد محفوظ في «تراجم المؤلفين التونسيين».

آثاره

1 ـ رسالة، إعمال النظر الفكري في تحرير الصاع النبوي، لتؤدي به زكاة الفطر في 21 ورقة من القطاع المتوسطة، موجودة بالمكتبة الوطنية بتونس، كما توجد نسخة منها بالمكتبة الصادقية بتنس الحاضرة؛ 2 ـ النثر الرائق؛ 3 ـ مجموعة من الرسائل والمناظرات بينه وبين جلّة من العلماء ومنها الرسالة الفكونيّة المتحدث عنها أعلاه.

المصادر والمراجع

● محمد مخلوف، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، ص 293 ـ 294، دار الكتاب العربي بيروت 1349هـ؛ ● محمد بوذينة، مشاهير التونسيين، ط، 3 منقحة، الحمامات تونس 2001م؛ ● محمد بن عثمان السنوسي، مسامرات الظريف بحسن التعريف تح. الشيخ الشاذلي النيفر، ص 107، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس 1983م؛ ● محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، ج 1، ص 154 ـ 165، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، سنة 1404هـ/1984م.

د. حسين مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

البكري، محمد توفيق بن علي بن محمد

(1287هـ/1870م - 1351هـ/1932م)

يعرف الشيخ «البكري» بأنه محمد توفيق بن علي بن محمد البكري الصديقي. ويزيد معجم المطبوعات أنه: الهاشمي التيمي... من أعيان مصر. مولده ووفاته في القاهرة. ومما قاله البكري في الترجمة لنفسه: «أنا الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي، الملقب بتوفيق البكري، الصديقي العمري سبط آل الحسن» [معجم المطبوعات، 1/ 581]. ويظهر لنا من النسب السابق أنّ الشيخ البكري من أسرة عربيّة عريقة النسب تنتسب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتتصل بالحسن بن علي رضي الله عنه.

ومنذ القرن الهجري الأول قطع بعض بني أبي بكر الصديق البحر الأحمر إلى مصر حيث استقرّوا في صعيد مصر، ومن هذه الأسرة العريقة نبغ العديد من مشاهير العلماء والشعراء والأدباء كالرازي، وابن الجوزي، والسهروردي، والشيخ عبد الغني النابلسي الزاهد الصوفي الشهير الذي يعد أول من نزل مصر من هذه الأسرة البكريّة، حيث تستمر مسيرة العلم والعلماء في هذه الأسرة حتّى يتسلم الراية عالمنا الجليل الأديب محمد توفيق البكري [محمد توفيق البكري، 22، 24].

ولد البكري في أحد قصور المنيل الجليلة في فجر الجمعة 27 جمادى الثانية سنة 1287هـ الموافقة لسنة 1870 ميلادية، فكان الولد الثاني للشيخ البكري الذي نيف على الستين، وفي قصر «الخرنفش» نما في جو من الحياة الهانئة والطفولة السعيدة، تحت رعاية أسريّة فائقة تحيط به الجواري والعبيد من كل جانب. ولم يلتحق الصبي بالمدرسة العلية التي أنشأها الخديوي لأبنائه إلاّ بعد أن أتمّ حفظه للقرآن الكريم ودرس اللّغة، وفي تلك المدرسة وبين أبناء علية القوم لم ينجذب البكري لشيء من العلوم انجذابه للغات الأجنبيّة، ولم يلبث في دراسته حتّى أغلقت المدرسة بسبب الاحتلال الإنجليزي لمصر، فاتجه اتجاه أجداده إلى علوم العربية والدينيّة ينهل من رحيقيهما. وفي هذه الأثناء جذبته البلاغة العربيّة، وحين آنس من نفسه القدرة على التعمق والبحث تقدم لنيل الإجازة من الأزهر، وقد كانت إجازته على يد الشيخ الأنبابي، شيخ الجامع الأزهر نفسه آنذاك، ومن ثمّ أصبح الشيخ البكري من علماء الدين وهو في الثانية والعشرين من عمره [م. س، 27، 31].

شاءت الأقدار أن يتحمل الشيخ البكري نقابة الأشراف وهو في سن مبكّرة، فقد توفي أخوه الأكبر عبد الباقي البكري، فاستدعاه الخديوي عباس حلمي الثاني وولاه الوظائف الموروثة في بيت البكري جميعا: المشيخة البكريّة، ومشيخة المشايخ الصوفيّة، ونقابة الأشراف. ثمّ صدر الأمر بتعيينه عضوا دائما في مجلس

شورى القوانين والجمعيّة العموميّة، وأنعم عليه بكسوة التشريف من الدرجة الأولى والنيشان المجيدي الثاني. ولعلّ تلك المناصب جمعاء هي التي دعت الدكتور ماهر حسن فهمي أن يصف الشيخ البكري بأنه كان «مرجعا أعلى للشؤون الإسلاميّة» [معجم المطبوعات، 1/ 581؛ الأعلام، 6/ 66].

استجاب الشيخ البكري بعد توليه منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية لدعوات الإصلاح التي نادى بها زعماء الدين والمفكرون والأدباء في مصر من أمثال الشيخ رشيد رضا والشيخ عبد العزيز جاويش، فدعا إلى إصلاح ما يصاحب الموالد الصوفيّة من آداب تتنافى مع الروح الإسلاميّة، وأصدر من أجل ذلك اللوائح المنظمة للاحتفالات مستعينا بوزارة الداخليّة في تنفيذ ذلك الإصلاح [العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم، 561].

ولم يكن الشيخ البكري تقليديا في حياته الاجتماعيّة والعلميّة، فقد كان متفردا بين أقرانه من العلماء بأنه «عاش عيشة الأمراء والأثرياء»؛ ولذلك فإننا نلاحظ أنه حين أراد أن يختار من قمم الشعر القديم اختار ما يناسبه ويناسب ذوقه المترف حيث قمم العصر العباسي، ومن ثم فقد استطاع أن يلم بالعديد من اللغات وأن يحتك بمختلف الثقافات الأوروبيّة من خلال رحلاته إلى بلاد الغرب، فقد زار فرنسا والنمسا. ويقول الأستاذ العقاد في معرض مقارنته بين السيد البكري والشيخ محمد عبد المطلب القمّة الأدبيّة الشامخة وأحد أساتذة دار العلوم: «أمّا السيد البكري فلم يكن مستغرقا في الطريق الدينيّة، ولا كان هذا المذهب مشتملا عليه بحيث لا منصرف له عنه، لأنه تعلم طرفا من علوم العصر وألمّ ببعض اللغات الأوروبيّة فضلا عن التركيّة، واقتبس شيئا من آداب الفرنسيين والإنجليز، وعاش في أوروبا وجال بين بلدانها وعاشر العلية بين أبنائها، فجنح إلى القديم واتصل بالحديث العصري عن كثب. وقد أجاد كلا من الفارسيّة والتركيّة، وتحدث الإنجليزيّة حتّى علت شهرته في ذلك».

كانت علاقة الشيخ البكري بالسياسة والسياسيين في مصر علاقة وطيدة أو كما يقول الدكتور ماهر حسن: «ألقى البكري بنفسه في معترك السياسة منذ وقت مبكر [محمد توفيق البكري، 69]، وقد عُقدت في بيته أخطر الاجتماعات الدينيّة والسياسيّة. ولعلّ اجتماع زعماء الأمّة وأعيانها في بيته لوضع «اللائحة الوطنيّة التي تعهدوا فيها بالوفاء بديون أوروبا، حتّى لا تتدخل أصابع الدول الأجنبيّة في شؤون مصر... من أكبر الاجتماعات التي شهدتها الدار، ومن هنا لقبته الصحافة بأنه شيخ الأمّة، ولقد زاره الخديوي إسماعيل في داره شاكرا له هذا المسعى. ولقد كان البكري وطنيا في الصميم، وكان من دعاة الجامعة الإسلاميّة أي أنّه كان يشايع مبادئ الحزب الوطني، لا على أن تكون تركيا مسيطرة على مصر. وقد سعى البكري في الدعوة إلى حكومة نيابيّة سنين طويلة، وكانت له جهود عمليّة في الدعوة إلى المؤتمر الإسلامي، وفي منزله اجتمع نحو ستين من العلماء والأدباء ليلة الجمعة 14/ 11/ 1907م للنظر في الدعوة إلى هذا المؤتمر والذي انتخب السيد البكري وكيلا له.

ويمثل الشيخ البكري أحد القمم الأدبيّة المصريّة في بدايات النهضة الحديثة، يلقبه معجم المطبوعات بأنه «الأستاذ الجليل»، وهذا اللقب في وصفه حق إذ كان من تلك القمم التي وهبت الفصاحة والبيان في فنّي الأدب: الشعر والنثر. فهو «شاعر، عالي الطبقة في عصره، وأديب مترسل، بل كان من ملوك الكلام» كما يقول أسعد داغر».

أمّا عن أسلوب الشيخ توفيق البكري فقد «كان وافر الحظ من الجزالة اللفظيّة وآثار العربية الصحيحة... حذا حذو أدباء العصر العباسي في تخير البلاغة، فكان عباسيا في صياغة شعره الذي كان يتحرّى فيه التجدد والبلاغة، كما كان عباسيا في روح الشعر واختياره. وهو في نثره أشعر منه في نظمه. يؤخذ عليه غلوّه في محاكاة المقامات والإكثار من التشبيهات وذكر الآثار الدوارس». ويرجع الأستاذ عباس العقاد صحة الأسلوب عند البكري إلى العامل الديني في حياته.

لقد بلغت هذه الشخصية الدينيّة المعاصرة من المزج بين القديم والجديد إلى الحد الذي قال فيه العقاد: «تقرأ له قصيدة، فيخيل إليك أنك ترى شخصين في مثال واحد»، أو كما يقول العقاد أيضا: «والأحرى أن يقال إنّ القديم كان يتولى من البكري على جانب التعليم والقصد والتكلف والصناعة فيه، وإنّ الحديث كان يستولي منه على الإحساس والسجيّة وما يصدر عن النفس بلا كلفة ولا إرادة».

ومن عجيب الأقدار أنّ الشيخ البكري صاحب العقل الوقاد والمشهود له بالذكاء، والروحانية الصوفيّة العالية قد «دخل عليه في عقله» أي لزمه الوسواس لأسباب تتصل بالخوف على النفس من صولة السلطان، ولأمور عديدة جعلت ما بينه وبين الخديوي يصيبه الوهن يوما بعد يوم، ولم تكن زمالة الخديوي عباس حلمي القديمة للبكري في الدراسة، وتقديره له بالعديد من المراكز المهمّة حين توليته الحكم من عوامل التخفيف لهذا الوهم، بل لم يكن قرب البكري من السلطان وعطف السلطان عليه أو تقرب اللورد كرومر إليه إلاّ من أهمّ أسباب الجفوة بين الزميلين وتفاقم حدة هذا التوهم، وارتياب البكري فيما ينتويه الخديوي نحوه إلى الدرجة التي تمكّنت من نفسه وعقله. فما إن تغير عليه الخديوي عباس، حتّى انزوى عن الحياة، وخيل إليه سنة 1327هـ أن أعوان الخديوي يطاردونه لقتله وراسل النائب العمومي ومحافظ العاصمة ورئيس النظار طالبا منهم ومن غيرهم حمايته من رجال الخديوي، فأرسل إليه الخديوي يهدئ من روعه، ولكن دون جدوى إذ قد استحكم الوسواس فيه حتى أنّه كان يشكّ في أقرب الأقربين إليه.

«وعانى الشيخ من ذلك آلاما، نقل بعدها إلى مستشفى «العصفوريّة» ببيروت سنة 1330هـ، فلبث في المستشفى 16 عاما كان خلالها هادئا يمضي أوقاته في التفكير والتريض ويقابل زواره وهو كامل العقل إلاّ إذا ذكر الخديوي، فكان يعتقد أنّه مازال يلاحقه ليغتاله، فيهيج».

لقد شاءت الأقدار أن يبرأ البكري من علته تلك، أو أنّه قد أصبح على الأقلّ قادرا على أن يعيش في داره بعيدا عن المستشفى، وصادف ذلك أنّ بعض محبيه وتلامذته قد «أقاموا ضجة في مصر يطلبون إعادته إلى بيته

فأعيد سنة 1346هـ بعد أن خلع الخديوي عباس بمدّة طويلة» [الزركلي، الأعلام، 6/ 66]. وقد مضى على الشيخ توفيق البكري بلبنان سنين عديدة، وكانت عودته سنة 1928م، ولكنه كان مهدود البنية، منهوك القوى... ومازالت أوهامه ملازمة له، عدا فترات يثوب فيها إلى رشده، إلى أن وافاه الأجل المحتوم في يوم السبت 13/ 8/ 1932م.

آثاره

1 ـ أراجيز العرب، طبع في مصر سنة 1313هـ في 200 ورقة؛ 2 ـ تراجم بعض رجال الصوفيّة؛ 3 ـ بيت الصديق، في تراجم أسرة أبي بكر الصديق ونسلهم، طبع بمطبعة المؤيد بمصر سنة 1323هـ؛ 4 ـ بيت السادات الوافية، ضمنه أنساب أولئك السادة وتراجمهم، طبع في مصر في 95 صفحة؛ 5 ـ المستقبل للإسلام، أتى فيه على جميع ما يتعلّق بمواطن الإسلام ونظامه العمراني، طبع بمطبعة المنار بمصر سنة 1310هـ؛ 6 ـ التعليم والإرشاد، صنفه بعض رجال الصوفية، ومعظمه مأخوذ من كتاب الإحياء، رسم ترتيبه، ووضع شكله وتبويبه محمد توفيق البكري. طبع في مصر 1317هـ؛ 7 ـ فحول البلاغة، الحاوي المختار من شعر ثمانية من فحول الشعراء وأئمّة البلاغة وهم: مسلم بن الوليد، وأبو نواس الحسن بن هانى، وأبو تمام، والبحتري، وابن الرومي، وابن المعتز، والمتنبي، وأبو العلاء المعرى، ثمّ يتلوه بعض رسائل أبي العلاء. طبع بمصر سنة 1313هـ في 297 صفحة؛ 8 ـ صهاريج اللؤلؤ: فيه عشر نبذ أدبيّة منثورة ومنظومة استعمل في تحريره الأساليب العصريّة والتراكيب العريقة العربيّة، مضمنا إياها أحدث الأفكار الفلسفيّة والخيالات الأدبيّة الجديدة. طبع في مصر 1907م.

المصادر والمراجع

● البكري محمد توفيق، بيت الصديق؛ ● الدسوقي، عمر، في الأدب الحديث؛ ● مرآة العصر؛ ● عبيد، أحمد، مشاهير شعراء العصر، 1/ 198؛ ● سركيس، معجم المطبوعات، مكتبة الثقافة الدينيّة، القاهرة د.ت؛ ● الزركلي، الأعلام، ط3، بيروت، 1998م، دار العلم للملايين؛ ● داغر، مصادر الدراسة الأدبيّة، الطبعة الألفيّة الأولى 2000م، مكتبة لبنان ناشرون؛ ● العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، 1963م، نهضة مصر؛ ● فهمي، ماهر حسن، محمد توفيق البكري، أعلام العرب 64، دار الكاتب العربي 1967م.

د. زينب عبد المجيد رضوان
جامعة القاهرة ـ فرع الفيوم

البَكْري، مصطفى بن كمال الدين

(1099هـ/1688م ـ 1162هـ/1749م)

هو محيي الدين أبو محمد مصطفى بن كمال الدين بن علي البَكْري الصِّدِّيقي الدمشقي، الخَلْوَتي طريقةً، الحنفي مذهباً، يعود نسبه إلى أبي بكر الصديق، وهو شاعر متصوف.

ولد بدمشق في ذي القعدة 1099هـ/ سبتمبر 1688م، ونشأ يتيماً، فقد مات أبوه ولم يتجاوز عمره ستة أشهر، فتولى ابن عمه أحمد بن كمال الدين تربيته.

اشتغل البكري بطلب العلم في دمشق، وأخذ عن مشايخ عصره، ولازم الشيخ عبد الغني النابلسي، وقرأ عليه التدبيرات الإلهية، والفصوص وغيرها، وطرفاً من الفقه. أما الطريقة الخلوتية فقد أخذها عن الشيخ عبد اللطيف الخلوتي.

عُرف عن البكري ميله إلى الترحال، ومصاحبة الرجال، وحبه لزيارة الأولياء، وفي سنة 1119 هـ/ 1707م سكن إيوان المدرسة الباذرائية، واعتكف في حجرة بها طلباً للانفراد والاشتغال بالأذكار والأوراد. وفي 19 من المحرم 1122هـ/مارس 1710م زار بيت المقدس لأول مرة، فأخذ عنه الطريق جماعةٌ من أفاضلها، ونشر بها ألوية الأوراد والأذكار. كما ألف كتابه الأشهر «وِرْد السَّحَر» أو «الفتح القدسيّ والورد الانسيّ»، الذي تعرض بسببه لهجوم أحد خصومه، الذي أعلن أنّ قراءة هذا الكتاب في آخر الليل بدعة، غير أن عَليّ قرباش من أدرنة تولى الردّ على هذا الخصم والدفاع عن البكري.

ولم يطل مقام البكري ببيت المقدس، فعاد إلى دمشق في شعبان 1122هـ/أكتوبر 1710م. وفي 1126هـ/ 1714م رحل إلى بيت المقدس مرة أخرى، وقضى بعض الوقت بالمسجد الأقصى، وارتحل منه إلى بغداد ـ مروراً بحلب ـ وبقي ببغداد شهرين، فزار مقامات الأولياء، ثم عاد إلى القدس مرة أخرى.

وفي رمضان 1129هـ/ 1717م حج للمرة الأولى مع عمه محمد البكري، الذي رفض أن يزوجه ابنته، فعاد البكري إلى القدس وتزوج منها. ومن القدس صحب والي مصر الوزير رجب جميل بك إلى القاهرة، فأقام بها مدة، والتف حوله الناس وأخذ عنه الكثيرون، منهم محمد بن سالم الحنفي.

وفي المحرم من عام 1135هـ/أكتوبر من عام 1722م قصد القسطنطينية فمر في طريقه إليها بطرابلس، وحمص، وحماة، وحلب، وأقام في كلٍّ منها مدة وجيزة، ولم يبلغ القسطنطينية إلا في 17 شعبان 1135هـ/ 24 مايو 1723م وفيها أمضى ما يزيد على ثلاثة أعوام معتكفاً على النظم والتأليف، فلم يعد إلى القدس إلا سنة 1139هـ/ 1726م وفي طريق عودته مرَّ بحلب وبغداد ودمشق.

حج البكري للمرة الثانية في 1736هـ/ 1149م وزار ديار بكر فمكث بها ثمانية أشهر، ثم ارتحل إلى نابلس التي أقام بها أحد عشر شهراً، بعدها عاد إلى القدس في شوال 1152هـ/ يناير 1740م.

كان البكري دائم الترحال، وحيثما حلَّ التفَّ حوله المريدون يأخذون عنه. وقد استقر في القاهرة منذ سنة 1160هـ، حيث استأجر داراً قرب الجامع الأزهر كان يستقبل بها تلاميذه الذين بلغ عددهم مائة ألف، فيما حكاه علي مبارك.

وبالقاهرة توفي البكري في 18 ربيع الثاني 1162هـ/ 8 أبريل 1749م ودفن بتربة المجاورين، وله فيها قبر مشهور.

آثاره

والبكري كثير التصانيف، ألف كتباً عدة يصف رحلاته، ورسائل صغيرة في التصوف، وله كثير من الأوراد والأدعية والصلوات والأراجيز الصوفية. أحصى له بروكلمان ثلاثة وستين مؤلفاً بعضها مطبوع، وكثير منها مخطوط، وهي موزعة في كثير من مكتبات العالم.

أ ـ في وصف رحلاته:

1 ـ المدامة الشامية في المقامة الشامية، عن رحلته وإقامته في دمشق، مخطوط، برلين 6148؛ 2 ـ الخمرة الحسية في الرحلة القدسية، عن رحلته من دمشق إلى القدس (1122هـ/ 1710م)، مخطوط برلين 6149؛ 3 ـ كشط الرداء وغسل الرياء يتناول رحلته إلى العراق وإلى بعض بلدان المشرق، 1139هـ/ 1726م، كمبردج 930؛ 4 ـ النحلة النصرية بالرحلة المصرية، يتناول رحلته من نابلس إلى مصر 1732هـ/ 1720م، القاهرة ثان، 6/ 63.

ب ـ في التصوف:

5 ـ الكأس الرائق في سبب اختلاف الطرائق. يتناول الاتجاهات المختلفة في الصوفية، برلين 3056، 3283؛ 6 ـ تسلية الأحزان وتصلية الأشجان، موضوعه الحب الإلهي: نشأته وأحواله وتأثيراته. مخطوط برلين 3118؛ 7 ـ نظم القلادة في كيفية الجلوس على السجادة، في الصفات الضرورية في الشيخ والمريد، مخطوط، برلين 3195؛ 8 ـ الكلمات الخواطر على الضمير والخاطر مخطوط برلين 3247، الإسكندرية، تصوف 39/ 2، عليه شرح: النفحات العواطر لأخيه، الفاتيكان فيدا 1428؛ 9 ـ النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية يتناول عادات الكسوة عند الدخول في الطريقة الخلوتية، مخطوط برلين 3357؛ 10 ـ العرائس (الأسرار) القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية، مخطوط الإسكندرية، تصوف 23، القاهرة أول 2/ 95 ومنه قطعة في برلين 3488؛ 11 ـ المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود، القاهرة، أول 2/ 125، 7/ 224، برلين 3283Oct، لايبزج 266، القاهرة ثان 1/ 367؛ 12 ـ الحكم الإلهية والموارد البهية لايبزج 850؛ 13 ـ وحدة الوجود، الموصل 143؛ 14 ـ هدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب، مخطوط، القاهرة أول 2/ 249، الجزائر، 943، القاهرة ثان 1/ 373؛ 15 ـ الحواشي الرافعات الغواشي على بعض

كلمات الوصية ذات السر الفاشي، مخطوط الإسكندرية، تصوف 39/ 1.

ج ـ ومن الأوراد والصلوات والأدعية:

16 ـ الفتح القدسي والكشف الأنسي[0] أو ورد السَّحَر، برلين 3874/ 6، الإسكندرية فوائد 6/ 25، القاهرة أول 2/ 213، و7/ 267، 511 ملحق المتحف البريطاني 253، الفاتيكان فيدا 921، القاهرة 375، 1/ 336، دمشق ظاهرية 62/ 59 الاسكندرية، فوائد 16/ 25 / 6؛ 17 ـ المنهل العذب السائغ لورّاده في ذكر صلوات الطريق وأوراده، مخطوط برلين 3536، الإسكندرية فوائد 17، القاهرة أول 2/ 213، 7/ 20، 249، القاهرة ثان 1/ 366، المتحف البريطاني 107؛ 18 ـ الدر الفائق في الصلوات على أشرف الخلائق، القاهرة أول 7/ 323، 213، 2/ 193، القاهرة ثان 1/ 297؛ 19 ـ حزب الحماية والاعتصام، مخطوط القاهرة أول 2/ 217، 7/ 21؛ 20 ـ الصلوات (الصلاة) الهامعة بمحبة الخلفاء الجامعة لبعض ما ورد في فضائل الخلفاء الأربعة، مخطوط القاهرة أول 224، طبع في مجموعة، القاهرة 1303، 1310؛ 21 ـ شفاء التباريح بورد صلاة التسابيح، القاهرة أول 7/ 19، رقم 50، القاهرة ثان 1/ 326؛ 22 ـ الصلاة (الصلوات) البرية في الصلاة على خير البرية، ليدن 4/ 22، القاهرة ثان 1/ 329؛ 23 ـ نوافح المسك الختام في التوسل لأشهر العام، القاهرة ثان 1/ 373؛ 24 ـ الذخيرة الماحية للآثام في الصلاة على خير الأنام، القاهرة ثان 1/ 229.

د ـ ومن أشعاره وأراجيزه في التصوف:

25 ـ أرجوزة في التصوف = ألفية في التصوف، تضم نحو 1200 بيت تتناول أهم أسس التصوف، برلين 3053؛ تونس، الزيتونة 3/ 169؛ 26 ـ بلغة المريد ومشتهى موفق السعيد، منظومة من بحر الرجز 214 بيتاً، مخطوط برلين 4/ 8035، 3054، 1/ 8162، المتحف البريطاني في 176، 107، آصفية 1/ 360، جوتا 901، القاهرة أول 2/ 71؛ 27 ـ أسماء الله الحسنى، منظومة، مخطوط برلين 3759؛ 28 ـ منظومة الاستغفار مع شرح قرة الأبصار لأحمد بن أحمد البخاري الدمياطي، القاهرة 1281؛ 29 ـ السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد، الإسكندرية، فوائد، 19، القاهرة أول 7/ 82، القاهرة ثان 1/ 319، ملحق 43.

المصادر والمراجع

● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، طبعة المنظمة العربية، 1995، القسم الثامن من (13 ـ 12)؛ ● الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، 1322هـ، 1/ 25؛ ● الزركلي، الأعلام، 7/ 239؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، 582؛ ● علي مبارك، الخطط التوفيقية، 3/ 129.

د. إيمان السعيد جلال
جامعة عين شمس ـ مصر

بك زادة، محمد بن إبراهيم المتطبب

(ت 1029هـ/1620م)

هو محمد بن ابراهيم المتطبّب، الطبيب الخاص للسلطان العثماني أحمد الأوّل الذي ارتقى عرش السلطنة عقب وفاة والده محمد الثالث، ودامت فترة حكمه من (1012هـ/ 1603م) إلى (1026 هـ/ 1617م)، ولا يعرف بالضبط مكان وتاريخ مولده وظروف نشأته وتعليمه، فهو من أطبّاء القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، وقد وردت إشارة هامة في مخطوطه الطبي «رسالة في ماهية الطبّ وشرفه وأصوله» تكشف بعض الضوء عن حياته، حيث يعرّف بنفسه قائلا: «يقول... محمد الشهير ببك زادة الطبيب في دار السعادة» [حاجي خليفه، كشف الظنون]. ودار السعادة موجودة في مدينة دمشق يذكرها المؤرّخ شهاب الدين موسى الانصاري (ت 1002هـ/ 1592م) بقوله: «قصر نائب السلطان بدمشق، وكان يسكنها النوّاب، وتسمّى أيضا دار العدل بناها السلطان نور الدين الزنكي، توفّي سنة 569هـ/ 1173م» [البغدادي، هدية العارفين].

وقد ورد أيضا ذكر «دار السعادة» عند المؤرّخ أبي البقاء عبد الله البدري من علماء القرن التاسع الهجري، إذ وصف استقبال نائب السلطان في دمشق لأوّل مرّة قائلا: «ووجوه الدولة في خدمته إلى أن ينزل بدار العدل التي أنشأها المرحوم نور الدين الشهيد، محمود بن زنكي، وهي التي تسمّى اليوم بدار السعادة، وهي تلي باب السرور، وعلى بابها باب النصر فتحه الملك الناصر بن أيّوب» [كحالة، معجم المؤلّفين].

نستدلّ بأنّ الطبيب محمد بك زادة كان موجودا في مدينة دمشق في نهايات القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وكان طبيبا عاملا في دار العدل أو دار السعادة مكان إقامة نائب السلطان العثماني حيث أتمّ فيها كتابه «رسالة في ماهية الطب»، وقد أدرك من الكفاءة الطبية شهرة بلغت حدّا جعلت السلطان العثماني أحمد الأوّل يستدعيه إلى عاصمة السلطنة إستنبول في ذلك الحين حيث أصبح فيها من جملة أطبّائه، وبقي فيها حتّى وفاته، ويمكن تحديد فترة ذهابه إلى إستنبول قبل عام 1014هـ/ 1605م، لأنّ حاجي خليفة يذكر أنّه قد فرغ في ليلة القدر من العام المذكور من كتابه «روضة الأصحّاء ودوحة الألبّاء»، وأهداه للسلطان أحمد الأوّل. وهذا ما جعل بروكلمان يحدّد وفاته بسنة 1014هـ/ 1605م استنادا إلى الحاشية السابقة بدون دليل قاطع [الذاكري، محنة الفكر الطبي].

لقد حاز الطبيب محمد بن إبراهيم على لقب «بك زادة»، وكلمة «بك» هي لقب مختصر من الكلمة التركيّة «بيوك»، وتعني الكبير، كان يمنح لأبناء الوزراء ولكلّ نفوذ وللمتميّزين في الدولة العثمانية والولايات التابعة لها.

أما «زادة» فهي من التركية عن الفارسية وتعني السلالة، الذرّية، ويغلب أن تستعمل في أنساب الأسر الشريفة.

يذكر المستشرق الألماني أوتو شبيس Otto Spies: «يفهم من كلمة أدب الطبيب ليس توجّه خلق الطبيب نحو المناحي الإنسانية والنبيلة فقط، ولكن المعارف والنوعيّة التي تَسِمُ تكوينه كطبيب، والتي يحتاجها في سلوكه الاجتماعي بدءا من القرنين الثاني والثالث الهجريّين، وهكذا فإننا نجد أعمالا تتعلّق بأدب القاضي أو الوزير أو الكاتب أو حتى الصوفي».

وفي «رسالة في ماهية الطب» نجد الطبيب محمد بك زادة لا يعرض لنا نظريّة في العلم الطبي فحسب، ولكنّه يعطي عددا أكبر من النصائح، ويطوّر بذلك أدبا (خُلُقا) للطبيب يخيّل لنا معه أنّه يقرّر سلوك الطبيب الاجتماعي أو ما يسمّى بالأخلاق الطبية لا كما يميل الفلاسفة التقليديّون إلى تقرير وإقامة نظريات أخلاقية تشمل الجنس الإنساني، ولكنّه يتناول جانبا أكثر تحديدا يتضمّن مجموعة المبادئ والأفكار التي توجّه سلوك الطبيب اليومي والمهني والعلاقة بين الطبيب والمريض.

وفي سبيل اكتساب علم الطب راعى الأطبّاء القدامى تعلّم علوم أخرى مساعدة تكون عونا للمتعلّم كعلم المنطق والفلك والحساب... وغيرها، والهدف منها تدريب ذهن المتعلّم، وإكسابه المهارات القليلة اللاّزمة لتسخيرها في علم الطب، وقد ذكر محمد بك زادة لائحة العلوم والمعارف التي يحتاجها الطبيب، وهي على الترتيب:

1 ـ علم المنطق؛ 2 ـ علم الطبع؛ 3 ـ علم الهندسة؛ 4 ـ علم الهيئة؛ 5 ـ علم أحكام النجوم؛ 6 ـ علم الحساب؛ 7 ـ علم المناظر؛ 8 ـ علم الموسيقى؛ 9 ـ علم الفراسة.

وقد حرص على ذكر تعريف مختصر لكلّ علم، وإيراد منفعته للطبيب في سياق عمله الطبّي، كما أورد تعريفا واضحا للطبيب «وهو من تكاملت فيه الفضائل كلّها التي هي: العلم التعليمي والطبيعي والإلهي، وصناعة المنطق والطبّ وصالح الأعمال ومحاسن الأخلاق والأفعال، وأنه من كان كاملا في الطب وناقصا في واحد منها فهو يعد متطبّبا لا طبيبا»، أمّا المتعلّم فهو «من لم تتكامل فيه صناعة الطب».

والواقع أنّ محمد بك زادة كان أكثر تفصيلا من سابقيه من الأطبّاء الذين تعرضوا لموضوع أدب الطبيب أمثال: صاعد بن الحسن (ت بعد 464هـ/ 1011م) في كتابه «التشويق الطبي» والعلاّمة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي (ت 710هـ/ 1311م) في كتابه رسالة في بيان الحاجة إلى الطبّ والأطبّاء ووصاياهم.

ولذلك يمكن اعتبار كتابه خاتمة الكتب التي دوّنت عن أدب الطبيب وعلومه ومعارفه بحسب التقاليد القديمة، وتكشف ملامح فترة تاريخية هامة تتعلّق بالصناعة الطبية في الإمبراطورية العثمانية. وأبدى الطبيب محمد بك زادة مقدرة في التشخيص والمعالجة بحسب المنظومة الطبّية اليونانية القديمة، إلاّ أنّه لم يرد أي أثر في كتبه للتيارات الطبّية الأوروبية في عصر النهضة وصراعها مع الطبّ

التقليدي الذي بدأت تهتز قواعده في الفترة الزمنية التي عاشها، واهتمّ بالكلام المسجوع واقتباس مقاطع كاملة من كتب سابقيه، وبالرغم من فصاحة شكواه ونقده المرير لأحوال الطب والأطبّاء في ذلك الوقت فهو لم يقدّم أيّة حلول عملية واقتراحات نافعة واكتفى بالرجاء والترقّب.

آثاره

1 ـ حافظ الاعتدال (باللغة التركية)، وتوجد نسخته المخطوطة في مكتبة سليمية بتركيا وهي بخط المؤلّف حرّرها سنه 993هـ/ 1584م [رمضان ششن ورفاقه، فهرس مخطوطات الطبّ الإسلامي باللّغات العربية والتركية والفارسيّة]؛ 2 ـ روضة الأصحاء ودوحة الألبّاء، وصفه حاجي خليفة قائلا: «في الطب مختصر، ألّفه محمد بن إبراهيم الشهير ببك زادة المتطبّب للسلطان أحمد خان مشتملا على الستّة الضروريّات، ورتّبه على عشر روضات: الأولى في ماهية الصحة، الثانية في ماهية الهواء وتدبيره، الثالثة فيما يؤكل ويشرب، الرابعة في الحركة والسكون، الخامسة في النوم واليقظة، السادسة في الحركات النفسانية، السابعة في الاستفزاز والاحتباس، الثامنة في الجماع ومضاره، التاسعة في أحوال الحمام، العاشرة في الإنذارات من الحوادث الرديئة» [كشف الظنون، مج 1]. ويوجد منها خمس نسخ خطّية موزّعة في مكتبات تركيا، وقد ذكر الباحث صلاح محمد الخيمي أنّ الطبيب محمد بك زادة له كتاب «السراج الوهّاج في تشخيص الأمراض ومعالجتها والمواد الطبية» استنادا إلى إدوارد فنديك في كتابه «اكتفاء القنوع»، وبالتدقيق والرجوع إلى بقيّة المصادر تبيّن أنّ الكتاب المذكور عائد للطبيب محمد الشافعي بك من القرن التاسع عشر الميلادي؛ 3 ـ رسالة في ماهية الطبّ وشرفه وأصوله وما يحتاج إليه الطبيب من العلوم وصفات الطبيب، جعلها المؤلّف في ثلاثة فصول: الفصل الأوّل: في ماهية الطبّ وشرفه، الفصل الثاني: في أصول الطب ما يحتاج إليه الطبيب من العلوم الحكمية، والفصل الثالث: في صفات الطبيب والفرق بين الطبيب والمتطبّب، وقد قام بتحقيقها ونشرها بالاعتماد على نسخة وحيدة فريدة موجودة في دار الكتب الظاهريّة دمشق الباحث محمد فؤاد الذاكري.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، تح. نزار رضا، بيروت 1385/ 1965، منشورات دار مكتبة الحياة؛ ● محمد خير الدين الأسدي، موسوعة حلب المقارنة، المجلد الرابع، حلب 1984، مطبعة جامعة حلب؛ ● شهاب الدين الأنصاري، نزهة الخاطر وبهجة الناظر، دمشق 1991، منشورات وزارة الثقافة؛ ● أبو البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، بيروت (1400/ 1980)، دار الرائد العربي؛ ● إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، بغداد، د. ت، منشورات مكتبة المثنى؛ ● صلاح محمد الخيمي، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية الصيدلة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الثاني، (1401 ـ

1981)؛ ● محمد فؤاد الذاكري، محنة الفكر الطبّي، دمشق 1421/ 2000، المطبعة التعاونية؛ ● يوسف إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية المعرّبة، القاهرة 1346/ 1928، مطبعة سركيس بمصر؛ ● رمضان ششن ورفاقه، فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات التركية والفارسية، بإشراف أكمل الدين إحسان أوغلي، إستنبول، 1404/ 1984؛ ● قتيبة الشهابي، معجم ألقاب أرباب السلطان في الدول الإسلامية، دمشق، 1995، منشورات وزارة الثقافة؛ ● أحمد عيسى، معجم الأطبّاء، الطبعة الثانية، 1402/ 1982، دار الكتب الرائد العربي؛ ● عمر رضا كحالة، معجم المؤلّفين، بيروت، د. ت، مكتبة المثنى؛

- Carl Brockelmann, Geschichte Der arabischen Litteratur, E.J. Brill - Leiden - 1937.

د. محمد فؤاد الذاكري
باحث في التراث العلمي ـ حلب سوريا

ابن بكلارش، أبو يوسف يونس بن إسحاق

(ت 500هـ/1106م)

هو يونس (أبو يوسف) بن إسحاق بن بكلارش اليهودي. طبيب، وخبير بالأدوية المفردة، مجيد التأليف فيها. وصفه ابن أبي أصيبعة بأنه من أكابر علماء الأندلس في صناعة الطب. وبوقلارس ـ أو بكلارش ـ من الأسماء المألوفة في إسبانية حتى اليوم خدم المستعين بالله أحمد بن المؤتمن بالله بن هود حاكم سرقسطة، عاصمة الثغر الأعلى شمالي الأندلس، وكانت عاصمة دولة بني تجيب ثم بني هود، وقد دام حكمها من سنة 410 إلى سنة 536هـ وتوفي ابن بكلارش عام 500 هـ.

آثاره

1 ـ رسالة التبيين والترتيب، ذكرها المؤلف في مقدمة كتابه المستعيني، وقد رتب المؤلف في هذه الرسالة الأغذية وتكلم فيها عن القوى الأربع: الجاذبة، والحاصرة، والهاضمة، والدافعة، وأفعالها بأعضاء البدن المختلفة. تعد هذه الرسالة من المفقودات؛ 2 ـ كتاب المستعيني (نسبة إلى اسم الأمير المستعين بالله) أو كتاب المجدولة في الأدوية المفردة، وقد وضعه مجدولا، وألّفه بمدينة المرية للمستعين بالله أبي جعفر أحمد بن المؤتمن بالله بن هود، الملك الرابع من ملوك بني هود والمتوفى عام 503هـ / 1110 م، وكانت دولتهم من أشهر دول الطوائف. توجد من هذا الكتاب عدة نسخ: في المكتبة الحسنية بالرباط برقم 673 إملاء عابد الفاسي. وفي

الخزانة العامة بعنوان المستعين في الطب برقم 55/د على شكل جداول مع مقدمة عن أصول الصيدلة ومعرفة قوى الأدوية وأفعالها، أكملت بيد محمد الفاطمي بن الحسن بن أبي بكر الصقلي ومصورة بمكتبة معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب تحت رقم 197. وفي ليدن بعنوان المستعين وبرقم 1339، وفي مدريد برقم 3009 وتعود إلى القرن الحادي عشر للهجرة.

يعتبر هذا الكتاب أول الكتب المرتبة على شكل جداول في الأندلس، فقد جمع فيه المؤلف كل ما كتبه السابقون عن الأدوية المفردة مع ترتيبه وعرضه بصيغة واضحة مفهومة. وإن كثرة المصادر والمراجع التي يذكرها ابن بكلارش في كتابه هذا تشير إلى أنه كان عالما واسع المعرفة، وأنه كان يملك مكتبة غنية بالكتب، ونحن نجد مثل هذه المكتبة في مدينة المريّة كمكتبة أبي جعفر بن عباس وزير الملك زهير الذي توصل إلى جمع أربعمائة ألف مجلد، فضلا عن كنانيش وأوراق لا تعد.

يحتوي الكتاب على مقدمة تبحث في القوى التي تعمل في الجسم، وفي نظريات جالينوس. أما الكتاب ككل فيبحث في أكثر من سبعمائة مادة طبية مع ذكر أسمائها باختلاف اللغات، وإبدالها بما يقابلها من الأدوية. وفي مقدمة الكتاب الطويلة يعدّ المؤلف قرّاءه لفهم قسم الجداول والذي يتضمن أكثر من 120 صفحة تحتوي على أكثر من 700 مادة طبية نباتية وحيوانية وجمادية.

يقول ابن بكلارش في مقدمة كتابه: «وسلكت فيه طريقة المتقدمين على عادة المتفلسفين، وذلك أنهم ذكروا أن التأليف لا يتم حتى يتضمن ثلاث خصال: إحداها جمع ما افترق، والثانية اختصار مطول، والثالثة إيضاح مشكل. وكتابي هذا قد جمع هذه الخصال الثلاث، وذلك أني لم آر قط كتابا لمن تقدم قبلي من كتب الأدوية المفردة جمع ما جمعته في هذا الكتاب لأني جعلت المفرد وطبعه، وفي أي هو في الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، ثم جمعت ما له من الأسماء الشاذة وغير الشاذة على حسب الألسنة، منها سريانية ومنها فارسية ومنها يونانية ومنها عربية ومنها أعجمية رومية ومنها أعجمية عامية».

ولأهمية مقدمة الكتاب المستعيني لابد هنا من الإشارة إليها بالتفصيل. تنقسم المقدمة إلى أربعة أجزاء:

أولا ـ القول في تعرّف قوى الأدوية المفردة. وفيه يذكر ابن بكلارش أن الأدوية تعرف من خلال طعمها أو رائحتها أو إبرادها للبدل المعتدل. ثم يذكر أمثلة لأدوية مسخنة ومبردة في الدرجات الأربع.

فمن الأدوية المسخنة في الدرجة الأولى يذكر: الإدخر، والبابونج، وإكليل الملك، والسنا، وغيرها. أما الأدوية المسخنة في الدرجة الثانية فيذكر العسل، والزراوند، والزعفران، والعنبر، والعود، والمسك. أما الأدوية المسخنة في الدرجة الثالثة فيذكر الدارصيني، والزنجبيل، والزوفا، والقرنفل. وفيما يتعلق بالأدوية المسخنة في الدرجة الرابعة يذكر منها الفربيون، والفلفل، والقطران، والخردل.

أما الأدوية المبرّدة في الدرجة الأولى، فيذكر منها الأقاقيا، والأملج، والبلوط، والآس، والورد، والشعير، والهندباء. والأدوية المبردة في الدرجة الثانية، يذكر منها البزرقطونا، ولسان الحمل، والسماق، والعفص، والقثاء، والخيار، والخس. وأمّا الأدوية المبردة في الدرجة الثالثة، فمنها دم الأخوين، والطباشير، والكافور، والصندل، والتمر الهندي، والبقلة. والأدوية المبردة في الدرجة الرابعة، يذكر ابن بكلارش منها الخشخاش الأسود، والأفيون، والحديد، والإثمد، والزئبق.

ثانيا ـ القول في معرفة طبائع المركبات وكيف ينبغي أن تركب وما ينبغي لمن أراد تركيبها أن يقدّم والحاجة إلى تركيبها. ففي هذا الجزء يعرّف ابن بكلارش المرض على أنه تعدّي الأخلاط وخروجها عن الاعتدال بسبب تسلط أحد العناصر وهي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة على بقية العناصر الأخرى وحسب الدرجات الأربع. ثم يقدم تعريف اعتدال الأدوية المركبة، ثم قواعد تركيبها، ثم كيفية تعرف درجة دواء مركب من بعض الأدوية المفردة المختلطة الطباع. وفي هذا الفصل أيضا يعطي ابن بكلارش تعليمات لتعديل المفعول الضار لبعض الأدوية أو لإصلاح طعمها الكريه أو لمنع القيء أو لإطالة أفعالها أو تأخيرها.

ثالثا ـ القول في الأدوية المسهلة على رأي جالينوس. ويذكر ابن بكلارش في هذا الجزء كيفية إخراج الأخلاط المختلفة بواسطة خواص بعض الأدوية أو أثرها، ثم استحالة الأخلاط في الجسم وعلاقاتها بالقوى الأربع: الجاذبة، والحاصرة، والهاضمة، والدافعة. ثم يتحدث عن موضوع فصد الدم وأخطاره، ثم كيفية إعطاء المسهّلات وقواعده حسب الفصول وتأثير العمل والحركة فيه والوقت المناسب لإعطائها وعلاقة ذلك بالطعام والنوم. ثم يذكر بعد ذلك الأطعمة التي يجب أخذها أو تجنّبها قبل إعطاء المسهلات وفي أثنائه وبعده وعلاج الحوادث المختلفة.

رابعا ـ القول في العلة التي دعت الأوائل إلى إبدال العقاقير، وكيف بلغوا إلى معرفة ذلك. في هذا الجزء يذكر المؤلف الفرق بين الطبائع وخواص الجواهر في دواء ما، ثم يضع قواعد الإبدال.

بعد ذلك يصنف ابن بكلارش الأدوية حسب أفعالها:

ـ أدوية جاذبة مثل: شقائق النعمان، وشجرة مريم، والزبل، والزفت، والحلتيت، والسكبينج، وأصل النرجس، وعلك الأنباط.

ـ أدوية قابضة مثل: الزيتون البري، والإذخر، والكمثرى، والكرفس، والصبر، وعجم الزبيب، والخشخاش، والزعفران، والحبة الخضراء، والبنج، والتمر، والدم الجامد، ومح البيض المشوي، والسعدي، والبلوط، والقمح المحرق، والعوسج.

ـ أدوية معفّنة مثل: الزرنيخ، والتنكار، وثمر الأرز، والحرّيق.

ـ أدوية تنقص زيادة اللحم مثل: أصل الحنظل، وأصل اللقاح الرطب، وقثّاء الحمار، ورماد الحلزون، وقشور النحاس، والزنجار، والتنكار.

ـ أدوية تدمّل وتختم الجراحات مثل: النحاس المحروق المغسول، والعفص، وقشور الرمان اليابسة، وخبث الرصاص، والمرداسنج، والرصاص المحرق، والإثمد المحرق، واسفيذاج الرصاص، والتنكار، والقلقطار المحرق، وقشور النحاس، وقشور الحديد، والزنجار، والنورة المحرقة.

ـ أدوية مقرّحة لظاهر البدن مثل: أصل السلق، والثوم، وحبق الماء، والخردل، والزرنيخ، وزهر النحاس، والكلس، ولحاء أصل الكبر، والشونيز والتافسيا.

ـ أدوية مفتّحة للأورام مثل: شقائق النعمان، والبصل، والثوم، ومرارة البقر، ودهن السوسن، والأقحوان، وبصل النرجس.

ـ أدوية محللة للبدن مثل: البابونج، والزيت العتيق، والخطمي، والقسط، والكندر، وأصل الحنظل، والبورق، والشيح الأرميني، والملوخية، والبزر قطونا، ولحاء الصنوبر، وعدس الماء.

ـ أدوية منضجة للمدّة (أي للقيح) مثل: الماء الفاتر، والزيت الممزوج بالماء الفاتر، وخبز الحنطة، والنشا، وشحم الخنزير، وشحم العجل، والسمن، والكندر، والزفت الرطب، والسمسم والكرنب.

ـ أدوية مليّنة مثل: شحم العنز، وشحم الإوزّ، وشحم الدجاج، وشحم الثيران، وشحم الجواميس، وشحم الأيّل، والوشّق، والميعة، والقنّة، والمقل، ودهن قثّاء الحمار، وأصل الحنظل، ودهن السوسن، وورق الخطمي، والمصطكي، وعلك الأنباط، وشقائق النعمان، والجاوشير، والسمن، والزبد، والزوفا.

ـ أدوية منقّية لسطح البدن ومفتّحة وغسّالة لوسخ الجراح ووسخ البدن كله مثل: الكرسنّة، والشعير، والباقلاّء، والترمس، واللوز، وشقائق النعمان، وورق لسان الحمل اليابس، والزراوندين، وحبّ الرأس، وأصل الأقاقيا، وبزر السرمق، وعصارة الأفسنتين، والخربق الأبيض، والخربق الأسود، والحصرم، والخردل، وعلك الأنباط.

ـ أدوية تولد المني وتهيج شهوة الجماع والباه مثل: الحمّص والباقلاّء، والصنوبر، والتين، والجرجير، والهليون، وخصى الثعلب، والخلنجان، وألسنة العصافير، والشقاقل، والزنجبيل.

ـ أدوية قطّاعة للمني مثل: الخيار، والقثّاء، والبقلة اليمانيّة، والبقلة الحمقاء، والسرمق، والقرع، والبطيخ ولا سيما الفلسطيني، والتوت، والكبر، والجمّار، والسذاب، والفلفل، والفنجنكشت.

ـ أدوية تسوّد الشعر مثل: اللاذن، والمرّ، وعصارة الآس، والجعدة الجبليّة، ودهن القسط، والكرنب، والزوفا الرطبة، وسحالة النحاس، وسحالة الحديد، وشقائق النعمان، وقشور البقلاّء الأخضر المعفّن في الزبل، والأقاقيا، وقشور الجوز الأخضر المعفّن في الزبل، والعفص المدبّر بالأدوية أيضاً، والحلقوص.

ـ أدوية منبتة لشعر الحاجبين ومسوّدة له مثل: الصمغ، والأقاقيا، والعفص، والسمّاق، وماء طبيخ الحنّاء، وحبّ الآس، وورق الكرم، والتوت، وورق التين، ولحاء شجرة البلّوط، وقشر الجوز الأعلى، وشقائق النعمان.

- أدوية محمّرة للشعر مثل: الكلس، والزرنيخ، والأرنب البحري إذا جفف وسحق وتضمد به، ولبن الكلبة أول ما تنتج، وقشور الباقلاّء، والقطران، والزيت العتيق، وصمغ الكرم، والبورق، والقيشور.

- أدوية لطيفة في مزاجها مثل: الشيح الأرمني المحرق، وفقّاح الإذخر، والوجّ، والحماما، وأصل السوس، والزراوندين، ولسان الحمل، واللوف، والأسارون، والفوذنج الجبلي، والزيت العتيق، والعفص، والفربيون، والخمير، والحلتيت، وعلك الأنباط، والفوذنج البرّي، والفوذنج النهري، وقصب الذريرة، والفراسيون، والسليخة، والجاورس، والقطران، والقسط.

- أدوية غليظة في مزاجها مثل: أصل لسان الحمل، والجلّنار، وعجم الزبيب، والراسن، والقثّاء، والخيار، والبلّوط، واللفت.

- أدوية ملطفة مدفّنة مثل: الثوم، والبصل، والحرف، والخردل، والفلفل، والعاقرقرحا، والفودنجات، والجرجير، والمقدونس، والكرفس الجبلي، والكرفس البستاني، والبادروج، والفجل، والكرنب، والسلق، والرازيانج، والكرويا، والسذاب، وبزر السذاب، والشبّث، والكمّون، والمصطكي، والحبّة الخضراء، والدوقو، والأنيسون، والخردل البري، والدار فلفل، والفلفل الأبيض، والقاقلة، والكبابة.

بعد المقدمة نجد في كل صفحة جدولا يحتوي على ستة أدوية مفردة، والنص العربي ينقسم إلى خمسة أعمدة: العمود الأول يحتوي أسماء الأدوية المفردة، والعمود الثاني يحتوي الطباع والدرج، والعمود الثالث يضم تفسيرها في اختلاف اللغات، والعمود الرابع الأبدال منها، والعمود الخامس منافعها وخواصها ووجوه استعمالها.

تتركز أهمية الكتاب المستعيني في جانبين: الجانب العلمي والجانب اللغوي. فمن الناحية العلمية يعتبر هذا الكتاب هاما جدا لأن المؤلف يقدم فيه معلومات عن العديد من الأدوية المفردة. أما من الناحية اللغوية فإنه يجمع مترادفات أسماء الأدوية المفردة في بعض اللغات الأجنبية أكثر من أي كتاب عربي آخر، وهذا يفيد في دراسة أصل اللغة الإسبانية. لذلك فإن بعض الدارسين للغة الإسبانية قد استفادوا من الكتاب المستعيني كمصدر لدراساتهم اللغوية ومنهم مثلا المستشرق الإسباني سيمونيت Simonit حيث استخرج الألفاظ العربية والمعربة الموجودة في كتاب المستعيني. وفي سنة 1930 نشر المستشرق الفرنسي رينو Renaud أول دراساته الثلاث في تاريخ الطب العربي في الغرب، وقد خصصها لدراسة المستعيني لابن بكلارش، حيث قدم فيها وصفا وتحليلا عاما لهذا الكتاب حسب مخطوطة الرباط، فقد قدم أسماء بعض الأدوية المفردة ومترادفاتها باللغة البربرية. وفي سنة 1968 نشر مارتين ليفي وصفوت سوريال ترجمة إنكليزية لمقدمة الكتاب المستعيني.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، تح. نزار رضا، بيروت، مكتبة دار الحياة، 501؛ ● الخطابي، محمد العربي. الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، بيروت،

1988، دار الغرب الإسلامي، 1/ 22؛ ● السامرائي، مختصر تاريخ الطب العربي، بيروت 1990، دار النضال، 2/ 446؛ ● غارسيا، أمادور ديات، الكتاب المستعيني لابن بكلارش، أول كتاب مجدول في الأدوية المفردة في الأندلس، كتاب أبحاث مؤتمر الطب الإسلامي بالكويت، 1981، 1/ 233 ـ 241؛ ● فهرس المخطوطات المصورة في مكتبة معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، 13 ـ 14.

- Brockelmann, S I/889.

د. عبد الناصر كعدان
طبيب جامعة حلب ـ سوريا

ابن بكير، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن عبد الله

(327هـ/ 938م ـ 388هـ/ 998م)

الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بكير، أبو عبد الله الصيرفي البغدادي، حافظ محدّث، لا نجد في المصادر إلا بعض الأخبار عن روايته للحديث وسردا لمن روى عنهم، قد يكون ولد سنة 327هـ/ 938م حسب ما سمعه الخطيب البغدادي عن ابنه محمد بن الحسين بن بكير [تاريخ بغداد، 8/ 14]، لكنه أضاف أنه توفي وله ثلاث وستون سنة وعلى هذا يكون قد توفي سنة 390هـ، وهو ما يخالف ما جاء في المصادر الأخرى.

أشهر من سمع منهم إسماعيل بن محمد أبو علي الصفار (247هـ/ 861م ـ 341هـ/ 952م)، وهو خاصة نحوي من أصحاب المبرد؛ وسمع كذلك من عدد آخر من الشيوخ وجلهم من المحدثين، منهم أبو عمر السماك، وأحمد بن سليمان النجاد، وحمزة بن محمد الدهقان، وجعفر الخلدي، وأبو سهل بن زياد القطان... وقد حدّث عنه أبو حفص بن شاهين، وعبيد الله الأزهري، وأبو العلاء الواسطي، وأبو القاسم التنوخي... وقد عاصر أبا الحسن الدارقطني (ت 385هـ/ 995م) المقرئ المحدث تلميذ ابن مجاهد، وقد سمع الأزهري أستاذ ابن بكير يقول: إن هذا الحديث أخذه عنه أبو الحسن الدارقطني.

وتشير المصادر إلى قدرته الفائقة في حفظ الحديث وروايته [الذهبي، العبر في خبر من غبر، 3/ 38]. وقد ذكر تلميذه الأزهري أنه كان يطلب منه أن يذكر له ما يريده من الأحاديث فيسرد له إسناده حفظا، كما أنه كان قادرا على سرد متن حديث تذكر به أسانيده.

ولئن اعتبر ثقة، فقد قدح فيه بأنه كان حسب ما قيل يتساهل في الحديث، ولا تذكر له مصنفات ولعله لم يضع منها شيئا.

■ المصادر والمراجع

● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، 8/ 13 - 14؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد 1377هـ/ 1958م، 3/ 1017 - 1018؛ ● م. ن، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد السيد، الكويت 1961، 3/ 38 - 39؛ ● ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، 3/ 128.

د. عبد القادر المهيري
جامعة تونس

■ بكير، عبد الله عوض

(1314هـ / 1896 - 97م - 1399هـ / 1979 م) ■ ■ ■

ولد الشيخ القاضي عبد الله بكير في غيل باوزير بحضرموت، وفي سن مبكرة انتقل الى القارة وهي قرية مجاورة لغيل باوزير، حيث قرأ بها القرآن في كتّاب (زاوية) صغير بالقرية. ثم بدأ دراسته على الشيخ عمر مبارك بادبّاه في قرية أخرى مجاورة لهم هي قرية الصداع، وفيها واظب على القراءة والمطالعة في العلوم الشرعية وخصوصا كتب الفقه. وعندما عاد إلى غيل باوزير وأصبح إماما لمسجد اليافعي أخذ يتردد على الشيخ عمر بن سالم بن يعقوب باوزير للاستزاده من العلوم الدينية وغيرها، وعليه درس الكثير من الفروع الفقهية [الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، 181، من المقابلة الشفهية مع الأستاذ عبد الرحمن بكير].

وعندما رغب التعمق في الدراسة رحل إلى سيئون بحضرموت في أخريات أيام العلاّمة علي بن محمد الحبشي (ت 1333هـ) وأخذ عنه الإجازة العلمية الدينية، ومن ثمّ عاد إلى الإقامة في قريته القارة إماما بمسجد النور ومدرِّسًا للأهالي في حلقات عامة يعقدها في المسجد [الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، 181؛ نفحات من تاريخ غيل باوزير، 182].

التحق بخدمة القضاء الشرعي في الدولة القعيطية بحضرموت سنة 1351هـ، وتقلّب في وظائف عدّة حتّى أصبح رئيس القضاة الشرعيين في سنة 1356هـ، وقد امتازت أيام رئاسته للقضاء الشرعي بعدة إصلاحات هامة قام بها وأعانه على تنفيذها سلطان الدولة القعيطية صالح بن غالب الذي كان شديد الغيرة على الشريعة الإسلامية، حريصا على حمايتها وتثبيت أركانها. ففي عهد رئيس القضاة عبد الله بكير انسع نطاق المحاكم الشرعية وتضاعف نفوذها وسلطانها وأصبحت كل منطقة في السلطنة تختص بمحكمة شرعية وقاض شرعي. وفي عهده استطاع أن يتغلّب على بعض العادات القديمة السيئة كالاحتكام

إلى البشعة (البشعة: قطعة حديدية تُحمى بالنار ويُشَك بها لسان المتهم يزعمون أنها لا تؤذي إلاّ المذنب)، وكذا التخلص من عادة الرفق أو الحرج أي إيقاف المالك بالتهديد عن التصرف في أملاكه حتّى يذعن لمطالب المدّعي، والتصدي لعادة حرمان النساء من بعض أموال التركات، لذلك قال عنه الكثير بأنه رجل دَمِث الأخلاق ونعتوه بقاضي القضاة [الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص 181 ـ 182؛ عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت، ص 68].

وفي عهد الشيخ عبد الله بكير تمّت عدة إصلاحات أخرى لتحسين حالة القضاء والقضاة في الدولة القعيطية؛ فقد بسّطت الاجراءات بصورة تجعل الترافع أمام المحاكم سهلا وميسورًا لكل متقاض لا يجد من يدافع عنه من المحامين الجديرين، كما درّب القضاة الشرعيين نظريًا تحت إشراف فقيه ضليع هو العلامة محسن بن جعفر بونمي (1379هـ/ 1960م)، وعمليا في المحاكم الشرعية تحت إشراف قضاة سبقت لهم الخدمة الطويلة في المجال القضائي، وأرسل بعض القضاة إلى السودان لإكمال تدريبهم في كلية الشريعة بالخرطوم [الفكر والثقافة في تاريخ حضرموت، 180، 183].

وللشيخ عبد الله بكير نشاط واسع في كثير من المجالات الاجتماعية والدينية الرسمية منها وغير الرسمية، فهو عضو في مجلس السلطان وفي مجلس الدولة ولجنة المعارف العليا ولجنة الخيرية، وهو رئيس لجنة الشؤون الدينية وعدّة لجان أخرى [الفكر والثقافة في تاريخ حضرموت، 183؛ من المقابلة الشفهية للأستاذ عبد الرحمن بكير؛ نفحات من تاريخ غيل باوزير، ص 113].

■ آثاره

جميع آثاره ما تزال مخطوطة، منها:

1 ـ أبحاث عديدة في الفقه؛ 2 ـ أبحاث ورسائل في بيع العهدة؛ 3 ـ أبحاث في موضوع ثبوت الهلال؛ 4 ـ رسائل ووصايا في بدع زيارة القبور؛ 5 ـ رسائل ووصايا في حظر ضرب الدفوف في المساجد؛ 6 ـ وصايا في الشؤون القضائية.

■ المصادر والمراجع

● تم الحصول على كثير من المعلومات بواسطة أفراد من سكان منطقة القارة، وهي منطقة صاحب الترجمة، ومن هؤلاء الأفراد أستاذ في جامعة عدن، وتحصلنا على المعلومات من الابن الأكبر لصاحب الترجمة (الأستاذ عبد الرحمن عبد الله بكير)؛ ● سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، مصر 1381هـ/ 1961م، دار الطباعة الحديثة؛ ● السقاف عبد الرحمن بن عبيد الله، معجم بلدان حضرموت المسمى إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، تح. إبراهيم أحمد المقحفي وعبد الرحمن حسن السقاف، الطبعة الأولى، صنعاء، 1423هـ/ 2002م، مكتبة الارشاد؛ ● سامي محمد بن شيخان، نفحات وعبر من تاريخ غيل باوزير، صنعاء، 1999م، دار التيسير.

محمد بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

فهرس محتويات المجلّد الثالث